



الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني

المدير المسؤول
أ.د. عبد الجليل النميمي

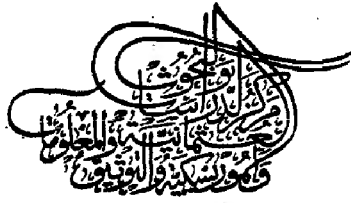
- لا يتحمل مركز الدراسات والبحوث مسؤولية الآراء المعبرة ويترك لكل باحث أحقية ذلك .
[C] حقوق الطبع محفوظة للمركز ويمنع طبع هذا الكتاب أو الاقتباس منه بكل طرق الطبع
والتصوير كما يمنع الترجمة منه الا باذن من المركز .

م.ت.د.ك 6 - 02 - 719 - 9973 I.S.B.N (السفر الاول)

م.ت.د.ك 8 - 01 - 719 - 9973 I.S.B.N (النشرة كاملة)

تم طبع هذا العدد بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم في شهر مارس 1988

تحت عدد 1121 / 87 - الايداع القانوني 1 / 88



الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني

جمع وتقديم
الأستاذ عبد الحليم النيمي

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منشورات، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموسيقى والتوثيق والمعلومات

زغوان ، 1988

منشورات المجلة التاريخية المغربية ومركز الدراسات والبحوث تحت اشراف الاستاذ عبد الجليل التميمي

- المجلة التاريخية المغربية ، صدر منها منذ انشائها (1973) ، 48 عددا .
- د. عبد الجليل التميمي ، بايلك قسطينة والحاج أحمد باي 1830 - 1837 ، 303 ص + 24 رسميا ، تونس ، 1978 .
- د. عبد الجليل التميمي ، موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر ، 116 ص ، تونس 1979
- د. عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر ، تونس وليبيا (1816 - 1871) 208 ص ، الطبعة الثانية تونس ، 1980 .
- دومينيك مونسي ، القنصلية الانكليزية بتطوان أثناء تولي اوتوني هتفيد (1717 - 1728) 112 ص ، تونس ، 1980 .
- د. عبد الجليل التميمي ، وثيقة عن الاملاك المحبسة باسم الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، 92 ص ، تونس 1980 .
- شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر . 118 ص ، تونس 1981 .
- د. عبد الجليل التميمي ، الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب أفريقيا خلال العصر الحديث ، 80 ص ، تونس ، 1981 .
- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 - ج 2 ، 128 ص ، تونس ، 1983 .
- شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر ، ج 2 ، 128 ص ، تونس ، 1983 .
- د. لوي كاردياك ، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، تعريب د. عبد الجليل التميمي ، نقد 196 ص ، تونس ، 1983 .
- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، مع اقامة فهارس لها ، 610 ص ، تونس ، 1984 (القسم العربي) ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان 1984 .
- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني (القسم الفرنسي والانكليزي) 412 ص ، تونس ، 1984 . جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان ، 1984 .
- د. ع. التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي . الطبعة الثانية ، 256 ص . زغوان 1985
- الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، 3 اجزاء ، 970 ص . جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان ، 1986 .
- أعمال مؤتمر اللجنة العالمية للدراسات العثمانية المنعقد بكامبريدج سنة 1984 ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، 183 ص ، زغوان ، 1987 .
- د. ص. بوبكر ، اباله تونس في القرن السابع عشر وعلاقاتها الاقتصادية مع موانئ البحر الابيض المتوسط : مرسيليا وليفدوسة (بالفرنسية) زغوان . 1988 .
- الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني 3 اجزاء ، 1150 ص ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، تونس ، 1988 .
- المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات ، العدد 6 .

تحت الطبع

- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، وثائق المغاربة من سجلات المحاكم الشرعية المصرية ابان العصر العثماني ، الجزء الاول .
- المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد الاول .
- أعمال مؤتمر تطبيق الموريسكيين للشعائر الاسلامية خلال القرن 16 وحتى الطرد النهائي سنة 1609
- المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات ، العدد السادس .
- لوت لوبازبارلد ، صورة الاسلام في الادب الاسباني من خوان رويز الى خوان قوانينصلا تعريب د. نجيب بن جميع .
- د. شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر ج 3 .
- لوت لوبار بارولد ، صورة الاسلام في الادب الاسباني من خوان رويز الى خواو قوانينصلا .

الصفحة

- 7 تقديم د. عبد الجليل التميمي
- 9 كلمة الاستاذ عبد الجليل التميمي في افتتاح المؤتمر
- 11 كلمة سعادة السفير اسماعيل صويصال
- 13 كلمة الاستاذ البشير بن سلامة
- 16 كلمة السيد الباجي قايد السبسي
- 21 د. عبد الفتاح ابو عليّة . - جوانب من الحياة الاجتماعية في منطقة الحسا في ظل العثماني
- 43 - درباح أبي حيدر . - سببية الهجرة الاسلامية من جبل لبنان باتجاه ولاية الشام في القرن التاسع عشر
- 59 - د. اكمل الدين احسان اوغلو . - الصور الفوتوغرافية كمصدر لدراسة تاريخ القرن التاسع عشر من خلال ارشيف مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول
- 65 - د. محمد عبد الله آل زلفة . - اصلاحات حسيب باشا في ولاية الحجاز 1848 - 1849 كما جاء في الوثائق العثمانية
- 98 - د. المازري بديرة . - حياة اللهو وخدمات الخمارات والمقاهي والفنادق في الجزائر في اوائل القرن الثامن عشر
- 98 - د. محمد عبد الرحمن برج . - الوضع الاجتماعي لتجار جدة في القرن الثامن عشر
- 103 - د. علي بركات . - دفاتر تسجيل الاراضي الزراعية . دراسة في مصادر تاريخ مصر
- 121 - د. عبد الوهاب بكر . - العلاقات الاجتماعية في مصر العثمانية : دراسة لوثائق ديوان الروزنامة واحكام المحاكم الشرعية في القرنين السابع عشر والثامن عشر
- 187 - د. عبد اللطيف بن عبد الله بن دهبش . - الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة منذ مطلع القرن العشرين وحتى قيام الحرب العالمية الاولى 1900 - 1914
- 199 - د. عبد الجليل التميمي . - من أجل كتابة تاريخ الحياة الاجتماعية «للالقالية الافريقية السوداء» بالبلاد التونسية : مصادر وآفاق
- 213 - د. محمد التونجي . - التفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب
- 229 - د. سيار الجميل . - الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل في العهد الجليل 1726 - 1834
- 281 - د. نزار الحديشي . - مشاكل الدراسات العثمانية في الوطن العربي
- 287 - د. حسن حلاق . - الحياة الاجتماعية في بيروت في القرن التاسع عشر في ضوء سجلات المحكمة الشرعية ببيروت
- 312 - د. عصام كمال خليفة . - مسألة السلطة في حركة كسروان 1858 - 1860 من خلال ارشيف البطريكية المارونية
- 339 - د. ابراهيم الدافوقي . - التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العهد العثماني
- 367 - علي الزواوي . - إلوافدون على مدينة صفاقس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : أصولهم وتوزيعهم داخل المدينة وعلاقتهم الاجتماعية والاقتصادية
- 385 - د. ابو القاسم سعد الله . - مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للكون (القرن II هـ / 17 م)
- 403 - د. رأفت غنيمي الشيخ . - الحياة الاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب العثمانية في العصر العثماني الاخير (1835 - 1911)
- د. ليلى الصباغ . - صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من

- القرن الحادى عشر الهجرى / النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى عبر
 421 مذكرات الفانى دارثيو
- د. مسعود ضاهر . - الحركة السكانية فى المشرق العربى فى أواخر العهد العثمانى :
 461 نموذج الهجرة الى بيروت فى القرن التاسع عشر
- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . - الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة ابان
 477 العصر العثمانى (1517 - 1798) من خلال وثائق المحاكم الشرعية
- د. ابراهيم خليل احمد العلاف . - الحياة الاجتماعية فى ولاية الموصل (1515 - 1918)
 591 د. محمد حسن العيدروس . - الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار
 539 الهنود فى قائمقامية قطر العثمانى
- د. علي فهمي . - الدلالات الاجتماعية لاحكام المحاكم الشرعية فى العهد العثمانى :
 579 دراسة فى المنهج
- د. قاسم عبده قاسم . - السيرة الشعبية - مصدرا لدراسة التاريخ الاجتماعى .
 587 قراءة فى سيرة الظاهر بيبرس
- د. عبد الحكيم القفصى . - نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الاندلسيين والأتراك
 599 بالايالة التونسية اثناء القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية
- د. سامى عبد الحافظ القيسى . - الفرمان السلطانى بتعيين ناظم باشا واليا على بغداد :
 613 دراسة وتحليل فى ضوء وثيقة بريطانية
- د. وجيه كوثرانى . - العلماء وطرق الصوفية والتنظيم الحرفى . مطويات من تاريخ
 619 السلطة والمجتمع فى ولاية سورية
- د. بطرس ليكى . - الهجرة والتغيير فى لبنان فى آخر الحكم العثمانى (1850 - 1914)
 631 د. صلاح احمد هريدى . - الشوام وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة
 الاسكندرية فى العصر العثمانى (1517 - 1798) . دراسة وثائقية فى سجلات
 663 احيكة الشرعية
- د. سيار الجهميل . - طبيعة الحياة الاجتماعية فى المشرق والمغرب العربيين خلال
 683 الفترات العثمانية

تقديم

بين أيدي القاري الكريم أعمال : مؤتمر الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني والذي نظمناه قبل سنتين وضم نخبة فاضلة من المؤرخين والباحثين العرب والأتراك والأجانب .

إن مجمل هاته الدراسات والمناقشات التي توقفتها في تقريرها من اشربة التسجيل وتم نشرها هنا ، تترجم بأمانة ودقة عن المستوى العلمي المرموق الذي تتمتع به الدراسات التاريخية العربية لكل ما يتعلق بالولايات العربية أثناء العهد العثماني والتي تميزت بالرجوع إلى الوثيقة المحلية الأم عربية كانت أو عثمانية ، هذا فضلا عن الوثائق الأجنبية . كما أن المدرسة التاريخية العربية بفضل تنوع نشاطها ولقاءاتها الدورية المنتظمة ومعالجتها لمختلف القضايا والاشكاليات التاريخية ثم الابتعاد عن التنظير الايديولوجي السياسي والتفوق وتبنيها لمنهجية علمية سليمة ، قد ساهمت مساهمة أساسية وفعالية في كتابة تاريخ البلاد العربية أثناء العهد العثماني بحيث لا يمكن اليوم التغافل أو التقليل من شأن هاته الحركة المعرفية المشرقة والطلائعية والتي حققها المؤرخون العرب خلال هاته السنوات الأخيرة .

إن نشر كل أعمال المؤتمرات العالمية التي نظمناها عن الولايات العربية أثناء العهد العثماني تشكل اليوم مراجع أساسيا لا غنى للباحث عنها . ونحن بنشرنا أعمال مؤتمر الحياة الاجتماعية نصيف لبنة جديدة في تعزيز الدراسات التاريخية العربية ، مؤملين أن نوفق في نطاق مركزنا المتخصص والذي أصبح يحظى بثقة واهتمام المؤرخين دون استثناء ، في أخذ العديد من المبادرات الجديدة ، سواء كان ذلك عن طريق النشر الأكاديمي أو تنظيم اللقاءات المتخصصة . ولا شك لدينا اليوم أن المناخ السياسي الجديد لبلادنا سوف يكون له الأثر الحاسم على مستقبل البحث التاريخي ، إيماننا منه بقدرة العاملين الجادين والذين اتخذوا من البحث العلمي شعارا ثابتا يسمو عن الشعارات .

كان الله في عوننا لنجعل من تونس نقطة استقطاب معرفية مثل في خدمة البحث التاريخي العربي ومن الله التوفيق .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

كلمة الاستاذ عبد الجليل التميمي

حضرة الاستاذ البشير بن سلامة ، وزير الشؤون الثقافية

حضرة السيد البشير الحميدي ، والي نابل والحمامات

حضرات السادة العلماء الافاضل ، عمداء ومدراء ورؤساء وأساتذة
المؤسسات الجامعية والبحثية في البلاد العربية وتركيا والدول
الاجنبية

سيداتي سادتي ،

انها لمئة من فضل الله ورعايته بنا أن وفقنا في هذا المسعى الحميد لجمع
شمل الباحثين والمؤرخين العرب والأتراك والأجانب في تونس هاته الارض
الطيبة المطمئنة ، ليتدارسوا معا بمنهجية وبقلب مفتوح وود صادق متجدد
وباحساس تاريخي وحضاري مسؤول ، موضوع : الحياة الاجتماعية للولايات
العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، شأننا في ذلك شأن المؤتمرات
العالمية التي كنا قد نظمناها في تونس خلال السنوات الماضية والتي أثبتنا
تواصلها العلمي وجواها وأهميتها البالغة في تعزيز هذا الحوار التاريخي
الهادف بين العرب بادي الامر ثم بيننا وبين الأتراك وبقيّة الباحثين .

ذلك أن الاشكالية التاريخية التي فرقت في السابق المؤرخين حتى في
البلد الواحد ، وكانت وراء هذه الايديولوجية المتشددة والملتزمة وعاقبت كل
مسعى علمي مشترك بين الجامعات ومراكز البحوث ، فانها لم تعد اليوم
موضوع نقاش وخلاف بيننا . فالمؤتمرات والندوات ونشر نتائج البحوث التي
عملت على توظيف الوثائق العثمانية والعربية والحوار التزيه الذي أقمناه مع
زملائنا الأتراك والفرنسيين والأمريكيين وغيرهم ، قد شجعنا على المضي
قبما لتنويع هذا النشاط وتكثيفه ومنحنا الأمن والثقة في غائية وسمو
المبادرات العلمية التي عملنا على تحقيقها في نطاق اللجنة العربية للدراسات
العثمانية ومركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد
العثماني ، هذا المركز الذي أنشأناه مؤخرا ، وهدفنا من انشائه أن يكون
للباحثين العرب والأجانب ، خير عون لهم لمواكبة المعرفة على المستوى العربي
والدولي ، ثم ابلاغها الى كل المتخصصين دون استثناء ، والعمل على احتضان
وانجاز المشاريع الطلائعية والافكار الجديدة البناءة ونشر وترجمة الدراسات
والوثائق المتعلقة بالولايات العربية وتوفير كل وسائل البحث والاقامة
للباحثين ، ومنحهم مناخا فكريا وحضاريا للعمل الصادق المخلص وهذا ما
يمكن من تجذير الحوار وتعميقه والسمو بالحقيقة فوق كل الاعتبارات القومية
والدينية أو العرقية ، خدمة للمعرفة الشاملة والتفاهم بين الافراد والشعوب.
ولا شك أيضا أن انشاء مؤسسة وقف دراسات العلاقات العربية - التركية
مؤخرا باستانبول والتي يرأسها سعادة السفير اسماعيل صوصيال ،
يترجم عن مدى الأهمية البالغة التي يعلقها الجانب التركي وعلى جميع
المستويات السياسية والجامعية والاقتصادية ، لمستقبل العلاقات العربية
- التركية - والتي سوف نعمل من جانبنا وبالتعاون معها ومع بقيّة
المؤسسات ، وفاء لمميزات تاريخنا وحضارتنا المشتركة .

حضرة السيد الوزير ،

ضيوفنا الكرام ، سيداتي سادتي ،

لا شك ان دراسة المجتمع العربي في العهد العثماني يكتنفه الغموض وهذا نتيجة قلة الدراسات التي تناولت خصائصه وغطت كل مواضيعه . واذا فنحن مدعوون الى صرف الاهتمام لدراسة الاسس الاولى التي انبثت عليها السياسة العثمانية للمجتمع العربي منذ القرن 16 والتي كلفت التركيبة الاجتماعية في المدن والارياف ولدى القبائل ونوعية الحكام والاشراف والنبلاء وتأثير الزواج والطلاق وخصوصا تأثير ظاهرة الزواج من الجوارى على المجتمع العربي المديني ثم الزواج بين الطوائف الدينية المختلفة المحلية والاجنبية وتحركات الشعوب ودراسة ظواهرها من خلال التراث والسير الشعبية ، وحياة الترف واللهو ، ودور المفاهي المتأخرة نسبيا ، ثم تأثير الموسيقى وكذلك تأثير الجوانب الاخلاقية على السلوك العربي ودور المرأة في تربية النشء ، ودراسة معتقدات الناس ومستوى ثقافتهم وتعليمهم ودراسة المنشآت المعمارية والتي اكتسبت طابعا اجتماعيا بحتا .

ان الباحثين والمؤرخين مدعوون الى استنطاق الوثائق وتوظيفها لدراسة كل هذه الظواهر الاساسية للمجتمع العربي ذلك المجتمع الذي بقي موحدا مترابطا طوال العهد العثماني . ولا شك ان انقاء مثل هذه الاضواء سوف تساعدنا حتما على استثناء جوهر الادارة العثمانية في الولايات العربية خلال العصر الحديث .

سيادة الوزير ،

كما يطيب لي أن أنوه هنا بما وجدناه لدى وزارة الشؤون الثقافية تأييد صادق ومن دعم مادي وأدبي كان له الأثر المباشر في تحقيق هذا المؤتمر العالمي ، ولا غرابة في ذلك ، فما تم انجازه من مشاريع ثلاثية قد غيرت طبيعة وجوهر العمل الثقافي ، هذا فضلا عن تأطير وانطلاقة الانجازات التراثية والتي تخدم حضارتنا في تونس والبلاد العربية .

كما يسعدني أن أنوه هنا بما وجدناه لدى السيد البشير الحميدي ، والي نابل والحمات ومن بقية السلط الجهوية من تفهم أخوي واستضافة المؤتمرات والاحتفاء بهم . شكري أيضا الى أخي المنصف الجيناوي ، والي زغوان الذي كان معنا منذ اللحظات الاولى لانشاء المركز وحيث جانا برعايته اعطفه الأخوي .

حضرات السادة ضيوفنا الافاضل ، نحن مدينون لكم بحضوركم بيننا وبقبولكم دعوتنا ومنح ثقتكم لنا ، وتحملكم اتعاب السفر وتشريف تونس ، أرض الحوار والفكر والعمل والكلمة الصادقة المخلصة ، وتأكيدوا أننا معتزون أيما اعتزاز بكم وبعلمكم ، مؤملين أن نكون في مستوى الرسالة التي عاهدناكم على أدائها خدمة للمعرفة العربية المشرفة .

في خاتمة هاته الكلمة أنهي الى سمعكم خبر وفاة صديقنا الراحل د. مروان البحري ، أستاذ التاريخ العربي بالجامعة الامريكية ومدير مركز الدراسات اللبنانية في بريطانيا والذي وافاه أجل قبل عدة أسابيع بلندن أثناءلقاء محاضراته ، ونحن ان ننمى وفاة مؤرخنا العامل الدؤوب والذي ساهم بعلمه وكتاباته العديدة في تعزيز البحث التاريخي العربي ، أطلب منكم أن تقفوا دقيقة صمت ترحما على روحه الطاهرة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
د. عبد الجليل التميمي

كلمة سعادة السفير اسماعيل صوصيال فى الجلسة الافتتاحية

- سيدى الوزير ،

- سيدى الرئيس ،

- سيداتى ساداتى ،

لقد سعدت بالدعوة التى وجهت لى بوصفى مسؤولاً عن مؤسسة الأوقاف للدراسات والعلاقات التركية العربية للمشاركة فى هذا الاجتماع ولأخذ الكلمة اليوم فى هذه الجلسة الافتتاحية . وهنا فانى أشكر صديقى العزيز الدكتور عبد الجليل التميمي المؤرخ اللامع والمنظم الذى لا يتعب .

لقد ناقشنا فى نوفمبر من السنة الفارطة أثناء الاجتماع الاستشارى التركى العربى الذى نظمته مؤسستنا فى استانبول مع الدكتور التميمي و 25 مؤرخاً ورجل اقتصاد وادارى كانوا قد جاؤوا من عدة بلدان عربية ، إمكانية التعاون الفكرى التركى العربى وخصوصاً فى مجال التاريخ . لقد ساهم ذلك الاجتماع فى ربط علاقات متمينة بين جمعيتنا ومركز الدراسات والبحوث الذى أسسه الدكتور التميمي .

ان هدف مؤسستنا هو دراسة العلاقات التركية - العربية فى الماضى والحاضر فى مجالات التاريخ والثقافة والفن والاقتصاد والاجتماع . ومن المؤسف أن وجدت أحكام مسبقة وبعض التأويلات الغالطة التى كانت تذكر عن سوء نية ، عملت على تحريف تاريخ الماضى المشترك منه أكثر من ألف سنة . وفعلاً فانه حسب بعض المؤرخين وبعد أربعة قرون من التعايش السلمى فى العصر العثمانى ، فإن الأتراك قد يكونون اضطهروا العرب وقطعوا صلتهم بالغرب وتسببوا فى تأخرهم الحالى . ومن المؤسف أنه فى بعض البلدان العربية راجت هاته الأفكار وأنها أدرجت حتى فى الكتب المدرسية .

وفى الحقيقة ، فإن الامبراطورية العثمانية كانت تمثل وتدافع عن الحضارة الاسلامية والعالم الاسلامى . ومن الطبيعى أن تحدث طيلة هاته الحقبة الطويلة من التعايش المشترك صراعات بين الأتراك والعرب ، ولكن لا أعتقد أنها كانت أكثر من تلك التى حدثت فيما بين الأتراك أنفسهم أو العرب . وانه بفضل عقلية الوحدة الاسلامية أمكن استتباب السلم واعادة التفاهم بسرعة وبدون آلام كثيرة .

أهلاً عن المزايم المتعلقة بتأخر العرب فقد اعترف أبرز المؤرخين من ذوي الكفاءة بأن الحضارة العربية الاسلامية قد دخلت منذ القرن 11 فى فترة جمود . واذا ما تمكن العرب فى الاندلس أولاً والعثمانيون ثانياً بوصفهم ممثلين لهاته الحضارة من مواصلة مجهودهم فى المجالين الثقافى والعسكرى طيلة 3 و 5 قرون ، فإن ظهور النهضة بأوروبا ، ثم حركة الإصلاح الدينى فى

القرنين 15 و 16 ، قد عملت على ترجيح الكفة لفائدة الغرب وذلك على اثر تقدم العلوم وحرية الفكر عندهم . ولهذا كانت البلدان الاسلامية التابعة للامبراطورية العثمانية أو التي كانت خارجها أقل تقدما في المجالات العلمية والتكنولوجية وحتى في مستوى عيشها وعليه فان الخطأ لا يتحملة أحد .

وحسب رأيي فان المشكل اليوم يتمثل في إيجاد الوسائل لتجاوز هذا التأخير . فلنحاول أولا تخلص تاريخنا المشترك من التأويلات الغالطة والتشويهات لنستفحص معا الأرشيف وإذا ما وجدنا بعض الأمور المزعجة لهذا أو لذلك فاننا نحاول تأويلها ليس حسب الشعور القومي الموجود اليوم ، ولكن باعتبار ظروف ذلك العصر . اني مقتنع شخصا بأننا لا نخشى الحقائق التي قد تكشف عنها الوثائق حول تاريخنا المشترك .

لم يكن العرب محركي هاته الحضارة الاسلامية الكبرى فقط بل كانوا أيضا وراء تطور الحضارة الاسلامية الكبرى بل وكانوا أيضا وراء تطور الحضارة العالمية خاصة حين عرفوا بأفلاطون وأرسطو في الغرب ، وحين توصلوا الى كثير من المكتشفات . ان مدرسة الفلسفة التي اعتمدت على الفكر الحر وتطورت فيما بين القرن 9 و 12 عن طريقة علماء عرب وغيرهم من المسلمين مثل الكندي والفارابي وابن سينا في المشرق وأبي باجة وابن طجيل وابن رشد في الأندلس قد كان لها تأثير كبير في الغرب .

هل من الممكن اليوم تجديد هاته المنجزات ؟ أرى أنه من واجب العرب والأتراك وغيرهم من الامم الاسلامية أن توطد العلاقات الروحية والأخوية التي تربط بينها وتطور مع بقية العالم مناخ التفاهم والاحترام المتبادل والتعاون العلمي والتكنولوجي والثقافي لاني اعتقد أنه بدون تواصل ثقافي لا يمكن أن يحدث تقدم في المجال العلمي والتقني . نحن مجتمعون اليوم هنا في هذا البلد الجميل الذي استطاع أن يجمع بين التقاليد ومتطلبات التحديث . نحن فخورون بأنه توجد على بعد 150 كلم من هنا مدينة القيروان التي كانت في العصر الوسيط مركز الثقافة وحرية الفكر ونقطة اشعاع ثقافي شاسع بين المغرب والمشرق . ومن جهة أخرى فان الاجتماع الذي ينظم في بلد واحد كبار رجال الدولة والمصلحين قد زاد كثيرا من قيمته بالنسبة لنا .

نحن نعلم أن هذا البلد مسالم ومعروف بتسامحه وبحرية الفكر فيه . ونحن سعداء بذلك .

أيها السادة والسيدات ، أحييكم من أعماق قلبي .

شكرا سيدي الرئيس .

سعادة السفير اسماعيل صوصيال

كلمة الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية

حضرة السيد الوالي

حضرة السيد الكاتب العام للجنة التنسيق الحزبي

أصحاب السعادة حضرات الاساتذة والمديرين الاجلاء

أيها السيدات والسادة

انها لفرصة ثمينة تتاح لي اليوم للالتقاء نخبة متميزة من العلماء والباحثين، رؤساء وعمداء ومعلماء وأساتذة عدد من مراكز البحوث والجامعات العربية والتركية والاجنبية ، هاته النخبة التي آلت على نفسها ومنذ سنوات العمل على كتابة تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني والاستفادة من كنوز الوثائق والمخطوطات العثمانية والعربية والاجنبية والتي تعد بالملايين .

ولقد أتيت لي أثناء زيارتي الرسمية لتركيا منذ سنتين فرصة الاطلاع على دور أرشيفات ومكتبات أنقرة وإستانبول ، وقد تبين لي يومها مدى أهميتها البالغة بالنسبة لتاريخ الولايات العربي في العهد العثماني . وعليه فإن توطئه تلك الوثائق والمخطوطات كتابة تاريخية علمية، يبقى هو الهدف الاساسي الذي تروم تحقيقه من خلال المؤسسات البحثية في البلاد العربية وتركيا وغيرها من مراكز البحث والتي تشترك في الاهتمام بتاريخ البلاد العربية في العصر الحديث .

واننا لنشهد منذ عدة سنوات نشاطا ملحوظا لدى المؤسسات العربية والتركية حيث تعددت قنوات الحوار بين المؤرخين والباحثين العرب والأتراك من جهة وبينهم وبين غيرهم من المؤرخين الاجانب ، وقد توج ذلك بظهور تيار فكري عربي وتركى جديد اتسم بالموضوعية والنزاهة والعمل على اقامة وتعزيز جسور التعاون بين الشعبين ، خلية لتاريخنا المشترك . ولا شك أن انشاء اللجنة العربية للدراسات العثمانية وتنظيم عدد من المؤتمرات العالمية عن الدولة العثمانية بتونس مع انشاء مؤسسة وقف دراسات العلاقات العربية التركية مؤخرا بإستانبول والتي يرأسها سعادة السفير اسماعيل صوصيال، ثم ظهور عدد من مراكز البحث في صلب الجامعات العربية والتركية ، ثم اهتمام اتحاد المؤرخين العرب بموضوع كتابة تاريخ البلاد العربية في العهد الحديث ، كل هذه الفعاليات ترجمت عن الاهتمام الجديد الذي يوليه الباحثون العرب والأتراك على حد سواء لكتابة موضوعية ومنصفة نحن اليوم في أشد الحاجة اليها .

حضرات الاساتذة وأصحاب السعادة

ان مثل هذه اللقاءات العلمية لتبادل الخبرات والاجتهادات والآراء، ومناقشة المشاريع العلمية ودراساتها لكتابة تاريخ البلاد العربية ، يعد أفضل السبل وأبقاها لتعميق الحوار واثرائه لما فيه خير الشعب العربي والتركي ووفاء منا لخصائضنا المتميزة والتي كيفت البنية الاجتماعية والسياسية لاجتماعتنا

وشعوبنا . ومما لا شك فيه أن مبادرة الاستاذ عبد الجليل التميمي بتنشيط التبادل المعرفي بين الباحثين ، سيكون له الاثر الطيب على غائبة تلك الدراسات في المستقبل القريب . وما اجتماع هذه النخبة الفاضلة من الباحثين والمؤرخين الا دليل جديد على ما توليه في تونس من قيمة مطلقة للبحث العلمي وللحوار الحضارى والامن الثقافى .

فالثقافة ، حضرات السيدات والسادة ، فى منهجيتها العلمية ، هى التى تنطلق من معطيات الواقع ، ماضيا وحاضرا ، لضبط المرتكزات العلمية على صعيد التطبيق قصد نحت مجتمع المستقبل . ولعل من أهم ثوابت هذه المرتكزات اطلاقا - وفى هذا الاطار يتنزل ملتقانا اليوم - أن الثقافة هى عامل من عوامل اثبات الذات وتحذير الشخصية . فذاتية المجتمع - أى مجتمع - لا تتحقق الا بتكوين شخصية تتميز فى أصالتها عن الشخصيات الأخرى ولا تكتمل هذه الشخصية الا بترباط حلقات « الانا » الثلاث فى حاضرها المستند من ماضيها - أى تاريخها - المفضي جديدا الى تحديد مستقبلها . وهذا المبدأ لا يعنى الانغلاق على النفس والتعصب للذات الضيقة ، بل هو من صميم الانتماء الموضوعى الفاعل الى الذات الانسانية الشاملة فى تمايز تتلاقح فيه الخصوصيات أخلا وعطاء . فليست « الانا » المتميزة - وخاصة فى عصرنا الحاضر الذى يطلق عليه الباحثون فى مجال الاعلام عصر « القرية الشاملة » لزوال المسافات وانتهاء الحدود بواسطة وسائل الاتصال الحديثة - ليست هذه « الانا » الا متفاعلة بالضرورة مع الذوات الأخرى على أسس التلاقح افادة واستفادة . وهنا يكمن البعد الانسانى للعمل الثقافى .

وفى هذا المنحى اذن ، يتنزل ملتقانا اليوم ، فينضاف لبنة أخرى من لبنات البحث العلمى الهادف والذى تسعون من خلاله لاستقراء مرحلة من مراحل تاريخنا - الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثماني - استقراء موضوعيا يكشف النقاب بالدرس والتمحيص والمقارنة عن هذه الفترة من تاريخنا . وهنا يتجلى بعد آخر من أبعاد سياستنا الثقافية فى تونس ، ويتمثل فى ايماننا الثابت بالبحوث العلمية وعملنا الدائب على تشجيع الباحثين . وما المركز الدولى بالحمامات الا مؤسسة يتجاوز اشعاعها الحدود الضيقة للوطن ليكون منارة ثقافية علميا عالمية يلتقى فيها رجال العلم والفكر من مختلف اصقاع المعمورة بالتباحث وتبادل الآراء والمعلومات الا من صلب هذا الايمان . وهكذا بات المركز مجلسا علميا يضم عديد الباحثين والمفكرين بين أعضاء قارين ومتنسيبين من كثير من بلدان العالم . كذلك بعثنا منذ سنوات مؤسسة علمية كبرى هى المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات - بيت الحكمة - التى تساعد على الخلق الفكرى والفنى وتسعى الى ترويجه وتعمل على تنظيم حركة التعريب والترجمة وتنشيط الدراسات والبحوث قصد التحقيق العلمى للنصوص . كما أن من مهامها أيضا - اضافة الى الحث على الابتكار والخلق - الاسهام فى نشر الاعمال الادبية والفنية والعمل على تدعيم الحوار بين الحضارات .

ولا يسعني فى هذا السياق الا أن أشير كذلك الى مركز الدراسات والبحوث العثمانية والاندرلسية - والموريسكية والذى انشاء ويديره الدكتور عبد الجليل التميمي ، وهو مركز علمي أراد لنفسه التخصص فى البحث

ودراسة هذه الحقبة التاريخية الزاخرة بالمعطيات والحقائق التي ما تزال الى اليوم على الوثائق ، وما التخصص في دراستها والانفراد بالبحث فيها الا من سبيل النهجية العلمية .

تلك هي بعض مرتكزات سياستنا الثقافية اوحى بها إلي ملتقاكم العلمي هذا ، أردنا بسطها على مسامعكم دون الدخول في مختلف هذا الدعائم الثابتة للابعاد الفلسفية والفكرية للسياسة الثقافية في تونس . هذه الدعائم التي تتمثل أساسا في أن الثقافة عنصر من عناصر التنمية الشاملة وذلك بانصهارها كمحرك أساسي في البناء الاقتصادي الشامل بما توفره من مقومات الثقيف والتكوين تجعل الفرد قادرا على تطوير المحيط لادارته واستغلاله لفائدته .

ولن يتحقق ذلك الا بترسيخ مبدأ ديموقراطية العمل الثقافي والامركزية على مستويي الخلق والتلقي . ويتمثل ذلك في تهيئة المناخ اللائم للخلاقين في اطار من التشجيع المادي والمعنوي يطمئن المبدعين ويذكر فيهم جدوة الابتكار وما بعثنا لصندوق التنمية الثقافية الذي يؤازر المفكرين والفنانين في مختلف مجالات الخلق الا من صميم هذا الايمان . كما دأبنا - قصد تحقيق الهدف المنشود - على الاعتناء بايصال ثمرات هذا الانتاج الى المواطن التونسي حيثما كان عبر مختلف جهات البلاد وذلك ببعث دور الثقافة والسينما ودور الشعب والمكتبات في كل منطقة من مناطق الجمهورية . بل لم يتوقف عملنا عند هذا الحد وقد اردفناه باجراء ثوري قد تكون من المنفردين به وهو بعث المجالس الجهوية للثقافة وهي هياكل تهدف من بعثها الى اشعاع الثقافة في كل مكان وتحقيق لا مركزيتها وتكثيف كافة القوى الحية في سبيل تثبيت أركان ديمقراطية الثقافة وشمولييتها . وتعمل هذه الهياكل انطلاقا من استقطاب الطاقات المتواجدة بالجهة على تخطيط العمل الثقافي جهويا وذلك بضبط الحاجيات وتحديد الاولويات التي تتطلبها كل منطقة . وهكذا يتخلص العمل الثقافي من قيوده التقليدية التي ترسخت في الازهان والتي ترى أنه من مسؤوليات وزارة الشؤون الثقافية وحدها باعتبارها سلطة الاشراف . ولعلنا بهذا الاجراء الثوري سندخل منعرجا تكون نتائجه محمودة خصوصا وأن بعث هذه المجالس كان قد سبقه اجراء لا يقل أهمية وهو الاجراء المسمى بقانون ديسمبر 1982 والذي يتحتم على مختلف المؤسسات من وزارات ووكالات عقارية وولايات وبلديات وشركات خاصة بأن تخصص عند بعث كل مشروع الفضاءات الثقافية اللازمة حتى تكون هذه الهياكل وحدات متكاملة متوازنة . تلك هي حضرات الاساتذة والباحثين بسطة سريعة عن توجهنا الثقافي في تونس أمل من خلالها أن أكون بلغتكم بعض ملامحها بما قد يفيد . ولا يسعني في ختام هذه الكلمة الا أن أجدد لكم ترحيبي بكم في بلادكم تونس متمنيا لكم التوفيق في أعمالكم والنجاح في مهامكم . والسلام

كلمة السيد الباجي قائد السبسي وزير الشؤون الخارجية

أصحاب السعادة

السادة أعضاء المؤتمر

صديقي الاستاذ عبد الجليل التميمي

سيداتي ، سادتي

يشرفنا ان نستقبل في تونس ارض الحوار والمحبة والتفاهم مثل هذه النخبة الفاضلة من المؤرخين والباحثين والعلماء من عدد كبير من الدول الصديقة والشقيقة الذين آموها ليتبادلوا الراى فى عدد من المسائل الجوهرية ذات الاهتمام المشترك بين العرب والاتراك بصفة خاصة ، وبينهم وبين بقية الباحثين بصفة عامة .

ولا شك أن الحوار المسؤول بين الباحثين وغير الباحثين على اختلاف وجهات نظرهم وأديانهم وجنسياتهم ، اذا صدقت نيتهم ، يعد أنجع السبل لحسم الخلافات وتقريب الشقة والعمل سويا على بناء جسور التعاون الثقافية منها والاقتصادية والسياسية .

ولقد آمنا نحن فى تونس بميزة الحوار البناء والمسؤول ، واثبتنا ان تونس تعد بحق جسرا للحوار الحضارى والسياسى والاقتصادى بل كذلك بين افريقيا والقارة الاوروبية وبين العرب وأوروبا .

وما مؤتمركم العالمى هذا وحضور هذا الجمع الكبير من الباحثين ليتدارس عدد من المسائل التاريخية المتصلة بخصائص المجتمع العربى فى العهد العثمانى ، الا دليل جديد على استمرارية ونوعية هذه العلاقات العلمية الطيبة ، بل المنازة والتي أصبح يتحلى بها كل من الباحثين العرب والاتراك على حد سواء فضلا عن المناخ السياسى الجديد الذى أصبح يميز العلاقات العربية التركية هذه السنوات الاخيرة .

فالمؤتمرات العالمية التى دأب الاستاذ عبد الجليل التميمي على تنظيمها بتونس عن الولايات العربية والدولة العثمانية ، ثم هذه الدراسات المنهجية الجيدة ، ثم انشاؤه هذا المركز المتخصص وكسبه ثقة الجميع من أجل مزيد من التواصل المعرفى والتعاون العلمى البناء يعد كل ذلك جملة من أنشطة وفعاليات قربت ولا شك الباحثين بعضهم ببعض وعلى الخصوص منهم العرب والاتراك . وهو عمل جدير بكل تقدير وتثويه .

ولا أشك في أن ما دار بينكم من نقاش مفتوح حول مختلف القضايا التاريخية ، وما اظهرتموه من ود صادق ورغبة مخلصه للتعاون وما خططتموه من مشاريع مشتركة بين مؤسسات البحث العربية والتركية والاجنبية سوف يخدم تاريخنا وحضارتنا المشتركة ، فنحن مدعوون مستقبلا سياسيين واقتصاديين ورجال أعمال أن نأخذ بالاعتبار مميزات تاريخنا وحضارتنا وديننا ، بل وجب القول بأننا مدعوون الى تنويع قنوات الاتصال وحث المؤسسات على تبني المزيد من المشاريع المختلفة وانفتاح بعضها على بعض وتشجيع المؤرخين على أن يتحلوا بالامانة العلمية وأن يكونوا أوفياء للحقيقة، ولا يتسنى لهم ذلك الا اذا توفرت لديهم كل مصادر المعرفة وأوعية المعلومات والوثائق التاريخية المختلفة ، وخاصة منها العثمانية . ولا شك أن العلاقات الطيبة التي تربط اليوم البلاد العربية بتركيا سوف تساهم في تبادل كل قنوات المعلومات وأخص بالذكر أرصدة الوثائق العثمانية التي ما زال الباحثون ياملون تمكنهم من الاطلاع عليها وتصويرها خدمة لتاريخنا المشترك . ان المشاريع التي سوف تحققها ، في هذا المضمار ، مؤسسات دراسة العلاقات العربية التركية باستانبول سيكون لها الاثر المحمود على مستقبل التعاون العلمي بين الجامعيين والباحثين من كلا الجانبين .

وفي الختام أدعو لكم بالتوفيق في أعمالكم القيمة وأتمنى لكم اقامة طيبة في تونس .

BUREAU PERMANENT DE RECHERCHES SUR LES PROVINCES ARABES A L'EPOQUE OTTOMANE
 ETUDIERONT LE 2. SYMPTOMES INTER. DE TOUTES OTTOMANES SUR
 LA VIE SOCIALE DES PROVINCES ARABES
 ET LEURS SOURCES DOCUMENTAIRES A L'EPOQUE OTTOMANE

Documentaire n° 29 4633 4042

الولايات العربية في العهد العثماني
 في الدراسات الثمانية حول
 الاقتصاد والثقافة في العهد العثماني
 1986





رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

جوانب من الحياة الاجتماعية فى سنجد الحسا فى ظل الحكم العثمانى الثامن

د. عبد الفتاح أبو على

من المدرك بدهى أنه من الصعب على الباحث أن يدرس الحياة الاجتماعية برمتها لمجتمع ما أو لجماعة سكانية تعيش فى منطقة ما فى بحث معين ومحدود ، وبناء عليه فقد ركزت فى بحثى هذا على جوانب معينة من الحياة الاجتماعية لمجتمع سنجد الحسا فى ظل الحكم العثمانى الثامن فيه من خلال الوثائق التركية من جهة ومن خلال المصادر الأولية الأخرى من جهة ثانية .

ومن المدرك بدهى أيضا أن هناك أمر يؤثر أو ما يسمى بالعامل المؤثر وأمر متأثر أو ما يسمى بالجانب المتأثر بالعامل المؤثر . وكلما كان العامل المؤثر قويا وضاعطا على الجانب المتأثر به كانت حصيلة النتائج كبيرة لأنها حصيلة تراكم . ومن هنا لا بد من إبراز مدى الارتباط بين العامل المؤثر وبين الجانب المتأثر به . ولا بد من إبراز مدى قوة الجذب والشد بين القطبين المؤثر والمتأثر من خلال الحياة الاجتماعية لمجتمع الحسا فى ظل السيادة العثمانية فيه .

وتبرز هنا قضية مهمة وهى ناتجة عن الارتباط الوثيق القائم بين العاملين المؤثر والمتأثر به وهى مدى التلاحم بين مجموعة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والعلمية . ومن خلال هذا كله لا بد وأن يحدث تداخل على الرغم من تركيزنا على الجانب الاجتماعى ، وذلك لعمق الصلة بينة وبين الجوانب الأخرى المتشابكة فى الموضوع .

وتجدر الإشارة هنا الى أن الحياة الاجتماعية لمجتمع ما تظل على وتيرة معينة ونمط معين قل أن يتغير ويتبدل فى فترة زمنية محدودة وبشكل سهل لأن العادات والتقاليد الموروثة والمتوارثة لا يمكن تغييرها أو استبدالها فى مدة قصيرة مهما كان التأثير القائم قويا وضاعطا بخاصة فى المجتمعات القبلية أو شبه القبلية فى المجتمعات الحضرية التى تعتمد على الأصول القبلية أو على أسس فكرية وثقافية قوية ومترابطة .

وبناء على هذا كله فإن الحياة الاجتماعية لمجتمع سنجد الحسا تمتد بجذورها الى عهود أسبق وأقدم من العهد العثمانى فى المنطقة . ومن هنا فإن العوامل المؤثرة فى هذا الجانب هى عوامل متعددة ومتنوعة ومختلفة الى حد ما وأحيانا الى حد كبير . ومن هنا يختلف مدى عمق العامل المؤثر على العامل المتأثر به بخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الفترات الزمنية المصاحبة للحدث .

ينقسم الحكم العثماني في سنجد الحسا إلى فترتين تاريخيتين : الأولى وكانت منذ دخول العثمانيين منطقة القطيف عام 957 هـ / 1550 م. (I) الجزء الشمالي من السنجد وامتدادهم في منطقة الهفوف عام 963 هـ / 1555 م. (2) الجزء الجنوبي منه حتى خروجهم من السنجد عام 1080 هـ / 1669 م. (3) على يد آل حميد من بني خالد الذين استولوا على السلطة وطرّدوا الولاة العثمانيين من السنجد . والثانية فكانت منذ عام 1288 هـ / 1871 م. (4) عندما استعادت حملة مدحت باشا منطقة الحسا من الدولة السعودية الثانية ، وظل العثمانيون فيها حتى استردها عبد العزيز آل سعود عام 1331 هـ / 1913 م. (5) ، وتمكن من إجلاء النفوذ العثماني نهائياً عنها . وجدير بالتنبيه أن الحكم العثماني الثاني للحسا هو أالصق وأهم بالنسبة للدراسات الاجتماعية مما هو عليه في الحكم العثماني الأول فيه لأن الحكم العثماني الأول للحسا ركز على مقارعة القوى النصرانية الخارجية كالبيرتغاليين وغيرهم . وكان هذا الجهد الإسلامي يلقي دعماً قوياً من السكان في السنجد لأنه يمثل جهاداً ضد القوى الاستعمارية النصرانية ، وكانت الدعوات الدينية تلقي تأييداً قوياً وقتذاك . فبياد الوثام جو العلاقة القائمة بين العثمانيين وبين مجتمع الحسا إلى حد ما بخاصة في زمن أصبحت فيه الدولة العثمانية الإسلامية حامية للمسلمين ومدافعة عنهم ضد القوى النصرانية التي تعتدى على بلادهم وسواحلهم ، أما في العهد العثماني الثاني فأصبحت علاقة العثمانيين بمجتمع الحسا أالصق وصارت علاقات الاحتكاك بينهم أعمق . وأصبح النمو السياسي للقوى المحلية أقدر مما كان عليه الحال من قبل ، ووصل نموها السياسي إلى مرحلة بشكل تسمح لها أن تبحث عن استقلاليتها . وأصبحت التطورات السياسية في المنطقة تؤثر إلى حد كبير على العلاقة القائمة بين السكان في المنطقة وبين العثمانيين .

واستناداً إلى التنظيمات الإدارية العثمانية في الجزيرة العربية فإن التحديد الإداري والجغرافي لسنجد الحسا يشتمل على الأرض الممتدة من حدود متصرفية الكريت شمالاً حتى شبه جزيرة قطر وصحراء الجافورة جنوباً . ومن مياه الخليج

(1) الحنبلي ، الشيخ عبد القادر الجزيري ، درر القوائد المنظمة ، مخطوط ، نسخة دار الكتب المصرية ، تاريخ تيمور 926 ، ص 312 .

(2) الاحصائي ، محمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر ، تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ، القسم الأول ، ط 1 ، ص 121-122 (بدون) .

(3) الفاخرى ، محمد بن عمر ، الأخبار النجدية ، مخطوط ، حوادث سنة 1080 هـ ، حقق المخطوط وعلق عليه الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، وطبع بمطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(4) منشور مدحت باشا على أهالي الأحساء ، مؤرخ في 18 رجب 1288 هـ .

(5) الزركلي ، خير الدين ، الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، ص : 56 دار العلم للملايين ، بيروت (بدون) .

شرقا حتى الصمّان غربا (6). وهي المنطقة التي تشتمل إداريا على منطقة الحط التي كانت قبل العهد العثماني تشمل كلا من واحة هجر وواحة القطيف (7).

وعليه فإن سنجق الحسا يعد من المناطق ذات الصلة الاستراتيجية المهمة بالنسبة للدولة العثمانية من جهة وبالنسبة لأهاليه من جهة ثانية. وتكمن فائدته الاستراتيجية بالنسبة للدولة العثمانية في كونه يساعدها في تثبيت سيادتها في السواحل الشرقية للجزيرة العربية. وقد عبر المسؤولون العثمانيون العاملون في المنطقة عن أهمية السنجق بالنسبة للدولة العثمانية في كثير من الرسائل التي كانوا يوجهونها إلى رؤسائهم في استانبول. فيقولون: «إن الحسا ذات موقع مهم، وتقتضى إدارتها من الوجهتين السياسية والإدارية حنكة. ولهذا لا بد أن تتوافر في المتصرف الذي يعين عليها شروط من أهمها: الحنكة واللباقة والقدرة على تصريف الأمور (8). ويقولون أيضا: «إن سنجق الحسا له أهميته وخطورته بالنسبة لموقعه وخصوبة أرضه» (9).

ومما يقوى هذا الاتجاه بالنسبة لوجهة النظر العثمانية في موقع سنجق الحسا كونه مهم وحيوي بالنسبة لولاية البصرة العثمانية. فهو ضروري لحماية الوجود العثماني في مناطق جنوب العراق. كما أن ولاية البصرة تعد مركزا رئيسا في دعم نفوذ الدولة في هذا السنجق وفي الحفاظ على تبعيته لها.

وتبرز هنا نظرية استراتيجية مهمة بالنسبة للاستراتيجية العثمانية في الجزيرة العربية وهي نظرية توازن الأجنحة بالنسبة للوجود العثماني والسيادة العثمانية في سواحل الجزيرة العربية: الغربية والشرقية والجنوبية. فتظل ولاية البصرة تشكل أهمية قصوى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة في الساحل الشرقي للجزيرة العربية، كما هو الحال بالنسبة لولاية مصر فهي تشكل أهمية قصوى بالنسبة لنظرية توازن الأجنحة في السواحل الغربية للجزيرة

(6) لمزيد من التفاصيل عن حدود سنجق الحسا ومناطقه أرجع إلى: لوزيمر، ج، ج، دليل الخليج، القسم الجغرافي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، ص 838، مطابع علي بن علي بالدوحة، قطر (بلون).
(7) أنظر: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الرحمن ابن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ص 160، مطبوعات دار الملك عبد العزيز بالرياض (بلون).

- أن واحة هجر هي واحة الهفوف وتعني مدينة الهفوف والبلدان والقرى المحيطة بها.
(8) أنظر: وثائق أوراق الباب العالي، الوثيقة التركية، هيئة المأمورين المدنيين، عدد 293، بخصوص تعيين متصرف على الحسا، مؤرخة في 11 رمضان 1322 هـ / 2 تشرين الثاني 1320 رومي.

(9) أوراق الباب العالي، الوثيقة التركية، رسالة صادرة عن يلدر سرأي همايون، باش كتاب دائرة سي، رقم 1881، مؤرخة في 8 ربيع الأول 1320 هـ / 1 حزيران 1318 رومي موقعة من قبل تحسين كاتب السلطان.

العربية ، وكما هو الحال بالنسبة لليمن فهي تشكل أهمية كبرى بالنسبة لنظرية توازن الاجنحة في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية .

ويشكل سنجق الحسا مستطيلا جغرافيا يصل طوله على ساحل الخليج في حدود (500) كم . ويصل عمقه من الشرق الى الغرب في حدود (60) كم . ويتميز سطحه بالانبساط الذي يغلب عليه الانخفاض التدريجي باتجاه مجموعة من الهضاب الداخلية . ولهذا فان السنجق يحتوى على عدد من السبخات المالحة وعلى عدد آخر من التلال الصخرية (IO) . وقد أثر هذا كله على عملية التوزيع السكاني في السنجق من جهة وعلى الوظائف الاقتصادية للسكان من جهة ثانية .

البوتقة الاجتماعية في السنجق :

يتركز أهالي السنجق في المناطق الساحلية منه وفي المناطق الداخلية القريبة نسبيا من الساحل بخاصة في واحتيه (II) . ويأخذ التجمع السكاني في التبعض والانفراط في باقى مناطق السنجق فيزداد نسبيا عند الآبار وعلى حافة الصحراء في المناطق التى تتوافر فيها مياه الشرب والكلأ وفي مناطق التلال الزراعية .

وبناء على البنية الجغرافية للسنجق فان عدد سكانه لا بد وأن يكون قليلا اذا ما وزع على مساحة السنجق الكلية . ونجد تجمعا سكانيا مركزا في منطقة ما ، بينما نجد مناطق خلت من السكان ومناطق أخرى كادت تخلو منهم . كما أن تمرکز السكان في الساحل كون لديهم وظائف اقتصادية تختلف عن الوظيفة الاقتصادية للسكان الذين تجمعوا في الواحات الزراعية . ومن خلال هذا كله فقد تركزت الوظائف الاقتصادية لسكان الساحل على التجارة وصيد الأسماك واللؤلؤ . وتركزت الوظائف الاقتصادية لسكان الواحات والتلال على الزراعة . وتركزت الوظائف الاقتصادية للسكان المتنقلين في المناطق الرعى وتربية المواشى والابل .

واستنادا على ما سبق ذكره فان سكان سنجق الحسا انقسموا الى مجموعة مقيمة ومستقرة في الساحل والواحات وبعض المناطق الأخرى سميت بالجماعة المتحضرة . ومجموعة غير مستقرة ومتنقلة سميت بالبادية . ومجموعة أخرى

(10) الشريف ، عبد الرحمن صادق (دكتور) ، جغرافية المملكة العربية السعودية ، الجزء الأول ، ص 46 ، دار المريخ للنشر بالرياض ، طبعة 1403 هـ / 1982 م .

(11) يحوى السنجق كلا من واحة الهفوف وتبلغ في امتدادها الطولي مسافة 20-30 ميلا وفي امتدادها العرضي في حدود 12 ميلا . وواحة القطيف الساحلية وهي ذات طول وعرض أقل من واحة الهفوف . وتحتوي الواحتان على مجموعة من الينابيع والعيون الباردة والحارة المنثارة من شالي السنجق حتى جنوبه ، انظر :

Pelly's Visit to Wahhabee Capital, Centre Arabia, p. 177, Royal Geographical Society, 2 nd Series, vol. 141.

تتردد في انتمائها بين المجموعتين المتحضرة والبادية وهم ما يسمون بأشباه الحضر أو بأشباه المقيمين .

وتتركز البوتقة الاجتماعية الحضرية في الواحيتين : واحة الحسا وواحة القطيف الى جانب عدد من الجزر كجزيرة جنة والمسلمية وتاروت ومناطق الساحل بخاصة في المناطق التي تشتهر بصيد اللؤلؤ والأسماك (I2) .

وتتركز الأصول القبلية في السنجد بين أفراد البادية ولا نجد هذا التركيز عند السكان الحضر فيه ، وانما نجدهم يركزون على المذهب الذي ينتمي اليه الفرد . كما أن التمرکز السكاني في السنجد تركز في الاساس على أتباع المذهب الواحد . فنرى أن أتباع المذهب السني يتجمعون في مراكز سكنية وقرى زراعية تكاد تخلو أحيانا من أتباع المذهب الشيعي ونجد كذلك أتباع المذهب الشيعي يتمركزون في قرى ومراكز سكنية تكاد تخلو من أتباع المذهب السني . وظهر تجمع سكاني في المدن وبعض القري شكل مزيجا من السكان السنة ومن الشيعة كل حسب نسبته . فجاء هذا المزيج أحيانا مناصفة وأحيانا أقل أو أكثر في النسبة لاتباع حد المذهبيين . وقد تم هذا التجمع المزجي نتيجة لتشابك المصالح بين أتباع المذهبيين ونتيجة للظروف العامة التي تسود السنجد ونتيجة لما بين أتباع المذهبيين من رابطة المواطنة ولما لهم من آمال وآلام مشتركة . وعلى الرغم من شدة التقارب والمجاورة بين أصحاب المذهبيين إلا أنه تظل بينهما فروق واضحة . ويطلق على أتباع المذهب الشيعي في السنجد اسم البحرانة لقرابتهم من سكان البحرين قديما . وهم من السكان الأصليين في السنجد (I3) .

أهالي السنجد من الحضر :

أولا : أهالي واحة الحسا :

تشكل واحة الحسا الواحة الرئيسية في السنجد ومركزها مدينة الهفوف وهي قاعدة السنجد بكامله . ومن المعروف أنه لم تكن وقتذاك احصاءات دقيقة لعدد السكان ، وقدّر عدد سكان الواحة من الحضر في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي بحوالى (67,000) نسمة . كانوا موزعين كالآتي :

- (I) في مدينة الهفوف وحدها قدر عددهم : 25,000 نسمة .
- (2) في مدينة المبرز وحدها قدر عددهم : 8,500 نسمة .
- (3) في بلدان الواحة وقراها قدر عددهم : 33,000 نسمة .
- (4) الى جانب فئة قليلة أخرى من الخدم والرقيق .

(12) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ص 822-723 .

Dickson, H.R.P., The Arabs of the Desert, p. 248, London, 1951.

(13)

وقد تركز السكان في الواحة حول الينابيع والعيون المتناثرة ، والواقع أن الحصيلة العددية لهذه التجمعات لم تكن ذات نسبة كبيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن معدل سكان القرية الواحدة من قرى واحة الحسا البالغ عددها في حدود (50) قرية كان في حدود (1000 – 1500) نسمة (14) .

ويشكل السكان في الواحة توزيعاً عائلياً . وقد أقامت العائلات هذه في منازل خاصة بها وقد تجاوزت منازلها في المدن والبلدان والقرى . وجاء التوزيع العائلي في بلدان الواحة وقراها غير مدينتي الهفوف والمبرز كالآتي (15) :

في العيون (2500) عائلة والرقيقة (500) عائلة والطرف (450) عائلة والجشة (400) عائلة والجفر (350) عائلة والعمران الشمالية (350) عائلة والبطالية (325) عائلة والمركز (325) عائلة والقارة (300) عائلة والتميمية (250) عائلة والكلاية (250) عائلة وتويشير (250) عائلة والفضول (250) عائلة والمنيزلة (225) عائلة والدالوة (225) عائلة وبني نعام (200) عائلة وجبيل (200) عائلة والعمران الجنوبية (200) عائلة والشعبة (150) عائلة وجابجلة (150) عائلة وسيارة (150) عائلة والقرين (130) عائلة والمطافى (125) عائلة والقرن (120) عائلة والمقدم (100) عائلة والرميلة (100) عائلة وصاباط (100) عائلة والشقيق (100) عائلة والمزاوى (50) عائلة وطرييل (50) عائلة وأبو ثور (40) عائلة والعقار (40) عائلة وبني نهو (20) عائلة والشهارين (20) عائلة .

ثانياً : أهالي واحة القطيف :

تقع مدينة القطيف في الجزء الشمالى من السنجد وهي المركز الرئيس للواحة وقد تدرت الاحصاءات التقريبية عدد سكان الواحة بـ (26,000) نسمة . وذلك في الربع الاخير من القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى. وكانوا موزعين كالآتي (15) :

في مدينة القطيف	5,000 نسمة
ضواحي مدينة القطيف	5,000 نسمة
قرى القطيف	16,000 نسمة

وقد حوت مدينة القطيف وضواحيها وقراها عدداً من العائلات التي كانت موزعة كالآتي (16) :

في صفوى (350) عائلة وفي قديح (350) عائلة وفي العوامية (300) عائلة وفي ديبية (250) عائلة وفي الجشي (250) عائلة وفي كويكب (250)

(14) لوريير ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ص 1879-1886 .

(15) لوريير ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، الجزء الثاني ، ص ص 1879-1886 .

(16) لوريير ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 1879-1886 .

عائلة وفي أم الحمام (250) عائلة وفي شويكة (200) عائلة وفي جارودية (150) عائلة وفي مياس (150) عائلة وفي خويلدية (150) عائلة وفي حلة محيش (135) عائلة وفي تويي (100) عائلة وفي أم الساهك (60) عائلة وفي الاجام (50) عائلة وفي الملاحة (50) عائلة وفي جوارى (40) عائلة وفي عنك (20) عائلة .

. وقدرت الاحصاءات عدد سكان السنجد من الحضر في حدود 100.000 نسمة وكانت منازل العائلات في كل من واحتي الهفوف والقطيف مبنية من الآجر المجفف في الشمس ومن الطين المزوج بالتين . وكانت المدن والبلدان والقرى محاطة بأسوار، وأن البدو يبنون بيوتهم من الأكواخ خارج أسوار المدن والبلدان والقرى في أوقات الصيف .

أهالي السنجد من البادية :

تعيش في سنجد الحسا مجموعة من القبائل البدوية . وهي تنقسم الى قبائل أصلية في السنجد وقبائل تؤم السنجد في مناسبات معينة لكنها ليست في الأصل من قبائل السنجد .

أما عن القبائل الأساسية في السنجد فهي :

قبيلة العجمان وهي قبيلة تقطن في المنطقة الساحلية من السنجد وتنقل في منطقة واسعة من الجزيرة العربية فتصل في ترحالها وتنقلاتها باتجاه الغرب الى منطقة الحرج ومناطق جنوب الرياض . ويبلغ عددها التقريبي في حدود 35,000 نسمة . وتعد قبيلة العجمان من أقوى القبائل ويشتهر رجالها بحب الغزو والحروب في الصحراء (17) .

قبيلة آل مرة وهي من أبناء عمومة العجمان ويغلب عليها طابع البداوة وهي أكثر من غيرها من البدو بعدا عن الحضارة والتحضر . وتعد واحه يبرين الواقعة على طرف الربع الخالي الموطن الرئيس لاقامتها ويتحول ابنائها في مناطق العقير والجافورة (18) .

قبيلة بني خالد وهي من أكثر قبائل المنطقة عددا وأوسعها ديارا . وعلى الرغم من أن إقامتها الرئيسية في سنجد الحسا إلا أنها تنقل في مناطق واسعة من الجزيرة العربية ، ولها فرع في كل من قطر وعمان وكانت صاحبة سيادة في سنجد الحسا . وهناك عدد من قبيلة بني خالد يقيمون في عدد من الجزر كجدة والمسلمية وتاروت وكذلك في أم الساهك وقصر آل صبيح . ويغلب على بني خالد التحضر أكثر مما هو عند قبيلتي العجمان وآل مرة (19) .

Palgrave, W.G., Narrative of A Year's Journey through Central and Eastern Arabia. (1962-63), vol. 2, pp. 1355-56.

(18) حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص 194 ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، 1352 هـ / 1933 م .

(19) لوريير ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 845 .

قبيلة بني هاجر وهى تقطن فى الجنوب من ديار العجمان . وتصل فى تجوالها وتنقلاتها الى قطر (20) .

أما عن القبائل التى تؤم السنجق فهى :

قبيلة العوازم والرشايدة وهما من قبائل الكويت . وهناك قبائل : السهول ومطير وسبيع وعتيبة وقحطان التى تتردد على سنجق الحسا فى أوقات الصيف ، أى أن زيارتها للسنجق زيارات موسمية . وتقدر الاحصاءات التقريبية عدد سكان البادية الأصليين فى السنجق فى حدود (57,000) نسمة .

وتشكل القبائل هذه فى المواضع التى تتوافر فيها آبار الماء والكلأ فى الصحراء ولهم مضارب مشهورة نذكر على سبيل المثال لا الحصر منها : مضارب غرابى وعقلة وحزم وكنزان وأبى ثنين وأبى الحياة وزغيل وأبى معن وتل المباركية وشاطر بريمان وحودة وآبار منطقة البياض ومنطقة الطلف ومنطقة زور العوضان ومنطقة الحزوم وبر الظهران وبر العقير وبر القارة وغيرها من الآبار المتناثرة فى السنجق (21) .

وبشير مدحت باشا فى مذكراته الى أن سنجق الحسا يقطنه فى حدود 28 قبيلة بدوية تسكن بيوت الشعر وثروتها الابل والماشية . وكانوا يشترون حاجاتهم من أسواق المدن مقايضة ، اذ كانوا يقايضون سلع المدن بالماشية ومنتجاتها عوضا عن النقود (22) .

والواقع فان هذا النوع من التعامل الاقتصادى وتبادله يعطينا دليلا كافيا على أن ثروة البدو فى أساسها ثروة تعتمد على ما لديهم من إبل وماشية . وأن غنى القبيلة يعتمد على ما لديها من إبل وماشية ، إذ أن النقد لا يعد دليلا أو قياسا للغنى فى البادية لانه فى العادة يكون نادرا .

ويصل المجموع العام لعدد السكان فى السنجق حسب التقديرات الاحصائية مشتملا على السكان الحضر ساكنى المدن والبلدان والقرى والسكان البدو ، والسكان أشباه البدو فى حدود 160,000 نسمة موزعين فى مناطق السنجق الساحلية والداخلية .

الذهب وأثره فى البوتقة الاجتماعية فى السنجق :

يعد المذهب المعيار الاجتماعى الأول للبوتقة الاجتماعية التى تقطن السنجق ويركز عليه السكان كثيرا بخاصة فى الحاضرة أكثر من تركيزهم على الأصول

(20) حمزة ، فؤاد ، مرجع سبق ذكره ، ص 200 .

(21) لوريير ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافى ، ج 2 ، ص 840 ، 846 .

(22) مدحت باشا ، مذكرات مدحت باشا ، ط 1 ، تعريب يوسف كمال حتانه ، ص 179 ، مطبعة هندية بمصر (بدون تاريخ للطبع) .

القبلية . أما في البادية فجلهم من مذهب واحد هو مذهب السنة والجماعة . وعليه فان المذهب يشكل نقطة رئيسة في سلم التنظيم الاجتماعي في السنجد . وتختلف نسبة أتباع المذهب الواحد في مناطق السنجد بين السكان الحضريين بقسميهم : المدني والقروي ، اذ أن نسبة عدد السكان السنة في واحة الحسا يصل تقريبا الى (4/7) مجموع السكان العام فيها ، وبذلك تقل نسبة أتباع المذهب الشيعي في الواحة عن نسبة السكان في حدود (1/7) (23) . ويصل عدد الشيعة في حدود (30,000) نسمة من أصل (67,000) نسمة تقريبا .

ونسبة أتباع المذهب الشيعي في واحة القطيف نسبة عالية جدا . ويشكل الشيعة في الواحة الاكثرية الساحقة وتصل نسبتهم الى أكثر من (6/7) المجموع الكلي للسكان في الواحة تقريبا . فالسكان في معظمهم شيعة ، باستثناء بعض السنة الذين يقيمون في بعض القرى الى جانب الشيعة فيها ، وذلك كجماعة بني خالد الذين يقيمون في أم الساهك وبعض بدو بني هاجر والعوازم ، إضافة الى ذلك الجند العثماني وبعض الموظفين الاداريين من السنة . وإلى جانب هذا كله فان هناك مجموعة سكانية تسمى الهولة وهم من السنة ويعملون في الحرف الصناعية اليدوية المحلية في القطيف وقراها (24) . ويصل عدد الشيعة في حدود (24,000) نسمة .

ويمكن تفسير النسبة العالية للسكان الشيعة في واحة القطيف في الدرجة الأولى وفي واحة الهفوف في الدرجة الثانية الى الاتصال والتمزج السكاني بين سكان السنجد وبين سكان المناطق التي يكثر فيها الشيعة كمناطق : جنوبي العراق والبحرين وايران . ونلاحظ أن نسبة الشيعة في واحة القطيف عالية جدا أكثر مما هي عليه في واحة الهفوف لاتصال القطيف المباشر بالمناطق الشيعية أو بالمناطق التي يكثر فيها الشيعة بحكم موقعها الساحلي المطل على الخليج والقريب من هذه المناطق من جهة ، وكونها نقاط عبور شمالية للسنجد من جهة ثانية . وهناك الكثير من العوامل التي تغذي الصلة والاتصال بين هذه الجماعات مثل : التجارة ومرور قوافل الحجيج وقرب العتبات الشيعية في جنوب العراق والمد الثقافي والفكري المتلاقى في المنطقة ، الى جانب بعض الصلات العائلية . وتقل نسبة الشيعة في واحة الهفوف عنه في واحة القطيف بسبب انحرافها الى جهة الداخل ، وبسبب تأثرها بالقبائل البدوية المنتشرة في داخل السنجد ، وبسبب صلتها القوية بالسكان في قطر .

وترجع أصول السكان في الاقليم الى أصول عربية تمتد بجذورها الى زمن بعيد . أما أصول السكان الشيعة فيغلب عليهم انهم من أصل عجمي . وهناك

(23) لوريير ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 845 .

(24) لوريير ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص 845 وج 5 ، ص 1892 .

جماعات سكانية قليلة في السنجق تعود في أصولها إلى أصل هندي (25) .

ويلاحظ على التجمع السكاني في السنجق أن أتباع المذهب الواحد لهم مساجدهم ومدارسهم وأحياءهم الخاصة بهم ، وتصل أحيانا إلى حد نجد فيه أن القرية بكاملها تكون لأنباع مذهب واحد إما لأنباع المذهب الشيعي أو لأنباع مذهب السنة والجماعة . ويغلب الطابع المذهبي وطابع القرابة الدموية وطابع الروابط العائلية على التجمعات السكانية ، ويمكن تمييز ذلك بسهولة في كل من المدن والقرى في السنجق . كما أن للمذهب أثر كبير على نوعية العمل الذي يمارسه السكان في السنجق .

ويتجمع غالبية السنة في واحة الحسا في المدن أو القرى والبلدان الآتية (26) : الهفوف ، المبرز ، العيون ، الفضول ، غرابي ، غويج ، قصر الدليقية ، العقار ، عقلة ، بئر حمادة ، حزم جواتة ، كنزان ، قصر اللويحي ، قصر الشرقي ، الجشة ، الطرف ، أبو ثنين ، الرملية الرقيقة . ويتجمع غالبية الشيعة في واحة الحسا في المدن والقرى الآتية : العمران الشمالية ، العمران الجنوبية ، البطالية ، الدالوة ، حليلة ، جبيل ، جليجلة ، المنزلة ، المقدم ، المطيرفي ، بنو نعام ، بنو نهو ، القارة ، القرين ، القرن ، صباط ، الشعبة ، الشهازين ، التميمية ، أبو ثور ، طربيل ، توبشير .

وهناك تجمع سكاني في الواحة يتساوى تقريبا فيه عدد السنة والشيعة كما هو الحال في قرى : الكلاية ، الجفر ، المركز ، الشقيق .

ويلاحظ أن عدد القرى الشيعية في واحة الحسا أكثر من عدد القرى السنية ، ومع هذا فإن السكان السنة يزيد عددهم على السكان الشيعة في الواحة ، ويفسر هذا بزيادة نسبة السكان السنة في مدينة الهفوف وفي بلدة المبرز المجاورة وهما من أكبر البلدان عددا في السكان، إذ يصل عدد سكان مدينة الهفوف إلى (25,000) نسمة تقريبا يشكل السنة نسبة عالية منهم . ويصل عدد سكان المبرز إلى (8,500) نسمة ، علما بأن سكان السنجق يصل عددهم في حدود (67,000) نسمة ، كما أن عدد سكان القرى في الواحة البالغ عددهم في حدود (33,000) نسمة يشكل السنة نسبة لا بأس بها من هذا العدد .

ويتجمع غالبية الشيعة في واحة القطيف في المدن والقرى الآتية (18) : القطيف ، العوامية ، باب الشمال ، بحاري ، ديبينة ، جراري ، جارودية ،

The Moslem World, « Sunni-Shi'aa Discord in Eastern Arabia » by Hakken, (25) B.O., vol. 23, p. 303.

(26) لوريسر ، مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص : 830-821 .

(27) الهفوف اسم قديم لقصة هجر . وهي في الأصل هفوف . يقول الشاعر الشيخ علي بن حبيب الشاروتي :

سمعا مهفهفة الهفوف من هجر — أنغمة الصوت ذا ، أم رنة الوتر

(28) لوريسر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، ج 5 ، ص ص : 1880-1888 .

كويكب ، أم الحمام ، الآجام ، مدارس ، حلة محيش ، الملاحه ، مياس ، قديج ، صفوى ، سيهات ، تاروت ، توبى .

ويتجمع غالبية السنة فى واحة القطيف فى القرى الآتية : أم الساهك ، شريعة ، خويلدية ، عنك ، الدمام ، الجش ، وفى جزيرتى : جنة والمسلمية . ونلاحظ أن عدد الشيعة أكثر بكثير من عدد السنة فى الواحة وأن نسبة السنة قليلة جدا فيها ، ونلاحظ كذلك أن المجلد العام لعدد السكان السنة فى السنجق يزدون كثيرا على عدد السكان الشيعة فيه وذلك لسببين : الاول : هو زيادة عدد سكان واحة الحسا على عدد سكان واحة القطيف من جهة . وزيادة عدد السكان السنة فيها من جهة ثانية . والثانى : هو أن البدو فى السنجق فى معظمهم من السنة وهذا بدوره يزيد من عدد سكان السنة فى السنجق ، حيث أن عدد السكان البدو فى السنجق يصل الى حدود (60,000) نسمة ، أضف الى هذا عدد الجند العثماني والموظفين الاداريين العثمانيين العاملين فى السنجق .

وعليه فان البوتقة الاجتماعية فى سنجق الحسا تتكون من كتل اجتماعية ذات أجناس مختلفة فى الأصول والمذاهب . وقد تعرضت هذه الكتل الاجتماعية لكثير من حالات التمازج والاحتكاك بالمجتمعات الأخرى خارج السنجق نتيجة للحركة التجارية من جهة ونتيجة للمتغيرات السياسية من جهة ثانية . وعليه فان البوتقة الاجتماعية فى السنجق بوتقة ذات صفة غير متجانسة الى حد ما يعكس التجانس القائم فى مجتمع نجد مثلا .

وتجدر الإشارة الى أن بدو السنجق ظلوا يحافظون على تقاوة أصولهم القبلية وسلامة انسابهم الى حد كبير وذلك لقلّة احتكاكهم بالاجناس الأجنبية الأخرى من جهة ورفضهم مصاهرة من هم أدنى منهم نسباً وأصلاً من جهة ثانية . وظلوا يحافظون قدر إمكانهم على سلم الأصول القبلية المتعارف عليها بين القبائل فى البادية ، ومن هنا ظل التأثير العثماني عليها من الناحية الاجتماعية تأثيراً يكاد يكون محدوداً ، وظل فى نطاق ضيق جداً وفى مناحي أخرى غير الناحية الاجتماعية . وقد ظهر تأثير العثمانيين على الجماعات الحضرية أكثر مما هو عليه فى الجماعات القبلية بخاصة الجماعات التى تقطن فى الاجزاء الداخلية من السنجق .

التنظيمات العثمانية فى السنجق :

مما لا شك فيه أن الحكم العثماني فى السنجق وغيره إتسم بالطابع العسكرية المميز . فعندما دخلت حملة مدحت باشا سنجق الحسا واستولت عليه من الدولة السعودية الثانية عام 1288 هـ . / 1871 م . (29) ، طبق

(29) لمزيد من التفاصيل انظر : د. عبد الفتاح حسن أبو عليّة ، الدولة السعودية الثانية ، ط 4 ، ص 184 وما بعدها ، دار المريخ للنشر بالرياض 1405 هـ / 1985 م .

المسؤولون العثمانيون فيه النظام الإداري العسكري . فوضوا فيه حاميات من الجند النظامي وصل عددهم الى (5000) جندي ، الى جانب عدد من قوات الأمن من الفرسان (الخيالة) ورجال الأمن (الشرطة) العاديين . ورتبوا بعض السفن الحربية العثمانية قبالة ساحل السنجق (30) .

وتثبيتا للسيادة العثمانية في السنجق وزع العثمانيون حاميات من الجند النظامي مع عدد من الشرطة الخيالة في عدة مواضع في السنجق (31) . فوضعوا حاميات في كوت (32) الهفوف مؤلفة من كتيبة مشاة وفصيلتين من الفرسان الشرطة وبطارية مدفعية واحدة . كما وضعوا في قصر الحزام في المدينة نفسها حاميات مؤلفة من ربع كتيبة مشاة و (25) فارسا من الشرطة ووضعوا (100) شرطى عادى في قصر العبيد .

أما في مدينة المبرز المجاورة لمدينة الهفوف فوضعوا فيها (25) فارسا شرطيا و (10) شرطة عاديين . ووضعوا في قصر ساهود في المدينة نفسها ربع كتيبة مشاة و (25) من الفرسان الشرطة .

هذا ووزعوا الحاميات في واحة الهفوف في الضواحي والقرى . فوضعوا حاميات عسكرية في قلعة قصر الدليقة على بعد خمسة أميال في جنوب غرب قرية الجشة التي تبعد في حدود تسعة أميال عن مدينة الهفوف باتجاه الغرب . ووضعوا حاميات مؤلفة من ربع كتيبة مشاة و (25) من الشرطة الخيالة في قلعة قصر اللويمي الواقعة على بعد ميل واحد من الهفوف باتجاه الشرق . ووضعوا حاميات عسكرية في قرية المركز على مسافة نصف ميل في شمال غرب قرية الجشة مؤلفة من (25) شرطى خيال . ووضعوا حاميات عسكرية في قلعة قصر الشرقي التي تبعد أربعة أميال عن مدينة الهفوف مؤلفة من ربع كتيبة مشاة و (25) خيالا من الشرطة . ووضعوا حاميات في قرية باب الجفر مؤلفة من (50) شرطيا من الخيالة و (10) من الشرط العاديين . ووضعوا في ميناء العقير (50) شرطيا من الخيالة و (20) شرطيا عاديا .

أما في واحة القطيف فرتب العثمانيون حاميات فيها (33) . فوضعوا في مدينة القطيف مفرزة من (50) جندي من المشاة . ووضعوا كتيبة مشاة في عنك و (150) شرطى من الخيالة من بينهم عدد من السكان المحليين من الشيعة وسنة . ووضعوا في سيهات مفرزة من (25) من الشرطة الخيالة يساعدون في

(30) منشور مدحت باشا المذاع على الأهالي في الأحساء في 18 رجب 1288 هـ .

(31) لوريير : مرجع سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، في الصفحات 821 ، 826 ، 827 ، 828 ، 857 ، 858 .

(32) الكوت معناه حصن صغير يقع قرب الماء . انظر : الأب أنستاس مار الكرمل ، تسمية الكويت « مقال منشور في مجلة الشرق ، عدد 10 ، سنة 1904م ، ص ص : 358-449 . وانظر أيضا : Philby, Saudi Arabia Jubilee, p. 272, London, 1952.

(33) لوريير ، مصدر سبق ذكره ، ص 856 .

أعمال الجمارك . ووضعوا (10) خيالة شرطة في جزيرة تاروت و (3) شرطة من الخيالة في جزيرة جنة و (3) شرطة عاديين في جزيرة المسلمية .

وكان من الجند النظامي العامل في السنجد كلهم يأتون من ولاية البصرة ، وكانوا يأتون على فترات زمنية ، وكانوا ينقلون الى السنجد في البواخر الانجليزية بالاجرة أو يأتون اليه بواسطة القوارب العادية التي كان يمتلكها السكان المحليون .

وقد رت مدة إقامة الجندي في السنجد في حدود سنتين ثم يستبدل بجندي آخر (34) . وكان الجند العثماني النظامي لا يرغبون العمل في سنجد الحسا ، وكانوا يرون أن نقلهم للخدمة فيه ما هي الا عملية نفي أدبي لهم ، وذلك لقسوة الحياة والطقس وكثرة الامراض هناك من جهة وبعده من جهة ثانية .

والى جانب القوة العسكرية النظامية العاملة في السنجد كانت هناك قوة عسكرية بدوية مساندة قوامها من (50) فردا يركبون الابل ويتسلحون بالبنادق ويعملون مرشدين للقوات العثمانية في السنجد (34) .

والشرطة هم القوة الظهير للحاميات العسكرية في السنجد : وهم من فصائل الضبطية القادمين من ولاية البصرة . ووظيفتهم حفظ الأمن الداخلي في السنجد وحماية القوافل التجارية والمسافرين من اعتداءات قطاع الطرق. وكان الراتب الشهري للشرطي الفارس (30) روبية . أما الراتب الشهري للشرطي العادي فهو (15) روبية . وكان معظم العاملين في الشرطة الخيالة من أكراد العراق ومن العرب غير المحليين . ووظفت الدولة عددا من الشرطة السنة والشيعة المحليين (35) .

ونلاحظ من الترتيبات العسكرية العثمانية في السنجد أن الادارة العثمانية فيه مركزة على الوجود العسكري . وبظل الوجود العسكري في السنجد متوقفا على مدى قوة السلطة المركزية ومدى انتباهها له . ولا يمكن من خلال هذا الوجود العسكري أن تقوم صلة قوية بين المجتمع في السنجد وبين السلطة العثمانية فيه ، لان الاهالي نظروا الى السلطة العثمانية بأنها سلطة قهرية قائمة أساسا على إخضاع الأهالي للطاعة العثمانية بالقوة ، وعدوا هذا الأمر مظهرا غير حضاري . ومن هنا انعدم الولاء المحلي الفعلي للسلطة العثمانية . وظلت العلاقة القائمة بين أهالي السنجد في غالبيتهم وبين العثمانيين مرهونة بمدى بقاء العسكرية العثمانية الضاغطة في السنجد .

أما من حيث التنظيمات الادارية العثمانية في السنجد (36) فقد قسمت الدولة السنجد إداريا الى قضائين هما : قضاء الهفوف وقضاء القطيف .

(34) لوريير ، مصدر سبق ذكره ، ص 855 .

(35) لوريير ، نفسه ، ص : 856 .

(36) لوريير ، نفسه ، ص ص : 855-856 .

وقسمت قضاء الهفوف الى أربع نواح هي : الهفوف والمبرز وباب الجفر العقير ، أما قضاء القطيف فأبقتة بدون تقسيمات إدارية أصغر ، وضمت إليه إدارة جزر : تاروت والمسلمية وجنة .

وعينت الادارة متصرفا لادارة شؤون السنجق كانت الهفوف مركز إقامته، وعينت أيضا مديرا للناحية ، وقائما على قضاء القطيف ، الا أن السلطة ظلت بيد قائمقام الهفوف ومدير ناحيتها . وأقامت الدولة إدارة مدينة خاصة بالشؤون المدنية في ميناء العقير . وقد تولى تصريف أمورها أمر الضبطية في الميناء . وأقام العثمانيون دائرة مدينة عامة في السنجق ، وعينوا شيوخا في القرى ليس لديهم أى سلطات تنفيذية . وعينوا على كل قرية مختارا يعد من الوجهة الادارية رئيسا للقرية ، وأقام العثمانيون مكتباً للبريد والتلغراف في السنجق .

وقد نظمت الدولة عملية جبي الضرائب ، وكانت أهم ضرائب الدولة تجمع من محصول التمر في السنجق الى جانب الضرائب الاخرى التي تأخذها من المحصولات والسلع التجارية وسفن الغوص وغيرها . وكانت الضرائب التي تأخذها الدولة عن التمور ضرائب عينية في واحة الهفوف . وكانت الدولة تبيع تمورها المجموعة من الضرائب بالمازاد العلني بإشراف المتصرف الذي يبلغ رئيس دائرة الجمارك في بغداد بالنتيجة . وكانت تجع ضرائب التور في قضاء القطيف نقدا لا عينا كما هو الحال في واحة الهفوف . وكانت الدولة تجبي ضرائب من قوارب الغوص أو قوارب صيد اللؤلؤ ، فكانت تجبي $1/2$ ليرة عثمانية عن كل قارب . وكانت الدولة تعطي حق تحصيل جمارك السنجق بخاصة الموانئ لمتعهدين من الشيعة . وبلغ ما دفعه المتعهدون للدولة مبلغ (13,500) ليرة عثمانية عام 1323 هـ / 1905 م . (37) .

وبلغت العائدات السنوية للدولة من ضرائب السنجق (60.000) ليرة عثمانية . وكانت مصروفاتها فيه (54,000) ليرة عثمانية سنة 1321 هـ / 1903 م . (38) .

وكان للدولة أملاك خاصة سميّت أملاك الدائرة السنّية (39) . فكان لها مزارع نخيل في الهفوف وباب الجفر وبلغ محصولها من التمور في واحة الهفوف من 2000 - 2500 من (40) وبلغ محصول تمورها في واحة القطيف 16,000

(37) و (38) لوريير ، المرجع السابق ص ص : 858-859 .

(39) لوريير ، نفسه ، ص 858-859 .

(40) المن القطيفي ويساوى وزن (37،34) رطلا انجليزيا . ويستعمل في وزن البضاعة في القطيف عندما تباع بالفرق لا بالجملة . وهو الوحدة الرئيس للوزن في واحة القطيف . ولمزيد من التفصيلات انظر : د. عبد الفتاح حسن أبو عليّة ، النقود والموازين والمقاييس في سنجق الحسا في العهد العثماني الثاني ، بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية المنعقد في تونس من 20-26 يناير 1984 م ، ونشر في المجلة التاريخية المغربية .

قلة (41). وبلغ ثمن محصول الدولة من التمور مبلغ 3000 جنيه استرليني تقريبا . كما كان للدولة مزارع أرز في جبيل وجليجلة وحلياة ومينزلة ومطيرفي ومزاوى والشقيق وجميعها من قرى واحة الهفوف . وبلغ الانتاج من الأرز في حدود (1000) موسمية (42) .

موقف أهالي سنجد الحسا من السيادة العثمانية ومدى تأثيرهم بها :

لقد أوردنا وبشكل موجز التنظيمات العثمانية في السنجد لربط هذا بموقف أهالي السنجد من السيادة العثمانية وبيان مدى تأثيرهم بالعثمانيين. لقد ركزت التنظيمات العثمانية في السنجد على الاسلوب العسكري في حكم المنطقة . ومن المعروف تماما أن القوة العسكرية يمكنها ضمان استمرار ولاء الأهالي للحكم العثماني . كما أنها تتأثر الى حد كبير بعدة متغيرات أذكر من أهمها : مدى محافظة الدولة على بقاء تركيزها على الاسلوب العسكري والقوة العسكرية المؤثرة التي تضمن خضوع الأهالي بخاصة وإن الدولة كثيرا ما تنشغل بأمور عسكرية خارجة عن حدود السنجد فكان هذا يقلل من عملية التركيز العثماني في المنطقة . كما أن بقاء التركيز العسكري في السنجد يعتمد الى حد كبير على مدى تحمل الدولة العثمانية للمصروفات المكلفة لاستمرار التركيز العسكري بخاصة وأن واردات السنجد من الضرائب لا تغطي جوانب المصروفات اللازمة للحفاظ على السيادة العثمانية . ويظل بقاء التركيز العسكري في السنجد يرتبط الى حد كبير بمدى تقبل الصكر لبقاء في المنطقة في إطار الخدمة العسكرية في ظل الطقس الشديد الحرارة وفي ظل الرطوبة العالية والأمراض الكثيرة التي أخذت تفتك بهم ، بالإضافة الى البعد المسافي بين السنجد والمواطن الاصلية للعاملين فيه . ويعد تملص الجند وانتقاداتهم وتذمرهم من الامور المهمة للحفاظ على التوازن بين طاعتهم للمسؤولين وبين تقبلهم لتنفيذ أوامره . كما أن التركيز العسكري في السنجد يعتمد كثيرا على مدى اخلاص المسؤولين فيه وعلى مدى تقبل أهاليه لهذا المبدأ .

وتشير العلامات التاريخية الى أن الوجود العسكري العثماني في السنجد كان وجودا مهلهلا وهشاً ويعود هذا الامر الى صعوبة المواصلات بين الحسا وبين ولاية البصرة. وكان تنقل الجند يتم إما بواسطة السفن أو بواسطة البر، وقد تطلب هذا مصروفات كبيرة وصعوبات (43) أخرى كالصعوبات التي تحدث

(41) القلة وهي خاصة بوزن التمور في حالة بيعها بالجملة في واحة القطيف ، وهي لا تستعمل في واحة الهفوف . وتساوى القلة وزن (2) من قطيفي . وتساوى في حدود (75، 68) رطلا انجليزيا . انظر : لوريسر ، المصدر السابق ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص : 849 .

(42) الموسمية : هي وزن خاص بالحبوب والأرز في حالة بيعها بالجملة ، وتزن (230) رطلا انجليزيا ، وتساوى وزن (12) قياسية من قياسات الحسا .

(43) أوراق الباب العالي ، دائرة الخيالة (السواري) رقم 810 ، موقعة من سر عسكر رضا ، مؤرخة في 7 ذي القعدة 1324 ر .

في عملية نقل المؤن والامدادات والذخائر من البصرة الى الحسا . فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت الدولة تشتري البغل الواحد بـ (3000) قرش عثماني من ولايات : بروسه وطرابزون وآيدن وغيرها . وكان يكلف نقل البغل الواحد من الولاية التي اشترى منها الى البصرة ليرسل الى الحسا مبلغ من 400 - 500 قرش عثماني . وكان هناك تجار محليون متعهدون لهذه العملية مثل ابراهيم البسام (44) .

وكانت ميزانية السنجق ميزانية قليلة ومحددة . وكان الجند والموظفون العثمانيون من خارج السنجق وداخله متذمرين من شدة الضيق الاقتصادي والازمات الاقتصادية الحادة التي تواجههم من جراء قلة واردات الدولة من السنجق ومن جراء قلة الاعتمادات المالية المخصصة من قبل الدولة للمسروفات السنجق . وقد عبرت رسائل سر عسكر رضا القائد العام المرسل الى الصدر الاعظم عن هذا الحلل ، وطالبته بدراسة وضع المشكلة المالية الخاصة باعتماد الاموال اللازمة لاعاشة الجند في خطة الحسا . وترجوه بضرورة ايجاد الحل اللازم لها .

وبهذا الاسلوب فان الدولة لم تستطع التأثير على مجتمع الحسا ولم تستطع كذلك صهر البوتقة الاجتماعية فيه ، ومن هنا ظل ولاء الاهالي للدولة ولاء يعتمد كثيرا على مبدأ الخضوع للسلطة لا على مبدأ التبعية والولاء لها . ولم يشارك الاهالي في الوظائف العسكرية ولا حتى في الوظائف الادارية المهمة أو الاقل أهمية منها ، على الرغم من مشاركة عدد قليل من الاهالي في خدمة الدولة في مجال الأمن: شرطة وأدلاء. وظلت نسبة العاملين في وظائف الدولة نسبة قليلة جدا اذا ما قيسست نسبتهم بعدد أهالي السنجق .

والواقع أن أسلوب الدولة في حكم السنجق ظل أسلوبا لا مركزيا في الأمور التي تخص مجتمع السنجق كحرية لمتنع بالعادات والتقاليد والاعراف والأساليب الاجتماعية القائمة والمتبعة في السنجق . وبهذا الأسلوب فان الدولة لم تمس جوهر النظام الاجتماعي القائم هناك وظلت تركز على مبدأ الولاء القائم على الخضوع لا على أساس الانتماء القائم على الاقتناع بفائدة السلطة العثمانية ، مما سبب في فقدان الدولة للقاعدة الشعبية والتأييد

(44) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، دائرة الخيالة (السواري) مقر القيادة العليا (سرعسكر) ، رقم 810 ، مؤرخة في 7 ذي القعدة 1324 هـ . والوثيقة التركية ، برقية صادرة من ولاية البصرة وموجهة الى الصدر الأعظم باستانبول رقم 7821 ، مؤرخة في 16 شباط 1322 .

- ابراهيم البسام وهو من عائلة البسام وموطنها مدينة عتيزة في القصيم في نجد . وقد اشتهرت هذه العائلة بالتجارة والعلم .

(45) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، مقام القيادة - سر عسكر ، دائرة المحاسبات ، رقم 1458 ، مؤرخة في 24 محرم 1326 هـ .

السكاني في السنجد (46) . كما أن أسلوب الحكم القائم على القوة العسكرية لا بد أن يفتقر دائماً الى تأييد الأهالي ويكون مجالاً واسعاً لظهور حوادث الظلم وحالات الفوضى والاضطراب على الرغم من أن العثمانيين برروا وجودهم العسكري من أجل إحلال الأمن وراحة الأهالي (47) .

وكان مما يغذى مبدأ عدم ولاء أهالي السنجد للدولة العثمانية ما كان يتمتع به شيوخ القبائل من سلطات تركز على الولاء الكبير الممنوح لهم من قبل قبائلهم ، إضافة الى طموحاتهم السياسية التي كثيراً ما كانت تتعارض مع السلطة المركزية المحلية في السنجد، أضف الى هذا طموح ذوي السلطة والنفوذ من بين أهالي المدن الذين كانت لهم نزعات سياسية استقلالية . وكان مما يقوى هذه النزعة الاستقلالية في السنجد وجود العدد الكبير من الشيعة فيه الذين لم يكنوا للدولة السنية ولاءاً .

ونظرة على البنية الاجتماعية لأهالي السنجد في فئاتهم المختلفة وما كانوا يتمتعون به من روابط قبلية وعائلية وأخرى مذهبية وما كانوا يتمتعون به من عادات وتقاليد محافظة على الأنظمة المتبعة من عهد قديم، فإن هذا يقودنا الى القول بأن رابطة الخضوع للسلطة كانت العلامة المميزة في علاقة الأهالي بالدولة العثمانية ممثلة بالمسؤولين العثمانيين في السنجد . وظلت الضرائب وما يدفعه الأهالي لدولة تشكل رمزا لهذا الخضوع وتلك التبعية .

ولما كثرت الضرائب على الأهالي بخاصة الضرائب التي كانت تأخذها الدولة من اتمور فكر السكان طويلاً في ضرورة الثورة على الدولة ، وساد السنجد في كثير من الاحيان حالة من التذمر والسخط . وندلل على هذا ما قام به أهالي مدينة الهفوف من إغلاق حوانيتهم التجارية ومحالهم المختلفة تعبيراً عن هذا السخط (48) وقد تكررت مثل هذه الحالة من الاضطرابات في مركز السنجد وفي غيره من مناطق . وكانت مثل هذه الاضطرابات تعبر عن نقمة أهالي السنجد على إدارته من العثمانيين وغيرهم . وقد عبرت هذه الاضطرابات عن وعي مجتمع السنجد وتفهمه السياسي لما يدور من حوله . وأن التذمر الجماعي المنظم في السنجد ضد العثمانيين كان له مغزاه ، فهو يعطينا صورة واقعية للعلاقة القائمة بين أهالي السنجد وبين السلطة العثمانية فيه ، ودلالة واضحة على عمق عدم الانسجام بين الطرفين .

وكان مما يركز النزعة الاستقلالية في السنجد كونه يتجمع فيه الكثير من السكان البدو والذين يتوقون دائماً للحرية والاستقلال والنزعة الانفصالية عن

(46) انظر : د. عبد الفتاح أبو علي ، دراسة تاريخية لموقف أهالي الأحسا من الاستراتيجية العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بحث منشور في مجلة الدارة ، العدد الرابع من السنة الأولى ، ذي الحجة 1395 هـ / ديسمبر 1975 م .

(47) منشور مدحت باشا المذاع على أهالي السنجد في 18 رجب 1288 هـ .

(48) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، برقية صادرة من ولاية البصرة ، رقم 209859 ، في 25 آذار 1322 رومي .

السلطة المركزية وأحيانا كانوا يحاولون مد نفوذهم على سكان المدن والقرى المجاورة في حالة ضعف السلطة المركزية . وظلت هذه النزعة سببا قويا من أسباب الخلاف القائم بينهم وبين السلطة العثمانية في السنجق . وظلت الدولة تحاول قدر استطاعتها أن تكسب شيوخ القبائل وتخضعهم لسيادتها بشتى الوسائل : العسكرية والسلمية . وجربت الدولة أن تكسب شيوخ القبائل عن طريق دفع المنح والهبات والعطايا لهم . فدفعت الدولة هبات مالية لشيوخ العجمان وشيوخ بني هاجر وشيوخ بني خالد وشيوخ بني مرة . ووصلت هباتهم ومنحهم لشيوخها مبلغ (437) ليرة عثمانية في السنة (49) .

لقد تأثر المجتمع الحضري في السنجق من جراء فوضى القبائل بصورة أكثر مما تأثرت به الدولة العثمانية . لأن هذا الوضع أثر تأثيرا كبيرا على التجارة في المنطقة وعلى الأمن والاستقرار الذي ينشده مجتمعها . وقد أشارت الليدي آن بلانت « Anne Blunt » الى أن أهالي الساحل الممتد من الكويت الى قطر تضايقوا كثيرا من فوضى القبائل وكثرة تمرداتهم ضد السلطة (50) . وذكر « زويمر » « ZWEMER » أن طرق التجارة في سنجق الحسا ظلت غير آمنة بسبب ما كان يقوم به البدو من اعتداءات على القوافل التجارية (51) . وكانت الدولة تحاول الافادة من الخلافات التي كانت تحدث بين بعض القبائل، كما هو الحال في الخلاف الذي حدث بين آل مرة والعجمان في السنجق (52) ، الا أن الدولة في كثير من الاحيان كانت لا تستطيع الموازنة فتفلت الامور وينعكس كله على أوضاع مجتمع الحسا بخاصة الحضر والمستقرين منهم . وتقيد الوثائق التركية بأن الكثير من الاعتداءات البدوية ضد مدينتي الهفوف كانت تقوم بها قبائل العجمان وقبائل آل مرة . وكانت اعتداءاتهم تركز على القوافل التجارية القادمة الى المدينتين وعلى الاسواق فيهما (53) . وهذا بدوره يوضح مدى ضعف السلطة العثمانية في المنطقة وعجزها عن رد اعتداءات القبائل البدوية على مدنها .

وقد عبرت الوثائق العثمانية الكثيرة عن تردى الأوضاع في سنجق الحسا، وعن ثورة الأهالي من حضر وبادية ضد السيادة العثمانية فيه . وكانت الدولة

(49) لوريمر ، مصدر سبق ذكره ، القسم الجغرافي ، ج 2 ، ص : 856 .

(50) انظر :

Blunt, Lady Anne, Pilgrimage to Nejd, the Cradle of Arab Race, (a visit to the Court of the Arab Amir and our persion Campaign), vol. 11, pp. 258-263.

(51) Zwerner, S., Arabia the Cradle of Islam, p. 217, London, 1912.

(52) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة ، تقرير من المخبر محمد عبده ، مرسل إلى قائد الجيش السلطاني السادس في بغداد ، مؤرخ في 25 آيار 1322 هـ .

(53) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، صادرة عن مكتب الصدارة العظمى ، مؤرخة في 10 شوال 1324 هـ / 13 تشرين ثاني 1322 رومي .

تحاول ارسال قوات الى السنجق لتهدة سكانه وتشبيبت دعائم نفوذها فيه ودرء المفاسد وإحلال الأمن وضبط الامور (54) .

ومما كان يباعد بين أهالى السنجق وبين السلطة العثمانية فيه ما كان يقوم به بعض المسؤولين العثمانيين فى السنجق من أعمال تسمى للدولة ، فهناك بعض المسؤولين العثمانيين كانوا يفضلون منافعهم الشخصية على المنافع العامة للدولة وللسكان . وكثيرا ما كان يرتكب متصرف السنجق وقائد الدرك ومدير الادارة المالية من الاعمال التى لا يرضى عنها السكان ولا ترضى عنها الدولة . فتشير بعض الوثائق العثمانية الى « أن نجيب بك متصرف لواء نجد (الحسا) يرجع منفعه الشخصية على المصلحة العامة للدولة ... وكان يكتسم الحقائق ويخفيها ويختلق الأكاذيب والوشايات على المسؤولين فى اللواء ليغطي على تصرفاته ... وأن أمير اللواء مصطفى حلمى القائد السابق لجند الحسا كان ضحية أكاذيبه (55) » ، علما بأنه لم يمض على تعيينه فى هذا المنصب سوى سنتين فقط . أضف الى هذا فان خلافات واضحة كانت تقوم بين المسؤولين العثمانيين فى السنجق ، كما هو الحال فى الخلافات التى كانت تقع بين المتصرف وقائد الدرك ومدير المالية وغيرهم . كما كانت تقوم الخلافات بين المسؤولين العثمانيين وبين الاهالى فى السنجق بخاصة فى مسألة الضرائب الخاصة بالتمور . فتشير الوثائق العثمانية (56) التى سجلت الوقائع الرسمية فى السنجق أن تسعيرة التمر فى السنجق كانت تحدد من قبل الدولة العثمانية ، وكان المسؤولون العثمانيون فى السنجق يقدرون تسعيرة التمر سنويا الأمر الذى جعلها غير مستقرة من جهة وجعلها تخضع لرغبات المسؤولين العثمانيين من جهة ثانية . وكانت تسعيرة التمر مرتبطة بالضرائب مما يفيد الدولة من جهة ويضر بالسكان من جهة ثانية وخاصة سواد الناس وبالاخص الطبقة الفقيرة منهم التى تضررت مباشرة من عملية ارتفاع أسعار التمر التى تشكل الغذاء الرئيسى لها . وكان المستفيد الاول من غلاء أسعار التمر هم الفئة الغنية من ذوى أصحاب النخيل الى جانب الدولة العثمانية والمسؤولين العثمانيين كالمصرف وقائد العسكر ومدير المالية فى

(54) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الثالثة ، رسالة من ناظر الحربية الى ناظر الداخلية ، مؤرخة فى 15 جمادى الآخرة 1327هـ / 20 حزيران 1325 رومي .

— أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، برقية من مكتب الصدارة العظمى ، رقم 2598 ، مرسله الى وزارة البحرية ، مؤرخة فى 12 شوال 1324هـ / 5 تشرين الثاني 1322 رومي .

(55) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، رسالة صادرة عن دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة ، رقم 1553 ، مؤرخة فى 22 جمادى الآخرة 1324هـ / 31 تموز 1322 رومي .

— أوراق الباب العالى ، دائرة صادرات ، الديوان الهمايوني رقم 2508 ، مؤرخة فى 10 شوال 1322هـ / 15 كانون الثاني 1320 رومي .

(56) أوراق الباب العالى ، الوثيقة التركية ، رسالة من دائرة الأركان الحربية العامة ، الشعبة الرابعة ، مؤرخة فى 25 أيار 1322 رومي .

السنجق . وكان ارتفاع أسعار التمور يؤدي الى استنكار وسخط شديد من قبل سكان السنجق . وكم رفعوا الشكاوى للدولة العثمانية عن طريق ولاية البصرة للتعبير عن سخطهم وقساوة معيشتهم وتردى أوضاعهم الاقتصادية نتيجة لهذا السلوك . وأحيانا فقد كانت الدولة ترضخ لمطالبهم فتأمر بتخفيض أسعار التمور في السنجق وتعمل على تحسين أحوالهم (57) .

والغرب أن المسؤولين العثمانيين في السنجق وفي ولاية البصرة كانوا في كثير من الاحيان يعدون اضرابات أهالي سنجق الحسا والشكاوى التي يرفعونها ما هي الا درب من دروب التمرد وخلق الاضطرابات ضد الدولة . وكان علاجهم الوحيد لهذا التذمر هو ارسال قوات عسكرية من أجل اخضاعهم بالقوة وقمع حركاتهم واضطراباتهم (58) . وكان من الافضل للمسؤولين العثمانيين أن يعالجوا سبب الداء بالطرق الصحيحة لا بالاسلوب العسكري . وكان هذا الاسلوب قد وسع هوة الخلاف بين الدولة وبين معظم أهالي السنجق من سنة وشيعة . وأصبح لدى السكان حساسية كبيرة تجاه العثمانيين ، وصارت أقل حادثة تثير غضبهم (60) .

وجدير بالملاحظة هنا أن أهالي سنجق الحسا لم يتذوقوا فائدة وجود الدولة في منطقتهم ، ولم يحسوا بتغيير حياتهم المعيشية وأحوالهم الاقتصادية والتعليمية . ولم تهتم الدولة باقامة المرافق العامة التي لا بد من اقامتها في السنجق كالقنوات الحديثة التي تنظم المياه بخاصة المياه اللازمة للزراعة ، علما بأن السنجق يعتمد في كيانه الاقتصادي على الزراعة . ولم يتذوق أهالي السنجق طعم العلم وفائدته لان الدولة لم تهتم كثيرا بانشاء المدارس الا في الآونة الاخيرة من حكمها للسنجق ، فيذكر زويمر « ZWEMER » أن عدد المدارس في السنجق كان عام 1318 هـ . / 1900 م . ثلاث مدارس فقط وكان عدد المتعلمين في حدود (3450) شخص من مجموع السكان (61) بينما وصل عدد المدارس في الحسا قبل الحكم العثماني فيه الى (20) مدرسة لتعليم الصبيان حفظ القرآن والقراءات والتجويد الى جانب العلوم الاخرى كالحساب و (30) مدرسة لتعليم اللغة العربية والعلوم الشرعية (62) .

(57) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، رسالة صادرة عن دائرة الصدارة العظمى قلم الشيفرة ، رقم 216786 ، مؤرخة في 21 آب 1322 رومي .

(58) أوراق الباب العالي ، الوثيقة التركية ، رسالة صادرة عن دائرة الأركان الحربية العامة الشعبة الرابعة ، رقم 209859 ، مؤرخة في 19 آذار 1322 رومي .

(60) لمعرفة مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة في السنجق راجع :

Aitchison, C.V., A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries, vol. X, p. 104-5.

Zwemer, Op. cit., p. 117.

(61)

(62) الألوسي ، محمود شكري ، تاريخ نجد ، ص : 38 ، المطبعة السلفية بمصر ، 1347 هـ .

صحيح أن الدولة العثمانية حاولت أن تعطى التعليم فى السنجق بعض الاهتمام الا أن هذا الاهتمام جاء فى وقت متأخر ، ونعنى هنا اهتمام الدولة بالتعليم الحكومى المنظم فى دائرة انتشار المعارف كما هو الحال فى الولايات العثمانية وألويتها لأخرى كالحجاز مثلا .

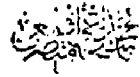
وتشير الوثائق التركية الى ضعف التعليم وقلته فى السنجق فتذكر الوثائق (63) أنه حتى مطلع القرن العشرين الميلادى / العشرينات من القرن الرابع عشر الهجرى ظلت « أمور المعارف بهذا اللوء الى الآن (أى الى سنة 1319 هـ . / 1901 م) غير منتشرة وأنور ترقيات أطفاله فى ظلمة الجهل مستترة كما فهم من التحقيقات وعرف من التدقيقات والاستطلاعات ... » . وورد أيضا : « .. فلذلك صار من الواجب (على الدولة) تحرى الاسباب العاجلة لاستحصال الفوائد الآجلة ، فرأينا تشكيل مجلس يتكفل باجراء منطوق الارادة السنية الصادرة على هذا المنوال لاستنفاذ أطفال أهالى هذا اللوء من لجة بحر الضلال ... » .

ويتضح مما تقدم أن دعوة الدولة العثمانية الى ايجاد تعليم منظم فى سنجق الحسا كانت دعوة متأخرة ، فجاءت عام 1319 هـ . / 1901 م . يوم أن كانت الدولة العثمانية فى السنجق تعاني من مشكلات سياسية وأمنية واقتصادية فيه . وأهم من هذا كله أنها كانت تعاني كثيرا من مشكلة عدم الثقة التى سادت العلاقة القائمة بينها وبين أهالى السنجق ، حضره وبدوه ، سنته وشيعته . ومن هنا فقد جاءت الدعوة الى اقامة المدارس الحكومية المنظمة والاهتمام بالتعليم متأخرة . ومن هنا فقد تميزت الصلة القائمة بين مجتمع السنجق وبين الدولة بسمة السلبية طالما أن السكان فى السنجق شعروا بأن الدولة لم تهتم بمجتمعهم وماله من حقوق وواجبات عليها . ولو أن الدعوة جاءت متقدمة يوم أن دخل العثمانيون السنجق لكانت استجابة الاهالى لها أكثر وأعمق .

طبيعى أنه حدث بعض المصاهرات والزواج بين بعض الحضمر وبين العثمانيين العاملين فى السنجق ، لكن مثل هذا النوع من الصلة والعلاقة تظل صلة محدود ولم تصل إلى حد ايجاد جماعة مولدة أبوها تركى وأمها من أهالى السنجق . وظلت مثل هذه الامور تعد أمورا فردية ولا تدخل فى البنية الاجتماعية ولا فى تركيبة السلم الاجتماعى فى السنجق .

ولم تكن اللغة التركية سائدة فى السنجق وانما ظلت لغة الحكام والموظفين الرسميين فى السنجق ، وكان لا بد أن تظهر جماعة من أهالى السنجق تعرف اللغة التركية بحكم اتصال أعمالها بالعثمانيين وارتباط مصالحها الاقتصادية أو غيرها بهم . ومن هنا ظل التأثير العثمانى الحضارى على أهالى السنجق تأثرا محدودا جدا .

(63) الوثيقة التركية وهي رسالة من متصرف لواء نجد (سنجق الحسا) موسى الحسيني الى صاحب الرشادة الشيخ راشد أفندي المبارك ، مؤرخة في 29 جمادى الآخرة 1319 هـ . أخذت صورة من الوثيقة من فضيلة الشيخ يوسف بن راشد المبارك ابن الشيخ راشد المبارك التي أرسلت إليه صرسالة . والمبارك هم الأسر العريقة في مدينة الهفوف ومن علمائها المشورين .



٥١

صاحب الرشادة الشيخ راشد قاضي المحترم

لما كان تعظيم شأن المعارف في جميع الممالك المحروسة الشاهانية هو من اقصى آمال ولي العزم خليفة الله في الارض
وهما من هودناتها في الطول والعرض اذ لم الله شكره واعلى كرامته ما دام الدوران ومطابقا لما لو ان
وان امور المعارف بهذا اللول الى الآن بعد مقتدره وانوار تزيينات الحفائهم في طاعة الجهل مستقر
كما فهم من التفتقات وعرف من التفتقات والاستدلالات بوقت ان اسباب انتشار حصول المعارف
في عموم الممالك المحروسة الشاهانية اشتغها طلاله وانوارها مستبنة باهرة في جميع البلاد والامصار
تظهر الشمس في ربعة النهار فلذلك صار من الرغب تحريج الاسباب المعاجلة لاستكمال الفوائد الاجل فترى
تسليح مجلس يتكلم باجره فلهذا في الدار من السنة لصادرة على هذه المنوال لاستقار الحقائق القائل -
هذه اللؤلؤ من لجة بحر الضلال فبايعه قد تقدر ونسب في مجلس امددة اللؤلؤ ان تكونوا عضوا لهذا المجلس
المذكور مع جماعة فضلاءهم مشكور تحت رياسة ائمة ذى الفضيلة موطقة فذكر وتعين ايام الاجتماع
معدلة الى الرئيس الموصى اليه فومن من جنابكم المدعوين في المجلس بالايام المعينة مع تلك الرخصة في خصوص ترقى
هذه الامة المبرم كما هم المطلوبه ليكونوا مستفيدين من هذه النعم العظيمة ويريدوا بطل الى الطرق المتبعة
والسلام

معه لولاي



أحمد بن محمد
٤٩٠

سببية الهجرة الاسلامية من جبل لبنان باتجاه ولاية الشام فى القرن 19

د. رباح ابى حيدر

هدف الدراسة :

الغاية من هذه الدراسة التاريخية للهجرة الاسلامية من جبل لبنان باتجاه ولاية الشام فى القرن التاسع عشر ، هو بحث خصوصية اجتماعية واقتصادية للفئات الاسلامية اللبنانية ، التى تأثرت مصالحها بالمتغيرات السياسية والاقتصادية المحلية ، التى بدأت معالمها فى التغير تتمحور حول محاولات الغرب المتكررة والمنتالية وباكثر من اسلوب ، للتغلغل والتدخل فى منطقة الشرق الاوسط ، عن طريق خلق وانشاء كيانات سياسية مستقلة عن الدولة العثمانية ، ترتبط اقتصاديا من حيث الانتاج والاستهلاك بمصالح أوروبا ذات النفوذ التاريخى التقليدى فى المنطقة ، والتى فشلت محاولات استيلائها المباشر على اراضى الدولة العثمانية ، لعدم تمكنها فيما بينها من ايجاد حل للمسألة الشرقية المعقدة .

مصادر الدراسة :

ان الوجود الاسلامى فى جبل لبنان مستمر حتى يومنا هذا رغم الاشكالات السياسية الضاغطة ، حيث نلاحظ قدرتهم على التماسك فيما بينهم والتعاطى الايجابى بمحيطهم المسيحى الاجتماعى الفاعل سياسيا واقتصاديا ، متجاوزين بذلك مجموع ازمات سياسية منها سنة 1860م و1958م دفعت فئات لبنانية غالبا ثمن عدم تمكنها من حلها ، وهذا أمر بدوره لافى للنظر ومدعاة للبحث لكن مجموع الدراسات التاريخية على اختلاف اختصاصات اصحابها ، مفصلة أو مقتضبة ، سياسية ، اجتماعية أو اقتصادية ، بقيت بعيدة عن التعاطى مع هذه الظاهرة الحضارية حيث يلاحظ ان بعض نتف فى مصادر أو مراجع متفرقة كانت فى أكثرها مرتجلة أو هادفة متجنبة سطحية ، لا تمت الى الدراسات التاريخية الموضوعية بصلة ، وجدت دون ان تفي بالغرض المطلوب .

بالاضافة الى ذلك فان تكون هذه الجماعة من الناحية الاجتماعية السياسية ، وخاصة ما يتعلق منها بالنظام العشائرى ، أمر ما يزال حتى اليوم فاضر اعرافه وعاداته وتقاليده على مساحة واسعة من منطقة الهرمل بعلبك ، هذه العادات والتقاليد والاعراف كانت الاساس فى تنظيم المجتمع الاسلامى الشيعى فى جبل لبنان .

ومن اللافت للنظر أيضا توفر الدراسات التاريخية والسياسية ، والاقتصادية والاجتماعية لبقية الطوائف والمناطق ، التى تتشكل منها مجموعة سكان لبنان

الا ان تجاهلها أو اهمالها لهذه الفئة يعيق وبشكل عام فهم حركة التاريخ اللبناني ، لذلك وجدت بما توفر لدى من وثائق خاصة ، حصلت عليها من بعض البيوتات الاسلامية ، وغيرها من اماكن التوثيق انه من الضروري درس هذه الوثائق حيث تنكشف امام المؤرخين الباحثين بعض معلومات ربما تساعد على اكمال صورة والقاء اضواء على حقبة زمنية دقيقة من تاريخ جبل لبنان ومجتمعه ، هذا التاريخ الذى عمل ويعمل بعض المؤرخين عن قصد أو غير قصد لتشيويه معالمة وتزوير واقعه التاريخيين ، حيث يتوخون اثبات وجهات نظر ، تخدم التوجهات السياسية اللبنانية ، بتوجيهها العام المرتكز أساسا على رفض حقيقة انتماؤه وواقعه التاريخيين . هذه الطريقة التى لا تأخذ بعين الاعتبار من واقع الاحداث الا ما يثبت نظرية سياسية مسبقة أريد اخراجها ، فاجتزأوا من حقائق وواقع هذا التاريخ ما يوفر لباحثهم غطاء وسترا مضللين . ومن المؤكد ان انتماء الباحث اصلا واقامته في هذه المنطقة ، قد يساعد على توفر الوثائق ويوضح الكثير الكثير من الاخبار التى تكشف جوانب مهمة في التاريخ الاجتماعى والسياسى والاقتصادى لجبل لبنان ، والتى بواسطتها ربما تكتمل المعلومات .

أصحاب الوثائق وأماكن تواجدها :

من مصادر هذه الدراسة التى اعتمدتها فى بحثى ، الاوراق الخاصة التى وجدتتها عند ورثة بعض النافذين أو الموظفين فى متصرفية جبل لبنان ، من أبناء الطائفة الاسلامية الشيعية ، وأخص بالذكر ، أوراق كل من اعضاء مجلس الادارة ما بين السنتين 1861 - 1919 أعني بهم كاظم عمرو ، علي حمود سعد الدين عمرو ، محمد الحاج محسن أبى حيدر والسيد أحمد الحسينى ، كذلك بعض أوراق وسجلات تعود لمدير ناحية المنيطرة ، اسعد حسن علي أبى حيدر وولده من بعده محمد اسعد أبى حيدر بالاضافة الى أوراق مدير بلدة شمسطار ، السيد علي محمد أحمد الحسينى . أضف الى ذلك بعض أوراق تعود الى عضو المحكمة العليا فى المتصرفية الشيخ حسن همدان ، ومن بعده السيد علي أحمد الحسينى الذى أصبح فيما بعد رئيسا للمحكمة الاسلامية الشيعية الجعفرية فى بداية الانتداب 1920 . بالاضافة الى أوراق وسجلات كثيرة ، تعود الى شيوخ صلح ومخاتير وكتبة عدل ، وغيرهم من النافذين . كما وان سجلات مجلس الادارة المهمة والاساسية بالنسبة لاي بحث تاريخي لتلك الفترة والتى كانت موجودة فى المتحف الوطنى ، وغيرها من الاوراق هناك ، وكذلك أوراق سراى بيت الدين ، والدوائر العقارية تشكل مجتمعة مصدرا مهما لهذه الدراسة .

موضوعات الوثائق :

هذه الموجودات من الوثائق وغيرها ، ذات الموضوعات المتعددة والحقبات الزمنية المختلفة ، قد شكلت أساسا لهذه الدراسة وذلك لتنوعها وغناها ، منها :

أ - عقود بيع وشراء ، يتفاوت تاريخها ما بين 1833 - 1920 ، ويتجاوز عددها 500 عقد .

ب - وصايا دينية اسلامية ومسيحية ، يبلغ عددها نحو 37 وصية متفاوتة الاهمية غنية الموضوعات .

ج - عقود مشاركة على أراضي في جبل لبنان أو أراضي في ولاية الشام : أراضي بعل - أراضي سقي - كروم عنب - كروم تين - كروم توت .

د - عقود مشاركة على حيوانات : خيل - ابقار - حمير - اغنام وماعز . عقود مشاركة على نحل ودود قز ، وما اليها .

هـ - عقود زواج ، وتحتوي انواع المهر من حيوان او عقارات وما اليها .

و - سجلات ادارية فيها شكاوى ، قرارات ، أحكام ، تبليغات ، توزيع ضرائب ، جباية ، ومناسبات عدد 2 أوراقها 72 ورقة .

ز - سجلات حسابية فيها انواع انتاج سنوى ، واسعار منتجات مباعه ، او مشتراة ونفقات على اختلافها ، لعائلات ميسورة عدد 3 أوراق عدد 68 ورقة .

ح - سجل محكمة شرعية فيه أحكام قضائية مذهبية عدد I ، أوراق عدد 28 ورقة .

ط - سجلات نفوس واحصائيات للسكان ، مقيمين ومهاجرين ، صفارا وكبارا ، نساء ورجالا لاكثر من طائفة ، عدد 4 .

ي - قصائد وزجليات سياسية واجتماعية عدد 9 .

ك - رسائل اجتماعية وسياسية واقتصادية عدد 22 .

بالاضافة الى مجموعة أوراق رسمية وغير رسمية ، يستفاد منها في أكثر من جانب وموضوع . كما وان بعض أوراق وكتب مطبوعة ، وجدت في هذه البيوتات تعتبر جد مهمة مثال على ذلك كتاب من 146 صفحة طبع عام 1867 م ، هو عبارة عن ثلاثة فصول موضوعه « تحقيقات جنائية دعوى اختلاس ، رشوة وتزوير » لم يستعمله مؤرخ أو باحث من قبل ، يتعلق باحداث 1860 وانعكاسها على مسلمى الفتوح وجبيل .

هذه الموجودات من الوثائق لو لم يقدر لها ان حميتها عن طريق الحصول عليها ، لكانت كغيرها قد زالت أو على طريق الزوال ، الامر الذى يفقدنا الكثير من المعلومات المتعلقة بتاريخ كثير من شعوب وسكان الولايات العربية في الدولة العثمانية . لذلك أجد من الواجب التنبيه الى أهمية البحث للحصول على هكذا وثائق مهددة بالزوال والتنقيب عنها في البيوتات النافذة صاحبة الدور السياسى ، أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى ، لأهميتها . ولو كلف ذلك دفع اثمانها عن طريق تأسيس صندوق مالى لمثل هكذا حالة .

تنبيه :

ان جهدا فرديا من هذا النوع يبقى محدودا أمام عمل مؤسسى مستمر ، لذلك أجد من الضرورة ان توسع دائرة البحث والتنقيب لتشمل مجمل الوثائق والسجلات التى تعود لولايتى طرابلس ودمشق من مكنتات اسطنبول ، أو فى كل من طرابلس ودمشق . رغم ان شيئا من هذا القبيل لم يظهر أمام الباحثين الذين اهتموا بدراسة هذه الاوراق والسجلات ، حيث لم يكن للمسلمين الشيعة من صلة بالمحاكم الشرعية الاسلامية ، حيثما كانت لهم مراجعهم الدينية الخاصة بهم ، يأخذون باحكام علمائهم وفتاويهم الشفوية أو المكتوبة وهى غير مدونة فى سجلات رسمية أو خاصة . وكان على ما يبدو المذهب الجعفرى أساسا لهذه الاحكام الشرعية ، لذلك يفترض مضاعفة البحث لدى البيوتات الاسلامية الشيعية ، حيث تبقى المصدر الاساسى والوحيد للوثائق المتعلقة بتاريخ هذه الفئة اللبنانية ما قبل فترة مركزة الدولة فى جبل لبنان بعد السنة 1861 م .

« التحديد الجغرافى - التاريخى » .

جبل لبنان « أو المعاملة الشمالية » .

لم يشكل لبنان قبل السنة 1920 م . من الناحية السياسية وحدة ادارية معروفة الحدود ، بل ان تكون المستقل - كدولة - قد تم على أيدي السلطة الفرنسية المنتدبة سنة 1920 م . وقبل هذا التحديد الجغرافى السياسى الادارى كان لبنان ، موزعة منطقتا بين متصرفية جبل لبنان وولاية بيروت وولاية دمشق ، وذلك بعد الحرب الاهلية والفتن التى جاءت كنتيجة لاصراعات الطائفية على امتلاك السلطة فيه ما بين السنتين 1840 - 1860 م . حيث كانت تجربة تقسيمه الى قائمقاميتين على أساس طائفى ، درزى ومارونى . وقبل ذلك كان لبنان مقسما الى عدة أقسام ومقاطعات ادارية مبنية على طبيعة أماكنه ، وعلاقة الاهالى مع بعضهم البعض ، ومصالح الذين اقطعهم حكام الجبل الاصليين أو الولاة مناطق نظرا لخدماتهم المقدمة للحكام . وقد سميت هذه الاقسام مقاطعات ، وكانت تنتقل بالتوارث من الأب الى الابن ، أو بكف اليد لاسباب يقدرها الحاكم أو الوالى ، وكانت عامة الناس تسمى أصحاب هذه المقاطعات : « مقاطعجية » .

ولقد قسمت مقاطعات الجبل أيام الدولة العثمانية الى معاملتين (I) : معاملة طرابلس ، وهى القسم الشمالى من الجبل ، وقد عرفت باسم معاملة جبل لبنان . وكانت تمتد من حدود مدينة طرابلس شمالا ، الى جسر يقع شمالى بلدة جونية جنوبا عرف باسم « جسر المعاملتين » . ومن ساحل البحر غربا حتى السفح الشرقى للسلسلة الغربية من جبال لبنان . وكانت قاعدة هذا القسم بلدة جبيل . وبقيت هذه المنطقة تابعة لولاية طرابلس حتى حكم الامير بشير الشهابى الثانى 1789 م - 1740 م . الذى ضمها الى امارته . وقد تولى حكمها من قبل بعض أمراء من المعاملة الجنوبية سماهم والى طرابلس .

اما القسم الثانى من جبال لبنان فقد عرف باسم جبل الدروز أو « المعاملة الجنوبية » وكانت تمتد من جسر المعاملتين شمالا ، الى نهر الاولى جنوبا ، قرب مدينة صيدا ، حيث بقيت هذه المعاملة تابعة لولاية صيدا أو عكا . وكانت قاعدة هذه المعاملة بلدة بعقلين ثم دير القمر فبيت الدين . ومع تقدم النفوذ المارونى السياسى من الشمال باتجاه الجنوب ، والمتوافق مع ضعف دور الدروز بعد انتقال امارتهم الى أمراء مسلمين من خارج مناطقهم سنة 1697م . غلبت تسمية جبل لبنان على تسمية جبل الدروز أو الامارة الدرزية وأصبح الكل يعرف باسم الجزء . ويلاحظ ان تسمية جبل الدروز قد أصبحت التعبير الجغرافى فيما بعد لمنطقة سورية ، على الحدود الاردنية - السورية تعرف بجبل العرب من حوران .

الجغرافيا البشرية :

لم تشر المصادر التاريخية على اختلافها وتنوعها الى وجود اسلامى فى جبل لبنان بالمعنى الاقتصادى ، أو الاجتماعى قبل حملات المماليك ، فى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر ، بل ان الاشارة تقتصر على بعض محاولات لفرض الامن والاستقرار ، قامت بها اما حملات عسكرية تأديبية ، كما الحال بالنسبة لحملة والى بعلبك 758 م . - 759 م . ، ايام العباسيين على مرتفعات بلاد جبيل (المنيطرة) كرد على الهجوم الجبلى المسيحى على البقاع - بعلبك . أو فى ناحية أخرى تقدم وصدّامات باتجاه جبل لبنان ، قامت بها مجموعات قبلية ، اسلامية من تنوخ ، أسكنها العباسيون ارباض بيروت وصيدا وقسما من الجبل ، حيث أخذت تشن غاراتها باتجاه شمال لبنان ، بعد السنة 763 م . ومع خروج الصليبيين من لبنان تحت الضغط العسكرى المملوكى المميز ، باتجاه فرض السلطة الاسلامية على كامل المناطق الواقعة تحت سلطاتهم ، خاصة تلك التى كانت متعاونة مع الصليبيين من أهل الذمة ، أو من مجموع الاقليات المذهبية الاسلامية ، الخارجة عن دائرة مذاهب أهل السنة الاربعة ، والمترجمة ولاسباب خاصة بها باتجاه الجبل ، تبرز ولاول مرة وفى أكثر من مكان من الاراضى اللبنانية الجبلية الواقعة شمال بيروت ، شراسة مقاومة هذا المشروع المملوكى ، الامر الذى أوجب حملات تأديب واخضاع ، انتهت بحلول السنة 1305 م . حيث ولاول مرة تصل الدولة الاسلامية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا الى تلك المناطق .

منذ ذلك الحين أصبح الوجود الاسلامى منظما ومنتظما ، فاعلا ومؤثرا ، فى المجالات العامة والخاصة ، حيث غرس المماليك بتنظيماتهم مجموعة حاميات ذات طابع عسكرى ، اقتصادى وأمنى ، على طول الساحل الممتد من بيروت باتجاه طرابلس . بعدها بقي الجبل يسكنه على اختلاف مذاهبهم خاضعا للمماليك ، دون اشكالات أمنية معارضة تذكر . مع انتقال السلطة الاسلامية على المنطقة الى أيدي العثمانيين ، بقي الوضع السياسى فى جبل لبنان مستقرا ، مع ازدياد فى الوضوح ، حيث يبرز ولاول مرة دور جماعات اسلامية

اثنى عشرية (على المذهب الجعفري) حليفا لسلطة الوالي فى طرابلس ، أو العائلات الاسلامية السننية المتواجدة على اطراف هذا الجبل فى كل من بلدة غزير (العسافيون) أو عكار فيما بعد (السيفيون) المكلفين أمر فرض النظام وجباية الضرائب .

وفى مرحلة ازدياد النفوذ الاوروبى التجارى ، فى حوض المتوسط المدعوم بتطور تقنية الحرب والنقل البحرى فى القرن الثامن عشر ، واستقرار الدولة العثمانية على واقع منجزاتها التى سبقت هذا التاريخ . كان مشروع حوار تقليدى يقوم ما بين اصحاب الامتيازات فى الدولة العثمانية من الاوروبيين ، ومجموع الاقليات الدينية المسيحية من أجل استرداد المبادرة . فى هذا الاطار التاريخى ، ومع تقدم الزمن ، باتجاه القرن التاسع عشر ، بدأ المشروع الاوروبى الاستعمارى المحلى يكبر شيئا فشيئا على حساب واقع السلطة والمجتمع الاسلامى ، فينتزع مكاسب ذات دلالات واضحة فى مجرى الحدث التاريخى ، الامر الذى لم يتم دون تفكيك حلقات كانت متماسكة من قبل ما بين الدولة العثمانية ورعاياها .

على أبواب القرن التاسع عشر ، وكنتيجة للضربات المتتالية المنظمة من قبل الاوروبيين التى توالى لضرب الدولة العثمانية ، فى حلقتها الاضعف فى لبنان ، ترنحت سلطة الباب العالى فى لبنان من جراء الهزائم المتتالية التى منى بها مشايخ الحمادية ، وحلفاؤهم فى البقاع (الحرافشة) ، لتحل محلهم امكانية قيام مشروع حكم محلي ، سياسى اقتصادى ، بدعم أوروبى ، يتمثل فى اقامة امارة مارونية متعاطفة مع الغرب الكاثولىكى . وقد تم هذا المشروع فى الحقبة التى بدأت فيها معالم متغيرات أساسية ، سياسية واقتصادية ، تتمحور حول محاولات بناء مرتكزات لدولة ذات طابع مميز عن الدولة العثمانية ، بمضامينها التقليدية ، حيث كانت تجربة محمد علي باشا فى مصر وانسحابها على مجمل منطقة الشرق الاوسط ، وخاصة ما يتعلق منها ببلاد الشام (سوريا - لبنان - فلسطين وشرق الاردن) اليوم ، حيث تقاطعت هذه المحاولة مع انموذج الدولة فى الغرب ربما على أسس من الناحية النظرية ، ينطبق عليها مضمون القومية ، المدعومة أساسا ببعض دول أوروبا ، الضالعة فى المسألة الشرقية ، ذات المصالح والنفوذ البارزين فى هذه المنطقة أعنى بها فرنسا . بالإضافة الى الجانب الاقتصادى فى التنظيم الانتاجى المحلى للزراعة الصناعية (حرير ، قطن ، وتبغ) ، أو فى عملية امتلاك اسواق تجارية تصرف فيها منتجات أوروبية ، تستهلك فى هذه المنطقة ، تتعارض مع المنتجات الحرفية المحلية مستفيدة من غزارة الانتاج الآلي ، وخاصة فى مجال الحياكة والنسيج ، بالإضافة الى التدنى الضريبى على هذه المستوردات ، الامر الذى أفقد السوق الانتاجى على الصعيدين الزراعى والحرفى القدرة على المزاحمة ، رافقه نمو نفوذ الفئات البورجوازية المحلية المستفيدة من الحركة التجارية فى مجالى الاستيراد والتصدير ، على الصعيدين السياسى والاقتصادى . حيث تقدمت وبوتيرة

أكثر بروزا محاولات مركزة السلطة السياسية بأيدي من يمثل هذه التوجهات من العائلات البورجوازية الجديدة ، ذات الصلة الوثيقة بتاريخ العائلات الحاكمة ، أضف الى ذلك مؤسسات دينية ، تمتلك قدرة تنظيمية متقدمة في مجالات التأثير الايديولوجي الديني على عامة مؤمنها ، بالإضافة الى سعة في امتلاك أراض زراعية ومؤسسات للخدمات منتشرة في مناطق متعددة ، أعنى بها الرهبانيات في الاديرة .

ان هذا الامر من المتغيرات ، لم يكن ليحر دون ازمات سياسية ، وصدّامات عسكرية محلية ، انعكست في مجملها على واقع الوضع السكاني ، الذي أدى بدوره الى حركة سكانية مضطربة ، كانت نتيجة لعدم استقرار في مجالات الانتاج ، المرتبطة أساسا بالسوق العالمية بالإضافة الى واقع الانظمة والقوانين المرعية الاجراء ، حيث كانت مواقف الولاة والحكام شبه ذاتية المصالح والاهداف ، اذ كان همهم تحصيل أكبر قدر ممكن من المداخل والمكاسب باقل زمن ممكن دون النظر الى مستقبل الجماعة ومصلحة الدولة العليا ، الامر الذي سهل معه تحقيق مشاريع الانفصال والاستقلال بعد عملية ضرب القوى المعترضة ، والمتضررة مصالحها بتحقيق هذه المشاريع والتوجهات ، لذلك فقد كان الحماديون رغم ما يمثلونه في تنظيماتهم الاجتماعية والانتاجية والسياسية التقليدية ، ذات المرتكزات المتعارضة مع واقع المتغيرات ، قد شكلوا ولمدة طويلة عائقا في طريق تحقيق مشروع الامارة في الجبل ، المستقل والمنفصل عن الدولة العثمانية ومحيطه ، المرتبط عن وعي أو غير وعي بمصالح الغرب التقليدي أو الصناعي .

ومن الملاحظ أيضا أن مجموع الطائفة الاسلامية الشيعية التي ينتمى اليها الحماديون رغم تسلمها لأكبر من منطقة في لبنان ، وفعاليتها السياسية والاجتماعية في التاريخ الحديث لم تشكل في أي وقت مضى أي تصور استقلالي عن محيطها وانتماءاتها ، رغم تعدد المقولات عن التناقض المذهبي الذي افترضه المستشرقون وبعض مؤرخين محليين واعتبروه مدعاة لحركات انفصال واستقلال عن المحيط الاسلامي العام ، رغم ما يظهر في بعض الاحيان من صدّامات وخلافات ، قد تؤخذ على غير محلها ودوافعها ، التي لا تملو كونها صراعات مصالح محلية بمضامين فكرية دينية يستخدمها بعض القادة في سبيل الدفاع عن مصالحهم .

سكان جبل لبنان قبل سنة 1800 :

يقطن منطقة «جبل لبنان» حسب الاحصائيات المحلية الواردة في مخطوط «تحفة البيان في خارطة جبل لبنان» نحو 33,097 مكلفا ذكرا موزعين على 461 مزرعة وقرية ، ينتمون الى أربع طوائف ، متفاوتة العدد والدور ، اذ شكل المواردنة العدد الأكبر على مجموع السكان ، فتنوزعوا في قرى جبلية حصينة كانوا في البدء وباكثريتهم في جبة بشري ومحيطها . ثم كانت الطائفة

الاسلامية الشيعية في المرتبة الثانية من حيث عدد السكان ، الا انها كانت صاحبة الدور السياسى والعسكرى الاول فى مجريات الاحداث اذ توزعت على مجموعة قرى كانت فى الفتوح وجرود كسروان - جبة المنيطرة الكورة - البترون وغيرها . اما الطائفة الارثوذكسية فان تواجدها قد اقتصر على منطقة الكورة وبعض قرى من منطقة البترون وجبيل الساحلية . لكن المسلمين السنة رغم انهم اصحاب هذه المقاطعة فقد كان عددهم قليلا بالنسبة لباقي الطوائف واقتصر تواجدهم على بلدة غزير وجبيل وبعض قرى فى الكورة وجرد اللقلاق.

ويلاحظ ان التوزيع السكانى فى قرى جبل لبنان قد قام على أساس الانتماء الدينى المذهبى العائلى . حيث يندر تعدد الطوائف فى القرية الواحدة باستثناء البلدان ذات الطابع التجارى أو الحرفى ، كما كان فى البترون أو دوما أو جبيل وغيرها . لكن مجموع قرى موزعة فى بلاد جبيل وفتوح كسروان يلاحظ فيها وجود أكثر من طائفة حيث يختلط المسلمون الشيعة بالموارنة دون تصارض يذكر على مستوى القرية . بينما ينعلم هذا الاختلاط بين مجموع الطوائف الاخرى . أمر تستخلص منه انفتاح اسلامى شيعى تنعدم معه النوايا الانفصالية أو العدائية .

المسلمون الشيعة قبل السنة 1800 :

مع نهاية القرن الخامس عشر بدأ الوجود الاسلامى الشيعى الاثنى عشرى يظهر فى منطقة الفتوح وجبة المنيطرة بعد مرحلة من السرية اعقبت صدامات 1305 م . مع المماليك عرفت بفترة «التقية» . وذلك بزعامة المستراحية ، الذين تولوا جبة المنيطرة من قبل العسافين ، وذلك بعد قضائهم على أولاد قصاص مشايخ تلك الناحية سنة 1482 حيث أشار الى ذلك طنوس الشدياق فى كتابه اخبار الاعيان فى جبل لبنان فيقول : « سنة 1482 قوى عزم المستراحية المتبولة فى جبة المنيطرة وعزلوا أولاد قصاص من المشيخة » . هذا الامر يتطابق مع روايات المستنين فى المنطقة .

لكن دخول العشائر الحمادية وعلى رأسهم مشايخ بيت حمادة فى خدمة الامراء العسافين حكام « جبل لبنان » وازدياد نفوذهم قد أدى الى تناقض فى المصالح مع المستراحية وعشائرها الامر الذى دفع الى صدامات عسكرية انتهت لمصلحة الحماديين حيث انسحب المستراحيون من اكثر قرى فتوح كسروان وجرده باتجاه البقاع من ولاية الشام ليقموا فى المناطق الواقعة على السفوح ما بين زحلة وشمسطار ويعملوا فى الزراعة والرعى وهكذا كانت أولى الهجرات الاسلامية الشيعية . وبعد معركة مرج دابق سنة 1516 م . وانتصار العثمانيين على المماليك استمر العسافيون حكاما لكسروان وغيرها فاتخذوا غزير مركزا لهم ، حيث استعانوا بالحماديين على اخصامهم السنة مقدمى حاج فقصوا عليهم وولوهم مكانهم ، عندما ترك الحماديون مركزهم الاول فى قرية الحصين فوق غزير الى وادى علمات حيث قطنوا قرية فرحت ، ومع هذه النقلة

الجديدة انتقل مركز الثقل الاسلامي الشيعي من فتوح كسروان باتجاه جبة المنيطرة في بلاد جبيل . ومع تقارب السياسة الناتجة عن الصراع بين الامراء الحاكمين للجبل وغيرهم من الولاة كوالى عكا أو والى طرابلس أو دمشق أو بين الولاة انفسهم كان الحماديون يشكلون طرفا حليفا لاحدى المتصارعين ، لذلك فقد كانت منطقة نفوذهم تضيق أو تتسع نتيجة واقع حلفائهم حيث استطاعوا الانتقال الى خدمة الامراء السيفيين أمراء عكار بعد ان قضى هؤلاء على العسافيين سنة 1593 م .

وخلال الصراع ما بين ولاة الدولة العثمانية من جهة والامير فخر الدين من جهة ثانية على النفوذ نرى الحماديين يقفون الى جانب الامراء السيفيين ، فيضربون انصار فخر الدين الثاني مشايخ بيت الخازن اثناء غيابه في أوروبا 1613 - 1618 م . لكن عودة فخر الدين الثاني بعد تسوية وضعفه مع الباب العالي لم تكن لمصلحة الحماديين وحلفائهم الامراء السيفيين حيث ضربهم ورفع ايديهم عن بلاد جبيل بعد ان كان ولده الامير علي قد أحرق قراهم وتهيها . ثم ولى أخاه الامير يونس وذريته من بعده بلادهم بالاضافة الى تولية خصمهم أبا نادر الخازن سنة 1618 على مناطقهم . وقد ضرب الامير فخر الدين الثاني المسلمين الشيعة في كل مناطق نفوذه وذلك في الجليل الاعلى وبلاد بشارة وبلاد بعلبك .

لكن اعتقال فخر الدين الثاني سنة 1633 م . وقتله 1635 م . في الاسيستانة بعد سقوط مشروعه قد أعاد الاعتبار للامراء السيفيين وحلفائهم الحماديين ، حيث قاموا بمهاجمة حلفاء فخر الدين واتصاره وطردوهم من المنيطرة بعد احراق قراها وقتل مشايخها من المستراحية وذلك سنة 1634 . لكن المستقبل لم يكن لمصلحة الحماديين في بلاد جبيل والفتوح وجبة بشري والبترون ، ذلك ان النفوذ المسيحي في كسروان كان يزداد وخاصة بعد انتقال الكرسي البطريركي اليها ، وازدياد نفوذ الدور الاوربي في الدولة العثمانية وانتشار الاديرة وما ناله الحوازنة من تقدير ورفعة مكانة في شخص الشيخ أبي نوفل الخازن الذي دعمه الحبر الاعظم وملك فرنسا حيث تولى سنة 1659 قنصلية بيزوت ووكالة قنصلية البندقية .

ان تقلب الاوضاع السياسية نتيجة لصراع الولاة فيما بينهم كان وراء ضرب الحماديين سنة 1659 م . ، اذ تمحرق قراهم ويلاحقون لايوائهم وحمايتهم للمعنيين ، ثم ينكل بهم وبأمر من السلطان 1675 (محمد الرابع 1648 - 1687) لعدم دفعهم أموال الميري ، فلاحقهم والى طرابلس واعتقل مشايخهم رهائن عنده الى ان يدفع المال . وقد كان لوصول جماعات اسلامية شيعية من جنوب لبنان بدافع الهروب من ملاحقات والى عكا الى بلاد جبيل وعملهم لدى والى طرابلس 1676 م . حيث تولى كبيرهم المدعو أبو حيدر الملقب بـ «النمس» أمر التزام الميري ، شأن سلبى على واقع الحماديين ، حيث بدت مظاهر صراع ومزاحمة فيما بين المسلمين الشيعة . هذه المجموعة السكانية الاسلامية الجديدة استطاعت فيما بعد لعب

دور سياسى مهم على حساب مشايخ الحمادية خلال فترة قيام نظام القائمقاميتين 1843 - 1860م . وفى عهد المتصرفية، وذلك بتحالفها مع مجموعة السكان الشيعة العاملين فى الارض والمتضررة مصالحهم من الازمات السياسية ما بين الحماديين من جهة والولاة أو الامراء من جهة ثانية ، أضف الى ذلك امكانية هذه الفئة الجديدة من اقامة علاقات حسن جوار مع المسيحيين الموارنة وخاصة البورجوازية التجارية ، حيث لعبت هذه الفئة دور الوسيط ما بين المنطقة الاسلامية الشيعية فى انتاجها الزراعى والرعوى أو فى استهلاكها لمواد مستوردة عن طريق العائلات المسيحية .

رغم ذلك بقيت العشائر الحمادية تشكل القوة الاساسية فى مجرى الاحداث فى بلاد جبيل وخاصة على الصعيد العسكرى . فقد ساعدوا الامير عمر الحرفوش سنة 1680 لاسترداد امارته فى البقاع بعلبك ، لكن الامير أحمد المعني ضربهم واحرق قراها سنة 1684) لاسا ، احمج ، ايلج ، ميفوق ، اليوم ، افقا .) فقطع اشجارهم وأجل عددا منهم الى بلاد بعلبك مع عشائرتهم ، غير ان الامير المعني رفض تولي مناطقهم لما أصابها من خراب ودمار بالاضافة الى يقينه بعودتهم وعدم تخليهم بسهولة عنها ، العمل السياسى بالنسبة لهذه العشائر كره وكره : لقد استغلوا سنة 1692 موت أبى نوفل الخازن ليعاودوا الهجوم على الكورة ويضربوا العاقورة ويهاجموا ميناء جبيل حيث اغلال الكسروانيين ، لكن المعني عاد ولاحقهم من جديد بمساعدة والي طرابلس فطاردهم باتجاه البقاع حيث مات منهم فى الشلج نحو 150 رجلا . لقد اعادت معركة عين داره سنة 1710 اعتبارهم بعد ان انتصر حليفهم الامير حيدر الشهابى على أخصامه من أمراء اليمينية آل علم الدين . وردا لموقفهم من ابوائه وحمايته اثر اجباره على ترك الامارة ، ولاهم الفتوح وبلاد جبيل وجبة المنيطرة وغيرها ، حيث حاولوا فى هذه الحقبة خلق قوة مناهضة للخوازنة من العائلات المارونية كآل حبيش الذين اقطعهم الشيخ اسماعيل حمادة عقارات فى الفتوح ومنطقة لحفد ، واصدر صكا برفع جميع الاموال الاميرية عن عقاراتهم وكذلك الجزية عن خدمهم وشركائهم، ورفع المرتبات عن مواشيهم ومواشى شركائهم، وفوض اليهم جمع مال الفتوح كى يستطيعوا الوقوف فى وجه الخوازنة .

لكن تولي الامير يوسف الشهابى لبلاد جبيل من قبل والي طرابلس واعتناقه للمسيحية ساعد من جديد على ضرب المشايخ الحمادية واضعافهم وحلفائهم ، يبدو ذلك حين أوقف مشايخ آل الدحداح اراض واملاك المشايخ الحمادية للاديرة كدير البوار فى الفتوح ودير البنات فى جبيل . ولم ينته الامر ما بينهم والامير يوسف عند هذا الحد ، بل استمر فى ملاحقتهم فضربهم بالقرب من قرية افقا ، فقتل منهم مئة رجل وتعقبهم حتى القلمون اذ قتل شيخهم أبا النصر حماده . وبعد ان تولي امارة لبنان كتب صكا بملكية الفتوح ومحصولاتها التى كانت من قبل للحماية الى حلفائه مشايخ آل الدحداح الموارنة . ومما تقدم نستنتج تراجع التواجد الاسلامى الشيعى من جبل لبنان لما اصابهم من

خسائر اقتصادية وعسكرية واجتماعية ، الامر الذى دفع بهم الى المهجرة باتجاه الداخل مخلصين الكثير من مناطقهم وارزاقهم لخصامهم من الموارنة أو لفئة من أبناء طائفتهم . نتج عن هذه الهجرة قلة فى اليد العاملة الاسلامية مما أدى الى الاستعانة باليد العاملة المارونية لسد هذا الفراغ وذلك فى القرى التى كانت اساسا ملكيتها للمسلمين الشيعة . هذا ما حدث فى الفترة السابقة للقرن التاسع عشر من هجرة وتراجع وتغير فى مجال اقامة وتواجد المسلمين الشيعة فى جبل لبنان وخارجه . لكن الفترة اللاحقة لهذا التاريخ التى أحاول دراستها وهى فترة الهجرة الاسلامية الى ولاية الشام بقيت تحمل دلالة ومؤشرا لوجود اسلامى شيعى مساعد فى مجرى الاحداث كان يسمح بتقدير عودتهم الى سابق دورهم لولا المتغيرات السياسية الخارجية وحجم التدخل الاجنبى ونمو القوى الاخرى المعادية للحماية وللحماديين التى كانت كافية لوضع حد لطموحاتهم بعد ان كانوا شاركوا فى عامية لحقد ضد حكم الامير بشير الشهابى الثانى سنة 1820 وقبلها فى عامية انطلياس 1810 . كذلك فانهم سنة 1840 قد شاركوا فى حركة العصيان المسلح ضد وجود ابراهيم باشا فى لبنان حيث شكواوا الاغلبية العسكرية فى قوات أبو سمرا غانم ضد والي طرابلس من قبل المصريين وحليفه الامير بشير الشهابى الثانى فى كسروان . وبنتيجة ما قدمه الحماديون من مقاومة للمشروع المصرى فقد أعاد الوالى على جبل لبنان عمر باشا النمساوى الاعتبار لمشايخ الحمادية الى بلاد جبيل وجبة المنيطرة كحكام من قبله رغم معارضة الموارنة لذلك .

لكن تقسيم لبنان الى قائمقاميتين درزية ومارونية لم يكن لمصلحة المسلمين الشيعة فى القائمقامية المارونية حيث كان ميزان القوى يميل لمصلحة الكرسي البطريركي وحلفائه من البورجوازية حيث اتها الاقطاعيون الموارنة امام حركة الفلاحين 1859 فى كسروان واقترب نهاية المخطط الذى رسم لجعل جبل لبنان امارة مارونية والدور الذى لعبته الاديرة من شحن وتحريض طائفيين فانه يلاحظ ان مسلمى بلاد جبيل من الشيعة لم يقوموا بأى حركة معادية للمسيحيين ، لكن الحذر واليقظة والخوف من ضربة مسيحية لهم دفعتهم الى الاحتماء فى جبل حصين فوق قرية افقا محاولين بذلك الابتعاد عن الصدام العسكرى مع موارنة الفتوح وكسروان بقيادة طانيوس شاهين . لكن ذلك لم يجد نفعا فقد اضطر المسلمون سنة 1860 سنة « الهيجان » وبدون استثناء الى الانسحاب من مناطق جبل لبنان باتجاه ولاية الشام « بعلبك - الهرمل » أمام الضغط والتهديد المارونيين حيث أقاموا عند أقاربهم من العشائر التى كانوا قد سبقوهم من قبل واستقروا هناك ، تاركين وراءهم مواسم الحصاد والحرير وما اليها من منتجات زراعية عرضة للاتلاف والدمار . وقد عاد بعد ستة أشهر قسم قليل منهم بعد ان بقي القسم الاكبر حيث هاجروا ليقينهم بأن مساكنهم قد احرقت وارزاقهم قد اتلفت حيث قيمتها لجان التقدير المشكلة رسميا

ب - 14,682,743 قرشا كما جاء فى سجل مجلس الادارة رقم I -

ومع نظام المتصرفية 1861 كانت القوة الاساسية من العائلات الشيعية قد غادرت المنطقة أو كادت ، حيث لم يبق لها اراض تذكر ، كما الحال بالنسبة لمشايخ بيت حمادة وعشايرهم ونظرا لطغيان الشكل المركزي في الحكم الجديد، فقد أصبحت الوظيفة الوسيطة الوحيدة للسيطرة وامتلاك الاراضى التي كانت الدعامة الاقتصادية الاساسية فى الانتاج . لذلك فان فئة جديدة من ابناء الشيعة الذين تسلموا وظائف ادارية فى القرية ، أو خارجها قد لعبوا دورا بارزا على صعيد امتلاك الارض وتوسيع ملكيتهم التى بلغت فى بعض الاحيان ملكية القرية بكاملها تقريبا محولة صغار الملاكين الى فلاحين لديها أو دافعة بهم الى الهجرة بعد بيع أراضيهم باثمان مرتفعة ، الى اللحاق بأقاربهم فى البقاع . كما وان الوسطاء التجاريين الذين استفادوا بدورهم فى هذه الحقبة من عوامل تفتيت الملكية الزراعية فضموا اليهم عن طريق الشراء أو الزيجات أو الوصايا بعض حصص كانت لا تقوم باود اصحابها من أراضي القرى . ان انتشار عملية الرهونات التى كانت لارض أساسا لها ، مع انتشار عدد ليس بالقليل من المرابين المنتشرين فى المناطق قد ساعد على نزع الملكية من الافراد المسلمين الذين دفعوا الى لاستئانة نتيجة الفقر والحرمان فهاجروا الى بلاد بعلبك حيث كانت امكانية الانتاج الزراعى أسهل وأوفر ومردودها أغنى وأكثر . ان الازمات السياسية والاقتصادية التى عرفتها بلاد جبيل والتي دفعت الى هجرة أهلها كانت أكثر حدة منها فى المناطق اللبنانية الاخرى لاسباب منها :

1 - وضعها الجغرافى كم منطقة حدودية ما بين معاملتى الجبل ، ورغبة أمراء الجبل بضمها الى دائرة نفوذهم السياسى والاقتصادى بتوليها من والي طرابلس لغناها وتحاشيا لتولى اخصامهم السياسيين لها ، واعتمادها نقطة انطلاق لبلوغ حكم الجبل كما حدث فى عهد المعنيين والشهابيين ايام الامير يوسف وأولاده من بعده .

2 - صعوبة تعامل والي طرابلس مع أصحاب المنطقة من مشايخ بيت حمادة نظرا لعدم ايفائهم بالتزاماتهم المالية تجاهه ، مما كان يدفع به الى ضربهم اما بواسطة جيش الدولة العثمانية أو عن طريق اخصامهم السياسيين من أمراء الجبل وحلفائهم فى منطقة كسروان آل الخازن وغيرهم .

3 - ان نمو حركة التجارة التى تتطلب مركزية فى السلطة وامنا واستقرارا ، كانت تتعارض مع الذهنية العشائرية التى كانت سائدة فى وسط الحماديين ، والتى كانت تخلق تناقضا ما بينهم وبين ابناء مذهبهم من المزارعين والوسطاء والتى كانت تناقضا ما بينهم وبين ابناء مذهبهم من المزارعين والوسطاء

4 - نمو النفوذ المسيحى لدى أمراء الجبل ، وازدياد دور الكنيسة فى كسروان قد ساعدا العائلات المسيحية لآخذ دور المشايخ الحماديين فى ادارة والتزام بلاد جبيل .

5 - سياسة الحكام في معاقبة الخارجيين عن ارادتهم باتباعهم أساليب ضرب وسائل الانتاج ، من قطع اشجار ، واتلاف مواسم واحراق مساكن ، هذه ممارسات كانت تحدث كثيرا بعد كل عملية عصيان دون تمييز بين الفاعلين والابرياء من أهل المنطقة الامر الذى دفع الى عدم الارتباط بالارض والتشبث بها .

جميع هذه الاسباب وغيرها قد ساعدت على عدم استقرار الشيعة فى بلاد جبيل ، مما دفع بهم دائما الى الهجرة باتجاه البقاع حيث استقروا فى السفوح الشرقي للسلسلة الغربية حيث كان لهم أقارب وحلفاء من الحرافشة وغيرهم من عشائر الهنوند ، تاركين وراءهم الاراضى يدفع ميرتها من تخلف عن الهجرة فيستعين على ذلك ببيع أو رهن جزء منها للملتمى الميري . كما ان الجراد الذى كان يأتى المنطقة فيضرب مواسمها الزراعية قد ساعد بدوره أيضا على افقار الناس وتخليهم عن أرضهم ، يضاف الى ذلك حاجة البقاع الى اليد العاملة وبسهولة استعمال أراضيه الزراعية ومردود هذه الاراضى وشروط المشاركة عليها ، وامكانية الهروب من دفع الضرائب على المواشى وعدم وجود ضرائب تدفع على الاراضى ، أمور ساعدت على الهجرة . ويلاحظ أيضا ، ان تدنى أسعار الحرير بالنظر للمزاحمة الخارجية كما تشير وثائق كثيرة من مرسليليا ، أو نتيجة ازمتات سياسية فى فرنسا ، أو نتيجة لاقبال المواسم فى الشرق الاقصى ، أو فى قبرص ، قد ساعدت بدورها على خلق ازمتات اقتصادية كانت تدفع الى المهاجرة .

كما ان السماسرة لدى تجار الحرير يأتون المزارعين متخذين كل أنواع الخداع والغش فيختلسون ثمرة اتعابهم ، فيسرقون من حساب الوزن والشن ، فيدفعون ببعض نقود زائفة أو ليرات ذهبية ناقصة نظرا لانعدام وسائل الرقابة الحكومية ، حيث يعرض أهالى جبيل فى تقرير لمكلفى الحكومة من : « ان أهالى بلاد جبيل يشكون من زيادة اثمان الاغلال عليهم ، واخذ الحرير منهم بالوزن الكبير وبأسعار حطيطة ، وذلك من التجار الذين يعاملونهم » . وكذلك أهالى جاج يعرضون : « يعرض عبيدكم أهالى جاج بأن انحواجه فارس ولحود له حسابات عندنا من جملة سنين وحسب علينا رباء ورباء الربا وزوايد عن ذلك وفرق حرير فى السعر والوزن واخذ منا أرزاق بدون ثمن » . اضافة الى ذلك فان اصابة المواسم بالامراض قد ساعدت بدورها على الهجرة الى الداخل والخارج خاصة فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر وباتجاه أميركا فافرغت القرى من قواها المنتجة الشابا ليحل محلها عمل الاطفال والنساء الضعيف . ان واقع هذه الهجرة المستمرة حتى يومنا هذا ، يبدو لافتا للنظر . فاذا لم يتم تدارك أسبابه فان المنطقة قادمة على زوال جزء من أهلها ، وهذا الامر يتعارض مع مستقبل التعايش والعيش المشترك فى لبنان . لذلك وجب الانتباه الى دروس التاريخ عن طريق الاخذ بنتائج احداثه السابقة التالية :

أولا : ترسخ في هذه الفترة الممتدة على نحو من خمسمائة سنة صراع ما بين المسلمين الشيعة انفسهم ادى الى اضعافهم وضربهم بعضا ببعض ، حيث هاجر قسم كبير منهم اتجاه البقاع (ولاية الشام) كما الحال بالنسبة للصراع المستراحي الحمادي ، الامر الذي ادى الى افتقار مناطقهم لليد العاملة والمنتجة ، فاستعانوا بالعديد من العائلات الفلاحية المارونية لسد هذه الحاجة وخاصة في مجالات الزراعة والرعي .

ثانيا : برزت وبشكل واضح الانقسامات في صفوف المسلمين الشيعة على أساس مصالحهم الاقتصادية ، حيث تكونت نتيجة ذلك فئات اجتماعية ثلاث ، لكل فئة عاداتها وتقاليدها ، ان مفاهيم وعادات وتقاليدهم وقيم العشائر الحمادية قد اثرت في الفئتين الاخرتين فطبعتهما بطابعها العشائري المميز .

ثالثا : نتيجة الصراع السياسي مع السلطات المحلية المتمثلة بالولاية ومصالحهم التي هي في الأساس فوق مصلحة الدولة العليا في الجسوب وفي البقاع وفي الشمال ، بالإضافة الى الصراع الداخلي على المصالح ما بين اللبنانيين انفسهم وخاصة في صراعهم مع الموارنة اصحاب المشروع السياسي في كل من جبة بشري ومنطقة البترون وبلاد جبيل وفتوح كسروان بالإضافة الى صراعهم مع الامارة في المعاملة الجنوبية ، فان الذهنية الاسلامية الشيعية للعامة قد حملت ترسبات ومفاهيم ربما مغلوطة حول عادات وتقاليدهم الاخصام ، وبقيت هذه الترسبات تؤثر في مجرى العلاقات ما بينهم والآخرين .

رابعا : ان القتال المستمر والسياسة التي اتبعها مشايخ الحمادية تجاه عشائرتهم وخاصة ما يتعلق منها بالسياسة الزراعية قد اثرت وبشكل ملحوظ في عدم استقرار هذه العشائر وميلها الى حياة تعتمد الغزو والقتال كمصدر للرزق والعيش ، أمور ساعدت فئة من المسلمين الشيعة عملت في الزراعة والرعي واستقرت أخذة بالدفاع عن مصالحها بطرق متعددة حيث نتج تناقض أدى الى صراعات خرجت بنتيجتها هذه الجماعة المعارضة بعد تحالفها مع البورجوازية المارونية الى ضرب الحمادية وطردهم نهائيا من المنطقة .

خامسا : على الصعيد السكاني فان الحروب المستمرة وعلم الاستقرار السياسي والاجتماعي قد ساعدت على انخفاض عدد السكان باطراد عن طريق دفعهم باتجاه الهجرة المستمرة الى الداخل بأفراغ الجبل تقريبا من المسلمين الشيعة ليصبح البقاع مركز ثقل وتجمع جديدين للعشائر المنتمية بأصولها الى كل من كسروان وبلاد جبيل والبترون .

سادسا : ان سياسة الارض المحروقة التي اتبعها الحكام في صراعهم مع المشايخ الحمادية في حرق البيوت وقطع الاشجار المثمرة المنتجة ومصادرة الاغلال وزيادة الضرائب وغيرها أمور أدت الى خراب الممتلكات وخاصة الزراعية منها التي صعب استعمالها فيما بعد وادى الى افقار اصحابها وعدم

ميلهم الى استخدامها وهجرها لعدم توفيرها « لميرتها » مما دفع أصحابها الى عدم الارتباط والدفاع عنها فباعوا بأبخت الاثمان أو وهبوا دون مقابل أو أوقفوها للاديرة أو رهنوها عند ملتزمى الميري من عائلة لحد حيث تحولت فيما بعد ملكا لهم ليحولوها بدورهم الى احراش تهربا من دفع ميرتها .

ان الوثائق المعتمدة فى هذا البحث ستبقى ناقصة اذا لم يقدر لغيرها ان تقع فى أيدي باحثيين ، حيث تستكمل الصورة ويعم النفع وتكون العبر .

د. رباح ابي حيدر

قسم التاريخ - الجامعة اللبنانية

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الصور الفوتوغرافية كمصدر لدراسة تاريخ القرن التاسع عشر من خلال أرشيف مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول

د. أكمل الدين إحسان أوغلي (*)

من العلوم ان اختراع آلة التصوير حدث في اغسطس عام 1839 على يد الرسام الفرنسي داغير Daguerre . ومنذ ذلك التاريخ بدأ ذلك الفن يتشهر بسرعة فائقة على مدى قرن ونصف في شتى انحاء العالم . وقد وجد هذا الاختراع عند العثمانيين عناية في التطبيق سايرت العناية التي حظي بها عند الأوروبيين . فمن المعروف ان أكاديمية العلوم الفرنسية اخذت عام 1839 بأصول التصوير عند داغير ثم تم اعلانها في الدولة العثمانية بعد سبعين يوما ، أي في 28 أكتوبر 1839 (19 شعبان 1255) واطلع عليها الرأي العام العثماني ، اذ بدأت جريدة تقويم الوقائع التركية الصادرة في ذلك اليوم تنشر المعلومات التي اوردتها الجرائد الأوروبية حول هذا الموضوع بعد فترة قصيرة من ظهور الاختراع في اوربا . وبعد عامين نشرت (جريدة حوادث) التركية في عددها الصادر في 15 اغسطس 1841 (26 جمادى الآخرة 1256) ان كتاب فن التصوير الذي ألفه داغير الفرنسي قد وصل تركيا وتمت ترجمته الى اللغة التركية . وبعد هذا التاريخ بعام واحد نشرت نفس الجريدة في عددها الصادر في 17 تموز / يولية 1842 م (8 جمادى الآخرة 1258 هـ) إعلانا شديدا انتباه الجميع اذ جاء فيه ان المسيو قويا احد تلاميذة المسيو داغير قد وصل استانبول ، وان سعر تصوير الشخص او عدة اشخاص معا يتراوح بين 100 و 150 قرش ، وان سعر تصوير احد الأماكن يتراوح بين 125 الى 1000 قرش تبعا لحجم الصورة ، وهكذا بدأ المصورون اعمالهم في استانبول وشرعوا يبحثون عن زبائنهم على صفحات المجلات والصحف .

وعلى الرغم ان بعض المصادر تذكر ان أول معمل للتصوير قد فتحه من يدعى بسكال سباه عام 1857 في حي (بك اوغلي) في استانبول ،

(*) أ. د. أكمل إحسان أوغلي مدير عام مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول التابع لمنظمة المؤتمر الاسلامي ، ورئيس تاريخ العلوم بكلية الآداب جامعة استانبول .

وان معمل التصوير الذي اقامه الاخوة عبد الله قد اعقب ذلك مباشرة الا أننا نرى على ظهر ورق مقوى لأحد الصور التي سحبت في استديو قارغو بولر (Kargo Poulo) انه تأسس في استانبول 1850 .

ومنذ ذلك بدأت تتزايد معامل التصوير ، وتزايد العاملون في هذا الفن حتى اتجهت اليهم انظار السراي العثماني ، فكان المصورون الذين يتالون اعجاب السراي يحصلون على القاب مثل «رسام ومصور الذات الشاهانية» يكتبونها بحروف الذهب خلف الصور التي يلتقطونها . بل وقام الاخوة عبد الله بفتح فرع لهم في القاهرة بتشجيع من خديو مصر .

وفي عام 1867 اقام الاخوة عبد الله هؤلاء جناحا في معرض باريس الدولي عرضوا فيه صورهم تحت عنوان «مناظر استانبول من خلال الصور والأسلحة التركية التاريخية» فحازت هذه المجموعة اعجاب وتقدير الجميع .

ولم ينحصر اهتمام السراي العثماني على معامل التصوير القائمة في استانبول فحسب ، بل نعلم ايضا ان بعض الرحالة الأوربيين قدموا البومات للسراي ، وان هذه الألبومات حازت اعجاب السلاطين . وهكذا فإن مجموعة الصور التي بدأت تتكون داخل السراي مهدت السبيل لانشاء معامل للتصوير داخل بعض المؤسسات الحكومية ، وخاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، اذ أصبح التصوير على درجة من الأهمية جعلته يحتل مكانا بارزا في كثير من المرافق الرسمية . فرأينا معامل للتصوير في كثير من الدوائر الحكومية ، وعلى راسها الأركان الحربية والقيادة العسكرية العليا ونظارة البحرية والمهندسخانة البرية وقيادات الجيوش ودار العجزة وغيرها . ويمكننا التعرف على نشاطات هذه المؤسسات في مختلف بلدان الدولة العثمانية من خلال الصور التي التقطت واعدت في معامل هذه المؤسسات . كما تم تشكيل هيئات في بعض الوزارات والمؤسسات طافت انحاء الأناضول وولايات الدول المختلفة عربية كانت أم اوربية وسجلت ملاحظاتها من خلال الصور .

وعلى سبيل المثال يمكننا التعرف على مختلف الانشطة والتطورات التي جرت في ساحة العمليات اثناء الحرب التركية اليونانية عام 1897 م ، وذلك من خلال الصور التي التقطها الجنود المصورون تنفيذا للارادة السلطانية . كذلك كانت تقوم الإدارات المحلية في ذلك العهد بحصر وتوثيق اعمالها وخدماتها عن طريق البومات الصور .

كذلك قام من يدعى أبو بكر حازم تبيران احد رجال الدولة العثمانية بتسجيل المهام التي انجزها عندما كان متصرفا على (دده اغاج) (1896 - 1898) من خلال مجموعة من الصور التقطها بنفسه وجعل منها البوما قدمه للسراي العثماني ، فلقي الألبوم استحسانا عظيما وحظي صاحبه بتقدير السراي .

وقد اقيم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني معمل للتصوير داخل سراي يلديز بمقتضى ارادة سلطانية ، تم فيه تصوير العائلة والمنسوين للسراي والعاملين فيه .

والى جانب هذه الألبومات التي ظهرت من خلال السبل التي ذكرناها فقد كان هناك البومات يهديها ملوك ورؤساء الدول الأجنبية للسراي العثماني ، وألبومات اخرى يتم الحصول عليها بغرض تتبع التطور الصناعي والتقني في اوربا على وجه الخصوص ، حتى تكونت منها جميعا مجموعة ضخمة من الألبومات عرفت بألبومات سراي يلديز .

ولم يكن العثمانيون يستخدمون الصورة مصدرا للمعلومات من اجل انفسهم فحسب ، بل اعدت في نفس الوقت ألبومات ارسلت خارج حدود الدولة لمقاصد مختلفة ، فكان القصد من اعداد ستة وثلاثين ألبوما وارسالها الى مكتبة الكونجرس الأمريكي بواشنطن عام 1893 م هو هو للتعريف بالدولة العثمانية وابراز جوانبها السياحية ومساعدة الباحثين في استجلاء تاريخها .

ومجموعة البومات سراي يلديز تضم صورا تم التقاطها من عام 1865 حتى عهد الدستور الثاني على ايام السلطان عبد الحميد الثاني . وان اقدم هذه الألبومات هي التي تضم صورا للقدس وتحمل تاريخ 1865 م ، وصورا عن جبل لبنان تحمل تاريخ 1866 م ، وصورا عن مصر وسورية ، وصورا معرض باريس الدولي عام 1867 م ، والصور الخاصة برحلة السلطان عبد العزيز عام 1867 الى اوربا وهو يتابع تدريبات «اقامة المعابر» على ساحل نهر الطونة في النمسا .

وقد انتقلت مجموعة البومات يلديز هذه الى مقتنيات المكتبة المركزية لجامعة استانبول عام 1924 ثم آلت الى مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الموجود حاليا داخل قصر يلديز ، فكأنما عادت الى بيتها الأول ، وذلك بموجب اتفاقية خاصة بحق تجديد وفهرسة ونشر

هذه المجموعة الفوتوجرافية الفريدة التي يبلغ عدد صورها 35,000 صورة تمثل مادة ارشيفية ثرية خدمت الباحثين داخل شروط معينة في المكتبة المركزية لجامعة استانبول من عام 1924 حتى عام 1983 .

هذا بالإضافة الى عدة مجموعات اخرى خاصة بالمركز قام بضمها لهذه المجموعة الأساسية سواء كان عن طريق الصور الأصلية التي حصل عليها ام عن طريق الطبع عن الصور الأصلية ، وعلى سبيل المثال فإنه يوجد بين الصور التي اضافها المركز الى مجموعة يلديز الأساسية صور المرحوم فخر الدين باشا الذي كان قائدا للجيش العثماني في الجراز ، وهي الصور التي التقطها المرحوم بنفسه ، واهداها الى المركز ولداه الجنرال المتقاعد سليم ترك قان واخوه الجنرال المتقاعد ايضا اورخان ترك قان :

ويمكننا تقسيم موضوعات ارشيف الصور الفوتوغرافية التاريخية بالمركز الى الخطوط الرئيسية الآتية :

- 1 - مناطق سكنية متعددة تصل حتى القرى والنجوع داخل حدود الدولة العثمانية وولاياتها المختلفة .
- 2 - مباني الخدمة العامة والآثار التاريخية والمؤسسات الصناعية والزراعية ، وصور الحياة التجارية ، وغير ذلك من موانئ وارصفة وسكك حديدية .
- 3 - مؤسسات تعليمية وصحية .
- 4 - اعمال البناء والترميم .
- 5 - صور الأشخاص .
- 6 - صور مختلفة تخرج عن الموضوعات السابقة :

واستنادا على هذه الإتفاقية الخاصة التي تمت بين المركز ومكتبة جامعة استانبول فقد اقام المركز معملا فوتوغرافيا بالإضافة الى تأسيس وحدة خاصة للفهرسة والتصنيف ، بدأت بتقويم هذه المجموعة بالأسلوب العلمي الصحيح . وقد درست وقومت حتى اليوم 25 ٪ تقريبا من صور هذه المجموعة .

يضم هذا القسم الذي قمنا بالدراسات الأولية عليه ، 41 البوما و 1850 صورة ، خاصة بالولايات التابعة للدولة العثمانية ، والتي تشكل ألبوم العالم العربي .

قامت هذه الدراسة اساسا على الصور التي تحدثنا عنها سابقا .
وان موضوعات هذه الصور التي تعود الى الأعوام 1867 - 1910 مختلفة
متباينة ، وتعتبر مصادر اصلية لدراسات اكااديمية متنوعة . وبصورة خاصة
ان الحياة الاجتماعية وبعض الأحداث في بلاد الشرق وشبه الجزيرة
العربية ، قد وثقت بهذه الصور . ان بعضا منها في القسم الذي تم فهرسته
في المركز ، يصور الأبنية الرسمية والأهلية . وان قسما من هذه الأبنية
صار بمثابة آثار تاريخية ، والقسم الآخر يصور الثكنات العسكرية ومراكز
الشرطة والمدارس والمستشفيات والقصور والجوامع والأضرحة والتكايا
والخانات والحمامات والأسواق ومحطات القطارات ومباني البرق والبريد
ودوائر الدولة الرسمية . وقد التقطت هذه الصور خلال تشييد او ترميم
هذه الأبنية . وهناك قسم آخر منها يعتبر وثائق لحركات الاعمار العامة .
والمثال على ذلك : مجاري المياه والقنوات والأسبلة والمراسي والموانئ
والسكك الحديدية واسلاك البرق .

ويمكننا ان نذكر هنا مختلف المؤسسات الصناعية الصغيرة والكبيرة
التي كانت تقوم بنشاطاتها آنذاك ، كما يلتفت النظر ايضا عدة موضوعات
اخرى امكن تسجيلها بالصورة ، نذكر منها على سبيل المثال النباتات
الطبيعية ومواسم الحصاد والآلات والأدوات الزراعية والمنتجات الصناعية
والمعارض المختلفة التي ضمت هذه المنتجات .

ونرى من الفائدة بمكان ان نشير هنا ضمن هذه المجموعة الضخمة
من الصور التي سجلت مسار الحركة في زمانها الى قسم من الصور في
موضوع آخر في الحياة اليومية وهو : صور المناظر الخاصة بالمدن والقرى .
فهذه الصور مصادر على درجة كبيرة من الأهمية ، يمكن بعد دراستها
بدقة ان نتعرف على شكل الحياة الاجتماعية في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر .

اذ يمكننا من خلال النظرة الأولى في صورة لسوق صغير في زقاق
ان نتعرف على طبيعة الزي آنذاك ، وعلى بائعي الملابس وطريقة عرض
البضائع ، وبعض المعلومات عن جانب من الحياة في ذلك الزقاق . كما
يمكننا من خلال مثل هذه الصور التعرف على اماكن الترفيه وبعض الألعاب
وغيرها من انماط الحياة في المجتمع .

د. اكمل الدين احسان اوغلي

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

اصلاحات حبيب باشا في ولاية الحجاز

1848 - 1849

كما جاء في الوثائق العثمانية

د. محمد عبد الله آل زلفه

ظلت الحجاز بماو فيها من أماكن مقدسة تحظى باهتمام ملوك وحكام المسلمين لما لهذه البلاد من حرمة وقُدسية لدى الجميع . ولكن المصادر العربية وبخاصة ما ألفه مؤرخو الحجاز أنفسهم تجمع على أن الدولة العثمانية بزت في اهتمامها بأحوال هذه الديار المقدسة كل من سبقها من الحكومات الإسلامية . وكان الخلفاء العثمانيون أول من تلقب بلقب خادم الحرمين الشريفين (١) لتقديرهم البالغ بمكانة الحرمين الشريفين وأهميتهما وقُدسيتهما .

ويعود اهتمام العثمانيين بالحجاز الى فترة مبكرة جدا على بداية دخول الحجاز في تبعيتهم رسميا عام 1517 حينما أوفد شريف مكة ابنه الى القاهرة معلنا مطاعته للسلطان سليم الاول (2) .

فمن الثابت ان العثمانيين كانوا يبعثون قبل ذلك باعطيات سنوية الى مكة لتوزيعها على اشرافها وساداتها وفقرائها وهي ما كان يعبر عنه بالصرة والتي كان يبعث بها سنويا مع قافلة الحجاج (3) .

وتشير المصادر أيضا الى ان مقدار ما أوقفه آل عثمان على البلاد المقدسة من أوقاف في انحاء متفرقة من أراضي الامبراطورية يفوق بكثير ما أوقف عليها من قبل .

(١) لما عاد السلطان سليم قافلا الى بلاده بعد ان تم له فتح مصر والحجاز وأثناء توقفه في حلب حضر صلاة الجمعة في جامعها فخطب دعاءه بقوله اللهم انصر خاقان البرين وسلطان خادم الحرمين الشريفين . ارتاح السلطان للقب وسجد شكرا لله واستمر هذا الدعاء لخلفاء آل عثمان منذ ذلك الحين . وبعض الروايات تذكر ان السلطان رمم المسجد الاموى بدمشق وعندما صلى الجمعة دعا له الامام وازاد خادم الحرمين . انظر محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق احسان حقي ص 193 دار النفائس بيروت 1981 .

(2) النهروالي ، محمد بن احمد البرق اليماني في الفتح العثماني ، منشورات دار اليمامة 1387/ 1967 ، ص 26 .

الاعلام باعلام بيت الله الحرام طبع على هامش كتاب خلاصة الكلام لدحلان القاهرة 1305 ص 47

(3) ضياء قاريجي ، خدمات الدولة العثمانية للحرمين الشريفين ، المجلة التاريخية المغربية السنة الثانية عشر العدد 39 - 40 ديسمبر 1985 ص 583 - 589 .

الاعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام لمؤلفه احمد زين دحلان القاهرة 1305 ص 173 احمد السباعي تاريخ مكة ج 2 مكة 1378 5 ص 5 .

وبقيت هذه الاوقاف وما تدره من ريع يشكل أحد المصادر الرئيسية للاتفاق على الديار المقدسة وأهلها .

ثم لو قبلنا صفحات التاريخ لوجدنا ان اول من اعتنى بعمارة الحرمين الشريفين العناية الفائقة وعلى مدى ما ينيف على أربعة قرون هم العثمانيون .

اذ ما زالت مظاهر الفن العمراني العثماني في الحرمين الشريفين بارزة ماثلة جنباً الى جنب مع التوسيعات والتحسينات التي قامت بها حكومة المملكة العربية السعودية حيث فاق ملوك آل سعود في اهتمامهم برعاية الحرمين الشريفين وحمايتهم وخدمتهما ما كان عليه اسلافهم سلاطين آل عثمان .

لم تهمل الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان شؤون الحجاز حتى في أحلك ظروفها الاقتصادية والسياسية وكانت ولاية الحجاز تعامل معاملة خاصة . وما كان يحدث من تقصير فانما كان مرده في الدرجة الاولى الى سوء تصرف الادارة المحلية في الحجاز نفسها ، والصراع التقليدي الذي كثيراً ما كان ينشب بين الولاة والاشراف وهو في معظمه صراع على السلطة خصوصاً ان الخطوط الفاصلة بين صلاحيات كل من الشريف والوالي لم تكن واضحة .

كان لهذا الصراع انعكاسات سيئة على أوضاع الحجاز الاقتصادية والاجتماعية - وجر على أهالي الحرمين من الويلات ما لا يعلمه الا الله من غياب الامن وانعدام الاستقرار - فكان بعض أطراف الصراع يوعز الى القبائل بقطع الطرق واشاعة الفوضى كوسيلة للطعن في مقدرة الطرف الثاني على ضبط الامور في الولاية فاذا ما تحقق الهدف بازاحة الطرف الخصم أخذ في شن الحملات على القبائل التي اثارها بالامس فأدى هذا الى تمرد القبائل واثارتهم للقبائل لعدم ثقتهم في حكومة الولاية اما الحكومة المركزية في استانبول فلا يصلها الا تقارير متضاربة من الخصمين كل يبريء ساحته وينتهم خصمه .

وهكذا بقي حال القبائل تستمال لتأييد طرف على آخر وتلمي شروطها وتستوفي أموالاً طائلة من خزينة الدولة فاذا ما انقطعت لسبب من الاسباب عادت الى عاداتها الاولى في ممارسة النهب والسلب والحكام متهمكون في صراعاتهم . ويكاد ان يكون هذا حال ولاية الحجاز حتى نهاية حكم العثمانيين الهاشميين معا في الربع الاول من القرن الحالى حين قبض الله لهذه البلاد المقدسة ملكاً عظيماً حكم في أهلها كتاب الله فارهب به أعداء الله وأعداء زوار بيت الله ذلك هو الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله .

بعد هذه المقدمة نأتى الى الموضوع الذي خصصت له هذه الدراسة وهو القاء الضوء على اصلاحات الوالى حسيب باشا اذ لا يخلو عصر من العصور من الرجال المصلحين المخلصين واصلاحات حسيب باشا لم تكن لتقتصر على النواحي الاجتماعية فحسب بل امتدت لتشمل نواحي أخرى . وما كان سيتأتى

لنا انه نتعرف على أعمال حسيب باشا أمام صمت مصادرنا العربية والاجنبية أيضا لولا ما تيسر لهذا الباحث من كشف بعض من وثائق فترة هذا الوالي في أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول وعلى مدى فترات متعددة من البحث في هذا الارشيف عن وثائق الجزيرة العربية حيث أصبح من الثابت والمؤكد انه اذا ما تم الكشف عن وثائق أرشيف رئاسة الوزراء فان ذلك سيجعلنا نعيد النظر في كثير مما كتب عن تاريخ جزيرة العرب ومن المؤكد أيضا أن ما ينطبق على جزيرة العرب ينطبق تماما على بقية وطننا العربي الكبير في حالة الكشف عن الكم الهائل من وثائقه في دور المحفوظات العثمانية والتي تغطي أربعة قرون من تاريخه .

أما حسيب باشا ، يا حضرات السادة ، فقد صدرت الارادة السلطانية بتعيينه واليا على الحجاز (4) في أواخر سنة 1264/ 1848 وكان وصوله الى مدينة جدة مقر الولاية في غرة شهر محرم سنة 1265 / نوفمبر 1884 ويأتى حسيب محمد باشا الوالي الحادى والاربعون فى عداد الولاة العثمانيين الذين تولوا ولاية الحجاز منذ دخولها فى طاعة العثمانيين فى عهد السلطان سليم الاول وذلك فى عام 1517 م . ويأتى الوالي الثالث (5) منذ عودة الادارة العثمانية المباشرة على الحجاز اثر انسحاب القوات المصرية منها 1257/ 1840 م .

وكان جديدا على هذه الولاية على عكس سلفيه فانهما كانا من الموظفين العثمانيين الذين خدموا فترة طويلة فى مشيخة الحرم المدنى (6) بالمدينة المنورة الذى لم أجد له ترجمة ما عدا ما ورد عنه لدى مؤلف سجل عثمانى .

وحسيب باشا يعد من رجال الدولة القديرين ذو خبرة طويلة ودراية وحنكة فى أمور الدولة .

ولد حسيب باشا عام 1320 هـ . / 1805 م . وتدرج فى أعمال ومناصب رفيعة فى الدولة فى العاصمة استانبول وخارجها ففى عام 1250/ 1834 أصبح ناشرا

(4) لم يكن يسمى والى الحجاز بل كان يدعى والى جدة وسر عساكر الاقطار الحجازية واحيانا تضاف مشيخة الحرم المكى الى والى جدة وقد بقيت جده مقر ولاية الحجاز الى عام 1688 هـ حينما انتقل مقر الوالى الى مكة المكرمة . انظر سليمان باشا فى سياحة تامة مخطوطة فى مكتبته ثم اصبح شيخا للحرم المدنى خلفا لعثمان باشا وعندما عزل عثمان باشا من ولاية جده خلفه شريف باشا واليا ثم عاد الى المدينة بعد عزله مجاورا وبراتب تقاعدى قدره 10000 قرش . انظر الوثيقة رقم 11299 تاريخ 25 جماد الاول 1265 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(5) انفرد صالح الهمرو فى كتابه

The Hijaz under Ottoman Rule, 1869-1914 - Riyadh University Press 1978 P. 253.

بأن جعل حسيب باشا الوالى الرابع وذلك باضافة اسم كامل باشا كثنائى والى فى عداد ولاة الحجاز للفترة الثانية ولم نجد ما يؤيد ما ذهب اليه فى المصادر والمراجع التى بين ايدينا .

(6) كان عثمان باشا اول والى عثمانى فى العهد العثمانى الثانى وكان يشغل قبل ذلك مشيخة الحرم المدنى ثم خلفه شريف باشا وكان من موظفى مشيخة الحرم المدنى لفترة طويلة زادت عن اربع عشرة سنة .

للاوقاف وفي عام 1252/1836 أعطى رتبة الوزارة وأصبح ناظرا للخزينة الخاصة وفي عام 1254/1838 أضيفت اليه أعمال نظارة الاوقاف ثم أصبح واليا لسلانيك ثم أعيد الى العاصمة ليصبح في عام 1256/1840 رئيسا لمجلس «والا» ثم عزل وعين مفتشا في الاناضول وفي عام 1260/1844 عين ناظرا للاوقاف للمرة الثالثة ثم في شوال عام 1264/1848 عين واليا لجدة وبعد عزله من جدة عاد الى استانبول لتولى نظارة الخزينة الخاصة ثم ناظرا للاوقاف ثم ناظرا للمالية ثم مراوحا بين الاوقاف والمالية والخزانة الخاصة الى ان أحيل على المعاش . وكانت وفاته في عام 1286/1869 (7) .

الوضع في ولاية الحجاز عشية تولي حبيب باشا :

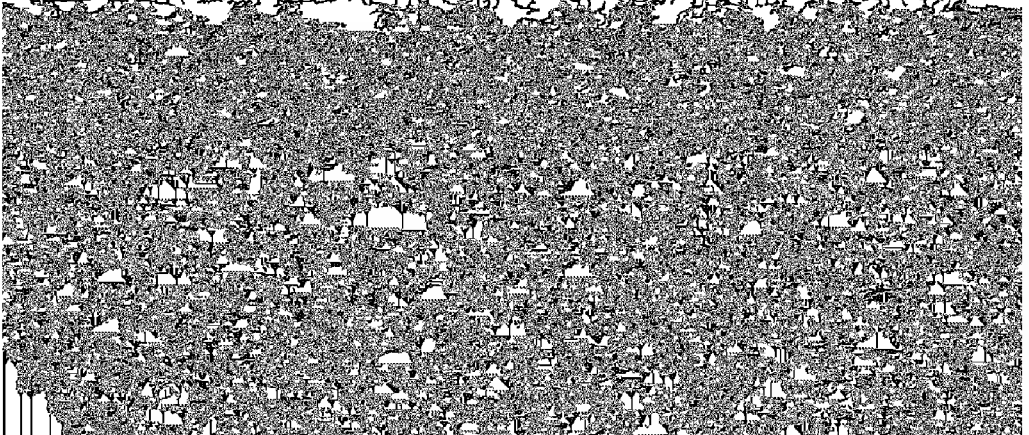
مضى على ولاية الحجاز سبع سنوات منذ عودتها تحت الادارة العثمانية المباشرة . انقضت جميعها في محاولات جادة من قبل الولاة السابقين لحسيب باشا وبصفة خاصة عثمان باشا في اعادة السلطة العثمانية وترسيخها ليس على الحجاز فحسب بل على الجزيرة العربية بشكل عام ان أمكن وكان عثمان يدرك ان فرض سلطة الدولة المباشرة على المناطق خارج الحجاز أمر مستحيل في ظل الظروف الاقتصادية والعسكرية الصعبة التي كانت تعاني منها الادارة العثمانية ، هذا بالإضافة الى ثقل التركة التي ورثوها من جراء حكم محمد علي للاجزاء التي امتد اليها حكمه حيث كان التذمر من وطأة ذلك الحكم الذي عرف بالقسوة والجور ، هو الشعور الذي كان يسود معظم سكان هذه الاجزاء . ناهيك عن الحروب التي لم ينفي لها اوار ضد حملات محمد علي والمتعاونين معه وخاصة في منطقة عسير ، اما الاجزاء التي دخلت تحت حكم محمد علي مثل بعض أجزاء اليمن الاسفل ونجد فلم يكن دخولها بمحض ارادة أهلها بل كان مفروضا عليهم بالقوة وظل وجوده مفروضا بواسطة الحاميات المصرية التي كانت ترابط في قلاع تلك البلدان . فلما صدرت وأمر محمد علي باشا الى تلك الحاميات بالانسحاب والعودة الى مصر ، حدثت خلخلة سياسية وفراغ يصعب على الادارة العثمانية الجديدة ان تملأه . بيد ان عثمان باشا واجه هذه الظروف بحكمة وبعقل مستخدما سياسة الملاينة مع زعماء القوى السياسية في الجزيرة العربية ، الامر الذي تمكن من خلاله في الحصول على اعتراف زعماء هذه القوى بالسلطة العثمانية ولو اسميا .

كان اول من سارع الى الاعتراف بالسلطة العثمانية الجديدة والانضواء تحت لوائها من الامراء العرب كل من الاخير خالد بن سعود امير نجد والشريف الحسين بن علي حيدر المتوكل على ابو عريس والسواحل اليمنية . ومن الملاحظ ان هذين الزعيمين تسلما مهام السلطة في بلديهما بالتعيين من قبل محمد علي

وان انسحاب القوات المصرية يعرض نظاميهما للسقوط ما لم تدعمهما السلطات العثمانية . لم يكن عثمان باشا براص عن هؤلاء الحكام المحليين المعروفين بارتباطهم بمحمد علي لانه كان يفضل ان يتعامل مع حكام مقبولين من شعوبهم قادرين على احلال الامن والسلام في بلادهم وصادقين في تعاملهم مع الدولة العثمانية من خلال اعلان ولاءهم الاسمي لها فنجدته يسارع الى الاعتراف بنظام الامير عبد الله بن ثيان في نجد الذي ثار على الامير خالد بن سعود لان ابن ثيان يمثل القاعدة الشعبية وقادر على ضبط احوال الامارة وليس له سابق ارتباط مع محمد علي (8) . كما نجده لا يوافق الشريف ابن عون على شن حرب على امير عسير رغم ان عسير لم تعترف لا ضمنيا ولا اسميا بالسلطة العثمانية ولكن اميرها عايش بن مرعي اكده للسلطات العثمانية في الحجاز عن رغبته في اقامة احترام متبادل بين الطرفين وتعهده بعدم التعدي على حدود ولاية الحجاز طالما الاخيرة لم يقوم باية محاولة عدوانية على بلاده .

وبطبيعة الحال لم يكن الشريف محمد بن عون راضيا عن سياسة عثمان باشا الرامية الى اعادة تشكيل البنية السياسية في المنطقة مستهدفة كل ما تم بناؤه في خلال الثلاثين السنة الماضية او بعارة اخرى فان عثمان باشا فيما يبدو كان يريد لها ثورة على كل ما تركه نظام حكم محمد علي من بصمات في الحجاز وقد استهدفت سياسته هذه حتى الشريف نفسه لكونه واحدا من ركانز محمد علي في الحجاز . وقد اعلنها عثمان باشا صراحة حينما طالب الباب العالي بعزل الشريف ابن عون واحضار الشريف عبد المطلب بن غالب المقيم في استانبول والمعروف بعدائه لمحمد علي ليحل محله (9) ولم يتورع عثمان باشا من تحديد صلاحيات الشريف ابن عون حتى ما كان يتعلق منها بشؤون القبائل التي تعد من اخص خصوصيات صلاحيات الشريف .

وقد عبر الشريف ابن عون في تقرير مطول رفعه الى محمد علي باشا يشكو فيها بمرارة عن الحالة السيئة التي بلغ بها وضعه الذي لم يعد يحتمل مع الوالي عثمان باشا نقطف منه ما يلي : منذ عام 1259 هـ وهو (اي عثمان باشا) يظهر الاغبرار لنا واذا كان قد تم القيام من جانبنا حسب العادة برعاية اي مصلحة من مصالح العربان نراه يقول ان هذه المصلحة ايضا من لواحق ايالة جدة وانا



المجربين المحنكين منذ عشرين او ثلاثين سنة الذين كنت قد وضعتهم على بعض الامور ونصب هو الرجال الذين عددهم مناسبين ونشر على الاطراف والاكتاف «البيورلدات» قائلا لا تنظروا لامر ونهى الشريف بل انظروا لامرنا وعلى عن البيان والعرض على دولتكم ان هذه المعاملة لم تكن شيئا قد حدث من طرف ولاية جدة حتى الآن لامير من امراء مكة» (IO) .

بعد هذا العرض المختصر لاحوال ولاية الحجاز قبيل تولي حسيب باشا مقاليد الامور فيها وقبل الحديث عن اصلاحاته حيث يبدو من المؤكد انه اول رائد من رواد الاصلاح في ولاية الحجاز احب ان اشير الى انه ما توفر لدينا من الوثائق وكذلك المصادر الاخرى عن تاريخ هذه الفترة لم تشر الى ان الواليين اللذين سبقوا حسيب قد منحنا شيئا من اهتمامهما لتحسين اوضاع الولاية في اى مجال من المجالات حتى ما كان منها متعلقا بخصوصية وظيفتيهما كمسؤولين عن مشيخة الحرمين الشريفين حيث من واجبات شيخ الحرم الحفاظ على نظافته وتنظيم شؤونه ولكن حتى هذه الامور التى لا تحتاج الى كبير جهد يبدو انها قد اهملت ونحن هنا لا نبرىء ساحة الشريف الذى يعد شمريكا فى السلطة وشمريكا فى المسؤولية . لقد اعترف بالحالة المتردية التى كانت عليها نظافة الحرم الشريف (II) كما سيأتى توضيحه مفصلا .

ولقد شملت اهتمامات حسيب باشا الاصلاحية النواحي العمرانية وتنظيم الادارة المحلية والتعليم والمواصلات والضمان الاجتماعى ونظافة المدن المقدسة بالاضافة الى اهتمامه البالغ بأمن الولاية من الاخطار الداخلية والخارجية التى كانت تهددها وسأتناول هذه الجوانب بشئ من التفصيل وبذر ما تمدنا به مصادرنا الوثائقية .

الاهتمام باحوال العاصمة المقدسة :

التفت حسيب باشا لاصلاح احوال العاصمة المقدسة . لقد ذهل للحالة التى كانت عليها من ترد فى اوضاعها وخاصة الحالة المزرية للحرم الشريف ، خصوصا فيما يتعلق بنظافته ، كتب تقرير بعث به الى الصدارة بعد حوالى شهر من وصوله الى الحجاز لتولى مهام منصبه اوضح فيه انطباعاته الاولى عما شاهده وما يجب عمله لتحسين الاوضاع المتردية فى مكة المكرمة والحرم الشريف بوجه الخصوص . حيث قال : «فلما وصلت مكة المكرمة لايفاء ما كلفت به وفق المطلب

(IO) مسائل مهمة دفتر جدة وثيقة رقم I244I لفة 2 وتاريخ غرة جماد الاول I26I هـ وكانت لمسامي محمد علي باشا لدى اصحاب النفوذ فى الباب العالى اثر فى عزل عثمان باشا وابداله بشريف باشا الذى عرف بضعف شخصيته فاصبح اداة طيعة فى يد الشريف ابن عون الذى عرف بدهائه وحنكته الا انه شغل نفسه وانهك امكانيات الدولة المحدودة فى حرب طائفة ضد القوى الوطنية .

(II) محمد بن عون الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة ربيع الاول I265 هـ وثيقة رقم II299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

العالي بادرت للعمل ، وفوجئت ان الحرم الشريف السعيد يعج بالفقراء والغرباء والسائحين والعربان وان الكثيرين من هذه الفئات تقيم فيه وتتخذ منه مبيتا وشاهدت رأى العين امورا مخلة بالنظافة ، مما لا يحسن قوله ولا ذكره وهى تجانب الحرمة والتعظيم وتغاير الاداب الامر الذى يلزم منعه وازالته» (I2) اما عن نظافة المدينة المقدسة بشكل عام فقد اخبر فى تقرير آخر رفعه الى الصدارة بعد حوالى شهر من تقريره الاول قد باشر فعلا بازالة ما لا يتناسب مع حرمة المدينة المقدسة ، ويتنافى مع روح الشريعة حيث قال : منذ وصلت مكة المكرمة - لله الحمد والمنة - والامور تسير وفق الشريعة الاحمدية فى التطبيق وهو الجبل المتين . فقد هدمت المقاهى ودور المجندات وامثالها من المحدثات ومنعت المسكرات وغيرها من المنهيات وهكذا قطعنا دابر الفساد ورغبنا الناس الى صلاح الحال وقد ثبتوا على ما قيل لهم من حيث اجرينا العدالة السنية على قدر المستطاع وكان هذا ما اوليناه الاهتمام من امور النظافة والطهارة مدعاة للدعوات الخيرية التى رفعها الجميع شاكرين ذاكرين الطرف الاشرف السلطاني» (I3)

وكما نلاحظ فان حسيب باشا اخذ المبادرة الفورية فى ازالة كل ما لا يتفق مع روح الشريعة الاسلامية فى المدينة المقدسة ، اما ما يتعلق بنظافة الحرم الشريف وطهارته فانه يرى ان ذلك مرتبط فى الدرجة الاولى باخلائه من اولئك الذين اتخذوا منه مكانا للسكن ولكنه يرى فى الوقت نفسه ان الحل لا يتم الا بتأمين مكان لاقامة هؤلاء الفقراء والغرباء اولا ، وذلك يتطلب انشاء دور سكنية لعم ملحقا بها عدة رباطات واقامة مثل هذا المشروع الخيرى يلزمه المال الكثير الذى تفتقر اليه خزينة ولاية الحجاز .

وكحل لهذا المشكل العاجل الذى لا يقبل التأخير فقد وجد أقرب وسيلة لتنفيذه واسرعها واقبلها كلفة فى الوقت نفسه هو الالتفاف الى الاوقاف السلطانية والمبرات الخيرية التى كان قد اوقفها بعض السلاطين السابقين على الاعمال الخيرية مثل اوقاف السلاطين سليم ومراد واحمد ووالدة الاخير السلطنة «خاصكى» وكذلك اوقاف السلطان المملوكى الجركس «قايتباى» وابراهيم خان زاده وغيرها من الاوقاف المؤلفة من عمارات ومدارس ورباطات (I4) .

الا انه وجد ان البعض منها قد عفى عليه الزمن وآل الى الخراب بسبب الاهمال وعدم الاكتراث ، بينما البعض الآخر قد آلت ملكيته الى يد الغير بدون

(I2) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم II299 ارادة داخلية بدون تاريخ ومن المرجع انها بتاريخ غرة ربيع الاول 1265 ارشيف رئاسة الوزراء .

(I3) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة جمادى الاولى 1265 / 25 مارس 1848 وثيقة رقم 11034 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(I4) الوثيقة السابقة .

حق فجعلوا من بعضها بيوتا يسكنون بها وحولوا بعضها الى اماكن مستثمرة ذات موارد (I5) .

استعادة الاوقاف واحيائها

باشر حسيب باشا فى استعادة الاوقاف واحياء ما اندثر منها رافعا من اجل ذلك شعارا «كل شىء يجب ان يعود الى اصله» (I5) ولكنه كان يدرك ان استعادة الاوقاف التى تحولت الى ملكيات خاصة لن يكون امرا سهلا بل انها كانت معضلة ومهمة صعبة (I7) تغلب عليها حسيب بحنكة وتعقل وشجاعة بدافع من ايمانه الصادق بالاصلاح وذلك باستقطاب شريف مكة محمد بن عون وغيره من الاشراف اصحاب النفوذ الى جانبه بالاضافة الى قاضى مكة المكرمة واعيانها وعلمائها من اجل مساعدته فيما يتعلق باصلاح احوال العاصمة المقدسة وذلك من خلال مجلس قام بتشكيله لهذا الغرض - بالاضافة الى المشاركة بالامور الاخرى المتعلقة بشؤون الولاية - وكان هذا المجلس قد تكون من سبعة عشر عضوا ضم فى عضويته قاضى مكة المكرمة واربعة قضاة يمثلون المذاهب الاربعة ونقيب الاشراف ورئيس المدرسين (اعلم العلماء) وخمسة من كبار العلماء ونائب الحرم وقائد العساكر النظامية وابن شريف مكة عبد الله باشا وعبد الله بن شرف باشا احد اقرباء شريف مكة المهمين ومعاون اول ولاية الحجاز توفيق باشا (I8) وتقرر ان يجتمع هذا المجلس فى يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ومهمته النظر فى الادعاءات التى تتعلق بالاوقاف وما عدا ذلك من الامور التى تهم الولاية (I9) .

لم تمر مسألة استعادة الاوقاف بسهولة كما سبق الاشارة اليه بل قوبلت بمعارضة شديدة كما سنأتى الى توضيحه فيما بعد الانتهاء من معرفة كيفية معالجته لمشكلة اسكان الفقراء والغرباء . وكحل عاجل لاسكان هؤلاء بل واطعامهم شرع وبشكل سريع فى اصلاح بعض من اوقاف «خاصكى» سلطان اذ فيما يبدو ان هذا الوقف لم يتحول الى ملكية خاصة بل كان مهملًا ويستغله البعض بطريقة غير مشروعة وقد وصف هذا الوقف بأنه عبارة عن عمارة

(I5) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم II299 بدون تاريخ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(I6) نفس المصدر السابق .

(I7) ادت فيما يبدو الى عزل حسيب باشا من ولاية الحجاز فيما بعد حينما كثر معارضوه بسبب اصراره على اعادة الاوقاف الى سابق مجدها ووظائفها التى خصصت من اجله .

(I8) انظر الوثيقة فى الملحق رقم والثى تحتوى على اسماء ووظائف اعضاء المجلس .

(I9) حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم II299 بدون تاريخ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

مكونة من عشرين منزلا ومدرسة (20) يجاورها من اوقاف «قاتباي» وهو ما يقرب من عشرين بيتا ومدرسة خشبية كبيرة (21) كانت قد تحولت الى مخازن . وقدر ان تعميرا جزئيا فيها يعيدها الى اصلها فاخليت من سكانها وشرع فورا في مباشرة العمل على اصلاحها وتم الانتهاء من التجديد وجهزت بالاثاث اللازم وفرشت ارضيتها بالحصر واسكن فيها ما يقرب من 450 من الفقراء والضعفاء حيث تم نقلهم من الحرم الشريف ، وخصص لكل فرد منهم رغيفين من الطعام يوميا كل رغيف بوزن 100 درهم ومغرفة واحدة من الحساء وما ان تم اخلاء الحرم الشريف منهم حتى باشر الضباط والجنود عملية غسل المسجد الحرام وتنظيفه على الوجه الاكمل (22) .

وفي حالة من الشعور بالسعادة والفخر بما قام به من عمل خيري الفقراء وتم بموجبه نظافة المسجد الحرام قال حسيب باشا «وهكذا تم تخليص تلك الاماكن الخيرية من الايدي التي كانت قد استولت عليها . واذا كان ذلك قد مس بعض الذوات وذوى العلاقة ، فانه من جهة اخرى كان وسيلة بان اصبح الفقراء والضعفاء يشاركون العلماء واهل البلدة عامة بخير الدعاء لحضرة السلطان» (23) .

ويذكر حسيب باشا انه كان يوجد بتلك العمارة - من اوقاف «خاصكي سلطان» - والتي تم اصلاحها ثمانية «قازانات» (24) تم العثور على ستة منها كانت مخفية ومدفونة في حين بقي اثنان وبعض القطع النحاسية الاخرى مفقودة . ويقول «ولا زال الجهد جاريا محاولة في معرفة المسؤول عن ضياعها» وقد اورد حسيب باشا وصفا لتلك العمارة الوقت ، وتجهيزاتها حينما كانت في حالتها الاولى (25) حيث يقول «وعلى كل حال فان العمارة قد انشأت فيما مضى على اساس تركيز «القازانات» الثمانية كافية لطبخ الحساء والزر في المطبخ

(20) حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة سبق الاشارة اليها وانظر كذلك تقرير محمد بن عون الى الصدر الاعظم بتاريخ غرة ربيع الاول 1265 وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(21) يبدو ان مدرسة قايتباي كانت من الضخامة بمكان حيث نزل فيها عثمان باشا قائد الجيوش العثمانية المتوجهة الى اليمن لضرب ثورة الامام المظهر وذلك اثناء توقفه في مكة لاداء العمرة وذلك في عام 975 هـ انظر النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة 1387 / 1967 ص 207 وسكن بها محمود باشا اثناء توقفه في مكة وهو في طريقه الى اليمن ايضا في عام 960 هـ . دحلان خلاصة الكلام ص 55 .

(22) حسيب باشا المصدر السابق .

(23) مصدر سبق الاشارة اليه .

(24) القازان اكبر مقياس من ادوات الطبخ .

(25) يبدو ان وثائق اوقاف مكة كانت محفوظة اما لدى المحكمة الشرعية او جهة مسؤولة عن الاوقاف حيث ما كان ليتسنى لحسيب باشا ان يعرف هذه المعلومات المفصلة عن الاوقاف لو لم يطلع على وثائقها وسجلاتها .

الكبير المعد والفرن الخاص بصنع الخبر والمستودع الواسع لادخار الحبوب هذا عدا المطحنة المنفصلة» (26) .

وذكر حسيب باشا انه قام بزيارة تفقدية لعمارة كان قد انشأها محمد علي باشا والى مصر (27) وقفا على اطعام الفقراء تقع في مقابل الحرم الشريف ويبلغ عدد من يصرف له الطعام في هذا المركز (التكية) 500 شخص وذلك من اول رمضان وحتى غاية شهر ذى الحجة والطعام يتألف من الحساء والخبز يوميا وفي خلال II شهرا ما عدا كل يوم خميس وكذلك ايام شهر رمضان فيصرف للنزلاء الزر المطبوه ويشير انه نظرا لكثرة الفقراء فان الفرد منهم لا يحصل على ثلث حصته المرتبة (28) .

بناء مغسلة للموتى (شرشوره)

وجد حسيب باشا ان مغسلة الموتى - او ما يعرف حينذاك في مكة وحتى الآن فيما اعتقد (بالشرشوره) - (29) كانت تقع في بناء ملتصق بالحرم مباشرة بالقرب من باب الوداع وان وجودها في ذلك المكان غير لائق بنظافة الحرم الشريف فقد انشأ لها بناء في مكان آخر مناسب ويتكون من قسمين منفصلين واحد للذكور وآخر للنساء ألحق بكل قسم منهما غرف خاصة لسكن العاملين بها (30) ويقول حسيب باشا «وما من احد رأى او سمع بنقل تلك المغاسل من اماكنها الاولى... من السادة العلماء وعامة الشعب الا واستحسن التدبير داعيا بالخير لحضرة السلطان» (31) .

التعليم

حينما قدم حسيب باشا الى مكة وجدها خالية من المدارس ووجد ان الناس الراغبين في طلب العلم يتجهون الى الحرم الشريف للانضمام في الحلقات

(26) وثيقة سبق الإشارة إليها . يذكر ايوب صبرى مؤلف مرآة الحرمين ج 4 ص 1039 بان اوقاف خاصكي سلطان كان بها 34 دكان مؤجرة وربعها يقبض من قبل مديرية الحرم الشريف ويصرف على دار الضعفاء والغرباء الملحقه بالوقف .

(27) انشئت في عام 1238 انظر ابراهيم رفعت مرآة الحرمين ص 185 .

(28) ذكر حسيب باشا في تقريره هذا الى الصدر الاعظم انه بعث بتقرير مفصل باللغة العربية عن وقف محمد علي اعده الموظفون القائمون على هذا الوقف او هذه المبرة الخيرية .

اما لمن اراد تفاصيل اكثر عن مبرة محمد علي هذه او ما تسمى بالتكية المصرية فيرجع الى مرآة الحرمين للدواء ابراهيم رفعت باشا ج I مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة 17 1344/1925 ص 86 - 85 . فان نظامها اثناء زيارة صاحب المرأة لها عام 1318 هـ / 1901 م لم يتغير كثيرا عما كان عليه في عهد حسيب باشا .

(29) لا اعرف هل «شرشوره» لفظه عربية ام تركية ولكن لم اعثر عليها في قاموس رد هاوزس تركي انجليزى .

(30) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ، ارشيف رئاسة الوزراء .

(31) المصدر السابق .

التعليمية التي كانت تعقد في اروقته الا انه كان يرى ان ذلك غير كاف ويرى انه من اللازم انشاء مدارس للتعليم أو على اقل تقدير اعادة احياء اربع مدارس كانت موجودة في مكة المكرمة منذ زمن قديم كان قد بناها السلطان سليمان خان (القانوني) من جملة اوقافه في مكة المكرمة حيث خصص هذه المدارس الاربع للمذاهب الاربعة اثنتان منها قرب باب الزيادة ، ومع مرور الزمن اصبحت ملكا خاصا اضاف اليها مالکها بناء فاصبح فيما بعد مقرا للمحكمة الشرعية الا انه بسبب ما كان يشاهده قاضي مكة المكرمة من اعمال تجرى في الحرم الشريف لا تتفق وحرمة فقد انتقل الى مقر آخر مخليا المقر الاول . ويرى حسيب باشا انه لا بد من اخلائه واعادته مدرسة كما كان في عهده السابق . اما المدرستان الاخيرتان فتقعان في طرف باب السلام وقد آلت ملكيتهما الى احمد باشا لما كان واليا على جدة (32) وبصورة ما اضيفت اليها ابنتية فاصبحت قصرا مسكونا وان هذا القصر على وضعه الحالي اضحى ملتصقا بسطح الحرم الشريف وراى حسيب باشا ان في ذلك مما يخالف الاداب وحرمة الحرم الشريف وهو بذلك يقترح هدمه وارجاع المدرستين الى هيئتهما الاصلية (33)

وبما ان اتخاذ قرار هدم هذا القصر يتجاوز صلاحيات حسيب باشا لذا فقد طلب من المصدر الاعظم الحصول على الارادة العلية بالموافقة على هدم تلك الابنية المحدثه «واعادة كل شيء الى اصله» ومطالبة الباشا المذكور باثبات انه قد قام فعلا بشراء القصر . وقد اجرت الصدارة اتصالاتها مستفسرة من احمد باشا حول احقيته في ملكية ذلك القصر حيث اجابها ، ان القصر المذكور لم يكن مدرسة وانما اشتراه من شريف باشا سعيد وانه جده وعمره . ومع ذلك فقد اعلن عن موافقته على الامتثال للمقرر الذي يتخذ بحق أمثاله (34) .

ومن الجدير بالاشارة الى ما ذكره حسيب باشا بان اهل الخبرة قد قدروا ان تكاليف اعادة بناء مدرسة «قايتباي» 35000 كيس اما اذا كان ترميما فقط فكلفتها 2500 كيس من الاقجة (35)

وقد علقت الصدارة العظمى على موضوع المدارس القديمة بقولها ولما كانت تلك المدارس مع التعامل القديم آلت الى عقارات واضحى ارجاعها الى شأنها

(32) هو احمد باشا ابن اخت محمد علي باشا - اما والده فيدعي مصطفى بك وكان يمتحن بيع الفلافل والجنة في القاهرة . اصبحت واليا على الحجاز في سنة 1235 / 1819 بعد وفاة اخيه خليل باشا ثم عزل عام 1244 / 1828 ثم اعيد واليا مرة ثانية عام 1248 / 1832 ومكث بها الى عام 1256 / 1840 عند انسحاب قوات محمد علي نهائيا من الجزيرة العربية ولكوث احمد باشا فترة طويلة في الحجاز صار يطلق عليه احمد باشا الحجازي . انظر دحلان خلاصة الكلام القاهرة 1305 ص 303 .

(33) من خلاصة تقارير تقارير حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية رئاسة مجلس الوزراء .

(34) المصدر السابق .

(35) من حسب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم 11299 بدون تاريخ ارادة داخلية رئاسة الوزراء .

القديم متعسرا من اجل ذلك حصل الاستفسار من المعارف العامة والتي بدورها دعت الى عقد مجلس موقت جرت فيه المذاكرة حول المدارس الخيرية والتي آلت الى ايدى الغير ومالها من اوقاف ومصادر تمويل . وقد رأى المجلس المسارعة الى انشاء مدرسة واحدة تكفى عن الاربع وبشكل نموذجى وان يكتب للوالى بصدد ذلك على ان تسوى المصاريف من الاعتمادات الخاصة لانشاء المدارس (36) .

مجلس الولاية واعماله وخاصة ما يتعلق بالاقواق

يمكن القول بان المجلس الذى دعى الى تشكيله حسيب باشا فى مكة المكرمة عام 1265 للمشاركة والنظر فى القضايا التى تهم الولاية يعد اول مجلس من نوعه تشهده ولاية الحجاز فى العهد العثماني وذلك قبل الاخذ بنظام مجالس الادارة فى الولايات الذى نص عليه نظام الولايات بعد هذا التاريخ بحوالى عشرين سنة .

ولن ادخل فى تفاصيل مهام واعمال هذا المجلس لاسيما ونحن نفتقر الى المادة التاريخية ولعلنا يوما نحظى ببعض من محاضر جلسات هذا المجلس والذى لا استبعد وجودها محفوظة فى ارشيف رئاسة الوزراء الغنى بكثرة فهارسه وتفرعاته او فى المحفوظات التابعة لوزارة الاوقاف فى العهد العثماني .

ولكن لعله من الطريف والمفيد ان اورد هنا ما قاله المؤرخ الحجازى المشهور احمد زينى دحلان فى كتابه خلاصة الكلام (37) عن هذا المجلس يقول دحلان كانت اكثر الاحكام بتصرف حسيب باشا ورتب مجلسا من العلماء والمفتائى الاربعة فى كل اسبوع وصار يصنع لهم طعاما من افخر الاطعمة المملوكية فى كل اسبوع واطهر فى اول الامر انه يريد التحقيق فى الاحكام الشرعية واجرائها على طبق الشرع الشريف وقسم هدايا جزيلة على العلماء ثم ظهر بعد ذلك انه انما يريد انتزاع الاوقاف السلطانية من ايدى الناس الذين استولوا عليها بالفراغات الشرعية فلم يمكنوه من ذلك (39) .

اكتفى المؤرخ دحلان بايراد هذا الخبر ولم يأت على ذكر اى من اعمال حسيب باشا الاصلاحية او حتى اشارة اليها ولعل له فى ذلك عذره فكثير من مؤرخى تلك الفترة لا يهتمون الا بذكر الوقائع . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فانه من المعروف ان دحلان كان مؤرخ الخاصة من الاشراف والسادة ، وبما ان الاخرين كانوا ممن وضعوا ايديهم على الاوقاف كما سنلاحظ فيما بعد فانهم كانوا أكثر القوم معارضة لاي اصلاح لا يخدم لهم مصلحة . وكحل

(36) خلاصة قرار مجلس المعارف وثيقة رقم II699 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(37) خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام المطبعة الخيرية القاهرة 1305 .

(38) المصدر السابق ص 315 .

(39) حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة رقم II299 بدون تاريخ ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

لمشكلة القيادات الوقفية التي آلت الى البعض بطريق الشراء وصعوبة متابعة تسلسل انتقال تلك العقارات من مالك الى آخر وخشية الحاق الضرر بالمالك الاخير ورغبة في تعويضه فقد لجأ الوالي يعاونه المجلس الى طريقة تعويض المالك الاخير على اساس مدة التصرف وما استوفاه من اجور واعطائه الثلث او الثلثين تعويضا بل وكاملا لما يكون الادعاء مدعما ومتوافقا مع الشرع الشريف (39) .

وظهر بعض المعارضين لاجراءات الوالي وقرارات المجلس المتعلق منها باستعادة الاوقاف من ايدي المتنفيين ، فلقد اشار حسيب باشا في تقريره الى الصدر الاعظم الى المعارضة دونما ذكر لاسماء قادتها . بل وصفهم بالذوات حيث قال «تم لنا في ظل السلطان ذو الخير ان استرجعنا دون كلفة من ايدي بعض الذوات والاشخاص الذين كانوا قد تغلبوا على الاثار الخيرية ونزعناها منهم وارجعناها الى اصولها دون مراعاة للخواطر والمشاعر» (40) ولكن احمد زيد دحلان ذكر اسماء بعض المعارضين وذكر من ضمنهم مفتي مكة السيد عبد الله المرغني والذي قال ان الباشا عزله بسبب معارضته وقلد منصب الافتاء للسيد محمد الحنفي (41)

بينما الوثائق التي بين ايدينا تذكر ان قاضي مكة حينذاك هو السيد عماد الدين والسيد محمد الكتبي من كرام العلماء وكليهما اعضاء في المجلس اما المرغني فكان مفتيا للاحناف واسمه محمد (42) وليس عبد الله كما ذكر دحلان الا ان يكون ميرغني آخر .

ومهما يكن من امر فالمعارضة قد بلغت اشدها كما يذكر دحلان عندما اراد الوالي ان يفتح دعوى ضد السيد عبد الله بن عقيل اخي السيد اسحاق شيخ السادة لغرض نزع ملكية دار كان قد بناها الاخير بالقرب من الصفا وهي في الاساس من الاوقاف السلطانية فدبر السيد عبد الله هذا هروبه من مكة وذهب الى استانبول عن طريق مصر ليشكو حسيب باشا لدى السلطات هناك وبعث الى حزبه من المعارضين في مكة يستكتبهم عريضة يشكون فيها حسيب باشا الذي تناول في حد زعمهم على استعادة الاوقاف التي آلت الى ملكياتهم الخاصة بدعوى الافراغات الشرعية ويذكر دحلان ان حزب عبد الله بن عقيل كتبوا عريضة وبعثوا بها بصفة سرية الى عبد الله هذا ، في استانبول ليدعم بها دعواه ويذكر دحلان ايضا ان السلطان وشيخ الاسلام امرا حسيب باشا بالكف عن بحث موضوع الاوقاف وابقاء كل شيء على ما كان (43) .

(40) المصدر السابق .

(41) خلاصة الكلام ص 315 .

(42) قائمة اسماء الشخصيات اعضاء المجلس وثيقة رقم II299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء

انظر الملحق رقم ()

(43) خلاصة الكلام ص 315 .

اننا لا نعرف سبب عزل حسيب باشا من ولاية الحجاز اذ اننا لم نتمكن من الحصول على كل وثائق فترة ولايته اذ ربما تكشف لنا المزيد من اخبار هذا الوالى المصلح والاسباب الحقيقية لانتقاله او عزله ، كما ان المؤرخ دحلان الذى اورد تفاصيل معارضة السادة لاصلاحات حسيب باشا لم يشير صراحة الى ان سبب عزل حسيب كان مرده شكوى اصحاب العقار فى مكة ، ولكن فيما يبدو ان ذلك واحد من العوامل ان لم يكن الرئيسى منها .

على اية حال ، فبالاضافة الى معارضة اصحاب النفوذ لاصلاحات حسيب باشا فقد واجهته مشكلة اخرى وهى توفير المصاريف اللازمة لتمويل المشاريع الخيرية التى قام باصلاحها وباحيائها .

بالرغم من ان حسيب باشا تمكن من استعادة بعض موارد الاوقاف التى يعود دخلها للصرف على ما احياء من المآثر الخيرية سواء من حيث تعميرها او اصلاحها او الصرف على الخدمات التى تقدمها هذه المؤسسات ، الا انه اشار الى ان الموارد السنوية لهذه الاوقاف لن تقى بمصاريف اعادة كلما خرب من الاوقاف ، ناهيك عن المصاريف اللازمة الاخرى . وللأسراع فى حل هذه المشكلة طلب حسيب باشا من الصدر الاعظم التوسط لدى السلطان بالصرف على هذه المؤسسات الخيرية من اوقاف السلطان الخاصة «فيكون بذلك بمثابة الواقف الثانى» (44) وامام الضرورة الملحة يلتمس الوالى ايضا من الصدر الاعظم بذل المهمة لدى حضرة السلطان بصرف مبلغ 150 الف قرش من وقفه السلطاني على الحساب ، ويلج على سرعة ارسال هذا المبلغ (45) .

كما اشار حسيب باشا الى ان النظام يقضى بالآى يصرف مبلغ يزيد عن 2500 قرشا فى الانفاق على الابنية الميرية والوقفية قبل الاستئذان من لدن الصدارة . وهنا نجده قد تجرأ وصرف اكثر من ذلك المبلغ ملتصبا لنفسه العذر ، لكونه امام قضية خيرية ، وحيث ان طلب الاستئذان بالصرف مع بعد المسافة يعوزه وقت طويل وعلى حد قوله «الخير لا يؤخر» (46) .

اهتمام حسيب باشا بالمواصلات البرية والبحرية بين ولاية الحجاز واستانبول

كانت مسألة البريد بين ولاية الحجاز والعاصمة استانبول مرورا بالقاهرة من القضايا التى طالما شغلت بال حكام هذه الولاية . وكان الطريق المعول عليه هو الطريق البرى لعدم وجود برى بحرى منتظم بين جدة والسويس . الا ان الطريق البرى لا تضمن سلامته بصفة دائمة بسبب كثرة تعديات القبائل القاطنة على طول الطريق الموصل بين مكة والقاهرة . ومن هنا رأى حسيب باشا

(44) من حسيب باشا الى الصدر الاعظم وثيقة سبقت الاشارة اليها .

(45) نفس المصدر .

(46) وثيقة سبق الاشارة اليها .

بأن انشاء خط بحري مباشر ومنتظم بين جدة والسويس سيكون له اهميته القصوى لا في نقل البرينه فحسب بل وفي تنشيط التجارة وسهولة انتقال المسافرين والقادمين الى الديار المقدسة من اجل الحج . بالاضافة الى اختصار زمن الرحلة بين مصر والديار المقدسة وكذلك ما فيه من امن وسلامة لارواح المسافرين وضمان اموالهم ورواج تجارتهم . وذكر حسيب باشا في تقرير مفصل بعث به الى الباب العالي تناول فيه الاهمية القصوى التي تشكلها المواصلات في حياة الامم ورقى الشعوب وسهولة الاتصالات بين العاصمة والاطراف (47) وأشار انه عندما وصل الى مقر الولاية تذاكر مع شريف مكة المكرمة ومع سلفه شريف باشا في الشؤون والقضايا الحجازية فادرك الجميع جسامه هذه الولاية واهميتها وما يتبعها من مناطق كثيرة . وان الكثير من القضايا لا يتم البت فيها الا بعد التشاور مع الحكومة في استنبول . وبذلك اضحى من الضروري تسهيل وصول المخابرات في الامور المهمة والتي لا تقبل التأخير . وأورد امثلة اخرى لاهمية البريد للربط بين مقر الولاية والمناطق التابعة لها مثل موانيء مصوع وسواكن وبربره وزيلع ، لا سيما وهذه الجهات البعيدة تواجه تحديات كثيرة نتيجة للتدخلات الاجنبية ، الامر الذي يجعل سرعة الاتصالات مع محافظي هذه المناطق مطلباً ضروريا سواء فيما بينهم وبين مقر الولاية في جدة ، او بين جدة واستانبول في حالة ضرورة ابلاغ الحكومة بوقائع تلك الجهات (48) .

وأشار حسيب في تقريره الى ان نخبة من تجار مدينة جدة سبق ان تقدموا بطلب الى شريف باشا الوالي السابق يطلبون منه الترخيص لهم باقامة مؤسسة استثمارية تقوم على تسيير خط بحري يربط بين جدة والموانيء المصرية وغيرها ، ولدى تشاور شريف باشا في هذا الخصوص مع عباس باشا في مصر اجاب الاخير معتذرا ان ايجاد مثل هذا الخط يعطل امر نقل «الذخائر» (49) وعلق حسيب باشا على موقف والى مصر تجاه طلب تجار جدة «انه مجرد تملص» (50) .

(47) وضرب مثلا ببريطانيا التي تملك اسطول بحري ضخم يحمل البريد والتجارة ويربط الامبراطورية بعضها مع بعض حيث قال «ان وجود عدد من البواخر (الخاصة) في جدة ، باى وجه كان . وفي ظل حضرة السلطان ، انما هو من الموجبات العالية للشئان والشوكة ، عدا ما تؤمنه للممالك من الفوائد والمحسنات العديدة ... ان دولة انجلترا لها العديد من البواخر التي تتراوح قوتها بين 400 - 500 حصان تمخر البحر بين السويس وعدن ومنها الى سواحل الهند وهي تجول بالتنقل والرسو في سيلان وكلكتا وبومباي وهي في كل شهر تدفع باخرتين متتابعتين ، في هذا الخط متخذة منعا واسطة برية في حين تدع بعض البواخر في موقف الابهة الاحتياطية ، وعلى هذا الوجه فانها تحصل في كل شهر ، مرتين ، على اخبار واحوال ملكها» . انظر التقرير المفصل الذي اعدده حسيب باشا بدون تاريخ وثيقة رقم II299 ارشيف رئاسة الوزراء .

(48) حسيب باشا الى . الصدر الاعظم تقرير مطول مكون من اثني عشر بنداً .

(49) المصدر السابق ويقصد بالذخائر هنا المواد التموينية لولاية الحجاز .

(50) المصدر السابق .

لم يرق لحسيب باشا ان يرى فكرة اهل جدة البناء تموت فى مهدها ولم يدع الفرصة تمر دونما اثارها من جديد ، فدعى تجار جدة الى اجتماع وطلب منهم زيادة الايضاحات عن مشروعاتهم فكان جوابهم ان مشروعاتهم كان الهدف منه تخصيص باخرة بقوة 200 حصان او بالقوة التى تفضل الحكومة بتحديثها وتكون على هيئة مؤسسة (شركة) وتستورد البخرة شراء من الهند وتخصص للقيام برحلتين فى كل شهر فيما بين جدة والسويس وتتولى مهمة نقل الحجاج فى الفترة ما بين شهر رجب وشهر ذى الحجة وقالوا انهم لن يطالبوا باجرة محددة لنقل البريد (51) .

ويرى حسيب باشا انه اذا ما توفرت باخرة او اثنتان مو البواخر الكبيرة وبقوة 300 - 400 حصان للعمل بين جدة والسويس وبشكل منتظم فانها ستقطع المسافة بين هاتين المدينتين فى مدة تتراوح ما بين 3 الى 4 أيام . واذا ما توفرت وسائل النقل السريعة فى ما بين السويس والاسكندرية فان البريد القادم من الحجاز الى استانبول عن طريق الاسكندرية سيصل فى فترة لا تزيد عن 14 - 15 يوما وهى فترة اقصر اذا ما قورنت بالمسافة التى تقطعها البخرة المصرية الصغيرة والقديمة والوحيدة العاملة بين جدة والسويس وهى بقوة 60 حصان والتى تستغرق فى رحلتها من جدة الى السويس ما بين 20 - 25 يوما (52) .

اما ما يتعلق بكيفية مكان وشراء البواخر اللازمة للعمل فى البحر الاحمر ، فقد حددته الوالى فى ثلاث جهات الجهة الاولى مصر الا انه نبه الى ان انشاء او تصنيع السفن فى مصر يعوزه الاخشاب اللازمة والحديد المصنع . ولهذين السببين ستكون كلفة تصنيع السفن فى مصر غالية نسبيا اذا ما قورنت باسعار السفن المصنعة فى انجلترا ، المكان الثانى المقترح لشراء هذه السفن . ولكن الوالى اوضح ايضا ان شراء السفن من انجلترا لا يخلو من المصاعب اهمها البعد والابحار من هناك الى جدة وخاصة كبيرة الوزن منها وهى ما تزيد حمولتها عن 500 حصان .

اما المكان الثالث والاكثر ترجيحاً فهى الهند حيث يوجد بها صناعة سفن متقدمة . وقد نعى الى علم الوالى بانه يصنع بها اجود انواع السفن وباحجام مختلفة . وقد اكد له هذا ، التجار الهنود المقيمون فى جدة والمترددون عليها وايدهم فى ذلك رئيس المهندسين الانجليزى فى ترسنه «الحوض الجاف» فى السويس . وتقدر اسعار الواحدة من السفن المرغوبة ما بين 2000 - 2500 كيس . اما ما يلزم هذه البواخر من الوقود (الفحم) ومقدار الكمية التى

(51) المصدر السابق .

(52) تقرير حسب باشا الى الصدر الاعظم سبقت الاشارة اليه .

تحتاجه في الساعة فيسجدده حجم تلك البواخر ، والمسافة بين جدة والسويس والتي تبلغ 650 ميلا بحريا (53) .

أما اسعار الوقود اللازم لبواخر جدة فقد اشار حسيب باشا الى ان قيمة الاقة من الفحم المستورد من انجلترا عن طريق الاسكندرية فلتبلغ قيمة الاقة من السويس - والذي يصل اليها من الاسكندرية بواسطة المراكب الصغيرة - ما بين 15 - 20 بارة للاقة الواحدة وما يباع من هذا الفحم للسفن المصرية لا تزيد قيمة الاقة عن 10 بارات . ويأمل الوالي ان تطبق هذه التسعيرة الاخيرة على السفن التي ستخصص لولاية جدة كما دعى الى انشاء مخزن للفحم في مدينة جدة (54) وقدر حسيب باشا ان الاحصاء السنوي يشير الى ان عدد الذين يعتمدون السفر بطريق البحر بين جدة والسويس يزيد عن 10 آلاف راكب سنويا .

وبهذا نستدل على ان حسيب باشا قد قام باعداد مشروع متكامل من جميع نواحيه للنقل البحري بين موانئ البحر الاحمر . وان كان لم يتحقق في عهده كلما اراده فقد تحقق شيء منه فيما بعد (55) ولحسيب باشا فضل الريادة في التفكير ورسم الخطط لهذه المشاريع التنموية والاصلاحية الهامة .

البريد البري

لم يخبرنا حسيب باشا عن النظام او الطريقة التي كان يسير عليها البريد البري بين ايالة الحجاز ومصر ومن ثم من هناك الى استانبول ، وذلك في الفترة السابقة لتوليه ولاية الحجاز . كذلك المصادر التي تم الاطلاع عليها لم تشر ايضا الى هذا الموضوع . بيد ان هذا الطريق - اي الطريق البري لنقل البريد - وكما اشرنا اليه من قبل ، هو الطريق المعول عليه في نقل البريد بين ولاية الحجاز والعاصمة استانبول . وبما ان البريد البحري الذي تحدثنا عنه سابقا ما زال مجرد فكرة طالب الوالي حسيب باشا على ضرورة تطبيقها . لذلك لم يكن امام الوالي والحالة كذلك ، الا ان يوجه اهتمامه الى العناية بالبريد البري وجعله منتظما طبقا لقواعد واصول اتى على ذكرها بالتفصيل في دفتر حول هذا الخصوص قدمه الى الباب العالي انظر صورة الدفتر في الملحق رقم وبما ان بريد ولاية الحجاز المرسل الى عاصمة الخلافة يمر عبر الاراضي المصرية،

(53) تقرير حسيب باشا الفصل الذي سبق الاشارة اليه .

ذكر محمد رفعت في كتابه مرآة الحرمين ج 1 ص 15 مصدر سبق الاشارة اليه ان المسافة بين السويس وجدة تبلغ 642 ميلا ، وقطعتها باخرة المحمل المصري في عام 1901/1317 في 66 ساعة .

(54) المصدر السابق .

(55) انظر محمد عبد الله آل زلفه ميزانية ولايتي الحجاز واليمن لعام 1283 - 1866 المجلة التاريخية المغربية السنة الثنية عشر العدد 39 - 40 ديسمبر 1985 ص 341 - 361 .

فقد قام حسيب باشا بالتنسيق مع والى مصر فيما من شأنه سلامة وامن البريد الحجازى والاتفاق مع السلطات فى ولاية مصر على تحديد مسار البريد ومحطاته فى اراضى كل من الولايتين (56) . وبموجب هذا التنسيق قسم طريق البريد بين ايالة الحجاز والقاهرة الى قسمين ، القسم الاول ويبدأ من مكة المكرمة وينتهى فى قلعة الوجه الحد الادارى لولاية الحجاز من جهة الشمال وهذا الجزء بدوره ينقسم الى تسع محطات على النحو التالى :

المحطة	عدد المنازل	المسافة بالساعات
مكة - عفان	I	8
عفان - خليص	I	7
خليص - رابع	I	8
رابع - مستوره	I	6
مستوره -	I	8
	I	3
	I	3
ينبع البحر - حوراء	3	I8
حوراء - قلعة الوجه	3	I8

83 ساعة

I3

ومن قلعة الوجه الى القاهرة رتب البريد على النحو التالى مرورا على المحطات التالية :

المحطة	عدد المنازل او المراحل	المسافة بالساعات
قلعة الوجه - مويلح	4	20
مويلح - العقبة	5	25
العقبة - الطور	3	I8
الطور - عمير	3	I8
عمير - مصر	3	I8
	I8	99

وخصص لنقل البريد ثلاث من الهجن مع ثلاثة من الهجانة وخصص لكل هجان (اى ساعى البريد) معاشا شهريا قدره I25 قرشا مع مصاريف طعام يومين قدره 22،5 قرشا ولكل هجين I32 ثمن فول . واصدر حسيب باشا اوامره

(56) انظر صورة من الخطاب الذى بعث به حسيب باشا الى والى مصر عباس باشا بدون تاريخ وثيقة رقم II299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

الى رؤساء العشائر وموظفي الدولة على طول الطريق بمساعدة رجال البريد وتسهيل مهمتهم كما طلب من السلطات المصرية ان تفعل ذلك في حدود الولاية المصرية (57) .

ومن الملاحظ ان البريد يمر بنفس الطريق الذي يسلكه محمل الحج المصري . وقد ورد في دفتر البريد الذي اعتمدنا عليه في معلوماتنا هذه معلوماتنا هذه مقارنة المدة الزمنية التي يقطع البريد خلالها المسافة بين الحجاز ومصر فوجد ان البريد يقطع المسافة من مكة الى قلعة الوجه في خلال 83 ساعة بينما يقطعها المحمل في 192 ساعة . ومن الوجه الى القاهرة يقطعها البريد في 99 ساعة اما المحمل فيستغرق لقطعها 224 ساعة . انظر الملحق رقم .

اهتمام حسيب باشا بالناحية الامنية لولاية الحجاز

اهتم حسيب باشا بأمن ولاية الحجاز على الصعيدين الداخلي والخارجي : فعلى الصعيد الداخلي ، كانت ولاية الحجاز تواجه مشكلة تعديات القبائل على الطرق الرئيسية وخاصة طريق الحج الشامي والمصري ، حيث تقطن قبائل حرب وجهينة وبني صخر وغيرها من القبائل وكانت الدولة تعاني مشكلة كبيرة في ادخال هذه القبائل تحت الطاعة او على اقل تقدير ربط رؤساء هذه القبائل باتفاقيات تتعهد الدولة بموجبها دفع مبالغ واعطيات سنوية الى هؤلاء الرؤساء مقابل الحصول على امن وسلامة الحجاج والمسافرين والعابرين من اجل التجارة وغيرها .

وتبرز مهارة الوالي ونجاحه في ادارة شؤون الولاية اذا تمكن من حل هذه المعضلة ويتفاوت الولاية في الوسائل التي ينتهجونها لمواجهة مشكلة تعديات القبائل والحديث عن هذا الموضوع جدير بأن يخصص له دراسة مستقلة ، على اننى سأتحدث هنا على حسيب باشا وكيف تعامل مع هذه القضية المزمرة التي طالما غزل بأسبابها ولاية كثيرون بل ادت في فترة من الفترات الى سقوط احد الصدور العظام .

من المؤكد ان خبرة حسيب باشا الطويلة كناظر للاوقاف والخزانة معا ، جعلته بحكم اهتمامه هاتين الجهتين باحوال الحجاز بأن يكون على اطلاع جيد باحوال القبائل البدوية والخطورة التي تكونها على امن الاراضي المقدسة وزوارها . فاسقط من حسابه التفكير في استخدام القوة لمواجهة مشكلة القبائل ، اذ ان القوة في كل الظروف لا تجدى ، ووجد ان من المصلحة التفاهم مع رؤساء هذه القبائل بالتى هي احسن ، فدخل في مراسلات مع رؤساء هذه

(57) صورة الخطاب الموجه من حسيب باشا الى والى اىالة مصر عباس باشا وثيقة سبقت الإشارة اليها

العشائر وخاصة المهمة منها وهي قبيلة حرب ذات الفروع والفخوذ المتعددة (58) والتي تتحكم في الطرق التي تربط بين مكة المكرمة والمدينة المنورة .

وكان على رأس هؤلاء المشايخ الشيخ سعد بن جزا شيخ الفرع الأكبر والاقوى من قبيلة حرب ، وهي قبيلة الاحامدة وكان قد منح لقب شيخ المشايخ، وتستوطن قبيلة الاحامدة المذكورة بالقرب من ممر الجديدة المشهور (59) .

وقام الشيخ سعد بن جزا الذي استماله حسيب باشا الى جانبه ، بدور الوسيط بين السلطة في ولاية الحجاز وبين بقية رؤساء الفروع الاخرى من قبيلة حرب ، الذين كان الوالى قد بعث اليهم برسائل منذ الشهر الاول لوصوله الى جدة بواسطة الشيخ سعد المذكور ومحافظ مدينة رابغ (60) وقد انتهالت على الوالى رسائل من الكثيرين من رؤساء قبيلة حرب ردا على رسائله التي بعث بها اليهم يعلنون فيها عن اعطياتهم السنوية فمن الرسائل التي وصلت الى حسيب باشا من الرؤساء بواسطة الشيخ سعد بن جزا رسائل من الشيخ

(58) من اهم فروع قبيلة حرب :

(1) الاحامدة وشيخهم سعد بن جزا وهو من اهل بل ومن اكبر شيوخ حرب وكان يخص بالاعطيات والهدايا من الدولة العثمانية ومن ولاية مصر . ويقدر عدد افراد هذه القبيلة عام 1854 بـ 3500 رجل .

(2) الحوازم وينقسمون الى مزينى وزهيرى وعددهم حوالى 3000 .

(3) صبح وهم بالقرب من بدر وعددهم 3500 .

(4) السلامية وواحدتهم سليمي ويسمون ايضا اولاد سليم .

(5) سعادن وواحدتهم سعداني .

(6) المحاميد وواحدتهم محمدي - 8000 رجل تقريبا .

(7) الرحلة وواحدتهم رحيلي 1000 رجل تقريبا .

(8) تمام وواحدتهم تميمي .

(9) مسروح وهي من الفروع الكبيرة لحرب وتنقسم الى قسمين عوف وبنى عمر وعوف اكبر من بنى عمر وتمتد اراضيها من وادي النقيع قرب نجد الى رابغ والمدينة ومن فروعها السهلي ، سويد ، الرخصة ، غسان ، ربايع ، خزارة ، لهيه ، فرده ، بنى علي ، زيد قرب مكة المكرمة .

اعتمدت في المعلومات عن قبيلة حرب هنا على ما ورد في كتاب الرحالة ريتشارد بيرتون الذي مر عبر بلاد حرب عام 1854 م في طريقه الى مكة بعد اقل من اربع سنوات من انزال حسيب باشا من ولاية الحجاز انظر :

Sir Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Madinah an Meccah, Vol. 2, New York, N.D. P. 120.

(59) في ممر الجديدة هذا تلقت قوات محمد علي باشا بقيادة ابنه طوسون هزيمة نكراء على ايدي القوات السعودية بقيادة عبد الله بن سعود وذلك في عام 1811 م فبالاضافة الى اهمية هذا الممر الاستراتيجية فانه اصبح له شهرة منذ حدوث هذه الواقعة انظر من اخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي تأليف محمد اديب غالب دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر 1975/1395 ص 130 - 131 .

(60) ذكر محافظ رابغ في تقرير بعث به الى حسيب باشا بانه بعث بالرسائل التي بعث بها الوالى الى كل من مشايخ عربا مسروح والحوازم ، الشيخ سعد بن ربيع وعوده العويد وهنيدى المريبطى ورافد البحي وعواد العيمري واولاد عبد الله والشيخ سعد ابو ربة والشيخ موقد الطرسى والشيخ عمران الجربوعي . وثيقة رقم 11299 تاريخ 6 ربيع الاول 1265/1848 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء . انظر نص الوثيقة في الملحق رقم .

عامر بن وصال (61) من كبار مشايخ الاحامدة والشيخ عبد الله بن مطلق (62) من كبار المشايخ ايضا ومن الشيخ نصير بن نصار من المشايخ المعنودين بقبيلة الحوازم ورسالة من الشيخ زيد بن محمد وابن اخيه فheid والذين لم يرضخا لسلطة الدولة منذ ثلاث سنوات ووصفا بانهما كانا منبع الفساد . وقد اتضح للوالى ان اسباب خروج هذين الشيخين على السلطة وتعدياتهم بسبب انقطاع مرتباتهما بامر من الشريف عبد الله باشا وكيل اماره مكة . ولدى استفسار الوالى عن هذا الموضوع من قبل وكيل الامارة المذكور قال منع عنهما الصرف منذ ثلاث سنوات بسبب كثرة تعدياتهما على الطرق .

كما وردت الى حسيب باشا رسالة من الشيخ طامى بن زيارة شيخ قبيلة بنى عمر من حرب يجدد فيها طاعته للدولة ويطلب اعادة صرف اعطيته السنوية التى قطعت بدون ما سبب يعرفه . ولعل من طريف ما ورد فى رسالة هذا الشيخ اخبار الامطار التى عمت البلاد فانعم الناس بالخيرات ونزلت عليهم السكينة ورخصت الاسعار (63) .

ومن الجدير بالملاحظة بان قلة الامطار وشدة الجفاف وقسوة الطبيعة وانقطاع الامطار كلية فى بعض المواسم وما ينجم عنه من هلاك مواشى هذه القبائل البدوية من هذه الانحاء كل هذه الظروف مجتمعة هى المسببات الرئيسية التى كانت تدفع بالقبائل الى تعديها على الحجاج او اخذ رسوم عليهم اثناء مرورهم باراضيهم او رفع اجور وسائل النقل لانه فى ظل مثل هذه الظروف القاسية التى كانت تعيشها قبائل حرب وغيرها لم يبق لهم امل فى مصدر آخر للرزق غير ما يحصلون عليه من الحجاج وكانت الناس هناك تستبشر خيرا بمقدمهم واصبح من امثالهم قولهم «رزق حرب على الحاج ورزق الحاج على الله» .

ولم تكن السلطات فى ولاية الحجاز تهتم بشؤون القبائل خاصة اذا ما تعرضت لمثل هذه الظروف الصعبة ، فلم يحدث ان وفرت لهم فرص للعمل كتوظيفهم للخدمة العسكرية فى الولاية مثلا او غيرها من الاعمال او تشجيعهم على العمل الزراعى والاستقرار فى اماكن ثابتة (64) ، بل فى احسن الاحوال اكتفت

(61) من عامر بن وصال الى حسيب باشا بتاريخ 28 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(62) من عبد الله بن مطلق الى حسيب باشا بتاريخ 27 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء ولعل زين العابدين هذا اما محافظ رابغ او محافظ المدينة المنورة .

(63) من طامى بن زيادة الى حسيب باشا بتاريخ 25 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(64) كانت اول محاولة من الدولة العثمانية لنشر الوعي بين قبائل الحجاز من خلال برنامج محو امية وتشجيعهم على الاستقرار والعمل الزراعى وذلك فى عام 1285 هـ / 1868 م حينما بعثت ولاية الحجاز بمائة وخمسة عشر معلما من شيوخ وفقهاء مكة المكرمة الى مناطق متعددة فى الولاية المأهولة بالسكان من القبائل خاصة تلك المحيطة بمكة لغرض تعليمهم القرآن ومحو

الولاية بصرف مخصصات سنوية نقدية وعينية بسيطة لرؤساء هذه القبائل والذين لاحظ تصاعدا في أعدادهم طمعا في الحصول على تلك الاعطيات وهذا بدوره ادى الى ضعف العلاقة بين الرؤساء الكبار والرؤساء الصغار وبالتالي خروج من لا تصله الاعطية عن الطاعة وذلك بتعديدهم على قوافل الحجاج والتجار (65) كما ان بعضا من مشايخ القبائل لم يكتفوا بالكتابة الى الوالى بل ذهبوا اليه بانفسهم بعد أن وثقوا منه بالامان مثل مشايخ «الهيه» وهم فرع من حرب ايضا حيث قدموا اعتذارهم عن تعدياتهم على الحجاج وسلبهم بعض امتعتهم وتعهدوا بالامتناع عن القيام بمثل هذا العمل مستقبلا وأخذت عليهم موافيق بعدم العودة اما اولئك المشايخ الذين لم يتمكنوا من الحضور الى مقر الولاية بجدة بسبب بعد المسافة ، فقد التقى بهم في المدينة المنورة واخذ منهم ضمانات تعهدوا بموجبها بسلامة طريق الحج ووزع عليهم كساوى هى عبارة عن شالات واردة (66) .

وفى عهد حسيب باشا ارتفع عدد الكساوى التى توزع على الاعيان وكبار القوم فى كل عام مع قدوم الصرة السلطانية السنوية (67) .

وصول الصرة السلطانية من المواسم الهامة التى تحتفل المدن المقدسة وسكان الحجاز عامة بمقدمها وتقال فى هذه المناسبة الاشعار وتلجج القلوب الى الله دعاء بطول عمر السلطان ولها مراسم عظيمة حين قدومها الى المدينة (68) ويرأسها شخصية هامة من رجال بلاط السلطان ويسمى امين الصرة ويفترض فيه الصدق والاخلاص والامانة والعطف والمبرة بالفقراء .

ولكن من الطريف ان حسيب باشا المعروف بصراحته وعدم مجاملته رفع الى الصدر الاعظم يلفت انتباهه الى عدم نزاهة امين الصرة السلطانية والمدعو مصطفى وانه رجل مشكوك فى امانته حيث قال ٠٠٠٠ وقد بدر منه انحراف فى امانته اذ قدم لحضرة صاحب الدولة والسيادة الشريف «الفروة» المعتاد ارسالها من قبل السلطان فكانت لا تليق بسيادته ولا يستحسن اظهارها

اميتهم . وقد ادت هذه المحاولة ثمار طيبة عادت بالنفع على السكان وعلى الولاية حيث هذبت اخلاق العربان وحبيت اليهم العمل والاستقرار مما ساعد على تحسين وضعهم ورفع طاقتهم الانتاجية من خلال العمل الزراعى انظر الوثيقة رقم 568 شورا دولت لفة 4 وهى تحوى على دفتر يوضح اسماء المعلمين واسماء المناطق المعينين بها وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر ايضا الوثيقة رقم 578 شورا دولت لفة 2 بتاريخ 16 شعبان 1285 هـ وايضا نفس الوثيقة لفة 1 بتاريخ 17 شوال 1285 هـ ولفة 5 بتاريخ 24 شوال 1285 هـ ولفة 3 بتاريخ 27 جماد الثانية 1285 هـ من محفوظات ارشيف رئاسة الوزراء . انظر كذلك مرآة الحرمين تأليف ايوب صبرى استانبول 1302 ج 4 ص 1027 وما بعدها .

(65) سعد بن جزا الى حسيب باشا بتاريخ 28 صفر 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(66) حسيب باشا الى الصدر لاعظم بتاريخ غرة جماد الاولى 1265 هـ وثيقة رقم 11034 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(67) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 سبق الاشارة اليها .

للعيان ، وعدا ذلك فانه غير وبدل الخلع والصرر الخاصة بالمشائخ والعربان ووزع الاعطيات على اهل الحرمين بكلمات عديمة الوفاء وبذلك جرح قلوب الغرباء والفقراء والذين يغتنم دعاءهم من الذوات وتجراً على ارتكاب العديد من الامور غير اللائقة .

وكذلك فقد كان الحاج احمد اغا الذي كان في السنة السابقة امينا للصرة رجلاً متقدماً في السن في شيخوخة متهالكة ولذلك احوال اموره على معتمده (كتخذنا) الذي ارتكب ما لا يليق . ولذلك نأمل ان تتفضلوا بتعيين السادة المجريين بعد الآن لهذه المهمات وتزويدهم بالوصايا اللازمة والاوامر والتنبيهات (69) وقد عين ابراهيم ادهم وقد وصف بانه من اهل التجربة والعفة امينا للصرة لموسم عام 1266 هـ كما اوصى مجلس «والا» بمراعاة اختيار امناء الصرة السلطانية في المستقبل من ارباب التجربة والامانة (70) وبهذا اصبحت احوال الامن في ولاية الحجاز في حالة جيدة وعم الناس حالة من الرضاء العام والشعور بالطمأنينة وقد وصف حسيب باشا حالة الامن في مكة المكرمة بقوله «عم الناس في مكة المكرمة صلاح الحال حتى ان اصحاب الحوانيت يتركونها غير مغلقة لما يقصدون الحرم الشريف لاداء الصلاة ويعودون الى حوانيتهم دون ان يفقد منها اقبحه» (71) .

ومن الجدير بالاشارة - طالما الحديث عن امن طرق الحج - الى ان طرق الحج العابرة من خلال اراضى امارتي نجد وعسير المحيطتين بولاية الحجاز من الشرق والجنوب حيث يعبر من خلال اراضى نجد الحجاج القادمون من العراق وشرق الجزيرة العربية وبلاد فارس بينما يعبر بلاد الثانية طريق الحج اليمنى، تعد اكثر امانا واكثر انضباطا من تلك التي تمر في اراضى ولاية الحجاز خاصة للقادمين من الشام ومصر .

(68) جمع احد كتاب الصرة السلطانية ويدعى حسن الوسنوى في السنوات ما بين 1234 - 1238 مقتطفات من قصائد شعرية تكتب على دفاتر الصرة عند تسلمها من قبل المسؤولين في المدينة المنورة حيث يقول «ومن القاعدة القائمة من قديم في كل عام بالخصوص ، تأتي من الدولة العلمية دفاتر سلطانية وعلى ما قل وجل فيها منصوص ، واذا وردت المدينة المنورة يرسم فيها الكاتب ما يشعر بالوصول بالتمام ويطلعها حضرة القاضي بختمه وحضرة شيخ الحرم ويزينان ابتداءها بحسن الختام» مخطوطة مكونة من 9 ورقات محفوظة في مكتبة جامعة استانبول تحت رقم 5948 .

(69) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية سبق الاشارة اليها . قام الصدر الاعظم باحضار السيد مصطفى امين الصرة الذي اشار اليه حسيب باشا وذلك لسؤاله من قبل مجلس والا عن اسباب تقصيره في اداء مهمته ولكنه توفي قبل ان ينتهى التحقيق معه . ملخصات تقارير حسيب باشا لدى الصدارة العظمى الوثيقة الموضح رقمها اعلاه .

(70) المصدر السابق .

(71) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بتاريخ عرة جماد الاولى 1265 وثيقة رقم 11034 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

ولدينا رسالتان في هذا الخصوص تتعلق بأمن طرق الحج عبر اراضي هاتين الامارتين واحدة من امير نجد فيصل بن تركي 1843 - 1865 واخرى من امير عسير محمد بن عايض 1855 - 1871 يقول الاول في رسالته التي وجهها الى والي الحجاز عبد العزيز باشا بتاريخ 7 شوال سنة 1267 هـ «... غير خافي شريف علمكم ولطيف فهمكم اننا لم نزل مستقيمين في مرضات الله ورسوله ثم سلطان المسلمين باقامة شريعة سيد المرسلين وتأمين سبل الحجاج والمسافرين وامانهم من جميع طغات البادية والمتمردين حتى صار الحج من فضل الله تعالى يمشى من بغداد والعراق والبصرة والبحرين وساحل عمان واقاليم العجم آمنين مطمئنين ونجعل عليهم امير لدفع الاذى عنهم وللبوادي على الحجاج رسوم رسموها المتقدمين واحتملناها عنهم فامنا البلاد والعباد وسلكا طرق الحجاج والمسافرين ونطعم الفقراء والمساكين ونربي الايتام ونكسى العرايا ونجبر الكسير ونواسى العسير وكل ذلك من فضل الله وامتنانه وحسن توفيقه ورجاء الثواب الجزيل والاجر العظيم من الله» (72) .

أما امير عسير محمد بن عايض فنلمس اهتمامه البالغ بأمن طرق الحجاج في رسالته التي بعث بها الى والي جدة محمد تاحق باشا وذلك بتاريخ 21 ذي القعدة 1273 هـ فيها «... ولتعلموا علم اليقين بمحبتنا ذوى التسديد الخارجين عن العنف والتشديد واخبارنا ولله الحمد سارة قارة ونحن في الاجتهاد الكلى فى تصليح سبل المسلمين وتتبع ارغام المفسدين الذين اولعوا بسفك الدماء وقطع الطرق سيما طريق بيت الله الحرام القاصدين تلك المشاعر العظام مع اقامة الشريعة المطهرة وتجديد الطريقة المنورة» (73) .

ونلمس من هاتين الرسالتين تأثير مدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية من حيث الصديق وشدة العزيمة على ضرب كل متجاسر تسول له نفسه بقطع طرق المسلمين والمسافرين من اجل الحج والتجارة وغيرها .

أمن ولاية الحجاز من الخارج

من المعروف ان ولاية الحجاز ومقرها مدينة جدة - وتسمى احيانا ايالة جدة والحبشة ، وتعريف الحبشة هنا من الصعب تحديده . الا انه من الثابت ان المدن الرئيسية والموانئ الكائنة على الساحل الغربى للبحر الاحمر مثل سواكن وطوكر ومصوع وزيلع وهرر وبربره تتبع لولاية جدة وهى فيما اعتقد ما يعبر عنه بولاية الحبشة المرتبطة اداريا وماليا وعسكريا بولاية جدة .

(72) من فيصل بن تركي الروالى ايالة جده عبد العزيز باشا بتاريخ 7 شوال سنة 1267 هـ وثيقة رقم 14790 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(73) من محمد بن عايض الى محمد تاحق باشا والي الحجاز بتاريخ 21 ذي القعدة 1273 هـ وثيقة رقم 594 ارادة مجلس مخصوص ارشيف رئاسة الوزراء .

وقد انتقلت ادارة هذه المناطق الى الادارة المصرية فترة استيلاء محمد علي باشا على ولاية الحجاز 1811 - 1840 واستصدر لابنه ابراهيم فرمانا بتعيينه واليا على جدة وولاية الحبشة (74) . واصبح من الطبيعي ان تعود ادارة هذه المناطق الى الادارة العثمانية التي استعادت نفوذها على الحجاز 1840 . وقد حاول محمد علي باشا ان يبقى سواكن تحت نفوذه ويربطها بالخرطوم مقرر حكمه في السودان (75) .

الا ان محاولته هذه واجهت معارضة شديدة من قبل سكان سواكن نفسها الذين طلبوا من والي جدة عثمان باشا ابقاء سواكن تابعة لجدة كما هو الحال منذ بداية الحكم العثماني (76) وكذلك مصوع بقيت ايضا مرتبطة بولاية جدة .

وبما ان هذين المينائين لا يكونان من اهمية استراتيجية بالاضافة الى اهميتها الاقتصادية لولاية الحجاز ، اصبحا يتعرضان لمنافسة دولية وخاصة - من قبل كل من بريطانيا وفرنسا ، واللتين اتخذتا من هذين المينائين معبرا الى الحبشة وما يعقبها من بلاد السودان لاغراض تجارية وتبشيرية . لم يقتصر نشاط هذه الدول على النواحي التجارية فقط بل اصبح نشاطها يهدد السيادة العثمانية على الطرف الآخر من البحر الاحمر وبالتالي تهديدا لامن ولايتي الحجاز واليمن معا (77) . وقد ازداد نشاط هذه الدول وتغلغلهم في المناطق العربية الاسلامية على الطرف الآخر من البحر الاحمر من خلال عقد تحالفات مع بعض قبائل هذه المناطق من ناحية ، وتعاونهم مع حكام الحبشة النصاري ضد سكان هذه المناطق من ناحية اخرى . وتشير المصادر الى ان الادارة العثمانية في استانبول وافقت على انتقال ادارة مينائي سواكن ومصوع الى الادارة المصرية مقابل مبلغ سنوي مقطوع تدفعه الاخيرة الى خزينة ولاية جدة وذلك في 19 رمضان 1262 / 12 سبتمبر 1846 م . وهذا لا يعني ان الدولة العثمانية قد تخلت عن حقها التاريخي في تبعية سواكن ومصوع لها . بل على العكس من ذلك فقد ابلغ السفير البريطاني في استانبول السير كاننج في عام 1848 م (78) .

Henry Dodwell - The founder of Modern Egypt - A Study of Muhammad Ali, Cambridge University Press, 1967. P. 49. (74)

(75) ارتبطت سواكن اداريا بالسودان في الفترة ما بين 1830/1246 و 1833/1249 ثم عادت تبعيةها الى جدة بعد ذلك انظر عريضة سكان سواكن الى والي جدة عثمان باشا بتاريخ 14 ذي القعدة 1258 هـ وثيقة رقم 2432 لفة 4 مسائل مهمة دفتر جدة ارشيف رئاسة الوزراء استانبول .

(76) المصدر السابق .

(77) الوثيقة السابقة وانظر كذلك محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن والبحر الاحمر ، الناشر الدار السودانية للكتب ، الخرطوم 1401 / 2981 ص 64 .

(78) Sven Rubenson - The Survival of Ethiopian Independence. (1) London, 1978, P. 116.

انظر ايضا شوقي الجمل سياسة مصر في البحر الاحمر ، القاهرة 1974 م ص 420 وتجدر الاشارة الى ان محمد علي باشا لم يتمكن من ابقاء سواكن تحت سلطته طوال فترة ولاية عثمان

ادرك حسيب باشا ازدياد النفوذ الاجنبى فى هذه المناطق ويعتبر اول من تنبه الى هذا الخطر المحدق بولاية الحجاز فسارع فى الكتابة الى الباب العالى يدعو الى ضرورة عودة تبعية سواكن ومصوع وغيرها من المناطق على الساحل الغربى للبحر الاحمر لولاية جدة وادخال ما لم يدخل من قبائل هذه الجهات تحت الحماية العثمانية (79) وقد اشار فى خطابه الى الباب العالى انه تذاكر مع المسؤولين المصريين فى هذه الخصوص اثناء مروره بمصر فى طريقه الى جدة فقبولت فكرة عودة سواكن ومصوع الى ايالة جده بعدم الرضا من قبلهم (80) ولكنه يرى ان الادارة المصرية لم تعد قادرة على ضبط امور هذه المناطق واحلال السلام بها وابعادها من الخطر الاجنبى الذى طالما وجد الفرص واختلاق المعاذير للتدخل فى شؤون هذه المناطق ، وذلك من خلال تأجيج الصراع بين القوى المحلية ، الذى زاد من حدته الطريقة التى ينتهجها الحكم المصرى لادارة هذه المناطق . وقد اشار حسيب باشا الى ان الحكم المصرى الغى نظام التعاون او التحالف مع (حريفو) حركيكو الذى كان قائما فى مصوع للمحافظة عليها واحل مكانه نظام عسكري آخر حدد له مراتب تقريبية وكان على رأس النظام القديم النائب حسن الذى فر لاجئا محتجا على النظام الجديد الى الرأس على زعيم قبيلة الكبيرة المجاورة لمصوع والذى كان قد دخل هو بدوره تحت الحماية الفرنسية (81) .

ويرى حسيب باشا انه اذا ما عادت سواكن ومصوع وغيرها من المناطق على الساحل الغربى للبحر الاحمر الى الادارة العثمانية المباشرة ومرتبطة بولاية جدة ، فانه يلزم تشكيل قوة نظامية ترابط فى قلاع الموانى ، المذكورة ، وخاصة مصوع ، حيث ينشط التدخل الاجنبى ، يساعد قوة من المليشيا ، ويرى انه من الافضل تشكيل القوة الاخيرة من سكان هذه الجهات من اصحاب التجربة والاستقامة . ويقترح ان يجلب اعداد من الرقيق من المناطق المجاورة لمصوع والحاقهم بالخدمة العسكرية النظامية التابعة لولاية الحجاز حتى اذ ما تم تدريبهم وتعليمهم حينئذ لا تحتاج ولاية الحجاز الى استخدام امثالهم من مناطق اخرى بل قد تفيض اعدادهم عن احتياج ولاية الحجاز فيرسل بالفائض الى

باشا والى جدة الذى عرف بمعارضته الشديدة لاية هيمنة لمحمد على على هذه الجهات ولكن نرى ان سواكن ومصوع ضمت لهيمنة محمد على بمجرد عزل عثمان باشا والذى كان لمحمد على دور كبير فى عزله ، وخلال فترة شريف باشا الضعيف والشريف محمد بن عون الصديق الخلف لمحمد على .

(79) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بتاريخ 5 ربيع الاول 1265 هـ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(80) الوثيقة نفسها .

(81) الوثيقة السابقة ولزيادة التفاصيل انظر

Sven Rubenson,
Then Survival of Ethiopan Independence. London, 1978, pp. 116-7
Ghada H. Talhami, Suakin and Massawa under Egyptian Rule 1865-
1885 University Press of America, 1979. P. 61.

استانبول او مناطق اخرى ترتأياها الدولة . اما طريقة الحصول على هؤلاء الرقيق فيرى الوالى ان الطريقة الاميركية مثل يحندي ، حيث تحصل دولة امركيا على آلاف الرقيق سنويا مقابل عينيات زهيدة من الخرز والاقمشة الرخيصة (82) .

واشار فى تقريره الى ازدياد التدخل الاجنبى فى مينائى مصوع وسواكن واقدام بعض مشايخ هذه المناطق الى بيع ما بايدهم من اراضى الى الاجانب ، ونبه الى الاخطار التى قد تتعرض لها ولاية الحجاز وامن الاراضى المقدسة من جراء هذا التصرف غير المسؤول ، وانه لا بد من جعل حد لتصرف هؤلاء المشايخ والمسارة الى ربط بلادهم بولاية جدة وتحسينها بحاميات من الجنود السلطانية . ويختتم تقريره هذا بقوله :

سنولى الاهتمام بالسواحل الحجازية وما هو فى جانب السواحل البرية السودانية بربره ومصوع لنجعل بحر السويس وحتى ذلك المضيق فى البحر الاحمر (بحر الشعاب) وما على جانبيه - اليمين واليسار - من البنادر والمرافىء والجزر من امان من كيد الاغيار محافظة وممارسة (83) .

ظلت بعض المناطق الكائنة على الطرف الافريقى للبحر الاحمر مثل زيلع وهرر وبربره بعيدة عن نفوذ الادارة العثمانية . وذلك منذ اضمحلال النفوذ العثماني على اليمن فى النصف الاول من القرن السابع عشر ، واقتصر النفوذ الفعلى للعثمانيين على المدينتين المقدستين مكة والمدينة فقط . لكن نلاحظ اهتمام العثمانيين منذ عودة نفوذهم على ولاية الحجاز 1840 يزداد فى تأكيد شرعية هيمنتهم على كل مناطق نفوذهم السابقة والتصميم على اعادة نفوذهم الفعلى على كل الاجزاء التى كانت تابعة لهم يوما ما . جاء هذا فى وقت ازداد فيه نشاط الدول الاوروبية وخاصة فرنسا وبريطانيا فى العمل على ان يكون لها مواطىء اقدم ومناطق نفوذ فى المناطق المطلة على البحر الاحمر والخليج العربى حيث تمكنت بريطانيا من احتلال عدن فى عام 1839 واتخذت منه قاعدة لتوسيع نفوذها فى المناطق المطلة على البحر الاحمر بقسميه العربى والافريقى .

أما فرنسا فقد اقتصر نشاطها فى بادىء الامر على التجارة والاعمال التبشيرية وممارسة حقها التاريخى فى حماية الروم الكاثوليك فى المشرق ، واقتصر اهتمامها فى مصوع كمركز مهم لتجارتها كما اتخذت منه معبرا الى مسيحي الحبشة وكانت اول محاولة لها فى الاستيطان هى محاولة الاستيلاء

(82) الوثيقة السابقة .

(83) الوثيقة السابقة ، لم يوافق الباب العالى على فكرة حسيب باشا الرامية الى تجنيد الرقيق وذلك خوفا من المحذورات الدولية التى تاتى بريطانيا على رأس الدولة المعارضة لفكرة العبودية ومحاربة تجارة الرق . خلاصات قرارات الباب العالى مصدر سبق الاشارة اليه .

على جزيرة كمران المحاذية للحديدة الا ان والى الحديدة فشل فى محاولتها تلك ووضع حامية فى الجزيرة (84) .

اما المناطق الثلاث المشار اليها اى زيلع وهرر وبربره فقد تنبه حسيب باشا الى اهميتها وتطلعات لاجانب الى بسط نفوذهم عليها فدعى الى المبادرة بضمها تحت النفوذ العثماني المباشر وقطع الطريق على الدول الاجنبية فى التدخل فى شؤونها مستغلين الصراعات الداخلية بين رؤساء هذه المناطق فكتب فى تقريره المفصل الى الباب العالي عن احوال هذه المناطق والظروف التى تواجهها حيث قال : « كان يحكم مرفأ بربره الكائن خارج باب المندب من البر العجمي قبيلتان احدهما المسماة عيال احمد التى عرضت فى عام 1264/1847 الماضية بيع حصتها الى الحاكم المدعو شوه صاحب حاكم عدن من قبل الدولة الانكليزية، فعارضتها القبيلة الثانية الشريكة معها فى هذا العرض وجرت الفتنة بينهما واتسع الخلاف فكانت معارضة عيال يونس لعيال احمد سببا لتجميد موضوع البيع واستمر الاختلاف والشقاق بينهما اشهرًا فانتهر حاكم عدن فرصته فارسل من قبله موفدا على سفينة وصلت بربره حيث قام الموفد بمصالحة القبيلتين ولكن هذا الصلح لم يكن على اساس متين (85) . وقدم لنا حسيب باشا فى تقريره وصفا حيا لاحوال ميناء بربره يقول فيه :

«... مرفأ بربره لا يكون مسكونا طيلة العام لان مرور وعبور السفن فى البحر المذكور (اى خليج عدن) له مواسم معينة فلما يحل موعدها تفد القبائل اليها من حيث ترد السفن العديدة قادمة من اطراف الهند والبصرة ومسقط والمكلا واليمن والجهات الاخرى ماخرة فى البحر آتية آتية ، والسفن القادمة الى المرفأ تحمل انواع التمر والنقود لتبادل بها المحاصيل الجاهزة اليومية . الصمغ والمر والصبر والباعة وريش النعام وسمون الماشية والاغنام وهى فى هذا المرفأ وافرة ورخيصة تلبي مطالب الوافدين الذين يحملونها على سفنهم عائدین من حيث يمرون على عدن وهنا لا تستوفى ادارتها اى جمرك (86) معين،

(84) زاد نشاط قنصل دولتي بريطانيا وفرنسا عن حده وتجاوز طبيعة مهام وظيفتهما حينما اقدم القنصل البريطاني على تهريب كميات من الاسلحة عن طريق مصوع وزيلع الى القبائل الحبشية المسيحية بلغت 10 آلاف بندقية و 15 مدفعا وكمية كبيرة من العتاد الحربى ، كما قاما بانشاء ابنية فى مصوع فى حين كانت بواخر بلديهما قادمة ذاهبة فى حركة دائمة تحمل اعدادا من الجزويت والبروتستانت المبشرين الى النصرانية فى صفوف القبائل الحبشية . انظر تقرير وائى اىالة اليمن الى الصدر الاعظم بتاريخ 13 شعبان 1268 هـ / 1851 وثيقة رقم 15844 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(85) حسيب باشا الى الصدر الاعظم بدون تاريخ وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(86) تبنت بريطانيا منذ الوهلة الاولى لاحتلالها لعدن فى عام 1839 م ان اعفت جميع التجارة الواردة الى عدن من الجمارك وبذلك اغرت الكثيرين من التجار بالذهاب الى عدن بتجارهم تجنبا للضرائب الباهظة التى كان يستوفونها محمد على / كل ما يرد الى الموانئ اليمنية وخاصة مخا من تجارة اليمن الداخلية وخاصة القهوة تجارة اليمن القومية . فنظام محمد على الاحتكارى الذى طبقه فى اليمن اثناء فترة احتلال قواته لها 1835 - 1840 قد ادى الى ثلاث نتائج عكسية انتكبت بسببها اليمن نكبة عظيمة :

على ان السفن الواردة تدفع (الغفارة) لاحدى القبيلتين الآنفتي الذكر ويودى اصحاب السفن لهؤلاء ما جرت عليه العادة من اعطيات تكرّما .

ولما ينتهي الموسم ويتم الوارد يبقى المرفأ خاليا من السفن . اذ تكون القبيلتان والعربان الذين جاؤوا من هنا وهناك للبيع والشراء قد استقروا فى سفنهم ومراكبهم التى تمخر فى البحر . وهكذا يصبح المرفأ الذى يعج بالوافدين اليه والذين كانوا على انتظارهم خاليا خاويا لا يسكنه احد» (87) .
أما بندر زيلع الذى يقابل ميناء فحأ ويفصل بينهما مسافة يوم واحد ، فقال حسيب باشا انه يتبع لايالة اليمن تحت ادارة الشريف الحسين بن على حيدر ويتولى المحافظة عليها الشريف المذكور بواسطة بعض التجار الملتزمين له بها ووصفها بانها «بلدة محصنة واسعة العمار محاطة بسور» (88)

كما دخل حسيب باشا فى مكاتبة مع من أسمته الوثائق العثمانية بسلطان الحبشة .

كان الهدف من هذه المكاتبة تذكير هذا السلطان بانه وبلاده تابعين للخليفة العثماني وقد رد سلطان طائفة الحبشة بجواب مع مندوب يدعى الحاج اسماعيل كوندري ، اكد فى جوابه هذا بانه من اتباع السلطان العثماني ، وقد وصل موفود سلطان الحبشة الى جدة فى الوقت الذى كان حسيب باشا قد انعزل منها وحل بدلا عنه عبد العزيز باشا الملقب بأغا (89) .

كذلك تناول حسيب باشا مسألة امام عمان الذى ذكر انه دخل فى اتفاقيات مع بريطانيا وفرنسا ويخشى ان يجر ذلك الى استيلاء اى من هاتين الدولتين على شىء من املاك الامام . ورغب الامام الانضواء تحت طاعة السلطان العثماني (90) .

أولا - قل اهتمام المزارعين اليمنيين بزراعة البن التى لم تعد مربحة فى ظل النظام الاحتكارى فكان محمد على يفرض اسعار محددة ويقوم هو بشراء القهوة وبيعها بالسعر الذى يناسبه فى السوق الدولية .

ثانيا - نقل تجارة البن الى عدن تجنبا لاسعار محمد على المحدودة والبيع فى سوق حر بالسعر الدولى بالإضافة الى الاعفاء من الجمارك . فادى هذا الى تنشيط الحركة التجارية فى عدن على حساب الموانئ اليمنية وخاصة منها التى كانت لها سمعة دولية بتصدير البن فاصبحت فى نهاية حكم محمد على مدينة صغيرة فقدت شهرتها الدولية .

ثالثا - ان التسهيلات البريطانية وتمسك حكم محمد على الذى لم يكن مهتما اطلاقا بمصلحة وتنمية البلاد انسى المواطن اليمنى التفكير فى توحيد صفوفه ومجابهة الاحتلال البريطانى لعدن بل اصبح البعض منهم لا يرى فرق بين الاحتلالين بل الانجليزى يمتاز بمغرياته .

(87) وثيقة سبقت الاشارة اليها .

(88) تقرير حسيب باشا سبق الاشارة اليه .

(89) من سلطان الحبشة الى والى الحجاز بتاريخ شعبان 1267 هـ وثيقة رقم 14790 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(90) لم تخضع عمان يوما للحكم العثماني ولكن هذا لا يعنى انعدام علاقة بين الطرفين فلقد كان لتطافر جهودهما الدور الحاسم فى دحض توغل لعمان شأن كبير واضحت قوة ضاربة فى بحر

كل هذه الامور اولها حسيب باشا بالغ اهتمامه وذلك منذ الوهلة الاولى لتسلمه مهام منصبه واليا للحجاز ، سطرها في تقارير ورفع بها الى استانبول لعرضها على انظار الحكومة هناك لتكون لديهم صورة واضحة وحقيقية للاخطار التي تتعرض لها تلك الاقاليم من الامبراطورية من جراء المحاولات المتكررة من قبل الدول الاجنبية لغرض الاستيلاء عليها متخذين للوصول الى ذلك وسائل وحجج ، تارة بحجة منع بيع الرقيق ، وتارة بحجة نشر الديانة المسيحية بين السكان في الطرف الافريقي وعلى ضوء ما تقدم دعى الصدر الاعظم الى عقد مجلس خاص (91) وذلك بتاريخ غرة شعبان 1265 / 1849 لمناقشة الاوضاع في ولاية الحجاز وملحقاتها على ضوء تقارير حسيب باشا واتخذ حيالها عدة قرارات صدرت الموافقة السلطانية باقرارها نلخصها فيما يلي :

أولا : ما ورد بخصوص نشاط قناصل الدول الاجنبية - الموصوفين بالمتحابة، اى الصديقة - وتدخلاتهم في المناطق التي اشار اليها والى الحجاز ونشاط جمعياتهم الدينية الرامية الى نشر الديانة المسيحية وحماية قناصل هذه الدول لهم بحجة منع بيع الرقيق . وحيث ان قنصليات هذه الدول اقيمت في المناطق التي ارتضوها وجعلوها وسيلة لحرية مرور سفنهم التجارية بالاستناد الى الاتفاقيات المعقودة بين الدولة العثمانية وهذه الدول والتي تنص على عدم المساس بذلك فيرى المجلس بما ان الاقدام على مواجهة هذه الامور بالمنع العلني امر غير ممكن فان من المتوجب على الولاة والموظفين ان يبذلوا قصارى جهودهم وذلك باستخدام وسائل البراعة والمهارة في مراقبة نشاط هؤلاء الاجانب ورصد حركاتهم وافعالهم وبصورة خفية حتى اذا ظهرت من تصرفاتهم ما يخل بروح الاتفاقيات ووجب الادعاء اذا بأيدينا ملتزمات تدين تصرفات قناصل وموظفي هذه الدول .

العرب والمحيط الهندي ناهيك عن دورها البطولي في الدفاع عن عروبة الخليج امام غزوات المتكررة وخاصة مهاجمة الفرس للبصرة في عهد كريم خان زند عام 1773 - واضطلاع عمان بالدفاع عن البصرة في عهد الامام احمد بن سعيد مؤسس الاسرة البوسعيدية الحاكمة في عمان حاليا ودخول هذا الامام مع السلطان العثماني في علاقات بلغت الذروة بين الطرفين وتناولتها في بحث قدمته في الندوة السنوية لدراسات الجزيرة العربية التي تعقد سنويا مرواحة بين كمبردج ولندن واكسفورد وذلك في صيف عام 1984 بعنوان .

Omani-Ottoman Relations During the Reign of Imam Ahmad-Ibn Sa'id (1741-1783).

In the light of recently discovered exchange of letters between the Imam and

The Ottoman Sultan (with special reference to the situation in Basra during

The crisis of the Persian Invasion).

This study will appear in Arabian Studies (Volume 8) which will be published shortly.

هذا البحث تحت الاعداد للنشر .

(91) ينعقد المجلس الخاص برئاسة الصدر الاعظم وعضوية الوزراء المعنيين في القضية المطروحة للمداولة .

ثانيا : قضية بيع الرقيق . سعت حكومة بريطانيا الى توقيع اتفاقيات دولية تحرم فيها بيع الرقيق وخشة من اعطاء الفرصة للتدخل في الاملاك العثمانية بحجة بيع الرقيق فان المجلس يحض الموظفين والولاة بمراقبة الالتزام بالاتفاقيات الدولية في هذا الخصوص واعلان هذا الامر على مشايخ العرب . مع ان المجلس يدرك ان بعض الدول الاوروبية التي تملك مستمرات في البلدان الخارة ما زالت تستقدم لها الرقيق من الحبشة لتعذر مواءمة مناخ تلك المناطق مع طبيعة سكان البلاد الباردة .

ثالثا : مسألة استمالة امام عمان : أشار المجلس في تقريره الى ان محادثات قد تمت بين شيخ الاسلام وامام عمان حين لقائهما في مكة المكرمة (92) وقد ابدى الامام رغبته في تبعية الدولة العثمانية «فاذا كان الامام الموحى اليه قد عقد فيما سبق معاهدات تجارية مع انجلترا وفرنسا فكأنه الآن يسير في طريق اخرى ، فازاء هذا يجب النظر الى حمايته من قبل الدولة العليا» (93) وقد اوصى المجلس في الاستمرار في المحادثات مع الامام .

رابعا : دعى المجلس الى اصدار التعليمات الى كل من شريف مكة ووالي ايلة الحجاز بان يكون لهما عيون وبصورة خفية في المناطق المحيطة بالبحر الاحمر وان تكون هذه العيون ممن يعتمد عليهم من سكان القبائل المتوطنة في هذه المناطق . ومهمتهم مراقبة حركات قناصل الدول الاجنبية ونشاطاتهم على ان تدفع لهم اعطيات مالية مقابل عملهم هذا . هذا بالاضافة الى التنبيه على الشريف والوالي المذكورين ببذل اقصى جهدهما لما فيه حفظ وحماية البلاد العثمانية من الوقوع تحت النفوذ الاجنبى كمثل ما حدث لعدين .

ومن الجدير بالذكر ان عرض رئيس الكتاب تمهيدا لعرضه على السلطان قد اشتمل على فقرة هامة في خصوص عدن والكيفية التي وقعت بها تحت الاحتلال البريطاني وموقف الدولة العثمانية رسميا من هذا الاحتلال . وقد ورد ما نصه «ان عدن من ممالك الدولة العلية وبصورة ما فان شيخها قد باعها الى شركة الهند الشرقية وان هذا الامر وبأى وجه لم تصدق عليه الدولة العلية ، ولكن حسب الوقت والحال فان امر استخلاصها ذو اشكال» (94) .

(92) للأسف لم يشر المحضر الى تاريخ سنة اللقاء ولم يعط تفاصيل عن هذا اللقاء والمحادثات التي تمت فيه اذ ان الكشف عنها سيلقى اضاء جديدة على تاريخ العلاقات العمانية العثمانية التي لا نعرف عنها الشئ الكثير .

(93) المصدر الاعظم الى رئيس الكتاب بتاريخ غرة شعبان 1265 وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

(94) المصدر الاعظم الى رئيس الكتاب بتاريخ غرة رمضان 1265 وثيقة رقم 11299 ارادة داخلية ارشيف رئاسة الوزراء .

وبهذا نأتى الى نهاية هذا البحث الذى اشتمل على بعض من جوانب تاريخ ولاية الحجاز ومنطقة البحر الاحمر فى فترة تولى حسيب محمد باشا حكم هذه الولاية وهى فترة من اهم الفترات فى تاريخ الولاية ونقطة تحول تاريخى هام من مرحلة سادت فيها المفاهيم التقليدية البالية وما خلفه حكم محمد على من ظلم واضطهاد وتخلف الى مرحلة اخذت روح التنظيمات والاصلاح والدعوة الى المشاركة الجماعية فى اتخاذ القرار تجد لها متنفسا من خلال القيادات المتنورة والواعية حيث كان حسيب باشا اول داعية الى هذه المفاهيم الجديدة فى ولاية الحجاز .

محمد عبد الله آل زلفه

جامعة كمبردج

حياة اللهو وخدمات الخمارات والمقاهي والفنادق في الجزائر في أوائل القرن الثامن عشر

الدكتور المازدي بديرة

مقدمة

ما زال التاريخ الاجتماعي الحديث والمعاصر كشقيقه التاريخ الاقتصادي للولايات العربية التابعة للدولة العثمانية يحتاج الى الكثير من البحث والتحليل والاستنتاج : البحث اذا كان ممكنا عن المعلومات والتعمق في تحليلها ومحاولة توظيف النتائج لمعرفة خاصة اسباب الركود الذي يرجع بعض المؤرخين ظهوره الى بداية الحكم العثماني في الوطن العربي (1) والذي تطور الى تخلف المجتمع العربي عن المجتمعات الصناعية وتولدت عنه اشكاليات التنمية المعاصرة .

في هذا الاتجاه من البحث العلمي وبالتحديد في ميدان البحث عن المعلومات اي الوثائق التاريخية المختلفة المصادر والرصينة والموثوق بها اكتشفت في خزائن الأرشيف السويدي بستوكهولم ملفا يحمل عنوان «رسائل رفلتيلوس الى اللجنة التجارية (بوزارة الخارجية) 1730 - 1732 في قسم الأرشيف المعنون بتركيا : ملحق : الجزائر : ملف 1 - 4 (2) . فمن هو رفلتيلوس كاتب هذه التقارير ؟ وما هو محتواها ؟ ولمن هي موجهة ؟ ولماذا كتبها ؟ كارل رفلتيلوس أول سكرتير كارل رفلتيلوس أول سكرتير في أول قنصلية سويدية انشأت بمدينة الجزائر سنة 1730 بعد توقيع معاهدة «السلام والتجارة والصداقة» عام 1729 بين السويد والجزائر . والمصادر السويدية لا تقول شيئا كثيرا عن حياة اذ تقتصر على أنه بدأ طالبا في جامعة أوبسالا عام 1708 وبدأ في 12 مارس 1722 كمتربص بالديوان الملكي للتجارة حيث ثبت في 23 - 7 - 1724 ثم ألحق بدائرة البعثات الخارجية في 7 - 7 - 1725 وفي 23 - 3 - 1730 عين سكرتيرا في القنصلية السويدية بالجزائر التي بقي فيها الى 14 - 3 - 1732 وهي السنة التي توفيت فيها أرملته (3) ولقد ألف كارل رفلتيلوس كتابا ضخما صدر في ستوكهولم سنة 1737 تحت عنوان «وصف تاريخي وسياسي لمملكة ومدينة الجزائر 1516 - 1732» (4) قال في مقدمته مينا دافع تأليفه له «لقد أتاحت لي اقامتي برغم قصرها في الجزائر

أن أحصل على بعض المعلومات من خلال تجربتي بالتنقل داخل البلاد والاتصال المباشر والنقاش مع السكان العرب والبربر والموريسكيين والأتراك واليهود والأوربيين رأيت من المفيد أن أقدمها إلى قراء اللغة السويدية الذين لا يعرفون تأليفنا في لغتهم حول الجزائر (5) .

يبدو واضحا أن المؤلف اعتمد في هذا الكتاب فيما عدى قسمه التاريخي على التقارير التي كان بعثها المؤلف سكرتير القنصلية إلى «ديوان التجارة» من أوائل 1730 إلى أوائل 1732 حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلاقات الإنسانية مثل الحانات والمقاهي ودور الضيافة والمواصلات والبريد (6) والتجارة الداخلية والخارجية الصحراوية والصناعات الحرفية ومداخيل الدولة (7) والعبيد وأسرى القرصنة الأوربيين (8) الخ ...

وتقارير رفتيلوس تستجيب لتعليمات الحكومة السويدية التي تطلب من قنصليتها في الجزائر بموافاتها بتقارير ضافية عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الجزائر حتى تعرف مدى تحدى حكومة الجزائر التي تجبرها على دفع ضريبة «معاهدة السلام والتجارة والصدقة» (9).

اذن يبدو من المفيد لجمع المعلومات التاريخية عرضا من كتاب وتقارير كارل رفتيلوس أن نقدم عرضا لوصف رفتيلوس لبعض جوانب الحياة الاجتماعية في الجزائر طوال سنوات 1730 - 1731 .

الخمسات :

تجيز الحكومة الجزائرية اقامة الخمسات العامة خارج سور المدينة . ويتمتع بهذا الامتياز العبيد (أسرى القرصنة الأوربيين) فقط شرط أن يكون لهم الإمكانات لشراء المقر وأن يدفعوا لبيت المال اداءات سنوية تتناسب مع كميات الخمر التي يبيعونها ويجب عليهم تشغيل اثنين أو ثلاثة من اخوانهم في الأسر كمساعدين لخدمة الزبائن ، كما يلتزمون عند الحاجة - بإطعام اخوانهم من الأسرى الفقراء بدون مقابل اذا كانوا مرضى أو لم يجدوا وسيلة أخرى لإسكات جوعهم .

وهذه الحانات التي يجب أن تكون خارج دور الأسرى العامة تباع - مقابل المال - للمسيحيين والأتراك والعرب الدخان والخبز والنييد وانواعا مختلفة من المأكولات المتداولة في البلاد والتي يطبخها العبيد أنفسهم .

أما رواد هذه الخمارات فهم غالبا ما يكونون من العسكر والصعاليك والسوقة والعبيد أسرى القرصنة الذين يقضون الوقت في مقارعة الخمر والتدخين والحديث .

وتدر خدمات هذه الخمارات على أصحابها أرباحا هائلة اذا ما التزموا بالتواضع والطيبة والرصانة وابتعدوا عن الفجور والخناء وكسبوا الاحترام . وتوجد امثلة على خمارين استطاعوا أن يجمعوا خلال سنوات قليلة ، وبعد ان دفعوا الضرائب المستحقة ، كميات كبيرة من المال حتى أنهم استطاعوا ان يقدوا انفسهم من الأسر .

وعلى السؤال المطروح كيف يمكن أن توجد خمارات ويستهلك الخمر بكميات ضخمة في بلد يحرم فيه شرب الخمر على الأهالي . يجيب رفتيلوس بأن الأسرى الأوربيين يستهلكون الكمية الكبرى من الخمر المباعة في الجزائر اذا ما استطاعوا بيع خدماتهم للأهالي . ولكن الملاحظ ، وبدون مبالغة ، فإن الأتراك وخاصة العصاة منهم يشربون - نسيا - كميات أكبر من الأوربيين بالرغم من أنهم يعرضون أنفسهم للعقاب اذا ما ثبتت التهم عليهم .

ومن الأشياء الغريبة التي تلاحظ في الجزائر هي ان ترى تركيا يعاقب تركيا آخر على انتهاك القانون بشرب الخمر ثم ترى الحاكم أو القاضي مع شلة من الأصدقاء والزملاء في حالة سكر بالغ يرهق نفسه بشرب الخمر طوال الليل حتى طلوع الفجر حيث يبدأ في الاستعداد للذهاب الى المسجد لاداء صلاة الصبح فيتوضأ ويتناول افطار الصباح المتروك عادة من القهوة والتفاح المقلي لمنع انتشار وتسرب رائحة الخمر الى الآخرين .

وهذه الفئة من الأتراك العارفين في الجزائر يؤلون الشريعة لفائدتهم عندما يقولون بأن شرب الخمر الحرام هو الذي يؤدي الى الخلاف والعراك او إزعاج الناس والاعتداء عليهم . وهذه المظاهر يجتنبونها هم عندما يسكرون في الليل وفي كنف السرية وبدون الاعتداء على أحد او انتهاك حرية الآخرين . وهكذا يدافعون على انتهاكهم لشريعة القرآن في هذا الموضوع . فالأهمية عندهم لا تتركز على عمية شرب الخمر نفسها وانما على كمية الخمر المشروبة وهم يرون ان القانون الإلهي لا يتسامح مع الذين يشربون الخمر بكميات هائلة حتى يفقدون الإدراك فينهارون ويأتون اعمالا مختلفة تزج وتغضب الآخرين فيستحقون العقاب

لذلك يبدو من غير المستغرب أن نرى في المساء مجموعات من السكارى من المسلمين المستهترين يتجولون خارج سور مدينة الجزائر . ويجب تجنب المارقين وعدم تبادل الكلام معهم حتى لا نجلب المشاغب لأنفسنا . والملاحظ أن هؤلاء السكارى المدمنين لا يرحبون بجولة الداي التفقدية للمدينة رغم ان الداي ، نظرا لتغير الأزمان والطباع والأمزجة أصبح متسامحا كثيرا .

والأسرى العبيد أصحاب الخمارات يمنع عليهم الترفيع في اسعار الخمر المحددة من طرف الحكومة .

والخمارات غالبا ما تكون في محلات بسيطة جدا شبيهة بالمغازات أو مخازن بسيطة لا يدخلها النور الا من الباب بحيث يجب استعمال القناديل طوال النهار والليل حتى يتسنى تقديم الخدمات ورؤية الزبائن وتختلف الخمارات في الكبر والصغر حسب حاجيات الاستعمال التي يقدرها صاحبها . وتشترك الحانات كلها في عدم النظافة وفقدان الأناقة وتحتوى عادة على بعض المناضد المستطيلة الشكل وبعض براميل الخمر وكذلك بعض الأسرة للزلاء المعوزين واشياء أخرى متفرقة وتافهة .

والخمارات في الجزائر نادرة نسبيا لأن الناس في كل مكان يشربون الماء عادة ولا يعرفون شيئا عن عصير الشعير أو عصير العنب بالرغم من أنهم يسمحون لأنفسهم بالتمتع بكأس من الجعة الخفيفة عندما يمكنهم الحصول عليها كالمشروبات الغازية الغير محرمة في القرآن .

أما بالنسبة للمسيحيين الأحرار المقيمين في الجزائر والمعتادين على خزن زاد من الخمر في بيوتهم فإنهم يتولون بأنفسهم أو بواسطة العبيد تحضير الكحول في أماكن معزولة عن الشمس في ديارهم .

المقاهي :

أما المقاهي في الجزائر فهي موجودة بكثرة تزيد عن اللزوم ولكن من النادر وجود مقهى نظيفا يستهوى الزائر للجلوس فيه بانبساط وسرور وهذا لا يمنع من أن هذه المقاهي تكون دائما مكتظة بالرواد الذين يقضون فيها أكبر قسم من النهار في الحديث والثرثرة والتدخين وشرب القهوة واللعب (ولم يذكر فتيليس أي نوع من اللعب) .

والبن الذى يستخرج منه مشروب القهوة والذى بدأ ينتشر فى اوربا الآن (أى حوالي 1730) يطبخ فى الجزائر بكثرة ويستورد من ولاية اليمن التى تبعد عن الجزائر ثمانية أيام سفر .

ويصف الجزائريون القهوة بأنها مشروب يزيل الهموم ويبعد الكآبة ويجلب المرح وينشط الجسم ويساعد على هضم الأكل ويقوى الإدراك والفهم حتى ان بعض الناس يضيفى على هذا المشروب القداسة .

الفنادق :

الفنادق العصرية (اي على النمط الأوروبى) والضرورية لاستراحة المسافرين لا وجود لها فى الجزائر . والمسافرون يستعملون الحمار أو الحصان يقومون بنفس السفرة فى نفس اليوم . ويفضل الجزائريون ركوب السفن للاماكن التى يمكنهم وصولها بالطرق المائية .

أما بالنسبة للأوربي الذى يريد القيام برحلة داخل البلاد الجزائرية فيجب عليه أن يكون مصحوباً ببعض الأتراك الطيبين والتقاة كرفاق طريق والا فإنه يعرض نفسه وأمتعته للخطر لأن قطاع الطرق من العرب والبربر الذين لا يحترمون الأتراك انفسهم الا نادرا فإنهم يعتقدون بأنهم يقدمون خدمة جليلة للملكوت السماوي اذا هم اجهزوا على اوروبي مسيحي .

وبما أنه - كما أسلفنا - لا توجد فنادق عصرية للمسافرون الجزائريون يقيمون - اذا كان ممكنا - عند أقاربهم أو أصدقائهم . اما الأوربيون الذين يأتون الى الجزائر للأعمال التجارية أو مكلفين بمهمات رسمية أو الذين تجبرهم الأحداث على الإرساء فى الجزائر فينزلون فى قنصليات بلدانهم اين يقيمون ويقدم لهم الأكل .

أما بالنسبة للأوربيين الغرباء الذين لا مكان لهم فى القنصليات والذين لايجوز لهم الإقامة او الاستضافة عند الأتراك أو العرب أو البربر فيقيمون عند اليهود الذين يؤجرون لهم غرفا مفروشة فى ديارهم ويتحملون كل المسؤولية اذا تعرض نرلاؤهم الى مكروه . وهنا تجدر الملاحظة أنه يجوز لأي شخص سواء كان اجنيا او من الأهالي صعوبة أن يستأجر دارا بأكملها اذا سجل رغبته تلك عند ادارة الداي .

أما المسافرون من الأهالي المعوزين والذين ليس لهم أقارب أو اصدقاء في مدينة الجزائر وكذلك اليونانيون فإنهم مجبرون على الإقامة في الحانات الموصوفة اعلاه أو في الأماكن المشابه لها .

أما في بقية أغلب مدن وقرى الجزائر فتوجد عادة دور الضيافة تسمى خان (Kaans) شيدت خصيصا لإيواء الغرباء الوافدين على البلدة . ويشرف على الدار مدير يسمى «محرك» (Maharak) وهو الذي - بعد اذن حاكم المنطقة - يستقبل الوافدين ويحتفي بهم ويقدم لهم الخدمات المناسبة مع كرم الضيافة العربية . وإقامة الضيوف في هذه الدور لا يجوز أن تتعدى الليلة الواحدة .

د. المازري بديرة

جامعة تونس

مركز الدراسات والأبحاث

الاقتصادية والاجتماعية

هوامش

(1) يمكن الرجوع في هذا المجال التاريخي الى :

H.A. Gibb and H. Bown, Islamic Society and the west : A Study of the Impact of western civilisation on muslim Culture in the Near East, 2 vol., London 1950, 1957.

أو خلاصة هذه النظرية في مقال د. محمد السيد سعيد : نظرية التبعية وتفسير تخلف الاقتصاديات العربية . في : التنمية العربية ، الواقع الراهن والمستقبل ، سلسلة كتب المستقبل العربي (6) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 1984 .

(2) Riksarkivet (R.A.), Stockholm, Turcica, Bihang :
Algeria, vol. 1—4, vol. 2 : Reftelius brev till
Handels-deputationen 1730 — 1732.

Kommerskollegiets arkiv, Huvudarkivet 1651 - 1919, skrivelser fran konsuler och ministrar : a) skrivelser fran svenska (svansknora) konsuler, vol. 8 Alger 1730 — 1832.

J.A. Almquist, Kommerskollegium och rikens standers manufakturkontor (3) sam konsulsstaten, stockholm 1912-1915, p. 513.

J. H. Kreuger, Sveriges forhallanden till barbaresk staterna i Africa stockholm 1856, vol. 1, P. 353.

Carl Reftelius, Beskriuning ove riket och staden Alger, fran ar 1516 till och (4) med a 1732, Stockholm 1737.

(5) رفتاليوس : المقدمة

(6) رفتاليوس : 272 — 279 .

(7) رفتاليوس : 639 — 650

(8) رفتاليوس : 650 وما بعدها .

(9) نص المعاهدة التركية من 22 فصلا والبروتوكول الملحق في :

R.A., Turcica : Algerica, vol. 1, 1730 .

B. Boethius : Sverges traktater med frammande magter (Traité de la Suède), vol. 8 : 1723 — 1739, Stockholm 1915, P. 99 — 115.

الوضع الاجتماعي لتجار جدة فى القرن الثامن عشر الميلادى

د. محمد عبد الرحمن برج

حين يكتب الباحث عن طبقة التجار فى جدة فانه يتناول قطاعا كبيرا من سكان تلك المدينة ان لم يكن كلهم . فاذا كان غالبية سكان البادية المحيطة بجدة قد مارسوا مهنة الرعى كالبدو والمنتمين لقبائل حرب وهذيل وعتيبة وجهينة . ومنهم من اشتغل بالزراعة مثل سكان وادى فاطمة والطائف وخليص فان معظم سكان هذه المدينة ان لم يكن جلهم قد مارس مهنة التجارة بحكم موقع هذه المدينة التجارى .

لعبت جدة فى هذه الفترة دورا هاما بحكم كونها الميناء الرئيسى لولاية الحجاز .

ويقرر (بوركهاردت) ان جدة كونت ثروتها لا بحكم انها ميناء مكة فحسب بل بحكم علاقاتها التجارية مع مصر وسائر انحاء الجزيرة العربية .

وتقرر علي العباسى وهو الاسم الذى تسمى به الرحالة المشهور Badiay Lablack فى كتابه المشهور Traveis of Ali Bey والذى صدر فى لندن سنة 1816 ميلادية فى جزئين بعد زيارته لكل من المغرب وطرابلس ثم مصر والجزيرة العربية أن جدة ليس لها علاقات تجارية مع مصر وموانى الجزيرة العربية فحسب بل ومع الخليج والهند وافريقيا .

ووصف جدة بقوله :

« مدينة جميلة شوارعها منظمة ومنازلها ذات طابع هادى مبنية من الحجر تتألف من طابقين أو ثلاث بها نوافذ كبيرة وسقفها مستوية وبالمدينة خمسة مساجد ويحيط بها سور متين وابراج منتظمة وعلى بعد خطوات من السور حفر خندق ولكنه مهمل تماما - واسواق المدينة عامرة بالتجارة والاثمان مرتفعة - وتحمل اليها الخضروات والفواكه من أماكن بعيدة ولا توجد بها حدائق . وزيادة على ذلك لا يوجد بها نهر أو ينبوع . ويعتمد السكان على مياه المطر للشرب يخزنونها فى صهاريج . وتباع المياه فى زجاجات . وعدد سكان جدة حوالى خمسة آلاف ويعمل معظمهم فى التجارة . فتحمل السفن البن اليها من مخا . وفتحات الشرق التى تنقل بعد ذلك على سفن أخرى الى ميناء السويس والقصير وينبع وسواحل الجزيرة العربية وافريقيا . »

ويجد الباحث فى كتابات الرحالة (نيبور Niebuhr) الذى زار الحجاز سنة 1763 تعجبه من أن أهل جدة لم يعاملوه ورفاقه بقسوة وغلظة وجفاء على

نحو ما كان متوقعا ان يقابلوه به بحكم كونه غير مسلم وارجع ذلك الى تعود سكانها على مقابلة غير المسلمين بحكم اشتغالهم مع التجار من أوروبا وغيرها .

وكان بسبب هذا الاشتغال بالتجارة ان تنوعت أصول السكان فيها بدرجة لا توجد في مدينة أخرى من مدن الحجاز يقرر (بوركهاردت) ان معظم السكان من أصل أجنبي عن جدة وما يمكن ان يقال انهم من أصل وطني هم مجموعة أسر قليلة من الاشراف . وغالبية سكان جدة من أصل حضرمي أو يمني . وهناك أكثر من مائة أسرة هندية قدمت من (سورات) و (بومباي) أقامت في جدة يضاف اليهم بعض الملاويين وسكان مسقط الى جانب القادمين من مصر وسوريا والسودان وتركيا .

ويمضي (بوركهاردت) في حديثه عن سكان جدة فيوضح ان السكان الهنود لهم عاداتهم وملابسهم التي يستطيع الانسان ان يميزهم بها عن غيرهم . وقد سكن هؤلاء التجار الهنود في جدة في حي خاص بهم عرف باسم (قصبة الهنود) . وكانوا أغنى طبقات التجار في الحجاز ولهم ارتباطهم التجاري مع الموانئ الهندية . ولم يكونوا جميعا مستقرين في الحجاز فمنهم من كان دائم التنقل بين الموانئ الهندية والجزيرة العربية .

ونظرا لما تمتعوا به من حسن تعامل في أمور التجارة فقد كسبوا احترام الناس في الحجاز ومن بين هذه الاسر الهندية أسر ما زالت تزاوّل التجارة حتى الوقت الحاضر في جدة مثل أسرة (نورولي) وأسرتي (كنسارة) و (سبت فيتني) ويقرر بوركهاردت أن بعض هذه الاسر الهندية كون ثروة تجارية كبيرة وصل لدى بعضها الى ما يقرب من خمسة عشر الى عشرين ألف جنيه استرليني .

وهناك أسر تجارية من أصل مغربي مثل أسرتي (السكات) و (الجيلاني) . وكان لهذه الاسرة الاخيرة أملاك كبيرة في جدة منها حوش الجيلاني الذي كان يقع في وسط المدينة وقد احضر (بوركهاردت) توجيهه لسيدى العربى الجيلاني من التاجر أحمد المحروقي في مصر . وقال عن الجيلاني انه أغنى تاجر في جدة . وكان للجيلاني أملاك كثيرة في الحجاز في غير جدة . ففي مكة كانت له املاك عقارية في محلة كرامة المشهورة بمنازلها الراقية التي يقطنها أغنى التجار وأكثرهم ثروة . وقال عنه العباسي انه رجل له ارتباطه الكبير بالانجليز اذ هم عملاؤه الرئيسون في التجارة .

وتأتي طبقة الاشراف على رأس البناء الاجتماعي للتجار . كان لهم مركزهم الاجتماعي المشهور بحكم انتمائهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويشهد تاريخ القرن الثامن عشر الميلادي صراعا بين فرعي الاسرة الهاشمية (بنى نبي) و (بركات) . ولعل أكبر سلطة بلغها شريف في هذا القرن كانت على عهد الشريف سرور بن مساعد وأخيه الشريف غالب .

حكم الاول الحجاز ما بين 1773 م - 1788 م . (1186 هـ - 1202 هـ)
ووصفه الجبرتي في كتابه عجائب الآثار بقوله :

« مات الجناب الساسي والغيث الهافل ذو المناقب السنية والافعال المرضية والسجاي المتينة والاخلاق الشريفة السيد السيد حامى الاقطار الحجازية والبلاد التهامية والنجدية الشريف سرور مكة . تولى الاحكام وعمره سبع عشرة سنة . وكانت ولايته قريبا من أربع عشرة سنة وساس الاحكام أحسن سياسه وسار فيها بعدالة ورزاة وأمن تلك الاقطار أمنا لا مزيد عليه ومات وفى محبسه سيف والبعمانة من العربان الرهائن . وكان لا يغفل عن النظر والتدبر فى مملكته ويياشر الامور بنفسه ويتنكر ويعسس ويتفقد جميع الامور الكلية والجزئية . ولا ينام الليل قط فيدور ثلثي الليل ويطوف حول الكعبة الثلث الاخير . ولم يزل يتنقل ويطوف حتى يصلى الصبح ثم يتوجه الى داره فينام الى الصحوه ثم يلبس للنظر فى الاحكام لا تأخذه فى الله لومة لائم . ويقيم الحدود حتى ولو على أقرب الناس اليه فغمرت تلك النواحي وأمنت السبل وخافت العربان وأولاد الحرام فكان المسافر يسافر بمفرده ليلا فى حيازته . وبالجمله فكانت أفعاله حميدة وأيامه سعيدة » (الجبرتي ج 2 ، المطبعة الاميرية 324 هـ .)

وقد لقبه بعض المؤرخين الاوربيين بلويس الرابع عشر أوريشياليو الحجاز (انظر Didier فى كتابه الذى سماه :

Sejollir chez le grand cherif de la mecque (Paris 1856).

أما الشريف غالب فقد آلت اليه أمور الحجاز بفرمان الدولة العثمانية سنة 1788 م . ، سنة 1202 هـ . وفى عهده بلغت الشرافة شأنا عظيما لم تبلغها لدى شريف آخر من قبل . ووصفه العباسي بأنه مفكر داهية سياسى شجاع يتبع سياسة ظالمة يجمع المال بكافة الطرق والوسائل من السكان والتجار ويقول العباسي : « لم أجد أحدا يذكره بالخيرة » . وعلاوة على اثقاله كاهل التجار بالضرائب فانه كان يحتكر تجارة البحر الاحمر بسفنه الكبيرة التى تحتكر نقل البضائع ومعظم التجارة .

وفى مخطوطة بعنوان « تاريخ اشراف وأمرء مكة » لعبد الله بن محمد بن عبد الشكور المكي المتوفى عام 1257 هـ . محفوظة بمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى مكة المكرمة تحت رقم 1371 ، تراجم تاريخ ، يجد الباحث ترجمة كبيرة للشريف غالب من أحد معاصريه ويعطى صورة واضحة عن سلطانه واملاكه فى الحجاز ويصف صاحب المخطوطة الاحتفال الذى أقيم فى الحجاز : « لا لباس الشريف غالب الخلعة السلطانية وهى أول خلعة لبسها صاحب الشرافة فأخرج لملاقات العساكر المنتظمة الموسمة ودخلوا بموكب تغنى له الغياهب ويزحفوا حسنا على الكواكب فنزل الى المسجد الحرام بين الركن والمقام وحضرت السادة الاشراف المنتسبين الى

عبد مناف والعلماء والاعلام من الآفاق وبدر التمام وقاضى الشريعة المطهرة والمغاني الاربعة وجميع الخواص . فقرأ الفرمان الغالى باسمه وبرز مرسومه بموسمه ولبس الخلعة السلطانية ... » .

وفى كتاب أحمد زيني بن أحمد دحلان بعنوان : « خلاصة الكلام فى بيان أسرار البلد الحرام » (طبعة الجمالية 1305 هـ ٠) فيض من الوصف للمعارك التى دارت بين الشريف غالب والرهابيين ، وقيام الشريف بتحصين جدة ضده هذه الغارات وحين أكل الناس القشط والكلاب ونفدت مخازن أمير مكة قرر الشريف غالب الانسحاب من مكة فجمع أمواله وهرب بها وبأهله الى جدة . ولكن الامر يختلف فى مكة عن جدة عند مكة لوجود سور بها والمدينة مفتوحة من ناحية البحر وانسحب الوهابيون عند جدة التى تأثرت حياتها الاجتماعية بهذه الحروب فقلت الاسعار وقل القوت ، وكان للشريف أملاكه العقارية فى جدة الى جانب ما كان له من أملاك فى مكة والطائف كما كانت له بساتينه الزراعية فى وادى فاطمة وغيرها .

يقول بوركهات : يحاول اشراف مكة الذين بيدهم جمرك جدة حيث ان يجعلوا من المدينة مركزا للتجارة الهندية لان الجمارك تمثل مصدر دخلهم الرئيسى . وكان الشريف غالب التاجر الرئيسى للتجارة الهندية . وقد رفع الجمارك على البن فى عهده من 2،5 % الى 5 % دولار على القنطار أى ما يعادل 15 % من ثمنها ورفع جمرك البضائع الهندية من 6 % الى 10 % واذا لم يستطع بيعها فانه يوزعها على التجار الوطنيين بسعر السوق .

وعلى الباحث فى هذه الفترة ان يرجع أيضا الى وثائق المحاكم الشرعية فى مصر ذلك للارتباط الشديد بين تجارة جدة ومصر وما كان لهؤلاء الآخرين من وكلاء تجاريين فى الحجاز لانهاء معاملاتهم وشراء البضائع لحسابهم .

كانت الطبقة العالية فى جدة هى طبقة التجار فيؤكد لنا بوركهاردت أنهم لم يكونوا يجلسون على المقاهى التى اعتاد الناس الجلوس فيها يدخنون الشيشة الفارسية . وكانت مساكنهم فى الاماكن الممتازة من جدة كانوا يسكنون بجوار البحر بشارع مواز للشاطئ حيث تقع محلاتهم وخاناتهم .

أما البدو والفلاحون والعمال الفقراء فى جدة فكانوا يسكنون اكواخا شبيهة بتلك التى يسكنها اقربانهم فى الجزيرة .

كانت مدينة جدة فى تلك الفترة مقسمة الى احياء مختلفة فالقادمون من سواكن كانوا يسكنون قرب الباب المعروف بباب المدينة لانه يقع فى الطريق الى المدينة المنورة كما كان هناك باب مكة الذى كان يقع هو الآخر فى الطريق الى مكة .

أما منازل التجار فهى عالية مهواة كل منزل مكون من طابقين وبالمنازل صالة كبيرة لاستقبال الزوار يعرف باسم الحوش يجلس فيه صاحب الدار

ويستقبل ضيوفه فيه ويعيب بوركهاردت على مباني جدة عدم التناسق بينها منها ما هو مبنى بالحجارة الكبيرة ومنها وما هو مبنى بقطع صغيرة منها وبينما تدهن الحوائط من الداخل يترك الخشب في البيوت على لونه الطبيعي مما يعطي منظرا مشمئزاً . وبينما لبعض البيوت قباب مريبة فلبعضها الآخر قباب مدورة وأما الدهان الخارجي للبيوت فهو من طبيعة سريعة التحلل عندما تتعرض للرطوبة والمطر .

وعن عادات الاكل تشتهر الطبقات العليا بمآكل الزبدة مع القهوة في الصباح وكانوا يعتبرونها مقوية للجسم وخلال الغزو الوهابي لجدة توقف استيرادها من داخل الجزيرة ولكن في وقت السلم كانت الكمية التي تستورد تكفي حاجة أهلها وبعضها يحضر من (سواكن) ولكن احسن الانواع كان يستورد من (مصوع) وكان يقال لها زبدة الدهلك .

أما غسل النحل فكانت تفيض به جبال الحجاز وكانت أحسن أنواعه الموجود لدى بدو النواصرة جنوب الطائف . وأما فطور الطبقات الفقيرة فكان من هذا العسل مع بعض من اللبن ولم تكن تشتهر موائد أهل جدة بالسلطة على نحو ما كان بجدة الرحالة على موائد الاتراك .

ويقول بوركهاردت : أن أكثر من ثمانية عشر نوعا من الفاكهة والخضر التي تحبها القوات التركية الموجودة بجدة تحضر من الطائف الغنية بحدائقها . لقد وجد في شهر يوليو (تموز) العنب من أحسن الانواع والليمون الصغير مثل ذلك الذي كان موجودا في القاهرة والرمان وفي شهر مارس (آذار) يحضر الشمام من وادي فاطمة وهو صغير الحجم لكنه حلو المذاق . وقال عن أهل جدة انهم يأكلون القليل من الفاكهة فيما عدا العنب .

أما الخضروات المعتادة فهي الملوخية والبامية والباذنجان والكرنب والخيار واللفت الصغير الحجم الذي يؤكل ورقه اما الاصناف اليومية على المائدة العربية فكان الفجل والكرات لكن بوركهاردت لاحظ أن أهل جدة كانوا يستهلكون القليل من الخضروات .

كانت محلات الفاكهة تباع (التمرهندي) الذي كان يأتي من جزر الهند الشرقية واشتهر أهل جدة شأنهم شأن أهل الحجاز بأكل النمر والعجوة وهي عبارة عن بلع مضغوط وكانت غذاء يوميا لكل الطبقات وخلال السفر كانت تبلل بالماء ويشرب محلولها وكان احسن أنواعها يأتي من (تربة) الغربية من الطائف .

واشتهر أهل جدة بأكل الفول الذي أخذوه عن المصريين وسماء بوركهاردت فول الحصان المصري Egyptian Horse Beans .

أما عن الحلويات فكانت الكثافة من أشهر الانواع التي تصنع في الحجاز . وتعجب بوركهاردت من ندرة اللبن في الحجاز خاصة في جدة ومكة وعندما زار

جدة فى يوليو سنة 1814 كان رطل اللبن يباع بقرش ونصف ولم يكن من السهل الحصول عليه . ولم يكن أهل جدة يعرفون ذلك النوع المصنوع من اللبن والذي عرفه الاتراك باسم (بوغورت) أو (اللبن الزبادى) عند المصريين .

ووجد فى جدة فى تلك الفترة محلات لبيع الجبنة اليونانية الصنع واللحوم المجففة وقمر الدين .

أما عن لباس تجار جدة فكان العمامة الحجازية (العمامة الالفى) وكان يرتديها كذلك العلماء وأوساط الناس والشباب المتعلم وإذا كان العلماء يتحرون البساطة فى ملابسهم فكان التجار أكثر كلفة وإظهار اناقة فيلبسون القماش الصوف أو الكشمير الغالى الثمن وفى الصيف كانوا يلبسون أغلى أنواع الحرير .

كان من الطبيعى أن يكون الواحد منهم ما بين ثلاثين الى أربعين لباسا لاستخدامه الشخصى كما ذكر لنا ان الحجازيين أنيقون فى ملابسهم بصورة لم يشاهدها لدى المسلمين الآخرين بل ان الفقراء منهم ينفقون معظم دخلهم فى اللباس اما لباس المرأة فكان الحرير الهندى والسروال المحلى بالحسوط الفضية وفوقه كن يلبس (الحبرة) التى كانت تستخدمها النساء فى مصر وسورية أو الملاية ويذكر لنا بوركهاردت انهن كن يغطين وجوههم بالبرقع ..

وقد لاحظ نيور مثلما لاحظ بوركهاردت ان صنادل التجار التى يضعونها فى أقدامهم تختلف عن تلك التى تضعها الطبقات الاخرى كما لوحظ ان التجار كانوا يحملون ساعات غالية الثمن معظمها انجليزية الصنع تحضر من الهند أو مع الحجاج وكثيرا كان الحاج يحتاج الى أموال اثناء حجة فيبيع بعض ماله ومنها هذه الساعات وكانت طبقة التجار تدخن النرجيلة وقد كانت الواحدة تكلف حسب تقدير بوركهاردت لها حوالى مائة دولار .

وقد لاحظ العباسى ترفا فى ملابس وسكن أغنياء جدة فى الوقت الذى عانى الفقراء فقرهم الشديد ومعظمهم كانوا عراة لا يجدون ما يغطون به أجسامهم . ومما لاحظته العباسى كذلك انعدام الخيل فى جدة فيما عدا ما يملكه بعض الاغنياء لاستخدامهم الحاجى فى الوقت الذى وجدت فيه الكثير من الجمال التى كانت تستخدم للنقل .

ومن أهم التجارة فى ذلك الحين كانت تجارة الصابون التى كانت تأتى من سوريا وكان تجارها يسمون بالخليلية نسبة الى بلدة الخليل فى فلسطين التى يأتى منها هذا النوع من التجارة .

وأما تجارة العطور فقد اشتهر بها التجار الهنود الذين لم يستطع أحد منافستهم فيها واشتهرت فى جدة فى تلك الفترة تجارة العاديات والاشياء

الاثرية التي زين بها تجار جدة منازلهم وخاصة أماكن استقبالهم للضيوف . ولم يكن من عادة التاجر في جدة الاحتفاظ بدفاتر حسابات عديدة شأن التاجر الاوربي انما هي مفكرة صغير يكتب فيها ما يبيعه وما يشتريه وإذا كان التاجر على حد قول بوركهاردت لا يستطيع ان يحصى افراد قبيلته أو قطيع ماشيته أو سكان مدينته فهو لم يحاول كذلك ان يعرف بالدقة التامة رأسماله انما كل شيء عنده بالتقريب ويعمل بوركهاردت ذلك بقوله انه (التاجر في جدة) يعتقد ان عد الثروة انما هو مباهاة بها وهو أمر قد يفضب بذلك ربه فيحرمه منها . وكان التاجر في جدة يخشى الافلاس ولذلك لا يقدم على مضاربات تتجاوز رأسماله . وإذا ما أفلس تاجر كثيرا ما تنازل من كان لهم استحقاقات عنده عن حقوقهم أو انتظروا بعض السنين حتى تتحسن احواله المادية .

وعلى الباحث عن الاحوال الاجتماعية لتجار جدة أن يرجع الى ما كتبه الرحالة عن مكة وأهلها ذلك لانه على حد قول بوركهاردت قل ان تجد غنيا من أغنياء مكة ليس له بيت في جدة وان عادات وطبائع أهالي المدينتين واحد . وقل ان تجد تاجرا في مكة ليس له مقر لتجارته في جدة .

ومما لوحظ على تجار جدة ومكة على السواء الاسراف في حياتهم المعيشية وفي أفراحهم وختان أطفالهم التي كانوا يقيمونها عادة في شهر المحرم بعد انتهاء أشهر الحج . وقال بوركهاردت ان موائدهم حفلت بأنواع الطعام التي لم تحفل بها مائدة أحد سواهم في الشرفة . وقيل ان يجلس على موائدهم يوميا ما لا يقل عن عشرين شخصا من ضيوفهم حتى عبيدهم يدعون الى موائدهم وتزدان غرفهم بالترجييلة المطلية بالفضة .

وكان الاغنياء يأكلون وجبتين واحدة قبل منتصف النهار والاخرى عند غروبها . أما الطبقات الفقيرة فانهم كانوا يأكلون وجبة قبل طلوع الشمس ولا يأكلون بعد ذلك طول النهار الا عند غروبها وفي أشهر الصيف حيث تزداد الحرارة على وجه التحديد في شهرى يولية وأسطس (تموز وآب) وهي الأشهر التي تزداد فيها الحرارة بشكل كبير يهرع التجار الى الطائف التماسا للجو اللطيف وكانوا يعتادون على ذلك ما لم يأت الحج في هذه الأشهر .

ولوحظ العباسي ارتفاع السلع في جدة لان الحضرات تحضر لها من مسافات بعيدة ولكن هذا لم يمنع من مظاهر الاسراف التي تبدو في لباس ومسكن الاغنياء من أهلها وقدر عدد أهلها العاملين في وقت زيارته لها بخمسة آلاف شخص . ومدى له ان سكانها خليط من أصل حبشى وهندى وعربى ولوحظ الكثير من أهلها الذين لهم وجوه هندية تقرب كثيرا من وجوه أهل الصين وقد لاحظ كذلك كثرة التزواج بين أهل جدة بالحبشيات اللاتي كن يقمن في المدينة وقد عرض عليه مرافقه ان يزوجه بحبشية فابدى اعتذاره له .

ولم يكن من عادة أهل جدة على حد قول العباسي كذلك استخدام الفحم كوقود انما كان المتوفر لهم الخشب ينقل اليهم من مسافات بعيدة أو من مخلفات المباني ووصف لنا بوركهاردت افراح أهل جدة ومكة وعن مهور الطبقة الغنية التي قال انها تتراوح ما بين أربعين الى ثلثمائة دولار وبين الطبقات الفقيرة ما بين عشرة الى عشرين دولار وكان الزوج يدفع نصفها مقدما والباقي مؤخرا فيما لو حدث الطلاق .

أما حفلات الحتان للاطفال فكانت شبيهة بتلك التي كانت تجرى في القاهرة حيث يلبس الولد ازهى الملابس ويحتفل به في موكب وهو راكب جوادا من أحسن الانواع .

د. محمد عبد الرحمن برج
جامعة المنوفية

دفاتر تسجيل الاراضى الزراعية دراسة في مصادر تاريخ مصر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر

د • على بركات

تمثل دفاتر تسجيل الاراضى الزراعية بدار المحفوظات بالقاهرة اضعف مجموعة وثائقية فى تاريخ مصر الحديث (I) • وهذه الدفاتر تغطى بشكل متصل الفترة من عام 1800 وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وان كان نظام التسجيل بهذه الدفاتر قد اختلف من مرحلة لآخرى وفى هذه الدراسة سوف احاول القاء الضوء على هذه المجموعة موضحا اهميتها فى دراسة جوانب من تاريخ مصر الاجتماعى خلال القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد خلال الفترة من عام 1800 وحتى عام 1882 •

والدفاتر التى نحن بصدد الحديث عنها يمكن تقسيمها الى ثلاث مجموعات هى :

- دفاتر الترايع التى تم عملها زمن الحملة الفرنسية ، وعلى وجه التحديد عام 1215 هـ (1800) •

- دفاتر التواريع التى سجلت بها اعمال المساحة التى تمت فى عهد محمد على ، والتى يرجع اقدم سجل منها الى عام 1228 هـ (1813) •

- دفاتر المكلفات ، وهى تطوير لدفاتر التواريع وقد اصبح العمل بالمكلفات شائعا ابتداء من عام 1259 هـ (1843) •

وسنعرض لكل مجموعة من هذه الدفاتر على حدة على النحو التالى :

دفاتر الترايع : (2)

..... نتج عن انهيار السلطة العثمانية المملوكية على يد الحملة الفرنسية وهرب كبار الموظفين العثمانيين اضطراب فى اوضاع الادارة المالية ، وكان على سلطات الحملة الفرنسية ان تعيد بناء هياكل الادارة المالية بما يكفل سيطرة الفرنسيين على مصادر الدخل فى البلاد ، خصوصا بعد تدمير الاسطول الفرنسى فى معركة ابي قر البحرية (اغسطس 1798) •

وكانت عملية اعادة هياكل الادارة المالية تتطلب الحصول على اكبر قدر من المعلومات المتعلقة بحياسة الارض واطراف الضرائب وحجمها ، وقد حصل

الفرنسيون على هذه المعلومات وغيرها من مصدرين : الاول هو حسين افندى ، احد موظفي الرزنامة فى الفترة السابقة على الحملة الفرنسية ، والمعلومات التى قدمها فى شكل اجابات على استئلة ستييف مدير الادارة المالية فى العهد الفرنسى ، وجاءت فى ستة عشر بابا ، تضمنتها الوثيقة المعروفة بوثيقة حسين افندى الرزنامجى ، والتى نشرها وعلق عليها الراحل شفيق غربال منذ نصف قرن تقريبا (3) .

والمصدر الآخر هو العناصر التى كانت تباشر اعمال الشؤن المالية عند وصول الفرنسيين الى مصر ، ومعظمهم من الاقباط ، وهؤلاء كانوا حريصين على كتمان ما لديهم من معلومات تتصل باسرار عملهم حتى يطمئنوا الى استقرار الاوضاع وبقاء الفرنسيين فى مصر ، ودافعهم فى ذلك هو بقاء الشؤن المالية فى ايديهم ، وقد روى «ستييف» كيف انه تحايل على جمع عدد منهم فى منزله ، واقامهم فيما يشبه الاسر ثلاثة شهور ، اضطروا خلالها الى ان يقدموا له معلومات دقيقة عن اوضاع الحياة والضرائب المقررة على القرى ومساحتها (4)

ومن الواضح ان دفاتر الترابيع التى نحن بصدد التعرض لها كانت نتيجة من نتائج هذه المحاولة التى اشار اليها ستييف ، ذلك انه فيما يتعلق بحيازة الارض ونظام الضرائب قامت السلطات الفرنسية باعداد دفاتر جديدة جاءت اكثر تفصيلا من دفاتر الالتزام السابقة عليها (5) حيث تضمنت الدفاتر الجديدة معلومات وافية عن مساحة راضى القرى والضرائب المقررة عليها ، وانواع الحيازة ، وكذلك الاراضى التى اعفيت من الضرائب فى كل قرية ، وقد اطلق على هذه الدفاتر اسم ترابيع ، ويوجد منها فى الوقت الحاضر ثلاثة دفاتر : اثنان يتعلقان بالوجه البحرى ، والثالث يتعلق بمصر الوسطى والاشمونين ، ويبدو أن الصعيد الاعلى الذى كان موضع صراع ومقاومة عنيفة ضد الفرنسيين لم تعمل عنه دفاتر خلال فترة الحملة الفرنسية ، وهناك ما يؤكد ان المعلومات التى وردت بهذه الدفاتر أخذت من الدفاتر السابقة عليها والتى كانت لا تزال فى حيازة المعلمين الاقباط ، كما يتضح ذلك من مقدمة الدفتر الخاص بولاية الشرقية ، وتحمل هذه الدفاتر تاريخ تحريرها وهو عام 1215 هـ (1800) (6) . ويتضح من هذه الدفاتر ان ضرائب عام 1213 هـ (1798) قد اتخذت اساسا لتقدير الضرائب على الارض الزراعية فى القرى ، ففى تعليق على قرية صنبو الوقف بمصر الوسطى جاء به «حكم واقع سنة 1213 هـ» وهو تعليق يتكرر فى أكثر من موضع (7) .

وحيث لا توجد سجلات لبعض القرى بمصر الوسطى اعتمد فى تقدير الضرائب ومساحة الارض على التخمين والمعلومات الشفوية ، يتضح ذلك من التعليق التالى على قرية بخريج «حكم المتملى وجه تخمين لكون لم يوجد لها تاريخ» (8) .

ومن الواضح ان هذه الدفاتر قد اتخذت اساسا لعملية جباية الضرائب خلال الفترة التالية ، فعقب خروج الفرنسيين قامت السلطات العثمانية بعمل دفاتر جديدة عام 1217 هـ (1802) اعتمدت على دفاتر عام 1215 هـ ، مع اضافة مصدر جديد هو معلومات الملتزمين ، يتضح ذلك من مقدمة دفتر ترابيع ولاية الغربية عن سنة 1217 هـ الذى جاء به «تاريخ قرأى المذكورين بموجب تاريخ سنة 1215 هـ وبتعريف ملتزمين» (9) ووجود الملتزمين كمصدر للمعلومات فى الدفاتر الجديدة امر طبيعى لان الملتزمين بعد جلاء الفرنسيين كانوا حريصين على ان يثبتوا حقوقهم فى التزاماتهم بعد التطورات التى مرت بها نظم الحيازة زمن الحملة الفرنسية ، ذلك لان المصادر تشير الى ان ما يقرب من ثلث مساحة الاراضى الزراعية آلت الى السلطات الفرنسية ، وادارها موظفون فرنسيون بشكل مباشر ، وكان يقوم على جباية ضرائبها اقباط يشرف عليهم مفتشون فرنسيون (10) كذلك فان الدفاتر التى تم اعدادها عام 1805 اعتمدت فى بياناتها على دفاتر عام 1215 هـ فقد جاء فى مقدمة دفتر ترابيع ولاية الشرقية عن عام 1220 هـ ما نصه: «دفتر ترابيع الاموال الديوانية ككامل بلاد ولاية الشرقية سنة 1220 هـ حكم دفتر سنة 1215 هـ» (11) وفى الدفاتر التى جرى تحريرها بعد خروج الفرنسيين اصبحت ضرائب الارض تحدد حسب نوعيتها من حيث الجودة «عال ووسط ودون» كما اصبحت اراضى القرية تقسم الى احواض يظهر ذلك من مراجعة بعض القرى مثل قرية محلة حسن وقرية سمر باى (غربية) وقد قدرت ضريبة الارض من النوع العال فى القرية الاخيرة بمبلغ 135 بارة للفدان ، بينما قدرت الاراضى من النوع «الوسط» بمبلغ 100 بارة ، اما الاراضى الدون فقد قدرت ضريبتها بمبلغ 90 بارة ، وبلغت ضرائب القرية المذكورة 378068 بارة عن مساحة اراضى القرية التى تبلغ 3600 فداناً (12) .

وهناك ما يفيد بأن علماء الحملة الفرنسية قد استفادوا من هذه الدفاتر فى اعداد بحوثهم عن الريف المصرى فى كتاب وصف مصر ، فالمعلومات التى أوردها ستيف فى مقاله عن قرى الانبوطيين ومنية حبيش وبقلولة تتفق الى حد بعيد مع المعلومات الواردة عن هذه القرى بدفتر ترابيع الغربية عن عام 1217 هـ السابقة الاشارة اليه (13) .

والحقيقة أن هذه الدفاتر تقدم معلومات لا غنى عنها لدراسة الريف المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، وإذا اخذنا القرى الثلاث السابقة الاشارة اليها ، والتى كانت تمثل وحدة مالية وادارية واحدة لوجدناها تقدم معلومات مفيدة حول مساحة الارض وانواع الحيازة والضرائب فى هذه القرى ، ففيما يتعلق بمساحة الارض نجدها موزعة على النحو التالى :

اسم القرية	سهم	قيراط	فدان
الانبوطين	20	21	1626
بقلولة	4	10	476
منية حبيش	16	1	1106
ويبلغ اجمالى المساحة	16	9	3209 موزعة

ومن حيث الحيازة على النحو التالى :

نوعية الحيازة	سهم	قيراط	فدان
رزق	-	-	68
بور الجوالى	4	4	17
أوسية	16	21	171
فلاحة	20	4	2805
مناجزة	-	14	146

ومن دراسة توزيع الحيازة (فلاحة وأوسية ورزق) والضرائب يمكن تصور خريطة القوى الاجتماعية فى القرى الثلاث خلال تلك الفترة والفئات التى كانت تحصل على الفائض ، فمجموع الاموال المقررة على القوى الثلاث يبلغ 658514 بارة ، منها ما كان يذهب الى السلطة المركزية وهو الميرى ويبلغ 107382 بارة ، والفائض الذى يذهب الى الملتزمين وقدره 240247 بارة . أما البرانى فيبلغ 264288 بارة وهناك مبلغ 46597 بارة مخصص لوجه الصرف المحلية ويعرف باسم «ملازم الناحية». وهذا المبلغ يتم استقطاعه من الضرائب الاجمالية لهذه القرى .

ويشير المصدر الى ان اراضى الفلاحة فى قرية الانبوطين كانت تنقسم الى اراضى «وسط ودون» ومعنى ذلك ان الاراضى الجيدة «العال» كانت ضمن اراضى الوسية التى يحوزها الملتزمون ، وبذلك تكون القوى الاجتماعية التى تحصل على الفائض هم الملتزمون والمشرفون على اراضى الوقف فى المحل الاول (14) .

ويشير دفتر ولاية الاشمونيين الى ان بعض قرى مصر الوسطى كان عليها ان تدفع كمية من السكر الخام كضرائب مثل قرية بنى حسن الشرق التى بلغت الكمية المقررة عليها من السكر 850 قنطارا ، بينما كانت قرى اخرى تدفع ضرائبها عينا من الحبوب مثل قرية تونة الجبل (15) .

وقد بلغت الضرائب المطلوبة من لاية الاشمونيين 3,591,999 بارة ، وبينما كان الميرى يبلغ 471340 بارة ، كان الفائض يصل الى 2,203,663 بارة ، كما

بلغ البرانى 9I6596 بارة ، ويشير المصدر الى ان اجمالى العجز فى القاض بلغ عام 1215 هـ 131698 بارة .

وقد جاء فى نهاية الدفتر المشار اليه ما نصه واما بلاد الولاية المذكورة نبع النيل أى التى تعتمد فى ربيها على النيل - فكل سنة بالمساحة والقياس والشراقى ترفع لهم وكل سنة يزرعوا نبارى (I6) ويدفعوا ماله ، وسنة يزرعوا كثير وسنة يزرعوا قليل ، والنبارى يخضم عن المال والغلال والاعتماد على المساحة (I7) وعموما فان دفاتر الترابيع تشير الى حقيقة هامة ، وهى ان الجزء الاكبر من القاض فى العمل الزراعى كان يذهب الى الملتزمين والسلطات المحلية ، وهؤلاء كانوا يستخدمونه فى اغراض مضادة لاهداف الدولة صاحبة السيادة ، الامر الذى يفسر أزمة النظام المملوكى العثمانى فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر .

دفاتر التواريع :

..... كجزء من برنامجہ الزراعى قام محمد على ابتداء من عام 1228 هـ (1813) بعمل مسح شامل للاراضى الزراعية فى مصر وتسجيلها بطريقة تضمن له السيطرة على مصادر الدخل فى القطاع الزراعى ، وقد أشرف على هذا العمل فى المرحلة الاولى المعلم غالى سرجيوس ومحمود بك أمين الديوان ، كما أشرف على أعمال المساحة ابراهيم باشا ابتداء من عام 1236 هـ (1820) ، وهى الفترة التى شهدت مسح اراضى الوجه القبلى ، واعادة مسح بعض اراضى الوجه البحرى (I8) .

وقد قام بهذا العمل المعلمون الاقباط تحت اشراف بعض اعيان الوجه القبلى من امثال عبد الله فواز من اعيان العسيرات وحسن الشريعى من اعيان سمالوط وعلى عاشور من اعيان الدوير ، كما عمل مشايخ القرى كدلالين لتقديم المعلومات الضرورية لمساحة القرى (I9)

وتشير بعض دفاتر التواريع الى ان بعض القرى تأخر مسحها حتى عام 1243 هـ ، مثل قرية الغنايم (أسيوط) التى جرى مسحها عام 1243 هـ (1827) (20) وتقدم هذه الدفاتر بدورها معلومات اكثر استفادة عن سابقتها من حيث انواع الحيازة من أوسية ورزق وفلاحة التى ظلت واضحة فى هذه الدفاتر ، على الرغم من ان اراضى الرزق قد اخضعت للضرائب ، كما توضح تفصيلا نوعية الارض من حيث الجودة ، واجمالى مساحة اراضى كل قرية والتى تعرف بمساحة الزمام بما فى ذلك اراضى الابعادية التى لم تفرض عليها الضرائب لكونها غير مزروعة وتوضح انواعها المختلفة من الشرافى (التي لا تصلها مياه الرى) والبور الصالحة للزراعة ، ومساحات البرك ، والاراضى عالية الاملاح (مستلمح) ، والجسور ، ومساحة الاجران ، ومساكن القرية ، وكلها تدخل فى نطاق الابعادية ، كما توضح مساحة الاراضى المزروعة التى اعفيت من

الضرائب تحت اسم «مسموح المشايخ» ، والتي خصصت لمشايخ القرى مقابل الخدمات التي يؤدونها للحكومة ، وبلغت نسبتها 1/26 من اراضي القرية (21) وفي نفس الوقت تشير هذه الدفاتر الى نوع آخر من المسموح خصصت لبعض أعيان القرى ، كمسموح مصاحب نظير استضافة المترددين على القرى ، يظهر ذلك في قرية قليب التي تم تخصيص مساحة 100 فدان من اراضيها كمسموح مصطبة للشيخ سالم الشواربي (22) .

وإذا حاولنا أن نلخص المعلومات الواردة بأحد هذه الدفاتر وهو دفتر قرية محلة اسحق الملحق صورته بهذه الدراسة لجاءت النتائج على النحو التالي :

— ان عملية مسح القرية شارك فيها مشايخها كدلالين وهما الحاج علي حجازي ومحمد البلتاجي وأشرف عليها المعلم غالي سرجيوس ، يتضح ذلك مما جاء في الصفحة الاولى من هذا الدفتر ونصه «تاريخ الاراضي السلطانية بناحية محلل اسحاق (هكذا) من خط اريمون بولايت الغربية سنة 1228 ثمانية وعشرين ومائتين حكم واقع المساحة سداريت سليمان اغا حلوني مساحة الشيخ يوسف والمعلم يعقوب دلالت الحاج علي حجازي ومحمد البلتاجي قصاب (اغفل النص اسم حامل القصة او لقياس) صيرفت (اغفل النص اسم الصراف) المندوب من طرف (اغفل النص الاسم) عزيز مصر سربوابين زكاة عالي ناظر الولايات والمعلم غالي رئيس المباشرين وذلك حكم الامر الصادر من سعادة ولي النعم والى مصر حالا ادم الله اجلاله» .

— ان جملة مساحة زمام القرية بلغت 3143 فداناً ، كما أن اجمالي اراضي الابعادية بلغت 618 فداناً (23) .

— بلغت الاراضي المزروعة القابلة للزراعة والتي تحمل اسم معمور 2525 فداناً بالقرية .

— بلغت مساحة الاراضي التي خصصت لمشايخ القرية معفاة من الضرائب 81 فداناً وجاءت تحت اسم «مسامح المشايخ والخدمة من معمور الفلاحة كل مائة فدان واربع اربع فدادين» أي انها قدرت بنسبة 1/26 من اراضي القرية .

— بلغت مساحة اراضي الوسية التي تركت في حيازة الملتزمين معفاة من الضرائب 34 فداناً تحت اسم «أوسية مفروجة باسم الملتزمين» .

— كذلك فقد اعفيت مساحة قدرها 193 فداناً من الضرائب من الاراضي البور الصالحة للزراعة لانها لم تكن مزروعة .

— ان مساحة اراضي الرزق والاقواف بهذه القرية بلغت 189 فداناً فرضت عليها الضرائب كغيرها من الاراضي كجزء من اجراءات محمد علي في القطاع الزراعي ، وبلغت الضرائب المقررة عليها 118 ريالاً على اعتبار أن الضريبة

المقررة على الفدان فى هذه القرية هى 6 ريالات . وقد خصص من هذا المبلغ 559 ريالا كفوايض لاسحاب هذه الرزق تحت عنوان «اصحاب رزق تحت الافراج» ، وهو مبلغ يمثل نصف ضرائب هذه الرزق ، وتم خصمه من اجمالى ضرائب القرية التى بلغت 13298 ريالا ، وبذلك يصبح مجموع الاموال المطلوبة من هذه القرية بعد دفع فوايض الرزق 12739 ريالا (24) .

- ان اراضى القرية وزعت على احواض او قبالات وان بعضها ترك الانتفاع به بشكل جماعى تحت اسم «روك الناحية» .

- ان الضرائب التى سبق تحصيلها من الفلاحين فى هذه القرية تخصم من الاموال المقررة عليهم ، كما تخصم على الملتزمين كجزء من الفائض المستحق لهم ولا يحصل من الفلاح اى ضرائب اخرى مثل «كلفة القائم مقام» او «تقدمة الملتزم» وهى عادات كانت القرية تدفعها للسلطات المحلية او للملتزمين ، يتضح ذلك من النص الآتى الوارد بنهاية الدفتر :

«توضح على موجب المشروح اعلاه لا زايد ولا ناقص ولا يكون على الفلاح لا كلفة قايم مقام ولا تقدمه ملتزم ولا لطرف حاكم الولاية ولا فرط ولا لعادة ولا لشي يقال له شى حكم الامر العالى وذلك عنما وجد بالمساحة مزروع خارجا عنما يجد بعد المساحة وجميع ما وصل الملتزم بموجب رجع (هكذا) يخصم للفلاح من اصل المطلوب ويخصم على الملتزم من اصل المطلوب ويخصم على الملتزم من اصل المطلوب له والعمل على الترابيع الذى يعمل خلاص المساحة ومعاملة المساحين تحريرا فى شهر جماد آخر سنة 1229» .

وهناك حقيقة هامة يؤكدتها هذا الدفتر مع غيره من الدفاتر ، وهى ان محمد على قد قام بتوزيع اراضى القرى على حائزيتها بنسب متفاوتة حسب مقدرة كل فلاح على زراعتها ، وكانت اراضى الحوض الواحد توزع على مجموع الحائزين حتى يحصل كل منهم على قدر من الاراضى الجيدة وغير الجيدة .

وتوضح هذه الدفاتر ايضا انه كان هناك تفاوت من البداية بين الحائزين فى القرية الواحدة ، وبين اهالى قرية واخرى (25) . وفى احوال نادرة كانت بعض القرى تتلقى مساحات من القرى المجاورة ، مثل قرية الغنايم التى تلقت مساحة قدرها 1196 فداناً من اطيان القرى المجاورة لها (26) . وقد ظلت اوضاع الحيابة متغيرة فى هذه الدفاتر الى ما بعد عام 1840 حيث كان العامل الحاسم فى الحيابة هو قدرة الفلاح على زراعة الارض .

دفاتر المكلفات :

..... ظهر تعبير مكلفة فى دفاتر الاراضى الزراعية ابتداء من عام 1236 هـ - (1820) ، وفى دفتر تاريخ ناحية برج نور الحمص نجد ما نصه «دفتر مبارك ان شاء الله تعالى يضم علم غنفاق الاراضى السلطانية وتكليف

الاموال الديوانية بناحية برج نور الحمص بخط المنصورة الثانى بولاية الدقهلية عن واجب سنة 1236 هـ ، كما جاء فى نهاية هذا الدفتر ما نصه «قد تحرر هذا التاريخ المشتمل على مكلفت الاموال الديوانية حسب سنة 1236 هـ» (27) . ونفس العبارة تقريبا نجدها فى مقدمة دفتر ناحية دويذة دقهلية «دفتر مبارك ان شاء الله تعالى الكريم يتضمن غنداق الاراضى السلطانية ومكلفت الاموال الديوانية بناحية دويذة» (28) .

ثم اصبح تعبير مكلفة يطلق على دفاتر الاراضى ابتداء من عام 1259 هـ (1843) ، يتضح ذلك من مراجعة دفاتر قرى الغنايم و برج نور الحمص - على سبيل المثال (29) . وقد شهدت المكلفات بعض التغيير فى طريقة تسجيل الارض ، حيث اصبحت وحدة التسجيل هى الحصة ، وهى جزء من اراضى القرية يخضع اداريا لاحد مشايخها ، وتضم الحصة عددا من الحائزين ، وتتفاوت مساحتها من حصة لآخرى ، يتضح ذلك من الجدول الآتى المستخلص من مكلفة قرية الغنايم عن عام 1271 هـ (1854) ، والذي يوضح اسماء مشايخ القرية ، ومساحة حصصهم ، وحيازتهم ، وارضى المسموح لكل منهم (30) .

اسم الشيخ	مساحة الحصة فدان	حيازة شيخ الحصة فدان	ارضى المسموح لكل شيخ فدان
بخيت عبد البارى	575	43	21
عبد القادر فرغلى	499	28	18
حسن على عسكر	392	56	14
احمد عطيفى	371	29	13
حسن احمد	370	23	14
عبد القادر فرغلى	499	16	14
ابو داود رفاعى	360	25	13
محمد خطاب	340	29	12
عوض بخيت الساجد	327	24	12
بدران عبد الخالق	258	18	9
محمد سالم عاشور	243	22	8
بخيت درغام	226	15	8
ابراهيم الديك	69	44	2

وفى المكلفة اصبحت حيازة الفلاح تذكر جملة موزعة على احواض القرية واجمالى الاموال المطلوبة من كل حائز حسب نوع فئات الضرائب .

والمكلفات الى جانب انها تمثل مصدرا لا غنى عنه لدراسة تطور توزيع الملكية فى القرية المصرية ، فانها تمثل مصدرا لدراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى ، والاعباء المالية التى تضاعفت اكثر من مرة على القرية المصرية خلال فترة تقل عن نصف قرن ، فعلى سبيل المثال ارتفعت الاموال المطلوبة من قرية الغنايم من 76165 ريالا عام 1243 هـ (1827) (31) الى 472370 قرشا عام 1869 ، بما فى ذلك ٥ رائب النخيل (32) ، ومعنى ذلك ان الضرائب تضاعفت ثلاث مرات تقريبا خلال هذه الفترة .

كذلك فان دفاتر المكلفات تقدم مصدرا هاما لدراسة خريطة القوى الاجتماعية فى القرية المصرية ، وبروز طبقة اعيان الريف وخاصة مشايخ القرى الذين اصبحت فى حيازتهم مساحات كبيرة من اراضى القرية منذ فترة ترجع الى اواخر عصر محمد على ، كما انهم استطاعوا تنويع نشاطهم الاقتصادى فى الريف .

واذا حاولنا دراسة هذا الموضوع فى قرية أبيار اعتمادا على مكلفتها فى عام 1264 هـ (1848/47) سوف نصل الى الحقائق الآتية :

– ان ثلاثة من مشايخ القرية هم السيد احمد محمد الشريف ويوسف البرادعى واحمد الشاعر يحوزون 1116 فداناً من اجمالى مساحة القرية البالغ 3977 فداناً .

– انه من بين ست معاصر للزيوت واربع سمرج (محلات لبسع الزيت) موجودة بالقرية كان هؤلاء المشايخ الثلاثة يملكون ثلاثا من هذه المعاصر وثلاثا من السمرج ، بواقع معصرة وسمرجة لكل منهم .

– ان السيد احمد محمد الشريف وهو اكبر مشايخ القرية بلغت حيازته 595 فداناً من بينها 50 فداناً معفاة من الضرائب كمسموح ، الى جانب ملكية المعصرة والسمرجة وعدد من انوال النسيج (33) .

واخيرا فان المكلفات تشير الى الدور الذى لعبه الاجانب واغنياء المدن فى الريف المصرى عن طريق اعمال الرهونات وشراء الاراضى ابتداء من عصر اسماعيل ، فعلى سبيل المثال تشير مكلفة ناحية بقطارس (دقهلية) الى نشاط التاجر جريس اسطفانوس الذى استقر فى قرية كفر اللاوندى فى نهاية عصر محمد على ، وراح يشتري الارض فى القرى المجاورة ، واستطاع خلال الفترة من عام 1879 الى 1881 أن يشتري 124 فداناً مملوكة لاكثر من ثلاثين اسرة من اسر الفلاحين بقرية بقطارس ، بينما اشترى اليونانى قسطنطين بنولى اكثر من عشرة افدنة من اراضى هذه القرية خلال نفس الفترة (34) .

كما توضح مكلفة برج نور الحمص نشاطا مماثلا لجريس اسطفانوس فى شراء الارض ، حيث اشترى خلال تلك الفترة اكثر من 61 فداناً من 16 أسرة

من ابناء القرية ، وتوضح نفس المكلفة نشاطا كبيرا للاجانب ايضا فى هذه القرية ، فقد اشترى الاجنبى الكسانوقسطنطينيدس التاجر بالاسكندرية IO أفدنة من اطيان الشافعى عتبة واخيه وذلك بعقد فى صفر 1297 هـ ، اما الاجنبى صوصة فقد اشترى 6 أفدنة ونصف ساقية من المدعو احمد عيسى بعقد فى ربيع أول عام 1297 هـ من محكمة المنصورة نظير مبلغ 9846 قرشا (35) .

وهكذا فان دفاتر تسجيل الاراضى من توابع ومكلفات تمثل مصدرا لا غنى عنه لدراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى فى القرن التاسع عشر .

د. علي بركات

كلية الآداب - جامعة المنصورة
جمهورية مصر العربية

العلاقات الاجتماعية في مصر العثمانية دراسة لوثائق ديوان الروزنامة وأحكام المحاكم الشرعية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

د. عبد الوهاب بكر

تمهيد

ما زال تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني زاخرا بالمعلومات والبيانات التي تحويها وثائق حكم دام اكثر من اربعة قرون - وتشهد دور الحفظ في استانبول والقاهرة وفيينا ولندن وباريس وغيرها بغزارة المادة الوثائقية المحفوظة عن العصر العثماني سواء في هذه الولايات - ام عن علاقات الدولة العثمانية بباقي دول العالم .

ويلاحظ المهتم بدراسة تاريخ الولايات العربية في العصر العثماني ندرة ما كتب من ابحاث بالمقارنة بهذا الكم الضخم من المادة الوثائقية التي تنتظر من يكشف عن الثروات الخبيثة فيها .

فاذا انتقلنا الى الجانب الزمني من العهد العثماني - فاننا نقول ان النادر مما كتب تناول القرنين التاسع عشر والعشرين بينما كان نصيب القرون من السادس عشر الى الثامن عشر قليلا .

وحتى هذا القليل من الكتابات عن هذه القرون - فانه لم يغط تاريخ المنطقة العربية جغرافيا - ففازت بعض الولايات بنصيب وافر بينما جرى تجاهل البعض الآخر تماما - كذلك فان هذا التاريخ لم يغط موضوعيا - فما زالت هناك جوانب هائلة غامضة من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعسكري للولايات العربية قابعا في ظلمات الاقبية ينتظر جهود الباحثين للكشف عنه .

وقد عني اغلب من تصدوا للتاريخ العثماني بصفة عامة بدراسة الجوانب السياسية والادارية والمالية للفترة دون ان تمتد عنايتهم الى جوانب عديدة - جديرة بالتسجيل - وحسنا فعل المؤتمر العالمي الاول للجنة العربية للدراسات العثمانية المنعقد في تونس عام 1984 م لدراسة «الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني» - عندما انتهى الى قرار بان تكون حلقة الثانية حول «الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني» - والتي تقدم دراستنا هذه اليها .

والخوض في العلاقات الاجتماعية في مصر العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هو نوع من ركوب بحر متلاطم الامواج - فالقضايا الاجتماعية

تحتاج الى تدقيق فى التحليل للانتهاء الى نتائج صحيحة من ناحية - والكتابات التى رصدت واقع المجتمع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة - من ناحية اخرى قليلة - وتكاد تنحصر فيما كتبه ابن ابى السرور البكرى الصديقى (الروضة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية) - وأحمد الدمرداش كتخدا عزبان (الدرة المصانة فى اخبار الكنانة) - وأحمد جلىبى عبد الغنى (اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات) - واخيرا الجبرتى الذى اكمل ما بدأه (عبد الغنى) فى «عجائب الآثار فى التراجم والاخبار» .

ومن نافلة القول الحديث عن الصعوبات التى تكتنف البحث فى العلاقات الاجتماعية بالاعتماد على هذه التواريخ - نظرا لاسلوب كتابتها غير المترابط - والذى كان سمة الكتابة فى ذلك العصر - وخلو هذه الكتابات من التحليل والاسناد - وانقطاع المادة التاريخية والاشتباك بمواضيع اخرى بعيدة عن المواضيع التى كانت محل المناقشة (I) .

لكن الاستعانة بهذه المصادر - الى جانب مصادر التوثيق الاصلية المودعة بدور الحفظ - قد يخفف الى حد ما من عناء البحث عن المظان الاصلية للتاريخ الاجتماعى أو غيره من التواريخ .

وفيما يتعلق بدراستنا هذه «العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية» - فان مصادر توثيق هذه العلاقات ، توجد - الى جانب كتابات المؤرخين السابق ذكرهم - فى سجلات المحاكم الشرعية المودعة بارشيف مصلحة الشهر العقارى والتوثيق بالقاهرة وفى دار الوثائق القومية بالقلعة - وتحتوى هذه السجلات احكام وتقارير المحاكم الشرعية التى غطت فترات طويلة من الحكم العثمانى (2) - وهذه الاحكام والتقارير على تنوع موضوعاتها ومسائلها تقدم

(1) عن نقد كتابات مؤرخي القرنين السابع عشر والثامن عشر - راجع الدكتور احمد طربين «التاريخ والمؤرخون العرب فى العصر الحديث» - دمشق 1970 .

(2) كانت المحاكم الشرعية خلال الحكم العثمانى فى مصر هي : محكمة مصر القديمة - محكمة الصالحية النجمية - محكمة طولون - محكمة البرمشية - محكمة الزاهد - محكمة باب السعادة والخرق - محكمة الصالح - محكمة بولاق - محكمة جامع الحاكم - محكمة قناطر السباع - محكمة قوصون - محكمة باب الشعرية - الى جانب محكمة الباب العالى بالقاهرة والتي كانت تعد المحكمة العليا فى مصر ولها اختصاصات لا يجوز للمحاكم الاخرى مباشرتها ومحكمتي القسمة العسكرية والعربية اللتين اختصتا نوعيا بمسائل التركات - وفي الأقاليم كانت هناك محاكم : ثغر الاسكندرية - ثغر رشيد - ثغر دمياط - المنصورة . المحلة الكبرى منف العليا - الجيزة - دمنهور - بني سويف - بليس - الفيوم - الخانقاه - منية بن خسيب - منفوط - جرجا - زفتى - المنزلة - اسيوط - ترمزنت - سلسلمون - البهنسا - سنديون - النحرارية - سنواه - دلجا مع اشمولين الفشن - محلة ابو علي الغربية - محلة مرحوم - فوه - طهطا - المنشية قنا - قوص - أبو تيج - الواح - البرلس .
انظر الدكتور / محمد نور فرحات ، «التاريخ الإجتماعي للقانون فى مصر الحديثة» ، ص 378 .

صورة واضحة لاحوال المجتمع المصرى وترسم اطار الحياة اليومية فى مصر من خلال تسجيل دقيق لاغلب علاقات التعامل .

كذلك فان وثائق (ديوان الروزنامة) بدار الوثائق القومية بالقلعة تسهم بقدر غير قليل فى كشف غموض العلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية بما تحويه من صكوك التزام ومراسلات وأوامر - يتضح منها علاقة الحاكمين بالمحكومين - وعلاقة رجال الدين والعلماء والمشايخ بالسلطة .

وقد استعنا فى هذه الدراسة بسجلات المحاكم الشرعية ووثائق ديوان ديوان الروزنامة - الى جانب الكتابات التاريخية لمعاصرى الفترة موضوع الدراسة .

وتقدم هذه الدراسة صورة للعلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية من خلال نماذج تعرض لها - هى على التوالى (الطبقة الحاكمة) - (الطبقة الوسيطة) - (اهل الذمة) - (النساء) - (الاحوال الشخصية) - (علاقة السلطة بالمحكومين) .

١ - الطبقة الحاكمة : خضع المجتمع المصرى على مدى الفترة (1517 - 1798 م) لحكم عثمانى منفرد ، حتى بدايات القرن السابع عشر عندما اصبح هذا الحكم - الى حدما - مشتركاً بين العثمانيين والعناصر المملوكية التى استطاعت فى ظل ظروف ضعف الدولة العثمانية بدأ من نهايات القرن السادس عشر - ان تثب الى مواقع السلطة - وأن تزاخم السلطة الشرعية - وان تحتصب السلطة فى النهاية .

ولقد كانت فكرة الدولة العثمانية عن (مفهوم الحكومة) تتلخص فى ثلاث امور أساسية (الادارة المالية : لتوفير الاموال لخزينة الدولة) (القضاء : لتنفيذ الاحكام بين الرعية) (الدفاع : لضمان بقاء الولاية تحت سيطرة الدولة الام) - وما عدا ذلك من وظائف الدولة حسب المفاهيم الحديثة - كالتعليم - والصحة - والامن - والشؤون الاجتماعية - فقد كانت خارجة عن نطاق اهتمامات النظام الحاكم - وتركزت اغلب هذه الامور للرعية يديرونها وفق مصالحهم .

كذلك فان مفهوم الدولة للعلاقة بين الحاكمين والمحكومين كانت تفسره حقيقة ان السلطان العثمانى كان يبدأ مهام منصبه بقوله «لقد ورثت ملك الامبراطورية عن آبائى وأجدادى» - ومؤدى هذا وفقاً لنظم العصر العثمانى ، ان الارض التى تخضع للسلطان ملك له بمن عليها من الكائنات الحية - يتصرف فيها كيف يشاء دون أى اعتبار لشيء - سوى ارادته فقط .

وتبعاً لتسلسل السيادة - فان هذا المفهوم كان ينتقل من السلطان (ظل الله فى الارض) - الى عبيده الحكام فى الولايات ، الذين ينفذون اوامره ويسهرون على انفاذ ارادته فى عبيده (الرعية) .

وفى ظل هذا المفهوم لعلاقات الحاكم - والفئة المحيطة به بالطبع - بالرعية ، فان (الضبط الاجتماعى) كفكرة تستهدف ضبط البناء الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع وضبط السلوك الانسانى والانتاج والحياة الاجتماعية - تطرح نفسها فى سؤال محدد :

«هل كان الضبط الاجتماعى - ووسائله - ومن بينها القانون ، يجدان مكانا لهما فى مجتمع مصر العثمانية ؟

من واقع مفهوم السلطة الذى ذكرناه فى السطور السابقة - فان (الضوابط) على ممارسة الحكام لسلطاتهم فى مواجهة الرعايا كانت (باهتة) - بمعنى امتداد سلطة الحكام على الرعية دون اعتراف من جانب الاولين بحقوق للاخيرين .

وفى مجتمع هذا شأنه - فان (الانعزال) بين طبقاته يكون علامة بارزة لا يغير منها اعادة توزيع مناصب السلطة بين الطبقة الحاكمة - ولا تغير الحيازة الزراعية من ملتزم الى آخر العلاقة بين الفلاح والاخير - كذلك فان العلاقة بين طوائف الحرف والسلطة تبقى دون تغيير - كما يتميز بثبات اجتماعى لا تمسه تغييرات الا تلك التغييرات الفوقية التى تمس الشريحة العليا منه القائمة على الحكم .

كذلك فان هذا النوع من المجتمعات ينتهى الى اعتياد الرعية مع الوقت على معايشة النظام دون محاولة التأثير فيه أو تغييره - اللهم الا فى حالات نادرة - وتنظيم اغلبية هذا المجتمع لحياته اليومية بعيدا عن النظام الحاكم الذى لا يعنى كثيرا بشؤونه .

ولقد كانت هذه الظواهر هى السمة الغالبة لمجتمع مصر العثمانية - وساعد على ابقاء هذه الظواهر - ما قام عليه النظام العثمانى من (ابقاء ما كان على ما كان) وغياب الفكرة التنظيمية السياسية أو الاجتماعية .

لذلك فانه لم يكن غريبا مع هذا الانعزال التام بين (الحاكمين) و(المحكومين) - ان يكون (الانفصال) هو اوضح مظاهر العلاقات بين الطبقتين .

وفى ظل هذه الظروف اغتصبت حقوق الافراد من جانب اصحاب العصبية - وشاركهم فى ذلك النظام الحاكم عندما تدهور خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

واذا نحن أردنا أن نرسم تصورا للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى - فاننا نستطيع ان نقول انه كان مجتمعا يتشكل من (صفوة ارسقراطية) من الحكام والعسكريين - تستأثر بالمناصب والالقب والمال والحكم .

(وطبقة العامة) من ابناء الشعب المصرى الذين وقع على كاهلهم عبء تحمل سطوة السادة من ناحية - والعيش فى ظل ظروف السلب والنهب والنصب من جانب هؤلاء - من ناحية اخرى .

وبين هؤلاء وهؤلاء وقعت شريحة من المصريين استطاعت في ظل ظروفها الوظيفية ان تجد لها مكانا وسطا ارتاحت اليه وقبعت لا تلوى على شيء - ناعمة بالرضا والانعامات التي كان يلقيها اليهم اهل الطبقة الحاكمة بين حين وآخر - وهؤلاء هم رجال الدين والعلماء والمشايخ .

وبلى هؤلاء - او ربما يقف معهم على قدم المساواة - جماعات التجار من سكان المدينة الذين كانوا اسعد حالا من جموع العامة - وان كانوا غير محصنين مع ذلك ضد تجاوزات الحكام والسادة .

ولقد كان المفترض ان يكون (القضاء) - باعتباره الجهاز المطبق الرئيسى لوسيلة المجتمع في ضبط بنائه - اى القانون - هو الملاذ الوحيد في مجتمع التناقض الطبقي هذا - بحيث يستطيع بما يحوزه من اسباب المنعة ان يقف حائلا دون تجاوزات الطبقات على بعضها مستخدما وظيفتى (القانون) من حيث معاملته لهؤلاء الذين يقومون باعمال عدوانية بطريقة حاسمة وراعدة . وتصرفه بطريقة اجبارية ملزمة في تطبيق الجزء الموضوعى الملزم المادي المتساوي .

وقد كشف لنا (القضاء في مصر العثمانية) من خلال ممارسته لدوره في تنظيم العلاقات بين طبقات المجتمع المصرى عن امرين : - اولهما - أنه سجل الفارق الطبقي الهائل بين عناصر البشر في مصر العثمانية - مؤكدا وجود هذا الفارق - وثانيهما انه (اى القضاء) قدم صورة لحقيقة دوره كجهاز في مجتمع مصر العثمانية من خلال رصدته فى احكامه وتقريراته لاحوال علاقات التعامل بين الناس نتيجة ظروف الحياة اليومية التى لا بد ان تخلق هذه العلاقات .

كانت اولى مظاهر الفوارق الطبقيية بين الحكام والمحكومين هو ، ما اسبغته احكام المحاكم الشرعية فى الفترة موضوع الدراسة - من نعوت التشريف والتكريم على اهل الفئة الحاكمة فى كل أمر يرد ذكرهم فيه - سواء كانت احكام المحاكم هذه (لهم ام عليهم) .

ونبدأ بالحاكم او (الباشا) نائب السلطان فى الولاية - الذى كان اسمه لا يذكر دون تقديمه بنعوت (حضرة مولانا الوزير المكرم والمشير المفخم مدبر أمور الامم فى البر والبحر واليم - صاحب السيف والقلم والطبل والعلم - والشجاعة والكرم - والخدم والحشم - والقوة والعفة - جمال الدولة العثمانية - طراز العصابة الخاقانية - وزير الملكة السلطانية بالديار المصرية - لازالت لعزته اعناق الجبابرة خاضعة - وافئدة الظلمة خاشعة) (3) .

ثم يليه (قاضى القضاء) وهو أحد افراد النظام العثمانى الحاكم الذى كان يأتى من قبل الدولة ليرأس الجهاز القضائى فى الولاية - وهذا كان يتمتع

(3) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 107 ص 019 و 100 ص 18 سنة 1054 هـ

بالقاب «مولانا شيخ الاسلام قاضى القضاة جمال الموالى الكرام تاج الائمة الاعلام» «المولى الاعظم - العلامة الاجل الاكرم - اوجد العلما الاعلام - اشرف السادات الاعزة الكرام - الناظر فى الاحكام الشرعية ٠٠٠٠» مكيين العلما الاعلام ٠٠٠ (4) .

وتتدرج ألقاب التشريف والتكريم بتدرج المناصب وصولا الى اعوان القضاة من المفتين والعدول ٠٠٠ (5) .

وقد يرد على ذلك بان توقيع رأس الدولة (الوالى) ورجال القضاء والدين فى نصوص احكام المحاكم أمر طبيعى - بحسبان أن الوالى هو اكبر موظف عثمانى ونائب السلطان فى الولاية - كما ان الدولة العثمانية كانت دولة اسلامية ومن ثم فان اسباغ اوصاف التشريف على القضاة ومطبقى احكام الشريعة الاسلامية - وأعوانهم لا يجافى واقع الحال .

لكن هذه النعوت ووصاف التكريم كانت تسبغ على اهل الصفوة فى احكام المحاكم فى كافة امور التداعى - سلبية او ايجابية وسواء أكان اصحاب هذه الاوصاف مدعين او متهمين - وهو ما يدعو الى التساؤل عن دور القضاء اذا مثل هؤلاء الكبراء فى مسائل تستدعى الزجر والعقاب .

كانت تسبق اسماء اهل الصفوة القاب «فخر الاعيان - على الشان - الجناب العالى - فخر ذوى المعالى - فخر الاكابر الصلحا - فخر الاماجد - مجمع المحامد - فخر الاعيان - كمال الاعزة - ذوى الشان - قدوة الامرا الكرام - عين الكبرا الفخام ٠٠٠» (6)

على انه اذا كان مقبولا اسباغ هذه الاوصاف على اهل الطبقة الحاكمة فى علاقات (المعاملات) - وهى التى تمثل الجانب الهادى فى علاقات الطبقة الحاكمة بالمحكومين - او بافراد الطبقة نفسها - فان غير المقبول - كما قلت - ان تستمر الفاظ التشريف لاصقة بهؤلاء الحكام فى القضايا التى يتهمون فيها بالقتل او التعدى على حقوق الغير - أو اغتصابها - وهو ما سنقدم له فى مواضع أخرى .

(4) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (1) ص 1 سنة 1054 هـ - ودار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة دفتر مقاطعات نواحي خاصة ولاية الشرقية والمنصورة وقلوبية وبحيرة وطفح والواحات ومنزله وفارسكور مع طرانة سنة 1146 (التزام) رقم الحفظ النوعي 312 - عين 5 - مخزن تركي 1 - ودفتر اصول مال اسكلها ومقاطعات تابع قلم شهر عن سنة 1134 .

(5) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 19 ص 4 - و 15 ص 3 سنة 1056 هـ - ودار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة 509 .

(6) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 19 ص 4 - و 32 ص 5 - و 219 ص 38 سنة 1056 هـ .

ولم يقتصر التمييز الطبقي في مصر العثمانية في الفترة موضوع الدراسة على رجال الطبقة الحاكمة فقط وانما امتد ليشمل نساءهم أيضا .

ففي المسائل التي كان للنساء فيها طرف كان التمييز يبدو واضحا في النعوت والوصاف التي تختص بها نساء الطبقة الحاكمة دون نساء العامة - فنساء العامة كن يلقبن (بالحرمة) و (المرأة) (7) في كل الحالات التي يرد ذكرهن فيها من شراء أو بيع أو طلاق أو نفقة أو دعاوى جنائية ... الخ .

اما نساء الطبقة الحاكمة فكانت لا تذكر اسمائهن الا مسبوقة بالفاظ التشريف : - «بالباب العالي لدى بحضرة و كلاهما بمنزل الجنب العالي عثمان اغا وكيل دار السعادة العظمى حالا .. والجنب المكرم ... تابع عثمان اغا أشهد على نفسه فخر امثاله المكرمين ابن شهوده الاشهاد الشرعى وهو بأكمل الاوصاف المعتبرة شرعا انه اسقط حقه لفخر المخدرات الست المصونة والجوهرة المكنونة ببيانه خاتون بنت المرحوم ... والمشمولة بوكالة زوجها فخر الاعيان الكرام كمال اولى الشان الفخام الجنب المكرم والمخدوم المعظم الحاج عبد الله اغا تابع وخازن دار عثمان اغا المشار اليه ...» (8)

ومن الالقاب الاخرى التي كانت تسبغ على نساء هذه الطبقة الى جانب ما ورد بالوثيقة السابقة «معتوقة فخر المخدرات و «تاج المستورات» و «ذات الحجاب الرفيع» و «الحصن البديع المنيع» ... الخ (9) .

ومثلما كان رجال الدين ينالون قدرا - ولو ضئيلا من التكريم عند ذكر اسمائهم في سجلات المحاكم - فان من ينتسبن اليهم من النساء كن ينلن مثل هذا القدر من التكريم ، باضافة لقب (المصونة) قبل الاسم - ولقب (خاتون) بعده .

«بالباب العالي ... لدى ... بحضرة اشهدت على نفسها المصونة خاتون بنت المرحوم من اعيان اهل الافادة والتدريس بالجامع الازهر كان تغمد الله بالرحمة والرضوان ... الخ (10) .

(7) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (37) - (39) - (45) - (78) - (80) - (87) سنة 1056 هـ .

(8) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة رقم 97 سنة 1210 هـ .

(9) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة 96 سنة 1220 هـ .

(10) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة 509 من 1219 هـ الى 1243 هـ . وخاتون كلمة فارسية تقابل كلمة (سيدة) في اللغة العربية - ولم تكن كلمة (خانم) تستعمل في الفاظ التشريف للنساء في ذلك الوقت - وهي كلمة فارسية من شقين (خان) بمعنى منزل ثم تضاف اليها (م) أداة الملكية للفرد (انا) فتعني (منزلي) على اعتبار أن الزوجة هي بمثابة منزل الرجل لا يدخله احد غيره - حرفت الكلمة بعد ذلك في مصر الى (هانم) دون ان تعني المعنى اللغوي لها .

على أن أهم ما ميز نساء الطبقة الحاكمة عدم ورود ذكر لهن في قضايا الأحوال الشخصية على الإطلاق - اللهم الا في حالات نادرة تتعلق بزوجات او مطلقات افراد الاوجاقات العسكرية من اصحاب الرتب الصغرى الذين كان يطلق عليهم وصف (من طائفة المستحفظان او العزب أو أحد الاوجاقات السبعة) بما يعنى انهم في مستوى الافراد (انفار) - او من ماثلهم من رجال الاوجاقات الذين لا تتجاوز رتبهم (بلوكباشى) وهى رتبة منخفضة فى الاوجاق العثماني .

«لدى مولانا قائم مقام ، أصدق النورى على بن على من طائفة مستحفظان قلعة مصر علوفه 5 بلوك 37 مخطوبته الحرمة كريمة المرأة بنت محمد بن همام الهوارى صداقا قدره الخ» (II) .

و «أقر فخر الامثال مراد بن محمد بكك باشى طائفة الينكجيرية بمصر اقرارا شرعيا وهو فى كمال الصحة والسلامة والطوعية والاختيار وجواز الاشهاد عليه شرعا من غير اكراه ولا اجبار ان عنده فى ذمته بحق صحيح شرعى ووجه قرعى مرعى لحرمة المصونة مباشرين المرأة بنت المرحوم الخواجا عبد الكريم ابن المرحوم ناصر الدين القليوبى المعصرانى ببولاى القاهرة مبلغا من القروش الفضة» (I2) .

و «ادعت الحرمة بدرة المرأة ابنة على الببلاوى على مطلقها احمد بن عبد الله من طائفة عزب القلعة (اوجاق العزبان المستقر بالقلعة) انه طلقها طلقة واحدة مكملة لعدد الطلقات الثلاثة وانها مشتملة منه على حمل ظاهر وطالبته بنفقة الحمل الى انقضاءه بالوضع ... الخ» (I3) .

ومع هذا فانه يبدو أن ذكر هاته النسوة فى سجلات المحاكم الشرعية لا يعود الى انهن كن زوجات او مطلقات لافراد الطبقة الدنيا فى الجهاز العثماني فقط - وانما يعود فى اعتقادنا الى أنهن كن من طبقة العامة حسبما توضح اسمائهن وأسماء آبائهن ... وهى حقيقة نخلص منها فى مقام العلاقات الاجتماعية الى أن افراد الطبقة الدنيا من الجهاز العثماني الحاكم كانوا يصهرون الى طبقة اولاد البلد من المصريين .

وفى نفس الوقت فان عدم عثورنا على حالات شخصية لغير هؤلاء تؤدى الى طرح عدة تساؤلات تفرض نفسها :

- هل انعدمت حالات الاحوال الشخصية بين افراد الطبقة الحاكمة ... وهذا غير متصور .

(11) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة (3) ص 1 بتاريخ 1055/2/2 و (علوفه) شفي راتب - اي رقمه المسلسل فى دفتر الرواتب هو (5) .
(12) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 44 فى 1056/1/8 هـ .
(13) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 80 فى 1056/1/13 هـ .

— اذا كان هذا غير متصور فلماذا خلت سجلات المحاكم الشرعية من ذكر لمسائل الزواج والطلاق وما اشبه بالنسبة لهم .

— هل يعنى ذلك ان هذه الطبقة كانت تستخدم وثائق خاصة بها لتسجيل وقيد مثل هذا النوع من العلاقات — بعيدة عن سجلات المحاكم الشرعية التى كانت تتصدى لمسائل الاحوال الشخصية لابناء وبنات البلد والطبقة الدنيا من الجهاز العثماني الحاكم .

نميل الى الاعتقاد بصحة الفرض الاخير — فالطبقة الحاكمة كانت — كما هو واضح — منعزلة تماما عن باقى طبقات الشعب ، ولم يكن هناك ثمة اتصال البتة بين هؤلاء وهؤلاء . فلا يستبعد الامر كذلك — اماعنا فى الانفصال — امكانية قيد وتسجيل والحكم فى مسائل «الاحوال الشخصية» للطبقة الحاكمة فى دفاتر خاصة — خاصة وان هذا الاجراء لم يكن يمس مصالح العامة فى شيء — موضوعا فى الاعتبار ان العلاقات الشخصية بين الطبقتين معدومة .

على اننا اذا قبلنا بما سبق كتبرير لسلبية العلاقات بين الطبقة الحاكمة وطبقة العامة فى مسائل الاحوال الشخصية او ما اشبه — فان ظروف المعيشة لا بد وانها كانت ستفرز انواعا من العلاقات الاجتماعية الاخرى التى من المحتمل ان يكون افراد الطبقتين اطرافا فيها كالمنازعات والمعاملات والحوادث الجنائية وما اشبه . وقد سجلت لنا وثائق المحاكم الشرعية انواعا عديدة من المعاملات بين افراد الطبقتين — منها اتفاقات (التواجز) (ايجار الاماكن) — وفى غالب الاحوال فان اهل الطبقة الحاكمة كانوا هم (المؤجرون) وليس (المستأجرون) .

«بعد الاذن الكريم من حضرة مولانا العلامة قايم مقام لمولانا الشيخ الامام الحنبلى خليفة الحكم العزيز بهذه المحكمة صدر ما مضمونه انه بحضور فخر الاعيان الامير محمد جاويش الديوان الناظر الشرعى على وقف المرحوم ماماي اليوسفى أجر مولانا افتخار الاعيان على الشأن الجنب العالي فخر ذوى المعالي الامير على بن مولانا الامير زكريا كتحدا الجاويشية (نائب قائد اوجاق الجاوشان) بمصر المحروسة لفخر الاكابر والصلحا الزينى رضوان بن عبد الله جميع المكان الكائن بمصر المحروسة بخط الورشة المهندارية بالقرب من باب سر الصاغة المشتمل على اربع طباق (ادوار) وقاعتين كبيرى وصغرى وحوش واسطبل الخ أقر واعترف مولانا الامير على كتحدا المشار اليه اعلاه انه قبض وتسلم من الزينى رضوان المستاجر المذكور مبلغا وقدره من الفضة السلطانية ... فى نظير اسقاط حقه فى الخلو والسكن والانتفاع بالمكان المذكور وسائر حقوقه للزينى رضوان المذكور فى نظير المبلغ المذكور اعلاه اسقاطا صحيحا شرعيا ..» (I4) .

ولعل علاقات (المعاملات) هي التي كانت تمثل الجانب الهادئ في علاقات الطبقة الحاكمة بطبقة المحكومين . لكن اغلب مظاهر العلاقات الاخرى كانت تكشف عن الجانب المظلم من هذه الاوضاع الغير سوية - ففي قضايا المنازعات كثيرا ما كان الفائز هو الطرف المنتمى للطبقة الحاكمة والخاسر هو المحكومين - بما يعنى اهدار دور المحاكم الشرعية في اصدار الحكم الشرعى العادل .

ففى مجال النظارة على الاوقاف توجد حالات كثيرة لحلول اهل الطبقة الحاكمة فى النظر والتحدث بدلا من النظار من العامة دون ان يسبب القاضى (مولانا قايم مقام) قراراته هذه .

«قرر مولانا قايم مقام دام عزه فخر الاغوات المقربين فخار الملوك والسلاطين سليمان آغا دار السعادة دام اقباله فى وظيفة النظر والتحدث على وقف المرحوم القاضى بركات وتوابعه ٠٠٠٠ عوضا فى ذلك عن سيدنا ومولانا الشيخ ٠٠٠ ابو عبد الله محمد شيخ طريق السادة الخلوتية بمصر - وفى النظر على وقف فاطمة بنت الظاهر جمقق عوضا عن تابع مولانا الشيخ محمد المشار اليه اعلاه وهو الامير حسن جاويش ٠٠٠ تقريراً شرعياً محرراً مرعياً مقبولا وذلك بعد الوقوف على التمسكين (الحجنتين) الشاهدين لمولانا الشيخ محمد الخلوتى المشار اليه بذلك - المؤرخ الاول منهما فى ٠٠٠٠ والثانى مؤرخ فى ٠٠٠٠٠ (15)

ان اغفال اسباب تقرير (مولانا قايم مقام) لفخر الاغوات سليمان آغا دار السعادة فى النظارة على وقفين ينتظر على أحدهما شيخ السادة الخلوتية وهو من ابناء البلد - ويتنظر على الثانى تابعه دون ابداء سبب لذلك يحمل فى طبياته شبهة قيام طبقة الحكام باغتصاب الاوقاف لاغتياال ريعها - وهو ما كان احد مظاهر العلاقة بين جماعات السلطة ومجتمع المحكومين - تلك العلاقة القائمة على القهر وما يتفرع عنه .

ومن مظاهر العلاقات الاجتماعية الغير متوازنة بين طبقتى الحكام والمحكومين - ما كان تفرزه المعاملات بين الملتزمين (وهم من طبقة الصفوة المشار اليها) والعامة من المتعاملين مع الملتزمين بحكم طبيعة عملهم . ساد هذه العلاقة نوع

(15) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 26 ص 5 بتاريخ 1056/1/1 - وأغا دار السعادة هو تسمية عربية (للقزلار آغا = آغا البنات) وهو خصي يشرف على الحريم فى القصر السلطاني ويساعده عدد من الخصيان والطواشي الذين كانوا يستوردون فى القرنين 15 و 16 من (القوازا) اي انهم بيض - لكنهم أصبحوا من الخصيان السود فى عهد السلطان (مراد الثالث 1574 - 1595) وأصبحوا يجلبون من افريقيا عبر مصر - فى القرن الثانى عشر آل الإشراف على اوقاف الحرمين الشريفين الى (القزلار آغا) - وبمضى الوقت أصبح (آغا دار السعادة) الرجل الثالث فى الأهمية بعد الوزير الأعظم وشيخ الإسلام - ودار السعادة (دار سعاد) هي الأستانة .

راجع عبد الكريم رافق «بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بوناپرت 1516 - 1798» ص 65 - 55 .

من الجور والعسف الذي كان يضح منه اهل الحرف والصناعات المتعاملين مع الملتزمين - والذي كان يؤدي بهم الى اللجوء الى ساحات المحاكم لعلها تدفع عنهم الظلم الذي كان يوقعه بهم السادة .

«لدى مولانا قايم مقام ٠٠٠٠ بعد أن وردت من قبل حضرة مولانا الوزير المكرم ٠٠٠٠ على حضرة مولانا قايم مقام ٠٠٠٠ البيور لدى الشريف (الامر أو التكليف) المكتوب في شأن الحادثة الآتية ٠٠٠٠

حضر فخر الاعيان الامير على (المتفرقة) (I6) الملتزم بمعمل النشا حالا في جانب الملتزم بمقاطعة البحرين وبصحبتة المجلس المعبر (لقب من القاب التشريف) المعلم حسن ابن الحاج على شيخ طريقة الصباغين في البقته والبطاين الملونات بمصر المحروسة والمعلم محمد بن علي بن مخلوف والمعلم سليمان بن محمد والمعلم خطاب بن عبد الحافظ والجم الغفير والعدد الكثير من طائفة صباغين الملونات من اصفر وأخضر وأزرق ولازوردي وماوى وبندقي وغير ذلك من الالوان المعتادة وتخاصموا مع الملتزم المذكور اعلاه بسبب ما ادعوه من انه يكلفهم لاحداث حادثة وتجديد مظلمة عليهم ويأمرهم بأخذ النشا الذي يصنع في معمله المذكور وذلك خلاف العادة القديمة وهو (النشا) مضر بصناعتهم وباصحاب الاقمشة من بفته وغيرها لكونه يحرق القماش ويبطفا (يطفئ) نورانية الصباغ وأن في ذلك ضررا عليهم وعلى اصحاب الاقمشة من المسلمين وغيرهم وأن العادة القديمة من قديم الزمان الذي كان عليها من سبقهم من المعلمين والآباء والاجداد كل واحد يعمل لنفسه في منزله ما يحتاج

(16) يعني انه من رجال اوجاق المتفرقة - وقد نظمت الحامية العسكرية في مصر وفقا (لقانونامة مصر) الصادر في عهد الوزير الأعظم (اسكندرلي ابراهيم باشا عام 931 هـ = 1525 م في ستة أوجاقات (فرق) او طوائف) هي (الجوكليان) وتنطق الجونوليان واطلق عليها المصريون اسم الجليليان او الجميلية او الكموليان او الكمولية وتعني المتطوعين - والتفككيان (أي حملة البنادق الفرسان وسماهم المصريون التفكجية او التفككيان او التفكشية ، وكلمة توفكجي او توفكشي تطلق في مصر الان على من صناعته اصلاح الأسلحة والجراكسة وهم من الممالك الفرسان - والمستحفظان وهم الينكجيرية او الإنكشارية المشاة وكان مقرهم القلعة وآولوا اعمال الشرطة - والعزبان المشاة او (العزب) وكانت مهمتهم حماية قلاع القاهرة والقلاع الخارجية - وحماية الوالي (الباشا أو الوزير) - وكانت تلي طائفة المستحفظان او (الينكجيرية) في الأهمية ، وكثيرا ما تصادمت هاتان الطائفتان تنافسا على السلطة السياسية و (الالتزامات) المربحة (كالضربخانة) أي دار سك النقود - واماكن جباية الضرائب - وكانت الطائفة السادسة هي (الجاووشان) وتذكرها المصادر العربية باسم (الجاووشية) - وكان أفرادها يقومون باعمال المراسلة لابلأغ وتوصيل أوامر الباشا والديوان او جباية الضرائب في الأقاليم - وقد تأسست الطائفة السابعة (المتفرقة) في النصف الثاني من القرن السادس عشر (1554 م) من مماليك دخلوا في خدمة العثمانيين الى جانب افراد جلبوا خصيصا من الأستانة - وكانت مهمة هذه الطائفة حماية القلاع في الأقاليم - وحراسة (الوالي العثماني) .

أنظر : P.M. Holt «Egypt and the Fertile Crescent», 51. ود. عبد الوهاب بكر «الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر» ملحق 1 .

اليه من النشا المتخذ من الارز والقمح النافع لصناعته ولاصحاب الاقمشة ويرسله مع صناعه وأتباعه الى مصبغته وأنه لم يتعرض لهم أحد من الملتزمين السابقين بالمعمل المذكور والى الآن - وطلبوا اجراهم على عاداتهم القديمة فى ذلك وطال بينهم الخصام والنزاع بسبب ذلك وخرجوا على ان الامير على الملتزم المذكور يفحص ويسأل من الملتزمين قبله بالمقاطعة المذكورة (أى معمل النشا محل التزامه) عن ذلك وهل عليهم عادة بالاخذ من نشا المعمل المذكورة أم لا - ثم انه عاد فى اليوم الثانى وهم صحبته وأخبر عن نفسه بان فحص وسأل فما وجد عليهم (اى الصباغين) بأخذ شىء من نشاء المعمل المذكور وأشهد على نفسه الاشهاد الشرعى أنه صدق على انه ليس على الطائفة المذكورة عادة بأخذ شىء من نشا المعمل المذكور ومكنهم من اجراهم على عاداتهم (أى استثمارهم على ما كانوا عليه بحكم العادة المستقرة) المذكورة اعلاه وانه لا يتعرض لهم ولا لاحد من صناعهم وصبيانهم بسبب ذلك وأشهد عليه شيخ الطائفة المذكورين وكل منهم ان يعمل ما يحتاج اليه من النشاء المذكور فى منزله لنفسه وانه لا يبيع شيئا من ذلك لغيره وانه متى خالف ذلك وباع منه شيئا لغيره كان عليه ما يراه الحاكم الشرعى فى شأن ذلك وثبت الاشهاد بذلك لدى مولانا الحاكم الشرعى المومى اليه بصريح الاعتراف من الملتزم المذكور ومن كل منهم بذلك ومنع مخالفة ذلك عملا بالبيور لدى الشريف المشار اليه جرى ذلك فى تاسع عشر المحرم الحرام سنة ستة وخمسين والى (فبراير 1646) وذلك بعد أن حضر الزينى عبد الجواد الملتزم السابق وفخر الاقران يسين والزينى ناصف الشيخ كل منهما سابقا (أى شيخ الطائفة كل منهما سابقا) وأخبروا بانه ليس على الطائفة عادة بالاخذ من المعمل المذكور ٠٠٠٠ (17) .

يتحدث هذا النص عن شكل العلاقة بين ملتزم مقاطعة ما (معمل النشا التابع لمقاطعة البحرين : اى جمارك ميناءى بولاق ومصر العتيقة) ومحاولته اجبار اهل طائفة معينة (طائفة الصباغين والبفتة والبطالين الملونة) على شراء منتجات معمله من النشا رغم ما تسببه من أضرار لاقمشة اهل الطائفة - ولولا ثبوت (العادة) التى نفت سابقة تعامل اهل الطائفة مع منتجات هذا المعمل لاجبر هذا (الاوجاقى) أهل الطائفة على شراء نشا معمله ٠٠٠٠ وكما تنفى العادة سابقة التعامل - فقد تجبر على الرضوخ لظلم اذا ثبتت تواترها .

على أن نجاة اهل الطائفة من ظلم (الملتزم) فى هذه الوثيقة لا يجب أن يؤخذ على أنه تأكيد لاستقرار حقوق العامة فى مواجهة طبقة الصفوة - وبالتالى استقرار القضاء فى مصر وقيامه بواجبه فى تنظيم العلاقات الاجتماعية .

ذلك ان القضية هى قضية (العادة) او العرف . فمن المعروف ان مصادر القانون فى الدولة العثمانية كانت هى الشريعة الاسلامية - والتشريع -

والعرف ، مع التسليم بان كل مصدر من هؤلاء قد اصابه التطور مع تطور العصور التي مرت بالدولة - فكما سادت الشريعة لوقت ما (في المراحل الاولى لتطور الدولة العثمانية) - فانها افسحت مكانها فيما بعد للتشريع - وكما كانت تطبيقات الشريعة الاسلامية أظهر في علاقات القانون الخاص - فان التشريع والعادة (والعرف) كانا ارحب مجالا في علاقات القانون العام والقانون الجنائي باستثناء مسائل الحدود (18) .

ولقد وجد العرف مكانه في النظام القانوني العثماني نتيجة لما تميزت به الدولة العثمانية من طابع المحافظة ، الذي يقرر التعامل في المجتمعات الخاضعة لسلطتها وفق (الامر الواقع) وعدم اللجوء الى تغيير هذا (الواقع) الا في حالات الضرورة .

هكذا بقى العرف في النظام القانوني العثماني عاملا من عوامل تكريس الواقع وليس عاملا من عوامل المواءمة بين النص القانوني الثابت والواقع الاجتماعي المتجدد .

وليس هناك خطر في قيام العرف بدوره كمصدر يطبقه القاضي اذا لم يجد حكما صريحا في مبادئ الشريعة او القانون - لكن الخطورة تكمن في استخدام العرف كمظهر لسلطة النظام الحاكم المتحررة من القيود - بمعنى تحول معنى (العرف) عن عرف الرعية في استباحة فعل او استقباحه الى عرف السلطة في تحريم فعل او اباحته ... خروجا من جانبها على معاني الشريعة تبرره الرغبة في تغليب قيمة الاستقرار والنظام وتوطيد اركان الحكم على قيمة الحرية الشرعية والحفاظ على حقوق الرعية (19) .

فمكمن الخطورة هنا ليس في تطبيق العرف حسبما ينبغي ان يكون - وانما حسبما يراه الحاكم - واذا كانت الرعية قد أفلتت من الظلم في الحالة التي قدمتها الوثيقة - فان مصدر الخطورة باق في حالات كثيرة يستخدم فيها الحاكم الشرعي (العرف) كما يراه وليس كما تراه الرعية من العامة - وهم اصحاب العرف بطبيعة الحال .

(18) الحدود في الشرع هي العقوبة التي شرعها الله للزجر والردع في حالات ارتكاب الكبائر التي نص عليها الاسلام مثل السرقة والزنا والقتل . وحدود الله هي محارمه « ألا ان لكل ملك حصى ، وحصى الله محارمه » ومن حام حول الحصى يوشك ان يقع فيه « حديث شريف .
والقصاص هو مجازاة الجاني جزاء ما قدمت يداه - كالقصاص في القتل « ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب » البقرة .
أما (التعازير) فهي العقوبات لمصيبة لم يشرع لها حد مقدر - وانما يضعها (ولي الأمر) حسب الحال بشرط الا تتجاوز أدنى الحدود .
راجع : « عبد القادر عودة » التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي « مذكور في » محمد نور فرحات « ص 479 .

(19) د. محمد نور فرحات « المرجع السابق » ص 101 - 103 .

ولقد كانت الحوادث الجنائية كنوع من العلاقات الاجتماعية التي تفرزها ظروف المايشة فى مجتمع واحد مكون من طبقات متباينة - صارخة بالتناقض، كاشفة لحقيقة العلاقات الاجتماعية بين طبقة الحاكمين والمحكومين - ولدور القانون - ايا كان نوعه (شرعى او وضعى) فى تنظيم ووضع الضوابط بين الناس .

فالوثيقة التى بين أيدينا تتحدث عن جريمة وقعت فى السادس عشر من شهر ذى القعدة سنة سبع عشرة ومائة وألف 7IIIهـ : فبراير 1705م بقرية ميت دمسيس التابعة لمدينة ميت غمر بولاية الدقهلية - قتلت فيها امرأة نتيجة اصابتها بطلق نارى اطلقه (قائمقام الناحية) العثمانى - وانتهى الحكم الى عدم ثبوت التهمة وتكليف زوج القتيلة بعدم التعرض للقائمقام العثمانى .

«بحضرة فخر الاعيان الجنب العالى الامير خليل - قايم مقام (ميت غمر) حالا ورفيقه سيدى ابوب (الحوالة) والعلامة الشيخ محمد الاسناوى وغيرهم - ادعى سيد مصطفى الشهير بالجوريجى تابع الجنب العالى الامير ابراهيم جوريجى جراكسة ملتزم ناحية ميت دمسيس بالولاية بوكالته الشرعية عن المحترم ابراهيم بن المحترم سلامه الحاضر بالمجلس - على (سيدى يوسف) (قايم مقام) ناحية (.....) بالولاية المذكورة ، وتابعه سيدى مصطفى : أن زوجة الموكل المذكور كانت واقفة بشاطئ بحر النيل بناحية بلدها (ميت دمسيس) وكان اذ ذاك سيدى يوسف ورفيقه المذكور فى (قياسه) صغيره (قارب صغير) على جانب شاطئ بحر النيل فرمى ببندقيته يقصد طير فأصابت المرأة المذكورة بجنيها خرجت من الجنب الآخر فوقعت ميتة - وان يسأل سؤاله عن ذلك (يطلب مسأله المدعى عليه) ، فسيل من الامير يوسف المدعى عليه عن ذلك (سئل المدعى عليه عن المنسوب اليه) فأجاب بأنه كان بسفينة صغيرة قادم من ناحية المنصورة الى بلده من جملة المراكب المسافرين يوم تاريخه ورمى ببندقيته البحر - وان كل من بالركب المسافرين فى المياه يرمون الطير بالبندق (بالبنادق) ولم يعلم عن هذه المرأة مطلقا ولم يقترب (الشاطئ) بلدها وكان بعيدا عن بلدها المذكور . فطلب من المدعى (بينة) تشهد له بما ادعاه - وأحضر (فأحضر) الرئيس محمد ابن المحترم عمر السنانى والرئيس على ابن سلامه . واستشهد بهما عما يعلمان من ذلك فأقام كل منهما شهادته انهما كانا بمركبهما من جملة المسافرين فى البحر فرأيا سيدى يوسف ورفيقه سيدى مصطفى بمركب صغيرة قريبة من جزيرة بوسط بحر النيل ورمى ببندقيته بالبحر ولم يعلما ان كانت هى التى اصابت المرأة أم لا - وانهما سمعا الصياح فقط ولم يشهدا بالاصابة بالمرأة المذكورة . فطلب من المدعى بينة اخرى غير هذه واصابة المرأة وموتها فلم يبين .

فعند ذلك عرف مولانا الحاكم الشرعى المشار اليه اعلاه المدعى والموكل المذكورين ان هذه البينة لم تصادف محلا ولم تقع موقعا - وانما يثبت ذلك

بشهادة العيان والاصابة والموت - ومنع المدعى والموكل من معارضة سيدي يوسف المدعى عليه ورفيقه سيدي مصطفى المذكور لعدم ثبوت دعواه هو وموكله كما أفتت به السادة العلماء رضى الله عنهم وأرضاه .

فبمقتضى ذلك طلب سيدي يوسف المدعى عليه من مولانا الشرعى المشار اليه اعلاه كتابة ما صدر به الدعوى والسؤال والجواب اجابة لطلبه وكتب ذلك ضبطا للواقع ليراجع عند ميسر الاحتياج اليه وعلى ما جرى وقع التحرير . ٠٠٠ (20) .

كان نظام الاثبات امام المحاكم الشرعية في مصر العثمانية - وهو نظام واحد لا فرق فيه بين المواد المدنية والمواد الجنائية - يقوم على اساس من المبدأ الشرعى المستقر (ان البينة على من ادعى واليمين على من انكر) - وقد وجه المدعى وفقا للمعمول به - الدعوى الى المدعى عليه ، وانكر المدعى عليه ما هو منسوب اليه - وطلب القاضى من المدعى اقامة البينة على دعواه - واستشهد المدعى بشهود خذلوهم ولم يقدموا شهادة حاسمة لصالح دعواه (21) .

هنا كان من حق المدعى العاجز عن الاثبات ان يطلب توجيه اليمين الى المدعى المنكر - لكن الذى نلاحظه فى هذه الواقعة ان المدعى لم يستخدم هذا الحق رغم رسوخه فى تقاليد الاثبات وعلم الكافة به - وبذلك تخلص المدعى عليه من التهمة المنسوبة اليه - بل وطلب من القاضى اعطائه صورة الحكم ضبطا للواقع .

هل أغفل القاضى تنبيه المدعى الى حقه فى توجيه اليمين الى المدعى عليه انحيازا الى الاخير لانتسابه الى طبقة الحكام ؟ والملاحظ ان المدعى عليه يذكر اسمه مسبقا بكلمة (سيدي) رغم اتهامه بارتكاب جريمة قتل .

لكن هناك أمرا يستلفت النظر فى هذا الواقعة - فقد تقسم بالدعوى (سيد مصطفى الشهير بالجوريجى تابع الجناح العالى الامير ابراهيم جوريجى جراكسة ملتزم ناحية ميت دمسيس - أى ان زوج القتل أو كل اقامة دعواه الى شخص ينتسب الى احد كبار ضباط أوجاق الجراكسة وملتزم الناحية أيضا - فهو من الصفوة .

والتساؤل الذى يفرض نفسه هو : لماذا أوكل زوج القتل اقامة دعواه الى أحد افراد الطبقة الحاكمة ولم يباشر اقامة الدعوى بنفسه ؟ وهل يفهم من ذلك أن العامة من الناس فى مصر كانوا يستعينون بالطبقة الحاكمة المتنفذة لمساعدتهم على اقتضاء حقوقهم ؟ - وهو أمر ان صح فانه يؤكد صحة ما انتهينا

(20) دار الوثائق القومية - سجل محكمة الدقهلية الشرعية بتاريخ 1117/11/1 هـ وثيقة 32 ص 14 .

(21) د. محمد نور فرحات « المرجع السابق » ص ، 492 - 493 .

اليه من ان العلاقات الاجتماعية بين طبقة الصفوة وطبقة العامة كانت غير متوازنة ، وأن حقوق طبقة العامة كانت مهضومة ، وانهم كانوا يستعينون على اقتضاء حقوقهم بأهل الطبقة الحاكمة (الصفوة) اصحاب النفوذ والسطوة - لعل هذا يشفع لهم عند أهل القضاء (22) .

ومن المؤكد ان اهل الطبقة الحاكمة اصبحوا خلال الفترة موضوع الدراسة محصنين تماما ضد القانون بانواعه ، بصورة تعرضت فيها أرواح ومصالح وأعراض طبقة العامة للخطر - فقد اصبح القضاء مغلول اليد في مواجهة تجاوزاتهم - وفقد العامة الملجأ الوحيد الذي يرجعون اليه لصد عدوان السادة بانحياز القضاء الى اصحاب السلطة وفقدانه لفعاليته ودوره الاجتماعي - ووقوفه عاجزا عن ملاحقة التطورات الاجتماعية في الفترة موضوع الدراسة - وما مرد ذلك الا الى الفوضى التي ضربت بجذورها في جميع مظاهر الحياة في الدولة العثمانية .

لقد انعكس كل ذلك على القضاء - واصبحت ولايته تكاد ان تكون منحصرة في تحقيق الاعتداءات البسيطة التي تفرزها العلاقات الاجتماعية اليومية - والا فآين هذا القضاء من الصراعات الدموية التي كانت تسود علاقات مجتمع السادة والتي اصبحت تشكل ظاهرة عادية سجل لها «احمد شلبى عبد الغنى» في «اشاراته» - «وعبد الرحمن الجبرتي» في «آثاره» .

لقد كان القضاء معزولا تمام الانعزال - ليس فقط عن هذه الصراعات بين الانداد من السادة - بل وأيضا عن انزال حكم الشرع والقانون على الجاني وحماية المجنى عليه في حالات اعتداء السادة على العامة من الرعية - والنص الآتي يبين بجلاء مدى التدهور الذي اصاب العلاقات الاجتماعية في مجال الحوادث الجنائية - وما آل اليه أمر القضاء في ظل مناخ التعسف واضمحلال الشرعية .

« لدى سيدنا ومولانا افندى دامت فضايله

حضر المحترم الشيخ يوسف العناني من أهالي ناحية أجا بالولاية وعرف مولانا افندى المومى اليه اعلاه ان في ثامن عشر شهر تاريخه (ذى القعدة سنة 1117 هـ : 1706 م) تعدى على اهالى (أجا) المذكورة اهالى ناحية (منية سمانود) وبايديهم السلاح والبنندق ووقعوا بهم الضرب والقتل فأصاب (فأصيب) رجل يدعى شعلان بن أحمد برصاصة اصابته من رمية البندقية فوقع ميتا لا حركة فيه لا روح ، وأخذوا مواشى الناحية المذكورة جميعها وتوجهوا بها الى ناحية

(22) يقول الامتاذ الدكتور محمد نور الدين فرحات ان نظام الوكالة في الداعي كان مارسا في المسائل المدنية و الأحوال الشخصية - وافترض ان الوكالة في الداعي كانت مقصورة في محاكم مصر العثمانية على المسائل المدنية دون الجنائية - والنص الذي تقدمه يثبت عكس ما افترضه سيادته . «المرجع السابق» ص 413 - 415 .

بلدهم المذكورة وسأل في الكشف على شعلان المقتول بالمجلس الشرعى الشريف فاجيب الى سؤاله وكشف على المحترم شعلان المذكور فوجد ميتا لا حركة فيه ولا روح وهذا ما دل عليه الكشف المذكور بحضور الامير يوسف قايم مقام الناحية المذكورة وسيدى سليمان تابع الامير مصطفى جلبى القيصرى . . . واطلاهم على ذلك الاطلاع الشرعى وكتب ذلك ضبطا للواقع ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك . . . وعلى ما جرى وقع التحرير فى تاسع عشر ذى القعدة الحرام من شهور سنة سبعة عشر ومائة والف، (23) .

لكن القصة لم تنته عند هذا الحد - فقد أتت الوثيقة المحررة فى اليوم التالى بنفس المحكمة لتلقى الضوء على دور (الامير يوسف) قايم مقام ناحية أجا التى تقدم أحد مواطنيها (الشيخ يوسف العنانى) بدعواه المذكورة فى السطور السابقة والذى كان حاضرا (الكشف على شعلان المقتول) .

تقول الوثيقة الثانية

«لدى سيدنا ومولانا دامت فضايله .

حضر فخر اعيانه الامير ابراهيم جوربجى جراكسة ومتسلم بالقليلوبية سابقا (24) وصحبته مشايخ ناحية (منية سمانود) التزام فخر الاعيان الامير

(23) سجل محكمة الدقهلية الشرعية - وثيقة 18 من بتاريخ 1117/11/19 - وقد أثبتت محرر الوثيقة فى حاشية بعرض الدفتر ما نصه (التزام أحمد كتحدا عزبان بحق النصف) .
(24) جو بجى هي رتبة عسكرية من رتب ضباط الأوجاقات العثمانية التي كانت تتكون منها الحامية العثمانية فى مصر - فقد كان يرأس الأوجاق (الأغا) . يليه (الكاخيا) أي وكيله - وكان (كاخيا الوقت Vakit Kahyasi) هو أعلى كاخياوات الأوجاق مقاما ثم يليه رئيس الجاوشية (باش جاوش) ثم الجاوشية - ومن قدامى هؤلاء الضباط جميعا تتكون مجموعة (اختيارية الأوجاق) واختيار تعني كبير السن فى التركية (أي قدامى ضباط الأوجاق) - ثم تأتي رتبة الباش اوضه باشي - ثم أوضه باشي - ولفهم الرتبتين الأخيرتين فإننا نقول ان أوجاق الإنكشارية على سبيل المثال كان ينقسم الى 196 فرقة أو بلك Bolok - وكانت كل فرقة مكونة من 50 الى 500 رجل تقيم داخل التكنات فى غرفة) تسمى بالتركية (أوضه) ولكل فرقة فى (أوضه) رئيس يسمى (أوضه باشي) أي رئيس الفرقة - ويرأس كل الأوضه باشية - الباش اوضه باشي - وتأتي رتبة (الجوربجي) قبل رتبة (أوضه باشي) .
لمزيد من التفاصيل عن الرتب العسكرية فى الأوجقات العثمانية راجع :

— P. M. Holt «The career of Kûçûk Muhammed».

— S. Shaw «Ottoman Egypt in the Eighteenth Century — The Nizammame-i Missir of Gezzar Ahmed Pasha.

هذا عن وضع الجوربجي بين الرتب العسكرية وترتيب اقدميته - اما الجوربجي كوظيفة عسكرية فهي رتبة تخص ضباط بلوكات المشاة التي كانت تكون الجيش العثماني وكذا ضباط بلوكات المعجم الحادية والثلاثين التي كانت تنفرع عن معسكرات (القابى قولر = عيد الباب) - كما كان يطلق هذا اللقب على ضباط الإنكشارية (وهم مشاة بالطبع) - ولقب جوربجي مرادف للقب يايا باشي (يايا = قيادة) أو (بلوك باشي) - وأحيانا كان يطلق على الجوربجي لقب (الصوباشي) - وأقدم ضباط الجوربجية كان يطلق عليه بين جماعته يايا باشي أي رئيس المشاة - وبين البلوكات جميعا باش بلوك باشي أي رئيس رئاسة البلوكات - وكان

أحمد أفندي جراكسه بمصر حالا وهم أحمد صيام وإبراهيم منصور والشيخ عطا الله ومحمد النادى - وأعلموا مولانا أفندي الموما إليه اعلاه أن في يوم الخميس الموافق الثامن عشر شهر تاريخه تعدى عليهم أهالى ناحية أجا بالولاية هم وقايم مقامهم الامير يوسف وهم خيالة ومشاة بأيديهم آلات السلاح والمزاريق (الحراب) والسيوف والبندق (البنادق) والنباييت ونزلوا فى غيط بلدهم (المنيه) المجاورة لاجا المذكورة يحشوا زراعة البرسيم والقمح والفول ليطعموه بهاييمهم - فلما علموا بذلك توجه لهم الامير مراد من طايفة الجراكسة تابع الامير أحمد أفندي (جراكسه) ملتزم الناحية المذكورة والعمدة العارف بالله والتالى لكتابه المتين الشيخ سلمان شيخ الناحية وفقهها وجماعة من أهالى الناحية وأرادوا منعهم حش الزرع بالمعروف - فأوقعوا بهم الضرب والقتل فقتل الامير مراد المذكور والشيخ سلمان المذكور وجرحوا رجلين من أهالى الناحية وأخذوا للامير مراد سيفه وبندقيته وركاب أحمر مطلا (مطلى) وسرج و... وثلاثة آلاف نصف فضة ثمن سمس قبضها يوم تاريخه وأطمار بدنه وأخذوا من بهاييم الناحية ستين جاموسة وثلاثين ثورا وخمسة عشر بقرة وراسين خيل وجمليين ومائة وثلاثين راس من الغنم - وسألوا (أى المدعين) فى الكشف على المقتولين والمجاريح وسماع كلام أهالى النواحي المجاورة لهم فأجيبوا الى سؤالهم وندب معهم من عدول المحكمة وخدامها من يعتمد عليه فى

للجوربجية خيولهم الخاصة بهم والتي يركبونها أمام قواتهم المشاة - كما كانوا يرتدون جبة من الجوخ الأحمر ذات اكمام طويلة وفوقها شالوار (شال) أحمر ويتعلون اخفاقا صفراء ويعتمرون بعمامة مطرزة الأطراف يطلق عليها (جوربجي كجة سي) وتعلق عليها حزمة من الريش . وكان ضباط الجوربجية مسؤولون عن كل اعمال بلوكاتهم - بما فى ذلك صلاحية تأديب الجنود الذين تحت ادارتهم الا فى حالات الجرائم العظمى فإن اغا الإنكشارية (قائد الإنكشارية) كان هو الذي يتولى ذلك - وليست هناك اية علاقة بين لقب جوربجي وبين اعداد (الشوربا) كما يظن البعض - وقد تم تغيير هذه التسمية آل (اورطة اغاسي) قبيل الغاء السلطان محمود الثاني (1808 - 1839) لأوجاقات الإنكشارية فى اعقاب تدميرهم فى (الواقعة الخيرية) (Vakayi Hayriye) عند (آت ميداني) فى 15 يونيو 1826 .

اما (المتسلم) فهو مصطلح اداري يطلق على الموظفين الإداريين الذين يتولون ادارة الأفضية والقصبات التي تكون فى عهدة الوالى أو (المختصر) قبل عصر التنظيمات (1839 - 1876) - معناه لغويا (متسلم الشيء) و (قابله) - وحتى عهد السلطان محمود الثاني (1808 - 1839) وبعد تأسيس نظام المركزية كان اذا ما خرج احد الوزراء أو أمير الأمراء أو احد أصحاب المناصب الكبرى الى الحرب - فإن المتسلم يدير امور منصبه نيابة عنه وحتى عودته - وكان هذا المتسلم يجمع لهؤلاء الكبراء عوائدهم ويبحث بها اليهم حيث كانوا كما كان المتسلم فى بعض المناطق التي تثار على حكامها يقدم مبلغا مقطوعا عن الإقطاعية التي يديرها .

وقد كان بعض الولاة او الوزراء يستنون ادارة المناطق التي تحت ادارتهم الى المتسلم اذا ما قل دخلها ... وقد بدأ هذا النظام بعد سنة 1000 هـ = 1591 م واستمر حتى (عصر التنظيمات) .

راجع :

— Mehmet Zeki Pakalin «Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri Sözlüğü» Istanbul. 1971.

ذلك وتوجهوا صحبة الامير ابراهيم المذكور وصحبته الامير مراد الاسمر طايفة جراكسه (٠٠٠) بالاقليم حالا والامير حسن من طايفة متفرقة المعينين في خصوص ذلك من طرف قدوة الامراء الكرام عمدة الكبرا الفخام الامير محمد أغا حاكم الولاية حالا والعسكر المنصور المحافظين بالولاية - وكشف على الامير مراد المذكور ٠٠٠٠٠ وكشف على العارف بالله الشيخ سلمان ٠٠٠٠ وكشف على حسن بن علي الديب ٠٠٠٠ وحضر الشهود كل من مشايخ ٠٠٠٠ فخر الاشراف ٠٠٠ ورفيقه المحترم ٠٠٠٠٠ ومن مشايخ ٠٠٠٠ العمدة الحاج ٠٠٠٠ ورفيقه ٠٠٠٠ ومن مشايخ ٠٠٠٠ ورفيقه ٠٠٠٠٠ ومن مشايخ ٠٠٠٠ ورفيقه ٠٠٠٠٠ ومن ٠٠٠٠ وذكروا الجميع لشهوده انهم عاينوا اهالى أجا المذكورة في يوم الخميس المذكور حضروا هم وقايم مقامهم الامير المذكور لحش زرع اهالى المنية (منية سمند) المذكورة فحضر لهم الامير مراد والحاج سلمان المذكورين وجماعة من اهالى الناحية لمنهم بالمعروف عن حش الزرع من غيظانهم فاقعوا بهم الضرب والقتل فقتلوا الامير مراد والشيخ سليمان المذكورين وجرحوا الرجلين المكشوف عليهما - عرفوا بذلك كذلك هذا ما دل عليه كلام أهالى النواحي المذكورة ٠٠٠٠ وعاد الموجهون لذلك وعرفوا مولانا الافندى المومى اليه اعلام بذلك كذلك تعريفا مرضيا كافيا في مثل ذلك شرعا فعند ذلك حضر الامير ابراهيم المذكور وطلب من مولانا افندى المومى اليه كتابة صورة ذلك فأجابته الى طلبه وكتب ذلك ضبطا للمقال ناطقا بصورة الحال عند الطلب والسؤال ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وليعرض على من له ولاية الامر في ذلك ليرى على كل أمر مقتضاء وعلى ما جرى وقع التحرير في عشرين ذى القعدة الحرام من شهور سنة سبع عشرة ومائة وألف» (25) .

لقد قاد (الامير يوسف) قايم مقام ناحية أجا رجال ناحيته في هجوم على ناحية منية سمند لينهبوا مواشيها ويتلفوا زرعها - فلما تصدى لهم تابع ملتزم الناحية (الامير مراد) وشيخها وفتيها (الشيخ سليمان) قتلوهما وجرحوا آخرين واستولوا على الماشية والاغنام والجمال والخيول .

يعنينا هنا تحليل دور القضاء في «الحفاظ على استقرار المجتمع وحسن سير مؤسساته ومنظماته» - بحسبان أن هذه هي وظيفته في كل مجتمع . ان كل ما قام به القضاء في نزاع انتهى الى قتل عثمانيين وعامة وسرقة ونهب ممتلكات هو كتابة الواقعة على لسان المدعين «ضبطا للواقع ليراجع عند مسيس الاحتياج اليه وليعرض على من له ولاية الامر في ذلك أو كتابة الواقعة «ضبطا للمقال ناطقا بصورة الحال عند الطلب والسؤال ليراجع عند مسيس الاحتياج وليعرض على من له ولاية الامر في ذلك ليرى على كل أمر مقتضاء» ٠٠٠٠٠ ماذا اذن عن دم المقتولين الذى أهدر ٠٠٠٠ ومال الاهالى الذى اغتصب - ان الوثيقتين تنطقان دون تعقيب - بنتيجة مؤداها ان مصر قد سادها خلال الفترة موضوع

الدراسة نوع من القضاء الخاص مؤداه أن القوة وحدها تنشئ الحق وتحميه (26) – فقد تخلى القضاء الشرعى عن مهمته تماما واكتفى لنفسه بالكتابة فقط (ضبطا للواقعة) وهى وظيفة الشرطة فى وقتنا الحالى .

وقد عالج بعض من تصدوا للاوضاع الاجتماعية فى مصر – هذا الاحجام القضائى عن طريق رده الى (تفسير قانونية) انتهوا فيها الى ان المحاكم الشرعية فى مصر العثمانية كان لها دور فى الجرائم (حدودا وقصاصا) بحيث تنطق بالعقوبة وتحددها – وانها فى جرائم (التعزير) كانت تكتفى بتحقيق الجريمة وضبط الواقعة ، فاذا اثبتت الادانة قررت مبدأ التعزير وأحالت الامر الى من بيده ولاية الامر من رجال التنفيذ لتحديد مقدار التعزير ونوعه ثم استيفاءه (27) .

ونحن فى مجال تحليل الوثيقتين السابقتين لا نرى شيئا من ذلك – وانما نرى ان تفسير هذا الامر يرجع الى قضيتين – أولاها هى المكانة الاجتماعية للمدعى عليه ودخلها فى توقيع أى نوع من العقاب عليه – بمعنى ان أهل الطبقة الحاكمة كانوا محصنين ضد العقاب خلافا لما تقتضى به المصادر الشرعية الاصلية فى الكتاب والسنة – وتغلبا لعوامل السياسة على عوامل الشرع فى الدولة العثمانية وولاياتها (28) .

أما القضية الثانية فهى قضية صراع القوى الذى ساد مصر منذ ستينيات القرن السابع عشر وحتى ثلاثينيات القرن الثامن عشر – فالمعروف ان الفقارية والقاسمية قد تم القضاء عليهما بين عامى 1660 – 1662 م – ولقد انتج سقوط هاتين القوتين حدوث فراغ سياسى ظهرت بحدوثه قوى سياسية جديدة ملته – وكانت هذه القوى السياسية الجديدة هى الزعامات العسكرية الالوجاقية (كوجك محمد – افرنج أحمد) والبيوتات العسكرية التى تشكلت من عسكريين تجمعت حولهم طائفة من الاتباع عرفت باسمهم (البلقية – القازدغلية) ثم ما لبثت هذه القوى ان دخلت فى تحالف مع طائفتى الفقارية والقاسمية اللتين عادتا الى الظهور فى أواخر القرن السابع عشر .

على هذه الصورة جاءت سبعينيات القرن وقد اندمجت فى كفتى الصراع الفقارى – القاسمى طوائف عديدة (ماليك – طوائف عسكرية – عربان . . الخ) – وحاولت هذه القوى ان تملأ الفراغ السياسى الحادث فى البلاد – ودخلت فى امتحان كانت نتيجته ثورة العساكر فى 1675 – 1676 م ، وعزلهم للوالى أحمد باشا الدفتر دار – وتعيينهم لقائمقام بدلا منه – وقتلهم لموظفى الولاية – وفرضهم ارادتهم على السلطان لتعيين وال آخر .

(26) د. محمد نور فرحات « مرجع سبق ذكره » ص 422 .

(27) راجع د. محمد نور فرحات « مرجع سبق ذكره » ص 478 .

(28) د. محمد نور فرحات « مرجع سبق ذكره » ص 487 – 488 .

وكانت المرحلة التالية للفوضى السياسية في مصر هي انقسام الاوجاقات العسكرية على نفسها نتيجة ظهور الشخصيات العسكرية المغامرة التي تريد السيطرة - وانضمام الوالى والصناجق والفقارية والقاسمية الى حلبة الصراع ودخول مصر مرحلة جديدة من مراحل التطور السياسى والادارى بان أثره على الاحوال الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد .

فى ذلك الوقت كانت مصر تعاني ازمة اقتصادية مردها تلاعب الملتزمين بالاموال الاميرية - وانقضاى وباء الطاعون على البلاد وزاد هذا كله العداء بين طبقات المجتمع .

وخلال العقد الاول من القرن الثامن عشر تأزمت العلاقات بين طائفة المستحقظان (الانكشارية) وباقي الطوائف العسكرية الاخرى (الجوكليان - التفنكجيان - الجراكسة - العزبان - الجاوشان - المتفرقة) - كذلك قام النزاع بين (طائفة العزبان) وباقي الطوائف العسكرية بزعامة الانكشارية .

وظلت الصراعات الطوائفية تتوالى بين الانكشارية من ناحية - والسباهية (الجوكليان - التفنكجيان - الجراكسة) (29) من ناحية اخرى - وتوترت العلاقات فى نهاية العقد الاول من القرن بين الانكشارية وطائفة (الجاوشان) وانضم اليهم السكان المحليون - واصبحت الامور بيد القوى المتنفذة وليس الوالى - كذلك فان قاضى القضاة كان عاجزا عن مباشرة واجباته القضائية .

وفى عام 1710 م تحالف الدفتر دار (ايوب بك) الفقارى مع طائفة الجراكسة والتفنكجيان والجوكليان ضد طائفة (العزبان) الذين انضم اليهم القاسمية - وانضم بدو (الهوارة) و (الحبابية) كل الى فريق .

وهكذا أقبل عام 1711 والبلاد منقسمة الى قوتين :

- الانكشارية والدفتر دار ايوب بك الفقارى وحاكم جرجا بقواته الضخمة والفقارية وبدو الهوارة وبدو الحبابية وأغوات اوجاقات (الجراكسة) و(التفنكجيان) و(الجوكليان) و(المتفرقة) و(الجاوشان) والوالى وقاضى القضاة ونقيب الاشراف .

- اوجاق العزبان والقاسمية - وافراد اوجاقات (الجراكسة) و(التفنكجيان) و(الجوكليان) ، وبدو السلالة والهنادى فى البحيرة وعلماء الازهر .

(29) السباهية تعني الفرسان - وكانت هذه الأوجاقات الثلاثة من راكبي الخيول ومن واجباتهم حفظ الأمن والمساعدة في تحصيل الضرائب في الأقاليم .

وعزل أوجاق العزبان (الوالى) وعين قائمقام بدلا عنه - بينما ظل (الوالى) يحكم فى ظل مؤيديه ، وازدوجت السلطة فى البلاد .

وفى يونيو 1711 دارت المعارك بين الفريقين فيما أسمى (بسنة الفتنة) أو (الواقعة الكبيرة) أو (الحرب الاهلية لعام 1711 م) - وقد انتهت بانتصار فريق العزبان والقاسمية على فريق (الانكشارية والفقارية) (30) .

هذه صورة لما كان عليه حال البلاد خلال الفترة الواقعة فيها الحادثة موضوع الوثيقتين - وهى صورة تكشف بجلاء كيف ان الامر لم يعد قضية تفاسير قانونية أو تأصيلات فقهية - وانما كان الامر هو قضية الانهيار السياسى والقانونى للنظام الحاكم الى درجة لم يعد يوجد معها قضاء أو يعرف فيها من سيؤول اليه الامر ولعل كاتب الوثيقة كان يشير الى ذلك عندما قال «وليعرض على من له ولاية الامر فى ذلك» - فالقاضي هنا لا يعرف من له ولاية الامر فى البلاد فى ذلك الوقت - أهم جماعة (الامير يوسف) قائمقام أجا والتي يعود التزامها الى (أحمد كتحذا عزبان : نائب قائد أوجاق العزبان) - أم لجماعة (الامير ابراهيم جوربجي جراكسة التابع لأوجاق الجراكسة) وبين الجراكسة والعزبان ضاعمت الحقوق وأهدرت الدماء .

2 - السلطات الوسيطة :

قلنا فى مقدمة هذه الدراسة أن رجال الدين والعلماء والمشايخ كانوا يشكلون من المنظور الطبقي فى المجتمع المصرى «شريحة من المصريين استطاعت فى ظل ظروفها الوظيفية ان تجد لها مكانا يتوسط الطبقة الحاكمة وطبقة المحكومين - بمعنى انهم فى مجال التقسيم الطبقي لا ينتمون الى الطبقة الحاكمة - وفى نفس الوقت فانهم بحكم مكانتهم فى مجتمع يوقر الدين والقائمين عليه ، كانوا أعلى مقاما من طبقة المحكومين .

كان رجال الدين والعلماء والمشايخ - بكلمات أخرى - أقرب شرائح طبقة المحكومين الى الحاكم بحكم حاجة الطبقة الحاكمة اليهم فى قضايا كثيرة - أقربها «اضفاء الشرعية» على قراراتهم وسياستهم .

من هذا المنطلق فإن أقرب وصف يمكن ان توصف به هذه الشريحة فى المجتمع المصرى هو انها فى مجال السلطة كانت تسمى «السلطة الوسيطة» - والسلطات الوسيطة هى تلك الهيئات او التنظيمات المدنية التى كانت ترتبط

(30) حول هذه الأحداث فى الفترة ما بين 1660 م - 1711 م انظر « احمد شلبي عبد الغني » (اوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات) تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ص 156 - 201 - سيذكر فيما بعد تحت عنوان (اوضح الإشارات) وعبد الكريم رافق « مرجع سبق ذكره » ص 280 - 293 .

بالحاكم الشرعى والحكام عامة من ناحية - وتقود فى ذات الوقت الاهالى من خلال انتماءات طائفية او حرفية محددة (31) .

فهل كان رجال الدين والعلماء والمشايخ يمثلون بحكم مكانهم فى المجتمع المصرى (سلطة وسيطة) تنقل للحاكم آلام المحكومين وآمالهم ، وتقف فى وجه الحاكم عندما يشتت أو يستبد .

لقد كان رجال الدين فى مصر فى الفترة موضوع الدراسة يرتبطون بالحاكم (معاشيا) - بسعى ان الحاكم كان هو الذى يملك تعيينهم وعزلهم - وبالتالى فهو الممسك بارزاقهم . (فالاوقاف) التى كانت تتشكل مما يحبسها (أهل الخير) من اموالهم وممتلكاتهم على أوجه البر تقربا الى خالقهم - كانت تخضع فى تنظيمها والاشراف عليها لسلطة الدولة - لذلك فان توزيعها وتوزيع اعطياتها على الذين يقومون بمهام الخطابة والامامة والاذان والقراءة والقراءة والوعظ والتدريس وتأديب الاطفال والنظر على الاوقاف - كل هذا كان بيد الحاكم - أعنى السلطة القضائية العليا (وهى عثمانية بطبيعة الحال) - ولما كانت مصادر ارتزاق هذه الشريحة من الناس تعتمد على هذه «الجبوس» - فان يد الحاكم عليهم كانت هى العليا - وهو الممسك بارزاقهم (32) .

لذلك فان (رجال الدين والعلماء) - من هذا المنطلق - لم يستطيعوا ان يشكّلوا (سلطة وسيطة) تحمى الاهالى من عنت الحكام - كما انهم لم يلعبوا أى دور فى قيادة الاهالى عندما كان الضيق يفيض بهم فى مواجهة الحاكم - واقتصر دورهم على تسوية الحكام واصدار الفتاوى التى تجيز لهم فرض هيمنتهم بشكل أقوى (33) - تأسيسا على تبعية لقمة عيشهم للنظام الحاكم .

«قرر مولانا قائم مقام - الشيخ محمد زين العابدين ٠٠٠ فى السكن والانتفاع بالبيت والرواق والخلوة الكائن بوقف خوندام السلطان الاشرف شعبان ٠٠٠٠٠ سنة خمسة عشر وخمسين وألف» (1645 م) (34) .

«قرر مولانا قائم مقام الشيخ عابدين ابن الشيخ عثمان القرافى فى الربع من وظيفة شهادة المرات ومن وظيفة التسبيح ومن المصحف بوقف الجامع الازهر المعمور وفى خدمة المزملة تجاه رواق المغاربة بالجامع الازهر ورغيفين من الخبز السلطاني كل يوم بالجامع الازهر ٠٠٠ محرز فى خامس محرم سنة سنة وخمسين والف (35) .

(31) انظر : «د. خالد زيادة» (السلطة المدنية من خلال وثائق المحكمة الشرعية) - ابحاث المؤتمر العالمى الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية حول الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها فى العهد العثماني - تونس 20 - 28 يناير 1984 ص 8 .

(32) المرجع السابق ص 7 .

(33) المصدر نفسه ص 8 .

(34) سجل محكمة الباب العالي 123 وثيقة 1 ص 1 عام 1055 هـ .

(35) سجل محكمة الباب العالي 123 وثيقة 6 ص 2 عام 1056 هـ .

«قرر الشيخ ابراهيم الشافعي في الامامة والاذان وربيع كناسة مطهرة بوقف البرمسية ٠٠٠٠ في سابع محرم سنة ستة وخمسين وألف» (36) .

ويكشف اسلوب المكاتبات الصادرة عن العلماء الى موظفي الولاية من اهل الطبقة الحاكمة استحالة ان يكون هؤلاء المشايخ في وضع يؤهلهم للقيام بدورهم كسلطة وسيطة .

فهذا كبير علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الشيخ عبد الله الشرقاوى (رئيس الديوان في عهد الحملة الفرنسية عام 1798 م) يكتب الى احد موظفي الروزنامة طالبا رصد (جراية) فيقول :

«لحضرة أعز الاشراف وسلالة بنى عبد مناف الفخام قدوة أرباب الاقلام عمدة أصحاب الارقام ولدنا السيد سليمان افندى حفظه الله .

أما بعد الدعاء لكم بخير فان الواصل لكم عرض حال جريان وقف عبد الرحمن كتحدا معين به ثمانية وستون جرايه وثلثاى برسم الجامع الازهر المعمور الانور اثنان وستون وثلثاى - ومنها برسم الرباط ستة جرايات ، فالتقصده منكم ارسادها عن سنة 1216 كما هو العادة والقانون ولم تقصروا في ذلك ولكم الدعوات الصالحة والسلام ختام - الفقير عبد الله الشرقاوى خدام العلم والفقرا بالازهر» (37) .

وهؤلاء ثلاثة مشايخ من علماء الازهر يشتغلون بنشر العلوم والتدريس بالازهر ويطلبون زيادة رواتبهم لفقر الحال وكثرة العيال :

«دولتو عنايتلو مرحمتلو حضر تلى صاغ اولسون

عرضحال داعيلر يدركه جامع الازهر ده تحصيل ونشر علومه اشتغالندن غيرى صنعتمز اولمبوب بوآنه كلنجيه دكين اميد مروت مأمولمز اولوركمنسنة مظنونمز اولمديغنده بناء كمنسنة افادة حال ايلملدك الآن سز افنديمرك عاميه تقسيم اولنان الطاف عليه لريكرز بومخلصلريكرزه تحريك زمانه بادي اولمشدر فقير الحال وكثير العيال اولديغمز حالمزى افاده يه باعث طبع جود بيرسود كز در سؤال بوير لقدمه اكر حالمز افاده كبي سنه مروتكرزه حواله اولندى كرك جمكيه دن كرك محل آخر دن اولاد وعياله مدار معاش اولجق قدر احسان بابنده أمر وفرمان دولتو عنايتلو حميتلو افندم سلطانم حضرتلر ينكدر

بنده

بنده

بنده

شيخ سيد على سيد محمد البسطى الحنفى سيد أحمد طنطاوى الحنفى، (38) .

(36) سجل محكمة الباب العالي 123 وثيقة 31 عام 1056 .

(37) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة رقم 75 .

(38) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة (9 محرم 1217 الى 15 محرم 1217) .

وقد يقال أن الحاجة كانت هي دافع امثال هؤلاء المشايخ الى طلب المال من الحاكم للانفاق على عيالهم وبيوتهم - لكن الثابت ان الآخرين من الاثرياء كانوا لا يتوقفون عن الطلب - فثراء (السادة الوفائية) اصحاب ثاني سجادة من السجاجيد الصوفية في مصر بعد السادة البكرية - لا يحتاج الى تدليل - وقد قدرت ثروة الشيخ محمد ابو الوفا السادات خلال القرن الثامن عشر بملايين البارات (39) ، ومع ذلك فان الوثائق تكشف لنا انه كان يتعاطى (الانزمام) المربح - ويطلب من الحاكم المزيد .

(39) كان السادة البكرية والسادة الوفائية زعيما أكبر تجمعين صوفيين في مصر في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر وبدايات القرن العشرين - وكان كل رئيس فرقة صوفية (طريقة) يسمى (شيخ السجادة) - وكان في مصر في القرن الثامن عشر أربعة سجاجيد كبرى - الى جانب الطرق (الأحمدية والبرهانية والشاذلية وهي :

أ - السادة البكرية - وتنسب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ب - السادة الوفائية - وتنسب الى علي بن ابي طالب .

ج - السادة العميرية وتنسب الى عمر بن الخطاب .

د - السادة الخضرية وتنسب الى الزبير بن العوام .

وقد تمتع ارباب السجاجيد بمراكز عالية واحترام كبير بالنظر لأنسابهم ، وكان السلاطين العثمانيون يرتبون لهم ترتيبا عظيما - وكانوا يتولون التزام الأراضي الزراعية الذي كان سائدا في العصر العثماني - المملوكي كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان العالي بحكم مراكزهم الدينية ، وكان الباشا (والي) يخلع عليهم (الفراوي السور) عند طلوعهم الى القلعة في اوائل كل شهر للتهنئة .

وقد تنازع بيت (السادات الوفائية) مع (البيت البكري) على منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية في اواخر الفرق الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وتزعم هذه المنازعات في القرن التاسع عشر 1813 م/ 1228 هـ (الشيخ محمد ابي الأنوار السادات) ، الذي تزعم الطرق الصوفية في ذلك الوقت - على أن الأمر لم يلبث ان عاد الى ما كان عليه - وعادت الزعامة الى (السادة البكرية) .

وقد كان لمشايخ الطرق الصوفية (البكرية والساداتية على وجه الخصوص) دور في الإصلاح بين الطوائف المتنافسة المتصارعة خلال أحداث القرن الثامن عشر في مصر - وبرز دور الشيخ (أبو الأنوار السادات) في النزاع بين (ابراهيم بك ومراد بك) زعيما مصر (1775 - 1798) وشاركه في ذلك الشيخ محمد البكري الصديقي شيخ السجادة البكرية والشيخ (احمد الدردير) .

ولقد كانت الأحوال المالية لمشايخ السجاجيد الصوفية في مصر ترفعهم الى مصاف اعيان البلاد وسراتها وتقف بهم على قدم المساواة مع اغني امراء الممالك او الحكام - فقد كان الشيخ السادات ينتظر في اواخر القرن الثامن عشر على 52 وقفا - والبكري على 44 - والمهدي 11 - والأمير 11 .

وكان (السادات) يتقاضى من الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين 635 و 148 (مائة وثمانية واربعون ألف وستمائة وخمسة وثلاثون) بارة - كما كان يتقاضى راتبا من الخزانة المصرية قدره 1020 عثمانية يوميا (العثمانية راتب يمنح كجراية او علوفة) - و 120 جراية قمح سنوية (الجراية الواحدة 120 اردب) - كما كان يحصل على نصيب من ضريبة الجوالي (الضريبة التي كانت تفرض على اهل الدمة في مصر) .

وقد اشتغل (السادات) بتجارة المقارنات - فكان يشتري البيوت ويجري عليها اصلاحات وترميمات ويبيعها - وامتلك أسطولا نهريا لنقل البضائع والركاب في النيل من الجيزة الى جزيرة الذهب ومصر القديمة وبولاق - واحتكر هذا النشاط التزاما (مقاطعة) .

راجع الدكتور : عبد الله محمد عزباوي « الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن

عشر » رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لجامعة عين شمس 1976 .

«نسألك اللهم نصرا وتأييدا وعزا باقيا ورفعة ومجدا حميدا لحضرة الوزير المعظم الدستور المفخم مشيد أركان لدولة العثمانية ممهد القوانين الخاقانية مولانا ٠٠٠ محافظ مصر المعزية حفظ الله تعالى اولاده وبلغه من الخير ما شا مع التوفيق لتنظيم امور الموحدين والقيام براحة أمة نبينا سيدنا محمد فخر العالمين عليه الصلاة والسلام والد السادات الكرم هذا ومما يعرض على المراحم الوفية المتواصلة المرضية ان من المتعلق بالمحب الداعي ببلوغ المرام كما هو معلوم لجنابكم قرية سملوط وما معها وقد اخذ مالها وخراجها العسكر خمس سنوات ولم يصلنا من خراجها شيء وعرفناكم بذلك مرات وأوعدتونا بالتعويض ووعدكم صدق فان وعد الملوك لا خلف فيه والمرجو من الشيم الجميلة فرمان لحضرة دفتر دار افندى وروزنمجي افندى بحساب خراج القرية المذكور وخصم ميرها (أى خصم الضرائب الحكومية المسماة بالميرى) والباقي من فايظها يثمن ويعطى لنا به وديعة حكم العادة حتى يفتح الله تعالى بفيضه وينعم على عباده بالفرج العميم ويصل كل ذى حقه بهمتكم العلية وخلوصكم ودام اجلالكم ، الفقير محمد السادات» (40) .

وتوضح هذه الوثيقة أن العلماء والمشايخ ورؤساء الطرق الصوفية كانوا قد اصبحوا فى عداد طبقة الملتزمين المتميزة . كما تكشف ايضا عن قضية علاقة هؤلاء المشايخ بالطبقة الحاكمة - فرغم وضعهم الطبقي المتميز بالمقارنة بالرعية من بين وطنهم - وارتباطهم بطبقة الحاكم - الا أن هذا لم يكن يمنع الحيف عنهم عندما ينقض عليهم رجال الطبقة الحاكمة ويستولون على ارزاقهم - فالوثيقة تكشف لنا عن استيلاء العسكر (يقصد الاوجاقات العسكرية التى كان رجالها يتمتعون بالتزامات دسمة فى النظام المالى لمصر العثمانية) على ايرادات التزام الشيخ فى «سمالوط» - كذلك فانها تبين ان المشايخ كانوا يستطيعون الاتصال بالحاكم وايصال اصواتهم اليه مباشرة - لكنهم مع ذلك لم يستخدموا هذه الميزة لصالح الرعية - بل استخدموها للتكسب والثراء .

«يا مولاي دولتو عنا يتلو مرحمتلو افندم سلطانم حضر تلرى صاغ اولسون حضرة نايب امير المؤمنين مدبر أمور وجمهور الموحدين صدر الاعظم دستور المكرم عزيز الزمان ضيا كل وقت ومكان اطال الله بقاء عرضحال داعيلرى بودرکه محب داعى بالفتح المبين والنصر العزيز دايمابزه اولداغى نهى وسجن وعظيم حقارت كفردن عليهم اللعنة وأعاونهم ودمرهم جميعا كمسيه أولممش شرقا وغربابزه اولان برتاريخ اولشدر اوقونور مادام الزمان فالحمد لله ثم الحمد لله .

(40) دار الوثائق القومية - محفظة 96 ديوان الروزنامة - وعن السادة الوفاية (الساداتية) وثروتهم - راجع د. عبد الله محمد عزباوي « الحركة العسكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر » - ومذكورة فى كتابنا « الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر » ملحق (1) .

جناب على حضور رنده فتح الله بالمواهب وجاءنا النصر والمآرب نعمتم عودى وزيادة انعام واكرام اولدى حضر تلىينه حمدنا وشكر دايمابارى تعالى سزه عمر طويل مع بلوغ المرام الجزيل سلطانم بو أيامده بزم تعيينات ووظائف ثلثنى سعياميره كشتك وباقيسى محلولدن بوقريدن يكرمي قيراط عوضا عن الثلثين الدك وكسور قلان حلوان التى بنك غروش رجا ونيازغفو وانعام قاعدت اوزره ملوك آل عثمان ادام الله ملكهم على توالى الزمان اكرام وانعام اباء واجدادم بندن اسبق سنين عديدة متصلدر ومأمولم محلولدن بوقرية كامل انعام اثر جميل وذكر جليل دنياه شايح اولسون اولادنه خاطر مكسوز اولد غنده مجبور ومسور اوله باقى دعا امر وفرمان .

دولتو عنا يتاو مرحمتلو افندم سلطانم حضرتلر ينكدر المخلص فى دعايه ختم محمد وفا السادات حسبه الله وكفى السيد محمد وفا» (41) .

واذا كان السادة الوفاية قد استخدموا وضعهم المتميز المتصل بالطبقة الحاكمة للانراء - فان (السادة البكرية) نسل «الخليفة ابو بكر الصديق» نعموا بالاستحقاقات فى الاوقاف المحبوسة للخير - التى كان يصيبهم منها قدر كبير بحكم ما اعتاده سلاطين آل عثمان من رعاية رجال الدين والعلماء والمشايخ - وتوفير وسائل العيش الرغيد لهم .

والوثيقة التى بين ايدينا تتحدث عن ابقاء وتمكين الشيخ (ابو السرور البكرى الصديقى) شيخ السادة البكرية فى (مباشرة) (وقراءة) (ونصف) (جهر كرس الخليل ابقا له فى ذلك على عادته ومستمر قاعدته حملا على ما بيده من الابقى والتقرير فى ذلك المرتب على ورود اسمه بالمحاسبات التى منها محاسبة شيخ الاسلام نوح افندى قاضى مصر المحروسة كان المؤرخ فى صفر سنة خمس وعشرين والف (1616م) وعملا بالابقا المؤرخ فى سادس ربيع الثانى سنة اربعة واربعين والف (1634م) ومنع من يعارضه فى ذلك وابطال كلما يخالف ذلك وأكد العمل بذلك والفى مايعارض ذلك لفضل المقر واستحقاقه لما لذلك من المعالوم المعين بالاستيثار تقريراً وابقا وتاكيدا شرعيا تحريرا فى صفر سنة ست وخمسين والف» (42) .

(41) دار الوثائق القومية - محفظة 27 ديوان الرورفة - ملف 132 - وفي هذه الوثيقة يذكر الشيخ محمد أبو الوفا السادات شيخ السادة الوفاية انه تعرض للأذى من جانب الحملة الفرنسية على مصر 1798 - 1801 ، ويلعنهم هم وأعوانهم ، ويحمد الله على نعمه عودة البلاد الى حظيرة الدولة العثمانية ويطلب الإنعام عليه بعشرين قيراط من اصل اربعة وعشرين قيراطا فى إحدى قرى المحلول - كتاعدة آل عثمان فى الإنعام على ابناءه واجدادهم الخ - وتاريخ الوثيقة عام 1216 هـ = 1801 م وهو نفس عام خروج الفرنسيين من مصر .

(42) سجل محكمة الباب العالي رقم 123 وثيقة 176 ص 31 - 1056/2/8 هـ .

ولو أننا تركنا قضية الاثراء الذي كان العلماء والمشايخ يحرسون عليه جانبا - وتطرقنا الى قضية مساهمتهم فى الحياة العامة - فاننا نستطيع ان نقول أنهم كانوا يتولون (الدعاء) فى المناسبات العامة التى يؤمها الولاى العثمانى (43)، ويحضرون جلسات (الديوان العالى) (والجمعيات) التى يجرى تعريف أمور الولاية فيها .

غير ان لنا على قضية مشاركة العلماء والمشايخ فى هذه المؤتمرات ملاحظة - مفادها ان حضورهم الى هذه الجلسات لم يكن ذا أثر حاسم فى اتخاذ القرار - صحيح أنه لم تكن تعقد جلسة بديوان الولاى - أو (جمعية) من تلك (الجمعيات) التى كانت تعقد فى بيت كبار الصناجق والمتنفذين (كأمير الحاج) و (الدفتردار) - الا وكان مشايخ الازهر ومشايخ السجاداتين (البكرية) و(الساداتية) ونقيب الاشراف يحضرونها - لكن دور المشايخ هنا كان لا يتجاوز (الختم) على (عرض) أجمع الحضور على ارساله للوالى أو السلطان - أو اجراء الصلح بين (الباشا الولاى) والمتنفذين من اصحاب السلطة الذين تزخر بحوادثهم تواريخ القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ورغم ذكر (احمد شلبى) لهم كثيرا فى مجال وصفه لاحداث الفترة التى أرخ لها . الا أن دورهم فى كل هذه (الجلسات) لم يكن يتجاوز ما سبق أن ذكرت .

«نزل امير الحاج وابن ابى شنب (حاكم جرجا عام 1721) والمرسل الى بيت امير الحاج ، فعملوا الجمعية فى بيت امير الحاج ، وجاء الشيخ محمد شتن (شيخ الجامع الازهر) والشيخ أحمد البكرى (شيخ السجادة البكرية) ، وسيدى عبد الخالق السادات (شيخ السجادة الوفائية) ، ونقيب الاشراف ، والقاضى صلاح الدين ، وضموا المشايخ الباشا لمحمد بيك جركس ، ولاحمد بيك الاعسر ، وان كل قايم مقام من طرف الباشا يكونوا هم القاعدون به . واخذوهم وطلعوهم بهم الى الوزير . فلما دخلوا على الوزير . فلما دخلوا على الوزير ، قام لهم وأجلهم وأكرمهم ، واصلح المشايخ بينهم وبين الباشا ... الخ (44) .

كما أن (المشايخ) كانوا ينضمون خلال الازمات الى القوة المتغلبة أيا كانت - فيصدرون الفتوى التى يريدونها هؤلاء - لصالحهم . وحسبنا احداث الحرب الاهلية أو (الواقعة الكبيرة) التى حدثت خلال عام 1711 م فى القاهرة بين القوى المتصارعة على السلطة فى مصر - ففىها أفتى العلماء بعزل (الباشا) العثمانى الذى كان قد ضعف موقفه كثيرا - وأفتوا بتعيين نائب عنه دون ما اعتبار للسلطة التى يمثلها (الباشا) كنائب للسلطان . لكن الشيء الذى

(43) « أوضح الاشارات » ص 138 .

(44) أوضح الاشارات ص 312 .

وضغوه في اعتبارهم هو أن السلطة في ذلك الوقت كانت بيد الفريق الذي انحازوا اليه .

«فلما طال الامر على العسكر ، والصناجق القاسمية ومن والاهم من الفقارية ٠٠٠ اجتمعوا في جامع يشبك ٠٠٠٠ (وقرروا) أن يولوا من طرفهم قايم مقام ، ويعزلوا الباشا ، ووافقهم جماعة من العلماء ، وافتوهم بعزل الباشا ٠٠٠٠» (45) .

ومع ذلك فان فتاواهم كانت تصيبهم بالاذى في بعض الاحيان - عندما كانت لا تصادف هوى طرف من الاطراف - فخلال معارك عام 1710 أفتى بعض العلماء بفتوى لصالح (افرنج احمد) أحد المغامرين العسكريين الذي أثار أزمة في البلاد انتهت الى الحرب الاهلية عام 1711 - وكانت هذه الفتوى ضد مصالح اوجاق الانكشارية - فلما توجه اليهم أحد العلماء (الشيخ أحمد الخليفى) من أجل التصالح اهانه كبار الضباط وعاد مقهورا محسورا .

«وأما ما كان من أمر الينجشورية (الانكشارية) ، فان الشيخ أحمد الخليفى توجه اليهم ، وتكلم مع أحمد أوضباشا في أمر الصلح ، فقام عليه أحمد اوضباشا قومة عظيمة ، واسمعه كلاما لا يليق ٠٠٠ ، وما راعى مقامه وأهانه» (46) .

ولم يكن الامر يقتصر على حد الاهانة في حالة تعارض الفتاوى مع مصالح فئة ما - بل ان هذه الفئة كانت تحرم المشايخ من الافتاء ومباشرة مهام وظائفهم (47) .

ومع أن رجال الطبقة الحاكمة كانوا يصاهرون المشايخ وكبار رجال الدين - الا ان هذا لم يكن يمنع من تعرض هذه الزيجات للدمار خلال المعارك الدامية التي كانت تجرى بين افراد الطبقة الحاكمة - ويروح الازواج دون مراعاة لاعتبار من اصهر اليه عضو الطبقة الحاكمة .

فقد تزوج كيل على كتخدا - وهو أحد كبار ضباط الاوجاقات عام 1723 م من ابنة الشيخ احمد البكرى الصديقى - وأجرى العقد شيخ الاسلام - وقاضى العسكر (48) ، لكن دولة (كيل على) دالت عام 1727 وأعدمه منافسوه - رغم شفاعة نسيبه فيه .

«وفي خامس عشر ربيع أول (31 اكتوبر 1727) طلع كيل على كتخدا مستحفظان فأمر حسين الدهياطى بحبسهما في القلعة فحبس ، ثم أرسل آتى

(45) أوضح الاشارات ص 238 .

(46) أوضح الاشارات ص 234 .

(47) أوضح الاشارات ص 381 .

(48) أوضح الاشارات ص 228 - 329 .

بفرمان من الباشا بقطع عنقه وكان أرمى الجنس وأزوجه سيدي أحمد البكرى الصديقى شيخ السجادة ابنته وحلف من بنت الشيخ مولودا ٠٠٠٠ وتشفع فيه نسيبه سيدي أحمد البكرى عند الباشا وحسين كتحدا ، فلم يقبل شفاعته فيه رحمة الله عليه» (49) .

كان هذا هو حال المشايخ والعلماء رجال الدين - أرزاقهم بيد الحاكم ، مشاركتهم فى الحياة السياسية سلبية ، فتاواهم تقبل وترفض حسب الاحوال ، شفاعتهم مردودة - ولم يبق لهم فى المجتمع الا بقية من احترام تسبغه الرعية عليهم صدورا عن عقيدة دينية راسخة - وبعض أرزاق قلت أو كثرت يستكثرون منها ليضمنوا لانفسهم معيشة لائقة .

واذا كان هذا هو حجم المشايخ ورجال الدين فى المجتمع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة - فان هناك فئة قريبة منهم فى مجال الحديث عن (السلطة الوسيطة) ، وأعنى بها مشايخ الطوائف والحرف .

لقد تشكلت الحرف فى تنظيمات وأصناف فى المدن الاسلامية منذ فترات سابقة وقديمة - وكانت بحكم تشكل كل منها من جماعة يرأسها (شيخ) يرعى شؤونها ويفض مشاكلها ويسهر على نظامها ومصالحها - تعد من أكثر أنواع التنظيم الاجتماعى دقة وفعالية (50) .

وتأسيسا على ذلك فان علاقات افراد الطائفة الواحدة كانت تدخل فى نطاق اختصاص شيخ الطائفة أو الحرفة - الذى كان باستطاعته أن يفصل فيها فصلا ناجزا معترفا به .

فماذا اذن عن حجم السلطة التى كانت لشيخ الطائفة فى مواجهة السلطة الحاكمة ؟

فيما يتعلق بهذه الجزئية فاننا نقول ان رقابة الحاكم الشرعى على الحرف ومشايخها كانت قائمة من خلال دور النظام الحاكم فى تثبيت المشايخ وعزلهم، بل وتعيين صاحب الحرفة فى حرفته - وتقرير استمراره فيها . وحجم عمله فى تلك الحرفة - بمعنى أن رقابة الحاكم الشرعى وان كانت قد تخففت فيما

(49) أوضح الاشارات ص 513 .

(50) أشار احمد عبد الغنى الى تنظيمات حرفية كثيرة فذكر (شيخ الشحاتين - نقيب الشحاتين شيخ السقاين - شيخ الدالين - شيخ الحمامين - مشايخ الأسواق - البنايين والفعلة - متعاطو الطبابة - المزينين - العياريين (المعايريين) - النجارين القلاطية - الدهانين - الجيارين - الجباسين النبطانية - الكنفانية - العقادين - شيخ الحريرية - شيخ الطباخين - وأشارت الوثيقة 130 ص 23 من سجل محكمة الباب العالي الى شيخ السمسارة - والى الكتاتنية (المشتغلين بالكتان) راجع اوضح الاشارات ص 188 - 225 - 299 - 307 - 309 - 314 - 317 - 357 - 377 - 378 - 379 - 423 - 425 - 426 - 435 - 440 - 447 - 479 - 514 - 540 - 573 - 574 - 584 - 606 - 607 - 608 .

يتعلق بالمشاكل الداخلية للطائفة - فتركت للمشايخ حق التصرف في المنازعات بين افراد الطائفة - الا أن هذه الرقابة لم تغفل عن وضع هذه الطوائف تحت اشرافها المباشر .

«قرر مولانا قائم مقام العمدة محمد وأخاه زين الدين عبد الرحمن ولدا الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ خضر بن محمد - سوية في كامل وظيفة الوزن بالقبان (بالمقفل) الكاين ببولاق القاهرة بخط الاستدارية قريبا من الحمام المجاور لحانوت محمد عجاجة - وفي كامل الوزن بالقبان في الجبن الجاموسى الاوسيه الوارد لبولاق بساحل بولاق - وفي كامل وظيفة الوزن بالقبان في الخيار الشنبر والسنامكى - وفي الثلثان من الوزن بالقبان فيما يحضر من البلح البرلسى والموز بساحل بولاق ٠٠ الخ» (51) وتبعاً لذلك - فان مشايخ الحرف والطوائف كانوا مغلولي اليد في مجال الدفاع عن منتسبى طوائفهم وحرفهم - شأنهم في ذلك شأن رجال الدين والعلماء والمشايخ - ولم يكن لهم حقوق التصدى لغبن يقع على اهل الطائفة - وانما اقتصر دورهم على توصيل أوامر النظام الحاكم وتعليماته نواحيه الى اهل الطائفة أو الحرفة . دون القدرة على محاوره اهل السلطة في صلاحية أو فساد قراراتها - كما أنهم كانوا يتولون جمع الضرائب المقررة على اتباعهم وتسليمها الى من له حق استلامها من اجهزة السلطة .

بهذا انتفت صفة (الوساطة) كسلطة - من اختصاصات زعماء الطوائف الدينية والحرفية - وذابوا - بحكم هيمنة السلطة الحاكمة على مصادر ارزاقهم - فى وعاء السلطة رغماً عنهم - وأصبحوا مجرد أدوات تستخدمها السلطة سياسياً واجتماعياً للسيطرة على الرعية واخماد اصوات الاحتجاج .

وعلى ذلك فان رجال الدين والعلماء والمشايخ - ومشايخ الطوائف والحرف لم ينجحوا فى القيام بدور (السلطة الوسيطة) فى مجتمع مصر العثمانية .

3 - اهل الذمة :

عاش القبط واليهود فى مصر - خلال الفترة موضوع الدراسة - حياتهم العادية ، وقامت علاقاتهم مع الاغلبية المسلمة على أسس متعادلة - اللهم الا فى حالات قليلة تتعلق بوضعهم «كأهل ذمة» خضعوا للشروط التى وضعها على مدى فترات التاريخ كل من (عبد الملك) و(عمر بن العزيز) و(يزيد الثانى) و(هارون الرشيد) والمتوكل (52) .

(51) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 119 ص 21 في 1056/1/12 هـ (1646 م) ووثيقة 231 ص 41 في 1056/2/19 هـ (1646 م) ووثيقة 279 ص 49 في 1056/2/12 هـ (1646 م) .

(52) كانت هناك قيود تتعلق بالزواج - وامتلاك العبيد - والضرائب - والدية - والملابس (حزام الزنار) - والملابس الفاخرة - وركوب الجياد الكريسة - وقاصية الرأس ... الخ - عن اهل الذمة راجع : Encyclopaedia of Islam - Vol. I. Atr. Dhimma

فيما يتعلق بالاعمال التي شغلها اهل الذمة في مصر خلال القرن السابع عشر كانت هناك وظائف (الصرافين بالديوان) والمباشرين (مديرو أعمال اهل الطبقة الحاكمة) و(كتبه الديوان) ، وهذه شغلها اليهود (53) .

كذلك فقد شغل القبط وظائف ادارية مماثلة لتلك التي شغلها اليهود - والوثيقة التالية تشير الى (فلتاؤوس يعقوب) كموظف في ديوان الروزنامة .

«معلم فلتاؤوس مضبطه سندن

مجدد من بعد تحرير المرحوم محمد بيك سنة 1188 الف مائة وثمانية وثمانون داخل مرتب العربان بنواحي ٠٠٠٠٠ بموجب تقرير بختم ٠٠٠ حاكم ولاية جرجا كان تاريخه 19 ربيع الثاني سنة مائتين والف مجدّد من ابتداء سنة تسعة وتسعون ومائة وألف باسم الشيخ ٠٠٠٠٠٠ من اهالى ٠٠٠٠ من اصل غلال مصاريق الولاية التي هي الكشوفية الى الحاكم من نواحي العسيرات كاتبه فلتاؤوس يعقوب مجدّد من ابتداء سنة 1199 « (54) .

وتفيد لغة الوثيقة ان (فلتاؤوس يعقوب) كان مسؤولاً عن تحرير (مضبطة) رسمية تتعلق بالمحاسبات الرسمية والمسائل المالية - مما يجعلنا نطمئن الى أن هذا القبطي كان يشتغل باعمال المحاسبة في الجهاز المالي في الولاية المصرية ديوان (الروزنامة) في نهايات القرن الثامن عشر .

كذلك فان المعلم (جرجس الجوهري) كان يشغل منصبا مشابها في ديوان الروزنامة في وقت قريب من الوقت الذي كان (فلتاؤوس) يشغل فيه وظيفته في الديوان المذكور - والوثيقة المرفقة تبين ان (جرجس الجوهري) كان هو الموظف العثماني المسؤول عن تحقيق مسائل الالتزام وتقدير الاموال وما يتفرع عنهما من أمور - فقد وجهت اليه تأشيرات المسؤولين في الوثيقة في اكثر من موضع - وقام هو بالرد استفسارات المسؤولين عن القرية موضوع الوثيقة بتأشيرة نصها :

(53) أوضح الإشارات ص 174 و 246 وسجل محكمة الباب العالي 123 - وثيقة 291 ص 52 سنة 1056 هـ = 1646 م .

(54) العبارة التركية في مقدمة الوثيقة معناها (من مضبطة المعلم فلتاؤوس) - أما عبارة (الكشوفية الى الحاكم) فإننا نقول ان الأقاليم الإدارية لمصر انقسمت الى قسمين (أقاليم ادارية كبرى) سميت ولايات هي الغربية - المنوفية - الشرقية - البحيرة - ونجرا - وكانت هذه الأقاليم تسمى (بكويات) ويسمى حاكمها بك أو (حاكم) . وأقاليم ادارية أصغر سميت كاشفيات يحكم كل منها (كاشف) - (والكشوفيات) مصطلح كان يطلق على (قرى الولاية) المخصصة كموارد (للپاشا الوالي) او حاكم الاقليم الإداري الكبير - ومصطلح (كشوفية الحاكم) في الوثيقة يعني القرى المخصصة لحاكم جرجا كموارد له بحكم منصبه . راجع : د. ليلي عبد اللطيف « الإدارة في مصر في العصر العثماني » ص 375 - 390 .

«اننا بحثنا عن الحصة وجدنا هذه الحصة كان واضع يده عليها عثمان بك برديسى والآن الحصة خراب لان علمكم الكريم زيادة ببلاد البحيرة وخرابهم خصوصا هذه الناحية خراب زيادة ٠٠٠٠٠ محسوبكم جرجس جوهرى» (55) *

وقد شارك اهل الذمة - خلال الفترة موضوع الدراسة - كبار المتنفذين المماليك والعثمانيين في تعاطي (الالتزام) الذي كان المعتقد انه كان قاصرا على اصحاب النفوذ من الطبقة الحاكمة - ففي رمضان 1107 هـ : ابريل 1696 م كان (ياسف اليهودى) هو ملتزم دار الضرب (دار سك النقود) التي كانت فيما بعد من أهم الموارد المالية (لاوجاق الانكشارية) (56) - وقد استولوا عليها من بين مخصصات «الباشا» الذي كان وضعه السياسى قد تدهور خلال نهايات القرنين السابع عشر والثامن عشر (57) *

وفى عام 1105 هـ : 1693 م كان المعلم (ياسف الربان اليهودى) هو (ملتزم ثغر دمياط) - وكان يدفع من مال المقاطعة المذكورة رواتب جنود (القلعة العربية الكائنة بالبحر العربى بفوهة الثغر المذكور) عن طريق وكيله فى الميناء (اسحاق اليهودى) (58) *

والى جانب هذه الوظائف الحكومية فقد كان اهل الذمة يشتغلون بالصياغة والصباغة والزياته (59) *

وكان لاهل الذمة علاقات تعامل عادية مع اهل المجتمع المصرى الذى كانوا يعيشون فيه ، حكمتها نفس القواعد والضابطة لمعاملات باقى الرعية فى الولاية *

فأمام قاضى محكمة الباب العالى فى النصف الاول من القرن السابع عشر دخلت خديجة ابنة محمد بن يوسف القويسنى فى (شركة) مع (المعلم هارون

(55) دار الوثائق القومية - ديوان الرونامة - محفظة روزنامه بدون رقم - الملحق رقم (1) .

(56) أوضح الإشارات ص 199 - 200 .

(57) الدكتور عبد الوهاب بكر « الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر » ص 191 حاشية (25) .

(58) دار الوثائق القومية - ديوان الرونامة - محفظة روزنامه 14 ربيع أول 1161 م (1748 م) - الملحق رقم (2) - وكلمة (الربان) تعني أن (ياسف) هذ كان من اليهود الربانيين (Rabbinite) - تميزا له عن النسخ الاخر منهم وهم اليهود القرائين (Karaites) وهما الفرقتان اللتان انقسمت اليهما اليهود - فالربانيون (ويسون الحاخاميون) يتبنون العقائد المبينة على العهد القديم كما شرحت فى التلمود - أما القراءون فهم الذين انشقوا عن عن الجسم الأصلي لليهودية فى القرن الثامن بعد الميلاد - بهدف العودة الى اليهودية الأصلية (Scriptures) الممثلة فى الكتاب المقدس بعد تخطي التلمود والتقاليد الشفوية - ويعارض القراءون ادعاءات الربانيين فى تفسير الكتاب المقدس .

عن اليهود بصفة عامة انظر « الدكتور علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية « يهود البلاد العربية » منظمة التحرير الفلسطينية . بيروت 1971 ، ص 11 ، 13 ، 163 ، 164 .

منظمة التحرير الفلسطينية . بيروت 1971 ، ص 12 ، 13 ، 163 ، 164 .

(59) سجل محكمة الباب العالى رقم (123) وثيقة 152 ص 28 سنة 1056 = 1646 م - و Encyclopaedia of Islam « Vol. I. Art. Dhimma.

ولد مردخاي ولد سليمان اليهودي (الربان) ، ثم انهياها بعد عدة سنوات .
كذلك كان لها معاملات تجارية مع (مردخاي وشقيقه سوريا) ولدا (المعلم
هارون) في نفس الفترة أيضا . وتم تخارج الطرفين من شركتهما وفق
الاساليب القضائية المعمول بها في مصر في ذلك الوقت (60) .

وكعادة الاقليات في كل مجتمع فان طائفتي اليهود والنصارى أقاموا في
أماكن مخصصة لهم - فكان لليهود حارتهم المعروفة بحارة اليهود (61)
وللنصارى حارتهم «بالخوخة المظلمة بظاهر الازبكية» (62) .

لكنهم رغم عزلتهم السكنية - فانهم كانوا يتداعون في مسائل الانكحة (الاحوال
الشخصية) أمام نفس الجهات المختصة بنظر نفس النوع من القضايا الخاصة
بالمسلمين من المصريين ، رغم وجود بيعهم وكنائسهم ورؤسائهم
الروحانيين (63) .

وكانوا يطبقون نفس قواعد الطلاق (اي الطلقات الاولى الرجعية - والثانية
البائنة - والثالثة البائنة بينونة كبرى) والنفقة والحمل والحضانة التي تطبق
في منازعات الانكحة للمسلمين - غير أن الملاحظ هو غياب (الشهود) في مخاصمات
(اليهود) أمام المحاكم الشرعية ، والاكتفاء بشهادة طرفي النزاع (الزوج
والزوجة) (64) .

ويبدو أن اهل الذمة كانوا يسترقون العبيد ويستخدمونهم مثلما كان
المسلمون يفعلون - رغم ان هذا كان محظورا في ثلاثينات القرن الثامن عشر .
فقد أصدر (باكير باشا الى مصر 1735 - 1737 م) في عهد ولايته الثانية أمرا
لليهود والنصارى «انهم لا يستخدمون الجوار السود وأن كل من تعاطى بيعهم
أو شرايهم فعليه القبض بأغاة مستحفظان ويقتل وينهب ماله» (65) .

لكن الشيء الذي تكشف عنه الوثائق في هذا الصدد هو استرقاق اليهود
في مصر للعبيد من اهل الذمة شركائهم في ديانتهم اليهودية - ومن الجنس
الفلاشي الذي كان يعيش أصحابه في بلاد الحبشة - فقد اعتق ياسف بن داوود بن
ياسف اليهودي الشهير بعشير الربان (مرفوقته) (رأجيل المرأة اليهودية الحمرا

(60) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 90 ص 16 سنة 1056 هـ = 1646 م
الملحق رقم (3) .

(61) أوضح الاشارات ص 492 وسجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 152 ص
28 سنة 1056 هـ = 1646 م .

(62) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 279 ص 49 في 1056/2/12 هـ = 1646 م

(63) « أوضح الإشارات » ص 615 . حيث تشير وقائع يوم الجمعة واحد وعشرين محرم
الى بترك الأورام (بطريك) .

(64) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 152 ص 28 سنة 1056 هـ = 1646 م الملحق
رقم (4) .

(65) أوضح الإشارات ص 615 .

اللون (الفلاسفة الجنس) في عام 1053 هـ : 1644 م امام محكمة الصالحية بالقاهرة .

والواقع ان ما تكشف عنه هذه الوثيقة هو حالة غريبة من نوعها - فالفهوم ان يسترق المسلم رقيقا من الذكور أو الإناث البيض أو السود - ويدخله دين الاسلام ، ثم يعتقه اذا شاء - لكن الغريب أن يسترق (ذمي) (ذمية) سوداء ويعتقها وتبقى على دينها (ذمية) (66) .

ويلاحظ أن أهل الذمة كانوا يتعرضون في مسائل (القصاص) لبعض التنكيل وخاصة عندما تكون تهمتهم هي (قتل مسلم) - ففي حادثة تشاجر فيها يهودي مع والده وهما مخمورين - قتل الاول خادم ابيه (المسلم) عندما كان الخادم يحاول أن يفصل بينهما - وبعد القبض على القاتل «أشهره في البلاد على حمار بأربع شاميات ، ثم انهم أرموا عنقه في الرميطة ٠٠٠ ثم ان الباشا قطع فرمانا الى آغا مستحفظان أن يشهر النداء على طائفة اليهود والنصارى لا يستخدمون المسلمين ، وكل من استخدم مسلما يستأهل ما يجري عليه . ثم ان المتفرجين من أهل الرميطة جاءوا بالخطب وأحرقوه وراح الى لعنة الله لانهم عرضوا عليه الاسلام فأبى» (67) .

ومن الواضح هنا أن التنكيل الذي اصاب اليهودي القاتل (التهشير على حمار بأربع شاميات) - هو نوع من التزيد في العقوبة - فعقوبة القتل هي القتل قصاصا سواء أكان القاتل مسلما أم ذميا - أما التهشير فلا بد انه كان أمرا يخص أهل الذمة في مثل هذه الحالات .

كما يبدو ان التمثيل بعثة القاتل بحرقها في الحالة المذكورة كان مرده الى موته وهو على دين اليهودية - بمعنى ان القاتل لو كان نطق بالشهادتين قبل اعدامه لكان جزاؤه القتل فقط دون حرق جثته .

كذلك فان الذمي المتهم بقتل مسلم كان في الغالب يلقي عقابه على يد المسلمين دون محاكمة - بما في ذلك تنفيذ الاعدام (حرقا) وليس بقطع العنق كما كان الحال في الاعدام في القرنين السابع عشر والثامن عشر . كما ان نهب بيت القاتل كان يعقب حرقه ، وفي بعض الاحوال كان بني دين القاتل يتعرضون لبعض النهب والسلب من جانب المسلمين الغاضبين (68) - كذلك فان عقاب القتل والحرق كان من نصيب (ملتزمي دار الضرب) من أهل الذمة اذا احدثوا مظالم للرعية أو أفسدوا عملة البلاد (69) .

(66) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 291 ص 52 سنة 1056 هـ = 1646 م الملحق رقم (5) .

(67) أوضح الاشارات ص 337 - 338 .

(68) أوضح الاشارات ص 530 .

(69) أوضح الاشارات ص 200 .

وفى مجال التمييز بين أهالى الذمة والمسلمين فى القرن الثامن عشر ، فقد كان اليهود يلزمون بلبس الطرايطر والطواقى الزرق) . وكان الاقباط يلزمون « بلبس القلايق» اما الاجانب (الافرنج) فقد كانوا يكلفون بارتداء (قلايق وبرنيطاط) - الى جانب (الزنار) الذى كان الاقباط واليهود يلزمون بلفه حول أوساطهم (كحزام) - كما لم يكن يسمح لاهل الذمة بارتداء الملابس (الجوخ الاحمر ولا بوايج صفر ولا مزوز صفر ولا شخاشين) (70) .

وكان يجرى تمييز أهل الذمة فى الحمامات العامة الاحدى والثمانين بالقاهرة بوضع (جلجل) فى اعناقهم لدى خلع ملابسهم - «وفى خامس محرم 1136 ، نزل اغا مستحفظان الى القاهرة ، وأشهر النداء لجميع طائفة اليهود والنصارى ان كل من دخل الحمام فلا يدخل الا وفى عنقه جلجل ليعرف الكافر من المؤمن» (71) .

لكن أهل الذمة كانوا لا يتقيدون بهذه التعليمات كثيرا ، كما أن المسؤولين لم يتشددوا فى تطبيقها الا فى بعض الاحوال التى تصاحب وصول حاكم متشدد أو عند الحاجة الى ارضاء جماعات المسلمين (72) .

على أن القواعد التى لم يكن يتهاون فيها هى زواج الذمى بمسلمة - واهانة الذمى للاسلام - وتحويل المسلم الى ديانة أخرى - ودية القتل الذمى التى كانت تبلغ نصف أو ثلث دية المسلم - وضرورة ان يكون الطفل من زواج مشترك مسلما (73) .

وبالنسبة لدخول الاطفال من اهل الذمة فى دين الاسلام - فقد كان المذهب الشافعى لا يرى الاسلام الا بعد البلوغ ، وعلى ذلك فان الاطفال الذين لم يبلغوا سن البلوغ بعد - كانوا يردون الى ذويهم الذميين اذا أعلنوا اسلامهم - أما الاحناف (وهو مذهب الدولة العثمانية) فكانوا يرون الاسلام بعد سن التمييز (7 سنوات) (74) .

وكانت الضريبة التى يدفعها اليهود والنصارى (الجوالى) مائة وعشرون نصف فضة للفرد البالغ - ومن ثلاثون الى ستون نصف فضة لغير البالغ - لكنها رفعت عام 1734 الى ثلاث درجات (400 للاعلى) و(200 للاوسط) و(مائة للادنى) تبعا للحالة المالية للذمى (75) - ومن المؤكد أن ضريبة الجوالى كانت تتعرض

(70) أوضح الاشارات ص 469 .

(71) أوضح الاشارات ص 378 - 379 .

(72) أوضح الاشارات ص 378 - 379 .

و : «Encyclopaedia of Islam» Vol. I. Art. «Dhimma» .

(73) «Encyclopaedia of Islam» Vol. I. Art. Dhimma.

(74) أوضح الاشارات ص 427 - 428 .

(75) أوضح الاشارات ص 590 - 591 .

للكثير من الزيادة والتعسف في التحصيل شأنها في ذلك شأن الضرائب الغير قانونية التي كانت تحصل من باقى الرعية (كالمضاف) و(البرانى) و(حق الطريق) الخ .

ورغم ان لقب (معلم) كان يعنى فى مجال التطبيق عند المسلمين صاحب الحرفة كالقصاب والجبان والزيات (76) - الا انه كان يطلق على اهل الذمة المشتغلين بالمسائل المالية والحسابية والمشتغلين أيضا بالتجارة بصفة عامة - دون تمييز بين قبطى ويهودى (77) - كذلك فان اعتبارات الشراء لم يكن لها علاقة بهذا اللقب عند هذه الطائفة .

4/ النساء

تعاملت النساء فى المجتمع المصرى فى الفترة موضوع الدراسة مع بعضهن ومع الرجال - بانفسن ومن خلال الوكالة - وان كانت معاملاتهن المباشرة أظهر... فقد (تداعين) امام المحاكم مباشرة ضد خصومهم من الجنسين فى مسائل الوراثة والتركات ، وطالبن بحقوقهن ، ووجهن اليمين الحاسمة فى مسائل المنازعات واشترين من الرجال والنساء - وبعض أيضا بانفسهن و(دون وكيل) ، وقبضن ودفعن - وأقرضن وصدقن وتشاركن فى عقود المشاركة - وأجرن - وأستأجرن - وأسقطن حقوقهن فى التصرف والتحدث والالتزام والتقسيم فى الجارى فى تصرفهن من الالتزامات (78) .

غير أن أهم ما تثيره وثائق الفترة موضوع الدراسة بالنسبة للنساء (قضية السفور) - فالثابت وفقا لما بين ايدينا من الوثائق - ان النساء كن يوصفن فى احكام المحاكم الشرعية وصفا تفصيليا يتعلق (باللون) و(الوجه) و (الحواجب) و (الذقن) و(العلامات) (لملمس الجلد) و(شكل الجسم) أيضا .

«لدى مولانا الحاكم الحنفى ... اشترت الحرمة ... ابنة ... من بايعتها ... المكان الكائن ببولاق ... بدلالة الحجة الشرعية ... والجارى الحصة المبعة فى ملك البايعة المرقومة ... ولها ولاية بيع ذلك وقبض ثمنه ... البايعة المرقومة أنها حنطية اللون عربية الوجه مفروقة الحاجبين بذقنها دق أخضر وبيدها وذراعها دق أخضر ...» (79) .

(76) سجل محكمة الباب العالى رقم (123) وثيقة 2230 ص 40 ووثيقة 135 ص 25 عام 1056 هـ = (1646 م) .

(77) سجل محكمة الباب العالى رقم (123) وثيقة 230 ص 40 - 135 ص 25 و 90 ص 16 سنة 1056 هـ .

(78) سجل محكمة الباب العالى رقم (123) وثيقة 37 - ووثيقة 39 - 44 - 90 ص 16 - 108 ص 19 - 150 ص 28 من نفس السجل سنة 1056 هـ = 1646 م ومحفظة روزنامة بدون رقم من ديوان الروزنامة بدار الوثائق القومية .

(79) سجل محكمة الباب العالى رقم (123) وثيقة 39 سنة 1056 هـ = 1646 م .

«لدى مولانا الحاكم الحنبلي استأجر لنفسه من وشقيقته
الحرمة فاطمة (المرأة) (الحنطية اللون) العربية الوجه (المفروقة الحاجز)
(المعتدلة القامة) (الرقيقة البشرة) وهما اجراه بالسوية جميع
المكان (80) .

«لدى مولانا الحاكم الحنبلي ادعت الحرمة منا المرأة ابنة ...
(الحنطية) (العربية) (المفروقة) (الرقيقة البشرة) (المعتدلة القامة) (الى الطول
اقرب) على زوجها ... بان زوجها لم ينفق عليها (81) .

وكما هو ثابت فان وصف النساء لم يقتصر على قضايا بعينها - فقد وصفن
فى قضايا او عقود (الشراء) و(الاستئجار) و(الاحوال الشخصية) - كذلك
فانهن وصفن فى القضايا امام قضاة اكثر من مذهب (الحنبلي والحنفى) .

هل كان هذا يعنى أن المرأة المصرية عرفت السفور فى القرن السابع عشر
- فكشفت عن وجهها ومفرق شعرها وقسماتها وذراعيها - وظهرت ما تعارف
المسلمون على اخفائه ؟

لقد كانت المحاكم التى اثبتت اوصاف المرأة المصرية (محاكم شرعية) -
بمعنى ان قضاتها ومحررى سجلاتها وشهودها ممن ينتسبون الى الجانب
التطبيقي من الاسلام واعنى به القضاء الشرعى ، ويطبقون احكام القرآن
والشريعة الاسلامية - أى انهم يحكم طبيعة عملهم يكونون ابعد الناس عن
التهاون فيما حرم على الرجال النظر اليه من المرأة - وما حرم على النساء من
الظهور امام الرجال - ولا اتصور ان تكون كل المذاهب قد اتفقت على صور
(الحاجة) التى يسمح فيها للمرأة باظهار ما هو عورة منها - هذا اذا قلنا ان
ما حدث امام هذه المحاكم من كشف لعورات النساء كان نوعا من انواع
(الحاجة) التى تبيح السفور .

ان عورة المرأة هى جميع جسدها ... واعتبر البعض ان الوجه والكفين
ليسا بعورة .. وقال البعض ليسا بعورة فى الصلاة فقط .. والسماح
باظهار الوجه والكفين فى الصلاة عند بعض الفقهاء ... يدل على أن الاصل
وجوب الحجاب لجميع جسد المرأة ولان الاستثناء لا يكون الا من
أصل - والاصل هنا أن جسد المرأة كله عورة - والاستثناء لا يجوز ان يتوسع
فيه .

هذا هو ما يتعلق بتحجب المرأة وتحريم اظهار عورتها .

ثم نأتى الى ذريعة (الحاجة) .

(80) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 109 ص 19 سنة 1056 هـ - 1646 م

(81) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 243 ص 43 سنة 1056 هـ - 1646 م

ان خروج المرأة لا يجوز الا في احوال استثنائها الشرع ٠٠٠٠ فيجوز لها الخروج اذا كانت في حاجة ولم يكن لها من يقضى هذه الحاجة ٠٠٠ ومع ذلك فانها يجب ان تكون محجبة .

ويجوز لها تعاطى البيع والشراء اذا اضطرت لذلك - ويجوز لها ان تكشف عن وجهها وكفيها عند الخطبة لان الوجه يخبر عن الصفات والاخلاق ٠٠٠٠ والكفين يخبران عن نضج الجسد .

ويجوز لها ان تكشف عن نفسها عند العلاج أمام طبيب من الرجال اذا لم يوجد غيره أو من يكون في كفاءته من النساء - وعند التعليم والتعلم اذا لم الامر .

وعند الشهادة امام القاضي ليطلع على ما يساعده في الحكم - ومع ذلك فاذا كان لون وشكل الوجه ووصف القوام والعلامات المميزة هي مما يساعده القاضي على الحكم وحتى لا تنسب احكام الى غير اصحابها أو يدعى بدعاو على غير الحق - فأى (حاجة) للقاضي في التعرف على ملمس البشرة - أو الاشارة الى (دق اخضر) بالذراع وقد تجاوز الكف - وألم تكن (الوكالة) كافية لقضاء حاجات النساء عند (التداعى) في المحاكم ؟ .

في تصورى أن وصف النساء على الصورة التى وردت فى سجلات المحاكم الشرعية التى قدمناها يتجاوز (الحاجة) التى تبيح الخروج عن الاصل فى الشريعة وهو حجب المرأة عن نظر الرجل .

ولما كان القائمون على مجالس القضاء التى صدرت عنها هذه الاحكام الواردة فى الدراسة من المتمسكين - فرضا - بالقواعد المتعلقة بتحجب النساء التى قدمناها فى السطور السابقة - فان التسلسل الطبيعى للامور هو أن تكون النساء المصريات قد تخفن من قيود الحجاب فى الفترة موضوع الدراسة بحيث أصبح من السهل وصف (قوامهن) و(لمس بشراتهن) و(العلامات التى بأذرعهن) - وهو ما يجعلنا نميل الى القول بأن المرأة المصرية قد عرفت السفور فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

على انه اذا كانت المرأة المصرية على هذا القدر من الحرية الشخصية - فان زميلتها من نساء الطبقة الحاكمة كانت تتعرض لنوع من العبودية الشخصية يبدو من كتابات المؤرخين فى تلك الفترة وان كنا لم نجد له ما يسنده من الوثائق فى سجلات المحاكم الشرعية أو دور الحفظ .

فقد ذكر «احمد جلبى عبد الغنى» فى أكثر من موضع من (تاريخه) ما مفاده أن نساء المتنفذين المهزومين فى صراع السلطة كن ينتقلن هن وأموال أزواجهن الى المنتصرين بصورة تبعية .

وتبدو هذه الصورة واضحة تماما فى «نكبة الشواربية» عام 1727 .

كان الشواربية قد تحالفوا مع (الفقارية) خلال صراع الاخيرين مع (القاسمية) - فلما انتصرت الفقارية عام 1726 ورثوا هم وحلفائهم الشواربية

(أموال القاسمية وديارهم وبلادهم وتزوجوا بنسايهم وسكنوا بيوتهم وقفلت بيوتهم (القاسمية) جميعا وفتحت بيوت الفقارية والشواربية ، وصاروا اقوى مما كانوا) (83) .

لكن هذا التحالف الشواربى - الفقارى لم يدم طويلا - فقد كانت سمة الحياة فى مصر العثمانية خلال القرن الثامن عشر هى الانقلابات والتكتلات العسكرية وتجمعات البيوتات العسكرية والدخول فى معارك تصفية تنتهى بالقضاء على فريق وسيطرة فريق .

فى عام 1727 انتهزت الشواربية فرصة سفر زعيم الفقارية (زين الفقار بك) امير الحج بركب الحج ، واجتمع كبيرهم (مصطفى بيك ايواظ - وزوج شقيقته يوسف بك الشرايى) وسليمان أبى دفيه أغا اوجاق المستحفظان (الانكشارية) وعبد الله كتحدا الجاوشان وعلى بيك امين الشون وبعض ضباط الاوجاقات السبع - واتفقت كلمتهم على تدبير مؤامرة تستهدف القبض على (الوالى العثمانى) محمد باشا النشانجى (1726 - 1728 م) لدى ذهابه للاحتفال بوفاء النيل (جبر البحر) وعزله ، وتعيين على بيك امين الشون (قائم مقاما) - ويوسف بك الشرايى (دفتر دارا) - ومصطفى ايواظ (أميرا للحاج) - وان يرسلوا قوة تقطع الطريق على امير الحج (زين الفقار بك) وتقتله - ثم يتبعون ذلك بقتل بعض اعوان الفقارية من قادة الاوجاقات العثمانية .

وكان للشواربية زعيم آخر هو (على بيك الهندى) (الدفتردار) فلما أبلغه المتآمرون بما عقدوا العزم عليه - ابلغ هو بدوره (محمد باشا النشانجى) الذى تمكن من القضاء على (مصطفى ايواظ - وعلى بيك امين الشون - و(كيل على) كتحدا باب مستحفظان - وزوج ابنة الشيخ احمد البكرى شيخ السجادة البكرية - وسليمان ابو دفية - وباقي المتآمرين .

وبوصول (امير الحاج زين الفقار) زعيم الفقارية اشتدت عمليات المطاردة والقبض والقتل حتى تم القضاء على بيت الشواربية (84) . ويقول (احمد جلبى) معقبا على نهاية الشواربية (وأخذ زين الفقار بيك القصر والجنيينة اللذان بمصر القديمة وتقاسموا بيوتهم وبساتينهم وتزوجوا نسايهم واستخدموا اتباعهم ٠٠٠) (85) .

وعندما تجدد الصراع بين (زين الفقار) الفقارى واعدائه وانتهى ذلك الى قتله عام 1730 واندحار (الفقارية) - تزوج على بيك «بسيده زوجته سيده» (زين الفقار) (86) .

(83) أوضح الإشارات ص 485 .

أوضح الإشارات ص 385 .

(84) أوضح الإشارات ص 485 - 525 ;

(85) أوضح الإشارات ص 525 .

(86) أوضح الإشارات ص 566 .

وفهم من هذه النصوص ان «الزواج» كان (يفرض) على زوجات القتلى من بكوات الممالك المهزومين من جانب المنتصرين عليهم من اتباعهم أو اعدائهم على حد سواء - فالنصوص واضحة ، والمنتصر كان يأخذ (قري) عدوه المهزوم وعقاراته وأمواله (ونسائه) شاملا ذلك جواريه ومحاطيه (وزوجاته) .

ويرتبط هذا الموضوع بقضية (زواج) طبقة الصفوة في مصر في الفترة موضوع الدراسة . فقد اشترك في السلطة في مصر منذ بدايات القرن السابع عشر الصناجق والممالك المنتسبين اليهم ، ثم بدأت طائفتي (الفقارية) و(القاسمية) المملوكيتين تظهران على ساحة الاحداث في ثلاثينيات القرن وتجمعان اسباب القوة والنفوذ - ودخلت البلاد في منازعات على السلطة بين الطائفتين انضم النظام الحاكم فيها تارة الى هذه الطائفة وتارة لتلك - ومن ستينيات القرن السابع عشر وحتى نهايات القرن الثامن عشر اصبحت (البكوية المملوكية) هي القوة الاساسية في الولاية ، وتلاشت الى جانبها قوة النظام الحاكم . بأوجاقاته وتنظيماته التي اصبحت قوى تابعة للبيت المملوكي المتنفذ .

تكونت البيوت المملوكية من ممالك (بكوات) يشترون لانفسهم ممالك صغارا من (بلاد الجركس) وينشؤونهم على دين الاسلام - ويعلمونهم الفروسية - ويسندون اليهم مناصب (الخازندار) وغيرها داخل (بيوتهم) ، ثم يقومون بعقبتهم (وتزويجهم) (جوار) من بيوتهم بعد تحريرهن أيضا - أو بأخوات لهم أو بنات - أو بنساء من بيت مملوكي آخر بقصد تقوية تحالف مملوكي ضد تحالف مملوكي آخر - ومع الزمن أصبح (تزويج المملوك وعقته وترقيته بيكا أو ضابطا في احد الاوجاقات العثمانية) من بين مظاهر العناية والرعاية التي يوليها (البيك المملوكي) لافراد (بيته المملوكي) - ثم اصبح ذلك المظهر تقليدا راسخا توطدت من خلاله التقاليد البكوية المملوكية ، وتكونت في ظله التحالفات بين البيوت المملوكية - وأصبح هذا التقليد أحد الوسائل الاساسية لوصول (المملوك الصغير) الى اعلى المناصب في النظام المملوكي - بمعنى أن تزويج المملوك باحدى نساء بيت سيده (جارية - أو زوجة سابقة - أو أرملة - أو أخت - أو ابنة) كان يحمل معه فرص الثراء والنفوذ وامكانية اقامة المملوك بيتا خاصا به - ويتكرر التقليد ، وهكذا .

وكنا قد انتهينا في الصفحات الاولى من هذه الدراسة - مع عدم العثور على قضايا تتعلق بزواج نساء الطبقة الحاكمة - الى احتمال انفراد نساء رجال هذه الطبقة بقواعد وسجلات خاصة تسجل فيها امورهم الشخصية .

ولما كان من الثابت ان نساء الطبقة الحاكمة من البيوت المملوكية كن (جوار أو محاظ جلبن مثلما جلب الرجال من الممالك) - فانه يصبح مقبولا القول أن هذه الشريحة من النساء في مصر كن يعشن حياة اجتماعية خاصة تتعلق مصائرهن فيها (جوار كن ام معتوقات) بإرادة (سيدهن) الذي يستطيع تزويج

من يشاء من ممالكه بأى منهن - هذا من ناحية - ومن ناحية أخرى فان هذا المسلك تطور مع تزايد الصراع على السلطة الى انتقال البيت المملوكى المنهار اثر مصرع سيده - الى البيك المنتصر بما يحويه هذا البيت من مال وعقار وممتلكات ونساء - فيقوم السيد الجديد بتزويج ممالكه الخاصة بزوجات من ممالك هذا البيت - وقد يختص نفسه بامرلة سيد البيت المقتول - كذلك فان مملوك البيك المقتول دون هزيمة كان يمكن ان يتزوج امرلة سيده بهدف استمرار الحفاظ على البيت والوفاء لذكرى استاذة (87) .

ويبدو أن لهذا (الحق) الذى يتمتع به السيد على نساء بيته (جوار) كن أو (محبرات) صلة بالآثار الناجمة عن عملية (العتق) التى تتم - فالثابت وفقا لسجلات المحاكم الشرعية أن (العبد) يبقى بعد عتقه (ملتزما بولاء شرعى لمعتقه) .

«لدى مولانا الحاكم الحنبلى ... أشهد على نفسه وهو متجمل بالصفات المقررة شرعا انه نجز عتق مرقوقه تنجيذا شرعيا ابتغاء لوجه الله تعالى وطلباً لثوابه الجسيم وعملاً بقول نبيه الكريم عليه افضل الصلاة وأكمل التسليم من أعتق نسمة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج وبمقتضى ذلك صار حرا من أحرار المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم (الا الولاء الشرعى فانه لمعتقة المشار اليه) (88) .

ولعل هذا (الولاء الشرعى) المشار اليه فى احكام المحاكم الشرعية كان يقع على (حرية المرأة المعتقة) فى اختيار من تتزوجه - وان هذه (الحرية) تبقى (بعد عتقها) لسيدها الذى اعتقها - هذا فيما يتعلق بأحوال التزويج الطبيعية اى التى يقوم (السيد) فيها بتزويج معتوقته أو احدى نساء بيته لاحد الممالك - اما فيما يتعلق بزوجات ونساء البكوات المهزومين والمقتولين - فاننا نتصور أن حريتهن الشخصية بصفة عامة ، كانت بيد السيد الجديد الذى يؤول اليه (البيت المهزوم) بما يحويه من مال وثروة ونساء - فيتصرف فى هذا كله وفق الشريعة التى تحكم تصرفات المنتصر فى صراعات العصور الوسطى - هذا هو ما يمكن استخلاصه من تواريخ الفترة موضوع الدراسة بشأن حرية نساء (البكوية المملوكية) فى الزواج - والقيود المانعة التى ترد على هذه الحرية الشخصية .

(87) عن زواج نساء البكوية المملوكية فى مصر ، راجع « جلدور مصر الحديثة » تأليف دانيال كريسلوس Daniel Crecelius ترجمة وتعليق د. عبد الوهاب بكر .

(88) سجل محكمة الباب العالي (123) وثيقة 15 ص 3 فى 1055/12/16 (1645 م) - ووثيقة 266 ص 47 فى 1056/2/17 (1646 م) .

5 - الاحوال الشخصية :

احتلت الجوانب الشخصية من العلاقات الاجتماعية في مصر العثمانية مساحة كبيرة من هذه العلاقات - وذلك أمر طبيعي - فالجوانب الشخصية من العلاقات الاجتماعية هي تلك الجوانب التي تعنى بكل ما يتعلق بالحياة الاسرية ، وليس هناك علاقات اكثر تشعبا وتعقدا وتفرعا من العلاقات الشخصية أو الاحوال الشخصية - وهو بحكم غزارة ما تفرزه من قضايا ومسائل - فانها تمثل الواقع الاجتماعى بعلاقاته المتعددة اصدق تمثيل .

وقد رسمت المنازعات الشخصية وتصادقات الزواج وقضايا النفقة والارضاع والطلاق والتطليق ، بما حوته من تفاصيل دقيقة لشكل الحياة في مصر - صورة دقيقة لخبايا ذلك المجتمع وشكل العلاقات بين افراده .

ففى قضايا (التخاصم والتنازع) بشأن (نفقة الابناء) يبدو المستوى الاجتماعى للمتخاصمين من قيمة ما فرض لنفقة الطفل (نصف فضة في اليوم) - وتتكشف قواعد الحضانة المعمول بها في ذلك الوقت (كسقوط الحضانة في حال زواج الحاضنة المطلقة برجل اجنبى) وامكانية (احتفاظ الحاضنة بالطفل اذا ما تعهدت بتحمل نفقته عن مطلقها) (89) .

وفى قضايا التصادق على (الطلاق الثلاث) تكشف السجلات عن (قيمة المهور) فى الفترة موضوع الدراسة - وكيفية تقسيم وتوزيع (الصداق) مقدمه ومؤخره - والمبالغ المخصصة من الصداق (لكسوة الزوجة) (الصداق ستة قروش - منها خمسة كمؤخر صداق - وقرش نظير الكسوة) (90) .

وتكشف سجلات المحاكم الشرعية عن أسرار الحياة الزوجية عندما يتصرف الزوج بالبيع فى (مصوغات) زوجته - ثم اضطراره الى الاعتراف بمديونية لها ورهنه لملايه واسلحته فى مقابل قيمة المديونية - وتعويض الزوج لزوجته بما يملكه من عقار فى نظير مؤخر صداقها مما يفهم معه ان مؤخر الصداق كان يمكن أن يوفى للزوجة قبل حلول اقرب الاجلين (الطلاق أو الوفاة) - وتصفية املاك كل من الزوجين واختصاص كل منهما بحقه حال قيام الزوجية بصورة يفهم منها احتمال قيام نزاع بين الزوجين تمسكت فيه الزوجة بحقوق لها قبل زوجها ، وانتهى ذلك الى تصفية هذه الحقوق أمام المحكمة (91) .

(89) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 11 ص 2 سنة 1056 - 1646 م الملحق رقم (6) .

(90) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة (13) ص 2 - سنة 1056 - 1646 م .

(91) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 44 ص 11 - سنة 1056 - 1646 م - الملحق رقم (7) .

وقد طلبت الزوجيات في القرن السابع عشر الحكم لهن بالتطليق (لغيبية الزوج) (92) . وطلب الأزواج اثبات طلاق زوجاتهم في مقابل دفع مؤخر الصداق (93) .

وتداعت المطلقات امام المحاكم لطلب النفقة (لاستمالهن من مطلقيهن على حمل ظاهر) - وأنكر الأزواج ذلك - وظهر دور (القابلة أو الدايه) الشاهدة باشتمال المطلقة على الحمل (94) .

واختلفت الزوجات مع أزواجهن حول (صلاحية مسكن الزوجية) والتجأن للقضاء - وتداخل (متكلم بالصالح فاصطلحا ورضى الزوج المرقوم بأن يهيم لزوجته المذكورة مكانا داخل الصور بخط الدرب الاحمر بعد ثلاثة ايام تمضي من تاريخه) (95) .

ويبدو أن شكوى الزوجة في القضية السابقة حول صلاحية مسكن الزوجية لم تكن (لان المكان لم يكن مأمونا) كما جاء بالدعوى - ولكن لأن (والدة الزوج) كانت تقيم مع الزوجين - مما يدفع الى الاعتقاد بأن الزوجة كانت ترغب في مسكن منفصل بعيدا عن (حماتها) (96) .

وعلى خلاف ما هو متعارف عليه من (طلاق الابراء) الذي تبرئ فيه الزوجة طالبة الطلاق ذمة زوجها في مقابل الطلاق - فقد شهدت حوادث الطلاق في القرن السابع عشر حالات طلبت فيها الزوجة من زوجها ان يطلقها من عصمته وعقد نكاحه في مقابل مبلغ من المال تدفعه له - دون ان تتنازل عن مؤخر صداقها الذي قبضته في مجلس الطلاق (97) .

لكن حالات (الطلاق بالابراء) كانت قائمة - وكانت الزوجة تبرئ زوجها - في مقابل الطلاق من مؤخر صداقها ، (ومن دينها عليه ومما تجمد عليه من كساوى وانفاق ومن ساير الحقوق الشرعية) (98) - كذلك فقد كان الزوج يتنازل عن حقه في (ضم الطفل) لمطلقته (عزباء كانت أو متزوجة مسافرة أو مقيمة من تاريخه (تاريخ الطلاق) والى ان يميز (أى الى أن يبلغ الطفل سن التمييز) وأسقط حقه في طلبه وانتزاعه منها الى انقضاء المدة المذكورة) (99) .

(92) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 45 ص 11 - سنة 1056 = 1646 م .

(93) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 78 ص 14 .

(94) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 80 ص 15 سنة 1056 = 1646 م .

(95) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 130 ص 23 سنة 1056 = 1646 م .

(96) المصدر نفسه .

(97) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 160 ص 30 سنة 1056 = 1646 م .

الملحق رقم (8) .

(98) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة 227 ص 40 سنة 1056 = 1646 م .

(99) المصدر نفسه .

وسجلت عقود الزواج شروطا اشترطتها الزوجة أو أقرها الزوج بعدم زواجه على زوجته نساء غير التي تكون في عصمته وقت عقد الزواج - أو عدم (رد) مطلقة من مطلقاته) - فإذا خالف أحد هذه الشروط وأبرأته زوجته من ربع قرش من مؤخر صداقها - فإن الطلاق يقع (بطلقة واحدة) - بمعنى أن (استمرار الزواج) في مثل هذه العقود كان (معلقا على شرط فاسخ) - وقبلت المحاكم هذا (التعليق) وجرى العمل به في حالات الزواج في القرن السابع عشر (IOO) .

بل ولقد بلغ (التعليق) في بعض عقود الزواج حد ذكر اسم الزوجة التي في عصمة الزوج عند زواجه الجديد - تأكيدا لشرط عدم زواجه بثالثة - وكان الشرط الفاسخ يقع الى جانب (رد المطلقة) اذا (تسرى عليها بسرية من اى الاجناس) (IOI) .

ويلاحظ في مجال العلاقات الاجتماعية المرتبطة بمسائل الاحوال الشخصية وجود ظاهرة (تعدد الزوجات) (انه متى تزوج عليها زوجة غيرها وغير التي في عصمته الآن) (IO2) - وقبول النساء بها في حدود زوجة واحدة أخرى فقط - ورفضهن لاستمرار العلاقة الزوجية اذا زاد عدد زوجات الزوج عن اثنتين - كذلك فان ظاهرة (الطلاق) كانت متفشية بين المصريين بدليل تعليق الزوجات استمرار علاقاتهن الزوجية على عدم رد الزوج (مطلقة من مطلقاته) - وهو نص يفهم منه ان الرجال في مصر العثمانية كانوا يستعملون هذه الرخصة بافراط ، فيطلقون (ويردون) بصورة تقلق الزوجات الجديديات الى حد قبولهن بانهاء علاقاتهن الزوجية فيما لو أقدم الزوج على رد احدى مطلقاته .

ويلاحظ ان (السراى) كان لهن وجود في المجتمع المصرى - وان الرجال كانوا (يتسرون) الى جانب اقترانهم بزوجات - وان هذا الوضع كان يضايق الزوجات الى حد اشتراط عدم تسرى أزواجهن عليهن (بسرية من اى الاجناس) (IO3) .

كذلك فان عقود الزواج كانت تتضمن ما معناه تقرير (بدل كسوة) شهرية للزوجة بقيمة نقدية على الزوج تتراوح ما بين عشرين نصف فضة وعشرة انصاف (IO4) .

(100) سجل محكمة الباب العالي (123) - وثيقة 230 ص 40 - سنة 1056 - 1646 م الملحق رقم (9) .

(101) سجل محكمة الباب العالي (123) - وثيقة 273 ص 48 - سنة 1056 = 1646 م الملحق رقم (10) .

(102) راجع الملحق رقم (10) - والملحق (9) .

(103) راجع الملحق رقم (10) .

(104) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 327 ص 59 سنة 1056 هـ (1646 م) وراجع الملحق (9) و (10) من هذه الدراسة .

وقد استخدم (التعداد المذهبي في مصر : حنفى - مالكي - شافعى - حنبلى) وسيلة للتحلل من استمرار العلاقات الزوجية في بعض الاحيان - فما لا ييجيزه مذهب قد يميزه مذهب آخر - وفى ظل ظروف فساد الذمم الذى كان حادثا في مصر العثمانية - وامكانية ارتشاء القضاة - كان يمكن لزوجة تبغى فصم علاقتها الزوجية دون اسباب شرعية ودون تحمل (الايراء) أن تحصل على حكم بالتطليق مع دفع مؤخر الصداق عن طريق رشوة القاضى - وقيام الاخير باصدار حكم ينافى مذهبه ومذهب الزوجين .

وعلى سبيل المثال فان المالكية كانوا يرون (بالتفريق) (اذا حدث من الزوج هجر للفراش والضرب المؤلم مع اقامة البيئة) - اما مذهب أبى حنيفة النعمان فكان لا يفرق بين الزوجين لهذا السبب (105) .

ولم يكن قصور الفتيات عن سن الزواج يحول دون ابرام عقد النكاح في القرن السابع عشر في مصر العثمانية - فقد سجلت احكام المحاكم الشرعية حالات كانت الزوجة فيها (قاصرة عن البلوغ) (106) .

6 - علاقات السلطة بالمحكومين :

تحكم علاقات الناس في مجتمع ما فكرة معينة اتفق على تسميتها «بالضبط الاجتماعي» - وقد اختلف الفقهاء في اعطاء التعريف الموحد للضبط الاجتماعي - فبينما عرفه Ross بأنه «سيطرة اجتماعية مقصودة وهادفة» - فقد حدده Summer في «ما أرسنه العادات الشعبية من أثر على المجتمع . فهي تصبح منظمة للأجيال المتعاقبة وملزمة لها وبذلك تعمل على ضبط السلوك الفردي والاجتماعي الى حد بعيد ، وتمارس القهر على الفرد لكي يمثل لها - أما دوركهايم Dorkheim فقد قال بان «اى عامل يتدخل في سلوك الانسان يعتبر عاملا ضابطا element Contrait (107) .

وايا كانت التفسيرات - فان ما لا خلاف فيه هو ان الضبط الاجتماعي كفكرة يهدف الى ضبط البناء الاجتماعي والاقتصادى في مجتمع ما . ومع ان وسائل الضبط الاجتماعي تعددت - وتعددت بالتالى النظريات التى تناولتها . . . الا أن القانون يعتبر أداة متخصصة ومحددة تحديدا دقيقا يستخدمها المجتمع لضبط افرادة بحكم ماله من وظائف الحسم والردع - والاجبار والالزام .

ولعل مصر العثمانية في الفترة موضوع الدراسة كانت أرضا خصبة لاختبار هذه التعريفات الوسائل فيها - واكتشاف مدى انطباق هذه النظريات عليها .

(105) أوضح الإشارات ص 380 - 381 .

(106) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 280 ص 49 سنة 1056 م (1646 م) .

(107) د. سامية محمد جابر « القانون والضوابط الإجتماعية - مدخل علم الاجتماع الى فهم التوازن في المجتمع » ص 34 - 36 .

لقد قدم الشارع المصري في الفترة موضوع الدراسة صورة صادقة للعلاقة بين السلطة والمحكومين - وهي صورة ترسمها لنا الوثائق والتواريخ التي تحكي أخبار ذلك الزمان .

فقد كانت التعليمات التي ينادى بها في شوارع القاهرة «ان لا أحد يركب بغلة ، ولا رهوانا ، من اولاد البلاد والتجار» (108) - وكانت احتكاكات اهل المدينة باصحاب السلطة تنتهى الى مأس تراق فيها دماء الاولين .

«وفي يوم الثلاثاء ثانى عشر محرم (1712م) تشاجر رجل شريف ٠٠٠ مع مملوك ٠٠٠ فضربه المملوك فقتله ٠٠٠ فوضعت الاشراف المقتول في تابوت ٠٠٠ وتوجهوا الى منزل غيطاز بك (دفتر دار مصر وأحد كبار الممالك المتنفذين في ذلك الوقت) فخرجت عليهم جماعة بالسلاح فهزموهم ٠٠٠ ولقد جاء صالح آغا آغا الجميلية (قائد أوجاق الجوكليان) (المتطوعة) على باب جامع الفكهاني والناس داخله صلاة الجمعة ، وهو يسأل الداخلين ، ويقول ، هل هنا احد من هؤلاء اليهود - يعنى الاشراف ٠٠٠ وراح الشريف المقتول (اي راح دمه هدرا) (109) .

وقد تسبب السراجين والغز في افساد العلاقة بين السلطة وطبقة المحكومين بافعالهم المنكرة في شوارع القاهرة من نهب للفقراء والمتسببين وتعطيل ارزاق التجار وأصحاب الحوانيت الذين كانوا يقفلون حوانيتهم خشية الضرر (110)

(108) « أوضح الإشارات » ص 256 .

(109) « أوضح الإشارات » ص 256 - 257 .

(110) « أوضح الإشارات » ص 374 - والسراجين شبان من بلاد الدولة العثمانية (بلاد الروم) - يسمون (روم اوشاغي) - كانوا يردون الى مصر كمسلمين احرار يرغبون في اداء فريضة الحج - وعند وصولهم الى مصر يلتحقون بخدمة احد الأغوات (القادة) قسادة الفرق العسكرية العثمانية كحراس خصوصيين - ويسمى الواحد منهم في هذه الحالة (سراجا) . وبعد خدمة بضع سنوات في (الجيش الخاص) للمتنفذ العثماني يقوم الأخير بالحق سراجيه باحدى الطوائف العسكرية السبعة ويتقاضى راتبه من الفرقة التي التحق بها (الأوجاق) - في نفس الوقت فان ولاءه يكون لسيده القائد العسكري - وزيادة في الكسب المادي فان سيد (السراج) يلحقه بطائفة تجار جدة الأغنياء - ويتحول اسمه هنا الى تشارك Çirak (وهي تعني تلميذ او اجير - او مرید في اللغة التركية) - وقد ذكر الجبرتي هذه الطائفة باسم (اشراق) - (اشراقات) - أما (الغز) فهو مصطلح يقصد به (الأتراك أو السلطة العثمانية الحاكمة بصفة عامة) وأصل الكلمة أوغوز Oğuz وتعني فرعا من القبائل التركية التي هاجرت من أواسط آسيا واتجهت في رحلاتها تجاه آسيا الصغرى (الأناضول ايران - والعراق) وتعتبر القبائل التي انحدر منها العثمانيون فرعا من هذه القبيلة - ولغويا تحولت الكلمة مع الاستعمال الدارج الى (غز) بضم الغين - واصبحت تعني اصطلاحيا الطبقة الحاكمة بصفة عامة - أو السلطة المتنفذة على البلاد من غير الرعية - بمعنى انه كان يمكن أن يندرج تحتها الممالك في العهد العثماني أيضا - وليس الأتراك فقط .

نظر : P. M. Holt «The Career of Kûçuk Muhammad (1674-94) BsoAs- XXVI 2. PP. 274 - 276.

— Shaw, S. J. «Ottoman Egypt in the 18 th Century, pp. 23-26,

وعبد الرحمن الجبرتي « عجائب الاثار في التراجم والأخبار » ج 1 ص 100 .

وكان تدمر (الرعية) من احوال النظام الحاكم يقابل بالعنف والبطش دون مبرر - ففي عام 1724 م ثارت العامة واغلقت الحوانيت - وضرب اهل القاهرة المشايخ والعلماء لتخلفهم عن القيام بدورهم كسلطة وسيطة بينهم وبين النظام الحاكم - ويصف لنا أحمد جليبي رد فعل النظام الحاكم بقوله «فضربوا (أى القوات العسكرية) الرعية بالبندق والنباييت فقتل من المغاربة رجل ومن الرعية واحد . ثم ان الرعية نزلت الى الرميلة والى بيت جرکس (جرکس بك محمد شيخ البلد فى ذلك الوقت) ، فلما رأهم العزب (طائفة العزبان العسكرية العثمانية) ضربوهم بالبندق فنزلوا على بيت جرکس فضربهم جماعته بالرصاص فانكسروا الى الرميلة (ميدان عند القلعة) ، فبقيت الرعية بين العسكرين ، فما ساع الرعية الا أنهم قصدوا القرافة وتوجهوا الى قبة الامام الشافعى ، وفرقة طلعت الى الجيوشى وفرقة قصدت الامام الليث بن سعد ، وباتوا طول ليلتهم يدعون الله بالعفو . . . وطلع الناس على المنارات يدعون الله بالعفو عنهم وكان دعائهم (دعاءهم) فوق المنارات يا من له المراد فى كل ما أراد . بجاء المصطفى الحبيب تعفو عن البلاد» (III) .

وهكذا فان «الرعية» لم يكن لديهم ما يفعلونه امام ظلم السلطة سوى (الدعاء) للتخفيف عنهم .

ولقد بلغ من عسف السلطة بالرعية أن القتل من الرعايا كانوا لا يسلمون الى ذويهم الا بعد تحصيل مبالغ مالية لرئيس الشرطة (الوالى) .

«فى ليلة الجمعة ثالث رجب سنة 1140 هـ (فبراير 1728 م) عملوا مولد سيدى احمد الرفاعى المعتاد الذى بسوق السلاح ، فحصل فيه شدة ازدحام كبير من كثرة الخلق ، فمات فيه تحت أرجل الخلق سبعة عشر رجلا وولد صغير . . . فأتى آفة مستحفظان وأمر أتباعه بشيل الاموات فشالوهم ووضعهم داخل السبيل - ثم أنه توجه الى منزله وأبقى كتخداه (نائبه) الى ان طلع النهار وأوصاه بأن كل من عرف ميتة يأخذه . . . ثم ان الوالى تعلل وقال الى على كل قتيل أحد عشر قرشا وانى لا أفوت من دفناتهم شيئا» (II2)

وقد كان غرم الصراعات العسكرية بين الطوائف المتنفذة المتناحرة فى النهاية على اهل البلد من الرعية - ففي صراعات عام 1729 بين (جرکس محمد) و(زين الفقار) استقر رأى المتنفيدين من الماليك على تجهيز حملة لمطاردة (جرکس محمد) - فاقترح (زين الفقار بك) جمع تكاليف الحملة وقدره (400 كيس) (II3) من التجار - «المطلوب لتجهيز العسكر اربعمائة كيس

(111) أوضح الإشارات « ص 433 - 434 .

(112) أوضح الإشارات « ص 524 .

(113) الكيس يساوي 500 قرش - والقرش كان يساوي فى الفترة موضوع الدراسة 90 نصف فضة وهي الوحدة الأساسية للنقود فى مصر خلال ذلك الوقت .

نفردا على التجار ثم انه كتب تذاكر وصار يرسلها الى التجار صحبة سراجينه ويرسل صحبة التذكرة صورة تمسك (ايصال) وكتب عليه القدر المطلوب منه دين ، فلما توجه السراجين بالتذاكر او التمسك كتب فيه خمسة آلاف فما يسع التاجر الا أنه يرسل له الفين او ثلاثة آلاف مساعدة ويرسل له التذكرة والتمسك ، فمن جملة ما اخذ من عمر لطفى ثلاثة آلاف ومن أحمد الصراف مثل ذلك ومن عثمان حنون خمسة آلاف ، والذي يعطيه طيبة (عن طيب خاطر) اذا لم يعطيه طيبة تأخذ منه غصيبة اكثر مما طلب (II4) .

اما في الريف فقد كانت علاقات السلطة الحاكمة والمتزمين بالفلاحين اكثر قتامة من اهل المدينة الذين مر ذكرهم في السطور السابقة .

كانت صيغة تقسيط الالتزام (صك الالتزام) الذي يعطى للمتزم بعد فوزه بالمقاطعة (الالتزام) تقول :

«سنكه ملتزم مزبورسن اشبويديكه ويريلان تقسيط ديواني موجبنجه قرية مذبوره وغيره بحق (تذكر هنا المساحة - من الارض التي التزم بها المتلزم) مذبورك فراغنده التزامكه ويريلوب كدكدركه متصرف اولوب اوزرينه اواسى لازم كلان مال ميرى سى وقت وزمانيله ديوان اول وتسليم ايدوب رعايا وبرايا مال حفظ وحمايه سيله مشغول ومقيد اولوب ظلم وتعديده بغايت احتراز اوزره اوله سن» .

(بموجب التقسيط الديوانى الممنوح الى ذلك المتلزم تعطى القرية المذكورة الى التزامك وتكون متصرفا بها دائما وتسلم المال الميرى اللازم عليها فى وقته وحينه الى الديوان وكن مشغولا ومقيدا بالرعايا والبرايا وحفظ مالهم وحمايته واحذر غاية الحذر من الظلم والتعدى) (II5) .

وكان هذا يعنى انه وان كانت الدولة قد اعتنت بتحصيل الاموال - وتكليف المتلزم بتحصيلها بكل عناية وتوريدها فى اوقاتها الى الديوان المختص - الا انها (الدولة) حرصت على ان يتقيد المتلزم (بالرعايا والبرايا وحفظ مالهم وحمايته) - وحذرت الدولة ايضا من الظلم والتعدى .

ولم يفت الدولة أن تنبه الرعايا الى دورهم وواجباتهم تجاه المتلزم - فكانت توجه الى الفلاحين (نميقة) خطابا يحمله المتلزم نصه :

«صدرت هذه لنميقة من ديوان الدفترى المصرى خطابا الى نايب الشرع الشريف والحكام والمشايخ والفلاحين بناحية (. . .) تابع ولاية (. . .) بحق قيراطا . . . من فدان . . . يعرب مضمونها ويوضح مكنونها بان

(114) «أوضح الإشارات» ص 555 .

(115) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة 7 تقاسيط 1211 هـ (1796 م) ملف التزامات 1189 .

الحال اقتضى ان يبرز الامر العالى من الديوان دام بالمفاخر والشان معناه الشريف وفحواه المنيف بأنا هكنا حاملى النميقة ٠٠٠ (اسماء الملتزم او الملتزمين) بحق (تذكر مساحات الاراضى التى التزم عليها الملتزم) باعتبار (يذكر بداية تاريخ الالتزام بالتاريخ القبطى الهجرى) - وأصدرنا هذه النميقة الديوانية بموجب الامر الجليل الشان ومقتضى الحكم المحتم الاذعان - فحال وصوله اليكم وتحقق مفهومه لديكم يكونوا المذكورين متمكنين متصرفين فى (الالتزام) المذكورة بحق (تذكر المساحة الواقع عليها الالتزام) بالزراع والزراعة والاجرة والاجارة وسائر وجوه الانتفاعات وتقووا يلهم وتشددوا عضدهم وتساعدهم اتم مساعدة بموجب الامر الشريف ومقتضى القانون المنيف وبحكم الخوالى السابقة والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم ٠٠٠

فى ١6 محرم سنة ١2١7 « (١١٦) »

لكن واقع الحال يثبت أن هذه الاوامر الرسمية كانت لا تساوى ثمن المداد الذى كانت تكتب به - فقد اكتوى الفلاحون بنار (الظلم بضم الظاء وفتح اللام) و(الكلف بضم الكاف وفتح اللام) (١١٧) - ويكفى القول ان الضرائب على الفلاحين زادت من عام ١083 هـ (١6١2 م) تاريخ صدور دفتر تحرير ابراهيم باشا (١3 محرم ١08١ - آخر جماد أول ١083 هـ : 2 يونيو ١670 - 23 سبتمبر ١672) الخاص بتحديد الضرائب على الولاية المصرية - حتى عام ١724 م ستمائة وثمانون كيسا نتيجة زيادة الظلم والكلف على الفلاحين (١١٨) - وقد اثبت «أحمد جلى عبد الغنى» أن كلفة واحدة على قرية معينة بلغت فى عام ١724 م «خمسون خروفا وقنطار سمن وقنطار عسل وعشرون أردب شعير وعشرة أردب فول وعيش كفايته وخمسون زنجري» (١١٩) .

لذلك لم يكن غريبا ان يضطر الفلاحون الى هجر قراهم والنزوح الى المدينة هربا من جور الملتزمين واخلالهم بالتزامهم امام السلطة العابثة - مشكلين (ظاهرة التسحب) منذ القرن السابع عشر - وهى الاجراء الوحيد الذى كان امام هؤلاء المقهورين فى مواجهة السلطة الغاشمة .

-
- (١١٦) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة 27 روزنامة .
 (١١٧) الظلم والكلف هي المفارم التي كانت تحصل من الفلاحين زيادة عن الضرائب الأميرية التي كانوا يكلفون بدفعها للملتزمين .
 (١١٨) « أوضح الإشارات » ص 438 - 439 .
 (١١٩) « أوضح الإشارات » ص 416 - والزنجري عملة ذهبية كانت تستعمل في مصر خلال سنوات القرن الثامن عشر الى جانب الفندقى - والطرلي - والريال - والكلب - وكانت تسمى احيانا الجنزري - وقد تراوحت قيمتها بين 107 نصف فضة عام 1715 م - و 150 نصف فضة عام 1723 و 160 نصف فضة عام 1731 م انظر « أوضح الإشارات » ص 286 ، 369 ، 576 .

ومع ذلك فإن (التسحب) لم يكن ليقيل الفلاحين من مطاردة الملتزمين وممثلي السلطة لهم - فقد كان من حق السلطة التنفيذية ورجال (الملتزم تعقب (الفلاحين) الذين يكون عليهم أثر فلاحية (التزام بزراعة الارض في الريف) وعادة (حق الملتزم على الفلاحين بالعمل في المساحة المخصصة لزراعته الخاصة والمسماة بالاوسية) وغرامة (المغارم التي كانت تحصل من فلاحى الارض زيادة على الضرائب والتي كان يفرضها الملتزم عسفا) - والتقبض عليهم واعادتهم الى قراهم كرها (120) .

كان هذا هو حال (الرعية) في علاقاتها الاجتماعية مع السلطة الحاكمة واعوانها من الملتزمين .

ويبدو أن شريحة من الرعية في مصر العثمانية - فطننت مبكرا الى (الوسيلة الملائمة) لاقامة (علاقات) مع السلطة بصورة متوازنة - فاستخدمتها مبكرا واستطاعت بالفعل أن تحقق لنفسها وضعا اجتماعيا مناسباً في البلاد .

وأعنى بهذه الشريحة (العربان) من اهل البلاد .

لقد رفض (العربان) في مصر العثمانية الرضوخ لبطش السلطة الحاكمة وتعسفها وقاوموها أشد مقاومة وبادلوها عنفا بعنف - فقاتلوا رجالها - وقاوموا قوانينها - وهاجموا مواكب الحج الرسمية - واعتدوا على القرى - وتحذوا السلطة - واعتدوا عليها - وكانوا أكثر من ند في مواجهة النظام العثماني (121) .

ويبدو أن (القوة) كانت هي اللغة الوحيدة التي يفهمها النظام العثماني الحاكم - فقد تمتع (العربان) في مصر العثمانية بمزايا لم تتوفر لاحد سوى الطبقة الحاكمة نفسها .

من ذلك حصولهم على رواتب ومزايا مالية ترصد لهم في دفاتر الاوجاقات العثمانية (122) - وافتداء النظام الحاكم قوافل الحج بدفع مبالغ مالية سنوية (صر) لقبائل العربان على طرق الحج لمنع تعديهم على هذه القوافل واتقاء لشركهم (123) - واشتراكهم في مهام حفظ الامن في الاماكن النائية في مقابل تصرفهم في مساحات من الاراضى - بمعنى مشاركتهم للمتنفذين من اهل الطبقة الحاكمة في التمتع بمزايا الالتزامات التي كانت مقصورة على هذه الطبقة وبعض اهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين تولوا التزام بعض الموانى - لكن التزام (العربان) في مجال حفظ الامن كان التزاما من نوع خاص - فهو التزام

(120) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة 184 ص 32 سنة 1056 = 1646 م - الملحق رقم (11) .

(121) « أوضح الاشارات » ص 183 - 184 ، 250 ، 304 ، 318 ، 394 ، 420 ، 342 .

(122) « أوضح الاشارات » ص 167 .

(123) Shaw, S. J. « Ottoman Egypt in the 18th Century - The Nizamname - i Misir of Gezzar Ahmed Pasha - pp. 22.

بوظيفة لا يدفع عنها أموالاً لخزينة الدولة - بل ان الدولة هي التي تعطي العربان هنا امتياز التصرف في اراضي منطقة معينة مقابل جهودهم في تنفيذ وظيفة الامن في المنطقة المتزمنين بحفظها - كذلك فان الدولة (الولاية) اسندت الى العربان في هذا المقام مهمة توفير وسائل الانتقال لموظفي الدولة العلية واتباعهم «وحفظهم وصونهم الى ان يصل الى آخر دركهم المتعلق بهم» (I24) .

كذلك فان (الدولة) كانت تمنح (العربان) مزايا عينية تتمثل في تخصيص أنصبة لهم من ايرادات الاراضي الزراعية فيما كان يسمى (بمرتب العربان) - وهو تقليد يبدو انه كان متبعاً على مدى عهود حكام مصر من (الباشوات العثمانيين) أو (المتنفذين الماليك الذين) استولوا على السلطة وشاركوا الدولة العثمانية في حكم مصر .

فالوثيقة التي لدينا بشقيها (العربي) و(العثماني) تفيد انه كانت تصدر في عهد (محمد بك ابو الذهب 1772 - 1775) تحريرات (قوانين او مراسم) يمنح بمقتضاها (العربان) مقادير ثابتة من (الحنطة) - واستمر هذا التقليد متبعاً حتى تاريخ تحرير الوثيقة - 1200 م - ولا يوجد بيدنا ما يفيد توقف هذا التقليد .

«معلم فلتاؤوس مضبطه سندن (من مضبطه المعلم فلتاؤوس) .

مجدد من بعد تحرير المرحوم محمد بيك سنة 1188 هـ (1774 م) داخل مرتب العربان بنواحي العربا والعسيرات داخل (375 أردب حنطة - شعير) بموجب تقرير بيده بختم المرحوم لاجين بك حاكم ولاية جرجاكان - تاريخه 19 ربيع الثاني سنة 1200 هـ (1786 م) مجدّد من ابتدا 1199 (1785) باسم الشيخ احمد بدوي من اهالي ناحية الساحل بالعربا من اصل غلال مصاريف الولاية التي هي الكشفية الى الحاكم من نواحي العسيرات .

(124) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة بدون رقم - وثيقة التزام خفر ناحية قطية بصحراء سيناء بتاريخ 1133/3/6 هـ = 1720 م - ويلاحظ في الوثيقة ان الطرف المقابل للعربان الملتزمين بحفظ الأمن - كان اهم رجال الولاية (احمد بيك الأعسر) دفتر دار مصر الذي عين في هذا المنصب في غرة ربيع اول عام 1133 = ديسمبر 1720 م - و (محمد بيك بن اسماعيل بيك الكبير) أمير الحج الذي عين في هذا المنصب في 23 محرم عام 1133 = نوفمبر 1720 - والأمير محمد بيك جركس أحد كبار زعماء الطائفة القاسمية المملوكية التي تزعم عام 1130 هـ = 1718 م فريقاً من القاسمية وقتل أحد كبار زعمائها (اسماعيل بك بن ابواظ) في عام 1136 هـ = 1723 م - واصبح اقوى شخصية مملوكية في مصر حتى عام 1142 هـ = 1730 عندما قتل في الصراع ضد طائفة الفقارية المملوكية - وبقتله قضى على القاسمية نهائياً - ووجود هؤلاء الثلاثة في الاتفاق مع العربان يوضح الأهمية الاجتماعية والسياسية التي كانت لهذه الشريحة من الرعية المصريين في القرن الثامن عشر ويكشف عن الوضع الاجتماعي للعربان في ذلك الوقت . وكلمة (بيجير منزل) الواردة في السطر (21) من الوثيقة كلمة تركية تعني بغل = بيجير ومنزل = مستانس (بيجير منزل = بغل مستانس) . أنظر الوثيقة المذكورة في ملحق رقم (12) .

وراجع : « أوضح الإشارات » ص 290 - 567 - ود . عبد الكريم رافق « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت 1516 - 1798 » ص 294 - 295 .

كتابه فلتاؤوس يعقوب مجدد من ابتدا 1199 •

دولتسو عنايتلو عمه فقرايه مرحمتلو سلطانم حضر تلىرى
صاغ اولسون عرضحان قوللىرى بودركه بوقوللىرى اقليمنده
جرجيه متعلق عراب عسارايه اهاليسه شيخ احمد بديوى نام كمسنك
يد ينده اولان سند ايسه تقرير حكام سابقا منواله اوزره سنة 1199 عن اصل
مصاريف الولاية بهرسنه التمش اوردب حنطه مصرى ويريله كلوب مراحم عليه
امرنده مرجو دركه كرم عنايت بيورب يد ينده بر قطعه امر على كرمنامه اعطا
بيورب ولايت حاكمه خطابا كما كان فى الاول المذكور التمش اوردب حنط
مصرى ويرى ملك نيازيله كرم امر وفرمان افنديمز - بنده - احمد بديوى -
عرايات اهاليسى» (125) •

ومن المقطوع به أن (العربان) كان لهم فى مصر العثمانية وزن كبير يكاد
يقرب من وضع الطبقة الحاكمة من حيث القوة والنفوذ - فقد شكلوا - قبائل
- قوات غير نظامية تؤدى الخدمات العسكرية شأنها شأن الطوائف العسكرية
العثمانية السبعة فى الولاية - وحصل مشايخهم فى مقابل ذلك على اقطاعات
زراعية كبيرة - فعلى سبيل المثال حصل شيخ العرب (محمد وافى) شيخ عرب
المغاربة باقليم (منفلوط) على اقطاع زراعى شمل بلاد بنى رافع - وبنى سند
والجاوى - وام القصور - والمنشاة - وبسلة - وبنى شعران - ولوق وبنى
زيد - وملوط ابو خليل ، وكان يدفع عن هذه الاقطاعات ضرائب (مال ميرى
وبدل حلوان) قدرها 12840 قرشا فى العام أى ما قيمته 36،48 كيسه - وكان الى
جانب التزامه بدفع المال الميرى يقدم افرادا من قبيلته لاداء خدمات عسكرية •

ويستفاد من ذلك ان (العربان) فى مصر العثمانية كانوا يديرون التزامات
زراعية من نوع خاص خليط من الالتزام المعروف فى مصر والذي يتلخص فى
الالتزام المتلزم بسداد ما على مساحة معينة من الاراضى او مورد مالى معين من
الاموال الاميرية فى مقابل تحصيل مبالغ من المال زائدة عن القدر الذى دفعه
(فايظ) لمصلحته الخاصة - ونظام الاقطاع الزراعى السباهى الذى كان يطبق
فى الاناضول بانواعه الثلاثة (التيماز - الزعامت - الخاص) والذي كان مقتضاه
هيمنة الفارس الاقطاعى على مساحة معينة من الارض فى مقابل تقديم عدد

(125) «حضرة صاحب الدولة والعناية سلطاني راحم الفقراء عامة ليسلم ان معروض عيدكم
هو أن السند الذي في يده (الشيخ احمد بديوي من اهالي عرب العسيرات التابع لإقليم جرجا)
الصادر سنة 1199 بناء على منوال تقرير الحكام سابقا قد أتاح دوما له الحصول على ستون
أردبا من الخنطة المصرية سنويا من اصل مصاريف الولاية . والمرجو من المراحل العلية ان
تفضل العناية باعطائه تقريراً عالى الشأن الى قائم مقام الولاية لإعطائى ستون أردبا من الخنطة
المصرية كما كان في السابق - وان يصدر فرمان وامر وعطف سيدى بذلك المعنى . عبدكم
احمد البديوي من اهالي عرب العسيرات » دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامه - محفظة
روزنامه بدون رقم .

معين من الفرسان للدولة وقت الحاجة - يتناسب مع ما تغله الارض من ايرادات مالية مقيمة بالاقجة (العملة العثمانية الاساسية) .

فهم يقدمون خدمات عسكرية للدولة في مقابل الاراضى التى ينتفعون بها - لكنهم فى نفس الوقت يدفعون (المال الميرى والغلال الميرى وفايض (المال والغلال) لخزينة الولاية كل عام (126) .

من هذه المقارنة بين علاقات أهل المدينة وأهل الريف بالسلطة الحاكمة من ناحية وعلاقات (العربان) بهذه السلطة من ناحية أخرى . نخلص الى أن فكرة الضبط الاجتماعى المستهدفة ضبط البناء الاجتماعى فى مصر العثمانية كانت غائبة تماماً - وأن (القانون) كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى لم يكن له أى وجود - إنما الذى ساد هو شريعة (القوة) - فقد تسيدت السلطة على الرعية فى المدينة والقرية عن طريق منطق القوة والبطش والسف - فرضخ المصريون واستكانوا - ولم يكن امامهم - وقد تخلى عنهم رجال (السلطة الوسيطة) من المشايخ والعلماء - سوى الدعاء من فوق المآذن الى الله بالعفو عن البلاد - وهو مسلك اجتماعى متخاذل يحسب على أهل المدينة فى مصر العثمانية .

وبعكس الحال - فإن العربان الذين رفضوا الاذعان لمنطق القوة الغاشمة العثمانية - المملوكية - وقاوموها وبادلوها عنفا بعنف - فازوا بالمغانم وشاركوا الحاكم المستبد الاسلاب - وحازوا وضعاً اجتماعياً متميزاً .

الخاتمة

عاش المجتمع المصرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر علاقات اجتماعية ذات مظاهر متباينة - فعلى مستوى علاقات الطبقة الحاكمة كان هناك شبه انفصال بين طبقة العامة وطبقة الحكام وتمتع الاخيريون بوضع اجتماعى متميز فى كافة مظاهر الاحتكاك اليومى - بل وضاعت حقوق الرعية فى مواجهة هذا التميز الطبقي الكريه .

ولم تستطع شريعة رجال الدين والعلماء ومشايخ الطوائف والحرف - بحكم وضعها الوظيفى فى المجتمع ان تمارس دورها (كسلطة وسيطة) بين الحكام والمحكومين - وتقاومت عن التخفيف عن الاخيرين - واستحسننت - فئة رجال الدين والعلماء والمشايخ أن تفيد من وضعها الدينى للثراء واكتساب

(126) دار الوثائق القومية - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة بدون رقم - وثيقة روزنامة بعنوان تابع اقليم منفلسوط عن محلول شيخ العرب محمد وافى عن مال ميرى وغلال ميرى وفايض مال وغلال واجب سنة 1216 = 1801 م - انظر الملحق رقم (13) - والترجمة العربية المرفقة بالملحق المذكور - وراجع أيضاً الحاشية 125 والملحق رقم (12) .

المزايا عن طريق توظيف الدين لصالح السياسة ففازوا بالمغانم وقنعوا بملء خزانهم بالاموال ودخلوا فى علاقات التصاهر مع السادة من الطبقة الحاكمة تاركين الرعية تعاني مساوىء الخلل الاجتماعى الذى ساد البلاد .

ولا يبدو أن مصر العثمانية كانت تعاني من ظاهرة التعصب الدينى خلال الفترة موضوع الدراسة - فقد عاش اهل الذمة حياتهم الاجتماعية بصورة سوية فتزاجوا وانفصلوا واختلفوا وتداعوا - واشتروا وباعوا وتشاركوا مع مسلمى الولاية - وشغلوا وظائف فى الاجهزة المالية وتعاطوا (الالتزام) الذى كان مقصورا على طبقة الحكام - ولم يتعرضوا لمظاهر التعصب الدينى الا فى حالات نادرة لا يصح اعتبارها تشكل ظاهرة عامة - كما ان اهل الذمة استرقوا رقيقا من نفس دياناتهم واعتقوهم كما كان يفعل المسلمون .

وقد تمتعت النساء فى مصر العثمانية بحرية شخصية فى حياتهن بصفة عامة - فباشرن كافة اشكال المعاملات التجارية والقضائية - وكشفن عن وجوههن ومواضع اخرى من اجسامهن خلال تعاملهن الاجتماعى بصورة تشير التساؤل حول قضية (السفور) فى مصر العثمانية - وقد فازت المرأة المصرية بقدر من الحرية الشخصية يفوق كثيرا ما كان للمرأة فى عالم (الحريم) الخاص بالطبقة الحاكمة - فبينما مارسست المرأة من الرعية حقوقها الشخصية كاملة ، فان المرأة من الطبقة الحاكمة عاشت حياة العبودية حتى بعد عتقها - فتعلقت حريتها الشخصية بارادة (سيدها) يزوجها لمن يشاء - فاذا مات أو قتل انتقلت هذه الارادة الى سيدها الجديد المنتصر الذى يفوز بمال المهزوم ونسائه .

وقد فازت العلاقات الشخصية بنصيب كبير فى مجال العلاقات الاجتماعية بصفة عامة - وهو أمر لا تختص به الفترة موضوع الدراسة - فمسائل الاحوال الشخصية أو (قضايا الانكحة) تمثل اكبر حجم للعلاقات بين الناس على طول الازمنة - وقد تميزت العلاقات من هذا النوع بنماذج اختفت من مجتمعاتنا فى الوقت الحاضر - فقد تميزت العلاقات الشخصية فى الفترة موضوع الدراسة بانخفاض قيمة الصداق المسمى بين طبقات العامة - وكذلك نفقات الاطفال من الزواج - كما كثرت حالات التنازل عن الحق فى حضانة الصغير عند الزواج باجنبى فى مقابل التعهد بتحمل نفقات الصغير - وذكر فى تعاقدات الزواج المبالغ التى يتعهد الزوج بدفعها للزوجة شهريا مقابل (كسوتها) صيفا وشتاء - ومعايير تقدير هذه المبالغ - وهى مؤشرات لها دلالاتها فيما يتعلق بالمستوى الاجتماعى لهذه الطبقة .

ورهن الازواج متعلقاتهم الشخصية لزوجاتهم فى مقابل ما تصرفوا فيه من حليهن - أو تنازلوا لهن عن ممتلكاتهم فى مقابل صداق مؤخر ، رغم ما تعارف عليه الكافة من استحقاق مؤخر الصداق عند (الموت أو الفراق) - وهى مسائل تكشف عن حقيقة العلاقات بين الزوجات والازواج فى مصر العثمانية .

وانفصلت الزوجات عن أزواجهن للغبية التى بلغت سنوات ثلاثا - وظهرت مشاكل المعيشة مع (الحموات : أم الزوج أو الزوجة) .

وظهرت فى عقود الزواج فى الفترة موضوع الدراسة شروط علقّت فيها الزوجة استمرار الحياة الزوجية على وفاء الزوج بتعهداته بعدم الزواج عليها كلية - أو بعدم الزواج عليها بأكثر ممن هن فى عصمته من الزوجات - أو بعدم رد مطلقة من مطلقاته - وأصبح الشرط الفاسخ من مظاهر عقود الزواج فى مصر العثمانية .

وقد وجد فى مصر العثمانية (العبيد) من الجنسين ، والجوارى - وتسرى الأزواج (بالسرارى) الى جانب الزوجات - كما عقدت عقود الزواج فى حالات كانت الزوجة فيها قاصرة عن البلوغ .

وفى غياب فكرة الضبط الاجتماعى فى البناء الاجتماعى المصرى فى الفترة موضوع الدراسة - واختفاء وسائل هذا الضبط تعرض العامة من اهل المدينة والقرية لبطش السلطة وقسوتها وعسفها - وفسدت العلاقة بين الحاكمين والمحكومين - وأصبحت (القوة) هى اللغة التى يفهمها المجتمع المصرى بطوائفه المختلفة .

وبينما خضع مجتمع المدينة والقرية لهذا المسلك السلطوى واتخذ فى مقابلته سلوكا سلبيا متخاذلا - فإن (العربان) رفضوا هذا المنطق وراحوا يقابلون الاساءة بالاساءة - فتحدوا السلطة وقاوموها وقاتلوها - ورفضوا تعسفها - ففازوا بمزايا المشاركة فى السلطة - أو تمكنوا من تجنب عنف السلطة - على الأقل - ثم حصلوا على المزايا الاقتصادية التى انفردت بها الطبقة الحاكمة وأقاموا لانفسهم وضعا اجتماعيا يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذى فرض على مجتمع الرعية فى مصر - وأكدوا بذلك أن (القوة) هى العلاج الامثل فى المجتمعات التى تختل فيها موازين العلاقات الاجتماعية .

ان هذه الصورة المختلة للعلاقات الاجتماعية فى مصر العثمانية كانت وليدة مفهوم الحكم العثمانى للعلاقات بين الحاكم والرعية - وهو مفهوم مؤداه أن السيادة للحاكم فقط - والعبودية لرعاياه - وبكلمات أخرى فإن المجتمع العثمانى - فى الفترة موضوع الدراسة كان مجتمع السادة والعبيد - وهو مجتمع لا يمكن ان تستقيم فيه علاقات اجتماعية سوية - وفقا لما نفهمه عن هذه العلاقات فى مجتمعاتنا الحديثة - فالنظام الحاكم فى مثل هذا النوع من المجتمعات منبت الصلة عن الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه - أسلوب تعامله البطش - وأداته العسف والقوة .

ونظام حاكم قابض بهذه الصورة لا يمكن أن يفرز الا شيئا كهذا الذى قدمته الدراسة - ولم يكن من المتيسر ان تتغير هذه الصورة الا بحدوث تغيير فى أحد اتجاهين - فى القمة فيتغير مفهوم السلطة عند اصحابها وبالتالى تتغير

نظرة الحكام الى المحكومين - أو في القاع فيحاول المحكومون تغيير الوضع الذي هم فيه . ولقد حدث بالفعل هذان التغيران وان كان ثانيهما قد سبق الاول - فقد أحدثت الحملة الفرنسية على مصر (1798 - 1801) الهزة التي ايقظت المصريين وأشعرتهم بالوضع المستكين الذي رضوا به قرونا طويلة - وكان ذلك من خلال منشور نابليون والى الشعب المصرى - فبدأ الشعب يشعر بكيانه وبدأت ارهاصات ذلك تظهر في بدايات القرن التاسع عشر عندما أقدم الشعب على اختيار (وال) دون رغبة السلطان العثماني .

أما التغيير في القمة فقد تأخر بعض الوقت ولم يبدأ الا في نهاية ثلاثينات القرن التاسع عشر - عندما شعر سلاطين آل عثمان بضرورة مواكبة ركب الحضارة والتمدن وتغيير مفهوم السلطة والحكومة - وبالتالي نظرة القمة الى القاعدة - فكانت (التنظيمات الخيرية 1839 - 1876) التي غيرت مفهوم العلاقة بين السلطة الحاكمة والمحكومين - وأزالت مظاهر عبودية الرعاية للسلطان . وبدأت منذ ذلك الوقت بالفعل مظاهر الايمان (بالضبط الاجتماعي) كفكرة تستهدف (ضبط البناء الاجتماعي) - تظهر ملامحها في المجتمع العثماني بصفة عامة - وكانت بالتبعية وسيلة الضبط الاجتماعي هي مجموعة القوانين الصادرة في الثالث من نوفمبر 1839 (خط شريف كلخانة) Hatt-i Humayun (127) .

د . عبد الوهاب بكر

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مصر

— Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw «History of the Ottoman (127) Empire and Modern Turkey» Vol II Reform, Revolution, and Republic...» pp. 55-170.

ظهرت برامج الإصلاح العثمانية على يد مصطفى رشيد باشا كنتاج لإصلاحات السلطان محمود الثاني - وأجرى رشيد تنقيحها - وأعلنت رسميا في 13 نوفمبر 1839 في قانون وقعه السلطان (خط همايون) وقرأه مصطفى رشيد باشا أمام تجمع من الأعيان يمثلون المؤسسات الأساسية والطبقات وجماعات من المجتمع العثماني - والبعثات الأجنبية - وكان ذلك في (ميدان كلخانة) تحت اسوار (قصر طوب قابو) المطل على بحر مرمره - وتضمن القانون الإرادة السلطانية بإنشاء مؤسسات جديدة (1) تضمن أمن الرعاية على أرواحهم ، وأعراضهم وممتلكاتهم (2) وتأسيس نظام لتقدير الضرائب (3) وإقامة قواعد جديدة للتجنيد والتدريب والتمنية بالجنود في الجيوش المحمدية المنصورة (اي الجيش العثماني) .

الملاحق

- الملحق رقم (1) - من دار الوثائق القومية بالقلمة - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة بدون رقم .
- الملحق رقم (2) - من دار الوثائق القومية بالقلمة - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة بتاريخ 14 ربيع أول 1161 هـ (1748 م) .
- الملحق رقم (3) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة (90) ص (16) سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (4) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) - وثيقة (152) ص 28 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (5) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (291) ص 52 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (6) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (11) ص 2 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (7) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (44) ص 11 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (8) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (160) ص 30 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (9) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (230) ص 40 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (10) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (273) ص 48 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (11) - مصلحة الشهر العقاري والتوثيق بالقاهرة - سجل محكمة الباب العالي رقم (123) وثيقة (184) ص 32 سنة 1056 هـ = 1646 م .
- الملحق رقم (12) - دار الوثائق القومية بالقلمة - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة بدون رقم -
- الملحق رقم (13) - دار الوثائق القومية بالقلمة - ديوان الروزنامة - محفظة روزنامة بدون رقم -

الملحق رقم 2

الأمر حسبما ذكر فيه محمد القاضي بمدينة دمياط عفى عنه ^{ختم} توكلني على خالتي
عبد محمد

سبب تحرير حروفه وموجب تسطيرها هو أنه بالباب العالي
المحروس أجله الله تعالى وأدام بركة متوليه وإيامه الزاهرة بين يدي مولانا وسيدنا فخر
قضاة الإسلام جمال كمال ولادة الأنام معدن الفضل والجلود والوائق بعناية الملك
المبني مولانا محمد أفندي الناظر في الأحكام الشرعية والأمور الدينية والدنيوية والتعلقات
الشريفة السلطانية يومئذ بالثغر المذكور (....) وتوابعهما دامت سيادتهما آمين أشهد على
نفسه فخر الأمائل والأعيان مصطفى جورباجي بالقلمة العربية الكاينة بالبحر بقوه الثغر
المذكور ابن محمد جورباجي وهو المعين حواله بالامر الشريف الديواني المسطر باطنه زيد
قدره شهوده الإشهاد الشرعي وهو بأكمل الاوصاف المعتبرة شرعا انه قبض وتسلم ووصل
اليه من ديوان الثغر المذكور من مال مقاطعته الجاري التزام المقاطعة المذكورة على المعلم
ياسف الربان اليهودي ببصر من يد وكيله في المقاطعة المذكورة بالثغر المذكور حالا هو
الذمي اسحاق اليهودي الثابت توكليله عنه فيما يذكر فيه بالطريق الشرعي ثبوتا شرعيا مبلغا
قدره من الانصاف الفضة المدية بمعاملة تاريخه بالديار المصرية ستة عشر ألف نصف فضا
ومائة نصف فضة وتسعة وثلاثون نصف فضة وأن المبلغ المذكور هو القدر المعين بالامر
الشريف الديواني المسطر باطنه القبض والتسليم والوصول الشرعيان من يوم تاريخ ادناه بالتسام
والكمال وان ذلك جامكية الشهر الحوالة المذكور هو وبقية رفاقه المحافظين بالقلمة المذكورة
عن مواجب ثلاثة أشهر وهي شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان من شهور سنة أربع
ومائة ألف المعين ذلك باطنه وان الحوالة الشهر المذكور لم يتأخر له من ذلك مطالبة ولا شيء
قل ولا جل وان على الشهر الحوالة المذكور الخروج عن عهدة ما قبضه لرفقائه المحافظين
بالقلمة المذكورة اعلاه بالطريق الشرعي وانه بمقتضى ذلك صار المعلم ياسف ملتزم المقاطعة
المذكورة يستحق المحاسبة بالديوان العالي بمصر بالمبلغ المعين المذكور ليقام له مما عليه من مال
مقاطعة الثغر المذكور عن سنة تاريخه المعينة المذكورة اعلاه وصدقه على ذلك وقبل منه ذلك
الموكل له الذمي اسحاق الوكيل المذكور التصديق الشرعي المقبول شرعا باعترافيهما بذلك
وتصادقهما عليه الاعتراف والتصادق الشرعيين وثبت مضمون ذلك كما شرح اعلاه لدى
مولانا أفندي المشار اليه بشهادة شهوده وصدوره لديه ثبوتا شرعيا تاما معتبرا ومحررا
مرعيا واشهد على نفسه بذلك وجري ذلك وحرر به شهد في عاشر صفر الخير سنة خمس
ومائة والف .

شهود

شهود

وما توفيتي الا بالله
عليه توكلت واليه انيب
لا اله الا الله الملك الحق
المبين
عبد علي

* * *

الملحق رقم 3

لدى مولانا قايم مقام دام عزه

تصادقت الحرمة خديجة المرأة ابنة المرحوم محمد بن يوسف القويني مع المعلم هارون
ولد مردخاي ولد سليمان اليهودي الربان وهو معروف لشهوده تصادقا شرعيا في صحبتها
وسلامتهما وطواعيتهما واختيارهما وجواز الإشهاد عليهما شرعا على ان ما تستحقه الحرمة
خديجة المذكورة بدمه هارون المذكور مما كان بينهما من عقد الشركة الشرعية السابقة على
تاريخه المعينة بالحجة المسطرة من هذه المحكمة المؤرخة بثالث عشر شوال سنة اثنتين

وأربعين ألف المعلوم لهما شرعا ثلاثمائة نصف فضة مقبوض ذلك بيدها منه القبض الشرعي بتسام ذلك وكساله باعترافيهما بذلك لشهوده الاعتراف الشرعي أقرت الحرمة خديجة المذكورة وهي فريق والمعلم هارون المذكور وهو فريق الإقرار الشرعي وهما بالصفة المشروحة أعلاه أن كل فريق منهما لا يستحق ولا يستوجب قبل الفريق الآخر بسبب ما من الأسباب كلها حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا دعوى ولا طلب بوجه ولا سبب ولا فضة ولا ذهب ولا فلوسا ولا نحاسا ولا شركة ولا راس مال شركة ولا ربحا ولا خسرانا ولا مرجانا ولا بضائع بأنواعها ولا ثمننا عن ذلك ولادينا ولا عينا بحجة ولا بوثيقة ولا بذمة ولا بينة ولا بغير ذلك ولا سهوا ولا نسيانا ولا ذهولا ولا حمالة ولا علاقة ولا تبعة وأبرا كل فريق منهما ذمة الفريق الآخر ويده وعهدته وأمانته أبرأ شرعيا قاطعا مانعا مسقطا مهبطا لكل حق ودعوى وطلب ويمين مقدم سببه والى تاريخه وتصادقا على ذلك كله التصادق الشرعي المقبول - زادت الحرمة خديجة المذكورة في أقرارها أنها لا تستحق قبل الذي مردخاي وشقيقه سوريا ولدا المعلم هارون المرقوم أعلاه حقا مطلقا ولا يعينا بالله سبحانه وتعالى وقيل ذلك لأنفسهما مردخاي وسوريا المذكوران أعلاه قبولاً شرعياً وصدر ذلك جميعه بحضور الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن الشيخ إبراهيم القويني زوج خديجة المذكورة والمحترم سلامة ابن محمد القويني وهو أخو خديجة المذكورة لأُمها والشيخ عبد الله وولده الشيخ علي ولدا المرحوم الشيخ إبراهيم القويني واطلاعههم على ذلك وعرفو بخديجة المذكورة التعريف الشرعي الكافي في مثل ذلك شرعا وثبت الإشهاد بذلك لدى مولانا الحاكم الموصى إليه أعلاه بشهادة شهوده ثبوتاً شرعياً وحكم بموجب ذلك الحكم الشرعي وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد في سابع عشر المحرم الحرام سنة ست وخمسين وألف .

الشيخ أحمد السوادي

الشيخ عبد اللطيف الشراني

الملحق رقم 4

لدى مولانا الحاكم الحنفى بعد ان حضر الذي حنان ولد عطية اليهودي الربان الزيات بخط حارة اليهود ومعه زوجته الحرمة جوهرة بنت مردخاي اليهودية وسأله سائل شرعي ان يطلق زوجته المذكورة من عصمته وعقد نكاحه طليقة واحدة على درهم فضة في ذمته لها على الحلول وأجابه لذلك وطلقتها من عصمته الطليقة المسبقة على العوض المرقوم وأعترف بالدخول بها والإصابة وبأن هذه الطليقة مسبقة بطليقة قبلها مكتملة لعدد الطلاق الثلاث اعترافاً شرعياً صدر بينهما التخاصم والتنازع بسبب مؤخر الصداق وكسوتها عليه وبأن يقرر نفقة حملها منه ولبنتها سببته المرضعة وأجاب حنان المطلق المرقوم بأن مؤخر صداقها عليه مائة نصف وخمسون نصف فضة متجمد لها عليه في كل سنة خمسة عشر نصف فضة كما هو معبر بوثيقة النكاح المسطرة من الصالحية المؤرخ في رابع عشرين شوال سنة خمسة وخمسين وألف وتمسك عليها بذلك وبأنه دفع لها تحت كسوتها عليه من حين تزوجه بها والى تاريخه خمسة وعشرون نصفاً فضة بتعويض نصف مقطع روبي وصدقته على ذلك قرر لها على نفسه برضاه عن نفقة حملها الظاهر من تاريخه والى حين الوضع ولما انفصل عنه الحمل مع اجرة رضاع بنته منها وهي سببته المرضعة وارضاعها مادامت على حضانه والدتها لكل يوم يمضي من تاريخه نصفين فضة فلوسا نحاسا هو لنفقة الحمل ولما انفصل عنه الحمل نصف واحد فلوسا وما هو لابنته سببته النصف الباقى الى انقضاء أمد الرضاعة وعن غدايتها وعشاتها ستون نصف فضة من متجمد الصداق على سبيل التعجيل وصار المتأخر لها عليه تسعون نصف فضة وأقر الإقرار الشرعي ان كل واحد منهما لا يستحق قبل الآخر حقا مطلقا ولا صداقا ولا نفقة ولا علة ولا تبعة ولا يمين بالله تعالى الى تاريخه سوى التسعين نصف الفضة الباقية من متجمد الطلاق (....) التقرير تقريراً على ذلك وتصادقا على ذلك وثبت الإشهاد بذلك لدى الحاكم المرقوم بشهادة شهوده ثبوتاً شرعياً وحكم بموجب ذلك في خامس عشر من محرم سنة ست وخمسين وألف .

الشيخ محمد الأبحر

الشيخ محمد الإمام

الملحق رقم 5

لدى مولانا قسايم مقام أشهد عليه الذمي ياسف بن داود بن ياسف اليهودي الشهير بعشير الربان الصراف بالديوان شهوده الإشهاد الشرعي وهو بحال الصحة والسلامة والطوعية والإختيار أنه صدق على صحة العتق الصادر منه لمرقوقته قبل تاريخه هي الذمية راحيل المرأة اليهودية الحمراء اللون الفلاسية الجنس المعين العتق المرقوم بالحجة المسطرة من الصالحية المؤرخة في ثالث جساوي الأول سنة ثلاث وخمسين وألف تصديقا شرعيا لا دافع له في ذلك بوجه من الوجوه ولا بطريق من الطرق ولا بحال من الأحوال كلها وثبت الإشهاد عليه بذلك لدى الحاكم المشار اليه بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا وحكم بموجب الحكم الشرعي في ثالث عشر ربيع الأول سنة ستة وخمسين وألف .

الشيخ علي القصري

الشيخ

الملحق رقم 6

حضر الشيخ علي بن المرحوم أبو النصر العلاف ومعه مطلقة سابقة الحرة كريمة المرأة بنت حسين بن علي زويني وتخاصما وتنازعا بسبب فرض بنته منها المدعوة (بغداد) الصغيرة الدارج المقرر عليه في كل يوم نصف واحد فلوسا بحجة شرعية مخلدة بيدها - وسقوط حضانتها لتزوجها برجل أجنبي ، ثم أنها تطارحت مع أحكام التقرير الغرض المذكور المعين بالحجة المذكورة التطارح الشرعي واشهدت على ذلك الإشهاد الشرعي طائفة مختارة انها تحملت عن مطلقة المذكور اعلاه نفقة بنته المذكورة ولوازمها الشرعية من تاريخه ادناه الى الزفاف التحمل الشرعي وقبل ذلك منها المطلق المذكور وأقام ابنته المذكورة في حضانة والدتها المذكورة المدة المذكورة عازبة كانت أم متزوجة مسافرة أو مقيمة مسافرا هو أو مقيم واسقط حقه في طلبها وانتزاعها منها في المدة المذكورة الإقامة والإسقاط الشرعي وقبلت ذلك منه المطلقة المذكورة وأقرت الإقرار الشرعي أنها لا تستحق قبل الشيخ على المطلق المذكور بسبب الغرض المعين بالحجة المذكورة حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا طلب ولا دعوى ولا قضية ولا ذهاب ولا علق ولا تبعه الى آخر سلف من الزمان والى تاريخه وتصادقا على ذلك ... التصديق الشرعي وثبت الإشهاد بذلك لدى مولانا الحاكم المشار اليه بشهادة شهوده ...

وجرى ذلك في ثالث محرم الحرام سنة ست وخمسين وألف وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشيخ محمد الإمام

الشيخ محمد السامولي

الملحق رقم 7

لدى مولانا قسايم مقام افندي دامت عزتة آمين .

أقر فخر الأمثال مراد بن محمد بك باشي طائفة اليتيمجية بمصر اقرارا شرعيا وهو في كمال الصحة والسلامة والطوعية والإختيار وجواز الإشهاد عليه شرعا من غير اكراه ولا اجبار ان عنده في ذمته بحق صحيح شرعي حرمة المصونه مباشرين المرأة بنت الحاضرة معه بالمجلس مبلغا قدره مائة غرش يقوم لها بذلك جملة واحدة على حكم المخلول الشرعي وان ذلك ترتب لها بذمته بدل زوج سوار من الذهب زنتها خمسون مثقالا تسلم ذلك منها قبل تاريخه وتصرف فيه لنفسه بالبيع بمائة غرش وصدقته على ذلك وقبلته منه لنفسها - ورهن الأمير مراد بلوك باشي المذكور اعلاه تحت يد زوجته المذكور توثقة على المائة غرش المذكورة وعلى كل جزء منها الى حين وفايها شرعا جميع سيف من البولاد بقراب اسود مفوض القبضه ووسط

القرباب وفيه والأطراف مطلا بالذهب ، وجميع فرجية من الجوخ المناويشي مسجفة بسجاف كمنجبة أحمر وتفصيلتين هندي مخططين وسنجير من الجوخ الأحمر معلوم ذلك لهما شرعا رهنا شرعيا مسلما ليدها منه التسليم الشرعي (و) صدق على صحة التعويض الشرعي الصادر قبل تاريخه منه لزوجه الحرة مباشرة للصحة التي قدرها النصف اثنا عشر سهما شايعة في كامل المكان المعروف بالخوش الكاين داخل خوخة الغافية ببولاك في نظير مؤخر صداقها وصدق أيضا على جريان الجارية المدعوة رمانة ابنة عبد الله السودا في ملك زوجته المذكورة بمقتضى انها اشترت ذلك من مالها ... وبأنه لاحق له في الجارية المذكورة وقبلت ذلك منه زوجته المذكورة لنفسها القبول الشرعي (و) ان كل واحد منهما لا يستحق على الآخر سوى المائة غرش التي بذمة الأمير مراد بلوك باشي المشار اليه لزوجه الحرة مباشرة المذكورة على حكمها المسطور وعلقة رهن السيف والأعيان المذكورة تحت يدها على حكم ما هو مشروح اعلاه وحكم بموجب ذلك في ثامن محرم الحرام سنة ست وخمسين والاف الشيخ محمد الإمام الشيخ محمد السامولي .

* * *

الملحق رقم 8

لدى مولانا الحاكم الحنفي سألت الحرة فاطمة زوجها ... أن يطلقها من عصمته وعقد نكاحه طلقة واحدة لملكها نفسها - على درهم فضة في ذمتها له على الحلول أجاب سؤلها لذلك وطلقها على ذلك الطلقة المسؤولة على العوض المذكور واعترفا بالدخول والإصابة وعلى أن آخر ما تستحقه المطلقة للذة مطلقها من مؤخر صداقها ... مبلغا قدره من القروش المعاملة عشرة غروش مقبوضة بيدها بالحضرة وحكم بموجب ذلك الحكم الشرعي

* * *

الملحق رقم 9

لدى مولانا الحاكم الحنفي اصدق المعلم يوسف بن علي القصاب هو في البقري والجاموس ببولاك مخطوبته سكرية المرأة ابنة صداقا قدره من القروش المعاملة ثلاثون غروشا الحال لهما عليه من ذلك عشرون غروشا مقبوض لهما من ذلك عشرة غروش ... وبقي الحال على حكمه والعشرة غروش الباقية تحل بموت أو فراق زوجها المذكور وقرر الزوج على نفسه برضاه لزوجه كسوتها الشرعية عليه لكل شهر يمضي من تاريخه عشرة انصاف فضة وعلق لهما على نفسه برضاه أنه لا يتزوج عليها زوجة غير التي في عصمته الان . ولايرد عليها مطلقة من مطلقاته ومتى فعل ذلك وثبت عليه بالوجه الشرعي وأبرأته زوجته من ربع غرش من مؤخر صداقها عليه تكن حين ذلك طالقا طلقة واحدة تملك بها نفسها تقريراً وتعليقاً شرعيين وثبت جريان النكاح بالمسمى على حكمه والتقرير والتعليق المشروح لدى الحاكم المشار اليه ثبوتاً شرعياً

* * *

الملحق رقم 10

لدى مولانا الحاكم الحنفي اصدق العلوي علي بن محمد التاجر في الأتمشة بسوق أمير الجيوش مخطوبته الحرة سعادة المرأة ابنة احمد بن يوسف ... صداقا قدره من القروش المعاملة خمسة وأربعون غروشا الحال من ذلك ثلاثون غروشا مقبوضة بيده والباقي بعد ذلك وقدره خمسة عشر غروشا يحل لهما عليه بموت أو فراق زوجها وقرر الزوج المذكور على نفسه برضاه لزوجه بدلا عن كسوتها الشرعية عليه لكل شهر من تاريخه عشرون نصف فلسوسا تقريراً شرعياً وعلق الزوج المرقوم على نفسه برضاه لزوجه انه متى

تزوج عليها زوجة غيرها وغير التي في عصمته الآن هي الحرمة (.....) زوجته المرأة أو رد عليها مطلقة من مطلقاته أو تسرى عليها بسرية من أى الأجناس كانت وثبت ذلك عليه أو شيء منه بالطريق الشرعي وأبرأته زوجته سعادة المذكورة من ربيع غرش مما تستحقه يذمه اذ ذلك - تكن حين ذلك طالقاً من عصمته وعقد نكاحه طلاقاً واحدة تملك بها نفسها تعليقاً شرعياً ملفوظاً به مقبولاً وثبت جريان النكاح بالمهر المسبى حكمه والتقرير والتعليق المعين لدى الحاكم المشار اليه وحكم بموجب ذلك

* * *

الملحق رقم 11

لدى مولانا الحاكم الحنفى بعد أن حضر الاخوان الشقيقان هما الحاج محمد والحاج سلامة ولدا المرحوم محمد الشهير بسيط التاجر كلاهما بسوق نعل الربيع الطاهري بمصر وحضر معهم على بن حماد شيخ ناحية (ديرين) بولاية الغربية وصدر بينهم التخاصم والتنازع بسبب ما ادعاه الاخوان على (علي) شيخ الناحية المذكورة من أنه في يوم تاريخه حضر لهما وهما يحانوثيهما التكاين سفلى الربيع المذكور وحضر لهما جماعة من الأجناد من توابع ملتزم الناحية وتعرضوا لهما وارادوا ايقاع القبض عليهما وذكروا لهما بأنهما من فلاحين ناحية ديرين المذكورة وان عليهما (أثر فلاح) و (عادة) بالناحية المذكورة - والحال انهما لم يكونا من الفلاحين بالناحية المذكورة وليس عليهما (عادة) ولا (غرامة) ولا (أثر فلاح) بها وانهما مقيمان بمصر نحو خمسين سنة فأكثر لم ييرحاً منها شتاً ولا صيفاً وأنه قد حصل لهما بسبب تعرض (علي) المذكور والجماعة المذكورين أذية وضرر وانهما حضرا لمجلس الشرع الشريف التمسك به ومنع من يتعرض لهما في ذلك بغير وجه شرعي - وطلبا من الحاكم المومى اليه استفسار (علي) المذكور عن سبب التعرض لهما وسئل (وسئل) منه عن حقيقة الأمر في ذلك فأنكر كونه بغير حق لهما وكونه أحضر لهما جماعة الملتزم بالناحية وذكر بأنهما ليسا من الفلاحين ولا عليهما (أثر فلاح) بها ولا (عادة) ولا (مغارم) ولا غيرها - ثم حضر بحضورهم جمع من المسلمين منهم الشيخ أبو النجا بن مجاهد النبراوي والحاج شريف بن فرهاد (النبراوي) شهاب ابن أبو النضر وأخبروا الحاكم المشار اليه بان الحاج محمد وأخاه سلامه لم يكونا فلاحين بناحية (ديرين) وليس عليهما أثر فلاح) بها ولا (عادة بغرامة) ولا غيرها وأنهما مقيمان بمصر المحروسة منذ خمسين سنة فما فوقها ولم ييرحاً منها شتاً ولا صيفاً يعلسون ذلك ويشهدون به الإخبار الشرعي الواقع بحضور (علي) شيخ الناحية وصدق على ذلك كذلك - فعند ذلك منع الحاكم المومى اليه من التعرض للحاج محمد والحاج سلامه المذكورين بسبب ما ذكر مناعاً شرعياً وكتب ذلك ليتمسكا به عند الاحتياج تحريراً في قاسع صفر سنة ست وخمسين وألف

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

ترجمة الملحق رقم 13

معروض عبدكم ما يلي : لقد أبدى ابن وافي أحد مشايخ العربان صدقا وثباتا في الخدمة السنية وفي معيته بضع مئات من الخيالة - وسيبذل المساعي ليكون مثالا للصدق والغيرة التي لجميع العساكر السلطانية في خدماتها . وقد اقتضت المصلحة الإحسان عليه بالقرى الميمنة اعلاه والتي كانت في عهدة المرحوم والده في اقليم متفلوط مجانا في مقابل خدماته - خاصة وان القرى المذكورة المسجلة للأمرء والعساكر خربة وعاطلة تقريبا وليس هنالك من هو أقدر منه على اعسارهما .

وبموجب ما هو مجبول عليه فقد استندت اليه طبقا للشروط الواجبة واعطيت له السندات اللازمة . وبمتمتهى خلوص النية في الإيفاء بواجبات صيانة بيت مال المسلمين فقد قيدت على عهده هذه القرى لمدة ستة عشر عاما وسلمت له السندات اللازمة لذلك بعد تقرير الخلوان اللازم على الوجه المناسب - وقد تم ارسال الإرادة السنية المتعلقة بذلك الى صاحب المأمورية بمعرفة رئيس المعلمين جرجس الجوهري وتم تقدير الخلوان وحسابه على اساس ستين ونصف على وجه العدالة ونظر التقرير - وضمها جميعا الى الأموال الأميرية للستة عشر عاما وبلغت جميعها ثلاثة وسبعون ألفا وستمائة واثنان وثمانون قرشا على أن تقسط على أربعة أقساط كل واحد منها ثمانية عشر ألفا وأربعمائة وعشرون قرشا ونصف - يحين القسط الأول بيمينه تعالى في شوال عام سبعة عشر ومائتين واللف - أما الأقساط الثلاثة الباقية أن شاء المولى تبحين تسليمها الى جهة مصر في شوال عام ثمانية عشر ، وتسعة عشر ، وعشرين . وسوف تؤدى المال والغلال في وقتها وزمانها نقدا وعينا كما هو محسوب .

فإذا كان قيدها على عهده - بشرط عدم جواز التداخل ومنحه السندات اللازمة لذلك - موافق لرأيكم السامي - فإن الأمر والفرمان يصدر من حضرة صاحب الدولة والعناية أفندم ،

محمد شريف الدفتري

ختم

مصادر الدراسة

أولا : المصادر العربية

- وثائق غير منشورة :

(1) سجل محكمة الباب العالي رقم (123) بمصلحة الشهر العقاري والتوثيق - الوثائق أرقام :

1056 سنة	41	صفحة	231	1055 سنة	1	صفحة	1
1056 سنة	43	صفحة	243	1055 سنة	1	صفحة	3
1056 سنة	47	صفحة	266	1056 سنة	2	صفحة	6
1056 سنة	48	صفحة	273	1056 سنة	2	صفحة	11
1056 سنة	49	صفحة	277	1056 سنة	2	صفحة	13
1056 سنة	49	صفحة	279	1056 سنة	3	صفحة	15
1056 سنة	49	صفحة	280	1056 سنة	4	صفحة	19
1056 سنة	52	صفحة	291	1056 سنة	5	صفحة	26
1056 سنة	59	صفحة	327	1056 سنة	5	صفحة	31
				1056 سنة	5	صفحة	32
				1056 سنة	6	صفحة	37
				1056 سنة	7	صفحة	39
				1056 سنة	11	صفحة	44
				1056 سنة	11	صفحة	45
				1056 سنة	14	صفحة	78
				1056 سنة	15	صفحة	80
				1056 سنة	16	صفحة	87
				1056 سنة	16	صفحة	90
				1056 سنة	18	صفحة	100
				1056 سنة	19	صفحة	107
				1056 سنة	19	صفحة	108
				1056 سنة	19	صفحة	109
				1056 سنة	21	صفحة	119
				1056 سنة	23	صفحة	130
				1056 سنة	25	صفحة	135
				1056 سنة	28	صفحة	150
				1056 سنة	28	صفحة	152
				1056 سنة	30	صفحة	160
				1056 سنة	31	صفحة	176
				1056 سنة	32	صفحة	184
				1056 سنة	38	صفحة	219
				1056 سنة	40	صفحة	230

(2) سجل محكمة الدقهلية الشرعية دار الوثائق القومية بالقاهرة

1117 سنة	8 ص	وثيقة	18
1117 سنة	10 ص	وثيقة	23
1117 سنة	14 ص	وثيقة	32

(3) ديوان الأروزنامه دار الوثائق القومية بالقاهرة

- دفتر مقاطعات نواحي خاصة ولاية الشرقية والمنصورة وقلوبية وبحيرة واطفيح والواحات ومنزله وفارسكور مع طرانه سنة 1146 (التزام) رقم الحفظ النوعي 312 - عين 5 - مخزن تركي 1

- دفتر أصول مال أسكلها ومقاطعات تابع قلم شهر عن سنة 1134

- محفظة روزنامه رقم 59
- محفظة روزنامه رقم 97 لسنة 1210 هـ
- محفظة روزنامه رقم 96 لسنة 1220 هـ
- محفظة روزنامه رقم 75
- محفظة روزنامه بدون رقم (9 محرم 1217 إلى 15 محرم 1217)
- محفظة روزنامه رقم 27 ملف 132
- محفظة روزنامه بدون رقم
- محفظة روزنامه بدون رقم (14 ربيع أول 1161)
- محفظة روزنامه رقم 7 تقاسيط لسنة 1211 - ملف التزامات 1189
- محفظة روزنامه بدون رقم +
- محفظة روزنامه بدون رقم ++
- محفظة روزنامه بدون رقم +++
- المصادر المطبوعة :
- د. أحمد طربين «التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث» دمشق 1970 .
- أحمد جليبي عبد الغني «أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا» تحقيق الدكتور / عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - القاهرة 1978 - مكتبة الخانجي بمصر .
- عبد الكريم رافق «بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بوناپرت 1526 - 1798» دمشق 1968
- عبد الوهاب بكر «الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر» القاهرة 1987 - دار المعارف بمصر .
- د. خاله زيادة (السلطة المدنية من خلال وثائق المحكمة الشرعية) - أبحاث المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية حول الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني - تونس 20 - 28 يناير 1984 .
- د. علي ابراهيم عيده وخيرية قاسمية «يهود البلاد العربية» - منظمة التحرير الفلسطينية - بيروت 1971
- د. محمد نور فرحات «التاريخ الاجتماعي للقانون في مصر الحديثة» - القاهرة 1985 - دار الثقافة للنشر والتوزيع .
- د. ليلى عبد اللطيف «الإدارة في مصر في العصر العثماني» - جامعة عين شمس 1982
- دانيال كريسيوليوس «جنور مصر الحديثة» ترجمة د. عبد الوهاب بكر - القاهرة 1985 - دار نهضة الشرق - جامعة القاهرة .
- د. سامية محمد جابر «القانون والضوابط الإجتماعية - مدخل علم الاجتماع الى فهم التوازن في المجتمع» - الإسكندرية 1984 «دار المعرفة الجامعية» .
- الرسائل العلمية :
- عبد الله محمد عزباوي «الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن عشر» - رسالة ماجستير مقدمة لجامعة عين شمس عام 1976
- بانيا : المصادر الأجنبية
- P. M. Holt «Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922», London, 1966.
- «The Career of Kucuk Muhammed (1676-94)» Bsoas, XXVI. 2 (1963).
- S. Shaw «Ottoman Egypt in the Eighteenth Century - The Nizamname i-Misir of Gezzar Ahmad Pasha, Harvard 1962.
- S. Shaw & Ezel Kural Shaw «History of the Ottoman Empire and Modern Turkey» Vol. II Reform, Revolution, and Republic» Cambridge, 1977.
- Mehmet Zaki Pakalin «Osmanli Tarih Deyimleri Ve Terimleri SozLûGû Istanbul, 1971.
- Encyclopaedia of Islam, 2nd Edition - Leiden, 1954.

الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة منذ مطلع القرن العشرين وحتى قيام الحرب العالمية الاولى 1900 - 1914

د. عبد اللطيف عبد الله بن دهبش

مكة المكرمة مدينة الاسلام الاولى ، وهى غنية عن التعريف وأهم معالمها الكعبة المشرفة والتي يتجه اليها المسلمون خمس مرات يوميا ، وبها أيضا المسجد الحرام ، والمشاعر الاسلامية المقدسة ، وبذلك فان لها أهمية كبرى ومكانة عالية فى قلب كل مسلم ومسلمة ، وتاريخها حافل بالاحداث والانتصارات والانجازات، ففيها كتبت أول سطور التاريخ الاسلامى ، ومنها انبثق نور لاسلام .

وعندما خضع الحجاز تلقائيا للدولة العثمانية فى عام 923 هـ . / 1517 م. أصبحت مكة المكرمة المركز الرئيسى لولاية الحجاز طوال الحكم العثمانى والذي استمر أربعة قرون . وقد انتهى الحكم العثمانى للحجاز بثورة الشريف حسين عام 1334 هـ . / 1916 م. وذلك بقيام مملكة الحجاز . وكان الحجاز مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصر وخاصة أيام ولاية محمد علي ، لكن الحجاز فى هذه الفترة المعنية بالدراسة أصبح تحت الحكم المباشر للسلطان العثمانى وذلك بعد أن احتلت بريطانيا مصر فى عام 1300 هـ . / 1882 م .

وفى إطار سياسة السلطان عبد الحميد الثانى (1293 - 1327 هـ . / 1876 - 1909 م .) حظى الحجاز باهتمام كبير وعناية فائقة من السلطان العثمانى ويتضح ذلك فى أعماله الكثيرة والتي من أهمها :

- 1 - اصلاح مباني الحرمين الشريفين .
- 2 - إنشاء سكة حديد الحجاز .
- 3 - زيادة الاموال والهبات المخصصة للحرمين الشريفين .
- 4 - ربط الاحكام وعقوبات السجن الطويلة والنفي أو القتل التى يصدرها الاشراف أو الولاة فى الحجاز بموافقة المجلس الأعلى للقضاء باسطنبول والذي كان مقره فى اسطنبول ، كما أنه لا بد من تنويعها بموافقة السلطان العثمانى ، مما جعل السلطة فى الحجاز مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسلطان ، فحد بذلك من تسلط الولاة .

وعندما أعلن الدستور العثمانى الجديد فى عام 1326 هـ . / 1908 م. لم يطرأ أى تغيير على السياسة العامة فى مكة المكرمة بل فى الحجاز بكامله الا ما اقتضاه نص الدستور من تمثيل البلاد الخاضعة للدولة العثمانية فى مجلس المبعوثين الذى أنشأ بموجب الدستور ليشراف على شؤون الولايات .

وبعد استيلاء الاتحاديين على السلطة في الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1327 هـ / 1909 م. بدأت التحركات ، وتأسست الجمعيات فعمت الثورات والاضطرابات في مختلف الولايات ، وكان نصيب الحجاز من تلك الاضطرابات كبيرا جدا ، فلم يأت عام 1332 هـ / 1913 م. حتى تعاقب على ولاية الحجاز أربعة ولاة هم : كاظم باشا وحازم باشا وفؤاد باشا وأحمد نديم ، وفي نفس الوقت تأسس في مكة المكرمة فرع لجمعية الاتحاد والترقي ومدرسة تابعة لها ، كما أن جمعية الاتحاد والترقي قررت ندب أحمد جمال باشا وزير البحرية العثمانية الى سوريا ليتولى ادارتها العسكرية ، ومنحوه صلاحيات واسعة ، شملت سوريا ولبنان وفلسطين ، وامتدت الى الحجاز واليمن . ثم ندبوا في نفس العام وهيب بك واليا على الحجاز وأمروه بأن يخمد التحركات هناك ، ويعمل على تقليص وتحديد صلاحيات الشريف الادارية في المنطقة . وقد رفض الشريف جميع تلك الاجراءات وأخذ يلتمس المساعدات من بعض الدول الكبرى . وفي تلك السنة قامت الحرب العالمية الاولى فاضطربت الاحوال في الحجاز بشكل كبير .

والبنية السكانية لهذه المدينة تتكون في معظمها من الاشراف والقبائل العربية الموجودة في منطقة الحجاز وبقيّة مناطق شبه الجزيرة العربية ، وهناك بعض الوافدين من الدول العربية والاسلامية الذين قدموا للحج أو للعمرة ثم استوطنوا في مكة المكرمة .

والاحصائيات السكانية لمكة متوفرة خلال هذه الفترة ، لكنها مختلفة اختلافا كبيرا في تقديراتها لعدد السكان ، كما أنها في الحقيقة مبنية على التخمين ، ولا تعتمد أساسا على بيانات احصائية دقيقة أو وثائق رسمية علاوة على أنها ربما تكون قد أخذت في فترة الحج وهي الفترة التي تكون فيها مكة مكتظة بالحجاج ، كما أن معظم هذه الاحصائيات عن كامل منطقة الحجاز وليس عن مكة فقط ، ويهمنا هنا الاحصائيات الخاصة بمكة والتي نتحدث عن الفترة المعنية بالدراسة ، فلقد ذكر ابراهيم رفعت أن سكان مكة في عام 1318 هـ / 1900 م. يقدرون بـ 120,000 نسمة (1) وجاء ذكر نفس الرقم في التقرير البريطاني الذي صدر في عام 1321 هـ / 1903 م. ، وربما اعتمد على الاحصائية السابقة للاستاذ ابراهيم رفعت (2) . وعندما زار الاستاذ / محمد لبيب البتنوني مكة في عام 1328 هـ / 1910 م. ذكر أن عدد سكانها يقدرون بـ 150,000 نسمة (3) . وأهل مكة كلهم من المسلمين ، ولا يدخلها غير مسلم وذلك منذ السنة التاسعة للهجرة .

(1) مرآة الحرمين ، (القاهرة : 1925م) ج 1 ، ص : 203 ، ص ص : 438-439 .
و ج 2 ، ص : 12 .

(2) F.O. 195/2148, Report on Hijaz Villayat, p. 2.

(3) الرحلة الحجازية ، (القاهرة : 1911م) ، ص : 40 .

والاعمال التي يزاولها السكان في تلك الفترة في مكة المكرمة متعددة ، وتعتبر من أهم الموارد الاقتصادية لهم . وأهم تلك الاعمال : خدمة الحجاج والمعتمرين والتي يقوم بها في الغالب فئة المطوفين وعمالهم ويقومون عادة بتأمين سلامة وراحة الحجاج من مسكن ومأكل ونحوهما ، وتسهيل سبل أداء مشاعرهم الدينية ، مقابل مبلغ محدد من المال ، يدفعه الحاج عند وصوله الى مكة . وهناك فئة العلماء وطلابهم في المسجد الحرام ولهم مخصصات سنوية من الدولة العثمانية تأتي ضمن الصرة (I) وفئة الموظفين والذين يتقاضون رواتب شهرية من صندوق الولاية الذي هو في يد الوالي ومقره مكة . كما يعمل بعض السكان بالزراعة في الاودية المحيطة بمكة ، وخاصة في منطقة العابدية والحسينية ، وادى فاطمة والشرائع ، وتقوم البادية عادة بالرعى وتربية الماشية في المناطق الصحراوية المحيطة بهذه المدينة .

يعمل بعض السكان بالتجارة والصناعة اليدوية الحفيفة وخاصة صناعة المشربيات والاستقف الحشبية بمختلف أحجامها وأشكالها الفنية ، وقد نمت هذه الحرفة في العهد العثماني وروعي فيها الاتقان والابداع مع الالتزام بالمنهج الاسلامي في الزخرفة والنقش ، وبجانب هذه الصناعة هنالك صناعات يدوية اخرى كصناعة الحلى والفخار .

وكانت ولاية الحجاز والتي تضم مكة المكرمة معفاة من قبل الدولة العثمانية من تقديم أى نوع من الضرائب أو الرسوم ، كما كان عليه الحال أيام المماليك بل علاوة على ذلك فان الدولة العثمانية كانت تقدم المساعدات والهبات النقدية والعينية لحكام مكة وعلمائها وفقراء الحرمين الشريفين ، كما تدفع رواتب موظفيها وجنودها المرابطين في مختلف المدن والثغور الحجازية ، وتأتى هذه المساعدات والهبات عادة مع المحمل المصرى أو الشامى الذى يحمل بجانب الصرة كسوة الكعبة المشرفة ، وكان قدومهما عادة في موسم الحج من كل عام . وبجانب ذلك كان يرد الى مكة ريع أوقاف الحرمين الشريفين الموجودة في مختلف البلدان العربية والاسلامية وخاصة مصر ، والذي يتم توزيعه على العاملين في الحرمين الشريفين والفقراء في هاتين المدينتين . كما يرد اليها أيضا بعض المساعدات والهبات من تجار الهند المسلمين لدعم بعض المؤسسات التعليمية التي أسست في مكة مثل المدرسة الصولتية ، والمدرسة الفخرية العثمانية ، ومدرسة دار الفائزين ، وبعض الاربطة التي خصصت لسكن الفقراء .

وتلتقى في مكة المكرمة طرق القوافل التي تنقل التجارة من الشمال الى الجنوب والعكس ، وقوافل الحجاج الذين يفدون اليها من كل فج لاداء فريضة الحج ، وترتبط هذه الطرق بمينائى جدة وينبع والذين يعتبران النافذة التي

(1) الصرة : مجموعة الأموال الخاصة بريع أوقاف الحرمين في مصر والتي ترسل عادة مع كسوة الكعبة لتوزيعها على فئات معينة من سكان الحرمين الشريفين .

تطل منهما مكة المكرمة والمدينة المنورة على العالم الخارجى . كما أن الحجاز يرتبط بسكة حديدية تصل من الشام الى المدينة المنورة والتي تم افتتاحها فى عام 1326 هـ / 1908 م .

وتحتفل مكة المكرمة كغيرها من المدن الاسلامية بالاعیاد والمناسبات الدينية ومن هذه الاعیاد والمناسبات عيد الفطر المبارك وفيه يتجه معظم السكان وعلى رأسهم الشريف والوالى العثمانى والعلماء الى المسجد الحرام ، حيث يؤدون صلاة العيد ويستمعون الى خطبة العيد التى يلقيها عادة المفتى الحنفى فى مكة أو قاضيها ، وقد لبسوا أحلى ما لديهم من ثياب ، أما عيد الاضحى المبارك فليس فيه نفس المظاهر التى نشاهدها فى عيد الفطر وذلك لان معظم سكان مكة وعلى رأسهم الشريف والوالى يذهبون الى المشاعر المقدسة لاداء مناسك الحج ويكونون فى أول أيام التشريق فى منى وبعضهم يؤدى صلاة العيد فى مسجد الحيف فى منى ، أما من تخلف عن الحج فيؤدى صلاة عيد الاضحى المبارك فى المسجد الحرام بمكة المكرمة ولكنهم قلة . وهناك مناسبات دينية عديدة من أهمها إحياء ليالى شهر رمضان بالصلاة والذكر فى المسجد الحرام والمساجد الاخرى بمكة ..

ومن المناسبات السعيدة مناسبة الزواج وتسير حسب الشريعة الاسلامية ، فتبدأ بالخطبة ثم عقد النكاح فالزواج ، وتتم عملية الزواج حسب مراسم ومظاهر معينة فبعد الخطبة وعقد النكاح يبدأ أهل العروس فى شراء ما يلزم للبت من حلى ويبدأ العريس فى تجهيز بيت الزوجية وهو فى الغالب لا يعدو أن يكون غرفة أو مجموعة غرف بمنافعها فى منزل والديه ، وهذا يدل على ترابط الاسرة وتماسكها ، وقليل منهم من يخرج عن بيت والديه بعد الزواج مباشرة ، وتحدد بعد ذلك ليلة العرس ويتم تجهيز اللوازم التى تحتوى على الارز واللحم والمشبك والطرنية والسنبوسة ، وتنصب البرزة وهى عبارة عن كراسى خشبية مفروشة وفى مقدمتها تنصب أقواس خشبية مزركشة وتكون عند باب منزل العروس . وبعد صلاة العشاء يسير العريس على الاقدام من منزله ومعه والده وأخواته وأقاربه ومن دعى من جانبه لهذه المناسبة ومعهم المعاشر (I) والى بها الحلوى ، وتحمل الاتاريك لاضاءة الطريق ويسير الجسيس (2) برفقة العريس ووالده ويردد بصوت عال بعض الادعية والانشيد الخاصة بهذه المناسبة ، وعند وصولهم الى بيت العروس يستقبلهم والدها وأقاربها بالترحيب ، أما النساء فيستقبلن العريس بالزغاريد ، ثم تقدم اللوازم للمدعوين وبعد ذلك يذهب الجميع الى منازلهم . وعادة يحيي النساء تلك الليلة بكاملها فى فرح ، وفى اليوم الثانى تنتقل الزوجة الى بيت زوجها ويقيم لها زوجها وليمة غداء بهذه المناسبة يدعو لها الاقارب من أهله وأهلها

(1) وعاء كبير من الخشب على شكل مثنى تحمل فيه الحلوى ويسار به فى موكب العريس .

(2) الجسيس : الشخص الذى يردد الأدعية والأشعار فى موكب العريس بصوت عال .

والاصدقاء (I) • ومن الاحتفالات أيضا الاحتفال بختم القرآن الكريم أو بعض أجزائه ويسمى هذا الاحتفال بالصرافة أو القلابة وتتمثل في أن يقيم والد الطالب الحافظ للقرآن وليمة غداء يدعو إليها شيوخ الكتاب وجميع الطلاب ويقدم والدا الطالب هدية قيمة للشيوخ وهي عبارة عن ملابس ومبلغ من النقود ، ويطلب من الطالب الحافظ أن يتلو قبل تناول الغداء أو بعده بعض ما حفظه من القرآن بصوت عال أمام والده وأستاذه وزملائه من الطلاب والمدعوين حتى يبرهن لهم على صدق حفظه (2) • وهناك حفلات الحتان والتي تتم في اليوم السابع أو الشهور الأولى من ولادة الطفل ، وكذلك حفلات السابع للمولود الجديد من ذكر وأنثى ، فيقيم والد المولود وليمة بهذه المناسبة يدعو لها الاهل والاقارب ، وعادة يذبح شاة أو أكثر فيتصدق بجزء منها ويولم بالجزء الآخر

وأهل مكة لهم ولع بالتنزه والخروج الى الضواحي وخاصة في الاعياد والاجازات والمناسبات السعيدة ، فيخرجون في مواكب كبيرة على الدواب الى الجمرات ، والحسينية ، والسنوسية ، والعكيشية ، وسوله ، والزيمة ، ووادى فاطمة ، ومنطقة الشهداء ، أو بعض البساتين المحيطة بمكة يحملون معهم أنواع عديدة من الاطعمة والفواكه الشهيية ، فيقيمون هنالك يوما أو عدة أيام مليئة بالافراح والالعب الشعبية ، يعودون بعدها بروح نشطة وراحة بال ، ولم يكن للنساء مجال واسع في مثل هذه التنزهات (3) •

ومن عاداتهم في مثل هذه الاحتفالات تقديم الشاي والقهوة والاطعمة المختلفة في صنعها وطعمها ، فمنها الطعام الحجازي والهندي والشامي والمصري والتركي والمغربي . وتقدم الاطعمة عادة على أصمطة مفروشة على الارض في شكل صفوف يجلسون حولها . وبعد فراغهم من الطعام يخلدون للراحة بعض الوقت ، ثم يجلسون للسمر يستمعون الى الاشعار التي يقدمها بعض الاشخاص من أصحاب الصوت الحسن (4) • ويقوم بعضهم بمزاولة بعض الالعب الرياضية أو الرقصات الشعبية مثل (المزمار) وهو من الالعب المفضلة التي لا تكاد تخلو منه أى احتفالات أو أفراح في مكة المكرمة ، وتستعمل فيه الطبول والعصى ، وتشعل النار في وسط حلبة من الرجال الاقوياء ، بينما يرقص بعضهم رقصات شعبية بالعصى في وسط تلك الحلبة (5) •

(1) أحمد عبد الإله عبد الجبار : عادات وتقاليد الزواج في الحجاز (الطبعة الأولى - جدة ، منشورات تهامة : 1403 هـ / 1983م) ص 165-203 .

(2) عبد اللطيف بن دهيش : الكتائب في الحرمين الشريفين وما حولهما ص : 53-55 .

(3) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 196 .

(4) محمد ليبب البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 49 .

وأحمد علي : ذكريات (من مطبوعات نادى الطائف الأدبي ، الطائف مطابع الزايدى للأوفست : 1397 هـ) ، ص : 18-20 .

(5) أحمد علي : المصدر السابق ، ص :

ومن الالعاب الرياضية التى كان يزاولها السكان فى مكة المكرمة فى تلك الفترة ، لعبة (الكبت) وكان اللاعبون لها ينقسمون الى فريقين ويوضع خط فاصل فى نصف مساحة مكان اللعب ، الذى لا يزيد فى العادة عن 6×4 متر. وعندما يتقدم أحد الفريقين فيجتاز الخط الفاصل الى داخل المساحة المخصصة للفريق الآخر محاولا لمس أحد لاعبي الفريق الثانى ، حيث يتحاشى أفراد هذا الفريق أن يلمس أحدهم ، فتبدأ عندئذ المحاورة بين أفراد الفريقين وكل واحد منهم يحاول لمس أحد افراد الفريق الآخر فى منطقته . فاذا استطاع لمس أحدهم فى يده عاد مسرعا الى منطقة فريقه وهو يقول بصوت عال (كبت) بفتح الكاف والباء وسكون التاء . وهذه اللعبة تعتمد على سرعة الحركة وليس فيها غير المحاورة وعدم تمكين المهاجم من الفريق الآخر لمس فرد من الفريق المواجه .

ومن الالعاب الشعبية أيضا لعبة (البربر) بكسر الباء وسكون الراء فى الحروف الاربعة التى تتكون منها الكلمة . وهذه اللعبة كانت تؤدى بالقدم اليمنى . ووصفها أن يتم وضع قطعة صغيرة مستديرة من الفخار فى الارض ، وتوضع حفر صغيرة معينة فى اماكن متفرقة من الملعب الذى لا تزيد مساحته عن 3×8 متر ، ثم يقوم اللاعب بدفع القطعة الى أحد حفر الملعب بقدمه اليمنى بعد أن يرفع قدمه اليسرى الى الركبة ويمسكها بيده اليسرى أحيانا فيؤدى اللعبة بقدم واحدة وهو يحجل ، حيث يسير فى الملعب برجله اليمنى التى يدفع بها قطعة الفخار الى احدى الحفر الصغيرة التى فى الملعب ، وعليه أن يحفظ توازنه لثلاث يقع (I) .

وفى مكة المكرمة أنواع من الاطعمة اللذيذة التى اشتهرت بها هذه المدينة المقدسة عن غيرها من مدن شبه الجزيرة العربية ، ويظهر أن أهل مكة استفادوا من الوافدين اليها من مختلف البلاد العربية والاسلامية خلال المواسم الدينية ، فاقتبسوا منهم طرقا كثيرة لاعداد الاطعمة ، ولذلك تنوعت لديهم الاطعمة ، والمائدة فى بيوت أهل مكة كانت تتكون غالبا من الارز واللحم والخضروات والفطائر والسلطات والفواكه الموسمية المحلية ، ومن أهم الاطعمة التى تقدم فى المناسبات طعام يطلق عليه (السليق) ويتألف من اللحم أو الدجاج المسلوق والارز المطبوخ على ماء اللحم والمضاف اليه الحليب ، وهنالك أيضا (الزريان) أو (البرياني) ويتكون من الارز واللحم أو الدجاج مضافا اليه مجموعة مختارة من البهارات والكزبرة والزعفران ، ومن الاكلات أيضا (البخارى) ويتكون من الارز مع اللحم أو الدجاج مع قليل من البهارات ، ولا يدخل فيها الكزبرة ، وهنالك الكوزى مع الارز والمندى مع الارز ، ويتم طبخهما عن طريق شوي الحروف بعد ذبحه وسلخه وتنظيفه فى أفران تكون بداخل

(1) محمد علي مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز (الطبعة الأولى ، جدة ، مطبوعات تهامة : 1402 هـ / 1982 م) ، ص : 254-256 .

الارض ، وغالبا تكون هذه الافران معمولة من الفخار ، ويطبخون الارز بالحمص في المائت فقط .

أما المائدة اليومية في كثير من البيوت في مكة المكرمة فتتكون عادة من الارز المطبوخ مع اللحم ، وأحيانا يطبخ اللحم منفصلا عن الارز مثل الكباب والكبيبة والمقلقل والمعوق ، والخضروات وهي في الغالب من الخضروات التي تزرع محليا مثل : (الملوخية البامية الفاصوليا بنوعها الاخضر والناشف) ، ويتفننون في صنعها من بيت الى آخر .

أما الفطائر فأهمها (السمبوسك والبف) وتتكون من لحم مفروم ملفوف في عجينة يضاف اليها أحيانا البيض والتوابل ، وتكون السمبوسك مثلثة الشكل ، أما البف فيكون أكبر من السمبوسك وشكله مربع أو مستطيل ، وهناك أيضا الزلابية وهي من العجائن المطبوخة في شكل أقراص ، واللقيمات وتصنع أيضا من العجائن ولكن على شكل كرات صغيرة وكلها تغلى بالزيت . ومن الحلويات الكثافة والديبازة والمشبك والحشاف والماسية والمهلبية والسمسمية والجبنية واللادو وغيرها ، وتتكون السلطات من الخيار والطماطم والخس والجرجير المضاف اليه الليمون ، وهناك أيضا سلطة الخيار باللبن ، وسلطة الطماطم المطحون مع الفلفل . أما الفواكه فهي متوفرة في مكة وأهمها الحبيب والبطيخ والشمام ، وهناك فواكه تأتي من الطائف وبعض بلدان الحجاز من أهمها : العنب والرمان والموز والبرشومي (التين الشوكي) والتفاح والمشمش والتين والخوخ وغيرها ، وغالبا تقدم هذه الاطعمة في الوجبة الرئيسية وهي وجبة الغداء . أما وجبة الافطار فتكون خفيفة وتتكون في الغالب من العسل البلدي والبيض البلدي والفول والحليب واللبن الرائب ، وتقدم كلها مع الحبز البلدي (التمسيس أو الكعك) . وفي بعض البيوت يأكلون المعصوب أو الهريسة . وقد وجدت بعض الحوائث التي تقدم بعض تلك الاطعمة مثل الفول والمعصوب والهريسة .

وفي المساء يتناول الاهالي أطعمة خفيفة أيضا مثل اللبن الرائب والحليب والبيض والفول وحلوى الطحينية أو المفروكة (I) أو فطائر المطبق أو السمبوسة وغيرها . ومن النادر أن تجد الاسماك الطازجة في مكة المكرمة وذلك لبعد المسافة بينها وبين مدينة جدة الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، ولكن توجد بعض الاماكن التي تباع السمك أو الجمبرى المجفف . وكان السيد حسن عشي من أشهر الطباخين في مكة المكرمة وكان يقوم باعداد الاطعمة في المناسبات المختلفة للسكان ، وكان لديه مطبخ كبير به جميع الاستعدادات ، وقد أخذ عنه أبناؤه الثلاثة هذه الصنعة . ولم يكن حسن عشي هو الطباخ الوحيد ولكن وجد بمكة عدد كبير من الطباخين ، ذلك لان عملية الطباخة يحتاج

(I) نوع من الحلوى تتكون من حلوى الطحينية والهريسة يخلطان معا .

اليها المطوفون ، وذلك فى أيام الحج لتقديم الوجبات المناسبة لحجاجهم ، خاصة فى منى وعرفات ، ولذلك وجد بها مجموعة من الطباخين المهرة .

وبما أن مكة المكرمة يفد اليها أعداد كبيرة من المعتمرين أو الحجاج طول العام فقد وجد بها عدد كبير من الحوانيت التى تبينع الاطعمة والحبز بأنواعها لهم . كما وجد بها أيضا عدد من المقاهى تقدم الشاى والقهوة لهؤلاء مقابل مبلغ زهيد من المال .

والاشربة التى كانت مشهورة فى مكة وفى غيرها من مدن الحجاز هى الاشربة التى كانت تلائم الجو الحار ، وذلك لان مناخ مكة مناخ حار جدا صيفا لطيف فى الشتاء .

ومن تلك الاشربة : شراب (السوييا) ويصنع من الحبز الناشف والماء والسكر ، وشراب (الزبيب) ويصنع من الزبيب الجيد المعصور ويضاف اليه الماء والسكر ، وشراب الحمر (التمر الهندى) ويتم صنعه بأن ينقع الحمر فى الماء ثم يصفى ويخرج النوى من داخله ويضاف اليه الماء والسكر ، وشراب القرفة والزنجيل ، شراب الخروب وشراب الليمون وغيرها (I) . وتعتبر القهوة العربية والشاى من المشروبات الرئيسية فى مكة المكرمة ويستعملون أيضا النعناع والشاى الاخضر ، وتقدم هذه المشروبات حارة وفى أى وقت ، ولا بد من تقديمها للضيوف كمظهر من مظاهر الترحيب بهم فى كل المناسبات ، ويقدمون معها أحيانا التمر أو الحلوى . ويستوردون القهوة من اليمن وأحسن أنواعها قهوة مخا . أما الشاى فيستوردونه من الهند وبلدان جنوب شرق آسيا ، وكذلك يستوردون الشاى الاخضر ، أما النعناع فيزرع محليا .

ومن مظاهر هذه الفترة اختلاف أزياء العلماء والحكام عن العامة فكان الشريف يلبس الملابس التى خلعها عليه السلطان العثمانى وكذلك يفعل الوالى وبقية حكام المناطق . أما الجند فيلبسون نفس الملابس التى يلبسها جند الدولة بمختلف مراتبهم العسكرية .

وكانت الجبة التى تلبس فوق الثوب والعمامة التى تلبس على الرأس هى لباس العلماء ، ويميل لباس العلماء الى الالوان الفاتحة وخاصة اللون الابيض بينما تكون ألوان جبة الحكام وأصحاب المناصب الرفيعة تميل الى الالوان الداكنة والمزركشة . ويلبس الطلاب الملابس العادية الخفيفة مع غطاء للرأس بالكوفية أو الطاقية ، وأحيانا يلبس الطلاب الجبة والعمامة وخاصة الذين هم على عتبة التخرج . أما فئة العمال فيلبسون الثياب الملونة بألوان زاهية فيها الازرق والاصفر والاحمر ، والقليل منهم من يلبس الملابس البيضاء ، وذلك لانها سريعة الاتساخ ، ويضعون حزاما من القماش يشدون به وسطهم ليزيد

(1) للمزيد من المعلومات انظر محمد علي مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز ، ص :

في صلابتهم أثناء العمل كما بتوهمون . أما فئة التجار فيلبسون الثياب الفاخرة ويلبسون عليها معطفا قصيرا فاخرا يعرف بالسدية أو (ميتان) . وكان السكان يعنون بنظافة ملابسهم ويقومون بغسلها وصقلها بقطع ناعمة من الودع وخاصة الحكام والعلماء والتجار والطلاب (1) .

أما النساء فيلبسن ما يشأن من الملابس ، وكانت أهم تلك الملابس الصديرية والكرتة والمحرمة والمدورة للرأس والملاية والبرقع . وعند خروجهن من بيوتهن يلبسن الملاية والبرقع أو العباءة ، وعليها ستر جميع جسمها بالملاية أو العباءة . ويتنعل الرجال الحف ، وهناك نوع خاص بالنساء ومعظم الاحذية تصنع محليا وبعضها يجلب من مصر أو الشام أو الهند (2)

واهتم أهل مكة بخدمة الحجاج والمعتمرين وبذلك اتسع نطاق الطوافة في هذه الفترة المعنية بالدراسة وزاد عدد المطوفين . وكان الحج مسموحا به لسكان البلاد الاسلامية الخاضعة للدولة العثمانية أما غيرهم فان عليهم التقدم بطلبات خاصة للحج واتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك . وبالرغم من ذلك فان اعداد الحجاج كانت قليلة جدا وذلك لان الحج لم يكن ميسورا بل كانت تحيط به الكثير من المخاطر والمصاعب ، ويتعرض الحجاج في كثير من الاحيان للسلب والنهب والقتل على يد بعض الطامعين .

وكان معظم الحجاج يأتون للحج بطريق البحر وعند وصولهم الى جدة أو ينبع تقف مراكبهم في عرض البحر بعيدا عن الساحل ، وينزل الحجاج منها في زوارق شرعية تأخذهم الى الميناء الذي كان صغيرا جدا . وهناك يسأل كل حاج عن مطوفه ثم يأخذهم وكلاء المطوفين الى مراكزهم في جدة أو ينبع ، ولا تزيد إقامتهم هناك عن أيام قليلة ينقلون بعدها الى مكة المكرمة بواسطة الابل المحبولة عليها الشقادات (3) . أو الشباري (4) .

وعند وصولهم الى مكة المكرمة ، يقوم المطوفون بانزال حجاجهم في بيوتهم ، أو في بيوت خاصة قريبة من المسجد الحرام أعدت لهذا الغرض ، وتقديم الضيافة اللازمة لهم ، من مأكول ومشرب ، والاشراف على ذهابهم الى المسجد الحرام لاداء الصلوات الخمسة فيه أو الطواف بالكعبة المشرفة . ويخرجون عساة في شكل مجموعات يقودها المطوف بنفسه ، أو أحد أبنائه أو أحد الساملين

(1) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 194-198 .

(2) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج 2 ، ص : 194-199 .

(3) الشقادات مفردا شقدف وهي مراكب خشبية صغيرة توضع على ظهور الجمال ، ومكونة من جزئين يجمع بينهما بحبل ، ويعتبر المركب الوحيد في ذلك العصر لمن يريد الانتقال من مكان الى آخر براحة وسلام واتقاء البرد في الشتاء والحر ووقدة الشمس في الصيف . وللشقادات عدد من التجارين المتخصصين في صناعتها في مكة المكرمة يقومون باعدادها للحج قبل مواسمه .

(4) الشباري : وهي عبارة عن سرير خشبي واسع عليه مضلة من الخسف أحيانا ويختلف عن الشقدف بأنه مفتوح من جميع الجوانب .

معه ممن يحفظون الادعية الماثورة وخاصة عندما يطوفون بالكعبة المطهرة ، ولم يكن أحد يعرف شيئا عن الفنادق . أما الحجاج الفقراء من شبه القارة الهندية وبعض الجنسيات الاخرى فينزلون عادة في الاربطة والتكيا الموجودة باسمهم في مكة والتي أوقفها أصحابها لخدمة الفقراء من الحجاج وعادة ما تكون مزدحمة بالنزلاء (I) ويتم في هذه الاربطة والتكيا تقديم المسكن مجانا للنزلاء ، وأما الماكل والمشرب فيتحمله الساكن ، ومنها رباط الداودية وكان في باب العمرة ، ورباط السليمانية بباب دريبة ، ورباط محمد باشا بباب زيادة وغيرها (2) . وسعى أشرف مكة بالتعاون مع السلطة العثمانية الى تنظيم عملية الطوافة وتم توزيع البلاد العربية والاسلامية على مطوفين فكان كل مطوف مسؤولا عن البلاد التي خصصت له . ولذلك صدر في سنة 1326 هـ. الموافق 1908 م. قرار اداري يحدد تعرفه الحجاج ، وقد نشر هذا القرار في جريدة (الحجاز) وهو كما يلي :

عدد

- I جنية عثمانى أجرة مسكن بمكة للجاويين .
 - 2 جنيهان عثمانيان اكرامية مطوف وضيافة في عرفات ومنى . ومن توفي قبل الوقوف بعرفة فعليه نصف المقرر .
 - 10 عشر ربيات هندية اكرامية المطوف لعموم أجناس الهند .
 - 2 جنيهان عثمانيان على الداغستان اكرامية مطوف وأجرة خيمة في عرفة ومنى وبيت مكة .
 - 5 خمسة ريالات مجيدية على حجاج مصر والشام والمغرب اكرامية المطوف .
 - 2 ريالان مجيديان على حجاج الصعيد وغزة والعراق والاكراد .
- وعلى كل حاج عدا ما ذكر أن يدفع لمطوفه اكرامية جنية عثمانى واحد للميسور ونصف جنية لمتوسط الحال .

واشتهرت مكة المكرمة بكثرة بيوت العلم فيها ومن تلك البيوت بيت الفدا وآل عبد الشكور . وآل زرعة وآل السقاف وآل عجمي وآل الدهان وآل كمال وآل كتبي والمالكى من المغرب وآل عطا من مصر وآل مشاط واللبنى عرب وآل الطبرى وآل الشيبى وهم سدنة الكعبة المشرفة ، والدحلان والنقشبندى والأفغانى وآل فهد والسنوسى والرهينى والحبشى والعطاس والكوجك ومنهم السيد حسن كوجك من أئمة الأحناف ، وأعتقد أنه من أصل تركى . وآل بابصيل وآل باجنيد وآل باسنبل وآل مرداد . وقد أورد الشيخ

(1) أحمد علي : ذكريات ، ص 32 .

(2) محمد طاهر كردى : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ج 2 ، ص : 139 .

عبد الله أبو الخير ، في كتابه نشر النور والزهر عرضا مفصلا لتراجم أشهر علماء مكة . كما كتب الاستاذ عمر عبد الجبار كتابا عن علماء مكة سماه سير وتراجم علماء المسجد الحرام ويصل فيه الى أواخر النصف الاول من القرن العشرين . كما كتب الشيخ عبد الله غازي كتابا وافيا عن علماء مكة ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا .

وكان أمر الفتوى في مكة تختص به بعض بيوت العلم من المذاهب الاربعة ، ويرأسهم مفتي الاحناف ، وذلك بتأييد من السلطان العثماني أما القضاء فكان يتولى منصبه في مكة علماء الاتراك الذين تسد بهم الدولة وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الاسلام في اسطنبول ، فهو يمثل سلطة الاتراك الدينية ويرأس الحفلات التي يتم فيها تنصيب أمراء جدد لمكة كما يعقد المراسم الخاصة بذلك ، ويتولى تقديم الخلع السلطانية الى الامير ، كما أنه يقوم بالخطبة في الحج . وقد وجدت في محكمة مكة مكتبة بها كتب كثيرة في الفقه الحنفي وبعض الانظمة القضائية باللغة العثمانية المستعملة في ذلك الوقت ويظهر أنها جلبت من اسطنبول ووضعت هنالك ليستعين بها القضاة العثمانيون في مكة وغيرها في أحكامهم . وكان التدريس يتم على يد العلماء في المسجد الحرام وبمختلف اللغات ، فيجلس الشيخ وحوله الطلاب في شكل حلقات علمية وكل شيخ يدرس العلم الذي تخصص فيه ، وباللغة التي يتقنها . كان بالمسجد الحرام أكثر من أربعين حلقة علمية مختلفة الاحجام والتخصصات ، كما أن التدريس يتم في كل وقت صباحا ومساء وقد أحصى الشيخ حسين باسلامة في كتابه عمارة المسجد أن بالمسجد الحرام بمكة في تلك الفترة 1422 قنديلا عدا ما جعل في المنائر ، جلبت كلها من مصر واسطنبول (1) . من عادة شريف مكة أن يجلس للحكم في دار الامارة صباح كل يوم وحتى قبيل العصر فتعرض عليه المسائل الهامة ، وهنالك يستعد للتوجه الى الحرم الشريف في موكب بسيط فيصلي العصر فيه . وكثيرا ما يجلس بالمسجد الحرام حتى يصلي المغرب ، ثم يعود الى قصره فيتناول طعام العشاء مع من يريد من اسرته وخاصته وضيوفه . ومن عادته أنه يجلس صباح كل يوم جمعة في دار الامارة للمقابلات فيفد عليه الوالى وكبار الموظفين والاعيان والوجهاء ، وبعد السلام عليه يذهبون الى قصر الوالى للسلام عليه ، وعندما يقترب وقت صلاة الجمعة يتوجه الجميع للصلاة في الحرم الشريف (2) .

واهتم العثمانيون أيضا بالكتب فأسسوا مكتبة عامة كبيرة في المسجد الحرام بمكة لتكون منهلا للعلماء وطلاب العلم . ويرجع تأسيس هذه المكتبة الى السلطان عبد المجيد 1255 - 1278 هـ . / 1839 - 1860 م . والذي أمر في عام 1258 هـ / 1842 م . بتأسيس كتبخانة في المسجد الحرام ، فأرسل اليها من

(1) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج. 2 ، ص 421 .

(2) محمد البتوني : الرحلة الحجازية ، ص 48-49 .

اسطنبول 3653 كتابا مجلدا تجليدا فآخرا ، وقد وضعت هذه المكتبة في القبة الواقعة في أعلى بشر زمزم وجعل لها ناظر ومعاون ، ورتب لهما معاشات جزيلة . وقد جمعت بها أيضا بعض الكتب والمصاحف الموجودة في أروقة المسجد الحرام ، وأصبحت تعرف بكتبخانة السلطان عبد المجيد ، وعندما داهم السيل المسجد الحرام نقلت الى المدرسة السليمانية (I) . وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 - 1327 هـ .) الموافق (1876 - 1909 م .) ، وجدت هذه المكتبة اهتماما كبيرا من عدد من حكام وعلماء مكة ، ومن الشخصيات الاسلامية في العالم الاسلامي . فقد اهديت لها مكتبة الشريف عبد المطلب . ومكتبتا الشيخ محمود حافظ ، والشيخ عبد الحق الهندي ومما من علماء مكة (2) . وكان الحجاج والزوار والعلماء من مختلف أقطار العالم الاسلامي يهدون لهذه المكتبة بعض إنتاجهم الفكري ، كما أن بعض الكتب ترد الى هذه المكتبة عن طريق الوقف أو الاهداء مساهمة في دعمها بكل نافع ومفيد من الكتب والمخطوطات الاسلامية . وفي عام 1328 هـ . / 1910 م . زارها الاستاذ محمد ليبب البتنوني وقال انها تحتوى على 4599 كتابا بين مخطوط ومطبوع ، وأنها وان كانت أصغر من كتبخانة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وأقل منها كتابا الا أنها جميلة ومرتبة (3) .

د. عبد اللطيف عبد الله بن دهبش

قسم التاريخ - جامعة أم القرى
مكة المكرمة

-
- (1) سلطنة ولاية الحجاز عام 1303 هـ ، ص : 127 .
 - وابراهيم رفعت : مرآة الحرمين (الطبعة الأولى ، القاهرة : 1925م) ج 1 ، ص : 183 .
 - (2) خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ج 4 ، ص : 1035 .
 - (3) محمد البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص 255 .

من أجل كتابه تاريخ الحياة الاجتماعية « للأقلية الإفريقية السوداء » بالبلاد التونسية : مصادر وآفاق

د. عبد الجليل التميمي

ان تاريخ «الأقلية الإفريقية» بالبلاد العربية في العصر الحديث لم يقع الإهتمام به البتة ، وقد أهمل من طرف المؤرخين والباحثين العرب – المسلمين – وخصوصا في المغرب العربي ، هذا فضلا عن الأوروبيين والأمريكيين ، وهذا خلاف للإهتمام الذي تمتعت به عدد من الأقليات الأخرى اسلامية كانت أو مسيحية أو يهودية أو ارمينية ، قبطية أو غيرها ، حيث افردت لها عدد من الندوات، الدراسات والمؤتمرات وعلى الخصوص عدد من المنشورات وبعده لغاة خلال السنين الماضية (1) .

و «الأقلية الإفريقية» السوداء بالبلاد العربية لم تكن موضوع اهتمام أو عناية تذكر ولم تعقد من أجلها ندوات متخصصة (2) على الرغم من عددها المرتفع نسبيا والدور الإقتصادي والإجتماعي الهام الذي أدته في المجتمع العربي – الإسلامي خلال العصر الحديث وهذا ما سوف نتعرض اليه في دراستنا هاته ، مركزين بحثنا عن الأقلية الإفريقية السوداء بالبلاد التونسية ودراسة خصوصياتها اللغوية والدينية وعاداتها وعتقها ومهنها وأصولها ومستواها الثقافي وحياتها اليومية و «اندماجها» في المجتمع التونسي وأخيرا سياسة الدولة تجاه هذه المسألة .

ان الباعث على الإهتمام بهذا الموضوع هو تلك الشبكة من المعلومات الجيدة والمستقاة من مخطوطة بالمكتبة الوطنية بتونس وتكتسي أهمية تاريخية فريدة ، ثم من عدد من الدفاتر والوثائق المحفوظة بدار الأرشيف

(1) نظم عدد من المؤتمرات عن الأقليات الغير الإسلامية في البلاد العربية في عدد من الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وأوروبا بصورة عامة . وكشال على ذلك تنظيم مؤتمرات دورية على الأقلية اليهودية في أوروبا وإيطاليا على الخصوص وحيث أصدرت دار الأرشيف الحكومي بروما أربع منشورات هامة جدا .

(2) الإستثناء الوحيد هو :

Valensi. L' « Esclave chrétiens et esclaves noirs à Tunis au XVIIIème siècles » in A.E.C.S., 1986, voir aussi du même auteur Esclaves noirs affranchis en Tunis» Cf. J. O. Hunwich «Black Africans in the Islamic World ; An Understudied Dimension of the black Diaspora» in *Tarikh*, 5 / (1978), pp. 20-40.

الوطني التونسي والتي غطت «الأقلية الإفريقية السوداء» خلال القرن التاسع عشر. وقد تبين لنا أن المصادر العربية للتاريخ الإفريقي في المستقبل وجب أن تهتم ليس فقط بمختلف المخطوطات التي نعث عليها من حين لآخر، بل أيضا وجب التركيز على المعلومات الأساسية والتي تضمها الأرشيفات العربية الغنية جدا عن الموضوع (3).

ففي البلاد التونسية كان يعيش فريق من شعوب جنوب الصحراء من غات وغدامس وكانو وبرنو ومن السودان، وكانو اما عبيدا أو رحالة وطلبة وتجارا، وحيث كانت التجارة نشطة في كلا الاتجاهين. وقدر عددهم حوالي السبعة آلاف بالبلاد التونسية، وهذا على الرغم من أن إحصائيات الحكومة قدمت لنا عددا أقل من ذلك. وعليه بإمكاننا أن نميز ضمن هاته الأقلية صنفين اثنين:

أحدهما: قد اندمج في المجتمع التونسي وهذا ماسوف نتحدث له بإعطاء معلومات دقيقة وجديدة.

ثانيهما: هي تلك المجموعة التي تميزت بممارسة طقوسها الوثنية وعاداتها الإفريقية المحضة. وقد استقيناه هذه المعلومات من مؤلف مخطوطة المكتبة الوطنية التونسية (4): أحمد التمبكتو الذي قدم لنا معلومات مفيدة جدا عندما حرر بتاريخ 20 نوفمبر 1800 وباللغة العربية، الرسالة التالية وعرضها على الباي حمودة باشا:

هتلك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر

ماذا ذكر المؤلف عن «الأقلية الإفريقية السوداء» والتي كان يطلق عليها اسم السودانين؟

- (3) راجع أبحاثنا التالية:
- الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب إفريقيا في العصر الحديث 80 ص. تونس، 1980.
 - «كتاب نيل الإبتهاج بطريز الديقاج لأحمد بابا التيمكو: معلمة بليوغرافية للإعلام المقاربة» في المجلة التاريخية المغربية (تم) عدد 33-34، ص 9-34، تونس جوان 1984.
 - «عتق العبيد وعددهم في منتصف القرن التاسع عشر بالإيالة تونس»، في متم، عدد 39-40، ص 590-596، ديسمبر 1985.
 - «Pour une nouvelle approche des relations ottomano-arabo-africaines» in *RHM*, n 35-36, pp. 179-182, Tunis, 1984.

(4) راجع النص الأصلي لهذا المخطوط الذي كنا قد نشرناه في بحثنا: الروابط... نفس المصدر، 37-54، والذي يستحق ترجمة فرنسية.

انها صحيحة قلق أطلقها المؤلف عندما وصف الوسائل الغريبة جدا والتي يمارسها «السودانيون» بتونس وسوسة وصفاقس والقيروان : كصلاتهم أمام النار وآلهتهم وطريقة ذبحهم الحيوانات التي كانوا يشربون دمائها ، وممارستهم السحر واعتقادهم في الساحرين ، وكيف انه باستطاعتهم غرس السكاكين في بطونهم دون أن يمسه أذى . وبالإضافة الى ذلك فهم يملكون منازل حولوها الى معابد ، حاثين التونسيين وخاصة التونسيات على الانضمام اليهم باعتبار ان الرجال هم اليوم تحت سلطة نسائهم .

وبالإضافة الى ذلك فإن مؤلفنا الذي روعته هاته الممارسات الوثنية ، طالب باى تونس بإلغائها ، اذ القضاء عليها في رأيه افيد للبلاد من بناء ألف مسجد أو مدرسة ، بل هو افضل من جهاد الكفار أو منح ألف دينار للفقراء المساكين . والذي نستنتجه من خلال هذه المعلومات هو الحرية الكاملة الذي تتمتع بها الأقلية الإفريقية السوداء «الوثنية» ، مع العلم انها تعيش في مجتمع مسلم تبني المذهب المالكي والذي يعد أكثر المذاهب الإسلامية تشددا في العالم الإسلامي قاطبة .

لنتناول الآن بالدرس الصنف الثاني من هاته «الأقلية الإفريقية السوداء» والتي اندمجت في المجتمع التونسي . ففي القرن السابع عشر تمتعت تونس وطرابلس الغرب بنظام سياسي واقتصادي وثقافي في اطار الشمال الإفريقي - العثماني ، حيث استمرت هاتان (العاصمتان) ولمدة طويلة جدا كرابط وحدة بين شعوب جنوب الصحراء وأفريقيا الشمالية : فالمبعوثون والرحالة والزواج والتجار والسفراء لعبوا دورا نوعيا في تعميق مختلف هذه الروابط بفضل النظام السياسي العثماني الذي امن حرية تنقل الأشخاص والأملاك والأفكار والآراء خلال العصر الحديث .

ومن جهة أخرى اثرنا في دراسة كنا قد نشرناها عن : عتق العبيد وعددهم بالبلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر ، ظاهرة الرق والقضاء عليها رسميا ، ونتائج ذلك على المستوى المحلي ثم العثماني (5) . وكما نعلم فإن الباى احمد باشا الذي حكم اىالة تونس من 1837 الى 1855 ، يعد أول حاكم اسلامي يقوم بأخذ قرار الغاء بيع الرقيق والقضاء على اسواقهم ومنع على التجار استيراد الرقيق من افريقيا

(5) راجع دراستنا : عتق ... نفس المصدر .

وبيعهم بعد ذلك ، واثّر هذا اعلان أن : « كل مولود في المملكة التونسية حر لا يباع ولا يشتري » (6) وهذا ما يعني مدى الرعاية التي أظهرها باي تونس عندما اتخذ قرار العتق الجريء .

ان عدد الملفات والدفاتر المحفوظة بأرشيف الدولة التونسية والتي غطت هذه الأقلية الإفريقية السوداء وظاهرة تجارة العبيد ونتائج منع ذلك ، ثم موقف المسؤولين تجاه تنفيذ هذا القرار أو عدمه ، وكذلك مواقف بعض التونسيين ازاء هياته الظاهرة ، تستحق التوقف عندها لاستخراج معلومات مفيدة سنعمل في هياته الدراسة على توظيفها وابرار المحاور الأساسية التي تناولتها ، خاصة اذا كان الأمر متعلقا بمختلف المصادر العربية المتعلقة بتاريخ افريقيا .

فحكومة الباي عندما الغت الرق في منتصف القرن التاسع عشر ، تبين لها من خلال شهود العيان ومقالات الصحف المحلية (7) والدولية ، أن ظاهرة تجارة الرقيق ، مازالت تمارس ولو بشكل جزئي حتى بعد الإحتلال الفرنسي للبلاد التونسية سنة 1881 ، على الرغم من منعه منعاً رسمياً . وهذا ما جعل الباي يومئذ يتخذ قرارا جديدا في جانفي يناير 1887 لتحريم مرسوم جديد وتوجيهه الى كل المسؤولين المحليين ، وتوزيعه في كل المدن والقرى ولدى القبائل ، طالبا من الجميع ليس فقط عتق كل العبيد ، بل معاقبة كل شخص يملك أو يشتري أو يبيع العبيد ، معاقبة صارمة (8) .

(6) أحمد بن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ج 3 ، ص 36 ، تونس ، 1962 .

(7) راجع مثلاً كتاب المحامي قاستون جوهارب : (الرق في تونس) .
Geston Joherp, *L'esclavage en Tunisie*, 31p. Tunis, 1980.

حيث قدم صورة كاريكاتورية وعرقية ومنحازة لظاهرة الرق بالبلاد التونسية في أواخر القرن التاسع عشر .

(8) ننشر هنا للاهية ، نص هذا المنشور التاريخي :

« الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وبعد فإنكم على علم مما كانت صدرت به الأوامر العلية من إبطال ملكية العبيد بالمملكة ولا سيما الأمر المؤرخ في المحرم سنة 1262 وبمقتضى ما ذكر لم تأل الدولة جهدا في منع التجارة بالعبيد وعتق من يبلغها أنه مملوك منهم ومعاقبة من يتغاطى تلك التجارة أو يخالف الأوامر المشار اليها بوجه من الوجوه وقد بلغ الوزارة في الأيام الأخيرة أن كثيرا من السكان عمدوا الى شراء السودان والسودانيات من القوافل التي ترد من الجهة الجنوبية وان العمال متغافلون عن ذلك ولما عرضت النازلة على الحضرة العلية دام عزها وعلاها صدر الإذن العلي بتنبهكم لما في ذلك من المسؤولية الشديدة وان

ان مثل هذه التعليمات التي أرسلت الى كل المسؤولين وقرئت على المواطنين في المساجد وفي الأسواق من طرف الدلائل ، قد اثمرت اهتماما كبيرا جدا (9) ونتيجة لذلك ، حررت مئات من الرسائل والتقارير وارسلت الى الوزارة الكبرى واصفة بكثير من الدقة المتناهية ، وضعية «الأقلية الإفريقية السوداء» بالبلاد التونسية وموقف القواد أنفسهم تجاه هذا الموضوع (10) .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن بادىء الأمر بأى لغة كانت تتعامل هاته الأقلية فيما بينها أولا ، ثم في تعاملها مع الناس في بيئة معربة

يؤكد عليكم برد البال وعمل الجهد التام في مراقبة تجار العبيد الذين يقدمون للمملكة فيهما يبلغا وصول أحد منهم توجهوا أتباعكم للبحث عنه والتسكن عليه وعندما تظفرون به يوجهونه الى الوزارة لحاكمته أما من يوجد معه من العبيد فإنكم تجعلونهم في محل أمين وتعرفون الوزارة بعددهم واوصافهم ويكون المصروف عليهم من ماله الى أن يتيسر لهم خدمة تضمن لهم المصايش واذا كان صاحب القافلة باع عبيدا لبعض سكان المملكة فإنكم تمسكتون على البائع والمشتري معا وتوجهونهم جميعا الى الوزارة وفي هذه الحال يكون مصروف العبيد على الفريقين . واذا كان يوجد الآن عند أحد ممن لنظركم سودان أو سودانيات فإنكم تحضرونهم أمام النائب الشرعي بجهتكم. وعدلين من عدول العمل وبعد تعريفهم أنهم أحرار غير مملوكين لأحد تسألونهم هل يريدون البقاء عند مخدمهم أو يختارون تركه فإن أحبوا البقاء لهم ذلك والا فإنكم تعرفون الوزارة وتيقنهم مؤقتا حيث كانوا في كلا الحالين يحرم العدول بمحض النائب الشرعي تقريراً تصححه أنت ومن ذكر وتوجهونه الى الوزارة فوراً وأجر العدول يدفعه المخدم والذي يؤكد به عليكم أن تسلكوا في جميع هذه الأعمال مسلك الإستقامة والحزم وأن لا تستميلكم الأغراض الشخصية الى ارتكاب ما يخل بخطبتكم واذا ثبت بالوزارة أن وقع منكم تقصير أو مخالفة لنا يأذنكم به سيدنا ومولانا أدام الله عزه وعلاه ، تنالكم العقوبة الشديدة فاجتنبوا ذلك والله في عونكم والسلام من الفقير الى ربه أمير الأمراء محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر عفى عنه وكتب في 5 رجب سنة 1304» .

(9) أرشيف الدولة التونسية (أ.د.ت) قسم أ ، صندوق (3) ، 1 - 281 ، رسالة من محمد السقا الى الوزير الأكبر بتاريخ 15 ذي الحجة 1307 / 2 أوت 1890 معلنا أن كل شخص يملك أو يشتري عبيدا يتم سجنه لمدة ثلاثة أشهر .

(10) أن عددا من الرسائل في أرشيف الدولة التونسية ملف (3) - 1 - 281 . قد سجلت مواقفهم من ذلك : محمد السقا القائم مقام عامل المستير قد ذكر في رسالته بتاريخ 15 ذي القعدة 1307 / 2 / 9 / 1890 ، الى الوزير الأكبر : «أن من كان عنده سودانية أو سوداني ليس بيده حجة تقتضي أنه حر غير مملوك ، يلزمه أن يدفع له تلك الحجة في مدة ثلاثة أشهر من تاريخ الأمر المشار إليه وأن خالف تناله العقوبة المقررة بالفضل الثالث وهي الخطية قدرها من 200 ريال الى 2000 ريال . وان من يشتري انسانا أو يبيعه أو يحوزه بوجه الملكية يساقب بالسجن من ثلاثة أشهر الى ثلاث سنين ... ومراقبة من يأتي بالسودانيين أو السودانيات من الخارج ليبيعهن بالمملكة والقبض عليهم وأن وقع الظفر بمثل هذا وتوجيههم مسجونين لجناب الوزارة مع حجة قاضية بمخالفتهم» .

وفي رسالة أخرى وجهها أحمد زروق ، المكلف بجربة الى الوزير الأكبر بتاريخ 14 محرم 1309 ، ذكر له فيها : «... مازلت جادا في حسم مادة العبودية» .

تماماً ؟ وللإجابة على هذا السؤال ، فإن وثائقنا عكست لنا ان الأغلبية كانت تمارس العربية «الدارجة» وان عدداً آخر منهم كان يستعمل لغات إفريقية محلية وهو ما أطلقت عليه وثائقنا باللغة العجمية (11) ، وهذا ما جعل الوزارة تطلب من «قوادها» العمل على ارسال هؤلاء الأشخاص الذين لا يتكلمون اللغة العربية ، مصحوبين بمن يعرف لغتهم لتسهيل عملية الترجمة (12) . على ان وثائقنا قد ذكرت لنا حالة شخص واحد هو الحاج محمد بن احمد «يحسن الكلام بالفرنسية ذكي، جدا واستعمل كجندي تركي في حرب القرم » (13) .

أما أصول هاته الأقلية فقد ذكرت وثائقها أنهم من برنو وغدامس وطرابلس والطوارق وافنو وكانو وتمبكتو ووادا . وبالنسبة لأشخاص آخرين ، فلم يتمكن المحققون من معرفة أصولهم (14) ، وفي الكثير من الأحيان ، فإن اسمائهم نفسها كانت تدل على أصولهم مثل الغدامسي والوراقلي والطرابلسي والبرناوي الى آخره (15) ... أما عن انتماءاتهم الدينية ومستواهم الثقافي ، فقد أمدتنا وثائقنا بمعلومات مفيدة حول هذه النقطة بالذات ، ففي القائمة التي سجلت فيها 1113 عبداً اعتقوا

(11) أ.د.ت. المصدر نفسه ، ملف سنة 1889 ، رسالة من مسعود ابن عبد الرحمان قائد الجبل الى الوزير الأكبر بتاريخ 24 ذي الحجة 1305 / 1 سبتمبر 1808 ، رسالة أخرى من قائد المهديّة صالح عبد الوهاب الى الوزير الأكبر بتاريخ 24 محرم 1306 / 30 سبتمبر 1808 وتوجد هاته الرسالة بالملف التابع لسنة 1808 وحيث ذكر بها : «سودانية عجمية ... وقد استغلقت السودانية ... وبواسطة المترجم عنها بلنتها .» وفي رسالة لوحظ في بيت الطاهر مورالي بأريانة : «خادمين لا يعرفان التكلم بالعربي وكلاهما صجمان» راجع أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 7 رجب 1304 / 1 أبريل 1887 .

وفي رسالة أخرى من عامل الجبل المسعود بن عبد الرحمن الى الوزير الأكبر ذكر بخصوص أحد الزنجيات عند سؤالها : «فوجدناها عجمية لا تفهم بالعربية قليل ولا كثير...» راجع هاته الرسالة بملف سنة 1889 وبتاريخ 24 ذي الحجة 1305 / 9 / 2 1888 .

(12) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف سنة 1889 ، رسالة من قائد نفزاوة الى الوزير الأكبر بتاريخ 23 رمضان 1306 / 30 سبتمبر 1888 حيث عرضت اسم الزنجي ابراهيم الغدامسي كمترجم من وإلى اللغة السودانية . ولاشك هنا ان المقصود به هنا بعض اللهجات الإفريقية والتي ليس لها ارتباط باللغة العربية .

(13) أ.د.ت. ، ملف سنة 1893 ، برقية من المراقب بجزيرة الى المقيم العام الفرنسي بتونس بتاريخ 23 فيفري 1893 .

(14) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، رسالة من القائد محمد بن خليفة الى الوزير الأكبر بتاريخ 16 شعبان 1303 / 19 ماي 1986 ، حيث ذكر أنه اشترت شوشانة ولا تعلم من أين اشترت .

(15) أ.د.ت. ، ملف رقم (3) - 1 - 281 سنة 1890 ، رسالة الى الكاتب العام للحكومة بتاريخ 6 ماي 1885 ، راجع أيضاً التقرير الذي حرر في قضية محمد البكوش بتاريخ 8 صفر 1308 / 24 سبتمبر 1890 .

سنة 1860 ، كانوا بالغين ومن جنس الذكور وخاضعين للأداء (16) ، نلاحظ وجود 37 شخصا قد أدوا فريضة الحج الى الأماكن المقدسة (17) . وفي لائحة ثانية ممضاة من طرف 86 شخصا كانوا قد اعتقوا ايضا وعبروا عن عدم اعترافهم بقائدهم «الحسني الذي اتهموه بممارسة الأعمال الشائنة وتجارة العبيد» (18) ، نلاحظ وجود سبعة عشر شخصا «حاجا» ، ومن جهة اخرى طلبت سيدة افريقية اعتقت بالقيروان مع سيدات قيروانيات الإذن باداء فريضة الحج (19) . وكذلك هرب عدد من العبيد ، من مقر شغلهم والتجأوا الى المساجد (20) او مختلف الزوايا ذات الحركية والإشعاع الديني (21) . ولا شك أن هذه الظاهرة ليست عفوية ، بل هي تترجم عن ارتباط واضح بالدين وتعلق بالإيمان والمعتقدات الروحية . والذي يؤكد هذه الظاهرة أن الباي احمد باشا باي عندما قرر تنفيذ قرار الغاء الرق بالبلاد التونسية سنة 1842 ، كان قد عين عدلين بزواوية سيدي محرز والزواوية البكرية وزواوية سيدي منصور ، لاستقبال المعتوقين وتحرير وثيقة العتق الرسمية (22) !

(16) أن هدف الحكومة يومئذ من حصر العبيد ، من جنس الذكور والبالغين ، كان الغرض منه معرفة القادرين منهم على دفع أداء المجبي وعليه فإنه من الصعب تقديم احصاء دقيق للأقلية الإفريقية السوداء بالبلاد التونسية في القرن التاسع عشر الميلادي .

(17) أ.د.ت. ، القسم التاريخي ، دفتر 819 حيث سجل العبيد المعتوقين في البلاد خلال سنة 1860 ، وإذا قمنا بمقارنة سريعة لعدد اليهود ، فإن احصائيات الحكومة التونسية خلال سنة 1860 وبالنسبة لمنطقة المنستير مثلا ، تقدم عددا أكثر من المضاعف للعبيد ، حيث أعطتنا رقم 73 يهوديا مقابل 157 للعبيد لنفس المنطقة . راجع لكل ما يتعلق بهاته المقارنة ، الدفتر رقم 759 .

(18) أ.د.ت. ، ملف (3) - 1 - 281 ، رسالة الى الكاتب العام بتاريخ 6 ماي .

(19) أ.د.ت. ، القسم التاريخي ، ملف رقم 191 ، وثيقة ، 13724 ، رسالة من قائد القيروان محمد المرابط الى الوزير الأكبر بتاريخ 24 جمادى الثاني 1293 / 17 جويلية 1875 .

(20) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، وثيقة رقم 191 ، رسالة من قائد القيروان محمد المرابط الى الوزير الأكبر بتاريخ 10 شعبان 1294 / 21 أوت 1877 .

(21) أن الأمثلة حول هذه الظاهرة في وثائقنا عديدة ، ونضيف الى ذلك : زاوية السيدة المنوية وزاوية سيدي عبد القادر الجليلاني .

كما نلاحظ أن عدد اخر من العبيد قد التجأوا الى القنصلية الأنكليزية بتونس وحيث سعى القنصل للتدخل لدى السلط ، طالبا عتق هؤلاء العبيد : «لي الشرف أن أطلب منكم تسليم وثيقة الحرية من الحكومة التونسية لصالح العبد ابراهيم بن نديم البرناوي والذي التجأ الى قنصليتنا امس وحيث كان مقيما في بيت محمد بن عبد الله أكثر من عشر سنوات» .

راجع هاته الرسالة في : أ.د.ت. ، ملف (3) - 1 - 281 ملف من 1885 الى 1892 ، رسالة بتاريخ 2 جانفي 1889 ، رسالة أخرى من محمد الطاهر التيفر الى الوزير الأكبر بتاريخ 1 صفر 1305 / 20 أكتوبر 1887 .

(22) الإتحاق ، ج . 17 ، ص. 87 .

أما المهنة التي مارستها هاته «الأقلية الإفريقية السوداء» فإننا نلاحظ بادىء الأمر ان العمل المنزلي كان السائد لدى الأغلبية الساحقة في المجتمع الإسلامي على العموم ، وهذا خلافاً للأمريكية التي سخرت العبيد لممارسة كل المهنة الصعبة والشاقة والتي استنفذت طاقات أصحابها . غير اننا من خلال مجموع الوثائق التي عالجناها ، سجلنا استثنائين لهاته القاعدة أولهما : هي هاته السيدة الإفريقية التي عبرت عن رغبتها في عدم ممارسة عمل البادية حيث بقيت تخدم فيها وأنها لا قدرة لها على خدمة البادية (23) . وللهروب من هذا العمل ، فضلت ترك سيدها . اما الحالة الثانية فهو الحاج محمد بن احمد الذي القي عليه القبض ولم يكن لديه تسريح وهو «يتعاطى صناعة الطب ويأخذ الضيافة بصفة كونه تابع لسيدى عبد القادر الجيلاني . وقد خرج من تونس منذ شهر وقطع البلاد راجلاً الى جربة وله من السن خمسين سنة تقريباً ...» (24) .

ومن جهة أخرى فإن «الأقلية الإفريقية السوداء» التي كانت تتمتع بتعيين قائد عايتها في تجمعاتها (25) ليشرف على شؤونها الخاصة ويحل مشاكلها الاجتماعية والإدارية ، وكانوا في بعض الأحيان ، بحامة قبابس مثلاً ، قد اقترحوا على الباى بأنهم : «اتفقوا (اتفاقاً تاماً) ورضوا بالمكرم الأجل احمد بن عبادان خليفة عليهم كسائر خلفاء العبيد أمثاله وذلك لصلاحيته واهليته وحسن سيرته معهم ...» (26) ، أو أنهم اشتكوا من ان «المكرم الأجل علي الحامي أضربهم واساء السير معهم ولا هم راضون به ان يكون خليفة عليهم ...» (27) . ولهاته الاقلية حق التملك وشراء العقارات وفضلاً عن ذلك كانت تتمتع بحق التحكيم الى العدالة المحلية ، اذا استوجب الأمر ذلك (28) .

(23) أ.د.ت. ، قسم أ. صندوق (3) - 1 - 281 ، رسالة من محمد الجلولي ، قائد

صفاقس الى الوزير الأكبر بتاريخ 2 صفر 1305 / 21 أكتوبر 1887 .

(24) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف راجع لسنة 1893 ، برقية موجهة الى المقيم العام

بتونس بتاريخ 26 فيفري 1893 .

(25) أ.د.ت. ، القسم التاريخي ملف رقم 191 وثيقة ، قسم 13794 ، رسالة من قائد القيروان

الى الوزير الأكبر بتاريخ 10 شعبان 1294 / 20 أوت 1877 .

وبالإضافة الى ذلك فإن عدداً من اللوائح قد حررها «أشراف» العبيد المعتوقين ووجهت

الى حكومة الباى وقد عبرت عن عدم رضائهم عن قواد المعاتيق لعدم كفاءاتهم وهو الأمر الذي أضربهم . راجع : أ.د.ت. ملف (3) - 1 - 281 .

(26) المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 20 ذي الحجة 1302 / 1 / 12 / 1885 .

(27) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 5 جيسادي الأول 1302 / 11 / 2 / 1885 .

(28) Lucette. Valensi «Esclaves chrétiens et esclaves noirs à Tunis en XVIII siècle» in *Annales E.C.S.* N°6, 22 année, 1967.

غير ان مصير هاته «الأقلية الإفريقية السوداء» سوف يعرف تحويلا جذريا بعد توزيع منشور الباى الثانى الذى حرم على كل المواطنين والأجانب الذين يعيشون فى البلاد التونسية (29) حق شراء أو بيع أو تملك العبيد ، وفى حالة المخالفة تسلط أشد العقوبات والتي تنص على الغرامة أو السجن أو الإثنين معا . ولم يستثنى أحد فى ذلك . لقد كان موقف السلط حازما كل الحزم فى تطبيق أوامر الباى ووظفت كسل المعلومات التي وصلت الى عملها ، واتخذت اجراءات صارمة ضد عدد من الشخصيات التونسية التي لم تلتزم بأوامر 1301 ، من ذلك أن الحاج علي حمزة احد الشخصيات المستقيمة والتي تمتعت بتأثير واسع وشرعي والموالي للحماية الفرنسية (31)، قد اتهم بشراء زنجية عمرها احدى عشر سنة . وقد اغرم نتيجة لذلك بدفع الف ريال (32) . وهناك شخصيات اخرى مثل العبيدى بن محمد من توزر والمتهم بشراء زنجيات قد حكم عليه بالسجن ولمدة شهرين (33) اما الحاج محمد بن رمضان الحمادي فقد أوقف لأنه باع زنجية (34) .

لقد قام ممثلو الباى بجهود مكثفة ومضنية لمراقبة كل الأشخاص على اختلاف اوضاعهم الاجتماعية أو السياسية أو الدينية والذين يشك

(29) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف (3) - 1 - 281 سنة 1893 ، رسالة من الجنرال لوكلاك (Leclerc) الى المقيم العام بتاريخ 21 مارس 1893 ، يحيطه فيها علما بأن شخصا غير تونسي قد رفض تطبيق أمر الباى يعنى العبيد وقد أبلغ هذا الشخص بالخضوع للأوامر الصادرة عن الحكومة التونسية وان قانون الغناء العبودية ينطبق على كل الموجودين بالبلاد التونسية وهذا على الرغم من اختلاف جنسياتهم .

(30) وكمثال على ذلك رسالة الوزير الأكبر الى عامل الأغراض : «وبعد فقد بلغ لحضرة المعظم الأرفع مولانا وسيدنا انه يوجد عند الشيخ عمر بن سالم من سكان أودير (كذا) قرب قبايس عدد وافر من السودانيات يقرب من 60 نفرا وبناء على ذلك صدر الإذن العلي بأنك تبادر للبحث عن ذلك بجميع ما يلزم استعماله من الوسائل واذا حصل لكم الظفر بشيء من ذلك نوجه للوزارة ما تجده منهم كما توجه الشيخ المذكور ونرجو ان يكون ذلك في أقرب وقت» راجع : أ.د.ت. ملف (3) - 1 - 281 ، رسالة بتاريخ رجب 1304 / 1 أفريل 1887 .

(31) المصدر نفسه ، ذكرت أن شخصيات عدة تمتلك بصورة غير قانونية العبيد . وقد أغرموا جميعهم نتيجة لذلك .

(32) المصدر نفسه ، ملف سنة 1888 ، رسالة من مراقب المدني بسوسة الى المقيم العام بتاريخ 10/10/1888 .

(33) المصدر نفسه ، قسم أ ، صندوق 281 . ملف لسنة 1885 - 1892 .

(34) المصدر نفسه ، ملف سنة 1887 ، رسالة الى الوزير الأكبر بتاريخ 25 ذي الحجة 1304 / 14 سبتمبر 1887 .

انهم يملكون «عبيدا سودا» والحقيقة ان هذه التحريات مكتتبا من تقارير ووثائق كانت قد وجهت الى الوزير الأكبر وتحتوي على معلومات مختلفة حول الأوضاع النفسية والأخلاقية والعائلية والإقتصادية ، ليس فقط عن الأقلية السوداء ، بل تجاوز ذلك لعدد من العائلات التونسية وموقفها العام من موضوع الرق ، وهذا ما يشكل احد المظاهر المهمة والأساسية لدراساتها والتوقف عندها وتحليلها . فالعائلة الحسينية المالكة قد احترمت هي الأخرى ما نص عليه المنشور واعتقت الثمانية والعشرين عبدا والذين يعيشون في القصر (35) . اما الشخصيات الأخرى من كبار موظفي الدولة أو الشيوخ أو رجال الدين فقد اقتفوا مثال البساي واعتقوا العبيد الذين كانوا بحوزتهم (36) . وعليه كان تأثير المنشور الثاني العام والقاضي بعنق العبيد قد منح للمرأة الإفريقية على الخصوص حلين شرعيين : أما الزواج من أسيادهم أو من زنوح كان قد اعتقوا ، أو بترك العمل المنزلي لدى سيدها تماما ، والمتبع بحريتها المطلقة . والواقع اننا امام ظاهرة اجتماعية فريدة لتطور العلاقات العربية - الإفريقية في البيئة الاجتماعية التونسية . والمتبع لمصير أغلبية الزوجيات اللاتي اعتقن في هذا الظرف يلاحظ انهن قد اخترن ، بمحض ارادتهن ، تقنين زواجهن وهن بذلك قد منحن بذلك الشرعية للابناء ، وقد صرحن بأنهن احرار ويرغبن في البقاء لدى المواطنين وحيث كن اما زوجات او عبيدا (37) . أو مثل هاته «الشوشانة عند سيدي صالح بن مسعود منذ خمس سنوات على سبيل المعاشرة والإحسان والتماس بركة الشيخ المذكور وانها رغبة في خدمته ومعاشرته...» (38) .

ومن جهة أخرى لاحظ بعض المفتشين عددا من حالات سوء معاملة التونسيين لعبيدهم ، وكمثل على ذلك ، هاته السيدة التي عبرت عن رغبتها

(35) أ.د.ت. المصدر نفسه ، تقرير بتاريخ 9 شوال 1307 / 30 ماي 1890 .
(36) فالوزير الأكبر كان يتابع هذه المسألة عن كثب ولم يفتأ يوجه الى القواد والخلفاء تحذيرا حول امتلاك عدد من كبار موظفي الدولة ، العبيد مثل الشيخ عمر بن سالم يقايس الذي اتهم بتملك سودانية ، وقد صدرت الأوامر بالتحري من ذلك والتحول الى منزله ، أو السيد علي يوحجر ، أحد الزعماء الدينيين للطريقة الرحمانية الذي اتهم بتملك أربع زوجيات . راجع مجموعة هاته الرسائل بملف سنة 1888 بتاريخ رجب 1304 / أفريل 1886 و 23 أفريل 1887 .

(37) أ.د.ت. ، قسم 1 . ملف (3) 1 - 281 ، المراسلة العامة لسنة 1887 ، رسالة من الجنرال جيون (Gillon) الى المقيم العام بتاريخ 6 جانفي 1887 .

(38) المصدر نفسه ، رسالة من محمد الصادق بن التليي عامل أولاد وزار الى الوزير الأكبر بتاريخ 17 ربيع الأول 1394 / 12 / 1887 .

بترك سيدها لأنه قد أساء معاملتها . وعندما سئلت من طرف المفتشين هل هي بكر أم متزوجة ؟ ردت بقولها : « لا بكر ولا متزوجة ولي ولدان من سيدي وانها تطلب العتق ولا شيء خلافة » ! (39) . اما عائلة البكوش فإن الزنجيات الست اللاتي يعشن منذ سنوات ، فقد صرحن بأن جميعهن غير متزوجات وليس لهن ابناء ولا يرغبن في ترك اسيادهن وانهن احرار (40) . كما ان عددا آخر من الزنجيات المعتقدات ذكرن أنهن أحرار وانهن يرغبن في خدمة اسيادهن بمحض ارادتهن وانهن سعيدات بمصيرهن ولهن أبناء... (41) . أما الزواج بين المعتوقين فهي ظاهرة عامة وتمت وفقا للتقاليد الإفريقية المحضة (42) . وهذا خلافا للزواج بالتونسيين حيث نص على قيمة المهر واسعار البضائع المتوفرة يومئذ ، ومن جهة أخرى امكن العثور على معلومات عن املاك المعتوقين .

(39) أ.د.ت. ، المصدر نفسه ، ملف سنة 1890 : من تقرير حرره نعمان الخوري بتاريخ 11 أفريل 1890 ، فيما يلي مقتطفات من هذا التقرير :
رسالة من عامل الأعراض الى الوزير الأكبر بوعتور بتاريخ 4 ذي الحجة 1303 / 1886 / 12 / 3

«حضرت بالوزارة السودانية سعيدة بنت معطي من برفو وذكرت أنها كانت مملوكة للحاج علي من أولاد منصور من حامة قابس وفي شهر ذي الحجة في العام الفارط قدمت مع سيدها للحاضرة وما لبثت أن هربت من عنده والتجأت الى زاوية سيدي معرز وهي الآن تطلب العتق .

س : من أين اشتراك سيدك
ج : من ... بطرابلس
س : أي وقت اشتراك .
ج : قبل دخول الفرنسيين للمملكة بأربع سنوات .
س : عمرك ؟
ج : لا أعرف
س : هل كان سيدك يسيء معاملتك ؟
ج : جدا
س : هل أنت بكر أم متزوجة ؟
ج : ولا بكر ولا متزوجة ولي ولدان من سيدي .
س : ماذا تطلبين من دون العتق ؟
ج : العتق ولا شيء خلافة
س : هل بقي عند سيدك سودانيات مملوكات ؟
ج : بقي عنده واحدة اسمها عايشة وهي شابة هربت مرارا وأرجعها سيدي الى الدار ...» .

(40) المصدر نفسه : في التقرير الذي حرر حول الزنجيات اللاتي يعشن في منزل محمد البكوش بتاريخ 8 صفر 1308 / سبتمبر 1890 .
(41) أ.د.ت. ، ملف (3) - 1 - 281 لسنة 1892 ، من تقرير بتاريخ 8 مارس 1891 ، حرره العقيد كاك (Kuk) بعد أن وصلته شكاية موجهة من قاضي ترمزة ضد قائد قبيلة أولاد سيدي عبيد وحيث اتهم بعدم الإلتزام بأوامر الباي بعتق العبيد .
(42) المصدر نفسه ، رسالة بن محمد الحلوئي قائد صفاقس الى الوزير الأكبر بتاريخ 12 محرم 1305 / 1 أكتوبر 1887 حيث ذكر : «أنه تزوجها بعد شرائه لها على عرفهم الجاري من التزويج» .

ان المؤرخ وعالم الاجتماع سوف يجدان مجالا مهما جدا لدراسة مختلف العوامل والتأثيرات المتبادلة التي طبعت ليس فقط الروابط الثقافية والدينية والعاطفية والتي نسجت مع الزمن ، بين الأقلية الإفريقية السوداء في الولايات العربية وبين التونسيين ، بل أيضا للدلالة على أن الإرث الإفريقي في حياتنا اليومية - الإجتماعية منها على الخصوص - مازالت ماثلة للعيان الى اليوم في المغرب العربي وفي البلاد العربية على حد سواء أثناء العيد العثماني ، وهو الأمر الذي وجب علينا أن نوليّه اهتمامنا ورعايتنا في المستقبل خصوصا وان دراسة تأثير ودور «الأقلية الإفريقية السوداء» في الولايات العربية بعد من المواضيع الشيقة والجديدة والهامة التي يتحتم علينا التصدي لها خدمة للمعرفة التاريخية الشاملة .

د. عبد الجليل التميمي

(43) المصدر نفسه : رسالة من قائد العرض الى الوزير الأكبر بتاريخ 4 ذي الحجة 1303 / 3 سبتمبر 1886 . وكشال على ذلك فإن أحد المهور كان : 30 شانا و 1000 ريال تونسية معجلة و 100 مؤجلة ، أو 100 ريال تونسية فضة يشتري لها بها زوج حوايج حلي خريص وخلال فضة» .

ملحق (*)

..... احضر جملة الخدم المراد سؤالهم ، فإذا عدهم سنة لاغير ومن الآتي ذكر أسمائهم وما اجبن به عن الأسئلة فأمرن بالوقوف بزاوية البيت الذي به كاتبه والسيد محمد البكوش وخدام له أسود اللون سنة نحو العشرين سنة واستقدمت احداهن المسماة حواء وسألتهما بأنفرادهما عن الأسئلة الآتية فأجابت عن كل سؤال بما ذكر امامه ثم اخبرني عن تسال منهن تنصرف من اسامنا حيث رخصيت بالملكث عند السيد محمد البكوش وكلين مستبشرات وفي اجوبة البعض منهن انها لا تريد الخروج الان حتى يزورها سيدها بمن يريده لهما وهذه صورة الأسئلة والاجوبة :

ما اسمك ما نسبك	حسواء عنفورية	السيد علي الساحلي	دولة بكانسو	سريرة توارقية	نعمنة ولدت بتونس بدار محمد البكوش	فخيرة لا تعرف بلدها لأنها لأنها أتت صغيرة لدار الماكسور	رئيسة بزنزوبه
من أتى بك لهما الساار	كم مدة اقامتك بهاية الدار كم سنك	نحو تسعة اعوام نحو الثلاثين سنة	نحو عشرين نحو ثلاثة وعشرين سنة	نحو اثني عشر سنة كالتى قبلها	مدة عمرها نحو تسع عشر سنة	كالتى قبلها كالتى قبلها	سنة اعوام كالتى قبلها
هل تزوجت وهل لك ولست لونها وبعض اوصاف هل بالدار غيرك من السودان	لا سمراء نصف لون و بجديها سمية العيد لا (أي مسا عدا الحاضرة)	لا سوداء رفقه	لا كذلك	لا سوداء رخصه	لا كالتى قبلها	لا كالتى قبلها	لا كالتى قبلها

(*) حرر هذا التقرير من طرف الشيخ محمد مصطفى التي كلفته الوزارة الكبرى للبحرر حول وضعية اليميد لدى عائلة البكوش بأريافنة .
أرشف الدولة الفرنسية ، ملف رقم 3 - 1 - 281 ، عن وضعية العيد سنة 1890 .

لا علم لها	كذلك	لا علم لها من عهد قريب سوى ربيع	كأول	لا علم بها	لم يقع مرض واحدة من عهد قريب سوى أن تبر اعتبارها مرض وعالجها الطبيب وماتت منذ نحو 6 أصوار	ما اسم السودانيين الذين ماتوا من عهد قريب بالدار وما نسب موتهم
عند سيدي بدارنا	لا يحتاج لعق الأنبي لرؤساي مهم .	أنا حرة لا يحتاج	بدارنا باريانة	أنا غير ملوكة لأحد نفس .	أنته من الدار فإذا هو مؤرخ في 20 ربيع الأول	ارني رسم حقتك هل تريد الخروج من هاتك الدار وللمب حيث شئت وإن كان لك اثاث أي حوائج من ملبوس وغيره يأعده وتخرج الآن معها أو تريد البقاء هنا فإنت مخيرة في ذلك ولا خوف عليك
لا	لا	لا	لا	لا	لا	

وبعد الفراغ من الأسئلة والاجوبة المذكورة قال السيد محمد الكوش أن السودانيين الذين بلغ الوزارة موتهم منذ 6 أشهر ووقع الآن السؤال عليهما لوجود لهما ولا لهذا الخبر اصل . غير انه كانت بالدار شوشانة تسمى تبر اعتبارها مرض صفال وعالجها الطبيب برانس مدة طويلة وعند انقضاء اجلها ماتت وذلك منذ ست أو سبع سنين وما أكعب كتابا جوابا عن مكتوب الوزارة الذي ابلهته الي وسلمه الي كاتبه وهذا نصه :

جناب المصادر الهسام امير الامراء الوزراء الأكبر سيدي محمد المزرب زبعتور ادام الله تعالى حفظه اما بعد السلام التام المودب على المقام فإنه شرقي كتابكم الأعز المأرخ في 7 شهر تاربخ صحبة الثقة الزكي الأكمل الشيخ محمد مصطفى في الاطلاع على احوال الخدم الذي بلغ الوزارة انهين بطلب الخروج وذكر الشيخ المذكور انه بلغ الوزارة ان الثنان (كدا) من الخدم المذكورين ماتوا عندنا في هذه المدة من سوء المعاملة وقد حضرنا أمام الشيخ المذكور وسألهم عن حالهم وضمن مات واجابوه بما ينهيه لسيادتك . أما ما ذكره من موت اثنين عندنا فهذا كذب مصفون حيث لم يست بفضل الله عندنا أحد ولا شك ان الذي اخرج هذه الفرية وانهاها الوزارة قصده اذائنا ولذلك نطلب من علي جنابكم احضاره واحضار عيكم لديكم وتحققوا الأمر حتى يتبين بكتابكم حقيقة الواقع ثم زجر المفترق بما يستحقه من ثلوث اعراض الناس والله تعالى يحرسكم ويحفظكم والسلام من معكم قديركم السامي محمد الكوش لعف الله في 8 صفر الخير 1208 .

وسا اجابني به السيد محمد الكوش ان العواطف الست المذكورات ما كانت بداره من طبع نفس سبقت وكلت امراد عالجتم بالحق

التفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب

د. محمد التونسي

مجتمع حلب والتفاعل السياسي :

إن من يستعرض الحارطة للامبراطورية العثمانية يدرك - وبوضوح تام - الموقع الاستراتيجي الذي تمتعت به ولاية حلب (والمدينة بشكل خاص) بالنسبة الى غيرها من الولايات العربية التابعة لها . ولقد حكم الوطن العربي حكام عرب حيناً وحكام غير عرب حيناً آخر . وكان هؤلاء الحكام جميعاً مسلمين ، ويتسلطون على أبرز عواصم الوطن العربي من داخله . لكن الغريب في حكومة السلطنة العثمانية أنها أول حكومة - وآخر حكومة - حكمت الامة العربية من خارج حدودها . واستطاعت من بلاطها أن تهيمن عسكرياً على هذه الولايات .

وقد كان نفوذ السلطة العثمانية متأرجحاً بين الحكم المباشر والحكم الاسمي في الولايات العربية . وتعد ولايات الشام - ولا سيما ولاية حلب - أبرز الولايات التي خضعت للنفوذ العثماني المباشر ، لاسباب عديدة أهمها :

I - قربها من سيطرة الباب العالي : وولاية حلب أقرب ولاية الى مركز السلطان العثماني ، والوحيدة ذات الحدود المتاخمة المتلاحمة معها ، وما زالت حتى اليوم .

2 - كون ولاية حلب أول ولاية يدخلها السلطان العثماني سليم الاول إثر معركة مرج دابق في 24 آب عام 1516 . ولا نعد دخوله الى العراق قبل سنتين من هذا التاريخ سوى تذليل للشاه عباس واحتلال لبعض مناطق نفوذه . ذلك أنه بعد أن جاس النديار الايرانية ودخل تبريز وشمال العراق عاد الى بلاده من غير أن يعبر بغداد الى الولايات العربية الاخرى . وقد اتسم دخوله حلب بسمة الرغبة في الاستقرار وبسط النفوذ الدائم على أنقاض حكم المماليك في الشام ومصر .

وانتقل السلطان سليم من حاب الى حماة سلمياً ، وطاف بعض زوايا المتصوفة فيها ، ولا سيما التكية الكيلانية (I) ، ثم دخل بعدها دمشق . وبعد أن وطد حكمه في مصر عاد ليتوقف في حلب حيناً من الزمان ، حيث نهض خيراتها وكنوزها (2) .

(1) معادن الذهب ، الورقة 19 .

(2) فقد غنم مثلاً ملايين الدنانير المخبوءة في قلعة حلب ، وكانت من مخلفات المماليك

وبعد أن طاف هذه الولايات ، ودرس مواقع ما لم يصل إليها أدرك موقع حلب الاستراتيجية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والمهم جدا بالنسبة الى سلطانه ، فأكد السيطرة عليها ، ولا سيما حين لاحظ امتداد رقعتها على مسافة طويلة من حدود بلاده الجنوبية ؛ فهي تمتد من الاسكندرونة غربا الى شواطئ نهر الفرات شرقا ، كما تمتد من الحدود العثمانية شمالا الى مسافة أربعين ميلا جنوبا . ومع أن سوء السياسة العثمانية اضطرتهم فيما بعد الى تقليص مساحتها (عام 1752) اذ سحبوا منها بعض المناطق والسناجق مثل كلس وبيلان والاكراد ، حتى غدت مساحتها لا تبتعد كثيرا عن بليدة الباب شمالا والصحراء شرقا وانطاكية غربا ، فانها ظلت بالنسبة اليهم الولاية المهمة والمقمة الدسمة وكذلك بالنسبة الى الباشاوات الذين كانوا يعينون فيها .

وقد قسم العثمانيون الشام الى ثلاث باشويات كبيرة هي : باشوية حلب ، وباشوية الشام ، وباشوية طرابلس . وزاد العثمانيون بعد قرن ونصف ولاية صيدا فولاية فلسطين وعكا . وإثر تدهور الاوضاع الادارية وتردى السياسة العثمانية قلصوا ولايات الشام الى باشويتين كبيرتين هما حلب والشام . وأضافوا عليهما ولاية ثالثة هي باشوية بيروت . واستمروا على تقسيمهم الاداري هذا حتى قيام الحرب العالمية وجلائهم عن البلاد (3) .

ومما لا شك فيه أن ولاية حلب كانت أهم الولايات التابعة للعثمانيين ، ويكاد السلطان يشرف عليها مباشرة ، بتعيينه أبرز الوزراء عليها ، ويتقبل شكاوى الناس بنفسه أحيانا ، ويتدخل في تعيين قضاتها ومحصليها وغيرهم من صغار الموظفين .

والحق أن حلب لم تكسب شهرتها الكبيرة بسبب النفوذ العثماني والاهتمام بها وحسب ، لان شهرتها عريقة في القدم كما هو معلوم ، وكما يتضح بعد ذلك أن العثمانيين لم يبدلوا كثيرا من نظمهم الادارية التي كانت في عهد المماليك ، ولا يعدو ما فعلوه أكثر من تبديلهم لبعض التسميات الادارية . فهم حولوا « النيابة » وحاكمها « النائب » الى « ولاية » وحاكمها « الوالي » أو « الباشا » . ثم طوروا مفهومهم للولاية فجعلوه « متصرفية » وصاحبها « متصرف » ليمنحوه بعض الحرية والتصرف في القضايا . وقد كان لقب الوالي « باشا » وهو برتبة وزير .

ثم قسموا كل ولاية الى « سناجق » ، وصاحب السنجق هو « السنجدار » . وقد اشتملت حلب على تسعة سناجق . وظل منصب الوالي أعلى المناصب في الولاية ، ويتلوه القاضي ، وبعده المحصل (جابي الضرائب) . وكانت مساحة

ولاية حلب هي هي تقريبا في زمان المماليك ، وكان آخر نائب لها حين دخلها العثمانيون «خاير بيك» .

لكن الوضع الإداري كان يزداد يوما بعد يوم ، لبعدها الولايات عن مركز السلطنة ، ولتردى وضع السياسة العليا ، ولفشو الرشى ، ولا نستثنى ولاية حلب (المدللة) من هذه الاعراض المتردية ؛ فقد عم شراء المناصب واسترداد أثمانها من الشعب ، وتبديل الباشاوات بسرعة خاطفة كيلا تترسخ أقدامهم في البلاد فيطمعون في الاستقلال ، وحتى يتسنى للباب العالي أن يبيع المنصب لباشا آخر ، مما جعل الباشا الجديد لا يفكر الا بامتصاص الاموال من الشعب لاسترجاع ما دفعه ، ولسد جشع الوزراء وأصحاب النفوذ في الباب العالي . فقد مر ما لا يقل عن مئة وثلاثين واليا على الشام في غضون مئة وثمانين سنة ، كما تعاقب على ولاية حلب تسعة باشاوات في ثلاث سنوات .

وكم كان باشاوات حلب (وغيرهم كذلك) يحتربون على السلطة فيما بينهم داخل المدينة وخارجها ؛ بين الباشا القديم والباشا الجديد ، طمعا في الكسب المالى (4) . وكانت حلب أولى بهذا التردى من غيرها ، لأنها كانت ذات وضع مالى متميز . فقد ظل الباشاوات يمتصون خيراتها حتى كاد معينها يجف ، وحتى اندثرت معالم مئآت القرى ، وتحولت أراضيها الخصبة الى قاع صفصف ، ودخلت في عداد البادية والصحراء .

3 - وهكذا يمكن اعتبار ولاية حلب أول ولاية اعتمدوا عليها في كثير من أمورهم ، وأكبر ولاية أولوها اهتمامهم ، وتفاعلوا معها ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا ، كما سنرى .

4 - كما امتازت ولاية حلب بأنها كانت في العهد العثماني محطة كبيرة لعسكرة الجيوش العثمانية البرية ، مما عمل على انغماس الروابط الاجتماعية بين الطرفين ، ولا سيما مناطق الريف الواسعة . أما المدينة نفسها فكانت محطة أساسية لباشاوات النهابيين الى مراكز ولاياتهم ، أو العائدين من مهماتهم برا ، وللكبار الاسر العثمانية العريقة التى تنشده الإقامة في أقرب بلد عربى ، ولطلاب العلم من الفتيان العثمانيين الذين يطمحون الى تعلم العربية أو التتلمذ على الزهاد وشيوخ الطرق والمتصوفة ، ومحطة للوفود القادمة شرقا أو جنوبا لتلقى الباب العالي (5) .

مجتمع حلب والتفاعل مع العثمانيين :

أشارت كتب التاريخ الى أن الحكم العثماني على الولايات العربية كان حكما عسكريا ، تبعا لسياستهم التقليدية . وهذا يعنى أن الدماء كانت قلما تمتزج

(4) وانظر معادن الذهب في ترجمة الوالي ابراهيم باشا ، ورقة 11 .

(5) زار الشاعر العالم بهاء الدين العاملي حلب ، حاملا رسالة من شاه ايران الى الباب العالي .

بين العثمانيين والعرب ، وأن التركيب العنصرى نادرا ما يختلط . ويمكننا أن نستثنى من هذا الحكم ولاية حلب بخاصة ؛ فهي أكثر ولاية اعتراها الامتزاج الدموى بين الفريقين ، وما زالت آثار هذا الامتزاج باقية حتى اليوم . ولا نغالى اذا قلنا ان هذا الامتزاج قد تستمر آثاره حيناً آخر من الزمان .

ولما كان الاحتكاك المباشر يؤثر فى طبقات أمة الحاكم تأثيره فى طبقات الامة المحكومة فان ملامح هذا الاحتكاك غدت واضحة بشكل ملموس فى دماء المجتمعين وفى عاداتهم وفى ملابسهم وموسيقاهم ومنازلهم وأسمائهم وكنائهم وحرفهم . والاحتكاك المباشر الذى نعينه انما يتمثل فى تأثير المجتمع الحلبى فى المجتمع العثمانى ، وفى تأثير المجتمع العثمانى فى المجتمع الحلبى .

صحيح ان الباشاوات كانوا يأتون الى الحكم ، وقليل منهم الذين يطول حكمهم أو يستقرون فى الاراضى العربية ، لان نهاية أكثرهم القتل أو النقل أو النفى أو الاستدعاء الى الاستئانة . لكن الامر يختلف قليلا مع باشاوات حلب ؛ اذ لما كانت المدينة قريبة جدا من الاراضى العثمانية فان ذوى الباشا والمقربين كانوا يأتون الى حلب ، ويستقرون فى أحياء خاصة بهم فى البدء ، ثم ما يلبثون يندمجون كليا مع السكان الاصليين . وما زالت بعض أحياء حلب تحمل أسماء بعض الاسر والشخصيات النازحة ، كما سيأتى .

ولقد اختار كثير من الجنود الانكشاريين مدينة حلب مقرا دائما لهم ، فزاد ذلك من تمازج الشعبين وتفاعل دمائهما ، غير ناسين أن الانكشاريين أجناب الدماء ، عثمانيو العادات والمعتقدات . فقد استولى الانكشاريون فى حلب على معظم الحرف ولا سيما القصابة (بيع اللحوم) . وكانوا يفرضون نوعا من الطعام على الزبائن بحسب نوعية اللحوم المتوفرة لديهم ، وأيس على حسب رغبة الزبائن ، حتى ذهب مثلا قول أهل حلب : « الارادة لرحمون آغا » يعنى أن رب العائلة لا يستطيع تحديد نوع الطبخ الذى سيشتريه لمنزله قبل أن يسأل رحمون آغا (أو أى انكشارى) ماذا يريد اطعامهم هذا اليوم ؟

هذا نموذج من تسلط الانكشاريين على حلب ، أما الفتن التى كانت تجرى فى البلدة فأغلبها بسببهم . وكان ولاة حاب يعجزون عن اخضاعهم وردعهم . ولا شك أن نفوذهم وغناهم قادهم الى التزاوج بالاسر الحلبية المسلمة حين سمح لهم بالزواج والاستقرار خارج الشكنات .

ومع أن الانكشارية حاربوا فى عهد السلطان محمود عام 1826 فان فلولهم ظلت فى ولايات الشام وعانت فسادا حقة طويلة لانشغال السلطنة والباب العالى بالامور الداخلية . ثم ما لبثوا أن استقروا فى الشام بعيدا عن سطوة السلطان ، ليدوبوا بين المجتمع الشامى والحلبى .

وعلى النقيض من الفئات الانكشارية نجد خصومهم من فرق السباهية (ويدعون طبقة المتسلحين فى الريف) ، وهم الذين كانوا يستولون على

المناطق الزراعية أو يقطعون بعضها ، ويسمى الواحد منهم تيمارا ، والاكبر منه يسمى «زعامة» وصاحبه يدعى «الزعيم» . وما زالت أسر كبيرة (كانت اقطاعية يوما) في حلب وحماة تحمل هذا الاسم ، كما يحمل بعضهم لقب « السباهي » المعروف بحلب اليوم . وقد ذكر العرضي (في مواضع متفرقة) حروبا كثيرة جرت بين انكشارية حلب وانكشارية الشام من جهة ، وانكشارية حلب وسباهية الضواحي من جهة أخرى . ولا شك أن هذه الحروب أثرت كثيرا في مجتمع حلب واقتصاده . وكان أغنياء الريف المساميين في الولاية يتسابقون الى تزويج بناتهم من ضباط السباهية ليأمنوا شرهم ، فنجم عن ذلك جيل كبير مطعم من أشهر أسرهم آل الحراكبي في حماة .

وننتج عن هذا التفاعل الاجتماعي بين الفئتين أن تأصلت العلاقات وتوطدت العادات بين العثمانيين والمجتمع الحلبى بشكل بين ، وبخاصة في :

1- بناء الاسرة : ذلك أن بناء الاسرة العثمانية شديد التأثير ببناء الاسرة الحلبية المسلمة . فنادرا ما نجد أسرة حلبية ليس لها جذور عثمانية ، وكثيرا ما نلقى أسرا نصفها يحيا في حلب ونصفها الآخر في تركيا . وأهل حلب شديداو المباحاة بجذودهم العثمانيين . وما زالت بعض الاسر اليوم تحتفظ بهذه الذكريات ، وتعتز بهذه الممتلكات . وكثيرا ما نرى اليوم صورا تزين جدران المنازل العريقة تمثل الجد العثماني وهو بزيه التركي المعروف أو بقطع من الاسلحة القديمة . كما نجد أسرا تركية تقيم في بعض الاحياء الجانبية ، محافظة على تركيتها وجنسيته .

وحتى اليوم المشكلة الوقفية معلقة بين الحكومتين ؛ بين أملاك الاتراك في حلب وأملاك الحلبيين في تركيا ؛ والتي يرجع تاريخ بعضها الى أكثر من مئة وخمسين سنة . واذا كنا ذكرنا أن بعض الاسر الحلبية كانت تتسابق الى تزويج بناتها بالعثمانيين ، وأن بعضهم يتزوج منهم قسرا فإن بعض الاسر العريقة كانت ترفض هذا الزواج بدافع الترفع كآل الجابري ، أو بدافع العداء لذهبي كالاسر الشيعية ، أو من لهم أصول نسب ببعض الايرانيين كآل الكواكبي الذين ينتمون الى جد الاسرة الصفوية المالكة آنئذ ، وهو الشيخ الصفوي صفى الدين الاردبيلي .

2- العلم والدين : لقد كان للعلم والدين دور كبير في اندماج المجتمعين ، ذلك أن رابط الاسرة الاجتماعي الذي ذكرناه فوق عمل على التوافق الدينى والمذهبي على توثيقه وتناسى قضية الحاكم والمحكوم في بعض الاحيان .

ويحسن أن نشير أولا الى المذهب السائد . فقد كان العثمانيون متعصبين لسنيتهم ، وجعلوا مذهبهم الرسمى هو المذهب الحنفى ، وهو السائد في سورية بعامة وفي حلب بخاصة . وقد وضع ابراهيم بن محمد الحلبسى (ت 956) أحد فقهاء حلب كتابا في الفقه الحنفى أسماه « ملتقى الأبحر »

سنة 923 . فغدا المرجع الاساسى للتشريع فى الامبراطورية ، وعمت شهرته الآفاق (6) .

كما كان الباشاوات يهتمون كثيرا برجال الدين فى حلب (وفى غيرها) ويبينون لهم الزوايا والتكايا والمساجد ، ويوقفون لها أوقافا غنية ، ويوصون بأن يدفنوا فيها الى جانب شيوخ طريقتهم . وما زالت قبور بعض الباشاوات قائمة فى تكية الشيخ أبى بكر . ثم هناك مسجد الملائخانة ، ومسجد الشيخ زكى ، والعثمانية . ويعد مسجد العثمانية من أبرز مساجد حلب وأغناها .

ومن الجدير بالذكر أن العلماء داخل البلاد العثمانية لم يكونوا فى البدء عثمانيين ، بل كانوا يفندون عليها من الولايات العربية والاسلامية . وارتفع مقام هذه الفئة كثيرا فى الدولة ، ومنحوا ألقابا لم تكن معروفة قبلا أو لم تكن ذات حظوة لدى الدولة مثل : رئيس القضاة ، قاضى عسكر ، قاضى روم ايلي ، المفتى ، شيخ الاسلام ، نقيب الاشراف ، المدرس . ومع أن الدولة العثمانية عسكرية - كما أسلفنا - فانها كانت متمسكة بالدين ، فكانت ترحب بهذه الفئة ، وتستقدمها وتعطف عليها . وقد استقر عدد كبير من هؤلاء العلماء فى الاراضى العثمانية وانصهروا فى المجتمع . ونظرة عجلى فى مؤلفات الاعلام والتراجم المعاصرة للعثمانيين أمثال : الشقائق العثمانية ، سلك السدر ، معادن الذهب ، خلاصة الاثر ، نهر الذهب ، اعلام النبلاء ، الكواكب السائرة تثبت استقرار عدد كبير من علماء حلب فى الاراضى العثمانية واستقرار عدد من العلماء العثمانيين فى حلب (وغير حلب طبعاً) . ومن العلماء الحلبيين الذين آثروا البقاء فى الديار العثمانية : نعيم الحلبي ، ابراهيم الحلبي ، محمد ابن القاسم الحلبي ، يوسف بن عمران الحلبي ، أبو الهدى الصيادى الذى كان أشهر علماء عصره ، ونقيبا للاشراف وشيخ الشيوخ فى عهد السلطان عبد الحميد .

ولعل أبرز من كان يرحل ليستقر علماء الطرق الكبيرة كالمولوية والشاذلية والنقشبندية والرفاعية . . وقد كان العالم منهم ينقل أسرته معه الى مقر عمله ومدرسته ، لان أكثر هذه المناصب وراثى ، وهذا يعنى الإقامة الدائمة .

ولا بد من الإشارة الى أن العثمانيين كانوا متمسكين بسنيتهم (وحنفيتهم بخاصة) معادين لاصحاب المذاهب الاخرى . ولم ينس التاريخ أن يشير الى أن السلطان سليم قتل قرابة أربعين ألف شيعى حين أراد محاربة الشاه الصفوى ، تحسبا من مباغتتهم من الخلف وهو منشغل بحربه هذه . وهذا ما اضطر أسرا كثيرة فى ولاية حلب (وغيرها) الى الرحيل والاعتصام فى الجبال أو فى القرى النائية ، وما زالت قرى شيعية كثيرة فى حلب منظوية

(6) شرحه كثير من العلماء ، وطبع الكتاب الأول مرة سنة 1309 - 1896 .

على نفسها من جراء عداة العثمانيين لهم ، وهي التي يدعوها أهل حلب قرى الرفاض أو قرى المتاولة ، مثل نبل ودير الجميل .

وهذا ما دعا الانكشاريين الى اعلان العداة على السادة الاشراف (أصحاب العمائم الخضراء) في ولاية حلب . وتعد معركة جامع الاطروش أبشع تلك المعارك ، حيث قتلوا كل من لجأ الى هذا الجامع من السادة الاشراف بعد أن وعدوهم بالامان .

والامر نفسه (وهو ما ذكره العرضي في معادن الذهب) جرى للدروز . فالمعروف أن للدروز تمركزا كبيرا في ولاية حلب ، الا أنهم اضطروا في النهاية الى الانسحاب من حلب الى الجنوب ، والى لبنان . وما زال قصر الامير جانبولاد قائما في حي البندرة ، وقد تحول اليوم الى مدرسة تدعى مدرسة العقاف . كما مازالت حول حلب قرستان درزيتان .

3 - اللغة : صحيح أن كرسى الحاكم الجائر وفرض الضرائب الفادحة يحدث فارقا كبيرا في اندماج لغة الحاكم بالمحكوم في الولايات بغامة ، فان ذلك لم يمنع الاسرة الحلبية من اتقان اللغة العثمانية . وما زلنا نصر على أن حلب كانت أكثر الولايات التابعة للحكومة العثمانية اتقاناً للغة التركية . وما زالت مئات الاسر تتبادل أحاديثها في منازلها باللغة التركية ، ولا سيما أعجازههم . وتعتبر محطة الاذاعة والتلفزيون محطة رئيسية لدى بعض الاسر . وإذا كان ثلث اللغة العثمانية عربيا فان عشرات الالفاظ العثمانية ما زالت سائدة في عامية حلب ، من ذلك :

أ - في الاحياء : ما زالت عشرات من الاحياء القديمة بحلب تحتفظ بأسمائها العثمانية . ونظرة فاحصة الى دوائر النفوس تدلنا على أن بعض الاسماء جاء إما من أعيان لامعين مثل : قاضي عسكر ، آغا جق ، هارون دادة ، التون بغا ، أوغل بيك ، جب قره مان ، قرقلار ، الشريعتلي ، مرعشلي ، صاجليخان ، إبشير باشا ، الماملي ، باشا .. وإما باسم فئات عثمانية وأسر حطت رحالها مثل : أغيور ، قارلق ، تترلر ، أوغلي ، جقور جق .. وإما نسب الى حرف مشهورة ، مثل : ألمه جي ، ميدان جك ، كوجوك كلاس ، بالي برغل ، جوقور قسطل ، هلك ، اصلاح خانه ..

ب - في الادارة والمراتب : مثل باشا ، بيك ، أفندي ، سنجق ، جاويش ، قشله ، يسق ، يفما ، ييانجه ، كاغد ..

ج - في المواضع : أوضه ، قيو ، خانه ، سلخانه ، جبخانه ، خستخانه ، أجزا خانه ، ملا خانه ، ليوان ، قناق ..

د - في الكنى : سباهي ، باشا ، كيخيا ، الاجاني ، سنجدار ، بيرقدار ، خزنه دار ، صابونجي ، التونجي ، قندرجي ، كرسته جي ، أنجق ، آغا ، أشجي ، يازجي ، بربر ، بقجه جي ..

هـ - في الاسماء : كلفدان ، نريمان ، مهتاب ، كلنار ، بيرم ، .. بل اننا نلفظ أسماء عربية بحسب النطق العثماني فنقول : شوكت ، عصمت ، رفعت ، جودت .. بفتح التاء والوقوف عليها ، وصوابها العربي بالتاء المربوطة .

و - وكما فعل المصريون بتقليد المماليك في نطقهم الاعجمي فقد قلند الحلبيون العثمانيين في نطق بعض الالفاظ ، فقالوا للحوض (حاووظ) ، وللضابط (ظابط) ، وللضبط (ظبط) ولمرورة (ميرثت) ..

ز - أسماء الاطعمة : اشتهر المطبخ التركي شهرة كبيرة ، ونحسب أن شهرته جاءت من اندماجه بالمطبخ الحلبي و (الفارسي) . فاشترك المطبخان بأنواع واحدة من الاطعمة ، واحتفظ المطبخ الحلبي بأسماء أطعمة تركية كثيرة منها : ششبرك ، زرده ، شاورمه ، قاورمه ، قيمق ، كش مش ، دوله ، يبرق ، يلانجي ، رشته ، أشه ، شيش كباب ، كزان كباب ، كفته ، بقلوا ..

ولا بد من الإشارة هنا (وهو شديد الاهمية) الى أن عددا كبيرا من هذه الاسماء والالفاظ فارسي الاصل ، ودخل الى اللغة العثمانية بحكم الاقتباس الادبي والحاجة (ليس الحديث عنه مناسبا هنا) ، ومن العثمانيين دخلت الى سائر الولايات العربية . من ذلك : باشا ، بيك ، كفته ، كباب . وبعضها مركب من التركية والفارسية مثل : بيرقدار ، جوخه دار ، كلفدان . وبعضها مركب من التركية والعربية أو من العربية والفارسية ، مثل : علمدار ، خزنه دار .

4 - الالبسة : امتازت حلب بتقليد العثمانيين في أزيائهم . وانفردت المرأة الحلبية وحدها بارتداء الحجاب الاسود المؤلف من ثلاث قطع سوداء (وتدعى الملحفة الحراطة) . صحيح أن هذا الحجاب وجد يوما في عدد من الولايات الاخرى ، الا أن هذا الحجاب لم يشع شيوعه في حلب . وما زال جمهور غفير من نساء حلب يرتدينه ، والى عهد غير بعيد كانت المرأة المسيحية (والارمنية) تتزيا به .

ومن أسماء البسة المرأة : يشمق ، باشايه ، الديوان ، قبقاب ، بابوج ، خشر (وقصرت اليوم على الصاغة وبائعى الحلى) .

أما الرجل فقد ارتدى الشر والاسود (بلون حجاب المرأة) وهو اللون السائد عند العثمانيين ، وفوقه الشال الكشميري . كما ارتدى الصايه ، الصرمايه ، الطربوش (7) ، القلبق .

(7) اول من ارتداه من السلاطين السلطان محمود . فدمي آنذاك بالرجل الكافر ، ثم عم في الولايات العربية والعثمانية وبعض الولايات الإسلامية ، مع اختلاف في هيئته وشرابته ولونه .

ومن الاسماء التابعة للالبسة والمنزل : كراويت ، سمندرة ، قطرميز ، ناموسية ، بابور ، طرمبة ، شيشه ، قمجه ، بقجه ..

5 - الموسيقى وأدوات التسلية : ان كثيرا من أدوات الموسيقى وقطعها ومقاماتها كالدوكاه ، والسى كاه ، والحجاز كار ، والبزق ، والباش بزق عثمانية ، أو فارسية منتقلة الى الفارسية . ومثل أدوات التسلية كالكنجفة ، والبرجيس ، وبعض الالفاظ فى لعب النرد . ولن ننسى رقص الرجال الشعبى الايقاعى فهو تركى بحت . ويحتاج هذا الموضوع وحده الى بحث موسع يقوم به أحد السادة المختصين .

الافرنج والوضع الاقتصادى فى حلب :

أجمع المؤرخون الغربيون والشرقيون على أن حلب كانت أكبر محطة تجارية تربط قارات آسية وأوربة وافريقية برا . فهي التى تستقبل القوافل التجارية القادمة من الهند ، وهى احدى أبرز محطات طريق الحرير القادم من الصين ، وهى السوق التجارية الكبرى بين أوربة والشرق . ولهذا وصفها السائح الفرنسى « دى رازل - De Razel » حين زارها فى منتصف القرن الثامن عشر بأنها « أكبر مدينة تجارية فى جميع بلاد السلطان » .

فلا تذكر التجارة فى العهد العثمانى الا ولحلب دور كبير فى ذلك ، فقد كانت حتى أواخر القرن السابع عشر (ق II هـ) صاحبة المركز التجارى الاول فى الشرق الاوسط ويتلوها دمشق فطرابلس . وهذا ما دفع الحكومات الغربية الى كسب رضى الباب العالى للسماح لها بإرسال البعث التجارية والقناصل لحماية تجارتها المنطلقة من حلب .

وقد اندفع اليها عدد كبير من السائحين والرحالة ، وكان منهم انكليز وفرنسيون وطلبيان ونمساويون ، وكتبوا عنها وأطنبوا فى الثناء ، وأشادوا بمكانتها . وظلت تحظى باهتمام السائحين حتى شقت ترعة السويس ، فخبا ازدهارها عالميا ، وإن لم تتوقف تجاريا . لكنها سرعان ما استعادت نشاطها التجارى عام 1880 حين بنيت السكة الحديدية فيها ، حيث غدت همزة الوصل ثانية بين الشرق والغرب . وما زالت حلب أبرز مدينة تصل عددا من الدول العربية بتركية وأوربة تجاريا . وسماها الرحالة الانكليزى موريسون - Morrison حين مر بها عام 1617 : « مدينة حلب الشهيرة The Famous City of Aleppo » . كما خصها الشيفالييه دارفيو قنصل فرانسة فيها من 1679 - 1685 بمجلد كامل من مجلداته الستة التى جمع فيها مذكراته عن الشرق الاسلامى (8) . كما أشادت الموسوعة البريطانية فى حديثها عن هذه المدينة التجارية وجعلتها المدينة الرئيسية فى شمال سورية

والسوق الأساسية للشرق الاوسط في القرن السادس عشر . وترى الموسوعة أن ثروتها الاقتصادية استمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر على الرغم من الحروب والصراعات مع ايران .

كما ورد ذكرها في الآداب الغربية دليلا على شهرتها لديهم ، حتى قبل أن يفد عليها الغربيون بكثرة ، ولا سيما المسرحيات الانكليزية والاي탈ية . ففي مسرحية ماكبث - Mackbeth (الفصل الاول ، المشهد الثالث) يتحدث شيكسبير عن قرينة أحد الملاحين بأن زوجها رحل الى حلب ، فقال :

Her husband's to Aleppo gone

وفي مسرحية فولبوني Volpone يقول بن جونسون Ben Jonson (الفصل الخامس ، المشهد الرابع) :

To zant, or to Aleppo

ولم تدخل مدينة حلب مجالها العالمي الواسع الا لما انتهت التجارية منذ القدم ، وهذا ما دفع مئات من كبار البنادقة ، والتوسكانيين ، والهولنديين ، والفرنسيين ، والانكليز الى التوافد عليها والعيش فيها ، والاستغناء عن بلدانهم أحيانا في سبيل الإقامة فيها . حتى ان الطاعون الذي اجتاح المدينة عام 1742 لم يعمل على هرب الاجانب لكثرة مصالحهم فيها . بل ان أطباءهم عالجوا السكان وخطروا بحياتهم . وكان من أهم هؤلاء الاطباء الاخوان راسل (9) .

ولقد أسس الاوروبيون فيها مستعمرات كبيرة . ولعل البنادقة أول من نزل حلب من الافرنج التجاري . فقد كانوا يرسلون قوافلهم الى الهند لتعود الى حلب حاملة التوابل ، حيث يضيفون على قوافلهم ما يشترونه من البضائع المحلية ، ليرسلوها الى المدن الايتالية . ولهم خانات يقيمون فيها ويستقبلون تجارتهم فيها ، وما زال « خان البنادقة » معروفا الى اليوم بهذا الاسم . ويذكر الرحالة الايتالي « تاكسبير » أنه وجد أربع عشرة أسرة بندقية عدا القنصل ، وكانت أرباحهم التي يجنونها من التجارة كبيرة جدا . ويذكر المسيو بيلون أنه حين زار حلب عام 1548 وجد تجارا بنادقة في حين أنه لم يجد تجارا فرنسيين . ومهم جدا أن نشير الى أن أغلب التجار البنادقة والتوسكانيين (IO) كانوا يهودا ، وكان الحى المفضل الذي يفضلون الإقامة فيه هو حى اليهود ، والذي ما زال الى اليوم يعرف بحى بحسيتا .

ويأتى دور التجار الانكليز بعد البنادقة . وقد تأسست في حلب « الوكالة التجارية الانكليزية - The English Factory » ، وكان مقرها خان الجمرک

(9) انظر مذكراتهما (ص 73) والتي طبعت مرتين في بريطانيا ، ومرة في حلب تحت عنوان « الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر » عام 1968 .
(10) Toscana : دوقية تابعة لاي탈ية الوسطى وعاصمتها فلورنسة .

المعروف اليوم ، وكان راسل يسميه في مذكراته « الخان الكبير » . وكانت هذه الوكالة تتألف من قنصل ونائب للقنصل « كنشلور Chancellor » وعدد من التجار قد يربو عددهم على الستين تاجرا وقسيس وطبيب وحاجب يدعى الجاويش . وكان عدد منازل الانكليز عام 1753 ثمانية عدا بيت القنصل، ثم تناقص العدد . وذكر الرحالة الايتالي بيدرو تاكسييرا - Pedro Teixeira أن القنصل الانكليزي (وكذلك الفرنسي) كان تاجرا أيضا على الرغم من أن القانون الانكليزي والفرنسي يمنعان القناصل من تعاطي التجارة .

وفي عام 1543 عقد فرنسيس الاول مع السلطان سليمان معاهدة صلح نشطت فيها التجارة الفرنسية على أساسها . وازداد عدد التجار الفرنسيين بحلب شيئا فشيئا حتى زاد عددهم على عدد التجار الانكليز ، وكانت مستعمرتهم هي خان الحبال ، بالإضافة الى عدد كبير من المنازل . ومن الجاليات التجارية المهمة التي حطت في حلب ونشطت جاليات هولندية .

لم تكن حلب هدف التجار الافرنج وحسب ، فقد كان لزاما على الارساليات التبشيرية أن تتبع التجار . فقد وجد رجال الدين المسيحي طريق هؤلاء التجار منفذا تبشيريا مهما لهم بعد أن فشلت محاولات الحروب الصليبية . فقرروا غزو البلاد العربية سلما واقناعا عن طريق نشر المسيحية بين المسلمين . وكان الكاهن ريموند لال (ت 1315) قد سبق الآخرين في تبني الفكرة ، وكان أول أوروبي شدد على أهمية النضال السلمي الذي يعتمد على الاقتناع بدلا من الابداء . واستمرت الارساليات تتوافد على حلب بعده ، ولا سيما حين وقع السلطان محمود معاهدة صلح مع لويس الخامس عشر تفتتح فيها البلاد للحجاج النصاري ، وكانت وفودهم البرية كلها تمر عبر حلب .

كما كانت القوافل التجارية تشجع طلاب العلم والرهبان المبشرين الحزويين والكبوشيين والعازاريين بالتوجه معهم الى حلب . ولم يفتق حلب في استقطاب هذه الفئات الدينية سوى لبنان . فأسسوا فيها الاديرة والمدارس والمعاهد ، وما زالت بقاياها الى اليوم .

لكن هذه الجاليات الكبيرة بحاجة الى قناصل يشرفون عليها ويحمون تجارتها ويرعون مصالحها . وكان لكل قنصل عدد من الاعوان والموظفين ، وكانت القنصلية الفرنسية أكبر هذه القنصليات ، ويمتاز قنصلها بمكانة خاصة لدى الباب العالي . وكان السلطان يمنحه حق رعاية التجار الذين لم يكن لديهم قناصل في حلب ، وله كذلك حق التقدم على سائر القناصل في المناسبات الرسمية . وكان التجار يستظلون بحماية قنصلهم وكذلك الاديرة والتبشيريات كدير الارض المقدسة الذي كان يقع في خان القصيبة ، وفيه أكبر كنيسة يؤمها الاجانب الكاثوليك ، ودير الآباء الكبوشيين ، والآباء اليسوعيين في خان البنادقة ، ودير الكرمليين في خان الجمرك (II) . وقد

ازداد وضع الفرنسيين أهمية في بلاد الشام فتأسست قنصليات كبيرة أخرى في غير حلب كالألكسندرونة واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا .

وكان لكل قنصل عدد من الموظفين ، أهمهم : جراحون ، واحد منهم للجالية والباقيون يعملون على تطبيب الشعب . ومترجمان يعرفان الإيتالية (لغة التجارة) والثركية (لغة المخاطبات) ، ويقبضان مرتباتهما من الوكالات التجارية ، وقواسن (حاجبان) انكشاريان يلزمان دار القنصلية ، مهمتهما أن يمشيا أمام القنصل ، ويبد كل واحد منهما عصا كبيرة يقرعان بها الأرض تنبيهاً للناس لكي يفسحوا له الطريق ، وعدد من التراجمة الفخريين والموظفين الإداريين من أجانب ومواطنين .

الافرنج ومجتمع حلب :

لقد اطلق سكان حلب لفظة «الافرنج» على الاجانب جميعا بلا استثناء ، وكان هؤلاء الفرنج يلتقون فيما بينهم ويتعاملون بكل صداقة ومودة ، ولم يبالوا بالعلاقات السياسية التي تربط دولهم بعضها ببعض . فقد كان هدفهم هو التجارة والكسب والعيش بسلام في هذه البلدة التي تعد بنظرهم أجمل المدن الإسلامية وأشهرها بعد استانبول والقاهرة (كما قال أحد القناصل الفرنسيين عام 1683) .

كان زى القناصل رسمياً معروفاً ، أما باقي الافرنج فبعضهم كان يحافظ على لباسه التقليدى ، وبعضهم كان يرتدى الالبسة الشرقية حبا بتقليد الشعب ، وليس ضغطا من قبل الحكومة ، كما هو الحال في دمشق (12) ، حيث كان على كل افرنجى أن يرتدى اللباس الشرقى اذا أراد زيارة دمشق ، لقدسية دينية كان الباب العالى يوليها اياها ، ومن هنا انطلق اسم « شام شريف » على عاصمة ولاية الشام . حتى الذين يرتدون الالبسة الشرقية كانوا يحتفظون بقبعاتهم الخاصة وضافاتهم المستعارة علامة فارقة من السكان الاصليين . واستمروا على هذه الحال حتى 1770 حيث شرعوا يتزيفون بالزى الغربى جميعا ، ولم يكن ذلك قسرا ، بل بحرية وميل .

ولقد كان الافرنج في حلب يتمتعون بحماية تامة من الحكومة المحلية ، ويتحلون بامتيازات كبيرة من الباب العالى بحكم معاهدات دولهم . وكان المسؤولون الافرنج والقناصل يزورون باشا حلب أو المحصل أو قائد الجيش . وكانت تجرى لهم احتفالات عامة مهيبة في كل زيارة . وكانت هذه الحفاوات تؤثر كثيرا في نفوس العامة ، فاعتاد السكان ان يحترموا الافرنج ويكرمهم ، ما لم يستفزه أحد بسوء سلوكه أو استهائته ببعض عاداتهم ، فلا يسلم عندئذ من التقرير والاهانة ومناداته بقولهم الساخر : « فرنجى كوكو ، فرنجى

(12) الإفرنج في حلب : 29 .

كوكو « (I3) . وكانوا يعاملون - بشكل عام - كما يعامل أصحاب الملل المسيحية . ومع ذلك فإن الشعب كان يتنازل عن كثير من أعرافه مراعاة للفرنجة . فالمعروف مثلا أنه لم يكن يسمح في القرنين السادس عشر والسابع عشر لغير المسلمين بركوب الخيل ، ولكنهم كانوا يسمحون للفرنجة بذلك . ويذكر السائح راولف الذي زار حلب عام 1573 أنه اضطر الى النزول عن جواده حين دنا من أبواب المدينة . كما يشير المسيو دارفيو (1679 - 1686) في مذكراته الى استنكار الباشا (وليس الشعب) من ركوب الفرنجة الخيل داخل البلدة ، ثم ما لبث الامر أن شاع بينهم .

وكان الفرنجة يقيمون ولائمهم واحتفالاتهم في خاناتهم أو في حوض الطبيعة ، وبقيرون حفلاتهم التنكرية ويتجولون في الشوارع ، ويركبون الخيل ويقنصون ويصطادون ، ويستأجرون البساتين في الصيف (كالسكان الأصليين) ، وينزلون الى الحمامات العامة .

وقد تدفق التجار الأوروبيون ، وازداد عددهم كثيرا ، وكان لهم دور كبير في استمرار احياء الطريق البري الذي ينتهي دوما ويبدأ دوما بحلب . حتى الانكليز الذين يقصدون الهند كانوا ينزلون في الاسكندرونة ثم يتابعون مسيرتهم برا عبر حلب . ولم يكتف التجار الفرنجة باستيراد بضائع الهند ، بل كانوا يستوردون منتجات لبنان وفلسطين وغيرهما الى حلب بمساعدة تجارها ، ومن ثم ينقلونها الى بلادهم في الغرب . ومع أننا لاحظنا أن قضايا التجارة كانت بيد الاجانب فان للتجار دورا حساسا ، فهم الذين يشاركونهم في شراء السلع الداخلية ، ويتحكمون بالاسعار ، ويحتكرون البضائع ، وينتقلون مع القوافل الى الهند أو الى ايتالية وفرنسة وانكلترا .

وقد استفادت ولاية حلب كثيرا في العهد الحميدي حين أكمل السلطان عبد الحميد عام 1908 خط الحديد الحجازي بين استانبول والمدينة المنورة . وقد تنبه أعيان حلب المقربون من السلطة العثمانية الى أهمية هذا الخط أمثال أبي الهدي الصيادي ، فنشطوا حركته ، فاستعادت حلب نشاطها التجاري العالمي الذي كاد يخبو بعد فتح قناة السويس .

كما ذكرنا أن احتكاك العثمانيين والانكشاريين والسباهيين الاجتماعي كان يجري مع سكان حلب المسلمين . ولم يكن هؤلاء التجار الفرنجة يحييون في منأى عن الشعب ، بل كانوا يحتكون بهم تجاريا واجتماعيا ، ولا سيما المسيحيين . فقد كان بعض هؤلاء الفرنجة ، والفرنسيون منهم بخاصة ، يتزوجون من النساء المسيحيات الحلبيات ، فنجم عن ذلك مزيج من الابناء الهجينين ، دعوا بالايثالية Mezza Razza أي نصف نسل . وقد أحدثت هذه الفئات فسادا كبيرا في حلب وضجة مزعجة بين السكان ، مما اضطر

لويس الخامس عشر الى اصدار أمر يمنع فيه زواج الفرنسيين بالحبليات .
ومن أقدم على الزواج منهم يرحل الى فرانسة فوراً (14) .

كانت الخانات منازل التجار الافرنج الرئيسية . وكان لكل جالية خان تبنيه
فى حلب لها ولاسرتها ولدوابها وبضائعها . وكانوا يبنونه بطابقين وساحة
عريضة مكشوفة للنور والهواء ، مع أروقة تمتد على أطراف هذه الساحة .
يستخدم الدور الاول للبضائع والدواب ، بينما يشمل الدور الثانى غرفا
عديدة ومخادع يسكنون فى بعضها ، ويستريح الراحلون فى بعضها الآخر .
وما زال عدد من هذه الخانات قائما فى حلب ، تجرى فيه الحركة التجارية .
وكانوا يطبخون أطعمتهم فى خاناتهم ، وأكثر طبائخهم من الارمن .

لكن هذا لم يمنع الافرنج من العيش خارج الخانات ، أو من زيارة بعض
التجار المحليين ، وتناول الأطعمة الحلبية المشهورة . ولا شك أن للمترجمين
دورا فى هذه الزيارات ، كما أن بعض الافرنج كانوا يعرفون العربية وبعض
التجار الحلبيين يعرفون الايتالية أو الفرنسية . فلقد كانت اللغة الايتالية
شائعة بين الافرنج جميعا ، كما يجيدها بعض التجار الحلبيين لكونها لغة
التجارة فى حلب . وهذا ما يفسر وجود كثير من الالفاظ الايتالية فى عامية
حلب ، من ذلك :

أونه ، دوى ، ترى فى المزاد ، كمبياله ، بوليصة ، جيرو ، بروتستو ،
كمبيو ، كوبيا ، دوييا . وهى ألفاظ حسابية وتجارية ، تدل على نوعية
العلاقات بين هذه المجتمعات . ومن الالفاظ الطريفة التى ما زالت متداولة
قولهم « عوانة » أو « عوانية » من اللفظة الايتالية Avania وهى تهمة
باطلة . وما زالت متداولة بين مهربى الحشيش والتبغ اذ يقولون : « راحت
على فلان عوانة » . وأخذوا منها فعلا هو « تعاون » .

وكان بعض الافرنج يعرفون العربية لحاجتهم الماسة الى محادثة الشعب ،
ولكن قليلا منهم الذين يعرفون الكتابة بها . وهذا ما عمل على نقل عشرات من
الالفاظ العربية الى معاجم الغرب (15) . وهم كذلك اقتبسوا عددا من الالفاظ
التركية واستخدموها فى حلب . فإذا شاهدوا طريدة فى مجال الصيد
والقنص صاحوا « ياتو » من التركية « ياتمق » بمعنى النوم والاضطجاع .
وكان بعض هذه الالفاظ التركية فارسى الاصل ، كقولهم « برابر » حين
يقفون فى صيدهم مجموعة تلقاء مجموعة .

واضافة الى هذه الفئات الاجنبية كان هناك الارمن الذين لجؤوا الى حلب
ولبنان بأعداد غفيرة اثر الحرب العالمية الاولى ، وانغمسوا فى مجتمع حلب ،

(14) الإفرنج فى حلب : 35 .

(15) عبقرية العرب فى لغتهم الجميلة : 49 - 68 ، تأليف صاحب البحث . طبع رومة .

ورأوا في هذه البلدة راحة وحفاوة لم يجدوها في بلادهم التي كانوا فيها ، وعوملوا معاملة المسيحيين . وما زالت حلب تحتضن أكبر نسبة من المهاجرين الارمن . كما توافد على ولاية حلب (وغير حلب) آلاف من الجراكسة اثر الحرب الروسية التركية الضارية عام 1877 ، وعوملوا معاملة المسلمين ، ولقوا ترحابا من السكان الاصليين .

وهكذا لاحظنا أن ولاية حلب استطاعت بحكم موقعها الاستراتيجي العام والتجاري الخاص أن تستقطب عددا من الملل والشعوب وغير المسلمة ، وتفاعلت معها اجتماعيا واقتصاديا . كسبت من ورائها شهرة كبيرة ، وغنمت أموالا كثيرة ، وامتازت بهما من سائر الولايات العربية في العصر العثماني ، وانفردت عن غيرها بكثير من المواصفات . وما زالت حلب حتى اليوم موئل الاتراك وملتقى الامم حبا باسمها التاريخي العريق ورغبة في موقعها الجغرافي والاقتصادي .

د . محمد التونجي

جامعة حلب - سوريا

مراجع أخرى

- إعلام النبلاء - راغب الطباخ .
- تاريخ سوريا الاقتصادي - الأمير علي الحسيني .
- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - فيليب حتى .
- نهر الذهب في تاريخ حلب - كامل النزي .
- Lewis, B. Istanbul The Civilization of the Ottoman Empire.
- Russel, Natural History of Aleppo.
- Ency. Britannica.

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل

في العهد الجليلي 1726 - 1834

د. سيار الجميل

دائرة علم التاريخ - جامعة وهران

المقدمة :

يعتبر التاريخ العثماني في فصوله وحقوقه وجوانبه من أغنى تواريف البشرية في العصر الحديث .. وقد ارتبط به تاريخنا كعرب ارتباطا وثيقا على مدى زمني طويل يتجاوز أربعة قرون منه ، ولا يمكننا البتة من دراسة تاريخنا الحديث ، دون الاطّام به ، ومعرفة جوانبه ، وفهم مزاياه على وجه من الدقة وروح العلم . وليست مهمة المؤرخ الجاد في دراسة تاريخ الولايات العربية في العهد العثماني يسيرة مهونة ، بل انها مهمة في غاية الصعوبة والتعقيد .. يقع المؤرخ فيها تحت وطأة زحمة الاختيارات والمواقف .. واعباء صعبة ، ومهام معقدة ، وجوانب متباينة ، ومصادر غريبة ومتنوعة ، ... عليه بالسيطرة عليها بكل أمانة ورصانة للخروج بدراسات وتجارب ، نحن في أمس الحاجة اليها في يومنا هذا .

ان تاريخ ولاياتنا العربية ابان الفترات العثمانية ، لم يقرأ أو يدرس على نحو علمي وأكاديمي .. موسع وموثق الا في جوانب محدودة منه ، لا تفي ومتطلبات حياتنا المعاصرة ، وخصوصا ونحن نعلم بان تاريخنا العربي المعاصر في تكويناته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. انما يرتبط ارتباطا مباشرا ، وبصورة وثيقة وعضوية بتاريخ تلك الولايات العربية كأقاليم أو ادارات مرتبطة بحياة الامبراطورية العثمانية .

ان أبرز ما يميز تاريخ ولاياتنا العربية - العثمانية ، حيوية وقوة ونضوجا هي - عندي - فترة القرن الثامن عشر ، والنصف الاول من القرن التاسع عشر .. فقد تميز ذلك التاريخ ، بمفارقات غريبة ، وتطورات خطيرة ، ومميزات مؤثرة ، وحيوات بارزة ... كما انه غدا ذا طبيعة تاريخية - تراكمية غنية بالاحداث السياسية الجسام ، والشخصيات التاريخية العظام ، وتنوع في العلاقات الاقتصادية ، وتبلور في الحركات السكانية ، وركام من الاحداث الاجتماعية .. وشعاع بعض المراكز أدبيا وثقافيا .. وموت للنظام القديم في انبعاث الاصلاحات والتجديدات . وكانت الولايات العربية المختلفة مسرحا واسعا وعريضا لذلك كله ، اذ انها عجت بمتغيراتها التاريخية ، وبدلائها الهامة وخصوصا بعد انحسار الدور السياسي للسلطة المركزية - العثمانية باعتمادها على الادارات والبيوت والسلالات المحلية على امتداد القرن الثامن عشر .

ولقد جاء اختياري في دراسة موضوع الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل العثمانية .. ضمن هذا الاطار الحيوى . والموصل هي من أمهات المدن التاريخية العربية العريقة ، وكان لها شأنها الواسع فى العصر الوسيط كعاصمة لدول قوية وباهرة كالدولة الحمدانية والدولة العقيلية والدولة الاتابكية وغيرها .. وهى عاصمة لبلاد الجزيرة فى جغرافية العصر الوسيط ، وغدت جزءا لا يتجزأ من كيان العراق الحديث بعد الفتح العثمانى الاول للعراق على يد السلطان سليمان القانونى سنة 1534 م .

يعتبر موضوع «الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل فى العهد الجليلي 1726 - 1834 م» من المواضيع الهامة التى تتصل اتصالا وثيقا بموضوع التاريخ العثماني العام ، باعتبار ان ولاية الموصل كانت من الولايات الاستراتيجية المهمة فى حياة الامبراطورية ضمن حياة الصراع العثماني - الايراني . وفى الوقت نفسه ، فان الموضوع المعنى يتصل اتصالا مباشرا بتاريخ العراق الحديث ، باعتبار ان الموصل كانت ثانيا ولاية عظمى من ولاياته الكبرى الى جانب بغداد والبصرة وشهرزور . وبين هذا وذاك ، فان الحياة الاجتماعية والاقتصادية للموصل فى الفترة المذكورة ، تدخل فى نطاق دراسات تاريخ العرب الحديث خلال القرون المتأخرة .. وعلى الاخص ، تاريخ العرب فى القرن الثامن عشر . ولا سيما اذا عرفنا بأن ولاية الموصل كانت تابعة للامبراطورية العثمانية على مدى زمنى طويل استغرق أكثر من أربعة قرون كاملة 1516 - 1918 م ، فهى اذن ، أول اقليم عربى أو ولاية عربية تدخل المجال العثماني ، وهى نفسها آخر ولاية تخرج عنه ، وتخلق فى تاريخنا العربى المعاصر مشكلة سياسية معقدة دعت بـ (مشكلة الموصل) التى انتهت سنة 1926 م .

لقد كتبت فى موضوع تاريخ الموصل العثمانية ، العديد من الدراسات التاريخية والاكاديمية ، باقلام عراقية وعربية وأجنبية . وتطرق البعض من المؤرخين للموضوع من زوايا عامة أو جانبية فى كتاباتهم التاريخية عن الموصل أو عن تاريخ العراق أو تاريخ العرب المعاصر . ولم يزل موضوع الحياة الاقتصادية والاجتماعية كغيره من تواريخ بقية الولايات العربية - العثمانية بحاجة الى العديد من الدراسات والابحاث والجهود العلمية لتوفير حقه من جوانب عديدة ، لم تزل حتى يومنا هذا : غامضة أو مجهولة أو دون معالجة حقيقية دقيقة - مع الاسف - .

لقد اعتمدت فى كتابة هذا البحث على مصادر ومراجع متنوعة وفى لغات مختلفة . واستفدت كثيرا من وثائق عديدة منها : رسائل عمانوئيل سانت البرت / الارشيفات الوطنية - باريس . ورسائل المستر استانهوب اسبينول المحفوظة فى دائرة التسجيلات العامة فى وزارة الخارجية البريطانية . وتقارير الكولونيل تايلر المحفوظة فى مكتبة المتحف البريطانى .. ثم الدفاتر العثمانية

التي تحتفظ بها اسطنبول ، ومنها ارشيفات (طوب قبو سراى) . اما المخطوطات فقد اعتمدت على معلوماتها الحية بصورة كبيرة ، وهي معلومات موسعة واستخدمت الكتاب الثانى من مخطوطة (الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون) لصاحبها المؤرخ ياسين أفندى الخطيب العمري ، والذي كتبه بعد كتابته للكتاب الاول الموسوم تحت نفس العنوان بثمانى سنوات . وقد اكتشفت ان الثانى يحتوى على معلومات تاريخية ثرة ، وهى مجهولة لحد اليوم ، اذ وجدت ان الكتاب الثانى لم يستخدمه أى مؤرخ حتى يومنا هذا . وقد قمت بتحقيق الكتابين فى ابرازة واحدة سنة 1983 م . اضافة الى ذلك ، استخدمت فى البحث الحالى لمخطوطات أخرى ، وتقارير ومذكرات رسمية . ومراجع متنوعة . لقد تناول العديد من المؤرخين والباحثين الاكاديميين موضوع الموصل وحياتها العثمانية ، والذين اسهموا فى اغناء جوانب ذلك . وعلى الاخص : الجانب السياسى والادارى والثقافى ، ومن الذين استفدت من معلوماتهم وكتاباتهم : القس سليمان صائغ ، والمؤرخ الانكليزى ستيفن هيمسلى لونكريك ، والمؤرخ صديق الدمولوجى ، والدكتور صديق الجليلي ، والدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، والمحققان : سعيد الديوهجى ، والدكتور سليم النعيمي . وبرزت خلال عقد السبعينات ثلاث دراسات أكاديمية رصينة لكل من المؤرخ الامريكى روبرت أولسن ، والمؤرخ العراقى عماد عبد السلام رؤوف ، وأيضا أطروحة برسى كيمب . ولا يفوتنى ان أذكر فى هذا المجال مذكرات دومينيكا لنزا المعربة عن الايطالية . مع العديد من كتابات الرحالة الاجانب أمثال : ايفر جاكسون ونيبور ... وما تعرض له عشرات من المؤرخين الاجانب القدماء والمحدثين فى تأليفهم عن تاريخ العراق والامبراطورية العثمانية . وجغرافية الشرق الادنى .

وأخيرا أمل ان يسد هذا البحث فراغا فى حياة دراساتنا التاريخية العربية المعاصرة . . ويقيني انه محاولة قد يكتنفها الخطأ ، وربما ستفيد المؤرخ الذى سيأتى من بعدى ليقدم ما هو أكثر استقصاء واستنتاجا ، والله ولى التوفيق .

I. مقدمة في استراتيجية الموصل : الموصفات الجغرافية والسكانية

يمكننا أن نوضح بإيجاز بعض الجوانب التي امتازت بها استراتيجية الموصل ، والآثار التي عكستها على انماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية لولاية الموصل خلال الفترة المعنية ، في مركزها وتوابعها التي يجمعها الاقليم الممتد في شمال العراق . وفي هذا السياق ، يمكننا فهم هذا الموضوع .. ثم فهمنا لمدى تأثير هذه الجوانب الجغرافية والطبوغرافية والسكانية على الدور السياسي والاداري الذي حكم انماط تلك الحياة .

تعتبر رقعة شمال العراق ذات استراتيجية قوية عبر التاريخ الطويل في تحكمها بتجارة العالم ، من خلال قاعدة الموصل : النافذة التي كانت تصل الشرق بالغرب ، والتي تجتمع بها المسالك البرية الافقية التي تمتد بين الجبال الشرقية (= زاكروس) والبحر المتوسط . ثم المسالك النهرية العمودية التي تصل أناتوليا بالمحيط الهندي من خلال نهر دجلة ، وعبر خط : ديار بكر الموصل - بغداد - البصرة - الخليج العربي (I) .

لقد بقيت هذه النافذة مفتوحة منذ فجر التاريخ حتى فتح قناة السويس سنة 1869 م . ، حين تحولت عنها القوافل التجارية ، وكاد ينعدم تحكمها بالمسالك البرية الافقية ، فتأخرت تجارتها ، وقلت مواردها .. في حين ان سيطرتها على المسلك العمودي لم تزل قائمة حتى اليوم في تخطيطه ووقفاته برا (2) . وقد انكفأ اثره ، وانعدم فعله نهرا .

ومن الاهمية بمكان ، ان نهدف في قراءة طبيعة البنية الطبوغرافية والاثنوغرافية للمنطقة ، قبل تحليل الابعاد التاريخية - العثمانية التي توالدت من خلالها انماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية للموصل : الولاية وأقاليمها التابعة لها خلال العهد الجليلي 1726 - 1834 م . ، ونظرا لما لذلك من عوامل غير مباشرة اثرت في البنية الحضرية والريفية لها ، وطبيعة الحكم المحلي الذي عرفته سواء الفترة التاريخية المذكورة ، وما سبقها على وجه التخصيص .

I - تتصف المنطقة ، كونها من البقاع النهرية النادرة التي تجري فيها ، انهار كبيرة وصغيرة ثابتة الجريان على امتداد السنة . وتوزعها السهول

(1) For details ; see, Halil Inalcik in his artical, « The Ottoman Economic Mind and Aspect of the Ottoman Economy » : Journal titled. *Studies in the Economic History of the Middle East*, ed. by M.A. Cook, London, 1970, p. 213.

(2) S.H. Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Oxford, 1925, p. 3 ; see also, Robert Olson, *The Siege of Mosul and Ottoman — Persian Relations 1718-1743*, India Univ., 1975, chap. titled, « The Strategic Importance of Mosul », pp. 11-12.

الخصبة ، أو الاراضى المتوجة والاحراش (3) . والمنطقة حلقة وصل طويلة بين برارى بادية الشام وجبال كردستان العالية . ولقد تميز موقع الموصل - المدينة - كونه غرب النهر ، وليس على شرقه . فاطلته على هذا المانع المائى القاهر قد خدمها فى تاريخها الجغرافى والاقتصادى أفقيا .

2 - جمعت الموصل بين كلتا يديها استراتيجية كل من المسالكين البريين العراقيين العموديين اللذين يربطها ببغداد وجنوب العراق عبر التاريخ وهما :

(I) المسلك البرى شرقى نهر دجلة ، الذى يسمى (طريق شهرزور القديم) (4) ، الذى يربط المراكز التالية : بغداد - خالص - توز - كركوك - اربيل - السلاية - نينوى - الموصل . يعد هذا الخط البرى من أهم المسالك . وكانت له أهميته الكبيرة عبر امتداد التاريخ الطويل للعراق ، وامتاز بحيويته من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية خلال القرون المتأخرة : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر (5) .

(2) المسلك البرى غربى نهر دجلة ، الذى يربط بصورة مستقيمة المراكز التالية : بغداد - سامراء - قصر العاشق - تكريت - وهدة الحانوكه - الشرقاط - القيارة - حمام العليل - الموصل (6) . وقد ازدادت أهمية هذا المسلك خلال القرنين المتأخرين ، وخصوصا بعد بناء سكة حديد برلين - بغداد ، وبعد الاحتلال البريطانى للعراق بين 1914 - 1918 .

3 - سيطرة الموصل على الملاحة النهرية فى حوض نهر دجلة ، شمالا حتى نقطة ديار بكر ، وجنوبا حتى تكريت (أى حتى الحدود القديمة لولاية الموصل) (7) ، ثم نزولا الى بغداد . ويعتبر المسلك النهري لنهر دجلة ، شريان العراق الازلى ، اذ كان له دوره العظيم من الناحية الاقتصادية - التجارية ، وفى خط مائى نازل أحادى الاتجاه من الموصل الى بغداد عبر العوامات (= الاكلاك) المتكاثرة التى تتقدم مع سرعة تيار النهر وحركته (8) . وفى هذا المجال ، استطيع ان اثبت بالاعتماد على رحلة الرحالة

(3) E. Monroë, *The Middle East*, (Survey), London, 1954, p. 256 ; for details ; see, Col. Chesney, *The Expedition for the Survey Rivers Euphrates and Tigris*, vol. I, London, 1850, pp. 63-91.

(4) P. Kemp, *Mosul and Mosuli Historions of the Jalili era 1726-1834*, Ph.D. thesis, Oxford Bodilian Library, p. 56.

(5) See, Longrigg, *op. cit.*, p. 4 ; and R. Olson, *op. cit.*, p. 12.

(6) Walter B. Harris, *From Batum to Baghdad*, London, MDCCCXCVI, p. 161.

(7) انظر : خريطة ولاية الموصل القديمة فى الكتاب المتخصص ادناه :

D.E. Pitcher, *An Historical Geography of the Ottoman Empire from the earlies. times to the end of the sixteenth century*, Leiden — Brill, 1972, map No. XXXIII.

(8) العوامات او الاكلاك هي السفن الصغيرة المصنوعة من الجلود المنفوخة . راجع اهميتها والمزيد من المعلومات عنها عند :

الانكليزي (جون اششر - John Ussher -) ، أهم نقاط ومراكز خط شريان نهر دجلة ابتداء من الموصل ونزولا حتى نقطة بغداد كالتالي : ... الموصل (المركز الاستراتيجي والاقتصادي المزود القوى) - حمام العليل (الينبوع المائي الكبيرتي القديم) - النمرود (اطلال العاصمة الاشورية) - سكر اسماعيل - قلعة الشرقاط العربية - مصب نهر الزاب الادنى في دجلة والمحفوف بغابة وعواسج كثيفة - تكريت (القلعة التاريخية القديمة) - قرية الدور على شرق النهر - مصر نهر النهروان بدجلة - اسكي بغداد (المنطقة القديمة) - اطلال قصر العاشق - سامراء (عاصمة المعتصم العباسية) - الكاظمية - بغداد (9) .

4 - تعتبر الموصل خزين اقتصاديات المنطقة الشمالية من العراق عموما ، فكثيرا ما كانت الظروف السيئة للمحاصيل الزراعية في توابع الموصل ولواحقها .. تؤثر في مركز المدينة ، وحركته التجارية ، وأحواله السكانية ، رغم علاقاته الاقتصادية المضطربة والمؤثرة على أطرافه من أقاليم الولاية في امتدادات الجبال الكردستانية ، واقليم الجزيرة . ومن أهم المميزات التي امتاز بها مركز الموصل ، انه غني بتوابعه من القرى والارياف والمستوطنات والضياع (10) . وعلى الاخص ، تلك المناطق السهلية التي تنحصر بين الجبال العالية والحوافى الغربية لنهر دجلة ، والتي تتوزعها السهول الخصيبة ، وأهمها : سهل اربيل وسهل الموصل . اضافة الى ان المنطقة المتموجة غنية برساتيقها ومراعيها (II) .

5 - تعتبر ولاية الموصل ذات كثافة سكانية في مركزها وتوابعه من القرى والمدن الصغيرة والارياف والاديرة والحصون والنواحي والقصبات ... وتنتشر جميعها في رقعة شرق نهر دجلة وحول المدينة . ويكاد يكون التركيز السكاني في رقعة شرق النهر هو أكبر لما هو عليه الحال في الرقعة الغربية التي تمتد منها بادية الجزيرة بين النهرين : دجلة والفرات لتتصل ببادية الشام ، اذ تعتبر هذه الرقعة الغربية المترامية الاطراف ، ذات أفق مفتوح لا تتحدد بحدود ، ولا تتماشى بضوابط طبيعية مستقرة ، ما خلا منطقة جبل سنجار الذي لا يشكل مفصلا جغرافيا عموديا ، بل يتميز بالافقية كنتوء منفرد غير متسلسل . وهكذا ، فعدا هذه المنطقة ، ومنطقة المسلك التجاري القديم الرابط بين الموصل

C. Niebuhr, *Reisebeschreibung nach Arabian und andern Umliegende, Landern*), 1908, vol. 2, pp. 286-9 ; see also, *Journal of the American Oriental Society* (JAOS 2nd vol., New York & London, 1851, p. 113.

(9) John Ussher, *London to Pesopolis including Wanderings in Daghestan, Armen and Persia*, London, 1865, p. 193.

(10) راجع الفهرس الجامع لاسماء القرى والتوابع لمركز ولاية الموصل في كتاب المؤرخ ياسين الخطيب العمري :

(11) For details ; see, *JAOS*, 2nd vol., pp. 106-112.

وحلب عبر خط : تلعفر - سنجار - دير الزور - الرقة - حلب والبحر والمتوسط . فان المناطق الشاسعة من برارى الباديتين ، قلما عرفت الاستيطان السكانى المأهول لتلك القبائل الرحل في رحلات مكوكية محددة أو متفرقة بينها وبين برارى نجد ونجود الدهناء المفتوحة . فى حين كانت رقة شمال - شرق نهر دجلة : مناطق ذات مراكز متوطنة ومأهولة بالسكان منذ آلاف السنين ، وقد اندثرت العديد من هذه المراكز خلال ظروف تاريخية عصبية ومتغايرة (I2) .

* * *

2. الموصل في المجال العثماني منذ سنة 1516 م . :

I/2. البدايات التاريخية : العوامل الاقتصادية

بعد معركة جالديران الشهيرة 22 آب (= أغسطس) 1514 = I رجب 920 هـ. التى انتصر فيها السلطان سليم الاول على الشاه اسماعيل الصفوى . غادر سليم تبريز العاصمة الصفوية شمالا ليفتح ارمينيا وعاصمتها اريفان ، فسيطر بمعيتها على عدة قلاع استراتيجية (I) . ثم توجهت انظار السلطنة العثمانية نحو شمال العراق ، فحدثت مواجهات عديدة بعد حرب جالديران لافراغ منطقة شمال العراق من النفوذ الفارسى فكان ان ارسل السلطان سليم الاول جيشا دخل فى نزاع ضد الحاميات الفارسية استقطبته أخيرا معركة (كاركينديد) انفاصلة جنوبى ماردين ، فحسمت هذه المعركة جميع الاضطرابات والمواقف المتأرجحة بين الطرفين لصالح الاتراك الذين سقطت اثر المعركة المذكورة بأيديهم ، جميع المدن والمعاقل والمسالك التى تؤدى الى اطراف هامة فى تصريف اقتصادياتها وسيطرتها على تجارة العالم . وعلى جميع المناطق الجبلية ومناجم الانهار ، ومن تلك المدن الهامة : ماردين - ديار بكر - الموصل - حران - الرقة - ارغنى - نصيبين - اورفه - حصن سوران - كركوك - اربيل - ميافارقين - سنجار - وعموم ابن عمر ... الخ (2) .

(12) R. Olson, *op. cit.*, pp. 12-24 ; and see, É. Hersfeld, *Archeaologische Reise in Euphrat and Tigris Gebiet*, vol. II, Berlin, 1920, pp. 42-103.

(1) Von Hammer Purgstall, *Geschichte der Osmanischen Reiches*, Band 2, (1453-1520), Wien, 1828, p. 419.

وانظر التفاصيل بالتركية :

Yusuf Kenan, *Yavus Sultan Selim ve ittihad — islam siyaseti*, Istanbul, n. d., pp. 81-7, see also, *E.I.*, 1st ed., vol. IV, pp. 214-217.

(2) سعد الدين خوجه ، تاج التواريخ ، اسطنبول ، 1862 ص 321 . وانظر ايضا : د. سيار الجميل ، دراسة في السيطرة العثمانية على اقليم الجزيرة سنة 1516 ، مجلة (بين النهرين) العدد 31 ، سنة 1980 ، ص 327 .

اذا عدنا الى أسباب هذه الحركات التاريخية في بداية القرن السادس عشر ، نجدها متمثلة بالتوجهات العثمانية الطموحة للسيطرة على اقليم الجزيرة في شمال العراق ، فاذا استثنينا العوامل المذهبية في انفجار الصراع العثماني - الصفوي - كما هو معروف عند جميع الذين ارخوا في اسبابه - نجد ان تلك التوجهات العثمانية قد أثارت مطامح السلطنة في استانبول الى مكانة اقليم الجزيرة الجغرافية ، والاستراتيجية التي تتمتع بها عاصمته (الموصل) . إضافة الى مواقع منافذه الحية ، ومدنه التجارية (3) . في فترة شهدت الامبراطورية العثمانية عدة تجديدات في البيروقراطية والاعمال والحرف التقنية السائدة فيها آنذاك ، وتطورها بالشكل الذي جعلها تكثر من مطالبيها في البحث عن مناطق نفوذ جديدة في الشرق ، كما كان عليه الحال في أوروبا الشرقية (4) وعليه ، فقد رصدت مواضع كل من الموصل وديار بكر وحدودهما ومسالكهما .. ثم امتدادات ذلك الخط العمودي الاستراتيجي الذي يرتبط بمسلك : الموصل - بغداد - البصرة .

اما النتائج التاريخية ، فقد افرزت الاحداث الموضحة اعلاه نتائج هامة بما يخص العراق ، اذ اثرت في مسيرة احداثه اللاحقة ، وخصوصا عندما أصبحت الموصل ضمن المكتسبات العثمانية على عهد السلطان سليم الاول . وتعتبر أول مدينة عربية تدخل بمقاطعاتها جميعا الطوق العثماني ، ولقد جاءت السيطرة المباشرة على شمال العراق ، في خط يمتد محوره الجغرافي على النحو التالي : خوي - كركوك - اربيل - الموصل - سنجار . إضافة الى ما يعلو هذا الامتداد ، أو يتداني عنه . فلقد تداعت منطقة بادية الجزيرة على خط يمتد بين : سنجار - عنه - واطراف نهر الفرات وحوافيه الصاعدة حتى الرقة . اما ما يعلو المحور الاول ، فلقد كانت جبال كردستان المنيع . وتعتبر المناطق النهرية ، ومناطق المحور الجغرافي الاول المستحوذ عليه من المناطق المكتسبة - حسب تقسيمات المؤرخ بيتجر - . اما المناطق الجبلية والوحشة من كردستان العراق ومنطقة البوادي المعشوشبة ، فتعتبران من المناطق التابعة (5) . لقد اكتسبت المناطق العراقية في محورها الجغرافي الاول اثر الانتصار في معركة كاركينديد مايس سنة 1516 م . وتبعتها المناطق الاخرى .

بعد ان استكملت ابعاد السيطرة على هذه المناطق وما يعلوها . أوعز السلطان سليم الاول بتشكيل الادارة الاهلية في هذه الاقاليم ، التي تمتد من منابع نهر الزاب الأعلى حتى اطراف نهر الفرات . وقد جاء هذا التشكيل بعد

(3) A.H. Lybyer, « The Ottoman Turkes and the Routes of Oriental Trade » *English Historical Review*, London, 1915 ; see also, Halil Inalick, *op. cit.*, p. 213, and W.É.D. Allen, *Problems of Turkish power in the sixteenth century*, London, 1963, p. 12.

(4) د. سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص 328 .

(5) D.É. Pitcher, *op. cit.*, p. 103.

رسم معاهدة بين السلطة العثمانية ورؤساء العشائر القبلية تحت اشراف مستشار السلطان سليم ، ذلك السياسي الكردي المحنك والمؤرخ الشيخ ادريس البدليسي الذي منحهم عن طريق تمثيله للسلطة العثمانية المركزية موافقة سياسية للعمل من خلالها .. وقد نجحت خطته في تثبيت دعائم الحكم الجديد (6) ، ولاول مرة في تاريخ المنطقة الشمالية من العراق ، وما يعلوها ، والتي تتميز بتوظيفاتها وطاقاتها ضد الفرس . وتكمن تلك التوظيفات والطاقت في استراتيجيتها الاقتصادية والجغرافية ، اذ تتمتع بمسالكها ومراكزها التجارية المتصلة بممرات جبلية ، وقنوات نهريّة . كما انها غنية بمحاصيلها الزراعية ، وهي تمتاز بقواها البشرية التي تشكل وزناً كبيراً في صنع الاحداث (7) . فلقد استطاع تمردها على الفرس ان يؤثر في ميزان القوى كاملاً لصالح العثمانيين أنفسهم . ولقد أثبت هؤلاء السكان - كما يذكر المؤرخ مريمان - بانهم اناس عمليون (8) ، وذلك مما يساعد على نمو وتقديم عجلة الحرف والصنائع والاعمال التقنية للدولة ، اضافة الى ضرائبهم التي يدفعونها الى العاصمة استانبول ، ومطالب الدولة لهم في اوقات الحرب (9).

2/2. الموصل : الولاية العثمانية

هكذا سيطر العثمانيون على الموصل سنة 1516 م . ولكن لم يطبق فيها النظام الاقطاعي العسكري ، الا بعد فتح السلطان سليمان القانوني لبغداد سنة 1534 م . = 941 هـ . (10) ، حيث قسمت ولاية الموصل على عهده الى (زعامت وتيمار وخاص) بموجب النظام العثماني (II) . وكما هو معروف ،

(6) Von Hammer Purgstall, *op. cit.*, Band 2, pp. 420-1.

وانظر للاستزادة : سعد الدين خوجه ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 322 . د. سيار الجميل ، المرجع السابق ، ص 340 .

(7) Marsh, *The Tenesseean in Persia and Kurdistan*, Philadelphia, 1869, p. 33.

(8) R.B. Merriman, *Suleiman The Magnificent 1520-1566*, Harvard, 1944, p. 24.

(9) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire : Conquest, Organization and Economy (Collected Studies)*, artical No. VII titled « Suleiman The Lawgiver and Ottoman Law », London, 1978, pp. 134-5 ; see also, Stanford Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol. I, Cambridge, 1976, p. 95.

(10) Robert Mantran, « Baghdad a'epoque Ottoman », *ARABICA*, Special vol., 1963, p. 313.

(11) كان العثمانيون يقسمون اراضي الولاية الى ثلاث اقطاعيات حرية بحسب اهميتها وهي :

(1) خاص : (والجمع خاصلر او خواص) وعادة ما تكون من اقطاعات الولاية .

(2) زعامت : يطلق على كل اقطاع لا يقل دخله السنوي عن (99.999.20.000) اقچه .

(3) تيمار : هو الاقطاع الممنوح من قبل الدولة نظير خدمة حربية ، ويشترط ان يشترك الممنوح بنفسه في الحرب مع جنوده ، ويشارك بدخله ايضا (درلك) ، راجع : محمد ثريا ،

سجلي عثماني ، استانبول ، 1808-1816 ، ص 161 .

see also, Halil Inalcik, *The Ottoman Empire...*, p. 134.

فان هنا النظام الجديد قد كفل للدولة الثمانية مصالحها الادارية والاقتصادية من خلال تواجد ارضية قوية تتحرك عليها بعلاقاتها المركزية مع اقاليمها في الشرق . وتشرف عليها أجهزة ترتبط بها ارتباطا فعالا في سيطرتها على التيمارات ، كما وضعت بعض الاراضي والملكيات للاغراض الدينية كوقفيات معترف بها من قبل السلطة المركزية في العاصمة اسطنبول (I2) .

كانت حدود ولاية الموصل العثمانية مرسومة على النحو التالي : ولاية شهرزور شرقا ، وولاية ديار بكر شمالا ، وولاية الرقة غربا ، وولاية بغداد جنوبا . وقسمت ولاية الموصل الى عدة سناجق ، ويعود أمر التقسيم الى الشيخ ادريس البديليسي الذي أوجد هذا النظام قبل سليمان القانوني بزمن طويل ، اذ كان طبقه في ديار بكر قبل سنة 1534 م . ثم طبقه بعد ذلك على الرها (= أورفه) والموصل (I3) .

هناك اختلافات واضحة في العديد من المصادر التاريخية في اعداد واسماء سناجق ولاية الموصل . ففي قائمة الارشيفات التركية ، ظهرت الموصل كولاية مقسمة الى ستة سناجق هي : الموصل وباجواتلو واسكي موصل وهورن وكشاف وبانه (I4) . هي القائمة التي كتبها عيني علي ، والتي اضاف (بانه) عليها علما بأن بانه تقع على الحدود الايرانية الفاصلة بين العراق وايران . أي ان ولاية الموصل تمتد الى منطقة الحدود . اما أولياء جلبي ، فيذكر بانها خمسة سناجق ، ويذكر (بانه) ولكنه ينسى ذكر (اسكي موصل) (I5) . اما كاتب جلبي فيتفق مع عيني علي وأولياء جلبي ، ولكن يذكر بدلا عن (بانه) كلا من : قره داسني وبوداسني . اما قائمة فريدون بيك في كتابه (منشآت السلاطين) فهي ناقصة عن ذكر ثلاثة سناجق كاملة اذ يقتصر على ذلك : اسكي موصل وكشاف وهورن فقط (I6) . أما المؤرخ خير الله أفندي ، فهو يذكر ان لولاية الموصل ستة سناجق دون ان يذكر اسماءها (I7) . وتطلعنا السجلات الرسمية ودفاتر الطابو والوقفيات الخاصة بالموصل ان ولاية الموصل تتألف من ستة سناجق هي : الموصل (I8) ،

(12) انظر عن وقفيات ولاية الموصل : دفتر رقم (60) ، لوحة (9) ،

Bas Vikiat arşiv Dairesi, Özel Sayı, p. 63.

وانظر : د. عماد رؤوف ، الموصل في العهد العثماني النجف 1975 .

Von Hammer Purgstall, *op. cit.*, Band 4, p. 152.

(13)

(14) ارشيف طوب قبو سراي ، قانوننامه ، 1323 ، ورقة 11 .

(15) اوليا جلبي ، سياحتنامه سي ، ج 1 ، اسطنبول 1857 ص 180 .

(16) فريدون بيك ، منشآت السلاطين ، ج 2 ، اسطنبول 1858 ص 407 .

(17) خير الله أفندي ، دولت عثمانیه تاريخي ، 10 جلت ، اسطنبول 1271-1292 ، ج 11 ،

ص 213 .

وقارن : كاتب جلبي ، فذلكه تاريخ ، اسطنبول 1869 ، ص 56 .

Bas Ukalet Arsivi, Tapu Defteri, No. 660, fol. 166.

(18)

اسكي موصل (19) ، تكريت (20) ، زاخو (21) ، عانة (22) ، كساق (23) . وهذا هو التقسيم الاول للولاية القديمة ، اذ ان بعض هذه السناجق قد فصلت عنها ، وضمت الى غيرها مثل سنجق تكريت الذي أصبح ضمن ولاية بغداد ، وسنجق عانة الذي غدا جزءاً من ولاية الرقة (24) .

3/2. الموصل في القرن السابع عشر : العلاقات الاقتصادية

سيطر الفرس للمرة الثانية على العراق ، وبضمنه الموصل التي حاصروها فترة طويلة ، ولم تستسلم لهم الا بعد ان ارسل الشاه عباس جيشاً تقدم في حركته من ايران نفسها وفي خط مباشر الى الموصل ، تحت قيادة قاسم خان الذي شدد حصاره على الموصل ، ومارس حرباً اقتصادية شعواء ، وضرب طوقاً حديدياً على موارد البلد واحتياجاته .. مما اضطر القيادة التركية للولاية ان تخضع أمام ذلك الحصار المهلك (25) ... فدخل الجيش الايراني مركز المدينة ، وقتل المئات من أهلها ، واعدم واليها التركي ، ومارس شتى ضروب النهب للاموال وسلب المتاجر ، ثم منح قاسم خان الاماكن للسكان (26) ، بعد ان ترك له الشاه عباس حكم الموصل ، فاستقر فيها (27) . لقد استمر حكم السيطرة الفارسية الثانية على الموصل ثلاثة أعوام فقط ، حتى استردها العثمانيون سنة 1626 م. دون مقاومة تذكر ، وذلك من خلال تعاونهم مع سكانها .. في حين استمر حكم السيطرة الفارسية الثانية على بغداد حتى سنة 1638 م. ، عندما تجرد السلطان العثماني مراد الرابع الذي حكم للفترة 1623 - 1640 م. لفتحها الثاني ، بعد مروره بالموصل وتوقفه فيها (28) . وخلص بغداد قبل موته بسنة واحدة .. وبدأت العلاقات السياسية بين العثمانيين والفرس أقرب الى الالتئام ، ولكنها جيرة دولية مشوبة بالحذر والدبلوماسية الباردة لمدة طويلة (29) . اما بالنسبة للعراق ، فلقد كان من نتائج الفتح العثماني

(19) *Ibid.*, fol. 161.

(20) *Ibid.*, fol. 260.

(21) Bas Uekalet Arsivi, *Tapu Defteri*, No. 195, fol. 49.

(22) *Loc. cit.*,

(23) See f.n. No. 14.

(24) See the maps of Mosul in, Austen Henry Layard, *Nineveh and its Remains*, vol. I, ed. 1, London, 1849.

(25) Von Hammer Purgstall, *op. cit.*, Band 4, pp. 594-7.

(26) ZUB., p. 65.

(27) MAN., vol. 1, p. 133.

(28) DUR. I, p. 199.

(29) Longrigg, *op. cit.*, pp. 68-74 ; see also, Lorimar, *Gazetter of the Persian Gulf*, I (Historical Part), IB, Holand, 1970, pp. 1183-5.

له ، هو استقطاب الموصل للدور الاقتصادي - العسكري باعتبارها مركز اتصالات العراق بعاصمة الامبراطورية . ونظرا لمكانتها الراسية ، وعلاقتها بأقاليم الاناضول والشام . وبرزت تلك العلاقات الاقتصادية الحية بصورة قوية ومضطردة من خلال شريان العراق (دجلة) ومواطنه السكانية على امتداد رقعته الجغرافية . لقد ابرز القرن السابع عشر دور كل من الموصل وبغداد في النواحي الادارية والعسكرية والاقتصادية ، اذ يسجل تاريخه ذلك الاطراد في علاقات الولاياتين ، رغم الآفات والكوارث الاقتصادية التي حاقت بشمال العراق خلال تلك الحقبة ، ثم نكبات الطاعون التي حلت بالموصل على امتداد القرن المذكور ، وخلال السنوات التالية : 1625 م = 1035 هـ . (30) ، ثم عاد الطاعون غازيا سنة 1643 م = 1053 هـ . (31) ، ثم في سنة 1650 م = 1061 هـ . (32) ، ثم اطبق وبصورة خطيرة سنة 1673 م = 1084 هـ . (33) ، وحل أيضا وبصورة مفاجئة سنة 1702 م = 1117 هـ . (34) . ورغم كل هذا وذاك من عوامل الضعف والقهر وآثارهما في حركة التنازح السكاني والاقتصادي لاي بلد ، الا ان المركز الاستراتيجي للموصل بقي ثابتا ، بل ولعبت قاعدته العسكرية - الاقتصادية دورا فعالا لحماية بغداد ضد ما يهددها من اخطار ايرانية مستفحلة . . . بل وكانت خزينا احتياطيا للمواد الغذائية في أوقات مختلفة لبغداد ، وعلى الاخص ، مطالبيها من الحبوب ، وذلك عبر الخط الملاحي لدجلة . اضافة الى كونها محطة الارساء العسكري بين بغداد والدولة وبالعكس في تموين العدة والعدد وخصوصا المارة بها الى بغداد (35) . او ان يكون التموين من امكانيات ولاية الموصل المحلية ذاتها ، في مشاركتها يضرب التحرشات الخارجية ، أو مساعدتها في اطفاء الفتن الداخلية ، وما يحدث في اطرافها من العصيان المسلح ، وقد تمثل كل ذلك في السنوات التي مرت بها بغداد واطرافها من غزوات فارسية ، أو مشاكل ادارية ، أو انقسامات داخلية ، خلال القرن السابع عشر ، على السنوات التالية : سنة 1638 م = 1048 هـ . قدمت الموصل خدماتها في استرجاع بغداد من ايدي الايرانيين . وفي سنة 1665 م = 1076 هـ . جردت الموصل حملة كبيرة لمشاركة بغداد في القضاء على عصيان حكومة افراسياب في البصرة . ثم عززت امكانيات بغداد في سنة 1667 م = 1078 هـ . ثم ما قدمته من مساعدات اقتصادية سنة 1692 م = 1104 هـ . ولقد شاركت قوات الموصل مع قوات اضافية من اطرافها - ديار بكر والعمادية - في اخماد العصيان المسلح الذي نشب في جنوبي العراق سنة

(30) *MUN.*, p. 174.(31) *Loc. cit.*(32) *ZUB.*, p. 71.

(33) عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج 5 ، بغداد ، ص 107 .

(34) *DUR.* I, p. 825.(35) *Kemp, op. cit.*, p. 56.

1701 م = 1113 هـ . وانضمت قوات عديدة من ولاية الموصل في الحملة المشتركة التي قادها والي بغداد لاسترجاع البصرة سنة 1707 م . = 1119 هـ . (36) .

* * *

3. طبيعة الادارة الاقليمية في القرن الثامن عشر :

1/3 . الادارات الاقليمية العربية في القرن 18 :

كانت الدولة العثمانية قد وصلت الى أوج قوتها السياسية والاقتصادية في النصف الاول من القرن السادس عشر . ولكن سرعان ما بدأت عوامل الانحلال تدب في أوصالها ، وخصوصا في الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانوني في سنة 1566 م . ، وبداية عهد السلطان سليم الثالث في سنة 1787 م . خلال هذه الفترة ، أصيب الجهاز العثماني الحاكم : البلاط والمؤسسات السياسية بفساد كبير ، حيث حكم خلالها سبعة عشر سلطانا ، تميز ثلاثة منهم فقط بالكفاءة السياسية ، وهم : السلطان محمد الثالث 1591 - 1603 م . ، والسلطان مراد الرابع 1623 - 1640 م . ، والسلطان مصطفى الثالث 1756 - 1773 م . اما الآخرون ، فقد حافظ بعضهم على أمور الدولة من الانهيار بواسطة وزرائهم ، وقاموا باصلاحات كى تعطى للدولة حيوية ونشاطا سياسيا أكبر (I) . . وفي حين كان النظام الانكشاري ، ذلك العمود الفقري لكيان الدولة قد دخل هو الآخر في نطاق التدهور ، اذ غدا آلة للفساد والفوضى والانتكاسات . وفي حين كانت أوروبا قد بدأت في بلورة كياناتها السياسية على أساس الدولة القومية المركزية ، نجد ان الدولة العثمانية قد سلكت مسلكا مغايرا ، نتيجة لضعف سلطتها المركزية على أقاليمها ، مما دعا الاخيرة لبناء كيانات محلية مرتبطة على نحو اداري - سياسى شبه مركزي . . وذلك نتيجة للسياسة العثمانية التي دعت في آن واحد الى نمو العصبية الحاكمة في طول الامبراطورية وعرضها ، بعد ان خرجت الامبراطورية العثمانية من القرن السابع عشر بازمات خطيرة ، ومشاكل حادة ومزمنة في ميادينها المتعددة . فما لبثت الاقاليم خلال القرن الثامن عشر ان خرجت عن نطاق الحكومة المركزية في صنع القرار السياسى الداخلى ، والسيطرة على المؤسسات الاقتصادية بشكل مباشر . . ومن ثم

(36) For details ; see, Longrigg, *op. cit.*, pp. 71-127.

وانظر : د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 33 ، ملاحظة رقم 1 . اما تفاصيل الفترة التاريخية فقد كتبها : الشيخ عبد الرحمن السويدي ، حديقة الزوراء في سيرة الوزراء : تاريخ بغداد ، تحقيق د. صفاء خلوصي، بغداد 1962 .

(1) L. Kinross, *The Ottoman Centuries : The Rise and Fall of the Turkish Empire*, London, 1977, pp. 161-1.

تبلورت البنى الاجتماعية فى الاقاليم والادارات المتعددة من خلال ذلك الانحسار السياسى للسلطة المركزية فى الامبراطورية العثمانية .

أصيب نظام الحكم العثمانى فى المشرق العربى بالانهيار ، متمثلا باختلال التوازن السياسى والادارى الذى كانت تحكمه وتربط علاقاته : قوانين السلطان بين السلطة المركزية العثمانية من ناحية ، والذين ينفذونها بصورة مباشرة من ناحية أخرى ، ويمثل الاخيرة : الباشوات من الوزراء والولاة .. ثم أمراء الحاميات العثمانية وقوادها كالبيكليات والبيكات والاغاوات .. الخ.

ونتيجة لما تقدم ، فقد اتضح ذلك التبلور الاقليمى الذى افرزه الانحسار عن السلطة المركزية لتمثله العصبية والقوى المحلية فى الادارات الاقليمية ، وخصوصا فى الولايات العربية متخذة من الحاميات العسكرية المتواجدة فى كل اقليم أساسا فى العمل على زيادة نصيبها فى الادارة المحلية . وكانت تلك الادارات تعمل على تنفيذ الاوامر الصادرة اليها من الباب العالى دون تردد باعتباره الرأس الحقيقى الذى يمثل شرعيتها الادارية من خلال الولاء الدينى ، وعليه ، فلم تكن تلك الادارات ثابتة فى بقائها الا من خلال خدماتها الحربية للدولة ، ونفعها المادى للسلطة .. ومن هنا تحافظ على ولائها السياسى المطلق . ويمكننا ان نضيف سببا آخر من أسباب هامة دفعت الى ولادة هذه الحالة خلال القرن الثامن عشر هو تردد الباب العالى فى انتهاج سياسة تقليدية فى تغيير الباشوات العثمانيين ، أو تثبيتهم عندما يظهروا قدرة كبيرة فى اخضاع التمردات ، أو الاشتراك فى صراعات الامبراطورية الكبرى مع الدول المعادية للعثمانيين .

ان أهم النتائج التى تمخضت عن مجمل الحالات المتشابهة فى ايلاتنا وولاياتنا وأقاليمنا العربية ، هى :

1 - ولادة أسر محلية داخل الولايات العربية ، استطاعت ان تبقى السلطة الادارية والمتصلة بجوانب أخرى سياسية كانت أم اقتصادية .. فى ايديها لفترات طويلة .

2 - ظهور بعض الزعماء المحليين الذين استقطبوا اهتمام السلطة المركزية ، فشبثوا مواقعهم السياسية والادارية والعسكرية من خلالها .

3 - حصول بعض الاسر أو الحكام المحليين على اعتراف رسمى بهم ببقيةهم كسلالات حاكمة أو أنظمة حاكمة .. يلتزمون باداء خدماتهم للامبراطورية متى احتاجتهم فى مركزها ، أم على اطرافها البعيدة فى البر والبحر .

4 - ولادة طبقة جديدة من الاقطاعيين المحليين الذين افرزهم تاريخ القرن الثامن عشر ، بامتلاكهم للاقطاعات والاراضى الزراعية .. وسيطرتهم على الاقتصاديات المحلية ، مما نتج عن بروز حالات اقتصادية لم تكن معروفة فى السابق .

ويمكننا أن نجمل على وجه التحديد والايجاز ابرز أنواع تلك الادارات العثمانية على امتداد الرقعة العربية المستقلة في نطاق المجال العثماني ، وتلك السلالات العربية الحاكمة المستقلة عنه . وأيضا ، تلك الحركات الدينية - السياسية فيه ، والتي تعود جذورها الى القرن الثامن عشر .

لقد كان العالم العربي خلال القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر قد تميز بخارطة في كياناتها ومراكز قواها .. وتتوضح صورتها على النحو التالي :

1 - الاسر السلالية :

- (I) اشراف مكة في الحجاز
- (2) اسرة العظم في الشام
- (3) الاسرة الجليلية في الموصل
- (4) الزينائيون في الجليل
- (5) الحسينيون في تونس (= البايات)

2 - البيوتات المملوكية والحكومات العسكرية :

- (I) البكوات المماليك في مصر
- (2) الباشوات المماليك في بغداد
- (3) عبد الله الجته جي في ديار بكر (= النمط العسكري)
- (4) احمد باشا الجزائر في صيدا والشام ثم عكا (= النمط العسكري)
- (5) دايات الجزائر (النمط الجمهوري العسكري)
- (6) اسرة محمد علي باشا في مصر

3 - بيوتات الاحزاب الاثنية :

- (I) البابانيون في قره جولان
- (2) الشهابيون في لبنان
- (3) البهدانيون في العمادية

4 - بيوتات الحركات الدينية - الإصلاحية :

- (I) الوهابيون + السعوديون في نجد (شبه الجزيرة العربية)
- (2) السنوسيون في شمال افريقيا (ليبيا)
- (3) المهديون في السودان (محمد احمد المهدي)

5 - السلالات العربية الحاكمة المستقلة :

- (I) الاسرة العلوية الشريفة في المغرب

- (2) الزيدون في اليمن (= الفرع القاسمي)
 (3) ابو سعيد في مسقط وزنجبار
 (4) المشيخات العربية المتفرقة (= البحرين + قطر + عجمان + الكويت) .

2/3. ولادة الادارة الاقليمية - الجليلية :

خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر ، ازدادت فاعلية الروابط السياسية للعراق قوة وحياء . . عندما بدأت ولايتا الموصل وبغداد تستقطبان نفوذهما العسكري - الاقليمي على مسرح الرقعة العراقية ، معززان روابطهما الاقتصادية (انظر : بند 3/2) . . تلك الروابط المتلاحقة التي تطورت خلال القرن السابع عشر . وكان البلاط العثماني مجبرا لان يعترف بالجهات العسكرية المخصصة والنفقات المالية الواسعة التي كانت تبذلها القوى المحلية من الاسر الناشئة والتي توطنت في هذه الاقاليم . فقد ترسخ حكم المماليك في بغداد (2) ، والحكم الجليلي في الموصل (3) ، وحكم آل العظم في دمشق (4) ، والحكم القصير لعبد الله جته جي في ديار بكر (5) .

مضى على حكم المماليك لبغداد اثنان وعشرون عاما ، عندما نصبت اسطنبول اسماعيل باشا بن عبد الجليل واليا على الموصل سنة 1726 م . = 1139 هـ . (6) ، وقد قضى في منصبه هذا سنة واحدة ليخلفه ولده الحاج حسين باشا بعد ثلاث سنين من وفاته . اذ عين واليا على الموصل سنة 1730 م . = 1143 هـ . ويعتبر الحاج حسين ، هو المؤسس الحقيقي لسلالة حكم الولاة المحليين في الموصل . . اضافة الى العديد من المناصب الادارية التي كلفوا بها في ولايات اخرى بالشرق العربي والاناضول (7) . على الرغم من ان الجليليين قد عاشوا في الموصل منذ النصف الاول من القرن السابع عشر ، ولكن اصولهم تعود الى كل من ديار بكر وحصن كيفا (8) . ويقول الجليليون - اليوم - بانهم اصلا من قبيلة تغلب ، احدى القبائل الشهيرة التي استوطنت

Longrigg, *op. cit.*, chap. No. VI titled « Battles of Giants », pp. 123-162. (2)

R. Olson, *op. cit.*, pp. 168-9 ; see also, S.K. Al-Jamil, *A Critical Edition of al-Durr al-Maknun fi al-ma'athir al-Madiya min al-Qurun of Yasin al-'Umari*, Ph.D. thesis, St. Andrews Univ. Library, vol. I, pp. 132-3.

(4) Karl K. Barbir in his introduction of the book entitled : *Ottoman Rule in Damascus 1708-1758*, Princeton Univ., 1980, pp. 3-10.

(5) علي اميري ، تذكرة شعراء آمد - بالتركية - ، مطبعة امدي ، 1327 ، عدد (4) ، ص 260.

(6) *DUR. I*, p. 342.

(7) راجع ترجمته المطولة التي كتبها د. صديق الجليلي في ملحق رقم 1 من تحقيقه لديوان : حسن عبد الباقي الموصل ، الموصل ، 1966 ، ص 103-120 .

(8) علي اميري ، المصدر السابق ، ص 261 . ود. صديق الجليلي ، المرجع السابق ، ص 103 .

بلاد الجزيرة في شمالي العراق . ومن خلال المركز القوى الذي تحصلوا عليه في الموصل ، فقد استطاعوا تدريجيا ان يصلوا الى حكم الولاية ، وهو أعلى مركز سلطوى سام في الموصل . لقد لعبت الاسرة الجليلية في نشأتها السياسية الاولى دورا بارزا ومتميزا في خدمة الدولة العثمانية ، وخصوصا كلا من الوزير الحاج حسين باشا وولده الوزير الغازي محمد أمين باشا . . . وذلك من خلال مركزهم القوى بالموصل . واذا كان الحاج حسين باشا قد قدم خدماته الكبيرة للدولة في صراعها مع الفرس على أرض العراق ، فان ولده الغازي محمد أمين باشا قد قدم خدماته للدولة من خلال صراعها مع روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية . .

يعتبر الحصار العظيم الذي فرضه نادرشاه على الموصل سنة 1743 م . = 1156 هـ . مع جيوشه الغازية التي بلغ عددها (300.000) مقاتل ، وانتصار الموصل في دفاعها الاهلى الشهير تحت قيادة الوزير الحاج حسين باشا الجليلي . . قد اكسب الاسرة الجليلية الحاكمة مكانة كبيرة لدى الباب العالي (9) ، واعتبر هذا الحدث التاريخي العظيم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بداية حقيقية لفترة تاريخية تراكمية في تاريخ الموصل والمشرق العربي (انظر : بند 3/3) .

اما طبيعة الادارة في ولاية الموصل ، فانها كانت ترتبط بالسلطة المركزية العثمانية ارتباطا قويا في بداية الحكم الجليلي . . ثم بدأت سلطة المالك في بغداد تؤثر في ادارة الموصل ، وخصوصا بعد الانشقاق السياسى الذى حدث في الاسرة الجليلية بعد وفاة الحاج حسين باشا ، وغياب الغازي محمد أمين باشا في أيام اسره بروسيا . ورغم ان الجليليين كانوا بمثابة عيون السلطة المركزية على باشوات بغداد ، الا ان شرح الانقسام السياسى المحلى بالموصل قد قسم كلا من الجيش والمجتمع في الموصل الى قسمين . . وبقيت حلقة نزاع طويل الامد يثور ويخرب بين آونة وأخرى نتيجة لاسباب وعوامل عديدة (انظر : بند 2/4) .

اما الولاة الجليليون الذين حكموا الموصل في فترات مختلفة ومتعاقدة فهم (10) :

- 1 - اسماعيل باشا بن عبد الجليل توفي سنة 1146 هـ .
- 2 - الحاج حسين باشا بن عبد الجليل 1108 - 1171 هـ .

(9) عن وثائق استانهوب اسپينول في معلوماته الدبلوماسية عن موقف البلاط العثماني من حصار الموصل ، انظر :

State papers (97) Turkey ; letters from Mr. Stanhope Aspinwall to the Duke of Newcastle, vols. 24-32, Public Record Office in London.

(10) انظر قائمة ولاية الموصل التي حققها كاتب هذا البحث :
S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, App. No. 4, pp. 353-5.

- 3 - الغازی محمد أمين باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي
II32 - II89 هـ.
- 4 - عبد الفتاح باشا بن اسماعيل باشا الجليلي
II32 - II85 هـ.
- 5 - سليمان باشا بن محمد أمين باشا الجليلي
II52 - I2II هـ.
- 6 - عبد الباقي باشا بن عبيد آغا الجليلي ؟
- 7 - محمد باشا بن محمد أمين باشا الجليلي
II70 - I22I هـ.
- 8 - نعمان باشا بن سليمان باشا الجليلي
II74 - I226 هـ.
- 9 - محمود باشا بن محمد باشا الجليلي
II92 - I225 هـ.
- 10 - سعد الله باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي
II67 - II27 هـ.
- 11 - أحمد باشا بن سليمان باشا الجليلي
II97 - I239 هـ.
- 12 - حسن باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي
II72 - I233 هـ.
- 13 - عبد الرحمن باشا بن محمود باشا الجليلي
I209 - I244 هـ.
- 14 - عبد الرحمن باشا بن عبد الله بك بن مراد باشا بن الحاج حسين باشا
II83 - I237 هـ.
- 15 - محمد أمين بن عثمان بيك الجليلي
I2I3 - I263 هـ.
- 16 - يحيى باشا بن نعمان باشا الجليلي
I200 - I284 هـ.

3/3 حصار نادر شاه للموصل سنة 1743 م : الحرب الاقتصادية ونتائجها

يعتبر حصار نادر شاه الرهيب للموصل سنة 1743 م = II56 هـ ، من أهم وأبرز الاحداث التاريخية المبرزة في حياة عراق العصر الحديث ، كما وتعد وقائعه ونتائجها ، ذات دلالات بارزة على حد سواء في مجريات تاريخ الامبراطورية العثمانية خلال القرن الثامن عشر . وقد اكتسح نادر شاه اراضي العراق وحاصر الموصل حصارا قويا ، فجابته وحدها وانتصرت عليه . وكان لذلك الانتصار اثره في النتائج الاقتصادية والسياسية داخليا وخارجيا ، اذ غدا سدا منيعا حال دون تقدم نادر شاه والغزو الايراني ، وكسر جبروته في المشرق العربي (II) .

وكان للناحية الاقتصادية اثرها في احوال الحرب . اذ لم يكن اقتصاد الموصل جيدا بأي حال من الاحوال قبيل فرض نادر شاه حصاره عليها . وقد انقطعت صلات الموصل الاقتصادية بالاقاليم الاخرى منذ فترة طويلة ، كما لم تصلها اية مساعدات اقتصادية من بغداد وحلب او ديار بكر ، او من مقاطعات

(11) انظر الدراسة الرصينة التي نشرها المؤرخ الامريكي روبرت اولسن في كتابه عن حصار الموصل : R. Olson, *op. cit.*, pp. 170-189.

الجبال وان ما وصلها من العاصمة اسطنبول ، لم يكن كافيا بأى شكل من الاشكال لكي يبقيا على قيد الحياة حتى ولو لفترة قصيرة . ان كل هذا ، يوضح لنا بأن اعمالا عظيما قد انجزت بدون اجر مقابل ، رغم ان المعلومات التاريخية تشير بأن حكومة الموصل كانت لها اتفاقاتها الخاصة للعاملين ، قام بصرفها والى الموصل . ونستنتج بأن فترة تقشف اقتصادى عاشتها الموصل ، وعلى درجة عالية من التنظيم والضبط فى الانفاقات الفردية للمعيشة اليومية ، أو أن التقشف قد مورس مرحليا لمواجهة حصار طويل الامد قد يستمر اشهرًا عديدة ، كما حدث فى حصار الايرانيين لبغداد سنة 1733 م . ، او توقفا لمواجهة حرب اقتصادية ضارية . ومن هنا ، نستنتج بأن عمليات تخزين كبيرة للمواد الغذائية قد نفذت ، اذ لم تواجه المواصلات مشاكل من الناحية الغذائية سوى مشكلة المياه التى نجح نادر شاه فى قطعها لها ، وتحويله للشعبة الرئيسية من نهر دجلة عن الموصل وسكانها . ومن المؤكد ، ان الحصار قد خلق فى استعدادات لمواجهة او اثناء الحرب .. مجالا للعمل والمهارة ، وازدادت مدخولات ذوى الحرف والصناع . ولم تردنا أية اشارة تاريخية عن ارتفاع الاسعار فى السوق ، او حدوث ازمة بعد ذلك .. وكان من المؤكد ان يحدث ذلك نظرا لانقطاع خطوط المواصلات عن الموصل ، وانعزال المدينة عن العالم الخارجى . ثم توقف التجارة النهرية بسيطرة الايرانيين على نهر دجلة (12) .

لقد كان لدفاع الموصل ضد حملة نادر شاه على العراق وحصاره للموصل سنة 1743 م. = 1156 هـ ، الاثر الكبير فى حفظ علاقات الموصل الاقتصادية بغيرها من الاقاليم والسناجق والديساكر والتخوم المجاورة لها او المرتبطة بها من خلال المسالك التجارية البرية والنهرية ، وسواء كان ذلك فى أعالي الجبال أم فى البرارى الغربية . وبقيت الموصل مهيمنة على جميع تلك المسالك ، وأهمها : مسلك اسطنبول - بغداد الاستراتيجى عبر الموصل . وبقيت اسواقا عامرة خاناتها الكثيرة تعج بقوافل النازلين والراجلين . وبقيت اسواقا عامرة بالبضائع والمواد ، اذ استمرت فيها حركة التجارة العالمية التى يمثلها التجار الكبار عبر الشرق ووربا ، وبقيت حركة التجارة المحلية سارية المفعول ، والتى يمثلها التجار الصغار عبر اتصالاتهم بالاقاليم والتوابع المجاورة . وقد وصف الرحالة (ايفز) اسواق الموصل بعد مروره بالموصل عقب حصار نادر شاه لها بسنوات قليلة ، وذكر بانها اسواقها عامرة بالمنتجات والمحاصيل (13) . كما وبقيت الصناعات والحرف بالموصل على حيوتها فى المركز والتوابع ، فلقد وصف الرحالة (جاكسون) الوضع الصناعى المتطور فيها

(12) راجع تفصلات الحرب فى المصادر والمراجع التالية :

MAN., vol. 1, pp. 150-4 ; DUR. I, pp. 361-3 ; DUR. II ; pp. 889-897 ; Archives National, (Paris), E. de St. Albert, « Letters from Baghdad », L. dated 14/9/1843, fol. 17 ; Longrigg, op. cit., p. 149, Kemp, op. cit., pp. 310 ; Olson, loc. cit.

E. Ives, A Voyage from England to India, London, 1760, p. 327.

(13)

سنة 1767 م. = 1181 هـ. ، وذكر بأن بعض المصنوعات الموصلية تتفوق على الصناعات الاوربية مثل صناعة السروج والاحزمة والسجاد الحريري المطرز بالازهار .. ثم مصانع الحديد والنحاس لمختلف المواد التي يتم شحنها الى الخارج عبر نهر دجلة نحو البصرة (14). هذا اضافة الى وصف صناعات الموصل للمنسوجات المختلفة ، وصناعة الموسلين الذي تصدره الموصل الى أوروبا منذ العصور الوسطى .. وقد اشداد بذلك كل من الرحالة (ايفز) سنة 1758 م. = 1172 هـ. (15) ، والرحالة كرسيتيان نيبور سنة 1766 م. = 1181 هـ. (16). اضافة الى تطور الممارسات النقابية والعمل من خلالها ضمن حقول الصنائع واصناف الحرف (17) .. لقد اشرت في دفاع الموصل كافة الفصائل الاجتماعية في المدينة ، ولكن بقي النظام الضرائب يعمل (18) به كما كان عليه الحال قبل هذه الهزة التاريخية القاسية التي عرفها مجتمع الموصل ، ولكن هذا النظام قد تطور مع نمو الحياة الاقتصادية ، وتحولت الموصل بعد الحصار من مركز دفاعي عسكري الى مركز ثقافي ومدني وتجاري بالدرجة الاساس .. وتحولت بعد ان كانت تحكمها انلاقات الاقطاعية الواسعة الى مركز يتصرف في حياته الاقتصادية اصحاب رؤوس الاموال والتجار الكبار والصغار ، ثم الملاكين المحليين مما زاد في تعقد احواله عما كان عليه .

شهدت الموصل بعد حصارها حركة عمرانية متطورة ، بدأها الوزير الحاج حسين باشا الجليلي باصلاحه مرافق عديدة بعد حصوله على موافقة السلطان محمود الاول ، فجدد قلعة باشطابية ، وسور الموصل ، والعديد من الكنائس . وفتحت ابوابا جديدة في سور المدينة بعد قيام الوالي بسد باب العمادي الواقع في شمال المدينة اثناء فترة الحصار (19) .. اضافة الى تجديد وتعمير العديد من دور الحكومة والقصور والبيوت والشوارع والجوامع والاسواق والمدارس . ولقد اعجب الرحالة (ايفز) بالموصل بعد حصارها الرهيب بسنوات قليلة ، وذكر بانها احسن مدينة شاهدها في الامبراطورية العثمانية (20) . كما وشهدت الموصل حركة ثقافية وعلمية وأدبية مزدهرة ، وارتقت بمدارسها ومكتباتها وعلمائها وشعرائها ومؤرخيها واطبائها .. وعدت مركزا حيا للثقافة العربية ابان القرن الثامن عشر ، وتشهد على ذلك المئات من التأليف والتصانيف والادبيات التي كتبت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

-
- J. Jackson, *Journay from India*, London, 1799, p. 79. (14)
 E. Ives, *op. cit.*, p. 324. (15)
 C. Niebuhr, *op. cit.*, vol. 2, p. 317. (16)
 MAN, vol. I, p. 142 ; and Kemp, *op. cit.*, p. 318. (17)
 (18) انظر الملحق رقم (7) عند د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 516-522 .
 Olson, *op. cit.*, p. 173. (19)
 E. Ives, *op. cit.*, p. 324. (20)

من ناحية أخرى ، فقد حفظ لها دفاعها وانتصارها وروابطها الاسرية القوية ، وصان مجتمعا الداخلي من الانهيار والتفكك او التشرذم والهجرة والتنشئت على ايدي الايرانيين ، كما وحفظ لها عاداتها وتقاليدها الاصيلية التي تشترك فيها كافة صنوفها وطبقاتها الاجتماعية في مركزها بالذات .. وترك الدفاع العظيم بفصوله الدرامية والدموية بصمات روحية في المجتمع من خلال ضرب الامثلة التاريخية عن قصصه البطولية ، والاشادة بعظمته .. وكانت الحكايات عنه يتناقلها جيل بعد آخر لاكثر من قرنين من الزمن . اضافة الى ذلك ، فقد حافظ دفاع الموصل عن عروبة المشرق العربي وحفظه من التيارات المذهبية وصراعاتها .

* * *

4. الموصل : الحياة الاجتماعية في القرن 18

4/I. الجذور التاريخية للانقسام الاجتماعي :

كانت الدولة العثمانية قد حسمت تأثير الافكار الفارسية - الصفوية بعد سيطرتها على الموصل سنة 1516 م. = 922 هـ. وكانت الموصل قد عانت من الحكم الفارسي سياسيا واجتماعيا (I) .. وبموجب ذلك ، فقد استقدمت الحكومة العثمانية الحاج قاسم العمرى من مكة الى الموصل ، كعالم وفقه في الدين ليساعد في تثبيت المذهب السني - الحنفي فيها ، وهو المذهب الاسلامي الذي اعتمدته العثمانيون في سياستهم الداخلية والخارجية (2) .

عاش الحاج قاسم العمرى في محلة باب العراق بالموصل ، وهي المحلة الواقعة في الجنوب الغربي من المدينة القديمة . وقد بنى له جامعا كبيرا في سنة 1563 م. = 971 هـ. وذلك بجانب بيته ، وغدا خطيبا فيه وإماما له (3) . وأوقف عليه بستانا وأرض غرب (= احراش) ، وثمانية حوانيت تقع جميعها في سويقة باب العراق وسوق العلافين (4) . ويعتبر الحاج قاسم العمرى هو المؤسس الحقيقي للأسرة العمرية الشنيرة . خلف له ولدا واحدا اسمه علي والذي توفي قبل والده بسنة واحدة ، وذلك في سنة 1591 م. = 1000 هـ. (5) خلفا ثلاثة أولاد هم : عثمان وموسى ومحمد . اصبح هؤلاء

(1) انظر : مخطوطة اسكندر بيك منشئ التركمان ، عالم اراى عباسي - بالفارسية - ، ورقة 37 . وانظر :

MAN., vol. I, p. 133.

ZUB., p. 16 ; MAN., vol. I, p. 144 ; DUR. I, p. 59. (2)

DUR. I, p. 59 ; DUR. II, p. 553. (3)

Kemp, op. cit., p. 105. (4)

DUR. I, p. 59 ; DUR. II, p. 553 ; see, f.n. 3. (5)

الثلاثة آباء لثلاثة فروع كبرى في الاسرة العمرية . وغدا عثمان مستحصلا على أكبر مكانة اجتماعية بالموصل (6) ، وليصبح نسله من بعده جماعة من العمرين الاغنياء الذين شكلوا فئة ارسقراطية في المجتمع ، اذ كان أغلبهم من العلماء الكبار والادباء المشهورين ، والقضاة المفتين .. اضافة الى ملاك الاراضي الواسعة . أما فرع موسى من العمرين ، فقد غدوا أجمعهم من الخطباء في اجوامع ، اذ كان موسى قد عرف خطيبا ، فعرف نسله من بعده باسم (الملالي) وكان أغلبهم من متوسطي الدخل والفقراء . أما محمد ، فقد ترك فرعا صغيرا اختلط فيما بعد بين العمرين ، وكان أغلب نسله من طبقة العلماء والادباء (7) .

ويبدو للمؤرخ ، بأن العمرين قد نجحوا في البداية للسياسة العثمانية المضادة للسياسة التبعية الطائفية التي كانت تؤججها ايران الصفوية . وكان الاشراف في الموصل يمثلون في القرن السابع عشر فئة تدين بالمذهب الشيعي .. وهم جماعة قليلة تؤلفها بعض الاسر المعروفة .. وعليه فقد ناصب الاشراف العمرين العدا . وقد ظهر النزاع بين الطرفين واضحا ومستحكما عندما احتل الفرس الموصل سنة 1623 م . = 1032 هـ . (8) ، وذلك بمساعدة الاشراف (9) (انظر : بند 3/2) . وعاليه فان موسى بن علي بن قاسم العمرى قد هرب مع عائلته الى جزيرة ابن عمر ، بينما هرب أخواه عثمان ومحمد مع عائلتهما الى قلعة القمري قرب العمادية في شمال العراق (10) . ويظهر لنا ان هناك تحالفا قد وقع بين الفرس والاشراف ، فقد تزوج القائد الفارسي قاسم خان بامرأة من الاشراف (11) . لقد بقي العمريون ثلاثة سنوات مغتربين عن الموصل في الجبال الشمالية للموصل (12) ، وعادوا الى مدينتهم بعد خروج الفرس منها . وعاد الحكم العثماني الى الموصل محكما السيطرة مما ساعد الاسرة العمرية على تقلد مناصب عديدة في الموصل والعراق .. ولم تذهب حدة العدا الاجتماعية بين هذه الاسرة الممثلة للمواجهة السنية وبين الاشراف ان تدنى الامر بحوث مشادة نسوية بين الطرفين في احدى الحمات الشهيرة (13) . واستطاع الفرع الارستقراطي من الاسرة العمرية ان يهيمن

Kemp, *loc. cit.*, and see, S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 16-29. (6)

S.K. Al-Jamil, *loc. cit.*, (7)

DUR. I, *loc. cit.* (8)

MAN., vol. I, p. 224. (9)

DUR. I, p. 164 ; details in DUR. II, p. 639 ; see also, ZUB., pp. 65-6, and (10)

MAN., vol. I, p. 136. (11)

DUR. I, *loc. cit.* (12)

loc. cit. ; and see, ZUB., p. 66. (13)

loc. cit. (13)

على المكانة الاجتماعية الاولى في المجتمع ، وذلك من خلال ظهور العديد من الرجال الاغنياء والمثقفين في آن واحد ، فالعلماء والقضاة والمفتون منهم هم من الملاكين والاقطاعيين في الوقت نفسه (I4) . وقد وقعت بعض الاصطدامات بين هؤلاء كفتة قوية من الطبقة الارستقراطية المحلية ، وبين الولاة الاتراك الذين حكموا الموصل قبل ان يتسلم الجليليون الحكم ، وكان آخرها فتنة محلية اشتعل اوارها داخليا وعنيفا ودارت بين قوتين اثنتين : القوة الاولى كانت تتمثلها الارستقراطية المحلية ويتزعمها المفتي الشهير علي أفندي العمري . أما القوة الاخرى ، فكانت سياسية يمثلها الوالي التركي بجهازه الاداري والعسكري . وقد علل المؤرخ لونكريك حدوث تلك الفتن كنتيجة من نتائج حسد الوالي لما كان يتمتع به المفتي من نفوذ خاص في المدينة (I5) . وأستطيع أن أضيف عاملا آخر ، ولكنه مخالف لما يراه المؤرخ لونكريك : ذلك ان عروبة الموصل بفئاتها الاجتماعية وطبقاتها المتباينة كانت دائمة الرفض لكل وال تركي غريب ، فنادرا ما كان الوالي يقضى بمنصبه في الموصل أكثر من سنة (I6) . لقد تعاضل نزع سنة 1725 م . ، وتطور الى مصادمات دموية . وبعد ستة أشهر ، افتقدت المدينة حالتها الامنية فكثر فيها السرقات وحوادث القتل والاعتقال . ولم يسكت هذه الحالة الا بروز باشا جديد ، وهو يخرج لأول مرة من قلب مجتمع الموصل . اذ كان معروفا فيه ويعد واحدا من الرجال الملاكين الكبار هو اسماعيل باشا الجليلي (I7) . اذ كان قد تعاضل شأنه ضمن حلقة الارستقراطية المحلية في تراكم ثروته وتقربه من السياسة العثمانية العسكرية ، فاستحوذ على شهرته من خلال انفاقاته (I8) . فيأتي فرمان السلطان بتنصيبه واليا جديدا على الموصل ، لتبدأ حلقة جديدة من حياة الموصل العثمانية . وتحالف العمريون مع الجليليين رغم بعض الاختلافات التي حدثت بين أفراد كل من العائلتين ، ولكن على العموم ، فان الاسرة العمرية التي كانت مستقطبة للعروبة قد وجدت في الاسرة الجليلية ظهيرا لها وللموصل العربية نفسها من سطوة الولاة الاتراك الاجانب الذين كانوا ينقمون في ممارساتهم الساطوية على العمريين قبل واثناء الحكم الجليلي (I9) .

(14) راجع تراجمهم في المصادر التاريخية التالية :

DUR. I ; DUR. II ; MAN., vols, I, II ; SHAM., RAW.

DUR. I, p. 342 ; and see, Longrigg, op. cit., p. 158.

(15)

(16) راجع قائمة ولاية الموصل منذ سنة 1000هـ ، حتى نهاية الحكم العثماني ، في التقرير الاداري السنوي :

سألتناه در موصل ولايتي ، عربي 1310هـ - 1308 رومي نمره 2 ، ص 60-68 .
 وراجع ايضا : S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 443-5.

(17) القس سليمان صايغ ، تاريخ الموصل ، ج 1 ، القاهرة 1928 ص 273 . وانظر :

Olson, *op. cit.*, pp. 179-180.

(18) علي اميري ، المصدر السابق ، ص 60-65 .

DUR. II,

(19)

كما وكان لوجودهم واستيطانهم في محلة باب العراق قد أثر تأثيراً كبيراً في وقوفهم بجانب الجليليين في الانقسامات التي كانت تحدث بين سلطنة الوالي والجيش الانكشاري الذي وجد ضالته في محلة (الميدان) باثارة أهله على أهل محلة (باب العراق) . لقد حدثت العديد من الفتن المحلية والانقسامات الاهلية بين الطرفين المذكورين على امتداد العهد الجليلي (20) ، وكانت تؤججها النزاعات الداخلية التي حدثت بين الاسرة الجليلية نفسها ، وعلى الاخص ذلك الصراع طويل الامد الذي حدث بين الوزير الغازي محمد أمين باشا وبين عمه عبد الفتاح بيك بن اسماعيل باشا الجليلي . ويظهر ان نزعة السيطرة قد شبت عند الاثنيين منذ صغرهما اذ كانا قد ولدا في سنة واحدة ، وتوفي أولهما بعد الآخر بأربع سنين . أو أن تلك الصراعات تؤججها انقسامات الانكشارية على أنفسهم .. أو نقل الوالي الجليلي وتنصيب وال تركي غريب ، أو حتى وال قريب كما حدث للوالي محمد باشا التريياكي وهو تركي نصب سنة 1748 م = 1161 هـ . (21) ، أو رجب باشا الحلبي الذي نصب سنة 1751 م = 1165 هـ . ، أو مصطفى باشا الشاه سوار الذي نصب لأكثر من مرة ، كان أولها سنة 1750 م = 1164 هـ . (22) ... وهكذا ، فإن الولاة الاتراك ما كانوا يجدون لهم أرضية يتحركون عليها ، ولا شعبية يعتمدون عليها . وكانت الاسرة الجليلية الحاكمة هي التي تؤجج حركة التمرد على الولاة الغرباء . اما أغلب الفتن المحلية فلم يكن يستفيد منها الا اصحاب المصالح الكبرى ، ويكون السوق هو أول المتضررين (23) .

2/4. التركيب الطبقي لمجتمع الموصل :

1/2/4. الطبقة الارستقراطية : الملاكون الكبار

ان الارستقراطية المحلية قد تمثلتها بعض الاسر القديمة والمستحدثة كاعيان وأشرف وحكام وسادة . وكان أغلبهم من الملاك للاراضي الزراعية الواقعة في شرق نهر دجلة ، والتي تكثر فيها القرى والارياف والضياع ، وتعتمد في زراعتها على مياه الانهر والمياه الجوفية (انظر : موضوع I) . اما طبيعة العلاقة بين الملاك والمزارعين ، فكانت علاقة اقطاعية وخصوصا في التيمارات والخواص . وكانت الاملاك الاخرى قد توزعت في المدينة كالحوانيت والقيصريات والبساتين والخانات والحمامات والمصانع ... الخ .

(20) راجع التفاصيل التاريخية عند : Loc. cit.

(21) S.K. Al-Jamil, op. cit., vol. I, p. 353.

(22) Ibid., pp. 353-4.

(23) DUR. I, p. 370 ; see also, Kemp, op. cit., p. 211 ; and

دومينيكو لنزا ، الموصل في الجيل الثامن عشر حسب مذكرات دومينيكو لنزا ، فصول ترجمها : د. روفائيل بيدأويد ، الموصل 1953 ، ص 12 . وانظر : د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 116 .

كان من أبرز الذين يمثلون هذه الطبقة هم : الفرع الارستقراطي من الاسرة العمرية ، والاسرة الجليلية ، وبعض عوائل الاشراف الذين يسمون بـ (السادة) . فالفرع الارستقراطي من العمريين كان قد برز فيه ومنذ وقت طويل العديد من الملاكين الكبار ، وكان اشهرهم هو المفتي علي أفندي بن مراد العمرى والمشهور بأبى الفضائل المتوفى سنة 1734 م . فقد ترجم له المؤرخ ياسين أفندي العمرى قائلا : « واقبلت عليه الدنيا ، وكثرت ثروته واقطاعه وضياعه فملك من القرى نصف قرى [جبل] المقلوب .. ومن القرى المتفرقة : تل أستقف ولواحقها : كير اسحق والقبة وحسن شامى ، وقرية برطله ولواحقها : الجنكجي وجام كرك ، وقرية اغج قلعة نصفها كانت على ولده مراد ، وكذا قرية المان وخرابك وسندانك وغيرهم . وله فى الموصل حمامتان سوى حمايتى الوقف وقيصريتين وجوانيت وبساتين . وكان له من الجوارى نحو أربعين جارية سوى الحرائر . وكان فى فصل الربيع يخرج بجواريه الى بستانه شرقى دجلة عند قرية نبي الله يونس ع . م . ، وبني له هناك حمام ، وجمع له من الاموال والذخائر والكتب ما تعجز عنه الاقلام » (24).

وفى خضم تنامي الاسرة الجليلية سياسيا من خلال الخدمات التى قدمها اسماعيل باشا الجليلي كأحد أقطاب هذه الطبقة لحكومة الولى التركى ، انعم الباب العالى عليه برتبة الباشوية . وكانت العلاقة بين كل من الجليليين والعمريين تتراوح بين المد والجزر .. ولكن يبدو ان مكانة الاسرة العمرية كمراس قديم لطبقة الملاكين كانت أكبر بكثير من الاسرة الجليلية التى استقلت المسرح السياسى بالتحرك عليه والحصول على مراكز نفوذ لها . وقد وقعت بالفعل نزاعات عديدة بين أفراد كل من العائلتين (25) . وكان الجليليون يخشون سلطة العمريين الاجتماعية والدينية ، وخصوصا وان العمريين كانوا يشعرون بأنهم أعرق فى وجودهم بالموصل من الجليليين أولا ، وثانيا ، انهم كانوا يتمتعون بنصيب عال من الثقافة والمكانة الدينية فى الافتاء والقضاء المرتبط بقاضى الاناضول مباشرة (26) وبعد ان ثبت المركز السياسى للأسرة الجليلية ، دان العمرىون لها وخصوصا الجيل الجديد منهم ، وقدم العديد من رجالاتهم خدماتهم للجليليين ، وكان أبرز أولئك الرجال : عثمان الدفترى بن علي أبو الفضائل العمرى الذى دخل فى خدمة الحاج حسين باشا الجليلي ، وبقي مساعدا له سنوات عديدة وخصوصا فى ازمة الحصار القاسى ، ثم صاحب الغازى محمد أمين باشا الى استانبول بعد انتصار الموصل على نادر شاه لحمل اخباره الى السلطان محمود الاول (27) .

(24) *DUR. I*, p. 351 ; *DUR. II*, p. 872.

(25) *DUR. I*, p. 343.

(26) S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, pp. 16-24 ; see also, Tab. No. XI.

(27) انظر تفصيلات عنه فى مقدمة محقق كتابه (RAW) : الروض النضر فى ترجمة ادباء العصر ، 3 اجزاء ، تحقيق : د. سليم النعيمي ، ج 1 ، بغداد 1974 . (مقدمة الجزء الأول)

ويعتبر الجليليون من الملاكين الكبار في الموصل على غرار البابانيين في قرّة جولان ، أو تلك البيوتات العربية في العراق الوسيط من الشيوخ الذين استقروا فيما بعد ببغداد : آل الشاوي وآل ربيعة . ولكن كل هذه الاسر المالكة للاقطاعات كانت تختلف تاريخيا عن الجليليين في الموصل وخصوصا الروابط الوثيقة التي كانت تربط الاخيرين بالعثمانيين (28) . لقد ارتقى الجليليون من طبقة التجار الكبار التي كانت تمارس اعمالها بين الولايات والمناطق البعيدة اذ كانت روابط الجليليين كبيرة بمناطق ديار بكر .. وانتقلوا الى طبقة الملاكين في المدينة ، وبعد ان اصابوا الحكم انتقلوا الى تملك المقاطعات الزراعية في اطراف المدينة ، واشهر اقطاعاتهم تلك التي منحت لهم من قبل السلطان العثماني ، الواقعة في منطقة شرق دجلة والمسماة بـ (قرّة قوش) (29) . كما استطاع الامير مراد باشا ابن الحاج حسين باشا الجليلي ان يملك بعض الاراضي الزراعية في شرقي دجلة أيضا ٠٠٠ وذلك في 1747 م. (30) .

لقد استطاع الجليليون ان يقربوا انفسهم من الجماهير الفقيرة والاعيان على حد سواء ، اضافة الى الانكشاريين المحليين ، فحفظوا بذلك انفسهم من بدائل الولاة الاتراك . لقد بقي الجليليون من فرع الباشوات ، وهي الفئة التي تملكتها الارستقراطية المحلية .. بقوا منعزلين في اختلاطهم مع الآخرين من خلال الزيجات ، وفي كراهيتهم تجاه ارتباطهم بالغرباء ، ولكنهم تزوجوا لأول مرة في أواخر الفترة العثمانية مع عوائل الاشراف أو السادة (31) .

2/2/4. الجيش : الطبقة المنقسمة

كانت انكشارية الموصل تتألف من ثلاث أورطات ، لا يتجاوز عددها ثمانمائة انكشاري الا بقليل . والاورطات الثلاث هي : الاورطة (52) المسماة

For details ; see, the L. from the British Consul at Mosul, FO 78/2615, (28) Public Record Office in London ; see also, C.J. Rich, *Narrative of a Residence in Koordistan and on the Site of Ancient Nineveh*, London, 1836, p. 81.

DUR. I, p. 365.

(29)

يخطيء المؤرخ حنا بطاطو في ذكره ان الوزير الحاج حسين باشا الجليلي قد تملك مقاطعة قرّة قوش بعد سنة 1732م ، في دفاعه ضد نادرشاه . في حين نعلم ان تملك الدولة هذا الاقطاع للوزير الجليلي كان بعد انتصار دفاع الموصل في حصارها من قبل نادرشاه سنة 1743م . أي بعد انتهائه . وربما قصد المؤرخ في ذلك ، دفاع حسين باشا عن الموصل وانتصاره على تركرخان أحد ضباط نادر كولي خان في حملة الاخير على العراق سنة 1732 ، وذلك قبل ان ينصب نادر كولي نفسه شاهاً على إيران . أنظر كتاب حنا بطاطو :

Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq*, Princeton Univ., 1982, pp. 214-215.

DUR. I, p. 367.

(30)

H. Batatu, *op. cit.*, p. 215 ; see also, Great Britain (Confidential), *Personalities* (31) *Mosul, Arbil, Kirkuk, and Sulaimaniyyah* p.98. (هذا المصدر الاخير عند بطاطو)

(الى ايكى) ، والاورطة (58) المسماة (الى سكر) ، والاورطة (IO) المسماة (أوننجى) . ثم ارتفع عدد الانكشارية في النصف الاول من القرن الثامن عشر الى خمس اورطات بعد ان قام والى بغداد الشهير الوزير أحمد باشا بن حسن باشا 1723 - 1748 م . بارسال كل من الاورطة (31) المسماة (الاورتوزبير) فى سنة 1729 م = 1142 هـ ، والاورطة (27) المسماة (يكرمى يلى) فى سنة 1735 م = 1148 هـ . من ولايته بغداد الى ولاية الموصل .

ان انكشارية ولاية الموصل لم تكن مستقرة فى مكان واحد من مركز الولاية (32) ، فقد كان قسم منهم يتركز فى ايج قلعة (33) ، وآخرون فى (سنجق الباشا) الذى يكون تحت قيادة آغا الانكشارية . وتتوزع البقية الباقية منهم فى مختلف وحدات سناجق الولاية والقلاع المهمة التابعة لها . ولكنها تكون تحت قيادة ضباط آخرين ادنى من مرتبة الاغوات ، مثل رتبة (الجلبى) . وعادة ما تكون مراكز السناجق التابعة لولاية الموصل هى بمثابة القلاع الحصينة للجيش الانكشارى .

كان آغا الانكشارية يتسلم أوامره من سلطة الوالى مباشرة ، والى جانب هذا التنظيم ، فهناك مناصب عسكرية تناط مهام قيادتها بآغا الانكشارية ، وتكون مشرفة على الجماعات التابعة لها . اما التنظيمات العسكرية الاخرى فقد كانت : السباهية التى يقف على رأسها (الاى بكى) . وهناك (التفنججية) الذين يرأسهم (تفنكجى باشى) والذين كانوا بمثابة الشرطة لحماية الامن والنظام . وهناك (السلحدار) المشرف على دار الاسلحة .. وهناك (الباش) دلى) المشرف على جماعات (الدلاية) المسلحة ... وهناك (ايج مهتر باشى) المسؤول على جهاز (المهترخانة) .. وهناك الآخور اغاسى (34) ... الخ .

لم يكن الجيش بالموصل معزولا عن الحياة الاجتماعية سواء فى المدينة أم السناجق ، بل كان مندمجا فيها بحكم موقعه فى قلب المدينة والسناجق على حد سواء . ويبدو ان انكشارية الموصل قد تعربت بفعل اختلاطها السريع مع السكان ومع الفئات العسكرية الاخرى كالسباهية والدلاية .. وخصوصا فى عهد آل الجليل الذى ظهرت الموصل فيه بثوب عربى كالذى كانت عليه . ان الانكشارية والسباهية الاتراك ، والدلاية واللاوند من الاكراد (35) .. كانوا مندمجين مع الشرعية السياسية التى فرضتها الاسرة الجليلية على الموصل ، اذ كانوا يمثلون رصيد الولاة فى حملاتهم على الاقاليم المتاخمة ، واجهاض غارات الساب والنهب التى كانت تتعرض لها اقتصاديات الولاية فى شرق

(32) د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 179 .

(33) سعيد الديوه جي « قلعة الموصل فى مختلف العصور » ، مجلة سومر ، العدد 10 ، بغداد 1954 ، ص 14 .

S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, Tab. No. XI. (34)

Ibid., p. 140. (35)

مجرى نهر دجلة أم في غربه .. وسواء كانت تلك الغارات سيئة الصيت (36)، تنفذها جماعات من قبائل اليزيدية في مناطق معينة من ولاية الموصل (37). ويتضح تحالف الجيش مع الشرعية الادارية والسياسية للولاية عندما نصب عبد الفتاح باشا الجليلي واليا على الموصل، وكان ندا سياسيا لابن أخيه الغازي محمد أمين باشا، فما كان من عبد الفتاح الا ان بدأ بتصفية الخصوم، والاخذ بالثار، والاستيلاء على الغلال والديون والخيام من دار الحاج اسعد آغا الجليلي الممثل الشرعي لمحمد أمين باشا، ثم الاستيلاء على غلال الحاج محمد الديوهجي والحاج علي ابن النعلبند، وكلاهما من أمراء الجيش الانكشاري ومن حلفاء الغازي محمد أمين باشا (38).

ومن المفيد ان نوضح، بأن الجيش الانكشاري لم يكن متلاحما فيما بينه، اذ كان عرضة للانقسامات الواسعة نتيجة للانشقاقات السياسية في الموصل. وقد وصلت تلك الانقسامات الى حالة تنذر بالخطر بعد اكثر من ثمانين عاما على تسلم الجليليين السلطة، اذ تفيدنا الاحداث التي وقعت سنة 1806 م. = 1221 هـ. بأن فرقة (الي ايكي) الانكشارية قد تحركت كجماعة مسلحة الى السوق الكبير بالموصل وبدأت المناوشات فيه مع فرقة (الاکرمي يدي) ومن معهم يوم الاربعاء رابع عشر من شوال، فانفقت الفرق الاربع: الاوتوزبير والي سكس واوان انجي والاکرمي يدي والتحمت في نزاعها ضد الفرقة الباغية الي ايكي، وأخرجوها من السوق الكبير، وحدثت اعمال شغب واسعة النطاق اذ نهب حوالى مائتين من الحوانيت التي تضم، النجارين والحدادين والبقالين وجميع الاصناف في سوق الميدان الفوقي وسوق العتمة.. وقد ذهب للناس ما يقارب خمسين ألف قرش. وفي يوم الخميس حوصرت الفرقة المعتدية وحملوا عليها وهزموها وقبضوا على مقدمها (جرجيس آغا)، وانطفأت نار الفتنة التي راح ضحيتها خمسة جنود من انكشارية أورطة الاکرمي يدي ٠٠ ومات من أورطة الايكي عشرون انكشاريا، هذا عدا الذين جرحوا بطلقات الرصاص (39). ان ابرز الاسر الانكشارية التركية المعروفة التي استوطنت الموصل خلال العهد العثماني هي: الديوهجي والدملوجي والجلبي والخطيب والنعلبند ٠٠ وهناك اغوات باب البيض ٠

3/2/4. العلماء والادباء: ازدهار الحركة الفكرية

تأتى طبقة العلماء والادباء لتشكّل قطاعا كبيرا، وشريحة اجتماعية لها مكانتها واثرها الواضح في التركيبة الاجتماعية بالموصل. وكانت هذه الطبقة

(36) Rich, *op. cit.*, pp. 137-140.

(37) صديق الديمولوجي، اليزيدية، الموصل 1949، ص 112.

(38) *DUR. I*, p. 384-404.

(39) *DUR. II*, p. 1211.

في الامبراطورية العثمانية عموما تتميز باتصالها بكل الفئات الاجتماعية المتنوعة وتتصل رؤوسها مع الطبقة العليا في المجتمع المحلي بالموصل في تدعيم اركان السلطة السياسية ونفوذها من أجل منافع مادية أو معنوية أو سياسية .. كما وانها كانت تعمل ضمن ما يشبه القداسة العثمانية من أجل الحفاظ على المذهب الحنفي باعتباره الايدلوجية السامية للعثمانيين ، فمنهم يعين القضاة ورجال الافتاء والدفاترة .. وكان أغلبهم من أسر عربية ، أولئك الذين يخدمون في عالم الولايات العربية أو عالم الاناضول (40) . لقد شهدت الموصل خلال القرن الثامن عشر حركة فكرية وأدبية وعلمية مزدهرة .. وتشهد على ذلك العديد من المدونات والمصنفات في مختلف الآداب والعلوم . واشترك فيها أغلب رجال هذه الطبقة التي كانت احوالهم تتراوح بين الغنى المادى أو الفقر المدقع . كانت دراسة جميعهم للعلوم الدينية في عشرات مدارس الموصل القديمة أو تلك التي استحدثت خلال العهد الجليلي ، كما ودرس بعضهم في مدارس رصينة خارج الموصل . كان الاغنياء منهم يتمتعون برصيد من المكانة الاجتماعية والمناصب الفخرية أو الادارية أو السياسية .. بينما يبقى الفقراء كخطباء أو مدرسين في المدارس والجوامع ، أو كشيوخ متصوفة لهم حلقاتهم وعالمهم الخاص بهم . اذا تتبعنا في دراسة ما انتجته طبقة العلماء والادباء في الموصل خلال العهد الجليل ، نجدها قد امتازت على غيرها في ولايات عربية أخرى بالمميزات التالية :

I - التنوع في التصانيف والتأليفات باللغة العربية في علوم مختلفة كان أبرزها : الشعر والفقه والتفسير والاراجيز والتراجم والتاريخ .

2 - الحركة الفكرية المتنوعة التي تبرزها العديد من الافكار الاصلاحية في الفكر الاسلامي ، والتي تعد جذورا تاريخية للحركات الاصلاحية الحديثة التي برزت في القرن التاسع عشر .

3 - النزعة الوطنية وجذور الارهاص القومي - العربي .

4 - العلاقات الثقافية والفكرية ، فقد تميزت الموصل كونها جامعة علمية يؤمها العديد من الادباء والعلماء من الولايات العربية في المشرق العربي ، للدراسة أو الاستزادة أو التدريس واكتساب التجارب والمعلومات .

لكي نتوسع قليلا في هذه المميزات ، فاننا نحتاج الى بحث مستقل له ابرازته المتفرقة عن الحياة الفكرية التي عاشتها الموصل في القرن الثامن عشر ويمكنني ان اجد ما يشابهها الى حد كبير في فاس المدينة المغربية العريقة خلال الفترة المذكورة . ان التطور الذي شهدته طبقة العلماء والادباء بالموصل قد أدى الى ابرازتين تاريخيتين في حياة العرب الحديثة هما : النزعة الاصلاحية ، والنزعة العربية .

(40) For more details ; see, Kemp, *op. cit.*, Chap. III.

وانظر ايضا : د. عماد رؤوف ، المرجع السابق ، ص 223 .

قد تمثلت النزعة الاصلاحية بولادة الحركة السلفية التي أظهرها عدد من علماء الموصل كان أشهرهم أحمد بن كولة والبعض من الدارسين (41) . . . وهي حركة دينية تدعو مبادئها الى الرجوع الى أسس السلف الصالح ، ونبتدع البدع والتبرك والحرافات التي كان تعج بها أفكار المتصوفة بالموصل (42) . . . وخصوصا التبرك بضريح نبي الله جرجيس فيها . . . وقد رد أحد علماء حلب على هذه الدعوة السلفية ووصفها بالمروق عن الاسلام (43) . . . وقد توفي الملا ابن الكولة سنة 1759 م . = 1173 هـ . بعد ان لاقى استصغارا من بني قومه (44) . وفي اخبار سنة 1794 م . = 1208 هـ . ، يخبرنا المؤرخ ياسين العمري الذي يترجم «للسيخ الوهابي» بأن محمد بن عبد الوهاب كان قد حل بالموصل سابقا عندما كان طالبا للعلوم ، ودرس على يد العالم ملا حمد الجميلي وغيره ، « ورافق الملحدين ... » ثم سافر الى مكة (45) ومن خلال بقاء مؤسس الحركة الوهابية بالموصل ، فانه شهد النزاع الفكري المحتدم فيها بين السلفيين المواصلين من الاحرار المجددين وبين المتصوفة والفئات المحافظة . . . ورجع الى بلاده متأثرا بالافكار الاصلاحية الجديدة . . . ليبدأ بنشر دعوته الوهابية التي ستأخذ لها فيما بعد طابع الحركة التاريخية الشهيرة ، من خلال انتشارها في مجتمع مفتوح بين القبائل . وفي حين ان الحركة السلفية - الموصلية تبقى أسيرة اسوار الموصل ولا تتعداها منذ العهد الجليلي وحتى يومنا هذا . . . في حين انها تعتبر الجذر التاريخي لجميع الحركات الاصلاحية التي ظهرت في محيطنا العربي خلال القرن التاسع عشر . اما النزعة العربية فهي الاخرى جذرا تاريخيا لحركة القومية العربية ، فاذا علمنا ان الموصل في العهد الجليلي قد شهدت ولادة العديد من الافكار بواسطة الادباء والعلماء يبشرون بعروبيتهم ، ناهيك عن دواوين الولاية العربية . . . ادركنا اصالة هذا الجذر الذي توقف عن الحركة بعد زوال الحكم الجليلي . وقد بدأ النزوع العربي يأخذ مداه الحقيقي بعد انتصار الموصل في دفاعها المجيد ضد نادر شاه في حصاره لها سنة 1743 م . = 1156 هـ . ، اذ خلق ذلك الانتصار روحا جديدة عند العلماء والادباء كطبقة حية في المجتمع الموصل الداخلي .

يقول الاديب عبد الله أفندي الفخرى في قصيدة شهيرة له يمدح بها والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي بطل دفاع الموصل ضد نادر شاه :

وانا من العرب الكرام أولى العلي وفينا الهدى والمجد والعلم والفخر
وما ضم حب المال قط صدورنا فاموالنا عيب واعراضنا حر
أبي المجد الا ان نعيش بعزة اذا لم يكن عز فمختارنا القبر
وانا لفينا نخوة عربية وأنا لنا جد به ينتهي الفخر (46)

For details ; see, *DUR. I*, p. 405.

S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 126.

DUR. I, p. 446.

Ibid., p. 336.

Ibid., p. 466.

Ibid., p. 420 ; see also, *SHAM.*, p. 123.

(41)

(42)

(43)

(44)

(45)

(46)

وتكرست أيضا من خلال هذا النزوع الحى ، الوازع الوطنى .. ليس للموصل فحسب ، وانما للعراق بأجمعه . فهذا مفتي شافعية الموصل علي أفندى الغلامى ، يقول فى قصيدة له متشوقا :

برق تالق فى الظلام المسدل فائار فى الاحشاء ذكر الموصل
أورى زناد الشوق بين جوانح جنحت الى ذكر الحمى والمنزل
يا أيها البرق الولوع بمهجتي رفقا فديتك بالفؤاد المبتل
هات الحديث عن العراق فاننى أصبحت عن تلك البقاع بمعزل
أين العراق وساكنوه لمن غدا بالروم يسأل كل ركب مقبل
حيا الحيا تلك الرياح وان نأت عني فذكرها حليف تخيلي
ما الروم دارى يا بريق ولا انا ممن تشد الى ذراها أرجلي (47)

لقد انفردت الموصل عن بقية الولايات العربية فى المشرق العربى بحركتها الفكرية ، ومدارسها ، وبروز العشرات من علمائها وأدبائها الذين شكلوا طبقة اجتماعية عريضة الاوصال ، غزيرة النتاجات ، ومؤثرة فى الحياة العامة .. واشترك العديد من رؤوسها فى الحياة السياسية والاجتماعية . كما شهدت الفترة الجليلية ذلك النزاع الفكرى بين الاحرار المجددين وبين المتصوفة والمحافظة والتقليديين ، وكان الجليليون ينزعون دائما للمحافظة على القديم ... وكانت عديد من الطرق الصوفية منتشرة فى المجتمع الموصل ، وكان أبرزها : النقشبندية والقادرية والرفاعية .. والتي انخرط فيها المثات من الرجال ، سواء كانوا من الاغنياء أم من الفقراء . اضافة الى مثات الخطباء ورجال الدين فى الجوامع والمدارس الدينية (48) . وعد مركز الموصل فى علاقاته الثقافية مستقطبا لمثات الدارسين والمتعلمين والزوار من مراكز أقاليم وولايات عربية عديدة ، من الاقاليم الكردية ، أم من حلب وبلاد الشام ، أم من نجد والبصرة وبغداد .

4/2/4. طبقة التجار :

لهذه الطبقة وظائفها الكبيرة التى تحرك السوق المحلية ، وتأثر أقاليم الولاية بالمركز بواسطتها (49) . اضافة الى أسواق أوربا ، وتكفى هنا الاشارة الى تأثير الموصل فى أسواقها التجارية بنشوب الثورة الفرنسية عام 1789 م. والتي كان لاحداثها أثر فى انقطاع أقمشة (الجوخ) عن المشرق العربى ، وخصوصا مركزه التجارى بالموصل . «وانقطع الجوخ عن بلاد الاسلام ، وغلا حتى بيع الذراع الفرنساوى بستين درهما » (50) . كان التجار يتمتعون

SHAM., p. 154.

(47)

For historical details ; see, MAN., vol. I, pp. 5-126.

(48)

(49) انظر : يوسف رزق الله غنيمه ، تجارة العراق قديما وحديثا ، بغداد ، 1922 ، ص 63 .

DUR. I, p. 463.

(50)

بامتيازات في ظل السوالى الجليلي . وينقسم التجار المواصله الى قسمين رئيسيين : تجار كبار وتجار محليون . يتعامل التجار الكبار مع الموصل كمركز في علاقاتهم بمراكز الولايات الاخرى كبغداد أو حلب أو ديار بكر أو اسطنبول أو ماردين ونصيبين وهمدان والشام . اما التجار المحليون ، فهم الذين يتعاملون مع الاقاليم الجبلية في شمال الموصل في تصريف المنتجات المحلية ، والتبادل السلعي الذي يعتبر أساسا في حصيله المعيشة اليومية . وكان التجار حماة السلطة المحلية ، وكثيرا ما حصلت تجاوزات من قبلهم ابان الازمات الاقتصادية التي حاقت بالموصل ، وتضاعفت ظاهرة الاحتكار المحلي للسلع والمنتجات .. وهذا ما نراه مثلا عند تجار القمح والشعير من العلافين وتجار الموارد الاخرى ، كالسمن والقهوة واللحوم (51) ... الخ (انظر : بند 3/5) . كانت طبقة التجار تتمتع بالثراء ، وكان الشراء الفاحش من نصيب التجار الكبار الذين يستفيدون من موجات الغلاء الكاسحة التي كانت تضرب اطنابها الموصل وبقيّة الاقاليم . وقد وصل الامر لكي يستندين عبد الفتاح باشا الجليلي والى الموصل 1769 - 1771 م . من تجار الموصل ثمانين ألف قرش ، واعطاهم املاكه رهنا (52) . من هنا نلاحظ ، كم كانت هذه الطبقة تستحوذ على ارباح نتيجة لخدماتها التجارية أو تجاوزاتها الاحتكارية التي كانت تمارسها في أسواق مدينة اقتصادية كبرى . ويظهر لنا بأن ضرائب الحكومة على القوافل التجارية كانت كبيرة جدا ، في حين ان ضرائبها على التجارة الداخلية كانت قليلة . ويتصل التجار اتصالا وثيقا بكل من المزارعين في الريف ، والحرفيين في المدينة . وبحكم موقع الموصل الجغرافي ومركزها التجاري ، فقد نزع اليها واستوطنها اناس من حلب وديار بكر وحسن كيفا وبغداد وماردين وسنجار والشام ... ولدينا اشارة تاريخية عن استيطان احد المغاربة الموصل وزواجه فيها (53) .

5/2/4. الحرفيون والصناع المواصله :

اشتهرت الموصل منذ القديم بالظاهرة الحرفية ونشاطاتها في تصنيع المنتجات المحلية ، وأداء الخدمات اليومية في المجتمع . وقد شكلت الطبقة الحرفية وزنا له قيمته في الاحداث الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، اذ اعتمد النشاط الحرفي على الحالة الاقتصادية التي كانت تعيشها الولاية (54) . ويظهر لنا ان مكانة الطبقة الحرفية قد ازدهرت في العهد الجليلي ، وعلى الاخص بعد انتصار الموصل على نادر شاه في حصاره الشهير لها سنة 1743 م ،

(51) Ibid., p. 381.

(52) Ibid., p. 406.

(53) Ibid., pp. 373-4.

(54) تذكر مذكرات دومينيكو لنزا ، بأن اغلب الصناع والحرفيين المواصله كانوا ينتسبون الى اورطاط الانكشارية . انظر : دومينيكو لنزا ، المصدر السابق ، ص 61 .

وخصوصاً في عهد الوزير الغازي محمد أمين باشا ، اذ وصل النشاط الحرفي والنقابي في عهده الى حد الترف واتخاذ المسؤوليات والمشاركة في الاحتفالات الكبرى التي تقام في المناسبات الامبراطورية . فكانت شوارع الموصل تشهد خلالها عبور الكرنفالات من أمام منصة الوزير الوالي .. ومنها الاحتفالات التي أقامتها الموصل ونقاباتنا بمناسبة ولادة أحد أبناء السلطان مصطفى الثالث (55) ، وكان هذا السلطان هو الذي أمر باقامة المهرجانات بهذه المناسبة في معظم أرجاء الدولة . يحدثنا صاحب الدر المكنون قائلاً : « فزينت الاسواق والحانات والحوانيت في الموصل سبعة أيام . وكل يوم في الصباح والعصر والعشاء يصنع أمين باشا الجليلى في الصراى شنك وتضرب الطبول ، ثم تضرب التفنكات والمدافع والناس تجتمع للفرجة . وفي اليوم السابع اجتمعت الاصناف أهل الحرف بالزينة ودخلوا الصراى ، وأول من دخل الحراثون ثم الباغين ثم باقي الحرف بالزينة وأكثر منهم على العريانة مثل الخباز له تنور يخبز ويرمي الخبز على الناس ، والنجارين على العريانة يشقون الخشب ، والحدادين أيضاً ، وأمثال ذلك . ويصعد شيخ الحرفة الى عند أمين باشا فيخلع عليه بما يليق به وكان يوماً مشهوداً » (56) .

كان لكل حرفة شيخها الذي ينتخبه أبناء الصنعة وهو أكبرهم وقد قضى فترة طويلة من حياته فيها .. فيأتي كمسؤول يسيطر على حركتها ، ويزيدها من خلال جهازه النقابي أهمية وفاعلية . ويعتبر الحرفيون والصناع المواصل طيقة تتصل مباشرة بحياة الناس وتقديم ما يحتاجونه في حياتهم .. كما وانهم يرتبطون بعلاقاتهم مع التجار الصغار والكبار (57) . فكان لهم تأثير واسع في السوق المحلية ، كما وكانوا يعملون مع السلطة في بعض الاحيان من أجل تبادل المنافع بين الطرفين . وقد يتعرضون لامتهان الجيش الانكشاري ، أو انهم يشاركون في الاحداث المحلية في الانقلابات المتعددة ضد الولاة الاجانب .

كان الحرفيون والصناع المواصل ينتشرون في أماكن معينة من المدينة القديمة ، وكان لكل حرفة مكان معين من السوق الكبير أو سوق الميدان أو السوق الفوقي أو سوق العتمة . كما وان بعض الحرف تنتشر لتؤدي خدماتها اليومية متنقلة بين ملة وأخرى من الموصل . وشملت هذه الطبقة تطورا كبيرا في العهد الجليل أدى في نتائجه الى نمو رأس المال والنمو الحضري .. وذلك من خلال جودة المصنوعات المحلية التي أعجبت بها أوروبا بصورة خاصة.

S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol., p. 306.

DUR. II, p. 939.

ورد في النص ، مصطلح (شلك) ، وهي كلمة تركية معناها (المهرجان) أو الاحتفال الشعبي ، انظر *ibid.*, vol. I, p. 318.

Kemp, *op. cit.*, p. 211.

(55)

(56)

(57)

لقد كانت الموصل عامرة بالحرف والخدمات الحرفية ، وكانت طبقتها الاجتماعية تؤلف فئة جامعة للموارد من خلال ارتباطها بالتجار .. اما الصناع الذين اعتبروا شريحة اجتماعية واسعة فكانوا من متوسطى الدخل ، ولعل في تقسيمنا لاغلب الاصناف الحرفية تطلعنا على تركيبها الطبقي المشتركة بين رؤوسها والقاعدة التى تؤلفها ، فهناك : العلافون والدباغون والنجارون والحدادون والقصابون والسقاؤون والصاغة والعطارون والنساجون والبزازون والقزازون والغنامون والحبالون والحلاقون والحبازون والسماكون والصرافون والعنازون والجماسون والشعارون والحراثون والحسابون والكلاكون والحبارون والصوافون والدهانون والحمامون والدلاكون والوراقون والطحانون والصباغون والملاحون والسراجون والحياكون والخطاطون والبنائون ... الخ . ولو تأملنا - اليوم - ظاهرة تسميات عشرات من الاسر الموصلية فى القابها العديدة ، فاننا سنقف على ظاهرة قلما نجدها فى مدينة عربية أخرى وخصوصا فى ولايات المشرق العربى .. اذ ان تلك التسميات والالقاب الاسرية انما تعود فى انتمائها الاجتماعية المحلية الى الحرفيين القدماء الذين تواصلوا فى الموصل على امتداد القرون المتأخرة . وقد امتدت حركة هذه الاسر الاجتماعية فى هجراتها ونزوحها الى أماكن عديدة من العراق وبلاد الشام بحكم الاتصالات التجارية الواسعة بين الموصل وكل من مدن العراق وبلاد الشام (58) .

لقد شككت الموصل مركزا حيويا للتطور الحرفى ، وغدت كيانا له شديدا التعقيد . وكان الحرفيون فى بعض صنوفهم يعانون شديدا من الازمات الطبيعية التى تلم بالموصل كانهضام نهر دجلة ، وانقطاع خطوط المواصلات ، وموجات الجراد الكاسحة التى تأكل الاخضر واليابس من المحاصيل الزراعية ، أو انهم يقعون تحت وطأة الاختكارات التى يمارسها التجار ، وخصوصا تجار الحبوب واللحوم والجلود .. وكانت السلطة المحلية تفرض على كل من التجار وأرباب الحرف والصناع ضرائب عديدة . ولم يقتصر تسويق المنتوجات الحرفية على أبناء المدينة ، بل ان أسواق الموصل وحوانياتها كانت مركزا سوقيا لابناء الاقاليم المجاورة وتجار الولايات الاخرى .

6/2/4. الطبقة الفقيرة :

تشكل هذه الطبقة المسحوقة ، قاعدة اجتماعية مفرغة من جميع الامتيازات والحقوق التى كان يتمتع بها الصناع أو التجار أو الجيش . وكانت ابناء فئات هذه الطبقة هم أول من يتعرض للانتكاسات والهزات الاقتصادية ، وازمات الغلاء الفاحش التى تعم الولاية من وقت لآخر نتيجة الجذب فى المحاصيل الزراعية ، أو عملية افتعال واستغلال الازمات الاقتصادية عن طريق الاحتكار الذى يمارسه التجار والعلافون وأرباب الحرف المعيشية .. كما وان الفقراء كانوا

دائما عرضة للأمراض وطعاما مهينا للكوارث . ومن خلال النصوص التاريخية المتعددة التي تحكى قصة الاوضاع الاجتماعية لمدينة الموصل ، نتبين بأن الطبقة الفقيرة كانت تشكل نسبة عالية من السكان سواء كانوا في المدينة ، أم في أريافها ورسايقها . وغالبا ما تطالبهم السلطة المحلية في الانخراط بصنفين من الاعمال : أولا : كشغيلة وعمال في البناء والزراعة والترميمات بأجور يومية . ثانيا : كجنود دفاع أو هجوم في الحملات الاقليمية التي يترعها وزراء الاسرة الجليلية في حركاتها ضد المناوئين للحكومة من القبائل العربية والكردية المحيطة بالموصل شرقا وغربا . وكانت الطبقة الفقيرة جزءا من حلقة النزاع المحلى في المدينة . ولا يقتصر أمر ازمات الغلاء التي كان يواجهها الفقراء على سوء الظروف الطبيعية كاتقطاع الامطار وموجات الجراد ، بل لقد علل شاهد الاحداث تلك الظاهرة بقوله : «عم الغلاء بعض البلاد منها ديار بكر لجور الولاة ونهب أموال العباد وقتل أمرائها وأعيانها . وأما الموصل لعدم غلاتها وكثرة أهلها حتى بيعت الحنطة الرطل بدرهم ونصف ، والشعير بدرهم ، وذلك أيام الحريف . ويصير ازدحام من الفقراء على الشراء . وإما العقر والعمادية وجبال الاكراد - وكانت هذه المناطق من أقاليم ولاية الموصل - فمن جور ملوكهم وأمرائهم ونهب القبائل والعشائر ٠٠٠» (59) . وهكذا يقول في مكان آخر : «٠٠٠ ففي سنوات المحنة والكرب والغلاء ، يقع الموت بالفقراء دون الاغنياء» (60) . في ازمة الغلاء التي اكتشحت الموصل سنة 1756 م = 1169 هـ ، أمر الوالى محمد أمين باشا ان يطبخ كل ليلة شوربة وتطعم للفقراء» (61) . اما في غلاء سنة 1786 م = 1200 هـ ، فقد أمر الوالى محمد باشا ابن محمد أمين باشا الجليل ببناء العديد من الافران بلغ عددها خمسة عشر فرنا لصناعة الخبز ، وتوزيعه على الفقراء (62) . ورغم هذه السياسة الا ان التفاوت الطبقي بقي كبيرا ، وكان يعرض الطبقة الفقيرة للموت والدمار .

* * *

5. الحياة الاقتصادية للموصل :

5/1. الثروات الاقتصادية بين وقع الضغوط وظواهر الابداء :

بانت جملة واسعة المحتوى من الظواهر الاقتصادية ، بفعل الظروف الطبيعية ، وأدت الى بلورة الانهيار الذي بدأت ملامحه تبرز للعيان في الحالة الاقتصادية . وقد أدى ذلك كله الى زحزحة الاستقرار الاجتماعى في حياة

DUR. II, p. 1195.

(59)

DUR. I, p. 390.

(60)

Ibid., p. 380.

(61)

Ibid., p. 448.

(62)

المدينة بصورة خاصة ، منها : تدعيم منزلة الطبقات أو الفئات الغنية من الملاكين والتجار والاغوات والجلبية .. على حساب طبقة العلماء ، والفئات الكادحة من العمال والصناع والطبقة الفقيرة . تمثلت تلك الظواهر في الاخطار والكوارث الاقتصادية ، وموجات الامراض والسواعين التي اجتاحت ولاية الموصل على مدى زمني طويل خلال القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر .. وخصوصا بعد انحسار حالة الحرب الدائمة والمنجزة مع الغزاة الفرس الاجانب سواء كانوا من الصفويين أم الافشاريين .. وعلى شكل حركات حربية كانت دائمة الحضور على المجتمع العراقي قاطبة منذ أوائل القرن السادس عشر - البدايه التاريخية لاشتعال الصراع العثماني - الايراني - وحتى سنة 1743 م . ، بعد ان كان بارزا على مدى سنوات فارقة من القرن الثامن عشر هي : 1723 م = 1136 هـ ، 1731 م = 1144 هـ ، 1732 م = 1145 هـ ، 1733 م = 1146 هـ ، وأخيرا سنة 1743 م = 1156 هـ .

ان ظروف الكوارث والابادة قد أدت من دون شك الى تحويل الارياض في اقليم الموصل الى مساحات شاسعة من القفر واليبوسة .. وأراض لا تزرع بسبب استنزاف الكوارث لعدد هائل من سكانها ، فكثر بذلك حالات السلب والنهب والاغارة على القوافل أولا ، وعلى مراكز الرعاة والزراعات الموسمية أو السيقية ثانيا . ان ابرز الظروف الطبيعية الصعبة هي غزو الجراد بمختلف أنواعه وخصوصا النجدي منه على المحاصيل ، وخصوصا محاصيل القمح والشعير . وقاد ذلك الى نتيجة أخرى هي الغلاء وانعدام المأكول . وهناك ظاهرة الانجماد لنهر دجلة الذي يعطل الحركة فيه شمالا وجنوبا . اضافة الى انقطاع الامطار ، وما يسببه من موت للزروع والمحاصيل (I) . هذه الظواهر جميعها قادت الى انتشار سياسة الغزوات المحلية ، وتفاقمها ضد القبائل والعشائر المتنوعة سواء كانوا عربا أم اكرادا أم من اليزيدية ، وعلى جانبي الاقليم الذي يشقه نهر دجلة شقا من وسطه . وكان المركز المتمثل بمدينة الموصل يؤكد طبيعة هذه الظواهر ونتائجها من خلال تجاوزات المواحق والتوابع ، وكمجمع للمسالك عموما .. اضافة الى ذلك المجتمع المالك الذي سيطر على أغلب الاقطاعات الزراعية والرعية من خلال الحكومة الاقطاعية وطبقة ملاك الاراضي والتجار الكبار . . . علما بأن مركز الموصل ذاته كان يتأثر طرديا في اقتصادياته بالظروف الطبيعية الصعبة التي يمر بها الاقليم عموما . ورغم ذلك ، فان القبائل المختلفة كانت تدرك ان مركز الموصل من الثراء بمكان باعتباره مجمعا للمحاصيل والثروة الحيوانية ، ، والمنتوجات

(1) في تاريخ هذه الظروف التاريخية الصعبة ، انظر التفاصيل في :

DUR. I ; DUR. II ; MAN., vols. I, II ; *MUN.*, chap. III ; *ZUB.* ; see also, S.K. Al Jamil, *op. cit.*, vol. I, « The Economy », pp. 141-2.

الحرفية والذي يمثل في طبيعته اقتصادا حضريا ، يتطلع اليه ابناء الاقاليم واللاحق والدساكر والرساتيق من خلال الاستحواذ لا من خلال عمليات التبادل في السوق (2) . وليست لدينا احصائيات ثابتة عن مقدار الضرائب التي كانت تفرض على جميع السكان في داخل المدينة وخارجها .. اضافة الى ارقام ضرائب المكوس والجمارك على اصناف السلع المصدرة ، وعلى مرور رحلات القوافل التجارية (3) . الا ان هناك بعض الملاحظات المهمة التي تفيدنا في رصد الثروات التجارية والمحاصيل الزراعية لشمال العراق ، فمنذ كانت في ظل الظروف العادية توفي بحد الكفاية ليس بالنسبة لاستهلاك السكان ، وانما لتوفير المبادلات أو للتخزين تحسبا لاجتياح المصاعب والضغوط الحربية القاسية ، أو لاسعاف الاقاليم العراقية الاخرى ، وعلى الاخص بغداد التي كانت تنجدها محاصيل الموصل في الظروف الصعبة التي كانت تتعرض لها في اوقات شتى . ونقف في أسواق الموصل الثرية خلال القرن الثامن عشر لنشهد عظمة الاعمال التجارية البارزة لمواد الجلود والصوف والحبوب والزيوت والحيوانات والفحم والقطن والقهوة وغيرها (4) . كمنتجات أساسية تتوقف عندها عجلة الحياة بين الرخص والغلاء . ولكن يضاف الى هذا الانتاج الاساسي الذي يتدفق على أسواق المدينة من لواحقها وأقاليمها .. تضاف اليه منتجات رساتيقها وبساتينها القريبة منها والدائرة حولها ، وخصوصا على الجانب الشرقي من نهر دجلة حين تكون الظروف ملائمة للانتاج السقوي سنويا كان أم فصليا ، ومنه انتاج : الخضروات والفواكه والكروم والبقول .. من الزراعات السقوية القديمة . وكانت المنتجات الحرفية والصناعية - الزراعية تتكاثر أيضا بشكل كبير مثل : القطن ، وشجر دودة القز لانتاج الحرير الذي يزهر صناعة الموسلين العريقة في الموصل والتي اشتهرت به منذ القديم وفي كافة انحاء العالم (5) . وكانت الموصل هي المصدر الاساسي للجلود المدبوغة والمجففة بأنواعها الى العالم ، وكانت بريطانيا تستورد الآلاف منها ، وتصدر اليها عن طريق نهر دجلة ، ثم البصرة والبحر (6) .

يعتبر كل من سهل الموصل وسهل اربيل المتجاورين من اعظم السهول الزراعية لانتاج الحبوب (= القمح والشعير) (7) . ويقعان على الجانب

Loc - cit

(2)

Lady Ann Blunt, *Beduin Tribes of the Euphrates*, London, 1968, vol. 2, p. 187. (3)

For details ; see, J.S. Buckingham, *Travels in Mesopotamia*, London, 1827 (4) p. 86.

Ibid., p. 116.

(5)

(6) انظر وثائق الكولونيل تيلر :

« *Letters from L.t. Col. R. Taylar* », Pablical Agent in Turcks, fo. 195/113, Part One A. ; (British Museum Library).

For details ; see, Col. Chensey, *op. cit.*, vol. I, pp. 316-9 ; see also, Binder, (7) *Au Kurdistan, en Mesopotamia et en Perse*, Paris, 1887, p. 216.

الشرقي من نهر دجلة . وتزرع الحبوب أيضا في بادية الجزيرة الفراتية . وتعتمد زراعة الحبوب على مياه الامطار مائة بالمائة .. ويشترك كل من العرب والاكرد في زراعة الحبوب وتربية المواشى . اما الجاموس فيربيه عرب الانهار الذين يعتمدون الزراعة السقوية للخضروات . اما الفواكه فهي من نصيب الاكراد في أعالي الجبال كمنتجات متنوعة كالجوز واللوز والبندق والكستناء والقسطل والحبة الخضراء والبطم والتوت والزعرور والجوز ومن السماء .. ومختلف أنواع الفواكه عدا الحمضيات . اضافة الى ذلك ، فهناك انتاج الفحم والاشخاب المختلفة في نوعياتها (8) . ويعتبر سوق الموصل هو المركز الذي يستقطب تجارة مختلف هذه المحاصيل والمنتجات . أما التين والزيتون والشمع والعسل والمز والزيوت والالبان فهي منتجات القرى اليزيدية سواء في منطقة بعشيقه وعين سفني في شرق دجلة .. أم منطقة سنجار في قلب بادية الجزيرة والواقعة قرب جبل سنجار تلك المنطقة الاقليمية ببساتينها وأطيابها المتنوعة (9) . اما انتاج الفستق والمكسرات التي تشتهر بها الموصل ، فهي الموصوفة بـ (انعام الرساتيق) (IO) . ولها صناعاتها المحلية التي تستقطبها بعض بساتين مدينة الموصل . هذا اضافة الى ما تنتجه القرى القريبة والمحيطه بالموصل من الطرف الشرقي والتي ينتشر فيها عرب الانهار من المزارعين المسلمين والمسيحيين ، اذ يقوم هؤلاء بانتاج انواع البطيخ : المائي (= الشمزي - باللهجة الموصلية -) والاصفر (II) .. اضافة الى الزيوت والخمور والزهور والالبان والخضروات السقوية ، وخصوصا قرى تاكليف وتل اسقف وقره قوش وباطنايا . اما اكراد منطقة العقر . فينتجون الرز والتبغ بشكل أساسي . وتنتشر جماعات سكانية في قرى معدودة قبالة الموصل شرقا وعلى طريق الموصل - اربيل ، تسمى بـ (الشبك) والتي تعود أصولهم الى الفرس ويدينون بالمذهب الشيعي ، وقد سكنوا هذه المنطقة في تضاعيف القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر .. وينهمك هؤلاء بتربية المواشى والدواجن ليسدوا احتياجات سكان المدينة في معيشتهم اليومية .

2/5. العامل والمسببات :

كان الاعتماد على هطول الامطار كبيرا في زراعة الحبوب وخصوصا القمح والشعير ، فاذا ابطأ نزول الغيث ، فان ولاية الموصل تبدو وكأنها على أبواب محنة اقتصادية قاسية ، كما حدث ذلك سنة 1732 م . = 1143 هـ . (12) .. وقد يعجب المؤرخ في دراسته للاوضاع الاقتصادية للموصل ، وخصوصا في

Ibid., pp. 216-212.

(8)

(9) ص. السلموحي ، المرجع السابق ، ص 191 .

DUR. I, p. 392.

(10)

S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, vol. I, p. 298.

(11)

DUR. I, p. 342.

(12)

مقارناته بين طبيعة منتوجاتها الاقتصادية المتنوعة ، وبين الاحداث القاسية والمزمنة التي مرت عليها ، وخصوصا في القرون المتأخرة . وهناك أسباب عديدة حيال الاخفاقات الاقتصادية والضغوط التي حلت بالمجتمع خلال الفترة المعنية منها :

1 - انعدام نزول الامطار يعود بالانتكاسة على انتاج المحاصيل الاساسية المعتمدة عليها أولا وأخيرا .

2 - زحف الجراد في موجات عاتية تتقادم من هضاب نجد عبر جنوبى العراق ، فيأكل الاخضر واليابس .

3 - النزاعات الشائكة التي كانت تشتعل بين المركز واطرافه ، أو بين الاطراف ، بعضها بالبعض الآخر .. وكانت أسبابها اقتصادية بالدرجة الاولى .

4 - كثرة السكان ، وخصوصا في مركز مدينة الموصل ، وعلى نحو كبير كما أبرز ذلك العديد من المؤرخين والرحالة الاجانب . فاذا كان جملة من قتله الطاعون سنة 1772 = 1186 هـ. هو أكثر من ستمائة ألف نسمة (13) .. اذن ، كم كان عدد سكان المدينة ؟؟ دون شك هو ضعف ذلك .

5 - التفاوت الطبقي في المجتمع الحضري ، واعتماد هذا الاخير على منتجات الاطراف . ولم يكن هناك توزيع عادل للثروات التي كانت تعج بها الموصل في مركزها واطرافها على حد سواء . فاذا كان الملاكون والتجار والاغوات هم الذين يسيطرون على حركة اقتصاد الولاية . فان أقاليم الولاية واطرافها ، فكان هناك رؤساء القبائل والعشائر من الشيوخ والمتنفذين هم الذين يملكون كل شيء .. وحتى الانسان في بعض الاحيان .

6 - انقطاع المسالك والطرق والممرات الجبلية اثر تساقط الثلوج ، أو انجماد نهر دجلة بحيث تمتنع عن الانسان الوسائل البرية والنهرية في حركة التنقل للبيع والشراء .

7 - ضعف الادارة الجبلية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، عنها لما كان عليه حالها في عهودها الاولى ، وخصوصا في سياستها الاقتصادية .

3/5. ضغوط الحالة الاقتصادية وازماتها :

إذا تتبعنا السنوات العقيمة التي مر بها السكان في الموصل .. وتبعنا أخبارها الاقتصادية ، لوجدنا ان انحباس المطار وغزو الجراد .. عادة ما يؤدي الى قلة أو انعدام في انتاج المحاصيل الاساسية ، مما يقود الى كوارث

اقتصادية من خلال ازمات الغلاء التي تقود الى وقوع المجاعة بأولئك المساكين من الفقراء وذوى الدخل المحدود . أو قد تقف أزمة الغلاء فى حدودها لتمر دون ظاهرة الابداء التي شهدتها الموصل فى سنوات سوداء معروفة فى تاريخها الاقتصادى النشيط ، وحركته الدائبة . وفى سنة 1742 م = 1154 هـ . قحط المطر فى الموصل نحو شهر ، وضائق الاحوال (14) . وقحط المطر أيضا فى بداية سنة 1743 م = 1155 هـ . وفى السنة التى اعقبتها 1743 م = 1156 هـ ، حاصر نادر شاه الموصل بجيوشه الغازية التى بلغت ثلاثمائة ألف مقاتل ، فى حين كانت حكومة الموصل وسكانها قد احتاطت للامر ، فخرزت الحبوب والمواد الغذائية قبيل بدء الحصار تحسبا من اطالته عليهم فى ظروفهم الصعبة داخل الاسوار ، وهم منقطعون عن العالم (الخارجى) . وفى سنة 1756 م = 1169 هـ ، بدأ غلاء كبير نتيجة لهجوم موجات كثيفة من الجراد ، وأكله زروع الموصل (15) . وفى سنة 1757 م = 1170 هـ ، اشتد الغلاء كثيرا بفعل الجراد ، ومات فيه خلق كثير من الجوع ، وبيعت الحنطة ستة أرطال بثمانية دراهم ، والشعير الرطل بدرهم ، والملح بدرهم وربع درهم (16) . وبدأت المجاعة الكبرى .. ورافقها انعدام الفحم والخطب والاشخاب .. كما رافقتها احتكارات للحبوب من قبل التجار ، وعندما تولى الموصل الوزير مصطفى باشا ابن عظم أمر بالقاء القبض على اثنين من أولئك العلافين وصلبهم نتيجة لتلاعبهم بقوت الناس ، وأمر بتعليق الموازين (17) . وقد قاد هذا الظرف العنصر الى نتائج عديدة اثرت على حركة تطور المجتمع ونكوصه ، اذ هرب كثير من أهل الموصل ، وتفرقوا فى البلاد من شدة الجوع ، وبدأ الفقراء ينادون فى الشوارع مستغيثين من آلام جوعهم ، وينامون فى الأزقة ، ثم يموتون فيها (18) . وقد رافق ذلك موجة برد عاتية ، جمدت فيها مياه نهر دجلة مما تسبب انقطاع المواصلات من كثرة الثلوج ، فانعدم - أيضا - وصول الفحم والاشخاب الى المدينة من منطقة الجبال .. كما وقل الماء ، وقل الملح أيضا وبيع كل (حقة = 2 كيلو غرام) بثمان مصريات . وقد كان مثل هذا هو شئ غير مألوف أبدا فى الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية آنذاك .. وعلى حد قول شاهد عيان فى نصه : « وهذا شئ لم نسمعه ولا رأيناه » (19) .

قادت هذه التآزمات الخطيرة الى الانفجار بين سكان المدينة الذين كانوا منقسمين سياسيا على انفسهم بين (الميلدان) وبين (باب العراق) ، ووقع الاصطدام بينهما اياما يسيرة بسبب شدة الجوع (20) . وكان قد ولي الموصل

Ibid., p. 359.

Ibid., p. 380.

Ibid., p. 381.

Loc. cit.

DUR. II, p. 929.

Loc. cit.

DUR. I, p. 384.

(14)

(15)

(16)

(17)

(18)

(19)

(20)

رجب باشا الحلبي الذي انزوى في سرايه أشهراً خوف انكشارية الموصل في (الميدان) الذين اعلنوا العصيان عليه ، فهرب نحو باب العراق واحتواه بيت عثمان أفندي العمري ، ثم عزلته السلطة العثمانية ، وارجعت للموصل الوزير الحاج حسين باشا الجليلي الذي أمر باعتقال اخيه عبد الفتاح بيك ومناصريه الذين تحالفوا معه ضد محمد أمين باشا والذي تسلم مقاليد الادارة اثر وفاة والده الحاج حسين باشا بعد أيام قليلة من رجوعه الى الموصل .

وفي سنة 1769 م. = 1183 هـ. ، انعدمت الامطار مرة أخرى ، ولكن لم تحدث مجاعة خطيرة كتلك التي وقعت سنة 1785 م. = 1200 هـ. في عهد عبيد باشا الجليلي : قحط المطر ، وبدأ غلاء الاسعار ، فبيع رطل الحنطة بدرهم وأكثر ، وبيع رطل الشعير ونصف الرطل بدرهم ، ورطل لحم البقر أو الثور بمصرية ، والفرس الجيدة بعشرين قرشاً (21) . ثم اشتدت أزمة الموصل الاقتصادية من خلال الاسعار التالية :

- سنة 1200 هـ. 5 ارطال حنطة = 8 دراهم .
- 7 ارطال شعير = 8 دراهم .
- 1 رطل ملح = 1 درهم .
- 1 رطل سمن = 9 دراهم .
- 1 رطل قطن = 2 درهم (22) .
- سنة 1201 هـ. 1 رطل حنطة = 1 درهم ونصف درهم .
- 1 رطل شعير = 1 درهم (23) .

أما في سنة 1794 م. = 1209 هـ. ، فقد صادف ان حل البرد الشديد في قرى الموصل ، واتلف زرع ست وثلاثين قرية ، واعقبه برد شديد آخر ، اتلف زرع خمس قرى أخرى .. وتهاطلت الامطار بغزارة على امتداد ربيع ذلك العام وشهر من صيفه ، ففسدت الزروع والبذور .. ودخلت أزمة جديدة باحترق مائة وعشرين طغارا من البذور في حريق هائل شب في قرية النمرود القديمة في شرق الموصل (24) ... وعاد الغلاء من جديد بحلول سنة 1795 م. بغزو الجراد هذه المرة واكله لزروع القمح والشعير والقطن الذي زرعه للمرة الثالثة في أواخر شهر حزيران من السنة نفسها ، وتوضحت اسعار ذلك الغلاء على النحو التالي :

- (21) *DUR. II*, p. 1054,
- (22) *DUR. I*, p. 444.
- (23) *Ibid.*, p. 442.
- (24) *Ibid.*, p. 409 ; see also, *DUR. II*, pp. 1107-8.

السعر المنتج

سنة 1795 م. = 1209 هـ.	I	وزنة ونصف حنطة =	I	ريال
	3	وزنات شعير =	I	ريال
	I	المن من الزبيب =	IO	دراهم ونصف درهم
	I	المن من القطن =	3	دراهم
	I	ذراع جوخ جيد =	IO	قروش
	I	ذراع جوخ فرنسي =	6	قروش
	I	المن من القهوة =	30	قرشا (25)
سنة 1797 م. = 1212 هـ.	I	رطل سن =	IO	دراهم
	I	رطل لحم =	2	درهم
	I	رطل ليه =	3	دراهم ونصف
	I	رطل مملح =	I	درهم
	I	رطل عسل =	6	دراهم
	I	رطل تمر =	2	درهمان ونصف
	I	رطل صمغ =	9	دراهم (26)
سنة 1798 م. = 1213 هـ.	I	رطل فحم =	2	درهم (27)
	I	المن من القهوة =	60	قرشا (28)
سنة 1800 م. = 1215 هـ.	I	رطل تمر =	4	دراهم ونصف
	I	رطل زبيب =	3	دراهم
	I	رطل تين =	3	دراهم (29)
سنة 1801 م. = 1216 هـ.	I	حقة بصل =	I	درهم (30)

ان العملات المستعملة كانت عثمانية ، تصل في حركتها من السوق واليه من خلال حكومة الوالي ، ويقوم الوالي باستحصالها وتحريكها ، وله حق ايقاف العمل بها ، ومنها : الدرهم ، القرش ، الاقجة ، المصرية ، الصاغة ، الريال ،

(25) *DUR. II*, p. 1114.

(26) *DUR. I*, p. 417.

وقد سبب هذا الغلاء في هذه السنة الى تعطيل العديد من الاعمال الحرفية . انظر : *loc. cit.* (27)

Ibid., p. 482.

وقد سبب غلاء هذه السنة الى تعطيل حرفة الحدادين والصاغة بغلاء اسعار الفحم . انظر : *loc. cit.* (28)

DUR. II, p. 1136.

وقد سبب غلاء القهوة الى تعطيل كثير من المقاهي . انظر : *loc. cit.* (29)

DUR. I, p. 491.

وكان سبب هذا الغلاء انقطاع سبل المواصلات وانقطاع القوافل . انظر : *loc. cit.* (30)

DUR. II, p. 1177.

الفلس ... الخ . اما الاوزان فتتباين مكاييلها عن تلك التي تستعمل في بغداد أو حلب أو ديار بكر أو البصرة أو الشام ، ومنها : الحقة الموصلية ، الكيلة ، المن الموصل ، الوزنة ، الاردب المصرى ، الطغار الموصل ، التومان ، الرطل ... الخ .

★ ★ ★

6. التركيب الاثنوغرافى لسكان ولاية الموصل :

تميز مجتمع الموصل بميزات خاصة ، قلما نجدها فى غيره رغم أوجه التشابه بينه وبين مجتمعات عربية أخرى مجاورة له أم بعيدة عنه فى اطار العالم العثماني ، وخلال الفترات العثمانية بالذات . وقد اكسبته الظروف التاريخية الشديدة التي مر بها مثل تلك الميزات أو الخصائص المنفردة فى محيطه الخاص ، سواء كان ذلك فى ولايته كاقليم واسع الابعاد ، أم فى مركزه : مدينة الموصل كعاصمة لذلك الاقليم الاستراتيجى الذى يحتل - اليوم - رقعة شمال العراق . ونجد ان اختلافات مجتمع المدينة يكاد يكون مختلفا اختلافا كبيرا عن المجتمع العام للاقليم نفسه حتى فى اللهجة المحلية ، فاللهجة المحلية والعامية الموصلية تنحصر استعمالها داخل اسوار المدينة فقط .. وهذا ينسحب على بعض العادات والتقاليد والممارسات .. ويرجع السبب فى هذه الاختلافات الى عوامل جغرافية واثنوغرافية أساسا ، اضافة الى عوامل تاريخية بالغة التعقيدات .

I/6. المدينة : يتركب مجتمع مدينة الموصل فى فترة العهد الجليلي من بدائل اثنوغرافية - سكانية ، تختلف فى أصولها وجذورها ولكنها تشترك بقاياها وحياتها الاجتماعية واللهجة الخاصة التي تميزها ، والعامية الموصلية التي تنفرد بها .. وكذلك ، عاداتها وتقاليدها وتجاربها وممارساتها فى الحياة . يشكل العرب النسبة العالية من سكان المدينة ، وأغلبهم من الذين سكنوها منذ فجر الاستيطان الثابت فى العهد الاسلامية الاولى ، اضافة الى الذين نزحوا اليها وسكنوا فيها .. والعرب الموصلية هم من السكان المتحضرين وخصوصا أولئك الذين سكنوا فى قلب المدينة . ولم تزل كل من محلة الخزرج تعرف باسم القبيالة العربية التي سكنتها منذ مئات السنين . ويشغل العرب الموصلية بالتجارة والصناعة والعلوم وبعض الحرف الأساسية ، وخصوصا البرازة والقزازة والدباغة والوراقة والسراجة والصباغة والصياغة ... الخ وهم من المسلمين السنة . وينقسم المسلمون الى مذهبين : المذهب الحنفى والمذهب الشافعى ، ويقف على رأس كل مذهب قاض لتدبير شؤونه . وكانت الاكثرية من الحنفية ، ولم يكن من الشيعة الا السادة الذين اختلطوا - فيما بعد - وخصوصا فى العهد الجليلي مع السنة وأصحاب المذهب الحنفى وذابوا فيه على امتداد الفترات التاريخية الحديثة . وكان للعرب الموصلية من المتحضرين علاقاتهم المتنوعة مع عرب الاقليم واعرابه ، وخصوصا العلاقات الاقتصادية ..

أو عرب الولايات والاقاليم والمدن الاخرى في المشرق العربي . اما مسيحو مدينة الموصل فتجمعهم بمسيحيي قرى الموصل العلاقة الدينية المشتركة . وينقسم المسيحيون في مركز وتوابعه الى قسمين أساسيين : الكلدان والسريان ، الذين تجمعهما العادات والتقاليد ، والتشابه في الطقوس الدينية ، ولكن يختلفون في لهجاتهم التي يمورسانها في تحدثهم باللغة السريانية أو كما تسمى تاريخيا (الآرامية) (I) . ان أغلب الكلدان هم من الكاثوليك الذين يتبعون بابا روما والكنيسة الغربية . اما السريان ، فبعضهم من الكاثوليك ، وأغلبهم من السريان الارثوذكس ، وهم الذين يطلق عليهم بـ (اليعاقبة) ومركزهم الموصل ويتبعون الكنيسة الشرقية . ويشغل مسيحو مدينة الموصل بمزاولة بعض الحرف الخاصة بهم مثل : الحلاقة والنجارة والسقاية والحداة والبناء .. ويتركون حول كنائسهم في قلب المدينة القديمة . وقد عاشوا بسلام ووثام مع المسلمين على امتداد تاريخ طويل . وقد انتشر المذهب الكاثوليكي بالموصل خلال العهد الجليلي . ولم يتواجد البروتستانت في الموصل كما هو عليه الحال في مدينة حلب مثلا . وكانت تتواجد في الموصل أقلية يهودية تسكن في محلة خاصة بها تقع في شمال المدينة القديمة ، وتؤدي بعض الخدمات المالية كالصرافة كما ويشغل البعض في الحياة والتجارة (2) . ونتيجة لقرب الموصل من جبال الاكراد ، وكانت تعتبر العاصمة الاقتصادية لشمال العراق ، فقد استقرت فيها العديد من الاسر الكردية التي تركت مدنها الجبلية ، ونزلت لتستوطن الموصل والعمل فيها من خلال التجارة ، واختلطت هذه الاسر الكردية بالسكان العرب الاصليين بالتزاوج والمصاهرة .. فنتج عن ذلك ولادة فئة اجتماعية جديدة لا هم بعرب ولا هم بأكراد . ويمكننا ان نطلق عليهم (الاكرد العربون) أو تسمية — Arabized Kurds — ، وهناك عوائل موصلية عديدة يتصلون بهذه الفئة المذكورة .. وقد اندمجوا اليوم في الاطار العربي . وقد حدث نفس الامر بالنسبة للأتراك الذين استوطنوا الموصل من خلال الحكم العثماني ، ورغم قلتهم باعتبارهم ينحدرون من أصولهم الانكشارية ، الا ان عددهم تقلص بشكل كبير في العهد الجليلي ، وذابوا في المجتمع العربي - الموصل الذي تميز بعروبتة منذ القدم . ويغيب عن مجتمع المدينة كل من الجراكسة والماليك .. اما الارمن فلم يستوطن بعضهم الموصل الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (3) .

(1) بطرس نصرى الكلداني ، ذخيرة الازهان في تواريخ المشارة والمغاربة السريان ، ج 2 ، الموصل ، 1913 ص 56-117 . وانظر ايضا :

H. Ch. Luke, *Mosul and its Minorities*, London, 1925, pp. 41-72.

C. Niebuhr, *op. cit.*, vol. II, p. 172.

(2)

(3) For details ; see, the L. from the British Consul at Mosul, FO 2872 (1877-8), Public Record Office in London.

2/6. اطار التنوع السكاني في ولاية الموصل (= سكان الاقليم)

في اطار الموصل الجغرافي وأقاليمه المتنوعة ، تنوعت الفئات السكانية المتباينة التي كانت منتشرة على جانبي نهر دجلة . وكانت الغلبة السكانية قد تركزت على الجانب الشرقي منه ، وخصوصا في المنطقة المحصورة بين نهر الزاب الأعلى ونهر دجلة ، في مثلث جغرافي كانت الجبال قاعدته ، اما رأسه فيمثله التقاء نهر الزاب الأعلى بدجلة .

ان أولى الجماعات القديمة ، هم : الآثوريون الذين يتكلمون اللغة السريانية ، والذين يطلق عليهم بـ (النساطرة) . اما المصادر التاريخية العربية القديمة ، فتسميهم بـ (الجرماقة) ، أي سكان الموصل القدماء ... (4) ويتميزون بنزعتهم الانعزالية ، ولهم عاداتهم وتقاليدهم التي يشترك بعضها مع الاكراد ، كونهم عاشوا قربهم في قرى الجبال السفلى .. ويشغلون بالزراعة وتربية المواشى وصناعة الحبوب ، وهم من الكاثوليك ، ويتوزعون في قرى اربيل ودهوك والعمادية . وينسبهم البعض من المؤرخين خطأ الى الاشوريين القدماء ، في حين ان الاشوريين من الشعوب المندثرة التي لا تتصل بالاراميين في شيء (5) .

اما الاكراد ، فيتميزون بحجمهم السكاني ، وقبائلهم وعشائره التي تتوزع في أماكن عديدة من جبال الموصل (6) ، وكان لهم مع الموصل علاقات اقتصادية كبيرة ، اضافة الى العلاقات الثقافية .. اذ عدت مدينة (ماوران) الكردية خلال العهد الجليلي مركزا ثقافيا في دراسة الآداب والثقافية العربية والعلوم الاسلامية ، وتخرج فيها العديد من العلماء والادباء الاكراد الذين استوطنوا الموصل فيما بعد . كانت أقرب الاماكن الكردية ذات العلاقة الوطيدة بالموصل هي : عقره والعمادية واربييل والشيخان ودهوك وزاخو .. اذ كانت ذات تبعية ادارية واقتصادية معها . وقد وقعت نزاعات بين السلطة الجليلية وبعض هذه المراكز ، اذ وقع نزاع الوزير حسين باشا الجليلي مع بهرام باشا والي العمادية أياما ، فصالحه بهرام باشا على مال (7) . وهكذا حدث أيضا مع صاحب عقره التي تعتبر أقرب للموصل من العمادية . واذا قارنا حركات النزاع المشتغلة بين مركز الولاية والقبائل العربية المنتشرة ، أو مع القبائل اليزيدية ، فاننا سنجد ان الاكراد كانت علاقتهم أقل نزاعا مع الموصل مقارنة

(4) س. صايغ ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 5-16 .

(5) For details ; see, *JAOS*, vol. 2, 1851, p. 114.

(6) محمد امين زكي ، تاريخ الكرد والكردستان ، ترجمة : محمد علي عوني ، القاهرة 1936 . وراجع ايضا : Arfa Hasan, *The Kurds*, London, 1963.

(7) *DUR. I*, p. 351.

بالعلاقة الدموية التي كانت تميز الادارة الجليلية مع اليزيدية على وجه التخصيص .. واذا أخذنا بنظر الاعتبار النزاعات مع المهركان والشمثاقية الاكراد .

اما الفئات التركمانية المنتشرة في أماكن معينة من شمال العراق ، فقد استقطبت لها كل من كركوك في شرق دجلة ، وتل عفر في غرب دجلة بقراها وديسارهما . وتعود هذه الجماعات السكانية في أصولها الى الدول التركمانية التي حكمت في اجزاء من العراق ، وغدوا في العهود العثمانية كبقايا مجتمعات غربية : كالسلاجقة ، والاق قوينلو ، والقره قوينلو . ولم نلاحظ ان هناك اى تعاطف معها من قبل الاتراك العثمانيين الذين يختلفون في طرائقهم عن هذه البقايا التركمانية .

ان الاقلية التركية - العثمانية التي انحسرت اجتماعيا في مركز ولاية الموصل ، كانت منظمة تنظيميا اداريا مرنا ، واستطاعت ان تندمج مع السكان العرب المسلمين في المدينة ، ولم تؤثر هذه الاقلية الصغيرة في لواحق المركز واطرافه الاقليمية سكانيا ، اذ استطاعت الاسرة الجليلية ان تقلل من نفوذ هذه الاقلية ، وفاعليتها العسكرية بالسيطرة على أدواتها ، وعلى الاخص الوسائل المالية .. وكانت تكويناتها من فرق الانكشارية الخمس ، ومن السباهية .

اما اليزيدية ، فهم جماعات تستوطن اقليم الموصل ، وتدعى لهم اسمهم من يزيد بن معاوية . لهم دينهم الذي يختصون به ، ولهم في ذلك طقوسهم وعاداتهم . وهم مجتمع مقفل ، اذ انعزلوا عن الحياة التاريخية للمنطقة منذ عهد طويل .. يقدسون ابليس تقربا منه ورمزهم هو طاووس ملك ، ويحجون الى مرقد عدى بن مسافر الواقع قرب عين سفنى للشمال من مدينة الموصل (8) . وكانت السلطة العثمانية تعتبرهم من الكفرة المارقين الخارجين عن الاسلام ، لذا استوجب حربهم ، وقد لاحقتهم في صراع طويل كل من ادارة الموصل الجليلية وادارة المماليك ببغداد . وينتشر اليزيديون على جانبي نهر دجلة للشمال من الموصل . فمنهم من يستوطن قرب جبل سنجار ، ومنهم من يستوطن قرى بعشيقه والشيخان وباعذرا ، والعديد من القرى المنتشرة قرب جبل مقلوب . لقد بقيت العلاقة سيئة بينهم وبين العثمانيين حتى زوال الامبراطورية ، وكان نزاع الحكومات المحلية معهم كبيرا وفعالا .. يتعرضون لحملاتها ، ويجرى القتل والاحراق وأخذ النساء .. ولكنهم لم يستسلموا أبدا على امتداد حياة الدولة العثمانية ، بل كانوا يدافعون عن أنفسهم حتى النهاية . ومن الحملات التي تعرضوا لها في حياة العهد الجليلي : حملة والي بغداد أحمد باشا في سنة 1733 م . = 1146 هـ . على يزيدية شرق دجلة (9) ، وحملته

(8) قارن : ص. الديموجي ، المرجع السابق ، ص 61 .

سنة 1752 م. = 1166 هـ. على يزيديّة جبل سنجان « وحاصر قراه ونهبها وقتل ألف رجل وأسر النساء والأطفال ، وبيعت الجارية بعشرين قرش» (10). وتجدد نزاع آخر بين إدارة الموصل ويديديّة شرق دجلة سنة 1762 م. = 1176 هـ. ثم مع يزيديّة جبل سنجان سنة 1763 م. = 1177 هـ. ، ومعهم أيضا سنة 1764 م. = 1179 هـ. ، وآخر معهم سنة 1767 م. = 1181 هـ. ، وصالحوا الولاية على 2000 رأس غنم ، ثم غار سليمان باشا الجليلي والى الموصل عليهم سنة 1773 م. = 1187 هـ. (11) .

أما العرب (= عرب الريف والبادية) ، فإنهم ينقسمون الى ثلاثة أصناف حسب البيئة التي توطنوا فيها منذ القدم ، فصبغتهم بصبغتها ، ولكن لم تمت عندهم الروح القبليّة . كان هناك : عرب الانهار الذين تركزوا في قراهم المحاذية لشواطئ الانهر ، والتي يعتمدون عليها في زراعاتهم السقيّة المختلفة .. وتنتشر مئات القرى على حوافي الانهر الكبيرة والصغيرة كنهر دجلة ، ونهر الزاب الكبير ، ونهر الزاب الصغير ، ونهر الحابور ، ونهر الحازر ، ونهر الخوصر ... وفروع تلك الانهر من النهرات والجداول .. وغالبا ما يكون هؤلاء أكثر استقرارا من العرب الآخرين ، نتيجة توفر المياه الجارية على امتداد السنة . كما وانهم أقل ترحالا ، وأقل تعرضا للنزاعات . ثانيا : وهناك عرب السهول والمراعي الذين يعتمدون على زراعة الحبوب والرعي أساسا في حياتهم المتوزعة بين كركوك والموصل ، ومنهم : عرب البو حمدان الذين كانوا في نزاع مع أهالي كركوك التركمان . وهم عرضة للمآسي الاقتصادية ، اذا حدث القحط بانعدام سقوط الامطار ، فتكثر حركاتهم في السطو ونهب القوافل التجارية .. أو الاعتداء ونهب اغنام الموصل .. أو القبائل فيما بينها . وهناك اخبار كثيرة عن عرب طي وعرب الموالي وعرب اللهب ... الخ . ثالثا : أما عرب البوادي والصحراء فكانوا من بدو قبائل شمر والاعنزة ... الخ ، وهم من القبائل غير المتوطنة أو المستقرة في مكان معين من بادية الجزيرة ، بل هي في ترحال دائم على امتداد بادية الشام نزولا الى مناطق عميقة جنوبي نهر الفرات ، اذ يصلون حتى نجد .. ويعتمد هؤلاء على رعي الاغنام والكلاء ، وكثيرا ما يتعرضون للقوافل التجارية ، وقوافل الحجيج والمسافرين بالاعتداء والنهب (12) . وتخبرنا وثائق الكولونيل تيلر - Taylor - أن يحيى باشا الجليلي ، الوالي الاخير من الجليليين للموصل ، كان على علاقة وثيقة بهم ، اذ كانوا حلقة الوصل بينه وبين ابراهيم

Ibid., p. 377.

(10)

Ibid., p. 399.

(11)

Gertrude L. Bell, *Syria : The Desert & The Sown*, London, 1919, p. 109. (12)
« Letters from L.t. Col. R. Taylor, fo. 195/113, Part One A., The British Museum Library.

باشا بن محمد علي باشا حاكم مصر ، ابان اقامة ابراهيم باشا في الشام (I3). وكثيرا ما اقام العرب خلف اسوار المدينة من اجل الرزق والاستفادة ، أو حراسة الخيول والماشية ، ومن اجل الحماية ايضا تحت اسوار حكومة الاقليم . أو للمساعدة في الحملات . وكانوا من عرب البكارة وعرب العكيدات ، الذين يقيمون جنوبى المدينة قرب ضريح نبي الله شيت . ولم يسمح لهم بدخول المدينة أبدا ، لذا كانوا يقيمون تحت عرازيل يبنونها من القصب ، اضافة الى استفادتهم من مواسم الحصاد وحمايتهم للبيادر (I4) .

وهناك جماعات اخرى تستوطن الاقليم ، منها ما هو قديم فيها ، ومنها ما هو حديث النشأة والظهور . فهناك المسيحيون الكلدان السريان الذين يستوطنون في القرى الواقعة شرق الموصل ونهر دجلة . فالكلدان يسكنون قرى : تل كيف ، وتل أسقف ، وباطنايا ، والقوش ، اما السريان في قرى : برطلي ، وكرمليس ، وقره قوش . ويشغل هؤلاء بالزراعة وتربية الدواجن ، ويبيعون منتوجاتهم في أسواق الموصل (I5) . وهناك مجموعة أخرى من السكان يدعون بـ (الجرجية) ، وهم مزيج اثنوغرافى من الاكراد والتركمان العربيين ، ويسكنون في غرب الولاية وعلى الجنوب الغربى من مدينة الموصل عند قرية المحلبية ، ويشغلون بتربية المواشى . اما (الشبك) الذين تقدم ذكرهم (انظر : بند I/5) ، فهم طائفة صغيرة من بقايا ايرانية خلفتهم الحملات العديدة على شمال العراق .

هذا هو على وجه التحديد والاختصار : التركيب الاثنوغرافى لاقليم ولاية الموصل خلال العهد الجليلي (= القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر (I6)) .

* * *

استنتاجات تاريخية :

نخرج من دراستنا هذه بالعديد من الاستنتاجات التاريخية المهمة . . سواء ما يخص طبيعة مجتمع ولاية الموصل ابان القرن الثامن عشر ، أو العلاقات التي تميز بها ، أو الروابط الاقتصادية التي حكمتها مع الجماعات والاقاليم المجاورة له أو البعيدة عنه . واثار الاحداث السياسية أو الاقتصادية في تكوين بنيته التي عرفناها . اضافة الى القوى السياسية والعسكرية التي تحركت على أرضيته ، وساهمت بقدر كبير في تركيبته الطبقية . لقد عاش مجتمع ولاية الموصل خلال العهد الجليلي 1726 - 1834 في مركزه المتمثل بالمدينة . . واقابلهما

(13) راجع بالتفصيل وثائق الكولونيل تيلر ، ورسالته المؤرخة في 1834/01/25 . انظر :

DUR. II, p. 1096. (14)

Luke, *op. cit.*, p. 112. (15)

Cf. S.K. Al-Jamil, *op. cit.*, chap. « The Society » of Mosul, pp. 142-4. (16)

التي تمثلها اللواحق والديساكر والتوايع والرسائيق .. عاش حياة اجتماعية تكاد لا تختلف اختلافا كبيرا عن الحياة الاجتماعية - العربية التي عاشتها الولايات العربية ابان القرن الثامن عشر . ولكنه تميز عنها بمواصفات اختلفت في صبغتها عن بقية الولايات العربية الاخرى ، وخصوصا في المشرق العربي .

لقد غدت ولاية الموصل منذ فتح السلطان سليمان القانوني للعراق راسا اقتصاديا لكيانه الحديث ، ولكنها لم تفقد علاقاتها واتباطاتها بكل من بلاد الجزيرة وبلاد الشام ، وخصوصا من الناحية الاقتصادية ، اذ اعتبرت الموصل بمثابة الجسر الحقيقي لاتصالات ولايات المشرق العربي قاطبة ، بحكم الموقع الجغرافي - الاستراتيجي الذي تمتعت به ، وتحكمها من خلاله بالعديد من خطوط التجارة والمسالك والمواصلات نهرا وبرا بمختلف الاتجاهات . وساهمت من خلال ذلك عسكريا وحربيا في صراع الدولة العثمانية مع ايران ، وبصورة فعالة منذ بداية حلقة ذلك الصراع التاريخي الميرير ، وحتى تلك القفلة التاريخية الدموية التي كادت تؤدي بحياتها ، والتي مثلها حصار نادر شاه لها ودفاعها المستميت ثم انتصارها على نادر شاه وجيوشه الغازية سنة 1743 م = 1156 هـ ، بقيادة الوزير الحاج حسين باشا الجليلي . وبمشاركة كافة ابناء المدينة في ذلك الفصل التاريخي الميرير .. لتبدا من بعده حياتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتميزة ، وفي فترة تاريخية طبعها الحكم الجليلي - المحلي .

ومن خلال دراستنا للحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذه الفترة التراكمية من تاريخ ولاية الموصل العثمانية . نتوقف عند نتائج هامة يمكننا ان نجعلها بالنقاط التالية :

- لقد كان للعوامل الاقتصادية اثرها البارز في حياة المجتمع في ولاية الموصل ، سواء كان ذلك في مركز الولاية ، أم في اطرافه وتوابعه اذ كان ذلك المركز يعتمد اعتمادا أساسيا على تلك الاطراف في تسويق منتوجاتها ومحاصيلها الى الخارج . وان أهم ما يؤثر في طبيعة الانتاج الزراعي ، هي الآفات الموسمية التي تخلقها الظروف الطبيعية كشحة نزول الامطار ، أو غزو الجراد ، أو الانجماد والثلوج ، اذ يخلق كل ذلك هزات اقتصادية لا مثيل لها .. وعليه ، فقد اكتسب المجتمع الداخلي في مدينة الموصل نتيجة لتلك المحن القاسية .. تجارب في تخزينه كل سنة من المواد الغذائية ما يكفيه على امتدادها ، وقد جرت العادة لذلك في كل بيت من بيوت المدينة . اما الملاحظة الاخرى التي مكنتنا هذه الدراسة من رؤيتها هي ان اصحاب الاقطاعيات الزراعية من كبار الملاكين في الموصل ، انهم يعيشون داخل المدينة بعيدا عن مقاطعاتهم ، ولكنهم يخرجون اليها موسميا لكسب الانتاج .. وكثيرا ما وقعت مصادمات بين حكومة الولاية وأمرء الاقاليم التابعة لها ، وتجرى المصالحة على مال أو مكاسب اقتصادية كمنتوجات زراعية أو حيوانية ، ودفع الضرائب .

كان أبرز المستفيدين من الحالات الاقتصادية الصعبة التي مرت بالموصل ، هم أصحاب الاقطاعات من الملاكين الكبار ، اضافة الى التجار الكبار الذين يتعاملون مع قوت المعيشة اليومية ، وكان أغلبهم من العلافين . وقد انصهر الجيش في المجتمع ، وكان أغلبهم من الانكشارية . . . وقد صرفتهم الانقسامات السياسية الى طلب الرزق من خلال الاعمال الحرفية الشهيرة التي امتازت بها مدينة الموصل عن غيرها من مراكز الولايات الاخرى ، واذا كانت حلب قد اشتهرت منذ القديم بصناعة الصابون والزيوت ، فان الموصل قد اكتسبت شهرتها عالميا من خلال صناعة الموسلين ودبغ الجلود . وقد صبغت الموصل خلال الفترة المعنية بالصبغة الحرفية ، وتطور تكويناتها ، وتعدد تراكيبها ، وأصبح لكل حرفة نقابة تمثلها يقف على رأسها : شيخ الحرفة أو (الصنف) . ولم تكن طبقة الحرفيين بمعزل عن الحياة السياسية رغم طابعها الاقتصادي المحض ، اذ كثيرا ما وقعت ازمات معقدة في اسواق الموصل نتيجة للتدخلات السياسية من قبل الجيش في هذه الاوساط .

— اما ما يخص العلاقات الاجتماعية ، فقد ميزها ذلك التركيب الطبقي الذي قد لا يختلف كثيرا عما تميزت به بقية الولايات العربية — العثمانية وخصوصا في مركز الولاية (= المدينة) . ولكن شهدت الموصل انفجارا سكانيا كبيرا في بداية حياتها خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر ، ولكن سرعان ما أثرت فيه عوامل الهجرة والنزوح نتيجة للازمات الطبيعية والاقتصادية التي ألمت بالمجتمع . وبقي المجتمع عربيا . . ذابت فيه مختلف العناصر السكانية الخارجية والاقليمية ، بل ودافع عن عرويته ضد مختلف التيارات والبدايل السياسية والمذهبية التي كادت تريد العصف به . وكان عرب المدينة من المتحضرين الذين يتباين مستواهم المادي (المعاشي) والحضري عن عرب الاقليم هذا اذا علمنا بأن الموصل قد سكنتها أقليات متنوعة ذابت في قوام المجتمع الحضري ، سواء كانت تلك الاقليات من الاكراد أو التركمان أو الاتراك . ولكن مجتمع المدينة كان منقسما على نفسه نتيجة للانقسامات السياسية التي تميزت بها الموصل ، وكان ابرز عواملها : رفض تنصيب الولاة الاتراك كبدايل مؤقتة وليست مزمدة تجاه الحكم الجليلي . . وكثيرا ما قاد ذلك الى انقسام الجيش . ويضاف الى ذلك ، الانشقاق الذي حدث في الاسرة الجليلية نفسها — كما رأينا — . ان طبيعة الحكم الجليلي للموصل كان عربيا في أساليبه وممارساته ، وكان ينزع على العموم الى التكتل أمام الحكام الاتراك الاجانب . . وشهدت الموصل ابان الحكم الجليلي المزمّن ازمات اجتماعية متعددة ، ولكنها سرعان ما كانت تنطفئ ، وكان من ابرز عواملها التفاوت الطبقي بين الناس . ورغم ان ذلك التفاوت الطبقي هو سلم ترتقي اليه العديد من الطبقات كالتجار والعلماء . . الا ان الصناع الصغار والفقراء كانت تجد صعوبة في تحصيل لقمة العيش خلال الازمات الاقتصادية الحارقة . ورغم هذا كله ، فالموصل متميزة عن غيرها من بقية الولايات الاخرى في المشرق العربي بالصلة الوثيقة التي

كانت تربط الاسرة الجليلية ببناء مجتمع الموصل قاطبة كونها ولدت وبرزت فيه ، واستطاعت ان تبرز غيرها من الاسر الحاكمة بالخدمات السياسية التي قدمتها .. اضافة الى اندماجها في المجتمع ، والحركة العمرانية والثقافية التي شهدتها الموصل خلال الفترة المعنية .

- والنتيجة الاخرى هي ، ان الفترة التاريخية المعنية من حياة ولاية الموصل تعتبر جذرا تاريخيا أساسيا لابرز الحركات والنزعات والظواهر الفكرية الحديثة . اذ وجدت ان هناك ثمة علاقة مباشرة بين تلك الحياة التي عاشتها الموصل خلال القرن الثامن عشر والحركة الاصلاحية - الدينية التي تبناها المصلح النجدي الشهير : محمد بن عبد الوهاب في القرن التاسع عشر ، اضافة الى علاقة الفكر العربي الذي حملته بعض ابناء الموصل خلال القرن الثامن عشر بالنزوع القومي الذي ظهرت بوادره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وتبلورت اراءه في بداية القرن العشرين . وقد يستغرب المؤرخ لذلك ، ولكن قراءات متمعنة في التراث الذي خلفه لنا مواصلة القرن الثامن عشر .. فانها سوف لا تدع مجالا للشك امام هذه النتيجة . ولو قارنا بين الحركة السلفية الموصلية وبين الحركة الوهابية النجدية لوقفنا على ثمة تشابه كبير بين الحركتين .. ومما يعزز ذلك كله : اهتمام المواصلة بجذور الحركة الوهابية في بداية القرن التاسع عشر .. والموقف التاريخي للملكي الذي اتخذته الوزير محمد باشا الجليلي ، وتعليقه لمرضه امام السلطة العثمانية المركزية في محاربة الوهابيين . ثم دراسة محمد بن عبد الوهاب في الموصل على يد احد علمائها المشهورين . اما النزوع العربي للموصل ، فلم يقتصر على ما قاله أو نظمه بعض الشعراء والادباء .. بل يمتد الى الصبغة العربية التي تميز بها تراث الموصل ابان القرن الثامن عشر . وتعتبر الاساليب والممارسات المضادة للحكم الجليلي والتي اتخذها حكام بغداد من الجراكسة والاتراك والمماليك احدى العوامل الموضحة لبروز نزوع الموصل العربي ، ولم يقتصر الامر في ذلك على الحكام الجليليين ، بل مورست ضغوط القاهرة تجاه ابرز الرؤوس العربية في الموصل ، وكان اشهرها : عصام الدين عثمان أفندي العمرى صاحب كتاب (الروض النضر ..) الذي نصب دفتر دارا لبغداد ، فجر عليه المتاعب والمرارة بين السجن والتشرد . اما قاسم باشا العمرى فقد نصب قائما لولاية بغداد ، وذهب هو الآخر ضحية اغتيال مبيت . وتكفي الاشارة هنا الى الدور العربي الذي قام به والي الموصل يحيى باشا الجليلي في اتصالاته السرية بعرب شمر ليكونوا حلقة وصل بينه وبين ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا الكبير ، اثناء وجود ابراهيم باشا في الشام .

د . سيار الجميل

دائرة علم التاريخ - جامعة وهران

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

مشاكل الدراسات العثمانية في الوطن العربي

د. نزار الحديثي

يتضح جيدا الهدف من وراء التحديد الدقيق للعنوان ، فثمة عاملين رئيسيين يقفان وراء التحديد ، احدهما واهمها ان لغتي الوحيدة التي اتقنها قراءة وكتابة ومتابعة هي العربية . وثانيهما ان اكثر المعنيين عناية بدراسة التاريخ العثماني بعد العثمانيين هم العرب فبين سنة 1515 وسنة 1918 مساحة زمنية واسعة صنعت احداثها عوامل كثيرة احد ابرزها النفوذ العثماني في الوطن العربي ، وكانت احداث ذات قيمة ليس لانها وقعت بشكل معين انما لانها ما زالت مستمرة في نتائجها التي ترتبت عليها . فهل هناك امكانية للقول بان موقف اوروبا من الامة العربية شيء جديد ؟ أم أن التوجه الفارسي نحو الوطن العربي توجه جديد ؟ أم ان وضع العرب في المرحلة التاريخية ، تاريخيا وحضاريا جديد ؟ على اية حال على الاقل بالنسبة للعرب والأتراك على السواء ثمة اهمية خاصة لقضايا كثيرة تترتب على ذلك التاريخ .

وانا اتحدث عن الدراسات العثمانية في الوطن العربي واذا كانت هذه الاشارة عن اهمية هذه الدراسات واضحة يصبح بالامكان المباشرة في عرض المشاكل التي تعاني منها ، والتي كما اراها هي :

الاول : فني في المعنى الاصطلاحي يتعلق بالمصادر واللغة وحجم التخصص في هذه الدراسات .

والثاني : منهجي لغة واصطلاحا

اولا - المشاكل الفنية :

أ - المصادر

حتى الآن لم تستطع الجامعات العربية ، ومراكز البحوث تجاوز الاطار التقليدي لمصادر الدراسات العثمانية وهي الكتب التي اعدها المتخصصون بالدراسات العثمانية عربا او غير عرب . والكتاب مهما كانت قيمته يبقى وجهة نظر ، ويبقى يحمل قدرا من الانتقائية ولم تصبح الوثائق حتى الآن مصادر لدراسة اساسية وعلى نطاق واسع رغم النجاح الذي تحقق في بعض الاقطار العربية ، وهي رغم وفرتها وكثرتها بشكل يندر ان يحظى به تاريخ اية حقبة الا انها ما زالت لم تتجاوز حدود اكديس من الورق ياكلها تقادم الزمن دون ان تصبح في متناول الدارسين ...

علما بأن هذه الوثائق لا تشكل الا الجزء الاقل في الوثائق العثمانية اذا قيست الى الوثائق المحفوظة في مراكز الوثائق في تركيا . ان اعتماد الدراسات العثمانية على المصادر سهلة البلوغ (الكتب) جعل نتائج الدراسات تبقى بحدود وجهات نظر مبنية على وجهات نظر سبقتها وهكذا .

ب - اللغة :

وينسحب الامر نفسه على اللغة فاللغة العثمانية لا تحظى باهتمام جدى فى الجامعات العربية وتشكل ابرز نقاط الضعف لدى اغلب المتخصصين العرب بالتاريخ العثماني ، ومن الجيل الجديد من المختصين خاصة ، كما انها لا تحظى بتعاون مع متخصصين فعليين باللغة العثمانية يمارسون تدريسها .

ج - التخصص فى الدراسات العثمانية :

يظهر ضعف الدراسات العثمانية فى حجم المتخصصين بها فى الجامعات العربية . وفى مؤهلات التخصص لدى العدد المتوفر منهم وفى مجال الاطلاع على الوثائق العثمانية وان حجم التخصص فى الجامعات العربية يعانى من التقلص بسبب صعوبات اللغة وتراجع الدراسات العثمانية من حيث الاهتمام فى الجامعات العربية سواء فى عدد الساعات المخصصة لها أو عدد الموضوعات المتفرعة منها .

يضاف الى هذه المشاكل جانب اكثر خطورة يتعلق بالنظرة الرسمية الى الدراسات العثمانية فى اقطار الوطن العربى اذ رغم الاتفاقيات الكثيرة بين الاقطار العربية وتركيا لم تتقدم حتى الآن قضايا الوثائق واللغة وكتابة التاريخ المشترك وتشجيع البحوث ، خطوة الى الامام .

ثانيا - المشاكل المنهجية :

اذا تجاوزنا المشاكل الفنية وانتقلنا الى المشكل الخاص بالمنهج فالمشكلة تبدو اكثر تعقيدا . اذ لا يجد المتتبع منهجا عاما يؤطر الدراسات العثمانية فى الوطن العربى وفى تقديرنا ان هذه الناحية تحتاج الى شجاعة للطرح الصريح قصد الوصول الى نتيجة . وفى رأى تقود المشكلة اساسا الى طرفين هما الدين والعصر . . . فبسبب الدين ظهر فى الوطن العربى اتجاهان فى دراسة التاريخ العثماني اتجاه يمثل العرب المسيحيون واتجاه يمثل العرب المسلمون والسؤال ايهما الصحيح ؟ يثير جوابا سريعا بالتأكيد ان كلاهما ليس صحيحا طالما انهما منطلقان من موقف اعتقادى يحمل مؤشرات التحيز والعاطفة والمزاج احيانا .

فالمؤرخ العربى المسيحى لازال يحكم الوعى الدينى الذى اسهمت اوربا فى احتوائه ضمن اطار دينى غير قادر على تجاوز الاثر الاوربى . . . والمؤرخون

العرب المسلمون تسودهم اتجاهات اما اتجاه غير قادر بفعل العامل الدينى على ان ينظر الى التاريخ العثمانى نظرة مؤرخ ، او اتجاه آخر اغرق كثيرا فى اعتناق الموقف الاوروبى السياسى (اصطلاحا) من التأريخ العثمانى فلم يعد قادرا على اكتشاف رؤية خاصة لذلك التاريخ سواء كان الموقف الاوروبى منطلق من منهج رأسمالى أو ماركسى فى الدراسات العثمانية تعطيلها الارجحية وسط الاتجاهات السابقة .

لقد انضاف الى هذه الاتجاهات اتجاه آخر فعل المستوى الدينى أصبحت المذهبية رؤية ضيقة محدودة للتأريخ العثمانى ، ويتفرد المؤرخون المسلمون بهذا التميز .

استطيع ان اقول بوضوح اننى مسلم ولكنى لست مؤرخا دينيا انما انا مؤرخ قومى عربى ... ارى للامة العربية تاريخا طويلا حافلا وتاريخية فريدة ودور حضارى عظيم تركز جميعا الى نمط حضائى كما لغيرها من الامم انماطها الخاصة ... من هذا التحديد انطلق فى تصور الدراسات العثمانية منهجا . وللتحديد الدقيق اسجل الاسئلة التالية :

– هل كان العثمانيون فى موقفهم من الامة العربية عثمانيون مسلمون ام عثمانيون ؟

– فى ضوء الاجابة ماذا نسمي الحقبة العثمانية فى الوطن العربى ؟

– هل كان المسيحيون العرب وحدهم المتضررون فى ظل الحكم العثمانى أم انهم اقل المتضررين تضررا ؟

– ثم قياسا الى ضغوط العصر (الضغط الاوروبى والضغط الصفوى) هل للعثمانيين فضل على العرب أم أن للعرب فضلا عليهم ؟

العثمانية ليست قومية انما هوية امبراطورية اوربا كان العثمانيون مسلمين غير انهم مع العرب كانوا مسلمين مع الاسلام (العقيدة) وحكام الامة، والاتراك المحدثون اشتقوا تركيبتهم من هذا الخيط الواهى ، ولضغوطات مزدوجة سياسية ودينية كان لابد من الاحتفاظ بالعرب وطنا وشعبا ولكن هذا الاحتفاظ الذى كان مكسبا عثمانيا كان مكسبا عربيا ايضا دون الاعتقاد بأنه مزية منفردة فالبلقان بقيت ايضا بلقان وهذا ينسحب على الاملاك العثمانية الاخرى على العكس العرب خسروا كثيرا فى الصراع العثمانى – الصفوى .

لم يكن المسيحيون العرب المتضررين الوحيديين من الحكم العثمانى بل يمكن القول انهم كانوا الاقل تضررا خاصة بعد ان ارتبطوا بأوربا وأصبحوا موضع تطور متعدد الاطراف للحماية . واول الامر ارتبطوا بأوربا ولم يرتبطوا بالعروبة ولم يعودوا الى العروبة الا فى وقت متأخر سببه عدم حاجة أوربا

للمسيحيين مهاجرين اليها انما كانت حاجتها لهم في اراضيهم وكانت هذا خطأ تاريخي كبير ، فالانصلاح لصالح أوربا أفقدهم فرصة الاحساس بالانتماء الى الحضارة العربية وبقي يسلم مواقفهم اللاحقة .

ان معلوماتنا عن فهم ونظرة العثمانيين لرعاياهم قليلة لا تنفع في حسم هذا الموضوع فدراسة دقيقة للتشريع العثماني واستيعاب الافكار ومفكرين عثمانيين بهذا الخصوص لم تتوفر لي لحد الآن لقد اسلم العثمانيون في وقت مبكر من تأسيس امارتهم وقد افادوا من الاسلام في المجابهة الحضارية مع جيرانهم من الاوربيين بشكل خاص وباستثناء الحماس الديني للاسلام (كموقف تاريخي) ولرموزه الدينية المقدسة لا يبدو ان العثمانيين تأثروا اثرا ابعد على مستوى تشكيل النظرة الى الحكم والى الرعاية فبين اسلامهم والزمن الاول للاسلام مساحة زمنية بعيدة ولا يساعد اعتناقهم الصوفي للاسلام للاعتقاد بانهم كان عامل ابداع أو تغيير في الحياة اليومية ، فالصوفية شكل من الهروب النقي من الحياة اليومية والتجاء غيبي الى الله . وفي تقديري ان هذه المؤشرات لا تساعد على توقع نظرة خاصة يكنها العثمانيون للعرب من بين شعوب الامبراطورية والراجع ان العثمانيين في تعاملهم مع العرب تعاملوا حكما أكثر من كونهم مسلمين اتقياء ، ليس من شك ان العثمانيين دافعوا عن العرب ففى جبهة العراق يعود الفضل لجهودهم في الدفاع عن العراق ضد الصفويين ولو انهم استرجعوا الكثير من اراضي تركيا الحديثة على حساب العراق ولم يمنعوا سياسة القضم التدريجي الذي مارسه الايرانيون في الحدود الشرقية للعراق، غير ان سياسة التحديث التي اتبعها مدحت باشا ، لعبت دورا في ترسيم المجتمع العراقي والكيان السياسى للعراق فيما بعد ضد اطماع صفوية بريطانية شرسة مما قلل خسائر العراق . وتمسك السلطان عبد الحميد بفلسطين قضية مشرفة في تاريخ هذا الرجل ودولته وقد كان الاحتواء العثماني للاقطار العربية احتواء السيادة ولم يتحول الى مانع بأى شكل فقوافل الحجاج لم تكن تقصد مكة وحدها انما تقوم بعملية ارتياد جغرافى واسع ونفس الامر يقال عن حرية انتقال السكان لغرض التجارة والاقامة وهى أمور أساسية فى احتفاظ العرب بوحدتهم ، صحيح انها كانت وحدة سكونية لكنها وحدة على أية حال . وهذا فضل للعثمانيين على العرب ، ولكن الصحيح ايضا ان العرب قنموا للعثمانيين الاسلام فاعطوهم ايدىولوجية المجابهة مع أوربا وشكلوا الجناح الجنوبى للدفاع عن الامبراطورية العثمانية ضد محاولات الالتفاف الاوربى عبر المتوسط ولستين طويلة منذ 1515، ودفعوا هذا الالتفاف بعيدا حول افريقيا وفى هذا المجال كان لمجاهدي البحر فى اقطار المغرب العربى دورا مجيدا ومشرفا ، غير ان المشكلة الاساسية هى ان التوجه العثماني الى الوطن العربى جاء فى وقت بدأ فيه العثمانيون تراجعهم فى اوربا ، صحيح انه تراجع عسكري لكنه كان حضاريا فى جوهره فلم يكن بالامكان ان يقدموا للعرب دورا فى الاستنهاض الحضارى .

عاش العرب ديانتهم العثمانية دون مشاكل من النوع الذي يمكن ان يسمى بالازمة التاريخية ، مسيحيين ومسلمين على السواء ، وبالتأكيد كان المسلمون أكثر اندماجا في الحياة اليومية خاصة في أمور الدين والامور العسكرية فالعصر كان عصر الدين، وحتى المسيحيين لم يبدأ وضعهم بالتمييز والتفرد الا عندما نجحت أوروبا في ارتيادها الاستكشافي والتبشيري من سحبهم من المناخ العام الذي كانوا يعيشون به وعندما تطوعت أوروبا لحماية المسيحية في الدولة العثمانية (وفي الاقطار العربية خاصة) فان المسيحيين لم يعودوا اكثر المتضررين من الحكم العثماني ، فالحماية الاوربية قدمت لهم وضعا قانونيا خاصا ترتبت عليه امتيازات سياسية واجتماعية (اقتصادية خاصة) فقد أصبح المسيحيون العرب وكلاء النشاط التجاري الاوربي .

من هنا اشتقت المواقف . والسؤال ما الذي جعل المسيحي العربي يعتقد ان أوروبا محررة ؟ وماذا تمثل أوروبا للعرب ؟ انها سالبة فلسطين وصناعة التجزئة ومصدر مشاكل الامة العربية ؟ وبالمقابل ما الذي يجعل المسلم ينظر الى الدولة العثمانية على انها شيء ايجابي فالذي قدمته كان بئس وما قدمت لا يبرر التصرف المطلق الذي مارسه في البشر والارض . الخطأ التاريخي التي وقع فيه العرب هي تحالفهم في الثورة مع أوروبا وفي تقديرى لولا ذلك التحالف لما تركت الثورة اثرا سيئا في نفوس الاتراك . ولكن بالمقابل ماذا كان بإمكان العرب ان يفعلوا فالصوت العثماني بدأ يختفى لصالح الصوت التركي وهو صوت كان قوميا ابتداء يمارس التصفية الجسدية للوطنيين العرب وابتداء الفرز على أساس عنصري وقد رأى العرب الدولة العثمانية تمزق الجزيرة العربية لتبقى على الوهابية ورأوها تصم اذانها عن حقوقهم التي يفرز الوعي بها عالم متحرك ، ورأوها تشنق أحرارهم وتستأصل كل موقف وكل فكرة شريفة ، وتتحدى عنهم في أقطار المغرب .

اما العصر فيبرز اثره في توجيه منهجية الدراسات العثمانية انطلاقا من الموقف السياسي فظهور حركة القوميات ساهم في توجيه دراسات العديد من المؤرخين العرب وجهة حادة في تعاملهم مع الدراسات العثمانية وتركيا الحديثة ولدت ولادة قيصرية فشعرت انها غير مدينة الى العثمانية فنزعته عنها لتلحق بأوروبا وفهمت القومية فهما عنصريا ، وحتى سقوط الدولة العثمانية وتمخضها عن دولة تركيا الحديثة لم يستطع الطرفان الوصول الى تقييم للحقوق القومية للاتراك والعرب في الاحتفاظ بآرث مشترك دام خمسة قرون فالقادة الاتراك تصوروا ان التقدم يتناقض مع الاصلالة التاريخية فأبتدأوا بنزع الثياب من أجل اللحاق بأوروبا لكنهم لم يحققوا التقدم وفي تقديرى قد لا يجدوا الثياب التي نزعوها ليلبسوها ثانية وبالمقابل في لحظة حماس راح العرب يحاسبون الاتراك على تخلصهم من آرث اكسبتهم اياه العثمانية التي كان العرب ينتقدونها .

لقد أدى الخيار التركي الحديث (والأتراك أحرار في خياراتهم) إلى أن تصبح حركة تركيا الحديثة جزءاً من حركة أوروبا التي يتحدد موقعها بالنسبة للعرب بأنها مصدر تجزئة الوطن والامة العربية وعامل اساسي في ضياع فلسطين وكابح مستمر يمنع العرب ووحدتهم وتقدمهم وكان هذا يكفي لأن تنسحب نظرة العرب لأوروبا على تركيا أيضاً (حليفة أوروبا) وإن ينظر لها بحكم الوجود فيها ووجودها في المشاريع الأوروبية نظرة شك وريبة . ولكن هل تبدو نظرة أوروبا إلى تركية الحديثة نظرة قبول بها ، التطورات السياسية بين تركيا واليونان على الأقل لا تكشف عن هذا التوجه وهذا قد يكون أحد العوامل الكافية لأن يعتقد العرب والأتراك أن اثرت خمسة قرون يستوجب الحوار ومزيد من الجهد المشترك لتكوين نظرة جديدة إلى المستقبل تفرضها الحدود المشتركة وحسن الجوار وما يحوى من منافع متبادلة هنا تصبح مسألة إعادة النظر بالدراسات العثمانية مسؤولية مزدوجة على الباحثين العرب والأتراك .

د. نزار الحديشي

عميد معهد الدراسات

القومية والاشتراكية - الجامعة

(المستنصرية - بغداد)

الحياة الاجتماعية في بيروت في القرن التاسع عشر في ضوء سجلات المحكمة الشرعية في بيروت

د. حسان حلاق

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
في كلية الآداب العلوم الانسانية
الفرع الاول : قسم التاريخ

الموقع والمناخ العامة في بيروت العثمانية :

تقع بيروت على الشاطئ الشرقي من البحر المتوسط ، يحدها غربا البحر ، وجنوبا منطقة خلدة امتدادا الى صيدا وجوارها ، وشرقا جبال لبنان ، وشمالا البحر وبعض المناطق - الضواحي الشمالية . وتقع بيروت في اقليم معتدل يتميز بجودة الطقس واعتدال في المناخ وجمال في المنظر .

وكانت بيروت العثمانية يسيجها سور بناه وحسنه ونظمه أحمد باشا الجزار في اواخر القرن الثامن عشر ، يوم طمح الى الاستقلال والخروج على مولاه الامير يوسف الشهابي (1) . وكان يتخلل سور بيروت - أو كما يسميه العامة «الصور» - ثمانية أبواب وبعض الابراج . أما الابواب فهي : باب أبو النصر ، باب الدباغة ، باب الدركه ، باب السرايا (السراي) ، باب السمطية ، باب السلسلة ، باب المصلى ، باب يعقوب . أما الابراج فهي : برج الامير جمال الذي سبق أن بنى عام 1617 م ، وبرج الفنار ، السلسلة ، وبرج البعلبكية ، وبرج الكشاف . أما البرج الشهير المعروف باسم البرج أو برج المدفع فقد كان موقعه خارج السور . كان طول سور بيروت حوالي (570) مترا ، ولا يزيد عرضه على كيلومترين . أما ارتفاع الجدران فتقارب خمسة أمتار ، بينما سماكتها فهي حوالي أربعة أمتار (2) .

(1) انظر : د. أسد رستم : آراء وأبحاث ، ص 55 ، منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت 1967 . انظر أيضا : كريسكي : رسائل من لبنان 1896-1898 : بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين ، ص 59 ، دار المدي ، بيروت 1985 . تقديم وتحقيق وضبط : د. مسعود ضاهر .

(2) شفيق طيارة : بيروت ، سورها وأبوابها ، أوراق لبنانية ، م 1 ، ج 6 ، ص 278-292 ، شفيق طيارة : معالم بيروت القديمة ، أوراق لبنانية ، م 3 ، ج 1 ، ص 16-21 ، طه الولي : أبواب بيروت ، المقاصد ، العدد 21 ، ص 44-50 ، 120 ، دارود كنعان : بيروت في التاريخ ، ص 86 ، مطبعة عون ، بيروت 1963 ، حسان حلاق : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني - سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 66-67 ، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء ، بيروت 1985 .

ومن ملامح بيروت العمرانية الأخرى بعض الأسواق المتخصصة ومنها :
 سوق أبو النصر ، سوق الأساكفة ، سوق الأمير يونس ، سوق البزركان ،
 سوق البوابجية ، سوق بوابة يعقوب ، سوق البياطرة ، سوق الحدادين ،
 سوق الخضرية ، سوق الخماير ، سوق زاوية ومسجد التوبة ، سوق
 الزبيبة ، سوق الساحة ، سوق سرسق ، سوق الشبقجية ، سوق الشعارين ،
 سوق الصاغة ، سوق الطويلة ، سوق العطارين ، سوق القزاز ، سوق القطن ،
 سوق القهوة ، سوق اللحامين ، سوق المنجدين ، سوق النجارين . وهناك
 الآلاف من الأوقاف وبعض البساتين والجنان والمزارع والأفران ، كما وجد في
 بيروت بعض الشكن العسكرية ، بالإضافة إلى الجبانات والمقابر الواقعة حكما
 خارج سور مدينة بيروت . وضمت المدينة الجوامع والزوايا الدينية والأديرة
 والكنائس ، والحارات والشوارع والمناطق والحمامات والخانات والزواير
 والساحات والقناطر والقيساريات (الأسواق المغطاة) والمدارس والمعاصر
 والمقاهي والموانئ ، وكان أهمها ميناء بيروت الذي ضم إلى جانبه موانئ
 متخصصة مثال : ميناء الأرز ، ميناء الخشب ، ميناء القمح ، ميناء البصل ، ميناء
 البطيخ ... (3)

والحقيقة فإن التطور الاقتصادي الذي أصاب المدينة لفت الانظار إليها
 وخولها إلى أن تكون المقر الرسمي لولاية جديدة عرفت باسم «ولاية بيروت» (4)
 وقد أعلنت ولاية بيروت في العام 1887 - 1888 ، وكانت تمتد جنوبا إلى نابلس
 في فلسطين ، بينما امتدت شمالا إلى اللاذقية . وقد ألحق بولاية بيروت إلى
 جانب صيدا وصور ومرجعيون ، متصرفيات (الوية) طرابلس الشام واللاذقية
 وعكا ونابلس ، حتى نهر الشريعة وحدود لواء القدس الشريف .

وبذلك يمكن القول بأن ولاية بيروت في العهد العثماني كان يحدها شمالا
 ولاية حلب وشرقا ولايتا حلب وسورية ، وجنوبا لواء القدس الشريف ،
 وغربا البحر المتوسط . كان عدد سكان لواء بيروت (أقضية بيروت) ، صيدا ،
 صور ، مرجعيون) قبيل الحرب العالمية الأولى (276,639) ألف نسمة حسبما
 ورد في سجلات النفوس الرسمية موزعين على النحو التالي :

(3) للمزيد من التفاصيل الوافية عن هذه الأسواق والملاح العامة انظر كتابنا : أوقاف
 المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، صفحات متفرقة ، انظر أيضا مقالنا : الملاح العمرانية
 والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية في بيروت العثمانية - في ضوء سجلات المحكمة الشرعية
 في بيروت - نشر في مجلة : تاريخ العرب والعالم ، العددان 81-82 ، تموز (يوليو) آب
 (أغسطس) 1985 (بيروت) ، ص 24-39 .

(4) عن الأوضاع الاقتصادية لمدينة وولاية بيروت انظر : د. حسين سلمان سليمان : بيروت
 ودمشق تحتل مكانة صيدا وحلب الاقتصادية - من خلال الوثائق الفرنسية - تاريخ العرب
 والعالم ، العدد 35 ، أيلول (سبتمبر) 1981 ، ص 48-55 . انظر أيضا : د. وجيه كوثراني :
 الحياة الاقتصادية في ولاية بيروت عشية الحرب العالمية الأولى من خلال كتاب ولاية بيروت
 مجلة الباحث (بيروت) العددان 33-34 ، أيار (مايو) آب (أغسطس) 1984 ، ص 69-84 .

قضاء بيروت (150,000) ، قضاء صور (41,240) ، قضاء صيدا (54,284) ،
قضاء مرجعيون (31,115) (5) .

وكانت الدولة العثمانية تعين والي ولاية بيروت من الجنسية التركية ، ويكون مقره مدينة بيروت ، وكان يعاونه في ادارة الولاية والاقضية : المفتي ، مجلس ادارة الولاية ، مأمورو الولاية ، المحكمة الشرعية وقضاتها وكتبته ، هيئة التخمين ، محكمة استئناف الحقوق ، محكمة استئناف الجزاء ، محكمة بداية الحقوق ، محكمة بداية الجزاء ، المدعى العام ومعاونه ، مأمور دائرة الاجراء ، دائرة الاستئناف ، محرر المقاولات ، محكمة التجارة ، مأمورو ادارة المعارف ، دائرة الاوقاف ولجنة الاوقاف ، لجنة الطرق والمعاير ، ادارة البنك الزراعي ، دائرة الشرطة . وكانت هذه الدوائر أو بعضها يضم بعض الموظفين مثال : الدفتر دار ، المكتوبجي ، المحاسبجي ، التذكرجي ، اليوزباشي ، القومندان ، رئيس المحكمة ، مدير البوليس ، رئيس البلدية ، نقيب الاشراف ، مدير البرق والبريد ، مدير المعارف ، مفتش الصحة ، مدير الامور الاجنبية ، رئيس مهندسي النافعة ، ناظر النفوس ، مدير تحرير الويركو (الضرائب) ، محاسب اولاقاف ، مفتش الاحراج ، مأمور السجل السلطاني ، مأمور المعية ، مفتش الزراعة ٠٠ (6) ومن بين ولاية بيروت الذين تبوأوا منصب الوالي : مدحت باشا ، أدهم باشا ، بكر سامي بك ، حازم بك ، حمدي باشا ، خليل باشا ، رشيد باشا ، ناظر باشا ، عزمي بك ، علي منيف بك ، اسماعيل حقي . أما رؤساء بلدية بيروت فقد كانوا من أبناء بيروت ومنهم : محي الدين حمادة ، الشيخ عبد القادر قباني ، عبد القادر الدنا ، محمد أياس ، سليم علي سلام ، عمر الداعوق . أما العائلات البيروتية في العهد العثماني فهي بأكثريتها من الطائفة الاسلامية وهناك عائلات مسيحية جُلها من الروم الارثوذكس . أما أهم العائلات البيروتية الاسلامية الاسلامية المثال لا الحصر : الازهرى ، الاسطه ، الاسير ، الاحدب ، الانسى ، ادريس ، أياس ، بالوظة قليلات ، بدران ، البراج ، البرير ، بكداش (ومكداشي وبكداشي) بكار ، بنداقي ، بلوز مشاقو (مشاقه) ، بليقي ، بواب ، بولاد الحوت ، بيبضون ، بيهم ، جبر ، الجبيلي الحسامي ، جلول ، الجمال ، الجندي ، جارودي ، حاسبيني ، حبوب ، حبال ، حمد ، الحص حطب ، حلاق ، الحلواني ، حماده ، حمزة ، حنتس ، الحوت ، دريان ، درويش ، دعبول ، دمشقية ، الدنا ، دندن ، دوغان ، دياب ، ديه ، الراعي ، حوري ، خالد ، خرما ، خضر ، خطاب ، الخياط ، الداعوق ،

(5) انظر : رفيق التميمي ومحمد بهجت : ولاية بيروت ، ج 1 ، ص 7 ، ج 2 ، ص 8 ، مطبعة الإقبال ، بيروت 1335هـ/1333م (مالية) 1917 ميلادية . أعيد تصوير هذا الكتاب وصدر عن دار لحد خاطر 1979 . انظر أيضا مقالنا : بيروت المحروسة في العهد العثماني ، مجلة الموقف (بيروت) العدد الأول ، حزيران (يونيه) 1983 ، ص 8-13 .

(6) انظر مقالنا : بيروت المحروسة في العهد العثماني ، في المرجع السابق ، ص 8 . انظر أيضا : أوراق لبنانية ، م 1 ، مقال : موظفو حكومة بيروت سنة 1982 ، ص 397-399 .

دبوس ، الرفاعي ، الرفاعي ، رمضان ، زغلول ، زنتوت ، سبيلني ، سراج ،
 سرجي ، سحراني ، سعاد ، السعقان (السجعان) سلطاني ، سلام سنتينا ،
 سنو ، سويره ، شبارو ، شاتيل ، شاك ، شانوحه ، شبقلو ، شعار ،
 شدياق ، شهاب ، الشيخ ، صعب ، صفصوف ، الصلح ، الصيداني ، طباره ،
 الطباش ، الطويل ، الطرابلسي ، طريه ، الطيارة ، العاليه ، عبلا ، العجم ،
 العجوز ، العريس ، العريسي ، عز الدين ، عساف ، العشي ، غفره ، العلماوي ،
 علم الدين ، علوان ، علايا ، عمران ، العويني ، العيتاني ، الغالي ، الغر (الاغر)
 غزاوي ، غزيري ، الغلاييني ، غندور ، الغول ، الفاخوري ، فانوس ، فايد ،
 فتح الله ، فتح الله الشيخ ، فتح الله المفتي ، فتوح الفحل ، فروخ ، الفيل ،
 القاروط ، القاضي ، القاطرجي ، قباني ، قدوره ، القرا بدران ، قراقيره ،
 قرانوح ، القرقوطي ، قرنفل ، قريظم ، قزاز ، القصاب ، القصار ، القضماني ،
 القطان ، قواص ، القوتلي ، قمورية ، الكبي اللحام ، كريدية ، الكستى ،
 كشلي ، الكعكي ، كنيكو ، الكوسا ، الكوش ، اللبان الداعوق ، لباييدي ،
 اللادقي ، المبسوط ، المبيض ، المجذوب ، المحب ، محرم ، المحمصاني ، محيو ،
 المدور ، ميرزا (مرزي) مرعي ، مشاقه ، مغربل ، مغربي ، مكاوي ، مخزومي ،
 مكداشي ، مكوك ، مكى ، منجد ، منقاره ، منيمنه ، مورلي ، ميقاتي ، الناطور ،
 نجا ، النحاس ، النحيل ، النصولي ، نعماني ، النقاش ، النقيب ، النويري ،
 الهبري ، الهواري ، وهبه ، الوزان ، ياسين ، اليافي ، يموت ٠٠٠ (7)
 ومن العائلات الدرزية البيروتية على سبيل المثال عائلات : جابر ، حلي ،
 حمندى ، حمد ، حميه ، معقصه ، ديك ، ربح ، رباح ، رضوان ، وتوات ،
 روضة ، الزهيري ، علاء الدين ، زيتون ، السواح ، سليت ، شنتوف ، سري ،
 الدين ، ضارب ، عاقل ، عبد الخالق ، العريضي ، عساف ، عود ، غاوي ،
 الفر ، غضبان ، غزارة ، قمند ، مروش ، منذر ، مياسى ، نعمان ، هشي ،
 يونس ٠٠٠ (8)

ومن العائلات المسيحية البيروتية على سبيل المثال عائلات : الارقش ، اليان ،
 بسول ، برباري ، بسترس ، ثابت ، تيان ، تويني ، داغر ، دهان ، رزق الله ،
 زهار ، سابا ، سرسق ، السلموني ، السيقلي ، الصباغ ، طاسو ، طراد ،
 طريه ، العم ، قسطه ، مطر ، الهاني ، يارد ، يمين ، فرعون ، مجدلاي ٠٠٠ (9)

1 - الوقع الاجتماعي في بيروت العثمانية :

كانت العائلات البيروتية تكون المجتمع البيروتى الذى شهد موجات من
 الوافدين الاتراك والاوروبيين وموجات أخرى وافدة من الولايات الاسلاميه

(7) انظر كتابنا : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، حيث تظن وثائق ومستندات
 سجلات المحكمة الشرعية في بيروت أسماء هذه العائلات وأماكن تواجد لها .

(8) انظر كتاب : د. سليم حسن هشي : دروز بيروت تاريخهم وآسيهم ، دار لحد خاطر ،
 بيروت 1985 .

(9) انظر مقالنا : بيروت المحروسة في العهد العثماني ، المرجع السابق ، ص 9 .

والعربية . وعبر الحقب التاريخية تمت حركة التشابه في العادات والتقاليد والممارسات مع ما تتميز به العائلات البيروتية من بعض التباين بسبب المعتقدات الدينية . وبشكل عام فقد كان المجتمع البيروتى مجتمعا متشابها في كثير من مظاهره ، وقد كانت المسلمات والمسيحيات محتجبات الى حد كبير ، كما أن المسلمين والمسيحيين من الرجال كانوا يلبسون ثيابا موحدة كالسروال العثماني (الشروال) والقمباز والصدريّة الكشمير واللاستيك (الجزمة) لا سيما الاغنياء منهم ، ويعتَمرون الطربوش . مع العلم أن الفئات المثقفة من مختلف الطوائف قد بدأت تتفرنج بلباسها وعاداتها وتقاليدها منذ أواخر القرن التاسع عشر . ومما يجمع العائلات البيروتية محكمة بيروت الشرعية التي كانت تبحث أمور مختلف الطوائف الإسلامية والمسيحية واليهودية أيضا . فمعاملات الارث والاقاف والديون والدعاوى والشكاوى وتعيين علماء الدين ، كانت كلها تسجل في سجلات المحكمة الشرعية للسولة العلية في مدينة بيروت المحروسة (IO) .

هذا وتصور لنا بعض الابحاث ومذكرات الرحالة أوضاع بيروت الاجتماعية في القرن التاسع عشر . ومما يذكره د. أسد رستم عن واقع بيروت في عهد ابراهيم باشا ابن والى مصر محمد علي باشا ما يفيدنا في بعض الجوانب الاجتماعية كقوله : «لو أتيج لك ان تدخل مساكن هؤلاء الاغنياء لوجدتها خالية من قسم كبير من الاثاث الذي نعلمه اليوم ضروريا لراحتنا ، فلا ترى فيها الاسرة الاوروبية التي نراها اليوم ولا الخزانات لحفظ الثياب . فان بيروت سنة 1831 كان لا يزال مصرا على استعمال المصابيح الفخارية والمعدنية .» ولما عين الامير محمود نامى حاكما على بيروت (1833 - 1840) أنشأ نظام الشرطة الذي يفيدنا فيما يفيدنا به عن المميزات الاجتماعية في هذا النظام ، وكان من بين القرارات المتخذة في بيروت القبض على كل شخص لا يحمل ليلا بيده مصباحا . وكانت عادة الشرطة أن يوجهوا الى كل من نظروه من أبناء السبيل في الليل سواء أكان مسلما أم نصرانيا السؤال الآتى : من هذا ؟ فيجيبهم : «ابن البلد» . فيصيح الشرطى حينئذ ويقول له : «وحد الله» فيقول ابن السبيل «لا اله الا الله» (II) . ومنذ العام 1833 بدأت ملامح «التفرنج» على بيروت ، وازدادت عمليات الاحتكاك بالاوروبيين ، فتأثرت العمارة بالهندسة المعمارية الاوروبية ، وشاع في بيروت استخدام الاثاث الافرنجي ، فابتاع البيروتيون الاسرة والخزانات والكراسى والطاولات ، واقتنوا الصحف والشوك والسكاكين والملاعق الافرنجية . وقد تأثر الشعب بزي أفراد الجيش المصرى ، فالتعديلات التي طرأت على لباس الجيش سرت وتناولت لباس

(10) المقال نفسه ، ص 9 .

(11) د. أسد رستم : آراء وأبحاث ، ص 56 ، 71 .

الحبة والقنباز ، وأدخلت الطرابيش المغربية والصداري وكبايت التفتيك . وبعد أن كان البيروتي يميل الى اقتناء الثياب ذات اللون الاحمر والبنفسجي ، أخذ يهجرها شيئا فشيئا ، ويتخذ الاسود والكحل منها . وشاع ايضا في هذه الفترة من تاريخ بيروت استخدام الكلسات (الجوارب) (12) .

ويفيدنا الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي القادم من مصر الى بيروت اثر حركة أحمد عرابي عام 1882 ، عن الكثير من الملامح الاجتماعية في بيروت العثمانية والتي شاهدها بنفسه . ومما يذكره عن أبناء بيروت ونشاطهم «... ولاشتغال أهل هذه المدينة بأشغالهم التجارية من الصباح الى المساء ما بين كونه في دكان أو حاصل يبيع ويشترى ، أو في المينا يستخرج بضاعته المجلوبة اليه من اوروبا أو بلاد أخرى ، أو ينزلها الى جهات ثانية لشركائه وعملائه ، أو في أحد الدواوين والمجالس مستخدما بمأمورية أو كتابة ، فليس لهم وقت فراغ ، فلا تراهم يكثرون من السهرات الليلية في الحظوظ والشهوات النفسية ، ولا يشتغلون بكثرة مجالسة الاصدقاء والاقرباء ولا مؤانسة المسافرين والغرباء الا على قدر الضرورة ، كعزيمة أو وليمة لعزیز أو قادم كريم ... وبالجمل في بيروت مدينة اسلامية ديناً وغيرة وحمة ، اوروباوية نظاماً وبناء وحرية ، فانهم مع كثرة مخالطتهم لغير أهل دينهم من وطنيين وأجانب في غاية الصلابة والتحفظ على شعائر الدين . ولم يقلدوهم في طول مدة العشرة الا في مرعاة القوانين والنظامات . في المرافعات والمدافعات ، والمباني والمشيدة البهجة ، والطرق والاسواق المنفرجة ، وفيها غاية السهولة في تناول البضاعات التجارية والتحاير والرسائل بواسطة البوستات والوابورات الاجنبية . فالسفار فيها والاخبار يومية لا كغيرها من البلاد السورية ، فهذه مزية لها وأى مزية» (13) .

ومما يذكر عن عادات أهل بيروت في بعض المناسبات ، أنه من تقاليدهم في أعيادهم الاسلامية أن يصلوا في المساجد ثم يزور بعضهم مقابر موتاه ، ويعود البعض الآخر الى المنزل ، ثم تبدأ الزيارات للمعايدة بقول العبارة التالية « كل عام وأنتم بخير » و« كل عام وأنتم سالمون » وإذا كانت المناسبة هي لعيد الاضحى ، فيقول الزائر بالإضافة الى العبارات السابقة عبارة « ان شاء الله السنة المقبلة نراك على عرفه » . والمقصود بها القيام بالحج وشعائره .

ومن عادة البيروتيين (المسلمين) في أعيادهم تقديم الحلوى للمعائدين . وكانت أفران بيروت تعج في فترة الاعياد بالوانى (الصوانى) التي كانت تخبز عادة في تلك الافران . وكانت أجرة الفرن قطعاً يتناولها بعد انتهاء الخبز .

(12) د. أسد رستم ، المرجع نفسه ، ص 62 .

(13) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي : ففحة البشام في رحلة الشام ، ص 33-34 . نسخة مصورة عن دار الرائد العربي ، بيروت 1981 .

وكان المسلمون في بيروت يصلون جميعا في المسجد العمري الكبير (مسجد سيدنا يحيى) وهو مسجد البلد الكبير . وكان مفتى بيروت في مقدمة المصلين حيث يؤم فيهم الصلاة .

وأما عاداتهم في الأفراح ، فهي توزيع الدعوة لحضور الخطوبة أو عقد القران (الكتاب) . وكان المتبع أن يتوجه صاحب الدعوة بنفسه لدعوة الأقارب والأصحاب ، ودعوته بنفسه كانت لها معنى ومغزى معين ، تعبر عن مدى احترامه وتقديره للمدعوين ومدى التزامه بالاصول . وبعد اجتماع المدعوين يجتمع الرجال على حدة والنساء على حدة . ويبدأ الحفل عادة بقراءة من آي القرآن الكريم وقراءة المولد النبوي الشريف تبركا وتقريبا . ويحضر كل من دعى في مكان متنوع في الدار أو ما يسمى الايوان (ليون) ، ويفرشون هذا المكان بالمفروشات الجميلة . وينصبون للشيخ الذي يقرأ المولد كرسي القراءة مسجى بالحريز والديباج أو الكشمير . وحين يبدأ القراءة يرفع المدعوون النراجيل (الترجيلة - الاركيلة) ويتركون شرب الدخان احتراما . وبعد قراءة المولد والقرآن الكريم تنشدا الاشعار والموشحات النبوية على الطريقة القديمة التي كانت متبعة في مصر منذ زمن قديم . وبعد انتهاء المولد وعقد القران يوزع على المدعوين قراطيس الملبس (لوز ملبس بطبقة من السكر) والمشروب (الشربات) . والعادة المتبعة في عقد القران (كتب الكتاب) ان يحضر ولي الزوج وولي الزوجة أو وكيلهما بين يدي القاضي أو المفتي ، ويسمون المهر ثم بعد الانتهاء من هذه المراسيم تقرأ الفاتحة على نية التوفيق والصلاح . (14) وفي حفل الزفاف تجرى بعض الامور المتشابهة في العقد ، مع زيادة في مراسيم أخرى ، مثل توزيع الشموع على الاولاد ، والدق على الطبل والمزمار والعود . ويخرج العريس من منزله مصحوبا بالاصل والجيران ، ووجهتهم منزل والد الفتاة وذلك لاصطحابها الى المنزل الزوجي . وأثناء عبوره الطريق تطل من الشبابيك النسوة والبنات يزغردن وينشدن زغاريد ملائمة لمناسبة ، كما يدعو له العلماء والمشايخ بالسعادة والتوفيق .

وأما عادات أهل بيروت في المآتم فهي قليلة الكلفة ، حيث يحضر الميت وينقل مع المشيعين الى احد مساجد المدينة ، حيث يصلي عليه صلاة الجنازة ظهرا أو عصرا ، ثم يدفن في احدى الجبانات (المقابر) المقامة عادة خارج سور بيروت . وهناك تتلى عليه آيات من القرآن الكريم . وبعد الانتهاء من الدفن يتوجه المشيعون أو من يود منهم لتقديم العزاء ثانية . وتمد طاولة طعام على نية المتوفى . والامر اللافت للنظر أن الأقارب والجيران هم الذين يطبخون في هذه المناسبة الحزينة ، ويقدمون المأكولات وينقلونها الى منزل المتوفى كي تقام للمعزين . وفي تلك الفترات كانت النساء تلبسن الابيض وليس الاسود كما

(14) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر نفسه ، ص 47-48 ، انظر أيضا : كريسكي : رسائل من لبنان 1896-1898 ، ص 159-163 .

هو شائع في بعض الاقطار الاسلامية والمشرقية . كما أن أهل الميت لا يكلفون بشيء في الايام الثلاثة أو السبعة . وفجر اليوم الثاني من الوفاة يتجه أهل المتوفى الى الجبانة لزيارته أو كما يقال اصطلاحاً «لذك وحدته» . ثم تقام ذكرى الاربعين بقراءة القرآن الكريم وذكر مآثر المتوفى ، اعتماداً على القول الشريف «اذكروا محاسن موتاكم» . ومما قيل عن أهل بيروت «لا يظهر على الرجل منهم كآبة الحزن والترح ، ولا تلاً وجهه بالسرور والفرح . فهم رجال لا تلهيهم عن معاشهم أفراح ولا أتراح فليت أهل مصر يتشبهون بهم والتشبه بالرجال فلاح» (15) .

وعن نساء بيروت في القرن التاسع عشر ، فقسم منهن يلبسن الازار الابيض أو الملاية (الملاية) الحرير ، وعلى وجوههن المناديل الرقيقة الاسلامبولي، وفي أرجلهن اللستيكات (العزم) الافرنجي ، ولا يظهرن من أبدانهن شيئاً ، وهن النساء المسلمات خاصة . أما نساء النصارى فيلبسن الفساتين الواسعة وعلى رؤوسهن الطرح الرقيقة ، وهن مكشوفات الوجوه وربما الزنود ، ويمشين في الاسواق والشوارع والحارات ويتحدثن مع الرجال الاجانب في الطرقات والبيوت ، ويقلدن الاوروبيات حق التقليد . وبعضهن كنساء اوروبا في ارخاء الذبول ولبس الاعراف والبرانيط على رؤوسهن ، ولا يختلفن عنهن الا باللسان واللغة . ومن العادات الاجتماعية الحميدة في مدينة بيروت عدم الجهر بالمعاصي كشرب الخمر والزنى لا سيما بالنسبة للطائفة الاسلامية التي حرم عليها الخمر والزنى ، بينما الطائفة المسيحية حرم عليها الزنى وأحل لها الخمر . كما لا يتعاطى أهل بيروت المنكرات كتناول الحشيش وبقية أنواع المخدرات ، ولا يوجد في مدينتهم مراكز للمومسات (16) .

ويؤكد عبد الرحمن بك سامي الذي زار بيروت في العام 1890 من أن العادات الاجتماعية في بيروت مختلطة من العوائد الافرنجية والشرقية ، وأنه ليس عندهم محلات لساقيات البيرة (الجبعة) وتقل عندهم المواخير والملاهي وأماكن المومسات التي تطرح الانسان الى مهاوى الفقر ، وتصرفه عن لذة الاجتماع بأهله وخلانه . كما أكد بأن نساء بيروت محتشمات عاملات في الميادين الاجتماعية والخيرية وفتح الجمعيات والمدارس ومساعدة المعوزات . وأشار الى بعض الوقائع الاجتماعية فوصف أيام العطل وكيفية قضاء أهل بيروت هذه الايام ، فقد اعتاد بعض شبان بيروت وصياديهما ، المولعين بركوب الخيل ولعب الجريد ، ان يذهبوا في أوقات العطلة لا سيما يوم الجمعة والاعياد الى ميدان حرج بيروت الشهير ويتسابقوا على ظهور الجياد ، ويظهروا من

(15) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر نفسه ، ص 50 ، انظر أيضاً : كريمسكي ، المصدر السابق ، ص 174-177 .

(16) الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي ، المصدر نفسه ، ص 51 ، 53 ، 151 .

ضروب الفروسية ما يرتاح اليه الخاطر ويأنس بمرآه الناظر (I7) . كما أكد ما سبق الإشارة اليه حول همة «البيارتة» (أهل بيروت) وحسن ضيافتهم مشيراً الى أن «أهل بيروت ذوو همة في الاشغال يقومون صباحاً قبل الشمس ويشغلون طول النهار بلا ملل ، كل في عمله ، ولا تكاد ترى بينهم باهلاً يتردد بلا عمل الا فيما ندر» . وأشار الى الطبقات الاجتماعية في بقوله :

«تحتوى هذه المدينة على كل طبقات الناس ، ففيها الاغنياء وأصحاب البنوك كالسادات : بيهم وأياس والخواجات بسترس وسرسق وتويني وغيرهم . وفيها المتوسطون كتجار المانيقاتورة . . . وفيها أصحاب الحرف والصنائع وغيرهم . وكل هذه الطبقات تأتلف بعضها مع بعض ، ولا سيما في أيام المواسم والاعياد حتى تكاد لا تميز بين غنيهم وفقيرهم . . . وكلهم على أتم الوفاق كأنهم قد أدركوا أن لكل انسان وظيفة في العالم ، وهذه الوظائف مجموعة معا تؤلف الهيئة الاجتماعية . . . اكرام البيروتيين ولطفهم ما يجعلني أردد عبارات الثناء تكراراً عليهم . . .» (I8)

وأشار الامير محمد علي باشا حفيد محمد علي الكبير الذي زار بيروت في العهد العثماني ، وسجل انطباعاته عما رآه من احوال اجتماعية ومما قاله : «كان سروري يتجدد كلما كنت أرى أولئك الناس متشبهين بالعوائد الشرقية ومتمسكين بالملابس القديمة والازياء الفطرية . . .» أما عن التعليم في مدارس بيروت فقد أوضح محمد علي باشا «بأن التعليم في مدينة بيروت مما يسر أنصار العلم وعشاق المعارف ومحبى التقدم والرقى . ولهذا كنت أرى معظم الاهالي يجيئون القراءة والكتابة ، وقلما وجدت مدينة أهلها كذلك في كل بلاد الشام» (I9) . أما عن اللغة السائدة في بيروت فهي اللغة العربية ، وهناك لغات أخرى مستخدمة كاللغات التركية والفرنسية والايطالية والانجليزية .

وتظهر ملامح الحياة الاجتماعية في بيروت العثمانية وأنماطها وتحركاتها عبر الاسواق التجارية والعلاقات الاقتصادية وأماكن ممارسة الحرف والصناعات والتجارة ، وعبر المؤسسات الدينية كالجوامع والتكايا والزوايا والمؤسسات العسكرية كاللكن ، كما تظهر الحياة الاجتماعية عبر المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة . وبما أن الحياة الاجتماعية تسود مختلف القطاعات البيروتية ، وهي أكثر من أن تشملها هذه الدراسة ، فاننا سنبرز ملامح اجتماعية أخرى - بالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه - .

(17) عبد الرحمن بك سامي : القول الحق في بيروت ودمشق ، ص 13 ، 14 ، 18 .
نسخة مصورة عن دار الرائد العربي ، بيروت 1981 .

(18) عبد الرحمن بك سامي : المصدر نفسه ، ص 33 ، 34 .

(19) محمد علي باشا : الرحلة الشامية ، ص 17-52 . نسخة مصورة عن دار الرائد العربي ، بيروت 1981 .

2 - أسواق بيروت والمهن والحرف في المجتمع البيروتى :

ان دراسة الاسواق بما تحويه من مهن وحرف وتجارة فى بيروت العثمانية تعطينا فكرة أساسية عن أحد الميادين التى شكلت عنصرا هاما فى حياة المجتمع البيروتى ، وهو مجتمع الفنة العاملة ، أو مجتمع الحرفيين الذين قاموا بدور أساسى فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بيروت ، ومن بين هذه الاسواق :

سوق الاساكفة : وهو من الاسواق المتخصصة الذى يتجمع فيه الاساكفة العاملون فى مهنة الجلود والاحذية بمختلف أنواعها وأشكالها . وكان هذا السوق يقع فى باطن بيروت قرب الجامع العمرى الكبير ، بالقرب من دكان وقف «قفة الخبز» . وكان يوجد فيه القهوة التى يتجمع فيها الاسكافيين المعروفة باسم قهوة سوق الاساكفة . وكان هذا السوق قريبا من سوق النجارين (20) .

سوق البازركان : كان يتجمع فى هذا السوق بصورة أساسية أصحاب المهن المتعلقة بالاقمشة والخياطة . وتمركزت فيه دكاكين الخياطين ، الذين كانوا يصنعون الالبسة العثمانية - البيروتية المعروفة فى تلك الفترة . ولما تفرجت بيروت صار يعرف هؤلاء باسم «الخياطين العربى» . وكان يوجد فى هذا السوق تجار الاقمشة الحريرية . ويقع هذا السوق فى باطن بيروت فى اطار قيسارية الامير منصور الشهابى (وهو سوق مسقوف) يتألف من طبقتين، وكان الطبقة (الطابق) الارضى من القيسارية دكاكين للخياطين . وإلى جانب هذه الملامح ، فقد وجد فى سوق البازركان ميزان الحرير وسوق الصاغة ، حيث مورست المهن والحرف والتجارة المتعلقة بالحرير والذهب والفضة (21) .

سوق الحدادين : كان مركزا لعمل الحدادين العاملين فى تصنيع الاشغال الحديدية . وكان الى جانب كونه مركزا حرفيا ، كان أيضا مركزا لدور سكنية عديدة على عادة الاسواق القديمة ، حيث يسكن بعض أصحاب المهنة قرب مراكز عملهم . وكان يقع هذا السوق فى باطن بيروت فى الطريق الى إسكلة (ميناء) بيروت . وأوله من مدخل سوق البيطرة ، كما يلتقى سوق الحدادين بالباب الشرقى للجامع العمرى الكبير حتى أول سوق اللحامين عند مدخل كاتدرائية مارجرس للروم الارثوذكس . ويتصل أيضا بزاوب سوق النجارين . ومن ملامحه أنه كان يوجد فى آخره جرينة الحنطة لطحن الحبوب (22) .

(20) انظر : السجل الأول ، من سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت ، السجل 1259هـ - 1843م ، صحيفة 18-22 . انظر أيضا : كتابنا : أوقاف المسلمين فى بيروت فى العهد الشافى ، ص 54 . (21) السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت . ص 18-22 . انظر أيضا : أوراق لبنانية ، م 1 ، ج 1 ، ص 23 . داود كنعان : بيروت فى التاريخ ، ص 37-38 ، مطبعة عون ، بيروت 1969 ، الشيخ عبد الباسط الأنسى : تقويم الإقبال لسنة 1327هـ ، ص 132-134 ، مطبعة الإقبال ، بيروت 1327هـ . (22) السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية فى بيروت ، صحيفة 34 ، 35 ، 42 ، 43 ، 70 . انظر أيضا : داود كنعان ، المرجع السابق ، ص 90 ، 92-93 .

وبالإضافة الى هذه الاسواق ، فقد وجدت أسواق أخرى تمثل التجمع المهني والصناعي والتجاري للمجتمع البيروتي أهمها : سوق البوابجية ، سوق البيطرة ، سوق الخضار ، سوق زاوية ومسجد التوبة ، سوق الساحة ، سوق ساحة الخبز ، سوق سرسق ، سوق الشبججية ، سوق الشعارين ، سوق الطويلة ، سوق العطارين ، سوق القزاز ، سوق القطن ، سوق اللحامين ، سوق المنجين ، سوق النجارين . . . (23)

3 - دور الاوقاف في الحياة الاجتماعية في بيروت :

تعتبر الاوقاف الاسلامية أو النصرانية أو اليهودية من الاملاك الهامة التي اسهمت عبر التاريخ بتطور المجتمع وتقدمه على كافة الاصعدة . وتعتبر الاملاك والعقارات الوقفية من الاملاك ذات النفع الخيري العام ، وتكون عادة ملكا عاما للطوائف الدينية . وقد اعتمد عبر مختلف الحقب التاريخية على واردات هذه الاوقاف في بناء الكيانات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية ، بل وفي تحويل وبناء الكيانات السياسية والعسكرية لتلك الطوائف وقد حظيت الاوقاف في العهد العثماني بالاهتمام اللائق بها بعد تطور المفهوم الوقفي وتبيان نتائجه الايجابية في مختلف المجالات ، واقبل المسلمون في العهد العثماني على العمل به وتطبيقه في بيروت وشتى الامصار الاسلامية . ومن الدلائل على ذلك التطور الملموس في ازدياد عدد وحجم الوقفيات وتعدد مجالات الاستفادة منها والاتفاق عليها . ويكفي الاشارة الى ما يملكه المسلمون من أملاك وعقارات وقفية في بيروت وهي تعد بعشرات الآلاف (24) . فما من مسجد أو زاوية أو مؤسسة خيرية أو صحية أو اجتماعية ، الا وكان عليها وقف يتضمن العديد من الاملاك والعقارات وأحيانا بعض المنتجات والصناعات والاموال .

ومن الملاحظ ان الاملاك الوقفية سواء في بيروت العثمانية أو في سواها من المدن ، قد ساهمت مساهمة فعالة في تطوير البنى الاجتماعية لمسلمي بيروت ولبنان . ومما يشير الى أهمية الوقف الاسلامي في الحياة الاجتماعية ، هي أن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت بعد تأسيسها عام 1295 هـ - 1898 م بسنوات قليلة ، توسلت لدى والي بيروت والحكومة العثمانية لتسليمها بعض الاوقاف الاسلامية المحلولة أو غير المضبوطة ، للاستعانة بوارداتها وتوسيع نشاطاتها الاجتماعية ولإقامة المدارس للناث والذكور .

(23) للمزيد من التفاصيل انظر : السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، في صفحات متفرقة حيث أشارات إلى هذه الأسواق . انظر أيضا كتابنا : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، ص 52-120 .

(24) حسان حلاق : أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ، ص 18 ، 25 . انظر أيضا في الكتاب نفسه وثائق الأوقاف الإسلامية .

وقد استجابت الحكومة العثمانية لهذا الطلب ، وسلمتها بعض الاوقاف ومنها على سبيل المثال (25) :

- وقف الجبانات (المقابر) .
- وقف التكية .
- وقف جل التين .
- وقف الشمع .
- وقف قفة الخبز .
- وقف سبيل السمطية .
- وقف سبيل السراج .
- وقف سبيل الجامع العمري الكبير .
- وقف قطعة أرض في رأس النبع .
- وقف فاطمة بنت عبد القادر جبيلي .
- وقف الحاج محمد آغا الطرابلسي .
- وقف بني الطيارة والحص .
- وقف بني نجا وقريطم .
- أوقاف الحلواني والقصار والقباني ورمضان واليافي ومنيمنة والكردلي وقرنفل .

وللدلالة على أهمية الاوقاف وارتباطها بالحياة الاجتماعية في بيروت يكفي أن نشرح بعض غايات ومرامي بعض الاوقاف في بيروت ومنها على سبيل المثال :

وقف قفة الخبز : وهو وقف خيري لغرض اجتماعي انساني ، كان موقعه في باطن بيروت وله دكان خاص ، توضع فيه قفة مليئة بالخبز في كل يوم جمعة ، حيث يقصدها المعوزون والفقراء والمساكين القاطنون في بيروت من مختلف الطوائف ، فيوزع متولى القفة الخبز عليهم ، فيأخذ كل منهم حاجته وينصرف دون سؤال أو اذلال . وقد كان لهذه القفة أوقاف وأحكام عديدة وبعض العقارات والمخازن التي يعود ريعها للقفة ، وقد سجلت هذه الاوقاف في سجلات المحكمة الشرعية في بيروت في العام 1259 هـ - 1843 م (26) .

وقف الابريق : ويعرف ايضا باسم وقف الفاخورة أو الكاسورة . وكان لهذا الوقف دكان خاص لتوزيع الاواني الفخارية في باطن بيروت . وكانت مهمة القيم على الوقف اعطاء الصبي والفتاة الفقير والغلام وعاء فخاريا سليما

(25) أحمد أمين الحبال : ما لا يعلمه المسلمون عن جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت ، ص 12 . (كراس) انظر أيضا : أوراق لبنانية ، م 2 ، ج 7 ، ص 335-337 .

(26) انظر : أوقاف وأحكام « قفة الخبز » في السجل الأول 1259 هـ/1843 م من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، صحيفة 30-31 .

مجانا مقابل الوعاء الذي كسر معه أثناء قيامه بعمله . والحكمة من ذلك أن الصبي اذا أرسله معلمه لملء الابريق ماء من السبيل ، ولسبب من الاسباب كسر الابريق ، فبدلا من تعرض الصبي للضرب والتوبيخ والاهانة أو الطرد من العمل ، فان بإمكان هذا الصبي أخذ الابريق المكسور الى وقف الابريق الكسورة والحصول على ابريق جديدة ، وهذا نوع من الضمانة الاجتماعية للاحداث .

وقف سكة حديد الحجاز : كانت أملاك وعقارات هذا الوقف تقع في ساحة البرج في بيروت ، وهو أكبر عقار منفرد في الساحة ، وكان الهدف من ايجاد هذا الوقف العقاري تأمين أموال سنوية للانفاق على سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق الى المدينة المنورة ، وتسيلا للحجاج طريق الحج . وهذه السكة هي التي خربها لورنس خلال الحرب العالمية الاولى 1914 - 1918 (27) .

وهناك أمثلة لا حصر لها من أنواع الاوقاف التي كانت تشكل الضمانات الاجتماعية الحقيقية للمجتمع البيروتي بل وللمجتمع العثماني ومنها : أوقاف المساجد والزوايا ، وقف العلماء ، وقف المفتين ، وقف طلبة العلم ، وقف المكتبات العامة ، وقف المرابطين والمجاهدين ، وقف المستشفيات (الخسنة خانة) ، وقف المقعدين والعميان وذوي العاهات ، وقف الارامل والايتم وأبناء السبيل ، وقف الخانات ، وقف الحجاج ، وقف حفر الآبار ، وقف الدواب ، وقف أكفان الموتى ، وقف الحليب للايتم والارامل والفقراء ، وقف الجبانات .

4 - العلاقات الاجتماعية في اطار عمليات البيع والشراء والتعاوى المتبادلة:

تمثل العلاقات الاجتماعية في بيروت العثمانية بما تتضمنه من تبادل في عمليات بيع وشراء الاراضي والعقارات والدور ، وبما تتضمنه من دعاوى شرعية لها مميزات اجتماعية ، تمثل حيزا هاما في التاريخ الاجتماعي للطوائف الاسلامية والمسيحية . وكانت الشكاوى الشرعية تتخذ طابعا اجتماعيا قائما على أساس الشرع الاسلامي ، وبالرغم من ذلك ، فان العديد من دعاوى المسيحيين المحقة والشرعية ضد المدعى عليهم من المسلمين تنتهي الى قرارات مفتى بيروت أو قاضيها الشرعي بالوقوف الى جانب المدعى المسيحي ضد المدعى عليه المسلم نظرا لاحقية دعواه وشكواه . ومن بين هذه الدعاوى دعوى «الذمي النصراني» الياس ابن الخوري ميخائيل ضد جهجاه بن أحمد ، المقامة في محكمة بيروت الشرعية في 25 صفر 1259 هـ - 1843م . حول أحقية في ملكية أرض . وبعد دراسة ومناقشة الدعوى أصدر «مولانا الحاكم الشرعي» حكما شرعيا لصالح الياس ابن الخوري ميخائيل . وكان شهود الحال على هذه القضية بعض

(27) توفيق حوري : المؤسسات الوقفية . من منظار حديث - قديم ، ص 6 . المركز الإسلامي للتربية - بيروت 1980 .

المسلمين ومنهم : السيد مصطفى قرنفل ، ولده السيد صالح قرنفل ، الحاج على ابن السيد أحمد بولاد الحوت ، السيد مصطفى بيضون ، الشيخ محمد ابن السيد خليل الباف الطرابلسي (28) .

وفي نهاية صفر 1259 هـ ادعى المسلم الحاج علي بن أحمد الحوت على النصراني بشارة سيف الدهان مدعيا عليه بأن المزرعة الموجودة قرب جبانة المصلى خارج سور بيروت المشتعلة على أرض وغراس أشجار توت وبرى وفواكه وبناء ٠٠٠ هي من أملاك موكله المسلم صادق خرما شقير ، وأن رفعة الدهان شقيقة المدعى عليه وضعت يدها عليها بدون وجه حق ولا طريقة شرعية ، وأنه يطلب رفع يدها عن الأرض وبما تحويه . وبعد حضور الشهود الشرعيين وعدم وجود البينة الشرعية ، وبعد التدقيق في الادعاء ، منع المدعى من ادعائه لانه لم يستند الى وجه حق . «وعند ذلك منع الحاكم الشرعي المومي اليه المدعى الحاج علي المذكور من دعواه وعرفه أنه ممنوعا . وحكم عليه بذلك وجاها وشفافا غب اعتبار ما وجب اعتباره شرعا . وحرر ما هو الواقع فيه بالطلب والسؤال تحريرا في نهاية صفر الخير سنة تسع وخمسين ومايتين وألف» (29) .

وهناك العديد من القضايا الماثلة التي ظهرت في مختلف السنوات وفي مختلف سجلات المحكمة الشرعية في بيروت المحروسة . كما تشير السجلات الى العلاقات الاجتماعية القائمة بين البيروتيين أنفسهم ، أو بينهم وبين سواهم من أبناء الجبل . وكانت تظهر هذه العلاقات في اطار عمليات البيع والشراء بين مختلف البيروتيين ومختلف الطوائف ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: عمليات بيع وشراء من النصراني أسعد خطار الرجي الى المسلم حسين صالح العيتاني في منطقة الحمراء في رأس بيروت ، وعملية بيع وشراء من الوكيل مصطفى مكينها (مكنية) الى النصرانية وردة يوسف اده ، في بستان بنى جمال الدين في بئر الست في مزرعة رأس النبع في بيروت ، وعملية بيع وشراء من النصراني فرنسيس نصر الله مسك الى «الذمي اليهودي» الخواجه موسى شوعا الديراني قرب زاوية بنى القصار في باطن بيروت . كما صدر حكم شرعي في 19 محرم 1259 هـ ومصالحة اسلامية بين عبد الرحمن بيضون وعبد القادر جبيلي حول قضية بستان الخطاب وديون وعقارات في بيروت . وجرت عملية بيع وشراء من محي الدين علي وهبي الى عمدة التجار الحاج أحمد بكرى العريس في باطن بيروت ، كما جرت عملية قسمة عقارات بالتراضي بين آل وهبي السيقلي قرب كنيسة الروم في باطن بيروت . كما صدر في 11 ربيع الآخر 1259 هـ حكم شرعي بدفع ديون شاهين خطار الدهان للوكيل يوسف ابن الشيخ حسن الداغوق «بازار باشي» ، وجرت مصالحة شرعية بين

(28) السجل الأول 1259هـ/1843م ، من سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 7 .

(29) السجل نفسه ، ص 9 .

الوكيل نفسه وبين فارس لحدود حول بين قطعة أرض وعقار (30) . وهناك من الملامح الاجتماعية في هذا الاطار والعلاقات الانسانية ما لا يمكن حصره في هذا المجال ، لانها تعد بعشرات الآلاف وتحتاج الى دراسة متخصصة منفصلة .

5 - اوضاع المنازل البيروتية ودور النساء في طبيعة العلاقات الاجتماعية:

تمنع الشرائع السماوية كشف العورات ، والنظر الى المحرمات ، ولهذا فان مختلف البيروتيين من مختلف الطوائف كانوا يحرصون على بناء بيوت وغرف لا تطل على الغير ولا يطل الغير عليهم وعلى مقر نسائهم . غير أن الشرائع والعادات والتقاليد لم تمنع البعض من الشذوذ على المألوف ، ولهذا برزت بعض العلاقات الاجتماعية المتوترة بين الاقارب والجيران بسبب عدم التقيد بالاصول والتقاليد . ونشير الى بعض القضايا التي عالجتها السلطة الشرعية في محكمة بيروت ومنها : دعوى نعمون طنوس نعمون ضد بشارة متری طاسو ، لانه فتح شباكين في طابقه تطل على ايوان منزله وفسحة داره ومقر حريمه وجولاتهن ، وذلك في محلة القيراط خارج سور بيروت ، وأشار للحاكم الشرعي أن ذلك يعرضه للضرر البين « والتمس الكشف على ما ذكر ، فتوجه معه نائبي ابراهيم افندي الاحدب الى المكان المتنازع به بحضور بشارة طاسو المرقوم . وغب الكشف والمعاينة على الشبائيك الاربع المزبورة ، وجدها تكشف على مقر نساء نعمون المرقوم ، فتعرف بشارة المزبور بانه ليس له ان يفتح ما يكشف على حريم جاره ، وانه يلزمه شرعا منع الكشف والضرر الذي أحدثه عن جاره المذكور ، واعلمت ما هو الواقع ، والامر لحضرة وليه في الثامن والعشرين من محرم سنة 1280 هـ ثمانين بعد المائتين والالف » (31) .

وفي 15 صفر 1280 هـ درس مجلس الشرع الشريف في بيروت المحروسة دعوى الحاج زكريا حماده ضد المرأة خان زاده الزعنى « قائلا بدعواه ان للمدعى بيتا في محلة التكنات له طاقة شرعية ليس فيه غيرها في حائط ملاصق الدار موكلة المدعى عليه وأمامها مربع لها ببابه يقابل الطاقة المزبورة كان متخفضا لا يكشف على داخل بيت المدعى ، فالآن أعلنت الموكلة أرض المربع المرقوم وعتبة بابه ، فصارت بذلك تكشف على مقر نسائه في داخل بيته المزبور ، وتريد أن تعلى أرض فسحة دارها المرقومة بحيث تصوير كاشفة على داخل بيت المدعى من الطاقة المرقومة ، وبذلك الضرر البين ، فيطلب منها ما ذكر » وقد صدر الحكم الشرعي بعد دراسة ومعاينة القضية لمصلحة المدعى وأمر المدعى عليها بعدم الشروع بما أقدمت عليه ، لانه لا يحق لها شرعا » (32) .

(30) للزيد من التفصيلات انظر : السجل الأول 1259/هـ 1843م ، سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ، ص 4 ، 10 ، 15-16 ، 25 ، 37-38 ، وصفحات أخرى متفرقة .

(31) السجل 1279-1280 هـ ، قضية رقم (268) ، سجلات المحكمة الشرعية في بيروت .

(32) السجل 1279-1280 هـ ، قضية رقم (325) ، سجلات المحكمة الشرعية في بيروت .

وفي 18 ربيع الاول 1283 هـ ، عرض على مجلس الشرع الشريف دعوى عائشة صالح الدقر على ليلي أحمد الطبال ، لان المدعى عليها أحدثت طاقتين في حائط بيتها في زاروب المجنوب في باطن بيروت تطل على مقر النساء وعلى مطبخها وداخل بيتها وعلى فسحة دارها ، وقد تبين لنائب المفتي النائب ابراهيم أفندي الاحدب بعد معاينة المكان أحقية المدعية ، وبذلك صدر الحكم الشرعى باقفال الطاقتين غير الشرعيتين (33) .

وتطالعنا دعوى عبد الرحيم أفندي الصلح مدير تلغراف بيروت ضد المرأة حافظة مصطفى دندن ، لانها أقامت عليّة فوق برج منزلها في محلة الدحداح في بيروت ، وفي العلية شباكين يطلان على داره ومقر نسائه . وبعد الكشف الشرعى صدر الحكم بايقاف العمل في العلية وابطالها في 7 صفر 1287 هـ (34)

ويبدو أن السيدة عائشة صالح الدقر التي سبق ان اقامت دعوى ضد ليلي أحمد الطبال في عام 1283 هـ ، قامت في العام 1287 هـ بارتكاب الخطأ نفسه مما دعا جيرانها لاقامة دعوى ضدها . فقد أقام اسماعيل وعلى علم الدين الناظران على وقف امهما ، دعوى ضد عائشة صالح الدقر لانها فتحت عدة شبابيك في دارها الكائن في زاروب المجنوب ، تطل على دار علم الدين . وبعد الكشف الحسى صدر الحكم الشرعى باقفال الشبابيک في 9 صفر 1287 هـ (35)

وأقام جبور بشارة الملحمة دعوى ضد نصر الله جبور خضير ، لانه فتح عليتين وعدة شبابيك تطل على داره ومقر نسائه وعلى داخل غرفه ، الكائنة في محلة الدحداح في بيروت . وبعد الكشف الشرعى صدر الحكم بابطال ما قام به نصر الله ، في 18 صفر 1287 هـ (36) .

ومن الامور الشرعية والقانونية المتبعة في محكمة بيروت الشرعية ، ان الدعوى في حال كانت بين أشخاص مسيحيين ، كان يذهب لمعاينة المكان عضو مسلم من أعضاء المحكمة الشرعية ، وعضو مسيحي آخر . أما اذا كانت الدعوى بين أشخاص مسلمين ، فكان يكتفى بإرسال العضو المسلم فحسب .

6 - دور الرقيق في العلاقات الاجتماعية في بيروت :

قد يستغرب الباحثون والدارسون وجود الرقيق ونظام الرق الاسود في بيروت - ولو في القرن التاسع عشر - نظرا لتفرنج بيروت مبكرا وانفتاحها على الغرب الاوروبي ، ونظرا لوجود مؤسسات ثقافية أجنبية متعددة أثرت ثقافيا واجتماعيا في المجتمع البيروتى . ولكن بالرغم من ذلك فقد تبين لي

(33) السجل 1283-1284 هـ ، قضية رقم (413) .

(34) السجل 1286-1287 هـ ، قضية رقم (335) .

(35) السجل 1286-1287 هـ ، قضية رقم (337) .

(36) السجل 1286-1287 هـ ، قضية رقم (360) .

بأن الرق كان لا يزال معمولاً به في الدولة العثمانية ، وقد ورثته بيروت والحكم العثماني منذ أجيال بعيدة . وبالرغم من أن الدين الإسلامي شجع على الغائه بأساليب عديدة ومتنوعة وتطهيراً للنفس من الآثار والخطايا ، غير أن القرن التاسع عشر شهد نماذج أساسية تؤكد على استمرار هذا النظام ، علماً أن مشارف القرن العشرين شهدت انحصاراً هاماً له نظراً لتطورات اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وعسكرية . ويمكن الإشارة إلى بعض النماذج الدالة على وجود هذا النظام في القرن التاسع عشر ، وعلى دوره في العلاقات الاجتماعية . فقد وجد في بيروت سمسرة لبيع وشراء العبيد الزوج ، لاستخدامهم في الدور والقصور والسرايات لا سيما عند الولاة والأمراء والإغاثات والأثرياء وكبار التجار وعلية القوم .

فقد ادعى عثمان آغا الاسلامبولي على سمسار العبيد الزوج يوسف الخوري فرح لكونه باعه عبداً زنجياً بثمان (22) ليرة فرنسية . ثم تبين أن في العبد عيباً وهو مرض صدرى لازمه منذ القدم ، وقد صدر الحكم الشرعي بفسخ الشراء وإرجاع العبد إلى صاحبه وإعادة ثمنه في 19 رجب 1283 هـ . ونظراً لأهمية دراسة هذا النظام المعمول به في بيروت العثمانية في القرن التاسع عشر فإننا نورد هنا نص وثيقة هذه القضية :

«المعروض إلى حضور سعادتك»

هو أنه في مجلس الشرع الشريف بمدينة بيروت المحروسة لدى هذا الداعي حضر عثمان آغا قول اغاسي ابن محمد الاسلامبولي وادعى على الحاضر معه في المجلس المزبور يوسف بن اسبر الخوري فرح من أهالي وادي شحرور قائلاً بدعواه عليه أنه من نحو خمسة عشر يوماً اشترى المدعى منه هذا العبد الزنجي الحاضر في المجلس الذي سنه نحو سبع سنوات بشتين وعشرين ليرة فرنساوية مقبوضة ليده تماماً ثم الآن وجد فيه عيباً هو مرض الصدر فيريد رده عليه بهذا العيب واسترجاع الثمن المرقوم .

سئل المدعى عليه المذكور عن ذلك أجاب منكراً ببيع العبد المذكور منه وقبضه ثمنه المحرر وقرر أن الذي باعه منه مالكة الحاج عبده نصر الشامي والمدعى عليه كان سمساراً بينهما . فطلب من المدعى البيان الشرعي لاثبات مدعاه فأحضر للشهادة وادانها أحمد أفندي ابن عبد الله الملازم الأول في طابور الششخانة من الاوردى الخامس ، وثروة أفندي ابن عبد الله الملازم الأول في أوكنجي طابور ياده من الاوردى المذكور وشهد كل منهما بمفرده غيب الاستشهاد الشرعي بوجه المدعى عليه المذكور بلفظ . أشهد بأن يوسف المدعى عليه المذكور من نحو خمسة عشر يوماً باع هذا العبد المشار إليه المرقوم من عثمان آغا المدعى المرقوم باثنتين وعشرين ليرة فرنساوية قبضها منه تماماً وسلمه العبد المذكور .

وغب التزكية الشرعية لهما جهرا وسرا حسب الاصول حكمت بثبوت الشراء على الوجه المشروح ثم بعد العلم بوجود عيب المرض المرقوم في العبد المذكور بشهادة احمد أفندي ابن عمر الاسكندراني الطبيب . سئل المدعى عليه يوسف المرقوم عن وجود العيب المذكور وقدمه ، أجاب منكرا وجوده أصلا في العبد المذكور فطلب من المدعى البيان الشرعي لاثبات العيب المحرر فأحضر للشهادة وأدائها احمد أفندي الطبيب المرقوم والحاج محمد بن الحاج عمر شعر البيروتى وشهد كل منهما بمفرده غب الاستشهاد الشرعي بوجه المدعى عليه المرقوم بلفظ : أشهد أن هذا العبد المذكور به مرض الصدر من قديم وهو عيب . وغب التزكية الشرعية لهما جهرا وسرا حسب الامر العالى قبلت شهادتهما بذلك قبولاً شرعياً وحكمت بكون العبد المرقوم معيباً بالمرض المذكور وفسخت البيع وألزمت المدعى عليه المرقوم بإرجاع ثمنه المحرر للمدعى وتسليمه العبد المزبور حكماً والزاماً شرعيين وأعلمت ما هو الواقع والامر لمن له الامر تحريراً في التاسع عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومايتين وألف (37) .

وفي الوقت الذي شهدت فيه بيروت استمرار العمل بنظام الرق ، غير أن الشواهد أثبتت أيضاً بعض الارقاء لسبب أو لآخر ، ومنها ما جرى في 8 ربيع الاول 1287 هـ ، حينما اعترف نقولا واليان ولدى ميخائيل الحداد الشامي في مجلس الشرع الشريف في بيروت بأنهما اعتقا الجارية السوداء «طرفات» ، وأنها أصبحت حرة ليس لهما عليها حق ، وهي حرة لوجه الله تعالى ، وأشهدا على ذلك ، رفعن لأحمد آغا بكباشى ضابطة بيروت وحسام آغا بن محمود الاسلامبولى . وقد حاول في المجلس الشريف ميخائيل والد نقولا واليان استرداد الجارية الزنجية مدعياً الشراء من ابنه نقولا بثلاثين ليرة فرنسية . ولكن بعد التحقيق ثبت بطلان دعواه ، وردت الدعوى ، وعمل بعق الجارية (38)

وشهدت المحاكم الشرعية الكثير من الدعاوى الخاصة بالارقاء ، ومنها دعوى كلفدان الجركسية عتيقة الامير محمد أمين أرسلان ضد شقيقة الامير مصطفى أرسلان ، مدعية عليه بأنه لم يعمل بوصية أخيه المرحوم الامير محمد التي تنص على تخصيص كلفدان بمبلغ (500) خمسمائة قرش كل شهر طالما هي على قيد الحياة بموجب وصية مكتوبة بخط يده . وبعد التحقيق فيما ادعته العتيقة صدر الحكم السعى ببطلان الدعوى وبطلان حيثياتها بعد بطلان الادلة الشرعية والثبوتية ، وبعد صدور فتاوى بهذا الخصوص من مفتى دمشق عمدة العلماء الكرام محمود أفندي حمزة ومفتى يافا عمدة العلماء الكرام السيد محمد رشيد أفندي الدجاني . وقد صدر الحكم في 16 ربيع الاول 1287 هـ (39) .

(37) السجل 1283-1284 هـ ، قضية رقم (698) .

(38) السجل 1286-1287 هـ ، قضية رقم (402) .

(39) السجل 1286-1287 هـ ، قضية رقم (424) .

ومن الاهمية بمكان القول ، انه بالرغم من أن العبد الزنجي الرقيق كان مملوكا ومأمورا ، غير أن الشرع الاسلامي أنصفه ووقف الى جانبه لا سيما عندما يكون محقا . ولهذا فان مداولات المحكمة الشرعية في بيروت وأحكامها وقراراتها قد أفادتنا في هذه الامور ، ومن بين هذه النماذج :

دعوى الحاج حسن خالده الشوريجي الدمشقي ضد عبد الرحمن الحبشى في أول شوال 1275 هـ ، وقد ادعى في مدعاه بأن عبد الرحمن مخالف لاوامره غير مطيع له ، وأنه رقيق متروك من جملة مخلفات زوجته خديجة بنت عبد الله المهتدية من أهالي مرج عيون (مرجسون في جبل عامل في جنوب لبنان) المنحصر ارثها به . غير أن الحبشى المدعى عليه عارضه في هذا الادعاء قائلا : «انه حر وان اباه محمد آغا شام أرنوط» فاعترض المدعى . لذا طلب الحاكم الشرعي من المدعى عليه اثبات ما قاله وما ادعاه . ولما كان الشرع الشريف لا يمانع أيضا في شهادة العتيق والعبد فقد أحضر المدعى عليه للشهادة الحاج محمد آغا كساسير وعبد الله التوتنجي عتيق محمد آغا العطسى . وبعد ثبوت الشهادة الشرعية فيما ذكره المدعى عليه ، منع الحاج حسن خالده الشوريجي من دعواه ، وأثبت حرية المدعى عليه (40) .

كما طالعنا سجلات المحكمة الشرعية في بيروت بقضية متعلقة بأحد الارقاء العتقاء في 5 ذى القعدة 1271 هـ ، حينما حضر الحاج علي بن علي الصفح الى مجلس الشرع الشريف في بيروت المحروسة وادعى على الحاضر معه شاكر آغا بن عبد الله الجركسى عتيق الامير أمين أرسلان أن له في ذمته ألفين ومائتين غرش دينا شرعيا . غير أن العتيق أنكر هذا الادعاء ، وبالتالي هو الذى حرك القضية ورفع دعوى مضادة مشيرا فيها أنه هو له بذمة المدعى ثلاثة آلاف قرش ، وان المدعى سدد مبلغ (2200) غرش ، وبقي بذمته (800) قرش ، وأنه بالتالى يطالبه بتسديدها . ونظرا لهذه الدعاوى المضادة ، طلب الحاكم الشرعى الشهود الذين شهدوا الى جانب عتيق الامير أمين أرسلان . وبعد قبول الشهادة ، ألزم الحاكم الشرعى المدعى الحاج علي الصفح بدفع بقية الديون ، وأثبت بطلان دعواه (41) .

وأخيرا فان ما ذكرناه عن الحياة الاجتماعية في بيروت المحروسة في القرن التاسع عشر ، لا تمثل بالتأكيد مختلف جوانب هذه الحياة ، ولكن حاولنا اعطاء نماذج أساسية وهامة عن الملامح والمميزات الاجتماعية في بيروت العثمانية . والحقيقة فانه لا بد من الاشارة بأن سجلات المحكمة الشرعية في بيروت تعتبر من أهم الوثائق الأساسية لفترة العهد العثماني ، وان دراستها

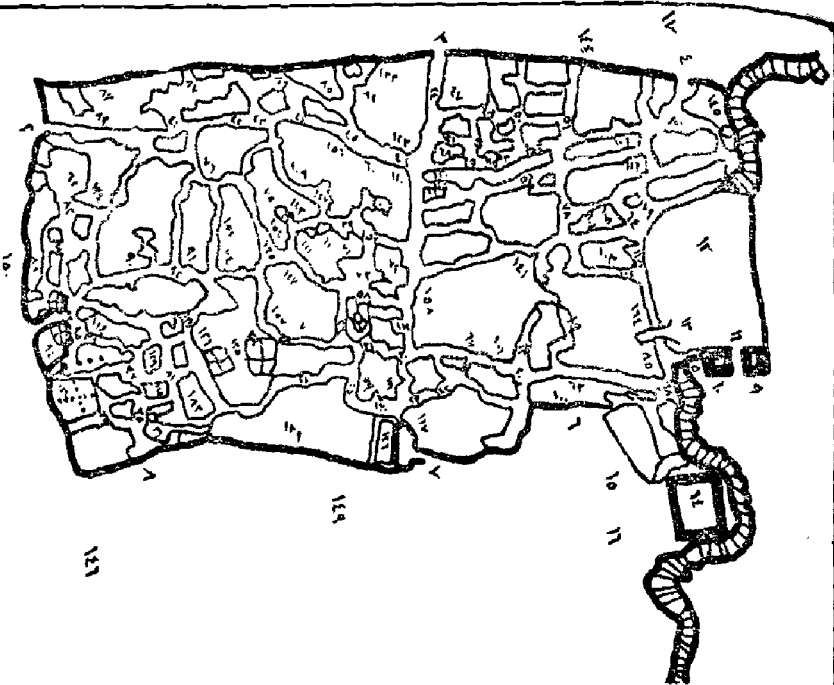
(40) السجل 1275-1276 هـ ، قضية رقم (19) .

(41) السجل 1281-1282 هـ ، قضية رقم (69) .

ونشرها وتحقيقها لن يؤدي الى احياء التراث العثماني والعربي واللبناني والبيروتي فحسب ، بل سيؤدي الى اعادة كتابة التاريخ وقلب المفاهيم التاريخية التقليدية . فالسجلات هي وثائق ومستندات لا يمكن الطعن في صحتها مطلقا ، لانها كانت تعبر عن واقع وحقيقة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والادارية والمالية والسياسية والعسكرية . وهي على كل حال ليست وثائق دبلوماسية أو تقارير قنصلية تغطي عليها الميول السياسية الخاصة والانفعالات الشخصية ، انما هي سجل لواقع الحال ومستند شرعي تاريخي يترجم أوجه الحياة العثمانية .

د. حسان حلاق

بيروت شباط (فبراير) 1986



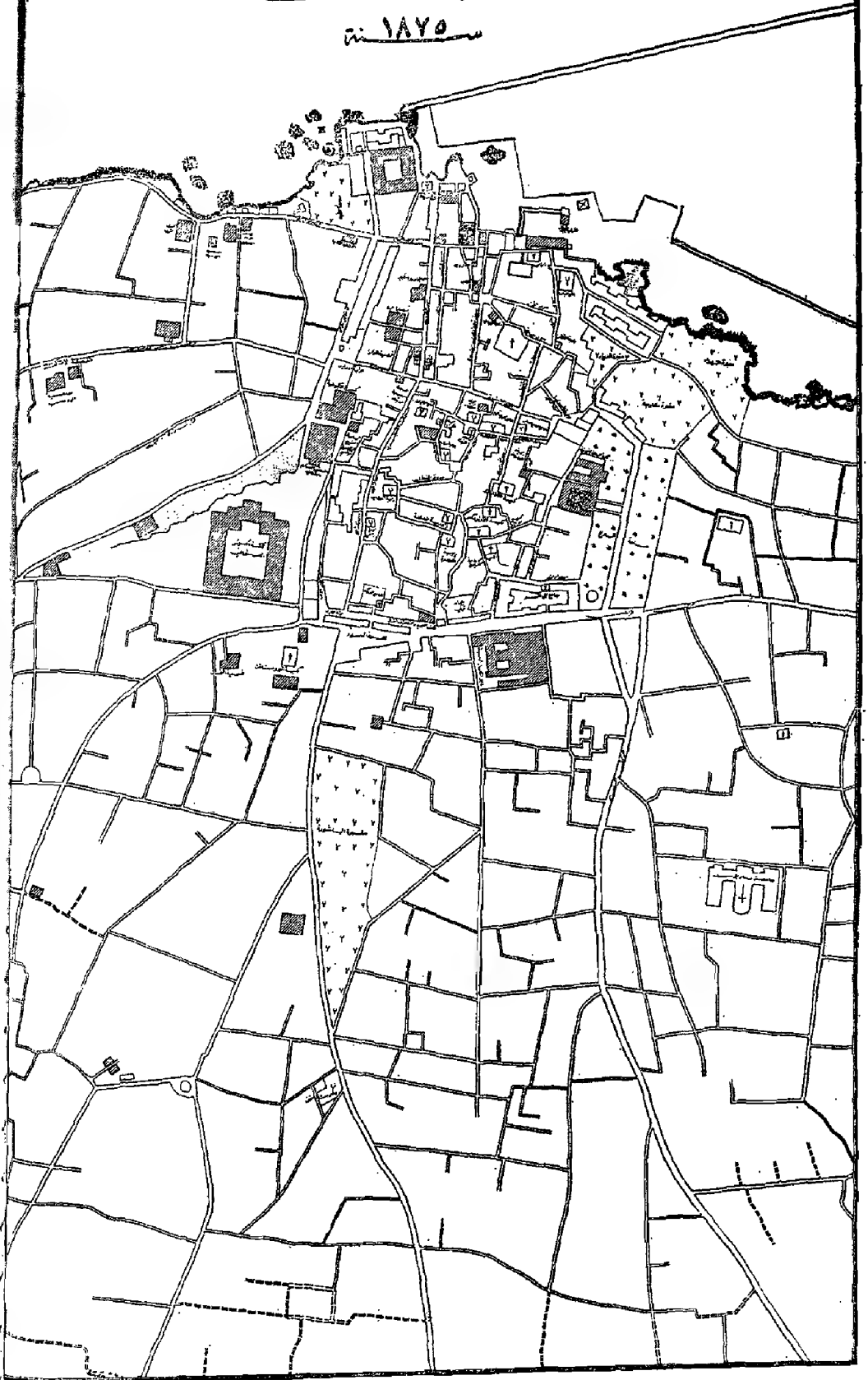
مراجعة، دراسة د. حلاق : الحياة الاجتماعية في بيروت في القرن

الناصح عشر في ضوء سجلات المحكمة الشرعية في بيروت .

[illegible]

بيروت

س ١٨٢٥



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

مسألة السلطة في حركة كسروان 1858 - 1860 من خلال أرشيف البطيركية المارونية

د. عصام خليفه

مقدمة عامة عن أرشيف بكركي :

يكاد يكون أرشيف (I) البطيركية المارونية واحدا من أبرز مراكز الارشيف المتصلة بتاريخ لبنان والمشرق العربي عامة . ولقد جهد اغلب البطارقة الذين توالوا ، بخاصة منذ القرن الثالث عشر ، الى جمع الوثائق والمستندات والمخطوطات والبراءات البابوية وغيرها . وكانوا عندما تضطربهم الظروف الامنية الصعبة ينقلونها معهم معتبرينها كذخائر ثمينة (2) .

ولقد قام بعض الآباء بمحاولات لتصنيف هذا الارشيف ، ولكنها بقيت حتى الآن ، غير مكتملة . فبالنسبة للبراءات البابوية فانها تبلغ مئة وسبع براءات . وقد قام الاب طوبيا العنيسي بجمعها وطبعها في روما عام 1921 (3) .

وبالنسبة للمخطوطات فانها لا تقل عن خمسمائة مخطوطة (4) ، وقد تم وضع ثبت بعدد منها وشروحات لمحتوياتها من قبل المطران عبيده خليفه والاب فرنسيس البيسري (5) . ويبدو ان مضمون العديد من هذه المخطوطات يحتوي على معلومات تاريخية عامة تتصل بتاريخ لبنان والمشرق العربي في الفترة العثمانية (6) .

(1) الأرشيف ، تحديدا ، هو عبارة عن مجموع الوثائق المأخوذة والموضوعة في حوزة شخص مادي أو معنوي ، أو مؤسسة عامة أو خاصة . وعملية جمع هذه الوثائق وتنظيمها تهدف اما الى استعمال فردي أو مباشر ، واما من أجل استعمال لاحق محتمل .
Jean Favier, Les archives, que sais-je ? P.U.F. 1975 p. 5.

(2) « وهذه البراءات سهر عليها رؤساء الطائفة أكثر من سهرهم على أموال الكرسي وارزاقه وحملوها اiban الاضطهاد والهرب كذخائر ثمينة وحفظوها من النهب والحريق ... » .
المطران بطرس شيلي ، اسطفانوس بطرس الدويهي بطريك انطاكية 1630 - 1704 ، منشورات الحكمة ، جونبة ، 1970 ، ص 191 .

P. ABBAS Tobias Anaissi Maronita, Collectio Documentarum Maronitarum (3) Liburni, 1921.

(4) مقال للاب بولس صغير « أرشيف البطيركية المارونية في بكركي » ، المؤتمر الأول حول أرشيف تاريخ لبنان ، مجلة دراسات ، الجامعة اللبنانية ، السنة 11 ، العددان 13 - 14 ، 1984 ص 36 .

Abdo Khalifé et François Baissari, Catalogue raisonné des manuscrits de la bibliothèque de la résidence patriarcale maronite (Bkerké), Première série, Pub. du Ministère du Tourisme, Beyrouth, 1973.

(6) نشر الأب ابراهيم حرفوش مجموعة منها في مجلة المنارة ، لاسيما في الأعداد التي صدرت بين 1930 - 1937 .

اما الوثائق والمستندات فهي التي تشكل العنصر الأكثر أهمية في أرشيف بكركي . وهي تبلغ ، على وجه التقريب ، مليون وثيقة ، محفوظة ضمن جوارير خشبية صغيرة يبلغ طول كل منها 44 سنتيم وعرضه 27 سنتيم ، وكذلك في خزانات (7) . وكان الخوري ابراهيم حرفوش (8) قد حاول ان يضع فهرسا عاما لجميع هذه الاوراق والوثائق فوصل الى البطريك يوحنا الحلو (1808 - 1823) واقعه المرض ، الامر الذي حال دون اتمامه عملية التصنيف .

وفي السنوات العشر الاخيرة حصلت محاولة لتنظيم هذا الارشيف . ويصف حافظ الارشيف البطريكي عملية التنظيم على النحو التالي (9) :

«اولا : قسمت الوثائق والمستندات الى وحدات وثائقية . والوحدة الوثائقية تعني الشخصية الكبيرة . . . فجمعت الوحدات الوثائقية وادمجت بأسماء البطارقة الموارنة .

ثانيا : خصصت لكل وحدة وثائقية خزانة خاصة بها ، وافرزت الاوراق والمستندات ووزعت على وحدات موضوعية . . .

ثالثا : وضعت الاوراق والوثائق في كل ملف بحسب تسلسلها التاريخي، ان الاكثية الساحقة من هذه الوثائق تعود للفترة العثمانية وبخاصة منذ تسلم البطريك الدويهي مسؤوليات السدة البطريكية (عام 1670 م) (10) . وفي تقديرنا انها تشكل مصدرا (II) بالغ الاهمية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديمقراطي والثقافي والسياسي والديني للبنان وللمناطق اخرى من بلاد الشام ، خاصة في العهد العثماني . وبرغم هذه الاهمية لم يتم العمل على هذه الوثائق بالشكل اللازم من قبل المهتمين بالبحث في تاريخ المنطقة . والارجح ان السبب في ذلك ربما يعود الى صعوبة الحصول على اذن بالاطلاع عليه من جهة ، ولعدم سهولة تبويبه من جهة اخرى .

(7) الأب بولس صغير ، المرجع السابق ، ص 36 .

(8) هو من المرسلين اللبنانيين ومن الباحثين المدققين في التاريخ اللبناني عامة وتاريخ الطائفة المارونية بوجه خاص .

(9) الأب بولس ، صغير ، المرجع السابق ، ص 38 .

(10) ولد البطريك الدويهي عام 1630 ، التحق بالمدرسة المارونية في روما وتخرج منها انتخب بطريكا في 20 أيار 1670 ، وتوفي عام 1704 ، كتب الكثير من المؤلفات في مختلف الحقول . أبرزها في مجال التاريخ ، ومنها « تاريخ الأزمنة 1095 م - 1699 م » ، نشره وحققه الأب فردينان توتلي اليسوعي ، المشرق ، السنة 44 ، 1950 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1950 .

(11) على سبيل المثال يوجد تقارير دورية تسمى « جورنال الفحص » كان يضعها المطارنة المرسلون من قبل الكرسي البطريكي الى القرى والمناطق ، فيها ذكر تفصيلي لأعداد السكان والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والتعليمية وما اليها ، وهي شبيهة بما تقوم به وزارات الإحصاء في الفترة المعاصرة .

وفي إطار اهتمامي بتاريخ لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر تمكنت من الاطلاع على بعض وثائق البطيريركية المارونية وبخاصة تلك المتعلقة بالعلاقات مع الدول الأوروبية والدولة العثمانية ، وكذلك تلك المتعلقة بالفتن الطائفية والحركات الفلاحية . وما سنحاول عرضه في هذا البحث المقتضب بتناول الناحية الكمية للوثائق المتعلقة بحركة كسروان 1858 - 1860 والموجودة في ارشيف البطيريركية المارونية ، وبالتالي لقاء بعض الاضواء على مسألة السلطة في هذه الحركة .

لقد شهدت مختلف المقاطعات العثمانية ، في المشرق العربي ، اضطرابات اجتماعية في منتصف القرن التاسع عشر (I2) . وإذا كان من البديهي فهم هذه الحركات في إطار تزايد ضعف الدولة العثمانية في هذه المرحلة ، من جهة ، وتساعد قوة التدخلات الغربية في الشؤون الداخلية لهذه الدولة ، من جهة أخرى ، فإن المنهج العلمي في البحث التاريخي يتطلب العكوف على درس المركبة - الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها .

ولئن كان من الاهمية بمكان ، لفهم آليات هذه الحركات ، تقيّمش تقارير القناصل والرحالة الاجانب ، ودروس المذكرات الرسمية للدولة العثمانية ، فإن ما يفوق ذلك في الاهمية العكوف على جمع الوثائق المحلية واخضاعها لعملية النقد والتحليل .

من هنا توقفنا عند دراسة حركة الفلاحين في كسروان 1858 - 1860 من خلال ارشيف البطيريركية المارونية (I3) .

(12) « هاجم الجياع والفقراء في عيتاب ومنطقتهما الأفران والمخازن وبيوت الأعيان . » عبد الله حنا ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان 1820 - 1920 ، القسم الأول ، دار الفارابي ، بيروت ، 1975 ، ص 171 .

« والفلاحون العلويون ، رفضوا في ناحية صافيتا ، دفع الضرائب للسلطات التركية . » أ - سميليانسكايا ، الحركات الفلاحية في لبنان ، تعريب عدنان جاموس ، دار الفارابي ، بيروت ، 1972 ، ص 224 .

(13) من أهم الدراسات عن حركة كسروان :

أ - ما ورد في كتاب الخوري منصور الحتمي ، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ، لا اسم للطبعة ، 1884 ، ص 329 - 353 .

ب - انطون صاهر العقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان ، نشرها وشرحها وعلق حواشيها يوسف ابراهيم يزبك ، منشورات مجلة الطبيعة ، دمشق ، 1938 .

ج - اسميليانسكايا ، المرجع السابق ، ص 177 - 225 .

د - الأب فيليب الخازن ، كسروان عبر التاريخ ، المطبعة اللبنانية ، درعون ، حريصا ، 1970 ، ص 58 - 175 .

Malcon KERR, Lebanon in the last years of feudalism, 1840-1860, Contemporary by Antun Dahir al Aqqi and other documents. American University of Beirut, Faculty of Arts and sciences Publications, Orientale Series, N° 33 Beirut, Catholic Press, 1959.

أولا : الوصف المادى للوثائق :

يبلغ عدد الوثائق المتعلقة بحركة كسروان 1858 - 1860 ، والموجودة في أرشيف البطيريركية المارونية ، مائة وثمانية وعشرين وثيقة (14) ويتراوح حجم بعضها بين صفحة قطع كبير وصفحة حجم وسط وأخرى لا تتعدى الأسطر القليلة . كلها مكتوبة بلغة عربية تتصف بالضعف والركاكة عموما .

أ - الرسائل الموقعة من طانيوس شاهين وحده :

عددها 13 ، 10 منها رسالة

الى البطيريرك مسعد ، واحدة لاهل الذوق ، واحدة للخوري بولس برهوش ،
وواحدة للياس نصر .

ب - الرسائل الموقعة من وكلاء القرى واهالى كسروان والموجهة الى البطيريرك
مسعد :

20 رسالة

وهناك رسالة واحدة موجهة من اهالى كسروان الى والى صيدا . وثمة رسالة
هامة موقعة من حنيا ابى صعب الى البطيريرك تعرض لمطالب الفلاحين .

ج - الرسائل الموجهة من بعض الوجهاء المتعاطفين مع حركة الفلاحين الى
البطيريرك : يعقوب البيطار (5 رسائل) ، الياس نصر (4 رسائل) الياس خضرا
(رسالة واحدة) .

وهناك رسائل أخرى للبطيريرك من الياس شحادة (2) ، ومن حبيب جاماتي (1)
ومن مجهول (2) .

د - الرسائل الموجهة من المشايخ الى البطيريرك مسعد :

عددها 41 رسالة . 34 منها وجهها مشايخ من آل الخازن اما بصفة فردية
او بشكل جماعي .

3 - من آل الدحداح .

3 - من آل حبيش .

1 - من الامير حسن بللمع .

ز - Dominique Chevallier, Aspects sociaux de la question d'Orient = aux origines des troubles agraires Libanais en 1858. Annales, XIV, N° 1, 1959, p. 35-64.

و - Yehoshua Porath, The revolt of 1858-61 in Kisrawan, Asian-African studies, - V.2, 1966, pp. 77-157.

(14) لا يمكن الجزم بأي حال انني قد اطلمت على كل الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع . فربما يكون هناك وثائق أخرى وضعت في ملفات أخرى ، ولم يتسن لي الإطلاع عليها .

هـ - الرسائل الموجهة من البطيريك :

عددها 12 موزعة على الشكل التالي :

5 الى الاهالى .

3 الى المشايخ

3 الى بشير احمد .

1 الى الخورى زوين .

و - الرسائل الموجهة من بشير احمد (*) الى البطيريك :

عددها 10 رسائل .

ز - أوامر الادارة العثمانية : 3 .

ح - رسالة من القنصل الفرنسى ده لاسبس الى المشايخ .

ط - 4 مسودات لبنود الاتفاق بين المشايخ والفلاحين .

ى - رسائل متفرقة : واحدة من يوسف كرم الى البطيريك بخصوص

طانيوس شاهين ، وثانية من يوسف الى بشير احمد ورسالة من يوحنا حبيب

الى البطيريك واخرى من بولس الاشقر الى البطيريك ايضا .

انطلاقا من هذه الوثائق يمكننا ان ندرس عدة جوانب من حركة 1858 - 1860 فى كسروان . فهناك البرنامج المطلبى للحركة الفلاحية ، وتطورات طرح هذا البرنامج، وفيه رد المشايخ على هذه المطالب، وكذلك موقف الاكليروس، ويمكن ملاحظة نقاط التباين بين التيارات ضمن الحركة الفلاحية والمشايخ والاكليروس ، كما يمكن تحليل البنية الطبقة «لوكلاء القرايا» واجنحة الاكليروس ، فضلا عن الاشارات الدالة على التدخلات من قبل السلطات العثمانية او القنصل الفرنسى .

ثانيا - مسألة السلطة في حركة كسروان من خلال الوثائق :

ونظرا لغنى الاستنتاجات التى يمكن الوصول اليها انطلاقا من هذه الوثائق ، وانطلاقا من قصور اغلبية الدراسات التى ذكرناها سابقا عن فهم الدور البارز للبطيريك الماروني بولس مسعد (*) فى هذه الحركة ، واقتصر هذه الدراسات على ابراز دور طانيوس شاهين وكأنه هو القائد الفعلى للحركة ، فقد وجدنا من المناسب ان نتوقف عند مسألة السلطة فى هذه الحركة .

1 - ماذا نفهم بالسلطة : ثمة باحثون كثر تناولوا مفهوم السلطة من منطلقات عملية متنوعة . فبعضهم (15) يرى انها نمط معين من العلاقات الاجتماعية .

(*) قائمقام المنطقة المسيحية في هذه الفترة .

(15) Georges Balandier. Anthropologie politique P.U.F. 1967 pp. 42-44

(*) ولد عام 1806 ببلدة عشقوت قضاء كسروان ، تعلم بالمدرسة المارونية بروما وانتخب بطريكا عام 1854 ، توفي عام 1890 .

وهي تفترض امكانية ارغام الآخرين على الانتظام فى نظام معين من العلاقات بين الافراد والجماعات . انها ظاهرة مسلم بها فى كل مجتمع انسانى ، حتى البدائى منه ، وهى تكون عادة فى خدمة نسيج اجتماعى معين . ثم انها تتخذ شكلها وتقوى تحت ضغط الاخطار الخارجية المحتملة او الفعلية ، وهى تحاول ان تعطى المجتمع الادوات والاساليب التى تسمح بتأكيد التماسك الداخلى وابرار «شخصيته» .

لقد عرفها بانها «المقدرة» ضمنية كانت او مكتسبة ، من اجل ممارسة السطوة او الهيمنة على مجموعة ، وهى مظهر للقوة وتتضمن الطاعة من قبل المجموعة الخاضعة لها (16) .

اما (ماكس ويبر) فقد عرف السلطة على انها ضرورة الزامية فى التنسيق بين فئتين بمعنى ان هناك مصدرا معيناً يعطى اوامر محددة تفرض على مجموعة من الاشخاص طاعتها . هذا يعنى ان ضمن فئة اجتماعية يفترض ان يكون هناك تنسيق بين الاوامر والطاعة . اى ان الفرد يخضع بملء ارادته الى حد ادنى من الاوامر الصادرة عن سلطة معينة (17) وانطلاقاً من ذلك يفترض (فيبر) ان الشرعية تكمن فى اساس كل سلطة ، وان هناك ثلاثة انواع :

– السلطة التقليدية المرتكزة على التسليم بقدسية التقاليد القديمة .
والشرعية فى هذا الحال تكون مستمدة من الله او من الاسر المالكة . وفى هذا السياق يلعب رجال الدين دورا بارزا فى المجتمعات ذات الصبغة الدينية .

– السلطة الاسطورية وهى التى تركز على انسياق الشعوب لابطال معينين فى فترة تاريخية معينة (نابليون ، هتلر ، غاندى ..)

– السلطة العقلانية – القانونية : وهى بنت الدولة فى مفهومها المعاصر ، حيث هناك سيادة الدستور والقانون المنبثقان من ارادة الشعب .

2 – ماذا عن شخصية البطريرك مسعد وهل يمكن ان تكون طموحة للسلطة؟

لقد ترك العديد من المعاصرين اوصافا وذكريات تعطى بعض الملامح عن شخصية هذا البطريرك . فجبرائيل القرداحى وصفه قائلا (18) «شيخ قصير القامة ، قوى البنية ، رقيق الحاجبين ، جميل اللحية والعارضين ، ابيض اللون ، مهيب المنظر ، نقى الجيب ، متوقد الفؤاد . صحيح الفكر ، ثاقب

(15) مقال لفريدة أبو عز الدين ، مجلة الفكر العربي ، العدد 33 – 43 ص 32 نقلا عن : Encyclopedia of social sciences p. 319.

(17) المرجع السابق ، ص 32 نقلا عن : Max Weber, the theory of social and economie organization, New-York, the free press 1947 p. 32.

(18) الأب بطرس فهد ، تاريخ الرهبنة المارونية ، ج 7 ، مطابع الكريم ، يونيو 1968 ، ص 467 – 468 .

الرأى ، أبى يؤثر المنية على الدنية ، متين الوداد ، طويل الباع فى علوم كثيرة ولا سيما فى التاريخ وكفى بكتابه الدر المنظوم شاهدا ، خبير بفنون السياسة ، يضع كل امر موضعه ، حكيم متدبر لا يأتى من الامور الا ما استطاع اليه سبيلا . . . قليل الكلام محكمه مأمون التنديد .

اما رشيد الشرتونى فقد قال عنه : وكان من البارعين فى الرسوم البيعية ولا سيما فى الحق القانونى وفى التاريخ وخاصة فيما يتعلق منه بتواريخ الطوائف الشرقية (19) .

عام 1854 اجتمع الاساقفة فى بكركى وانتخبوا (مسعد) بالصوت الحى واجماع الرأى (20) بطريركا ، اذن ثمة شرعية اجماعية من داخل المؤسسة الدينية نالها البطريرك الجديد . على اثرها انتقل الى تثبيت قبضته الايديولوجية على المجتمع ، فبادر للدعوة الى عقد المجمع البلدى . وان عرضا سريعا لابرز مقررات هذا المجمع تبرهن بوضوح المنحى السلطوى لديه .

- فالمجمع قد حكم بوجود السهر الدائم على حفظ ودعية الايمان هذه ، والتوصى للجميع ، ولا سيما الكهنة ، ولكل المثقلدين الاهتمام بالانفس ، ليحترسوا من ان يناسب احد من الاعداء المخالفين للكنيسة الرومانية المقدسة ، التى هى ام جميع الكنائس ومعلمتهن ، فى المحلات القاطن بها بنو ملتنا (21)

- رفض معاشرة (المبشرين الانجيليين) واعتبارهم كذئاب خاطفة ، يجب اخراجهم وعدم اقتناء كتبهم ورسائلهم الحاوية على تعاليم باطلة وكاذبة واقاويل مشككة (22) .

من تجاسر على عمل الخلاف يسقط بذات الفعل بالحرم الكبير المحفوظ حله لسلطان السيد البطريرك الكلى الغبطة .

- والمجمع ايضا فرض على اساقفة الرعايا فحص الكتب بحيث لا «يتجاسر احد ، ويشهر تأليفا مرتبا منه ، او منقولا منه الابرشية لاجل فحصه ، ونوال الاذن منه باشهاره خطيا ام طبعا» (23) .

- كذلك اتخذ المجمع قرارا بانشاء مطبعة باحرف عربية (24) .

(19) - سلسلة بطاركة الطائفة المارونية الطيب الذكر البطريرك اسطفان النويهي الأهدني عني بنشرها وتعليق حواشيه رشيد الخوري الشرتونى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1902 ص 95 .

(20) المطران يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ، م 8 ، بيروت ، 1905 ، ص 754 .

(21) الأب بولس مسعد ، المجمع البلدى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1959 .

(22) ألا يسكننا التساؤل عن مدى تأثير الثقافة المتشددة التى تلقاها مسعد فى عين ورقة وخاصة فى رومة فى مثل هذه المقررات الصارمة فى مجابهتها للفرق الإنجيلية ؟

(23) الاب بولس مسعد ، المرجع السابق ، ص 16 .

(26) فى السنة 1855 اشترى الرؤساء مطبعة من أوروبا مجهزة بالأحرف العربية والسريانية والافرنجية وبكل ما يلزمها من مصب أحرف وآلات الصرم والتجليد والقطع . وبلغ ثمنها

وبالطبع تكون هذه المطبعة ادارة في الصراع الادبيولوجي الذي تقوده المؤسسة الدينية ضد الاخطار الخارجية والداخلية المهددة لها .

- كما ضبط المجمع مسائل الصوم والاعياد وربطها «بسلطان السيد البطريرك الكلي الغبطة» بعد انجازه «المجمع البلدي» انتقل البطريرك لاحكام سلطته على المؤسسة الكنسية . فلقد كانت الرهينة قوة اقتصادية وثقافية ودينية صاعدة . وكان هناك بعض التنافس بين الاساقفة والرهبان على رعاية الابريشيات (25) . ولقد استغل البطريرك مسعد بعض المصاعب الداخلية التي كانت تمر بها الرهينة البلدية ففرض ، بالتنسيق مع روما ، قيادة جديدة على الرهينة : نحتم عليكم الحتم الجازم بكلمة الرب العزيز سلطانها بانكم عند اطلاعكم عليها او بلوغ فحواها اليكم تبادرون حالا الى تقديم الطاعة التامة للرئيس العام والمديرين الذين تسمحوا موقتا على رهبنتكم كما اننا نناشدكم بالرب بان تكونوا مستكنين بالهدوء والسلام ومبتعدين كل الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يوجب القلق في الرهينة (26) .

وكذلك الامر بالنسبة للرهينة الحلبية ، فقد عين البطريرك مسعد ، في اطار الفترة نفسها القس جبرائيل المجلثوني ، رئيسا عاما ومديرين ورؤساء اديار بعد تأخر انعقاد مجمع هذه الرهينة (27) . كما ان الرهينة الانطونية هي الاخرى كانت تمر في هذه الاثناء بازمة داخلية ، حلها بالتنسيق بين روما والبطيركية (28) .

وما يعزز طرحنا في ان البطريرك مسعد يريد احكام سلطته على المؤسسة الدينية هو قيامه اثناء توليه سدة البطيركية بتعيين العديد من اقاربه اساقفة يعزز طرحنا في ان البطريرك مسعد يريد احكام سلطته على المؤسسة الدينية هو قيامه اثناء توليه سدة البطيركية بتعيين العديد من اقاربه اساقفة على

75 ألف قرش ، وكان ذلك عن يد السيد ابراهيم بك الديواني طيب المسكر العثماني ووضعت هذه المطبعة في دير سيدة طاميش من مطبوعاتها : اللاهوت الأدبي للقديس ليكوري ، لسد حاجات الكهنة وكتاب دحض الأرطقات له أيضا . ثم كتاب الدر المنظوم للسيد البطريرك بولس مسعد والشحيمة الكاملة لتعليم اللغة السريانية وغير ذلك ، الأب لويس بلبيل ، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية ، م 3 ، بيروت ، 1959 ، ص 306 .

(25) راجع المذكرة المقدمة من الرهينة الى رومية تطالب فيها السماح لرهبان الأديار بممارسة الاعتراف والمناولة « للعالمين » الأب بولس بلبيل المرجع السابق ، ص 116 - 118 .

(26) الأب أنطونيوس شبلي اللبناني ، الآثار المطوية ، ج 2 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1964 ص 328 .

(28) الاب بطرس فهد ، تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية ، ج 6 ، مطابع الكريم ، جونيه 1969 ص 35 .

(27) أقيل الاب شاول الأسمر وعين مكانه الأب فيليوس الحاج بطرس ز الاباتي ايرونيوس خير الله . تاريخ موجز للرهبانية الأنطونية المارونية ، مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونيه . لا تاريخ ص 25 .

الطائفة ، فقد رقى اخاه بطرس الى اسقفية حماه الشرفية ونيابة البطريركية وابن عمه يوسف مسعد الى اسقفية عكا الشرفية وابن اخيه بولس الى اسقفية حماه الشرفية بدمشق ونسيبه البعيد يوحنا الحاج الى اسقفية بعليك (29) .

بعد ان احكم البطريرك مسعد سلطته على ايدولوجية المجتمع من خلال المجمع البلدي . وبعد ان طوع المؤسسة الرهبانية من خلال تدخله المباشر في شؤونها انتقل الى المجال السياسي .

من المسلم به عند اغلب الدارسين ان البطريرك الماروني من الوجهة التاريخية لم يكن رئيسا روحيا فحسب ، بل كان في اغلب الاحيان رئيسا روحيا ومدنيا لكن مرت فترة خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تصاعدت فيها سلطة «اهل المناصب والاعيان» من الاقطاعيين على حساب سلطة البطريرك الزمنية . ولكن منذ مطلع القرن التاسع عشر اخذ دور البطريركية يتزايد بسبب جملة عوامل متشابكة ، (30) . لكن علينا ان نذكر ان الخط الهمايوني اكد على ضرورة تخصيص «ايرادات معينة الى البطاركة ورؤساء الجماعات» ، كما نص على ضرورة «ادارة المصالح المالية المختصة بجماعة المسيحيين وباقي التبعية الغير مسلمة لحسن محافظة مجلس مركب من اعضاء منتخبة فيما بين رهبان كل جماعة وعوامها» . واكد الخط على ان «الدعاوى الخاصة مثل الحقوق الارثية فيما بين شخصين من المسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة ، فتحال على ان ترى اذا ارادت اصحاب الدعوة بمعرفة البطريرك او الرؤساء والمجالس ...» (31)

هذه العوامل المتشابكة بالاضافة الى شخصية مسعد التي صقلت في ثقافة عين ورقة وروما امنت الظروف المؤاتية ليمارس مسعد مواجهة تضعف المشايخ الخازنيين .

ان الاطروحة التي نحاول البرهان عليها تختصر بما يلي :

ان البطريرك مسعد كان بصدد ترسيخ شرعيته المدنية وشمول سلطته الاجتماعية على مجموع الطائفة ، بعد ان حسم بسهولة «اجماع الرأي» امر شرعيته الدينية . ولقد كانت حركة الفلاحين التي اندلعت عام 1858 ، في

(29) الدكتور أسد رستم ، لبنان في عهد المتصرفية ، دار النهار للنشر ، 1973 ، ص 301 .
(30) مما جاء في الخط الهمايوني الصادر عن السلطان العثماني عام 1856 : « يلزم ان تحصل المبادرة فقط الى رؤية امتيازات كل جماعة من المسيحيين والتبعة الغير مسلمة ومعاينة امتيازاتها الحاضرة بظرف مهلة معينة وتحصل المذاكرة في اصلاحاتها التي أوجبها الوقت وأثار التمدن والمعارف المكتسبة في مجالس مخصوصة لتشكل في البطريركخانات بارادتي واستحساني الملوكي » ...

(31) يسكن مراجعة النصوص الكاملة لخط كلخانة والخط الهمايوني والعديد من القوانين العثمانية في : « ألدستور » ترجمة من اللغة التركية الى العربية ، نوفل أفندي ، نعمة الله نوفل ، المجلد الأول ، المطبعة الأدبية في بيروت ، 1301 ، ص 5 - 11 .

كسروان ، مناسبة لتطويع القوى الاجتماعية ، «مشايخ آل الخازن خاصة» التي يمكن ان تشكل عامل معارضة محتمل لسلطته (32) . اننا لا نحاول الزعم بان البطريرك خلق حركة الفلاحين ، فالاحداث - لا سيما الهامة منها - لا تكون نتاج شخص مهما سميت اهميته . بل اننا نزعّم ان البطريرك استغل مسار هذه الحركة للوصول الى هدفه . ما هي الاسانيد التي يمكن ان نرتكز عليها في ما نذهب اليه ؟

ثمة شارات تعود الى مؤرخين معاصرين للحركة او قبيلها تذكر بعضا من دور البطريرك مسعد في الحركة (33) . ومن هذه الكتابات يمكننا ان نستنتج عدة امور منها :

- 1 - ان البطريرك يكره المشايخ .
 - 2 - ان جذور هذا الكره يعود الى جوانب شخصية نفسية (حادثة والدته ورفض انتخابه عام 1845) ، وأسباب تتصل بالتنافس على السلطة .
 - 3 - ان البطريرك والاكليروس يدعمون حركة طانيوس على كافة المستويات وخاصة ماليا .
 - 4 - ان المشايخ الخوازنة حاولوا الاعتداء بالضرب على البطريرك .
 - 5 - إحجام البطريرك عن اتخاذ موقف ، عندما طلب منه يوسف كرم التدخل ، كان بحد ذاته موقفا مؤيدا لتحرك الفلاحين .
- اذا استعملنا منهج الشك التاريخي بمجمل هذه الروايات ومهما كنا صارمين في عملية النقد ، فمما لا شك فيه ان تنوع مصادر الرواية ، عن دور البطريرك هو أمر لا يمكن انكاره . وان يقيننا يزداد في دور البطريكية اذا حللنا تطور موقف البطريرك في ضوء بعض وثائق البطريكية المارونية .

(32) يجب التذكير بما ورد في المقاطعة الكسروانية عن رفض المشايخ الخوازنة عن الاستمرار في التحريض ضد بشير أحمد رافضين الادّعاء لنصايحه ، الحتمي ، المرجع السابق ، ص 328 .

(33) يمكن مراجعة ما قاله جرجس بك صفا المعاصر له ، واورد أسد رستم في كتابه ، لبنان في عهد المتصرفية ، دار النهار للنشر ، 1973 ، ص 301 .

وكذلك يمكن مراجعة كتاب الخوري اسطفان فريجة البشعلاني ، لبنان ويوسف بك كرم ط 2 ، 1978 ، بيروت ، ص 254 . نقلا عن مذكرات أسعد بولس المخطوطة والمعاصرة للبطريرك أيضا . كما يمكن مراجعة رواية الدروز عن حوادث 1860 ، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ، تعريب فيليب وفريد الخازن ، م 2 ، مطبعة الصبر ، جونية 1911 ، ص 306 - 307 .

وهناك ما ذكره تشارلز تشرشل في كتابه :

إذا اعتمدنا التحديد الفيبري للسلطة ، وإذا اعتبرنا أن سلطة البطريك هي ، من هذا القبيل ، سلطة تقليدية (34) ، فماذا يفرض علينا هذا التحديد من اطر المعالجة ؟

انه يفترض أمرين : الاول وجود أطراف • ففي الحالة التي ندرسها هناك تيارات ذات أصول طبقية متنوعة تتراوح بين الفلاحين والحرفيين والمرابين والاكليروس وربما غيرهم ، وكل هؤلاء يندرجون تحت شعار ، يكاد يكون واحدا من خلال الوثائق : وكلا الأقرايا (35) ، الوكيل العام (36) ، أهالي القرايا (37) .

وهناك المشايخ (الخوازنة ، والحبيشيين ، والدحادحة) (38) .

أما الطرف الذي ينتظر منه الفلاحون والمشايع اعطاء الاوامر فكان البطريك •

فكيف كانت اذن حركية موقف البطريك خلال تطورات الازمة ؟ وكيف مارس سلطته باتجاه المشايخ من جهة وباتجاه الاهالي من جهة أخرى ؟ وكيف كان يمارس تدخلاته بشؤون القرى الداخلية ؟ ثم هل كان هناك موقع لطوائف أخرى في اطار معالجة احداث هذه الازمة ؟ وأيضا كيف تعاملت المراجع الرسمية الداخلية مع مسعد بما يتفق واحترام سلطته ؟ •

هذه هي أبرز النقاط التي سنحاول التوقف عندها في هذا الجزء من بحثنا •

أ - سلطة البطريك باتجاه الاهالي : لقد تراوحت مظاهر سلطة البطريك مسعد باتجاه الاهالي بين اعطائه العلم والخبر بما يجري ، وبين التشاور وتقديم مظاهر الخضوع ، وبين ممارسة عملية التقرير من قبله •

I اعطاء العلم والخبر : ان الاطلاع على ما يجري هو مرحلة لازمة من مراحل اتخاذ القرار وممارسة السلطة • وثمة العديد من التقارير التي قدمها الاهالي ووكلاؤهم الى البطريك : فأهالي كفرذبيان يعرضون ما فعل المشايخ الخوازنة ببعض أهالي قريتهم (39) وأهالي عرمون والجديدة يبلغون البطريك انهم

(34) مع العلم أنه يوم ارتقائه الى السدة البطريركية (قام الشعب) بمظاهرات لم يسبق لها مثيل ، وكثيرا ما هتفوا . فليحي بطريك المساوات والحرية والعدل . الخوارسقف يوسف داغر ، بطارقة المواردنة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1959 ، ص 98 .

(35) من 83 وكيلا موقعا على بيان استسلام (29 تموز 1860) كان هناك عشر قساوسة ، ولا أقل من ثلاثة مرابين ، و 32 مفسرا ، سميليا نساكيا ، المرجع السابق صفحة 221 .

(36) عادة ما كان طانيوس شاهين .

(37) الدقة العلمية تفرض علينا القول بأن هذه التسمية لم تقتصر فقط على مؤيدي الحركة .

(38) الاكثرية الساحقة من الدراسات تجاهل وجود المشايخ الحبيشيين والدحادحة في الحركة .

(39) أرشيف بكركي ، 18 ك 1 1858 .

انهم سيجتمعون مع أهالي دلبنا وغسطا وشننغير للمداولة واعطاء الجواب حول موقفهم من الحركة ، وعليه فقد «لزم بسطنا أعراضه لمسامع غبطتكم ليبقى كل شيء بشريف علمكم ٠٠٠» (40) وبعد الاجتماع يرسل الاهالي تقريراً بما قاموا به «٠٠٠ فعلى ذلك نحن أولادكم أهالي القرايا المدونة اسماءنا بذييل هذه العريضة قد صار اجتماعنا فى قرية دلبنا فى I6 الجارى وغب المداولة مع وكلاء كامل جمهورنا قد اتفق رأيهم حيث غبطتكم انوجدتم ريسا روحيا علينا نقدم لغبطتكم بهذه العريضة ٠٠٠ (4I) . أما أهالي درعون فكتبوا للبطريرك «أيها الاب الاقدس . غب (لثم) (42) مواطى اقدام غبطتكم (43) بالوكالة عن أهالي درعون لجهة مأمورنا الشيخ أبو نوفل فكان جواب غبطتكم ان نبطل الهييجان وتعلموا على خاطرنا والآن بلغنا خبر بأن سعادته أمر علينا بل مأمورنا جناب الشيخ قنصوه نترجا غبطتكم تشملونا بنظركم حيث يأتى علينا مخاطر كلية وكل شى راجع لامر غبتكم ونكرر تقبيل مواطى اقدام غبطتكم» (44) .

أما يعقوب البيطار وهو على ما يبدو ، من زعماء التحرك ، يرسل تقريراً عن مهمته فى «قرايا الوادى» بالنسبة لدفع الضريبة حسبما رسمتم (45) ، بينما يقدم الياس خضر تقريراً عن اجتماعه بالشيخ كنعان بان الخازن حيث وافق المشايخ على القبول «بديوان الكومسيون» (46) . وبدوره يرسل مسعد الى يعقوب البيطار علماً بأنه «٠٠٠ وصل تحريركم وفهمنا كامل شرحكم عن سابق اجتهادكم بعمل الجمعية وتركيزها على شكل يرضى البارى ٠٠٠» ثم يضيف «٠٠٠ فابقوا اخبرونا عما يحصل معكم ويجد بما يلزم» (47) .

وفى اليوم نفسه يرسل يعقوب البيطار خبراً عن اجتماع وكلا قرايا الوادى وحضرة الابا كهنتهم مع طلب قرايا الساحل (48) ، وفى اطار حملة التعبئة ضد تصرفات المشايخ يعرض أهالي كسروان للبطريرك حادثة ضرب تعرض لها «مكارية عدد 2 وهما منصور بطرس أبو انطوان من ريفون وبطرس طنوس من عجالتون» من قبل المشايخ رامج وحيدر الخازن فى جهات لحفد ، وذر بهما فى دير ميفوق وضربهما من قبل رئيس الدير الاب القس اغناطيوس الخازن . «أقضى أعراضه لغبطتكم لكى تتبصروا بهذه القضية الكلية التعدى الظاهر» (49)

(40) أرشيف بكركي ، 12 ك 2 18059 .

(41) أرشيف بكركي ، 17 ك 2 1859 .

(42) غير موجودة فى الوثيقة .

(43) هكذا كتب فى النص الأصلي للوثيقة .

(44) أرشيف بكركي ، 7 أيار 1859 .

(45) أرشيف بكركي ، 23 أيار 1859 .

(46) أرشيف بكركي ، 29 أيار 1859 .

(47) أرشيف بكركي ، 14 تموز 1059 .

(48) أرشيف بكركي ، 14 تموز 1859 .

(49) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

وعندما يحاول سجعان العضيمة ضبط غلال المشايخ باسم البطريك يطلب منه طانيوس شاهين الأمر الخطي فيجيب انه أضاعه على الطريق ، ولما استطلع شاهين زلم العضيمة خبروه انه يفعل ذلك برأى كنعان بان وعبد الله خطار ، ويضيف شاهين ، في تقريره للبطريك ، فغب ذلك اكراما لخاطر غبظتكم ولاهله ولاهل القرايا الذين بالقرب اليه لم ردنا (تهزبه) ولا أخذ منه شى... هذا حدث بنا عارضينه لدى مراجع غبظتكم (50) .

ان التقارير للبطريك لم تكن تتناول فقط عرضا لمواقف الاهالى أو المشايخ أو الاحداث التى يمكن أن تقع ، وانما أيضا كانت تطلال التحركات العسكرية - اذا حصلت - من قبل الارناؤوط أو من قبل الطوائف الاخرى . فهذه رسالة الى البطريك : نعرض انه من بعد تقديم الاعراض لغبظتكم وقفنا مرسال طانيوس شاهين عن تسليم التحرير وحررنا له المقضى ان هذا العمل غير موافق بتوقف عن هذا العمل اوقف فجاءونا الآن لا يتم الا بتسليم الكتابة واذ لم سلمناه الكتابة صباحا يكون جمهور العسكر عندنا وتحريره واصل سرا .

اقتضى اعراضه نرجو تأمروا بما يحسن واذا حسن امرهم تأمرون بتوقف عن هذا العمل والتدبير بحكمتمكم والام ولديكم الخياله والزلم نفروا منهم قدر 30 على الجديدة ودلبتا والفتوح وبك فيه اعتماد يتوجه غلافه الخياله الى ريفون (51) .

(2) الاستشارة ومظاهر الخضوع : اذا كان البطريك مسعد يتلقى باستمرار علما وخبرا بما يجرى فى القرى ، فانه أيضا يستشار وتقدم له مظاهر الطاعة والخضوع ، وهذا بالطبع مظهر من مظاهر سلطته .

فبعدما اجتمع المشايخ الخوازنة فى غوسطا - فى مطلع الحركة - بادر أهالى الذوق بارسال «اعراض» يخبرونه فيه ان المشايخ «مرادهم يكبسونا بمحلاتنا ويسلبوا نعمتنا» ، وهم بالتالى يتكلمون على غبظته «مسترحمين من حنيتكم الابوية ان تنبصروا بوقايتنا بما يقتضى حكمت طوباويتكم» وقد وخعوا الاعراض «عبيدكم أهالى ذوق مكاييل» (52) ولما تجمع المشايخ فى الكرسى البطريكى أرسل أهالى كسروان رسالة الى غبطة البطريك يطالبون فيها بترحيل المشايخ عن كرسى الطائفة وان وجود البطريك هو وحده الذى يلجم الاهالى عن الهجوم (53) . ويبدو ان بعض القرى تعرضت لضغط لكى تشارك فى الحركة ومن هذه القرى (الجديدة ، شننغير ، دلبتا ، عرامون ، غوسطا) فاستجارت بالبطريك لكى يساعدها فى موقفها... الآن وحيث نحن أولادكم من البداية

(50) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

(51) أرشيف بكركي ، لا تاريخ من البديهي الإشارة الى ركافة التعابير في هذه الوثيقة .

(52) أرشيف بكركي ، 10 ك 1 1808 .

(53) أرشف بكركي ، 30 ك 2 1809 .

مسامين حالنا لغبطتكم حتى الدم وما صار منا تهيج ولا خلل لزم اعراضنا لساحة مراحمكم وتشكى امرنا ٠٠٠ (54) . وفي الوقت الذي تستجير هذه القرى بالبطريك لعدم زجها في الحركة ، يجتمع مسعد مع طانيوس شاهين : « ٠٠٠ وذاكرين أن نحضر للثم مواطى اقدام غبطته فان وفق البارى نكون صباحا عنده » (55) وثمة العشرات من الرسائل المقدمة من وكلا القرايا تؤكد طاعتها لسلطة البطريك :

« ٠٠٠ بل كل وقت طايعين لاوامركم ولاوامر الدولة العلية صانها رب البرية هذا ما اقتضى اعراضه وما يحسن لديكم افيدوا به لان جميع جمهورنا خاضع لكلما ترسمون به ولا نبرح من جزيل الدعا ٠٠٠ » (56) . وفي رسالة من أهالي عشقوت للبطريك : « نحن قابلون نصائحكم وأوامركم السابقة لحد الآن لنا بأن لا نسعى بالشر والمضرة لاحد ٠٠٠٠٠ » (57) وفي رسالة اخرى لا تاريخ لها (58) ، يشير اهالى كسروان الى اجتماع وكلا القرايا الخمس في ريفون مع بعض الآباء المرسلين من قبل البطريك « للمصالحة والمسألة مع جناب المشايخ بنى خازن » . فيبدي الوكلا ارادتهم بالمصالحة وان أهل الخازن هم السرافضون « ٠٠٠ والآن غب اجتماعنا بمقتضى امركم قد صار تعميم افكارنا برضانا للجميع بتسليم ارادتنا واطاعتنا بكل خضوع لامركم وبه بتجشم من كريم اخلاقكم المنازلة بقبول معروضنا بهذا المحضر ٠٠٠ » (59) . وازاء المصاحب التي يواجهها بعض أهالي القرى (60) ، ومن جراء الخلافات الناشبة ، فيقررن الاجتماع على روح المحبة « وتحايد كافة الاسباب المقلقة » ، ومن كون ان راحة أولادكم هي من خصوصيات غبطتكم فوجب الامر لتقدمة اعراض ذلك لطوبواويتكم ليكون ذلك بشرف مسامع الغبطة حتى اذا الآن تأمروا بما هو أيل لخير أولادكم المظلومين ٠٠٠ » (61) – كما ان أهالي قرى اخرى (62) ينتظرون صدور « ونفوذ امر » البطريك للمداولة في سبب تشكيكات ومطالبيب القرى الاخرى (63) .

3) السلطة التقريبية للبطريك :

ان سلطة مسعد ، في حركة كسروان ، لا تظهر فقط في أخذ العلم والخبر بما يجرى ، ولا في تقبل مظاهر الخضوع من الاهالي ، وانما هي تتجلى خاصة

- (54) أرشيف بكركي ، 19 أيار 1809 .
- (55) أرشيف بكركي ، 15 حزيران 1859 ، رسالة من طانيوس شاهين لأهالي الزوق .
- (56) أرشيف بكركي ، 22 حزيران 1859 ، رسالة من وكلا قرايا كسروان الى مسعد .
- (57) أرشيف بكركي ، 14 تموز 1859 .
- (58) نرجح أنها تعود الى شهر تموز 1859 .
- (59) أرشيف بكركي ، من أهالي كسروان الى البطريك .
- (60) ريفون غادير ، جعيتا ، بلونه ، داريا ، عجلتون ، عشقوت ، بقعاه عشقوت ، القليعات ، مزرعة كفر ذبيان .
- (61) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .
- (62) عرامون والجديدة ودلبتا وساحل علسا ودرعون وغوسطا .
- (63) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

بإعطائه الأوامر للأهالي ووكلائهم فيما يتعلق بكيفية اتجاهات الازمة واحتمالات الحلول المطروحة لها .

ففي 6 أيار 1859 يرسل أهالي عشقوت الى البطريرك الرسالة التالية (64) : «غب قبلة مواطى اقدام غبطتكم الظاهرة بكل توفير واحترام ثم نعرض حسبما امرته لاحد وكلانا باخوس بأن نجرى المصالحة مع جناب الشيخ كنعان بأن الخازن لنحضر عنده فحضر كام نفر عنده وخاطبهم بهذه المصالحة بأن يباشروا في المصالحة بين جنابهم والاهالي وان يمر علينا بعشقوت نهار بكره الجمعة ونذهب معه لعلجتون وان اذا باقية القرايا لم رادت في الصلح يقبلوا في مصالحة عشقوت فقط قصدنا اعراضه لقدسكم ليكون كل شى بأمركم حيث ماكين خاطركم ونكرر قبلة مواطى اقدامكم للدوام» . ويبدو ان البطريرك أوعز الى القرايا بالرد على طروحات وضعها ، فيكتب له الياس نصر : «غب لثم ايديكم الكرام والدعا بحفظ وجود جنابكم للدوام . المعروض انه بحسب امركم وجهنا الكتابة الى القرايا وحضر لنا جواب عنهم ان مرادهم الاجتماع وتصير المذاكرة ومثما تحصل المداولة يصير الجواب اقتضى اعراضه لجنابكم .» (65) .

واذا ظهر في بعض الاحيان من طانيوس شاهين بوادر استقلالية في التحرك، ومحاولات التلطي وراء مواقف الوكلا والاهالي لتأجيل البت بأوامر قد يكون تلقاها من البطريرك (66) ، فاننا نلاحظ بوضوح وجود العديد من الوثائق التي تؤكد خضوع شاهين لتوجيهات مسعد ، ففي 12 حزيران 1859 (67) يرسل الاميكو (68) الى البطريرك الرسالة التالية : «... وطرحوا الصوت فابتدت الناس تتراكم وتتجمع الى أن بلغت نحو ألف نفر وتم العمل والغاية الذي في عقولهم وبلغ الجمهور الى قلعة معراب بكل اعتنا واجتهاد وامتنالا لامر غبطتكم قد رجعناه مخالف ولم حصل منه شى مضر ولا اسطى على احد فאלله يوقينا بواسطة دعا غبطتكم من الاشيا الاعظم فربما قريب تحدث بسبب ما هو متظاهر من آل الخازن وغيره والبعض صف وكلا جمهورنا يقول ان وقوع البلا اهن من استظهاره ...» ثم بعد ذلك بيومين يرسل رسالة ثانية : «... نعرض انه بتاريخه تشرفنا بورود مرسوم غبطتكم الشريف وقد قدمنا جزيل الحمد للمولى العليم (لاجارتنا) عام انشراح الخاطر وبه (راسمون) ان ترسل لوكلا القرى المرسوم الواصل فحلا (ياورنا) بارساله بدون تأخر البتة قدام رسولكم

(63) أرشيف بكركي ، 6 أيار 1859 .

(65) أرشيف بكركي ، 63 أيار 1859 .

(66) أرشيف بكركي ، على سبيل المثال لا الحصر الوثائق المؤرخة في آذار 1859 ، و 6 آذار سنة 1859 .

(67) أرشيف بكركي ، من طانيوس شاهين الى البطريرك مسعد .

(68) هذا اللقب لطانيوس شاهين ورد في العديد من الرسائل المتبادلة بينه وبين البطريرك ورجال الإكليروس .

ارسلناه والباين نحن لسنا مطلوبين بموجب مرسومكم» (69) . وردا على ارسال البطريك احد مطارنته طالبا من شاهين «تخميد الهيجان» ، يجيب شاهين (70) : «... نعرض انه حال ما تشرفنا بأمر غبطتكم بلسان قدس سيدنا رسولكم المطران بطرس البستاني الكلي الشرف والجزيل الاحترام المشتمل النصح لولدكم هذا بتخميد الهيجان والدخول في نير الاطاعة لدولتنا العلية وغب المفاوضة الكافية مع سيادته اعرضنا لديه انه بهذا النهار يحضروا عندنا كافة الوكلا ونفهمهم امر غبطتكم والذي يقر عليه الرأى نقدم عرض حاله لدى سدت غبطتكم ... فحال ذلك افهمنا الوكلا الموجودين ان هذا النهار يجتمعوا مع بعضهم ويقدموا عرض حال لدى سعادت افندم كاخية مشيرية ايات صيدا المعظم واننا متوجهين على الوجه المشروع وانصرفنا من هذه الجهات لبيروت خاضعين لامر غبطتكم والآن اقتضى اعراضه مسترحمين من شفقة ابوكم وحنون غبطتكم بالأا تهملونا من عنايتكم . هذا ما وجب اعراضه وبكل الوجوه نحن وأولادكم اخوتنا الوكلا وكافة الطائفة ليس لنا غوثا وملجا بعد الله سوى غبطتكم» .

وسلطة البطريك لها الاولوية على سلطة امراء البلاد ، بالنسبة لوكلا القرايا ، فلا استجابة لاوامر قبل الاذن والقرار من غبطته . فردا على الدعوة من قبل الامرا بان ترسل القرى وكيل أو اثنين ونفرين او ثلاثة من اوجه القرية الى ذوق مكاييل «لكي تتلى عليهم البلوروده الشريفة وحيث غبطتكم راسمين ان لا احد يبدأ بعمل ونكون متربصين في أماكننا ...» «ونحن موقفين تحت أمر غبطتكم نرجا بجواب بما يشاهده الخاطر الشريف» (71) . والبطريك بدوره يرسل الى وكلا القرى توجيهات بمثابة قرارات : «بعد الشوق . انه قبلا حضر البعض منكم لدينا وافهمناهم أن يكونوا مستكنين ومتحايدين اسباب السجس وان يفهموا الجميع بأن يتجنبوا ذلك ولا يبدى احد شيئا يوجب القلق والفتنة والآن موجهون حضرة ولدنا الخورى بطرس منصور القاضى الاكرم بهذا الخصوص عينه لياكد عليكم وعلى الجميع باجتنب اسباب الخصومات والابتعاد عن الهيجان والمقاتلات وكل شىء يوصل الى مالا يلايم . فاقبلوا هذه النصايح ولا تسعوا بما يمكنه ان يضر وهذا كاف لحسن طاعتكم وانقيادكم لاوامرنا والبركة الرسولية» (72) .

واذا ما قصر وكلا القرى عن ضبط الاوضاع فى قراهم قدموا الطلب الى البطريك ليساعدهم فى ذلك . فوكلا مزرعة كفرذبيان يطلبون من البطريك

(69) أرشيف بكركي ، 14 حزيران 1859 .

(70) أرشيف بكركي ، لا تاريخ وانما المرجع حزيران 1859 .

(71) أرشيف بكركي ، 17 حزيران 1859 من وكلاء وأهالي قرايا كسروان الى البطريك .

(72) أرشيف بكركي ، لا تاريخ (الأرجح أواخر حزيران 1859) وهي من البطريك الى وكلا القرى .

يُصدر امرهم بالحد من رزالات موسى عجيز وفارس أبو حسن ومنصور بوطوبيا صقر وابن عبود أبو شاهين» (73) . وبعد تحرك قنصل فرنسا باتجاه وضع حد للحركة كتب اهالي كسروان للبطريرك : «... وبهذه المدة القريبة ما تركنا استعمال الوسايط الفعالة لوضع نهاية لهذه القضية حسب رسم غبطتكم بل قد سعينا بشريف علوم غبطتكم لحصول المسألة» (74) ، كما كتبوا للقنصل الفرنسي : «... غب استعطاف شريف الخاطر نعرض ان غبطة قدس السيد البطريرك ماري بولس الكلي الطوبى قد صدر امره الكريم باستدعائنا نحن عبيد دولتكم وكلا مقاطعة اهالي كسروان وقد تلى علينا كتابة سعادتكم له ...» (75)

ان سلطة البطريرك باتجاه الاهالي تبدو كأنها ذات جذور راسخة . وبالرغم من استعمال مصطلحات «الجمهور» واجتماعات الوكلاء وما اليها . فان الشرعية التي يتمتع بها البطريرك لها قوة المرجعية والقرار . فحركة كسروان من هذا القبيل . لم ترسخ بشكل فعال . تقاليد «الارادة الشعبية» الراضية لسلطة الاقطاع والمذبح . مستبدلة اياها بسلطة الشعب المتشكل من مواطنين لا من رعايا . انه المجتمع الذي تغطي عليه ملامح العلاقات الدينية باشكالها التي لم تحسم بعد مسألة فصل الدين عن السياسة .

ب - سلطة البطريرك باتجاه المشايخ :

ان تحليلنا عاما لموقف البطريرك باتجاه المشايخ يحملنا على الاستنتاج بأنه لم يعتمد ازاءهم سياسة القطع والمجابهة المكشوفة ، بل اعتمد سياسة الانهاك والتوجيه والاحتواء . بين تطويع المشايخ واذلالهم مسافة حرص مسعد على ان تظل قائمة . ان الذين عارضوا باستعلاء عام 1845 انتخابه بطريركا - مستعملين لذلك قوة السلاح - . والذين تمردوا على تحذيراته من علاقاتهم مع «الانجليز البروتستانت» . والذين رفضوا الرضوخ لاندازه بعدم معارضة «بشير احمد» ، يستعطفونه للعودة الى بيوتهم ولابقائهم احياء .

وان التحليل المستند الى الوثائق يبرز ان هدف البطريرك لم يكن القضاء على سلطة المشايخ على نحو شامل ، بقدر ما كان هدفه احاقهم بمشروع سلطته الصاعدة التي كان يسعى لترسخها . انه مشروع تهيمش لسلطة الاقطاع ، وضبط وتطويع لما يمكن ان يشكل السلطة الشعبية في آن . وهو في كل حال مشروع انبعاث الطائفة - الامة التي تستمد سلطتها من مشروعية التقاليد الدينية المأخوذة .

كيف تبرز ، من خلال الوثائق ، ظاهرة رضوخ المشايخ لسلطة البطريرك ؟

(73) أرشيف بكركي ، 2 تموز 1859 .

(74) أرشيف بكركي ، 15 ك 2 1860 .

(75) أرشيف بكركي ، 19 ك 2 1860 .

في I2 ك I 1858 يعرض المشايخ في صفحتين تصورهم لتطور الاحداث منذ بدايتها ويخلصون الى القبول بحلول وسطى حيث ارتباطنا بموجب مقتضى الديانة بنير الاطاعة والابتعاد عن كلما يكون مخالفا لرسوم ديانتنا . . . «ويؤكدون خضوعهم للبطيريك» . . . والحال على هذا المنوال قصدنا اعراضه لديكم كل شى بشريف علمكم وتأمروا بما يشاء خاطركم (76) وعندما شعر المشايخ الخازنيون ان رد فعل البطيريك لم يكن بالحسم الذى كانوا ينتظرونه الى جانبهم ، بدا ان البعض منهم اخذ يتحرك بمواجهة البطيريك ايضا ، الامر الذى زاد فى تأزم وضعهم ، من هنا مبادرة I2 من وجهاء آل الخازن الى وضع اختامهم على رسالة يؤكدون فيها عدم ذمهم او تشكيهم على البطيريك لا لروما ولا لاحد الدول العظام (77) . «ونثبت قولنا بالنفى عما ذكر بقسم وهو انه قسما بالله العظم وسيدتنا مريم العذراء والدت (78) الاله بأن ليسنا واضعين اسمائنا ولا اختامنا بمعروض تشكى ومنذمه بغبطته كما ذكر» . . .

فى 5 نوار 1859 يحاول الشيخ كنعان الخازن - بتوجه ذكى من المشايخ - الوصول الى حل مع وكلا عشقوة (79) . لما فى ذلك من مدلولات وانعكاسات على صعيد المنطقة عامة (كونها مسقط رأس البطيريك) . «وبالاختصار هذا النهار وكلامهم لعندنا واوضحوا لنا رغبتهم وخصوصا حيث انهم فاهمين ان ذلك مما يشرح خاطرهم ومن نحونا وان نكن محققين ان هذا مشرب طبعكم الباهر كان مرادنا نرسل احد ابنا عمنا ليعرض لديكم لتكون كافة اعمالنا متايذة بالفى (؟) نظركم الشريف ومن كون طبعنا ماييل لسرعة نفود الامور والامور الخيرية لا يقتضى الاهمال بها فاكتفيننا بتقدمة هذا الاعراض حتى اذا كان مقتضى نوع من الانواع تامرو به ليكون السلوك بموجبه . . .» (80)

ردا على محاولات التقارب مع البطيريك يبدو انه حصل تصعيد من قبل الاهالى فى هذه الاثناء :

«نعرض لغبطتكم حضر نهار الثلاثاء الواقع 17 نوار اهالى بقتونا وافهمونا بأننا نقوم من بيوتنا نحن وعيالنا وانما قمنا والا يحضروا اهالى القرايا والوكلاء ويقيمونا جبرا . فصرنا فى حيرة فان دشرنا ييوتنا وقروزنا هذا عين الحراب نرجوكم اذا لاق وكان لكم امكان بطفى هذه المادة بالذى يحسن ان كان بحرر ام جزئى ندفع له اياه عن يد غبطتكم وكفلونا بذلك . . .» (81)

(76) أرشيف بكركي ، 12 ك 1 1858 ، رسالة من المشايخ المخوذة الى البطيريك .

(77) أرشيف بكركي ، 11 آذار 1859 .

(78) هكذا كتبت فى الوثيقة .

(79) هكذا كتبت فى الوثيقة .

(80) أرشيف بكركي ، 5 نوار 1859 ، من الشيخ كنعان الخازن الى البطيريك .

(81) أرشيف بكركي ، 19 نوار 1859 .

من البطريرك اعطاها مرسوما لوكلاء عجلتون لكي لا يتعارضوها اذا حاولت الإصطيف هناك (82) .

وعندما يعرض منصور الخازن ظروف نهب منزل شقيقه للبطريرك من قبل اهالي ريفون يستطرد «نحن بخاطركم بأن نوع تأمرونا به . . . اذ حسن تأمروا بالذي يشاء خاطركم ونحن مستعدين لنفوذ امركم . . . وعلى كل حال غبطتكم ملزومين بنا . . . » (83) . ويذكر حنا نقولا الخازن بأوضاعه : « . . . نعرض انه قبلا قدمنا الاعراض لغبطتكم لجهة الاواعي الماخوزة منا والدراهم بفيطرون امرتم بمرسوم لحضرة الاب الخوري انطون فيطرون واعتزرت بأن حاصل له تشويش . . . نرجو ان يصدر امركم الى نصار (من فيطرون) يسلم البارودي . . . وكاشي راجع لامركم . . . » (84) .

اذن سلطة البطريرك تطال مسألة استعادة ما نهب من المنازل واداة التنفيذ احد الكهنة . وفي هذا السياق يعرض الشيخ فارس ضاهر الخازن ضبط القمح والارزاق من قبل اهالي بقعتوتا والمزرعة وفاريا . . . «قصدا بسط اعراضنا مع وفور غيرتكم الابوية وكبر املنا تقيدوننا بما يحسن ويا ليتك تعملوا الجهد ولا تدعوا المادة تتعاطم اكثر . . . » (85) .

ان التعديات لم تطل فقط المشايخ الخوازنة وانما طالت ايضا المشايخ الدحادحة والحبيشيين . فمرعى الدحادح يشكو من استمرار التعدي عليه ويلتمس المساعدة من البطريرك : «فنترجا مراحمكم تكرار التعديد والتحريرس التام وحضرة الاب الخوري مخايل ابو صعب افهمهم بالكفاية ان هذا التعدي هو مضاد جدا لرأفتكم . . . » (86) ، ثم يعود فيكرر التماسه : « . . . فاقترضى واضعين كتابتنا لهم في طيه تنظروها غبطتكم ونترجا مراحمكم تأمروا بارسالها الى طنوس شاهين مع الامر الذي يحسن بامركم بقيام هذا الجمهور الذي عمال يتظاهر برد اوه كلية بضد الكتاب المرسول الى وكلا الكفور ونلتمس من غيرتكم الابوية تخلصونا من هذه الورطة » (87) . ويبدو ان المؤيدين لشاهين كانوا قد اجبروا مرعى الدحادح على دفع كمبيالة بـ 8 آلاف غرش (88) .

من جهة اخرى يتقدم اهالي غزير بطلب الى البطريرك للتدخل «راجين صدور المقتضى بترجييع البارودة . . . » التي اخذها «الشوار» من منزل الشيخ عفيف

(82) أرشيف بكركي ، 19 حزيران 1859 .

(73) أرشيف بكركي ، 24 حزيران 1849 .

(74) أرشيف بكركي ، آب 1859 .

(75) أرشيف بكركي ، 8 آب 1859 .

(76) أرشيف بكركي ، 26 آب 1859 .

(87) أرشيف بكركي ، 2 أيلول 1859 .

(88) أرشيف بكركي ، 24 آب 1859 .

حبيش (89) كما ان منصور سلوم الدحداح يطلب التدخل من البطريرك ردا على تسلط حنا معوض من يحشوش (الذي كان خادمه) . «وحيث ان غبطتكم لكم الحنو والرأفة علينا ولم نرى اقرب منكم لافعال الرحمة لنقصده لزم قرعنا باب حنوكم لتتقدونا من هذا القاسى الجاهل واحزابه فى الوجه الذى تروه موافق لراحة النفس والجسم . . . لان غبطتكم مجبورين للمحاماة عنا وعمن هو مثلنا ما له قوة ولا عضد ولا ملجا سواكم . . . » (90) .

اذا كانت لهجة المشايخ ، فى اغلب الرسائل التى المحنا اليها ، تتصف بمنحى استعطافى ، فان رسائل اخرى - ولو قليلة - تحمل اتهاما ضمنيا للموقف المتقاعس من قبل البطريرك على المبادرة بحل المشكلة . فالشيخ عباس شيبان الخازن يختم رسالة مطولة للبطريرك بما يلى :

« . . . يظهر لدى حكمتكم وغيرتكم كم هو ضرورى ان تسرعوا فى التشريف ولو كنتم لا سمح (الله) شاغراف المزاج واعراضنا هذا هو عن روح مخصوصيتنا بغبطتكم ولهذا نتجاسر ونعرض انه حاصل الظن من عموم الناس ان تأخير تشريفكم ناتج عن عدم اكتراث . واما اكثر العقلا مفسرين ان تأخير تشريفكم هو حتى يصير وضع العلاج بمحلاته ، غير ان الحال حاصل بخلاف لان من تأخير تشريفكم عمال يتزايد الهيجان ساعة بساعة واتصل لخطر الخراب كما اعرضنا . . . » (91) .

اذا كان الحاح المشايخ مستمرا للتدخل من قبل البطريرك ، فان الباحث فى ارشيف البطريكية يلاحظ وجود ثغرات عديدة فى اجوبة البطريرك . فاين هى هذه الاجوبة ؟ هل فقدت فى فترة مسؤولية البطريرك - مع ما عرف عنه من الحرص على تنظيم ارشيف ومكتبة البطريكية ؟ (92) ، ام انها فقدت فى الفترات اللاحقة ؟ ام اننا لم نستطع الاطلاع عليها ؟ ومع امكانية ورود كل هذه الاحتمالات فان هناك رسائل قليلة توضح الى حد كبير سياسة الترقب والتسويق التى انتهجها .

فى I4 ك I858 يرسل البطريرك الى المشايخ الخوازنة رسالة يشير فيها الى ان ما حصل «قد اولانا غما لا يوصف ولا يقدر لانه فضلا عن مزيد ميلنا ورغبتنا فى حفظ شرفكم وشأنكم واعتباركم . . . فلا يهون علينا ابدا ان نسمع بوقوع ادنى حادث نواحيكم مما يكدر او يوجب القلق» .

(89) ارشيف بكركي ، بدون تاريخ .

(90) ارشيف بكركي ، 14 أيلول 1859 .

(91) ارشيف بكركي ، بدون تاريخ .

(92) ذكر المنجد لويس معلوف ، المطبعة الكاثوليكية ، ط 1956 ، ص 497 أن مسعد هو الذى أسس مكتبة بكركي ، كما أنه ترك ثلاثة مجلدات لفهارس السجلات البطريكية (محفوظ نسخة عنها فى ارشيف الكريم) .

ثم يخلص الى القول : « فالمحفوظ من حسن شيمكم ان تتخذوا الاشياء الاتساع والمعروف المفطور عليه بطبعكم وبذلك وبحسن درايتكم تزول هذه الغيوم وينقاد جميع المذكورين الى ما به خاطركم هو مرغوبنا من صميم القلب » (93) .

وفي رسالة اخرى الى الشيخ فارس ضاهر الخازن يؤكد غبطته انه « قد تعبنا جهدنا وما تركنا شيئا مما امكن للاشاة هذه البواعث ولترجيع الحال الى اصله » . وما حدث « مصعب علينا الشئ الذي جرى وكم عذب افكارنا وجرح فؤادنا » ، ثم يشير الى « ان مساعيه للمصالحة ذهبت سدى » (94) .

يرسل الى اهالى عشقوت رسالة (95) يؤيد فيها ما ورد على لسان وكيل القرية باخس بأن البطريرك مع « اجرا الصلح » فمنذ « الابتدا للآن قد بذلنا ولم نزل بأذلين غاية الجهد باجراء الصلح وازالة هذه البواعث وقد صدر امرنا مرارا ليس فقط لولدنا باخس المذكور بل للجميع باجراء الصلح ونهاية هذه الامور الحاصلة على كل سلامة فيلزم ان كلا منكم يهتم بقضية الصلح هذه ويرفع كل باعث لان هذا هو خاطرنا من الابتدا للآن كما لا يخفاكم » .

ج - سلطة البطريرك تتدخل في الشؤون الداخلية للقري :

اذا كان من المسلم به ، تقليديا ، ان الاكليروس برئاسة البطريرك كان هو القيم على كل ما يتعلق بشؤون الاحوال الشخصية للناس ، فاننا نلاحظ ان البطريرك مسعد ، ابان حركة كسروان - وبالطبع قبلها وبعدها - كان هو المرجع في العديد من القضايا التي اشكلت على قيادة الحركة . واننا نلاحظ خاصة من خلال رسائل طانيوس شاهين له - ان سلطة البطريرك كانت اعلى - تطبيقيا وميدانيا - من سلطته .

ففي 21 ايار 1859 يرسل شاهين تقريراً يطلعه فيه على امتناع اهالى الوادى عن دفع الضريبة الى محمد بك السقعان (96) ، ويبدو من خلال العرض تأفف شاهين من هذا الموقف . ومن شبه الاكيد ان هدف شاهين هو محاولة استقطاب البطريرك ليضغط على الاهالى من اجل دفع الضريبة .

وفي 14 آب 1859 يعرض شاهين للبطريرك خلاف اهالى عجلتون واهالى فيطرون على بارودة وزنا وبما تكون لاحد المشايخ ، ويضيف :

« نترجا غبطتكم بصدور امركى يسلمونا أواعى حنا المرقوم ٠٠٠ » وفي نهاية الرسالة : « واصل تحارير عدد 3 ان شاء خاطر غبطتكم الاطلاع عليهم ويصدر امركم ٠٠٠ » (97) .

(93) أرشيف بكركي ، 14 ك 1 1958 .

(94) أرشيف بكركي ، 10 آب 1859 .

(95) أرشيف بكركي ، 9 ايار 1859 .

(96) من الأرجح انه كان ملتزم جمع الضرائب للدولة العثمانية .

(97) أرشيف بكركي ، 14 آب 1859 .

من هذه الوثيقة يمكن استنتاج عدة ملاحظات :

– ان سلطة شاهين لم تكن تتمتع باجهزة تنفيذية • فهو لا يستطيع ان يصادر «بارودة وزنارا» من منطقة قريبة من مركز تحركه (ريفون) •
– ان سلطة البطريك هي السلطة العليا ، حتى فى المجال التنفيذى ، وهذا ما يقر به شاهين •

– ان هناك مراسلات مستمرة بين شاهين والبطريك •

– ان البطريك يعطى اوامر فى ما يعرض له شاهين من قضايا •

– ان شكل العبارات المستعملة لا تنم عن موقف حذر ، او بالاحرى لا تنم عن معارضة واضحة من قبل البطريك للتحرك الذى يقوم به «الاميكو» • بل بالعكس هناك ما يحمل على الظن بوجود تفاهم ضمنى وربما تنسيق فعلى على الصعيدين النظرى والتنفيذى للتحرك •

حتى فى استحقاق السندات وشؤون البذار كان هناك تدخلات من قبل البطريك • ففي 26 آب 1859 يعلم مرعى الدحداح البطريك بأنه قد استحق سند له على اولاد عمه ضاهر وجرجس بقيمة 3600 قرش فى 31 الجارى • «نبقا نرسل لغبطنكم السند ونستورد المبلغ» (98) • وفى 15 آب 1859 يرسل شاهين الى البطريك رسالة جاء فيها (99) «ونحن جاوبنا الاب الرئيس (لمارشليطا) بأن حيث غبطتكم رب الوقف يطيلع لنا أمر من غبطتكم كى نسلمه مطلوبه من البدار والآن مقدمين معروضنا هذا لمواطى مسامعكم فالذى يصدر امركم فيه يكون العمل ...» (100) •

لئن كنا قد أشرنا باستمرار الى شمولية السلطة التى يتمتع بها البطريك ضمن الطائفة وحتى فى اطار الحركة ، فلا يجب أن نخفى جانباً ملفتاً من الوقائع . فالموضوعية تقضى علينا بالإشارة الى وجود تيارات ، ولو هامشية ، فى الحركة اتخذت طابعاً جذرياً يرفض – على ما يبدو – سلطة الاكليروس • فالخورى بولس الاشقر يرسل الى البطريك تقريراً يخبره فيه ان يوسف حبالين مع عشرين نفر امر «بأن نقوم من الضيعة وانهم لا يقبلونا» • وعرضه لهذه الحادثة «لكى تأمروا ان توجه بجلاله (؟) وكل شى راجع لامركم» وان حبالين قال للخورى الاشقر عندما ذكره بالاجرة : «الذى جابك الى الضيعة هو يعطيك نحن لا ندفع» (101) •

(98) أرشيف بكركي ، 14 آب 1859 .

(99) يبدو أن خط هذه الوثيقة مغاير لخط الوثائق الأخرى الممهورة بإمضاء أو بختم طانيوس شاهين •

(100) أرشيف بكركي ، 15 آب 1859 .

(101) أرشيف بكركي ، 10 أيار 1859 .

د - مشروع الحل المقدم من بكركي يمثل التوازن المتوافق مع سلطة البطريك

بعد مفاوضات مطولة ، وبعد تدخلات كان ابرزها ، ضغط القنصل الفرنسي ، بادرت البطريكية الى وضع حل (I02) . للخلافة بين الفلاحين والمشايع ، هذا الحل يتألف من ستة بنود (I03) وبرز ما جاء فيها : ان حل الدعاوى (جنائية ومالية وحقوقية) بين الاهالي والمشايع يتم في مجلس القائمقامية او في ديوان كومسيون مركب من اعضاء يعينهم الفريقان . مع الغاء العيديات ورسم النكاح ومال ويركو المشايخ ومشاعية اراضي جرد كسروان للجميع . ثم ان القائمقام ينصب ثلاثة من آل الخازن (واحد من كل جب) ، شرط ان يتمتعوا بالذمة والمعرفة والاستقامة والعدل . وهناك امكانية للعزل في حال الخلل . اما باقى افراد العائلة فلا تدخل لهم مع الاهالي ، مع وجوب ضبط النواحي العدلية ، وعدم السخرة وما اليها من وجوب مراعاة المشايخ «ظروف التمدن الحاضرة وشرايط الانسانية الواجبة ...» .

اما البند السادس من «لائحة الاتفاق بين المشايخ والفلاحين» فقد نص على ما يلي : «بند سادس : ان هذه اللائحة من واجب الضرورة ان تحرر اربع نسخ وتنسخ من وكلا المشايخ بيت الخازن ومن وكلا الاهالي ايضا ويتصادق عليها من قدس السيد البطريك الكلي الطوبى ومن ديوانه المؤلف بهذا الخصوص من السادة المطارنة شهادة على ما ذكر فيها لتكون دستور العمل . وغيب ذلك فنسخة منها تبقى محفوظة في خزنة الكرسي البطريكي ونسخة تتقدم لسعادة القائمقام ونسخة تحفظ عند المأمورين ونسخة تحفظ عند وكلا الاهالي» .

ان هذا الحل جاء يعكس موازين القوى الفعلية في الحركة . فالاهالي لم يطرحوا منذ البدء مشروع سلطة شعبية تنبثق من الارادة العامة لـ «الجمهور» ، وانما كان برنامجهم يتصف ، بشكل عام ، بالطابع الاصلاحي الذي يحاول ان يخفف من ظلم المشايخ من جهة ، وان لا يخرج عن دائرة الوصاية من قبل الجهاز الاكلييريكي من جهة ثانية . ولئن كان لدينا أكثر من برهان على ان البطريك مسعد كان يعطف على الفئات الفلاحية (I04) ، من موقع حسه الديني

(102) يمكن الاستنتاج ان يومنا الحبيب قد كان له الدور البارز مع البطريك - في صياغة النص النهائي للحل .

(103) أرشيف بكركي بدون تاريخ .

(104) أورد الاب انطونيوس شلي اللبناني ، في كتابه الآثار المطوية ، ج 1 ، المرجع السابق ، ص 329 صورة مرسوم من غبطته الى الاب لورنسيوس يمين الشباي الرئيس العام (للرهبنة البلدية) مؤرخ في 12 شباط 1857 : «... بتاريخه حضر لدينا أولادنا يوسف ضوميط البكاسيني ويطرس أنطون أبي هاشم من شركاء دير حوب بالوطا واعرضا لدينا بان الراهب برتلساوس التنوري تناول عليهما بالضرب وضرب والد يوسف المذكور واهل بيته ونبه عليهم ليطلعوا من بيوتهم وهما واصلان يشرعان لكم القضية بظروفها . ونرغب من حضرتكم بان تفحصوا عن حقيقة ذلك وان وجد تقريرهما صحيحا فيقتضى ان تخاصصوا الراهب المذكور بسوجب قوانينكم ليرتدع عن كذا مطاولات ولا يفي حضرتكم ان الآن ليس هو قت اخراج الشركاء من الأرزاق . . هذا كاف والبركة الرسولية تشمل حضرتكم تكررارا . الختم : الحقيق بولس بطرس البطريك الأنطاكي

واصوله التطبيقية وثقافته الواسعة ، لكن مما لا شك فيه ان حدود هذا العنصر لا يتعدى دائرة الاستمرار التقليدي لمفهوم السلطة الدينية الراضية لكل شرعية قانونية عقلانية تركز على الانتخاب الشعبي وتتكيف مع مسألة الفصل بين شؤون الدين وشؤون الدنيا .

هـ - سلطة البطريرك والعلاقة مع السلطة الرسمية للطوائف الاخرى ابان الحركة :

لقد اسهب اكثر الباحثين لهذه الفترة في تحليل دور السلطات العثمانية في تغذية الاضطرابات بين الطوائف اللبنانية من جهة ، وداخل القائمقامية المسيحية من جهة اخرى من اجل فرض تدخلها المباشر في شؤون الجبل . ويظهر من خلال المصادر العائدة لهذه الفترة ان البطريرك مسعد كان على ادراك لهذا الخطر الداهم ، ولقد تعامل معه بكثير من الحذر والتبصر .

ان فهم السلطات العثمانية لقوة تأثير البطريرك على مسار الاحداث ادى الى تكرار اتصالها به للتداول في ما يمكن أن يطرح من حلول . ففي 4 ك 2 1859 يبلغ القائمقام بشير احمد البطريرك عن نية الامير يوسف علي وحميتلو يوزباشي عثمان آغا مع انفار ارناؤوط ، المجيء الى «نادى غبطتكم» للبحث في الاحداث الحاصل ما بين اخواننا المشايخ الخوازنة ومحبينا واعزازنا اهالي مقاطعة كسروان (105) . وقبل ان يضغط القنصل الفرنسي على السلطات العثمانية بالتدخل لوقف الحوادث ويحذرهما من مغبة ادخال قوات كبيرة الى كسروان الامر الذي يتناقض مع «نظامات الجبل» ، كانت السلطات العثمانية - برشوة ربما من قبل المشايخ - قد أرسلت فرقة الى كسروان للقبض على زعماء الحركة . ففي 1 حزيران 1859 يرسل طانيوس وعبد الله نصر وبشاره غانم ثم باقي الوكلاء رسالة الى البطريرك تذكر ان هناك «الامير حسن ومعه سبعين خيال وخمسة وعشرين ارناؤوط وبيده امر بربط اولاد سيادتكم الخواجات طانيوس شاهين وعبد الله نصر وبشارة غانم وقصار الضيع ٠٠٠ وكان مراد الاهالي نحضر الى شننغير ونكحت الامير حسن ومن معه فاقتضى اعراضه لديكم وهديناهم لبعد علم سيادتكم ومتقدم اعراض بشأن ذلك ولا نبرح من دعاكم» (106) ومن المرجح ان البطريرك كان أميل الى عدم مجابهة قوات العثمانيين بالقوة لكي لا يعطيهم المبررات التي ينشدونها لتوسيع نطاق تدخلهم العسكري المباشر في المنطقة المسيحية . لكن ما يلفت ترابط الدخول الجزئي لقوات العثمانيين مع اندلاع قتال طائفي بين المتأولة والموارنة في جرود كسروان وجبيل (107) . الا ان هذه المصادمات ذات الطابع الطائفي لم تمنع

(105) أرشيف بكركي ، 4 كانون الثاني 1859 .

(106) أرشيف بكركي ، 1 حزيران 1859 .

(107) أرشيف بكركي ، 5 حزيران 1859 ، تقرير من طانيوس شاهين الى البطريرك حول هذه الأحداث .

أحد زعماء الشيعة كنج حماده من الكتابة الى البطريرك مسعد شارحا أنه بسبب الضيق يريد الذهاب الى بلاد جبيل «ولم نتوجه الى (الا) في خاطركم فإذا اذنتونا لا توجه الى محل ارزاقنا نرجو التحرير ونحن تحت خاطركم ٠٠٠» (108)

على صعيد آخر كان ولا شك لحركة كسروان أصداء واضحة في مناطق القائمة الدرزية . اذ ان المقاطعيين الدروز تخوفوا من انتقال العدوى الى المسيحيين الموجودين تحت سيطرتهم . فبادر لامراء والمشايع المسيحيون كافة الى عقد اتفاق مع الدروز «صاروا الجميع سوية وليس باقى فرق لا بالدين ولا بالعمل ٠٠٠» (109) .

«٠٠٠ قصدهم يحضروا لكسروان بوجه مصالحه ٠٠٠ وحضورهم يكون من كل الجهات ٠٠٠» اما رد فعل الاساقفة فقد كان سلبيا على هذا الامر : «سيادة المطارين طوبيا ويوسف جعجع حدث عندهم غم وافر من جرى ذلك ٠٠٠» - ويضيف التقرير - : «نحن استحسن عندنا الجواب برأى المعتمدان اننا لا نقبلهم حيث به بمعيتهم دروز فقط نطلب الديوان لا غير ٠٠٠» .

ان السلطات العثمانية ووجهاء الطوائف الاخرى كانوا يراقبون ولا شك الدور الهام الذى كان يلعبه البطريرك مسعد في الاحداث ، كما انهم كانوا يستشرفون مشرور السلطة الذى يسعى لترسيخه داخليا وخارجيا (110) على نحو مواز ان لم يكن مجابه لقيادات الطوائف الاخرى . ولقد تلاقت في هذه المرحلة جملة مصالح دولية متناقضة (فرنسا - بريطانيا - الادارة العثمانية) ، مع آلية الصراعات المركبة ضمن الطوائف وبين الطوائف اللبنانية الامر الذى أدى الى اندلاع فتنة 1860 .

لقد كان بولس مسعد محطة هامة في تاريخ البطريركية المارونية . فهو رجل التقوى ورجل التصصب فى آن ، جمع بين عمق الثقافة التاريخية ، والاصول الفلاحية وارادة السلطة التى ترفض ان يكون لها حدود فى مجالى الدين والسياسة . هذه السلطة كانت فى خطوطها العامة مزيجا مركبا . فهى من جهة تتحسس مع الفلاحين «والشركاء» حاسمة مسألة استقلالها - ان لم يكن معاداتها - للمؤسسة الاقطاعية . لكن فى موازاة ذلك كانت ترفض مقولات الحرية والارادة الشعبية ، محاولة ان تفرض شرعيتها الدينية كقيادة للطائفة المارونية وبروجية المواجهة والعصبية للطوائف الاخرى .

ان ارشيف البطريركية المارونية ، بما يحوى من الوثائق المتنوعة ، يشكل مصدرا هاما لدراسة مجمل الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية

(108) أرشيف بكركي ، 20 ربيع أول 1277 .

(109) أرشيف بكركي ، لا تاريخ .

(110) يمكن مراجعة رواية الدروز عن حوادث لبنان ، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية ج2 ، المرجع السابق ص 306 - 318 .

والديمغرافية وغيرها في جبل لبنان والمناطق المجاورة وعلى امتداد مئات السنين . ويبدو ان القيمين على هذا الارشيف قد اخذوا يتحسسون هذه الاهمية وبادروا الى العمل لتنظيمه ، واخذوا يسمحون للباحثين بالاطلاع عليه . وما هو مأمول ان يبادر هؤلاء الباحثون للعمل الصبور لكي تتلاقى نشاطات باحثين آخرين في مصادر اخرى وتستمر بذلك نهضة الدراسات التاريخية ، خاصة في بعدها الاجتماعي ، بالنسبة للمرحلة العثمانية وكذلك بالنسبة لغيرها من المراحل .

وثائق ملحقة بالدراسة

- 1 - من حنا ابي صعب الى البطريرك مسعد .
- 2 - من مشايخ بيت الخازن الى البطريرك .
- 3 - من طانيوس شاهين الى البطريرك .
- 4 - جواب للمشايخ بيت الخازن من البطريرك .
- 5 - لائحة الاتفاق بين المشايخ والفلاحين .

كلية الآداب - الجامعة اللبنانية
د. عصام خليفة

التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العهد العثماني

د. ابراهيم الداوقلي

المدخل :

اللغة تأكيد لشخصية الامة واصالتها ولقومات وجودها ووحدتها لانها كائن حي تنمو داخل فكر الانسان كضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية ، فهي ليست اداة للتعامل والتعاون الاجتماعيين فحسب ، وانما اداة للتفكير والحس والشعور بالقياس الى الافراد من حيث هم افراد ايضا لانها ضرورة من ضرورة من ضرورات حياتنا الفردية والاجتماعية (1) .

كما انها ظاهرة اجتماعية يعبر بها جماهير الشعب المتعلقة بعقديتها الدينية وتراثها الحضاري عن مكان نفوسهم بما يرضى الجانب الروحي من وجدانهم من خلال التراكيب اللغوية .

كما ان للغة (وظيفة اخرى اوسع واكبر وابعد في البناء فهي الوسيلة التي تستخدم في خلق الوضع المناسب لبناء الواقع الاجتماعي بكل ابعاده وشد المجتمع لوحدة اصيلة تشترك فيها كل الاطراف المتباعدة . فهي اصل في التكوين الاجتماعي لكل العوامل المشتركة ، وجذر لكل المكونات التي تتركز عليها الحياة .

فالتاريخ المشترك والمصير والاحساس والفكر والارادة والثقافة كلها تعود من حيث الاتصال الى اللغة ولا يمكن ان تقوم هذه العناصر المشتركة بغيرها ، لانها وسيلة التعبير عن كل قضية والاداة التي تتحقق بها صور الترابط وتشد من خلالها وشائج الاتصال . واللغة العربية استطاعت ان تحقق ذلك من خلال استعمالها وتطور اساليبها (2) .

وان بين اللغة العربية والدين الاسلامي صلة قوية لا يمكن ان تنقسم فهي لغة القرآن الكريم ووسيلة اداء الصلاة ومناسك الحج واداة الاتصال والتفاهم بين مسلمي الارض قاطبة . . . فاذا كان يجب على كل متخصص في علوم اللغة العربية وآدابها ان يأخذ بعظ معقول من الثقافة الاسلامية ، فانه يجب ايضا - على الشعوب المسلمة ان تأخذ بقسط مقبول من اللغة العربية لكي

(1) د. طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر - مطبعة المعارف - القاهرة 1938 ، ص 305 .

(2) د. نوري حودي القيسي : الحفاظ على سلامة اللغة العربية بين النظرية والتطبيق ، بحث منشور ضمن كتاب (نحو لغة عربية سليمة) منشورات وزارة الثقافة والإعلام - بغداد 1978 ، 94 - 95 .

تستطيع اداء مناسك دينها الحنيف وتقرأ كتابها الكريم ، ولكن ذلك لا يمنع ان تتكلم فى حياتها الاعتيادية والعقلية لغاتها القومية . لان هناك فرقا كبيرا بين اللغة القومية الخاصة واللغة الدينية المقدسة . فاللاتينية والسريانية والقبطية هى لغات دينية للنصارى الذين يتكلمون لغات قومية اخرى كالعربية والانكليزية والفرنسية والايطالية والالمانية وغيرها . ومن هنا فان معظم الشعوب الاسلامية «لا تتكلم اللغة العربية ولا تفهمها ولا تتخذها اداة للفهم والتفاهم» (لكن) لغتها الدينية هى اللغة العربية . ومن المحقق انها ليست اقل منا ايمانا بالاسلام واكبارا له وزيادا عنه وحرصا عليه» (3) .

ولما كانت اللغة العربية هى الوعاء الاصيل لحضارة وفكر وابداع وخصوصية الامة العربية ، فان علوم اللغة العربية التى اخذت بها الشعوب الاسلامية والتى اوضحت جزءا من تراثها اللغوى ، اثرت فى لغات تلك الشعوب وتأثرت بها ايضا . ولذلك فاننا عندما ندرس اليوم هذا التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية فى العهد العثمانى ، إنما ندرس تأثير علم اللغة العربية باللغة التركية من خلال الالفاظ المفردة والنحو العربى واثره فى التركيب اللغوى التركى وعلم البلاغة وتأثيره على الاساليب البلاغية التركيه من تقديم وتأخير وحقيقة ومجاز ومحسنات لفظية بلاغية . . . اضافة الى بيان تأثير اللغة التركية على اللغة العربية باعتبارها لغة سادت لفترة طويلة فى الاقطار العربية، وهى الموضوع التى سندرسها من خلال ثلاثة مباحث رئيسة .

البحث الاول

التراث اللغوى التركى

تؤكد الدراسات اللغوية التركية الحديثة ، ان اللغة التركية ليست من السلالات اللغوية التى تتحد من حيث المنشأ والبناء والتى لا تشكل عائلة لغوية مستقلة وانما هى (مجموعة لغوية) تتحد مع بعض اللغات من حيث البناء فقط ، (4) .

وهى مجموعة لغات اورال - الطائى التى تنقسم الى فرعين رئيسيين : (5) .

١ - اللغات الاورالية : وتنقسم الى : -

أ - اللغات الفنلندية والايغورية المجرية والبرمية .

ب - اللغات الساموئيدية .

٢ - اللغات الالطائية : وتضم اللغات المانجوية والمغولية والتركية .

(3) د. طه حسين : المصدر السابق ، ص 302 .

(4) د. ابراهيم الدقوقي : القواعد الأساسية للغة التركية ، منشورات الجامعة المستنصرية - معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية - بغداد 1974 ، 8 .

Prof. DR. Muharrem Ergin : TURK Dilbilgisi, istanbul 1972, S. 5. (5)

وقد تنبه العلامة ابن خلدون في مقدمته - ومنذ القرن الرابع الهجري - الى قرابة اللغتين المجرية والتركية ، كما اشار الى ذلك ابن النديم في فهرسه المعروف .

ونظرا لاهمية لقاء الاضواء على التراث اللغوي التركي من جوانبه المختلفة ، ولذلك سوف نتناول هذه الموضوعات من خلال :

1 - نشوء وتطور اللغة التركية :

ولدت اللغة التركية في آسيا الوسطى - الوطن الام للاتراك - وحملتها القبائل التركية الرحالة في هجرتها نحو الغرب الى البقاع التي استوطنتها . ولقد كانت لدى الاتراك - قبل الاسلام لهجتان متميزتان شائعتان في اللغة التركية هما : (6) .

1 - لهجة كوك تورك .

2 - لهجة الاويغور .

وهما اللهجتان الام التي اطلق عليها اللغويون الاتراك تسمية (التركية القديمة) ولعل اقدم هاتين اللهجتين هي لهجة (كوك تورك) التي كتبت بها المسلات الاورخونية خلال القرن السادس والسابع قبل الميلاد (7) .

وبعد دخول الاتراك للاسلام اطلق على لهجة كوك تورك ، (اللهجة الغربية) وعلى اللهجة الاويغورية (اللهجة الشرقية) وقد استعملت هذه التسميات كثيرا من قبل المستشرقين ورواد الحضارة العربية . (8) ثم استبدلت فيما بعد الى (الجفظائية) نسبة الى احد ابناء جنكيزخان . وقد انقسمت هذه اللهجة بعدئذ الى لهجتين : اللهجة الشمالية وهي لهجة الاتراك القبجاق ، واللهجة الشرقية وهي اللهجة الجفظائية التي تطورت منها اللهجة الاوزبكية المتداولة اليوم في اوزبكستان السوفيتية .

اما اللهجة الغربية - التي يطلق عليها احيانا اللهجة الجنوبية ايضا - فهي اللهجة التي يتلغى بها الاتراك من بحر الخزر حتى البلقان ويطلق عليها ايضا اسم (اللهجة الاوغزية) نسبة الى اوزغوزخان ، جد التركمان الاعلى . وهي اللهجة التي حملها السلاجقة الى ايران ومنها الى آسيا الصغرى والعراق (9) وقد تشكلت - بمرور الزمن - دائرتان منفصلتان ضمن اللهجة التركية الغربية الغربية هما : اللهجة الاذرية التي تضم لغة التركمان القاطنين في اذربيجان

ibid, S. 9.

(6)

Tahir Necat Gencan : Dilbilgisi, T D K , istanbul 1971, S. I O.

(7)

(8) ابراهيم الدقوقي : فنون الأدب الشعبي التركماني ، بغداد 1962 ، ص 10 .

(9) المصدر السابق ، ص 10 .

والعراق وشرقي الاناضول والتي اطلق عليها - فيما بعد - اسم اللهجة الاوغوزية الشرقية . اما الدائرة الثانية فهي دائرة اللغة العثمانية التي اطلق عليها اسم (اللهجة الاوغوزية الغربية) (IO) .

وعلى الرغم من ان اللهجتين المذكورتين تنتميان الى اللهجة الاوغوزية ، الا ان ثمة اختلاف في التلفظ بينهما مع اختلاف بعض مفرداتهما من حيث المعنى نتيجة تأثر اللهجة الاذرية باللهجات القبجاقية والمغولية والروسية بينما حافظت اللهجة العثمانية على سلالتها وان كانت قد تأثرت باللغتين العربية والفارسية الى حد بعيد . وقد تطورت من اللهجة العثمانية ، التي كانت سائدة في منطقة الشرق الاوسط طيلة الخمسة قرون الماضية ، اللهجة التركية الحديثة التي تعد ذروة الكمال والتطور للغة التركية التي يتلاغى بها الاتراك وابناء عمومهم من الصين شرقا وحتى البحر الابيض المتوسط غربا .

2 - الكتابة التركية :

استعمل الاتراك العيد من الابجديات في كتاباتهم منذ ان عرفوا في التاريخ اواخر القرن السابع قبل الميلاد وحتى يوم الناس هذا وكان اقدم تلك الكتابات (الابجدية الاورخونية) التي كانت معروفة لدى دولة الاتراك الازارقة (كوك تورك) حيث استعملوها في كتابة المسلات الاورخونية وكانت تتألف من (38) حرفا وتكتب من فوق الى اسفل ومن اليمين الى اليسار (II) . وقد استعمل الاتراك هذه الابجدية من القرن السادس ق.م وحتى القرن الخامس الميلادي (I2) حلت محلها الابجدية الاويغورية المؤلفة من (I4) حرفا والمكتوبة باسلوب الكتابة الاورخونية ايضا (I3) وهي مقتبسة من الابجدية (السريانية - النسطورية) التي انتقلت الى الاتراك بواسطة الرهبان النساطرة (I4) . ونظرا لسهولة كتابة الخط الاويغوري فقد امر جنكيزخان بان يتعلمه اطفال المغول (I5) .

وبالاضافة الى الخططين الاورخوني والاويغوري فقد اصطنع الاتراك ابجديات اخرى في كتاباتهم اختبسوها من الاقوام التي اختلطوا بها نتيجة حروبهم معها او استيطانهم ببلداتها . . . ومن هذه الابجديات السنسكريتية والفهلوية والارامية والنسطورية والبيزنطية (I6) والخوارزمية والصغدية والبراهمية واليونانية والعبرانية واللاتينية السلافية (I7) وقد ذكر اللغوي التركي محمود

(10) Prof. DR. Muharrem Ergin : *Op. Cit*, S. 14.

(11) كارل بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها ، بيروت 1956 ، ص 277

(12) Tahir Necat Gencan : *Op. Cit*, S. 9.

(13) محمد فؤاد كوبريلي : تركيا تاريخي ، استانبول 1924 ، ص 45 .

(14) المصدر السابق ، ص 46 .

(15) الدكتور عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ ، القاهرة 1967 ، ص 237

(16) طاهر نجاة كنجان : المصدر السابق ، ص 119 .

(17) محمد فؤاد كوبريلي : المصدر السابق ، ص 47 - 48 .

الكشغري في كتابه (ديوان لغات الترك) ان الاتراك كانوا يستعملون في القرن العاشر الهجري خطا يتألف من حروف جمعها في العبارات التالية : اخوك . لف . سمج . نزق بذر . شتل (18) .

وعلى الرغم من استعمال الاتراك لهذه الابجديات في فترات متقطعة واصقاع مختلفة الا انهم قد اتخذوا الابجدية العربية خطا لهم اعتبارا من القرن العاشر الميلادي بعد قبولهم للإسلام دينا . وقد اضاف الاتراك الى الابجدية العربية ذات الـ (28) حرفا ، الحروف الفارسية الاربعة (الجيم والثاء والياء والكاف) اضافة الى الكافات التركية الثلاثة (الكاف نوني والكاف واوي والكاف يائي) وبذلك اصبحت الابجدية التركية - ذات الجذور العربية - مؤلفة من (35) حرفا ، وهي الابجدية التي اطلقت عليها فيما بعد تسمية (الابجدية العثمانية) .

لعل اقدم نص تركي مكتوب بالابجدية الاويفورية مع استعمال بعض الحروف العربية ، هو النسخة الاصلية من القصيدة التعليمية الكبرى (قوتادغوبيليك) التي نظمها يوسف خاص حاجب البلاساغوني عام (1070 م) (19) وقد اطلقت على اللغة التركية تسمية (اللغة العثمانية) اعتبارا من القرن الرابع عشر الميلادي .

3 - خصائص اللغة التركية :

تتميز اللغة التركية بثلاث خصائص فريدة تختلف بها عن اللغات الاخرى المعروفة اليوم ، وهي : (20) .

أ - لا يتغير جذر الكلمة في الجملة وتكون الاضافات دائما في نهاية الكلمة .

ب - تنفرد اللغة التركية بقاعدة اساسية يطلق عليها (قاعدة التوافق الصوتي) وهي ان الكلمة التي تبدأ بحروف العلة الخفيفة لا تتضمن حروف العلة الغليظة ابدا ، الا اذا كانت غير تركية . ولا يجتمع حرفا علة في الكلمة الواحدة ، جنبا الى جنب ، الا اذا كانت اجنبية ، مثل Saat وفائق Faik وغيرها .

ج - تأتي عناصر الكلام الاساسية (الفعل والفاعل) في نهاية الجملة ، بينما ترد العناصر المتممة لها في بدايتها .

(18) محمود الكشغري : ديوان لغات الترك . ج 1 الطبعة الأولى استانبول 1334 هـ ص 7 .

(19) توهم كثير من الباحثين وذهبوا مذهب الأستاذ بروكلمان في ان (قوتادغوبيليك) قد كتب بالخط العربي ، ولكن الدراسات الحديثة أظهرت بأنها كتبت بالخط الأيغوري مع استعمال الحروف العربية غير الموجودة في الأبجدية الأيغورية وهي (خ ، ع ، هـ) انظر كتاب :

حسين كاظم قدرى : تورك لغتي - انقرة 1924 ، ج 1 ، ص 17 .

- ابراهيم الداوقى : القواعد الأساسية للغة التركية ، ص 11-12 .

4 - المعاجم اللغوية التركية :

يعد كتاب (ديوان لغات الترك) الذي بدأ بتأليفه اللغوي التركي محمود الكشغري في بغداد في كانون الثاني 1072 م وانتهى منه في العاشر من شباط عام 1074 ميلادية واهدها الى الخليفة العباسي المقتدر بالله ، اول معجم تركي - عربي ، واول معجم تركي في تاريخ اللغة التركية .

ويظهر من مقدمة هذا الكتاب الثمين ، ان المؤلف اراد به تعليم العرب ، اللغة التركية ولذلك فقد ضمنه قواعد تلك اللغة اضافة الى نماذج من فنون الادب الشعبي التركي المعروفة في تلك الفترة ، حيث يقول في المقدمة : «ووضعت له مرتبا على ولاء حروف المعجم موشحا بحكمة او سجع او مثل او شعر او رجز او نثر حتى لينت وعوها ويينت غورها وقعرها وقاسيت سنوات من برحائها حتى انخت كل كلمه محلها . . . ولقد تاليج في صدرى ان ابني الكتاب كما بنى الخليل كتاب العين واذكر المستعمل والمهمل معا لا علم ان لغات الترك تجارى العربية كفرسى رهان» .

لقد اعتمد العرب والاتراك فترة طويلة على هذا المعجم سواء من حيث تعلم اللغة التركية وقواعدها ، ام من حيث تعليمها الى العرب والاطلاع على تراث الترك الثقافي بلهجاتها المختلفة ، حتى عد بحق خزانة الادب التركي .

وبعد دخول الاتراك للدين الاسلامي اشتد اتصال الاتراك بمراكز الثقافة العربية ومصادر التراث الاسلامي بعد القرن الرابع عشر الميلادي ، وكانت بغداد احد تلك المراكز الثقافية التي يدرس فيها الفقهاء والعلماء ومؤسسو الطرق الصوفية التركية نسيما البغدادي ، الحاج بكتاش ولي ، عهدي لبغدادي وفضولي البغدادي ، بعد ان وجدوا فيها ملجأ امينا وحصنا حصينا ، كما انهم كانوا يفتخرون بالانتساب اليها .

ادى اتصال الاتراك بالحضارتين العربية والفارسية الى ان يكونوا قرييين من مصادر الثقافة الاسلامية ومن خزائن مفردات اللغتين العربية والفارسية مما منح اللغة التركية ابعادا جديدة سواء من حيث زيادة خزين المفردات ام توليد كلمات وعبارات تركية مركبة من الالفاظ العربية والفارسية ، بحيث اصبحت الكلمة او المفردة الواحدة تستعمل في ثلاث صور :

- الشمس ، خورشيد ، كونش .
- القمر ، ماه ، آي .
- السنة ، صال ، ييل .
- الماء ، آب ، صو .
- الخبز ، نان ، اكك .

وبعد القرن السادس عشر ، لا سيما بعد ان نشأ وتطور ادب الديوان ، وهو الادب الكلاسيكي العثماني ، استعمل الاتراك تعابير والفاظ مركبة من خليط من الكلمات العربية - التركية او العربية - الفارسية او الفارسية

التركية بكثرة ، بحيث أصبحت اللغة الادبية لغة شديدة التعقيد لا يفهمها الا الادباء والشعراء الكبار الذين اصبحوا نتيجة هذه اللغة للغز ، شيوخ ادب الديوان . كما ادت الحاجة للالفاظ والكلمات الجديدة الى قيام اللغوى العثماني (محمد واني) بترجمة قاموس الجوهري العربى الى اللغة التركية وطبعه فى استانبول عام 1729 م - 1141 هـ فى مجلدين واطلق عليه اسم (معجم وانقولى) الذى كان يتألف من 1422 صفحة .

وعندما بدأت فترة عهد التنظيمات (1830 - 1877) الذى كان يستهدف الحاق الدولة العثمانية - من الناحية التنظيمية والقانونية على الاقل - بركب المدنية الاوربية ، نشأ ادب التنظيمات (1860 - 1895) الذى بدا وكأنه يستلهم الادب الاوروبى الغربى فى النتاجات الادبية الجديدة التى تولت نشرها جريدة (ترجمان احوال) لصاحبها شناسى بالتعاون مع مجموعة من المثقفين الاتراك المتأثرين بالادب الاوربى والذى كان لهم الفضل الاكبر فى ادخال الاصطلاحات الجديدة على مفاهيم (القانون) و(الوطن) و(القومية) و(الدولة) ، رغم أن اللغة العلمية التركية بقيت تحت تأثير اللغة العربية ، حيث نجد ان المعجم الطبى التركى الذى تم تأليفه فى هذه الفترة قد تضمن حوالى (30) ألف كلمة عربية او تركية مستولدة عن العربية او منحوته منها (21) .

واذا كانت فترة الانقلاب العثماني (بعد عام 1908) قد شهدت دخول الاصطلاحات الاجتماعية والفلسفية الى اللغة التركية الا ان الجيل العثماني الجديد لذى لم يكن يتقن اللغة العربية ، بدأ باستعمال الالفاظ الفرنسية التى لا يوجد ما يقابلها فى اللغة العربية (22) .

اصبحت الحاجة شديدة الى اعداد معجم تركى يضم الالفاظ العثمانية المتداولة فى عالم الثقافة والادب ، فقام الشاعر المعروف (معلم ناجى) معجمه حصة الالفاظ العربية منها خمسة آلاف كلمة .

وفى عام 1900 طبع الباحث والمؤرخ التركى شمسى الدين سامى (قاموس تركى جمع فيه (31) احدى وثلاثين الف كلمة ، منها (13) ثلاثة عشرة الف لفظة عربية . كما وجدنا فى معجم (مكمل عثمانى لغتى) الذى الفه على نظيما ورشاد عام 1901م أن ثمة (18) ثمانى عشر الف لفظة عربية من مجموع (25) خمس وعشرين الف كلمة التى تضمنها المعجم المذكور .

واذا كانت هذه المعاجم العثمانية تؤكد بوضوح مدى تأثير اللغة العربية باللغة التركية بحيث استطاعت خرق القاعدة المعروفة ، بسيادة لغة الاقوام السائدة سياسيا ، لان الالفاظ العربية كانت تؤلف حوالى 30 ٪ من مجموع الالفاظ العثمانية المتداولة والثقافية فى آن واحد . فان سيادة اللغة العربية

(21) Mustafa Nihad Ozon : Osmanlica-Türkçe Sözlük, İstanbul 1965, S. 15.

(22) محمود الكشغري : المصدر السابق ، ص 5 .

على اللغة التركية استمرت رغم محاولات التثريك ، حتى يوم الناس هذا ، حيث اننا وجدنا في المعجم العثماني التركي الكبير الذي ألفه مصطفى نهاد اوزون عام 1952 ان ثمة حوالي (19) تسع عشرة الف لفظة عربية من مجموع (40) اربعين الف كلمة يتضمنها المعجم المذكور . كما بلغ مجموع الالفاظ العربية في المعجم العثماني - التركي للاستاذ فريد دهوه الى اوغلو المطبوع عام 1970 حوالي (20) عشرين الف لفظة من مجموع الخمسين الف لفظة عثمانية يتضمنها القاموس المذكور . بينما لا تقل نسبة الالفاظ العربية المدرجة في الطبعة السادسة والاخيرة من المعجم التركي - التركي المطبوع عام 1974 عن (20 ٪) من الكلمات المدرجة فيه .

البحث الثاني

أثر اللغة العربية في اللغة التركية

بدأ الاتراك بالدخول الى الدين الاسلامي اعتبارا من منتصف القرن التاسع وحتى منتصف القرن العاشر الميلادي (23) حتى انهم شكلوا قوة لا يستهان بها في المنطقة لا سيما بعد تشكيل دولة (القراخانيين) الذين وقفوا مع العرب حتى ثورة الفرس في خراسان عام (920 م) (24) كما انتشرت اللغة العربية في جميع الاصتاع التركية في عهد عبد الملك بن مروان بحيث اصبحت لغة العلم ولغة الدولة الرسمية معا . واصبحت مدن حلب وحران ونصيبين والموصل مراكز مهمة للثقافة العربية بحيث بدأت تشع بانوارها على المنطقة كلها لاسيما شبه جزيرة الاناضول الذي بدأ الاتراك بالاستيطان فيه بعد تغلب السلاجقة على البيزنطيين حتى ان مدينة ديار بكر التي سكنها الاتراك واصبحت مركز السلطة السلجوقية الاولى كانت اللغة العربية سائدة فيها اكثر من اللغة الفارسية بل ان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة السلجوقية والدويلات التي تأسست في الاناضول حتى القرن الثالث عشر الميلادي (25) .

واذا كانت اللغة العربية قد انحسرت من الكتابات الرسمية وتركزت محلها للغة الفارسية التي اصبحت اللغة الرسمية للدويلات التركية ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي غير ان بصمات اللغة العربية واضحة على اللغتين الفارسية والتركية سواء بسواء حتى القرن الخامس عشر عندما اصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدولة العثمانية في عهد السلطان مراد الثاني (1421 - 1451) الذي شمل برعايته العلماء والشعراء والموسيقيين (26) .

Agah Sirti Levend : Türk Dilinde Gelisme Ve Sadelesme Evreleri, ankara (23) 1972, S. 3.

Ibid, S. 3. (24)

Ibid, S. 6. (25)

(26) فنون الأدب الشعبي التركماني ، ص 26 .

لقد بدأ تأثير اللغة العربية باللغة التركية منذ بدايات القرن العاشر الميلادي واستمر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، لذلك سوف نحاول دراسة هذه الفترة الطويلة من خلال :

1 - اثر القرآن الكريم فى اللغة التركية :

لم يقتصر تأثير اللغة والثقافة العربية على اللغة التركية فحسب ، وانما غزت الثقافة التركية بشكل عام فدخل الكثير من المفردات العربية الى اللغة التركية - بكافة لهجاتها - وتحت تأثير لغة القرآن ابتدع الاتراك ادبا جديدا اسموه (ادب الديوان) وانتقلت اوزان الشعر العربى اليهم ونبغ عندهم شعراء السير العاطفية والبطولية من اصحاب الطرق الصوفية وغيرهم ، اضافة الى المدائح النبوية والنعت الشريف والانفاس البكتاشية والمولوية التى يؤديها الدراويش تقربا لاوليائهم وفق اداء موسيقى خاص .

والمعروف ان معظم هؤلاء الاولياء قد نشأوا بعد القرن الثامن عشر الميلادى تحت تأثير المذاهب والمدارس الفكرية الاسلامية كحامد يسوى (ت 1166هـ) وبكتاش ولى (ت 1273هـ) وجلال الدين الرومى (ت 1334هـ) والشيخ صفى الدين (ت 1334هـ) والشاه اسماعيل الصفوى (ت 1424هـ) واولياء الطرق الملامتية والنقشبندية والقلندية والخلوتية والرافعية والقادرية وغيرها (27) .

كما انتقلت القصص الواردة فى الايات الكريمة الى الثقافة التركية بشكل اسطورى قصة الخضر (عبد الله) الواردة فى سورة الكهف (الآيات 60 - 82) وقصة يوسف (III آية) وقصة ابراهيم (52 آية) واهل الكهف (II آيات) وقصة لقمان (34 آية) اضافة الى قصص الحيوان الواردة فى القرآن الكريم بملاحمها الطوطمية وابعادها الاسطورية . بالاضافة الى انتقال رموز الشر والخير الاسلامية يموتيفاتها العديدة الى مختلف ميادين الثقافة التركية : الادب والفلكلور والفنون ، فرموز الشر تتمثل بالحية السوداء والعجوز الشمطاء او السعلاة او الثنين او زوجة الاب ، بينما تتمثل رموز الخير بالصيد والمارد الرحيم والبساط السحري والحصان والكلب (28) .

واذا كان الشعر التركى الذى نظم تحت تأثير الثقافة الاسلامية يعتمد على اوزان العروض العربية واصول النظم فى الادبين العربى والفارسى من خلال ادب الديوان فان اثر الاسلام لا يبدو واضحا وجليا فى ديوان (قوتادغو بيليك) الذى يعد اول اثر تركى مستقل مكتوب تحت تأثير ادب الديوان وكان مؤلفا من قصيدة شعرية مفرغة من وزن البحر المتقارب فى حين ان هذا الاثر اخذ

(27) د. ابراهيم الداقوتى : تأثير الفولكلور العربى بالفلكلور التركى ، مجلة كلية الآداب - بغداد 21 ، 333 .

(28) د. ابراهيم الداقوتى : المصدر السابق ، ص 336 .

بالوضوح اكثر فاكثر فى الادب الشعبى الذى نشأ على هذا الفرار والذى كان يدور على الاعم حول معراج النبى وسير الاولياء (29) .

اما فى القرن الثانى عشر الميلادى فقد اعتبر ديوان (هبة الحقائق) للشاعر (اديب احمد) الاثر الثانى لادب الديوان ، وقد كان ايضا على شكل قصيدة تعليمية - مثل قوتادغو بيليك - ولكنها تعتمد على ايراد الامثلة فى مضممار الجهل والخسة والتنمية مقابل فوائد الثقافة والعلم والكرم والشهامة وقد كتبت باوزان العروض وعلى شكل رباعيات شعرية اما اشعار (احمد يسوى) المتوفى سنة 1166 م فانها تعد نموذجا للادب الدينى ، حيث جمع اشعاره فى ديوان (الحكمة) ضمنه شكاته عن الحياة الدنيا وعرض فيه صوراً للجنة وجهنم ومداخل الرسول ومعجزاته وارشاداته الدينية والاخلاقية .

واعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى اخذت اللغة التركية تحل محل لغتى الادب العالى الفارسية والعربية ونشأ نثر دينى شعبى استهدف تفسير القرآن وتنمية الحياة الروحية . (30) غير ان اللغة العربية - لغة القرآن - بقيت لغة الاراجيز الدينية ولغة التعليم الدينى والتفسير والحديث والمواالد والافراح والمهرجانات الدينية .

2 - النحو والقواعد

يعد اللغوى التركى محمود الكشغرى اول باحث تركى بل آبا النحو التركى، اذ لم يصل الينا اى اثر فى النحو التركى لمؤلف قبله . حيث كتب مؤلف قبله . حيث كتب مؤلفة القيم (ديوان لغات الترك) عام 466 هـ - 1072 م فى بغداد واهداه الى الخليفة العباسى المقتدى بامر الله ، كما اكد ذلك فى المقدمة التى كتبها لمؤلفه والذى قال فيها :

(وحصرت هذه اللغة باسرها فى ثمانية كتب : اولها منها كتاب الهمز قدمناه تيمنا بكتاب الله تعالى . والثانى كتاب السالم والثالث كتاب المضاعف والرابع كتاب المثال والخامس كتاب ذوات الثلاثة والسادس كتاب ذوات الاربعة والسابع كتاب الغنة والثامن كتاب الجمع بين الساكنين . وجعلت كل كتاب من هذه اكتب شريحتين اسماء وافعالا ، وقدمت الاسماء على الافعال ثم قفوتهما بالافعال مبوبة على مراتبها . الاولى فالاولى ، واستعرت القاب هذه الكتب والابواب من العربية اصطلاحا ، لمعرفة الناس بها (31) .

ان الاثر العربى فى هذا المؤلف واضح لا يحتاج الى بيان ، كما يبدو ذلك جليا من مقدمة الكتاب حتى نهايته ، اذ يدافع محمود الكشغرى عن النحو فى

(29) كارل بروكلمان : الامبراطورية الإسلامية وانحلالها ، بيروت 1961 ، ص 278 .

(30) كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت 1961 ، ص 32 .

(31) محمود الكشغرى : ديوان لغات الترك ، ص 4 - 5 .

مقدمة كتابه ويبين ضرورته وأهميته للمدين ودراسته ، بصورة تذكرنا بمقدمات كتب النحو العربي كما يتضح الأثر العربي أيضا في الشرح المستفيض للأصل الثلاثي والرباعي للألفاظ التركية والذي اقتبسها الكشغري عن اللغة العربية إضافة إلى لجوئه إليها لكي يستمد منها الحجة والدليل لإثبات صحة آرائه لأن لغات الترك تجاري العربية كفرنسي (رهان) على حد قوله في المقدمة التي يعترف فيها أنه أراد أن يبنى كتابه كما بنى الخليل كتاب (العين) من حيث ذكر المستعمل والمهمل ، غير أنه عاد إلى بناء كتابه وفق أسس جديدة تلائم اللغة التركية من حيث إثبات المستعمل وإهمال المهمل طلبا للاختصار .

ولعل خير ما يؤكد الأثر البعيد للنحو العربي في فكر محمود الكشغري ، هو تلك الثروة الهائلة من اصطلاحات النحو العربي التي استخدمها في كتابه (ديوان لغات الترك) كالاغتلال والمجاز والتصريف وأقسام الكلام الثلاثة : الاسم والفعل والحرف . ثم الفاعل والمفعول به والاسم بنوعيه : المفرد والجمع ، والاضافة بضربها : اللفظية والمعنوية والتمييز والمصدر وغيرها . حتى يكاد أن يؤكد الباحث والدارس لهذا الكتاب بأنه كتاب نحو عربي في منهجيته واصطلاحاته وقواعده ، سوى أن الأمثلة التي أوردها المؤلف على ذلك كله كانت من اللغة التركية .

ورغم قيام الاتراك باستبدال الأبجدية العربية المستعملة في كتاباتهم حتى عام 1928 بالأبجدية اللاتينية ، إلا أن الأثر العربي في النحو التركي ظل ثابتا لا يتزعزع وإن كان الآن أقل وضوحا نظرا لطول العهد به ولما اعتراه من متغيرات نتيجة اعتماد اللغة التركية أساسا في التأليف والترجمة بحيث أصبح المصطلح النحوي التركي غير عربي في لغته وإن كان كذلك في أصوله الأولى .

3 - الألفاظ العربية في اللغة التركية :

لا نقصد بالألفاظ العربية في اللغة التركية ، الكلمات المعجمية التي سبق وأن بحثناها في البحث الأول من هذه الدراسة وإنما العناصر اللغوية التي دخلت إلى قواعد وإملاء اللغة التركية ، أو الألفاظ العربية التي اكتسبت معان جديدة في اللغة التركية بحيث فقدت أصولها العربية وجرفها التيار التركي . غير أن ثمة اختلافا وتطابقا بين اللغتين العربية والتركية يجب إيرادها قبل الدخول في بحث تفاصيل الموضوع التي نحن بصددتها .

أ - الاختلافات الكائنة بين اللغتين العربية والتركية :

تعد اللغة التركية من اللغات الالتصاقية التي لا تتغير فيها صورة الكلمة عند استعمالها في الجملة وإنما يكون تصريف الكلمات وتوليدها بإضافات ملحقة بجذر الكلمة . أما اللغة العربية فأنها من اللغات التصريفية التي تتغير أشكال الكلمات لدى استعمالها حسب موقعها من الجمل . إضافة إلى أن البنيان الداخلي للأسماء يتغير لدى تصريفها أيضا .

ولعل الاختلاف الرئيسى بين اللغتين هو ان عناصر الكلام الاساسية تاتي في نهاية الجملة في اللغة التركية ، بينما ترد العناصر المتممة لها في بدايتها . اما في اللغة العربية فان العناصر الاساسية تأتي في بداية الجملة والمتممات في نهايتها .

اما الاختلاف الثالث بينهما ، فهو ان الاشتقاق في اللغة التركية يتم عن طريق الاضافة ، بينما يحدث ذلك في اللغة العربية بالنحت .
كما اود الاشارة الى انه لا توجد في اللغة التركية اسماء تدل على الجمع فقط ، اى لا مفرد لها مثلما هو موجود في اللغة العربية (ابابيل ، نساء) .

ب - التطابق الموجود بين اللغتين العربية والتركية

على الرغم من ان اللغة التركية هي من اللغات القريبة الى عائلة اللغات الهندو اوروبية ، الا انها تشبه اللغة العربية من بعض الوجوه ، وهى :

1 - خاصية اسقاط الرابطة اللفظية في بناء الجملة مثل : اكتب Yaziyoiium

2 - خاصية الاكتفاء بمادة الفعل وحدها وتضمينه الفاعل في همزة او نون او تاء الفعل بينما لا يمكن تطبيق ذلك على اللغات الاوروبية مثلا حيث يجب ايراد الفاعل لفظا .

3 - خاصية الانفتاح والمرونة والقدرة على استيعاب الالفاظ ثم تمثيلها واعادة خلقها من جديد بحيث تأخذ منها وتعطيها وتتبادل الفعل والاثار معها .

ورغم ان الاتراك بدأوا باستعمال الابجدية العربية منذ منتصف القرن العاشر الميلادى عند اتصالهم بالفاتحين العرب الاوائل لمناطق آسيا الوسطى ، غير انهم لم يأخذوا بكافة قواعد الاملاء العربى نظرا لبعض الخواص التي تتمتع بها اللغة التركية لعدم وجود التثنية في اللهجة التركية ، ادى بالعثمانيين الى استعمالها في نطاق ضيق جدا : الحرفين الشريفيين ، حسنين . كما لم يستعمل الاتراك المونث السماعى ، لعدم وجود التأنيث في اللغة التركية ، حيث أخذوا منه فقط ثلاثة الفاظ هي : الشمس والنار والنفس .

ادى اخذ الاتراك لقواعد الاملاء العربية وحاجتهم الى استعمال الشدة والتشديد في الالفاظ الى تكرار الحروف في الالفاظ المشددة Sarraf , Ressam لانه لا يجوز استعمال حرفين صامتين جنبا الى جنب في اللغة التركية . كما استعمال الاتراك التاء المفتوحة بدل التاء المغلقة (المدورة) في الاسماء المذكورة والمؤنثة : حكمت ، مروت ، عصمت .

ولما كانت اللغة التركية تفتقر الى الاصوات التي تقابل اصوات الحروف العربية : الهمزة والتاء والحاء والخاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء والعين (32) فان حرف الزاى في اللهجة العثمانية وحرف Z في اللغة التركية

(32) فاروق تيورتاش : عثمانليجه ، ص 47 .

التركية اللاتينية كان يقابل حروف : ص ، ض ، ث ، ذ ، في الكلام فقط بينما كانت تكتب بشكلها العربي في لغة الكتابة . كما ان حرف (ت = T) يقابل حرف الطاء وحرف (س = S) يقابل حرف الصاد بالإضافة الى حرف السين التركية ، وحرف الهاء يقابل حرفي خ و ح اما الهمزة والعين ، فقد استعمل بدلا عنهما اشارة خاصة كالفارزة او الهلال في الكتابة ، اما عند الكلام في اللغة التركية اللاتينية فتستعمل الوقفة الدالة على الهمزة بدل العين والهمزة .

وقد اكتسبت بعض الالفاظ والكلمات العربية - بمرور الزمن - معان ودلالات لا يعرفها الآن ابناء العربية انفسهم (33) : فكلمة (عطف) تعنى فى اللغة التركية (الاحالة القانونية) وكلمة (ذى اليد) تعنى (الحيازة) وكلمة (اختلال) تعنى (الانقلاب العسكرى) و(المخطرة) تعنى (المذكورة السياسية) وكلمة (اللاقيد) تعنى (عدم الالتزام) وغيرها كثير .

4 - تأثير الفلكلور العربى فى الفلكلور التركى

لا يساهم علم الفلكلور فى القاء الضوء على تاريخ ثقافة معينة فحسب وانما يسعى الى تحليل التأثيرات المتبادلة بين المختلفة ، سواء بين الثقافات الاوروبية المتقدمة ، او بين ثقافات العالم الثالث المتخلقة او بين الثقافات المتقدمة والمتخلقة . عبر العصور التاريخية التى التقت فيها هذه الثقافات فاختلطت وتمازجت الى حد ما او بقى بعضها تحت تأثير البعض الآخر بل ربما كانت احدى هذه الثقافات هى الثقافة السائدة لفترة طويلة من الزمن (34) .

واذا كانت الدراسات الحديثة فى الفلكلور قد اطلعت على هذه العملية المعروفة فى الانثروبولوجيا الثقافية تسمية (التثقف من الخارج) والذى يشمل على : تلك التغيرات التى تحدث فى ثقافة معينة بتأثير ثقافة اخرى والذى ينتج عنه ازدياد التشابه بين الثقافتين المعنيتين : وقد يكون هذا التأثير متبادلا او طاغى التأثير من جانب واحد . (35) فيجب ان يكون هدف الدراسات الفولكلورية المقارنة استخلاص الطابع القومى وشخصية الامة من هذا الخليط الثقافى الذى يمتد الى مئات السنين والذى يغطى مساحات جغرافية شاسعة قد تشمل الكرة الارضية ولذلك اود - بهذه المناسبة - ان اؤكد بأن هذه الدراسة الموجزة سوف لن تستطيع ان تستوعب كافة النماذج الفولكلورية التى توضح

(33) د. ابراهيم الداوقى : الأدب التركي المعاصر ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد الثالث عشر - العدد الأول 1982 ، ص 115 .

(34) للتفصيلات أنظر :

د. ابراهيم الداوقى : تأثير الفولكلور العربى بالفلكلور التركى ، مجلة كلية الآداب - بغداد ، العدد 21 ، ص 329 - 367 .

(35) الدكتور محمد الجوهري : علم الفولكلور ، دار المعارف بمصر - القاهرة 1975 ،

مدى الالتقاء والاندماج بين الفولكلورين العربى والتركى وانما سنركز على بعض النماذج فقط بالاعتماد على اقدم المصادر فى هذا المجال على ان التوسع فى هذا الموضوع مستقبلا .

ولا بد لى - فى هذا الصدد - من ابداء بعض الملاحظات التى تلقى الاضواء على جوانب تأثير الفولكلور التركى بالفولكلور العربى .

اولا - ان تأثير الفولكلور العربى لا يقتصر على اللهجة التركية المتداولة فى الجمهورية التركية اليوم ، وانما يمتد الى كافة اللهجات التركية التى يتلاغى بها الاتراك فى الساعات الواسعة الممتدة من شمال الصين الى البحر الابيض المتوسط وبكل لغاتها ولهجاتها .

ثانيا - تأثير الفولكلور التركى بالفولكلور العربى منذ القرن العاشر الميلادى، حيث تأثروا بكل القيم الجديدة التى اتى بها الاسلام ، وقد ظهر التأثير واضحا جدا فى امثالهم واساطيرهم وعقائدهم ومعارفهم الشعبية .

ثالثا - لم تقتصر تأثير الثقافة العربية على الفولكلور لدى الاتراك فحسب ، وانما غزت الثقافة التركية بشكل عام فدخل الكثير من المفردات العربية الى اللغة التركية - بكافة لهجاتها - وانتقلت اليهم اوزان الشعر العربى ونبغ عندهم شعراء السير العاطفية والبطولية : سيرة ليلى والمجنون وبطلان غازى وظاهر وزهرة وغيرهم .

رابعا - ان بعض العادات التركية القديمة - التى كانت معروفة لديهم قبل الاسلام - قد تحولت ، بفعل الديانة الاسلامية الى تقاليد اسلامية وشعائر دينية تمارس فى المناسبات الاسلامية المعروفة : تحولت رقصات الشامانيين الى رقصة (السماع) التى يؤديها الدراويش المولويون ، كما تحولت الملامح الطوطمية التركية الى عقيدة (تناسخ الارواح) ثم الى تقديم الضحايا والقربان كصورة من صور قصة ابراهيم (ع) وابنه اسماعيل (ع) ، وتحول الطيران الخرافيان العربى (عنقاء) والفارس (سميرغ) الى طير خرافى تركى جديد باسم (سمر عنقاء) او (زمر عنقا) او (زمرد عنقا) .

خامسا - تأثرت الفنون الشعبية التركية بالفنون العربية من حيث الاسس والخطوط العامة التى توضح نقاوة الشكل والتعبير فى العمل الفنى : انتقال العديد من المقامات الموسيقية العربية الى الفنون التركية بالاضافة الى الآلات الموسيقية العربية كالعود والربابة والايقاع الذى يطلعون عليه (دريكا : ضرب وايقاع) كما تأثرت الفنون التشكيلية التركية بالفنون العربية ولا سيما فى مجالات الخط العربى والارابيسك ورموز الفن العربى حيث استعملت فى الاشغال اليدوية والجداريات والفخاريات واعمال الخشب والتطعيم بالصدف والحياكة .

اما بالنسبة الى الازياء والحلى فقد انتقل العديد منها الى الاتراك ولا يزال الاتراك يستعملونها الى اليوم : الاحرام ، البجاد ، البرنسى ، الجبه ، التاج

الخرقه ، الدملج (الدملج) ، الفرطة ، القفطان ، وغيرها . كما عرف المطعم التركي العديد من الاكلات العربية : الحمص ، الكبة ، اللبلى ، المحلى ، القطايف ، المصقا (المصقع) والمافيش وغيرها .

سادسا - تقتضى الامانة العلمية ان اشير هنا الى ان تأثير الفولكلور التركي بالفولكلور العربى لا يعنى عدم تأثير الفولكلور العربى بالفولكلور التركى ، فثمة جوانب عديدة من الفولكلور العربى تأثرت بالفولكلور وهو امر طبيعى لتفاعل ثقافات المنطقة والتأثير المتبادل لهذه الثقافات التى انصهرت فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

5 - الترجمة بين اللغتين العربية والتركية :

يعد كتاب (ديوان لغات الترك) اول كتاب يتم تأليفه باللغة العربية من قبل مؤلف تركى هو الكاتب اللغوى محمود الكشغرى مام 466 هـ - 1072 م ولم يكن هذا الكتاب سوى ترجمة قواعد اللغة التركية الى اللغة العربية كمحاولة لتعليم العرب هذه اللغة الجديدة التى بدأت بالانتشار فى المناطق الواسعة نتيجة سيادة العنصر التركى ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى . غير ان ترجمة الاصطلاحات العلمية والفنية العربية الى اللغة التركية قد بدأت منذ بدايات القرن الحادى عشر نظرا لحاجة اللغة التركية الى استيعاب تلك الاصطلاحات من جهة ولتعليم الاتراك بقواعد واسس الدين الاسلامى من جهة اخرى (36) .

الا ان الترجمة بين اللغتين العربية والتركية لم تقتصر على ترجمة الاصطلاحات العلمية والفنية فقط ، وانما يتعدى ذلك الى ترجمة امهات الكتب العربية فى مختلف فنون المعرفة الى اللغة التركية لا سيما كتب الفقه والدين والتفسير وترجمات آيات القرآن الكريم . وقد كانت ترجمة با يزيد جاندادار اوغلو لتفسير القرآن الكريم اول تلك الكتب الدينية المترجمة الى اللغة التركية (37) . اما الكتاب الثانى فقد كان (جواهر الاصداف) حول مناسك الحج (38) . ثم توالى الترجمة الى اللغة التركية من قبل المترجمين : خضربك خضر بك (ت 1458) فى (تفسير آية يس) و سنان باشا (1440 - 1486) فى (تضرعنا) و (تذهيب الاخلاق) وعاشق جلبى (1517 - 1571) فى التبر المسبوك فى نصائح الوزراء والملوك وغيرهم .

اما فى مجال النظم ، فان اثر اللغة العربية والمحسنات البديعية يظهر واضحا فى مؤلفات : منطق الطير الذى الفه كولشهرى عام 1317 م وغريبنامه عاشق بانا الذى الفه عام 1329 م وسهيل ونوبار للشاعرين خوجا مسعود وعز الدين

(36) مجسوعة علوم (مجلة العلوم) العدد الأول ، 1 ذي الحجة 1296 هـ - 1878 م .

(37) CL. Huart : Journal Asiatique 1821, PP. 161 — 162

(38) مخطوطة محفوظة فى مكتبة السليمانية باسطنبول ، قسم قليج عى باشا رقم 78 . نقلا عن : آكاه لاون : المصدر السابق ، ص 34 .

احمد الذى الفاه عام 1350 م واسكندر نامة الاحمدى الذى الفه عام 1390 م ومولود نامة شريف لسليمان جلبى (ت 1412) ومجنون ليلى لفضولى البغدادي (1488 - 1556) وغيرهم .

كما قام المترجمون الاتراك بترجمة مصادر اللغة والادب والشعر العربى الى اللغة التركية اضافة الى قيام الدولة العثمانية بعد ادخال المطبعة الى الولايات العثمانية لطبع تلك المصادر باللغة العربية وترجماتها باللغة التركية .

المبحث الثالث - اثر اللغة التركية فى اللغة العربية

عندما تأسست الدولة العثمانية واستقرت لها الاوضاع بعد فتوحاتها الاوربية والافريقية . . . اتخذت اللغة التركية لغة رسمية لها فتقهقرت اللغتان العربية والفارسية وسادت اللغة التركية التى سميت فيما بعد بـ (لغات عثمانية) التى كانت مزيجاً من لغات الشعوب الاسلامية فى الاتحاد العثمانى .

واذا كان الشباب العثماني بدأ بالمطالبة بالدستور واطلاق الحريات العامة منذ القرن التاسع عشر ، كما تزعم شاعر الوطن التركى (ناطق كمال) حركة التجديد فى اللغة العثمانية والتى كانت تستند الى اساسين : (39) .

الاول - تنقية اللغة من الالفاظ الدخيلة وايجاد الفاظ تركية صميمة لتحل محلها والاستناد فى ذلك على ادب الشعب الشائع فى الدولة العثمانية .

الثانى - تبذ ادب الديوان وخلق ادب جديد يرتكز على الواقعية ويعبر عن امال الشعب التركى وآلامه .

الا انه لم يكتب النجاح لحركة التجديد فى اللغة التركية الا بعد تأسيس الجمهورية التركية الحديثة عام 1923 . غير ان ثمة حاجة لدراسة حركة تجديد اللغة العثمانية وسياسة التتريك التى اتبعها الاتحاديون سياسياً وثقافياً لكل نصل الى النتيجة التى نتوخاها من دراسة هذا البحث .

1 - حركة التتريك :

نمت اللغة التركية وترعرعت فى ظل الابجدية العربية لا سيما بعد ميلاد (ادب الديوان) تحت تأثير الاسلامية حتى مطلع القرن العشرين عندما دعا كل من حسين جاهد يالجين وقليج زاده حقى وجلال نورى ايلرى ، الى استبدال اللاتينية حيث كتب حسين جاهد يالجين اول مقال حول الموضوع فى جريدة (طنين) بتاريخ 31 كانون الثانى 1910 وقليج زاده حقى فى مجلة (حرية فكرية) فى 22 مارس 1911 وجلال نورى فى احدى مؤلفاته (40) فى العام نفسه على

(39) ابراهيم الداوقوي : فنون الأدب التركماني ، ص 14 .

(40) آكاه سري لاون : ادوار اللغة التركية (بالتركية) انقرة 1960 ، ص 287 .

اعتبار ان الابجدية اللاتينية اكثر ملاءمة للتركية ومسايرة لروح العصر وذلك تشبها بالغرب . الا ان هذه الفكرة واجهت معارضة شديدة من بعض المفكرين الذين وجدوا فيها محاولة الروابط بين الاترك والعالم الاسلامي من جهة ولقطع صلة الجيل الجديد بالتراث الثقافى التركى القديم من جهة اخرى . (41) ولذلك فقد جرت محاولات لاصلاح الابجدية العثمانية بحيث تفى بحاجة اللغة التركية فابتدع (اسماعيل حقي) طريقة جديدة لكتابة الابجدية العربية ، كما اقترح انور باشا كتابة حديثة لتيسير قراءة الابجدية العربية بالنطق التركى ، الا ان هاتين المحاولتين لم تصادقا نجاحا ولا ذيوغا (42) فتشكلت لجنة دراسة موضوع اللغة العثمانية وبكل مشاكلها ، فقامت بتنقية هذه اللغة من بعض الكلمات الدخيلة ، غير انها لم تستطع البت فى موضوع الابجدية الملائمة للغة التركية . وخلال هذه الفترة قويت الدعوة الى تغيير الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيما بعد ان طرح اللغوى النمساوى هـ . ف . كويرغيج (نظرية الشمس) فى اللغة التركية (43) التى تقول بان اللغة التركية كانت - خلال العصرين الحجرى والحديثى - لغة الثقافة ومنها انتقلت الالفاظ الحضارية الى اللغات الاخرى (44) .

واذا كان الاتحاديون (1908 - 1916) قد حاولوا تسييس التتريك فى كل الاقاليم العثمانية ، الا ان حركة التتريك فى اللغة استمرت خلال الحرب العالمية الاولى وبعد انحلال الامبراطورية العثمانية وتشكيل الجمهورية التركية الحديثة التى تبنت (نظرية الشمس) وفكرة استبدال الابجدية العربية بالابجدية اللاتينية لا سيما بعد ان قدم نظمى الازميرلى - مع اثنين من رفاقه - اقتراحا حول ذلك الى المؤتمر الاقتصادى المنعقد فى ازمير عام 1923 ، غير ان المؤتمر صرف النظر عن الموضوع لانه خارج اختصاصه وبعث رئيس المؤتمر المارشال (كاظم قره بكر) بالاقترح المذكور الى وزارة التعليم للنظر فيه . وقد بدأت الوزارة المذكورة باجراء الدراسات حول الاقتراح المذكور منذ ذلك التاريخ ، وعندما انعقد مؤتمر الشعوب التركية فى باكو عام 1926 ، لدراسة مشاكل اللغة والكتابة التركية وافق المؤتمر على احوال الابجدية اللاتينية محلل العربية (45) وقد طبقت الابجدية اللاتينية فى اذربيجان السوفيتية منذ عام 1922 بدلا من الابجدية العربية ، غير انها استبدلت بالابجدية الكيريلية عام

(41) د. ابراهيم الداوقى : الأدب التركى المعاصر ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد الثالث عشر - العدد الأول 1982 ، ص 73 .

(42) د. مجيب المصري : تاريخ الأدب التركى ، القاهرة 1951 ، ص 537 .

(43) آكاه سرى لاون : المصدر السابق ، ص 23 .

(44) أهمية هذه النظرية بعد الحسينات ، وان كان بعض الفئات القومية التركية المتطرفة متمسكة بها الى الأبد .

(45) د. حسين مجيب المصري : المصدر السابق ، ص 537 .

1939 ، كما استعملت الابجدية الكيريلية بدلا من الابجدية العربية فى جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية اعتبارا من عام 1927 . اما فى تركيا فان وزارة التعليم قد اتخذت قرارا بعد دراسة التقرير الآنف الذكر المقدم اليها - باستعمال الرموز اللاتينية فى الجامعات والمعاهد العالية فى دروس الفيزياء والكيمياء والرياضيات اعتبارا من العام 1927 كما قامت ادارة البريد التركية بطبع عبارة (البريد التركى) باللاتينية على الطوابع البريدية فى السنة نفسها وقامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة لاعداد ابجدية تلائم اللغة التركية من الابجدية اللاتينية، وقد قامت هذه اللجنة باعداد تلك الابجدية فى منتصف عام 1928 (46) .

وفى اغسطس 1928 اعلن مؤتمر المغويين المنعقد فى (سراى بورنو) باستابول عن قبوله الابجدية التركية الجديدة (47) وفى الاول من تشرين الثانى 1928 وافق مجلس الامة التركى على قانون الابجدية التركية الجديدة التى تتألف من (29) حرفا . اما الاقليات التركية الموجودة فى الصين وايران والعراق واليونان فانها لا تزال تستعمل الابجدية العربية فى كتاباتها نظرا للصعوبات التقنية او اعتزاز منهم بلغة القرآن وبالثقافة العربية (48) .

2 - الالفاظ التركية فى اللغة العربية :

عندما تسود قومية او امة معينة فى منطقة جغرافية محددة ، فان لغتها تسود ايضا كظاهرة اجتماعية فى التعامل اليومى وكأداة سياسية لتفاهم المحكومين مع الحاكمين وبالعكس ، وهكذا فقد سادت اللغة التركية فى العهد العثمانى فى كافة الولايات العثمانية . ولقد روى الشاعر العراقى المرحوم معروف الرصافى الحادثة التالية للدلالة على وجود الالفاظ التركية فى اللغة العربية حيث قال : (49) «لقد اجتمعت ببغداد مرة باحد مأمورى الحكومة فى مجلس حافل فاخذ يكلم بعض الحاضرين هكذا : رحنا الى بيت فلان فلما دخلنا السلامك صعدنا فوق وكانت باية من بايات النردبان قريق وبما ان النردبان كان قرانلق عثرت رجلى نه ايسه صعدنا ودخلنا الاوده وقعدنا بصورة قارما قارشيق وكان الضياء سونك فحصل عندى صقينتى» .

ويقول الدكتور حسين على محفوظ عن تأثير اللغة التركية فى اللغة العربية: (عرف الناس اللسان التركى فى زمن السلجوقيين وقد انتشرت التركية من بعد ، ايام الفتح العثمانى خاصة ، وتسربت الفاظها فى العامية اذ اوجبها الحاكمون وفرضها الامراء وظهرها الجند الاتراك على شيوخها انها كانت لغة

(46) أنور ضيا قارال : تاريخ الجمهورية التركية (بالتركية) استانبول 1960 ، ص 161 .

(47) سرور ايسكيت : حركة النشر فى تركيا (بالتركية) استانبول 1939 ، ص 184 .

(48) د. ابراهيم الداوقى : الأدب التركى المعاصر ، ص 75 .

(49) انستاس مارس الكرملى : مجلة لغة العرب ، الجزء الرابع لسنة 1911 والكلمات التى تحتها خط هي كلمات والفاظ تركية .

الحكم والقضاء والتعليم والتدريس فذاعت تراكيبيها وفشا استعمالها وظلت الناس تهج بها نحواً من أربعة قرون وما زالت اشارة موجودة في الالقاب والانساب والاسماء والتعبير (50) .

ومن هنا فقد احصى الدكتور حسين علي محفوظ حوالى (500) لفظة تركية في اللهجة العامية العراقية (51) كما يمكننا القول بان ثمة ما لا يقل عن (400) لفظة تركية في اللهجات العامية العربية المتداولة في شمال افريقيا وسوريا واليمن ولبنان والاردن ، وحوالى (350) لفظة تركية في لهجات دول الخليج العربى .

وقد دخلت الالفاظ التركية الى اللهجات العربية بطرق عديدة والتي يمكننا حصرها بما يلي :

أ - النحت والتحريف : ان بعض الالفاظ التركية قد نحتت او حرفت لتصبح الفاظا عربية فى بعض اللهجات . فكلمة (اوهت = نعم) التركية اصبحت (ابوهت) فى اليمن و(ايوه) فى مصر وبالمعنى نفسه . كما حرفت لفظة (برداها = مره اخرى) التركية الى (برده) ومن ثم الى (برضه) فى اللهجة العامية المصرية . وكلمة (بورون اوتو = عشب الانف = انفيه) التى تعنى السعوط قد انقلبت الى (برنوطى) وبالمعنى نفسه فى اللهجة العامية العراقية .

ب - اضافة الصفة القياسية (لى ، جى) او كاسعة السلب والنفي (سز) الى الالفاظ العربية لتتقلب الى الالفاظ التركية ومن ثم نستعملها وكأنها ذات جذور او اصول تركية ، ولا سيما فى الاسماء والالقاب : مطبجى ، قامجى ، قصابجى ، قلمجى ، كتابجى ، او : ادبسز ، عاسز ، وجدنسز ، او : قلعه لى ، لى بغداد لى ، حقه لى ،

ج - دمج كلمتين او لفظين عربيين مع بعضهما لتصبحا كلمة جديدة ، ومن ثم تنتقل الى اللهجات العربية وكأنها لفظة تركية : دمج كلمة (عرض) مع كلمة (حال) لتصبحا لفظة (عرضحال) التى تعنى العريضة ، او كتاب الاسترحام ومثل دمج كلمة (علم) مع كلمة (خبر) لتصبح كلمة جديدة (علم وخبر) التى تعنى ورقة الايصال او التبليغ بأمر ما . ومثل دمج كلمة (قائم) مع كلمة (مقام) لتصبح (قائممقام) التى تعنى رتبة عسكرية او وظيفة ادارية .

د - ثمة الفاظ عربية تستعمل فى اللغة التركية بغير صيغتها بحيث توحى الى القارىء بانها تركية الجذور وقد انتقلت بصيغتها الجديدة الى اللهجات العربية فكلمة (قلا بالغ) التى تعنى الزحام والفوضى ، هى فى الاصل كلمة

(50) د. حسين علي محفوظ : مجسوة الألفاظ التركية في اللهجة العراقية ، مجلة التراث الشعبي ، السنة الأولى - العدد السادس ، شباط 1164 ، ص 33 .

(51) د. حسين علي محفوظ ، المصدر السابق ، ص 33 - 56 .

عربية (غلبه) مع اضافة (لك) التركية لتصبح (غلبه لك) التي انقلبت الى قلا بالغ . او اسم العلم المصرى (ميرفت) الذى هو بالاصل لفظة عربية صميمه (مروت) العثمانية ثم لتصبح كلمة تركية بلفظه (ميرفت) الصحيحة .

هـ - انتقلت العديد من الالفاظ التركية الصحيحة الى اللهجات العربية ايام الاحتلال العثماني ولا تزال تستعمل فيها : افندى ، الجق ، بكباش ، اياق ، اوده ، اورطه آغر ، باش ، بوش ، تبسى ، خانم ، دوغرى ، زبون ، رشمة ، شب ، شيس ، طاس ، فيس ، قيغ ، كاهى لاجين ، منديل ، ياخه ، يدك ، يواش ، وغيرها .

3 - محاولات لتعليم اللغة التركية لاءبناء الضاء

يعد الباحثون الاتراك الفترة الكائنة بين القرن الثالث الهجرى ومنتصف القرن العاشر الهجرى الفترة الذهبية للغة التركية لان الاتراك كانوا يسيطرون على الساحات الواسطة الممتدة من الصين شرقا الى المجر غربا ومن انهار الشمال المتجمدة الى الهند وبلاد العرب جنوبا (52) .

ونظرا لسيادة الاتراك على الاقطار العربية خلال تلك الفترة فقد سادت لغتهم ايضا ، فتوسل العديد من المؤلفين ، العرب والاتراك الى تأليف الكتب التى تعلم العرب هذه اللغة الجديدة كحاجة يومية ، بل ان بعضهم اضىفى القدسية على هذه العملية ، من خلال ايراد بعض الاحاديث النبوية المنحولة امثال : (تعلموا لسان الترك فان لهم ملكا طوالا) او (يقول الله تعالى ان لى جندا اسميتهم الترك واسكنتهم المشرق فاذا غضبت على قوم سلطتهم عليهم) (53) .

ويمكننا تقسيم الادوار التى مرت على عملية تعليم اللغة التركية للعرب الى ثلاثة فترات تاريخية هى :

الفترة الاولى - وهى عهد سيطرة الدويلات التركية والمغولية والتركمانية فى المشرق العربى والماليك فى مصر والسلاجقة فى الشام ، حيث تم تأليف الكتب التالية :

I - ديوان لغات الترك المحمود الكشغرى الذى الفه فى بغداد عام 466 هـ - 1072 م .

2 - كتاب (جواهر النحو فى لغات الترك) لمحمود الكشغرى. الذى الفه فى بغداد ايضا فى القرن الحادى عشر الميلادى الا انه لم يصل الينا (54) .

Besim Atalay : Divuanu Lugat — it — Türk Ter cemesi, C. I, T D K, Ankara(52) 1939, S. VIII,

Ibid, S. XVII. (53)

Ibis, S. XI. (54)

3 - كتاب (حلية الانسان وحلبه اللسان) لجمال الدين بن مهنا (معجم ابن مهنا) الذي يعتقد بأنه الفه اواخر القرن الثالث عشر او بداية القرن الثالث عشر او بداية القرن الرابع عشر او بداية القرن الرابع عشر (55) وكان مكتوبا بخليط من اللغات التركية : الجفطائية والتركمانية والكشغرية والاويفورية .

4 - كتاب (مجموع ترجمان تركي وعربي ومغولي وفارسي) الذي استنسخه خليل بن محمد بن يوسف القونوي عام 1245 م وهو لمؤلف مجهول ويسعى الى تعليم اللغة القبقاقية التركية التي كانت متداولة في مصر ، الى العرب . وقد نشره المستشرق الالماني هو تسما عام 1894 في ليدن بعنوان (المعجم التركي - العربي) (56) .

5 - كتاب (الادراك للسان الاتراك) الذي الفه ابن حيان الغرناطي في القاهرة عام 712 هـ (1312 - 1313 م) لتعليم اللغة القبقاقية التركية الى العرب . وقد تم طبعه في استانبول عام 1309 هـ .

6 - كتاب (الدرة المضيئة في اللغة التركية) الذي ذكره الكاتب المصري (ملا صالح) في نهاية كتابه (الشذور الذهبية) واكد بأنه قد راه وبان الكتاب المذكور كان من تأليف ابن حيان الغرناطي (ت 745 هـ - 1344 م) (57) .

7 - وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ، قام العديد من المؤلفين المجهولين بتأليف عدة كتب لتعليم اللغة التركية ، ولا سيما القبقاقية ، للعرب ومن هذه الكتب : (58) .

أ - القوانين الكلية لضبط اللغة التركية ، نشره البروفسور فؤاد كوبرلي في استانبول عام 1928 .

ب - بلغة المشتاق في لغة الترك والقفجاق ، لم يصل اليها هذا الكتاب .

ج - زهر الملك في نحو الترك - لم يصل اليها .

د - الافعال في لسان الترك - لم يصل اليها .

هـ - نادر الدهر على لغة ملك العصر - ذكره جمال الدين بن مهنا في معجمه .

و - قصيدة قواعد لسان الترك - ذكره ابن مهنا في لعجمه .

ز - كتاب حلي الملك - لم يصل اليها .

(55) Ibnu Muhanna Lugati, istanbul 1934, S. I.

(56) توري يوزف : .اون دوردنجي عصر صوكلرنية قدر تورك ديلى يادكارلاري ، مللي تنبلر مجموعه سي ، ج 4 ، ص 133 .

(57) ملا صالح : الشذور الذهبية والقطع الأحمدية في اللغة التركية ، تحقيق بسيم آتالاي ، استانبول 1949 ، ص 71 المقدمة .

Besim Atalay : Op. cit. S. VII — IV. (58)

ح - كتاب تحفة الملك - لم يصل إلينا .

ط - التحفة الزكية فى اللغة التركية - نشره المجمع اللغوى التركى فى
اتقره عام 1934 هو مؤلف مجهول .

الفقرة الثانية - العهد العثمانى : على الرغم من ان الدولة العثمانية قد
تأسست - فعليا - بعد عام 1299 / 1300 الميلادى غير ان الاثار الثقافية
العثمانية لم تظهر الا بعد فترة طويلة من هذا التاريخ . اما المؤلفات الخاصة
بتعليم اللغة التركية فقد ظهرت اوائل القرن السادس عشر وكان اهمها :

1 - ديوان تركى بسيط مؤلفه ادرنه لى نظمى الذى الفه اوائل القرن السادس
عشر وطبع فى استانبول عام 1928 .

2 - مؤلفات الكاتب المصرى (ملا صالح) الخاصة بتعليم اللغة التركية للعرب،
وقد كان الكاتب مدرسا للمدرسة الاشرفية فى مصر وكان لا يزال يعيش عام
1029 هـ . وهذه المؤلفات هي : (59)

1 - الاقنوم فى لغة الروم .

ب - الرجمان فى لغة آل عثمان .

ج - قاموس الاروام .

د - الشذور الذهبية والقطع الاحمدية فى اللغة التركية .

3 - البرهان القاطع لاحمد عاصم افندى المؤلف عام 1797 .

4 - لهجة اللغات لمحمد اسعد افندى المؤلف عام 1801 .

5 - اللغات النوائية والاستشهادات الجفظائية الذى نشره المستشرق
الفرنسى يافيت دى كورتل فى باريس عام 1880 وهو مؤلف مجهول .

6 - لهجة عثمانى لاحمد وفيق باشا المؤلف عام 1888 .

7 - مؤلفات احمد فارس الشدياق اللغوية (ت 1887) التى طبعها فى
استانبول عندما كان يقوم باصدار مجلته (الجوائب) فيها .

8 - كتاب (كنز اللغة العثمانية) مؤلفه مصطفى افندى سليمان زاده الشريف
الحلبى ، المطبوع بمشق الشام سنة 1329 هـ (1902) .

9 - المعجم العثمانى المصور مؤلفه على سيدى المطبوع عام 1330 هـ - 1913 م

الفقرة الثالثة - العهد الجمهورى : على الرغم من قيام الثورة الكمالية بتغيير
الابجدية العربية المستعملة فى الكتابة التركية بالابجدية اللاتينية عام 1928
وتبنيها لنظرية الشمس فى اللغة التركية ، غير ان اخطر الاراء تطرفا التى

اطلعت على ساحة اللغة التركية هي الفكرة التي نادى بها البروفيسور نعيم حازم اونات ، عضو المجمع اللغوي التركي عام 1932 . ووضعها حين التنفيذ عام 1944 بمؤلفه الموسوم (اللغة التركية أساس اللغة العربية) (60) والتي تدعى ان اللغة العربية ما هي الا صورة مشوهة عن اللغة التركية لان تلك اللغة اخذت عن التركية قواعدها واصولها وضماؤها وتراكيبها ، بل وجذور كلماتها .

غير انه لم يكتب لهذه الفترة الذبوع والانتشار في تركيا نفسها ، رغم قيام المجمع اللغوي التركي بطبع المؤلف المذكور خلال 1944 - 1951 ، لان الاتراك انفسهم نقدوها قبل غيرهم . اذ كان الاساس الذي استند اليه اللغويون في الاخذ بالابجدية اللاتينية بدل الابجدية العربية هو زعمهم ان اصوات اللغة العربية لا تلائم اصوات اللغة التركية ، اضافة الى ان اللغة العربية هي من اللغات التصريفية ، بينما اللغة التركية هي من اللغات الالتصاقية . كما ان اللغات التصريفية تعد ذروة التطور والكمال في اللغات المعروفة اليوم كاللغات الهندو - اوروبية واللغة العربية ، بينما لا تشكل اللغة التركية عائلة لغوية ، وانما هي تنتمي - حسب الدراسات اللغوية الحديثة - الى (مجموعة لغوية) قد تؤدي الدراسات في المستقبل الى اكتشاف الاصول المشتركة لتلك المجموعة (61)

واذا كانت هذه الدعوات المتطرفة قد ولدت في فترة حكم الحزب الواحد 1923 - 1950 ، فان تعدد الاحزاب في تركيا ، بعد الحرب العالمية الثانية ، ونشوء معارضة ليبرالية قوية على الطراز الغربي وتنامي التيارات الاسلامي ، لا سيما بعد مجيء الحزب الديموقراطي الى الحكم ، ادى الى الاهتمام باللغة العربية مرة اخرى فقامت الجامعات التركية بفتح اقسام اللغة التركية في عهد حكم الحزب الواحد ، كما كثرت مدارس الائمة والخطباء - التي يتم فيها تدريس اللغة العربية الى جانب القرآن والفقه والتفسير - في طول البلاد وعرضها . . . اضافة الى تأسيس كلية الالهيات في جامعة انقره التي تقوم بتدريس المذاهب الاسلامية والفقه الاسلامي وعلم الكلام وغيرها من العلوم الدينية .

ورغم ان المجمع اللغوي التركي قد سعى ومنذ عام 1936 الى تترك الكلمات الاجنبية الموجودة في اللغة التركية واستطاع ان يجمع حتى عام 1952 ما يقرب من (275) ألف لفظه تركية من افواه الناس ومن كتب ومن كتب التراث التركي (62) الا ان اللغة العربية لا تزال تضرب جذورها بعمق في ارضية

Prof. Naim Hazim Onat : Arap canin Türk Diliyle Kuruluşu, C. I Ve II, Ist. (60) 1944 — 1951 .

(61) د. ابراهيم الداوقوي : القواعد الأساسية للغة التركية ، ص 8 .

Agah Sirri Levend : Op. cit, S. 471.

(62)

اللغة التركية ، بل ان ثمة حركة قوية - فى تركيا اليوم - لاعادة الابدسية العربية الى اللغة التركية .

وقد قامت نخبه من المثقفين الاتراك الذين يتقنون اللغتين العربية والتركية بحركة ترجمة واسعة اضافة الى اعداد المعاجم اللغوية نذكر منهم الاخوان آتاي وأ. قادر ومولود جبارلى ويشار قوتلوای ومظفر اوزاق وابراهيم اكاه جوبوقجى وغيرهم .

النتيجة :

ان الوشائج القوية التى ربطت بين اللغتين العربية والتركية ، خلال فترة العشرة قرون الماضية ، ادت الى تحقيق فكرة «التثقف من الخارج» المعروفة فى الانثروبولوجيا الثقافية والتى تشمل على «تلك التغيرات التى تحدث فى ثقافة معينة بتأثر ثقافة اخرى والذى ينتج عنه ازدياد التشابه بين الثقافتين المعنيتين وقد يكون هذا التأثير متبادلا او طاغى التأثير من جانب واحد » (63) .

ولقد كان تأثير اللغة والثقافة العربية من القوة بحيث حافظت على سيادتها طيلة تلك القرون واستطاعت ان تخلق حركة ادبية وثقافية واسعة فى الاوساط التركية من شمال الصين شرقا وحتى البحر الابيض المتوسط غربا مرورا باقطار آسيا الوسطى ، غير ان سيادة اللغة والثقافة العربية فى تلك الاصقاع لم تكن تعنى الغاء الطابع القومى للثقافة التركية او تحطيم شخصية الامة التركية وانما كانت مدن بخارى وخيوة وسمرقند ومرو وبغداد وحلب ودمشق الشام والقاهرة بمثابة مراكز التعليم منارات الحضارة للثقافة العربية - الاسلامية التى رفدت ثقافات الشعوب الاسلامية ، ومنها الشعب التركى الصديق ، بالجديد فى علوم اللغة العربية وفنون الشعر وعلوم القرآن الكريم والفنون الاسلامية بحيث نبغ العديد من العلماء الاتراك فى التفسير والفقه والتصوف والالهيات والتاريخ والرحلات والفهرسة نذكر منهم الشاعر عبد الحق حامد صاحب (خرابات) و(فتح الاندلس) وكاتب جلبى صاحب (كشف الظنون) وذيوله واوليا جلبى - ابن بطوطه التركى - وصاحب (سياحنامه) حتى اصبح حجم الثقافة التركية - لا سيما الادب والشعر - والتاريخ والتصوف والفقه ضخما جدا ، ليس من ناحية الكم فحسب ، لان فيه الشيء الكثير من الاصاله والجد وثناء الخيال والمحسنات البديعية التى اضعمت عليها البيئة التركية جمالا اخذا قلما نجده فى اداب الشعوب الاسلامية الاخرى .

كما تأثر الفولكلور التركى بالاحداث العربية وتفاعل معها ، فهناك العديد من الاغانى الشعبية التركية التى تتغنى بالجزائر وبطولاتها وخصوبة اليمن وقهوتها ونقاء مكه والمدينة وبقدسية تراب كربلاء . اضافة الى ان الامثال

(63) د. محمد الجوهري : علم الفولكلور ، دار المعارف بمصر 1975 ، ص 18 - 19 .

الشعبية التركية تزخر بالعديد من المضامين العربية ، سواء اكانت مترجمة الى اللغة التركية نصا من المصادر العربية القديمة (كل شاة برجلها تعلق = قويونو آيا غندن اصارير) (64) ام من حيث تناولها للعرب والموضوعة العربية (لا حبيبة كالام ولا مدينة مثل بغداد) (65) اضافة الى العديد من الالفاظ والتعابير الشعبية المتأثرة بالفولكلور العربي (66) .

وتزخر اليوم مكتبات السلمانية وياصوفيا وطوبقبو ونور عثمانية ومتحف مولانا بقونيا والمكتبة الوطنية بانقرة بمئات المخطوطات العربية وعشرات المخطوطات النادرة بل وبعض المخطوطات العربية الوحيدة التي لم تمتد اليها يد الباحثين لحد الآن ، كما ان خزائن ارشيف رئاسة الوزراء في استنبول لا تزال تحتفظ بالف الوثائق الخاصة بتاريخ العرب في انقرة العثمانية لم يطلع عليها احد بعد .

وقد قامت الجامعات التركية بتحقيق ونشر العديد من المخطوطات العربية التي تتضمن مؤلفات الفارابي وابن سينا والغزالي ومحي الدين ابن عربي والرازي اضافة الى دواوين ابن المعتز وابي نواس وقيس بن الملوح ، حيث قام الاساتذة البروفيسور نجاتي لوغال والدكتورة شوقية اينالجق والدكتور حسين آتاتى واحمد اتشى وتحسين يازيجى والدكتور سعادت اويماق والبروفيسور ضيائولكن وخير الدين قرامان وبكر طوبالوغلو ، بانجاز هذا العمل الجليل .

ان دراسة تفاعل ثقافات منطقة الشرق الاوسط والتأثير المتبادل بين هذه الثقافات التي انصهرت في بوتقة الحضارة الاسلامية يمكن ان تكون اساسا للدراسات الشرقية والمقارنة من جهة ، كما يمكن لها ان تلبي حاجة المحققين في مجال التراث العربي خارج الوطن العربي من جهة اخرى .

د . ابراهيم الداوقى

بغداد

(64) الميداني : مجمع الأمثال ، الطبعة الثانية - المكتبة التجارية بالقاهرة 1909 ، ج 2 ، ص 142 .

(65) T.D.K; Atasosleri Ve Deyimler, Ankara 1969, S. 57.

(66) للتفصيلات أنظر :

د. ابراهيم الداوقى : تأثير الفولكلور العربي بالفولكلور التركي ، مجلة كلية الآداب . بغداد 1977 ، العدد 21 .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الوافدون على مدينة صفاقس خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : أصولهم وتوزيعهم داخل المدينة وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية

د. علي الزواري

شهدت مدينة صفاقس خلال القرن التاسع عشر بالنسبة للقرن الذي سبقه عددا متزايدا من الوافدين عليها من بعض الجهات التونسية ومن بعض بلدان البحر الابيض المتوسط اسلامية ومسيحية . وتقتصر دراستنا بالطبع على الوافدين الى صفاقس الذين استقروا بها لمدة طويلة ربما أدت بهم أو بالكثير منهم الى الاستقرار النهائي والاندماج التدريجي في المجتمع الصفاقسي، بالنسبة للمسلمين طبعاً .

والمجتمع الصفاقسي ينعت الوافدين المسلمين بالبرانية ج. براني ، خلافا لاهل المدينة : الصفاقسية . ج. صفاقسي ، أما بلدي فتطلق على أهل المدينة اذا وقعت مقارنتهم بالعرب ، أي الريفيون ، رجلا أو نصف رجل أو مستقرين أما الوافدون الذين هم على غير دين الاسلام فتنتعهم الوثائق بالذميين وتنعتهم اللغة الشعبية باليهود والنصارى اذا وجب التمييز بينهم .

ويمكننا أن نقسم هؤلاء مهما كان مذهبهم على ثلاث طرق . الطريقة الاولى تعتمد الاسباب التاريخية والاقتصادية التي أدت الى الهجرة والاستقرار وتشمل في صنفها الاول التونسيين ، مسلمين أو يهودا ، وتشمل في صنفها الثاني الاجانب عن الايالة التونسية مهما كان مذهبهم الديني . وتعتمد الطريقة الثانية على الدين والعرق اللذين كان لهما دور أساسي في تقسيم الوافدين الى صفاقس ، وتجمعهم وتطرحهم داخل المدينة المسورة وأرباضها وأحوازها .

وقد بدا لنا أنه من الاجدر في دراستنا هذه أن لا نعتمد هذا التقسيم أو ذاك تقاديا للتكرار وأن نتبع طريقة أشمل تمكننا من استعراض الوافدين بالرجوع الى أسباب هجرتهم ، واستعراض تجمعاتهم السكنية والحرفية ، وحركاتهم الاقتصادية وروابطهم الاجتماعية ، فيما بينهم وأيضاً بالنسبة للمجتمع الصفاقسي العام .

(I) أسباب الهجرة :

أ) القوى الجاذبة لمدينة صفاقس :

- الجاذبية الاقتصادية :

أول أسباب الهجرة وأبرزها ما كانت تتمتع به مدينة صفاقس من جاذبية لموقعها الجغرافي المتميز وتوفر امكانياتها الاقتصادية ، وتحركها المستثمر ،

وتنوع علاقاتها داخل الايالة وخارجها . ومن القرن الثامن عشر فصاعدا توفرت لمدينة صفاقس أسباب العمل التجارى . فاضافة الى تقاليدها فى المعاملات التجارية ومعرفتها الدقيقة لاحوالها منذ عصورها التاريخية الاولى كما حدثنا عن ذلك الجغرافيون العرب ، استغلت هذه المدينة استقرار الدولة الحسينية ، ووفرة رأس المال المتحرك عن طريق القراض ، وازدياد عدد سكانها ، وارتفاع انتاجها الصناعى والفلاحى لتربط تجارتها مع عدة جهات ومدن من الايالة التونسية ، وعدة بلدان مغربية : الجزائر ، وطرابلس ، وافريقيا عبر الصحراء ، وبلدان مشرقية كالحجاز ومصر والشام « وبلاد الترك » ، وعدة مدن وجزر من البحر الابيض المتوسط ، وأوروبا كمالطا ، وقبرص ومدينة كفنوليا باليونان وتريست ، ومرسيليا من فرنسا والقرنة من ايطاليا ... فنشطت أسواق المدينة بمختلف البضاعة المحلية والتونسية والاجنبية ، ونتيجة لذلك كثر عدد المترددين على أسواقها ، من منتجين ومستهلكين ، وعارضين لسواعدهم ، ووسطاء ، وتجار . وأكثرهم عددا باستثناء التجار هم من القرى والارياف القريبة ، ومن أرياف الوسط التونسى ومن مدينة قابس . وازدهار التجارة بمدينة صفاقس سبب من الاسباب التى أدت الى التوسع الفلاحى . فأرباح التجارة استثمرت فى امتلاك الاراضى الفلاحية واستغلالها ، كما أن الانتاج الفلاحى المتطور كان له دور أساسى فى تنشيط التجارة . فالزيت ، واللوز ، والزبيب ، والفزديق ، والعطورات المقطرة من الياسمين ، والورد ، والنسرين ... منتجات لها مكانة هامة فى الصادرات الصفاقسية . واحياء الارض ، والاعتناء بها تما بفضل اليد العاملة الصفاقسية المتخصصة فى هذا الميدان وتما وكذلك عن طريق اليد العاملة الاجنبية عن صفاقس المهاجرة اليها بحثا عن عمل .

ونتيجة للتطور الاقتصادى بالمدينة ، ونتيجة للنمو الديمغرافى لضياب العاهات والامراض الفتاكة والابوثة طيلة القرن الثامن عشر ، ضاقت المدينة المسورة بسكانها ، وضافت أسواقها بروادها وبضائعها ، فاستلزم الامر تأسيس حى جديد تجاه المرسى ، مسور أيضا ، عرف بالربض القبلى . وهذا الربض الشاغر الذى به من المرافق الدفاعية ما للمدينة التاريخية يمثل بدوره قوة جاذبة للمهاجرين نحو مدينة صفاقس : اليهود والمسيحيون خاصة كما سنتعرض اليه فيما بعد .

- التعامل الاقتصادى :

كان لمدينة صفاقس منذ نشأتها تكامل اقتصادى بين أربع قطاعات أساسية : الفلاحة ، والصيد البحرى ، والصناعة ، والتجارة . وتوازنت هذه القطاعات كما ذكرنا خلال القرن الثامن عشر ، وارتبطت مع بعضها ارتباطا اقتصاديا متينا عضويا ، انتاجا وترويجا ، بشرا وأموالا ، واستمر هذا التوازن كذلك طيلة القرن التاسع عشر وبعده . ونتج عن ارتباط القطاعات

المنتجة بالتجارة ، ربط ذاتي قصد الربح بأقل كلفة ، كما نتج عن الطموح التجاري لأهل صفاقس توسع في المعاملات الفلاحية والتجارية داخل الايالة التونسية وخارجها . فكانت للصفاقسيين أملاك ومنافع فلاحية بالمنطقة الواسعة التي تحيط بمدينتهم وبالساحل ، وقابس ، وأملاك ومنافع تجارية بتونس ، وقابس ، وجربة ، وطرابلس ، وفي عدة مدن من مصر : القاهرة والاسكندرية خاصة . واقتضت هذه الاملاك والمنافع ، كما اقتضى التوسع التجاري الاعتماد على صفاقسيين كانوا يهاجرون لهذه المناطق ويستقرون بها لمدة قد تطول الى عدة سنين ، والاعتماد أيضا على العناصر المحلية . وقد استوجب هذا التعامل تنقل بعض المتعاملين مع أهل صفاقس الى هذه المدينة حيث رأس المال الذي يربطهم ، ومنهم من استقر بها نهائيا .

ولا ننسى دور الحركة التجارية ، ودور بعض الاتجاهات الاجتماعية في جلب العبيد الى مدينة صفاقس ، حتى بعد تحريرهم (1) وتوظيفهم داخل الاسرة والمجتمع ، اناثا وذكورا ، بيضا وسودا ، وأكثر العبيد من السود .

وبصفة عامة استمر التجار الصفاقسيون يتاجرون بالعبيد خارج الايالة بعد تحريرهم بها ، كما أن بعض التجار وبعضهم من الاجانب استمروا يستوردون خلسة الى صفاقس عبيدا من افريقيا ، كما أن بعض الصفاقسيين المقيمين خارج الايالة ، في مصر وطرابلس يرجعون الى مدينتهم ومعهم تابعوهم من العبيد السود . وذكر لنا ادوارد رأيا أنه « منذ بضع شهور جلب أحدهم عددا كبيرا من العبيد - السود - الى صفاقس ولكنهم اعتقوا بأمر من الحكومة ، (2) » .

- الموقع الجغرافي :

تقع مدينة صفاقس على المسلك الساحلي الذي يربط بين الشمال والجنوب التونسي مرورا بالعاصمة ومدينة سوسة ومدينة قابس . والقوافل التي كانت تمر بهذه الطريق وأهمها قافلة غدامس والاعراض ، تقف بمرحلة صفاقس ليوم أو أكثر . قال ادوارد رأى الذي زار صفاقس سنة 1877 : « ولم تمض سوى سبعة وعشرين عاما حتى كانت القوافل تسيير بصفة معتادة من « تمبكتو » و « واداي » والدواخل وتمر خلال سوسة وصفاقس لتنتقل الى تونس في يومية من كل عام تحمل العاج والتبر وريش النعام » (3) . وتمر

(1) في محرم 1262 هـ / جانفي 1846 صدر أمر من احمد باي يمتق الممالك السود . ابن أبي الضياف ، اتحاف أهل الزمان .. ، 1965 ، ص 87/44 .

(2) المغرب العربي في القرن التاسع عشر 1877 ، تعريب محمد جودة ، دار مكتبة الفكر طرابلس ليبيا ، ص 176 .

(3) نفس المصدر ، ص 175 .

قافلة الاعراض بالمرحلة الواقعة شمال المدينة قرب الناصرية (4) . غير بعيد عن محطة القوافل الواقعة خارج المدينة عند باب الجبلي . وقد أدى هذا المرور الى استيطان بعضهم بالربض المعروف بربرض القوابسية خلال القرن التاسع عشر ، منذ نصفه الثاني . فهذا الربض صار مع مر الايام مستوطن الوافدين من قابس مهما كان سبب هجرتهم . وتنعت وثائق الحكومة التونسية سكان هذا الربض بأهل الاعراض القاطنين بصفاقس . والسيارة الحاملون لمكاتب الدولة الى الاعراض يقيمون في هذا المكان من المدينة ، وكانت مؤونتهم ومؤونة دوابهم في أول الامر تقام على أهل مدينة صفاقس على وجه الضيافة . ولما ضاق أهل صفاقس بهذه العادة المستجدة ، طلبوا من الباي إحالتها الى أهل الاعراض القاطنين بربرض القوابسية بصفتهم أولى باستضافة بنى جهتهم (5) . وما من شك في أن وجود مهاجرين ينتمون في أصلهم الى جهة واحدة ومجتمعين داخل ربض من أرباض صفاقس خاص بهم ، ولهم خليفة ينوب الدولة فيهم شجع وسهل بدوره هجرة سكان الاعراض الى هذه المدينة وصارت تشملهم كلمة قوابسية ، واستيطانهم في هذا الربض بالذات . وقد أمدت وثائق الدولة التونسية الخاصة بالآداءات الجبائية ووثائق متحف الفنون والتقاليد الشعبية بعدة أسماء لبعض المهاجرين نذكر منهم على سبيل المثال : عبد الدائم ابن الحاج أحمد القابسي ، وحسن بن علي القابسي (6) وكلمة قابسي ، كما نلاحظه ، بعد ان كانت نسبة الى جهة ، صارت على مر الايام لقبا لاسرة . وأسرة القابسي من الاسر المعروفة في صفاقس اليوم ، تنسب الى أصلها كعدة أسر أخرى : التونسي ، والغرياني ، والطرابلسي ، والبجاوي ، والجربي ... نسبة الى تونس العاصمة ، وغريان ، وطرابلس ، وبجاية ، وجربة .

ب - القوى الدافعة :

- الجفاف :

في سنوات الجفاف كانت الجهات المتخصصة في زراعة الحبوب ، المتضررة من الجفاف أكثر من غيرها ، تدفع بالعديد من شغاليها نحو الجهات والمدن الاقل تضررا . فيلجأ بعضهم الى صفاقس ، فمنهم من يجد عملا موسميا بالاراضي المشجرة ، أو عملا قارا لدى بعض الاسر ، يتغير حسب الحاجة ، وتنضم

(4) الناصرية - جملة من الصهاريج ، تنسب الى محمد الناصر بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحي الذي دخل صفاقس في سنة 1204 هـ / 1601 م فاتحا ومطهرا لها من جيوش المورقي وقراقوش الشائرين على دولته وهو الذي أمر ببناء نواتها الأولى .

(5) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 465 وثيقة عدد 27 بتاريخ 27 جمادي أول سنة 1288 هـ / أوت 1871 ، وملف 462 ، وثيقة عدد 68 بتاريخ 9 شعبان 1269 هـ / 29 جويلية 1879 م وكلاهما رسالة من عامل صفاقس حسين الجلولي الى الوزير الأول .

(6) وثائق متحف الفنون والتقاليد الشعبية بصفاقس ملف 37 عدد 1251 ، بتاريخ شهر صفر 1238 هـ 18 أكتوبر 1822 .

بقيتهم الى صفوف المهاجرين العاطلين الناهين ، الجائعين الذين تنعتهم كرايس بيت المال بصفاقس بالغرباء .

- الاحداث السياسية بطرابلس :

في أواخر القرن الثامن عشر كانت الاسرة القرمانيّة في تنازع على السلطة في طرابلس فانحلت أمور ولايتها وخرج الكثير من أهلها هروبا من الفتن وغوائلها (7) واستغل علي برغل الفرصة وكان بالجزائر ، فاستولى على السلطة في أوت سنة 1793، وفرع علي باشا القرماني وأتباعه الى تونس، ولما خلا الامر لعلي برغل في طرابلس ، استولى على جزيرة جربة . واضطهد علي برغل الطرابلسيين ، وسلب ونهب ولم ينته الا بتدخل الدولة التونسية التي أرجعت السلطة الى أهلها بفضل جيوشها في شهر جانفي من سنة 1795 . ولم تهدأ الحالة في ولاية طرابلس بعدها الا مدة قصيرة ، اذ كان لسياسة يوسف باشا القرماني مردود سيء على الاقتصاد ، وتوالت الثورات الداخلية في الدواخل وفزان خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر (8) .

كان لهذه الاحداث ، تأثير مباشر على حركة الهجرة نحو البلاد التونسية . ومدينة صفاقس نظرا لعلاقاتها التجارية والتاريخية مع طرابلس ونظرا لكونها صارت القنطرة الاساسية بين ولاية طرابلس واية تونس بعد احتلال جربة من طرف علي برغل ، كان لها نصيب وافر من هؤلاء النازحين ، ومنهم عدد وافر من اليهود الذين تعرضوا لاضطهاد علي برغل أكثر من غيرهم (9) . ومن وثائق متحف صفاقس نجد رسالة من ابراهيم الحاراتي من طرابلس الى محمد غريس تشير الى بعض الطرابلسيين اللاجئين بهذه المدينة الذين تركوا مسقط رأسهم أثناء الاحداث القرمانيّة ، وقد وقع في الرسالة الشطب على أسمائهم لسبب لا نعرفه (10) . واللاجئون الى صفاقس كانوا على مستويات عدة ، وقد احتضنت المدينة أرفعهم مستوى ، ورجع بعضهم الى طرابلس ، واندمج الآخرون في المجتمع الصفاقسي شيئا فشيئا دون أن يتركوا لنا في الوثائق ما يدل عليهم سوى ألقابهم التي ترجع الى أصلهم : طرابلسي ، غرياني ، الخ . أما الفئة العامة فكان مصيرها مصير الفئات الشعبية النازحة الى صفاقس : العمل في الاشغال الفلاحية بالنسبة لمن أسعدهم الحظ ، والتشرد بالنسبة لغيرهم .

(7) انظر ابن أبي الضياف ، اتحاف اهل الزمان .

ج . 3 ، ص 21 - 22 .

(8) راجع ليبيا منذ الفتح العربي ، لاثوري روسي ، ترجمة خليفة محمد التليسي ، دار الثقافة ،

لبنان 1274 ص 322 وما بعدها

(9) نفس المرجع ص 311 .

(10) ملف 31 عدد 1135 .

- التدخل الاجنبي المتطور :

ارتبطت الايالة التونسية مع بلدان عربية بعلاقات تجارية أدت بالعديد من التجار المسيحيين الى الاستقرار في أهم المدن الساحلية التونسية ، وخاصة تونس مركز الحكومة ، للقيام بشتى أعمالهم ، وفي تونس نظموا حياتهم في اطار مجموعات أممية ، بدأت تأخذ أهميتها عددا ، وحركة ونفوذاً ، واهمها المجموعة الفرنسية ، منذ القرن الثامن عشر ، وتلا ذلك خلال القرن التاسع عشر ، منذ 1916 ، تدخل غربي سافر ، مرتبط بتدهور الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الايالة ، ومرتبطة بنية الغرب الاستعمارية المرتبطة بدورها بالتقدم الصناعي ، والتنافس الحضاري للدول الغربية المتطورة ، كما هي مرتبطة بالتسابق بين هذه الدول . وقد أدت هذه الحالة الى تكاثر المسيحيين واليهود داخل الايالة وسيطرتهم على دوراتها الاقتصادية ، ومن جراء ذلك برز اليهود التونسيون بدورهم ، ومنهم من علا مقامه الى مستوى الاثرياء والاقوياء من بنى جلدتهم وكذلك من النصاري من ذوى النفوذ.

وقد عرفت صفاقس دخول المسيحيين اليها ودخول يهود أوروبا خلال القرن التاسع عشر بعد سنة 1826 ، وقد سبقهم بقليل اليهود التونسيون ، المهاجرون اليها خاصة من الجنوب التونسي ، ويهود ولاية طرابلس للاسباب التي عرضناها سابقا . ولم يكن بصفاقس قبل ذلك ، حسب ما ترشدنا اليه الوثائق في القرن الثامن عشر أحد من النصاري واليهود . فاليهود الذين عرفتهم صفاقس كعناصر من مجتمعها خلال الفترة الاولى من حياتها وعرف لهم حركة ونشاط تجاري دائبان مع البلدان المشرقية ، تركوها اثر احتلال الثرمان لها في القرن الثاني عشر ، اذ رأوا في هذا الاحتلال وتغير الاوضاع بالبحر الابيض المتوسط خطرا على تجارتهم فتحولوا الى صقلية حيث بدت لهم القوة النافعة لهم (II) .

وخلاصة كل ما تقدم فان الوافدين الى مدينة صفاقس من المسلمين ، والذين استقروا وفرعوا بها ينتمون الى جهتها والساحل التونسي ، وقابس ، وجربة ، والقيروان ، وطرابلس . وأكثرهم عددا العناصر المنتمية الى قرى صفاقس : قرقنة ، المحرس ، وعقارب ، وأريافها من عروش المثلث ونفات . ونذكر على سبيل المثال أسرا من هذه المناطق استقرت بصفاقس واندمجت في مجتمعها مع الايام : التومي ، والبرشاني ، وكسودة . من قرقنة (I2) ، العكروت ، وبوشحيمة ، وشلفم من المحرس ، بن حليلة من حرق ، دربال وابن معلم وابن رحومة والزغيدى من المثلث ، وعبد المقصود من سيدى مخلوف (I3) .

(11) علي الزواري ، العلاقات التجارية بين صفاقس والشرق ، أطروحة دكتوراه ، المرحلة الثالثة بالفرنسية ، قدمت في جوان 1977 بجامعة أكس الفرنسية .

(12) وثائق الحكومة التونسية ، سجل 1021 ، بدون تاريخ .

(13) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 1671 ، وثيقة عدد 1266 .

والغمقى وبشه من قابس ، والمزقيطي من المهدية ، وبوزقندة من المنستير ، وابن حسين من جربة . وبقي لبعضهم دلالة في نسبه عن أصله كالمثلوثي ، واليوسفى ، والحشمى (I4) ، والشمتورى (I5) ، والعايدى (I6) . وعدد الجراية كان محدودا في صفاقس بالنسبة لحركيتهم الاقتصادية وحضورهم الجغرافى داخل الايالة المعروف عنهم . وعددهم في قرقرنة أكثر منه في صفاقس (I7) . وقد فسر بعض المؤرخين قتلهم بصفاقس لاستئثار الصفاقسيين بمدينتهم . وكان جان غانياج J. Ganiage أكثرهم قطعاً . ففى دراسته حول سكان الايالة التونسية التى اعتمد فيها سجلات الضرائب للدولة التونسية أعطى عدد الجراية فى عدة جهات من الايالة التونسية ، وذكر أنه لا يوجد جربى واحد فى صفاقس خلال سنة 1857 ، واعتبر ذلك منطقيا لانه يرى أن الصفاقسيين المتميزين بقدرتهم التجارية ونشاطهم فيها لم يتركوا مجالا للجراية بينهم (I8) ، وهو غلط ، اذ أن الجراية كانوا يأتون الى صفاقس ولهم نشاط بها ، وإن كان محدودا ، ومنهم من استقر بها نهائيا . ولا أدل على وجودهم فى هذه المدينة من تعيين شيخ منهم بها يمثل الادارة فيهم وكان فى سنة 1276 هـ / 1855 م . عمر بوكراع (I9) .

أما بالنسبة للمهاجرين الاجانب عن الايالة ، فأكثرتهم عددا الطرابلسيون . أما بالنسبة للشرق ، فقد ذكرت لنا الوثائق الحاج علي الملاح بن علي « الشرقاوى أصلا » ، والحاج ابراهيم المصرى . ونعرف أن أسرة النيفر الصفاقسية المعروفة ، التى فرغت فى تونس العاصمة ، أتت اليها من مصر كما ذكر محمد مخلوف فى شجرة النور الزكية عند حديثه عن أبى عبد الله محمد النيفر . قال : « قدم جده أبو النور لحاضرة تونس من صفاقس وكان مقدم آبائه من مصر » (20) . وقبل ذلك قدم اليها من الاسكندرية ميمون الوفاى الذى أسس الطريقة الوفاية بصفاقس ، المتمثلة فى أسرة الكراى التى برزت مع سيدى علي ، وسيدى أبى الحسن خلال القرن السابع عشر . وبصفاقس مقام صغير داخل سور المدينة ينعت للشيخ المصرى الذى بقى لحد الآن نكرة . ولا شك أن العناصر التى قدمت من الشرق الى مدينة صفاقس قليلة العدد ، وكذلك العناصر التى قدمت اليها من الجزائر والمغرب . وقد

(14) نفس المرجع ، سجل 1671 بتاريخ 1266 هـ / 1849 .

(15) وثائق متحف صفاقس ، سجل 37 ، وثيقة عدد 1251 .
صفر 1238 هـ / 1822 .

(16) وثائق الحكومة التونسية ، سجل 1021 ، ص 81 .

(17) مكرر نفس المصدر ، ملف 452 ، وثيقة عدد 12 .

(18) La population de la Tunisie vers 1860, داخل الدراسات المغربية
Etudes Maghrébines باريس 1964 ، ص 186 .

(19) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 432 ، وثيقة عدد 39 .

(20) شجرة النور الزكية ، محمد مخلوف ، دار الكتاب العربى ، ص 390 .

ذكرت لنا الوثائق بعض هؤلاء مثل سالم القبائلي (21) والحاج أحمد سوسي الذي أتى الى صفاقس من المغرب عبر تونس العاصمة ومعه طفلة صبية صغيرة السن ، عمرها 18 سنة وذكر أنه يريد الزواج بها (22) .

2) توزيع المهاجرين :

أ) المدينة المسورة :

احتضنت مدينة صفاقس عبر تاريخها العديد من المهاجرين الذين استقروا بها نهائيا . ومنهم من دخلها اثر تخريب الرقة وملول (23) بالساحل التونسي ، أو عن طريق الجند والادارة مع الموحدين والعثمانيين . وتتعاقب الاجيال انصهرت هذه العناصر في المجتمع الصفاقسي وانشئت اليه أسرهما ، ومع الزمن صارت من أسر صفاقس العريقة ، ونسى الناس أن آل الملولى وعبد الناصر من ملول ، وآل المصمودي والهناتاتي من المغرب ، وآل المنيف من الاندلس ، وابن مراد ، ووالى ، والبرجى ، والقارة ، من الاتراك العثمانيين (24) . ونجمل كيف كان استقبال هؤلاء المهاجرين من طرف الصفاقسيين ، عند مجيئهم ، وفي أى ناحية من نواحي المدينة توزعوا باستثناء أهل الرقة الذين أسسوا حيا خاصا بهم ، وكيف تم اندماجهم في المجتمع الصفاقسي لبعده الزمن وفقدان الوثائق المكتوبة .

وان كان هذا كذلك فان معرفة توزيع المهاجرين داخل المدينة وأحوازها بالنسبة للقرن الثامن عشر وما بعده أيسر لتوفر ما ضاع بالنسبة للماضى البعيد .

يبدو المجتمع الصفاقسي خلال القرن الثامن عشر وكأنه منغلق على نفسه لتجنبه العناصر الدخيلة عليه . ويتجلى ذلك باستثثاره بالمدينة داخل سورها ، وتجنب مصاهرتهم ، والصفاقسي آنذاك يتجنب بصفة عامة مصاهرة الاسر الغريبة عن مجتمعه حتى ولو كان في ديار الغرب . ولهذه الاسباب وكذلك لقلة المهاجرين الى صفاقس خلال القرن الثامن عشر لا نجد بالمدينة الا القدر اليسير من غير الصفاقسيين باستثناء المتعاملين مع الدولة من الأطر الادارية والعسكرية وهذا القدر اليسير يرجع الى القرى القريبة من صفاقس التي تعاملت معها منذ أقدم العصور : قرقنة ، والمحرس ، وعروش المثاليث من نواحي جبنيانة ، والحريية ، وسيدى مخلوف . وتجدر الملاحظة ان العناصر الدخيلة تركزت على هامش الاحياء السكنية والاسواق ، في طرف المدينة الشرقي ، بجوار السور من الداخل طبعا .

(21) وثائق متحف صفاقس ، ملف عدد 1233 ، ربيع أول 1121 هـ / 1709 .

(22) نفس المرجع ، ملف 454 ، وثيقة عدد 142 ، 5 رجب 1248 هـ / 11 ديسمبر 1831 .

(23) محمد بيلي النبال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ، مكتبة النجاح ، تونس 1965 .

(24) وثائق الحكومة التونسية ، سجل عدد 1021 .

أصولهم		النسبة المئوية	الوافدون المولودون بالمكان	القاطنون بالقبيلة	القاطنون بالربع	جملة السكان	الربع
قرقنة . قابس . المهدية . المنستير . جربة . ايجم . المحرس	I	6,14	36	64	485	586	الرقنة
	I I I I I						
	I I I I I						
	I I I I I						
قرقنة . منستير . جربة . ايجم . القيروان	I	3,44	20			583	الميدية
	I I I I I						
	I I I I I						
	I I I I I						
قرقنة . طرابلس	I	4,52	34			752	المصار
	I I I I I						
	I I I I I						
	I I I I I						
قرقنة . قابس . القيروان . عقارب	I	5,74	33			575	القصر
	I I I I I						
	I I I I I						
	I I I I I						

وأخذ هذا الوضع يتغير شيئا فشيئا بتغير الاوضاع التي أشرنا اليها خلال القرن التاسع عشر ، حيث تكاثرت عدد المهاجرين الى صفاقس ، وانفتح المجتمع الصفاقسي شيئا ما . ومن أهم أسباب انفتاح المدينة للمهاجرين التطور الذي حصل في السكن الصفاقسي . كان الصفاقسي في القرن الثامن عشر يسكن المدينة بصفة قارة ، وينتقل الى مسكنه الثانوي ، البسرج ، في الجنان ، بأحواز المدينة لمدة أشهر الصيف . وفي القرن التاسع عشر ، توسع البرج ، وصار محلا قارا للسكنى ، التجأت اليه عدة أسر لتقيم فيه باستمرار لرحابه الواسع ومرافقه الصحية ، وقربه من الاراضى الفلاحية التي لا يوفرها المنزل بالمدينة . والتحول السكنى ، ولو أنه جزئي ، أفضى بعض المنازل بالمدينة ، وفتق الحواجز الاجتماعية ، وحرك الملكية . وهكذا دخل الاجانب المدينة ، مسلمون ويهود ، للعمل بها . ومن المسلمين من استقر بها ، ولكن ذلك لم يتم بصفة عامة الا بعد فترة اقامة خارج سور المدينة للتأهل ، والتعود والتأنس ، تطول مدتها أو تقصر حسب قدرة أصحابها على فرض وجودهم الاقتصادي والاجتماعي . وتذكر لنا وثائق الحكومة التونسية عددا منهم ، في نطاق تعداد سكان المدينة المسورة الخاضعين للضرائب . وفيما يلي قائمة أبناء الوافدين المقيمين بأحياء المدينة حيا حيا : من نصف القرن التاسع عشر اعتمادا على سجل الضرائب بارشيف الحكومة عدد 1021 .

ب - الربرض القبلي :

وكما أشرنا لما ضاقت المدينة بسكانها طلب أهل صفاقس من علي باشا بن حسين بن علي الاذن لهم في استغلال المساح المحاذي لسور مدينة صفاقس من الخارج من الناحية القبلية ، بجوار المرسى . فأذن لهم بذلك سنة 1189 هـ . / 1775 م . فبدأت بذلك نشأة حي جديد ، سوره مسند الى سور المدينة ، وبه أربعة أبواب . واكتمل عمران هذا الحي واكتملت حركته خلال القرن التاسع عشر ، محاكيا المدينة التاريخية في هندستها وتلاصق عمارتها . وبدأ في أول أمره كمتنفس اقتصادي وديمغرافي للمدينة ، فاستغله التجار الصفاقسيون ، والحبازون ، والطحانون ، للعمل به ولخزن البضائع ، كما استغله بعض الصفاقسيين لاقامة مباني للسكنى وقع كراؤها في أغلب الاحيان لغير الصفاقسيين المرتبط عملهم بالبحر ، من أهل جربة وقرقنة ، ثم التجأ اليه اليهود والمسيحيون من فرنسيين ، وإيطاليين ، ومالطيين .. عملا ومسكنا ، وكثر عددهم به على مر الايام حتى صار يعرف بهم وينسب اليهم .

ت - الارباض الشمالية :

لقد كان الوافدون من التونسيين والطرابلسيين والمسلمين ، من الفئات الشعبية المتعلقة ببعضها والتي ليست لها امكانيات تأهلها للسكن بالمدينة أو بالربرض القبلي تسكن فرادي كعسس في معاصر الزيتون ، أو تخيم خارج المدينة من جوانبها الشرقية والشمالية . وتشير وثائق الحكومة التونسية الى

وجود مخيم من هذا النوع متكون من خيام واكواخ حطبية مستند الى السور الشرقي من الخارج ، سىء الحالة . أما المخيمات الاخرى التى تركزت فى شمال المدينة ، قرب مواجل الناصرية ، فقد تحولت شيئا فشيئا الى ارباض عشوائية خلافا للربض القبلى . وقد عرفت بربرض القوابسية ، وربض العوايد ، نسبة الى اصول سكانها . وقد التجأ الى هذين الربضين غير العوايد وغير أهل الاعراض من الوافدين .

ج - قرية العبيد :

ذكر لنا ادوارد السابق ذكره أنه توجد بقرب أسوار مدينة صفاقس قرية يسكنها السود (25) تشبه القرية القريبة من طرابلس . ولم نعرثر على هذا الخبر فى أى موضع آخر ، ويجب ربما تقريبه مما نعرفه بالمشاهدة عن السمراء وجوانبها السكنية . ففى الركن الشرقى الشمالى من سور المدينة نجد حصنا يعرف بالسمراء ينعت لامرأة متعبدة من السود ، لا نعرف عنها شيئا من الناحية التاريخية . وحول هذا الحصن ، داخل المدينة ، تجمعت بعض أسر من السود لتعلقها بصاحبة الرباط . فهل هذا التجمع السكنى هو الذى نعتة رأى بقرية السود ؟ ربما . ومهما يكن من أمر فلا يجب أن يذهب بنا التفكير ان صح هذا أن السود يسكنون هذه القرية فحسب . فوثائق متحف صفاقس وبعض الوثائق الخاصة تشير الى أن السود ملكوا وسكنوا بالجنات والارباض متفرقين (26) . فسلیمان بن عبد الله الجناوى مثلا كان « من سكان ربض صفاقس الجوفى » (27) .

ح - الغابة :

تنعت أحواز صفاقس القرية منها بالغابة وهى متكونة من بساتين - الاجنة باللغة الصفاقسية - مشجرة ، وبكل واحد منها مسكن - البرج - اتخذ منذ القرن التاسع عشر مسكنا قارا كما أشرنا . وتمكن أبناء الوافدين بالمكان الذين وصلوا الى حظوة اجتماعية وقدرة مالية ذات مستوى من امتلاك بساتين بأبراجها سكنوها متجاورين مع المالكين الصفاقسيين حسب اقتضاء سوق الملكية .

خ - الهامشيون :

تشير وثائق بيت المال القليلة ، التى بقيت لنا عن صفاقس (28) الى فئة من سكان هذه المدينة ، تنعتهم بالغرباء فى حساباتها المتعلقة بذهمتهم . وتعنى بهم السكان المنبشيين الذين ليس لهم كفيل يكفلهم ، وأغلبهم من المتشردين ،

(25) المصدر السابق ، ص 174 .

(26) وثائق العدل محمد الجوسى .

(27) وثائق متحف صفاقس ، ملف 50 ، وثيقة عدد 2251 .

اطفال ، وكهول ، وشيوخ ، إناث وذكور ، منهم الصفاقسي ، والجربي ، والقرقني ، والطرابلسي ... ومنهم أيضا المجهولون الذين لم يتمكنوا بعد من ربط علاقات اجتماعية واقتصادية ، ومنهم من كان له شبه مأوى خاص به ، ومنهم من كان متشردا تشردا كاملا ، يعيش على هامش المجتمع وأنظمتهم وحركته ، يعيشون عيشة سيئة ، ملجأهم في الليل مخابيء سور المدينة ، والمساجد ، والاضرحة ، والاماكن العامة . فسجلات بيت المال تذكر بصريح القول وجودها لجثث الغرباء في هذه الاماكن ، وبالتحديد في زاوية القلال ، ومقام المراقبة زحافة ، وضريح الشيخ عمر كمون ، وضريح سيدي أبي الحسن اللخمي ، ومسجد سيدي عباس ، وقهوة السوق ، وفندق المحصولات ، وفندق الحدادين ، والازقة الضيقة بالمدينة .. وأكثر الغرباء حظا لم يكن يملك أكثر من ملابسه ، وماعون طبخه وأكله ، مثلهم كمثّل الحاج علي الغربي الذي كان يعيش وحيدا وترك بعد حياته ، ملابس من النوع الصفاقسي ، وماعون طبخ وأكل باعته بيت المال بقيمة 53 ريال صرفتهم أجورا لدفنه كما يلي :

- 5 ريالات قانون ودلال
25 ريالات أجر قبار
4 ريالات أجر وفاة
3 ريالات أجر عون
10 ريالات أجر النائب والوكيل
6 ريالات أجر عدول (29)

وفيما يلي : عدد الغرباء الذين تكفلت بدفنهم بيت المال من أوائل رجب 1288 إلى 22 رمضان 1290 هـ . / 25 أوت 1873 (30) .

الأصل	رجال	نساء	أطفال	الجملة
صفاقسيون	3		3	6
عرب	6	4	9	19
طرابلسيون	17	6	5	28
قرقنيون	1			1
سود	9	2		11
مجهولون	14	5		19

(28) وثائق متحف صفاقس ، سجل 67 ، وثيقة عدد 2356 و 2357 .

(29) وثائق متحف صفاقس ، ملف 67 ، وثيقة عدد 2357 .

(30) » » » ملف 67 ، وثيقة عدد 2356 .

وكما نلاحظ فان أكثر الوافدين انبتاتا ، هم الطرابلسيون ، ومنهم من كان يلقي حتفه عند انتهاء سفره بالمرسى ولم يدخل المدينة بعد .

(3) دور المهاجرين في الحياة الاقتصادية والاجتماعية :

(أ) دور المهاجرين المسلمين :

كما لاحظنا فان الوافدين على صفاقس كانوا متنوعى الاصل ويصعب التعرف على عددهم ولو فى فترة ما من تاريخ المدينة ، وسجلات الحكومة التونسية المتعلقة بالضرائب هى الوسيلة الوحيدة التى يتعين اللجوء اليها اذا أردنا المحاولة والاجتهاد . ومن محاسنها أنها فى بعض الحالات تبين عددهم فئة فئة طبقا لاصولهم أو مهنتهم . وأهم عائق يعترض الباحث ، ويبعده ، عن الوصول الى معرفة الحقيقة أنها لا تضبط العدد الكلى للوافدين بل تبين فقط عدد البالغين من الذكور . وأهم هذه السجلات ، السجل المرتب تحت عدد 1021 ، وهو كما أشرنا اليه سالفا بدون تاريخ . ومن المرجح أنه يرجع الى منتصف القرن التاسع عشر . وعدد الوافدين فى هذا السجل بعد أن جمعنا عدد مختلف الفئات الى بعضها يبلغ 482 رجلا بالغاً منهم 75 من السود ، ولو اعتبرنا هؤلاء الرجال أرباب أسر ، فيكون اذ ذاك العدد الجملى للوافدين غير بعيد عن الالفين باعتبار معدل أربعة للأسرة الواحدة . واذا اعتبرنا هذه النتيجة قريبة من الواقع ، فانهم يمثلون نسبة 15,40 % من مجموع سكان صفاقس المسلمين على أساس أن هذا المجموع يصل فى منتصف القرن التاسع عشر الى 13000 تونسيا تقريبا .

لقد كان الوافدون بصفة عامة يكونون جاليات مرتبطة الافراد ولكنها متفتحة على غيرها ، يميزها عن أهل صفاقس اللباس ، والمأكّل ، واللهجة ، وتضيق هذه الميزات فى خضم الحياة اليومية ولا يلاحظها الاجنبى عن المدينة ، مما جعل ادوارد راي وغيره من الرحالين الاجانب يؤكدون أنه ليس بمدينة صفاقس أغراب كثيرون (31) .

وقد أرشدتنا وثائق متحف صفاقس الى حالة بعض العملة من عامة الوافدين ، فمن الطرابلسيين من كان حمالا ، و « حباسا » (32) ومن أهل عقارب من كان « صبايحيا » ... ، وقد استقطب العمل الفلاحي أكثر الوافدين وقاموا به لفائدة المالكين الصفاقسيين . وتنص بعض الوثائق على أن الاتفاق بين المالك والعامل يتم لسنة كاملة من العمل الفلاحي المتنوع ويسميه المالك كراء ، ويصرف الاجر للعامل فى صفة نقدية ، وملبوس . وفى أكثر الاحيان يضمن المالك المسكن للعامل . جاء فى سجل أحد أفراد أسرة النورى الصفاقسية ما يلى :

(31) المصدر السابق ، ص 169 .

(32) وثائق الحكومة التونسية ، سجل عدد 1021 .

لما كان في رمضان سنة 1275 هـ / أفريل 1858 اكرتينا خداما اسمه مسعود بن علي بن عبد الله الطرابلسي الغرياني بالعام بكرة قدره 70 ريال تونسية صغرى مع كدرون ، وحرام ، و 2 سواى ، و 2 كشط ، و 2 سراول ، و 2 بلغة (33) واكرتري آخر محمد بن علي الطرابلسي بالعام سعر العام 25 ريال مع حولى وكدرون وبلغة (34) . ولا يجب أن يذهب بنا التفكير الى أن الوافدين كانوا كلهم على هذا المستوى الاجتماعى والدور الاقتصادى . ولا شك أن بعضهم قام بدور اقتصادى هام ، ووصل الى مدارج عليا من السلم الاجتماعى ويتجلى ذلك فى عدد وقيمة الممتلكات التى كانت لبعضهم المتمثلة فى محلات سكنى وأراض فلاحية .

وما دام الوافدون فى مرحلة استقرارهم الاولى ، فإن الروابط الاجتماعية تبقى منحصرة بين أفراد فئة واحدة وبين فئات متجاورة لها نفس المستوى ، وعلى نفس الوتيرة تقع المصاهرات ، مثلا : تزوج علي بن عطية عشير الحشامرة فطومة بنت عمار بن الحاج مبروك المرعوى من أولاد اللافى المثلوثى (35) ، وفى بعض الاحيان تكون الاسرة الصفاقسية سببا فى زواج اثنين من أجيرين فى خدمتها ، ينتميان الى فئتين مختلفتى الاصل ، ومن الممكن أيضا أن تتسبب أسرتان صفاقسيتان فى زواج أجيرين فى خدمتهما ينتميان الى فئتين مختلفتى الاصل كذلك . مثلا : تزوج « حمدة الطرابلسى أجير عند محمد بن الحاج محمد المسدى فاطمة القرقرنية كانت تخدم سابقا بدار المرحوم الشيخ المفتى أبى فارس عبد العزيز الفراتى » (36) . أما الوافدون الذين انقضت على هجرتهم أجيال وفرضوا وجودهم مع طول المدة فقد اقتربوا من المجتمع الصفاقسى ثم اندمجوا فيه كليا وابتعدوا بعد الصفاقسين عن الجاليات الوافدة قريبا .

وحالة السود قبل عتقهم وبعده تختلف شيئا ما عن حالة بقية الوافدين ، لقد كان الصفاقسيون يسخرون العبيد لشتى الاعمال المنزلية والاقتصادية ، وامتلاكهم كان عن طريق الشراء ، أو الورثة أو الصدقة أو الهدية ... وقد ذكرت لنا عقود الزواج بصفاقس أن أسرة الفتاة المخطوبة كانت (فى عهد الرق) تشترط على أسرة العريس زيادة على الحلى والملابس ومختلف الهدايا : « أمة من وسط وخش رقيق السودان وأعدلهن فى القوام والاسنان » (37) لتكون فى خدمة العروس بعد عرسها . والخادم من الهدايا التى يمكن للزوج أن يقدمها لزوجته فى أى وقت من حياتها ويكون ذلك

(33) وثائق متحف صفاقس ، سجل 14 .

(34) نفس المصدر .

(35) نفس المصدر ، ملف 87 ، وثيقة عدد 2586 .

(36) نفس المصدر ، ملف 85 ، وثيقة عدد 2549 .

(37) عقد زواج على ملك أسرة شيخ روحة .

بصفة عامة تحت كساء الدين ، فتنعت الهدية اذ ذاك بالصدقة (38) ، وتستغل الخادم كمرضعة أيضا . واستعمال السود كان مظهرا من مظاهر الثراء والتفاخر كما تشهد به بعض أغاني الاعراس :

يا سعدى بوليدى كان مع العراصة روحلي عقب الليل
يلقى الميمة قاعدة ويقوللها صباح الخير
لابس زوز كساوى وجبة الحرير
يلقى الوصيفة واقفة تنقز تنقيز
ويراقى الوصيف واقف يعقل فى البعير
ويلقى العروسة راقدة فوق فرش الحرير
وكذلك :

مشى العروسة قدم قدم ما بين عشرة من الخدم
وكذلك أيضا :

يا خادمة ارمي الطبق سيدك على الباب دق

ولا نعرف كيف كانت معاملة الصفاقسيين للعبيد ، ونظن أنها كانت معاملة فى جملتها طيبة ، غير أن محمود مقديش ، يذكر فى نزهة الانظار أن ضحايا الطاعون فى سنة 1199 هـ / 1789 م . كان أشد بين العبيد ، وقد يشير هذا الى سوء مقاومة أجسامهم التى لا تجدد قواها كما يجب لسبب العمل أو لسوء التغذية .

وبعضهم كان يحظى لسبب ما بالعنق والحرية : فالعنق ابتغاء مرضاة الله ، وثواب الآخرة من بين هذه الاسباب ، وكان ذلك يتم فى حياة العاتق أو بعد مماته تطبيقا لوصيته . ويتم العنق كذلك اثر بشرى مسرة أو حدث سعيد ، كما تشير اليه بعض أغاني الاعراس :

يا عروس ما هى اللي جات دخلت للسقيف
يا عروس على عينيها اعتق الوصيف

وبعد تحرر العبيد اندمج البيض منهم شيئا فشيئا فى المجتمع الصفاقسى دون ان يتركوا أثرا يدل عن أصلهم .. ومما سهل ذوبانهم فى المجتمع الصفاقسى صعوبة تجمعهم لتفرقهم وتعدد أصولهم ، وتقارب جنسهم مع الجنس التونسى ، وكان بعضهم قد تربى على الطريقة الصفاقسية ، كما دخلت بعض الجوارى الفاتنات مخادع الموسرين من الصفاقسيين خليات وزوجات

(38) تصدق المذكور على زوجته المدخول بها أم الحسين بنت علي الجلولي بدالة الشوشانة ابنة عبده قارة على صدقة تامة ... » .

وثائق متحف صفاقس ، ملف 84 وثيقة عدد 2528

9 حبة 1137 هـ / أوت 1724 .

مفضلات وهكذا تم التقارب والتناسل بينهم ، وقد حظى جلهم باللقاب الصفاقسية هبة وحظوة أو ولاء .

أما وضع السود فيختلف شيئا ما عن هذا ، فمن السود من تلقب بلقب الاسرة التي كان يتبعها (39) ، ومنهم من تلقب بما يشير الى موطنه الافريقي . مثلا : الشوشان علي تنبكتو (40) ، وأكثرهم كان ينسب الى جنوة وينسب الى أب مجهول تنعته الوثائق دائما بعبد الله . مثلا : سعد بن عبد الله الجناوى (41) ، قار علي بن عبد الله الجناوى (42) ، بركة بن عبد الله الجناوى (43) ، مسعودة بنت عبد الله الجناوى (44) . أما الاسماء فهي الدارجة في صفاقس مثل محمد وسليمان وعلي وسليم أو الميزة الخاصة بهم مثل : بلخير ، ومهدى وسعد ومسعود ومسعودة وبركة وسالمة ، وكأنها تطلق للتبرك وشوشان وشوشانة التي صارت مرادفة للسود ، ولقب جناوى لم يعد له أثر بين الالقاب الصفاقسية .

والبشرة والاصل الافريقي ، وحالة العبودية قبل التحرر عوامل أساسية في تقرب السود الى بعضهم ، أو تكوين مجموعة لها لكتتها اللسانية ، وعاداتها في الزينة ، والتطيب ، والفن الموسيقي والرقص ، ثم التعلق بولي من أولياء صفاقس المشهورين وكان أسود اللون ، وهو المعروف بسيدي منصور ، صاحب الضريح القائم على ساحل البحر على بعد II كلم شرقي صفاقس في القرية التي تحمل اسمه .

وبعد أن تحرر العبيد السود دخلوا بصفة كاملة في المجتمع الصفاقسي يعملون ويملكون المنزل والارض الفلاحية حيث أمكنهم ذلك ، ويتعاملون مع أهل صفاقس اقتصاديا بدون تمييز (45) . ويدفعون الضرائب ، ويتزوجون فيما بينهم . مثلا : « تزوج سعد بن عبد الله الجناوى معتق محمد الزوش منة بنت عبد الله الجناوى معتقة محمد ومحمود ولدى الشيخ المفتي ابن عبد الله محمد حمزة بصدائق قدره 150 ريال تونسية وعتية صغيرة وجبة قيمتها خمسة وثلاثون ريالا من النعت كالبنا عقد نكاحها » (46) .

(39) وثائق الحكومة التونسية ، وثيقة عدد 113 .
تذكر الوثيقة 54 عبدا في قضية ضرائب كلهم معتقون بعض له أسماء صفاقسية ، قندري ، فراتي ، كشو ، وبعضهم له أسماء من الوافدين من قرقة أو جربة وغيرهما ، خوفي ، جربي ، غدامسي ...

(40) وثائق متحف صفاقس ، ملف 6 عدد 351 .

(41) نفس المصدر ، ملف 59 ، وثيقة عدد 2221 .

(42) نفس المصدر ، ملف 84 ، وثيقة عدد 2528 .

(43) نفس المصدر ، ملف 92 ، وثيقة عدد 2672 .

(44) وثائق العدل احمد الجوسي .

(45) وثائق متحف صفاقس ، ملف 81 ، وثيقة عدد 2444 .

(46) نفس المصدر ، ملف 59 ، وثيقة عدد 2221 .

ولانهم يكونون مجموعة متميزة ، جعلت حكومة البايات مسؤولا عنهم ، لا شيخا كبقية المجموعات المهاجرة ، بل قائدا يعرف بقائد العبيد له نائب ينوبه ، وتسميه بعض وثائق الحكومة بقايد الوصفان (47) . ومن جوانب دوره ارجاع العبيد الفارين الى اصحابهم (48) ، ثم بعد تحررهم جمع الضرائب المتعلقة بهم .

ومن رسالة استفسارية من عامل صفاقس حسين الجلولي الى الوزير الاكبر مصطفى بن اسماعيل نفهم ان الضرائب تصنف العبيد ، اذ : « أن حكم الذين ولدوا بصفاقس ونشؤوا بها واستمروا على السكن بها يكون كحكم أهلها . أما العبيد الذين جلبوا اليها فمطالبون بأداء المجبا (49) » وكانت الضريبة المتعلقة بهم تساوى سنة 1287 هـ . / 1870 م . ستة ريالات » (50) .

ب - دور المهاجرين اليهود والنصارى :

لقد أشرنا فيما سبق أن دخول اليهود والنصارى الى مدينة صفاقس تم خلال القرن التاسع عشر ، ذكر جان قانياج J. Ganiage أن عائلات ثلاث نصرانية ، هي الاولى من نوعها دخلت صفاقس بين سنتي 1830 و 1835 (51) . ونعتقد من جهتنا أن دخول أول أسرة مسيحية الى صفاقس تم قبل ذلك بست سنوات اذ أن القنصل الفرنسي بالعاصمة سمى نائبا له بصفاقس في 24 أكتوبر 1824 وهو جيروم كيجرولو (52) Jérôme Quejrole وقد كثر عدد اليهود والمسيحيين وقويت شوكتهم على مر الايام ، في اطار الحالة التي آلت اليها الايالة التونسية .

والمسيحيون في صفاقس متعددون الجنسيات واكثرهم عددا المالطيون وهم من الرعايا الاتقليز ، والايطاليون ومن بين رعاياهم اليهود الذين أتوا من القرنة . والايطاليون كثرت هجرتهم أثناء الحروب والحركة التي كانت تستهدف توحيد ايطاليا . وترعى الجاليات المسيحية ، المتفاوتة العدد والمصالح ، نيابات قنصلية ، ذكرتها لنا الوثائق ، وهي عديدة ، فحتى منتصف القرن التاسع عشر نجد نيابة قنصلية فرنسا ، وانقلترا ، والنمسا ، والامريكان ، والسويد ، ونابلي . ولا نعرف بالضبط متى أنشأت هذه النيابات القنصلية وكيف تطورت . فمعرفتها تتطلب بحثا طويلا . وأشهر

(47) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 465 ، وثيقة عدد 83 .

(48) أتى في رسالة من محمد بن محمود النوري الى محمد حامد النوري وهي بدون تاريخ = « والواصل لكل اذن من الشيخ الإمام احمد الفحام في تسليم عبده الذي كان فر منه تبقى تسلموه من قايد العبيد ... » وثائق متحف صفاقس ملف 2 وثيقة عدد 10 .

(49) وثائق الحكومة التونسية ، ملف 457 ، وثيقة عدد 35 .

(50) نفس المصدر ، ملف 456 ، وثيقة عدد 113 .

(51) السكان في تونس La population tunisienne هامش صفحة 185 .

(52) بلانتي Pantet ج 111 ص 683

وكلاء القنصل بصفاقس أ. اسبينو الذي قام بمهمته فيما بين سنة 1849 وسنة 1858 ، وقرية جان هنري ماتاي J.H. Mattei وهو تاجر يتعامل مع كبار تجار مرسيليا ويسوق الى هذه المدينة الاصواف والزيت والقموح وقد وقعت تسميته في تلك السنة بالذات (53) .

وفي حدود سنة 1856 وصل عدد الرعايا المسيحيين الى 500 نسمة حسب تقييم دينان Dunant (54) وهو الرقم الذي يعتمد عليه جان قانياج في دراسته حول السكان بالايالة ، ووصل عددهم في سنة 1860 الى 600 وفي سنة 1870 الى 720 نسمة (55) وقد بنيت لهم كنيسة في سنة 1841 . ويؤكد نائب قنصل بلجيكا أنيبال ماتاي Annibal Mattei في تقريره أن عددهم وصل سنة 1872 الى ألف نسمة مؤكدا أن جلهم من الماطيين والايطاليين وبعض الفرنسيين مقابل 2500 يهودي ، و15000 من السكان المسلمين (56) .

والمسيحيون على مراتب ، اشتغل الماطيون بأعمال البحر ، وتهريب البضائع ، والتجارات الصغرى بينما اشتغل الفرنسيون بالتجارة الكبرى المعنوية خاصة بتصدير الزيت والاصواف والقموح وأهمهم طوماس ماتاي ، وابنه هانري الذي أصبح نائبا لقنصل فرنسا كما أشرنا ، كما اهتم صغارهم بالتجارة التفصيلية التي تهتم ببيع وترويج المستوردات من أوروبا المتعلقة بالحياة اليومية خاصة .

وعدد اليهود أكثر فقد ذكر لنا الرحالة اليهودي بنيامين الثاني J.J. Benjamin II الذي زار صفاقس في سنة 1853 أن هذه المدينة تعد حوالي 150 أسرة يهودية ، لها داران للصلاة (57) . وقد بلغ عدد اليهود في حدود سنة 1860 : 1800 نسمة . واليهود على فئات أيضا: اشتغل اليهود النازحون من طرابلس والجنوب بصفة عامة بالصياغة (58) والحياطة وأضافوا الى هذه الصناعات في مدينة صفاقس فنونا وألوانا أخرى ، ومن حاذقى الصياغة يمكن أن نسمى معتوق بوخريص (59) ، كما اشتغلوا بائعى أقمشة

(53) انظر أندري مارتيل André Martel

Notes autobiographiques : les origines d'un vice consul de France à Sfax
A. D'Espina, (1819*1867), les cahiers de Tunisie

سنة 1959 عدد 28 .

(54) الإيالة التونسية La Régence de Tunis تونس 1975 ، ص 234 .

(55) قانياج ، المصدر السابق ص 185 .

(56) Recueil consulaire

(57) بول سباغ Paul Sebag. Les Juifs de Tunisie, au XIX siècle, les cahiers de Tunisie

سنة 1959 عدد 28 ص 497 .

(58) وثائق متحف صفاقس ملف 2 وثيقة عدد 70 .

(59) وثائق الحكومة التونسية سجل 1702 .

بالتحول وفي الحوانيت . أما اليهود الوافدون من القرنة فهم في أعمالهم أقرب إلى الفرنسيين ، إذ اشتغلوا بالتجارة الكبرى . وقد ذكر لنا الرحالة اليهودي بنيامين أنهم كانوا يقرمون بأعمال تجارية كبرى مع تونس العاصمة ومالطة وإيطاليا . واشتروا من الحكومة لزمات مختلفة ، أهمها لزمة تقطير الشريح وتسمى أيضا لزمة البوخة (60) ، ولزمة الرحبة التي تباع فيها الحبوب ، ولزمة المحصولات وقد اشتراها لسنين عديدة الياء الصباغ ، ونابوا الدولة في الضريبة المعروفة بالحروبة ، وقد اشتراها في سنة 1282هـ/1865م. جورج طابية (61) ، والياء الصباغ حسب تعبير الرحالة بنيامين الثاني الذي نزل عنده في رحلته ثرى جدا (62) .

واشترك اليهود والمسيحيون في المعاملات التجارية والمالية بالرباء ، وأدت بالعديد من الصفاقسيين والمثاليث أصاغر ووجهاء بالتداين لديهم ثم فقدان أملاكهم لفائدتهم عندما عجزوا عن تسديد ديونهم . والاملاك التي تحولت لفائدتهم متنوعة : أراض فلاحية ، وأغنام ، ومنازل وحوانيت الخ. ودخلوا المدينة المسورة للعمل بها ، فراحمين الجربي كان يبيع الملح بسوق الجمعة (63) ، واكترى آخر مخبزة (كوشة) للرحى وانضاج الخبز (64) . وسهلت الملكية للمسيحيين منذ سنة 1863 لما اعترف لهم الباي بحقوقها . وفي رسائل عمال صفاقس والمثاليث للوزير الاول اشارات الى كثرة ديون رعاياهم لدى النصارى واليهود (65) .

وكانت العلاقة بين الصفاقسيين من جهة واليهود والنصارى من جهة أخرى طبيعية في أول أمرها ، لكن تكاثر عددهم واستفحال نضاطهم ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر ، وتداين الصفاقسيين لديهم ومزاحمتهم في الاعمال التجارية تسبب في ضغينة أهل البلد لهم اشتدت مع الشعور بالعجز ومجاملة الدولة لهم . وتجلت هذه الضغينة في الخصومات والمشاجرات الدامية بينهم وبين أهل المدينة ، كما تجلت أثناء ثورة 1864 ثناء المقاومة للاحتلال الفرنسي سنة 1981 إذ كان اليهود والنصارى هدفا من أهداف المقاومة .

د. علي الزواري

(60) نفس المصدر ، ملف 450 ، وثيقة عدد 159 .

(61) وثائق متحف صفاقس سجل 24 .

(62) بول سباغ Paul Sebag المصدر السابق ص 198 .

(63) وثائق متحف صفاقس ، سجل 14 .

(64) المصدر ، سجل 14 .

(65) وثائق الحكومة التونسية ملف 466 ، وثيقة عدد 18 .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية للفكون (القرن 11 هـ / 17 م) (*)

ابو القاسم سعد الله

1 - التطور السياسي :

عندما ولد عبد الكريم الفكون سنة 988 هـ (1580م) كان قد مضى على الحكم العثماني في قسنطينة حوالي نصف قرن ، وحوالي ثمانين سنة في الجزائر كلها . ولم يكن هذا العهد عهد استقرار سياسي أو ازدهار اقتصادي الا تجوزا . فالقرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) كان قد عرف في تاريخ الشرق والغرب بأنه عصر الصراع الاسباني العثماني في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط . ولكننا لن ندرس هنا الصراع ولن ندخل في موضوع العلاقات الدولية ، الا بالقدر الذي ينعكس على اقليمنا (قسنطينة) وشخصيته التي نترجم لها (عبد الكريم الفكون) . أما الذي يهمنا بالدرجة الاولى في هذا المجال فهو وضع اقليم قسنطينة سياسيا أثناء حياة الفكون وكيف شارك هو في هذا الوضع ايجابا او سلبا .

ولكن الحكم العثماني في قسنطينة لم يبق حكما مباشرا . فهناك فترة لا نجد فيها حكومة الجزائر العثمانية تتدخل مباشرة في تعيين الحكام هناك ، وربما كان أهل البلد هم الذين يختارون من بينهم قائدا ترضى عنه السلطة في الجزائر . وكانت هذه السلطة تكتفي في الولاء بوجود قاض يدير الاحكام باسمها ، وبوجود حامية صغيرة من الجيش والدعاء للمسلطان العثماني في الخطبة . وأقدم وثيقة تتعلق بوظيفة القاضي تعود الى سنة 948 (1541 م) ، اذ أن الشيخ عمر الوزان ، الذي سيتحدث عنه الفكون (I) ، قد اعتذر لباشا الجزائر في ذلك التاريخ عن تولي ذلك المنصب . ولا شك أن الباشا ، الذي هو حسن آغا نفسه ، قد قبل الاعتذار وعين عالما آخر من علماء قسنطينة ، باقتراح من الوزان ، وهو قاسم الفكون جد مترجمنا والمتوفى سنة 965 .

وتوضح وثيقة اعتذار الوزان عن القضاء أمرين هامين ، الاول تبعية قسنطينة للسلطة العثمانية في الجزائر منذ ذلك التاريخ (948 هـ / 1541 م) ، والثاني عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في المدينة . وتدل عدة حوادث أخرى على الأمرين معا . فحاكم قسنطينة (الذي لا نعرف اسمه) وأهلها

(*) بحث مستخرج من كتاب (شيخ الإسلام : عبد الكريم الفكون) ، وهو جاهز للطبع .
(1) توفي الوزان سنة 965 هـ ، وقد ترجم له الفكون في كتابه (منشور الهداية) .

اشتركوا سنة 1563/971 في الهجوم على وهران ضد الاسبان . كما عرفت مدينة قسنطينة عدة ثورات داخلية . منها ما حدث سنة 1567/975 ضد الحامية العثمانية .

والواقع أن الثورات لم تكد تتوقف في اقليم قسنطينة حتى بعد أن استقر الوضع للعثمانيين وأصبحوا يعينون حكامهم (البايات) بانتظام . وقد كثرت هذه الثورات حتى أصبح من الصعب احصاؤها وتحديد آمادها . فمنها ما كان يحدث داخل المدينة نفسها نتيجة تنافس العائلات أو ظهور شخصيات صوفية طموحة ، أو حوادث عامة تهم المدينة وتقسّم الرأي العام ، ومنها ما كان يقع في الاقليم بين أهل الريف نتيجة السخط من الضرائب والتأثر بالزلزل ، وغضب بعض المرابطين . وها نحن نسوق أمثلة بعينها مما ساقه الفكون نفسه في كتبه . من ذلك ثورة سنة 975 التي يسميها الفكون (فتنة الترك) ، وهي الثورة التي كاد يذهب ضحيتها جده عبد الكريم الفكون وعبد اللطيف المسيح . فقد ذهبوا الى الجزائر لتطمين الباشا وتقديم بعض المطالب اليه ولكن الثورة حدثت وهما في الجزائر فهربا الى بلاد زواوة ، فأرسل الباشا في أثرهما وجيء بهما وسجنهما برهة . وبعد أن تأكد من براءتهما واطلع على حقيقة الموقف أطلق سراحهما واعادهما الى قسنطينة مكرمين . وقد وعداه بالسعى في توفير الامن والعافية في المدينة . وكذلك كان الحال ، وقد توجه الباشا نفسه الى قسنطينة ، وهو عندئذ محمد بن صالح رايس ، وبعد سهره على إعادة الاستقرار ترك عليها حاكما بلقب (باي) ، وهو رمضان شولاق .

وقد أطلال الفكون أيضا في سرد قصة جرت لجده وأحدثت هزة عنيفة في داخل قسنطينة ، وهي قصة اليهودي الذي اعتنق الاسلام ثم سب الرسول - صلى الله عليه وسلم . فقد انعقد مجلس الشورى وحضره الباي نفسه والجنود والشرطة والعلماء . وكان الجميع قد قالوا بعدم قتل ذلك اليهودي الا عبد الكريم الفكون الجد ، فقد أصر على الحكم بموته . وانقسم المجلس وخرج الخبر للشارع وكثر الضجيج والضغط على الشيخ، ولكنه لم يتزحزح عن موقفه الى أن خضعوا جميعا لرأيه (2) .

كما ذكر الفكون ثورتين أخريين هما : ثورة يحيى الاوراسي ، وثورة خالد بن نصر . ويبدو أن الاولى وقعت بعد سنة 988 ، ذلك أن الشيخ الاوراسي كان حاضرا وفاة عبد الكريم الجد في هذا التاريخ ولم يكن عندئذ قد ثار بعد . وقد انتشرت هذه الثورة التي كان صاحبها من العلماء البارزين ومن شيوخ الفكون الذي نترجم له . ثار الاوراسي في جبال الاوراس - بدون تحديد ، ومات - كما يقول الفكون - شهيدا . وبعد

(2) انظر القصة مفصلة في (منشور الهداية) صفحات 36 - 40 .

مقتله قام أخوه بالثورة ، ثم قام ولده (ولد يحيى الاوراسي) . ولم يكمل الفكون قصتها ، لانه أخبر أنها كانت مستمرة عندما كان هو يؤلف كتابه (أى بعد سنة 1045) .

اما عن ثورة خالد بن نصر فقد وقعت فى شرق قسنطينة ، دون تحديد المكان بالضبط ولا التاريخ ، ولكن يبدو أن الثورة وقعت قبل سنة 1045 وهو تاريخ تأليف الفكون لكتابه الذى ذكرها فيه . وقد أورد الفكون خبر هذه الثورة فى حديثه عن عبد الملك السنانى الذى قال انه كان من أجناد قسنطينة وحشمها أبعده عنها فجمع أقاربه وانتصب للشيخوخة (بالمعنى الصوفى) وصار يفعل ذلك «تحت كنف باغيها وقائمهالمسمى خالد بن نصر» ؛ ويذكر الفكون ثورة أخرى دون أن يؤرخ لها ولكنها ايضا وقعت قبل سنة 1045 ، وهى ثورة محمد بن الاحسن فى جبال قرب نقاوس ، فقد قام هذا الرجل المتصوف وشق عصا الطاعة مما جعل قواد وعساكر قسنطينة تخرج اليه كما يقول الفكون فهرب الى تلك الجبال ، وقد أشار الفكون ايضا الى عدة ثورات أخرى منها ثورة احمد السوسى المغربى (3) .

ولعل أكبر الثورات التى لم يؤرخ لها الفكون لانها وقعت بعد تأليف كتابه ، هى ثورة الذواودة المعروفة ايضا بثورة ابن الصخرى . وقد كنا بسطنا القول فى هذه الثورة فى غير هذا المكان (4) .

2 - مجتمع قسنطينة :

قبل ان نتحدث عن هذا المجتمع نود ان نلاحظ ان كتابات الفكون تعتبر مصدرا هاما عن مجتمع قسنطينة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (10 - II هـ) ولا نعرف ان هناك مصدرا آخر عربيا عن هذا المجتمع فى تلك الفترة ، اللهم الا ما جاء فى كتاب العدوانى عن المجتمع القبلى فى الاقليم خلال القرن السادس عشر . اما المصادر الاوربية فموجودة ولكن قليلة ، وكان هؤلاء يحرصون على تصوير حياة العواصم وقلما يتنقلون او يتاح لهم التنقل الى مدن الاقاليم مثل قسنطينة . ومن ذلك كتابات ليون الافريقى (حسن الوزان) ومرمول الاسبانى .

وعلىنا ان نعود الى مصادر أخرى لنعرف من خلالها طبيعة هذا المجتمع ، ولعل فى كتابات ابن ابى دينار صاحب المؤنس وفى تراجم حسين خوجة صاحب ذيل بشائر أهل الايمان (وكلاهما من القرن السابع عشر II / هـ) ، بعض الفوائد لما نحن فيه . كما أن فى كتابات رجال الصوفية أمثال زعماء الطريقة

(3) انظر عن هذه ، بالإضافة إلى الفكون ، كتاب (كعبة الطائفين) لمحمد بن سليمان ، فى كتابنا أبحاث وآراء فى تاريخ الجزائر ، 213/1 .

(4) انظر كتابنا تاريخ الجزائر اشقافى ، 213/1 ، ط 2 (1985) .

الزروقية او الشابية معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية بقسنطينة واقليةها، يضاف الى ذلك الكتابات الشرعية كدفاتر القضاة وكتايبش العلماء وكتب الفقهاء ونحوها . اما المصادر المتأخرة فمتوفرة ولا سيما منذ دخول الفرنسيين . ومن ابرزها كتابات صالح العنتري وأحمد العطار وفايسات وميرسييه وشيربونوفيرو . وآخر ما صدر عن هذا الموضوع كتاب محمد المهدي شغيب المسمى (ام الحواضر) . وينسب الفرنسيون كتابا الى الشيخ محمد البابوري ألفه سنة 1848 ، ولكننا لا نعلم الآن عنه شيئا ، ويبدو انه يشبه تأليف العطار (I) أما كتابات الورثاني عن مجتمع قسنطينة فهي هامة ولكنها جاءت متأخرة عن الزمن لذي نعالجه .

كان مجتمع مدينة قسنطينة مجتمعا حضريا متماسكا . وكانت تلعب فيه العائلات الكبيرة ، ولا سيما الدينية ، دورا فعلا وناظرا . فهي التي تنظم العلاقات العامة ، وهي التي تضع شروط المعاملات ، وهي التي تعين او تبارك النظام الاداري للمدينة (مشيخة المدينة او البلدية) وتسهر على الحماية والرعاية الداخلية (الشرطة) ، وتنشط الحياة الاقتصادية وتتحرك في الازمات (كالطواعين ، والجوائح الاخرى) والمهمات الكبيرة بطريقة جماعية منسقة . صحيح ان المدينة كانت مقسمة الى احياء اهمها حي باب الجابية وحي البطحاء ، وصحيح ان هناك التنافس بين تلك العائلات من أجل المجد والجاه والثروة ، ولكن هذا التنافس لم يبلغ حد التنافر أو التحارب . وحتى ما ركز عليه بعض مؤرخي الفرنسيين من ان عائلات قسنطينة انقسمت عند مجيء العثمانيين الى فريقين فريق بزعامة عائلة ابن عبد المؤمن وفريق بزعامة عائلة الفكون - قلنا حتى ذلك كان مجرد اختلاق لم تؤكده الوثائق (7) ، وكل ما في الامر ان عائلة عبد المؤمن قد ضعفت خلال العهد العثماني بينما ارتفعت حظوظ عائلة الفكون ، وانتقلت امارة ركب الحج من الاولى الى الثانية . ولا نجد في كتابات الفكون التي تعرض بالتفصيل الى أهل القرن السادس عشر (IO / هـ) والسابع عشر اية اشارة ، تعريضا او تصريحاً ، يشم منها المس من قيمة عائلة ابن عبد المؤمن ، بالعكس انه عندما ذكر شخصا من هذه العائلة قال عنه «حبيبنا محمد ، حفيد الشيخ عبد المؤمن» .

(5) انظر في هذا الشأن أيضا ما كتبناه عن كتاب (علاج السفينة في بحر قسنطينة الذي ألفه أحمد الإنبيري ، ونشرناه في كتابنا (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) ط 2 1982 ، القسم الأول .

(6) ذكره فايسات وقال أن البابوري من علماء قسنطينة وأنه ألف عمله بطلب من شيربونوف ، كما أشار فايسات إلى تأليف الشيخ مصطفى بن جلول أيضا ولم نطلع عليه . انظر فايسات (روكاي) 243/2 .

(7) مثل ما ادعاه شيربونوف (روكاي : 1865-1857) ص 97-98 من أن الترك سموا الشيخ عبد المؤمن خلدة وسلخوا جلده وحشوه تبنا وأرسلوه إلى الجزائر . وعينوا بدله شيخا من عائلة الفكون .

معظم العائلات في قسنطينة كانت تعيش على العلم والتجارة والزراعة والعلام لان قيمة العائلة كانت في تراثها العلمى وتنشئة ابنائها عليه من حفظ القرآن الكريم الى تولية القضاء والفتوى والتدريس . ومن اعتناق المذاهب الصوفية الى بناء الزوايا . اذن كان التراث العلمى لكل عائلة مما تمتاز به وتفاخر بأنه طريقها الى المجد والشهرة والنفوذ . وكانت التجارة هى عصب الحياة فمعظم العائلات كانت تتعاطى التجارة بطريقة او بأخرى ، بالجملة او بالتفصيل فى داخل المدينة فقط او بالتعامل مع مدن السواحل وتونس . وكانت اسواق المدينة تغص بالواردين من شتى انحاء الاقليم للتزود بالمواد الغذائية والبضائع المختلفة . فهؤلاء أهل زواوة وهؤلاء أهل الصحراء ، كلهم كانوا يؤمون عاصمة الاقليم لقضاء مآربهم فى اسواقها . وكثيرا ما بقى بعض هؤلاء الوافدين فى المدينة فيتخذون لهم مسكنا ويتزوجون او يأتون بعائلاتهم معهم فينمو المجتمع ويتنوع ويتنافس ، ولكن المجتمع الحضرى كان فى الغالب ينظر شزرا الى هؤلاء «البرانية» فهو يريد تجارتهم وأموالهم وبضائعهم ويدهم العاملة ولكنه لا يريد بقاءهم فى المدينة ومنافستهم وعاداتهم الخشنة التى لا تتفق مع عاداته الرقيقة . وبالإضافة الى ذلك كانت معظم العائلات الكبيرة تملك ضيعات (البساتين) خارج المدينة لا سيما فى منطقة الحامة التى كانت تعرف ايضا (بالفحص الأبيض) ، وكانوا غيورين أشد الغيرة على هذه الاراضى الزراعية الخصبة التى تمون المدينة بالغلل والبقول والخضر والالبان واللحوم ونحوها . وكانت العائلة لا تعتبر نفسها ثرية او صاحبة اعتبار اجتماعى الا اذا كانت تملك مجموعة من البساتين لا بستانا واحدا ، ولذلك كانت العائلات حريصة كل الحرص على توفر الامن خارج المدينة ايضا حتى تستطيع القيام بعمارة الارض وزراعتها فى اوقاتها . اما اذا انعدم الامن فكثرت اللصوص والحراية وقطاع الطرق فان الخوف يمنع الناس من استغلال اراضيهم ، وسنعرف من كتابات الفكون ولا سيما فى (منشور الهداية) عن موضوع العائلات وموضوع الامن والخوف واثريهما فى الحياة العامة .

ولعل حرص عائلات قسنطينة على اراضيها واسواقها وتجاريتها هو الذى حدا بها الى تأييد السلطة ضد ما كان يقع من ثورات فى الريف اخيانا ، كما حدا بها الى . . ان تتدخل بالصلح واصلاح ذات البين والتوسط حتى لدى باشا الجزائر من أجل الابقاء على الامن والاستقرار اللذين بدونهما تحل الفوضى وتشتت الجيوش ويسود الخوف والخراب. ولكن هذا لا يعنى ان الاضطرابات فى المدينة والثورات فى الريف (الاقليم) لم تحدث ، بالعكس فقد حدثت كما عرفنا وكان لها أثر سلبي على اقتصاد الاقليم كله . فثورة ابن الصخرى وثورة يحيى الاوراسى وثورة جبال نقاوس والفوضى التى اشاعها طلاب المال عن طريق الشعوذة والدجل فى الريف - كل ذلك جعل اقليم قسنطينة فى حالة بائسة وجعلنا نفهم ان قبضة السلطة كانت متداعية ، وهذا ايضا يجعل مسؤولية عائلات قسنطينة أعظم وأخطر . ولو تتبعنا الالفاظ التى وردت عند الفكون فى وصف حالة الخوف

لخرجنا بقاموس هام . ومن ذلك هذه التعابير الموحية أشد الإيحاء وهي : الظلمة (ج ظالم) ، الحرابة (الاشرار) ، اللصوص ، الاعراب (أهل البادية) ، غمريان (جماعة أتباع قاسم بن أم هانئ) ، العلمة (جماعة - اتباع أحمد بوعكاز) العبابسة (قوم نزل عندهم أحمد الفاسي) وزعيمهم العباسي الغازي ، أولاد عيسى وهم جماعة من اللصوص والحرابة ، ريفة جماعة متلصصة أيضا . يذكر الفكون خاصة البلد (قسنطينة) يصفهم بأعيانها أو سكانها أو حضرها، اما عندما يذكر أهل القصبة (مقر الباي) فيذكر من هناك هكذا : السلطة ، الظلمة ، دار الامارة ، العسكر ، الخ .

. ولم يسلم مجتمع قسنطينة من الطواغين والجوائح خلال الفترة التي ندرسها ، فهذا الفكون يذكر لنا عددا من زيارات الطاعون للمدينة وموت العديد من أهلها ، وفي مقدمتهم بعض العلماء والأعيان ، وهو نفسه قد مات بالطاعون سنة 1073 . ومن التواريخ البارزة لهذه الطواغين ما حدث سنة 1602 وسنة 1622 ، وسنة 1634 ، وسنة 1644 (1054 هـ) ، ثم طاعون سنة 1073 (1680 م) الذي أشرنا اليه (8) . اما الجفاف فأكبر ما حدث عام 1602 ، والذي دام حوالى تسع سنوات ، ثلثه مجاعة ، وجفاف سنة 1647 (1057 هـ) والذي تلتته مجاعة كبيرة ، وقد حصل بعدها كثير من الشغب والتعدى واختلال التوازن الاقتصادى . وهذه الازمات الاجتماعية - الاقتصادية (بالاضافة الى الثورات التي اليها) كانت تقود أعيان المدينة ، ولا سيما العلماء ورجال الدين ، الى تولى المسؤوليات الاخلاقية والروحية والقيام بالواجب الشرعى تفاديا للمزيد من الفوضى وحققنا للدماء وصونا للاعراض . ولعل من هؤلاء عبد الكريم الفكون الذى أصبح فى القرن السابع عشر (II هـ) ليس مجرد رجل عادى من أعيان قسنطينة ولكنه أصبح زعيما روحيا وقيادة اخلاقية عالية فى البلاد يهابها الحاكم ويلتجئ اليها المحكوم .

3 - عائلته ومكانتها :

عائلة الفكون من أقدم العائلات فى قسنطينة . فاذا عدنا الى عنوان الدراية للغبريني (القرن 8 هـ) وجدناه قد ذكر عددا منها (9) . وهي عائلة اشتهرت

(8) ذكر الفكون أن بركات المسيح قد توفي بالطاعون سنة 982 هـ . وأشار إلى وقوع الطاعون سنة 1031 ووفاء عدد من العلماء به . أما طاعون سنة 1073 فقد دام ثمانية أشهر (من رمضان إلى ذي القعدة) . وفي يوم واحد أودى بحياة 500 شخص من قسنطينة وحدها .
(9) منها الحسن بن علي ابن الفكون صاحب القصيدة الشهيرة :

ألا قل للسري ابن السري أبي البدر الجواد الأريحي

وقد رواها الأدياء عنه ومنهم العبدري صاحب الرحلة ، والمقري صاحب نفع الطيب 241/3 (ط. القاهرة) . وقال عنها المقري : أنها « من در النظام وحر الكلام » . وأوردها أيضا عباس بن إبراهيم ، الإعلام 138/3 . انظر عنوان الدراية ص 48 ط. بيروت .

بالعلم والصلاح قبل الاعمال الحكومية . وهي تنتسب الى بنى تميم اذ يذكرون مع اسمائهم هذه النسبة «التميمي» . ومن ثمة فهي من العائلات العسرية العريقة . ويضيف الفكون المترجم له أن جده من قبل أمه كان من الاشراف الحسينيين ، وكان قد تولى فى قسنطينة وظيفة مزوار الشرفاء . ولكننا لا ندرى ان كان جده لأمه من عائلة الفكون أيضا أو من فروع أخرى . فاذا كانت منها فان العائلة كلها تكون أيضا شريفة حسنية . غير أن هناك رأيا آخر فى الموضوع لم يذكره آل الفكون ولكن ذكره غيرهم ، وهو رأى عبد القادر الراشدى العالم ، الذى تولى وظيفة الفتوى الحنفية فى عهد صالح باى ، وأواخر القرن الثامن عشر (12 هـ) . فقد نسب اليه تأليف ذكر فيه أن عائلة الفكون ليست شريفة وليست تيممية كما تدعى ، ولكنها من قرية (فكون) الموجودة بمنطقة الاوراس . ونحن لم نطلع على تأليف الراشدى . ولذلك نتساءل هل صحيح انه قال بذلك ؟ وما الهدف من اثارته الموضوع أصلا ؟ ومما يذكر أن عائلة البونى التى تنتسب هى أيضا الى بنى تميم لم تثر موضوع هذه النسبة لدى آل الفكون عندما عاتب احد اعضائها ، وهو احمد البونى صاحب (الدرة المصونة) ، عبد الكريم الفكون على تعرضه لوالده ، محمد ساسى البونى . وفى الازمنة المتأخرة أصبحت العائلة تعرف بعائلة ابن الفكون ، وأحيانا بعائلة سيدى الشيخ .

بقى علينا ان نتحدث عن صعود هذه العائلة الى الصف الاول بين العائلات فى قسنطينة بل الى تقدمها على جميع العائلات الاخرى هناك ، خلال العهد العثمانى . كيف وقع ذلك ؟ ومن هو أول من تقدم منها ؟ وما الفرق بين الروايات الرسمية (التاريخية) والشعبية ؟ وهل ما زعمه بعض الكتاب الفرنسيين فى القرن الماضى حول الموضوع يثبت اليوم ؟ هذا ما نحاول الاجابة عليه هنا ولو باختصار .

وقبل كل شيء نبادر الى القول باننا نرى أن امارة ركب الحج لم تمنح الا الى عبد الكريم الفكون الحفيد صاحب هذه الترجمة . ودليلنا على ذلك عدة أمور ، منها انه لم يذكر هذه المهمة مقرونة باسم جده ولا والده حين ترجم لهما . ولو تولاهما أحدهما او كلاهما لذكرها لانه كان حريصا كل الحرص على اظهار مجد لعائلة وتوليها الوظائف السامية ، ولا سيما الدينية منها ، كما فعل حين ذكر تولى جده وابيه امامة الجامع الكبير والخطبة فيه والتدريس ونحو ذلك .

ومنها أنه أشار الى حج والده ووفاته أثناء منصرفه من حجه سنة 1045 ، كما سبق ، ولم يذكر أنه كان أميرا لركب الحج او كانت له أية مسؤولية دينية أو دنيوية مع الآخرين فى ذلك . ولو كان والده متقلدا لتلك الوظيفة لما أهملها فى ترجمته . ومن جهة أخرى فان الفكون لم يتحدث ابدا عن حج جده ، سواء بنفسه أو على رأس وفد رسمى ، ونعتقد أن جده لم يحج أصلا ،

ولو قد فعل لما أهمل حفيده ذكر ذلك لان الحج كان عندئذ مناسبة علمية ودينية يحرص المترجمون على ذكرها مترجميهم . فكيف نقول مع القائلين ان مشيخة الاسلام وامارة ركب الحج قد منحها العثمانيون لعبد الكريم الجند وورثها منه ابنه محمد ثم حفيده عبد الكريم الذى نحن بصدد الترجمة له ؟

ومنها ان الفكون ذكر فى ترجمة أحد معاصريه ، وهو الشيخ محمد الفقيه الزواوى ، ما يدل على أن امارة ركب الحج كانت ما تزال ، اثناء حياة والده ، فى يد عائلة ابن عبد المؤمن . ولكن الفكون لم يذكر تاريخ ذلك بالضبط . غير اننا نستنتج من سياق القصة أن ذلك وقع بعد 1045 ، سنة وفاة والده الفكون . فهو يقول عن نفسه انه تدخل لمنع الشيخ محمد الفقيه المذكور من الحج ثانية رفقة محمد ، حفيد الشيخ عبد المؤمن (أمير ركب الحج) لان محمد الفقيه كان قد سبق له الحج ، بينما أهله محتاجون الى النفقة . ولكن محمد الفقيه حج مع ذلك مع حفيد الشيخ عبد المؤمن مخالفا نصيحة الفكون . ولم يكن الفكون ضمن هذا الركب على كل حال ، لانه يخبر أن الشيخ محمد الفقيه وقف عند الفكون بعد رجوعه من الحج وأعلن ندمه عن فعله .

نستنتج من ذلك كله : أن أول من تولى وظيفة الامامة والخطابة بالجامع الكبير (جامع البطحاء) فى العهد العثماني هو عبد الكريم الفكون الجند ، بعد سنة 975 هـ ، أى سنة خلع البيعة من قبل حضر قسطنطينة .

(2) - وأن أول من تولى وظيفة القضاء فى نفس العهد من عائلة الفكون هو قاسم الفكون .

(3) - وأن أول من تولى امارة ركب الحج - بالاضافة الى الامامة والخطابة بالجامع الكبير - هو عبد الكريم الفكون الحفيد الذى نترجم له .

(4) - وان امارة ركب الحج قد بقيت فى عائلة عبد المؤمن الى زمن محمد حفيد عبد المؤمن الذى تحدث عنه الفكون نفسه فى النص السابق ، أى الى ما بعد حوالى قرن من وجود العثمانيين .

ومع هذا الوضوح فى تسلسل الاحداث وتولى المسؤوليات فان بعض المؤرخين (سيما الفرنسيون) قد خلطوا فى هذه القضية . فذهب بعضهم الى أن ولاء عائلة الفكون للعثمانيين يبدأ من خيانة عائلة عبد المؤمن لهم . وأن عائلة الفكون قد «منحت» وظيفة القضاء والامامة والخطابة بالجامع الكبير (وهو منصب يعنى الجاه والثروة) جزاء لها على دورها فى نشر العافية وجلب طاعة الرعية خلافا لعائلة عبد المؤمن التى تعاونت مع أولاد صولة وخلعت البيعة ورفضت الانصياع للعثمانيين . وقد استدل بعضهم ، مثل شيربونو ، برواية شعبية مفادها أن عائلة عبد المؤمن هى التى كانت تتوارث امارة ركب الحج فى قسطنطينة . وعندما حل خير الدين بربروس بالقل تضررت تجارة قسطنطينة

فجاءه وفد منها وعرضوا عليه الطاعة فعين عليهم بايا . ولما سمع الشيخ عبد المؤمن أغلق أبواب المدينة فظل الباي الجديد وجنوده في المنصورة (بأعلى المدينة) . وهنا اتصلت بهم عائلة الفكون المنافسة لعبد المؤمن واقترحوا على الأتراك أن يعدوا عبد المؤمن بأبقائه في وظيفته ، فأرسل اليه الأتراك رسالة وأقاموا له وليمة في المنصورة فجاءهم اليهم وفتح لهم أبواب المدينة . وأثناء هذه الوليمة سمره وسلخوا جلده وحشوه تبنا وأرسلوه الى الجزائر . ومنذ ذلك الحين ظلت العلاقة بين الأتراك وآل الفكون جيدة (9) .

وهذه الرواية وجدت صدى في كتابات فايسات وميرسييه أيضا . ولكن الاول (فايسات) لاحظ أن هذه الرواية لا تستند على أية وثيقة . ومع ذلك فهو يقول ان أول من أعطى لقب شيخ الاسلام هو عبد الكريم الفكون الجد سنة 1567 او 1568 ، بعد الثورة التي حدثت ذلك العام (975 هـ) ، والتي قادها أولاد عبد المؤمن بالتعاون مع أولاد صولة (9) . ولكن المعروف أن الفكون الجد تولى فقط امامة وخطابة الجامع الكبير ولم يتول امارة ركب الحج ولم يلقب بلقب « شيخ الاسلام » . أما ميرسييه فيذهب أبعد من ذلك ، فيرى ان امامة وخطابة الجامع الكبير قد منحت الى قاسم الفكون بعد رجوعه من تونس (والواقع انه تولى القضاء فقط ، باقتراح من الشيخ الوزان ، الذي اعتذر عن ولاية القضاء بنفسه) . ويؤكد (ميرسييه) ان أول أمير لركب الحج هو عبد الكريم الفكون الجد (وقد عرفنا ان هذا المنصب بقى فى يد عائلة عبد المؤمن الى اوائل القرن الحادى عشر ، وان الفكون الجد قد تولى فقط امامة وخطابة الجامع الكبير ، وانه قد لا يكون حج اصلا) . ويرجع ميرسييه ان لقب أمير ركب الحج قد منح للفكون الجد سنة 1572 (980 هـ) على اثر الثورة الكبيرة التي أدت الى مقتل الشيخ عبد المؤمن (10) . ولكنه يستدرك على نفسه فيقول ان لقب أمير ركب الحج وشيخ الاسلام قد منحاً ضمناً لا تصريحاً ، لان امام الجامع الكبير كان بالضرورة شيخاً للإسلام وأميراً لركب الحج . وهو أيضا استدراك غير صحيح ، لان امارة الركب بقيت فى عائلة عبد المؤمن مدة طويلة بعد وفاة الفكون الجد وابنه محمد وحتى الى عهد الفكون الحفيد . اما لقب شيخ الاسلام فلم يصرح به الا لهذا الأخير .

(9) انظر شيربونو (روكاي) ، 1856-1857 ، ص 79 .

(9 مكرر) انظر فايسات (روكاي) ، 1867 ، ص 321 وما بعدها .

(10) يرى فايسات أن منح الفكون لقب شيخ الإسلام كان بعد ثورة 1567-68 (975) وبعد رجوع الشيخ من الجزائر . ويرى ميرسييه أن ذلك كان سنة 1572 (980) بعد الثورة الثانية ، لأنه من الممكن أن يغفر الأتراك المرة الأولى لعبد المؤمن . وكلا السكاتيين متفق على أن صعود عائلة الفكون مكان عائلة عبد المؤمن كان بين 1567 و 1572 . وقد رأينا خطأ هذا التقدير . وعن رأي ميرسييه أنظر (روكاي) 1878 ، ص 226 .

والشيء المؤكد هو أن أسيرة الفكون ظلت تتوارث هذه الوظائف بعد ذلك :
 إمامة وخطابة الجامع الكبير ، وإمارة ركب الحج ولقب شيخ الاسلام ، إلى
 الاحتلال الفرنسي ، وبالضبط إلى سنة 1838 ، حين ألغت السلطات الفرنسية
 ذلك . وهكذا فإن الوثائق تتحدث عن تولي محمد الفكون (والد المترجم) جميع
 مهام والده (سنة 989 هـ) ، وتولى الفكون الحفيد جميع مهام والده سنوات
 1015 ، و 1048 ، و 1060 . وتولى محمد الفكون (ابن المترجم له) جميع مهام
 والده سنة 1074 ، و 1075 . واستمر الحال كذلك إلى الاحتلال الفرنسي كما
 أشرنا . وآخر وثيقة لتثبيت هذه العائلة على وظائفها وامتيازاتها ، يعود إلى
 عهد الحاج أحمد باي ، آخر حكام قسنطينة العثمانيين ، وبالضبط إلى سنة
 1242 (1826 م) (II) .

4 - منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية :

يعتبر (منشور الهداية) أفضل ما ألف الفكون ، بل أفضل الكتب المؤلفة
 في العهد العثماني بالجزائر . فهو ليس كتاب تراجم بالمعنى المتعارف عليه لدى
 كتاب التراجم ، وليس تخليداً للملك أو أمير أو باشا كما فعل بعض كتاب ذلك
 العصر ، وليس كتاباً في التصوف وأحوال الدراويش والانهازية التي ألف
 فيها أيضاً بعض مثقفي تلك الفترة . ولكنه كتاب في النقد الاجتماعي والنقد
 السياسي والنقد الديني ، وهو أيضاً كتاب عن أحوال الناس وزعمائهم
 السياسيين والمثقفين والدينيين ، وعن علاقات هؤلاء جميعاً ببعضهم بعض .
 إنه وثيقة حية هامة عن حالة ذلك العصر ، وهو يصلح أن يكون نموذجاً لما
 كان شائعاً في العالم الإسلامي كله عندئذ ، لأن ما فيه من وصف الأحوال
 والعلاقات والأفكار ليس خاصاً بالجزائر . وقد تكون الكتب الأخرى التي
 ألفها الفكون في النحو والصرف والحبس ، وحتى كتابه عن تحريم التدخين ،
 وديوانه في المديح النبوي - كلها قد فاتها الوقت وأصبحت تدرس كأعمال
 مضي عليها الزمن ، أما (منشور الهداية) فإنه الكتاب الوحيد الذي سيظل في
 نظرنا حياً خالداً لعمق أفكار صاحبه فيه واحتوائه على المعلومات الاجتماعية
 والإنسانية التي قل من تعرض لها من قبل بتلك الطريقة .

لم يؤرخ الفكون الانتهاء من تأليف (منشور الهداية) ولكن يغلب على الظن
 أنه قد ألفه بعد سنة 1045 لأنه تحدث فيه عن وفاة والده التي وقعت في تلك
 السنة . ولا نجدده قد ذكر تاريخاً آخر بعد هذه السنة . والمعروف أنه تولى

(11) أشار إلى هذه الوثائق كل من فايسات وميرسيه في المصدر المذكور ، وكذلك ميرسيه
 (روكاي) 1879 ، ص 215 وما بعدها . ويبدو أن محمد الفكون بن عبد الكريم الذي نترجم
 له هو نفسه الذي لقيه وتحدث عنه العالم التونسي أحمد برناز في كتابه (الشهب المحرقة) .
 أنظر دراستنا عن شعبان باشا من خلال هذا الكتاب في مجلة التاريخ 1985 . وفيها أن محمد الفكون
 كان هو أمير ركب الحج وخطيباً وإماماً إلخ .

هو وظائف أبيه بعد وفاته وزاد عليها امارة ركب الحج ولقب مشيخة الاسلام . والمعروف أيضا ان ثورة ابن الصخرى قد وقعت سنة 1047 ، وهى الثورة التى لا نجد لها ذكرا فى (منشور الهداية) رغم تعرضه لثورات وأحداث أقل منها شأنًا . ولذلك فنحن نرجح أن يكون (منشور الهداية) قد ألف بين 1045 و 1047 . وهل يمكن إذن أن نقول ان تاريخ تأليفه هو سنة 1046 ؟ ذلك أقرب الاحتمالات فى نظرنا . ولكن الأمر المثير هو أن الفكون ضمن كتابه حديثا عن أشخاص كانوا أحياء زمن التأليف ، كما يفهم من صيغة الحديث ، مثل حديثه عن أحمد المقرئ ، بينما نعلم من مصادر أخرى ان هؤلاء الاشخاص قد توفوا قبل ذلك التاريخ المحتمل لتأليف الكتاب . فالمقرئ مثلا توفى سنة 1041 ، بينما لا يشير الفكون الى هذه الوفاة ، ويبقى حديثه عنه فى الكتاب بصيغة الحى . وهناك نماذج أخرى على ذلك ، مثل ايراد مراسلاته مع عالمى تونس ابراهيم الغريانى ومحمد تاج العارفين ، الواقعة سنة 1037 . فيبقى لدينا احتمالان آخران هما : ان الفكون ألف الكتاب فعلا حوالى سنة 1046 ، ولكنه ضمنه وثائق المراسلات القديمة بتواريخها المتقدمة ، أو أنه كان قد بدأ فى تأليف الكتاب فى تاريخ سابق قد يكون من 1033 وظل يزيد عليه ويعمل فيه الى سنة 1046 (12) . غير أننا ما نزال نميل الى الاحتمال الاول ، وهو أنه ألف الكتاب سنة 1046 وضم اليه وثائق متقدمة وأخبارا بصيغها القديمة .

ورغم أهمية الكتاب فى نظرنا فليس له نسخ كثيرة . وبعد البحث والجهد توصلنا الى وجود نسختين مصورتين منه دون أن نعرف أو نطلع على الاصل . النسخة المصورة الاولى رأيناها فى المكتبة الوطنية - بالجزائر ، وكان قد قسمها لها الشيخ المهدي البوعبدلى . والنسخة المصورة الثانية هى نسخة الشيخ عبد المجيد بن حبة ، التى تفضل بارسالها الى للاطلاع بواسطة الاستاذ احمد ابن السائح . واثناء المقارنة بين نسخة المكتبة الوطنية (نسخة الشيخ البوعبدلى) ونسخة الشيخ ابن حبة وجدتهما متماثلتين وترجعان الى أصل واحد . وقد أخبرنى الاستاذ ابن السائح بأن الشيخ ابن حبة يعتقد ان نسخته ونسخة الشيخ البوعبدلى مصورتان عن النسخة الاصلية التى يملكها الشيخ فيصل العابد بباتنة . وقد استفدت من مقابلة النسختين المذكورتين ، فقد كانت نسخة الشيخ البوعبدلى ناقصة صفحة العنوان وبعض الصفحات الداخلية التى أكملها الشيخ بخط يده ، أما نسخة الشيخ ابن حبة فهى كاملة التصوير ، ولذلك أكملت منها الناقص فى النسخة الاولى . وأعدتها الى صاحبها شاكرًا . اما النقص المشترك مثل بعض البياض وسوء كتابة بعض الكلمات الخ ، فقد بقى كما هو .

(12) من الأدلة أيضا على أن الفكون ألف كتابه قبل سنة 1048 أنه تحدث عنه فى كتابه (فتح اللطيف) بصيغة الماضي قائلا : « وقد ذكرنا فى تأليفنا منشور الهداية ... » كذا وكذا . ونحن نعرف أن (فتح اللطيف) قد ألفه سنة 1048 . انظر آخر هذه الدراسة .

اذن هناك أصل (المنشور الهداية) عند السيد فيصل العابد . ولكن هل هو نسخة المؤلف الاصلية أو نسخة عنها ؟ ذلك ما لا نعرفه الآن . غير أننا نعتقد أن للكتاب أكثر من نسخة لانه يهم كثيرا من العائلات وكثيرا من الناس . وقد علمنا ان الشيخ أبا القاسم الحفناوى صاحب (تعريف الخلف) قد أخذ منه أوائل هذا القرن تراجم وأخبار بعض الاشخاص (I3) . فمن أى نسخة كان ينقل الحفناوى ؟ واين هى الآن ؟ ومن جهة أخرى اطلع السيد فايسات على مقتطفات من (منشور الهداية) فى القرن الماضى وضمنها كتابه عن تاريخ قسنطينة ، وسماه هناك نوعا من المذكرات عن رجال وحوادث العصر ، وتأسف على انه لم يتمكن من الاطلاع على الكتاب كله رغم محاولاته المضنية والتي دامت ، كما قال ، سنتين ، مع الذين «يملكون» الكتاب (I4) . ونعتقد ان السيد ميرسييه قد يكون اطلع على (منشور الهداية) أيضا واستفاد منه فى كتابه عن تاريخ قسنطينة . وعندما سألنا الشيخ البوعبدلى عن مصدر النسخة التي كان الحفناوى قد نقل عنها ، أخبرنا ان كل ما يعرفه عن الموضوع هو أن الحفناوى تلقى من الشيخ حمدان الوئيسى القسنطينى بعض التراجم من (منشور الهداية) فضمنها كتابه (تعريف الخلف) دون ان يكون قد اطلع على الكتاب نفسه (I5) . والواقع أننا غير يائسين من وجود نسخة أخرى ، على الاقل منه ، لنستفيد منها فى التحقيق الذى عزمنا على القيام به ان شاء الله .

عندما اطلعت على (منشور الهداية) أول مرة منذ أكثر من عشر سنوات ، اندهشت لاهميته وسجلت فى مذكراتى عنه على الفور ما يلى : «مخطوط ترجم فيه (الفيكون) لشيخه من العلماء الصالحين ومن عاصرهم ممن ادعى الولاية والعلم واتصل بالامراء ورام الدنيا . وترجم كذلك فيه لبعض تلاميذه وأصحابه . وفيه تراجم لوالده وجده واحمد المقرئ وبعض عائلات قسنطينة ، مثل المسيح والموهوب وابن باديس والحركاتى ، وابن نعمون ، وابن ثلجون ، وغيرهم . وهو فى الواقع (كتاب) عن تراجم علماء قسنطينة فى القرنين العاشر والحادى عشر ، مع ذكر بعض وفياتهم ، والكتاب يحتوى على 294 صفحة ، والغالب انه بخط المؤلف وخطه جيد . وفيه استطرادات وأخبار هامة عن الكتب والسياسة والاحوال الاجتماعية والعلمية والواقع اننى ما ازال على نفس الرأى اليوم . فالكتاب ، كما أشرنا فى البداية ، وثيقة لا غنى عنها لدارس الحياة السياسية والاجتماعية والدينية فى القرنين العاشر والحادى عشر (I6 ، I7 م) بل ان أهميته تمتد الى وقتنا الحاضر لان معظم العائلات والافكار والاتجاهات والزوايا التي ذكرها ما تزال موجودة بيننا .

(I3) الحفناوى (تعريف الخلف) ، 2/

(I4) فايسات (روكاي) ، 1868 ، ص 263 . وقد أخذ فايسات أيضا من مقدمه (منشور الهداية) ، كما جاء فى صفحة 389 .

(I5) رسالة الشيخ ابو عبدلي بتاريخ

أحصينا ما فيه من تراجم فوجدناها حوالى ثمانين ترجمة . لكننا نبادر الى القول بأن الفكون لا يترجم للأشخاص بالطريقة المعتادة من ذكر الميلاد والوفاة والسيوخ والوظائف والتلاميذ والتأليف والكرامات والمناقب ونحو ذلك . انه لا يتبع هذه الطريقة على الاطلاق ، بل انه يتناول احوال الاشخاص فيصفهم فيما كانوا عليه ، فى نظره ، من الصلاح أو الطلاح ، ويتحدث عن نشاطهم الاجتماعى وعلاقاتهم مع بعضهم ومع السلطة ومع الناس ، ويخبر عن عقائدهم وأطماعهم وتنافسهم فى الخير والشر ، وعن قوتهم وضعفهم امام المغريات السياسية والمالية والشيطانية ، وعن نشاطهم العلمى اذا كانوا من العلماء وعن نشاطهم الصوفى اذا كانوا من المتصوفة ، وعن مفاخراتهم اذا كانوا من المغامرين ، وهكذا . فالفكون اذن لا يترجم لاهل القرنين السابقين ولكنه يسجل عنهم انطباعاته وانطباعات من عرفوهم اذا كان لم يرههم ، وكثيرا ما يترك مكان الوفيات بياضا ، اما تواريخ الميلاد فقليلا ما تذكر ، لان ذلك لم يكن هدفه أصلا .

وقد اختلفت هذه الانطباعات طولا وقصرا وعمقا . فبعض أحاديثه تطول وتعمق حتى تصل عدة صفحات ، وبعض أحاديثه تكون من القصر بحيث لا تتجاوز السطور . ولكنه مع ذلك يضع فيها من المعانى ما يكفى لمجلد . وقد يستطرد فيدمج الحديث عن شخص ما أثناء الحديث عن شخصية رئيسية أخرى . وقد يذكر مجموعة من الاخبار فى الخبر الاساسى . وقد يصرح حتى كأنه يرمى هدفه بسهامه النارية ، وقد يكتفى بالتلميح حتى كأنه يقول لنا عليكم باكمال الباقي وفهم الواقع وربط الحالات ببعضها . وهر فى أحاديثه هذه لا ينطلق من مصلحة ذاتية الا قليلا . ولكنه ينطلق من المصلحة العامة ، كالغيرة على الدين والاخلاق والعقل البشرى . وهو يبكى هبوط أحوال المسلمين وانتشار السعوذة بينهم وفساد الدين على أيدي زعمائهم وشيوخ الرشوة لدى أرباب السلطة والقضاة والعلماء والدرائش ، وقلة الامن فى المدينة وفى الريف . وهو يتحسر أثناء تراجمه كلها تقريرا على فساد الخاصة ورقاد العامة ، وهو الموضوع الرئيسى الذى يكاد يتكرر فى كل صفحة من صفحات الكتاب . ونحن وان كنا سنورد نص مقدمة هذا الكتاب فى قسم النصوص ، فاننا نسوق عبارته هنا فى الباعث على تأليفه ، فليتأمل القارىء معنا هذا النص وليتذكر ان روح النص موجودة فى كل ثنايا الكتاب كما أشرنا :

«اما بعد، فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجات (كذا) من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم فى منزلة يدعى من أجلها خسيسا ، وصاحب اهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة ، وروائح السلب والطرود من المولى عليه فاتحة، الا أنهم ، اعنى الطائفتين ، تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية ، وحالات

كانت قدما للسادة الصوفية ، فموهوا على العامة بأسماء ذهبية مسمياتها ، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها ، لبسوا بانتحالهم لها على أهل العصر انهم من أهلها ٠٠٠ كل ذلك والقلب منى يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينسب جماعة الجبهة المعاندين الضالين المضلين لهم أو يذكروا في معرضهم ، وغيرة على جناب السادة الاولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة وأنزال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم أو يظن بهم اللحق بآثارهم . ولم آل في التنفير من كلبا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان وأوان ، وبين كل صالح من الاخوان ، الى ان احسست لسان القول قد انطق بنسبة ما لا يليق ذكره من أفواههم ، فشرح الله صدرى في ان اعتكف على تقييد ييدى عوارهم ويفضح أسرارهم ، ويكون وسيلة الى الله في الدنيا والاخرى ٠٠٠ فهذا الجهاد الذى هو أحد من السيف في نحور أعداء الله ، وناهيك بهم أعداء ٠٠٠ فعظم الباعث على النصيح بهذا التقييد (١٦)

ان الفكون يتحدث دائما عن حزبين متميزين متصارعين في عصره ، وهما من يسميهما : حزب الله وحزب الشيطان . وأحيانا يسمى ذلك طائفة الخير وطائفة الشر وطائفة الشر هذه ذات شقين : شق يضم ادعياء العلماء الذين «سطرت أناملهم في قراطيس السجلات ما يوههم من لم يرهم ممن يأتى في غابر الزمن انهم من حزب العلماء ومن مشائخهم الاعلى» ، وشق يضم «الطائفة البدعية» التى أصبحت «مقطعا للحقوق ، وقسما يقسم بهم فى البر والعقوق ٠٠٠ وأعلنوا بأن سابق الاقدار منوطة بارادتهم ٠٠٠ واتخذت اتباعهم ألقبا لهم باسم الشيخوخة والتحذير من أن يغاضوا أو يغتاضوا ٠٠٠»

هل رأيت اذن ان الفكون كان يحمل علم الجهاد فى ليل مظلم من الجهل والبدعة والفساد الاخلاقى والسياسى ؟ وهل رأيت ان دافعه لتأليف كتابه كان الغيرة على حزب الله من العلماء العاملين والصلحاء السلفيين ؟ وهل رأيت انه حمل رايته ضد أولئك الزنادقة أعداء الله وحزب الشيطان الذين انحرفوا عن الدين باتخاذ الالقاب الرئاسية والكهنوت الصوفى وربطوا مصالحهم بمصالح الحكام الفاسدين ؟ واين دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذه الثورة التى أعلنها عبد الكريم الفكون قبله بأكثر من قرن ؟ اقرأ معى ان شئت قول الفكون عن المبتدعة فى زمانه : «وربما زاد فى افصاح أحوالهم ٠٠٠ ان من مات منهم بنوا عليه وشيدوا بناءات ، وجعلوا عليهم قبابا من العود وألواحا منقوشة بأسمائهم وما اختاروا لهم من الالقاب التى لا تصلح لهم» .

ان هذا الكلام ، بل هذه الجملة ، لم تعجب ، بدون شك ، علماء ولا متصوفة عصر الفكون ، وبالطبع لم تعجب أيضا علماء ولا متصوفة ما بعد عصره لان الامور قد زادت سوءا بعده كما هو معروف . فالجهل عم وانتشر ، وغطى

السهل والوعر ، والدروشة (وحاشا التصوف) والتدجيل قاض بحرهما وطما زبدهما . ولامر ما أهمل العياشي ذكر (منشور الهداية) حين عدد كتب الفكون ، بينما أطل في النقل من ديوانه في المديح النبوى كما عرفنا ، ووصف كتابه في شرح أرجوزة المكودى فى التصريف ، بل ولخص فى عدة صفحات من رحلته كتاب الفكون عن تحريم التدخين . أما الشعابى فقد اكتفى بقوله وله تأليف فى حوادث فقراء الوقت والرد عليهم . وما هو ، كما رأيت ، فى «فقراء» الوقت الذين يعنى بهم الشعابى المتصوفة . فالكتاب كما نعلم لا يتحدث الا جزئيا عن هؤلاء الفقراء او المتصوفة ، ولنكون دقيقين ، لا يتحدث الا عن صنف منهم . ويبدو أن الشيخين : العياشى والشعابى ، لم يطلعا أبدا على كتاب (منشور الهداية) وانما سمعا عنه من فقراء الوقت أنفسهم ، ومن غيرهم ، اولئك الذين صدمهم الفكون بكتابه وكشف عوارهم وفضح أسرارهم ، كما قال ، فتألبوا عليه وأسروا له البغضاء ورموه بالسنة حداد (17) .

ومهما كان الامر فان الفكون قد رتب كتابه على هذا النحو : مقدمة ذكر فيها الدافع الذى دفعه لتأليفه كما سبقت الاشارة . ثم ثلاثة فصول وخاتمة . اما الفصل الاول فجعل عنوانه (فى من لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن قبل زمنهم ممن نقلت الينا أحوالهم وصفاتهم تواترا ، أردنا التنبيه عليهم وذكر ما كانوا عليه وزمانهم وتواريخ وفاتهم) . وهذا الفصل ، رغم طول عنوانه ، قصير نسبيا . وقد ذكر فيه بعض أفراد عائلته أمثال يحيى الفكون وقاسم الفكون وجده عبد الكريم الفكون ووالده محمد الفكون وجده لاهه محمد ابن قاسم الشريف . كما ذكر فيه عمر الوزان ، ويحيى الاوراسى ، ومحمد العطار ، واحمد الغربى ، ومحمد الكماد ، وعلى بن يحيى الياورارى ، واحمد بن تكفه ، ومحمد بن حسن ، وعبد اللطيف المسبح ، واحمد (حميدة) المسبح ، وبركات المسبح ، وعلى المروانى ، وعلى الغربى ، وابو القاسم العطار ، واحمد ابن باديس ، وبركات بن سعيد ، وشيخاه محمد التواتى وسليمان القشى النقاسى ، وعبد العزيز النفاتى ، ومحمد القاسى . ولم يذكر تواريخ الوفاة ، كما قال ، الا لعدد قليل منهم . أما البقية فأماكن التواريخ لوفاتهم ظلت بيضاء فى النسخة التى بين أيدينا . وكان المفروض أن يذكر تواريخ الوفاة لان هؤلاء متقدمون عليه أو توفوا أثناء حياته . اما الذين سيحدث عنهم فى الفصلين الباقيين والخاتمة فكانوا معاصرين له ومعظمهم كانوا أحياء عند تأليف الكتاب .

(17) يذكر الفكون فى كتابه (فتح اللطيف) أن كتابه (منشور الهداية) قد جلب عليه النقرة والبغض « رمقني من أجله العيون ، وانعقد على بغضي القلوب وأكثر الشؤن » ، ولكنه اعتصم بحبل الله واعتبر عمله جهادا يجازى عليه فى الآخرة . ونعتقد أن عدم ترويج الكتاب واستنساخه هو جزء من حملة الغضب والبغض التى أشار إليها .

أما الفصل الثانى فقد جعل عنوانه : (فى التشبيهين بالعلماء ، وهم الذين قصدنا بهذا التقييد ايضاح أحوالهم) . ومن أجل ذلك كان هذا الفصل أطول من سابقه لان الفكون أخذ يعالج ما قصده فى انكتاب . وقد تحدث فيه عن مجموعة من الناس لا يتسع الامر الآن لذكر اسمائهم جميعا . ونود أن نوضح ما جاء فى صفحة 35 من المخطوط حين بداية الحديث عنهم ما أضافه الفكون نفسه من بيان لما سبق وهو قوله (فيمن تعاطى المنصب الشرعى لادعائه العلم، وهم كل من ادعى ما لا يصح له من خطبة وتدريس وغيرهما) . وهو يقصد بالمنصب الشرعى وبالخطبة الوظائف الرسمية كالقضاء والفتوى . وقد افتتح هذا الفصل بالحديث عن يحيى بن محجوبة الذى كان متوليا رئاسة الفتوى ، وهو الذى أخبر عنه انه كان كبير السن ومن معاصرى جده ، وانه فصل فى خلاف مع والده (والد الفكون) حول مسألة حبس فى مجلس بالجامع الكبير ، مما أزعج الوالد حتى أنه طلب من ابنه (المؤلف) أن يخرج هو للمرد على ابن محجوبة ، كما سبق . وعد من هذا الفصل أيضا جده لاه ، محمد بن قاسم الشريف ، الذى كان متوليا وظيفة مزوار الشرفاء . وقد تصدر أيضا للفتوى ، ويحيى بن باديس واحمد الجزيرى ، واحمد الغربى ، ومحمد السوسى المغربى ، ومحمد بن نعمون وعبد اللطيف بن سعيد ، وغيرهم .

ويأتى بعد ذلك الفصل الثالث الذى جعل عنوانه (فى المبتدعة الدجاجة الكذايين على طريق الصوفية المرضية) . ومما يذكر ان الفكون اضاف على صفحة 110 من المخطوط حيث عنوان الفصل الثالث هذا العنوان (فيمن ادعى الولاية من الدجاجة) . وهو نفس المعنى ولكن فيه بعض التصرف . وقد ابتداء بأحدهم وهو قاسم بن أم هانى ، وأخبر أنه افتتح به الفصل «لعظم مفسدته بين الخلق وشهرة بدعته وقوتها» . وبالطبع أطال فيه الحديث أيضا . وذكر منهم أيضا احمد بوعكاز ، ومحمد الحاج الصحراوى والشيخ طراد ، وسيدى الجليس ، وعبد الملك السنانى ، وعلى العابد الشابى ، الخ . ومن الغريب أن الفكون وضع الشيخ محمد ساسى البونى ضمن هؤلاء الدجاجة ، لترجييه بالشيخ المغربى على خنجل واتخاذة الحضرة وجعله مستحما سماه (حمام أهل الصفا) الخ . وقد أطال فى الحديث عنه وعن أمره الخرافى .

وأخيرا تأتى الخاتمة التى قال انه اختار لها عنوانا هو (أخوان العصر وما هم عليه) ، ولكنه فى صفحة 234 من المخطوط يغير العنوان قليلا فيصبح (فى ذكر من اردنا ذكره من الاصحاب والاحباب) . ويقصد هؤلاء من كان معاصرا له أو ندا ، وله معه مراسلات واتصالات شخصية . ولكن هؤلاء لم يسلموا من نقده اللاذع أيضا ، وقد جمع فى هؤلاء الاصحاب بعض المنتمين للعلماء والمنتمين للمتصوفة أيضا . فنجد الشيخ بلغيث الذى تحول فى تونس من العلم الى التصوف . ونجد الموهوب بن محمد الزواوى ، ومحمد وارث الهارونى المتيجى ، وعلى بن عثمان الشريف الزواوى ، واحمد بن الحاجة الميلى ، ومحمد ابن باديس ، ومحمد بن ناجى ، واحمد المقرئ الذى أطال فى الحديث عنه

ونقدمه . ثم عددا من التونسيين (مثل ابراهيم الغرياني ، وتاج العارفين) ، والمولى علي العثماني ، وغيرهم . ولنلاحظ ان أكثر من عددهم أصحابا وأحبابا كانوا من خارج قسنطينة .

ولكن تبقى أهمية كتاب (منشور الهداية) في انه ليس كتاب تراجع بالمعنى التقليدي . ففيه لمسات انسانية وأخبار طريفة وآراء شخصية أيضا . كما أن فيه نماذج من حياة وأخبار العلماء خارج قسنطينة سواء كانوا من القطر الجزائري أو من البلدان الاسلامية الاخرى المجاورة والبعيدة . وفيه أوصاف لاحداث وقعت بين العلماء والحكام سواء في قسنطينة أو في الجزائر ، ووصف لبعض الثورات ، وقضايا الامن العام في الريف ، ودور الزوايا ، وتقاليدهم تلقي العلم ، وأخبار الكتب . وما يلاحظ عليه أن الفكون لم يشمر ، ولو لحادثة واحدة فيما نعلم ، عن وجود الاجانب أو النصارى في قسنطينة أو غيرها من أنحاء الجزائر .

وبعد ، فليس أفضل عند الانتهاء من هذه الدراسة لكتاب (منشور الهداية) من قول مؤلفه فيه عندما تحدث عن قول المكودي :

هذا مع الجهل وشغل البال * والاضطرار واضطراب الحال
اذ علق الفكون على ذلك بقوله : «واذا كان هذا في زمنه (زمن المكودي) ومنار العلم منصوب ، وعن آراء الجاهلين برشق نبال البراهين محجوب ، فكيف بزماننا الذي فاض فيه عباب الجهل والدعوى ، وطلعت كواكب البدع والاهوى (كذا) ، فلا ترى الا مدعيا في العلم أعلى منصبه ، ومرتقيا في شامخ التربية أرفع قنته ، جعلوا الطريقتين (العلم والتصوف) شباكا لتحصيل الدنيا منصوبة ، وحبالات لجمعها بأوتاد حبها مضروبة ، وما نظروا الى عاقبة الامر وعقابه ، والوقوف بين يدي العالم بالخفيات ودقة حسابه ، وأسأل الله العافية ، وصلح حال الامة ...

«وقد ذكرنا في تأليفنا (منشور الهداية) في كشف حال من ادعى العلم والولاية) من حال الصنفين ، ودعوى الفريقين ، ما يكتحل باثمه أهل الكمال ، ويروى من عذب فراته أهل الفضل والافضال ، والبر بتأليفه أردت ، وإرشاد الامة ونصيحها قصدت ... وهو ، وان رمقتني من أجله العيون ، وانعقدت على بغضى القلوب وأكثر الشؤون ، فذلك ، ولله الحمد ، مما يسرني في الحال والمآل ، ويقوى رجائي أن يكون لي عنة في عظيم الاهوال ، لوعد رب العالمين ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا وان لمع الك » (18) .

فالرجل أراد بكتابه اصلاح حال الامة الاسلامية وحالة مجتمعه الذي طغت عليه الضلالات وهو يعتبر ذلك جهادا في سبيل الله ، كما كرر ذلك أكثر من مرة . وهو لا يبالي ببغض المبغضين ، ولا بحقد الحاقدين عليه من أجله ، لان له من تأليفه هدفا أسمى وغاية حسنى .

د. أبو القاسم سعد الله

(18) أورد الفكون هذه السطور في كتابه (فتح العلي) الذي ستحدث عنه .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الحياة الاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب العثمانية في العصر العثماني الاخير (1835 - 1911 م .)

د. رافت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مقدمة

جاء العثمانيون الى طرابلس الغرب بوصول حملة عسكرية بقيادة سنان باشا قائد الاسطول العثماني في 13 شعبان 958 هـ الموافق 16 أغسطس 1551م لانهاء حكم فرسان القديس يوحنا الذين استقر بهم المقام في مالطة ومنها تسلموا السيطرة على طرابلس خلفا للسيطرة الاسبانية عام 1535 م .

وكان استيلاء العثمانيين على طرابلس يمثل اتمام الحلقة في املك الدولة العثمانية بعد استيلائهم على مصر عام 1517 م من يد المماليك وورثوا دولتهم ، وبعد أن امتد نفوذهم بصفة فعلية على الجزائر عام 1518 م ، ولذلك كان مجيء العثمانيين الى طرابلس شيئا طبيعيا يتسق مع تطور الاحداث التي مرت بالعالم العربي الذي أخذت أجزاؤه تخضع للقوة العثمانية التي أخذت تمد سلطانها على هذه الاجزاء سواء في المشرق أو في الشمال الافريقي .

كما كان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحري بين الاسطول العثماني وأساطيل الدول الاوروبية المنافسة مثل اسبانيا التي تمثل القوة المسيحية الاوروبية ، ثم أسطول فرسان القديس يوحنا الذين كان نشاطهم صليبيا ضد الاراضي العربية الاسلامية وأهلها الذين مارسوا عمليات جهاد بحري اسلامي ضد السفن الاجنبية المعتدية والمعادية .

ولذلك كان استنجد جماعة من أهل تاجوراء (1) الذين ركبوا «شنياء» - سفينة - وتوجهوا لصاحب القسطنطينية (2) عام 956 هـ الموافق لعام 1549م، وكان صاحب القسطنطينية اذا ذاك السلطان سليمان الاول ، يطلبون منه العون للتخلص من النصاري (فرسان القديس يوحنا) ، وأن يولي عليهم واليا يلي أمرهم ، فاستعمل عليهم «مراد أغا» وقدموا به لبلدهم ، وهو أول وال تركي في طرابلس الغرب (3) .

(1) ضاحية قرية من طرابلس الغرب .

(2) يعني استامبول أو اسلامبول عاصمة الدولة العثمانية .

(3) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ص 93 .

وبهذا كان استنجد أهل تاجوراء بالسلطان العثماني لتخليص بلادهم من عسف الفرسان المالمطيين هو السبب المباشر الذي أدى الى مجيء العثمانيين الى طرابلس الغرب وهو السبب الذي عجل بقدومهم ، حيث أوقف أهل تاجوراء العثمانيين على أحوال البلاد وضعفها واستعداد أهلها للقيام في وجه فرسان مالطة اذا وجدوا قوة عثمانية مسلمة تؤازرهم .

استمر العثمانيون يحكمون ولاية طرابلس الغرب حكما مباشرا من 1551 م حتى نجح أحمد القرمانلي (4) في ارتقاء كرسي الباشوية في الولاية عام 1711 م مكونا أسرة وراثية ظلت تحكم لمدة 124 سنة انتهت عام 1835 م بعودة الحكم العثماني المباشر الى الولاية بعد أن اتخذ أمراء الاسرة القرمانلية سياسة المغالاة في فرض الضرائب على السكان واتخاذ الاساليب التعسفية في جمعها على يد جند الانكشارية والقولوغلية (5) ، واتباع سياسة مهاجمة السفن الاجنبية في البحر المتوسط في مغالاة أدت الى تحالف بين الدول الاوروبية ضد حكم الولاية كما أدت الى ثورات أهل البلاد أنهت حكم الاسرة القرمانلية (6) .

وبعد انتهاء حكم الاسرة القرمانلية في ولاية طرابلس الغرب عاشت الولاية عصرا من الحكم العثماني الاخير حيث استمر هذا العصر من عام 1835 م حتى عام 1911 م عندما جاء المستعمرون الايطاليون الى البلاد واحتلوها وأنهوا الحكم العثماني للولاية الذي استمر 360 سنة .

وقد امتد الحكم العثماني الاخير لولاية طرابلس الغرب لمدة سبعة وسبعين سنة تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وعدة شهور وعدة سنوات . وقد أعطى هذا العصر - العصر العثماني الاخير - أهمية كبيرة نظرا لقربه تاريخيا ولارتباطه بالاطماع الاستعمارية الاوروبية في طرابلس الغرب بعد أن أصبحت الدولة العثمانية رجل أوروبا المريض ، كما كان الاوروبيون يطلقون عليها ، عاجزة عن الدفاع عن ممتلكاتها العربية بوجه خاص ضد أطماع الدول الاوروبية (7) .

جاء الحكم العثماني المباشر لولاية طرابلس الغرب بناء على طلب أهالي الولاية من السلطان العثماني للتدخل من أجل إنهاء حكم الاسرة القرمانلية ذلك الحكم الذي لم يستطع أن يضمن لأهل الولاية الاستقرار والتقدم ، بل لم يستطع حتى أن يحميهم من القوى العثمانية الداخلية والمتصارعة على الحكم والمتسابقة لجمع الاموال من أفراد الشعب المغلوب على أمره .

(4) سليل أسرة تركية وفدت من بلدة قرمانيا بالأناضول في أوائل الحكم العثماني لولاية طرابلس الغرب .

(5) فرقة عسكرية نتجت من زيجات بين ابناء أتراك وأمهات عربيات .

(6) أحمد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص 345 .

(7) د. رافت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ص 44 .

لقد شهدت الولاية خلال هذا العصر العثماني الاخير تصارعا بين ثلاثة قوى هي : العثمانيون والاوروبيون وأهل الولاية - أما العثمانيون فقد انعكست تطورات الاحداث في الدولة العثمانية على الولايات ومنها ولاية طرابلس الغرب، خاصة أن هذه الفترة شهدت اجراءات تهدف الى اصلاح أحوال «الرجل المريض» ، وتمثلت هذه الاصلاحات فيما عرف «بالتنظيمات» لتنظيم أمور الدولة على أسس جديدة في مختلف المجالات والتي استغرقت الاعوام من 1839 إلى 1878 م (9) .

وكانت القوة العثمانية على مسرح الاحداث في ولاية طرابلس الغرب في العصر العثماني الاخير هي قوة الاستعمار الاوروبي الذي كان يتطلع الى اقتطاع ما تبقى من ممتلكات الدولة العثمانية وخاصة في شمال افريقيا ، بعد أن ظهر التنافس الانجليزى على مصر أثناء الحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر .

وبعد أن احتلت فرنسا الجزائر عام 1830 م تطلعت - فرنسا - وشاركتها ايطاليا في تطلعها الى استعمار تونس ، فلما فوجئت ايطاليا بانسياب الجيوش الفرنسية من الجزائر الى تونس عام 1881 م ، عولت - ايطاليا - على اللحاق بالركب الاستعماري فوجهت أنظارها الى ولاية طرابلس الغرب ، ومن هنا شهدت سنوات هذا العصر تنافسا بين قناصل إنجلترا وفرنسا في طرابلس، كما شهدت نشاطا استعماري ايطاليا انتهى بالاحتلال الايطالى للولاية عام 1911 م (9) .

وأما القوة الثالثة فكانت أهل الولاية وتحركاتهم أمام الاستبداد العثماني المتحكم بمقدراتهم والاطماع الاستعمارية المستندة الى الامتيازات الاجنبية الممنوحة للاوروبيين ، وكانت تحركات أهل الولاية استجابة لتحدي الاوضاع السيئة التي سيطرت على حياة الناس ، وهذا يعنى أنها كانت بدايات ذاتية نتيجة أوضاع داخلية (10) .

ولكن أهل الولاية واجهوا الاطماع الخارجية ، وظهرت زعامات وطنية تواجه سوء الادارة العثمانية داخل الولاية ، كما تواجه الاطماع الاستعمارية فى نفس الوقت ، ومن هؤلاء السنوسيون فى برقة ، والشيخ سليمان البارونى فى الجبل الغربى بطرابلس ، وعبد الجليل سيف النصر فى فزان ، وغوما المحمودى فى «يفرن» بالجبل الغربى أيضا وغيرهم .

ورغم ذلك فقد شهدت الولاية فى العصر العثماني الاخير تواجد بعض الولاة المصالحين أمثال على رضا باشا الجزايرلى ، وأحمد راسم باشا ونامق باشا

(8) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص 74 .

(9) د. رأفت الشيخ : العرب : دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص 196 .

(10) د. عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية ص 56 .

ورجب باشا الذين ساهموا في التخفيف عن أهل الولاية بتقديم خدمات عمرانية وتعليمية وصحية وغيرها استفاد منها الاهالى .

لكي نتحدث عن الحياة الاجتماعية في ولاية طرابلس الغرب أثناء العصر العثماني الاخير 1835 - 1911 م ، لابد لنا من دراسة تكوين المجتمع في الولاية للوقوف على القوى الاجتماعية المختلفة ونشاطها والتي تتمثل أساسا في زواياهم المنظمة في برقة ، والقبائل العربية في اقليم طرابلس وفزان ، الى جانب اليهود الذين تواجدوا في بعض مدن الولاية ونشطوا في النواحي الاقتصادية .

أولا : السنوسيون في برقة :

– السنوسيون هم أتباع السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الادريسي، كما ورد في الرسالة الموضوعية في نبذة سرية من أحوال بني صاحب الرسالة ذوى الفضل والجلالة والعلا حائزى قصب السبق في كل ملاء المسماة بالدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية (II) .

وكان موقع اقليم برقة وظروفه الطبيعية التي ساعدت على اتخاذه مقرا لدعوة السيد محمد بن علي السنوسي ، فوقع الاقليم على حدود مصر الغربية حيث تفصلها الصحراء عن وادي النيل جعلها بعيدا عن أطماع محمد علي لضمها أثناء مشروعاته العربية ، كما أن الصحراء تفصل برقة عن طرابلس حيث كان الحكم العثماني قد عاد فقط الى المدن الساحلية ببرقة تاركا المناطق الداخلية تحت تأثير القبائل العربية وسيطرتها وحروبها .

وكان سكان برقة عربا ينتظمون في قبائل بدوية كثيرة التناحر ، وإذا كانوا قد ساد بينهم الاسلام مع تعدد القبائل فان قلة عدد السكان وتجانسهم في التكوين البشري ، وخلو الاقليم من الاقليات كانت من العوامل المشجعة لظهور محمد بن علي السنوسي وحركته الاصلاحية .

وفي ظل هذه الظروف شهدت برقة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كغيرها من الاقطار الاسلامية انتشار البدع والخرافات بين الناس ، وان كانت قد عرفت من التقاليد ما يبشر بنجاح دعوة محمد بن علي السنوسي ، فوجود «العالم» وهو الشخص الذي يجيد القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم كله أو بعضه ، ووجود «المرباط» الذي يشتهر بالتدين والتصوف الى جانب «المحكم» الذي يفصل في الخصومات بين القبائل ، ان وجود هؤلاء في وسط قبائل بدوية يقلل من البدع التي لجأ اليها البعض ويخفف من غلواء العداء القبلي (I2) .

(11) محمد بن علي السنوسي : الدرر السنية في السلالة الإدريسية ص 11 .

(12) د. رافت الشينخ : المرجع السابق ص 169 .

ومن الامثلة على سوء أحوال المجتمع البرقاوى ما تذكره الروايات من أن بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الاخضر شمال برقة بنوا ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام الذى قضى الاسلام بحجه على كل من استطاع اليه سبيلا ، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام (13) .

وكان من أثر الضعف الذى ألم بالولاية العثمانية وفيها اقليم برقة وتفشى الجهل بين القبائل ثم ضياع نفوذ الحكومة من دواخل هذا الاقليم أن أنصرف الناس عن اقامة شعائر الدين ، واشتغلوا بأمر دنياهم ، وما كان الاهتمام بالدنيا فى عادات هذه القبائل المتنقلة والبعيدة عن نفوذ الحكومة وسلطانها سوى الامعان فى أعمال السلب والنهب وقطع الطرق على القوافل .

والامثلة كثيرة على التضليل الذى لجأ اليه أهل برقة للتحلل من التمسك بشعائر الدين ، فتذكر الروايات أنه كان هناك فى برقة وادى اسمه وادى «زازا» معروف بقوة رجح صدق الصوت وأن الناس الراغبين فى عدم صوم شهر رمضان كانوا يذهبون الى هذا الوادى قبل حلول شهر رمضان بأيام ويصرخون جميعا سائلين : أى وادى «زازا» أنصوم رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الاخيرة من هذه الجملة وهى «لا» ويتصور من سأل ذلك الوادى أنهم أصبحوا فى حل من الصوم فيفطرون غير مقيدين بأوامر الدين الحنيف قانعين بأن الامر صدر اليهم بعدم الصوم (14) .

هذا الى جانب أن بعض قبائل برقة قد عادت الى العادات العربية المردولة التى اعتادها العرب أيام جاهليتهم كواد البنات مخافة العار وتقديس الجماد من أشجار وأحجار .

وإزاء هذه الظروف الاجتماعية السائدة فى برقة فقد جاءت الدعوة السنوسية الى الاقليم ببناء أول زاوية هى الزاوية البيضاء عام 1259 هـ الموافق 1843 م باعتبارها دعوة دينية مدنية واجتماعية ، تقوم على الدعوة الى مبادئ الاسلام قوامها الايمان الصحيح والعمل الصالح والانتاج والتنظيم السياسى داخل هذا الاطار العام الذى عرفه الاسلام وقبل به المسلمون الصالحون فى جميع أطوار تاريخه (15) .

وقد اعتمد السيد محمد بن على السنوسى على الزوايا كأداة لتنفيذ مبادئ دعوته الدينية الاجتماعية ، حيث كانت الزوايا السنوسية مركزا للحياة الروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وبمعنى آخر أنها كانت مراكز نشاط اجتماعى ودينى كبير ، اذ يعنى الشيوخ - شيوخ الزوايا وأتباع

(13) أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا ص 48 .

(14) د. محمد فواد شكرى : السنوسية دين ودولة ص 26 .

(15) د. أحمد الدجاني : أحاديث عن تاريخ ليبيا ص 79 .

السنوسية من أفراد القبائل والعشائر بشؤون الدين والدنيا معا ، ذلك لان الدعوة السنوسية تحرم قبل كل شيء التسول بل وتأمرهم بالكد والسعى من أجل عيشهم على أساس الاخوة والتعاون : فتطلب من أتباعها العمل فى الزرع والتعمير والانشاء (I6) .

وكان الهدف من انشاء الزوايا عند السيد محمد بن علي السنوسى أن تكون خلية حية منتجة يقوم فيها الشيخ بامامة المسلمين عند الصلاة وتعليم القرآن الكريم وعلومه ، الى جانب نشاط أهل الزاوية الزراعى حتى تبتهج الارض حولها بأنواع الاشجار ، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار ، وتنتشر العمارة وتوسع الادارة (I7) .

ويصف السيد محمد بن علي السنوسى رسالة الزوايا فى رسالة الى والى طرابلس المشير محمد أمين باشا : نريد أن تكون تلك العمارة - الزوايا - مستمرة ، ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منها ، ويدوم من تعلم العلم وتعليمه واقراء القرآن الكريم وتفهمه ، واقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها (I8) .

ومعنى هذا أن الزوايا كانت لها وظائف انسانية وروحية واقتصادية ، فالى جانب رسالتها التعليمية والدينية فقد كانت تقوم باطعام الغرباء وايوائهم وفض الخلافات بين القبائل والافراد وتنظيم الشؤون الاجتماعية للناس فى معاملاتهم الشخصية اليومية ، ومعالجة الامراض الاجتماعية ، وارشاد الناس الى جوهر الدين الاسلامى بالاضافة الى الاستعداد للدفاع عن الزاوية ضد الاعداء (I9) .

وكانت كل زاوية تبني على قطعة من الارض تهبها القبيلة التى تطلب انشاء زاوية فى اراضيها - وذلك كما جاء فى التعليمات الخاصة بنظام الزوايا - وتعتبر قطعة الارض التى بنيت فوقها الزاوية والمساحة المتفق عليها من جهاتها الاربعة وقفا ، ويقوم أفراد القبيلة بتكاليف بناء المسجد والمدرسة وبيت شيخ الزاوية ، كما يقومون بتقديم عمل يوم واحد خدمة للزاوية أثناء بنائها وفى موسم الحرث والحصاد ، وأن يكون الحرم المتفق عليه حول الزاوية حرما آمنا لمن استجار به يلقي الحماية دون أن يمسه أحد بسوء .

وكانت الوظيفة الاجتماعية للزوايا تتمثل فى استضافة العابرين لمدة ثلاثة أيام كما تقضى العادات العربية ، والفصل فى الخصومات بين الناس بالحسنى، والمصالحة بين القبائل المتنافرة المتحاربة ، وتأمين الطرق عبر الصحراء من

(16) د. نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالى الى الإستقلال ص 71 .

(17) أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 85 .

(18) محمد الطليب الأشهب : السنوسى الكبير ص 24 .

(19) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص 177 .

قطاع الطرق والمغيرين بهدايتهم والمؤاخاة بين أبناء القبائل البرقاوية ، كل ذلك وغيره جعل من الزوايا مركز اشعاع علمي ومنبع دعوة اسلامية مهيمنة صحيحة جددت من آثار الاسلام ما درس منها في حقب طويلة توالى على صحراء برقة كانت السيادة فيها للجهل والفقر والفوضى (20) .

ونتيجة لدور الزوايا في برقة من النواحي الاجتماعية فقد انتظمت كل قبائل برقة في التنظيم السنوسي وصارت هناك زاوية بكل قبيلة بل كل عشيرة حتى أصبحت برقة بفضل السنوسية على قلب رجل واحد من حيث الترابط الاخرى والتكافل الاجتماعي .

ولهذا لانعجب أن نجد محمد بن عثمان الحشائشي التونسي يصف أهل برقة السنوسيين بقوله : انهم أعراب بادية ، لسانهم طلق فصيح بالعربية ، وطباغهم حسنة وأخلاقهم طيبة لينة معتقدين في شيخهم السنوسي اعتقادا لا تزحزحه الجبال ، ويخافون الله ورسوله والامن وعدم الخوف ضرب أطنابه في ربوعهم (21) .

ومع ذلك فقد حرص صاحب الدعوة - السيد محمد بن علي السنوسي - على اظهار الولاء للخلافة العثمانية وسلطانها في كل المناسبات والظروف (22) ، وقد ضمن للدولة العثمانية استتقرار الامور بين القبائل البرقاوية التي تنتشر بينها زواياها ، بل وضمن للحكم العثماني المتمركز في السواحل والمدن الليبية تحصيل الضرائب ، والقضاء بين أهل القبائل البرقاوية في صحراء برقة ، ومن ثم كانت علاقة هذه القبائل بالسنوسية وليس بالدولة العثمانية .

وكان قيام السنوسية بدور أكبر تأثيرا بديلا عن الحكم العثماني في مصلحة الولاية اذ أن تأمين تحصيل الضرائب كان يحول دون الحكم العثماني ومحاولة فرض سلطانها الامر الذي كان من الممكن أن يؤدي الى ثورات شعبية كثيرة مسلحة ، وصدام بين الحاكم والمحكوم كانت البلاد في غنى عنه (23) .

وقد ساعد على حسن العلاقة بين السنوسية والدولة العثمانية استمرار المراسلات بين صاحب الدعوة والسلطان العثماني ، فجاءت رسل السلطان الى السيد محمد بن علي السنوسي في الجغبوب ، وإلى السيد محمد المهدي في الكفرة ، كما وصلت الى استانبول رسل السنوسية ونتيجة للعلاقة الطيبة بين الدولة العثمانية والسنوسية منح السلطان عبد المجيد الاول الزوايا السنوسية في عام 1865 م فرمانا يعفى جميع أملاكها من دفع الضرائب ، ويسمح لرئيسها

(20) محمد الطيب الأشهب : عمر المختار ص 44 .

(21) الحشائش : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ص 98 .

(22) مصطفى بعيو : دراسات في التاريخ اللوبي ص 69 .

(23) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 77 .

بجميع الاعشار الدينية من أتباعها (24) . وفي أيام السلطان عبد العزيز أخى السلطان عبد المجيد أرسل فرمان ثان الى حاكم طرابلس الغرب - الذى كانت برقة فى ايالته - ثبت فيه امتيازات الزوايا السنوسية ، وأضيف اليها أن اعتبرت الزوايا السنوسية (حمى) يمكن أن يلجأ الناس اليه (25) .

وقد استمرت العلاقة طيبة بين الدولة العثمانية والسنوسيين ، وكان من آثار دعم هذه العلاقة الطيبة بين الدولة والسنوسيين أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها فى استانبول وفى بلاد السلطان بصفة خاصة ، وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين ، كما لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمي زواياها فى برقة بل صار بعض الولاة العثمانيين من الاخوان السنوسيين .

كما كان من أثر ازدياد قوة السنوسية فى برقة بل وفى طرابلس ايضا أن الاخوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رسميا من الاموال الاميرية والاعشار الشرعية ، بينما كانوا لا يقدمون الى الحكومة فى الزوايا الاخرى الكبيرة فى طرابلس والخمس وبنغازى الا ما يرونه ملائما لمصالحهم . هذا بالاضافة الى ان السلطة الفعلية فى برقة بصفة خاصة دينية وزمنية صارت بيد شيوخ الزوايا السنوسية (26) .

ولكن عندما حدثت الثورة التركية التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام 1909 م والتى قادها «جماعة الاتحاد والترقى» لم تكن السنوسية ترضى بما كانت ترمى اليه جمعية «تركيا الفتاة» من محاولة لتتريك العرب أو امكن الغاء الخلافة (27) .

وعندما عقدت تركيا مع ايطاليا معاهدة «لوزان» عام 1912 م تعترف فيه تركيا بالوجود الايطالى فى ولاية طرابلس الغرب رفض السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك هذا الصلح مظهرا الغضب من تصرف الدولة ، ومن ثم حاول العثمانيون تخفيف أثر هذا الموقف فأوفدوا القائد العثمانى أنور باشا الى السيد أحمد الشريف فى الجغبوب ليبلغه استناد أمر الامة الليبية الى سيادته ، واخباره بأن الخليفة قد منح الامة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها (28) .

ونظرا لقوة السنوسيين الاجتماعية والعسكرية فى العصر العثمانى فانهم تصدوا بصلابة للغزو الايطالى لاكثر من عشرين سنة متتالية من 1911 الى 1931م،

(24) مصطفى بيمو : المرجع السابق ص 71 .

(25) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 76 .

(26) د. محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ص 79 .

(27) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 78 .

(28) د. محمد فؤاد شكري : المرجع السابق ص 146 .

حيث شارك رجال الزوايا السنوسية وجميع القبائل البرقاوية بزعامة شيوخ الزوايا في مقاومة الوجود الإيطالي وخير مثل لهذا عمر المختار شيخ زاوية القصور السنوسية بالجبل الأخضر والذي قاد الجهاد حتى أسر وقتل عام 1931 م .

ثانيا : القبائل الطرابلسية :

اختلفت الحياة الاجتماعية في اقليم طرابلس عنها في اقليم برقة ، فكما رأينا تمتع اقليم برقة بحياة اجتماعية مستقرة في ظل نظام الزوايا السنوسية المحكم الذي جعل من شيخ كل زاوية - وليس شيخ القبيلة التي بنيت بها الزاوية - هو صاحب الامر والنهي والحل والعقد كما صار صاحب الدعوة السنوسية صاحب السطوة والكلمة ، حتى يمكن القول أن الاحوال في برقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت خيرا منها في طرابلس ، وقد أفادت برقة من وجود السنوسيين قائمة كبيرة (29) .

ورغم أن مساحة اقليم طرابلس أقل مساحة من اقليم برقة إلا أن سكانه كانوا أكثر عددا من سكان اقليم برقة ، ومن هنا كانت عاصمة الولاية مدينة طرابلس الغرب التي في نفس الوقت عاصمة الاقليم وأكبر مدنه ، ومن هنا أيضا تعددت مدن الاقليم مثل الزاوية وزوارة وزنזור على الساحل الغربي - غرب مدينة طرابلس - والخمس وزليطن وسرت ومصراته على الساحل شرق مدينة طرابلس ، الى جانب بعض المدن الداخلية مثل ترهونة ونالوت وبني وليد وغريان وغدامس وغات ومرزق وسبها في فزان .

واذا اتفقت الحياة الاجتماعية في طرابلس مع مثلتها في برقة من حيث أن العلاقات بين أفراد المجتمع تقوم على أساس الارتباط القبلي الذي يساعد على تماسك المجتمع بعض الشيء وأن دين كل أفراد القبائل البرقاوية والطرابلسية هو الاسلام ولغتهم هي العربية ، وأن معظمهم يتبعون المذهب المالكي وان اتبع بعض أهالي الجبل الغربي وبلدة زوارة الساحلية المذهب الاباضي وعرفوا بالخوامس (30) .

اذا كان الامر كما ذكرت فان القبائل البرقاوية تخلت عن طبيعتها البدوية القبلية القائمة على الخضوع التام لزعيم القبيلة والقائمة أيضا على القتال للغزو والسلب وقطع الطرق ، بينما ظلت القبائل الطرابلسية متمسكة بزعامتها القبلية دون النظر الى فكرة وطنية أو فكرة دينية ، كما ظلت تمارس العمليات الحربية ضد بعضها البعض ، وان شهد العصر العثماني الثاني الذي نحن بصدد دراسته ثورات كثير من الزعماء الطرابلسيين أمثال عثمان أغا في مصراته ، وغومة

(29) د. نقولا زيادة : المرجع السابق ص 57 .

(30) د. أحمد الدجاني : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي ص 217 .

المحمودى فى «يفرن» بالجبل الغربى ، وعبد الجليل سيف النصر فى فزان ، وغيرهم (31) ، كما شهد خلافا بين زعماء قبائل مصراته وبنى وليد وبين القبائل الطرابلسية والسنوسية .

ولسنا هنا فى مجال تعداد قبائل طرابلس الا أنهم يتفقدون فى أسلوب معيشتهم حيث يعتمدون على تربية ورعى الماشية وزراعة بعض المحاصيل مثل الشعير والقمح خاصة فى المناطق الساحلية أو الاماكن الداخلية التى تتوفر فيها مياه الامطار أو الابار ، وهم محكومون بالعادات والتقاليد البدوية منعزلون عن الحضارة الغربية يتصفون بالخشونة والصلابة يتخذون من الخيام مساكن لهم فى البادية (32) .

وأما سكان المدن من القبائل فقد كانوا أكثر تحضرًا بسبب احتكاكهم بالاجانب كما اشتغلوا بالتجارة وارتبطوا بالسلطة العثمانية واستفادوا من الخدمات المدنية التى شهدتها تلك المدن الطرابلسية كالعليم والصحة ، وان تأثروا بالنزاعات بين الفرق العسكرية العثمانية .

ثالثا : اليهود :

عاش فى بعض مدن الولاية كطرابلس وبنغازى جماعات من اليهود الذين كانت لهم «حارات» خاصة بهم ، وكانت هذه الجماعات التى قدر عددها بحوالى أربعة آلاف نشطة فى حياة المجتمع الليبى اذ سيطرت على النواحي الاقتصادية فى البلاد .

وقد اعتبرت الدولة العثمانية شؤون التعليم فى جملة الامور المرتبطة بالاديان والمذاهب فحولت لليهود حق تأسيس المدارس وادارتها أيضا واختيار لغة التعليم ، ولهذا عاش اليهود متمتعين بالامتيازات التى سمحت بها الدولة العثمانية ، ومن ثم استمروا كقوة متماسكة محافظة على نفسها من الزوال أو الذوبان داخل المجتمع الاسلامى (33) .

وقد انشأت الطائفة اليهودية بمدينة طرابلس بمساعدة المؤتمر اليهودى العالمى أول مدرسة حديثة عام 1804 م حيث تدرس فيها اللغة العبرية واللغة الفرنسية حتى عام 1911 م ثم أضيفت اللغة الإيطالية .

كما أنشأ بعض رؤساء الطائفة اليهودية بمدينة طرابلس عام 1876 م مدرسة لتدريب الشبان اليهود على الاعمال التجارية ، هذا الى جانب أن دروس الدين الاسرائيلى كانت تعطى للجماعات اليهودية فى مدارس تسمى التلمود ملحقة بمعابد اليهود (34) .

(31) د. رافت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص 46 .

(32) د. أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 221 .

(33) د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص 112 .

Annual Report of the U.N. Commissioner in Libya, p. 85.

(34)

وكانت بعض مدارس اليهود تقام بجهود اليهود الموجودين في ليبيا أو من قبل الاتحاد العالمي الاسرائيلي ومقره باريس ، كما هو الحال بالنسبة للمدرسة التي تأسست عام 1901 م تحت اسم «اليانس اسرائيليت» (35) وهي مقسمة الى قسمين : قسم للذكور وقسم للإناث ومن يحوز شهادته بتفوق من الطلاب يرسل لاتمام تعليمه في تونس أو في فرنسا ، وقد خصص الاتحاد الاسرائيلي العالمي للصرف على هذه المدرسة 16500 فرنك فرنسي سنويا ، أي ما يوازي 825 جنيه ذهب بواقع الجنيه يساوي 20 فرنك (36) .

ويحتوي ملف المعارف بدار المحفوظات التاريخية بطرابلس تراخيص عدة أصدرتها الادارة العثمانية بالولاية لانشاء مدارس يهودية من أمثلتها ترخيص صدر عام 1892 م لاحد اليهود لفتح مدرسة لتعليم أبناء اليهود داخل معبد اليهود بطرابلس التلمود وتفسير التوراة . وطلب ترخيص مقدم من أحد اليهود أيضا عام 1901 م يطلب فتح مدرسة لتعليم أبناء اليهود في معبدهم باللغة العبرية . وطلب في 4 فبراير 1901 م مقدم من الاتحاد الاسرائيلي العالمي الى الوالي لفتح مدرسة اسرائيلية ، ووثيقة باسماء المعلمين اليهود الذين يعملون بمدرسة مكونة من خمسة صفوف مفتوحة عام 1896 تدرس فيها التوراة والزبور باللغة العبرية والقراءة والاملاء والحساب باللغة العربية ، وتاريخ أنبياء بني اسرائيل باللغة التركية (37) .

وفي احصائية عن التعليم أوردها محمود ناجي في كتابه «طرابلس غرب» ترجع الى عام 1902 م تبين أن عدد التلاميذ في المدارس اليهودية بطرابلس بلغ 25 طالبا و60 طالبة في تلك السنة . وهذه الاحصائية توضح أن اليهود في الولاية اهتموا بتعليم بناتهم وأنهم يهتمون بعملية التعليم المنتج أي التعليم الذي يجعل من اليهودي صاحب مصدر كبير للدخل والثروة ، ولذلك كانت طائفة اليهود في ليبيا أول طائفة تفتح مدرسة لتعليم أبنائها الاعمال التجارية (38) .

ومن دراستنا للتعليم في مدارس اليهود نجد أنهم كانوا أول من أدرك أهمية الاتصال بأوروبا ، فبينما كان العرب المسلمون في ليبيا مفروضا عليهم العزلة وعدم اتاحة فرص الاتصال بالاوروبيين نجد اليهود يعلمون أبناءهم أهم اللغات الاوروبية كالفرنسية وبعض العلوم الحديثة التي تتيح لهم الاستفادة من التقدم الاوروبي ، ولذلك لا نعجب أن رأينا يهود ليبيا هم حلقة الاتصال بين الليبيين وأوروبا .

(35) الإتحاد الإسرائيلي العالمي . Alliance Israelite Universelle .

(36) محمود ناجي : طرابلس غرب (تركي) .

(37) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس - ملف المعارف .

(38) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص 114 .

وعلى هذا فقد عمل يهود طرابلس الغرب في الحرف اليدوية الصناعية وفي التجارة والامور المصرفية ، وكان من بينهم عدد من أصحاب الثروات الذين كانوا يشاركون في تجارة القوافل وأن فئة التجار اليهود كانت - كما يذكر الرحالة - تعيش في أوضاع حسنة ، وقد تجنس بعضهم بجنسيات أجنبية نالوا بها حماية القناصل ، هذا في الوقت الذي أشاد فيه الرحالة بمعاملة العثمانيين لليهود معاملة حسنة رغم عادات اليهود الخسيصة كتعاملهم بالربا بصورة مفرطة وكقذارة حاراتهم (39) .

رابعا : الزنوج :

وفد الى الولاية جماعات من الافارقة جنوب الصحراء من العناصر الزنجية وعاشوا فيها ، جاء بعضهم بالهجرة الى الشمال سعيًا وراء الرزق وخاصة مع تجارة القوافل وخاصة في تجارة نبات الحلفا الذي كان سلعة مطلوبة في أوروبا لها تجارها الاوروبيون وتحتاج الى أيدي عاملة كثيرة من أجل ربط حزم الحلفا وتحميلها ونقلها .

كما كان وجود البعض الآخر من العناصر الزنجية في الولاية راجع الى تجارة الرقيق حيث شهد القرن التاسع عشر نشاطًا متضادًا بين بقاء الرق والغاءه ، فبينما التزمت الدولة العثمانية بالقرارات الدولية منذ مؤتمر فيينا عام 1815 م بالغاء الرق ، وبالتالي طلبت من والى طرابلس الغرب - شأنه شأن بقية الولاة العثمانيين في الولايات الاخرى - الالتزام بالغاء الرق ، استمر وجود الارقاء في الولاية .

وفي دار المحفوظات التاريخية بطرابلس وثائق تشير الى وجود تجارة الرقيق وامتلاك أهل الولاية لارقاء منذ أن كانت تجارة القوافل تشمل بضائع من وسط افريقيا وغربها . ومن أمثلة هذه الوثائق أوامر الدولة العثمانية لوالى طرابلس بضرورة وقف عملية الاتجار في الرقيق وتحرير الرقيق المملوك للاحرار (40) .

كذلك هناك وثائق عبارة عن تعليمات الوالى الى المتصرفيات والاقضية تطلب التشديد في مكافحة الرق وتسليم أوراق العتق من مركز الولاية ، وتوقيع العقوبات على المخالفين لامر المكافحة ، وبناء على منشورات الوالى للمتصرفيات والاقضية بادر كل متصرف أو قائمقام بنشر أوامر الوالى على الاهالى .

وتذكر وثيقة مؤرخة في 12 جماد الاول 1311 هـ من الوالى أحمد راسم باشا الى قائمقام غريان مانصه : بلغنا أنه يجلب خفية مع قوافل السودان بعض الرقيق الزنجى من السودان ويباع آحادا وأزواجا داخل الولاية ، واذا حدث

(39) د. أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 227 .

(40) د. رافت الشيخ : العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص 215 .

هذا الامر يكون مخالفا للامر القطعي بالمنع وموجب للمسؤولية الشديدة ضد موظفي الدولة الذين يغمضون العين ويتساهلون مثقال ذرة في هذا الصدد (41)

ويستفاد من هذه الوثيقة استمرار ورود العناصر الزنجية حتى عصر ولاية أحمد راسم باشا التي امتدت من 1882 الى 1896 م ، واقامت في الولاية ، وموقف السلطات العثمانية الانساني بتطبيق مكافحة الرق بشقيه : منع الاتجار أى إيقاف عمليات البيع والشراء ، وتحرير الرقيق المملوك للاحرار .

وحياة الزوج الاجتماعية في الولاية لا تختلف عن حياتهم في أوطانهم جنوب الصحراء ، من حيث الصبر والقيام بالاعمال الشاقة ، ومع ذلك فهم لا يتخلون عن الرقص والضحك والمرح ، حتى وصفوا بأنهم أسعد أهل الولاية . وقد دخل العنصر الزنجي في تركيب الكثيرين من سكان اقليم فزان ، وكانت بيوتهم عبارة عن «زريبة» وهي كوخ من عسف النخيل ، تمثل قرى مرتبطة ومتجمعة (42) .

خامسا : الطوارق والتيبو :

يعيش الطوارق في صحراء اقليم فزان ومركز مدينة «غات» وهم طوال القامة سمر البشرة وإن كانت بعض قبائلهم خاصة الساكنة جهة الغرب بيض البشرة ، وإن اتفقوا جميعا في وضع اللثام على وجوههم بحيث لا يبدو منها سوى العينين .

وليس معروفا على وجه الدقة عددهم في العصر العثماني الاخير الذي نحن بصدد دراسته وإن كان المرجح أنهم يتجاوزون بضعة آلاف قد تصل الى عشرة ، وهم يحتفظون بعاداتهم الاولى البدائية حتى في صنع أدواتهم ويتسلحون بالسيوف والحراب والسكاكين ، ويرتدون الملابس القطنية الزرقاء ، وهم منعزلون عن العالم ، ويستخدمون الابل في تنقلاتهم بل وفي تجارتهم حيث يعرفون مسالك الصحراء ودروبها .

والطوارق ينتسبون الى أهل أمهاتهم ، وهو يعتبرون أن أهل الام هم أصحاب الزعامة والاحترام في كل شيء ، والذين لهم حق الوراثة هم فرع الام ، ولذلك سجل الرحالة باندهاش وجود نساء من الطوارق يعرفن القراءة والكتابة . وهم يتكلمون لغة البربر ويكتبونها ولها حروف هجائية (43) .

أما التيبو فهم سكان هضبة تبستى التي تقع في أقصى جنوب الولاية ، وهم من الشعوب المولدة حيث لا يتميزون بالصفات الجنسية التي للزوج كالشفاه

(41) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف تجارة العبيد .

(42) أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 224 .

(43) نفس المرجع ص 225 .

الغليظة أو الشعر المفلفل أو الانوف المفوطة ، وليس معروفا عددهم وان كانوا يمثلون تجمعا بشريا في الولاية في تبسنتي (44) .

العثمانيون :

يمثل العثمانيون القوة الاجتماعية الثانية في ولاية طرابلس الغرب . وكان العثمانيون يمثلون الطبقة الحاكمة ذات السلطة حيث كان منهم الباشا أو الوالي ، ومنهم قادة الفرق العثمانية العسكرية - أي الحامية - بتشكيلاتها من انكشارية وقولوغلية (45) وغيرها ، وهؤلاء جميعا تمتعوا بامتيازات باعتبارهم من الطبقة الحاكمة .

ومن أمثلة تلك الامتيازات التي تمتع بها العثمانيون في الولاية في العصر العثماني الاخير انشاء المدارس لتعليم أبناء الاتراك من عسكريين ومدنيين المقيمين في الولاية ، كالمدارس الرشدية العسكرية (46) التي كانت تابعة للقيادة العسكرية في مركز الولاية - مدينة طرابلس - وكان كل معلمها من ضباط الحامية . ومن شروط الالتحاق بهذه المدارس معرفة اللغة التركية قراءة وكتابة وحديثا . وكان المعلمون في المدارس الرشدية المدنية التي أنشئت في الولاية بعد المدارس الرشدية العسكرية من الاتراك (47) .

كما تم انشاء مدرسة رشدية للبنات بطرابلس في عام 1898 م ، وقد جاء في رسالة الوالي الى قائد الحامية العثمانية في 24 صفر سنة 1316 هـ الموافق أول يوليو عام 1898 م يقول فيها بما أن فيه أمر قطعي من الارادة السنية بعدم دوام الاطفال المسلمين في المدارس الافرنجية وفي ظل حضرة الخليفة جعلنا في مركز الولاية مدرسة للبنات رشدى حديثة وأحضرنا لهن معلمات مقتدرات من استامبول ، ولذلك لم يكن هناك عذر لهؤلاء الآباء ، أرجو تنبيهه الامراء بهذا الخصوص (48) .

كما أن الطبقة التركية الحاكمة أشرفت حتى على النشاط الخيري والاجتماعي في الولاية . من أمثلة ذلك انشاء جمعية برئاسة حرم الوالي ابراهيم باشا عام 1910 م عرفت باسم : جمعية النسوان العثمانية الخيرية نجمة الهلال يكون مركزها بالمدرسة الرشدية ، والغرض من تأسيسها تهيئة أمهات المستقبل ، لذا ترى من واجبها العمل على تعليم البنات وتربيتهن ومساعدة

(44) نفس المرجع ص 226 .

(45) القول أوغلية فرقة عسكرية مولدة بدأ تكوينها الوالي درغوث باشا من عام 1553 حينما سمح لرجاله الأتراك بالزواج من زوجات ليبيات .

(46) المدارس الرشدية توازي حاليا المدارس الإعدادية حيث تقبل التلاميذ بعد المكاتب الابتدائية .

(47) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف . أول مدرسة رشدية عسكرية أنشئت عام 1857 م وأول مدرسة رشدية مدنية أنشئت عام 1877 م .

(48) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .

المحتاجات منهم ، وتقديم المساعدات المالية لزواج الفقيرات خدمة للموطن والانسانية (49) .

ويحدد منشور انشاء الجمعية مهمتها تفصيلا بأنها تؤدي خدماتها في مجالين: احدهما علاجي تحت اسم الهلال الاحمر ، والثاني رعاية تحت اسم الشفقة ، وفي المجال الثاني تجمع الجمعية الاشتراكات والتبرعات لتصرف منها في مساعدة المحتاجين ، وتعليم البنات الادارة المنزلية والحقوق الزوجية وحفظ الصحة وتربية الاطفال والخيطة والنقش والطبخ والغسيل وكى الملابس والنسيج وصنع البسط ورواتب المستخدمين والانارة والتدفئة (50) .

وعندما اقيم حفل افتتاح نشاط الجمعية في شهر ربيع الاول عام 1328 هـ الموافق أبريل عام 1910 تحدثت حرم الوالى العثمانى الى السيدات عضوات الجمعية قائلة : لقد اضيفت على دروس مكاتبنا الابتدائية والرشدية الموجودة من قديم للانات بعض دروس توافق العقائد الاسلامية وآدابنا المليية مع كافة أنواع الاشغال اليدوية ، وجلبت معلمة الآن من أوروبا (51) .

وأضافت حرم الوالى قائلة : نعلن بمزيد المفخرة أنه تأسست تحت رئاسة العاجزة - أى هي حرم الوالى - جمعية غايتها الخدمة لدار الصناعة والمكاتب المراد تأسيسها اعانة للبنات الفقيرات المسكينات معنى ومادة ، وتعليمهن الخياطة وسائر الاعمال اليدوية ليستفدن بهذه الصورة من كدهن ، فيتداركن رأس المال اللازم ، وتعليم اليتيمات والفقيرات الصنائع لتكون سببا لتأمين معاشهن وقبلها لمصارف جهازهن فى المستقبل (52) .

ومع ذلك ورغم كل ذلك فان هذه الجمعية بمجهوداتها التى أعلن عنها لم تخدم أعدادا يعتد بها من البنات الوطنيات ، ولم يكن من بين أعضاء مجلس الادارة الستة سوى عضوتين اثنتين فقط من الليبيات وان لم تكونا من عامة الشعب ، ولم تستمر هذه الجمعية كثيرا اذ أن الاحتلال الايطالى للولاية وقع بعد عام وبضعة شهور من الاعلان عن تأسيسها .

الاوروبيون :

استفادت الدول الاوروبية من الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية لها فى الولايات وأخذت كل دولة أوروبية تتطلع الى بسط نفوذها على جزء أو أجزاء من الاقاليم الخاضعة للحكم العثمانى ، مستخدمة عدة أدوات كالارساليات التبشيرية وانشاء المدارس والمستوصفات الطبية وفتح فروع لمصارفها الوطنية

(49) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .

(50) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .

(51) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ملف المعارف .

(52) جريدة طرابلس الغرب العدد 1315 السنة 40 .

في الولايات موضع الاطماع الاستعمارية ، ودفع عشرات المئات بل الآلاف من المهاجرين الاوروبيين للاستيطان في الولايات العربية (53) .

وبالنسبة لولاية طرابلس الغرب في العصر العثماني الاخير فقد توافد على مدنها الساحلية بصفة خاصة جماعات من الاوروبيين تتألف غالبا من الايطاليين والمالطيين واليونانيين ، وحيثما كان من الممكن انشاء كنيسة صغيرة فان الاخوان المبشرين ينشؤون مدارس لتعليم الاطفال الطقوس المسيحية ، وتعليمهم كيف يقرأون ويكتبون ، وفي هذه المدارس فانهم يتعلمون اللغة الايطالية وبعض اساسيات التعليم العام (54) .

وكانت الجالية الايطالية في ولاية طرابلس الغرب اكثر الجاليات الاوروبية عددا وأسرع الى الاهتمام باستيطان المهاجرين الايطاليين الجسد - بانشاء الكنائس وفتح المدارس ويمكن التاريخ لبداية التعليم الايطالي في الولاية بعام 1810 م عندما استقر المبشرون الفرنسيون بطرابلس وأنشأوا مدرسة ابتدائية صغيرة للاطفال المسيحيين - أبناء الجاليات الاوروبية القليلين في البلاد آنذاك ، وقد التحق بها أيضا عدد قليل من أبناء أهل الولاية (55) .

وفي عام 1846 م استطاعت بعثة اخوات الراعي الصالح الكاثوليكية انشاء مدرسة للبنات اجتذبت فيها بنات من الديانات الثلاث المسيحية واليهودية والاسلام (56) . ولم يقف الامر عند هذا الحد اذ أن ازدياد الجاليات الاوروبية المسيحية في ولاية طرابلس الغرب قد ادى الى اتخاذ اجراءين : الاول استخدام بعض القسس الذين يعملون ضمن البعثات التبشيرية الكاثوليكية في الولاية وتفرغهم من العمل الديني لاعدادهم وقيامهم في مدارس الارشاليات ، وكان الاجراء الثاني هو انشاء مدارس تقام لغرض التعليم (57) .

وقد أورد كتاب طرابلس الغرب احصائية عن التعليم الاجنبي في ولاية طرابلس الغرب في عام 1802 م جاء فيه أنه كان يدرس بالمدارس الفرنسية في تلك السنة 150 تلميذا : 80 ولدا و70 بنتا ، بينما كان يدرس بالمدارس الايطالية 541 تلميذا : 231 ولدا ، 310 بنتا في المدارس الابتدائية بينما كان في المدرسة الفنية الايطالية 46 طالبا (58) .

وان نظرة الى هذه الاحصائية توضح أن عدد أفراد الجالية الايطالية أكثر من غيرهم وهو دليل على سياسة ايطاليا المتأهبة للسيطرة على ولاية طرابلس

(53) د. رافت الشنيغ : تطور التعليم في ليبيا في المصور الحديثة ص 114 .

(54) Annual Report of the U.N. Commissioner in Libya, p. 85

(55) Greige, s. : Ashort history of Education in Tripolitania, p. 8

(56) Annual Report.. op. cit., p. 85.

(57) Greige, s. : op. cit., p. 10

(58) محمود ناجي : المرجع السابق .

الغرب ، كما أن هناك جاليات أخرى تمثلت في المالبين الذين يحملون الجنسية البريطانية والتونسيين الذين يحملون الجنسية الفرنسية الى جانب بعض مجموعات من اليونانيين وأسبان وهولنديين والنمساويين والامان وان كان معظم أفراد الجاليات الهولندية والاسبانية والنمساوية والامانية من اليهود . وقد ذكر «كاكيا» أن بطرابلس في بداية القرن العشرين تسع جاليات أجنبية بينما ضمت بنغازي ست جاليات (59) .

ولنا أن نتصور تأثير وجود هذه الجاليات بسلوك أفرادها الاجتماعي في وسط عربي مسلم محافظ ، ولنا أن نتصور نشاط هذه الجاليات الاقتصادي في ولاية لم تأخذ الجانب الحضاري والفني مجالا لتدريب أبناء البلاد مما أتاح لآبناء هذه الجاليات الانفراد بالنشاط الاقتصادي والحرفي وبالتالي التأثير على المواطنين في الولاية . ولنا أن نتصور أفراد هذه الجاليات بقناصل دولهم في الولاية في ظل الامتيازات الأجنبية حيث أصبح كل فرد منهم يتمتع بالحماية في الوقت الذي حرم فيه المواطن الطرابلسي من مثل هذه الحماية من الحكم العثماني .

وليس أدل على ذلك مما ذكرته الوثائق التي تحمل صورةا للعرائض التي كتبها أهالي الولاية في أوائل القرن العشرين مطالبين بعدم الاعتماد كلية على الرأسمال والنشاط الأجنبي ومذكرات من موظفي الولاية تنبه الى استغلال الشركات الأجنبية وخاصة شركات تجارة الحلقا للعمال وللناس الذين يبيعون الحلقا (60) .

كما تذكر الوثائق أيضا تدخل قناصل الدول الأوروبية خاصة دول النمسا وبلجيكا واسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا وهولنده في مسألة تحرير الرقيق من أجل التجنب الى الاهالي ، مما دفع بعض الولاة الى منع اقامة الرعايا البريطانيين خارج مدينة طرابلس - وكان ذلك عام 1877 م - ، ومنع جميع الرعايا الأوروبيين من التنقل في داخل الولاية (61) .

د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب - جامعة الزقازيق
مصر

(59) د. أحمد الدجاني : المرجع السابق ص 228 وجوزيف كاكيا (مترجم) : ليبيا في العهد العثماني الثاني ص 114 .

(60) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس .

(61) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس .

مصادر البحث

أولا : الوثائق :

وثائق دار المحفوظات التاريخية بطرابلس ، ملفات المعارف ، القناصل ، الادارة ، تجارة العبيد .

ثانيا : التقارير :

أ - تقارير هيئة الأمم المتحدة تحت عنوان :

— Annual Report of the united Nations Commissioner in libya, presented in consultation with the council for libya, General Assembly, Official Records : Fifth session supplement N/. 15/A/1340. Lake success, New-York, 1950.

ب - تقارير الادارة الاجنبية :

— A.J. steele Greige : A short history of education in Tripolitania, 1947.

ثالثا : المراجع :

(1) ابن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون) : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار . غني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه الطاهر الزاوي ، القاهرة 1349 .

(2) أحمد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب جزآن الآستانة 1899 م .

(3) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية .

(4) د. رافت الشيخ : تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة طرابلس 1972 م .

(5) د. رافت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث القاهرة 1975 م .

(6) د. رافت الشيخ : العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة 1983 م .

(7) عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للقومية العربية .

(8) محمد بن علي السنوسي : الدرر السنية في السلالة الإدريسية .

(9) أحمد حسنين : في صحراء ليبيا ، مطبعة مصر د . ت .

(10) أحمد صدقي الدجاني : أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر طرابلس 1968 م .

(11) أحمد صدقي الدجاني : ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني 1882 - 1911 م القاهرة 1971 م .

(12) د. محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة القاهرة 1948 م .

(13) محمد الطيب بن إدريس الأشهب : السنوسي الكبير (عرض وتحليل لدعم حركة الإصلاح السنوسي) القاهرة 1955 م .

(14) محمد الطيب بن إدريس الأشهب : عمر المختار (سلسلة أبطال الجهاد والسياسة في ليبيا) القاهرة 1958 .

(15) د. تقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالي الى الاستقلال - معهد الدراسات العربية القاهرة 1957 م .

(16) الحشاشي « محمد عثمان » رحلة الحشاشي أو جلاء الكرب عن طرابلس الغرب دار لبنان 1965 م .

(17) محمود ناجي : طرابلس غرب (تركي) دار المحفوظات التاريخية بطرابلس .

الدوريات :

(1) جريدة طرابلس غرب : جريدة الولاية الرسمية صدرت منذ عام 1866 في طرابلس .

صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري / النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي عبر مذكرات « الفارس دارفيو » (1)

د. ليلي الصباغ

ان الصور الاجتماعية المشار اليها في عنوان هذا البحث ، هي في الواقع لوحة تصويرية واحدة لمجتمع دويلة ، أو شبه دويلة ، عربية أعرابية ، كانت قائمة في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، في شمالي فلسطين ، وفي لواء اللجون بالذات من ألوية ولاية دمشق الشام (2) ذلك اللواء الذي كان يمتد بين لواء صفد (من ولاية

(1) من توافق الصدف ان التقى مع الباحثة : اليزابيث سريي « Elisabeth Sirriey » حول الاهتمام بـ « مذكرات الفارس دارفيو » عن بلاد الشام بعامة ، فقد قدمت هذه الباحثة دراسة من مجسوع هذه المذكرات بالنسبة لبلاد الشام ، كنت قد طرحت بعض ما يائنها في بحث قدمته عن « فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو - البنية الطبيعية والبشرية » الى « المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام » الذي انعقد في الجامعة الاردنية بعمان بين 4 - 9 جمادى الثانية 1400 هـ / 19 - 24 نيسان (ابريل) 1980 ، (وهو لا يزال مرقونا على الالة السكاتية) . وقد تعرضت فيه لحياة الفارس دارفيو ، ورحلاته المختلفة ، والى فلسطين بالذات ، واسبابها ولبعض ما قدمه في مجموع مذكراته عن بلاد الشام ، وتونس ، والجزائر ، والدولة العثمانية . كما انني قدمت بحثا آخر عن «الفعاليات الاقتصادية في فلسطين في العقد السابع من القرن السابع عشر الميلادي ، من خلال تلك المذكرات ، للمؤتمر العالمي الخامس للدراسات العثمانية وما قبل العثمانية ، الذي عقد في تونس من 13 - 18 سبتمبر 1982 ، ونشر في «المجلة التاريخية المغربية» تونس العدد 29 - 30 جويلية 1983 . ص : 255 - 322 علما ، ان اهتماماتي بهذه المذكرات يرجع الى عام 1962 ، عندما كنت اعد رسالة الدكتوراه ، وعنوانها : «الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر» ، وكانت احد مصادري الأساسية وقد نشرت الباحثة دراستها تحت عنوان :

« The Memories of a French Gentleman in Syria, Chevalier Laurent D'Arvieux (1635 — 1702) ; in, Bulletin of the British Society for Middle Eastern Studies, Vol 11, Number, 2-1984

(2) احدث هذا اللواء (السنجق) في (ايالة دمشق الشام) في النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد وكان يضم اربع نواح وتسكنه آنذاك (41) اسرة مسلمة . وكان ريع ضرائبه يعادل 500، 15 « آقجة » سنويا . وقد سمي باسم مدينة صغيرة فيه ، هي احدى مدن سهل مرج بني عامر ، وتقع قرب « مجدو » القديمة وعلى خط عرض 32° ، 34 شمالا و 35° ، 12 شرقا . وكانت في العهد المملوكي احد أعمال (مملكة صفد) انظر : M.A. BAKHIT, LADDJUN, dans L'Encyclopédie de L'Islam 2e ed T. V. pp. 597 - 598

وجعلها العمري في كتابه «مسالك الابصار» العمل الثاني عشر من الاعمال الثلاثة حشرة لتلك المملكة ، كما أكد ذلك نقله ابن كنان في كتابه « المواكب الاسلامية في الممالك والمحسن

صيدا التي استحدثت عام 1070هـ/1660م) شمالا، وبين لواءى نابلس وغزة جنوبا، وبين البحر المتوسط غربا، والكتل الجبلية المتفرقة كجبل طابور، والدحي، وفقوة شرقا، أي كان يحتوي جبل الكرمل ومرج ابن عامر (3)

الاشامية» مخطوطة في مكتبة برلين بخط المؤلف نفسه (المتوفي 1153 هـ / 1740 م) تحت الرقم 6088 We - 1116، الورقة 34 آ. وقام بتحقيقه (حكمت اساعيل) تحت إشراف الدكتور ليلي الصباغ، ونال عليه درجة الماجستير في التاريخ من جامعة دمشق عام 1402 هـ / 1982 م (وهو في طريق النشر). وقد وردت الفقرة في الرسالة المرقونة على الآلة الكاتبة في ص 273.

وتشتهر المدينة الصغيرة بوجود مقام لآبراهيم الخليل قريبا، وبأنها كانت محطة يسريخ فيها السلاطين المماليك والأعيان في طريقهم بين دمشق والقاهرة، ويشير «أوليا جلبي» الرحالة التركي في النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى وجود خان للمسافرين والتجار فيها. ويجب ألا يلبس هذا الاسم مع «اللجون» الواقعة في اللقاء شرقي الأردن، وكانت إحدى منازل الطريق إلى المدينة المنورة. ومن مدن اللواء الهامة أيضا «جنين» انظر بالاضافة إلى المصدرين السالفي الذكر:

— المحي: خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر. 4 اجزاء القاهرة 1284 هـ

ج 1 / 222.

Evliya-Tshelebi's Travels in Palestine tr. by St. H. Stephan dans: Quarterly of the Departement of Antiquities in Palestine VI, (1936). P. 86

— الموسوعة الفلسطينية 4 اجزاء. دمشق 1984. ج 3 / 36 - 37 مادة (اللجون).

(3) أكد «الفارس دارقيو» في «مذكراته» أن نفوذ هذه الامارة الاعرابية كان يمتد على جبل الكرمل وملحقاته، وجميع القرى الواقعة في امتداد هذا الجبل، مضافا إليها مدينة حيفا، وعنتلي، وطرطورة، وقبصرية.

انظر: Mémoires du Chevalier d'Arvieux; 6 Tomes Paris 1735. T. II.P.290, 292

ولم يشر «دارقيو» ضمن وصفه المسهب لسلم مرج ابن عامر إلى سيادة هذه الامارة عليه، بل أكد أن عشيرا بدويا آخر كان يخيم في هذا السهل واطلق عليه اسم «عرب الأمير ناصر»، وكان ذلك أثناء رحلته الأولى إلى المنطقة عام (1657 - 1658) وأكد أن أمير هذه العشيرة هو من أسرة غير أسرة «الأمير طرباي» التي كانت على رأس الامارة العربية الاعرابية المذكورة. وأن إقامة هذا الأمير كانت في السهل حيث كان ينصب خيمته السوداء الكبيرة في الوسط وتحيط بها خيام عربائه، بينما كانت حلة الأمير من آل طرباي الحصينة في جبل الكرمل ووآزن بين موقع مخيمي الأميرين قائلا بأن الأمير ناصر قد فضل السهل على الجبال بسبب المراعي التي كان بحاجة إليها، إلا أن الأمان فيه قليل، إذا أنه معرض في كل لحظة لهجوم مفاجئ من أعدائه، دون أن يتمكن من كشفهم من بعيد بينما وجود الأمير «طرباي» على مرتفع جبل الكرمل يسمح لحراسه بأن يكشفوا بسهولة أولئك الذين قد يأتون إليه، وبذلك يكون في مأمن من أعدائه، (Ibid, P. - 293) انظر حول (جبل الكرمل): IBID

294 - 317 والموسوعة الفلسطينية ج 3 / 639 - 642.

ولا يذكر «دارقيو» شيئا ذا بال عن عرب الأمير «ناصر» غير ما أشير إليه سابقا، وما ذكره عن مرافقته هذا الأمير الشاب في رحلة له من عكا إلى صيدا وقد وصفه بأنه كان أميرا شابا، شريفا جدا ومهذبا (Ibid, p. 87) ولا يعرف اسم العشيرة الذي كان على رأسه أو من «الأمير ناصر» إلا فيما إذا كان هذا العشيرة ينضوي تحت لواء الأمير من أسرة طرباي أم أنه لا صلة بين الإثنين. هذا مع العلم بأن مرج بني عامر كان يضم في آخر النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، أي قبل قرن من زيارة «دارقيو» للمنطقة، عددا من طوائف العرب، ولا يعرف من تبقى منهم قائما في المنطقة ومن نزع خلال ذلك القرن. وكانت تلك الطوائف ضمن إقطاع جد آل طرباي [انظر حول تلك الطوائف دفتر طابور رقم 192. في مديرية المحفوظات باصطنبول وتاريخه 945 هـ / 1538 م. وفي الصفحتين (57 - 58). تصدير محمد عدنان بخيت: الأسرة الحارثية في مرج بني عامر (885 - 1088 هـ)

وهذا اللواء يضم منطقة من أخصب بقاع فلسطين زراعيًا ، ولا سيما بالحبوب والخضر ، ومن أبرزها في الميدان التجاري ، لاحتوائه على موانئ حيفا ، وعثليت ، وطنطورة (طرطورة) ، وقبصرية ، على البحر المتوسط (4) وقد يكون أهم من قينك الناحيتين ، هو تمتعه بموقع استراتيجي خطير على مدى العصور لأنه مركز عقدة من الطرق البرية والبحرية التي كانت تمر منه إلى كل الاتجاهات ، ومنها الطريق الواصل بين السهل الفلسطيني الساحلي في الغرب ، الذي يؤدي إلى مصر ، وبين منطقة الغور عند طبرية في الشرق الذي يوصل إلى دمشق . وكذلك الطريق المتجهة إلى الشمال : إلى عكا فجبل عامل ، فصيدا ، فيروت ، والطريق الذاخرة إلى الجنوب ، إلى نابلس فالقدس . وفي منافذ مرج ابن عامر الضيقة ، الجنوبية والشرقية حدثت المعارك الهامة في التاريخ كمعركة مجدو ، وعين جالوت (5) .

وتتكون البنية البشرية الأساسية لهذه الإمارة العربية الأعرابية من عشير من العرب الأعراب من « بني حارثة » (6) . وكان على رأسها في القرنين

- 1480 - 1677 م) . في مجلة الأبحاث بيروت 1980 السنة 28 (ص / 55 - 78 / 63) .
انظر حول مرج ابن عامر : الموسوعة الفلسطينية ج 4 / 189 - و «دارفيو» 292 - 293 T. II
ومع أن «دارفيو» لم يشر إلى سيادة آل طرباي على مرج ابن عامر ، فإنه يمكن النظر
إلى عبارته «وملحقاته» على أنها تضم ذلك السهل ، وأن آل طرباي كانوا يسودونه . وقد أكد
«أوليا جلبي» تملك الأسرة لواء عجلون لدى الحياة وأنهم كانوا عند زيارته للمنطقة (1083 هـ /
1673 م) يقيمون غرب جينين ، والمدينة الأخيرة هي من مدن مرج ابن عامر الرئيسية .
(4) انظر : الخريطة في هذا البحث وانظر حول تلك الموانئ حسب ترتيبها الوارد أعلاه
المصدرين التاليين .
- الموسوعة الفلسطينية : ج 2 / 298 . ج 3 / 188 - 189 . ج 3 / 121 - 122 . ج 3 /
618 - 619 .
- مذكرات «دارفيو» : ج 10/2 - 12/2 ج 13 - ج 14/2 ، ج 88/3 - 90 . ج 15/2 - 16 .
(5) معركة مجدو : هي المعركة الفاصلة التي حقق فيها فرعون مصر «تحتس الثامن»
النصر على أمراء سورية ، في القرن الخامس عشر ق.م. انظر : الموسوعة الفلسطينية ج 4 /
86 - 87 .
- معركة عين جالوت : هي المعركة الشهيرة التي انتصر فيها المماليك عام 658 هـ / 1259 م
على التتر الغزاة لبلاد الشام وأوقفوا زحفهم . وتقع عين جالوت : إلى الشمال الغربي من
مدينة «بيسان» ، على مسافة 10 كم من نهر جالود .
(6) أكد نسبة آل طرباي إلى «بني حارثة» ، المؤرخ البوريني : تراجم الأعيان من أبناء
الزمان جزءان تحقيق صلاح الدين المنجد . دمشق 1952 و 1963 ج 2 / 273 . وكذلك
الغزي (نجم الدين : الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة 3 أجزاء تحقيق جبرائيل
جسور . بيروت - لبنان 1945 - 1953 . ج 2 / 171 - ثم المحبي : المصدر نفسه . ج 1 / 221 .
وبنو حارثة ، هم من عرب سبئ (بكسر السين وتسكين النون وكسر الباء) ، من قبيلة
طيء من القحطانية . وقد ذكرهم «ابن خلدون» في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد
على أنهم من «أوفر بطون طيء عددا وهم متغلبون لهذا العهد (أي عهده) ، في تلؤل الشام
لا يجاوزونها إلى القفار» وأكد ذلك في وقتنا الحاضر عمر رضا كحالة ، كما ذكرهم المقرئ
في أحداث عام 750 هـ ، عندما تحدث عن فساد العربان ببلاد القدس ونابلس ، وفي حوادث

العاشر والحادي عشر الهجريين : السادس عشر والسابع عشر الميلاديين «آل طرباي» (7). وكانت هذه الامارة موالية للدولة العثمانية الحاكمة ، أو بتعبير أدق اصطغعتها تلك الدولة باغداق لقب «بك سنجق» على أميرها

808 هـ حيث اشتركوا مع عرب اغوار فلسطين في مقاتلة تيمور لك ، ثم نزولهم في صفد ومحاربة نائب صفد لهم لأنهم أخذوا مالا كثيرا من الفارين من دمشق الى مصر أثناء حملة تيمورلنك ، وفي أحداث سنة 812 هـ ، حيث اشتركوا في قتال الى جانب عسكر دمشق ضد أمير صفد . وأورد المؤرخ الفلسطيني المعاصر : «مصطفى مراد الدباغ» بعض أخبار عنهم ومنها نسبة عشيرة وادي الخوارث في قضاء طولكرم لهم ، وخربتا الحارثية من أعمال الرملة ، وقرية الحارثة المنتشرة من أعمال فلسطين وسيلة الحارثية من أعمال جنين . وهذا كله يؤكد وجودهم في شمالي فلسطين ، بين الغور شرقا وصفد شمالا ، ونابلس جنوبا .

أما سنس فقد اتى على ذكرهم «القلقشندي» و«المقرزي» و«الدباغ» وخمن المؤرخ الأخير أن يكون مقامهم الرئيسي في الموقع الذي يحمل اسم «خربة سنس» في الظاهر الشرقي من قرية حلقات في بلاد غزة . وتؤكد «الموسوعة الفلسطينية» بأنهم نزولوا جنوب فلسطين ، وكثروا هناك ، واستقرت فروع منهم في منطقة بير السبع ، كالحزاعلة ، ورميح ، ومعين . - ابن خلدون : العبر وديوان المتبدأ والخبر 6 أجزاء بيروت . د . ت . 6/62 .

- المقرزي : السلوك لمعرفة الدول والملوك ، أربعة أجزاء ، كل جزء في ثلاثة أقسام تحقيق عبد الفتاح عاشور . القاهرة 1956 - 1972 (الطبعة الثانية) . ج 2 القسم 3 / 804 - ج 3 القسم 3 / 1042 ، 1066 - 1067 - ج 4 القسم 1 / 121 . - البيان والاعراب عما بأرض الشام من الأعراب مصر 1334 هـ / 8 . - القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا . 14 مجلدا مصر 1914 - 1922 ج 1 / 321 - 322 .

- ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور . 5 أجزاء القاهرة 1402 - 1404 هـ / 1982 - 1984 م . تحقيق محمد مصطفى . ج 1 / 630 - 631 . - عمر رضا كحالة : قبائل العرب القديمة والحديثة 3 أجزاء . بيروت 1388 هـ / 1968 م . ج 1 / 233 .

- مصطفى مراد الدباغ : القبائل العربية وسلاسلها في بلادنا فلسطين . بيروت 1399 هـ / 1979 م ص 87 - 89 . - الموسوعة الفلسطينية . ج 1 . مادة (بدو) . ص 365 .

(7) ورد هذا الاسم بعدة صور : «طرباي» و«طراباي» و«طربائي» و«طربيه» و«ترابك» و«طرهباي» و«طورهبك» بحسب ما أتى في بعض الكتب التاريخية المعاصرة والفرمانات السلطانية المحفوظة في الارشيف العثماني تحت اسم «مهمة دفتر» . أنظر : - ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ج 2 / 145، 79، 72، 43 و ج 1 / 22 و ج 2 / 171 . - النجم الغزي . المصدر السابق . ج 2 / 171 .

Heyd (Uriel), Ottoman Documents on Palestine (1552-1615) Oxford. 1960. P. 52 N. 1

وقد ورد هذا الاسم على شكل (ابن طراباي) في تاريخ ابن طولون (مفاكهة الخلان ج 1 / 22) على أنه اسم بعض عربان في مرج بني عامر وفي أحداث عام 885 هـ / 1480 م . كما ورد اسم الشيخ عرب جبل نابلس (طراباي بن قرابجا) في مصادر أخرى (أنظر : محمد عدنان بخيت الأسرة الحارثية ص 56 - 59) .

واسم طرباي اسم مملوكي ، وقد عرف به عدد من اصحاب المناصب الكبرى في الدولة المملوكية . ومنهم على سبيل المثال : «الأمير طرباي الوداد» (عام 803 هـ) ، في (السلوك . ج 3 / 1045 ، 1062 ، 1084) ، و«طرباي الوداد الكبير» بدمشق (مفاكهة الخلان . ج 1 / 263، 275، 286، 346) . وطرباي رأس نوبة النوب (النجم الغزي الكواكب السائرة . ج 1 / 5، 240) . وقد استغرب «موسى شارون» في بحثه عن بدو فلسطين وآل طرباي ، هذا الاسم المملوكي لأمير عربي ، وكيف غدا اسما للأسرة ، ورأى في هذا غموضا لابد من تبينه :

منذ القرن السادس عشر (8) ، لتحمي لها تلك الشبكة من الطرق المشار إليها آنفاً ، من غزو بقية الأعراب في المناطق المجاورة ، وبصفة خاصة الطريق بين دمشق ومصر ، بما كان يحمل من قوافل التجار والمسافرين ، ويريد الدولة ، ولتكون في الوقت نفسه رقبيا ، وحارسا ، ومؤدبا في المنطقة ، يردع بمقاتليه الأشداء ، جميع المتمردين على سلطة الدولة من الأمراء المحليين ، والأعراب ، وسكان المنطقة . وقد لعبت شبه الدولة هذه ، دورا بارزا في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، حينما كان على رأسها أميرها «أحمد طرباي» ، الذي ترجم له بطريق مباشر أو غير مباشر ، وعرفت بنشاطه السياسي ، عدد من المؤرخين العرب المشرقيين المعاصرين له ، أو للقرون التي تلت (9) . وقد أبرز هذا

MOSHE Sharon, the political Role of the Bedouins in Palestine in The sixteenth century, in, Studies on Palestine During the Ottoman Period. Jerusalem 1975, P. 26.

وفي الواقع أن التسمية باسم مملوكي معاصر ليست مستغربة ، فالبدو يسمون أولادهم مما يلور في خيالهم ، ومما يخالطونه ويجاورونه أكان مادة ميتة أو حية ، وقد لا يكون لبعض الأسماء معنى . وقد يسمون أولادهم بأسماء اجانب نزلوا ضيوفا عندهم أثناء ولادة الاولاد ، أو كانوا على صلات ودية معهم . وهناك في العصر المملوكي من سمي (جانباني) و(ميتريك) ، وفي الوقت الحاضر (لورنس) و(توماس) وغير ذلك .
انظر حول أسماء العرب البدو : أحمد وصفي زكريا . المصدر السابق / 179 - 180 .
ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون الاسم عربي الاصل ثم حرف لفظا وكتابة ويؤكد هذه الأصالة العربية «الفارس دارفيو» في مذكراته (T.III. 156) حيث أوضح ان «طرابيه» هو ترابي أي نسبة الى التراب وقد استبعد أوريل هايد (op. cit. P : 52 : n1) هذا التفسير إلا أن التفسير قد لا يكون بعيدا عن الواقع ولا سيما أن هناك قبيلة عربية من فروع قبيلة عنزة العدنانية ، في منطقة بير السبع تدعى «الترابين» ، وكانت مجاورة في سكنائها لبعض بطون «سنابس» (الموسوعة الفلسطينية ج 1 / 366) ، بل التيس الأمر على المعلق على ترجمة «رحلة أوليا جلبي» الى فلسطين التي قام بها حنا اسطفان ، والمشار إليها في الهامش (2) من هذه الدراسة ، وهذا المعلق هو (ماير L.A. MAYER) فقد وهم بان «آل طرباي» الذين تحدث عنهم «أوليا جلبي» هم من قبيلة «الترابين» نفسها ولذا فإنه علق في الهامش على أنها كانت (أي قبيلة الترابين كما أسماها ، ويقصد آل طرباي) في عام 1860 تقطن قرب السويس الى غزة ، وأنها لاتزال في ذلك الإقليم حتى وقت الترجمة عام 1938 .

The Quarterly... Op. cit, Vol. VI (1938), P. 88. n.1

Heyd (Uriel), op. cit, PP. 45,65-67, and n. 15 (8)

(9) - البوريني (الحسن بن محمد) : المصدر السابق نفسه ج 1 / 229 - 230 ج 2 / 273 ، 289 .

- الخالدي الصفدي : تاريخ الأمير فخر الدين الثاني بتحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني . الطبعة الثانية 1969 . صفحات عديدة ، منها من 15 - 206 .

- المحبي : المصدر السابق نفسه ج 1 / 221 - 222 .

- الشهابي (الأمير حيدر أحمد) : الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان .

3 أجزاء . نشر نعيم مغنّب . القاهرة 1900 - 1901 . صفحات متعددة منها 626 - 678 .

- المعلوف (عيسى أسكندر) : تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت 1966 .

- دروزة (محمد عزت) : العرب والعروبة . دمشق 1959 ج 1 / 258 - 260 ، 264 .

- الموسوعة الفلسطينية . ج 1 / 100 - 101 .

الدور في وقتنا الحاضر بعض المؤرخين والباحثين العرب والأجانب (10) إلا أن من بحث في شؤون هذه الإمارة ودورها من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، ركز بصفة خاصة على الفعاليات السياسية لها ، وعلى تحالفات أميرها ، وصراعاته مع الأمراء المحليين في المنطقة ، ولاسيما فخر الدين المعني الثاني ، ولم يتطرق تفصيلا الى الأحوال الاجتماعية فيها . وفي الحقيقة أننا نملك مصدرا هاما عن مجتمعها بمعظم دقائق حياته في «مذكرات الفارس دارفيو» ، ذلك الرحالة البروفنسي الفرنسي ، الذي عمل تاجرا في «صيدا» من بلاد الشام لسبع سنوات ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (1658-1666) ، والذي قام بخمس رحلات الى أنحاء فلسطين إما بقصد زيارة الأماكن المقدسة النصرانية فيها ، أو حبا منه للرحلات ، أو ارضاء لفضوله النامي للمعرفة ، أو لأغراض اقتصادية وسياسية . وهو نفسه الذي اختارته دولته فرنسا ، ليكون قنصلا لها في حلب شمالي سورية في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، ولسبع سنوات (1669-1686م) . هذا ولا مناص من أن يكرر هنا ما كانت قد ذكرته في دراستي السابقتين عن فلسطين (11) بأن تلك المذكرات ، بما فيها من معلومات وملاحظات دقيقة ، وبالموازنات التي أجراها فيها مع ما كان يجري في مجتمعه فرنسا أو في مجتمعات أخرى ، وبالتعليقات الكثيرة ، الذكية في معظم الأحيان ، هي مصدر تاريخي ثمين ، لا يمكن لباحث في تاريخ بلاد الشام ، والجزائر ، وتونس ، والدولة العثمانية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، التغاضي عنه أو اهماله . ولا سيما أن صاحبه كان شاهد عيان لفترة طويلة نسبية ، ويتمتع بفكر الشك العلمي ، ويملك نظرة واسعة ، وذات اهتمامات متنوعة ، طبيعية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ، وعمرانية ، ويتقن اللغتين العربية والتركية ، ويحتضن ثقافة طيبة .

إلا أن تلك الصفات النقدية الايجابية لصالح مادونه «الفارس دارفيو» في مذكراته عن كثير من الأمور ، يجب ألا تنسينا حقيقة هامة جدا ، وهي أنه على الرغم من محاولته قشع بعض ضباب الصليبيات الكثيف الذي غطى الفكر الأوروبي تماما في المراحل السابقة ، فحجب عنه الرؤية الواضحة والصادقة للمجتمع العربي الاسلامي ، وعلى الرغم من دفاعه القوي عن العرب

(10) انظر : - محمد عدنان بخيت : الأسرة الحارثية بحث اشير إليه سابقا .

MOSHE Sharon, op. cit

Heyd (Uriel), op. cit. PP. 45-46,52-53,56-57-78,94,95-96,109-110.

(11) انظر الهامش الأول (1) في هذه الدراسة .

تجاه الأفكار السيئة السائدة عنهم في أوروبا آنذاك ، فانه بقي يحمل في ذاته خزيها كبيرا من الرؤى الصليبية عن الاسلام والمسلمين ، وعن الأرض المقدسة فلسطين (12) ، ويحتضن الشديد من التعصب لدينه النصرانية (13) ، ويكن الكراهية للاسلام ، وللاتراك العثمانيين بصفة خاصة (14) . كما يجب ألا يتغاضى عن جهله أو تجاهله بالتاريخ السياسي للعرب المسلمين (15) ، وبعدم معرفته الصحيحة والدقيقة بالدين الاسلامي ، وتشويهه صورة الرسول الكريم (ص) (16) . فكل تلك النقاط السلبية قد حسب حسابها عند تقويم المعلومات التي قدمها .

(12) ظهر هذا في مواضع متعددة من مذكراته ، وبخاصة عند زيارته لأنحاء من فلسطين أقام فيها الصليبيون سابقا ، وذلك ضمن تعليقاته حول ما كان يجب أن يفعل أولئك الصليبيون ليقبوا محتفظين بالأرض المقدسة . انظر على سبيل المثال : (T. II. P. 260) . وكذلك عند تنصيبه عضوا في «طائفة القبر المقدس» الكاثوليكية ، التي كان من واجبات اعضائها أن يقدموا ألاكهم ، وحياتهم لاستعادة الأرض المقدسة . وإذا لم يكونوا هم قادرين ، فعليهم أن يبحثوا من يحل محلهم في ذلك العمل (Ibid. PP. 160 - 161) .

(3) تبدي هذا الأمر في عدد من الأمكنة في مذكراته . فقد ظهر هذا جليا عندما كان يقنع بحماسة واصرار كبيرين من يود اعتناق الدين الاسلامي من بعض الاسرى الاروبيين في مخيم (آل طراباي) ، ومن تظاهر باعتناق هذا الدين منهم ، بالبقاء على النصرانية ، أو العودة إليها ثم الهرب الى أوروبا .

انظر (الفصل الثاني) و(الفصل الثالث) من الجزء الثالث من مذكراته ، اللذين تحدث فيهما عن قصة شابين أوروبيين كانا أسيرين ، أحدهما «مايورقي» (Ibid, T. III. PP. 43 - 57) وثانيهما «بندقي» . (Ibid. PP. 57 - 63) .

(14) تجلت تلك الكراهية في مجموع المذكرات . ومنها على سبيل المثال فقط ، وصفهم بـ«المتغلبين الوقحين : Vainqueurs insolents» ، وأنهم هم المسؤولون عن سوء أحوال العرب وانصرافهم عن متابعة عطائهم الفكري العلمي السابق ، الذي كانوا فيه في الماضي مبرزين (T. III. PP. 188 — 190) وفي الحديث المستمر عن استبدادهم ، وطغيانهم ، وسوء معاملتهم للسكان ، واضطهادهم لهم وتشتيهم (Ibid. P. 144) .

(15) يعزو «دارفيو» انتشار العرب في كثير من بقاع الأرض ، لا الى الفتوحات العربية الاسلامية ، وانما الى اضطهاد الأتراك ، الذين غزوا بلادهم ، وغيروا الحكومة ، والسادات والسكان والتقسيم الإداري ، مما دفع العرب الذين كانوا يقطنون المناطق العربية الثلاث القديمة الى الهجرة الى افريقية وحتى النيجر حيث هناك عدد كبير منهم (T. III. P. 144) . ولا يعرف المصدر الذي استقى منه تلك الأغاليط . هذا مع العلم ، بأنه وهو ابن القرن السابع عشر ، والحركة الإستشرافية لما تكن قد نمت النمو الكبير ، كان عارفا بالحضارة العربية الاسلامية وكان مؤمنا بأن أوروبا تدين للعرب بأفضل ما لديها في ميادين الفلك والطب وعلوم أخرى (T. III. P. 189) ، وأن على الأوروبيين أن يغيروا نظرتهم البشعة حيال العرب لأنها قائمة على جهل بهم ، وعلى أحكام مغلوبة سابقة للمعرفة والتجربة .

(16) لقد نظر الى (الاسلام) على أنه من عمل النبي محمد (ص) ، واطلق على الرسول الكريم صفة «الاضواء seducteur» (T. III. P. 146) ووصف العقيدة والشريعة الاسلامية بأنها «ركام غامض ومشوه من اليهودية والنصرانية ، ومن مختلف الهرطقات التي كانت متفشية آنذاك في الكنيسة المسيحية ، واساءت الى العقيدة النصرانية الحقبة وصفائها» (Ibid) . ويظهر جهله بالدين ، عندما تحدث مثلا عن «الصيام» عند المسلمين ، وذكر أن النساء معفيات منه بسبب بنيتهن الضعيفة ، وبسبب حرمان النبي (ص) لهن من الجنة (هكذا!) (Ibid P. 175) . وقد يكون اعتمد في معلوماته تلك على أقوال بعض الجهلة بالدين ، ممن كان يكره النساء ، ممن احتك به ، وتطابق هذا مع فكر «دارفيو» الذي كان بدوره على ما يبدو ، ممن كان ينظر الى المرأة نظرة سيئة ، بل ومعادية .

وقد يتساءل كيف تعرف «الفارس دارقيو» بمجتمع أعراب بني حارثة وأسرتهم الحاكمة من «آل طرباي» أو كما يسميهم هو بـ «عرب طرباي» وعرب «جبل الكرمل» وهو التاجر الفرنسي المقيم في صيدا؟ لقد قام «الفارس دارقيو» في الحقيقة بأربع زيارات للأمير بني حارثة من «آل طرباي» بين (1658-1666). وسار في رحلة خامسة خاصة تعرف بها منطقة جبل الكرمل ومرج بني عامر.

أما الزيارة الأولى فكانت في أواخر 1658 م (17)، وكان على رأس عرب بني حارثة الأمير زبن Zoben (18) من (آل طرباي)، وقد خلف أباه «أحمد» المتوفي عام 1057هـ/1647م، والمشار إليه آثفا. وكان هذا الأمير كما وصفه «دارقيو»، من أفراد عصره، وقادر على تحقيق مشروعات كبيرة، لو لم تكن تتحكم فيه انفعالاته الشديدة وغضبه، مما جعل حكمه قاسيا، ومن الصعب أحيانا التعامل معه، ومن ثم فإنه لم يكن محبوبا من رعاياه وجيرانه (19). ولعل «دارقيو» في حكمه هذا على الأمير، كان متأثرا بموقف الأمير المجافي من الرهينة الكرملية (20) التي كان

(17) يذكر الأب لابا Labat الذي قام بجمع مذكرات «دارقيو»، وعمل على نشرها، بأن ذلك كان عام 1660 مع أن تفاصيل الرحلة كما وردت في المذكرات نفسها تبين أنها في أواخر 1658. أنظر T. II. P. 13.
(18) ورد هذا الاسم في كتاب المحبي المصدر نفسه ج 1 / 222 (زين) بالياء لا بالباء، وكذلك أتى في الأبحاث المعاصرة عن الاسرة الحارثية، بينما أتى في مذكرات «دارقيو» ولمرتين (ج 2 / 312 و ج 3 / 158) بالياء وبين (زين) و(زين) باللغة العربية نقطة واحدة تضاف أو تنقص. وقد يكون الاسم كما أورده «دارقيو» أقرب إلى الصحة، وقد يكون المحبي نفسه قد أتى به بتلك الصورة، إلا أنه حدث تصحيف أثناء الطباعة علما بأن اسم (زين) ليس غريبا على العرب، فهو يعني: شديد الدفع والضرب، كما أنه في اللغة الدارجة البدوية في شمالي الشام اليوم يعني (الملاذ، والملجأ)، ويقال (زبن آليه، أي التجأ). (المصدر: الدكتور عبد السلام الجبيلي وهو الطبيب والأديب السوري المعاصر الذي يقطن الرقة، وعلى احتكاك دائم في منطقته بكثير من الأعراب). وهو اسم دارج في (بني صخر) في الأردن وهناك أسرة بهذا الاسم قائمة إلى الآن. هذا، ولو كان الاسم بالياء، فليس فيه ما يعسر نطقه على فرنسي كدارقيو، اتقن العربية.

(19) T. III. P. 158.

(20) سميت بهذا الاسم نسبة إلى «جبل الكرمل»، حيث أقامت هذه الطائفة الأوربية الزاهدة لأول مرة أبان الحروب الصليبية. ففي سنة 1156م انسحب أحد الصليبيين الكلابرين «برتولد Berthold» إلى جبل الكرمل، وكان يسكنه بعض النساء التابعين لنظام «القديس باسيل» وتدرجيا تجمع نساء آخرون من كهوف الجبل وكونوا لأنفسهم طريقة خاصة. ولتمت الموافقة على أول نظام لهذه الطائفة عام 1224م. أما النظام النهائي فتمت موافقة البابا «إينوسان الرابع» عليه عام 1245 وينص على اتباع الطائفة صياما قاسيا، وممارسة للصمت، والزهد، والتعشف، والصلاة ليلا. وانتشر نظام هذه الطائفة بسرعة، وادخله لويس التاسع إلى باريس، واضطر البابا «أوجين الرابع» سنة 1431م للتخفيف من قسوة النظام، مما أوجب انقسامها بين ما سمي «الديرين» و«المحافظين» ثم جرى إصلاح شامل للطائفة عام 1564، بتأثير نصائح «القديسة تيريز» وحذر البابا «كليمان الثامن» الطائفة الجديدة من أي ارتباط لها مع الطائفة القديمة وذلك في سنة 1593. ومن المعروف أن الكرمليين يسيرون شبه حفاة، ولا يأكلون اللحم أبدا،

بضعة من أفرادها يقيمون في دير لهم (21) في جبل الكرمل . إذ أن حكمه ذاك مخالف لحكم المؤرخ العربي « المحببي » الذي أكد بأنه كان « شجاعا ، وعاقلا ، وحليما » (22) . وكان الدافع لدارفيو للقيام بهذه الرحلة هو مرافقة نائب القنصل الفرنسي السيد سوريب Souribe (23) للتوسط لدى الأمير زبن لاعادة الآباء الكرمليين ، وكان عددهم آنذاك ثلاثة فقط ، الى ديرهم في الجبل بعد أن كانوا قد هجروه بسبب ما أسماه « دارفيو » « بالاضطهادات التي كان يمارسها العرب تجاههم » (24) . وتتلخص تلك الاضطهادات كما شرحها ، بأن موظفي الأمير العربي ، كانوا لا ينفكون عن مضايقتهم في كل مناسبة ، إذ كانوا يريدون الزامهم على اطعام جميع المارة من ديرهم ، كما هي العادة المتبعة في القرى (25) ، على الرغم من أنهم بينوا لهم بأن هناك فرقا كبيرا جدا بين قرية عامرة بالسكان ، وغنية ، وثلاثة فقط من رجال الدين الفقراء ، لا يعيشون الا على الصدقات المرسلة لهم من أوروبا ، وأنهم كانوا غالبا مضطرين لحرمان

ولا يشربون النبيذ ولا الكحول . انظر : — ليلي الصباغ : الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر . رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة . عام 1966 (في طريق النشر) . ص 427 .

Grand Larousse Encyclopédique. — 12 vol. 1960 — 1975. vol. 2. P. 628 (Carmes) — D'Arvieux. T. III. P. 302.

(21) أنظر حول ذلك الدير المؤلف من خمسة كهوف في الجبل ، وتحصيناته ، وتسلم الكرمليين فيه لمقاومة العرب البدو ، ونمط حياتهم فيه ، «مذكرات دارفيو» : T. II. PP. 297 — 318 .

(22) خلاصة الأثر . ج 1 / 222 .

(23) كان يقيم في (الرملة) في فلسطين ، ويعمل وكيلا لرهبة آباء الأرض المقدسة في الوقت نفسه (II P. 22) . أنظر حول الرهبة الأخيرة ونظامها في بلاد الشام ، ليلي الصباغ : الجاليات الأوربية / 428 — 446 .

(24)

D'Arvieux. T. II. P. 13.

(25) ان حق اطعام المارة في الأديرة والكنائس ، واستضافتهم لثلاثة أيام عادة اجتماعية عربية قديمة ، وكانت ضمن الشروط التي اشترطها المسلمون على النصارى عند فتح بلاد الشام في عهد عمر بن الخطاب ، وقد قدموا تمهدا بذلك . بل ان الروايات تشير الى ان الأمر كان معمما على أهل الذمة كلهم . فقد روي أن عمر بن الخطاب قضى على أهل الذمة ضيافة ثلاثة أيام للمسلمين : ما يصلحهم من طعام وعلف دوابهم . فإذا نظر الى ان بعض القرى كانت تضم فئة من النصارى فتكون ضيافة أهل القرى للمارة والمسافرين التي تحدث عنها «دارفيو» وبالتفصيل هي عادة كانت في أساسها ذلك الشرط الذي اشترطه المسلمون على أسلافهم ، فعدت تقليدا ظل قائما حتى أيام «دارفيو» .

انظر : — أبو يوسف : الخراج القاهرة 1346 هـ . ص 165 .

— البلاذري : فتوح البلدان تحقيق محمد رضوان المكتبة التجارية القاهرة د.ت. / 131 ، 156 ، 178 .

— ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلدة الأولى ، تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق 1371 هـ / 1951 : ص 563 — 566 .

— دارفيو : T. II. P. 86 — T. III, PP : 179 — 187 .

أنفسهم من الضروري من الزاد كي يدفعوا الضريبة المفروضة عليهم ، بموجب المعاهدات المفقودة مع أسلافه (26) . هذا بالإضافة الى أن الأمير طالبهم بمضاعفة تلك الضريبة اذا أرادوا البقاء على أرضه وخاف رجال الدين أن يدفع الأمير الأمر الى حده الأقصى فيحصل لهم مالا تحمد عقباه ، فانسحبوا بنصيحة من بعض الأصدقاء ، دون ضجة الى عكا ، ومنها الى حيفا ، وحملوا معهم كل مالديهم من أثاث كنيستهم ومقر إقامتهم (27) . وبالفعل وصل « الفارس دارقيو » برفقة السيد سوريب الى الأمير زين ولم يفصل في وصف المقابلة ، وانما اكتفى بالقول بأن الأمير كان نبيلاً جداً ، وبأنه أي « دارقيو » لم يعدم الوسيلة لاقتناعه بأن مصلحته ومصلحة رعاياه هي في ألا يدع رجال الدين الكرمليين يغادرون جبل الكرمل ، وأن يكتفي بالضريبة المعتادة . فتمت الموافقة ، ونظمت الأمور على الأساس القديم ، ووقعت معاهدة جديدة . فعاد الكرمليون الى ديرهم بعد أن دفعوا الضريبة السنوية المقررة ، وعاشوا بعدها بسلام واطمئنان كما رأهم « دارقيو » عند زيارته لهم عام 1660 (28) .

كان ذلك هو التعارف الأول بين الفارس « دارقيو » والأمير من « آل طرباي » ، أمير أعراب جبل الكرمل وهو تعارف سريع ، اذ لم يمض معه سوى فترة قصيرة جداً ، الا أنه استشف على ما يبدو من هذه الزيارة العاجلة ، ومن رحلته الى جبل الكرمل عام 1660 ، وتعرفه بالمنطقة ، بأن الأمير العربي قوي النفوذ ، وأنه على استعداد مبدئي لحماية من يلجأ اليه . وربما في ضوء هذا قام الفارس « دارقيو » برحلته الثالثة الى جبل الكرمل ، والثانية لأمير عربانه من بني حارثة وكان ذلك في صيف 1664

(26) لا يعرف في الحقيقة شي. عن تفاصيل تلك المعاهدات المفقودة ، ولا كمية الضريبة المفروضة . ولكن قد يخمن بأنه اذا نظر اليهم معادلين للرهبان النصارى من أهل البلاد فإنهم كانوا معفيين مبدئياً من ضريبة (الجزية) ، الا أنهم قد لا يعفون من ضريبة (الخراج) على الأرض اذا كان لهم منها ما يستثمرونه زراعياً . ومن وصف « دارقيو » للدير يتبين بأنهم كانوا يشغلون مساحة من جبل الكرمل قرب ديرهم ، حولوها الى مدرجات بعرض 5 - 6 أقدام ، وينزل من مدرج الى آخر بسلاسل منحوتة في الصخر وانهم نقلوا الى تلك المدرجات التراب وجعلوا منها بساتين تنتج ثماراً شهية ، وعرائش كرمة تعطي عبا ذا مذاق لذيذ ، وحدائق تنبت أزهاراً من جميع الأنواع (T. II. P. 304) . وقد تكون الضريبة المفروضة لاعتلاقة لها أيضاً بالخراج ، وانما هي ضريبة عرفية تم الاتفاق عليها للسماح للرهبنة بالإقامة . هذا مع العلم ان رهبنة « الأرض المقدسة » كانت معفية من ضريبة الجزية ، ومن الضرائب الأخرى الا أنه كان على « ورديانهم » أن يدفع عند دخوله سنق القدس (6000) قرش ، مع تقديم هدايا معينة للسلطات الحاكمة . (T. II. PP. ، 150 ، 151 ، 257) .

(27) كان للكرمليين بيت أيضاً في خان عكا ، وغرفة في حيفا ، يحتفظون فيها بمؤنهم ، حيث تكون بيمان أكبر مما لو وضعت في كهوف الدير (T. I. P. 280 ; T. II, P. 11) .
(28) T. II. PP. 312 - 314.

16 آب (أغسطس). وكان الأمير زبن قد توفي 1070هـ/1660م ، وخلفه أخوه ، وهو الأمير «محمد بن أحمد» وكان بحسب وصف «المحبي» له «جوادا سمح الكف ، ممدحا» (29). وفي هذه المرة أم يذهب «دارقيو» لمجرد المعرفة ، أو للتفاوض وانما ذهب لاجئا (30) وذلك عندما رأى أن نفوس سكان بلاد الشام ، والمصريين ، والحكام العثمانيين نائرة على الفرنسيين وناقمة عليهم ، ومهددة بالويل والثبور ، على اثر احتلال الفرنسيين لمدينة جيجل في الجزائر 1664 (31) فخشي دارقيو على نفسه ، وعلى تجارته انتقامهم ، ولم يحل له ترك بلاد الشام والعودة الى فرنسا وزملاءه ، اذ أن هذا بحسب قوله ، يجعل بقية الأوربيين من غير الفرنسيين يسيطرون على التجارة في تلك البلاد . فقرر دون اعلام أحد ، حتى أخويه الموجودين معه في بلاد الشام ، اللجوء الى حماية الأمير (محمد بن أحمد طرباي) ، الذي كان بحكم دارقيو عليه «رئيس جميع الأمراء وأقواهم في جبل الكرمل» (32). وبالفعل تنكر في زي عربي ، ورحل الى جبل الكرمل حيث كان الأمير مخيما مع عشيره ، وطلب منه حمايته ، بعد أن شرح له السبب . وعلى عادة العرب منحه الأمير حمايته ورحب به ، وأقرده له خيمة خاصة في مخيمه ، مؤثثة على نمط خيام أعرابه ، وخصص له أمة سوداء لخدمته . وما لبث أن نال ثقة الأمير ومحبة ، ولا سيما أنه كان يسامره كل يوم باللغة العربية التي كان يتقنها ، حتى ان الأمير عينه كاتباً له ، عند مرض كاتبه الخاص ، فموته . ولقد أقام الفارس «دارقيو» في مخيم (آل طرباي) أربعة أشهر كاملة هذه المرة ، ولم يغادره الا بعد أن بعث له أخوه يطمنته

(29) خلاصة الأثر . ج 1 / 222 .
(30) وهمت الباحث «اليزابيت سريه» المشار الى دراستها في الهامش (1) من هذا البحث بأن رحلته هذه كانت لصالح الكرمليين ، ولم تشر البتة الى السبب الهام لرحلته هذه . انظر ص 33 / من بحثها السالف الذكر .

(31) جيجل : مدينة على ساحل الجزائر ، وعلى بعد 50 ميلا غربي بجاية . كانت في القرن السابع عشر عريضا لبحارة الجزائر ، يهاجمون منه سفن الأوربيين في البحر المتوسط وقد دفع هذا الأمر الدول الأوربية الى شن غارات بحرية عليها . ورأت فرنسا اتخاذها قاعدة بحرية دائمة لها ، تسكن فيها طراداتها البحرية لملاحقة التجار الجزائريين عند خروجهم من موافئ الجزائر الأخرى ، أو عندما يعودون اليها محملين بالاسلاب . وفي الوقت نفسه تقضي على نشاط البحارة الجزائريين فيها ، وتجعل منها محطة أمينة للمراكب التجارية الفرنسية . وفي 23 جويلية 1664 ، أنزلت فرنسا (8000) جندي واحتلتها ، الا أن الجزائريين استطاعوا ضرب الفرنسيين ، واخراجهم منها في 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1664 . انظر : ج إيشر G. Yver : جيجل بحث مغرب في دائرة المعارف الاسلامية العربية (تعريب خورشيد - يونس - جلال ، ومراجعة وزارة المعارف المصرية القاهرة د. ت المجلد السابع / 201 - 204 .

- دارقيو . 4 - 3 . T. III. P.

(32)

بأن النفوس الثائرة على الفرنسيين في صيدا قد هدأت ، وأن حادثة جيغل قد نسيت ، وبالفعل كانت فرنسة قد أخرجت من جيغل عندما غادر المخيم في 18 كانون الأول (ديسمبر) 1664 (33) .

أما الزيارة الثالثة لآل طراباي (الرابعة للامارة) فكانت لمدة شهر ونصف وكان ابتداءها في أواخر آذار (مارس) 1665 م ورافقه فيها أحد أخويه . وكانت على ما ذكر هو بقصد رؤية الأمير صديقه ، بعد أن كان قد وعده بذلك قبل مغادرته له . وغادر المخيم في منتصف أيار عام 1665 (34) .

والزيارة الرابعة ، والأخيرة (الخامسة للامارة) كانت على ما يبدو لأيام ، إذ لم يحدد الفارس « دارقيو » مدتها ، وجرت عام 1666 ، أي قبل أن يغادر مدينة صيدا نهائياً وإلى غير رجعة . إذ كان قد صمم على ترك عمله التجاري ، والعودة إلى فرنسة ، بعد أن اتضح له أن تجارته لم تعد تدر عليه المكاسب السابقة . فرأى من واجب الصداقة عليه أن يستأذن « الأمير محمد من آل طراباي » قبل سفره . ويبدو أنه كان هناك علاقات تجارية معينة بينه وبين الأمير ، بدليل قول « دارقيو » بأنه « صمى مع الأمير بعض الحسابات المشتركة ودفع له الأمير نقداً » (35) .

فالفارس « دارقيو » أقام إذاً على فترات متقطعة ما يقارب ستة أشهر بين أعراب بني حارثة ، وأمرائهم من (آل طراباي) ، شاركهم خلالها ألوان طعامهم ، وشرابهم ، ومسكنهم ، ولباسهم ، ووسائل لهوهم ولا سيما القنص ، وقلدهم في كثير من عاداتهم ، وحضر جلسات سمرهم ، وتلصص على نسائهم من شقوق خيمته ، وتعرف مباشرة ، وبالتجربة العملية أعمالهم ، في تربية المواشي وبصفة خاصة الخيل ، وفي تشليحهم للمارة وسلبهم ما يملكون ، وفي أعمالهم القتالية الرسمية لصالح الدولة العثمانية ، إذ اشترك فعليا معهم في اخماد ثورة للفلاحين في نابلس .

وهكذا تعرف « دارقيو » عن كثب ، وبالتجربة ، كل جزئيات الحياة اليومية لهؤلاء الأعراب ، والتقط ما يحبون ، ويحترمون ، ويكرهون ويزدرون ، وأدرك قيمهم الخلقية والاجتماعية ، ولاحظ بدقة مناحي سلوكهم الديني والدنيوي ، بل وسبر فكرهم عبر مجالس السمر التي كانت تجمعهم

Ibid. PP. 3 - 123

(33)

Ibid. PP. 124 - 142.

(34)

Ibid. PP. 339 - 340

(35)

وأياهم يومياً ، وأحاط أيضا بكثير مما كان يجري ضمن شبه الدولة العربية الأعرابية ، من ناحية علاقة الأمراء بالرعية ، والرعية بالأمراء وعلاقة الأمير مع جيرانه ، ومع السلطة العثمانية الحاكمة . فكل الخفايا كانت بين يديه ، بصفته كاتب الأمير وأمين سره ، يفض الرسائل الواردة ، ويدون الصادرة .

ولم يكتف « الفارس دارفيو » بمعايشة ذلك المجتمع البدوي في دقائق حياته الخاصة ، بل دون تلك المعاشية ، وكما جرت بالفعل ، ومن ثم لم يكن ما دونه عن ذلك المجتمع نقلا عن غيره من الرحالة ، كما فعل عديد منهم ، قبله وبعده ، وإنما كان تصويرا مباشرا لما عاش ومن ثم كان ما طرحه في مذكراته عن مجتمع الامارة العربية في لواء اللجون ، أصيلا ، وجديدا ، ومفصلا جدا ، ودقيقا - كما ذكر ناشر مذكراته مما أثار القارئ الفرنسي آنذاك « فالأضواء التي سلطها على العرب البدو لم تكن معروفة الا بمقدار في الأوساط الفرنسية » (36) . ولم يكن تدوين « الفارس دارفيو » لتلك المعاشية يوما بيوم على طريقة المذكرات اليومية المباشرة ، بل انه نسقها ، ورتبها ، وصنفها بفصول ، على نمط الدراسات الاجتماعية اليوم ، وقام بعمله هذا بعد الانتهاء من آخر زيارة لآل طراباوي بمدة ليست بالقصيرة ، وفي وطنه فرنسة . فقد انكب على اخراجها عام 1673 ، مستعينا بالمذكرات الدقيقة التي كان قد دونها أثناء رحلته ، وذلك تحت الحاح فئة من الفرنسيين ، كانت متحمسة لمعرفة كل شيء عن أولئك الأعراب الذين التقى بهم على الأرض المقدسة ، بعدما كان قد حدثهم عنهم شفويا . وفي مدى شهر كانت جاهزة للطباعة (37) . ولكن يظهر أن ما دونه آنذاك عن عرب جبل الكرمل لم ينشر في حياته ، وإنما نشر عام 1717 ، وبعد خمس عشرة سنة من وفاته ، وقام بذلك السيد دولاروك (38) ، وبطريق مطبعة كايو Cailleau في باريس . ويشتم مما ذكره « الأب لابا Labat » ناشر مجموع مذكرات دارفيو عام 1735 ، بأن « دولاروك » قدمها بأسلوبه الطلّي ، وأنها استقبلت بالاعجاب والتصفيق من جميع المهتمين بالأمر (39) . وهكذا يتضح بأن « مذكرات الفارس دارفيو » عن رحلته الى الامارة

D'Arvieux, T. I. Introduction. P. XIV

(36)

Ibid, T. V. P. 40

(37)

(38) « De la Roque » يبدو انه كان كاتباً شهيراً آنذاك ، بحسب قول الناشر « لابا »

(Ibid, T. III. P. 2) الا انه لم يعثر له على ترجمة .

Ibid

(39)

العربية الحارثية قد نشرت وحدها في بادئ الأمر (40) ورأى «لابا» عندما قرر نشر مجموع المذكرات ألا ينشرها ضمنها ، وإنما يحيل القارئ الى ما نشره دولاروك ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك وقرر نشرها باصالتها. وشرح السبب الذي دعاه لذلك قائلا : « لم أكن آمل أن يستقبل الجمهور ما سأقدمه من تلك المذكرات بمثل ما استقبل به ما أمتعه به ذلك الأديب الكبير (يقصد دولاروك) . وكدت أفعل ، لولا أن بعض الأشخاص ممن أحترمهم ، أفهمني بأنه يجب ألا أترك الجمهور في الضلال الذي أوقعه به السيد دولاروك ، وأنتي ملزم بتصحيح ذلك الخطأ الوارد فيما نشره : فالقارئ للقسم الأول من «مذكرات الفارس دارفيو» يلاحظ بأنه في عام 1660 سويت قضية الكرملين (41) ، وكان السيد سوريب هو المكلف بذلك بصفته نائبا لقنصل فرنسا في صيدا ، السيد برتاندية Bertandier ، الذي كان غائبا آنذاك في بلاده ، ولم يكن المكلف بتلك المهمة « الفارس دارفيو » كما ذكر « دولاروك » ، وإذا كان « دارفيو » قد رافق « السيد سوريب » الى الأمير طرباي فقد كان ذلك بدافع الفضول فقط . وقد حل الأمر بيسر ، ولم يكن لدى مؤلفنا (أي دارفيو) الوقت الكافي كي يتعرف بالعرب ، أو يلاحظ عاداتهم وأخلاقهم وهذا التعرف لم يجر إلا في عام 1664 وللأسباب التي سنذكرها (42) فاذا كان الجمهور سيفتقد بعض طلاوة أسلوب « دولاروك » ، الا أنه سيراتح لمعرفة الحقيقة ، لأن توخي الحق ليس أقل قيمة وأهمية من متعة الأسلوب » (43) .

وفي نشر «لابا» لهذا القسم من مجموع المذكرات ، أتت رحلات « دارفيو » الثلاث الأخيرة الى الأمير محمد من آل « طراباي » ، وملاحظاته خلالها ، وحدة واحدة ، في الجزء الثالث منها . وقد شغلت 60 ٪ منه ،

(40) يبدو أن الباحث «موسى شارون» في بحثه المشار اليه آنفا ، قد اعتمد هذا الجزء المنشور من المذكرات دون غيره. وقد أورده تحت عنوان Voyage dans la Palestine. Amsterdam 1718 ولعله طبع طبعة ثانية غير التي أشار اليها «لابا» ، إذ أن هذه قد نشرت في أمستردام كما هو واضح لافي باريس ، وأن كان الزمن متقاربا . ولم يتح لي العثور على نسخة باريس أو أمستردام لموازنتها مع الأصل المنشور عام 1735 .

(41) انظر الرحلة الأولى لدارفيو الى الامير (زبن) من آل طرباي ، في الصفحة (8) من هذه الدراسة وقد وردت في المذكرات عام 1658 .

(42) انظر الرحلة الثالثة لدارفيو الى عرب جبل الكرمل - كما أسماهم - في الصفحة (12) من هذه الدراسة .

أي (340) صفحة من (558) وجاءت منسقة في عشرين فصلا ، ومحيطه بأغلب جوانب مجتمع الإمارة العربية الأعرابية (44) .

ولما كانت دراسة كل ما أتى في تلك الفصول عن الأحوال الاجتماعية في الإمارة العربية الطربائية ، وتحليله ، طويلا جدا على هذه الدراسة المحدودة ، ولاسيما أن البحث في كثير من الجوانب الاجتماعية يتطلب عادة صياغة وصفية وشرحا مستفيضا ، يستغرق الكثير من الصفحات ، فقد اقتصر فيها على طرح :

موجز سريع لما حملته تلك الفصول من ألوان اجتماعية أساسية ، مع بعض التعليق عليها .

يمكن تقسيم الفصول العشرين التي حوتها المذكرات الى قسمين ، بحسب طريقة عرض المعلومات فيها ، وصياغتها :

القسم الأول : ويضم الفصول الستة الأولى . وفيها يطرح « الفارس دارقيو » معلوماته بشكل حركي ، أي أنه يصف فيها مختلف الأحداث التي عاشها في ذلك المجتمع ، الصغيرة منها والكبيرة ، متسلسلة زمنا ، ومضافا إليها مشاهداته ، وتعليقاته ، وموازناته مع ما كان يجري في المجتمع الفرنسي بخاصة ، والأوربي بعامه .

(44) الفصول وعناوينها ، وصفحاتها ، كما أتت في الجزء الثالث من المذكرات :	
الفصل الأول :	رحلة الفارس دارقيو الى عرب جبل الكرمل وأسبابها ص 3
الفصل الثاني :	قصة حسن الملقب بالفرنجي 43.....
الفصل الثالث :	قصة بندقي شاب 57.....
الفصل الرابع :	محدثات «الفارس دارقيو» عند الأمير طراباي 64.....
الفصل الخامس :	رحلة الفارس «دارقيو» الى طرطورة 88.....
الفصل السادس :	حملة العرب ضد ثوار نابلس وأشراف «دارقيو» 97...
الفصل السابع :	عن العرب عامرة 144.....
الفصل الثامن :	عن الأمير طراباي وأسرته وحكومته 156.....
الفصل التاسع :	دين العرب 170.....
الفصل العاشر :	قرى الضيف عند العرب في مخيماتهم وفي القرى 179.....
الفصل الحادي عشر :	اخلاق العرب وعاداتهم 188.....
الفصل الثاني عشر :	احترام العرب للحياة 204.....
الفصل الثالث عشر :	عواطف العرب تجاه القطط والكلاب 223.....
الفصل الرابع عشر :	القضاء عند المسلمين وبخاصة العرب 228.....
الفصل الخامس عشر :	خيول العرب 239.....
الفصل السادس عشر :	مسكن العرب ومخيماتهم 254.....
الفصل السابع عشر :	مهن العرب 262.....
الفصل الثامن عشر :	ملابس العرب 286.....
الفصل التاسع عشر :	وسائل اللهو والتسلية عند العرب 320.....
الفصل العشرون :	الطب عند العرب 325.....

وقد يكون أبرز ماجاء عن الأوضاع الاجتماعية في تلك الفصول الستة ما يلي :

1 - وصف الفارس دارقيو « رحلته الثانية الى الأمير محمد طراباي » ، وسببها بالتفصيل ، وكيفية استقبال الأمير ، وأمراء الأسرة الآخرين ، وأعراب الامارة ، له بالحفاوة والكرم ، ثم طريقة حياته في المخيم العربي ، وتفصيلات عمله كاتبا لدى الأمير « محمد » وما أدخله من جديد في هذا الميدان ، ومسامراته الطويلة بالعربية ، مع الأمراء والأعيان عن بلده فرنسا ، ومملكه وقوة هذا الأخير العسكرية ، وجيشه البري والبحري ، وأسلحته ولاسيما المدفعية ثم حديثه معهم عن دينه ، وعن العادات في مجتمعه .

2 - تخصيص فصلين كاملين لقضية اجتماعية هامة من قضايا المجتمع العربي والأوربي آنذاك ، وهي قضية « الأسرى الفرنجة » لدى العرب المسلمين ، الناجمين عن عمليات الغزو البري البحري العربي بصفة خاصة واعتناقهم الاسلام قسرا أو حبا . وقد لامس « دارقيو » تلك القضية عبر تقديمه قصتي شابين ، أحدهما « مايورقي » وثانيهما « بندقي » ، رمتهما ظروف الغزو الى مخيم الأمير طراباي . أولهما تظاهر باعتناق الاسلام ، وثانيهما رغب به . وقد شرح « دارقيو » الطريقة التي كان يتم فيها اعتناق الدين الاسلامي من قبل أولئك الفرنجة ، وموقف العرب المسلمين من الأمر ، ومنهم ، « وعملية الختان » التي كانت تجري لهم وبقية الاحتفالات (45) وبدا « دارقيو » في هذين الفصلين وكأنه مبعوث ديني نصراني يسعى لمساعدة مثل هؤلاء الأسرى للبقاء على دينهم ثم معاونتهم بالاتفاق مع الرهبنات الدينية على الفرار الى بلادهم .

3 - رسم صورة « ثورة فلاحية » قام بها العرب المسلمون في قرى ريف نابلس ضد السلطة العثمانية ، ممثلة بأمير لواء نابلس ، لأنه اشتد عليهم في جبي الضرائب المترتبة ، وكان العام : (1664م/1074هـ) (46)

(45) انظر : الفصل الثاني ، والثالث من الجزء الثالث من المذكرات 43 - 63

(46) ليس في المصادر العربية المتوافرة ما يفيد بأن هذا العام كان عام جراد وقحط في بلاد الشام. والذي يدعو للشك والتساؤل حول هذا العام ، بأن دارقيو ربطه بوجود احمد باشا كوبرلي واليا على دمشق ، اذ هو الذي اصدر الأمر الى الأمير محمد بمساعدة أمير لواء نابلس في اخماد الثورة . الا أن احمد باشا كوبرلي ترك ولاية دمشق ليصبح صدرا أعظم عام 1072م 1661م ومن ثم فوالي دمشق عام 1074 هـ / 1664 م لم يكن أحمد باشا ، وانما كان مصطفى

عام قحط ، بسبب موجة الجراد التي احتاجت البلاد ، فأكلت الأخضر واليابس . وطرح «الفارس دارقيو» من خلالها كيف أسهم أمراء آل طراباي وعربانهم ، وقدرهم بأربعة آلاف مقاتل ، في قتال أولئك الثوار ، استناداً الى أمر أتاها من باشا دمشق ، لمساعدة « بك نابلس » الذي حاصره الفلاحون في المدينة ، وقد اشترك هو نفسه في القتال . والملفت للانتباه في وصفه تلك الثورة ، ومجريات القتال بأن الثوار ويقدرهم « دارقيو » بخمسة آلاف من سكان القرى المسلمين ، كانوا يقاتلون بالبنادق ، بينما عرب الأمير طراباي كانوا مسلحين فقط بالحرايب والفؤوس وبعض أسلحة أخرى غير نارية وأن العرب الأعراب المقاتلين باعوا الأسلحة التي غنموها ، كالبنادق مثلاً الى تجار دمشق المرافقين للمخيم وأن « دارقيو » ومرافقيه الثلاثة ، حاربوا بالبنادق ، وقد أكد أكثر من مرة ، بأن العربان كانوا حتى تلك المرحلة من الزمن لا يملكون الأسلحة النارية ، بل ويخشونها ويفرون اذا وجهها المسافرون المعرضون لسلبهم الى صدورهم (47) . الا أنه من المعروف من الوثائق العثمانية بأنه كان هناك عملية تهريب بنادق الى العربان في فلسطين منذ 979هـ / 1577م ويبدو أن الدولة العثمانية لم تسمح للعربان بالذات ، بحمل الأسلحة النارية ، خشية تمردهم عليها ، كما كان من الصعب آنذاك على الفرسان استخدام البنادق بسهولة وهم على ظهور الخيل (48) .

باشا القليلي . الا أن القحط كان موجوداً في ولاية دمشق فعلاً عند تسلم أحمد باشا الفاضل «الولاية» عام 1071هـ/1660م . فلما ان يكون «دارقيو» قد وهم في أسم الوالي ، وظلت موجة القحط والجراد متواصلة حتى عام 1074هـ/1664م - ومن المعروف أن موجة الجراد كانت تستديم لثلاث سنوات على الأقل - وإما ان يكون هناك خطأ في العام نفسه وهذا الأمر الأخير يطرح شكاً كبيراً حول تاريخ فترات اقامة «الفارس دارقيو» في مخيم آل طراباي ، ولا سيما ان هناك خلافاً بين ما نشره دولاروك عام 1717 ، وبين ما ادعاه «الأب لوبا» ناشر مجموع المذكرات، من تصحيح لها .

انظر : ابن جمعة : الباشات والقضاة تحقيق صلاح الدين المنجد في كتاب ولاية دمشق في العهد العثماني دمشق 1949 ص (1 - 69) . ص 38 - 39 .

- المحبي المصدر السابق . ج 1 / 352 - 353 ترجمة (أحمد باشا الكوبري) .

- ليلي الصباغ ، القعاليات الاقتصادية في فلسطين ، مصدر سابق . ص 276 والحاشية (83) (حول الجراد) .

- الصفحة (13 - 14) من هذه الدراسة (حول نشر «مذكرات الفارس دارقيو عن عرب جبال الكرمل») .

- مذكرات «الفارس دارقيو» (T. III P 100 - 101) حول ولاية أحمد باشا كوبرلي وامره بإخماد ثورة نابلس .

(47) D'Arvieux. T. II. P. 9, 263 ; T. III. P. 148, 262

(48) انظر : Heyd op. cit, 80 - 83. n° : 32, 33, 34, 34,

يؤكد أحد وصفي زكريا في كتابه عشاير الشام بأن أسلحة البدو كانت قديماً السيوف والرماح والسهم أما اليوم ومنذ نصف قرن (أي من مطلع القرن العشرين) ، انتشرت البنادق ، ويدعونها

- 4 - شرح تفصيلي لعملية غزو وتشليح قام بها أعراب الأمير تجاه مركب قبرصي كان متجها الى مصر ، ومحملا بالنيذ والجن ، رمته الأمواج على الشاطئ عند طنطورة (49) .
- 5 - وصف لرحلات القنص مع بعض أمراء آل طراباي ، وهي لقنص الغزلان والأرانب (50) .
- 6 - وصف تفصيلي للولائم التي أولت له من قبلهم ، وما قدم فيها من طعام وشراب (51) .
- 7 - حديثه المفصل عن تعاطي الأمير محمد طراباي لمادة البرش التي أسماها بـ Berge وهي مادة مخدرة ، كانت منتشرة في المجتمعين العربي والتركي ، وبين فئة الأعيان من السياسيين والعلماء والأدباء ومن يراجع كتب التراجم العربية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ السادس عشر والسابع عشر الميلاديين يتضح له هذا الانتشار ، وقد يكون الفارس « دارقيو » من المصادر القليلة التي أفادت عنها تفصيلا ، إذ شرح مادتها ، وشكلها ، والنبات الذي تستخرج منه ، وصناعتها ، وآثارها المختلفة على المدمنين عليها ، والطريقة التي على المدمن اتباعها إذا أراد التخلص منها ، إذ أنه أوصى الأمير بها عندما أبدى استعداده للاقلاع عن تعاطيها ، كما بين ارتفاع ثمنها (52) .

أما القسم الثاني من الفصول فيضم (14) أربعة عشر فصلا . وفيها

جرد « الفارس دارقيو » ملاحظاته عن الزمن ، وتسلسل الأحداث ، وقدمها على شكل دراسة اجتماعية وتعميمات ، استند فيها بالطبع على مشاهداته الجزئية المتكررة والمتنوعة ، وعلى ما جمعه من معلومات من الوسط الذي عاش فيه ومن ثم يلاحظ بعض تكرار في الفصول التي تترى بدءا من الفصل التاسع وحتى العشرين إذ ركز الحديث فيها على بعض أمور كان قد طرحها

(بواريد) جمع بارودة (ص 231) إلا أن أوليا جلبي يذكر في رحلته ان عربان آل طراباي وعدتهم 20,000 كانوا من رماة البنادق ، وذلك في عام 1082هـ/1672م ، أي بعد زيارة «دارقيو» بشناني سنوات (Eviya Chelebi, Op. cit., P. 88)

D'Arvieux, T. III. PP. 88 - 92 (49)

Ibid, PP. 97 - 98, 112 - 113. (50)

Ibid, PP. 90 - 91, 94 - 97, 111 - 112 (51)

Ibid. PP. 19 - 22, 133 (52)

وانظر حول البرش وتعاطيه في القرن السابع عشر ، ليلى الصباغ : من اعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول ، محمد الأمين المحيي دمشق 1406هـ/1986م ص 202 - 203 ، 265

بشكل موجز وسريع في الفصول السابقة ، أو في حنايا الجزئين السابقين من مذكراته . إلا أن هذا التكرار لا يرى ، إذا ما أخذت وحدها ، لأنها تكون وحدة واحدة ، يمكن فصلها عما قبلها ، وعما بعدها . وهي فصول حرة بدراسة تحليلية دقيقة ، لما حوته من معلومات وفيرة ، اتخذت محورا لها كثيرا من العادات ، والتقاليد ، والقيم السائدة عند الأعراب آنذاك ، والتي لا تزال قائمة حتى ساعتنا هذه ، لا في المجتمع العربي البدوي فحسب ، وإنما في المجتمع العربي الحضري أيضا ومن ثم فإن المصادر المعاصرة التي تصف الحياة الاجتماعية العربية البدوية بخاصة والحياة العربية الاجتماعية بعامه ، قبل أن تتأثر تلك الحياة بالحضارة الغربية وعاداتها وقيمها ، هي مصادر مدعمة لمذكرات « الفارس دارفيو » في كثير من الأمور المطروحة (53) .

وقد يكون من أبرز ما أتى في تلك الفصول :

1 - شرحه الغاية من كتابته لها . وهي غاية علمية كما تبدو لنا ، وسابقة جديدة في الفكر الأوروبي في تلك المرحلة من الزمن تؤيد بدء تحرره من مواقفه المتعنّة من العرب ، وأن بقيت فيه رواسب عميقة تجاه دينهم الاسلام ونيبهم محمد (ص) . فقد أكد « دارفيو » أن هدفه « هو ازالة الضلال العالق بأذهان الغربيين عن العرب ، إذ أنهم لا ينظرون اليهم الا على أنهم مشلحون للمسافرين والرحالة على الطرقات من متاعهم وملابسهم ، وأنهم أناس غير مهذبين ، ومتوحشين ، وظالمين ، وعنيفين ، ودون اخلاص ، وعواطف صادقة » (54) وأنه أراد من خلال معرفته الدقيقة بأحوالهم أن يظهر - إذا طرح جانبا غزوهم للمارة على الطرق ، الذي له

(53) ان تلك المصادر العربية والأجنبية كثيرة ، ومنها على سبيل المثال فقط بعض ما يخص عربان الشام وفلسطين والبلاد العربية .

1 - أحمد وصفي زكريا : عشائر البدو في الشام ، جزءان دمشق دار الفكر 1403هـ / 1983م ومقدمته .

2 - مصطفى مراد الدباغ : القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين . بيروت 1399هـ / 1979م .

3 - عبد الجليل الطاهر : البدو والعشائر في البلاد العربية . القاهرة 1955 .

4 - أحمد أبو خوصة : بير السبع والحياة البدوية جزءان عمان 1976 - 1979

5 - عارف العارف : تاريخ بير السبع وقبائلها . القدس 1934 .

(54) T. III. P. 188

لا بد من الإشارة هنا بأن رأي العرب بالأوروبيين آنذاك - على ما يبدو من كلام «دارفيو» - لم يكن أحسن حالا من رأي الأوروبيين بالعرب . فقد ورد في مقابلة بين «دارفيو» والأمير محمد طرباي» بعد قدومه إليه ، بأن قال الأمير لحاشيته ، وأمام دارفيو : «لا أرى أن الفرنجة

أسبابه ومسوغاته - بأنهم من أفضل الناس ، وأنهم أناس متمدنون على طريقته ، ومضيفون ، وأوفياء لوعودهم وشرفاء . (55) وهم من أكثر الشعوب عراقا وعددا ، وأن الأوربيين يدينون لهم بأفضل ما لديهم في ميادين الفلك والطب وعلوم أخرى ، وإذا كانت العلوم غير مزدهرة لديهم في ذلك الوقت ، فاللائمة تقع كلها بحسب رأى « دارفيو » على طغيان الأتراك ، الذين جعلوهم في حالة لا تسمح لهم بالانكباب عليها ، على الرغم من ماضيهم المشرف فيها ، وعلى الرغم مما وهبتهم إياه الطبيعة من قدرات فكرية وجسمية ، لتحقيق تقدم لا نهائي في مجالها . وعلى الأوربيين أن ينزعوا تلك الأحكام المسبقة ، والمغلوطات عنهم من أذهانهم وأن يقوموا تقويما عادلا وسليما هذا الشعب الذي يتمتع بفكر حي ونظرة ثاقبة ، وقوة محاكمة (56) ؛ ويظهر هنا كرهه للأتراك العثمانيين وأضحى .

2 - بحثه عن أصل العرب ، وعلى الرغم من كثير من الأغلاط التاريخية الواردة في دراسته تلك (57) ، وعلى الرغم من مهاجمته للرسول محمد (ص) ، وللدین الاسلامي (58) ، فانه أقر بأن العرب في فلسطين وسورية والعربيات الثلاث ، وأفريقية هم من أصل واحد (59) ، وبذلك ثبت الاصلالة الواحدة لسكان البلاد العربية .

3 - وصفه للممارسة الواقعية للدين الاسلامي عند العرب الأعراب (60) وبين أن هؤلاء الأعراب كانوا لا يستمعون في دراسة العقائد لجهلهم ،

متوحشون جدا كما يصفونهم لنا فنحن نستخدم اسمهم لخيف أطفالنا ، وانتم ترون بأنهم شرفاء جدا (يقصد دارفيو) وان لهم مثلنا الفهم الحسن ، والأدب ، والتعقل ، فأجاب «دارفيو» بأن من أهم الفوائد التي يحصل عليها السائح من رحلاته ، هي التخلص من الأحكام المسبقة السائدة في بلده تجاه الأجانب ، والتي لا يمكن لمن لا يخرج خارج بلاده من التحرر منها ففي فرنسا مثلا يتخيل بأن ليس للعرب وجه انسان ، (هكذا !) T. III. P. 15-16

Ibid P. 143

(55)

Ibid P. 189 - 190

(56)

(57) من تلك الأغلاط والنواقص انه رد أصل العرب كلهم الى «اسماعيل بن ابراهيم» أي الى «عرب الشمال» ولم يشر الى «عرب الجنوب» كما أنه نظر الى التركمان على أنهم عرب من نوع آخر ، وبذلك دمج «العرب» و«البدواة» في مضمون واحد .
أنظر بعض التفصيلات الأخرى في ليلى الصباغ : فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو ، البنية الطبيعية والبشرية . ص 47 . بحث أشير اليه في الحاشية (1) من هذه الدراسة .

(58) انظر الحاشيتين (15) و (16) من هذه الدراسة .

Ibid, P. 146

(59)

(60) انظر (الفصل التاسع) من (الجزء الثالث) من المذكرات 178 - 170 P. .

اذ أن قلة منهم كانت متعلمة ، ومن ثم فهم ينصرفون الى العبادات التي يؤدونها تقليدا ، وبعض التحرر من شروطها ، كما في الصوم والصلاة . ويتكلم بصفة خاصة عن الختان ويصف الأمر وصفا دقيقا ، ويرى بأنه من الطقوس الإسلامية الرئيسة . وفي حديث ، « دارقيو » عن ممارسة الأعراب للدين الإسلامي أمور كثيرة صحيحة ، الا أن فيه بالمقابل أمورا مغايرة تماما للحقيقة ومشوهة ، كتأكيده بأن الدين الإسلامي أعفى النساء من الصيام وحرمنهن من الجنة (61) .

4 — تخصيصه فصلا خاصا للضيافة وواجباتها ، وعاداتها ، عند العرب البدو في مخيماتهم المتنقلة (62) ويطابق ما قاله في هذا الشأن ، المعروف والمتداول عن عادة قرى الضيف عند العرب ، التي هي من أساسيات قيمهم الاجتماعية منذ العصر الجاهلي ، وجاء الإسلام فثبتها (63) ولم يقصر حديثه على الضيافة عند العرب البدو ، بل مده الى الضيافة عند المستقرين في القرى ، مسلمين ، أم نصارى ، وما يقدمونه عادة متها للمارة والمسافرين (64) .

5 — وصفه في فصل خاص أخلاق العرب وعاداتهم (65) ، وفيه يعود « الفارس دارقيو » الى الدفاع بحرارة ومنطقية مقنعة عن أخلاق العرب الطيبة والمهذبة تجاه الأفكار السيئة التي كونها الأوربيون عنهم دون أساس ، ودون دراسة ، ومعرفة تجريبية . وهو ينعت العرب في هذا المجال ، بالجذبة والرزانة ، وعدم حبهم للضحك ، وقلة تقبلهم للفكاهة ، وعشقهم للحربة ، وانسيابهم مع سجيته دون تكلف . ويتحدث عن تحيتهم الحلوة ولو أنها طويلة وفيها تكرار ، وطريقة وقوفهم المؤدبة أمام الآخرين ، ورفضهم لحركات الجسم والأيدي أثناء الحديث ، واحترامهم الكبير لعلاقة الخبز والملح ، واصرارهم على التعامل بالمال الحلال ، الذي لم يدخله الربا والغش . ويكرر في أكثر من مناسبة نفورهم من سفك الدماء ، الا أنه

(61) انظر الحاشية (16) من هذه الدراسة ، و Ibid, P. 175

(62) انظر (الفصل العاشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات . 179 - 187 .

(63) انظر حديث الرسول (ص) : من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر ، فليكرم ضيفه جائزته ، قالوا : وما جائزته يا رسول الله ؟ قال : يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام ، فسا كان وراء ذلك فهو صدقة عليه . صحيح مسلم بشرح النووي 18 جزءا . د. ت. ج 11 / 30 - 32 .

(64) انظر الحاشية (25) من هذه الدراسة .

(65) انظر (الفصل الحادي عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 188 - 204 PP.

إذا حدث لهم ذلك ، فالويل للقاتل ، إذ أن عادة الثأر متأصلة في ذاتهم ، ولا تنفع أية وساطة فيها . ومن عاداتهم التي رآها « دارقيو » مستحبة وتدل على تهذيب خلقي ، بأنهم لا يسمحون لأنفسهم مهما كانت الظروف أن يلجؤوا الى البصاق ، والمخاط أمام أحد يحترمونه . وما أثار فضوله بصفة خاصة بأنهم لا يتقبلون أبدا ، ومهما كانت الدوافع ، اخراج غازات البطن بصوت أمام أحد ولذا وقف طويلا أمام هذه الناحية . وبين عدة قصص عانى بعضها ، ورويت له أخرى ، بأن هذا الأمر إذا حدث ، ولو غضبا ، فانه يمثل وصمة عار على صاحبه ، وأسرته ، لن ينسى عبر الأجيال ، ولا تغسله الأيام . وفي الواقع لا يزال مجتمعنا الدمشقي يتداول بعض الروايات التي ذكرها حتى وقتنا الحاضر .

6 — اهتمامه بالالتحاء عند العرب (66) ، وييدي أسفه على ترك المجتمع الأوربي لتلك العادة ، ويوازن بين موقف الأتراك الذين كان لا يلتحي منهم الا فئة معينة ، وبين العرب واحترامهم الشديد والمبالغ فيه للحية ، حتى كانوا يقسمون بها . وأوضح بالذات الأسباب الدينية وراء ذلك . ومعظم ما قدم في هذا الباب صحيح ، بل انه في دمشق كان يجري احتفال معين عندما تظهر لحية الشاب (67) .

وانتقل دارقيو في الفصل ذاته الى حديث فيه كثير من التفصيل الذي قد لا يرى في مصادر أخرى عن « الحلاق » وعمله في المجتمع آنذاك .

7 — ابرازه موقف العرب من الحيوانات ؛ فقد بين عنايتهم بمواشيهم من الابل ، والغنم والماعز والثيران لأنها مصدر حياتهم و ثروتهم ، فتربيتها من أعمالهم الأساسية (68) وركز في فصل خاص على جهودهم الكبيرة في تربية « الخيل » التي هي عزيزة عليهم معزة أولادهم . ودخل في ثانيا عنايتهم بها ، وطرق رعايتها ، وكيف يحفظون شجرة نسب كل فرس ، ومدى أصالتها . وهذا الفصل (69) لا بد أنه أثار المجتمع الأوربي آنذاك

(66) انظر (الفصل الثاني عشر) من (الجزء الثالث) 204 - 223 ص .

(67) انظر : ابن كنان : الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والـ الف مية مخطوط بجزئين في مجموعة مكتبة برلين تحت الرقم :

1115. we 9480 1114, we 9479 / ج 1 ص 131 و 170 T

وانظر : أحمد وصفي زكريا : عشائر الشام ص 290 .

(68) D'Arvieux. T. III. P. 262.

(69) أنظر (الفصل الخامس عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 239 - 253 .

الذي شرع اهتمامه يتزايد بالخيل العربية وكيفية تربيتها . وإذا كان قد خص العناية بالخيل بتفصيل واف ، وهو أمر معروف ومشهور عن العرب ، فإنه أفرد فصلا أيضا لحديثه عن عواطف العرب تجاه القطط والكلاب (70) وأوضح تعاطف العرب مع القطط ، التي كان على ما يبدو ، يكرها هو وبين الأسباب الدينية لذلك التعاطف المستمدة من حديث الرسول (ص) (71) ، مع بعض غمزات غير محبة تجاه ذلك الحديث . كما شرح نجاسة الكلاب وتجنب لمسهم لها ، والأسباب الدينية لذلك وبين كيف أن هذا لم يمنعهم من استخدامهم لها في القنص ، وفي حراسة المخيمات (72) .

8 - ملاحظاته حول المسكن عند العرب الأعراب . وبين ضمن

الفصل (73) الذي أفرد له ، بأنه الخيمة (بيت الشعر) وشرح المادة التي تصنع منها ، ثم أوضح بدقة كيف أن المخيمات كانت أشبه بقري ، أو مدن صغيرة متنقلة ، وأنه يتبع فيها مخطط واضح . وأظهر إعجابه بطريقة العرب السريعة في فك بيوت شعرهم عندما يريدون تبديل مواقعهم طلبا للكلأ والمرعى . وأكد سيادة الأمن في داخل تلك المخيمات ونوع الأثاث البسيط المستخدم في الخيمة (74) .

9 - ومن المسكن ، انتقل « الفارس دارقيو » الى حرف العرب (75)

وقد أجملها في ثلاث : الإهتمام بتربية مواشيهم ، واتباع أميرهم في عمليات القتال التي يستدعي اليها لصالح الدولة العثمانية ، وثالثها وقد يكون أهمها ، وهو السطو على السابلة في الطرقات العامة وتشليحهم كل ما يملكون . وفي هذا المجال كان يتحدث حديث خبير عانى التجربة بنفسه ، وشاهدها ، وسمع عنها أكثر من مرة ، ويشير الى طريقة اقتسامهم الغنيمة ، ثم عودة كل واحد الى مخيمه ليتحدث بفخر عن مغامراته (76) .

(70) انظر (الفصل الثالث عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 223 - 228 .

(71) انظر حول ذلك حديث الرسول (ص) «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار لاهي أطعمتها وسقتهها اذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» . صحيح مسلم ج 4 / 240 .

(72) انظر حول موقف الدين الإسلامي من الكلاب صحيح مسلم ج 10 / 235 - 241 وج 14 / 94-95

(73) انظر الفصل (السادس عشر) من الجزء الثالث من المذكرات . ص 254 - 261 .

(74) T. III. P. 259

(75) انظر : (الفصل السابع عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات 262 - 286

(76) انظر : Ibid, PP : 262 - 268

وفي الفصل الذي خصه بحرف العرب وأعمالهم تحدث « الفارس دارثيو » بأسهاب نسبيا عن الطعام عند العرب ، وأنواعه ، ومواده الرئيسة ، وطريقة الطهو ، والشواء ، وأبرز الأطعمة (77) كما وصف ما يشربون وأكد أنهم يشربون الماء ، ولا يتناولون الخمرة لأسباب دينية ، ولعدم توافرها لديهم ، إلا أن غير المتعصبين دينيا قد يشربونها ويسعون لإيجاد مسوغ لهم . وبالفعل فقد شربها مع « دارثيو » بعض الأمراء والأعيان . وتحدث عن مشروبهم المفضل القهوة وكيفية صنعها، وأنها تفضل صناعة الأوربيين لها ، كما بين مشروباتهم الأخرى المركبة من أنواع من عصير الفواكه (78) :
وقد أكد على مادتين كان العرب يتعاطونها وهما : الدخان الذي دخل البلاد العربية المشرقية في أوائل القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي (79) وانتشر بين العرب الأعراب على ما يبدو من حديث « دارثيو » انتشارا كبيرا حتى تعاطاه النساء والرجال ، والأطفال (80) بل إن « دارثيو » أشار إلى أن الخيول نفسها كانت تلتذذ برائحته (81) والمادة الثانية هي البرش ، وقد أشير إليه سابقا (82) إلا أنه لم يذكر انتشاره في أوساط العامة انتشار الدخان فيها . وفي هذا الفصل أيضا تطرق إلى آداب المائدة عند العرب ، وطريقة جلوسهم وطعامهم (83) .

10 - ولم يفت « دارثيو » في وصفه للأحوال الاجتماعية عند العرب الأعراب ، أن يحيط بملابسهم ، ملابس الرجال والنساء على حد سواء ، وملابس العامة والخاصة وكان ملاحظا دقيقا في تتبعه لها ، وبيان قماشها وتفصيلها (84) .

11 - ولم ينس « الفارس دارثيو » « وسائل اللهو والترفيه » فأفرد لها فصلا (85) وتحدث عن تلك الوسائل عند الرجال وتجميل بانصرافهم إلى قنص الغزلان ، والأرانب ، والخنازير البرية ، وإلى لعب الشطرنج ،

Ibid, PP. 268-282 (77)

Ibid, PP. 273-277 (78)

انظر : ليلى الصباغ : من أعلام الفكر العربي : المحيي / 204 - 206 . (79)

D'Arvieux, T. III. P. 282 (80)

Ibid, P. 251 (81)

انظر الحاشية (52) ، ومنها . (82)

D'Arvieux, T. III. P. 282 - 286 (83)

انظر : (الفصل الثامن عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 286 - 320 : (84)

انظر : (الفصل التاسع عشر) من (الجزء الثالث) من المذكرات . ص 320 - 399 (85)

والمنغلة (من لعب الضامة) ، ولعبة العصي . أما عند النساء فيأتي في الدرجة الأولى التزاور والحديث فيما بينهن (أو التثرثرة كما يسميها) ، وشرب القهوة ، والتدخين ، والغناء والموسيقى ، ولو أن الأمرين الأخيرين لا يقتصران عليهن ، بل إن الرجال ينصرفون أحيانا إليهما . وتحدث في هذا الفصل عن أنواع الأدوات الموسيقية المستخدمة ، والألحان المغناة ، وزغاريد النساء . وأفرد صفحات أوصف زيارات الأميرات لبعضهن بعضا ، والاحتفالات التي كانت تجري بهذا الشأن .

12 - ولم يغفل الفارس « دارثيو » في صورته الاجتماعية العديدة التي قدمها ، الاحاطة بالبنية الجسمية عند العرب ، ومدى تعرضهم للأمراض ، ثم الطب لديهم (86) . وأكد عدم تفشي الأمراض بينهم وبين أطفالهم بكثرة كما كان عليه الحال في أوروبا ، ومن ثم فهم يعمّرون مدة طويلة . ويعزو ذلك الى الاعتدال في طعامهم وشرابهم - وهذا ما لا يرى في القارة الأوروبية - لا الى ارتقاء الطب عندهم ، فالطب الممارس لا يزال أوليا ، ولا يعتمد على ما قدمه كبار الأطباء العرب السابقون ، من أمثال ابن سينا ، فهم لا يزالون يعتمدون على الرقي والتماثل . ويغلق هذا الفصل بالحديث عن الموت ، ووصفه مراسيم الجنازة والدفن ، وأخيرا توزيع الميراث .

13 - جاء « الفارس دارثيو » هنا وهناك ، وفي أكثر الفصول على ذكر المرأة الأعرابية ، دون أن يخصها بفصل . وعلى الرغم مما يبدو من موقفه السلبي من المرأة بعامة ، والأوربية بصفة خاصة ، فإنه أبدى إعجابه بالمرأة العربية ، لطاعتها وانقيادها لزوجها ، حتى أنه رأى أن يحضر أمراء فرنسا بضع مئات من هذه المرأة الى بلادهم ، ليعلمن نساءها عن طريق القدوة ، الفضائل التي يجب أن يتمتعن بها (87) . كما أبدى تقديره الكبير لأعمالها الكثيرة والمضنية . وقد وصف صورتها الجسمية وما يطرأ عليها من تشويه ، ولا سيما قوامها ، نتيجة عدم العناية به . كما أسهب في وصف لباسها ، وزينتها ، وحجابها ، وكيفية خطبتها ، وزواجها ، وكيف هي مورد رزق لأبيها عن طريق استيلائه على مهرها (88) ، وكيف هي

(86) انظر : (الفصل العشرين) من الجزء الثالث) من المذكرات ص 329 - 340 .

(87) انظر : T. III, PP. 35 - 36

(88) ان ما أورده «دارثيو» متفق مع ما يجري حتى الان فالعروس تشتري بأثمان باهظة أنظر عشائر الشام 212 - 213 .

عار على أهلها من أب وأخ أكثر مما تكون عارا على زوجها اذا ما ارتكبت عملا مشينا (89) .

ان ذلك العرض المقتضب لما رسمه « الفارس دارفيو » من « صور الحياة الاجتماعية » في اماره بني حارثة ، خلال العقد السابع من القرن السابع عشر الميلادي ومعظم تلك الصور لا يزال قائما حتى وقتنا الحاضر في المجتمعات العربية البدوية كما تثبتته المصادر المعاصرة اليوم ، يعطي فكريا عن كثير من جوانب مجتمع تلك الامارة . الا أن تلك الصور تبقى باهتة ، وجامدة ، لأنه ينقصها الوصف التفصيلي الذي يوضح فيها اللون ، ويث الحياة ولذا فانه سيعمل على ترجمتها بنصها كاملا ، ونشرها قريبا مع التعليق عليها .

ومع ذلك ، فلو اقتصر على تلك الصور فقط ، فقد يرى المؤرخ الاجتماعي بأنها ، على الرغم من تعددها ، تفتقد صورة الهيكل العام لبنية المجتمع . أو بتعبير أبسط ، الفئات الاجتماعية التي يتكون منها ، وعلاقتها بعضها ببعض ، وكيفية سياسة أمورها ، ولا سيما أن الامارة لم تكن آنذاك مماثلة في بنيتها للامارات البدوية العربية العادية ، المنفردة بشؤون مجتمعها الأعرابي وأموره الداخلية ، وانما كان لها صلات بعناصر سكانية غير أعراية تسكن منطقتها ، كما أن لها علاقات بسلطة أعلى تتبع لها ، ألا وهي الدولة العثمانية . فصحيح أنها اماره عربية أعراية ، الا أنها في الواقع الفعلي كانت دويلة في طور التكون ، وعليها أن تمارس علاقات متنوعة ليست ذات صفة أعراية فحسب .

والمتتبع لدقائق ما أتى في « مذكرات الفارس دارفيو » عن مجتمع هذه الامارة ، يرى بأنه لم يتغاض عن طرح ذلك الهيكل العام ، أو الصورة التركيبية للبنية الاجتماعية لمجموع الامارة ، الا أنه لم يأت بها متكاملة ، أو مجمعة الخطوط في فصل واحد خاص كما فعل بالصور السالفة الذكر ، انما أتى بها متناثرة هنا وهناك . ومن ثم سعي لجمع شتاتها .

ويتبين من ذلك التبع أنه يمكن تمييز خمس فئات اجتماعية رئيسة في مجموع الامارة وهي : فئة الأمراء ، فئة الشيوخ والأعيان ، وفئة العامة

(89) ويؤكد هذا ما ورد في كتاب عشائر الشام : 279 اذ أن جريمة المرأة تمود مسؤوليتها على ذوبها ولا يسأل زوجها أو أولادها عما أوقته من الجرائم .

من مجموع الشعب ، وفئة الخدم ، وفئة الغرباء . وفي الواقع قدم «دارقيو» معلومات متناثرة كثيرة عن تلك الفئات ، ولكن لما كان الوصف والتحليل لكل فئة يفيض عما هو مقرر لهذه الدراسة من حجم ، فانه سعي لطرحها كما طرحت الصور السابقة بشكل موجز على أن تنشر قريبا مفصلة ومحللة ، مع الترجمة المقترحة لمجموع الفصول المبينة سابقا .

الفئة الأولى ، فئة الأمراء : وتتكون من أمراء الأسرة الحاكمة وهي أسرة طراباي (90) . وقد بين «الفارس دارقيو» أن عددهم في زمنه كان (18) ثمانية عشر أميراً ، تربطهم رابطة النسب المستندة الى قرابة الدم : فهم أما اخوة ، أو عموم ، أو أولاد عم . وكان كل واحد يرأس فرعا من الأسرة ، الا أن الأمير الأعلى لمجموع العشير ، هو عادة الابن البكر من الفرع البكر من الأسرة . ويعترف الأمراء الآخرون بسلطته ، ويحترمونه ، ويطيعونه في كثير من الأمور ، بعد التداول فيها معا بطريقة شورية ، ومنها بصفة خاصة أمور القتال التي تأتيه أوامر من السلطة الحاكمة العثمانية بالإسهام فيها . الا أن سلطة هؤلاء الأمراء على حواءاتهم الخاصة (91) ، وأعرابهم المرتبطين بهم فمطلقة ، ولا يتداخل فيها الأمير الكبير . وهذا الأخير هو الذي كان يلقب بـ «الأمير» مجردا من أي اسم ، بينما يضاف اسم كل أمير آخر الى هذا اللقب ، فيقال مثلا «الأمير درويش» . وقد كان الأمير الكبير يحمل الى جانب لقبه هذا ، لقبه الرسمي (بك الصنجق) (أمير اللواء) ، الذي انعمت عليه به الدولة العثمانية ، وهذا يعطيه الحق في خوض المعارك بجيشه الخاصة تحت راية السلطان ، وأن يحمل طوغا واحدا ، ويكون له عدد من الأبواق والطبول والزمور ، تقرر على بابه في نوبات معينة (92) .

والأمير الكبير والأمراء يعيشون تحت الخيام (93) ، أو بتعبير البدو ،

(90) انظر : الحاشية (7) من هذه الدراسة ، (الفصل الثامن) من (الجزء الثالث) من المذكرات ص 156 - 170 .

(91) الحواء : هو الاسم الذي يطلقه العرب البدو على مخيماتهم ، وقد يسمونه «الحلة» و«النجع» و«الدوار» . أحمد وصفي زكريا : عشائر الشام / 195 .

(92) T. II. P. 292, T. III, PP. 81, 163

(93) قد لا يتفق هذا مع ما أتى في رحلة أوليا جلبي التي جرت عام 1082هـ / 1672م ، أي بعد زيارة «دارقيو» الأخيرة لآل طراباي بست سنوات (آخر رحلة لدارقيو كانت 1666م) ، ويبدو كذلك أنها بعد وفاة الأمير محمد (1082هـ / 1072م) ووصول ابن أخيه الى الإمارة فقد ذكر أوليا جلبي أن أمير طراباي كان يقيم في حصن جنين . وقد دعا هذا الأمير - الشيخ

في بيوت الشعر (94) ، على الرغم من أنه كان ضمن اقطاع الأمير « محمد بن طرباي » قصر جميل جدا ، بغرف واسعة وأنيقة ، كان قد بناه سابقا الأمير فخر الدين المعني الثاني ، عندما ساد هذه البلاد . وكان بإمكان الأمير ، - من وجهة نظر « دارفيو » - أن يحوله الى مسكن لائق بأمير ، لو أنه عمل على ترميمه ، وأنفق بعض المال على تحسينه ، ولكنه كان لا يرغب في ذلك ، لأنه « ليس من عادتهم أن يسجنوا أنفسهم في المدن ، والبيوت ، داخل الجدران » (95) .

ويوضح « الفارس دارفيو » علاقات هذا الأمير بالسلطة العثمانية من ناحية ، وبجيرانه من الأمراء الآخرين من ناحية ثانية ، وبعامه شعبه من ناحية ثالثة : فهو بعلاقات طيبة مع السلطنة وتدعمها الهدايا المتبادلة بين الطرفين (96) وعلاقاته علاقات ود وصداقة مع الباشوات جيرانه ، ولا سيما باشا غرة ، ويتقبل منهم الهدايا ، ويبحث بها اليهم (97) أما صلاته بشعبه فتتلخص بقول « دارفيو » : « يقارن هذا الأمير والأمراء الأعراب الآخرون بالأسباد الذين يقيمون على أرضهم ، ويعيشون مع أتباعهم وكأنهم

- كما يسميه - الرحالة الى «بيت الحكومة» الواقع في قصبة «آل طرباي» ، عبر الجبال غربي جنين . وأضاف بان عدد اعرابه كانوا نحو 20،000 من رعاة البنادق بما فيهم الفرسان ، وكان هؤلاء يستطون خيولا كحيلة . وبيوتهم مبنية من الطين والجير ، وعددها (700) بيت . وفي هذه القصبة مسجد جامع ومساجد أخرى كما فيها دكاكين صغيرة ، وحدائق وبساتين . وكان أوليا جلبي ضيفا على الأمير الليلة واحدة . واهداه الأمير حصانا ، وخمسين قرشا ، وكرتيا مخططا (الكركي : ثوب ، أو معطف بفراء) Evlya Chelebi op. cit p. 88 من المعروف ان مدينة جنين هي من مستوطنات آل طرباي الأولى ، ومعظم أمراء الأسرة قد دفنوا فيها (انظر : المحبي ج 1 / 222 - أوليا جلبي المصدر نفسه 87 - عبد الغني النابلسي : الحضرة الانسية في الرحلة القدسية» . مخطوطة في مكتبة الأمد بدمشق ، تحت الرقم 6844 ، ص 19 ب . فهل أثر الأمير طرباي في المرحلة التي تلت رحيل الفارس «دارفيو» أن يقيم في حصن (جنين)؟ ومن المعلوم أن الدولة العثمانية عندما حولت الخان في تلك القرية عام 1564/972 إلى حصن كانت راغبة في ان يقيم فيه أمير صنتق اللجون لأن جنين هي في الطريق الى القدس ومصر ، وقرية من لواء عجلون (56) Heyd, op. cit. P. 104 ؟ هذا مع العلم بأن «دارفيو» لم يشر الى هذه القرية . وهل تحول أعراب آل طرباي الى عرب مستقرين فسكنوا البيوت من الطين والجير ، كما ورد في رحلة «أوليا جلبي» ؟ إننا لانملك الآن مصادر تؤكد هذا الأمر أو تنفيه ولا بد من البحث في احداث المنطقة في تلك المرحلة ، لتفسير هذه الظاهرة الاجتماعية اذا صحت . (94) لا يستخدم اليدو كلمة «خيمة» ولا «مضرب» ولا «فسطاط» ولا غيرها مما جاء في كتب اللغة للدلالة على مساكنهم ، وانما يستعملون كلمة «بيت» أو «بيت شعر» انظر عشاير الشام / 195 .

(95) T. III. P. 167 ويذكر «دارفيو» متفاخرا بأن الأمير «محمد بن احمد طرباي» قد عرض عليه البقاء لديه وهو مستعد لمنحه هذا القصر ، وأراضي ، وفري .

(96) T. III. P. 153 - 154

(97) T. II. P. 70, T. III. P. 160

أسرة واحدة طيبة ، لا على أنهم أسياد مطلقو السلطة (98) فهو يعيش معهم دون تكلف ، ودون تعال ودون غرور ، وهو عادل لا يفرق بين واحد وآخر ومن ثم كان يسود قلوب رعاياه ، مع شعورهم بهيبته ، على الرغم من أنه لم يقتل أحدا منهم ، اذ أن أقصى عقوبة كان يطبقها هي ربط المجرم كما تربط الخيل . وكان يقول « بأن انسانا له قلب يشعر به ، يكون عقابه ، اذا ما عومل معاملة الحيوانات ، أشد مما لو انتزعت منه الحياة . » ومن ثم فهو يطاع بدقة أكبر مما يطاع أولئك الذين يستخدمون الحديد ، والعقوبات القاسية جدا (99) .

ويشير الفارس دارثيو هنا وهناك الى التنظيم الاداري لشبه الدولة الاعرابية هذه ، وما تضم من موظفين رئيسيين تحت امرة الأمير كالشيوخ في القرى ، والصباشي في بعض المدن كحيفا مثلا (100) وجباة الرسوم المختلفة وملتزميها (101) ، كرسوم الخفارة (102) وكتبه الخاص ، والكتاب عند الأمراء الآخرين . ويبين كيف كانت الرشوة متفشية ، كما هو الحال في مناصب الدولة العثمانية ، وبصفة خاصة لدى « كاتب الأمير » ، الذي كان أشبه بسكرتيره الخاص ، وترجمانه لدى المبعوثين الأتراك ، وصلة الوصل بينه وبين شعبه . فقد كان لا يحل قضايا هذا الشعب لدى الأمير الا مقابل أموال وهدايا ينتزعها من أفرادها (103) :

ولم ينس « دارثيو » أن يتحدث عن البنية الاقتصادية لهذه الفئة من الأمراء ، فأوضح أن ثروتهم تتركز فيما يمتلكون من مواش مختلفة : كالابل ، والغنم ، والخيول العربية الأصيلة (الكحيلان) ، والابقار والماعز ، وأنهم يتاجرون بها ، وقد خرون من ذلك مالا يحاونه مباشرة

(98) T. II. P. 290

(99) T. III. PP. 159 - 160.

(100) T. II. P. 11

(101) Ibid. P. 15

(102) هو أشبه برسم المرور ويقصد بالخفارة الحماية وفي الأصل كان يتقاضى هذا الرسم مقابل حراسة المسافرين (خضرم) . وكان يؤخذ منهم وفي بعض المراكز التي لا بد للمسافرين من المرور فيها كمثليات مثلا ، وعيون التجار وطبرية ، وقيصرية وغيرها ولقد أشار «دارثيو» بأنه عند وجوده وزملاءه في قيصرية اجتمع بأعراب على رأسهم نائب ابن الأمير على رأس فئة من الفرسان وقد طلبوا منه ومن زملائه حق المرور فأعطوه وهو ثلث قرش على كل فرنسي الا أنهم لم يرضوا بذلك وطلبوا من كل واحد قرشا (T.II.P.18-19) وفي عيون التجار اعفاهم الصباشي منه لمعرفته بدارثيو ، وكان قرشا على كل مسافر (Ibid. P. 279) .

(103) T. III. P. 78.

الى نقد ذهبي (104) ويضيف بأن للأمير واراداته من الضرائب والرسوم ، وأن الفلاحين في امارته يقدمون له ضريبة العشر dixme عينا أى حبوبا من القمح والشعير بصفة خاصة (105) . ويخلص الى القول ، بأن فئة الأمراء ليست ثرية جدا إلا أنها تعيش في مستوى أكثر رفاهاً وترفا من شعبها (106) .

وقد ركز دارفيو اهتمامه على القضاء بصفته جزءا من العلاقة بين الأمراء والرعية (107) . فقد أكد أن السلطة القضائية هي بيد الأمراء في الديارات ، وبيد الشيوخ في القرى . فكل أمير هو الذي يفصل في المنازعات بين أعرابه ، وحكمه لا يستأنف لدى الأمير الكبير . أما حكم الشيخ فيمكن أن يستأنف لدى الأمير الذي يتبعه الشيخ وقد سلط أضواء على الأمور المتنازع حولها عادة ، وهي مختلف الأمور التي تخص التجارة بصفة خاصة ، بينما المنازعات حول الأرض فقير موجودة لأن قلة منهم فقط هي التي تملكها ، وأن التحكيم أساس هام من أسس حل المنازعات ، ووازن بين قضائهم والقضاء عند الأتراك العثمانيين ولدى الفرنسيين ، وأشار الى العقوبات المطبقة في الأحوال المدنية والجنائية ، وتتراوح بين الفلقة (الضرب على أسفل القدمين) والشتق ، والخرق ، والخوزقة ، وقطع الرأس ، وحلق اللحية (108) .

الفئة الثانية وهي فئة الشيوخ والأعيان (109) : وهي دون الفئة الأولى مقاما وسلطة وهي ليست كبيرة العدد بالطبع . ولا يقدم الفارس

(104) Ibid. PP. 165 - 166, 235

(105) Ibid, P. 164 - 165

ويرى «دارفيو» بأنها ضريبة معتدلة ، ومايأتي الأمير من الواردات قليل وقد لا يتجاوز سنويا (100,000) إيكو (ويعادل الإيكو تقريبا القرش) . ولو أنه من المعروف بأن الضريبة كانت تتراوح بين ربع المحصول ونصفه .

(106) Ibid. P. 234-235

(107) خص القضاء بفصل خاص هو (الفصل الرابع عشر من الجزء الثالث) ص 228 - 238 .

(108) (Ibid, P. 234) يذكر دارفيو ان عقوبة الحرق بروت البقر عقوبة قاسية وشديدة لأن نار روث البقر المجفف تصنع نارا بطيئة فمن يتعرض لها يتألم بشدة وبلا حدود (Ibid, P. 63) . أما حلق اللحية فهي عقوبة كبيرة أيضا ، وتحمل عارا دائما لا للجاني فحسب انما لكل أسرته فليس هناك من عربي آنذاك كان لا يتمنى أن تقطع راسه على ان تحلق لحيته (Ibid, P. 243) .

(109) يميز «دارفيو» بين لقب «شيخ» الذي يعطى للعلماء في الفقه ، والطب ، وبين تلك الفئة من الشيوخ الإداريين الذين قد يكون بينهم من النصارى Ibid, PP. 152 - 153 .

دارثيو معلومات وافية عنها ، سوى أن الشيخ هم الذين يمثلون الأمير وبقية الأمراء في حكم القرى التي يمتد نفوذه ، ونفوذهم عليها . وهم الذين يجبون الضرائب العينية من الفلاحين فيها ، ويحفظونها لديهم (110) ويوزعون منها على من يأمر الأمير بتوزيعها عليه ، بموجب أوامر مكتوبة صادرة منه (111) . وهؤلاء الشيخ هم الذين يقدمون الضيافة للمارة ويقومون بمهمة استقبالهم ، ومن ثم فهم معفيون من مختلف الضرائب والرسوم ، إذا كانت لهم أملاك خاصة ، ولا يضايق سكان القرى مثل هذا الإعفاء ، لأنه يعفيهم بالمقابل من العناية بالغرباء وإطعامهم (112) . وهم الذين يحملون إلى الأمير مشاكل أولئك السكان ومطالبهم وشكاواهم ، وهم الذين يفصلون في المنازعات التي تقوم بينهم ، إلا أنه يمكن للمتنازعين أن يرجعوا إلى الأمير إذا لم يكونوا راضين عن حكم الشيخ (113) .

وليس ضروريا أن يكون « الشيخ » مسنا كي يصبح شيخا ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل يمكن أن يكون شابا وقد يصل إلى مرتبته في هذه الحالة بطريق الإرث ، إلا أنه من المنتظر أن يكون متمتعا بالحنكة ، والدراية والرزانة ، وصواب الرأي (114) ولهؤلاء الشيخ أجور منظمة ، ومعتدلة ، إلا أنها كافية حتى لا يزعمجوا السكان بضغوطهم المادية (115) .

أما الأعيان فلم يعط أية معلومات عنهم ، وإنما أتى ذكرهم أحيانا بشكل عابر (116) ويبدو أنهم يضمون كبار موظفي الإمارة ، والأثرياء ، ومن عرف بنفوذ مادي أو معنوي ، أو بتأثير على الرعية ، أكان من العربان ، أم من سكان القرى ، أو كان من المسلمين أو النصارى .

أما الفئة الثالثة فهي عامة شعب الإمارة الطربائية ، أو بتحديد أكبر مجموع السكان الأصلاء الذين تتكون منهم الإمارة . وتقسم بدورها إلى :

أ - أعراب بدو : وهؤلاء يشاركون الأمراء في أنماط حياتهم البدوية ، في بيوت الشعر . وقد لا تفرق تلك الحياة عن حياة أمرائهم ، إلا

Ibid. P. 152, 164.

(110)

Ibid, PP. 84 - 85.

(111)

Ibid, PP. 185 - 186

(112)

Ibid. P. 152

(113)

Ibid

(114)

Ibid, P. 164

(115)

Ibid, P. 182 (Les Principaux

(116)

أنها أكثر بساطة وأقل رفاها. وهم فرقاء ، فكل فريق يتبع أميراً ، وتقوّه بيوت حوله بيوت أميره . ويكون شبابهم القوة المقاتلة التي يعتمد عليها الأمير الكبير في الحالات الطارئة التي تطالب فيها الدولة العثمانية بعونه . وهم من الخيالة ، ويقدر عددهم بـ (5000) مقاتل . ويرى دارقيو أن هذا العدد كبير بالنسبة لمحيط المنطقة التي تضمها الإمارة (117) والذي يقدره بـ (40) فرسخا (lieue) (118) أي ما يقارب (160) كم . وهؤلاء الأعراب يعملون في تربية المواشي والتجارة فيها ، وإن كان ما يملكون منها قليلاً ، وهم الذين يغزون المأوى ، والسفن الجانحة ، عندما تتاح لهم الفرص ، ويشاركونهم أمراؤهم بالغنائم (119) . ويقول « دارقيو » بأنهم يزودون أنفسهم بكل ما يحتاجون إليه من وسائل الحياة ، التي بدت له بأنها تعيش بالنسبة لوسائل الأوربيين . ويضيف : « إلا أنهم يعيشون بسلام وقناعة ، وسعادة وطمأنينة ، ويتمتعون بما حصلوا عليه (120) » . وهؤلاء الأعراب كأمرائهم يدينون بالدين الاسلامي .

ب - سكان مستقرون في القرى والمدن الصغيرة وبعض هؤلاء من النصارى، واليهود، والقسم الآخر من المسلمين (121) . ومعظم النصارى

(117) قدر «أوليا جلبي» في رحلته الى فلسطين بعد مغادرة دارقيو لها بست سنوات ، أن عدد جند أمير طراباي هو (20.000) مقاتل وهم من حملة البنادق ، ويدخل في تعدادهم الفرسان ، وأوضح أن هناك اختلافاً كبيراً في العدد . ويبدو أن الرقم الذي قدره أوليا جلبي مبالغ فيه ولا سيما أنه أكد أن عدد بيوتهم هو (700) بيت ، ومن غير المحتمل أن تترك الدولة العثمانية أميراً محلياً ، ومن العربان ، يمتلك تلك القوة العسكرية . والجديد الذي ذكره أوليا جلبي أيضاً بأنهم كانوا مسلحين بالبنادق (muskets) بينما يؤكد «دارقيو» وقد رافقهم في القتال بأنهم كانوا لا يستخدمون البنادق وإنما أسلحتهم التقليدية .

أنظر : Evliya Chelebi, op. cit, P. 88.

والحاشية رقم (93) من هذا البحث .
(118) الفرسخ Lieue : قياس طول للمسافات ، أصله فرنسي - غالي ، لا تعرف قيمته بالضبط ، إلا أنها قدرت بما يعادل (4) كم ، وهي تختلف من بلد إلى آخر .

أنظر : Grand LAROUSSE Encyclopédique. 12 Vols. Paris 1960 - 1975 Vol. 6. P. 48 :

(119) إن الأسرى من الذين تجنح بهم السفن كانوا من نصيب الأمراء ، وكانو يستعبدون .
(120) Ibid P. 165

(121) يسمي «دارقيو» العرب المسلمين المستقرين بـ «المور Maures» ويبين بأن الأعراب البدو يزودونهم لأنهم تركوا أصولهم البدوية ، وتؤكد المصادر المعاصرة هذا الأمر (أنظر عشار الشام/159). أما تسمية العرب المسلمين المستقرين بـ «المور» فلا يعرف من أين أتى بها دارقيو ، وهو يؤكد بأنها لا تعني (المغاربة) وهذا الاسم لم يعرف عند العرب أو سكان المنطقة ، - بعد قيامي بسؤال كثيرين من الخبراء في هذا المجال - ولو كانت المذكرات بالعربية لقل أن محققها وناشرها قد صحف كلمة (مدر) الى (مور) فمن المعروف أن العرب يطلقون تعبير (سكان المدر) على أهل القرى . وقد تكون الكلمة بالمعنى نفسه الذي طرحه «دارقيو» مشتقة ، أو محرفة عامياً من (مبارة) ومعناها بالعربية الرفقة التي تنهض من البادية الى القرى لتمتار

والمسلمين يعملون بالزراعة ، وقلة بالتجارة وبعض الحرف ، ولا يشير الى وجود اليهود الا في مدينة حيفا (122) . ويؤكد «دارثيو» بأن النصارى في القرى من جميع المذاهب ، يعيشون سعداء ، وهم يدفعون ضريبة معتدلة ، قمحا ومواشي وأشياء أخرى تقدمها الأرض ، ويمارسون حياة رخيصة ، ولا يلزمون على دفع ضرائب ورسوم فادحة كغيرهم من رعايا السلطان ، الذين تدفع بهم تعديلات الباشاوات ، والحكام ، والقضاة ، وظلمهم نحو اليأس ، وتجبرهم على ترك أملاكهم وبيوتهم لأنهم لا يمكنهم أن يتحملوا جشع أولئك الموظفين الذي لا يروى ، والذين كانوا يتغيرون عادة كل سنة ، ويعملون للحصول وبهم على المبالغ وفوائدها التي قدموها لخزينة السلطان ، ولأسيادهم ، وحمايتهم ، مقابل مناصبهم (123) ، ويؤكد أيضا بأنهم يعاملون بلطف كبير ، ويعيشون بحرية تامة ، ولا يزعمون البتة فيما يخص دينهم ، وممارسة شعائره (124) .

والفئة الرابعة هي فئة الخدم ، وهي فئة قليلة العدد أيضا وهي التي تقدم خدمات خاصة ولا سيما المتزلية منها للأمراء ، والأعيان . وهذه الفئة أما من العرب الأحرار ، أو من العبيد ويفضل أمراء الأعراب أن يكون خدمهم من غلمان العرب ، ولا يرى هؤلاء حرجا في خدمة أمرائهم مهما كان نوع الخدمة ، بل كانت النساء والفتيات يرين الخدمة لدى الأميرات شرفا وفخرا وكن لا يتقاضين على خدمتهن أجرا ، وإنما هدايا لا تغنيهن بالطبع .

(أي لتتكون بالغذاء) . الا أن الفارم «دارثيو» في موضع آخر من مذكراته يربط هذه التسمية بلون بشرة أصحابها حين يقول ان رعايا محمد طرباي (ويقصد بالرعايا : المستقرين بالقرى والمدن التابعين للأمير) يطلق عليهم اسم «المور» على الرغم من أنهم بيض البشرة ، أو ذوي بشرة بيضاء لوحنتها الشمس (T. II. P. 290) وفي الواقع ان كلمة «مور» بالتركية تعني اللون الكستناوي أو «أصحاب البشرة الداكنة» .

Dozy, Supplément aux dictionnaires Arabes. Vol. I. P. 631.

وبذلك لا يكون التمييز بين «العرب» و «المور» مستندا الى اختلاف المهنة ، والعمل ، والإستقرار وعدمه ، وإنما الى تمييز لوني قد يكون الأتراك هم الذين أوجدوه ، ليفرقوا بينهم ، وهم على الأغلب ذوي بشرة أقرب الى البياض المصفر ، وبين العرب من سكان البلاد ، في المدن والقرى وهم أميل الى السمرة .

(122) T. II. P. II.

(123) Ibid, P. 291

(124) T. III. P. 177

- أما العبيد ، فمن المعروف أن تجارة الرقيق كانت لا تزال قائمة ويشترى الأمراء العرب والأعيان العبيد من تجار دمشق ، الذين كانوا يرافقون الأعراب في تنقلاتهم . وهؤلاء العبيد نوعان :
- عبيد من الزنوج ، من الذكور والاناث (الاماء) . وقد يخدم الذكور منهم الأميرات ويختارون من المخصيين ومن أكثر العبيد قبحا وتشوهاً جسمياً .
- عبيد من البيض ، وهؤلاء من الفرنجة على الأغلب ، وهم ممن كان يقع في أيديهم ممن ترميهم السفن على الساحل ، ويغزوها العرب ، وعددهم عادة قليل . ويبيع الأمراء هؤلاء العبيد الأسرى بعضهم لبعض ، وقد يبيعونهم للتجار والنخاسين ، وأحياناً بأسعار رخيصة (125) وقد يكسب بعض هؤلاء العبيد ، ممن كان يدين بالاسلام منهم ثقة الأمير ، فيسلمهم أعمالاً ذات شأن في الامارة (126) .
- والفئة الخامسة ، هي فئة الغرباء ، وهي أيضاً قليلة العدد ، وتضم :
- بعض التركمان الذين نظر اليهم « الفارس دارقيو » خطأً على أنهم من العرب ، وان لم يحدد مكانهم من الامارة (127) .
- الضيوف الموقتين من أمثال « الفارس دارقيو » ، ومن كان ينفذ الى الجوار من مراسلين أتراك وغيرهم .
- التجار المرافقين دوماً للأعراب في حلهم وترحالهم ، وكانت لهم خيامهم الخاصة البيضاء المميزة ، وهم عادة من تجار دمشق (128) .
- بعض النساء من البغايا اللاتي أتى بهن الأمير من دمشق لصالح بعض شباب نجعه ، ممن لا تساعده أحواله المادية على اقتناء زوجة ، اذ أن الحصول على زوجة يتطلب مهراً مرتفعاً من المواشي والذهب لا يستطيع كل شاب أن يوفره . هذا علماً أن صفة « العفة » من الصفات الأساسية المطلوبة من الشاب العربي . وكانت بيوت هؤلاء النساء على بعد مرمين

Ibid, PP. 169-170

Ibid, PP. 43-57

Ibid, P. 155.

Ibid, PP. 104, 165, 256 - 257

(125) انظر حول كل ما ورد في فقرة (الخدم) .

(126) انظر قصة حسن الفرنجي .

(127)

(128)

أو ثلاثة من طلقة بندقية من حواء الأمير . وهن يخدمن ، ويطعنن على حسابه ، دون أن يعفيهن هذا من دفع الضريبة المحددة عليهن من قبله (129) .

— الأجانب المقيمين في بعض أنحاء الامارة أو المتنقلين ومنهم الأوروبيون وهؤلاء ينقسمون اما الى عاملين في التجارة ، ويلاحظ أن الامارة لم يكن فيها مستقرون منهم (130) — واما مبشرين دينيين ، ويتمثلون بالسكرمليين (131) بخاصة . وكان في الامارة من الأجانب الغرباء عن المجتمع العربي أيضا ، عدد ضئيل من الهنود ، الذين كانوا يقيمون في مغارة من مغارات جبل الكرمل ، ويشير « دارفيو » الى أنهم أتوا اليها منذ بضع سنين ، ولا يحدد تاريخا لذلك ولا يعرف بالضبط أسباب هجرتهم ، وكانوا يعيشون حياة نسل وزهد ، ومن عمل أيديهم ، ويصنعون السلال وحصر الخيزران . وكان عددهم يتراوح بين 15—16 مهاجرا ، واثنان منهم فقط يعرفان العربية ، بينما يتكلم الآخرون الفارسية والهندية (132) .

وخلاصة القول ، يلاحظ أن البنية الاجتماعية لتلك الامارة ، في العقد السابع من القرن السابع عشر هي في أساسها بنية عربية أعراية ، وكان لها التركيب الفثوي المشاهد في بنية أية قبيلة أو عشيرة عربية اليوم (133) ، الا أن هذه الامارة أخذت خطأ مغايرا لبنيتها الأعراية تلك ، عندما ألزمت ذاتها في أن يكون تحت سيادتها ، وفي رعايتها عناصر حضرية ، ومنحت لهذا الغرض سلطات ادارية ، ومن ثم فإنها سعت لتكييف ذاتها لتنسجم مع البنية الاجتماعية الجديدة لها . وقد تكون مالت مع الزمن ، ومع ممارستها للجوانب الحضرية من الحياة ، الى الثبت والاستقرار على الأرض ، وتحويل بيوت شعرها الى بيوت من الطين والجير ، كما رآها السائح التركي « أوليا جلبي » (134) وبذلك تكون حققت أحد أهداف الدولة العثمانية في سياستها مع الأعراب ، فتحضرت . أوقد يكون تحضر قسم منها فقط ، وقسم

(129) Ibid, PP. 312 - 313

(130) أنظر ، ليلي الصباغ : الفعاليات الاقتصادية في فلسطين ص 293 .

(131) أنظر الحاشيتين (20) و (21) من هذه الدراسة وميتينهما .

(132) T. II. PP. 309 - 312

(133) أنظر : عشائر الشام 184 - 191 .

(134) op. cit, P. 88.

آخر رحل الى بقعة أخرى محتفظا ببنيته البدوية (135). وفي الواقع ليس لدينا من المصادر ما يبين المصير النهائي للعشيرة الحارثية الطربائية بعد وفاة أميرها (يوسف بن علي) عام 1088هـ/1677م (136) سوى أن «لواء اللجون» قد أسلم الى وال من أصل عثماني هو أحمد باشا الترزي (137)، أو بتعبير أدق، ضاع ذكر هذه العشيرة، ولم يتبق من آثارها سوى أسماء بعض القرى في فلسطين، وربما أضرحة أمرائها من آل طرباي في جنين إذا كانت لا تزال موجودة حتى الآن بعد الاحتلال الصهيوني لها، علما أن بعض أمرائها ظلوا قائمين في جنين حتى 1102هـ/1689م حيث التقى بهم عالم دمشق عبد الغني النابلسي أثناء رحلته الى القدس (138).

وأخيرا، وفي نهاية هذا المطاف الطويل حول «صور من الحياة الاجتماعية في فلسطين عبر مذكرات الفارس دارقيو» قد يتساءل، وما الجديد فيما أتى في تلك المذكرات أو في هذه الدراسة نفسها؟ أليست الأوضاع الاجتماعية للعرب الأعراب قد غدت معروفة في معظمها اليوم، وقد بحثها كثير من العرب والأجانب، ولا سيما المهتمون بتاريخ الدولة العثمانية والولايات

(135) تمزق بعض البحوث المعاصرة انحطاط الإمارة الى هجرة العشير الحارثي الطربائي الى «وادي الأردن» «وعجلون» وتبين أن مصادرها هي دارقيو نفسه، معتمدة على جزء من المذكرات نشر عام 1718م والى المرادي في كتابه: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر 4 أجزاء. القاهرة 1295 - 1306 هـ ج 4/ 166.

- انظر: Moshe Sharon op. cit. P. 29, n. 105

وبعد مراجعة لمجموع مذكرات «الفارس دارقيو» لوحظ بأنها لا تحوي إشارة الى هجرة بني حارثة وآل طرباي. الا أنه ورد بأن «الفارس دارقيو» عندما عين قنصلا لفرنسة في حلب، ووفد اليها عام 1679، أخبر «الأمير الكبير طرباي». بوصوله، وحمل رسالته اليه بعض الهدايا ورد عليه الأمير - دون أن يذكر اسمه - في مطلع عام (1680) أي (1091هـ) برسالة زاخرة بعبارات الصداقة المخلصة، ومعها فرس جييلة، أرسلها له الأمير ليذهب بها اليه، وجواز سفر يتمتع فيه بحماية واسعة له ولغيره. (T.v. P. 548) وبموجب جواز السفر هذا أعطى دارقيو لهو لندي سائح جواز مرور بالعربية باسم هذا الأمير، وكان ذلك في تموز (جولية) عام 1680 (T. VI P. 26). ويظهر من هذا أن أميراً من آل طرباي كان موجوداً حتى 1091هـ/1680م، وظل اسمه بالنسبة لدارقيو، أمير عرب جبل الكرمل، ولم يحدد مكان إقامة جديده له غير الكرمل.

أما المرادي فلم يشر الى العشير وآل طرباي، وأنسا قدم في الجزء المذكور والصفحة المشار اليها ترجمة مصطفى الترزي ابن «أحمد باشا الترزي» الذي كان أميراً لواء اللجون.

(136) المجبي خلاصة الأثر ج 1/ 222.

(137) انظر الموسوعة الفلسطينية ج 1/ 93.

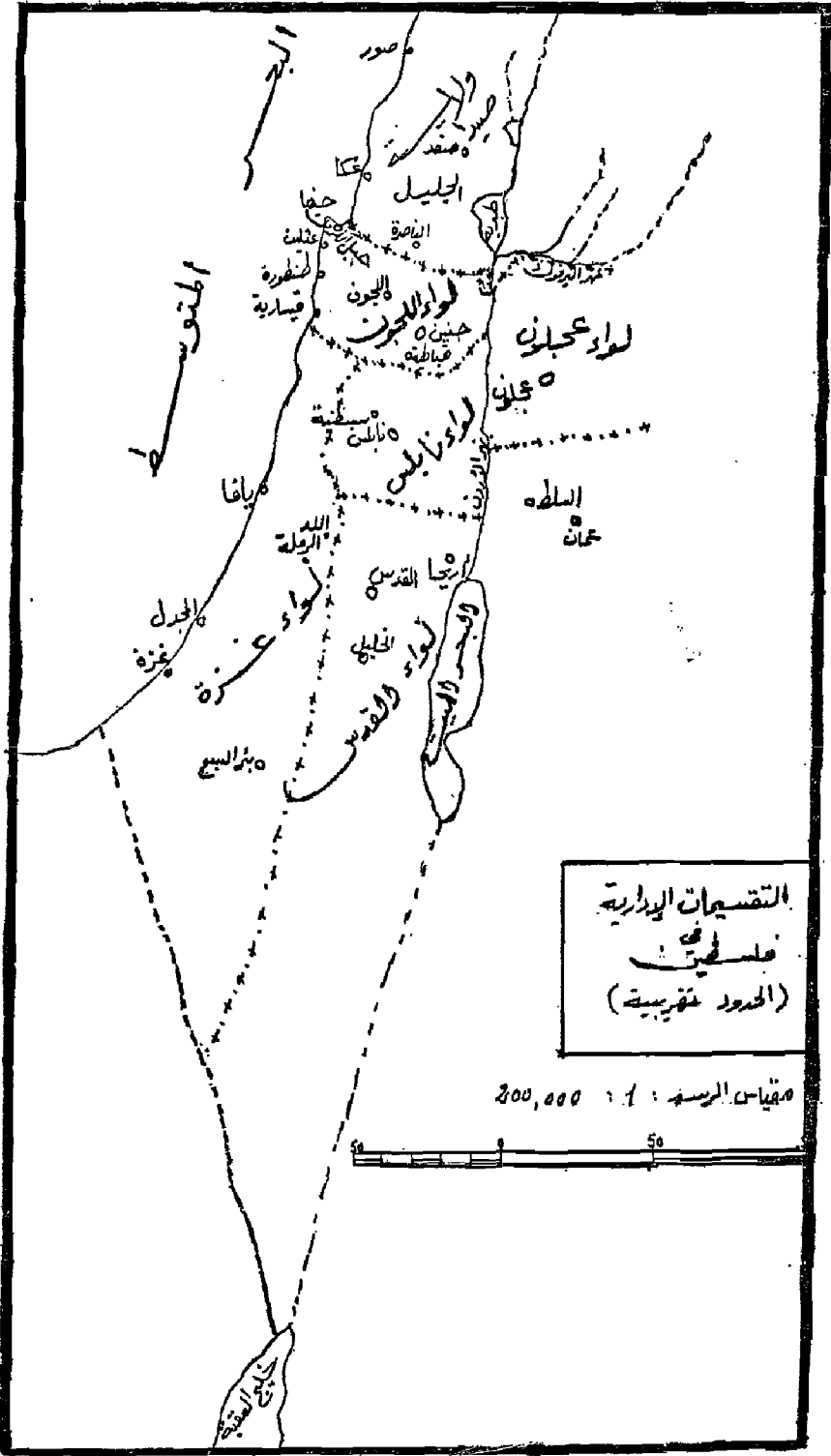
(138) المصدر السابق 19 ب. وقد يدعو هذا الى التساؤل فيما اذا كانت الدولة العثمانية لم تستغن عن خدماتهم بسبب ما ظهر لها من ضعفهم، ولا سيما أن هجمات الأعراب كانت قد اشتدت في تلك المرحلة وقد كان اللواء أثناء زيارة النابلسي بيد الشريف يحيى بن بركات من أشرف الحجاز، الذي أسلم أيضا إمارة الحج الشامي.

العربية التابعة لها ، لما أوجده هؤلاء العربان من اضطراب في الأمن ، وتوترات اقتصادية ، واجتماعية ، وسياسية ، كانت تنعكس آثارها على مجموع الدولة فتهتز هيئتها الدينية والسياسية ، وتضعف مواردها الاقتصادية ؟ ان في ذلك التساؤل بعض حقيقة ، ولكن ليس كل الحقيقة : فما طرحته مذكرات الفارس دارفيو من صور اجتماعية عن حياة بعض العرب الأعراب في فلسطين في العقد السابع من القرن السابع عشر ، هو في الواقع جديد ، وطريف ، وقيم ، لأسباب عديدة أهمها :

أولا : انه يمثل لوحة تصويرية متكاملة لمجتمع امارة عربية أعراية ، قامت في شمالي فلسطين ، ورسمت معالمها ، شبه دويلة في القرن السابع عشر ، ثم زالت واضمحلت بعد أميرها يوسف بن علي عام 1088هـ/1677م ، إما لأن العشيرة الحارثية التي انبثقت منها قد هاجرت من منطقتها ، أو لتحضر عديد من عناصرها ، أو لظروف اجتماعية وسياسية لا بد من استقصائها . وهذه اللوحة بألوانها القزحية ، لم يقدم مصدر آخر معاصر ، وصل الى علمي حتى الآن ، مثيلا لها ، بتفصيلها ، واحاطتها بأكثر جوانب المجتمع . واذا ما وجد مثل ذلك المصدر في المستقبل ، فتبقى المذكرات لا غنى عنها للموازنة .

ثانيا - اذا كانت تلك الصور التي رسمتها المذكرات ، وقد طرح في هذه الدراسة بعض ألوان مجتزأة منها ، لا تبدو جديدة علينا نحن الذين عاصرنا ، ونعاصر ، دراسات عديدة قام بها عرب وأجانب ، عن المجتمع العربي البدوي المشابه للمجتمع الذي وصفه « دارفيو » ، كما أنها لا تبدو جديدة علينا نحن العرب بالذات الذين لا نزال نعيش في أعماقنا ، وفي حياتنا الاجتماعية الواقعية ، حضرا كنا أم بدوا ، الكثير من القيم ، والعادات والتقاليد التي أحاط بها « دارفيو » ، فانها تبقى مع ذلك جديدة حتى علينا ، للأمريين الأساسيين التالين :

1 - للعصر الذي دونت فيه ، وللمجتمع الأوربي الذي وجهت اليه ، ولمدونها الغريب عن المجتمع العربي ، ولتقويمه لها عبر موازناته التي أجراها مع مجتمعه : فقد يكون الفارس دارفيو من أوائل الرواد الأروبيين الذين عايشوا مجتمعا عربيا بدويا من الداخل ، ولفترة طويلة نسبيا ، وقدموا وصفا جديدا ، ودقيقا ، ومنسقا ، وفيه كثير من الصحة ، لمختلف جوانبه ، ولبعض جزئيات فيه ، مما لا يتطرق اليه عادة الكثيرون وبذلك يكون



سابقا بقرن من الزمن على الأقل ، تلك الدراسات ، ولا سيما الأوروبية ، عن المجتمعات البدوية . تلك الدراسات التي تزايدت في القرنين التاسع عشر والعشرين بعد نشوء علم الاجتماع ، وكانت من عوامل تغيير نظرة الأوروبيين المغرضة السابقة للعرب ، وللمجتمعات البدوية بعامة ، ولقيمة الحياة الاجتماعية في صنع التاريخ . وبذلك يكون « دارقيو » طليعة من طلائع الفكر التاريخي الأوروبي الجديد ، الذي مثله فيكو وفولتير ، والذي أخذ يدعو الى أن التاريخ الحق هو التاريخ الحضاري للمجتمع ، بأعرافه ، ونظمه ، وتقاليده ، وحياته اليومية ، أكثر مما هو التاريخ السياسي بأحداثه المفتتة .

2 - للجيل العربي الناشئ ، والأجيال العربية المستقبلية ، التي تعيش اليوم ، وستعيش تطورات اقتصادية واجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ، مستمدة معظم عناصرها من الحضارة الغربية . وهذه التطورات اللاهثة أخذت تقتلع تلك العادات ، والتقاليد ، والقيم ، من الجذور ، وبسرعة . فهذه الأجيال قد ترى يوما في تلك القيم والعادات ، تراثا جميلا يفتخر به ، فتفكر بالعودة الى بعض أصالتها ، فتأخذ منه السمين وتطرح الغث ، أو ربما ترى فيه تراثا متخلفا بكليته ، فتجعله مدعاة للتفكه والتندر ، وتقطع نهائيا صلتها بتلك الجذور ، وتبتعد الى غير رجعة عن أصالتها ، كما هو حادث عند بعض هذا الجيل العربي الحاضر . ومن ثم فهذا التراث العربي الأصيل من العلاقات الانسانية ، والقيم الاجتماعية ، والاخلاق ، الذي دونه « دارقيو » الفرنسي ، وأعجب به وهو الأوروبي المتحضر في العقد السابع من القرن السابع عشر ، هو تراث ثمين وخصيب ، يستحق التثبيت على الورق على الأقل ، في هذا الحاضر العاصف بكل قيم الماضي . وهو يمثل مرحلة من حياة المجتمع العربي ، كان هذا المجتمع فيها فخورا به ، ورافضا أن يأخذ بغيره لأنه يمثل الذات العربية ، والأصالة ، والجذور .
فما قدم في هذه الدراسة السريعة ، يبقى جديدا ، بالنسبة للجيل العربي الحاضر ، ولأجيال المستقبلية ، مهما اختلفت مواقفها منه اليوم وغدا .

ثالثا : انه نموذج حي لبداية التواصل العربي مع الحضارة الأوروبية .
فما يقال عادة ، دون دراسة علمية موثقة ، عن العزلة الحضارية للمجتمع العربي عن المجتمع الأوروبي ابان الحكم العثماني ، وما أكدته كثيرون ولا يزالون يؤكدونه ، بأن هذا الحكم هو المسؤول الأول عن هذه العزلة ، هو قول باطل . فما أتى في تلك المذكرات يثبت أن الأوروبيين

بجالياتهم في بلاد العرب الشرقية والمغربية ، كانوا على احتكاك مع هذا المجتمع ، حتى في أضيق وحداته التي كان من غير المنتظر وصولهم اليها ، ألا وهو المجتمع الأعرابي . فالفارس دارثيو دخل الى قلب ذلك المجتمع ، حاملا معه فكره ، وأحاديثه الدعائية الكثيرة ، عن مجتمعه الفرنسي والأوربي ، وما فيهما من مظاهر حياتية مختلفة ، بل وناقلا اليه أحيانا ، ويشكل محسوس ، وعلى صورة هدايا قدمها لأميره بخاصة ، بعض تقنيات أوربية : كالساعة المنبه (139) مثلا ، وفرن الخبز النحاسي على النمط الأوربي (140) وغيرهما ، وعرض على مجموع ذلك المجتمع اللباس الأوربي . فالمجتمع العربي لم يكن معزولا ، وقسرا ، عن المجتمع الأوربي فاذا لم يأخذ من المجتمع الأخير مظاهر حضارته الاجتماعية ، فلأنه كان يرى ولفترة طويلة بأن حياته التي كان يعيشها ، وقيمه الحضارية ، تفضل تلك الدخيلة عليه من عالم الغرب ، فتتوقع عليها ، وظل يربعاها ، حتى عصفت به وبها ريح الحضارة الغربية في القرون التالية .

د. ليلى الصباغ

أستاذة تاريخ العرب الحديث بجامعة دمشق

الحركة السكانية فى الشرق العربى فى أواخر العهد العثمانى نموذج الهجرة الى بيروت فى القرن التاسع عشر

د. مسعود ضاهر

مقدمة منهجية :

تمتاز الحركة السكانية فى الشرق العربى ببعض السمات التى تحدت بها فى القرن التاسع عشر واتضح معالمها بعد انهيار السلطنة العثمانية . فقد شهدت هذه المرحلة استمرار الروابط المتينة بين سكان الشرق العربى على اختلاف مناطقهم ، فى ظل وحدة سياسية عرفت باسم « الرابطة العثمانية » التى كانت تتأكل من الداخل بمقدار ما تقترب من الحرب العالمية الاولى فى مطامع القرن العشرين . ويلاحظ ان السلطنة فى هذه المرحلة كانت أسيرة توازنات استعمارية خارجية فرضت عليها اصلاحات وتنظيمات وخطوط همايونية كانت تزيدها تفسخا فى الوقت الذى كان يطمح فيه اللسانة العثمانيون الى تعميق سيطرتهم على الشعوب والولايات الخاضعة لهم . فالضعف الذى انتاب السلطنة جعلها عاجزة عن تنفيذ الفرمانات السلطانية بمقدار ما كانت تعجز عن حماية ولاياتها ودرء مخاطر احتلالها . فأصبح القرار السياسى والادارى والعسكرى والضرائبى العثمانى موحدا فى الشكل لكنه لا ينفذ عمليا اذ عمل كثير من الولاة والزعماء المحليين الى التملص منه وذلك بدعم مباشر من قوى استعمارية خارجية ، بريطانية وفرنسية بشكل أساسى .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من بروز الضعف والتفسخ فى جميع ارجاء السلطنة، فان الوحدة التى عرفها سكان الشرق العربى كانت عاملا ايجابيا لان الحواجز الجغرافية بين ولاياته سهلة الاجتياز . وتكفى الوثائق الشخصية العثمانية للانتقال بين ولاية واخرى وصولا الى عاصمة السلطنة ، والى ابعد نقطة جغرافية فيها دون عراقيل كبيرة . واستفاد من هذه التسهيلات جميع السكان على اختلاف مناطقهم وطوائفهم باستثناء من كان ملاحقا بتهم شائنة أو بجرائم تطال أمن السلطنة . وفى ظل هذه الوحدة برزت قوى سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية فاعلة انتقلت من موطنها الاصلى الذى ولدت فيه الى مناطق أخرى فى السلطنة . فأحمد فارس الشدياق ، وسليمان البستاني ، ونجيب ملحمة ، وشكيب ارسلان ، ومحمد ارسلان وغيرهم من القادمين من جبل لبنان

وبيروت سينالون شهرة واسعة في عاصمة الاستانة . ومحمد رشيد رضا ، وآل الرافعي ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وشبلي الشميل ، وأديب اسحق ، وفرح انطون ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر ، وجرجي زيدان ، وسليم نقلا وعدد كبير من السوريين واللبنانيين والفاستينيين والعراقيين سيشتهرون في مصر ابان هذه المرحلة .

ويلاحظ ان سهولة الحركية السكانية دفعت باعداد كبيرة من الناس الى تغيير مناطق سكنهم الاصلية لاسباب سياسية واقتصادية واجتماعية متنوعة. لذلك عرفت مدن المشرق العربي ، خاصة بيروت وحلب بالاضافة الى متصرفية جبل لبنان مختلف اشكال الهجرات بحيث اصبحت عائلاتها مزيجا من سكانها المحليين ومن اعداد كبيرة من الاسر الوافدة . وهناك اسماء ليست بحاجة الى تعريف الموطن الذي قدمت منه ، واغلب الظن ان السكان كانوا يطلقون عليهم كنية البلد أو المدينة أو المنطقة التي وفدوا منها فيقال مثلا ، المصري ، السعودي ، الحلبي ، الحمصي ، المغربي ، المقدسي ، الشامي ، الانطاكي ، الطرابلسي ، الاسكندراني ، الصعيدي ، الجزائري ، الحموي ، اليمني ، البغدادى ، الفيومي ، الدمياطي ، السويسى ، الحوراني ، اللاذقي بالاضافة الى أسماء عائلات كثيرة لا زالت جميعها موجودة حتى الآن في بيروت وغيرها من المدن السورية واللبنانية .

لقد حاولت هذه الدراسة الدخول في عمق الحركية السكانية للمشرق العربي في القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين وهي حركية تبلورت بشكل اساسي باتجاه بيروت ومناطق جبل لبنان القريبة منها ثم استمرت باتجاه مصر والقارة الاميريكية وسواها . ولا يتسع المجال لابرار سمات هذه الحركية باتجاه حلب ودمشق وباقي المدن السورية ، وباتجاه القدس وحيفا ويافا والقاهرة وباقي المدن الفلسطينية لانها تتطلب ابحاثا مستقلة . فلكل هجرة سكانية سمات تبرز تماعا في كل منطقة وذلك في اطار عوامل داخلية وخارجية تشير اليها الدراسات السكانية بمقولة القطب الدافع القطب الجاذب . والحركية السكانية تبقى على الدوام نتاج جدلية العلاقة بين هذين القطبين .

وقد اتخذنا من نموذج تحول بيروت الى مدينة كبيرة بعد ان كانت بلدة صغيرة في مطلع القرن التاسع عشر حقلا لدراسة وتحليل حركية السكان في المشرق العربي خلال المرحلة التي تنتهى بسقوط السلطنة في الحرب العالمية الاولى .

بعض العوامل الاساسية للدفع السكاني باتجاه بيروت في القرن التاسع :

تتنوع هذه العوامل لتطال مختلف جوانب الحياة . لكن الدراسة شددت على الاساسى منها استنادا الى وثائق الارشيف الفرنسي بشكل خاص ، وهي

وثائق بالغة الأهمية لأنها رافقت أدق تفاصيل الحركة السكانية في المشرق العربي إبان هذه المرحلة .

ففي مطالع ذلك القرن كانت مدينة طرابلس والميناء التابعة لها تعتبر المرفأ الحيوى للولايات السورية . وبلغ تعداد سكانها قرابة 14900 نسمة عام 1812 معظمهم من ذوى الغنى الاقتصادى (1) . وعرفت نشاطا ملحوظا فى المجال التجارى حيث كانت غالبية سلعها تمر عبر قنوات التجار الفرنسيين الذين لا يدفعون ضرائب الا بنسبة 6,5% فقط عبر مرفأ طرابلس فى حين يدفع التجار المشمولون بحمايتهم نسبة 4% (2) . اما التجار المحليون من غير المحليين فترفع ضرائبهم لتتراوح ما بين 8 و 20% . وقد رفض بربر آغا ، حاكم المدينة الذى استعصى اخضاعه لفترة على السلطات العثمانية ، هذه الامتيازات فبدأ الفرنسيون تحويل جانب هام من تجارتهم والى مرفأ بيروت (3) . ويشير احد تقارير القناصل الفرنسيين الى ان بيروت ستصبح رسميا ، وبعد فترة وجيزة ، المرفأ الاساسى لدمشق (4) .

وفى عام 1814 ضرب مرض لطاعون مدينة حما ، حيث توفى ما بين اربعمائة الى خمسمائة انسان . ثم انتقل الى منطقة عكا ومنها الى طرابلس والميناء ووصل الى جبل لبنان وصيدا ودمشق وعكا (5) . وفى عام 1827 ضرب الطاعون مجددا تلك المناطق وظهر الى جانبه الجراد (6) . لكن أهمية هذا العامل أى الامراض والابوثة والجراد والجفاف ولتى لم تسلم منه بيروت نفسها فى بعض الفترات ، ان اثاره المدمرة أصابت المناطق الزراعية بشكل أساسى وأدت الى هجرات سكانية كثيفة من منطقة الى أخرى . فتضررت طرابلس ، بحكم ارتباطها الوثيق بالداخل الزراعى المجاور لها ، أكثر من بيروت التى غادر سكانها الى الجبال القريبة منها لفترة محددة عادوا بعدها الى مناطق عملهم ، فمناخ الجبال المحيطة ، وهو مناخ صحى ممتاز ، استفاد منه سكان بيروت والمناطق المجاورة لها لدرء مخاطر الابوثة والامراض المعدية بشكل حافظت فيه المدينة على استمرارية تطورها المتصاعد طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين .

Adel ISMAIL : « Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire (1) du Liban et des pays du proche-Orient du XVIIème siècle à nos jours ». Edition des œuvres politiques et historiques.

Beyrouth 1975-1985 — série continue T. 4. pp. 337-341.

سنشير إلى هذه المجموعة بكلمة Documents فى حواشي الدراسة .

Documents : T.4. pp. 398-402 (2)

Ibid : pp. 355 et 408 (3)

Ibid : p. 294 (4)

Ibid : p. 440 (5)

Documents : T.5. pp. 119-131 (6)

لكن مرحلة حكم محمد علي في سوريا (1832 - 1840) تعتبر بحق القاعدة الصلبة لانطلاقة بيروت ، اذ اتخذ منها مركزا هاما لحكمه في الولايات السورية . وفي نهاية عهده أصبحت بيروت ، باعتراف غالبية المصادر الموثوقة ، أهم المحطات التجارية في المشرق العربي . وفي حين كانت المقاطعات المجاورة لبيروت تضج بالصدمات الدموية ذات الوجه الطائفي قبل مجيء محمد علي فان السلطات عرفت كيف تبعد عن المدينة هذا المرض الفتاك حتى في أشد مراحل انفجار الصدمات الطائفية في جبل لبنان وحلب ودمشق وحاصبيا وراشيا وسواها .

فعندما تعرضت بيروت لهجوم بحري يوناني في 38 آذار 1836 سارعت الطوائف المسيحية الى مغادرة المدينة خوفا من انتقام الاتراك المسلمين المحليين منهم . فاصدر الوالي العثماني قرارا شديدا للهجة اتهم فيه الاوروبيين بتحريض المسيحيين على الرحيل الى المناطق الجبلية المجاورة واظهر استعداده الكامل لحمايتهم والاقتصاص بشدة من كل من تسول له نفسه الاعتداء على انسيحيين (7) ، وقد سار حكام بيروت على هذه القاعدة فلم تعرف المدينة صدمات طائفية حادة بل حوادث فردية يتم تطويقها بسرعة . لذلك تلاحظ التقارير الفرنسية ان مدينة بيروت عام 1827 أصبحت المركز الاساسي في المنطقة وبدأ دور صيدا وطرابلس بالتقلص (8) . في الواقع ، كان حكام بيروت يتعاطون التجارة وتولدت لديهم مصلحة أكيدة لتجنيب المدينة اية صدمات أو اضطرابات مهما كانت صغيرة . ويشير تقرير فرنسي لعام 1827 ان شركة محلية التزمت مرفأ بيروت بقيمة ألف كيس أي حوالي 220 ألف فرنك فرنسي ، وان المبلغ اقتسم مناصفة بين الوالي العثماني واصحاب الشركة الملتزمة (9) . وهناك عدد كبير من الوثائق التي تدل على ازدهار بيروت في هذه المرحلة التي سبقت وصول ابراهيم باشا الى سوريا وذلك بالترابط الوثيق بين تجارها المحليين والسلطات العثمانية الحاكمة فيها . ويلاحظ تقرير عام 1832 أن غالبية زعماء بيروت المسلمين وقفوا الى جانب العثمانيين ضد ابراهيم باشا الذي نفى بعضهم في حين أيده المسيحيون بقوة وابدوا كل ترحيب بتدبير الدعاية الى المساواة بين السكان ، وضمان الامن ، واطلاق حرية التجارة ، وتشجيع التعليم ، ومساهمة جميع الطوائف في حمل السلاح وغيرها . لكن تلك التدابير سرعان ما تكشففت عن قرارات مركزية صارمة أدت الى احتكار التجارة بيد الدولة ، واعتماد السخرة والمصادرة ، وزيادة الضرائب ، وتخفيض النقد ، واطلاق يد بشير الثاني في جبل لبنان

Ibid : pp. 91-96 et 11-114.

(7)

Ibid : p. 108

(8)

Ibid : p. 116

(9)

للتحكم بخصوصه . وتضايق التجار المسلمون كثيرا من مصادرة الخنطة كما تضايق التجار المسيحيون من احتكار الحرير (I0) .

هكذا بدأت عوامل التذمر تتكاثر ضد الحكم المصري وتدابيره . فعارضته القوى التي كانت مسيطرة قبل مجيئه ، وهي قوى اسلامية في الغالب ، ثم انضمت اليها القوى التي استفادت في بعض المجالات وتضررت من الاحتكار والسخرة والمصادرة في مجالات أخرى ، وهي قوى مسيحية في الغالب . واندلعت الانتفاضات ضد الحكم المصري في مناطق عدة ابرزها نابلس ، وجبال العلويين ، وحموران ، وعكار ، والضنية ، وغيرها . واندلعت الشرارة الاولى عندما اصدر ابراهيم باشا قرارا عام 1834 يقضى بتجنيد 15% من الدروز والمسلمين ويعفى المسيحيين واليهود عام 1834 . ورافقت التنفيذ تدابير صارمة شملت إحراق القرى في فلسطين وحموران ، ونزع السلاح ، وزيادة الضرائب . واستخدمت الطوائف اللبنانية في حروب ابراهيم باشا ضد بعضها البعض مما أعطى للصدامات وجها طائفيا كانت له انعكاسات سلبية بالغة السوء (II) . ولما كانت القوى المتمردة ذات وجه طائفي اسلامي فان نزع سلاحها في الجبل وبيروت ودمشق وفلسطين ترافق مع نزوح للقوى الطائفية المتضررة من منطقة الى اخرى حاملة معها حقدا دفيناً بقي متفجرا في المرحلة اللاحقة ، قبيل وبعد رحيل الحكم المصري عن المنطقة . ولا يتسع المجال لذكر جميع الانتفاضات وحركات النزوح خلال هذه المرحلة بل نشير فقط الى محتويات التقارير الكثيرة الدالة عليها . فقد لوحظ نزوح كثيف من بعض القرى الدرزية في جبل لبنان عام 1837 ، وانتفاضة في حموران ، وصدامات دموية في حاصبيا ارتدت وجها طائفيا بين المسيحيين والدروز ، وعصيان في راشيا التي يسميها التقرير عاصمة الدروز فيأمر ابراهيم باشا باحراقها مع بعض القرى المجاورة (I2) . ثم توسعت حركة العصيان لتشمل مناطق عكار وحموران والجليل بالاضافة الى بعض مقاطعات جبل لبنان ذات السكن الدرزي (I3) . ويمكن رصد الكثير من حركات العصيان والتمرد على قرارات ابراهيم باشا في سوريا وحليفه بشير الثاني في جبل لبنان طيلة سنوات 1834 - 1840 والتي انتهت بقصف الاسطول الانكليزي لمدينة بيروت في 7 تشرين الثاني 1840 وانزال عساكره في جونية وتوزيع السلاح على القوى التي اعلنت الانتفاضة على المصريين واتسعت لتشمل الطوائف المسيحية الى جانب الطوائف الاسلامية . ومنى العسكر المصري بخسائر هامة من جراء التحرشات العسكرية التي تعرض لها في طرابلس وبعبك وببيت شباب وغيرها في 10 تشرين الاول 1840 (I4) .

Ibid : pp. 208-209 et 253-261 (10)

Ibid : pp. 288-298 et 306-310 et 368-372 (11)

Ibid : pp. 378-379 et 381-392 (12)

Ibid : pp. 421-432 (13)

Ibid : pp. 446-447 (14)

ثم تتالت التحرشات في الفترة اللاحقة على رحيل الحكم المصري عن المشرق العربي .

كذلك عرفت بعض مناطق جبل عامل صدمات دموية منذ عام 1830 كانت تتكرر بأشكال مختلفة في الفترة اللاحقة . كما ان السخرة والضرائب الباهظة أجبرت 82 قرية في ولاية صيدا على مغادرة اراضيهم والنزوح الى مناطق أخرى خلال سنوات 1834 - 1840 . وتعرضت قرى ما بين طرابلس وحماه للتدمير خاصة في منطقة عكار خلال هذه المرحلة (15) . الاسباب المباشرة كثيرة ومتنوعة ابرزها السخرة وزيادة الضرائب ، والعصيان ، وحملات التأديب ، والاحتكار ، والتجنيد الاجباري وغيرها . لكن استخدام المصريين وحليفهم الامير بشير الثاني لقوى مسيحية في قمع انتفاضات المناطق ذات الكثافة السكانية الاسلامية الواضحة كحمص ، وطرابلس ، وعكار ، وصافيتا ، واللاذقية ، وحران ، وحاصبيا ، وراشيا ، ودمشق وغيرها جعلت من حمل السلاح منهم يخاف على نفسه وممتلكاته ويطالب بأن يبقى السلاح في يده لان السلطة العثمانية لن تحميه نظرا لموقفه الى جانب عدوها ابراهيم باشا (16) وفعلا ، وما ان رحلت عساكر المصريين حتى تعرضت بعض القرى لاعمال الانتقام ولم تسلم بيوت الاجانب في بيروت من النهب على ايدي الجنود الالبانيين مما دفع بحاكم بيروت العثماني الى زيادة عسر الارنلوط في المدينة الى أربعة آلاف في مطالع آيار 1842 ، فأشاع جوا من الهدوء والاستقرار فيها حيث شعر سكانها ، على اختلاف طوائفهم ، باطمئنان على ارواحهم وممتلكاتهم (17) .

يتضح من ذلك فظائع حكم الامير بشير الثاني في الجبل ، والتدابير المصرية الصارمة في المناطق المحيطة به ، وأعمال التنكيل واحراق العصاة ، بالاضافة الى السخرة والمصادرة والاحتكار وغيرها جعلت المناطق المحيطة ببيروت تعيش مرحلة غليان شعبي ما ان يهدأ حتى ينفر مجددا في أكثر من منطقة (18) .

ويلاحظ ان احد المقترحات الاربعة التي تقدم بها العثمانيون لحل مشكلة الصدمات الدموية كان يشير الى ضرورة التهجير القسري للسكان من منطقة الى أخرى . وتبلور هذا الاقتراح في مشروع محدد النقاط قدم في 28 نيسان 1843 . حتى ان نظام القائمقاميتين الذي اعتمد بموافقة عثمانية وفرنسية وانكليزية تميز بتزايد الحقد والاستعداد للقتال حتى قيل فيه انه تنظيم للحرب الاهلية بين سكان جبل لبنان (19) .

Documents : T.6. p. 27

Ibid : p. 57-61

Ibid : pp. 86 et 132

Ibid : pp. 153-160 et 292-294

Ibid : pp. 309 et 317-325 et 388

(15)

(16)

(17)

(18)

(19)

ويبرز الصراع الاجنبي على أشده في هذه المرحلة تحت ستار دعم الدروز أو الموارنة في حين كانت الوثائق نفسها تشير الى انه يتم على حساب الدروز والموارنة معا . فقد سمعت الدول الاستعمارية ، كذلك سمعت السلطنة العثمانية ، ولاسباب متنوعة ، لايجاد حلول للمسألة اللبنانية تتلاءم مع مصالحها بالدرجة الاولى . واعتبرت مرحلة الحكم المصري ، انها ساهمت في تنشيط القوى الغنية على حساب الفقراء لكن مرحلة نظام القائمقاميتين قادت الى انهلاك الاغنياء والفقراء معا في مناطق واسعة من جبل لبنان ، بسبب الازمات الحادة ، والصدمات الدموية المستمرة ، وفقدان الامن ، فبدأت الهجرة الى الخارج باعداد كبيرة جدا من سكان المقاطعات اللبنانية المختلطة واتجهت ، وبالدرجة الاولى الى بيروت لانها الاكثر قربا ، وتتمتع بالاستقرار والامن والنشاط التجاري البارز (20) . وفي حين أصبحت الهجرة الجماعية احدى المشكلات الاساسية الحادة في تلك المناطق ابتداء من ايلول 1844 وحتى عام 1860 فان مدينة بيروت شكلت قطبا جاذبا لها خلال المرحلة اللاحقة (21) .

ولم تقتصر الهجرة على المقاطعات المختلطة ذات السكن الدرزي والماروني بل تعدتها الى مناطق بعيدة عن بيروت حتى وصلت الى دمشق وحلب وحمص وحوران وحاصبيا وراشيا وجبل عامل وغيرها . ولم تبقى الصدمات الطائفية في اطار صراع الدروز والموارنة بل تعدتهم الى طوائف أخرى داخل الدين الواحد . فعلى سبيل المثال تشير الى هجرة الروم لارثوذكس من حاصبيا في تشرين الاول 1844 اثر صدمات داخل الطائفة بين من بقي على الارثوذكسية ومن انتقل الى البروتستانتية وقدر عددهم بحوالى مئة عائلة . وبضغط من البطريركية الارثوذكسية في دمشق اجبر ارثوذكس حاصبيا العائلات التي انتقلت الى البروتستانتية على النزوح الى عبيه في جوار بيروت . لكن نفوذ الارساليات البروتستانتية المدعومة من الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا كان كافيا لعزل حاكم حاصبيا العثماني وارجاع العائلات المهاجرة فقامت هجرة مضادة من العائلات الارثوذكسية والمارونية والكاثوليكية فيها في مرحلة تميزت بالخلاف الحاد بين البروتستانت من جهة وباقي الطوائف الشرقية من جهة أخرى . وبدأ القناصل يستخدمون اسلوب التهديد للحاكم العثماني بالعزل ويتوصلون الى ذلك بالفعل (22) .

وطيلة مرحلة القائمقاميتين كانت الصدمات الطائفية شبه مستمرة يرافقها احراق القرى والمزارع وترحيل سكانها كما حصل عام 1845 في في المعلقة ، والدامور ، ورأس الحرف ، وعبيه ، والعربانية ، وترشيش ،

Documents : T.7. pp. 366-367 et 375 et 413-414 (20)

Ibid : pp. 439-441 (21)

Documents : T.8. pp. 17-22 et 52-53 (22)

وعينطورة ، والمتسعين (23) . ووصلت حمى الصدمات الى مدينة حلب في 17 تشرين الاول 1850 انتهت بعدد كبير من القتلى ، واحراق المنازل ، والسرقة والتعديات ، وفي الوقت نفسه حدثت صدمات مشابهة في بعلبك ارتدت وجها طائفا ضد المسيحيين فتدخلت السلطات العثمانية واعتقلت الامير خنجر حروفش وارسلته الى الاستانة للمحاكمة (24) .

وهكذا يلاحظ وضوح المخطط المعتمد على اشعال الفتن في مناطق متفرقة . وبرز جوانبه تحريض طائفي تعقبه صدمات دموية وقتلى وجرحى وتعديات ، وضغط أوروبى متواصل ، وتدخل الجيوش العثمانية التي تفرض العقاب الصارم ثم التهجير والنزوح . لذلك تزايدت اعداد العساكر العثمانية في المنطقة حتى قاربت العشرة آلاف انتشروا في العصابات والمدن الكبرى لمنع الصدمات الدموية في المشرق العربي (25) وحظيت بيروت باهتمام عثماني خاص اذ بقيت خارج الصدمات موسعى العقلاء فيها الى تعزيز الروابط بين الطوائف ، فتشكلت محكمة الجنايات فيها من ثلاثة مسلمين وثلاثة مسيحيين برئاسة حاكم بيروت العثماني في 14 أيلول 1851 (26) . وجعلت في رأس أهدافها الاقتصاص بشدة ممن يرتكب أعمالا ذات طابع طائفي أو يعرض عليها .

لقد باتت مدينة بيروت مركز استقطاب كبير ، في مختلف المجالات ، وسط منطقة تضج بالصدمات الدموية من كل نوع وتتسع دائرتها من حدود فلسطين حتى دمشق وحلب وطرابلس بالإضافة الى تعديات البدو التي لعبت دورا كبيرا في تعطيل دائرة الانتاج المحلي والتجارة الدولية . ومنذ عام 1850 عملت السلطات العثمانية على اقامة مراكز عسكرية ثابتة على تخوم مناطق البدو وأنشأت فيها تحصينات وحرسا للصحراء وراقبت بدقة الواحات ومصادر المياه الصحراوية ، وضمنت استقرار بعض القبائل ، وعملت على توطين قبائل شركسية في الجزيرة الفراتية (27) .

فساهمت التدابير العثمانية في ضبط بعض المناطق البدوية لكنها فشلت في تلافي الصدمات الدموية ذات الوجه الطائفي في مرحلة تاريخية كانت فيها بعض طوائف المنطقة ، خاصة الدروز والموارنة ، تقيم علاقات ثابتة مع قوى خارجية ، وبشكل أساسي مع بريطانيا وفرنسا . وكما رفض الدروز والعلويون التجنيد الاجباري ابان حكم ابراهيم باشا واعلنوا الانتفاضات

Ibid : pp. 108-109 et 126 et 150 (23)

Ibid : p. 382 (24)

Ibid : pp. 230-231 (25)

Ibid : p. 413 (26)

Jean-Paul PASCUAL : « La Syrie à l'époque Ottomane le XIXème siècle (27)

« im » La Syrie d'Aujourd'hui » CNRS — Paris 1980 — p. 3.

المتلاحقة ضده رفضوا كذلك التجنيد الاجبارى فى الجيش العثمانى مما دفع العثمانيين الى مهاجمة حوران فى 9 تشرين الاول 1852 واحراق بعض قراها والتنكيل بسكانها . وهاجموا أيضا ، وفى الفترة نفسها ، مناطق العلويين لنفس الاسباب (28) .

فمنذ أواسط القرن التاسع عشر أصبحت المسألة اللبنانية ذات وجه دولى شاركت عدة اطراف ، داخلية وخارجية ، فى تأزيمها فعجزت القوى العثمانية عن ايجاد حل لها الا بالاتفاق مع القوى الاستعمارية ذات المشاريع الواضحة لتفكيك السلطنة العثمانية والسيطرة على الاياتها .

وتميزت سنوات 1856 - 1860 بأحداث دموية شهدتها مختلف المناطق المحيطة ببيروت والبعيدة عنها . ولم تبق أسيرة الصدمات الدموية الطائفية بين الدروز والموارنة بل تعدتها لتشمل صدمات محلية داخل كل طائفة ، وصدمات ذات وجه اجتماعى واضح بين الفلاحين والزعامات المسيطرة . وفى عام 1856 بدأ صدام حاد بين موارنة بشري وموارنة اهذنى القريبة منها واستمر حتى عام 1857 وترك ذيو لا لاحقة لسنوات طويلة (29) . وفى عام 1857 حصلت صدمات دموية فى صيدا وجوارها (30) . وفى عام 1858 اعلنت زحلة العصيان فدخلها العسكر العثمانى بالقوة واخضع سكانها فى كانون الاول من العام نفسه (31) . وفى هذا العام أيضا انفجر الصراع فى كسروان بين الفلاحين والمقاطعين من آل الحازن واستمر حتى 1860 احرق اثناء الفلاحون بعض بيوت آل الحازن وسيطروا على الاراضى وأقاموا أول حركة فلاحية تحررية بقيت آثارها فاعلة حتى اليوم ولم يقض عليها الا بتكايف الزعماء المحليين مع القيادات العليا للكنيسة المارونية والحكام العثمانيين والقناصل الاجانب (32) .

وفى ايلول 1859 انفجر صراع دموى فى المتن كانت له انعكاسات مباشرة على اندلاع الصدمات الطائفية الدموية فى مختلف ارجاء جبل لبنان . بدأت الصدمات فى 28 ايار 1860 واستمرت متقطعة عدة اشهر أحرقت خلالها مدينة دير القمر التى كانت أكبر تجمع مارونى فى الجبل وتضم قرابة العشرة آلاف انسان . ودخل الدروز مدينة زحلة فى 19 حزيران 1860 . وتم احصاء حوالى أربعين قرية محروقة ومنهوبة فى جبل لبنان ، حتى وصلت الصدمات الى سهل بيروت (33) .

Documents : T.9. pp. 31- 38 (28)

Documents : T.10. pp. 88-93 (29)

Ibid : pp. 91-93 (30)

Ibid : pp. 120-121 (31)

Documents : T.10. pp. 106-107 et 161-169 (32)

Ibid : pp. 1 8, 174-177 et 180-189 (33)

خلال فترة المعارك وبعدها مباشرة لجأت الى بيروت اعداد كبيرة من النساء والاطفال والشيوخ فوجدت فيها الامن والحماية (34) . وليست هناك اية لصدامات طائفية دموية في بيروت اثناء تلك الصدامات وفي الفترات اللاحقة في حين تشير المصادر الى فتن طائفية عمت بعض المدن الشرقية خاصة دمشق (35) التي خسرت الكثير من سمعتها لصالح بيروت فبدأت تتحول بسرعة الى المركز التجاري والثقافي الاكثر نشاطا في شرقي البحر المتوسط .

ويتضح من وثائق هذه المرحلة ان السلطات العثمانية كانت جادة فعلا في اتخاذ التدابير الصارمة وتنفيذها فورا بحق من ثبتت مشاركته في الصدامات الطائفية في دمشق وجبل لبنان . وطالت العقوبات بعض الحكام العثمانيين والزعماء الدروز . وحكم على البعض منهم بالاعدام وتمت ملاحقة عدد كبير منهم فهجرت عائلات كثيرة من دروز جبل لبنان الى حوران وبيروت (36) .

لقد ادركت السلطات العثمانية ان المذابح الطائفيين في المنطقة جزء من مشروع استعماري تحضر له فرنسا للسيطرة على المنطقة واتخذت بالفعل تدابير عملية في هذا المجال فأرسلت حملة كبيرة الى شواطئ سوريا ولبنان لاحتلالها . لذلك سارعت السلطنة العثمانية الى ارسال وزير خارجيتها فؤاد

Ibid : pp. 178-179

(34)

(35) خلال الاشتباكات الدامية في دمشق عام 1860 أحرق الحي المسيحي فيها وقتل عدة الاف من سكانه قدر عددهم بخمسة الاف إنسان . وكانت حلب قد شهدت صدامات دموية مماثلة عام 1850 لكن يد الفتنة لم تمتد إليها عام 1860 بسبب يقظة حكامها وتكاتف السكان فيها . وسلمت كذلك مدن حماه وحلب في حين طالت الصدامات راشيا وحاصبيا ومناطق واسعة من جبل لبنان ، دون أن تصل إلى بيروت . وكان من نتائجها أن قامت السلطات العثمانية بإعدام عدد من قادة الصدامات وفرضت الأمن والاستقرار . لكن اعدادا كبيرة من السكان ارتحلت إلى بيروت وقبرص ومصر ، معظمهم من الطوائف المسيحية . وفرضت على الدمشقيين غرامة مالية كبيرة بلغت 12،5 مليون قرش أجبر مسلمو دمشق على دفعها إلى المسيحيين فيها دون أن يصل إلى هؤلاء سوى قسم زهيد من المبلغ .

يراجع : عبد الله حنا « حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - نموذج لحياة المدن في ظل الإقطاعية الشرقية » . دار ابن خلدون بيروت 1985 - وفيه معلومات هامة جدا حول حوادث دمشق لعام 1860 خاصة صفحات 260-270 . وحول التعويضات المشار إليها يراجع :

Documents : T.11. p. 38.

Documents : T.11. pp. 18-24 et 32-33

(36)

وفي دراسة ظهرت مؤخرا للدكتور سليم هشي بعنوان : « دروز بيروت : تاريخهم ومأسهم » يشير الكاتب إلى أثر صدامات القرن التاسع عشر في جلب وجبل لبنان التي أجبرت عددا هاما من عائلتهما على النزوح والاستقرار النهائي في بيروت . وكانت هزيمة الشيخ بشير جنبلاط على يد الأمير بشير الثاني الشهابي عاملا أيضا في تلك الهجرة وفي الكتاب إشارة إلى توقف عائلات نصرانية كثيرة سكنت بيروت منذ عام 1839 منها عائلات ربيز ، وبخازي ، وزعني وعرزوزي ، وزريق ، وعمران ورجي ، وغيرها . أما العائلات التي وفدت من حلب فسميت بالحلبي وفيها عائلات مسيحية وإسلامية . وأبرز العائلات الدرزية التي وفدت إلى بيروت في القرن التاسع عشر هي : آل الضاروب ، عساف ، رياح ، خداج ، رضوان ، عبد الخالق ، سري الدين ، وجميعها استقرت في مناطق أبناء ملتهم المتواجدين في بيروت منذ مئات السنين بين كركول الدروز وهي القوترات والقنطاري وساقية الجزير .

« دروز بيروت » - دار لحد خاطر - بيروت 1985 - صفحات 61-67 .

باشا مزودا بصلاحيات مطلقة لحل المسألة اللبنانية بما يضمن مصلحة السلطنة . لكن الضعف الذي انتاب السلطنة آنذاك كان واضحا بعد الحروب التي انهكتها خاصة حروب محمد علي وحروب القرم . وتشير وثائق الارشيف الفرنسي الى اعتراف بعض القادة العثمانيين بالتعاون الوثيق مع الدول الاستعمارية خاصة فرنسا وبريطانيا (37) . وتشير وثائق أخرى الى مشروع عثماني تدعمه بريطانيا وينص على الغاء نظام المتصرفية تدريجيا وايجاد صعوبات عند تطبيقه بحيث تتم اعادة ربطها بولاية بيروت على غرار ربط القائمتاميتين بولاية صيدا . لكن السياسة الفرنسية استطاعت افشال هذا المشروع وساهمت في بلورة المتصرفية كنظام خاص لجبل لبنان ، تدعمه الدول الاوروبية وتنفذ بتوذه السلطنة العثمانية ويحكمها متصرف يرتبط مباشرة بالباب العالي (38) .

هكذا تجاذبت المتصرفية تيارات سياسية فاعلة ، محليا ودوليا . فمن جهة اصرار عثماني تدعمه بريطانيا ويقضى بربط جبل لبنان بالسلطنة العثمانية مباشرة على الرغم من الوضع الدولي المميز المعترف به ، ومن جهة أخرى ، اصرار فرنسي يلقي دعم الموارنة من الداخل ويسعى الى بلورة كيان سياسي متميز في جبل لبنان تمهيدا للاعتراف به ككيان ذي وجه مسيحي في المرحلة اللاحقة تحت الحماية الاوروبية الفرنسية بشكل خاص وفي الحالتين كانت مدينة بيروت المستفيد الاكبر من تلك المشاريع السياسية . فقد نصت المادة التاسعة من بروتوكول المتصرفية المعدل لعام 1864 ان تكون بيروت مركزا للمحكمة التجارية التي ترعى شؤون الاجانب في علاقاتهم بالسكان المحليين (39) . وفي تقرير فرنسي بتاريخ 27 ايار 1865 تبدو الاشارة واضحة الى تحول بيروت السريع خلال القرن التاسع عشر حتى اصبحت أهم مركز كوسموبوليتي في المنطقة . وعلى عكس دمشق الاسلامية لقيت بيروت الدعم الكامل من الاوروبيين لانها مدينة مفتوحة ومختلطة وذات كثافة سكانية مسيحية كبيرة ولا ينسى واضع التقرير ان يوصى بنقل الولاية من دمشق الى بيروت (40) .

وفي الفترة الممتدة من تاريخ هذا الاقتراح عام 1865 حتى تطبيقه فعليا عام 1888 وعلان بيروت مركزا لولاية كبيرة تمتد شمالا وجنوبا دون الغاء ولاية دمشق ، كانت مدينة بيروت تشهد تبدلات اقتصادية وعمرانية وسياسية

Documents : T. 11. Rapport du 18 Mai 1861 — pp. 88-89 (37)

Ibid : Rapport du 18 Juillet 1861 — pp. 131-134 (38)

(39) يتراجع نص البروتوكول الأصلي المعدل لعام 1864 في Documents : T.12. pp. 33-40

Ibid : Rapport du 27 Mai 1765 pp. 162-163 (40)

وثقافية بالغة الأهمية . فقد انتقلت إليها الارساليات الأجنبية اليسوعية والاميركية لتحول الى جامعات كبيرة لا زالت عاملة حتى الآن .

وتشير التقارير الفرنسية الى وجود ثلاثة مراكز أساسية في المشرق العربي ابتداء من عام 1888 اي ولاية بيروت ، وولاية دمشق ، ومتصرفية جبل لبنان . لكن ولاية بيروت كانت الأكثر حضوراً بينها وعلى كافة المستويات (41) . وبدأت ملامحها الاقتصادية والعمرانية تتغير بسرعة مذهلة في نهاية القرن التاسع عشر . وأقيمت فيها فروع عديدة لمؤسسات مالية وتجارية . وانتشر تأثيرها الثقافي في المشرق العربي كله وصولاً الى وادي النيل (42) . أما دمشق فكانت تعين مرحلة تطور بطيء لا يمكن ان يقارن بنهوض بيروت خلال هذه المرحلة (43) في حين كانت متصرفية جبل لبنان تنزف خيرة شبابها العامل كمهاجرين الى مصر وأوروبا وأميركا . وفي تقرير بالغ الأهمية لقنصل فرنسا العام في بيروت الكونت دو سيرى Le Comte de Sercey في 26 شباط 1903 عن الهجرة اللبنانية يشير القنصل الى ان المتصرفية البالغ سكانها قرابة الاربعمائة ألف نسمة فقدت منهم ثمانين ألفاً في السنوات الخمس عشرة الاخيرة أي منذ اعلان ولاية بيروت . ويعزو أسباب الهجرة الداخلية الى اراضي الجبل الوعرة وصعوبة استصلاحها . وان امتيازات الجبليين تمنع فلاحهم من النزول الى سهل البقاع حيث يتعرضون للسخرية ودفع الضرائب المعفيين منها . لذلك غادر قسم هام منهم الى مصر وعملوا في التجارة وبالاخص تجارة التبغ . كذلك هاجرت اعداد كبيرة منهم الى القارة الاميركية ، ومعظمهم الى الولايات المتحدة . وبلغت ارقام الهجرة السنوية ثمانية آلاف مهاجر عام 1899 . وهي هجرة مسيحية في الغالب عن بعض المقاطعات التابعة لولاية بيروت خاصة حمص وصافيتا وطرابلس ومرجعيون . ومن اقصية ولاية دمشق بالاضافة الى جميع اقصية المتصرفية . ويشير التقرير الى انه من اصل ثمانية آلاف مهاجر

(41) Documents : T.15. rapport du 11 Juillet 1888 — pp. 288-291

(42) توسعنا كثيراً في رسم معالم هذه النهضة في كتابنا الصادر حديثاً بعنوان مسعود ضاهر : « بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين - دراسة في التاريخ الاجتماعي من خلال مذكرات العالم الروسي الكبير أ. كريمكي » رسائل من لبنان 1896-1898 . دار المدى - بيروت 1985 في 312 صفحة .

(43) يرى عبد الله حنا في الصدمات الدموية التي دارت في دمشق عام 1860 « انتصاراً للقوى الرجعية في استنبول ودمشق على قوى التقدم الاجتماعي المتمثلة في الفئات الوسطى ذات الملامح البورجوازية الناشئة . وهذا مما أدى إلى تأخير ظهور حركة النهضة العربية في دمشق حتى مستهل القرن العشرين . ولم تتمكن الحركة الوطنية العربية في دمشق من الوقوف على رجلها إلا بعد انهيار الدولة العثمانية عام 1918 . ووقع عبء النهضة العربية الحديثة على كامل القوى المستنيرة في جبل لبنان ، وبيروت التي وضعت أسس حركة البعث القومي في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومنذ مستهل القرن العشرين أخذ مركز النشاط القومي ينتقل تدريجياً إلى دمشق ، إلى أن استقر فيها بعد الحرب العالمية الأولى » . « حركات العامة الدمشقية ... » ص 270 .

ثم أشرف شيفاليه على كتاب هام عن المدينة العربية خصصت فيه عدة دراسات تناولت تطور مدينة بيروت في القرن العشرين .

سوري ولبناني يغادرون أراضيهم كان 6500 منهم يتجهون الى بيروت أولا حيث مركز تجميع المهاجرين ، ووكالات السفر ، خاصة الفرنسية منها ، التي تنقل غالبية المهاجرين عبر الشركة الفرنسية ميساجيري ماريتميس La Compagnie des Messageries Maritimes . وكانت البواخر الفرنسية تجمع سنويا قرابة 1,8 مليون فرنك فرنسي على الاقل أجور هجرة اللبنانيين ، وان ستة آلاف مهاجر من أصل الثمانية كانوا يمرون عبر مرفأ مرسليليا .

اما التوزيع الطائفي للعثمانيين ألف مهاجر فكان كالتالي 55 ألفا من الموارنة (69 %) ، و 12 ألفا من الروم الارثوذكس (15 %) ، و 9 آلاف من الروم الكاثوليك (11 %) ، و 4 آلاف مسلم معظمهم دروز وشيعة (5 %) . اى ان الهجرة اللبنانية حتى مطلع القرن العشرين كانت بنسبة (95 %) من المسيحيين ، موارنة في الغالب ، مقابل (5 %) من الطوائف الاسلامية ولا تتبدل هذه النسبة بشكل جذري حتى الحرب العالمية الاولى (44) .

بعض الاستنتاجات :

تعتبر فترة حكم محمد علي في سوريا منطلقا هاما لدراسة التبدلات الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والسياسية والثقافية التي برزت في المشرق العربي . فقد استفادت قوى اجتماعية متنوعة من اصلاحات محمد علي ومحاولته ترسيخ سلطة مركزية في مصر والمقاطعات التي أتبعته بها . وكانت القوى البورجوازية الناشطة ، خاصة المسيحية واليهودية بالاضافة الى بعض شرائح البورجوازية الاسلامية التي أقامت علاقات مبكرة مع أوروبا ، أكثر الفئات الاجتماعية استفادة من تلك الاصلاحات في المشرق العربي . فتعزز دور التجار الوسطاء ، ووكلاء القناصل ، والمترجمين ، وجميع الذين استفادوا من الحماية الأوروبية والاعفاءات الجمركية وجنوا ارباحا طائلة كانت تنكس على مرأى من الجماهير الفقيرة ، ومعظمها من الطوائف الاسلامية في المدن ، والارياف ، وكان من نتائج هذه المرحلة ايضا ان غزت السلع الأوروبية الاسواق المحلية ، ونهب الأوروبيون كميات كبيرة من النقود المعدنية والمعادن الثمينة ، وارتفعت الاسعار بشكل فاحش ، واشتدت الضائقة الاقتصادية فطالت مختلف فئات الشعب ، خاصة الفلاحين في الارياف والحرفيين في المدن . فعلى سبيل المثال ، انخفض عدد الحرف في مدينة حلب من عشرة آلاف حرفة في مطلع حكم محمد علي الى حوالي أربعة آلاف عام 1840 . وان ارقاما غير دقيقة لكنها ذات دلالة تشير الى ان عدد الحرفيين في مدينة دمشق قد انخفض من ثلاثين ألف حرفي عام 1850 الى 15 ألف عام 1880 والى ثمانية آلاف فقط عام 1839 (45) .

شكل الحكم المصري بداية مرحلة تاريخية جديدة تميزت بتوثيق الصلة بمراكز الرساميل العالمية ، وتحديد الاوروبية منها . وكان من الطبيعي ان تبرز مراكز فرعية لها في المشرق العربي فكانت بيروت من اكبر المدن التي استفادت وتحولت من مرفأ صغير شرقي البحر المتوسط في مطالع القرن التاسع عشر الى مدينة كبيرة تناهز المليون نسمة في القرن العشرين وتمتلك أكبر مرفأ بحري في المنطقة وأقيمت فيها أولى الجامعات الاجنبية في القرن التاسع عشر ، بالاضافة الى حركة سياسية وصحافية وطباعية وتربوية وأدبية ناشطة .

. ودخلت الاصلاحات التي قامت بها ادارة محمد علي في مصر وبلاد الشام عمق التطور الاقتصادي والاجتماعي وبات من الصعب جدا تجاهلها أو النكوص الى المرحلة التي سبقتها . فأدخلت آلات حديثة ساهمت في نمو الانتاج ، وتساوى الناس ، على اختلاف مناطقهم وطوائفهم ، في الحقوق والواجبات ، وتعزيزت السلطة المركزية على حساب السلطات الاقليمية المفككة ، وتدخلت الدولة في مختلف المجالات عبر قوى عسكرية نظامية بدل قوى الزعماء المسيطرين . وكانت بيروت المركز الاساسي لتنفيذ تلك الاصلاحات حيث أنيط بالقوى العسكرية المتمركزة فيها قمع الصدامات الدموية بين السكان . وعلى الرغم من تقاعس وتواطؤ بعض القادة العثمانيين الذين غضوا النظر أو شاركوا في استمرار الصدامات الطائفية في جبل لبنان ودمشق وحاصبيا وراشيا وغيرها فان استقرار الوضع في بيروت كان مؤشرا ايجابيا لصالح تطورها طيلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . فاستقرت فيها جاليات أوروبية كثيرة مارسست مختلف أنواع النشاط ، وارتفعت قيمة المبادلات التجارية بينها وبين الخارج على شكل قفزات كبيرة بلغت ثمانية أضعاف خلال سنوات قصيرة ما بين 1825 و 1855 (46) ، واستمرت هذه الوتيرة بخط متصاعد في المرحلة اللاحقة . ويلاحظ ان عدد سكان بيروت ارتفع أيضا على شكل قفزات مماثلة . فمن ستة آلاف نسمة تقريبا في مطالع القرن التاسع عشر الى 46200 نسمة عام 1860 الى 60 ألفا عام 1863 ، الى 80 ألفا عام 1865 ، الى 70 ألفا عام 1870 ، الى 80 ألفا عام 1875 ، الى 120 ألفا عام 1895 الى 136400 عام 1908 ، الى 130 ألفا عام 1914 (47) . وتدل هذه الارقام بوضوح اثر عاملي الجذب والدفع الى بيروت ومنها الى مصر وأوروبا وأميركا . لذلك لا يمكن فهم تلك القفزات الكمية والنوعية الا في اطار تشكل بيروت

Ibid : pp. 45-46

(46)

Dominique CHEVALLIER : « La société du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe ». Paris 1971 — p. 292. (47)

Dominique CHEVALLIER : Directeur : « L'espace social de la ville arabe » Paris 1979. Troisième partie : « Mutations socio-économiques et restructuration de l'espace urbain. l'exemple de Beyrouth » pp. 143-305

كمركز كوسموبوليتي جذب اعدادا كبيرة من الارمن ، والاكراد ، والشركس ، والتركمان ، والكلدان ، والاشوريين ، والأتراك ، والاوروبيين ، على اختلاف جنسياتهم . وهي أيضا قطب كوسموبوليتي جذب الرساميل الاجنبية لربط مقاطعات سوريا ولبنان بعجلة السوق الرأسمالية العالمية .

وهكذا قاد ارتباط مصر المبكر بالمشروع التحديثي على النمط الاوروبي الى تبلور مراكز تبعية مشرقية للسوق الرأسمالية العالمية منذ القرن التاسع عشر . فوجدت مصر موقعها في تلك السوق عبر انتاج القطن والارز ، في حين وجد جبل لبنان ذلك الموقع في انتاج الحرير ، وفلسطين في انتاج الليمون والحمضيات ، واللاذقية في انتاج التبغ ، والولايات السورية ، خاصة حوران ، في انتاج الحبوب . اي ان نوعا من التخصص الانتاجي في المشرق العربي بات شديد الوضوح في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . اما بيروت فشكلت المركز الاهم للربط بين حركة الرساميل الاوروبية وأسواق الانتاج والاستهلاك في هذا المشرق . وترتب على ذلك ان حركة سكانية كبيرة نشطت من مراكز الانتاج الى مراكز الرساميل عبر مدينة بيروت وتجاريتها المزدهرة . ولعبت الصدمات الدموية المتلاحقة في المناطق المجاورة عامل الدفع للسكان ساعد كثيرا في توجيههم الى بيروت ومصر والخارج . فاستقرت فيها اعداد كبيرة منهم واكملت طريقها الى الخارج اعداد أكبر استقرت في مصر والقارة الاميركية . ونتيجة الازدهار الاقتصادي والنشاط الثقافي المميز في مختلف الحقوق شكلت بيروت مركز استقطاب وجذب وتسهيل مقارنتها في هذه الفترة بمدينة الاسكندرية . فقد اغتنبتا بجاليات كثيرة مماثلة وفدت اليها من دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، والقدس ، وطرابلس ، وجبل لبنان ، وسواها بالاضافة الى جاليات مغربية ومصرية (48) ، وجاليات اوروبية متنوعة . وكانت المقاطعات التي شهدت الصدمات الطائفية أكثر المناطق تضررا اذ فقدت آلاف القتلى والجرحى في معارك التقنيل والثار ، وارتحلت آلاف أخرى الى مناطق أكثر أمنا واستقرارا ، خاصة بيروت . وعلى الرغم من قيام نظام المتصرفية في جبل لبنان تحت اشراف عثمانى مباشر وبحماية اوروبية متعددة الجنسيات فان سيل المهاجرة

(48) في دراسة مخطوطة للدكتور حسان حلاق بعنوان « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لبيروت والولايات العثمانية من خلال سجلات المحكمة الشرعية (1843-1844) في بيروت » تبرز الأصول المرفرية والمصرية والسورية لكثير من العائلات البيروتية في أواسط القرن التاسع عشر منها : أسر الداعوق ، يموت ، الطيارة ، فتح الله ، قدورة ، العويني ، سنو ، بيهم من أصل مغربي . أسرة بكداش من أصل ألباني ، كذلك أسرة أرناؤوط . أسرة اليافي من فلسطين . ومن الواضح أيضا أن أسر الحلبي والحمصي والدمشقي ، ودمشقية والحموي ، واللاذقي ، وحوارني وغيرها من أصل سوري . وأسرة مكّي من أصل سعودي وأسرة الفيومي ، الرشيدّي ، الدميّاطي ، المصري ، الصيدي ، التكروري ، الإسكندراني ، من أصل مصري ، وجميعها من الأسر التي تقطن بيروت حتى الآن بالإضافة إلى عائلات بيروتية من أصل يوناني كآل باسيل ، وسرسق ، وسيمونيدس ، وغيرها .

لم ينقطع منها وبلغ ارقاما مذهلة قياسا الى عدد السكان فيها .هـ فخلال سنوات 1870 - 1900 كان يغادر المتصرفية قرابة 12 ألف مهاجر سنويا . حتى ان مدينة نيويورك وحدها شهدت تركز جالية لبنانية بلغت قرابة 65 ألف مهاجر قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى « (49) . وفي احصاء آخر مكمل لهذه الحقبة نلاحظ « ان لبنان - المقصود متصرفية جبل لبنان - أصبح المركز الرئيسي للهجرة . وهناك احصائيات تشير الى ان هذا البلد فقد قرابة 25 % من سكانه خلال سنوات 1900 - 1914 « (50) .

أخيرا ، ليس من السهل الاحاطة بجميع الاسباب والعوامل التي دفعت سكان الولايات السورية باتجاه بيروت وجبل لبنان ومنهما الى مصر والحارج طيلة القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . لكن احدى الحقائق التاريخية المثبتة بالوثائق والاحصاء تؤكد ان هذه المناطق تشكلت كمراكز استقطاب جذبت اليها سكان الولايات المجاورة في المشرق العربي . وكانت أبرز النتائج ان ازدادت الكثافة السكانية بشكل عمودي في مراكز الجذب على حساب الافقار السكاني في مناطق الدفع .

ولا شك ان الصدمات الطائفية لعبت دورا أساسيا في هذا المجال . لكن قراءة متأنية لها على ضوء خط التطور الرأسمالي العالمي الساعى لايجاد مراكز ثابتة للرسميل الاجنبية في المشرق العربي يلقي اضواء جديدة على مقولة الدفع والجذب تتجاوز النظرة الضيقة اليها فى حدود الصدمات الطائفية فقط . فافراغ مناطق واسعة من سكانها ، خاصة المناطق الزراعية ، ودفع النازحين باتجاه مراكز الاستقطاب الرأسمالي فى بيروت ومصر لا يمكن تفسيره الا فى إطار مشروع رأسمالي تبعى وهامشى بدأ يبرز فى المشرق العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر ومازال مستمرا حتى الآن . وتعتبر مرحلة حكم محمد علي فى مصر وامتداده الى الولايات السورية نقطة تحول أساسية فى تاريخ المشرق العربي . اثناءها تعززت الروابط بين الولايات السورية ، خاصة جبل لبنان وبيروت ، ومصر على كافة المستويات . وهى نماذج علمى بالغ الدلالة على حركة الاندماج القومى العربى المبكر فى المشرق العربى الحديث والمعاصر (51) .

د. مسعود ضاهر

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

فى الجامعة اللبنانية

(49) Pierre LYAUTY : « Liban Moderne ». Paris 1965 — p. 41.

(50) Benoit ABOUSSOUAN : « Le problème Syrien » Paris 1924 p. 29.

(51) أنجزنا دراسة كبيرة ستصدر قريبا عن منشورات الجامعة اللبنانية بعنوان « الهجرة اللبنانية إلى مصر - هجرة الشوام » فى 470 صفحة استندنا فيها إلى وثائق أصلية معظمها غير منشور وتوصلنا من خلالها إلى استنتاجات هامة نعمل على توسيعها وتعميقها فى إطار دراسة مفصلة بعنوان « حركة الاندماج القومى العربى فى المشرق العربى الحديث والمعاصر » تتناول بالتحديد الحقبة الممتدة من حكم محمد علي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة أبان العصر العثماني (1517 - 1798 م .) من خلال وثائق المحاكم الشرعية

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

تمهيد :

تقع القاهرة في المنطقة الممتدة ما بين النيل وجبل المقطم ، وتشرف عليها القلعة ، قصر الحكم ، وكان يحيط بها سور له عدة أبواب معروفة ، وكانت القاهرة قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (1498 م .) سوقا تجارية عامة ، ومحورا رئيسيا من محاور التجارة العالمية ، وبعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحول طريق التجارة إليها ، أصيبت القاهرة بـل ومدن الثغور المصرية بالكساد ، وظلت الحركة التجارية في القاهرة تعاني انهيار الدولة المملوكية في يناير 1517 م . ، وفقدت القاهرة مكانتها كعاصمة لدولة كبيرة ، وأصبحت عاصمة لولاية ، تابعة لعاصمة الدولة العثمانية استانبول ، ولكن بعد أن استقرت الامور للحكم العثماني ، وبدأ العثمانيون تطبيق سياستهم الادارية واحتفاظهم بمعالم النظام القديم مع احداث التنظيمات التي تناسب سياستهم ، وتغيير الوجوه الحاكمة ، وتطبيق سياستهم الاقتصادية ، وكانت سياستهم ازاء عدم فرض أية قيود على الحراك السكاني بين أجزاء امبراطورتهم ، فاننا نجد نتيجة لهذه السياسة أن النشاط بدأ يعود الى القاهرة مرة ثانية ، فوفد الى القاهرة المغاربة والشاميون والحجازيون والعراقيون والسودانيون ، والتكارة والاربيون ، حتى أن الوثائق تشير الى امتداد العمران الى ظاهر أسوار القاهرة (I) وأصبحت القاهرة مركزا رئيسيا ومحورا هاما للتجارة العالمية ونشطت الحركة فيها نشاطا كبيرا ، وتكونت فئات اجتماعية مختلفة ، وسادت بين هذه الفئات علاقات اجتماعية مختلفة ، وأصبحت الحياة الاجتماعية داخل المدينة ذات سمة خاصة ، هذا فضلا عن أن المدينة مرت بأحداث كثيرة مثل انتشار الامراض ، وعدم فيض النيل كان لها تأثيرها الكبير على الحياة الاجتماعية داخل المدينة ، ويجب أن ندرس بادىء ذى بدء التكوين الاجتماعى لمجتمع القاهرة ، وقد كان هذا المجتمع يتكون من :

أولا : الفئة الحاكمة :

كانت هذه الفئة اقلية تشكل ارسنقراطية حاكمة ، تتوزع المناصب الادارية والاشرفية على أحوال القاهرة فيما بينها ، سواء أكانت تركية أو مملوكية

(1) هناك آلاف الوثائق في سجلات المحاكم الشرعية التي تشير الى انشاء مباني وقهاوي خارج أسوار القاهرة وتذكر عبارة « خارج القاهرة » « ظاهر القاهرة » .

طابعها في غالب الاحيان الاستعلاء والصلف (2) ، وقد كان هناك تمييز بين أبناء هذه الفئة على أساس المكانة الاجتماعية من ناحية ، والمركز الذي يشغله الفرد منها من ناحية أخرى ، ولكن الشيء الواضح الذي كان يميزها جميعها عن أفراد المجتمع عموماً ، هو أنها عاشت « طبقة متميزة منفصلة عن سائر طبقات المجتمع سواء في الظواهر السلوكية ، أو في احتلالها مراكز القيادة في الادارة والجيش ، أو في مكانة أفرادها ، أو في لغة التعبير ، وأسلوب التفكير ، كما تميزت بمستوى اقتصادي مرتفع الامر الذي ينعكس على جوانب حياتهم ، أو تفصح عنه أزيائهم ، وتدل عليه قصورهم وحاشيتهم (3) ، وأصبح أفرادها ينعتون دائماً بأعيان البلاد ، وأكابرها ، وأمرائهم ، وأصحاب الحل والربط ، أي أصحاب القول الفصل في أمور البلاد (4) .

وكان على رأس هذه الفئة المتميزة الباشا أي الوالي العثماني ، وهو صاحب السلطة العليا في البلاد ، تمكنه من القيام بدور مؤثر في البلاد ، ولكن تزايد سلطة الجند أضعف من سلطة الباشا ، حتى أن بعضهم - منذ الثلث الاخير من القرن السادس - قتل ، فمثلاً نجد أن محمود باشا قتل على يد جند السباهية في 20 جماد الثاني 974 هـ / 2 يناير 1567 م ، تضم أويس باشا وهو في الديوان في 2 شوال 997 هـ / 4 أغسطس 1589 م ، ورغم قسوة بعض هؤلاء الباشوات وظلمهم للسكان المحليين ، فإنهم وقفوا عاجزين ازاء فتن الجند ، وانعكس أثر ذلك على الرعايا من أبناء الشعب المصري (5) ، والجاليات الاخرى التي عاشت في القاهرة في ذلك العصر ، ثم كان ازدياد نفوذ الامراء المماليك الذي شل سلطة الوالي وتمكن هؤلاء الامراء من احتواء الاوجاقات التي أصبح نفوذ الامراء عليها أقوى من نفوذ الباشا ، كما أن الامراء منذ منتصف القرن السابع عشر أصبحوا لا يأبهون بالفرمانات العثمانية (6) ، وازداد الصراع بين بيوت المماليك حول الاستحواذ على المناصب الادارية العليا ، والسيطرة على معظم الادارات المالية مثل ادارات الجمارك ، والتزام الاراضي الزراعية ، فقد اتضح لنا من سجلات الالتزام سواء الخاصة بالاراضي الزراعية ، أم بالمقاطعات الاخرى ، أن معظم الملتزمين من عناصر مملوكة ، حتى الملتزمين

(2) عبد الغني ، احمد شلبي ، أوضح الاشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشوات ، تحقيق دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، التقديم ، ص 13 .

(3) أبوزيد حكمت ، « المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صورته الجبرتي » بحث منشور ضمن ابحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية 16 - 23 أبريل 1974 م ، ص 344 .

(4) عبد الغني ، احمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 14 .

(5) نفسه ، ص 115 ، ص 122 .

(6) العوفي ، ابراهيم بن أبي بكر ، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة .

المنتمين الى الاوجاقات العسكرية ، كانوا من العناصر المملوكية (7) ، حيث أصبح المماليك ينتمون الى الاوجاقات العسكرية للانتفاع بالمميزات المادية والادبية التي كانت ممنوحة لرجال الاوجاقات ، التي أصبح الانتماء اليها سهلا ميسورا ، مما يوحي بأن الادارة العثمانية أصبحت اسما أكثر منها واقعا ، وأصبح الباشوات العثمانيون عرضة للعزل والمحاسبة والسجن من جانب الامراء المماليك ، وأصبحت الدولة العثمانية تستجيب بسهولة ويسر لطلبات هؤلاء الامراء لعزل ولاتها وتولية غيرهم ، وأصبح الامراء المماليك يعقدون اجتماعات خاصة بهم عرفت باسم « الجمعية » لمناقشة الامور التي يريدون انفاذها ، أو ابطالها ، أو مناقشتها ، وأصبح للقرارات التي يصدرونها تأثير كبير في ادارة البلاد ، وبوصول النفوذ المملوكي الى هذه الدرجة من السلطة ، دخلت البيوت المملوكية منذ منتصف القرن السابع عشر ، والى نهاية القرن الثامن عشر في صراع مرير فيما بينها من أجل الاستحواذ على السلطة والمناصب الادارية والاشرفية الكبرى (8) ، وكان لهذا الصراع أثره الكبير على مجتمع القاهرة ، والعلاقات الاجتماعية فيها .

ولكن يجب أن نذكر أن هناك بعض الباشوات الذين كانت لهم بعض الاعمال ذات النفع لسكان القاهرة ، فقد واجهوا الغلاء والازمات كما اهتموا بالقاهرة كمدينة ومحاولة اصلاح شوارعها اكثر من اهتمام الاهالى أنفسهم ، فقله أمر محمد باشا ، قول قران 1607 - 1611 م ، بإزالة النتوءات التي برزت في شوارع القاهرة وتنظيفها ، وتراكم القاذورات من الشوارع التي أدت الى مشاكل كثيرة (9) ، ومنهم من عمل على اصلاح أحوال الرعية (10) ومنهم من « كان حاكما عادلا صالحا ، محبا للفقراء ، والعلماء محسنا لهم » مثل علي باشا الذي ولي أمر مصر في الفترة من 10 شوال 956 - 25 محرم 961 هـ . / I نوفمبر 1549 - 31 ديسمبر 1553 م . وعموما فإن الباحث في تاريخ مصر في العصر العثماني ، يجد هؤلاء الولاة نوعين لا ثالث لهما ، اما شرير غير عادل ، لا تهمة مصلحة الرعايا ، أو عادل خير تهمة مصلحة الرعايا في المرتبة الاولى (II) . ويعمل على تنظيم أحوال القاهرة ، وأحوال السكان ومرافق القاهرة عموما ،

(7) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص 87 - 91 .

(8) عبد الغني ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 6 .

(9) البكري الصديقي ، محمد بن أبي السرور ، كشف الكرية في رفع الطلبة ، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثالث والعشرون 1976 م ، ص 373 - 374 حيث ذكر « برز أمر مولانا الوزير نصره الله تعالى ، بإجهار النداء في شوارع مصر (القاهرة) بقطع ما علا من الأرض بالقصبة ، وتحت الحوانيت على العادة ، وشرعوا في ذلك » .

(10) عبد الغني ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 105 .

(11) نفسه ، ص 111 .

ومراقبة الاسعار ، ويأمر بعدم ارتفاع الاسعار مهما حدث من أزمات ، وآخر ينشئ « الحمام الذى بسوق السلاح والدكاكين » (I2) وهكذا .

أما الاجهزة التى كانت تحت ساطة الادارة العليا والخاصة بالقاهرة فأننا نجدها ثلاثة هى وجاق الانكشارية (وجاق المستحفظان) ، وكان يقوم هذا الوجاق بدور الشرطة فى كل الشؤون التى لا تخضع لسلطة المحتسب ، وكانت سلطة هذا الوجاق تشمل الحراسة من أعمال المصوص ، وتقاوم كل أنواع الفساد ، وفى وقت الازمات يحوز أغا هذا الوجاق سلطة مطلقة ، وقد بدت سلطة هذا فى كثير من الاحيان سلطة استبدادية (I3) .

والجهاز الثانى هو جهاز والى القاهرة ، أى الصوباش ، وسلطته محصورة داخل القاهرة وكانت مهام الصوباشى التأكد من أن حراسة احياء المدينة مؤمنة ، ويعمل على أن يسودها النظام ، وكان يقوم ببعض الجولات الليلية ، وكان يقوم بمعاينة المخالفين بالغرامات وبعقوبات شديدة ، وكان عليه ان يراقب تنظيف ترعة القاهرة وغيرها من أنواع الحراسات (I4) .

وثالثها المحتسب والجهاز الادارى الذى يخضع له ، وقد كان اختصاص المحتسب الرئيسى هو مراقبة الاسواق والحركة الدؤوب فيها وبخاصة عمليات الموازين والمكايل والمقاييس ، والاسعار السائدة وعدم رفعها ، وكان يصحبه فى جولاته جهاز متخصص لكشف الغش والزيف فى هذه الامور ، واستطاع المحتسب فى جولاته العديدة من ضبط كثير من هذه الحالات ، وعمل على ضبط السوق المصرى لتأدية خدماتها المتعددة لسكان القاهرة (I5) .

ونأتى أخيرا الى جهاز القضاء الذى كان يقوم آنذاك بمهام عديدة ويسجل أحكامه التى كانت تعبر عن حياة الشارع المصرى ، فى سجلات خاصة ، وليس من مهمتنا هنا أن ندرس القضاء ونظامه (I6) ، وانما نسجل ان القضاء كهيئة حاكمة استطاع أن يقدم كثيرا من الخدمات الاجتماعية لسكان القاهرة (I7) .

(12) نفسه ، ص 114 .

(13) أحمد : لىلى عبد اللطيف ، الإدارة فى مصر فى العصر العثماني ، ص 191 - 195 ، ص 229 - 232 ، ريمون ، أندريه ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العشانية ، ترجمة زهير الشايب ، ص 31 - 34 .

(14) أحمد ، لىلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 233 ، 235 ، ريمون ، أندريه ، المرجع السابق ، ص 34 - 35 .

(15) أحمد ، لىلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 235 - 238 ، ريمون ، أندريه ، المرجع السابق ، ص 32 - 38 .

(16) لمزيد من التفصيل عن القضاء أنظر ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، القضاء فى مصر الثمانية 1517 - 1798 م ، بحث منشور فى كتاب « بحوث فى التاريخ الحديث » جامعة عين شمس 1976 م ، ص 171 - 178 .

(17) نفسه .

وعموما فإن الفئة الحاكمة ، رغم أنها كانت تشكل فئة متميزة بمختلف تشكيلاتها فإنها عملت طبقا لامكانياتها على توفير الامن والطمانية لسكان القاهرة ، ورعاية شؤونهم والعمل على مقاومة أى شىء يضر بأحوال السكان ، ومحاولة تنظيم العلاقات والمعاملات فيما بينهم ، والتي تمس مختلف شؤون الحياة ، ومع ذلك فإن العلاقات لم تكن دوما على ما يرام بينهم وبين سكان القاهرة الذين كانوا يرفضون كثيرا من تصرفات أفراد الهيئة الحاكمة .

ثانيا : فئة التجار :

بدأت السوق القاهرية ، تشهد نشاطا متزايدا لهذه الفئة ، مع بدايات النصف الثانى للقرن السادس عشر ، وبدأت القاهرة تشهد نوعان من المشتغلين فى العمل التجارى هما : فئة أعيان التجار ، وفئة الشركاء فى العمل التجارى ، وظهرت فى القاهرة ، فى العصر العثماني ، بعض الاسواق والسويقات الجديدة ، بجانب ازدهار الاسواق القديمة التى كانت قائمة فى العصر المملوكي ، كما اشتهر كثير من الوكالات التى كانت بمثابة مؤسسات تجارية كبيرة ، وبخاصة للسلع الخارجية (18) ، ومن أشهر الاسواق الكبيرة التى تذكرها الوثائق بأنها عامرة بالتجارة هي :

سوق طولون (19) ، سوق أمير الجيوش (20) ، سوق باب اللوق السعيد (21) ، سوق الفحمين (22) ، سوق الجملون (23) ، سوق خان الخليلي (24) ، سوق الهمرامزة (25) ، سوق الباسطية (26) ، سوق

(18) لمزيد من التفصيل : انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، نشوء الرأسمالية المصرية خلال العصر العثماني 1517 - 1798 م ، وأثرها على الحياة الاقتصادية من خلال وثائق المحاكم الشرعية .

(19) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (4446) ، ص 15 ، مادة (112) بتاريخ 12 رمضان 963 هـ / 9 يولية 1557 م .

(20) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 79 ، مادة (186) ، بتاريخ 18 رمضان 964 هـ 15 يولية 1557 م .

(21) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة البرمشية ، سجل (705) ، ص 142 ، مادة (531) ، بتاريخ 5 رمضان 977 هـ / 11 فبراير 1570 .

(22) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 153 ، مادة (372) ، بتاريخ 4 شوال 964 هـ / يولية 1557 م .

(23) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (445) ، ص (391) ، مادة (957) ، بتاريخ 15 جمادى الثاني 964 هـ / 15 أبريل 1557 م .

(24) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس السجل ، ص 395 ، مادة (1996) ، بتاريخ 18 جمادى الثاني 964 هـ / 18 أبريل 1557 م .

(25) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 194 ، مادة (490) ، بتاريخ 11 شوال 964 هـ / 7 يولية 1557 م .

(26) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس المحكمة ، سجل (445) ، ص 372 ، مادة (939) ، بتاريخ 12 جماد الثاني 964 هـ / 7 يولية 1557 م .

البابلي (27) ، سوق خط الجامع الازهر (28) ، سوق الشرب (29) ، سوق
 الفورية (30) ، سوق السوراقين (31) ، سوق الدجاجين (32) ، سوق
 الصاغة (33) ، سوق العطارين (34) ، سوق الفزل (35) ، سوق
 السلاح (36) ، سوق البقر (37) ، سوق القمح (38) ، سوق الرقيق (39) ،
 سوق الرميطة (40) ، سوق سفل الربيع (41) ، وقد وجدت داخل هذه
 الاسواق الكبيرة ، أسواق صغيرة متخصصة فى بيع سلع بذاتها مثل « سوق
 الاحرمة ، داخل سوق طولون » (42) ، وسوق النحاس ، بخط بين

-
- (27) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس المحكمة ، نفس السجل ، ص 402 ،
 مادة (1019) ، بتاريخ 18 جماد الثاني 964 هـ / 18 أبريل 1557 م .
 (28) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس السجل ، ص 322 ، مادة (1073) ،
 بتاريخ 23 جماد الثاني 964 هـ / 22 أبريل 1557 .
 (29) أرشيف الشهر العقاري بالقاهرة : نفس السجل ، ص 412 ، مادة (1046) ،
 بتاريخ 22 جماد الثاني 964 هـ / 22 أبريل 1557 م .
 (30) عبد الرحيم ، عبد الرحمن ، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، ص 401 .
 (31) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 260 ،
 مادة (683) بتاريخ 20 شوال 964 هـ / أغسطس 1557 م .
 (32) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 370 ، مادة (1435) ، بتاريخ
 7 جماد الثاني 987 هـ / 1 أغسطس 1579 م .
 (33) أرشيف الشهر العقاري : السجل (449) ، ص 188 ، مادة (534) بتاريخ
 21 جماد الثاني 971 هـ / 5 فبراير 1564 م .
 (34) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (460) ، ص 262 ،
 مادة (1024) . بتاريخ 9 جماد أول 987 هـ / 4 يولية 1579 م .
 (35) أرشيف الشهر العقاري : سجل (449) ، ص (250) ، مادة (688) بتاريخ
 6 رجب 971 هـ / 19 فبراير 1564 م .
 (36) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (5) ، ص 114 ، مادة
 (190) بتاريخ 19 جماد الثاني 980 هـ / 4 سبتمبر 1577 م .
 (37) أرشيف الشهر العقاري : محكمة باب الشعرية ، سجل (596) ، ص 384 ، مادة
 (1442) ، بتاريخ 15 شعبان 1004 هـ / 13 أبريل 1596 م .
 (38) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل . ص 4 ، مادة (7) ، بتاريخ 16 رمضان
 1003 هـ / 25 مايو 1595 .
 (39) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العربية ، سجل (21) ، ص 1 ، مادة
 (3) ، بتاريخ 20 ربيع الأول 1025 هـ / 8 أبريل 1616 م .
 (40) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 40 ، مادة (38) ، بتاريخ 10 ربيع
 الثاني 1025 هـ / 27 أبريل 1616 م .
 (41) أرشيف الشهر العقاري : نفس السجل ، ص 41 ، مادة (41) ، بتاريخ 4 ربيع
 الثاني 1025 هـ / 11 أبريل 1616 م .
 (42) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل 175 ، ص 194 ، مادة
 (270) .

القصرين (43) ، وسوق القماش النابلسي ، داخل سوق خان الخليل (44) ،
وسوق القماش ، داخل سوق باب اللوق السعيد (45) .

أما السويقات ، وهى تصغير لكلمة سوق ، فمن أشهرها : سويقة
الحمام (46) ، سويقة أبى الوفا (47) ، سويقة المظفرى (48) ، سويقة
السباعين (49) ، سويقة الفسقية (50) ، سويقة الخلافة (51) .

وأصبحت الاسواق بمثابة منظمات تجارية لها ادارتها الخاصة ، والمسؤولة
عنها أمام السلطة المسؤولة عن ادارة القاهرة ، فكان لكل سوق شيخ مسؤول
عن ادارته ، له وكيل ينوب عنه ساعة غيابه ، وكذلك كاتب يسجل كل ما
يأمره به الشيخ أو الوكيل ويقوم بجمع الاعانات التى تقرر على تجار السوق ،
وكانت هذه الادارة الخاصة بالسوق مسؤولة عن انتظام العمل داخل السوق ،
والحفاظة على شرف مهنة العمل التجارى ، وعدم حدوث غش أو تدليس ،
وكان كل من شيخ السوق ووكيله من التجار فى السوق وكانا يختاران من
جانب تجار السوق لحظوتهم بالاحترام من جانب زملائهما (52) .

وقد بدأ الازدهار يعود لاسواق القاهرة فى البداية على أساس ظهور نظام
المشاركة الى جانب بعض الاسر التجارية ، ووثائق المحاكم الشرعية تقيض
بذكر عقود الشركات المساهمة فعلى سبيل المثال نجد أن الحاج أبو سعيد بن
الحاج عبد السلام بن يعقوب المغربى يقيم شركة بالاشتراك مع أمغار المغربى

(43) أرشيف الشهر العقارى : سجل (5) ، ص 12 ، مادة (35) ، بتاريخ 11 رجب
970 هـ / 2 مارس 1563 م .

(44) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (449) . ص 134 مادة
(372) ، بتاريخ 24 جماد أول 971 هـ / 9 يناير 1564 م .

(45) أرشيف الشهر العقارى : محكمة البرمسية ، سجل (5) ، مادة (2209) ، بتاريخ
19 رمضان 978 هـ / 14 فبراير 1571 م .

(46) أرشيف الشهر العقارى : محكمة باب البرمسية ، سجل (599) ، ص 541 ، مادة
(2209) ، بتاريخ 19 رمضان 978 هـ / 10 سبتمبر 1590 م .

(47) أرشيف الشهر العقارى : نفس السجل ، ص 329 ، مادة (1234) ، بتاريخ
3 صفر 999 هـ / 1 ديسمبر 1590 م .

(48) أرشيف الشهر العقارى : سجل (595) ، ص 687 ، مادة (2596) ، بتاريخ
18 شعبان 1003 هـ / 28 أبريل 1595 م .

(49) أرشيف الشهر العقارى : محكمة البرمسية ، سجل (707) ، ص 232 ، ماد (1448)
بتاريخ 14 محرم 994 هـ / 5 يناير 1586 م .

(50) أرشيف الشهر العقارى : سجل (708) ، ص 110 ، مادة (535) .

(51) أرشيف الشهر العقارى : محكمة طولون ، سجل (170) ، ص 90 ، مادة (349) ،
بتاريخ 21 صفر 970 هـ / 19 أكتوبر 1562 م .

(52) عبد الرحيم عبد الرحمن : نشوء الرأسالية ...

الجربى التاجر بسوق جامع طولون (53) ، وكذلك نجد عقد شركة بين الحاج سعيد ابن امغار وبين الحاج عبد العزيز يحيى بن عمر المغربي الجربى (54) ، وعقد شركة مساهمة بين الحاج محمد بن الحاج أحمد المغربي الطرابلسى ، وبين الحاج أحمد بن عبد النور (55) ، وكذلك عقد تأمين شركة مساهمة بين محمد بن محمد بن مسعود المغربي الاندلسى وولد أخيه أحمد بن علي بن أحمد (56) وعقد تأسيس شركة مساهمة بين عبد الحميد بن منصور بن عبد الحميد ، وبين عبد النبي بن يونس على الطحان (57) ، وشركة مساهمة بين الحاج يحيى بن عمر شيخ التجار بسوق طولون والخوارجا علي بن الشرفى عيسى (58) ، وعقد شركة بين زين الدين أبو بكر والخوارجا سالم بن سعيد (59) ، وشركة مساهمة بين الشيخ شمس الدين بن محمد بن قاسم والمعلم علي بن محمد بن أحمد والمعلم أبو النصر ابن أبو النصر بن محمد لتصنيع وتجارة النحاس (60) .

كذلك شاع نظام المتاجرة لحساب الغير ونظير نسبة معينة من الربح ، فقد تسلم الحاج محمد الشهير بازكين بن الحاج أحمد بن محمد المغربي البازقى ، كمية من السلع المختلفة من المعلم سليمان بن خميس بن مردفائ اليهودى الربان، ليبيع ذلك ببلاد التكرور بالذهب التبر ويحضر ذلك له بالقاهرة (61).

وقد شهدت أسواق القاهرة فى نفس الوقت فئة أعيان التجار أو كبارهم الذين أخذت أعدادهم تتزايد بصورة كبيرة ، واشتهرت أسر تجارية بضخامة

-
- (53) أرشيف الشهر العقارى : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (11) ، ص 638 ، مادة (635) ، بتاريخ 5 شعبان 1004 هـ / 4 أبريل 1596 م .
- (54) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (445) ، ص 405 ، مادة (1027) ، بتاريخ 18 جماد الثانى 924 هـ / 18 أبريل 1557 م .
- (55) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 152 ، مادة (368) ، بتاريخ 3 شوال 964 هـ / 20 يولية 107 م .
- (56) أرشيف الشهر العقارى : سجل (460) ، ص 294 ، مادة (1155) بتاريخ 16 ربيع الأول 987 هـ / 13 مايو 1579 م .
- (57) أرشيف محكمة طولون ، سجل (170) ، ص 90 ، مادة (349) ، بتاريخ 21 صفر 970 هـ / 19 أكتوبر 1572 م .
- (58) أرشيف محكمة طولون : سجل (188) ، ص 160 ، مادة (1977) بتاريخ 999 هـ / 9 مايو 1591 هـ .
- (59) أرشيف محكمة طولون : نفس السجل ، ص 259 ، مادة (801) بتاريخ 11 ذي القعدة 1008 هـ / 24 مايو 1600 م .
- (60) أرشيف محكمة طولون : محكمة الصالح ، سجل (319) ، ص 40 ، مادة (180) بتاريخ 20 رجب 1007 هـ / 17 فبراير 1599 م .
- (61) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (446) ، ص 88 ، مادة (209) . بتاريخ 20 رمضان 964 هـ / 17 يولية 1557 م .

حجم ثرواتهم التي استطاعوا أن يوظفوا جزءا منها في بعض المجالات الأخرى مثل امتلاك العقارات ، وإسقاط الالتزامات ، ومن أشهر هذه الأسر أسرة الدادة الشرايبي (62) وأسرة الرويعي المصرية الرشيدية (63) . وقد استطاعت هذه الفئة من أعيان التجار أن تكون لنفسها مكانة اجتماعية وإن تكون لها علاقات اجتماعية واسعة وإن تكون ذات نفوذ واسع ، وانتمى معظمها إلى الواجقات من باب الوجاهة الأدبية (64) ، وكونت لنفسها بأعمال الخير مكانة اجتماعية متميزة بين الفئات الاجتماعية الأخرى (65) .

وكانت هذه الفئة تكون وحدة متماسكة فيما بينها ، وكانت جميع منازعاتها تحل في إطارها ، حيث وجد منصب « شاه بندر التجار » أي كبير التجار ، ويبدو لنا من وثائق المحاكم الشرعية ، أن صاحب هذا المنصب ، كان يتقلده بناء على اختيار التجار له ، ولا بد من أن الذي يختار لشغل هذا المنصب الفخري أن يكون حسن السيرة ، طيب السمعة ، مشهود له بالعفة والنزاهة ، وكانت مهمته أن يلجأ إليه التجار لحل منازعاتهم ، وبخاصة فئة كبار التجار ، ويتضح لنا من الوثائق المذكورة ، أن كل من تولوا هذا المنصب كانت تتوفر فيهم هذه الصفات واستطاعوا أن يقوموا بدور بارز في حل مشاكل التجارة والتجار وأن يشرفوا بحكمة على السوق المصرية ، وإن تكون كلمتهم مسموعة في حل كثير من الإزمات التي حلت بأسواق القاهرة (66) .

(62) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة القصة العسكرية ، سجل (165) ص 182 ، مادة (282 ، سجل (152) ، ص 241 ، ص (241 - 243) ، مادة (402) بتاريخ 15 محرم 1156 هـ / 11 مارس 1743 م . سجل (190) ، ص 91 ، مادة (322) ، بتاريخ 10 جماد الثاني 1120 هـ / 27 أغسطس 1708 م ، ص 92 ، مادة (323) ، بتاريخ 10 جماد الثاني 1120 هـ / 127 غسطس 1708 .

أرشيف الشهر العقاري ، سجلات أسقاط القرى (1) ، (2) .
عبد الرحيم عبد الرحمن ، المغاربة في مصر العصر العثماني (1517 - 1798 م) ، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية .
الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج 1 ، ص 87 - 88 ، ج 2 ، ص 213 .

عبد النبي ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 443 .
(63) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (473) ، ص 276 ، مادة (1102) ، بتاريخ 24 صفر 1005 هـ / 17 أكتوبر 1096 م ، ص 419 ، مادة (1637) بتاريخ 5 جماد الثاني 1005 هـ / 24 يناير 1597 م ، ص 420 مادة (1632) بتاريخ 23 جماد الثاني 1005 هـ / 11 فبراير 1597 م .
أرشيف الشهر العقاري : سجل (476) ، ص 111 ، مادة (456) بتاريخ 7 ربيع الأول 1009 هـ / 16 سبتمبر 1600 م .

(64) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص 53 - 55 .

(65) نفسه ، ص 69 .

(66) نفسه ، ص 86 - 89 .

ثالثا : الطوائف :

كان مجتمع القاهرة مكونا من عدد كبير من الطوائف المهنية والحرفية ، وكان لكل طائفة شيخ ونقيب وكان الشيخ يختار من قبل أبناء الطائفة ، ليكون ممثلا لهم أمام الحكومة ، واختيار الشيخ كان مشروطا بشروط أبناء الطائفة وأهم هذه الشروط « ألا يحدث عليهم مظلمة » أى لا يفرض عليهم أية ضرائب أو عادات غير الضرائب والعادات المقررة ، « والا يدخل أحدا فى سلك الطائفة من غير أبنائها ، (67) وأما نقيب الطائفة فهو من أبناء الطائفة ولكنه صاحب طريقة صوفية ، ومن الأمور التى يجب الإشارة إليها ، ان افراد المجتمع جميعهم ، كانوا منخرطين فى نظام الطوائف ومن أهم الطوائف التى شهدها مجتمع القاهرة فى العصر العثماني : طائفة الصيارفة (68) ، طائفة الحباكة (69) ، طائفة الرختوانية بسوق القماش (70) ، طائفة المبيضين فى العقارات (71) ، طائفة المغربلين (72) ، طائفة الصاغة (73) ، طائفة الحريرية (74) ، طائفة القزازين (75) ، طائفة القمصنجية (76) ، طائفة القهوجية (77) ، طائفة النقاشين (78) ، طائفة القبانية (79) ، طائفة

(67) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة طولون ، سجل (219) ، ص (232 - 233) ، مادة (558) بتاريخ 25 جماد الأول 1138 هـ .

أرشيف الشهر العقاري : محكمة الباب العالي ، سجل (90) ، ص 154 ، مادة (745) بتاريخ 3 رجب سنة 1017 هـ / 13 أكتوبر 1608 م .

(68) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون . سجل (204) ، ص 480 ، مادة (1908) . بتاريخ 19 شوال 1073 هـ / 27 مايو 1663 م .

(69) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (219) ، ص 250 ،

(70) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (219) ، ص 273 ، مادة (652) ، بتاريخ 10 رجب 1138 هـ / 13 مارس 1726 م .

(71) أرشيف الشهر العقاري : سجل (219) ، ص 312 ، مادة (746) بتاريخ 2 القعدة 1138 هـ / 2 يوليو 1726 .

(72) أرشيف الشهر العقاري ، سجل (219) ، ص 468 ، مادة (1126) ، بتاريخ غرة رجب 1139 هـ / 22 فبراير 1727 م .

(73) أرشيف الشهر العقاري : سجل (204) ، ص 242 - 243) ، مادة (987) .

(74) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح : سجل (346) ، ص 43 ، مادة (115) .

(75) أرشيف الشهر العقاري : سجل (346) ، ص 146 ، مادة (846) .

(76) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (525) ص 669 ، مادة (1076) .

(77) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (110) ، ص 346 ، مادة (359) بتاريخ 18 شعبان 1129 هـ / 28 يوليو 1717 م .

(78) أرشيف الشهر العقاري محكمة الصالحية النجمية (525) ، ص 307 مادة (604) بتاريخ 15 ربيع الثاني 1177 هـ / 123 أكتوبر 1763 م .

(79) أرشيف الشهر العقاري : سجل (525) ، ص 414 ، مادة (614) بتاريخ 15 ربيع الثاني 1177 هـ / 18 أكتوبر سنة 1763 م .

السقاين (81) ، طايفة الحلوانية (81) ، طايفة الحبازين (82) ، طايفة العتالين (83) ، طايفة المخللاتية (84) ، طايفة المدابقية (85) ، طايفة النحاسين (86) ، طايفة القبانين (87) ، طايفة السماسرة (88) ، طايفة الحفارين (89) ، طايفة الدلايين (90) ، طايفة الصباغين (91) ، طايفة الصبانين (92) ، طايفة الحمامية (93) ، طايفة الحراطين (94) ، طايفة الخياطين (95) ، طايفة الصحافيين (96) ، طايفة المعصرانية (97) ، طايفة

- (80) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص
(81) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة الصالحية النجمية ، سجل (525) ، ص 484 ، مادة (735) بتاريخ 23 جماد أول 1177 هـ / 29 نوفمبر 1763 م .
(82) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، ج 1 ، ص .
(83) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسة العربية ، سجل (8) ، ص 249 ، مادة (557) بتاريخ 7 صفر 968 هـ / 25 أكتوبر سنة 1560 م .
(84) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة القسة العربية ، سجل (8) ، ص 308 ، مادة (604) بتاريخ 968 هـ / 12 جماد أول 29 يناير 1561 م .
(85) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسة العربية ، سجل (122) ، ص 196 مادة (404) بتاريخ 28 ربيع الثاني 1183 هـ 31 أغسطس 1769 م .
(86) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسة العربية ، سجل (122) ، ص 232 مادة (514) بتاريخ 6 رجب 1183 هـ / 5 نوفمبر 1769 م .
(87) أرشيف الشهر العقاري : سجل (10) ، ص 31 ، مادة (42) بتاريخ 12 شوال 1002 هـ / 1 يولية 1594 م .
(88) أرشيف الشهر العقاري : سجل (5) ، ص 1 ، مادة (1) بتاريخ 16 ربيع الثاني 985 هـ / 30 يولية 1577 م .
(89) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية ، سجل (473) ، مادة (418) بتاريخ 8 شعبان 1004 هـ / 7 أبريل 1596 م .
(90) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (204) بتاريخ 12 القعدة 1072 هـ / 29 يونية 1662 م .
(91) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الباب العالي ، سجل (90) ، ص 172 ، مادة (848) بتاريخ 11 رجب 1017 هـ / 21 أكتوبر 1608 م .
(92) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسة العربية ، سجل (15) ، ص 25 ، مادة (57) بتاريخ 6 القعدة 1009 هـ 9 مايو 1601 م .
(93) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالحية النجمية : سجل (525) ، ص 510 ، مادة (791) بتاريخ 22 جماد آخر 1177 هـ / 28 ديسمبر 1863 م .
(94) سجل (181) ، ص 42 ، مادة (167) بتاريخ 13 محرم 994 هـ / 11 نوفمبر 1590 م .
(95) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون ، سجل (204) ، ص 424 ، مادة (1783) بتاريخ 12 رجب 1073 هـ / 21 فبراير 1663 م .
(96) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسة العسكرية : سجل (175) ، ص 202 مادة (282) ، بتاريخ 22 جماد الثاني 1177 هـ / 28 ديسمبر 1763 م .
(97) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسة العسكرية ، سجل (179) ، ص 205 ، مادة (286) ، بتاريخ 22 جماد الثاني 1177 هـ / 28 ديسمبر 1763 م .

الخصاصة (98) ، طايفة العطارين (99) ، طايفة المناخلية (100) ، طايفة
القطانين (101) ، طايفة الحمارة (102) ، طايفة السروجية (103) ، طايفة
الكتبة (104) ، طايفة التراسين (105) ، طايفة الفوالة (106) ، طايفة
الطحانين (107) ، طايفة الصوافين (108) ، طايفة الشمحاتين (109) ، طايفة
النجارين (110) ، طايفة الحدادين (111) ، طايفة المجلدين (112) ، طايفة
الحراطين (113) ، طايفة السمكرية (114) ، طايفة صناع السلاح (115) ،

- (98) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 207 ،
مادة (277) ، بتاريخ 29 جمادى الثاني 1177 هـ / 4 يناير 1764 م .
- (99) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 242 ،
مادة (342) ، بتاريخ 15 رجب 177 هـ / 19 يناير 1764 م .
- (100) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 263 ،
مادة (374) . بتاريخ 2 شعبان 1177 هـ / 5 فبراير 1764 م .
- (101) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 306 ،
مادة (427) ، بتاريخ 17 شعبان 1177 هـ / 21 فبراير 1764 م .
- (102) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 318 ،
مادة (445) بتاريخ 13 1177 هـ / 16 فبراير 1764 م .
- (103) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (175) ، ص 329 ،
مادة (458) ، بتاريخ 14 شعبان 1177 هـ / 17 فبراير 1764 م .
- (104) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (145) ، ص 40 ،
مادة (36) بتاريخ 8 جماد الثاني 1150 هـ / 3 أكتوبر 1737 م .
- (105) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (172) ، ص 60 ،
مادة (92) ، بتاريخ 5 ربيع الأول 1175 هـ / 4 أكتوبر 1761 م .
- (106) أرشيف الشهر العقاري : محكمة القسمة العسكرية ، سجل (101) ، ص 171 ،
مادة (318) بتاريخ 15 شوال 1121 هـ / 16 ديسمبر 1709 .
- (107) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الزاهد ، سجل (684) ، ص 56 ، مادة (131)
بتاريخ 16 شعبان 112 هـ / 26 يناير 1701 م .
- (108) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون ، سجل (201) ، ص 30 ، مادة (93) .
- (109) الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 105 .
- (110) نفسه ، ج 1 ، ص 397 .
- (111) نفسه ، ج 1 ، ص 397 .
- (112) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 397 .
- (113) نفسه ، ج 1 ، ص 397 .
- (114) نفسه ، ج 1 ، ص 397 .
- (115) أرشيف الشهر العقاري . محكمة الزاهد ، سجل (684) ، ص 72 بتاريخ 9 القعدة
1112 هـ / 16 أبريل 1701 .

طايفة الكيالين (II6) ، طايفة الدخاخنية (II7) ، طايفة البياطرة (II8) ،
طايفة الترابية (II9) .

وقد مثلت الطوائف غالبية سكان القاهرة ، وكانت كل طائفة تقفل على نفسها مهنتها التي تخصصت فيها ولا تسمح طبقا لشروط اختيار شيخها ، دخول أحد من غير أبناء طائفتها فيها ، وكانت العلاقات بين أبناء الطائفة تقوم على التعاون والاحترام ، واحترام السلم الطائفي ، وقد ازداد انتماء الطوائف إلى الوجاقات للحصول على امتيازات هذه الوجاقات المادية والادبية ، وقد أدركت السلطة خطورة ذلك على خزينة الدولة فأرسلت في أوائل جماد الاول 1121هـ / 9 يوليو 1709 م أمرا إلى القاضي لينبه على مشايخ الحرف بأن يمنعوا أفراد حرفهم بالانتماء إلى الوجاقات فأرسل « القاضي فأحضر مشايخ الحرف ، وعرفهم انه ورد أمر يتضمن الا يكون لاحد من أرباب الحرف والصنائع علاقة ولا نسبة في أحد الوجاقات السبع ، فأجابوه بأن غالبهم عسكري مكرر وابن عسكري ، وقاموا على غير امتثال ، ثم القاضي أنهم أجمعوا على إيقاع مكروه به ، فخافهم وترك ذلك ، وتغافل عنه ، ولم يذكره بعد » (120) . ولم يقف الأمر برجال الطوائف عند هذا الحد ، فقد أصبحوا يتحكمون في السوق المصرية برفع الاسعار أو خفضها ، ونجد ان المحتسب وآغا القاهرة كثيرا ما قاموا بعمل تسعيرة للسلع المختلفة ، وأعلنوا مشايخ الحرف بها ، ليلتزموا البيع بها ومعاقبة من لم يلتزم بالتسعيرة المحددة ، قام علي آغا مستحفظان بالضرب « اثنين قبانية وثلاثة زبايتين وجزار لحم خشن ومات الستة من الضرب ، ورسم على شيخ القبانية بأن لا أحد يزن في بيت زيات سمنا ولا جبنا ، وصار يتفقد الدراهم ، ويحرر الارطال والصننج ويسأل عن اسعار المبيعات ولا يقبل رشوة ، ومع ذلك فان الطوائف كانت دائما تتحكم في مسألة الاسعار ، والمسألة الاجتماعية عموما في القاهرة ، وكانت لها اعرافها التي تحافظ عليها كل المحافظة ، وكان لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية في القاهرة (121) .

(116) أرشيف الشهر العقاري ، محكمة طولون ، سجل (10) ، ص 21 ، مادة (78) بتاريخ 2 شعبان 982 هـ / 17 نوفمبر 1574 م .

(117) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل (317) ، ص 148 ، مادة (560) بتاريخ 22 صفر 1004 هـ / 27 أكتوبر 1595 م .

(118) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الصالح ، سجل (317) ، ص 133 ، مادة (50) بتاريخ 8 صفر 1004 هـ / 3 أكتوبر 1595 م .

(119) أرشيف الشهر العقاري : محكمة طولون : سجل (219) ، ص (232 - 233) ، مادة (558) بتاريخ 25 جماد أول 1138 هـ / 29 يناير 1726 م .

(120) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 37 .

(121) نفسه ، ج 1 ، ص 103 ، 104 .

رابعاً : العلماء وطلبة الازهر :

كان علماء الازهر وطلابه ، فئة اجتماعية لها مكانة متميزة ، فالازهر مركز التعليم الاسلامي بمذاهبه المختلفة ، وهو منبع الحياة الفكرية في مصر ، والمركز الاول في العالم الاسلامي الذي له مكانة متميزة ، وكانت أروقته تضم طلاباً من مختلف العالم الاسلامي ، وكانت السلطات العثمانية والمملوكية تعترف لرجال الازهر بمكانتهم ، وتعتبرهم زعامة شعبية يخشى جانبها ، وقد أدرك عامة الناس والتجار والحرفيون هذه المكانة وتلك الزعامة ، فكانوا يلجأون الى الازهر ، كلما اشتد بهم الحال ، فيذكر مصدر معاصر أنه بسبب غش العملة « ضاعت رساميل الخلق ، واشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، فاجتمع أهل الاسواق ، ودخلوا الجامع الازهر ، وشكوا أمرهم الى العلماء وألزمهم بالركوب الى حضرة الوزير ، في شأن ذلك الامر ، فركب الشيخ محمد النشرتي ، وركب خلفه جميع العلماء ، وتوجهوا الى الديوان ، وأفهموه على القضية ، وضرورة الناس » (122) فعقد الباشا الديوان ووضع الديوان حدا لهذه الازمة التي ألمت بأهل القاهرة ، وكان ذلك يوم السبت 4 شوال 1114 هـ / 21 فبراير 1703 م .

واستمرت معاونة العلماء للعامة واستعمال نفوذهم ، طوال فترة القرن الثامن عشر ، التي اشتعلت بالصراعات المملوكية ، وكثير تعدى الامراء المماليك على أموال وأحياء القاهرة ، ففي ربيع الاول 1200 هـ / يناير 1786 م ، وقع تعدى من حسين بك على أهل الحسينية فذهب أهل الحسينية « الى الجامع الازهر ومعهم طبول ، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجمعيدية وبأيديهم نيايت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فونسهم وساعدهم وقال لهم أنا معكم ، فخرجوا من نواحي الجامع ، وقفلوا أبوابه وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات ، يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالاسواق في حالة منكرة وأغلقت الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير ، في غد نجمع أهالي الاطراف والحارات وبولاك ، ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء ، أو ينصرنا الله عليهم ، فلما كان بعد المغرب حضر سليم آغا مستحفظان ، ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفي كتخدا ابراهيم بك وجلسوا في الغورية ، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه من تضاعف الحال ، وقالوا للشيخ اكتب لنا قائمة بالمنهويات ، ونأتى بها من محل ما تكون ، واتفقوا على ذلك ، وقرأوا الفاتحة وانصرفوا » (123) .

هكذا استطاع شيخ من شيوخ الازهر أن يضع لصلف المماليك وطغيانهم واستطاع أن يجبرهم أن يردوا ما نهبه حسين بك ورجاله من أهل حي الحسينية والامثلة كثير على موقف علماء الازهر في وجه أى ظلم أو عدوان

(122) عبد الغني ، أحمد شلي ، ص 208 .

(123) الجبرتي ، عبد الرحمن بن حسن ، ج 2 ، ص 103 .

كان يقع على سكان القاهرة ، وأصبح علماء الازهر خلال العصر العثماني ، القوة التي تمثل الرأي العام ، وتطالب برفع المظالم عنهم ، بطيب قلب وانشراح صدر ، وأصبحت لهم مكانتهم الاجتماعية المتميزة التي يجلبها العامة ، ويقرها الحكام ، وأصبحوا شريحة ذات مكانة من شرائح مجتمع القاهرة .

خامسا : أهل الذمة :

كان النصارى ، واليهود ، يمثلون شريحة هامة من شرائح أو فئات المجتمع القاهري ، وكانت هذه الفئة تقتصر نشاطها على أعمال التجارة وبخاصة في المجوهرات والاعمال المالية ، وبخاصة في الصيرفة ، وفي معظم حالات غش العملة نجد وراءها الصيارفة اليهود ، وتذكر الوثائق المهن التي كان يشتغل بها اليهود مثل عمليات الاقراض والاشتراك مع آخرين في معاملات مالية فعلى سبيل المثال كانت هناك معاملة مالية بين المعلم داود بن يعقوب بن يهود الربان اليهودي الشهير بدفنية وبين السيد الشريف أحمد بن الشريف محمد الحسنى ، هو بالخدم العالية (I24) ، كما تشير الوثائق الى أن موسى ابن منصور بن موسى اليهودي الربان الشامى ، كان يعمل ملتزما بمقاطعة الخفرا من قبل الديوان العالى (I25) ، كما كانوا يتعاملون فى الرهن مثل المعلم ابراهيم بن مسعود الربان الذى كان يتعامل بهذا الاسلوب (I26) ، كما اشتغلوا فى الجهاز المالى للحكومة فالمعلم يعقوب بن سعيد بن موسى اليهودى ، كان يعمل صرافا بالديوان العالى (I27) ، وكانوا يتعاملون مع كل فئات مجتمع القاهرة فى كل الشؤون المالية عن طريق الصيرفة أو المتاجرة فى المجوهرات (I28) ، وكان يشاركونهم فى هذه المهن النصارى .

- (I24) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالح ، سجل (317) ، ص 207 ، مادة (787) بتاريخ 25 صفر 1004 هـ / 30 أكتوبر 1595 م .
- (I25) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالح ، سجل (315) ، ص 74 ، مادة (231) بتاريخ 5 ربيع الثانى 1000 هـ / 30 يناير 1592 م .
- أرشيف الشهر العقارى : محكمة القسمة الغربية ، سجل (8) ، ص 157 ، مادة (356) بتاريخ 13 القعدة 967 هـ / 5 أغسطس 1560 م .
- (I26) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالح ، سجل (315) ، ص 19 ، مادة (52) بتاريخ 16 صفر 1000 هـ / 1 ديسمبر 1591 م .
- (I27) أرشيف الشهر العقارى : سجل (314) ، ص 209 ، مادة (856) بتاريخ 2 الحجة 996 هـ / 23 أكتوبر 1588 م . .
- أرشيف الشهر العقارى : سجل (314) ، ص 98 ، مادة (403) بتاريخ 4 القعدة 996 هـ / 25 سبتمبر 1588 م .
- (I28) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الصالح ، سجل (315) ، ص 249 ، مادة (128) بتاريخ 23 شوال 1000 هـ / 2 أغسطس 1592 م .
- أرشيف محافظة دشت ، رقم (1) ، ص 65 ، بتاريخ 23 القعدة 928 هـ / 14 أكتوبر 1522 م .
- أرشيف محافظة دشت : رقم (1) ، ص 27 ، بتاريخ 19 شوال 928 هـ / 13 سبتمبر 1522 م .
- أرشيف محافظة دشت : رقم (1) ، ص 116 ، بتاريخ 2 محرم 929 هـ / 21 نوفمبر 1522 م .

وقد تنبّهت سلطات ادارة القاهرة الى أعمال اليهود في غش العملة ، وتداول العملات المغشوشة في مرات عديدة ، واتخذت اجراءات مشددة ضد عمليات غش العملة كما سنرى فيما بعد ، وعموما فأن أهل الذمة كانوا كثيرا ما يخلقون أزمات ، وبخاصة اليهود حيث أن النصارى لم يعملوا على خلق أزمات، وعاشوا على هامش المجتمع حتى القرن الثامن عشر حينما استطاعت أسرة الجوهري المسيحية أن تحل محل اليهود في الأعمال المالية الحكومة ، ولم تخلق أزمات (I29) ، انما اليهود كانت أزماتهم كثيرة ، وكانوا يعيشون في حارة اليهود ، وعلاقاتهم الاجتماعية محدودة . فالمعاملات تكاد تكون مقصورة على المعاملات ، بخلاف النصارى «الاقباط» الذين كانوا منتشرين في أحياء القاهرة وصلاتهم بفئات المجتمع الاخرى تتعدى المعاملات الى المجاملات ، ومشاركة فئات مجتمع القاهرة أفراحهم وأتراحهم .

سادسا : الاشراف وأسادات :

يقطن مصر عدد من الاشراف الذين ينتمون الى الحسن والحسين والسادات وكان يقطن القاهرة عدد كبير من الاشراف الحسينيين والحسينيين ، وكانت هناك طائفتان من السادات : طائفة السادة الوفائية والسادة البكرية ، وكانت هناك أوقاف كثيرة موقوفة على كلتا الطائفتين ، وكانت للاشراف والسادات مكانة دينية لدى فئات مجتمع القاهرة ، ولدى الفئة الحاكمة ، وللأشراف والسادات أعمالا خيرية كثيرة ، وعلاقات طيبة مع أفراد مجتمع القاهرة حكومة وسكانا (I30) .

سابعا : الاجانب :

كان يوجد في القاهرة فئة من الاجانب التجار والقناصل ، وكانوا يتعاملون مع فئات المجتمع القاهري ، في مجالات التصدير والاستيراد ، فنجد في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اشارات في الوثائق الى الايطاليين وبخاصة الى البنادقة والجنوبيين والفرنسيين والارمن منذ بداية العصر العثماني ، امتدادا لما كان عليه الحال في العصر المملوكي ، وكانوا يتعاملون مع التجار المحليين (I31) ، وكان القنصل يتدخل اذا حدث خلاف حول أنواع

(129) أرشيف محفظة دشت ، رقم (3) ، ص 87 بتاريخ 4 صفر 931 هـ / 1 ديسمبر 1524 م .

(130) أرشيف الشهر العقاري : محكمة باب الشرعية ، سجل (595) ، ص 357 ،

مادة (1425) بتاريخ 2 القعدة 1002 هـ / 20 يولية 1595 م .

أرشيف الشهر العقاري : ص 420 ، مادة (1664) بتاريخ 5 محرم 1003 هـ / 20 سبتمبر 1594 م .

أرشيف الشهر العقاري : ص 450 ، مادة (1772) بتاريخ 5 محرم 1003 هـ / 20 سبتمبر 1594 م .

أرشيف الشهر العقاري وهكذا جميع سجلات محكمة باب الشرعية .

(131) أرشيف الشهر العقاري : محفظة دشت ، رقم (1) ، ص 154 ، بتاريخ 67 محرم 929 هـ /

بعض السلع (I32) ، ثم نجد في القرن الثامن عشر التجار والقناصل الانجليز وغيرهم (I33) ، وقد كانت علاقات هؤلاء الاجانب مع مجتمع القاهرة مفتوحة ، وتقوم على الاحترام المتبادل .

ثامنا : الرقيق :

الرقيق المقصود به الأرقاء الذين يشترون ، من سوق الرقيق ، ووكالة الرقيق بالقاهرة ، والارقاء نوعان ، رقيق أبيض وهم الذين كانوا يجلبون من بلاد كردستان وجورجيا ، وبعض مناطق شرق أوروبا ، والرجال من هذا الرقيق ، كان الامراء المماليك يشترونهم ليكونوا جيوشهم الخاصة ، والنساء كن يعملن في بيوت الامراء المماليك كخدم أو كاماء حتى يحل العتق بهن لتزويجهن رجال من قوة الامير ذاته ، أما الرقيق السود فكانوا يأتون عن طريق قافلتى دارفور وسنار ، وكانت سوق الرقيق رائجة ابان العصر العثماني ، وكان عدد الرقيق كبيرا ، وفي الغالب كان هؤلاء المرقوقون يحصلون على حريتهم بعد قضاء فترة في خدمة سيدهم الذي كان يعتقهم ابتغاء لوجه الله كما كان يفعل أهل الخير من أثرياء التجار الذين كان بعضهم يبالغ في هذا الاسلوب ، فمثلا نجد السيد الشريف علي بن السيد عبد العزيز بن السيد حسن المغربي الفاسي يعتق في يوم واحد ثلاثة هم : مساهل بن عبد الله الزنجي التكروري (I34) ، ورضوان بن عبد الله (I35) ، وسرور بن عبد الله الاقجري الجنسي (I36) ، وذلك « ابتغاء لوجه الله الكريم ، وطلبا لثوابه الجسيم » ، وبعض الامراء والتجار كان يشتري الرقيق ليكون تابعا له ، ولما يبلغ الرشد يسقط باسمه التزامات ، ويشتري عقارات على أن تكون الولاية للسيد علي التابع وما قيد باسمه (I37) ، وكان كبار رجال الاوجاقات يشترون الرقيق ، وبعد فترة يحررونهم ليكونوا اتباعا ويقيدون على الوجاق الذي ينتمى اليه سيدهم ، أما النساء المرقوقات فكان عتقهم اما لازواج بهن أو تزويجهن من اتباع السيد نفسه ، ونظرا لرواج تجارة الرقيق فان تجار

(132) أرشيف الشهر العقاري : محفظة دشت ، رقم (2) ، ص 322 ، بتاريخ 3 ربيع الآخر 929 هـ / 19 فبراير 1522 م .

(133) عبد الرحيم عبد الرحمن ، النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ، ص 252 - 253 .

(134) أرشيف الشهر العقاري : محكمة الباب المالي ، سجل (75) ، ص 169 ، مادة (687) بتاريخ 1 ذي القعدة 1009 هـ / 4 مايو 1601 م .

(135) أرشيف الشهر العقاري : سجل (75) ، ص 169 ، مادة (688) بتاريخ 1 ذي القعدة 1009 هـ / مايو 1601 م .

(136) أرشيف الشهر العقاري : سجل (75) ، ص 169 ، مادة (689) بتاريخ 1 ذي القعدة 1009 هـ / 1601 م .

(137) أرشيف الشهر العقاري : سجل (202) ، ص 61 ، مادة (117) بتاريخ 4 صفر 1133 هـ / 5 ديسمبر 1720 م .

الرقيق الأبيض الذين كانوا يعرفون باليسرجية ، وتجار الرقيق الأسود الذين كانوا يعرفون بالجلابة ، كانت لهم مكانة كبيرة عند كثير من فئات مجتمع القاهرة .

ونظرا لكثرة الاقبال على التزاوج بالرقائق ، وباندماج الارقاء فى فئة ساداتهم فان هذه الفئة ذابت فى المجتمع خلال القرن التاسع عشر وأصبحت لهم كامل حريتهم (138) .

تاسعا : العربان :

تذكر الوثائق أن بعض العربان الذين كانوا يعيشون حول القاهرة ، استوطنوا القاهرة ومن أشهر العربان الذين استقروا بالقاهرة ، عربان النجمة ، وكان استقرارهم حول منطقة باب الشعرية ، ولكن هؤلاء العربان ظلوا على حياتهم وطباعهم البدوية ، رغم أن الوثائق تذكر عنهم عبارة « القاطنون بالقاهرة » ولكنها فى نفس الوقت تذكر دائما صفة « البدوى » كصفة ملازمة لهم ، ويتضح من الوثائق أن مشاكلهم فيما بينهم كانت كثيرة ، ومشاكلهم مع فئات مجتمع القاهرة الأخرى كانت أكثر ، ولم يندمجوا مع المجتمع اندماجا كاملا ، فلا تزواج ولا اختلاط مع فئات المجتمع (139) .

الازمات التى أصابت مجتمع القاهرة ابان العصر العثمانى :

مر مجتمع القاهرة ابان العصر العثمانى ، بأزمات كثيرة ، نتيجة لقصر مفهوم وظيفة الدولة عند العثمانيين من ناحية ، حيث لم تكن هناك خدمات تقدم للشعب من ناحية ، ولجشع بعض فئات المجتمع من ناحية ثانية ، وللصراعات السياسية بين البيوت المملوكية من ناحية ثالثة ، وقد كان لهذه الازمات تأثيرها الكبير على مستوى معيشة فئات المجتمع القاهرى ، كما سنرى ، وأهم هذه الازمات :

أولا : انخفاض مياه النيل :

هذه الظاهرة ، ليست وليدة العصر العثمانى ، وانما هى ظاهرة عامة وقديمة قدم وجود نهر النيل ، حيث أنه فى بعض السنوات ، ولأسباب طبيعية تتعلق بكميات المياه التى تسقط على منابع النيل ، كانت مياه النيل

(138) أرشيف انظر على سبيل المثال :

محكمة القسمة العسكرية ، سجل (135) ، ص 1 ، مادة (2) بتاريخ 16 جماد الثانى 1145 هـ / 4 ديسمبر 1732 م .

ص 10 ، مادة (16) بتاريخ 6 رجب 1145 هـ / 23 ديسمبر 1732 م .

(139) أرشيف الشهر العقارى : محكمة الحاكم : على سبيل المثال انظر ، سجل (555) ، سجل (556) ، سجل (557) ، سجل (558) والسجلات الأخرى من نفس المحكمة ، مواد عديدة .

لا تصل الى المنسوب المعتاد ، والذي يعرف بوفاء النيل مما يترتب عليه في هذه السنوات ، عدم رى مساحات كبيرة من أرض مصر الزراعية ، وهو ما يعرف بالشراقي ، ويترتب على ذلك حدوث الغلاء وبخاصة في الحبوب ، وارتفاع أسعارها بصورة كبيرة ، واستغلال التجار لهذه الظاهرة ، واخفائهم الغلال ، والتحكم في أسعارها بمجرد شعورهم بأن النيل لم يصل الى منسوبه الطبيعي (140) ، بل ان بعض الباشوات استغلوا هذه الظاهرة للافادة منها لانفسهم ، ففي عهد علي باشا السالحدار (10 صفر 1010 - 6 ربيع الثاني 1013 هـ. / 10 أغسطس 1601 - 1 سبتمبر 1604 م.) حينما اشتدت الازمة ، وضاعت الاحوال بالناس فاضطروا الى « خطف المعجين من المواجير ، والخبز من الاسواق » حاول الباشا دون أن ينظر الى حالة أهل القاهرة ، أن يبيع « قمح العنبر الشريف الى الافرنج في الجلود على هيئة البهار » مستغلا الظروف للحصول على كسب رخيص في السوق السوداء حتى « قامت العسكر عليه ، وقالوا له ، كيف تبيع القمح للافرنج بستين فضة ، وقد اكلت الناس بعضها بعضا من الغلاء ، والقمح يباع بستة وثلاثين نصف فضة ، وتطمع في أربعة وعشرين نصف فضة زيادة في كل وية ، فبطل بين القمح للافرنج » (141) ، وتكررت ظاهرة الغلاء لنفس السبب في عهد أحمد باشا (10 ربيع الثاني 1024 - 12 صفر 1027 هـ. / 9 مايو 1615 - 8 فبراير 1618 م.) ، حتى بيع أردب القمح بتسعين نصف فضة فأمر الباشا أن « لا يباع بأكثر من أربعين فضة ، وأرسل الوالى الى مخازن القمح كسرهما ، ثم سار الى الحانكة والى بابيس وصحبته الوالى والمحاسب خفية ، وأخرج القمح المخزن ، وأوثقه على الجمال والحميز ، وأوصله الى مصر ، وأوقع القتل فى أصحاب الخزاين وأرسل أكثرهم الى المقدانف ، فبعد ذلك انحط السعر الى ثلاثين نصف الارذب » (142) ، وحدثت الظاهرة في عهد مقصود باشا (8 شعبان 1052 - 13 صفر 1053 هـ. / 1 نوفمبر 1642 - 13 مايو 1643 م.) حتى أن أمر والى القاهرة أن يراقب الامور بنفسه (143) ، وزادت الازمة المالية شدة فى عام 1087 هـ. / 1976 م. ، حتى « بيع الارذب الحنطة بثمانية قروش ، والشعير بماية وعشرين نصف فضة ، وبيع الحمل التبن بماية وخمسين فضة » (144) ، وفى عامى 1101 هـ. ، 1107 هـ. / 1694 ، 1695 م. ، اشتد غلاء الاسعار ، وزادت حدة الازمة الاقتصادية ، وتأثر مجتمع القاهرة بها كثيرا ، حتى باع الناس اولادهم ، وهجروا ديارهم ، حتى أن كشف محمد هدد الامناء والكياليين والرؤساء الذين يتاجرون فى الغلال ، أن باعوا الغلال بأكثر من السعر المحدد لها « وقال لهم

(140) عبد النبي ، أحمد شلبي ، المصدر السابق ، ص 9

(141) نفسه ، ص 18 .

(142) نفسه ، ص 23 .

(143) نفسه ، ص 34 .

(144) نفسه ، ص 52 .

هذا أمر ما رآه أهل مصر في وفاء النيل ، وهروبه في ليلة واحدة ، وأكثر أهل بلدنا فقرا وصناعية ، وكان اذا جاء الغلا لا تغلوا الحنطة الا في ثاني سنة ، عند بدار النيل الثاني ، وأنتم لمجرد عدم مجيء النيل في يوم واحد ، تبيعوه بأربعة قروش ، فيلزم من هذا أن تبيعوه في آخر السنة ببالح ما بلغ ، وهذا أمر لم يكن ، ولم يزد عن ستين فضة ، مع وجودى على قيد الحياة ، وقام من مجلسهم ، ما فعل بالريسا والامناء في ثاني يوم ، فقالوا هذا أمر لا نبلغه مع وجود هذا الرجل أبدا ، والوكلا لاولاد همام ريسا مصر أصحاب الحل والربط (I45) .

ولما اشتدت وطأة الازمة على الفقراء في محرم 1107 هـ / أغسطس 1695 م . ، اجتمعوا وطمعوا الى الديوان يشكون ما حل بهم « وصاحوا ، ونادوا ، متنا من الجوع ، وشدة الغلاء » (I46) فلما لم يجدوا صدق لصيحاتهم أخذوا « الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان ، فضربهم الوالى جميعا وطرده ، فنزلوا الى الرميطة فنهبوا جميع الغلال التى بالرقعة ، وكسروا الحواصل ونهبوا ما فيها من قمح ، وفول ، وشعير ، ونهبوا حاصل كتخدا الوزير ، وكان ملآن فول وشعير ، وكانت هذه الفعلة ابتدا الغلا فى جميع المأكولات جميعا ، ثم أخذت الزيادة من محرم 1107 هـ / أغسطس 1695 م . ، واستمر فى الزيادة الى أن بيع القمح بستماية فضة الاردب ، والفول بخمسماية فضة ، والشعير بأربعمائة فضة ، والعدس لم وجد ، والرز بشمانماية فضة ، واللحم الضانى بخمسة أنصاف الرطل ، والجاموس الوقيع بثلاثة أنصاف الرطل ، والسمن بألف فضة القنطار ، والعسل النحل بستماية ، والكل ديوانى ، وحصل للناس بسبب ذلك الغلا الشديد فى مصر وأقاليمها ، حتى أن غالب أهل الارياق والبلاد جاء مصر (القاهرة) ولكن أكثرهم من البهنسا والفيوم ، وامتلات أزقة مصر (القاهرة) ، حاراتها ، وأسواقها ، واشتد الكرب والبلاء وأكلت الناس الجيف ... وافتقرت الاغنيا ، وتهتكت الاحرار . وهجت الناس جوعا من الازقة والحارات ، امتلات بالاموات ، ... وصارت الفقراء يخطفون الحبز من الاسواق ، والعجين وهو رايح القرن (I47) ، وعجز الامراء الممالك عن تسديد الاموال الاميرية المتبقية طرفهم ، ووصل الامر بالاهاى أن استقبلوا اسماعيل باشا فى 17 صفر 1107 هـ / 27 سبتمبر 1695 م . ، بالعياط من قبة العزب حتى وصل الى أبواب القلعة ، ولما استقر به المقام فى الديوان سأل عن سبب الرعية فى وجهه « فأخبروه بما هم فيه من الغلا والكرب الشديد ، وكثرة الشحاتين ، التى امتلات مصر (القاهرة) منهم ، لان جميع الارض التى لم تكن رويت جاء

(145) نفسه ، ص 64 .

(146) نفسه ، ص 66 .

(146) نفسه ، ص 66 .

(147) نفسه .

فقرأوها الى مصر (القاهرة) ، « (I48) ، ولذا فان اسماعيل باشا ، أمر على اثر سماعه هذا القول ، بتوزيع المعتمدين على القادرين ، عله يستطيع حل هذه الازمة التي يعاني منها المجتمع بهذا الاسلوب ، ولكن هذه الضائقة استمرت حتى أوفى النيل ورويت الارض ، ووزعت جميعها في العام التالي ، واستمرت هذه الحالات تفاجئ مجتمعا القاهرة الى نهاية العصر العثماني .

ثانيا : غش العملة :

بدأ زيف العملة يظهر في مصر في العصر العثماني ، منذ عهد علي باشا الصوفي (غرة رجب 971 - سلخ رمضان 873 هـ . / 14 فبراير 1564 - 20 أبريل 1566 م .) ، حيث تم خلط العملة بالنحاس زيادة عن القانون ، فقد أمر هذا الباشا دار الضرب بأن تخلط « في المائة درهم ثلاثين درهما نحاسا ، فثقل الامر وقامت الرعايا ، وكثرت اللصوص والمفسدون » (I49) وانعكس أثر ذلك على السوق المحلية ، وارتبكت الاسعار ، وكسدت بعض السلع ، وتوالت بعد ذلك عمليات غش العملة ، حتى أنه في عهد قرا محمد باشا (IIII - III6 هـ . / 1699 - 1704 م .) ، فشنت في القاهرة الفضة النحاس (وصار النصف المختوم لا يوجد ، وان وجد لا يتعامل به ، وانما تأخذ اليهود ويقصوه أربعة أنصاف ، ويصرف حتى أن الشريفى المحمدى صار بمائة وخمسين ، والطرلى بمائة وسبعين ، والبندقى بمائتين ، والريال بسبعين ، والكلب بستين ، ثم أنها فشنت الى أن صارت تباع بالدراهم ، وصار أهل الاسباب ، وفي آخر النهار يذهبون الى الصاغة ، ويبيعون ما تحصل معهم من المقاصيص ، فضاعت الخلق ، واشتد الحال على الناس ، وزاد الكرب ، فاجتمع أهل الاسواق ، ودخلوا الجامع الازهر ، وشكوا أمرهم الى العلماء ، والزموهم بالركوب الى حضرة الوزير ، في شأن ذلك الامر ، فركب الشيخ محمد النشروتى ، وركب خلفه جميع العلماء ، وتوجهوا الى الديوان وأفهموه على القضية ، وضرورة الناس ، فجمع السناجق ، والاغوات والامراء وكان ديوانا حافلا ، وتشاوروا شأن تلك القضية ، فاجتمع أمرهم أنهم : يقطعون فضة جديدة ، وتوزع على الصيارف بالقاهرة ، وينادى بابطال المقاصيص أصلا ، وان كل ما كان معه شيء من المقاصيص يطلع الى الديوان ، ويتبدل وزنها فضة من دار الضرب ، أو من الصيارف ، وكل من يتعامل بالمقصوص ، يستأهل ما يجرى عليه ، وان الطرلى بمائة ، والمحمدى بتسعين ، والبندقى بمائة وعشرين ، والريال بخمسة وخمسين ، والكلب بثلاث وأربعين ، وأنزلوا الاسعار المتباعة ، وجعلوا لكل صنف سعر لا يباع بأكثر منه » (I50) وان تقوم حملة تفتيشية على رأسها ، علي آغا مستحفظان « لنقد الدراهم ، وتحرير

(148) نفسه ، ص 70 .

(149) نفسه ، ص 11 .

(150) نفسه ، ص 80 - 81 .

الارطال ، والمناداة على الاسعار المقررة ، فمن وجده يبيع أو يشتري بخلاف المقرر ، سواء أكان فلاحا أو تاجرا أو قبانيا بطحه فى السوق على وجهه ، ويضربه بالمساوق الشوم حتى يتلف أو يموت « (I51) هذه أمثلة وليس حصر عما كانت تحدثه عمليات غش العملة وزيفها من أثر سىء على المجتمع القاهرى .

ثالثا : انتشار الأوبئة والطواعين :

اعتبرت الدولة العثمانية الاهتمام بالصحة العامة للشعب ، أمرا خارجا عن اختصاصها ، ونتيجة لإهمال الرعاية الصحية للمجتمع ، فانه كثيرا ما كانت الأوبئة الفتاكة تهاجم الشعب ، وتقضى على الكثير من أفرادها ، وقواء العاملة والمنتجة حتى أنه فى بعض الحالات نظرا لكثرة من يموتون فى اليوم الواحد ، أمر الوزير علي باشا السلحدار بعدم الكشف على الموتى (I52) ، وصلى فى أحد هذه الأوبئة ، على ألف فى كل يوم فى الجامع الأزهر وحده ، ولمدة خمسة وثلاثين يوما (I53) وفى عهد قرا حسين باشا ، بلغت الصلاة على الاموات فى الجامع الأزهر فى اليوم ستمائة نفس « (I54) ، وفى بعض الاحيان كان انتشار الطاعون يتسبب فى فراغ كثير من الالتزامات ، وعرض هذه الالتزامات فى المزداد ، ووصل فى بعض الحالات أنهم لم يجلبوا للميت لا مغسلا ولا عدة « من كثرة الازدحام على الحيوانات « (I55) ، وفى كثير من الاحيان كان الوباء يصيب الشباب والصبيان ، أى الجيل القادر على العمل ، والجيل التالى له ، مما كان يؤثر على اقتصاديات البلاد ولفترة طويلة ، ويؤثر بالتالى على مستوى المعيشة لكثير من الاسر ، وهذا يضر بحياتهم الاجتماعية كثيرة ، خاصة اذا فقدت الاسرة عائلها ، مما كان يؤثر على حياة الاسر الاجتماعية ، هذا فضلا الى جانب الكوارث الطبيعية التى كثيرا ما كانت تتسبب فى هلاك القرى ، والزروع ، مما كان يؤثر على انتاج الغلال ، ويصيب مجتمع القاهرة ازمة كبيرة يكون لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية (I56) .

رابعا : الصراعات المملوكية :

من العوامل التى أثرت فى مجتمع القاهرة ، الصراعات التى نشبت بين البيوت المملوكية المختلفة ، من أجل الاستحواذ على المناصب الادارية الكبرى ، والاشرفية ، أو على التزام المقاطعات المختلفة ، وكان مصر قد أصبحت ملكا

(151) نفسه ، ص 81 .

(152) نفسه ، ص 12 .

(153) نفسه ، ص 12 .

(154) نفسه ، ص 18 .

(155) نفسه ، ص 49 .

(156) نفسه ، ص 13 .

مشاعا تتقاسمه البيوت التالية من هؤلاء المماليك ، وكانت الحروب تدور بينهم في شوارع القاهرة المختلفة ، وكثيرا ما كانت تقفل الحوانيت والدكاكين والبيوت ، وتصبح الحياة من أصعب الامور ، ويصاب السكان بأضرار بالغة ،

تقويم :

كان مجتمع القاهرة يتكون كما مر بنا من فئات عدة ، وكان لكل فئة من هذه الفئات عاداتها وتقاليدها ، التي تتحكم في علاقاتها بالفئات الاخرى .

واضح من وثائق المحكمة الشرعية ، ومن المصادر المعاصرة ، أن هذه الفئات ، لم تغلق باب الاندماج على نفسها ، وانما الفئات جميعها كانت مندمجة ، وعمليات التزاوج بين أفراد هذه الفئات فيما بينها كانت تتم وبصورة كبيرة ، وبناء على ما هو مسجل بوثائق المحاكم الشرعية نجد أن مجتمع القاهرة ، كان مجتمعا مندمجا اجتماعيا ، ولا يعيش في عزلة اجتماعية .

واذا كان لكل فئة عاداتها وتقاليدها ، فان هناك عادات وتقاليدها خاصة بالمجتمع ككل كان المجتمع كله يرتبط بها ، كما أن المجتمع له ثقافته العامة التي كان يرتبط بها .

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

كلية الدراسات الانسانية

جامعة الأزهر - القاهرة

مصادر البحث

- أولا : أرشيف الشهر العقاري : سجلات المحاكم الشرعية التالية :
- محكمة القصة العسكرية ، محكمة القصة العربية ، محكمة الصالحة النجمية ، محكمة الباب العالي ، محكمة طولون ، محكمة الزاهد ، محكمة الصالح محكمة الحاكم ، محكمة البرمسية ، سجلات اسقاط القري ، محافظ دشت .
- ثانيا : المصادر والمراجع المنشورة :
- 1 - البكري الصديقي : محمد بن أبي السرور :
« كشف الكرية في رفع الطلبة » تحقيق وتقديم عبد الرحيم عبد الرحمن ،
المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثالث ، والمثرون 1976 م ، ص ص
273 - 374 .
 - 2 - أبو زيد : حكمت :
« المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صورته الجبرتي » بحث
منشور ضمن أبحاث ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره ، التي أقامتها الجمعية
المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون
والآداب والعلوم الاجتماعية في الفترة من 16 - 23 أبريل 1974 م .
طبع الهيئة العامة للكتاب سنة 1976 م .
 - 3 - أحمد ، ليلى عبد اللطيف :
الإدارة في مصر في العصر العثماني ، مطبعة جامعة عين شمس 1978 .
 - 4 - الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن :
« عجائب الآثار في التراجم والاخبار ج 1 ، ج 2 ، طبع القاهرة 1904 .
 - 5 - ريمون أندريه :
التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، طبعة مكتبة
مديبولي 1985 م .
 - 6 - عبد الرحيم عبد الرحمن :
- العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية في العصر العثماني .
- نشوء الرأسمالية المصرية خلال العصر العثماني (1517 - 1798)
وأثرها على الحياة الاقتصادية من خلال وثائق المحاكم الشرعية .
- المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 - 1798) تونس 1986 .
- النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني ضمن كتاب البحر
الأحمر ، القاهرة 1980 .
 - 7 - عبد الغني ، أحمد شلبي :
أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا ، تحقيق
عبد الرحيم : عبد الرحمن عبد الرحيم ، مكتبة الخانجي 1978 م .
 - 8 - العوفي : إبراهيم بن أبي بكر :
واقعة الصناعات في تراجم الصواعق ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار
الشرقية ، القاهرة 1986 .

ثالثا : المراجع الإفرنجية :

Raymond, André, Artisans et commerçants au Caire au XVIII^e siècle, Tomes 2.
Damas 1973-1974.

الحياة الاجتماعية في ولاية الموصل

(1) 1918 – 1515

د. ابراهيم خليل احمد العلاف

- 1 -

مقدمة :

بالرغم من الاهتمام الكبير الذي ظهر في السنوات الاخيرة بالدراسات العثمانية ، الا أن التاريخ الاجتماعي للوطن العربي لم ينل بعد ما يستحقه من اهتمام . ويعد بحثنا هذا محاولة لتأشير بعض الملامح الرئيسية للحياة الاجتماعية في ولاية الموصل ومصادر وثائقها في الفترة الواقعة بين سنة السيطرة العثمانية عليها سنة 1515 وخروج العثمانيين منها أواخر الحرب العالمية الاولى . ومما يلحظ ان الباحث في التاريخ الاجتماعي يواجه صعوبة كبيرة عند تناوله هذا الموضوع ، ذلك أن مصادر الوثائق الخاصة بالحياة الاجتماعية عديدة ومتنوعة ومتناثرة ، كما انها لم تستخدم بعد بشكل فعلي من قبل الباحثين والمؤرخين (2) .

يتألف بحثنا هذا من أربعة أقسام ، فضلا عن المقدمة ، يتناول القسم الاول الاهمية الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية لولاية الموصل . اما القسم الثاني فيتناول طبيعة المجتمع الموصل المتميز بتعدد قومياته وأديانه ومذاهبه . ويتابع القسم الثالث الانشطة الاجتماعية في الولاية ، والمتمثلة بالمؤسسات الحرفية والدينية وتقاليده السكان في ازياءهم واعيادهم . وخصص القسم الاخير لدراسة وضع المرأة الموصلية خلال الفترة موضوعة البحث .

- 2 -

الأهمية الجغرافية والاستراتيجية لولاية الموصل :

حدث انقلاب في استراتيجية التوسع العثماني في عهد السلطان سليم الاول (1512 – 1520) اذ توقف الزحف العثماني على حساب الغرب

(1) قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية والذي إنعقد في الحمامات تونس للفترة من 15-20 آذار 1986 ، وقد كرس المؤتمر لدراسة الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني .

(2) أنظر الملحق ، حيث يتضمن قائمة ببعض مصادر ووثائق الحياة الاجتماعية في ولاية الموصل .

الاوربي ، أو كاد واتجه نحو الوطن العربي (3) . ومهما تعددت الآراء واختلنت في تحليل هذه الظاهرة ، فإن تأسيس الدولة الصفوية في إيران كان عاملاً رئيساً في ذلك . فالغزو العثماني للوطن العربي لم يكن إلا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية الفارسية بقصد الاستحواذ على منطقة الشرق الأدنى (4) .

ولقد قادت الاحداث التي نجمت عن معركة جالديران سنة 1514 وانتصر فيها العثمانيون على الفرس الى دخول الموصل في حوزة العثمانيين سنة 1515. وتعد الموصل أول مدينة عربية سيطر عليها العثمانيون مثلما كانت آخر مدينة خرج منها الجيش العثماني في أواخر الحرب العالمية الأولى 1918 . وكان لموقع الموصل ولطبيعتها الجغرافية اثار واضحة في مجرى تاريخها السياسي والحضاري ذلك انها تقع عند تقاطع الطرق التي تربط بين إيران والناضول وسوريا (5) . ولقد اهتم العثمانيون بولاية الموصل لاهمية موقعها ولعلاقة ذلك بالتطورات الاقتصادية التي كانت تشهدها المنطقة آنذاك ، وخاصة فيما يتعلق بتجارة الحرير . فالموصل تشكل طريقاً مهماً لانسياح هذه التجارة في تلك الفترة بعد ان فرض السلطان سليم الاول حصاراً على طريق التجارة الفارسية التي كانت تمر من تبريز الى أرضروم ثم أماسيا فالاناضول ، فتحوّلت التجارة الى حلب ومنها الى الاسكندرونة ، وهذا السبب أعطى الموصل أهمية بالغة بحيث أصبحت مهيمنة على هذا الطريق المهم بالنسبة للتجارة الفارسية ، ومن الطبيعي ان تصبح تجارة الحرير الفارسي تحت رحمة العثمانيين ، وأصبح بالامكان التحكم بهذا الطريق وحرمان الفرس من مرور تجارتهم من خلاله ، خاصة وان إيران كانت تعتمد تجارة الحرير في صادراتها الى الغرب الذي يقوم بمقابلتها بالحديد والنحاس كموايد رئيسة في استراتيجية تلك الفترة . وكان السلطان سليم يهدف الى الحيولة دون ان ينال الإيرانيون عدة الحرب ، وكذلك من خلال منع تجارة الحرير وتخفيض مدخولات إيران ومنعها من تحقيق اطماعها التوسعية (6) .

ولقد أثر الحصار التجاري الذي فرضه العثمانيون على إيران بعد استيلائهم على مواضع وحدود ومسالك ديار بكر الموصل التي كانت تحظى بالخطوط الاستراتيجية الفعالة والمهمة . كما تم للعثمانيين بعد ذلك التحكم في السيطرة

(3) إبراهيم خليل أحمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916 ، (الموصل ، 1983) ، ص 20-25 .

(4) A. J. Teynbee, A study of History, vol, 1, (Oxford, 1934) PP. 385-6

(5) فاضل حسين ، مشكلة الموصل ، (بغداد ، 1967) ، ص 78 .

(6) سيار كوكب الجميل ، دراسات في السيطرة العثمانية على الموصل وأقليم الجزيرة سنة 1516 وبدايات الصراع العثماني - الإيراني في عهد السلطان سليم ، مجلة بين النهرين ، الموصل ، السنة (8) ، العدد (30) ، 980 ، ص 196-197 .

على مسالك أخرى تقطع العراق وصولاً إلى الخليج العربي الذي يعد الباب الطبيعي الجنوبي للمسلك العمودي ، في حين كانت حلب هي النهاية الرئيسية للمسلك الأفقي المتمثل بتبريز - أرضروم ، أما الموصل فقد بقيت مستمرة في علاقاتها الاقتصادية بمختلف الأقاليم ، ومحتفظة ببنافذتها المفتوحة نحو الشرق والغرب لستراتيجيتها وتحكمها بالمسالك الأفقية والعمودية حتى فتح قناة السويس في سنة 1869 . وكساد ينعدم مسلكها الأفقي مع الشام والناضول ، أما مسلكها العمودي نحو بغداد - البصرة ، فقد ظل قائماً حتى يومنا هذا (7) .

- 3 -

أوضاع الموصل الاقتصادية حتى أوائل القرن العشرين :

لم تكن الموصل حين سيطر عليها العثمانيون سنة 1515 أكبر من « بلدة صغيرة مسورة ، ولم تكن حنة العمران ، ولا تحتفظ إلا ببقية شهرتها التجارية القديمة ... ولم يعرف الكثير عن أحوالها الداخلية ، غير عدم استقرار أحوال حكومتها » . إلا أن الموصل بعد سيطرة العثمانيين عليها ، دخلت مرحلة جديدة من تاريخها ، إذ أصبحت مركزاً لأهم الولايات العربية واتخذت قاعدة متقدمة لضرب الوجود الإيراني من العراق بأكمله (9) وفي النصف الأول من القرن السابع عشر ، أصبحت الموصل ولاية قائمة بذاتها ، ولم تتخذ شكلها الإداري النهائي إلا في سنة 1879 حين أصبحت تضم سنجق (لواء) كركوك والسليمانية ، فضلاً عن سنجق الموصل نفسه . تحدها من الشمال ولايتا وان وديار بكر ومن الشرق مملكة فارس ومن الغرب سنجق دير الزور ومن الجنوب ولاية بغداد . وقد بلغت مساحتها حوالي (91/000) كيلو متراً مربعاً (10) .

ومنذ عهد السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566) طبق فيها نظام الاقطاع العسكري ، إذ قسمت إلى وحدات إقطاعية بالدرجات الثلاث المعروفة خاص و تيمار وزعامت (II) . وتكشف لنا أعمال السلاطين العثمانيين الأوائل

(7) المصدر نفسه ، ص 197 .

(8) عبد الكريم غرايبة ، مقدمة في تاريخ العرب الحديث ، (دمشق ، 1960) ص 110-111 .

(9) عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي ، (النجف ، 1975) ، ص 27 .

(10) محمد نصر الله وآخرون ، ممالك محروسة شاهانية مخصوص ومكمل مفصل أطلس ، (إستانبول ، 1325) ، ص 102 .

(11) جاء في السجلات العثمانية دفتر رقم 195 لوحة رقم 49 في الفترة بين 949-951/1542-1544 أن في الموصل خمسة زعامات و (67) سباهي و (126) مزرعة و (25) جماعة ، و (8789) شخص منهم (6497) رجل و (2293) امرأة . للتفاصيل أنظر : حسين محمد الهقواتي العراق بين الإحتلالين العثمانيين الأول والثاني 1534-1638 رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد 1975 وهي غير منشورة ، ص 313 .

عن طبيعة نظرتهم الى الاقطار التي تحت سيطرتهم ، والتي تقوم على أساس « اقرار الاوضاع القائمة فعلا مع محاولة الاستفادة من هذا الواقع الى أقصى حد ممكن » . ونظرا لظروف الموصل المتميزة في وفرة امطارها ، وقرب الاراضي الزراعية من الادارة المركزية فقد اتبع فيها العثمانيون الاسلوب الاقطاعي (I2) . اما في سائر ارجاء العراق الاخرى ، فان الارض ظلت في حوزة مالكيها المحليين . كما امتدت الى أقصى الشرق من الولاية بضعة مشيخات كردية منفصلة سيطر شيوخها على مناطق شاسعة من الاراضي يتوارثونها جيلا بعد جيل ويتولى فيها شيوخ محليون جباية الايرادات وتسليمها الى الحكومة . ورغم بدو المجموعات القبلية الكردية كالجاف والهواند ، الا انها كانت تحت حكم « ملاكين » ينتمون الى سلالات اقطاعية ذات منشأ ديني أحيانا . وكان اندماج الكردي بالاسلوب الاقطاعي العثماني قائما على اعتبار ان رؤساء تلك الاسر يعينون (سنجق بيكات) تحت سلطة باشا الموصل لقاء خدمات عسكرية شخصية (I3) .

غير ان الاسلوب القبلي ، في التصرف بالارض في هذه الجهات من ولاية الموصل ، كان يبدو أكثر وضوحا من الاسلوب الاقطاعي . فلم يكن هناك زعامات أو تيمارات مستقلة عن الخاص ، لان الاراضي كانت تعود الى الاسر الحاكمة ، ولم يكن جمع الضرائب يتم على أساس الزعامة أو التجار ، وانما وفق اسلوب الالتزام مدى الحياة أو ما يسمى بـ « المالكانة » . وقد بلغت ممتلكات بعض الشيوخ أحيانا عشرات القرى (I4) .

وبالرغم من أن البيئة القبلية كانت هي السائدة في التنظيم الاجتماعي في ولاية الموصل ، الا انه كان هناك ثمة خلاف بين البيئة القبلية الكردية والبيئة القبلية العربية ، فالتنظيم الاجتماعي الكردي يعد أكثر تأثرا بالاسلوب الاقطاعي مقارنة بالتنظيم الاجتماعي العربي . فالأغا الكردي يعد ملاك الارض ، ولم يكن الفلاحون الا مستأجرين عنده ، في حين عرف عن القبيلة العربية المساواة في مسألة ملكية الارض والتصرف بها (I5) .

لقد عاشت ولاية الموصل حتى أواسط القرن التاسع عشر في حالة من الفوضى والاضطراب في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يجر فيها أي

(12) عماد عبد السلام رؤوف ، الحياة الاجتماعية في العراق إبّان عهد المماليك 1749-1831 ، رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة القاهرة 1976 ، وهي غير منشورة ، ص 18 وما يؤكد تطبيق النظام الإقطاعي ما ورد في السجلات العثمانية دفتر رقم 195 لوحة 49 بتاريخ 951هـ/1544م بخصوص التشكيلة الإدارية للموصل حيث وضع على رأسها مير لواء واحد (سنجق بكلي) لأكبر بكلي الذي يرأس الولاية عادة . للتفاصيل أنظر : القواتي ، المصدر السابق ، ص 313 .

(13) عماد أحمد الجواهري ، تاريخ مشكلة الأراضي في العراق 1914-1932 (بغداد ، 1980) ص 15 .

(14) المصدر نفسه ، ص 16 .

(15) المصدر نفسه ، ص 84 .

اصلاح ملحوظ . كما فشلت الحكومة في توطيد الامن وتوطين العشائر ، واقتصرت جهودها على ارسال الحملات التأديبية للعشائر العربية والكردية . الا ان الحكومة العثمانية اتخذت بعد ذلك سلسلة من التدابير الاصلاحية تمثلت بمجهودات مدحت باشا (1869 - 1872) الذي عين واليا على بغداد وزود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في الولايات الثلاث بغداد ، الموصل ، البصرة . وبعد نظام الطابو ، أهم ما يلفت النظر في اعمال مدحت باشا الاقتصادية ، وكان الهدف الرئيسي من هذا النظام محاولة ايجاد حل لمشكلة العشائر ووضع حد لتمرداتها المستمرة وتحويل افرادها الى مواطنين مستقرين وذلك بتوفير سبل العيش وتحسين وسائل الري (16) . وقد أثمرت سياسته في أماكن متعددة ، فاستقر رئيس قبائل شمر الجربا غرخان ابن صفوك في منطقة الشرقاط فمنح لقب باشا وأصبح واسطة لاسكان البدو أفراد عشيرته ، وأخذ يتسلم راتباً من الدولة وزار العاصمة استانبول (17) .

لقد أدت سياسة مدحت باشا الى ان يتحول الشيوخ الى ملاكين للاراضي ، ولم تعد العلاقات داخل القبيلة تعتمد على المساواة بين أفرادها ، بل أصبح مقدار ما يملك الشخص المعيار الاساس للتمييز بينهم (18) .

ولم يكن الانتقال من البداوة الى الاستقرار ، سوى ازدياد نفوذ الشيوخ الاقتصادي والسياسي ، وظهور فئات ثرية كان رفاهها متأثراً من عمق الاستغلال الاقطاعي للفلاحين ، فحدث بذلك انقلاب في طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل القبيلة ، وتعاون رؤساء العشائر وأثرياء المدن في الاستحواذ على كثير من الاراضي الزراعية .. فعلى سبيل المثال كان شيخ شمر يزرع منطقة نجمة بالقرب من الشورة جنوبى الموصل قبل الحرب العالمية الاولى بالاشتراك مع أحد أثرياء الموصل (19) .

لقد أدى تطبيق سياسة الطابو الى حصول أشرف المدن والاغوات الاكراد وبعض شيوخ العشائر على معظم الاراضي .. وتعلل دورين وارنر سكوت الحكومة العثمانية عن تسجيل الاراضي والقرى الكردية بصورة خاصة بأسماء الاغوات والمختارين خلافا لما نص عليه قانون الاراضي من عدم تسجيل القرى باسم شخص واحد ، الى رغبة الحكومة فى الإبقاء على استتباب الامن فى تلك المناطق (20) وهكذا تحول الفلاحون الى مجرد مؤجرين ، وتم هذا فى الوقت

(16) S. H. Lengrigg, For centuries of Modern Iraq, (Beirut, 1968 P. 305.

(17) عبد الجليل الطاهر ، البدو والعشائر في البلاد العربية ، (بغداد ، 1954) ، ص 37 .

(18) كاتلوف ، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق ، ترجمة : عبد الواحد كرم ، (بغداد 197) ، ص

(19) Great Britain, India office, Review of the civil Administration at mesopotamia (1914, 1920, By G. L. Bell, (London, 1920) P. 41 ; Hereafter cited as. Bell, Review.

(20) دورين وارنر ، الأرض والفقر في الشرق الأوسط ، ترجمة : حسن أحمد السلمان ، (القاهرة ، 1950) ، ص 977 .

الذي كانت فيه الروابط العشائرية تأخذ بالانحلال ، وحيث أخذت الروح التجارية تنتشر في المجتمع العشائري المتصف بالاكتماء الذاتي (21) .

أما الاراضى التى ظلت أميرية صرفة ، فقد أجرت بالمزايدة ، الى من يدفع أكثر من غيره ، وبهذه الطريقة انتزعت من أيدي فلاحها الفعليين ، وانتقل التصرف بها الى ايدي الاغوات ووجهاء المدن ، فقد رست على سبيل المثال ، معظم الاراضى التى كانت لعشيرة (دزئى) شرق كبرى وغربها على رؤساء عشائر الخفاف وبازيان والسادة (22) كما نجحت اسرة شيوخ البرزنجة (23) . فى الاستحواذ على معظم القرى والبساتين المحيطة بالسليمانية مستفيدة من مكانتها الدينية وصلة رؤسائها بالحكومة وبلغت القرى التى دخلت فى حوزتهم حوالى (60) قرية ببدل زهيد لا يساوى عشر معشار اثمانها الحقيقية (24) .

اما فى مناطق انتشار اليزيدية فى سنجار والشيخان فقد اكتسب (المير) وهو رئيس اليزيدية الدينى والدنيوى مكانة كبيرة اصبح بواسطتها يستولى على نسبة معينة من المحصول والماشية من كل فلاح (25) . كما كان يلزم اتباعه بجمع مبالغ كبيرة لحساب مزار الشيخ عدى بن مسافر الاموى (26) . هذا بالإضافة الى ان العديد من قرى اليزيديين دخلت فى ايدي الملاكين الموصلين ، فخذ أصبح أحدهم يملك بين (3 - 50) قرية (27) .

ولقد استولى أغوات تلعفر على معظم الاراضى (28) ، كما دخلت بعض قرى زاخو وعقرة والزبيار فى ايدي الملاكين باساليب عديدة يتعلق معظمها بطريقة تسجيل الاراضى ، او اغراق الفلاحين بالديوان ، وحين يعجز بعض الفلاحين، عن دفع لضرائب ، فيلجأ الى احد الوجهاء فيطلب حمايته ، بعد أن يفرغ عليه أرضه بدل هذه الحماية ، او ان يملك الوجبة الثرى جزءا صغيرا من قربة ثم يعمل على وضعها فى (الشيوخ) ويطرد اصحابها عنها (29) .

(21) محمد سلمان حسن ، التطور الإقتصادي فى العراق ، ج 1 ، (بيروت ، 1965) ، ص 189-190

(22) للتفاصيل أنظر بحثنا : أوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، مجلة آداب الرافدين ، العدد (7) 1976 ، ص 667 .

(23) نسبة إلى قرية برزنجة ، وتقع شرقي مدينة السليمانية وتبعد عنها حوالي 60 كم ، وكان الشيخ سعيد البرزنجي يترأس أسرة الشيوخ هذه . وهي من الأسر الدينية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير بين الأكراد وترجع أهميتها إلى مكانة مؤسسها (كاك أحمد الشيخ) إبن الشيخ معروف النودهي مرشد الطريقة القادرية ، وكان الشيخ سعيد من المقربين للسلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909) وقد زار إستانبول سنة 1904 ، أنظر :

E. B. Soane, To mesopotamia and kurtistan in Disguise, (London, 1926), P. 187.

(24) محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ج 3 ، (بغداد 1925) ص 119 .

(25) E. S. Stevens, By Tigris and Euphrates, (London, 1923 P. 189.

(26) ويقع المزار فى وادي لالش فى الشمال الشرقي من مدينة الموصل .

(27) صديق الديمولوجي ، إمارة بهدنيان ، (الموصل ، 1952) ، ص 128 .

(28) Bell, Review, P. 54.

(29) الديمولوجي ، المصدر السابق ، ص 128-129 .

لقد أصبح الفلاحون من جراء ذلك بين نارين ، نار الحكومة ونار الملاكين ، حيث كانت بدلات الالتزام وحصة المستأجرين الجدد تجبى بصعوبة كبيرة بسبب المقاومة التي كان يبديها الفلاحون ، لهذا أصبحت الاغارة على القرى بقوات (الجندرمة) لتحصيل الضرائب الحكومية أو حصة المستأجرين بالقوة أمراً مألوفاً . فقد كانت ثمة قوة رئيس عشيرة الجاف الخاصة من الفرسان والمسماة (بشت ماله) (30) مستعدة للاغارة على اية مجموعة من العشيرة تعصى أوامره في دفع الضرائب . زيادة على ذلك ، كان لرئيس العشيرة ضرائبه الخاصة به أمثال ضريبة (دومخة) (31) و (سوران) (32) و (الديوان) (33) وتزداد هذه الضرائب لتصبح مرهقة للفلاحين في بعض القرى . الى جانب ذلك مارست بعض الاتحادات القبلية الكردية كاتحاد الهماوند دورها في الحصول على الاراضي ، فقد كوفى زعماء الهماوند بعد مساهمتهم في حرب الدولة العثمانية مع روسيا (1877 - 1878) بتوسيع أراضيهم في منطقة بازيان (34) .

كما كانت هناك الاراضي السنية ، التي تعود للسلطان عبد الحميد الثاني (1876 - 1909) وكان لها ادارة خاصة وقد شملت مساحات واسعة قرب مدينة الموصل والسهول الواقعة بين الزاب الاعلى والزاب الاسفل ، ومناطق ديلين ومولوان وباقره جوفى السليمانية ، وأراضي واسعة في قضاء مخمور (35) وكانت حالة الفلاحين فيها احسن من حال سائر الفلاحين في العراق ، اذ كان مستأجروها يحصلون على نصف المحصول ، ويضمنون في حالة قلة المحصول ان يحصلوا على بعض التعويضات والمساعدات والسلف . كما كان فلاحو هذه الاراضي معفوين من الخدمة العسكرية .. وقد بقيت هذه الاراضي ، من الناحية العملية تحت التصرف الفعلي للزراع ، وكانوا يدفعون حصتي الطابو والحكومة معا الى الادارة السنية وبنسبة 20 % من الحاصل لكل من الحصتين (36) . ومع ان الاراضي السنية كانت افضل الاراضي في العراق ، وكانت وارداتها السنوية تزيد على مئات الالوف من الليرات العثمانية ، الا انها فقدت هذه الامتيازات بعد ثورة 1908 فامتدت اليها يد الاهمال وأخذت أحوال فلاحها بالتدهور (37) .

(30) كلمة كردية تعني حراس الأمير .

(31) وهي أخذ نسبة معينة على الأغنام مع خرافها أيام الربيع ، ومن مجموعها يشكل قطع يستفيد الأغا والأمير من حلبه ، وتكون الخراف له ، ويعيد الأغنام إلى أصحابها ، وتتجدد هذه العملية في كل ربيع .

(32) هي الضريبة على الزواج .

(33) هي الضريبة التي تؤخذ لإدارة ديوان الأغا .

(34) باسيل نيكيتين ، الأكراد ، (بيروت ، 1967) ، ص 143 .

(35) الجواهري ، المصدر السابق ، ص 43 .

(36) المصدر نفسه ، ص 43-44 .

(37) عبد الله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى ، (بغداد 1962) ، ص 27 .

اما القرى الموقوفة على التكايا واصحاب المراقد ، فقد كان ضررها أشد من الملكية نفسها ، اذ يجوز ان تتحول الملكية او تزول ويطلق الفلاحون من الاسر ، ولكن الاراضي الوقفية ، يبقى أهلها في حالة العبودية مدى الدهر (38) .

ومما يلفت النظر أن يحتفظ المسيحيون في القرى المحيطة بمدينة الموصل بأراضيهم ، وسط هذا كله ، فقد تمكنوا من إبعادها عن أيدي الملاكين الموصلين ، وربما يرجع ذلك الى مجهودات بطاركتهم وأساقفتهم ، فضلا عن استفادتهم من مبدأ حماية الدول الاوربية لهم ، خاصة أولئك الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي (39) .

نتيجة لتدفق رؤوس الاموال الاجنبية نحو الموصل واتجاه التجار الاوربيين الى ان يجعلوا العراق كله للخامات ، وسوقا لتصريف بضائعهم ، محاولين ربط اقتصاده باقتصاد السوق العالمية ، ازداد الطلب على المنتجات الزراعية والحيوانية ، وتحت تأثير ضغط الملاكين الجدد اتجه الاقتصاد على العموم من اقتصاد طبيعي يسد الحاجة المحلية الى اقتصاد التسويق القائم على الربح . وتعد الموصل ، أسرع من باقي مناطق العراق الاخرى ، في تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، فقد كثر الاقبال على زيادة المساحات المزروعة في جنوبي سنجار ، والاقسام الغربية من المنطقة الكردية . ولعل ذلك يرجع الى أهمية موقع الموصل وكونها سوقا للمنتجات الزراعية والحيوانية ، فهي ملتقى طرق ، كما سبق ان قدمنا وتضم مدنا تجارية مهمة كالموصل والسليمانية وكركوك (40) . وكذلك لظروفها الزراعية المتميزة ، وكان لعدم شمول ولاية الموصل بالارادتين السنيتين اللتين (41) منعتا انتقال الاراضي بالطابو في ولايتي بغداد والبصرة ، دور كبير في تحول الفلاحين من مالكيين للارض الى مستأجرين . ولقد شدد الملاكون ، على الفلاحين من أجل زيادة الانتاج الزراعي ، على الرغم من عدم تقدم وسائل الانتاج التي ظلت بدائية بسيطة حتى أواخر العهد العثماني (42) .

لقد ساعدت التطورات الجديدة تلك على احداث تغيير في علاقات الانتاج ، وايجاد روابط جديدة بالسوق الخارجية وأسهمت في ذلك عوامل أخرى

(38) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص 126-128 .

Bell, Review, p. 54.

(39)

(40) أنظر بحثنا المشار إليه آنفا ، ص 231 .

(41) وصدرت الأولى سنة 1880 والثانية سنة 1890 . وقد منعت الإرادة الأولى منح أراض أخرى بالطابو سواء بدفع بدل المثل أو بواسطة المزايدة . كما أبطلت الثانية حق القرار وهو الحق الذي يقضي بتسجيل الأرض بالطابو باسم مستثمرها الفعلي مجانا إذا كان قد تصرف بها لمدة عشر سنوات متتالية قبل إصدار القانون وللتنافيل أنظر : الجواهري ، المصدر السابق ، ص 40-41 .

Hashim Jawad, The social structure of Iraq, (Jerusalem, 1945), P. 10. (42)

داخلية وخارجية ، فبعد افتتاح قناة السويس سنة 1869 برزت ظاهرة نشوء واتساع تجارة التصدير الى أوروبا . وأصبح لتجار الموصل فعاليات مهمة في مجال التصدير والاستيراد (43) . وساهمت البنوك في تسهيل عملية التعامل المصرفي ، وكان لهذه النشاطات أثر كبير في نشوء فئة برجوازية تجارية جديدة عملت على تنظيم نفسها داخل ما سمي بـ « تجارات اورطه سي » أي غرفة التجارة (44) وكانت هذه الفئة على صلة قوية بالاطراف الاقتصادية المحلية وظهر هذا واضحا فيما بعد ، حيث ان العوائد الاقتصادية في الموصل حتى أواخر الحرب العالمية الاولى ظلت مقتصرة على «عوائل قليلة العدد » كثيرة المال ، (45) ومن هؤلاء آل الصابونجي وآل العمري وآل الجادر وآل خياط في الموصل وآل بابان في السليمانية وآل نفطجي في كركوك . وقد أخذت هذه الفئات تحاول ان تثبت وجودها وتعبّر عن واقعها بشكل أو بآخر ، وكان كل تغيير في ذلك التعبير يعتمد الى حو كبير على مدى تطورها، خاصة في امكاناتها لايجاد مواقع ثابتة لها في الحياة الاقتصادية ، والى شيء من هذا القبيل يشير لونكريك فيقول : ان هذه الفئة استطاعت ان تحافظ على وضعها الممتاز في مضمار السيادة والنفوذ حتى في فترة الاحتلال البريطاني (46) .

وبالرغم من المواقع الاقتصادية التي احرزتها هذه الفئات البرجوازية الا انها لم تستطع ان تتحول الى قوة مستقلة في الكيان الاجتماعي ، بحيث تفرض رياح التغيير على مجتمع الولاية ، وربما كان المثقفون ، وهم أساسا من ابناء العوائل الكبيرة ، او من البيوت الدينية والتجارية المعروفة آنذاك ، القوة التي تحولت داخل البرجوازية لتبني الفكر القومي ، الذي ازداد الشعور به خاصة بعد ثورة 1908 الدستورية . ولقد عملت فئة المثقفين الموصليين على اثارة الوعي القومي العربي بدرجة لا تقل أهمية عما جرى في الولايات العربية الاخرى (47) . ولم يؤثر توغل العنصر الكردي في داخلية الولاية على ذلك ، كما أشار الى ذلك بعض الكتاب (48) ، وانما حدث العكس من ذلك حين تأثر الاكراد كاخوانهم العرب بكافة التطورات السياسية في الدولة العثمانية ، وسارت القوميتان العربية والكردية في خطين متوازيين يستهدفان العمل من أجل التحرر من السيطرة العثمانية (49) .

(43) للتفاصيل أنظر بحثنا المشار إليه آنفا .

(44) موصل ولايتي ، سالنامه ، سمسيدر ، 1312هـ ، ص 52 . وأكد لي أحد تجار الموصل وهو المرحوم حمدي جلميران في مقابلة معه بتاريخ 1973/9/20 وجود جمعية في الموصل بإسم (جمعية التجارة والزراعة) قبل الحرب العالمية الأولى .

(45) عبد الرحمن صالح ، كتاب العمر ، مذكرات شخصية غير منشورة ، الورقة (95) .

(46) S.H. Longrigg, Iraq, 1900 to 1950, (Beirut, 1968), p. 47.

(47) للتفاصيل أنظر بحثنا : الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الأولى ، مجلة الخليج العربي ، البصرة ، العدد 7 ، 1977 ، ص 80 .

(48) Longrigg, Op. Cit., P. 45.

(49) أنظر بحثنا : الحركة العربية في الموصل ، ص 86 .

- 4 -

طبيعة المجتمع الموصل :

لعل من أبرز المشاكل التي تعترض الباحث في التاريخ الاجتماعي لولاية الموصل ، عدم وجود احصائيات دقيقة لسكانها ، وقد حالت دون تحقيق الاحصائيات الدقيقة تلك اعتبارات كثيرة اجتماعية واقتصادية تعد في الواقع أسبابا ونتائج للتكوين الاجتماعي . فلقد تعود معظم السكان ، خاصة أهل الريف ، ان ينظروا الى اعمال حكومية من هذا القبيل نظرة شك وريبة . ويعتقدون انها للتجنيد أو لجباية الضرائب فيتهربون منها أو ينقصون أو يزيّدون فيها حسب مفاهيمهم لها . أضف الى ذلك ان تسجيل النفوس يقتضى له قبل كل شيء ان يتمتع السكان بنوع من الاستقرار في السكن ، حين ان قسما كبيرا من السكان في حركة مستمرة من محل لأخر ، وأخيرا فان انتشار الجهل والامية بصورة كبيرة في كافة انحاء الولاية يقف عائقا دون ادراك الناس لاهمية تسجيل النفوس (50) .

ومهما يكن من أمر ، فان عدد سكان الولاية لم يكن ثابتا طوال العهد العثماني . وكان طبيعيا ان تترك النكبات الطبيعية التي تعرضت لها الولاية من طواعين واثبات ومجاعات آخرها مجاعة 1917 التي أودت بأكثر من عشرة آلاف نسمة ، أثر على عدد السكان (51) . ولكن ثمة اشارات ، تستند الى استقرار الأوضاع الاقتصادية أو استتباب حد أدنى من الأمن ، تدل على وجود زيادة كبيرة قد طرأت على سكان الولاية . ومع ان المصادر الرسمية العثمانية لسنة 1907 (52) قد قدرت نفوس ولاية الموصل بـ 351/200 نسمة مع ملاحظة ان العدد يشمل الذكور فقط ، فان الدكتور محمد سلمان حسن (53) ، يورد أرقاما تختلف مع الرقم المذكور استنادا الى تخمين قام به على أساس المعلومات المتوفرة في تقارير القناصل البريطانيين وللسنوات 1867 - 1919 ، وكما يلي :

النمو الكلي لسكان ولاية الموصل

(بالآلاف) 1867 - 1919

السنة 1867	السنة 1890	السنة 1905	السنة 1919
265	401	540	703

Jawad, Op.cit., p. 18

(50)

(51) لقد تعرضت الموصل إلى سلسلة من الأوبئة والمجاعات طيلة العهد العثماني وكان لذلك آثارا اجتماعية أبرزها إهمتاد السكان على تخزين كميات كبيرة من الغلال في أقبية خاصة تحت الأرض .

(52) موصل ولايتي ، سائنامه رسيسيد ، (موصل 1325-1907) ، ص 130 .

(53) التطور الاقتصادي في العراق ، ج 1 ، ص 41 .

تشكل الموصل نقطة احتكاك وتفاعل دائم بين أقاليم طبيعية أربعة مهمة ، فهي من ناحية منطقة انتقال من الصحراء المنبسطة الجافة الى الجبال المطيرة وما وراءها ، وهي من ناحية أخرى منطقة التقاء بين اقليم الجزيرة وبين السهل الرسوبي أو سواد العراق .. ولا شك في ان لكل من هذه الاقاليم الطبيعية تأثيره الخاص المتميز في تشكيل الحياة السياسية والحضارية والاجتماعية للموصل ، مما منحها بتوالي العصور شخصية محلية واضحة المعالم ظاهرة القسما (54) فلقد تميز المجتمع الموصل في العهد العثماني ، ولا يزال ، بتعدد وتنوع قومياته وأديانه ، وعاشت عناصره منذ عصور بعيدة متجاورة مشتركة وفي اجواء غلب عليها طابع التعاون والتسامح والمودة ، بحيث بدأ السكان الموصليون وكأنهم ينتمون الى عنصر واحد . فمن الناحية الاثنية ضمت ولاية الموصل العرب والاكرد والتركمان ، فبالنسبة للعرب ، فانهم عاشوا في الموصل منذ عصور ما قبل الاسلام وانتشروا في اطرافها ابان حروب التحرير العربية واستمروا يغذونها بالهجرات حتى القرن السابع عشر حتى منحوها صبغتها القومية ، ولعل من أبرز القبائل العربية التي استوطنت الموصل بعد تمصيرها تغلب ونمر وأياد وقريش وبنو الحارث والعزة والحياليون والبنونجمة وقد اتخذت هذه القبائل لنفسها محلات خاصة داخل مدينة الموصل لا تزال حتى يومنا هذا تسمى باسمهم . فالخزرجيون مثلا سكوا في محلة خزرج الواقعة في الجهة الغربية من الموصل واستقر المشاهدة في محلة تدعى باسمهم حتى الآن وتقع الى الجنوب الغربي من مدينة الموصل (57) .

اما الاكرد ، فقد سكنوا المنطقة الجبلية من ولاية الموصل وتقع الى الشمال والشرق من مدينة الموصل . اذ تمتد الجبال محيطة بسهول العراق من الشرق الى الشمال على شكل قوس ، ويتفاوت ارتفاعها بين 8000 و 11000 قدم . وبين هذه الجبال والاراضي السهلة الكائنة في شرق نهر دجلة ، الروابي المتوجة المرتفعة التي يتفاوت ارتفاعها بين 100 و 7000 قدم ، وتأخذ سلاسل الجبال في الارتفاع تدريجيا كلما تقدمنا نحو الشرق أو الشمال ، وهي تنحدر غربا حتى تتصل بسهول الموصل وتجري المياه في الوديان ، يكسو البعض منها اشجار وأدغال ، وتسقط على هذه المنطقة امطار غزيرة ، وكثيرة من وديان المنطقة ذوات تربة خصبة تصلح للزراعة ، وتمثل منطقة الجبال حاجزا ستراتيجيا مهما يحمي اقليم الجزيرة ، وكان لسيطرة الموصل على هذه المنطقة ، أثر كبير في توفير القوة للمنطقة كلها (56) .

(54) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 10-11 .

(55) أحمد علي الصوفي ، حكايات الموصل الشعبية ، (بغداد ، 1963) ص 10 .

(56) للتفاصيل أنظر : طه الهاشمي ، فصل جغرافية العراق ، (بغداد ، 1923) ص 175-177 ، وكذلك رؤوف ، المصدر السابق ، ص 14-15 .

وبالنسبة للتركمان ، فليس ثمة احصائيات لنفوسهم ابان العهد العثماني، ولكن الكتيب الذي نشرته وزارة الخارجية البريطانية سنة 1920 يشير الى ان عددهم في ولاية الموصل يبلغ (120000) نسمة (57) ولا يؤلف التركمان كتلة مجتمعة في أى جزء من الولاية بخلاف العرب والاكراد بل هم موزعون في المدن والقرى المختلفة . ويعيش التركمان بين موطن العرب جنوبا وعلى طول الخط الممتد من تلعفر ابتداء من قرى الشبك والرشيديّة بالقرب من مدينة الموصل مارا بمدينة اربيل ، والتون كوبرى ، ومن ثم مدينة كركوك ويمر بتناز خرماتو ، داقوق ، طوزخرماتو وقسم من قرى البيات ، كبرى ، قره تبه وحواليها . ويتركز معظم التركمان في مدينة كركوك والقرى المجاورة لها مثل تركلان ولبلان وغيرهما (58) .

وتقطن الموصل جماعات اثنوغرافية من السكان يطلق عليهم اسم «الشبك» وفي قرى يبلغ عددها قرابة خمسين قرية معظمها يقع الى الجانب الشرقي من مدينة الموصل . وثمة احصائيات تشير الى ان عددهم اواخر العهد العثماني يتراوح على وجه التقريب بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألف نسمة . ولغة الشبك مزيج من العربية والكردية والتركية . . ويعمل معظمهم في الزراعة ومن قراهم القاضيّة ، شريخان ، يارمجة ، كوكجلى ، الشمسيات ، اورطة خراب ، باييوخ ، بعويزه (59) وقد كتب عنهم الاستاذ أحمد حامد الصراف (60) يقول : « ان الشبك أهل زرع وضرع ، وما زالت البداوة قائمة فيهم ولم ينسلوا بعد منها » ومن خصائصهم أنهم أشد تعلقا بالأسادة المنحدرين من صلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعندهم ان وجود السيد الهاشمي بينهم مصدر خير وبركة ، وطبقات الشبك الاجتماعية هي الاغا ، البير ، الرهبر ، المريد ، الملا ، القلندر ، وهو صاحب السلطة الروحية . ويرى بعض المؤرخين ان الشبك من بقايا الفرق الغالية في الاسلام ، ولكن عدد كبير منهم قد عاد الى حظيرة الشيعة الاثنى عشرية (61) .

اما الباجوان فهم جماعات تقطن في قرى شرقي الموصل ، ولغتهم خليط من العربية والكردية والتركية وهم من السنة . ومن قراهم عمركان ، تبراغ ،

(57) المركز الوطني للوثائق ، ملفات البلاط الملكي ، ملفه تركيا وقضية الموصل والحدود رقم 5 ، 4 ، 1 ، وقد جاء في المذكرة البريطانية التي قدمت بخصوص الحدود بين تركيا والعراق إلى عصبة الأمم في 5 أيلول 1924 أن عددهم لا يزيد عن (64،895) نسمة .

(58) عبد اللطيف بندر أوغلو ، التركمان في عراق الثورة ، (بغداد ، 1973) ، ص 17 .

(59) للتفاصيل ، أنظر : شاكر صابر الضابط ، موجز تاريخ التركمان في العراق ، ج 1 ، (بغداد ، 1960) ، ص 108 ، وكذلك : أحمد حامد الصراف ، الشبك ، أصلهم ، لغتهم ، (بغداد ، 1954) ، ص 89 .

(60) الشبك ، ص 145 .

(61) شاكر صابر الضابط ، موجز تاريخ التركمان في العراق ، ج 1 ، (بغداد ، 1960) ،

زياره ، ومن قرى الشبك التي يسكنها الباجوان ، جيلوخان ، اروطة خراب .
تل عاموده ، كهريز (62) .

وهناك الصارلية وقيمون في قره تبه ويسكنون قرابة خمسة عشر قرية بين الموصل واربيل على الجانب الايمن والايسر من الزاب الاعلى ومن قراهم في الموصل بساطليه ، تل لبن ، خراب (63) .

ويسكن الماوية الموصل وتلعفر ، وهم لا يختلفون عن الصارليه الا بالمذهب وعددهم قليل ويوجد عدد منهم في قرى الشبك والباجوان (64) .

اما من الناحية الدينية ، فان الاسلام ، هو الدين السائد في ولاية الموصل ويمثل المسلمون حوالى 80 % من مجموع السكان . ويتركز المسيحيون في بعض القرى الريفية المحيطة بمدينة الموصل كتكليف والقوش وبرطلة . وقد سكن اليهود في محلة خاصة بهم في الموصل . كما سكنوا في بعض القرى الكردية كصندور شمال مدينة دهوك . وهناك اليزيدية وثمة احصاء يتعلق بالمعتقدات الدينية لسكان ولاية الموصل يرجع الى اواخر الحرب العالمية الاولى يشير الى أن الفئات غير المسلمة تمثل 18,3 % من مجموع سكان الولاية (علما لواء السايمانية) ويتوزع السكان على ألوية الموصل كما يلي (65) :

المجموع	أديان أخرى	اليهود	المسيحيين	المسلمين	اللواء
350378	30180	7635	50670	261903	الموصل
106000	1000	4800	4100	96100	اربيل
92000	—	1400	600	90000	كركوك
155000	—	1000	100	153000	السليمانية
703378	41180	14835	56470	600993	

★ ان مجموع سكان العراق بلغ آنذاك 2849282 نسمة .

كان المسلمون يؤلفون الاغلبية العظمى من سكان ولاية الموصل ، اذ بلغ عددهم سنة 1919 (993 و 600) نسمة من مجموع سكان الولاية (703378) نسمة (66) . ويتألف المسلمون من عدة قوميات هي : العربية ، الكردية ، التركمانية ، وينتمي معظم مسلمي الموصل من العرب الى المذهب الحنفي ، اما الاكراد فأكثرتهم من الشوافع ، وكانوا لكل من اتباع هذين المذهبين مفت

(62) الصراف ، المصدر السابق ، ص 8 .

(63) الضابط ، المصدر السابق ، ص 106 .

(64) المصدر نفسه ، ص 108 .

(65) المركز الوطني للوثائق ، ملفات وزارة الداخلية العراقية ، ملفه مخابرات متنوعة في الألوية المختلفة رقم ، 4 ، 1 ، 5 تسلسل (3) .

(66) المصدر نفسه .

خاص يرتبط بمفتى استانبول (67) . ولم تشهد ولاية الموصل اى خلاف عقائدى بين اتباع المذهبين الاسلاميين او بين المسلمين عموما واتباع الديانات الاخرى فى المدينة (68) . وقد لاحظ بعض الرحالة ان المشاكل الدينية لم يكن لها اثر على علاقات الطوائف الدينية ببعض لغلبة ما سمي آنذاك بـ « العصبية المحلية » على الجميع وانصارهم فى الحياة الاجتماعية المشتركة (69) .

وقد تركز المسيحيون فى مدينتى الموصل وأربيل فى سلسلة غنية أوسعها تلكيف والقوش ، وتمتد قرى المسيحيين الى شرق دجلة وفى منطقتى دهوك والعمادية . ومسيحيو الموصل وطيون من سكانها القدامى دانوا بالنصرانية بعد منتصف القرن الاول وانتشرت اديرتهم فيها كدير مارمتى ودير ماربهنام ودير ماركوركيس ودير الربان هرمزد . وبقي نصارى الموصل منقسمين فى ولائهم الدينى بين الكنيستين القديمتين السريانية والنسطورية والسريانية - اليعقوبية (الارثوذكسية) حتى القرن السادس عشر حين تعرضوا لمحاولات البعثات التبشيرية الاوربية الكاثوليكية لتحويلهم الى الايمان بتعاليم الكنائس الغربية القائمة . ولقد شهدت الفترة الواقعة بين القرن السادس عشر ومنتصف القرن الثامن عشر « انشقاقات طائفية خطيرة شملت اتباع الكنيستين النسطورية واليعقوبية على حد سواء » . وكان لا بد أن يتميز المتكثلون عن اخوانهم من الذين ثبتوا على عقائدهم القديمة بتسميات جديدة فتسمى السريان النساطرة المتكثكين باقتراح بابوى (كلدانا) فى حين يعرف اليعاقبة الكاثوليك بالسريان (70) .

وهكذا اصبح نصارى الموصل حسب مذاهبهم الدينية كما يلى :

- I - اتباع الكنيسة الكاثوليكية ، وهم : الكلدان ، السريان ، الارمن ، الروم ، اللاتين .
- 2 - اتباع الكنيسة الارثوذكسية (اليعاقبة) ، وهم : السريان الغربيون ، والارمن ، والروم ،
- 3 - اتباع الكنيسة الشرقية الحرة (النساطرة) ، وهم : الاثوريون ، والسريان الشرقيون (القدماء) .
- 4 - اتباع الكنيسة البروتستانتية (الكنيسة الاثورية الانكليكانية) ، وهم : الاثوريين الذين انشقوا عن الكنيسة الشرقية ، وهناك بعض

(67) رؤوف ، المصدر السابق ، ص 332 .

(68) المصدر نفسه ، ص 323 .

(69) J. Bucking ham, Travels in Mesopotamia, 11, (London, 1827)P. 33.)

(70) للتفاصيل ، أنظر : رؤوف ، المصدر السابق ، ص 328 .

البروتستانت من السريان ينتمون الى كنيسة السبتيين ، اضافة الى بروتستانتين ينتمون الى طوائف متعددة (71) .

ويأخذ التوزيع الجغرافي للنصارى في الموصل شكلا مبعثرا ، ولا تكون أماكن تركيزهم اقلية متميزة عما يجاوره . بل هناك تجمعات سكانية نصرانية متباعدة . وثمة عوامل جغرافية بشرية وراء ذلك ، منها وجود الاديرة والكنائس القديمة حيث يتجمع النصارى حول اماكنهم الدينية المقدسة وأشهرهم دير مار بهنام (القرن الرابع) ودير مار متي (القرن الرابع) ودير مار الربان هرمز (القرن السابع) ويوجد المسيحيون في دهوك والعمادية وفي منطقة اربيل . ومن قرى اربيل المسيحية عينكاوة ، وتعد بلدة قرقوش في شرقي مدينة الموصل وتلكيف التي تبعد عن الموصل 9 أميال شمالا ضمن سهل نينوى وبرطلي على بعد 15 ميلا شرقي مدينة الموصل نموذجا لقرى نصرانية من ناحية تخطيطها وتنظيمها ، فقرقوش مثلا عبارة عن قرية كبيرة نشأت حول بعض الكنائس القديمة ، ويمارس معظم سكانها حرفتين ، فهم يمارسون الزراعة في الاراضي المحيطة بالقرية والتي تمتد الى ما يقرب من 12 كيلومترا عن البلدة ، والى ان تحل فترة الحصاد يعملون في بعض الصناعات اليدوية البيتية التي تعتمد على المواد الاولية الزراعية ، ومن هذه الصناعات : صناعة السجاد والبسط الصوفية (الكجي) وبعض الملابس الصوفية الرجالية كالعباءة الصوفية والفراوى (جمع فروة) (72) .

ولقد تمتع اليهود في الموصل ، شأنهم في ذلك شأن ابناء الطوائف الاخرى غير المسلمة في كل الولايات العثمانية باستقلال ذاتي في تنظيمهم الطائفي حسب نظام الملل الذي كان معمولا به في الدولة العثمانية (73) ويقول لونكريك : ان ألوا من اليهود عاشوا في الموصل خلال العهد العثماني مكنيين على مزاوله الحرف التي عرف بها عنصرهم (74) . ويصعب تحديد عدد اليهود ، فقد بلغ عددهم في مطامح القرن العشرين (14835) نسمة تتوزع بين الموصل (7635) نسمة وأربيل وكركوك والسليمانية (75) .

وانتهج الجليليون في الموصل (1726 - 1834) سياسة خاصة تجاه اليهود ، ففي الوقت الذي كانت فيه بغداد تضج من مؤامرات الصيارفة اليهود ، نجد

(71) للتفاصيل أنظر : منذر عبد المجيد البديري ، جغرافية الأقليات الدينية في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت إلى جامعة بغداد ، 1975 ص 57 .

(72) المصدر نفسه ، ص 113 ، 124 ، 279 .

(73) ويقوم نظام الملك الذي أوجده السلطان محمد الفاتح بعد فتحه القسطنطينية 1453 على السماح لأهل الذمة بالإحتفاظ بقوانينهم الخاصة وتطبيق تلك القوانين على أبناء الملة الواحدة تحت إشراف عماد من قبل سلطة روحية معترف بها تكون مسؤولة أمام الحكومة .

(74) Longrogg, op. cit, p. 21

(75) علي إبراهيم عبده وخيرية قاسمية ، يهود البلاد العربية ، (بيروت ، 1971) ، ص 47 .

ان الموصل ظلت بعيدة كل البعد عن هذه المشاكل . والسبب في ذلك ان الحكام الجليليين تعمدوا ابعاد اليهود عن تولى المناصب المالية . ولم نسمع خلال فترة حكمهم عن يهودي شغل منصبا في الولاية ، على ان ذلك لم يمنعهم بأية حال من ممارسة اعمال تجارية واسعة دون أن يضايقهم أحد (76) .

اما اليزيديون ، فأغلب الظن انهم مجموعة اثنوغرافية ، فهم خليط من عرب وأكراد تجمعهم العقيدة الدينية (77) وهناك احصائية تشير الى ان عددهم في أواخر العهد العثماني ، لم يكن يزيد عن (14900) نسمة ، والقسم الغالب من اليزيديين يتضمن جبل سنجار ، وهناك كثير من القرى اليزيدية في الشيخان شمال شرقي الموصل (78) ويتركز اليزيديون حول مراكب ومزارات مشايخهم ورجال دينهم ويتحتم عليهم زيارتها للتبرك بها . وأبرز مزاراتهم مرقد الشيخ عدي بن مسافر في وادي لالش في الشمال الشرقي من مدينة الموصل . ويتألف اليزيديون من قبائل عديدة منها الدنادية والقايدية والحالته والهبابات والهسكان والمهركان . ومن أشهر القرى اليزيدية في الشيخان باعذري ، وعين سفني ، وبعشيق . اما في سنجار فأهمها برد حلي وكهبل وقزلكند وجداله (78) .

وكان لليزيدية رئيسان أحدهما دنيوى ويلقب بالمير ، والثاني دينى وسمى بابا شيخ اى الشيخ الكبير . ويقوم النظام الدينى والاجتماعى عند اليزيدية على طبقية حادة ففضلا عن المير ، وبابا الشيخ ، هناك الشيخ والبير والفقير والقوال والكوجك والمريد . فبالنسبة للشيخ ، ينبغي ان يكون من أصول عشائرية ثلاثة هي : الادانية والشمسانية والقاتانية ولكل اصل من هذه الاصول ينتهى نسب كل أسرة من أسر المشايخ . فقد خصت أسرة الشيخ حسن ، وهي من الاصل الاديانى بالقراءة والكتابة اللتين حرمتا على غيرها . وخصت أسرة الشيخ فخر الدين وهي من الاصل الشمسانية بمقام البابا شيخ وهكذا . وقد حرمت الديانة اليزيدية التزاوج بين هذه الاصول الثلاثة . كما فرض على كل يزيدى ان يكون له شيخ يقاسمه رزقه ، ويكفر سيئاته ويحضر وفاته . ويعتقد مشايخ اليزيدية انهم من سلالة يزيد بن معاوية الاموى وان جزءا آلهيا قد حل فيهم فمنحهم القدرة على تغيير مجرى الحوادث وأباح لهم الانتشار بين القرى اليزيدية كافة وهم لا يحلقون ذقونهم ولا يقصون شواربهم (80) .

(76) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 348 .

(77) شاكر خصباك ، العراق الشمالي ، ص 185-187 .

(78) أنظر : شمس الدين سامي ، قاموس الأعلام ، ج 6 ، (الأستانة ، 1898) ص 4483 .

(79) أنظر رسالتنا للماجستير التي قدمت لكلية الآداب / جامعة بغداد سنة 1975 ، والموسومة « ولاية الموصل : دراسة في تطوراتها السياسية 1908-1922 » وهي غير منشورة ، هامش ص 106 ، وكذلك البديري ، المصدر السابق ، ص 174 .

(80) للتفاصيل أنظر : هاشم البناء ، اليزيديون ، ط 1 ، (بغداد 1964) ص 84-95 .

أما البير ، فهو مرشد الطريقة أو رئيسها وبلى البير الشيخ فى المرتبة الدينية ، ويكاد البيره ينحسرون فى أسر معدودة أباحت الديانة اليزيدية لها حق التزاوج فيما بينها وعلى البيرة ان يقصدوا مرقد الشيخ عدى فى عيد الجماعة وفى المربعانيتين الصيفية والشتوية ، ليطعموا مريديهم على حسابهم الخاص ، ويرشدوهم الى تعاليم اليزيدية ، فان لكل بير جماعة من المريدين ، وقد قضت سنة الزكاة ان ينال البيرهبة من حاصلات مريديه (81) .

أما الفقير فهو الناسك الذى زهد فى الدنيا ، والفقراء اليزيدية لباس خاص يسمونه (خرقة الفقير) وهو قطعة من قماش الصوف الاسود تكم بحلقات من النحاس الاصفر الصدرية يلبسها الفقير على صدره فلا ينزعها الا اذا خلقت فيستبدلها بغيرها ، بعد ان يعاقها فى محل خاص حتى تبلى اما اذا مات فانه يدفن بخرقته . كما ان له جبلا دقيقا يربطه الى عنقه يسمونه « المفتول » وطاقيه يضعها تحت عمتة السوداء يسمونها « كمة الفقير » فلا يجوز الاعتداء عليه احتراماً للخرقة والمفتول والكمة ، مهما أجرم ، كما انه لا يجوز الحلف بهذه الخرقة كذباً . وقد أباح التقليد الدينى لكل يزيدى ان يصير فقيراً بعد ان ينذر نفسه حياة الزهد والطاعة ويكتسب خرقة الفقير على ان يصادق الامير على أهليته لسلوك هذه الطريقة ويلبسه خرقة الفقير بيده (82) .

وتطلق كلمة القوال على مرتل الاناشيد الروحية فى المواسم الدينية . والقوالون شعراء مجيدون . وهم يعلمون أولادهم الرقص الدينى ويدربونهم على ضرب الدفوف والعزف بالشبابات ، ويلقنونهم القصائد والاناشيد ليربونهم عليها من صغرهم . وليس للقوالين ان يتزوجوا من غير سلالتهم . كما لا يجوز للشيوخ ان يتزوجوا بنات القوالين . ولا يخلق القوالون لحاهم ولا يقصون شواربهم وهم يقومون بالسفارة والنيابة عن أمير الشيخان ويتجولون فى القرى باسمه (83) .

والكوجك يعين المسكين ، وهذا الصنف يخدم فى مرقد الشيخ عدى ويقوم بخدمة السنجق المعروف بطاؤوس ملك فهم يستأجرونه من المير أو من شيوخهم ويتجولون به فى القرى اليزيدية وينتفعون من زيارته ، فيربحون من أجرة سنوية للمير ، وكل ما يفعلون انهم يرقصون حوله ، أو يتخذون افراحاً مما يسمى بالجوبى (دبكة شعبية) وليست هذه من نوع التقاليد الدينية ، وانما هى اظهار للفرح والتبرك . وهؤلاء لا يتزوجون من فوقهم وانما يتزوجون من طبقته أو من طبقة دونهم فيتزوجون بنات القوالين . وللکوجک سلطة على الكل . اذ أوجب الشارع احترامه وتصديقه (84) .

(81) المصدر نفسه ، ص 87-88 .

(82) المصدر نفسه ، ص 88-90 .

(83) المصدر نفسه ، ص 90-92 .

(84) المصدر نفسه ، ص 92-94 .

اما المريد ، فهو الفرد من عامة الشعب . وقد فرضت الديانة اليزيدية على المريدين الطاعة ، وعدم التدخل في الامور الدينية ، أو التساؤل عن اسرار الديانة اليزيدية . ولا بد أن يكون لكل مريد شيخ ويبر معا . فيقدم اليهما النذور والخيرات ، ويتلقى منهما التعليمات والارشادات ، والمريدون يتزاجون فيما بينهم فقط (85) .

حاولت السلطات العثمانية في العهدين الحميدي والدستوري عدة أساليب عسكرية وثقافية لترويض اليزيدية جميعها بالفشل . فلقد تعرض اليزيدية في فترات الحكم العثماني الطويل الى كثير من الحملات التأديبية التي شنّها عليهم العثمانيون ، وذلك لاعتقادهم بأن اليزيدية كفرية يجب قتالهم مستندين في ذلك على فتوى صدرت من شيخ الاسلام في القرن السادس عشر . وكان للحملات العسكرية تلك أثر كبير في اضمحلال اليزيدية وتناقص اعدادهم ، فقد كانوا عند مفتح القرن الثامن عشر حوالي 25000 نسمة وصاروا في أواخر العهد العثماني ، كما اشرنا من قبل (14900) نسمة (86) .

كان اليزيديون ينفرون من الخدمة العسكرية ، ويعدونّها حراما وذلك على حد اعتقادهم (87) . لهذا فقد كانوا يدفعون البديل النقدي شأنهم شأن المسيحيين واليهود ، لكن الحكومة العثمانية في العهد الحميدي أخذت تنظر اليهم على انهم فرقة من الفرق الاسلامية الضالة وتطبق بحقهم احكام الشريعة الاسلامية ، فأرادت ان تجبرهم على التجنيد ورفضت قبول البديل النقدي منهم . كما بدأت تمارس ضدهم أساليب ثقافية بقصد اعاذتهم الى الحظيرة الاسلامية ، فأوفدت الحاج مسعود بك نقيب ديار بكر لارشادهم ، لكنه لم ينجح في مهمته . وصادف ان كتب من الموصل في ولاية عبد القادر كمالى باشا 1890 بوجوب ارسال قائد عسكري يخول صلاحية واسعة لقمع العصاة والمتمردين واعادة الامن الى نصابه واصلاح ما يمكن اصلاحه . وقد اجابت استانبول الى ذلك وانتدبت في سنة 1890 الفريق عمر وهبي باشا لهذا الغرض باسم « مأمور اصلاحات العراق » وضمت مهمته الاصلية جلب اليزيدية الى الاسلام (88) . وبعد ان فشلت مجهوداته العسكرية ، ارسل معلمين ليعلموهم القراءة وأصول الدين لكن اليزيدية عمدوا الى طردهم وتهددوهم بالقتل اذا عادوا ثانية . ولما بلغ ذلك عمر وهبي ارسل الى قرى الشيخان حملة عسكرية أوقعت بهم اضرارا فادحة . كما أحرقت أربع قرى

(85) البناء ، المصدر السابق ، ص 94-95 .

(86) أنظر رسالتنا المشار إليها آنفا ، ص 103-105 .

(87) إدعى اليزيديون بأن اللون الأزرق ، هو زي الجند العثماني الجديد ، محرم لديهم ، كما إدعوا أن العقيدة اليزيدية تحرم عليهم بعض الأغذية ، أنظر : الدملوجي ، إمارة بهدينان ، ص 69 .

(88) كوركيس عواد ، اليزيدية ، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب / جامعة بغداد برقم 367 ، الورقة 59 .

من الدنادية غربى باعذرى (89) . ثم سار الفريق عمر وهبى الى سنجار فى محاولة مماثلة لاختطافها . ولكن سرعان ما اضطرت استانبول الى سحبها فى نيسان سنة 1891 بعد الحاح سفراء الدول الأوربية . وفى 1904 اقتنعت الحكومة بقبول البديل النقدي منهم كالسابق (90) .

كانت هناك فى أواخر العهد العثماني أسرتان متنافستان على حكم اليزيديين هما أسرة اسماعيل بك وأسرة علي بك ، وغالبا ما كانت تحدث خصومات بين هاتين الاسرتين . ولم تكن سياسة الاتحاديين تجاه اليزيدية واضحة ، فأحيانا كانت تستعمل اللين واخرى تستعمل العنف ، وقد أدى ذلك الى استمرار اليزيدية بالعصيان . لهذا فقد ارسلت الحكومة فى عهد ولاية أسعد باشا بالوكالة فوجين من القوات النظامية مع مدفعين جبليين الى سنجار ، وكانت الحملة بقيادة البكباشى (المقدم) محمود فائز أفندى . وقد هاجم اليزيدية صباح 5 أيلول 1912 وقتل الكثير منهم وخاصة من القزلكنديون ، وكانت هذه الحملة مقدمة لاستتباب الامن حتى نشوب الحرب العالمية الأولى (91) .

كان سكان ولاية الموصل ، من الناحية الاجتماعية مقسمين الى ثلاثة أقسام رئيسية : العشائر وسكان القرى والارياف وسكان المدن . ومع ان هذا التقسيم عملي ويسهل البحث ، الا ان الخط الفاصل بين هذه الاقسام هو أقرب لان يكون اعتباريا أكثر منه واقعيا ، وذلك لان التطورات الكثيرة التى طرأت على أوضاع الولاية كانت فى كل يوم تزيل شيئا من المميزات الاجتماعية ولا سيما بين سكان القرى والارياف ، فحركة اسكان العشائر الرحل وتوطينهم وخاصة فى القرن التاسع عشر ، كانت عوامل قوية فى مزج السكان بعضهم ببعض وتغيير احوالهم الاجتماعية (92) .

ليس لدينا احصائيات تبين نسبة كل من هذه الاقسام الى مجموع السكان العام للولاية . لكن الدكتور محمد سلمان حسن ثبت جدولا اعتمد فى وضعه على تقديرات تخمينية بين فيها كيفية توزيع السكان حسب احوالهم الاجتماعية بالآلاف ويتضح من الجدول ان المركز النسبى لسكان القطاعات الثلاث : البدوية والريفية والمدنية ظلت مستقرة نسبيا خلال الفترة من 1867 وحتى 1905 (93) .

(89) ولاية الموصل ، ص 106 ، والدنادية عشيرة يزيدية .

(90) كانت بريطانيا بصورة خاصة تتظاهر بالعطف على اليزيدية . أنظر : عبد العزيز ثوار ، داود باشا والى بغداد ، (القاهرة ، 1968) ص 132 .

(91) صديق الدملوجي ، اليزيدية ، (الموصل ، 1949) ص 511 .

(92)

Jawad, Op. Cit., P. 22.

(93) بلغ عدد نفوس العراق سنة 1905 (3,350,000) نسمة ، أنظر : محمد سلمان حسن . التطور الإقتصادي في العراق ، ص 53 .

التاريخ	البدوي	% من المجموع	الريفي	% من المجموع	المدني	% من المجموع	المجموع
1867	70	26	140	52	55	22	265
1890	93	23	223	55	85	22	401
1905	153	28	254	47	133	25	540

تنتشر في ولاية الموصل عشائر عربية وكردية عديدة . فمن العشائر العربية شمر الجربا والجبور والعبيد والجحيش واليومتيوت وطى والبو حمد وغيرها (94) . ولا تتوفر احصائيات دقيقة تعداد هذه العشائر ، ولكن يستفاد مما جاء في قاموس الاعلام بأن عدد نفوس العشائر العربية التي تسكن الحيام يبلغ نحو (93000) نسمة (95) .

تعد عشيرة شمر الجربا من أبرز العشائر العربية في ولاية الموصل (96) . وتنتشر في أماكن متفرقة من الولاية ، فهناك اقسام منها عند نهر الخابور بالقرب من نصيبين ، وأقسام أخرى في شرقي دجلة حول الزاب الكبير . ولعل القسم الذي يوجد في المنطقة المحصورة بين دجلة والفرات حوالى الحضر من أكبر هذه الاقسام . وكان من عادة شمر ان تنحدر جنوبا الى منطقة عقرقوف بالقرب من بغداد (97) .

كانت رئاسة شمر في الربع الاخير من القرن التاسع عشر موزعة بين أخوين هما فارس على الخابور بالقرب من نصيبين وفرحان الذي اتخذ من الحضر على وادي الثرثار مقرا له (98) .

لا تتوفر احصائيات دقيقة عن شمر الجربا فكثيرا ما تخمن اعدادها بـ (2000) نسمة وهناك من يقول بأنها تجاوزت في أواخر العهد العثماني (10000) خيمة (98) .

اتخذت عشائر شمر من « الحوة » وسيلة لى تفرض نفوذها على العشائر الاخرى ، فأصبح في استطاعة شيوخها منح أى جزء من الاراضى التي تنتشر

(94) للتفاصيل أنظر : عباس العزاوي ، عشائر العراق ، (4) أجزاء ، (بغداد ، 1939-1956) مكي الجميل ، البدو والقبائل الرحالة في العراق ، (بغداد ، 1956) .

(95) سامي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 4483 .

(96) ينبغي الإشارة إلى وجود رسالة دكتوراه حول شمر ودورها السياسي في العراق للسنوات 1800-1958 قدمها جون ويلسون إلى جامعة انديانا ، سنة 1975 وهي غير منشورة .

(97) Great Britain, Admiralty, Intelligence Department, A Handbook Of Meso-potamia, Vol, 1, (London, 1918) P. 104.

Ibid, Vol, 1, P. 104. (98)

Ibid, P. 104. (99)

فيها للاستغلال المؤقت من قبل عشيرة أخرى . كما اخذوا يفرضون الخوة على القوافل التي تمر ضمن الطرق التي تسيطر عليها العشيرة . ولم يسلم العدوان والحديدون والجحيش والجبور من دفع الخاوة لشمر (IOO) .

كان الجبور وهم فرع من زبيد ، يوجدون في مناطق عديدة من العراق وينزل قسم منهم بالقرب من نهر الحابور ورأس العين . اما مناطق انتشارهم في ولاية الموصل فكانت أواسط نهر دجلة بين مدينة الموصل وسامراء (IOI) . وهناك العبيد وهم أبناء عمومة الجبور وينتشرون شرقي دجلة بين تكريت وكفرى ويتركز معظمهم في منطقة الحويجة في كركوك . اما عشيرة طي فتمتد منطقتها في الدرجة الاولى بين جبل سنجار ونصيبين . وتعد هذه العشيرة من العشائر القوية والكبيرة بعد شمر (IO2) .

والشيوخ في العشائر العربية ، هو رؤساؤها وزعمائها وسلطتهم كانت أعلى سلطة يخضع لها الافراد . ويتولى الشيخ المشيخة عن آبائه ومهامه في العشيرة وتنحصر في تعيين مناطق اقامتها وتجوالها وتحديد طبيعة علاقاتها بالعشائر الاخرى ، وكان هو الذي يعلن الحرب ويطلب الصلح ويقرر التحالف ، كما كان مسؤولا امام الحكومة عن ضمان الامن في مناطق عشيرته ، وغالبا ما كان الشيخ يقود عشيرته ضد الحكومة . ويرث الشيخ في تولى المشيخة في العشيرة عادة ابنه الاكبر ، الا اذا كان هذا الابن غير مؤهل بزعامة العشيرة ، اذ تسند المشيخة في هذه الحالة الى ابرز الرجال في بيت الرئاسة في العشيرة . وقد الفت عائلة الشيخ في بعض العشيرة امثال شمر كثرة عددية بسبب اقتران الشيخ بأكثر من زوجة ، رغبة منه في الاكثار من الابناء . ونادرا ما يلجأ الشيوخ الى الزواج من خارج بيت الرئاسة في العشيرة الا في حالات المصاهرة لتوثيق الصلات مع العشائر الاخرى ، أو مع بعض الاطراف لدوافع سياسية (IO3) .

ولمعظم العشائر العربية اعراف هي بمثابة القوانين ، تسمى (السواني) وتنظم هذه الاعراف شؤون افرادها وعلاقاتهم مع الآخرين سواء أكانوا من العشيرة نفسها ، أم من خارجها . وأبرز هذه السواني الحماية والعرض وحق الصيد والدخالة والالتجاء والوجه أو التسيار (IO4) .

Ibid, P. 104.

(100)

(101) المركز الوطني للوثائق ، ملفات وزارة الداخلية ، ملفه شؤون العشائر ، رقم 37/4/2 /
المسلسل 12 وثيقة 155 .

Bell, Review, P. 53.

(102)

(103) للتفاصيل : أنظر : محمد أحمد محمود ، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة 1872-1918 ، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب بجامعة بغداد 1980 ، ص 12-20 .

(104) المصدر نفسه ، ص 54 .

ولكل عشيرة قاضي يقوم بتطبيق العرف فيها أو يقوم بحسم منازعات افرادها يطلق عليه (العارفه) . ولقد وجد في شمر الجربا على سبيل المثال نوعين من القضاة ، النوع الاول وهم الذين يتوارثون القضاء في العشيرة المذكورة ابا عن جد منذ ان كانت شمر في نجد وسمى هذا النوع بعوارف المناهى ، اما النوع الثانى فهم القضاة الذين يختارهم المتنازلون لثقتهم بقدرتهم على حسم النزاع لما يعهدون فيهم من فطنة وذكاء ويسمى هذا النوع بعوارف المشاهي (I05) .

وفى حالات الغزو والحرب ، كانت العشائر تراعى بعض القواعد عدم مفاجئة احدى العشيرتين المتحاربتين للآخرى بالحرب قبل ان تخطر بها بانذار يعرف بـ (النكا) . وتخصص شمر فى حالة الغزو قسما من المحاربين للبدو بالهجوم وقسما آخر للقيام بدور الكمين لرصد أية مفاجئة . ويخصص مكان الوسط بين صفوف المقاتلين للشيوخ من كآل محمد ويرتب عن يمينهم وشمالهم عدد من المقاتلين يدعون بـ (السربة) . ويطلق على القائد فى المعركة اسم «عجيد» . ولبعض العشائر رايات خاصة هى بمثابة الاعلام (I06).

اما حالة معظم العشائر العربية الثقافية فقد كانت متدنية ، وكان افراد هذه العشائر يفتقرون الى التعليم سواء بسبب اقامتهم البعيدة عن المدن ، أو بسبب ضعف اهتمام الحكومة العثمانية بتعليمهم . لكن هذا لم يمنع بعض ابناء الشيوخ من التحصيل الدراسى وخاصة فى مدرسة العشائر التى أنشأتها الحكومة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى استانبول لاستمالة الشيوخ وتوجيه ولاء ابنائهم للحكومة (I07) .

تنقسم العشائر الكردية فى ولاية الموصل بوجه عام الى عشائر رحل وأخرى شبه مستقرة فى حين كانت المناطق الجبلية توطن من قبل العشائر الرحالة . وقد مال قسم من العشائر الرحالة الى حالة الاستقرار وسكن القرى ، ومن هؤلاء جماعات فى عشائر هورمان وبلباس وبايلان وسنجابى وهركى . وتنقسم العشائر الكردية ، شأنها شأن العشائر العربية الى عدة فروع وافخاذ (I08) . وأهم العشائر الكردية وأكبرها هى عشائر الجاف فى منطقة السليمانية وتقطن فى ناحية شيروان فى حلبجة وكفرى . وهناك عشائر الهماوند الذين يعدون فى الاصل من الجاف ، وقد سكن قسم منهم

(I05) المصدر نفسه ، ص 26 .

(I06) المصدر نفسه ، ص 28 .

(I07) المصدر نفسه ، ص 38-40 .

(I08) حسين محمد القهواتي ، التركيب الإجتماعي في العراق ، في حضارة العراق ، لنخبة من الباحثين العراقيين ، ج 10 ، (بغداد ، 1985) ص 119-120 .

جمجمال وبازيان . وفي أواخر القرن التاسع عشر أخذ عشائر الجاف بالتحول نحو الاستقرار وممارسة الزراعة في سهل شهرزور (IO9) .

وقد عرفت المنطقة الكردية شأنها شأن المنطقة الجنوبية من العراق ، الاحلاف والاتحادات القبلية . ولعل من أبرز هذه الاحلاف ، حلف زنكنه الذي استوطن بالقرب من جبال قره تبه . وهناك عشائر كردية استقرت في مناطق مختلفة من ولاية الموصل . فمن عشائر زاخو الكلي والسندى والسليفاني . ومن عشائر دهوك المزوري والدوسكي والشرفان . ومن عشائر عقرة السورجية . ومن عشائر العمادية ريكان ونبروه برواري بالا . وهناك عشائر الزيبار زدره ئي التي كانت تتجول باتجاه أربيل والموصل . وكثيرا ما وقفت العشائر الكردية جنبا الى جنب مع العشائر العربية في وجه الغزاة والطامعين في مراحل عديدة من التاريخ الحديث فامتزجت دماء الجميع في ساحات الوغى دفاعا عن الارض (IIO) .

اما بالنسبة للوضع الاجتماعي للعشائر الكردية ، فيمكن القول أن العشيرة تتكون من طبقتين الاولى المقاتلون وهم العشائريون الذين يميزون أنفسهم بأنهم من الأكراد الأقحاح ، لذلك اتخذوا هذه النظرية وسيلة لتبرير تسلطهم وميلهم نحو التعالي على الطبقة الثانية التي ليست من أصل عشائري وتسمى بـ (الكرمانج) في منطقتي الموصل وأربيل و (مسكين) في منطقة كركوك والسليمانية . وفي اجزاء من السليمانية يسمون بـ (كوران) أي فلاح وحالتهم كانت كحالة عبيد الارض يملكهم مالك القرية ويفرض عليهم الخضوع التام . ويتحمل (الكرمانج) الاعباء الاقتصادية في حين لا يمارس العشائريون أي شيء من ألوان الحياة المادية الاخرى ومنها الزراعة . وعلى الرغم من امتيازات العشائري المادية ، الا ان حياته اتسمت بالبساطة في المعيشة ، حيث ان بيته لم يكن يختلف عن بيت الفرد الكوراني المكونة من أكواخ من الاغصان أو بيوت من الطين أو خيم من الشعر (III) .

تتفرع الرئاسة أو السلطة في القبيلة الكردية وتتوزع بين رئيس القبيلة والأغا والكوخة . وينبغي ان يتمتع رئيس القبيلة بالكرم والشجاعة ويعاونه في ادارة شؤون القبيلة مجلس استشاري من وجهاء القبيلة ولرئيس القبيلة ضريته على الارض والمواشي وغالبا ما يكون له نفوذ ديني ومعنوي على افراد عشيرته . اما الأغا فهو رئيس القرية ، وهو أحد افراد الاسرة الحاكمة في القبيلة ، ويعد الأغا الحاكم المطلق في قريته ، اذ يقوم بشؤون الادارة والقضاء

(109) محمود الدرة ، القضية الكردية ، ط 2 ، (بيروت ، 1966) ص 89-94 .

(110) للتفاصيل أنظر : العزاوي ، عشائر العراق ، ج 2 ، ص 38 وما بعدها .

(111) هاشم طه عقراوي ، الأسس النفسية والاجتماعية للقبائل الكردية ، (كركوك 1971) ، ص 24-26 .

« ومن ان اغوات أو مالكي الاراضى يحكمون جميع المساحات الزراعية لان هناك علاقات قرابة بينهم ، غير اننا لا نجد اية قرابة بينهم وبين فلاحهم ، هذا على الرغم من أن الفلاحين مكلفين بواجب الدفاع عن الارض » . ويشبه بعض الكتاب الأغا بالبارون .. فهو لا يعمل أى عمل يدوى ويعيش على ما يجمعه من القبيلة . فالفلاح يدفع عشر محصولاته الزراعية ، كما يدفع ضريبة الماشية (الكوده) وكانت الحكومة تقبل من الأغا مبلغا اجمالا بعيدا عن قيمة العشر والكوده الحقيقيتين . ويتخذ الأغا فى القرية محلا لسكناه يخصص ركن منه كمضيف (ديوانخانه) ومن الطبيعى ان يساهم ساكنو القرية بتغطية نفقات الضيافة . اما الكوخة ، أو المختار فهو الذى يعهد اليه رئيس القبيلة أو الأغا ممارسة سلطته على قرية ما مباشرة فيعين الكوخة ليكون واسطة بين الأغا والفلاحين ووظيفته الاساسية أخذ نصيب من المحصول الزراعى والحيوانى لسيدته (II2) .

اما بالنسبة لسكان الريف ، فلقد كانت تشكيلاتهم الاجتماعية تختلف تبعا لانظمة الري والزراعة . ففي ولاية الموصل كانت الوحدة الاجتماعية هى القرية التى تعيش على الاكتفاء الذاتى بينما فى الاجزاء الاخرى من العراق كانت العشيرة (II3) . ولقد أشرنا فيما سبق الى انتقال ملكية الاراضى بمرور الزمن ولعوامل كثيرة من أيدي الفلاحين الى ايدي الملاكين ومع هذا فقد بقيت الملكية الصغيرة سائدة فى المنطقة الجبلية فى ولاية الموصل (II4) .

ولقد أشار عدد من القناصل الاجانب فى الموصل الى حالة سكان الريف خلال العهد العثمانى . فوصفوه بانهم كانوا « تعساء قد طحتهم الضرائب ، كما ان غزوات جيرانهم البدو كانت تدهمهم بدون انقطاع » (II5) .

شكل سكان المدن فى مطلع القرن العشرين ، حوالى 25 % من سكان ولاية الموصل (أى ما يعادل 540 ألف نسبة) ومدن ولاية الموصل الكبيرة هى الموصل والسليمانية وكركوك وأربيل ومعظم هذه المدن أقيمت لاغراض تجارية . وفى هذه المدن كان التسلسل الاجتماعى مؤلفا من الحكام والرعية . فكانوا منقسمين بين الوجهاء أو أعيان المدينة من التجار ومالكي الاراضى من جهة وبين الجماهير من الحرفيين وبقية العامة (II6) وقد أشرنا فيما سبق الى ان مدن ولاية الموصل شهدت بروز أسر ذات أهمية اقتصادية أو دينية أو

(112) المصدر نفسه ، ص 73-77 .

(114) أنظر الصفحة (7) من هذا البحث .

(115) بيردي فوسيل ، الحياة فى العراق منذ قرن 1814-1914 ، ترجمة أكرم فاضل ، (بغداد ، 1968) ، ص 60 .

(116) للتفاصيل أنظر : عماد عبد السلام رؤوف ، الحياة الاجتماعية فى العراق إبان عهد المالك 1749-1831 ، رسالة دكتوراه قدمت لجامعة القاهرة 1976 ، وهي غير منشورة ، ص 84 .

علمية . وتعد الاسرة الخلية الرئيسية في مجتمع المدينة . والاسرة الموصلية ، أسرة واسعة ، فحين يكون الجد باقيا على الحياة فهو يسكن مع أولاده المتزوجين ويكونون بنيات أسرة واحدة ويعيشون في بيت واحد وماليتهم واحدة ، وإذا كان الجد قد شاخ أو توفي فيحل محله ابنه الأكبر غالبا لإدارة شؤون الاسرة (II7) .

وتتألف المدن الموصلية من محلات تتميز بضيق أزقتها وشوارعها ، وغالبية مدن الولاية كانت غير مبلطة ومغبرة ومرحلة شتاء على الرغم من وجود البلديات التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر ، وأخذت على عاتقها فتح الشوارع أو توسيعها وإنشاء الارصفة والمجارى والاهتمام بنظافة وتنظيم المحلات والاسواق (II8) . ويبدو ان دوائر البلدية ظلت حتى أواخر العهد العثماني تدار بشكل تقليدي ، وتعاني من نقص في الملاكات والخبرات الادارية والفنية ، هذا فضلا عن معاناتها من قلة التخصيصات المالية (II9) .

ولقد تميزت المدن الموصلية بوجود الاسوار التي تحيط بها . وتنتشر المساجد في جميع مدن الولاية ، وكذلك الاسواق والحانات والحمامات الشعبية اما مياه الشرب فكانت تنقل الى البيوت في قرب من جلود الماعز ، وعلى ظهور الحيوانات . ولم تعرف مدن الموصل مشاريع اسالة الماء الا في مطامع القرن العشرين ، حين استخدمت أنابيب من الحديد لايصال الماء الى الدور السكنية (I20) .

وكان أبناء المدن يقضون معظم أوقات فراغهم في المجالس الادبية التي تعقد في بيوت عدد من الاسر العلمية التي برزت في الموصل خلال العهد العثماني كأسرة الفخرى وأسرة الغلامى (I21) . واحتلت المقاهى ، مكانة مهمة في حلبة المدينة الموصلية . اذ كانت بمثابة النوادي التي يلتقى فيها معظم المواطنين . وتلقى في بعض هذه المقاهى القصص الشعبية التي تؤكد على البطولة والفخار حيث يجلس في محل مرتفع ويقص على الناس اخبار ابطال العرب أمثال عنثرة العبسى وأبو زيد الهلال . وكانت تلك المقاهى كذلك أماكن لتجمع أصحاب الحرف والالتقاء بذوى الحاجة من الناس ، وغالبا ما تكون

(117) هادي رشيد الجاوشلي ، الحياة الاجتماعية في كدستان ، (بغداد ، 1970) ص 39 .
(118) تأسست بلدية الموصل على سبيل المثال سنة 1869 وبعدها تأسست بلدية أربيل ، أنظر : أحمد علي الصوفي ، تاريخ بلدية مدينة الموصل ، ج 1 ، (الموصل ، 1970) ، ص 22 ، وزبير بلال إسماعيل ، أربيل في أدوارها التاريخية ، (النجف ، 1970) ص 369 .

(119) نعيم طه ياسين ، بدايات التحديث في العراق 1869-1914 ، رسالة ماجستير بإشرافنا ، قدمت إلى الجامعة المستنصرية 1984 ، غير منشورة ، ص 163 .

(120) المصدر نفسه ، ص 162-163 .

(121) للتفاصيل أنظر : عبد المنعم الغلامى ، إسرار الكفاح الوطني في الموصل ج I ، (بغداد ، 1958) .

داخل الاسواق . وبعد 1904 دخل جهاز الحاكي (الفنوغراف) فسارع اصحاب المقاهي لاقتنائه. وأثار دخول هذا الجهاز الجدل وفيما اذا كان استعماله حلال أم حرام ، لذلك تدخل بعض رجال الدين وأفتوا بجواز استعماله اذا اقتصر على سماع التراتيل الدينية . أما فيما يتعلق بدخول الشاي الى المقاهي ، فيبدو انه حدث حوالي 1895 . وفي مطلع القرن العشرين تحولت بعض المقاهي الى نوع ساذج من الملاهي واستقدمت بعض الراقصات في حلب ومصر (122) .

وعرفت الموصل المسرح منذ 1880 . اذ عني المبشرون به ، وكان هدفهم نشر التعاليم الدينية والاخلاقية بين رعاياهم ، ولعل من أوائل المسرحيات التي مثلت في الموصل مسرحية نبي خذ نصر التي ألفها الخوري هرمز فرسو الكلداني ، وقدمت على مسرح المدرسة الاكليريكية سنة 1888 . اما السينما الصامتة فقد دخلت الموصل سنة 1909 (123) .

ومهما يكن من أمر ، فان حركة التحديث التي شهدتها الموصل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أثر كبير في اقتراب الموصليين من الحياة المدنية وابتعادهم عن الحياة القديمة التقليدية التي كانت أشبه بحياة البداوة . ولقد لعبت المدارس الحديثة والمطابع والصحافة والتنظيمات الحزبية التي تشكلت بعد انقلاب 1908 أثر كبير في ذلك .. ولقد أدى الاهتمام بحركة التحديث الى ظهور فئة من المثقفين الموصليين من ابناء المدن قدر لهم ان يقوموا بدور مهم في حياة الموصل العامة ، خاصة بعد الحرب العالمية الاولى وفي السنوات التالية لها (124) .

- 5 -

الانشطة الاجتماعية في الولاية :

أ - النشاطات الاقتصادية والدينية :

مارس الموصليون أنشطة اجتماعية عديدة ، من خلال مؤسساتهم الاقتصادية والدينية . كما برزت انشطتهم في تقاليدهم وأزيائهم وملابسهم واحتفالاتهم الدينية والرسومية والشعبية . فبالنسبة للمؤسسات الاقتصادية ظلت الاصناف تمارس دورها الاقتصادي طيلة العهد العثماني . ويرأس الصنف شيخ يسمى شيخ الصنف . وكانت هناك اسواق لسائر اصناف التجار والحرفيين مثل سوق الملاحين وسوق السراجين وسوق العلوة وسوق الصغارين . وقد شهد العهد العثماني محاولات عديدة لغرض الرقابة على الاصناف والحرف . ففي

(122) ياسين ، المصدر السابق ، ص 155-156 .

(123) المصدر نفسه ، ص 158 .

(124) المصدر نفسه ، ص 219 وما بعدها .

الموصل خضعت الى اشراف موحد وجعلت تحت مشيخة واحدة وفرضت عليها الضرائب بالضمان ، فلكل حرفة ضامن ملتزم أمام حكومة الولاية بتحصيل الضرائب وكان على شيخ الاصناف ان ينظم حساباته في دفتر خاص يبين قدر ما ينفقه وسبب انفاقه ، وانه كان عليه أن يقدم دفتره هذا الى الضامن ليشرح بنفسه عليه (I25) .

أما أبرز المؤسسات الدينية في ولاية الموصل ، فكانت نقابات الاشراف والطرق الصوفية . والاشراف هم الذين يعودون بنسبهم الى الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعظمهم من الاسر العربية العريقة التي اشتهرت بالعلم والسيادة والزعامة طيلة العصور الاسلامية ومن هؤلاء آل النقيب في الموصل . وقد انحصرت نقابة الاشراف في الموصل في أسرة واحدة تنتمي نسبيا الى السادة من أحفاد عبيد الله الاعرج الحسيني العلوي . واشتهر منهم بالنقابة في العهد العثماني عدد من الاشخاص عرفوا بالفخريين نسبة الى احد اجدادهم فخر الدين (توفي 1719) ومنهم السيد حسن أفندي المفتي (توفي 1778) (I26) .

وكان الاشراف يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين من عامة الناس وكانوا في أهم الامور موالين للسلطان مخلصين له ، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدينتهم . وقد حاولوا في بعض الاحيان الحد من جراح السلطة العثمانية . وكانت وسائل القيام بهذا العمل متاحة لهم . لانهم كانوا يستطيعون تعثي الرأي العام وتجنيدهم عن طريق استخدامهم الوعاظ ومشايخ المحلات وزعماء الحرف ، بالاضافة الى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق صلاتهم بأصحاب الوظائف الدينية وفي مقدمتهم العلماء في استانبول (I27) .

وفي مدينة السليمانية ، اشتهرت أسرة السادة في برزنجة ، وهي قرية كبيرة تبعد أربعة عشر ميلا شرقي مدينة السليمانية ، وقد احتلت هذه الاسرة مكانة متميزة لدى الاكراد . وتشير شجرة الاسرة الى اتصالها من الجيل السابع بالامام موسى الكاظم . وثمة فروع للاسر عرفت بأسماء القرى التي أسسها السادة أو احفادهم مثل سه ركه لو ، دول له مو ، نودي . ولقد حصل افراد الاسرة على بعض القرامين من السلاطين العثمانيين تتضمن وقف بعض الضرائب لتسييد نفقات مساجدهم وتكايامهم (I28) .

(125) رؤوف ، التنظيمات الاجتماعية ، ص 150 .

(126) أنظر كتابنا ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص 71 ، وكذلك عماد عبد السلام رؤوف ، التنظيمات الاجتماعية في حضارة العراق ، ج 10 ، ص 130 .

(127) تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص 71 .

(128) أنظر : سي ، جي ، إدموندز ، كرد وترك وعرب ، ترجمة جرجيس فتح الله ، (بغداد ، 1971) ، ص 69 .

وشهدت الموصل ، نشاطات عديدة لبعض الطرق الصوفية خلال العهد العثماني . وكان لهذه الطرق أثر بين في المجتمع الموصل و ذلك بما كانت تؤديه من دور اجتماعي وما تنميحه من حفلات الذكر والموايد ، وخاصة في المناسبات المختلفة . ومن الطرق التي وجدت حظها من الانتشار في الموصل الطريقة المولوية والطريقة القادرية والطريقة النقشبندية . وكان لهذه الطرق تكايا عديدة انتشرت في مختلف انحاء الولاية . وقد شجع انتشار هذه الطرق حالة التدهور السياسي والاجتماعي التي اعقبت سقوط الدولة العربية الاسلامية . وتربط المولوية طريقة الذكر بنغمات الناي ، ومن تكايا المولوية في الموصل التكية التي كانت تتخذ من مسجد شمس الدين بن عدي بن صخر الاموي الملقب بتاج العارفين مركزا لها . وترتبط بهذه التكية فرقة موسيقية أنشأها عثمان الموصل سنة 1910 (129) .

اما الطريقة القادرية فقد انتشرت في ولاية الموصل وخاصة في المنطقة الكردية ، ومن أبرز تكاياها تكية زيوه كان (أواخر القرن السادس عشر) وتكية بريفكان (القرن السابع عشر) ويطلق على مريد الطريقة القادرية في المناطق الكردية اسم الدراويش (130) ويصف الدكتور فسلبياف الرحالة الروسي المعروف ، وقد التقى ببعض الدراويش سنة 1914 اتباع الطريقة بأنهم كانوا « يرتلون لا اله الا الله وهم يتحركون ويميلون ببطء في بادي الامر ، ثم يسرعون في النغم على أصوات الدخوف الكبيرة الى ان يصلوا الى حالة غير اعتيادية من الغيبوبة والوجد ... كانوا يدورون بأجسادهم بسرعة حتى يتبعثر شعر رأسهم الكثيف » (131) .

ولقد ترددت في ولاية الموصل اصداء طريقة صوفية جديدة كانت قد تأسست في القرن الرابع عشر ، هي الطريقة النقشبندية . ويعد الشيخ خالد النقشبندی (1776 - 1817) أول من أدخلها الى ولاية الموصل ويطلق على مريديها اسم (الصوفية) ومعظم اتباعها كانوا في المنطقة الكردية ومن غير المتعلمين ، لذلك فهم يميلون بصورة خاصة الى مظاهر غريبة في ممارسة طريقتهم . ومن أشهر تكاياهم تكية بامرني من اعمال العمادية في شمال الموصل وتكية بارزان التي أنشأها الشيخ عبد الله البارزاني خليفة الشيخ طه النهري (توفي 1825) (132) . ويقول مينورسكي (133) : ان شيوخ شهرزور وشمديان كانوا ينتمون الى الطريقة النقشبندية ، وأنهم يتمسكون بالتعاليم الدينية ويؤمنون بقدرة اجدادهم الروحية وهم يتمتعون باحترام كبير بين الاكراد .

(129) عادل البكري ، عثمان الموصل ، (بغداد ، 1966) ، ص 8 .

(130) إدموندز ، المصدر السابق ، ص 65 .

(131) مينورسكي ، المصدر السابق ، ص 52 .

(132) رؤوف ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 144 .

(133) الأكراد ، ملاحظات وإنتطاعات ، ص 51 .

ب - الأزياء والملابس :

تميزت أزياء الناس في ولاية الموصل بالتنوع الشديد في أشكالها وألوانها وأثمانها وذلك كانعكاس طبيعي للتنوع القومي وحرية الناس في ارتداء الملابس التي تناسبهم مع أوضاعهم الاقتصادية . ففي مدينة الموصل نجد ان الموصليين حافظوا على زيهم الخاص المتمثل بالكوفية والعقال . اما رجال الدين فكانوا يرتدون (الزبون) تحت الجبة في الشتاء أو (الصاية) في الصيف . وكان التجار وأرباب الحرف يرتدون الزبون وفوقه (الدميري) والعباءة ولم يتركوا رؤوسهم حاسرة ، وإنما يضعون على رأسهم (العمامة) (I34) . وبعد الانفتاح على منجزات الحضارة الاوربية ارتدى الموظفون والمتقنون خاصة الزى الاوربي المتمثل بالبنطلون والسترة . كما اعتمدت هذه الفئة الطرابيش . وقد أطلق الاهالي على هذه الفئة اسم « الأفندية » وواجهت مسألة ارتداء الملابس الغربية العنت من العامة اذ لم يستسيغوها في بادئ الامر (I35) .

اما لباس البدو والفلاحين ، فكان يتألف عادة من ثوب فضفاض طويل وتغطي الرؤوس بالكوفية يمسكها العقال وتوضع العباءة فوق الاكتاف (I36) .

وتختلف ألوان الأكراد اختلافاً بينا عن ألوان أشقائهم العرب . اذ ان ملابسهم بشكل عام أكثر شدا الى الجسم ، قياسا الى سعة وفضفضة ملابس السكان العرب ويعود ذلك الى وعورة المنطقة الجبلية وبرودة مناخها . ويلعب السروال (الشروال) المصنوع من مواد ومنسوجات محلية في اغلب الاحيان دورا رئيسا في اللباس الكردي ثم يليه القميص القصير والسترة التي تسمى (كرتك وشروال) والحزام الملفوف على وسطه عدة مرات ، ولباس الرأس المتمثل بالعمامة الكردية الخاصة . ويظهر بين الأكراد استعمال الاحذية المحاكاة من الصوف ولا يمكن لكل رجل وامرأة كردية الاستغناء عن ارتداء سترة قصيرة تسمى (الجاروكه) (I37) .

ويشتمل لباس النساء البدويات على قمصان عريضة واسعة الاكمام وطويلة تصل الى أخمص القدمين ، وتلبس النساء فوقها العباءة ويغطي الرأس بمنديل من الطن أو الحرير من ألوان مختلفة . والبدويات يلبسن كذلك الاساور والخلاخيل الثقيلة وحلقات يعلقنها بأنوفهن (I38) .

(134) ياسين ، المصدر السابق ، ص 154 .

(135) حول الأفندية في العهد العثماني أنظر : نجدة فتحي صفوة ، خواطر وأحاديث في بتاريخ ، (بغداد ، 1983) ، ص 35-37 .

(136) طارق نافع الحمداني ، مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر العثماني ، في حضارة العراق ، ج 10 ، ص 220-221 .

(137) المصدر نفسه ، ص 220 .

(138) المصدر نفسه ، ص 221 .

وللنساء الساكنات في القرى المسيحية المحيطة بالموصل ملابس خاصة تتكون من غطاء للرأس يتكون من برنس مربع محشو في قمته وسادة مستديرة سمكها انجان تحتها صفيحة مذهبة توضع على الرأس والرقبة مع عدة أوشحة تشكل نوعاً من العمامة .. وهي عند النساء الشابات مرصعة بالجواهر وسائر الاحجار الكريمة . ولهن عصائب ذات زوايا ذهبية وقلائد مصنوعة ببراعة ، وأقراط وخلاخل وأساور ، غير ان كل هذه الزينة محفوظة للبيت لان المرأة لا تخرج منه بدون الملاء الزرقاء المتعددة الالوان والحمار (الحيلية) (I39) .

اما لباس المرأة الكردية فيشتمل عادة على السراويل العريضة ، وعلى ثوب فضفاض يحزم بحزام ذي عروتين كبيرتين من الفضة ويلبس فوق ذلك . (المشلح) من نوعية الصدرية الذي يزور عند الرقبة ، ولكنه يترك غير مزرر من الرقبة حتى . ويخاط عادة من الحرير المخطط أو المشجر أو من النسيج الملون وذلك يختلف باختلاف الموسم أو شراء صاحبه للباس . وكما هو الحال بالنسبة لبقية النساء في العراق ، فان المرأة الكردية ترتدى ازاراً أزرق دحقيقاً ، ونقاباً أسود من شعر الخيل (البوشية) اما القرويات منهن فلا يستعملن الحجاب . وتميل المرأة الكردية الى تزيين نفسها ومن ذلك صبغ الشفاه بقشور الجوز الطرى ، واستعمال الخلاخيل فى الاذرع والسيقان والاقرط فى الانف والاذان وسلاسل الذهب فى الرأس والصدر (I40) .

وارتدت المرأة الموصلية ازاراً طويلاً تعقده بيدها من وسطها ولونه أسود ، وتلبس الجزمة ذات الحلق الطويل ، وتضع على رأسها طربوشاً مزرکشاً بقطع ذهبية مصاغة على نحو خاص . وتبرقع بما كان يسمى « بالخيلى » نسبة الى « خيلة » اى ان البرقع يريها اشباحاً وأشخاصاً على وجه الظن لا على وجه اليقين والخيلى عبارة عن نسيج من خيوط سود مخرمة تطرز اطرافها بما يجعلها غير مرنة . ثم استبدلت بذلك بالبوشية (البيجة) التى هى عبارة عن قطعة من القماش الاسود الشفاف (I4I) .

ج - الاعياد والمناسبات الاجتماعية :

كانت الاعياد والمناسبات الاجتماعية من النشاط التى عكست وحدة المجتمع الموصلى ، حيث تشترك العناصر كافة فى الاحتفالات باعياد كل طائفة . وبصرف النظر عن الاحتفالات فى المناسبات الرسمية التى تقام لمناسبة جلوس سلطان أو ولادة أمير عثمانى أو تجديد فرمان الوالى ، فان ولاية الموصل

(139) بادجر ، الموصل حسب رحلة بادجر ، تريب الأب لويس ساكو ، مجلة بين النهرين ، العدد 9 ، 10 ، 1975 .

(140) عقراوي ، المصدر السابق . ص 115 .

(141) البوشية ، لفظ تركي معناه برقع . أنظر : اللاوند ، المصدر السابق ، ص 73 .

شهدت احتفالات ذات طابع شعبي ، يطغى عليه أحيانا الطابع الديني ، حيث يشارك الشعب فيها مشاركة فعلية ومن ذلك ما يحدث عند التثبث من رؤية شهر رمضان وهلال العيدين (142) .

وتعد احتفالات الزواج وولادة الطفل وبالاخص الذكر والحُتان في المناسبات الشعبية التي يحتفل بها الناس . وكانت هذه المناسبات من الفرص التي تتيح للمرأة رؤية الرجل من وراء حجاب الحيلية فهي حرة في النظر اليه الا انه لا يستطيع رؤية وجهها الا اذا سنحت له فرصة عارضة كأن ترفع الحيلية عن وجهها في طريق فيراها عرضا فيقع في حبها . والزواج متنفس المرأة والرجل دون اختيار في كثير من الاحيان ، وهي تنتظر الزوج ويكفي رضى الأب لبنته في الزواج ، وكل ما يطلب من الزوج «ستر الحال» ما دام يستطيع تقديم عيشة الكفاف وليس لها بعد تزويج الأب حق النقض ، فاذا كان يوم الزفاف زينت العروس بنوع خاص من مبيضات الوجوه يسمى «سبيداج» ومشطت الماشطة جذائلها وصفقتها وتغنى النساء فرحات :

يا ماشطا مشطيها بالعكل لا تأليها
مشط الذهب لا يكك عليها ومعلما على الدلالى

ومعناه يا ممشطة الشعر مشطى شعرها بتآن وعقل ولا تؤلى شعرها ، فان مشط الذهب يليق بها وبشعرها ، فانها تعلمت على عيش الترف والدلال (143) .

ويوضع على شفتى العروس قطن فيه صبغ احمر كما تصبغ الحدود ، بالاخر نفسه ، وينتظر الرجال عند الباب ويصيحون بأن الوقت قد حان ، وتخرج العروس لتركب حصانا مزينا الى دار زوجها .. وأمامها الرجال ومن خلفها النساء يهزجن ويزغردن حتى تصل الى الدار ، بينما يكون الجهاز قد أرسل من قبل تحمله احصنة محزمة بالسرج والاشرطة . وفي بيت الزوج تغنى النسوة الاغانى ، وربما دبكت النسوة وهن يغنين الاغانى الشعبية منها :

ليا على ليا ليا على ليا
وتميل جنبها شطب ريح ان على الميا

ومعناها ان هذه البنت الجميلة اذا تمشى تتلوى ليا بعد لى وتميل كأنها شطب ريحان على الماء . اما أهازيج الرجال بهذه المناسبة فكانت تنشد هذه الالهزوجة الركبانية :

يا جمال الحكك بان الننا

(142) رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، ص 350-351 .

(143) اللاوند ، المصدر السابق ، ص 75-76 .

ثم تردد هذه اللازمة بصورة جماعية بينما ينفرد احدهم بالقاء الازوجة :

لو هلهلتي يام ثوب ادم
والهلهولا ال ويلاد العم
اش حدو الغريب اليقحم
رايح دموا مطلوب النسا

فيرد الرجال :

يا جمال الحكك بان النسا

ويستطيع الرجل المنفرد بالهزج ان يلقي ما شاء على غرارها بين اطلاق البارود وزغاريد النساء ، ويشهر كل سلاحه من خنجر أو قامة أو سيف ، فهي فرصة لا تعوز للفت انظار النساء .. ويتضح من هذا ان الجمال كانت محط المباهاة ، وموضع الاعتزاز فهي واسطة النقل ، والتفاخر بأعز ما يملك الانسان آنئذ ، ويلاحظ ان بنت العم حق لابن العم لا ينازع فيه . اما الغريب الذي يحاول اقتحام هذا الحق ، فان دمه مهدور على عادة التعصب القبلي (I44) .

وتأخذ المناسبات التي تقام بها الافراح في المجتمع الكردي اشكالا وصورا مختلفة منها خاصة حفلات الزواج . ومن العادات المألوفة في المنطقة الكردية انهم يفضلون الزواج المبكر ، وغالبا ما تنشئ الام لابنتها فتاة لاسرة تكافئ أسرتها من حيث الجاه والثروة ، واذا ما وجدت الاسرة لابنتها بعد البحث الطويل ، يذهب عميد اسرة الفتى الى اسرة الفتاة ويطلب يدها . وينفق الاكراد عادة نفقات كبيرة على حفلات الزواج والزفاف ، اذ ان يوم الزفاف يعد احتفالا لجميع أهالي القرية أو المحلة ، حيث تقام الولائم وتعزف الموسيقى والمزمار ، وفي يوم الزفاف يذهب أخو العريس الى اسرة العروسة ويشد الرباط الذهبي أو الفضي على خاصرة العروس ، وتزف في أكثر مدن وقرى المنطقة الكردية على فرس يقوده احد الشباب من أقرباء العريس وتستمر الاحتفالات ثلاثة أيام وأكثر حسب مقدرة العريس المالية . كما ان للعريس موكبا من الرجال فان للعروس كذلك موكب من النساء يزغردن ويغنين ويرقصن ، وفي ليلة الدخلة يزف العريس وسط معارفه وأصدقائه مع جوقات موسيقية وتطلق العيارات النارية بعد دخول العريس على عروسه (I45) .

ونظرا لما تتميز به الموصل في فصل الربيع من تلون الزهور وتعدد النباتات ، وما يتخلل ذلك من غدران ومياه تنساب بها وطيور تغرد في حقولها ، فقد اعتاد الموصليون الخروج الى ظاهر المدن والاحتفال بالربيع .

(144) المصدر نفسه ، ص 76-77 .

(145) عقراوي ، المصدر السابق ، ص 116-118 .

وتنظيم حفلات الرقص (الدبكات) . ويمارس الناس ألعابا مختلفة ويقيم أرباب الحرف تجمعات تسمى (حريفانات) مفردها (حريفانة) نسبة الى الحرفة ، ولكل حرفة يوم خاص تحتفل به . ويشترك المسلمون اخوانهم المسيحيين جميع اعيادهم ، وينتشرون حولها ويقضون وقتهم فى الألعاب وركوب الخيل وغير ذلك . ويذكر العمرى ان من عادات المسلمين فى الموصل ان يقدموا الهدايا الى اخوانهم المسيحيين فى الاعياد الربيعية ، التى ترتبط بصوم الخمسين . . ومن تلك الاعياد عيد أحد ماركوركييس وهو فى رابع أحد صوم الخمسين وعيد مار ميخائيل وهو فى خامس أحد لصوم الخمسين ، وهذه عادة قد لا نجدها فى اغلب المدن الاسلامية فى ذلك العصر (I46) .

ويقصد الموصليون حمام العليل ، وتقع جنوبى مدينة الموصل بنحو (24) كيلومترا فى الربيع والصيف ، يتمتعون بمناظرها الجميلة ويستحمون بمياهها المعدنية الحارة ، ويقيم بعضهم عرائش تسمى (عرازيل) على ساحل دجلة . وفى الاماسى تكون الحلقات على شاطئ النهر وتتردد فيها الاغاني وآلات الطرق ويمارس المصطفون مختلف ألعاب التسلية والسمر حتى كأن الناس فى عيد لا ينقطع فاذا ما حل فصل الحريف اسرعوا بالعودة الى الموصل وينتهى بذلك موسم الاصطياف (I47) .

ويخرج الاكراد فى احتفالات الربيع السنوية ، ولهم فى ذلك تقاليد خاصة. اذ ينظمون (الدبكات) الشعبية . وبعد المجتمع الكردي من أقدم البيئات التى عرفت الدبكات على مختلف أنواعها ، منها دبكات يشترك فيها الرجال وحدهم ودبكات تقوم بها النساء وحدهن ، وفى مناسبات خاصة هناك دبكات مختلفة يشترك فيها الرجال والنساء معا . والدبكات ليست من نوع واحد ، وانما هناك دبكات مختلفة الانواع والاشكال (I49) .

د - وضع المرأة :

بالرغم من أن المرأة تعد الوحدة الاساسية فى العائلة ، الا انها فى الموصل عانت كثيرا من العنت خلال الفترة التى اعقبت سقوط الدولة العربية الاسلامية بيد المغول سنة 1258 . فقد عاشت آنذاك وهى محجبة لا يسمح لها بالخروج من الدار الا نادرا ، واذا ما أرادت الخروج ، كانت تسدل عليها العباءة السوداء وتوتبرقع ببرقع أسود لا يرى منه شيء ، وعليها ان تمر فى الدروب

(146) رؤوف ، الموصل فى العهد العثماني ، ص 354 .

(147) للتفاصيل أنظر : محمد صديق الجليل ، الإصطياف فى حمام العليل (الموصل ، 1965) ، ص 2-8 .

(148) أنظر : الجاوشلي ، المصدر السابق ، ص 90 .

(149) أنظر : يوسف عز الدين ، الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والإجتماعية به ، (القاهرة ، 1965) ، ص 238 .

الضيقة والازقة المتعرجة . وقد يبلغ التعصب بالرجل ، ان يمنع زوجته الخروج من البيت لاي سبب كان .. وكان احدهم يتحدث مفاخرًا بأن زوجته لم تر عتبة الباب . ويخجل الكثير من الرجال من ذكر اسم الأم أم الزوجة أو الأخت أمام الغرباء (I49) . وقد وصف مجتمع الموصل ابان العهد العثماني بأنه « مجتمع منعزل ، وهو أشد صرامة وتحفظًا على النساء ، فهي في دائرة الاسوار ، لا تخرج الا اذا ذهبت الى الحمام او اذا أخذت الملابس الى الشط لتغسلها مبرقة » (I50) . الا ان بعض الرحالة أشاروا الى اختلاف حياة نساء الاسر الشرية ، في مدينة الموصل ، عن حياة غيرهن من عامة نساء الشعب فهن أقل تحجبًا من نساء بغداد ، ويشبهن نساء البلدان الاوربية في حياتهن (I51) . ويرتبط بهذا قيام بعض أولئك النساء طيلة العهد العثماني ، ببناء المساجد أو المدارس الدينية على نفقتهن الخاصة . وقد تثبت اسمائهن على ألواح تذكارية في هذه المباني دون اي حرج (I52) . كما ان المرأة الريفية ، العربية والكردية ، كانت تشارك الرجل في تهبيش القمح واستخلاص الزبد من الحليب والعمل في طواحين الحبوب .. ولم يمنع المرأة الموصلية من مساعدة الرجل في سعيه الدائب نحو توفير أسباب المعيشة لاسرتهما ، اي شيء . فكان الغزل مثلاً من أهم مهام ربة البيت ، واعتبر المجتمع الموصل عدم معرفة المرأة بالغزل عيباً لا يغتفر (I53) . وتخرج المرأة الريفية الكردية الى الحقل مع زوجها أو أخيها لتشاركه في فلاح الارض ورعى الماشية او جمع الحطب . واذا اردنا ان نحدد مدى حريتها ونقارنها باختها في المدينة فانها كانت في الريف تتمتع بحرية أكبر من المرأة في المدينة . والى شيء من هذا القبيل يشير مينورسكي عندما يتحدث عن المرأة الكردية الريفية فيقول : انها كانت تجلس مع الرجال بشجاعة وبدون استحياء ، وغالباً ما كانت تشارك الرجال في الحوار (I54) .

لكن هذا لم يمنع أهالي الموصل ، ان يعترضوا على اجراءات تسجيل الاناث التي جرت في عهد الوالي مصطفى يعني 1904 - 1908 وكادت تنشب بسبب تلك الاجراءات ثورة دامية ، ومن الطريف ان توثق لنا اليوميات السياسية للمقيمة البريطانية في بغداد وللاسبوع الذي ينتمي في 29 تشرين الثاني 1906 التظاهرات التي قامت بها جماهير الموصل احتجاجاً على اجراءات تسجيل الاناث خلال الايام 10 - 15 تشرين الثاني 1906 . وعندما اقلت السلطات العثمانية القبض على قائد التظاهرات وهو محمد أبو جاسم وابن أخته سرحان انهالت البرقيات على العاصمة محتجة على عمل الوالي . وعاد

(150) اللاوند ، المصدر السابق ، ص 73 .

(151) سهيل قاشا ، الموصل في مذكرات الرحالين الأجانب ، مجلة بين النهرين ، السنة (5) ، العدد (20) ، 1977 ، ص 393 .

(152) أنظر : رؤوف ، المصدر السابق ، ص 359-360 .

(153) المصدر نفسه ، ص 356-357 .

(154) مينورسكي ، المصدر السابق ، ص 74 .

الجواب من العاصمة بأن السلطات العثمانية عازمة على معرفة حقيقة الموقف ، وسرعان ما صدرت الاوامر للوالى بأن يلغى اجراءات الخاصة بتسجيل الاناث (155) .

وحين بدأت عوامل التغيير الاقتصادى والاجتماعى والثقافى تأخذ طريقها الى الموصل ، ظهرت فئة من المثقفين تطالب بتحرير المرأة وتأكيد مكانتها المتميزة فى المجتمع . وقد استندت تلك الفئة الى الموروث الحضارى الاسلامى الذى يولى المرأة أهمية كبيرة .. وأمام دعوات التحرير هذه وقفت بعض الفئات المحافظة والدينية موقفا مضادا ، وخاصة فيما يتعلق بسفور المرأة واختلاطها بالرجال ، وهكذا عاش المجتمع الموصل حتى الثلاثينات من القرن العشرين صراعا عنيفا بين متطلبات العصر والدعوة الى تحرر المرأة وبين التقاليد الاجتماعية الموروثة (156) .

ملحق رقم (1)

أهم مصادر ووثائق الحياة الاجتماعية فى ولاية الموصل

ابتداء لا بد من الاشارة الى الاهتمام الكبير الذى برز بالوثائق ، ولا سيما العثمانية منها والمنتشرة فى أماكن كثيرة من العالم . ولقد اتضح ذلك فى السنوات الثلاثين الماضية .. وثمة مصادر ووثائق عديدة تهتم الباحث فى التاريخ الاجتماعى ، وحبذا لو يتم الاهتمام بها وجمعها ودراستها . وبإدارة مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العثمانية فى العهد الاجتماعى فى عقد هذا المؤتمر تستحق التقدير والثناء . وبدون شك ، فى ان ما قدم من بحوث وما أشير اليه من وثائق يساعد كثيرا فى فهم التكوين الاجتماعى والنفسى للانسان العربى ، وكذلك فى لقاء الاضواء على بعض مشكلاته الراهنة .

ومهما يكن من أمر فان هناك مصادر متوفرة عن حياة ولاية الموصل الاجتماعى تأتى فى طليعتها ، سجلات الدولة العثمانية (طابو دفترى) ويتوفر عن الموصل سجلان أحدهما مفصل دفتر يحمل رقم 195 وعدد لوحاته (79) مؤرخ بين سنتى 1541 - 1544 ، والآخر مفصل فى دفتر رقم 660 مؤرخ بين سنتى 1574 - 1595 وعدد لوحاته (129) وتوجد نسخ من هذه السجلات فى مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب فى جامعة بغداد . وكلا الدفترين يهتمان الباحث فى معرفة أمور عديدة منها نظم ملكية الارض وتطورها وشؤون الوقت والضرائب والقرى والايادات وعلاقة ذلك كله بالتركيب الاجتماعى للسائد آنذاك .

(155) انظر مقالنا الموسوم « يوم تسجيل الإناث فى الموصل » جريدة الحداثة الموصلية ، 11 أيلول 1984 .

(156) للتفاصيل أنظر : ياسين ، المصدر السابق .

اما سجلات المحكمة الشرعية في الموصل ، ففيها معاومات اجتماعية جيدة تتعلق بالفئات الاجتماعية ومناشطها المالية ، وعلاقاتها مع المسؤولين من جهة وبعضها مع البعض الآخر من جهة أخرى . وقسم من هذه السجلات مدون بالعربية وآخر بالتركية ، ويعتمد ذلك على شخصية القاضى وانتماءه القومى ، وأقدم السجلات التي عثر عليها في الموصل ترجع الى سنة 1224 هـ . / 1808 م . وتفيد هذه السجلات في معرفة اسماء اسواق ومحلات وخانات وحمامات الموصل وطبيعة نشاط السكان الاجتماعى والاقتصادى وخاصة فيما يتعلق بالبيع والشراء والرهن والتأجير . هذا فضلا عن انها تضم معلومات تتعلق بساوى قتل وأخرى مرفوعة من طوائف مختلفة بشأن الاماكن المقدسة . وفى السجلات وثائق وعقود النكاح والمواريث وتصفية التركات وما يتصل بذلك من شؤون تخص الاسرة والمجتمع الموصلى ابان العهد العثمانى . وهناك سجلات متخصصة بالوكالات وأخرى بالديون وعقود الزواج . وتكشف سجلات عقود الزواج كثيرا من التفاصيل عن وضع المرأة ومستويات المعيشة ومقادير المهور المعجلة والمؤجلة .

وتشكل الوقفيات المحلية على المؤسسات الدينية والثقافية اكثر المصادر أهمية فيما يتعلق بدراسة عناصر الثروة الاجتماعية ونوع الاستثمارات المالية وعلاقة ذلك بفهم التركيب الاجتماعى وتوفر فى مكاتب وزارة الاوقاف والشؤون الدينية في بغداد والموصل مجاميع طيبة من هذه الوقفيات التي تتعلق بالمساجد والمدارس وخزائن الكتب التي انشأت في الموصل خلال العهد العثمانى .

وهناك السالنامات التي تعد مصدرا من مصادر دراسة الحياة الاجتماعية . والسالنامات نوع مهم من أنواع الوثائق الرسمية العثمانية . وهى بمثابة تقويم رسمى سنوى كانت تصدره الحكومة المركزية فى استانبول أو الحكومات المحلية فى الولايات . والسالنامات انواع منها عامة اعتادت الحكومة المركزية اصدارها سنويا او فى اوقات متباعدة لتتضمن معلومات تفصيلية عن الدولة العثمانية وولاياتها باسم « سالنامه دولت عليه عثمانية » او السالنامات الخاصة التي كانت تصدرها بعض الوزارات والمؤسسات كالسالنامات التي كانت تصدرها وزارة المعارف باسم « سالنامه نظارت معارف عمومية » أو السالنامة العسكرية : سالنامه الجيش «أوردو سالنامه سى» . منها السالنامة التي صدرت سنة 1912 . وفى هذه السالنامات معلومات وفيرة عن شؤون الولاية الادارية والسياسية والاقتصادية والثقافية .. ولا تخلو من المعلومات عن مكان الولاية وطبيعة تركيبهم الدينى والاجتماعى .

ولقد حظيت الموصل بعدد من المؤرخين عكسوا فى مؤلفاتهم اوضاع الولاية الاجتماعية . وقد نشرت بعض هذه المؤلفات ، لكن البعض الآخر لا يزال مخطوطا ومن ذلك كتاب « الدر المكنون فى المآثر الماضية من القرون » وهو تاريخ مرتب

على السنين يبتدىء من السنة الاولى للهجرة ، وينتهي بسنة 1803 ومعلوماته عن الموصل وسكانها غزيرة ومؤلفه ياسين بن خير الله العمرى الموصلى (توفي 1816) . وللعمرى كذلك كتب اخرى منها « منية الادباء فى تاريخ الموصل الحدياء » وتصل احداثه حتى سنة 1823 وقد نشر فى الموصل وكتاب « الآثار الجلية فى الحوادث الارضية » وتنتهى حوادثه بسنة 1795 وضمنه المؤلف الكثير من مشاهداته وملاحظاته المباشرة ، وقد جمع الدكتور داؤد الجلبى الفقرات الخاصة بتاريخ الموصل منذ سنة 1231 هـ / 1815 م . فى كتاب يحمل اسم « زبدة الآثار الجلية » وقام الدكتور عماد عبد السلام رؤوف بتحقيقه ونشره سنة 1974 . ولمحمد أمين بن خير الله العمرى (توفي 1788) كتب عديدة منها « منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدياء » وهو تاريخ عام للموصل منذ تمصيرها فى القرن السابع الميلادى وحتى مطلع القرن الثامن عشر .. وأهم اجزائه هو الذى يبتدىء فى حوادثه من سنة 1591 ، وقد حقق السيد سعيد الديوه جى الكتاب ونشره فى الموصل 1967 - 1968 .

وتعد الصحف ، ومنها جريدة « موصل » التى صدرت فى 25 حزيران 1885 ، ونيوى (صدر عددها الاول فى 15 تموز 1909) والنجاح (صدر عددها الاول فى 12 تشرين الثانى 1910) من المصادر المهمة التى تفيد الباحث فى التاريخ الاجتماعى .. وتخلو المكتبات العامة فى العراق من هذه الصحف ، لكنها تتوفر فى المكتبات الشخصية فى الموصل .

وبالرغم من أن المذكرات تمثل وجهة نظر شخصية ، لكنها تلقى بعض الاضواء على جوانب مهمة من حياة ولاية الموصل الاجتماعية . وقسم من هذه المذكرات لا يزال مخطوطا ، كمذكرات عبد الرحمن صالح الموسومة « كتاب العمر » بعدة أجزاء وأهميتها ان صاحبها شاهد عيان على كثير من احداث الموصل أواخر العهد العثمانى . ومن كتب المذكرات كتاب عبد العزيز القصاب « من ذكرياتى » المنشور فى بيروت سنة 1961 . و « ذكريات 1900 - 1958 » لعلي جودت الايوبى المنشورة سنة 1967 .

الدكتور ابراهيم خليل أحمد العلاف

كلية التربية / جامعة الموصل

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
الشيخ الفزوي

www.moswarat.com

الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قائممقامية قطر العثمانى

(1871 - 1882)

د. محمد حسن العيدروس

المقدمة

يعد البحث حول موضوع الحياة الاجتماعية ومشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر ، من المواضيع المهمة ، ولكن المشكلة لاساسية التي تواجه الباحث هي قلة المصادر والمراجع ، وخاصة في الفترة من دخول العثمانيين وحتى خروجهم من قطر ، وذلك لعدة اسباب ، اهمها اعتبار هذه المرحلة من اهم مراحل فترة تأسيس اماره قطر ، وخاصة بعد ظهور الشيخ جاسم ابن الشيخ محمد بن ثاني مؤسس الاسرة الحاكمة ، اضافة الى الدور الذي لعبه الشيخ جاسم في بناء اركان حكم الاسرة في الوقت الذي اشتد فيه الصراع البريطاني - العثماني حوله ومحاولة بريطانيا ايجاد منفذ لها في الدوحة ، الا ان الشيخ جاسم الذي طلب من القوات العثمانية الدخول الى قطر ثم خضوعه لسيادة الباب العالي ، جعله في وضع اقوى ومتساو مع جيرانه ، خاصة مع شيخ البحرين الذي كان يطالب بقطر باعتباره تابعا لشيخ البحرين ، وكذلك مطالب شيوخ ابو ظبي في اجزاء من قطر ، ولكون البحرين وابو ظبي خاضعتين للنفوذ البريطاني فانه من الصعب على الشيخ جاسم الحصول على استقلاله ان لم يكن مستحيلا واذا علمنا ان الامير سعود حاكم نجد كان ايضا متعاوناً مع البريطانيين ويطالب بل وارسل رجاله لاحتلال قطر ، كل هذه العوامل دفعت الشيخ جاسم ان يطلب الدخول في طاعة السلطان عبد الحميد ومن ثم يواجه المشاكل التي اثارها بريطانيا عن طريق التجار الهنود ، ولذلك كان اعتمادى على الوثائق البريطانية المترجمة من قبل د. فتوح ، ود. المنصور ، في كتاب مصادر تاريخ قطر ، وكتاب «جى اى سالدانا» والمترجم من قبل لجنة كتابة تاريخ قطر ، وايضا كتاب دليل الخليج للوريمر والذي عاصر تلك الفترة ثم كتب عنها بتكليف من حكومته ، ولذلك فان المصادر التي بين يدينا تعبر عن وجهة النظر البريطانية ، ونظرا لصعوبة البحث عن الوثائق العثمانية التي جاءت في هذه الفترة ، وايضا لضيق الوقت حيث لم يكن امامى سوى بضعة اشهر للكتابة في هذا الموضوع ، فاني بذلت كل جهدى للحصول على مراجع اخرى ، كما قمت بتحليل المعلومات البريطانية وصياغتها في نظرة علمية منصفة واتمنى ان اكون قد وفقت لبعضها على الاقل في هذا البحث .

وقد بدأت البحث بالموقع وأهم المدن في قطر في تلك الفترة ، ثم السكان والتركيب القبلي ، ثم وضع قطر قبل مجيء العثمانيين إليها ، وبعد دخولهم ، والموقف البريطاني من الوجود العثماني في قطر ، ثم مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود وطردهم من قطر والضغوط التي مارستها بريطانيا على الوالي العثماني الشيخ جاسم ورفضه لهذه الضغوط والتهديدات مما اضطرت بريطانيا لتغيير من استخدام القوة الى سياسة المرونة واستخدام الطرق السلمية والتقرب من الشيخ جاسم ، مما اسفر عنه دفع الشيخ جاسم التعويضات للتجار الهنود والسماح لهم بعودتهم الى قطر .

وهذا يكشف لنا كيف ان بريطانيا حاولت استغلال هذه المشكلة لصالحها لايجاد بعض النفوذ لولا وقوف جاسم في مواجهة هذا المخطط البريطاني وأفضله ، الا ان بريطانيا نجحت في سياستها بعد وفاة الوالي الشيخ جاسم واستطاعت ان تطرد العثمانيين من قطر وان توقع اتفاقية الحماية مع ابنه الشيخ عبد الله بن جاسم الثاني . ولم تخرج بريطانيا من قطر الا في عام 1971 بعد سياسة الانسحاب من شرق السويس ، واليوم تعتبر قطر واحدة من اقطار الخليج العربي واحد اعضاء مجلس التعاون الخليجي .

موقع قطر :

ان شبه جزيرة قطر عبارة عن لسان كبير من اليابسة يمتد داخل الخليج العربي في منتصف المسافة تقريبا بين مدخل الخليج العربي في منتصف المسافة تقريبا بين مدخل الخليج العربي في مضيق هرمز ورأسه عند مصب شط العرب ، وتبلغ مساحتها حوالي 4,000 ميل ، والعرض حوالي 55 ميل تقريبا (I) وتحيط بها مياه الخليج من الشمال والشرق والغرب ، أما الجنوب فيبدأ حدودها من نهاية دوحة سلوى على الجانب الغربي من شبه الجزيرة ، وتمتد هذه المنطقة في اتجاه الجنوب الشرقي الى ان تصل الى آبار «اسكاك» ثم تمتد بعد ذلك حتى تصل الى شرق الشمال للطرف الشمالي للتلال الرملية «النقيان» ثم تتجه نحو الجنوب الشرقي للنهاية الجنوبية لهذه التلال على الجانب الشمالي لمدخل خور العديد ، وقد قيل انه يمكن لثلاثة رجال يقفون في «دوحة سلوى» و «اسكاك» و «خور المحارف» على التوالي رؤية جميع ساحل قطر الجنوبي من البحر الى البحر (2) .

وتحتل قطر اهم موقع في الخليج العربي ، (3) ولكن الجزء الاكبر من شبه جزيرة قطر عبارة عن ارض صحراوية حصوية (4) ، الا أن بعض القبائل

(1) Qatar Government Publication-Qatar p. 15

(2) ج.ج. لوريير - دليل الخليج الجغرافي ج 6 ص 1942 .

(3) Qatar Government Publication P. 15

(4) يوسف الرحمن عبد الخلفي - النهضة البهية في الاداب والمعادن القطرية ص 24 .

البدوية تجد لها فيه مراعى لمواشيها ، كما توجد بعض قرى الصيد على الساحل مثل الزبارة وخور حسان (5) وغيرها .

الدوحة :

وهي عاصمة قطر كما تعتبر أهم مدنها وأكبرها سكانا ومساحة ، ويسمى البدو أحيانا «دوحة قطر» ، كما كان يطلق عليها اسم البدع ، وقد اشتهرت بهذا الاسم وهي المدينة الهامة في قطر القديمة ، (6) والبدع حاليا احد الاحياء القديمة في الدوحة وتقع على الجانب الشرقى لشبه جزيرة قطر ، وعلى بعد حوالى 63 ميلا من الطرف الجنوبى لرأس «الركن» و 45 ميلا شمالى خور العديد ، ومينائها تقع على الجانب الجنوبى من خليج عميق ، وهو ميناء طبيعى يبلغ طوله حوالى ثلاثة اميال وهي محمية من جهتي الشمال الشرقى والجنوب الشرقى بصخور طبيعية ، ويبلغ اتساع المدخل أقل من ميل من جهة الشرق ولكنه ضحل بين رؤوس الصخور ، وصعب بعض الشيء ، ولا تستطيع المراكب ذات الغاطس الاكثر من 15 قدما المرور فيه ويتراوح عمق الميناء ما بين 3 الى 5 (قامات) وقد بنيت المدينة الارض المرتفعة (7) .

وقد أسس «البدع» أفراد من قبيلة السودان المهاجرين من أبو ظبى وكانت مدينة مزدهرة ولكن المنازل ضيقة وصغيرة ويفصل بين الازقة ممرات معتمة ، وكانت بها مراكز لتجارة اللؤلؤ في قطر اما مدينة الدوحة قد أسسها أفراد من قبيلة ابو عيينة الذين نزحوا الى «الوكرة» فيما بعد (8) ، وقد تعرضت الدوحة للتدمير مرتين في الماضى وذلك بسبب الحروب القبلية والاقليمية التى كانت تدور بينها وبين أبو ظبى والبحرين في تلك الفترة (9) ، وقد كان تعداد السكان في الدوحة أوائل القرن العشرين اثنى عشرة ألف نسمة ، وقد ذكر العثمانيون ان تعدادها كان عشرة آلاف ، ويفصلها عن مدينة البدع حى صغير عرف « بالدوحة الصغيرة » أو « الدويجة » وقد كان حيا صغيرا تسكنه جماعات من الهولة (10) ، وتتكون مدينة الدوحة من تسعة احياء وتمتد الواجهة الكلية للمدينة على البحر حوالى ميلين .

الوكرة :

تعتبر ثانيا مدينة من حيث الاهمية بعد الدوحة (II) ، وتقع الى الجنوب الشرقى منها بحوالى 10 أميال على الساحل الشرقى لقطر وليس فيها ميناء

(5) مكتبة وزارة الهند وسجلات الوزارة - سرى - 1888م ، 9 4 B ، د. فتوح الخترشي و د. عبد العزيز المنصور - مصادر تاريخ قطر ص 101 .

(6) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم - التحضر في المجتمع القطرى ص 71 .

(7) ج.ج. لوريير - المرجع السابق ج 2 ص 627 .

(8) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم - المرجع السابق ص 80 .

(9) محمد عبد الرحيم قافود - الادب القطرى الحديث ص 19 .

(10) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم - المرجع السابق ص 80 .

واعتمادها على ميناء الدوحة ، ولكن لها ساحل يتكون من الشعب المرجانية الموجودة في البحر ويمتد لمسافة ميل واحد من شمال الى شرق الوكرة ، اضافة الى شعب مرجانية اخرى تمتد لمسافة سبعة أميال من الجنوب الشرقي كما تبرز من الساحل شعب مرجانية اخرى تعرف باسم «فشت الشويمة» أو «رأس العليج» ولا تستطيع المراكب الكبيرة او البخارية الرسو بها الا على بعد ميلين على الاقل ، والمنطقة الواقعة بين الوكرة والدوحة خالية من الزراعية وقاحلة، اما المنازل فتتكون من الطوب الاخضر ولا يوجد بها نخيل ليستعمل سعفه في بناء المنازل ، ولكن في السنوات الاخيرة بنى بها حى يعرف باسم الرميطة على بعد 800 يارده الى اقصى شمال المدينة (I3) ، وقد تعرضت مدينة الوكرة ايضا للتدمير والخراب عندما هوجمت من قبل البحرين وابو ظبي عام 1867 (I3) .

السكان :

لا شك ان للظروف البيئية والطبيعية والجغرافية ، تأثيرا واضحا على نشاط الناس وأساليبهم المعيشية وخاصة سكان قطر لارتباطهم بالموقع البحري الممتد، فاستفاد الناس من العمل في مياه الخليج العربي منذ القدم في نشاط اللؤلؤ وصيد السمك (I4) ، فقد كان اعتماد السكان الرئيسى في الاقتصاد يقوم على عملية الغوص بالاضافة الى صيد السمك ، وتعتبر عملية الغوص من الاعمال الشاقة فيها الكثير من المخاطر اضافة الى الامراض الناتجة عنها كداء الرئة ونحوه وما يتعرض له الغوص من اخطار الاسماك المتوحشة ، وكان يعمل في الغوص اكثر من نصف سكان قطر (I5)، وكان سكان قطر قد عرفوا قيمة اللؤلؤ منذ مئات السنين فاهتموا باستخراجه ، كما كان لهم اسطول بحرى يزيد عدده على اربعمائة سفينة تعمل في صيد اللؤلؤ ، وكان اللؤلؤ يصدر الى مدينة بومباي بالهند ومنها الى الدول الاوربية (I6) .

اما صيد الاسماك فيأتى في المرتبة الثانية بعد الغوص على اللؤلؤ من حيث الاهمية كمورد رزق للسكان ، ومن المعروف ان الخليج العربى غنى بمكيات كثيرة متنوعة من الاسماك نظرا لوجود الاعشاب البحرية ونتيجة للدفء الذى تمتاز به مياه الخليج العربى (I7) ، وقد يرجع اتجاه السكان الى البحر منذ أقدم العصور لجذب شبه جزيرة قطر اضافة لاحاطتها بالمياه فى معظم اجزائها مما جعلهم يتخذونه مصدرا للرزق والغذاء واكتسبوا فى ذلك خبرة ومهارة عظيمة (I8) .

(12) ج.ج. لوريير - المرجع السابق ج 7 ص 2556 .

(13) محمد عبد الرحيم قافود - المرجع السابق ص 20 .

(14) احمد علي النصور وسليمان محمد - المجتمع القطرى - ص 24 .

(15) محمد عبد الرحيم قافود - المرجع السابق ص 34 .

(16) وزارة المعارف - نهضة قطر ص 22 .

(17) محمد عبد الرحيم قافود - المرجع السابق ص 37 .

(18) وزارة المعارف - المرجع السابق ص 22 .

اما النشاط الزراعي فقد كان محدودا نظرا لقلة المياه بالإضافة الى ان التربة غير صالحة للزراعة في معظم ارجاء قطر لكونها صحراوية ، وبعض المناطق مغطاة بطبقة من الحجارة والجير وملوحة التربة وشدة الحرارة (I9) ، اما مياه الامطار فقليلة وغير منتظمة ولا تتعدى البوصتين سنويا ولا يمكن الاعتماد عليها في الزراعة ، فهي تكفي فقط لبعض الاعشاب ، ولهذا حفرت عدة آبار للمياه العذبة في وسط وغرب شبه الجزيرة القطرية (20) .

وسكان قطر كمعظم سكان المناطق العربية على الساحل الغربي من الخليج العربي بدو وحضر ، ويتراوحون زيادة ونقصا ويتألف التركيب السكاني للمقيمين من مختلف الجماعات والقبائل والتي تتواجد معظم عناصرها تقريبا في كل من قطر والبحرين ، ولا يقل عدد سكان قطر المستقرين في مدينتي الدوحة والكرة وفي قرى «الضعائن» و «الذخيرة» و «أبو الظلوف» و «فويرط» و «هديه» و «خور حسان» و «الوسيل» و «الرويس» و «خور شقيق» و «سميسه» عن 27 ألف نسمة ، اذا ما أضفنا لهم أفراد القوات العسكرية والعثمانية المتواجدة في الدوحة ، والعائلات القليلة من أصل زنجي والتي تعمل في زراعة حديقتين أو ثلاث في قطر ، ويضرب عدد كبير من السكان المقيمين خيامهم في الداخل اثناء فصل الشتاء مع قطعانهم وماشييتهم ، والبدو ينتمون الى مختلف القبائل (21) .

ويتوزع السكان الى عدة قبائل عربية اضافة الى بعض العائلات من السادة ، أما أفراد القوات العسكرية العثمانية فانها تبلغ حوالى ثلاثمائة وخمسين رجلا ، وكان يوجد في السابق بعض الرعايا البريطانيين من التجار الهنود والذين طردهم الشيخ جاسم فيما بعد نتيجة لتصرفاتهم غير اللائقة ، ولكن ما يزال منهم اثنان او ثلاثة يقيمون اقامة دائمة ، ولكن اعمالهم التجارية لم تعد مثمرة في تجارة اللؤلؤ بعد ترحيل معظم الهنود (22) .

ويبلغ عدد السكان في مدينة «الوكرة» حوالى ثمانية آلاف نسمة ويبدو أنهم ينتمون للقبائل التالية حسب تعدادهم : آل بوعينين 200 ، العمامرة 100 ، عرب من نجد 250 ، خليفات 850 ، معاضيد 350 ، آل بن مقله 50 ، القبيسات 75 ، هول 1000 ، بحارنه 200 ، عبيد محزون 1000 ، زنوج لا يقيمون مع اسيادهم 2000 ، ايرانيون 125 ، ويسكن حى الرميطة كل من الخليفات والمعازيد وعبيدهم بصفة خاصة ، اما البحارنه والهول فيعملون بالتجارة والاعمال الحرفية ولا يوجد رعايا بريطانيون من أى نوع في الوكرة (23) .

(19) محمد عبد الرحيم قافود - المرجع السابق ص 37 .

(20) يوسف عبد الرحمن الخليلي - المرجع السابق ص 29 .

(21) ج.ج. لوريير - المرجع السابق ج 6 ص 1987 .

(22) ج.ج. لوريير - نفس المرجع ج 2 ص 631 .

(23) ج.ج. لوريير - نفس المرجع ج 7 ص 2551 .

التركيب القبلي لسكان قطر :

يتكون سكان قطر كغيرهم من سكان الخليج العربي ، من مجموعات عديدة من القبائل العربية التي نزحت من اليمن ومن وسط الجزيرة العربية على فترات مختلفة ، واخذت تنتقل في منطقة الخليج من مكان لآخر ، اما طلب الرزق أو نتيجة لحروب قبلية فتتوزع القبيلة او جماعة منها من مكان الى آخر (24) ، اضافة الى القبائل العربية يوجد بعض العبيد الذين تم جلبهم من مناطق متفرقة من افريقيا وآسيا واعداد قليلة من البحارنة والهولة .

ولهذا يمكن القول بان النمط القبلي هو النموذج السائد في قطر وبقيّة المناطق في الخليج العربي ، وحتى هذه القبائل بعد ان استقرت توزعت على اجزاء من شبه جزيرة قطر وفي المدن والاحياء على شكل عائلات ممتدة ، وتخضع هذه الاحياء لها وتسمى باسمائها احيانا ، ويعتبر شيخ كل قبيلة بمثابة رئيسها والمسؤول عن شؤونها ، وتخضع القبيلة لارادته وتأتمر بأمره ، كما نلاحظ ان قبائل الحضر هي التي تقيم على السواحل وتعمل بالتجارة والغوص وصيد الاسماك (25) .

وفيما يلي نتحدث عن هذه القبائل والعشائر القطرية :

آل مسلم : والنسبة اليها «مسلمي» وهي عشيرة صغيرة في قطر بينما كانوا يشكلون القوة الرئيسية والحاكمة لقطر في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وينتسبون الى بنى خالد ، وكان شيخ البحرين قد اسكن عددا منهم في عام 1850 في مدينة الدوحة ، وذلك لموازنة نفوذ عشيرة «السودان» وينتقل آل مسلم فيما بين «فويرط» و«الحويله» وقد بنوا قلعة الدوحة الحالية التي عرفت سابقا باسم قلعة آل مسلم كما اسسوا «الدويحة» وظلوا على علاقات وثيقة مع المعاضيد ، ولكن عدة ظروف ادت الى خفض عددهم ، ويعملون في تجارة اللؤلؤ وقليلون منهم من المجندين في خدمة شيوخ آل خليفة (26) .

المعاضيد : والنسبة اليها «معضادي» ومن الصعب ان نقرر كان المعاضيد او جزء منهم يعاملون كقبيلة مميزة أو أنه ينظر اليهم كشعبة من قبيلة آل بن على في البحرين وقطر ، وهي القبيلة التي تنتمي اليها الاسرة الحاكمة لذلك فانها تعد القبيلة الرئيسية على الرغم من انها ليست اكبر القبائل (27) .

ويقال ان المعاضيد في قطر يتصلون من ناحية الدم «بال بوكواره» الذين هم أنفسهم يدعون بأنهم من سلالة بنى تميم ويتكون المعاضيد من سبع عائلات

(24) محمد عبد الرحيم قافود - المرجع السابق ص 33 .

(25) د. جهينه سلطان سيف العيسى - المجتمع القطري - ص 43 .

(26) ج.ج. لوريسر - المرجع السابق - ج 4 ص 1624 .

(27) د. جهينه سلطان العيسى - المرجع السابق ص 46 .

انقرضت منها واحدة ، ومن العائلات الست الباقية : آل علي ، آل طليح ، آل ثاني الذين ينكرون أية قرابة لهم بآل بن علي ، بينما يعترف العسيري وآل فضل بذلك ، وآل بن مقبل منقسمون ، ولكن يبدو أن الباقين يدعون أنفسهم من آل بن علي (28) ، وكان آل ثاني قد وصلوا الى قطر في اوائل القرن الثامن عشر ، وفي عهد محمد بن ثاني برزت زعامة آل ثاني للقبائل القطرية والتفوا حوله (29) ، وقد سميت بـ آل ثاني نسبة للجد الاكبر ثاني بن محمد بن ثامر ابن علي (30) .

والمقيمون الاصليون من المعاضيد في قطر موجودون في الدوحة ولهم مائة منزل ، وفي «الوكرة» 70 منزلا ، وفي «الوسيل» خمسة منازل ولكن رئيسهم يعيش في هذه القرية ، والعائلات المختلفة من المعاضيد يعيشون مختلطين في اقاماتهم المختلفة ، ويشغل المعاضيد في تجارة اللؤلؤ والملاحة وتربية الجمال والماشية (31) .

آل بوكواره : والنسبة اليها «كواري» وتقيم هذه القبيلة بصفة رسمية في قطر ولهم 250 منزلا في «سميسمه» و 150 منزلا في «الضعاين» ومائة منزل في «الغويرط» وعشرون منزلا في «الدوحة» وينقسم «آل بوكواره» الى أربعة اقسام وهي : - آل عبد الشيخ ، وآل كليب ، وآل بهام ، والمطاوغة ، ويعملون في تجارة اللؤلؤ وصيده وتربية الابل والماشية ومنهم أيضا بحارة ، ويقال ان «آل بوكواره» تربطهم صلة دم وثيقة بالمعاضيد فكلاهما من بني تميم (32) .

آل بن مقل : وهي قبيلة صغيرة وتدعى انها فرع آل بوكواره الذين انكروا عليهم صحة هذا الادعاء ، ويعملون في صيد اللؤلؤ وتربية الماشية (33) .

النعيم : ويسكنون قرب الزبارة ، وينزحون في الطقس الحار الى البحرين ويقيمون معسكراتهم في الجزء الشمالي من الجزيرة الرئيسية وبعضهم يقضي الصيف بجوار الدوحة ، وهم منفصلون تماما عن الجسم الاصل للقبيلة في البريمي والامارات ولا يحافظون على الصلة بهم ويعتقدون ان اجرادهم هاجروا من اليمن الى عمان ومنها اقطر منذ بضعة اجيال ، بناء على دعوة من العتوب الى قطر من أجل طرد آل مسلم ، وقد اصبح بعض النعيم الشماليين صيادي لؤلؤ ولكن الاغلبية رعاة ، ويعتمدون في حياتهم على رعي الحيوانات . وبدو النعيم الشمالية يتكسبون من وراء شيوخ آل خليفه وآل ثاني ، وحماية

(28) ج.ج. لوريير - المرجع السابق ج 4 ص 1394 .

(29) محمد عبد الرحيم قافود - المرجع السابق ص 30 .

(30) د. خالد العربي - الخليج العربي في ماضيه وحاضره ص 162 .

(31) ج.ج. لوريير - المرجع السابق ج 4 ص 1394 .

(32) ج.ج. لوريير - نفس المرجع ج 4 ص 1345 .

(33) ج.ج. لوريير - نفس المرجع ج 4 ص 1474 .

هذه المشيخات يعتمد اساسا عليهم اثناء وغياب قوافل صيادى اللؤلؤ عن مساكنهم ، وقدرتهم أنهم يتمتعون بثقة فوق مستوى الشبهات ، ويشتهر النعيم بأنهم يملكون اكثر من 100 حصان و 200 جمل و 1000 رأس من الماعز ، وأهم أقسامهم آل بوخريبان : الجفافة ، المطاوعة ، القماطين ، الزائدة ، خلوى ، آل فهد ، آل رمضان ، الوادرة آل بوشامس : آل جمعان ، الحثوم ، آل حى ، آل جبر . وهذه الاقسام وحتى الاقسام الاساسية مختلفة ويتبعون شيخين من قسمة آل حى وآل رمضان على التوالي ، وينظر نعيم البحرين لشيخ عجمان على انه جفالى ويحتمل ان قسم جفافة النعيم فى شمالى قطر ، يناظر قسم القراطسة والذين يقيمون فى البريمى (34) .

بنو هاجر أو الهواجر : يعتبرون من البدو الرحل فى شرقى الجزيرة ويلفظ محليا «بنى هاجر» و«الهواجر» و«مفردها» «هاجرى» او «هايرى» ، ومعظمهم يتواجدون فى سنجق الاحساء العثمانى ولكنهم لا يملكون اقليما معينا بعينه ، باستثناء ارض كبيرة من قطر يعيش فيها فخذ المنحصة من الهواجر وهم يصطحبون رفاقا من قبيلة عجمان يتجولون بأراضيهم بحرية ، وكثيرا ما يضرب الهواجر خيامهم جنوبا فى خور العديد ، وحيانا يزورون المناطق الخاضعة لشيخ الكويت ، كما يزور بعضهم قرية «عنك» فى واحة القطيف سنويا ، والقسم المستقر من الهواجر غير مرتبطين مع القبيلة ، وطبائعهم فظة وخشنة ، ولكنهم ذوو فكر بناء ومزاجهم مرح يوفون بالوعود والعهد ، وتتمتع نساؤهم بحرية كبيرة ، مع انهم لا يملكون سفنا خاصة بهم الا انهم يعملون فى البحر ، اما مهنتهم الرئيسية هى رعاية الماشية ويعيشون على انتاج قطعان الماشية وتربية الخيول والجمال ولديهم عدد صغير من مزارع النخيل فى بر «العقير» و «الظهران» وخيامهم ذات ألوان سوداء بها خيوط بيضاء ، ويبلغ عدد المقاتلين لديهم حوالى 1500 منهم 150 ينتمون الى «المنحصة» و 850 الى «آل محمد» اما عدد أفرادهم الاجمالى فيبلغ 5,000 نسمة ، وتستحكم العداوة القوية بين الفخذين الرئيسيين وهما «المنحصة» و «آل محمد» وهى الحالة السائدة بينهما فى هذه الفترة ، ولهذا فانه لا يوجد شيخ واحد للقبيلة بأسرها ، كما يتلقى وجهاء القبيلة معونة مالية من متصرف سنجق الاحساء العثمانى وهدايا من شيخ الكويت ، وشيوخ آل ثانى فى قطر (35) .

السودان : والنسبة اليها «سويدي» وهم منتشرون فى الامارات وقطر والبحرين، ويقال انهم هاجروا من اليمن وينحدرون من سلالة الاسود الكندى، ويسكنون فى الدوحة ويملكون 80 منزلا ، ويمكن تمييز السودان بسهولة عن القبائل الاخرى التى يعيشون معها ، وأهم الاقسام فى قطرهما آل رمضه وآل سالمين ، وكانوا يتمتعون بقوة ونفوذ كبير الا ان قوتهم ضعفت بعد عام 1867

(34) ج.ج. لوريير - نفس المرجع ج 5 ص 1719 .

(35) ج.ج. لوريير - نفس المرجع ج 2 ص 786 .

نتيجة لهجوم شيخ أبو ظبى والبحرين على قطر ، وهم يعملون فى مهنة صيد اللؤلؤ والملاحة (36) .

آل بوعينين : فرع من فخذ «آل صبيح» من قبيلة «بنى خالد» المشهورة ويقيمون فى قطر والبحرين ، وفى قطر يملكون 400 منزل فى مدينة الوكره ويعتمدون فى مصدر رزقهم على صيد اللؤلؤ وتجارته وليس بينهم مزارعون الا ان جزءا منهم يعيش فى خيام خلال فصل الشتاء، ويقال أنهم أسسوا مدينة الدوحة فى أوائل القرن التاسع عشر ولكنهم أخرجوا منها عام 1828 الى «الرويس» و«فويرط» وفى النهاية أقاموا فى «الوكره» (37) .

العمامرة : والنسبة اليها «عمارى» وهى تعمل فى شؤون البحر وصيد اللؤلؤ والملاحة فى كل أجزاء الخليج العربى ، وهى فقيرة نسبيا ويقال انها تنتمى الى فرع «عمار» المتفرع من قبيلة الدواسر ، ولهم عشرون منزلا فى الدوحة ، وعشرون منزلا فى الوكره ويبلغ عددهم الكلى حوالى 900 نسمة ، وتربطهم صلة قرابة بقبيلتى آل بوكواره والمعايد ، كما أنتقل البعض منهم الى البحرين مع العتوب وفى هذه الفترة يقوم عداء مستحكم فيما بينهم وبين «آل بن على» و «آل بجج» المتفرعين من «آل مره» (38) .

كبسة : والنسبة اليها «كبسى» ، وهى قبيلة عربية صغيرة وغير مستقرة ويوجد أفرادها بصفة رئيسية فى قطر وان كان البعض يقيم فى البحرين ، ومقرها الرئيسى فى «خوير حسان» ، وفى الاولى يملكون 80 منزلا وفى الثانية 50 منزلا ، كما يملكون منازل اخرى فى كل من «الهدية» و«سميسمه» ، ويعملون بصناعة اللؤلؤ ويمتلكون الجمال والاغنام والحمير والابقار ، ويرحلون الى الاجزاء الداخلية فى فصل الشتاء ويتركون ماشيتهم مع البدو المحليين أثناء فصل الصيف ويتجهون الى البحر لصيد اللؤلؤ ، وكان معظمهم يقيم فى الدوحة فى وقت من الاوقات ولكنهم اضطروا للرحيل الى «خوير حسان» بسبب تازم علاقاتهم مع العمامرة ، كما شاركوا فى تأسيس الزبارة مع قبيلة النعيم ، ولكنهم عادوا بعد فترة الى خوير حسان التى مازالت مقرهم الرئيسى (39) .

السلطة : النسبة اليها «سليطى» ، وهى قبيلة تقيم بشكل مستقر فى قطر ويقال انها فرع من «بنى مالك» وانها وصلت من العراق العثمانى عن طريق ايران ولذلك يمكن تصنيفهم ضمن الهولة وهم غير رحل ، ويملكون 650 منزلا فى الدوحة ، ويعيشون على صيد اللؤلؤ والملاحة وتربية الماشية والابل ،

(36) ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 7 ص 7405 .

(37) ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 1 ص 66 .

(38) ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 1 ص 88 .

(39) ج.ج. لوريمر - نفس المرجع ج 3 ص 1284 .

والبعض منهم كان قد هاجر مع العتوب الى البحرين عام 1723 ، كما استقر بعضهم في الدمام في واحة القطيف في اوائل القرن التاسع عشر وقد عاد بعضهم الى قطر ثانية عام 1869 نتيجة لسوء التفاهم الذي حدث بين الدوحة ووالى البصرة (40) .

المهائدة : النسبة اليها «مهندي» وهي قبيلة من اشباه الرعاة وتقول بعض المصادر انها قدمت من ايران الى قطر والذين يرون هذا الرأي يتقبلون الحقيقة القائلة بأن القبيلة تنتمي الى «الهولة» وأهم فروعها : - آل حسن ، وآل ابراهيم ، وهم يعيشون في 500 منزل ويعملون بتجارة اللؤلؤ وصيده ويقومون بتربية الماشية والجمال (31) .

وضع قطر قبل دخول العثمانيين :

كانت قطر منذ بداية التاريخ الحديث تخضع لحكم بني خالد أو أحد فروعهم وخاصة آل مسلم ، وهي إحدى القبائل العربية القوية ذات نفوذ ، وكان آل مسلم يدفعون الزكاة لبني خالد الذين كانوا يسيطرون على الاحساء والساحل الشرقي من الجزيرة العربية ابتداء من قطر وحتى حدود البصرة (42) وكان نائب المقيم البريطاني في الخليج العربي قد بعث بتقرير يقول فيه بأنه لم تتقرر مسألة السيادة ابدا بشكل عام في هذا الموقع ولم يحصل ان بت على الاطلاق في أمر السيادة على شبه جزيرة قطر ولا شك أنها كانت متنازعا عليها بين أبو ظبي من ناحية والحكم الوهابي في نجد من ناحية أخرى ، وفي وقت من الاوقات كما يقال مارس شيخ أبو ظبي السيادة على قطر ، ولكن بعد وصول العتوب الى «الزبارة» في الشمال الغربي من قطر أخذوا يمكنون لانفسهم في موطنهم الجديد ومن ثم انفرد آل خليفه في حكم البحرين وخاصة بعد فتحها وطرد الفرس منها (44) ، بينما كانت الزبارة خاضعة لهم وبعد ذلك توسعوا في حكم شبه الجزيرة القطرية حتى شملت معظمها .

وكان فيصل بن تركي الامير الوهابي قد وصل في اوائل عام 1851 الى الدوحة خلال رحلة كان يقوم بها في اقاليم حكمه وقد أبدى سكان الدوحة والوكرة والفويرط عقب زيارته رغبتهم في التخلي عن ولائهم لشيخ البحرين والانضمام الى رعايا الدولة الوهابية ولكن هدنه مواتية عقدت في يوليو عام 1851 جنب آل خليفه المخاطر التي كانوا معرضين لها بفقدان املاكهم في قطر، كما كانوا قد فقدوا فعلا مدينة الدمام على شاطئ الاحساء ، وكان الرائد «بيلي»

(40) ج.ج. - لوريير - نفس المرجع ج 7 ص 2407 .

(41) ج.ج. - لوريير - نفس المرجع ج 4 ص 1408 .

(42) د. مصطفى أبو حاكمه - تاريخ شرقي الجزيرة العربية ص 96 .

(43) مذكرة بقلم أ.و. مورا 1879/9/1 - خطاب سري من الهند رقم 127 بتاريخ 22 مايو

1879 د. فتوح الخترش ، د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 14 .

(44) د. مصطفى أبو حاكمه - المرجع السابق ص 98 .

المقيم البريطاني في الخليج العربي قد أفاد في تقرير عام 1866 وأقرته حكومة الهند لاحقاً عام 1867 بأن ولاء شيخ البحرين للوهابيين كان مقصوداً للمحافظة على أملاكه في قطر أما بالنسبة لبلده البحرين فإنه كان مستقلاً عنهم كل الاستقلال ، والجزية التي يدفعها للوهابيين كل عام وقدرها أربعة آلاف روبية فهو ينظر إليها على أنها ضريبة لحماية رعاياه في قطر من أي هجوم قد تشنه القبائل الأخرى على البر ، وفي الفترة ما بين عامي 1852 و 1866 يبدو أن أمير الوهابيين كان له ممثل في الدوحة ولكن من المحتمل أن وكيله هذا إنما كان شيخاً من شيوخ قطر (45) .

ولكن في أكتوبر من عام 1867 حدث هجوم مدمر على مدينتي الدوحة والوكرة واشترك في هذا الهجوم كل من شيخ أبو ظبي والبحرين معا ، في حين كان دافع الأخير هو رغبته في معاقبة الأهالي بسبب تمردهم ضده ، وإن مدينتي الدوحة والوكرة كانتا في نهاية عام 1867 قد أزيلتا تماماً من الوجود ولو إلى حين ، فهدمت المنازل وهجرها أهلها ، وقدرت الخسائر بمبلغ يزيد عن مائتي ألف روبية ، وبعد اخفاق القبائل المنكوبة في الحصول على ترضية عن طريق الاستغاثة بأمير الوهابيين ، شنت غارة انتقامية على البحرين ولكنها لم تنجح (46) .

وكان في هذه الفترة قد برز الشيخ محمد بن ثاني المؤسس الأول للأسرة الحاكمة في قطر إلى الساحة السياسية متبعاً الأسلوب المرن والمعتدل في إدارة شؤون حكمه مع القبائل ولم يكن مطلق التصرف وكما برز ذلك من خلال حله لخلافاته مع آل خليفه في البحرين عندما عقد مع بريطانيا عام 1868 لفض خلافاته مع آل خليفه (47) ، كما لزم محمد بن ثاني نفسه بموجب تلك الاتفاقية التي وقعها مع الكولونيل «بيللي» مع أنه ليس من الشيوخ الداخليين في معاهدة «السلم البحري» بالأب يبحر لغرض عدواني في أي وقت وإن يرجع إلى المقيم البريطاني بشأن أي خلاف أو سوء تفاهم يقع له مع الآخرين (48) .

ورغم أن هذه الاتفاقية تنطوي على الاعتراف الضمني بالكيانات القبلية ، إذ تعهد محمد بن ثاني بتأدية الجزية نيابة عن القبائل القطرية إلى شيخ البحرين (49) ، إلا أنها تعتبر محاولة من بريطانيا لإدخال قطر ضمن حلقة النفوذ البريطاني في الخليج العربي ، رغم أن سكان قطر لم يمارسوا أي دور عدواني مما قد يشكل خطراً على الملاحة أو على المصالح البريطانية في الخليج العربي ، ولكن نجد فيما بعد أن ابن الشيخ محمد ويدعى جاسم سوف يلجأ إلى

(45) ج.ج. لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخي ج 3 ص 1214 .

(46) ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1215 .

(47) يوسف محمد عبيدان - المؤسسات السياسية في دولة قطر ص 40 .

(48) د. فتوح الخترشي وعبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 101 .

(49) د. صلاح العقاد - التيارات السياسية في الخليج العربي ص 178 .

العثمانيين للتخلص من التزامات والده تجاه البريطانيين وشيوخ البحرين وبالتالي يصبح القائم مقام العثماني في قطر .

وقد وقعت هذه الاتفاقية في جو من الضغط البريطاني وذلك عندما زار الكولونيل «بيللي» من البحرين الى مدينة الوكرة في قطر في أوائل سبتمبر عام 1868 ، تصحبه السفن الحربية البريطانية مثل السفينة «فيجيسلافت» والقارب المسلح «هيوروز» والباخرة «سند» وبعد وصوله الى الوكرة اجتمع بكبار الشيوخ في قطر على ظهر سفينة وأبلغهم استياء الحكومة البريطانية الشديد من حملتهم على البحرين وقال ان الحكومة تفهم حجتهم في أنها لم تكن سوى حملة انتقامية وتعتبر ذلك سببا يهدى من الاضطراب الذي أثارته الحملة وفي النهاية توصل الى عقد اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثاني في 12 سبتمبر تعهد فيها بأن يعود الى الدوحة التي هجرها ، وان يقيم فيها في سلام والا يرتكب أى عمل عدواني في البحر ، بل عليه ان يحيل كل الخلافات والمنازعات التي قد تنشأ بينه وبين جيرانه الى المقيم البريطاني للفصل فيها ، ولا يساعد شيخ البحرين السابق ، بل عليه ان يسلمه للسلطات البريطانية لو وقع يوما في قبضته وأخيرا أن يقيم مع الشيخ الجديد في البحرين نفس العلاقات التي كانت قائمة وبين الشيوخ السابقين لهذه الجزر ، وان يخضع لقرار المقيم البريطاني فيما يتعلق بأى خلاف في وجهات النظر يقوم حول مشاكل مثل الجزية (50) ، وبعدها عقد محمد بن ثاني اتفاقية جديدة لدفع الجزية من قطر الى البحرين عن طريق المقيمة البريطانية .

دخول العثمانيين الى قطر :

كانت الدولة العثمانية قد اتبعت سياسة تقليدية تجاه وسط وشرق الجزيرة العربية ، وهي تجنب أعباء الحكم المباشر والاكتفاء ، بالسيادة الاسمية للدولة العثمانية ، والتدخل في أضيق الحدود اذا دعت الحاجة باستخدام الزعامات القبلية لاثبات وجود سلطة من نوع ما هنا وهناك في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية ، ولذا يمكن اعتبار حملة مدحت باشا تحولا هاما في السياسة العثمانية كما كانت لها اصداء كبيرة في المنطقة من شمال الخليج في الكويت وجنوبا الى الامارات وعمان مما نتج عنه قيام حكم عثماني في الاحساء وقطر (51) .

وقد يرجع هذا التحول الى شخصية السلطان عبد الحميد أولا ، وشخصية مدحت باشا والى العراق ثانيا ، حيث ان الاخير قام بمحاولة اعادة النظر في النظام الاداري في الدولة العثمانية ودعا الى اصلاحات جذرية في انحاء مختلفة من الدولة ، كما كان من الد أعداء السياسة البريطانية في الخليج

(50) ج.ج. لوريير - المرجع السابق ج 3 ص 1230 .

(51) د. صلاح العقاد - مؤثر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 931 .

العربي ، واعتبر الكويت والبحرين وقطر بلادا عثمانية ليست لبريطانيا اى سيادة عليها (52) ، وهذا ما نجده عندما ولى مدحت باشا الامير عبد الله بن فيصل قائمقاما عثمانيا على نجد واشعر الجميع بأنه ينظر اكثر شمولاً واتساعاً الى حدود الدولة العثمانية الى الشرق من الجزيرة العربية معتبرا ان هذه الحدود لا تضم منطقة الاحساء وحدها بل أيضا البحرين وقطر والامارات العربية وعمان فى حين رفضت الحكومة البريطانية هذا الادعاء وبعثت بمذكرة احتجاج وجهتها الى الباب العالي (53) .

وكان مدحت باشا قد اتبع سياسة تهدف الى انشاء اسطول بحرى عثمانى قوى فى الخليج العربى ، كما أنشأ خطا للبواخر المدنية أيضا تربط البصرة بالسويس والاستانة لانه كان يرى وجود القوة البحرية ضروريا لاثبات الوجود العثمانى وان يحكم قبضته على الدول والامارات الخليجية التى لم ترتبط باحلاف مع بريطانيا ، ولذا فان مدحت باشا كان قد اقتنع بوجهة نظر عبد الله ابن فيصل عندما أخبره بأن سعودا متعاوناً مع بريطانيا وسيلقى بها بيد الاجانب ، لذلك فانه يطلب النجدة من الدولة العثمانية حماية للاسلام والمسلمين، وهنا قرر مدحت باشا أن يغزو السعودية وبقية امارات الخليج العربى ، فكتب الى شيخ الكويت يطلب منه المساهمة فى الحملة ، فوافق الشيخ على ذلك وحشد قواته بسرعة وأمر اسطوله بالانضمام الى الحملة ادراكاً منه بأن البريطانيين خطر يهدد مستقبل الاسلام ومناطق الخليج ، وكان مدحت باشا قد وزع منشورات تبين ان اهداف الحملة هو انقاذ نجد وتوابعها من الخاراج على الاسلام وعلى طاعة خليفة المسلمين واعادة الحكم الى قائمقام نجد الامير عبد الله ابن فيصل (54) .

وفى عام 1871 بعث مدحت باشا بحملة الى الاحساء للاستيلاء على هذه المناطق باسم السلطان عبد الحميد الثانى ، وسقطت الاحساء بيده على الرغم من صرخات الامير سعود يطلب النجدة من المقدم بيللى المقيم السياسى البريطانى والذى كان قد قدم مساعداته لسعود وقال فى مراسلاته للحكومة البريطانية بان سعودا خير للسياسة البريطانية من أخيه عبد الله بن فيصل ولكن عندما انهزم سعود من الجيش العثمانى فانه لم يحرك ساكناً وكان جوابه هو أنه يهتم بأمن مياه الخليج العربى فقط وأنه سيقاوم التقدم العثمانى اذا ما تعرض لاحدى الامارات المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا (56) .

(52) د. محمود علي الدواد - الخليج العربى والعلاقات الدولية ص 24 .

(53) جى بى كيلي - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص 142 .

(54) فالخ حنظل - المفصل فى تاريخ الامارات الجزء الثانى ص 632 .

(55) جى بى كيلي - المرجع السابق ص 138 .

(56) فالخ حنظل - المرجع السابق ص 632 .

بعد دخول العثمانيين الى الاحساء ارسل قائدها حملته بقيادة شيخ الكويت ، وقد وصلت هذه الحملة في شهر يوليو عام 1871 بقيادة الشيخ عبد الله الصباح بدعوة من جاسم بن محمد والذي كان قد بعث بها الى نافذ باشا ، وكان مع حاكم الكويت أربع رايات عثمانية مع رسالة من نافذ باشا الى جاسم بن محمد يمتدح فيها الحكم العثماني ، وقبل جاسم هذه الرايات ورفع احداها على بيته وأرسل الثانية لوالده محمد بن ثاني في الوكرة والثالثة لعلی بن عبد الله شيخ الخور والرابعة ارسلها الى العديد ، وقد برر جاسم خضوعه للعثمانيين بأنه يعيش في البر والعثمانيين قوة بريه عظيمة وان بريطانيا اخفقت في تحقيق العدالة لرعاياه في أكثر من حادثة من حوادث السلب والنهب ، وفي شهر يناير 1872 وصلت القوة العثمانية الى الدوحة تحت قيادة شيخ الكويت وتحولت قطر الى قائممقامية تتبع لواء الاحساء التي يحكمها متصرف يرجع في اموره الى والي الولاية بالبصرة وكان يتبع قائممقامية قطر بعض القرى الصغيرة يحكم كلا منها مدير يرجع في اموره الى قائمقام قطر (57) .

ولكن الشيخ محمد بن ثاني والد جاسم كان قد رفض رفع العلم العثماني فوق منزله لانه كان قد وقع اتفاقية عام 1868 مع بريطانيا واستمر يرفع علمه الخاص ، وذلك لم يؤثر لان الشيخ محمد كان طاعنا في السن بينما أخذ شأن ابنه جاسم يرتفع منذ عام 1868 وقد كان يريد تأكيد استقلال قطر عن البلدان المجاورة وبالتالي فان خضوعه لسيادة دولة كبيرة مثل الدولة العثمانية قطع الطريق على شيوخ البحرين وأبو ظبي في المطالبة بأية حقوق لهم في قطر ، كما قد يكون جاسم بدوافع دينية لم يرغب في الدخول تحت الحماية البريطانية وانما أثر التقارب مع الدولة العثمانية، اذ كانت الزعامة الروحية لدولة الخلافة هي العامل الاول في اجتذاب الشيخ جاسم الى التعاون مع العثمانيين والدخول في سيادتهم ، اضافة الى عامل محلي هو تعدى القبائل المتحالفة مع سعود بن فيصل صديق بريطانيا على قطر مما جعل الوجود العثماني نوعا من الحماية من هذه القبائل (58) .

ويمكن القول أن مدحت باشا ارسل قواته الى قطر بناء على طلب من جاسم واعيان البلاد ، لتلك الاسباب التي ذكرناها آنفا ، كما أوضحنا لمدحت باشا أنه في حالة عدم ارسال القوات المسلحة العثمانية فانهم يطلبون السماح لهم بالهجرة في موسم الحج ، ولهذا ارسل مدحت باشا سرية من القوات العسكرية الموجودة في الاحساء بقيادة عمر بك، وهذا يعنى ضمينا بأن السياسة العثمانية لم تستهدف في بداية الامر وجودا عسكريا مستديما في قطر وخاصة ان الشيوخ واعيان البلاد كانوا قد طلبوا بانفسهم السيادة العثمانية (59) وارسال اعلامها للتوزيع على المناطق الادارية في البلاد .

(57) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور نشوء قطر وتطورها ص 54 .

(58) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ص 931 .

(59) د. صلاح العقاد - نفس المرجع ص 932 .

وفي عام 1873 تم سحب القوات النظامية العثمانية التي كانت في الدوحة وتم ابدالها بثلاثين رجلا من القوات العسكرية ، واحتفظت هذه الحماية العثمانية بموقعها في الدوحة حتى عام 1913 (60) ، وفي عام 1915 أجلت القوات البحرية البريطانية قوات الحماية العثمانية من مدينة الدوحة (61) ورغم خضوع قطر للحكم العثماني الا أن الوجود العسكري لم يغير أو يؤثر في قطر ، وظلت العلاقات القبلية كما كانت من قبل وظل شيوخ آل ثاني في الدوحة من أقوى وأهم العناصر في الحياة الاجتماعية والسياسية .

الموقف البريطاني من الوجود العثماني في قطر :

لقد كانت السياسة العثمانية بالنسبة للخليج العربي متأثرة الى حد كبير بالفكرة التي كان السلطان عبد الحميد الثاني يحملها عن الجامعة الاسلامية واعادة الخلافة الى سابق عهدها وهيبتها وجعل استنبول عاصمة العالم الاسلامي (62) .

وجاء الاهتمام البريطاني في الوقوف ضد التوسع العثماني في شرق الجزيرة العربية في الوقت الذي قل الخطر الروسي على الخليج العربي ، وأصبح أمرا ثانويا بالنسبة لمركز بريطانيا في الخليج العربي وذلك لانشغال روسيا في الاوضاع السياسية في المناطق الايرانية المحاذية لها وكذلك في الصراع الدولي في افغانستان (63) .

ولهذا كان للحملة العثمانية أصداء كبيرة على الصعيد المحلي والدولي وخاصة من جانب الحكومة البريطانية ، والتي قابلتها بالمعارضة والرفض نظرا لمصالحها الكبيرة في منطقة الخليج العربي والتي كانت تهدد تلك المصالح وتعكر الامن البريطاني في مياه الخليج العربي نتيجة لوصول منافسين جدد وهم العثمانيون الى الساحل الغربي من الخليج وحتى منطقة العديد فيما بين قطر و ابوظبي واصبحت قطر الحد الفاصل بين النفوذ البريطاني والعثماني ، بعدما كانت بريطانيا هي المسيطرة على الساحلين الشرقي والغربي من الخليج فالوجود العثماني على الساحل الغربي من الخليج يعنى انتقاصا من السيادة البريطانية رغم وجود الاساطيل البريطانية في مياه الخليج .

وعندما طالب شيخ البحرين في عام 1873 بسيادته على قطر ، أوضح له المقيم البريطاني بأن هذه المسألة صعبة ومعقدة وان القضايا الخاصة بالسيادة البحرية ينبغي تجنبها الآن ، وخاصة بعد دخول القوات العثمانية الى هذه

(60) د. خالد العربي - المرجع السابق ص 160 .

(61) د. جمال زكريا قاسم - تاريخ امارات الخليج 1914-1935 ص 269 .

(62) د. محمود علي الداود - المرجع السابق ص 25 .

(63) د. محمود علي الداود - نفس المرجع ص 24 .

المنطقة ، وكانت بريطانيا تفكر في المحافظة على وضعها في الامارات العربية والبحرين ، ولكن بعد التأكيدات من الباب العالي بأنه لا ينوى التدخل في استقلال الشيوخ الخاضعين للحماية البريطانية ابدت ارتياحا كبيرا ، واعتبرتها أكثر قيمة من أى تحديد خاص ولكنها رأت ان عاجلا أو آجلا أنه سيتخذ التدخل العثماني في بلاد العرب طابع الاستمرار والثبات أو ستكف عن العدوان وبالتالي سوف تحين لها الفرصة المناسبة للتصدي للقضايا الخاصة بالحدود او السيادة ، كما تم الاعتراف بان للبحرين حقوقا معينة مثل حق الرعى على ساحل قطر عن طريق اتفاقية نوفمبر 1868 ، ولكن هذا لم يكن يعنى انها تعطيها الحق في الاعتداء على أى ميناء في قطر (64) .

وكان نائب المقيم البريطاني في الخليج العربي قد بعث بتقارير سرية الى حكومته في الهند موضحا فيها بأن العثمانيين أصبحت لهم السيادة الفعلية على ساحل قطر حتى مشارف العديد منذ اغسطس 1873 كما بعث السير . هـ . اليوت بتقرير الى اللورد جرانفيل في 22 اغسطس 1871 ، فيقول فيها بأنه تلقى برقية من نائب الملك في الهند تتساءل عن وجود اساس من الحقيقة عن كون الجنود العثمانيين سيلقى بهم في ساحل قطر وان قلعا ستبنى في «القطيف» و«عجير» وقد سأل في ذلك الافندي العثماني الذي صرح له بأنه بعد مراجعة المراسلات الواردة له لم يجد الحكومة العثمانية في وضع يسمح لها بأن تقضى بالمعلومات حين تسأل عن اجراءاتها فيما تعتبره أقاليمها الخاصة ، وذلك يشير الى سنجق النجد واليمن ، اما فيما يتعلق بقطر ، فمن المؤكد أنه في شهر يوليو رُفِر العلم العثماني فوق «البدع» في ظروف لم توضح من أى مصدر وهي ميناء على الساحل الشرقي لقطر (65) .

ويقول المستر «أتشيسون» في ملاحظة له في هذا الصدد ضمن محضر مؤرخ في 19 يوليو عام 1971 «ان احتلال البدع يبدو مناقضا لروح التأكيدات التي قدمها الباب العالي والباشا أنها بلا شك المحاولة الاولى نحو تأسيس سيادة على القبائل في الشرق ممن أدخلت مدنهم ، كما هو معروف في الجريدة الرسمية التركية على أنها بيوتات وحدائق نجد والأتراك أشد ذكاء من ان يشهدوا اي تأكيد عنيف مفاجئ لسيادتهم ٠٠٠٠ هناك اولا تلميحات الباشا بأن التأكيدات المعطاة «الضمانات» تشير الى القبائل المنشقة التي ليس منها قبيلة واحدة في نجد ثم هناك ادخالات في الاوراق الرسمية لاماكن معينة على أنها توابع لنجد ، ثم رفع العلم التركي كما ذكرنا وهكذا» (66) .

كما جاء في رسالة المقيم البريطاني الى سكرتير الدولة وفيه رسالة للملحق السياسي في الخليج في 22 اغسطس عام 1882 بان والد جاسم كان منذ عام

(64) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور مصدر تاريخ قطر ص 14 .

(65) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور نفس المرجع ص 102 .

(66) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - نفس المرجع ص 102 .

1868 داخلًا في ارتباطاته بعلاقات حسنة مع الحكومة البريطانية واستمر عليها حتى وفاته ، في حين تخلى عن شؤون الحكم في أواخر أيامه إلى ابنه جاسم بعد أن بلغ في السن وأخذته الشيخوخة ، أما جاسم فإنه كان ساخطًا على البريطانيين نتيجة لتصرفاتهم ضده بعد أن قام المقيم بفرض رغبات شيخ البحرين ودفع الجزية مما دفعه إلى طلب الحماية والدخول تحت السيادة العثمانية وخلال السنوات الماضية فإنه اكتسب صفة الرجل السياسي والمتصلب العنيد لكن وجود أبيه على قيد الحياة كان عاملاً مهددًا حال دون نشوء صعوبات خطيرة (67)

ونجد البريطانيين سوف يقبلون بالأمر الواقع بالسيطرة العثمانية على «قطر» و«الاحساء» «ونجد» وعلى هذا الأساس يعملون في خلق مشاكل داخلية ومنها مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر .

مشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود في قطر :

كانت السياسة البريطانية في الفترة من عام 1871 إلى عام 1881 وحتى بداية عام 1913 ، لا ترغب في الاعتراف بالسيادة العثمانية على شرق الجزيرة العربية ومنها قطر والوقوف في وجه التقدم العثماني تجاه هذه المنطقة ، لكن لا تنافس مصالحها ونفوذها وتشكل تهديدًا لها ، ولذلك نرى هذا الصراع وإثبات النفوذ البريطاني واضحًا في الخليج العربي ، وخاصة في قطر وبالذات عندما حاولت أن تفرض هذا النفوذ من وراء تصعيدها لمشكلة الرعايا البريطانيين من التجار الهنود ، والقصد من وراء ذلك لم يكن الوقوف مع التجار الهنود ضد حاكم قطر بقدر ما كان فرض النفوذ البريطاني وطرد العثمانيين منها؛ وهذا ما نجده من خلال مراسلات الجهات الرسمية البريطانية حول هذه المشكلة إضافة إلى عوامل أخرى سوف نتطرق إليها .

وقد استطاعت بريطانيا أن تحصل على مكاسب كبيرة في الخليج العربي منذ أن عقدت اتفاقيات ومعاهدات مع حكام المنطقة وقيدتهم بأحكام فرضتها لخدمة الاقتصاد البريطاني ولرعاياها أو الداخلين في الرعاية البريطانية التي تكفل لهم سبل العمل والتجارة في الخليج ، ولذا وفدت على المنطقة وبتشجيع من بريطانيا أعداد كبيرة من الهنود البريطانيين ومعظم من طائفة «البانيان» وكان انتشارهم في الخليج مظهرًا من مظاهر النفوذ الاقتصادي البريطاني وكانوا معروفين «البانيان» سواء كانوا من الهندوس أو السيخ أو غيرهم وكثيرون منهم وصلوا إلى مراكز كبيرة في مسقط وفارس والخليج ، وباستثناء المسلمين منهم لم تندمج الجاليات الهندية في المجتمعات الوطنية بل كانت تنتظر تنمية ثرواتها ثم تنتهز الفرصة للعودة إلى أوطانها (68) .

(67) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - نفس المرجع ص 103 .

(68) د. عبد العزيز المنصور - التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين 1868-1912 ص 92 .

وكانت الدوحة عاصمة قطر من المراكز التجارية الهامة والمستقرة في الخليج العربي اثناء حكم الشيخ جاسم ، وجذب هذا الانتعاش التجار الهنود من طبقة البانيان الى هذا الميناء الناشئ ولكن قدوم التجار «البانيان» في هذه الفترة اختلف عن قدومهم في الفترات السابقة ، وكانوا يمثلون الشركات الملاحية التجارية والوكالات التجارية الضخمة في بومباي وغيرها من المدن الهندية الكبيرة ، وان قدومهم كان كرعايا بريطانيين يتمتعون بالحماية البريطانية التي اتخذت في كثير من الاوقات ذريعة لامتداد النفوذ البريطاني والتدخل في الشؤون الداخلية لدول المنطقة .

فقد كان افراد جالية «البانيان» من الرعايا البريطانيين يتمتعون بحرية العمل في مدينة الدوحة مركز النشاط الاقتصادي والذي يتمثل في تجارة اللؤلؤ والتجارة البحرية وعملية الاستيراد واعادة التصدير الى وسط شبه الجزيرة العربية في قرى ومدن نجد وهؤلاء التجار «البانيان» بدأوا ينافسون التجار الوطنيين في ارزاقهم وهم في الحقيقة يتمتعون الثروة الوطنية بسبب رؤوس الاموال الكبيرة التي يديرونها في احتكار اللؤلؤ وفي عمليات اقراض التجار واصحاب السفن الخارجة الى الغوص ، فالوثائق المحلية تكشف لنا عن ما مدى ما وصل اليه نفوذ رأس المال الاجنبي في قطر وذلك بقيام التجار «البانيان» بعملية الطواشه في كل صيف بقواربهم الخاصة المجهزة بالبحارة والاغذية والاموال ، وكانوا يمرون على مفاصات اللؤلؤ ويجمعون اللؤلؤ من اصحاب السفن ، مما يعنى منافستهم واخراجهم من قطر او شل حركتهم الاقتصادية ، وذلك هو في الحقيقة السبب المباشر في الصراع بين التجار «البانيان» من الرعايا البريطانيين والتجار المحليين في قطر (69) .

اضافة الى تشكيل هؤلاء التجار «البانيان» تهديدا خطيرا للنظام الاقتصادي القطري وسيطرتهم على معظم الاعمال التجارية في قطر فان اثرهم على الحياة الاجتماعية ايضا كان يشكل خطرا ، لان معظم التجار الهنود ان لم يكن جميعهم من جماعة «الشيخ» و«الهندوس» أي يعبدون البقر والاصنام وفي نظر الاسلام يعتبرون كفارا ، وبذلك كانوا يشكلون خطرا على الحياة الاجتماعية الدينية وتصرفاتهم ومعاملاتهم كانت لا تخاو من الكراهية والتسلط ، وخاصة ان هؤلاء الطبقة من الهنود البانيان كانوا من المقربين من البريطانيين على عكس التجار المسلمين من الهنود والذين كانوا كثيرا ما يتعرضون لمضايقات من قبل السلطة والاستعمار البريطاني في الهند مما كان يحد من نشاطهم التجاري في داخل الهند وخاصة في الخارج كمنطقة الخليج العربي ذات الديانة المسلمة مما قد يؤثر في تعاطفهم الديني تجاه مسلمي الهند ، وبالتالي لا يقل أهمية العامل الديني عن العامل الاقتصادي .

هذا وقد كان الشيخ جاسم فقيها وعالما ورعا ومتبحرا في أصول مذهب الامام ابن حنبل ومتشددا جدا في احكامه ويمنع ادخال عامل الخوف او المهادنة او التسامح في أمور الحياة على حساب المبدأ الديني ، فيروى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله : «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان» ، وقد أخرج اليهود وأجلى النصارى في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكيف بالكفار ولان «البانيان» يعبدون الاصنام فهم وثنيون فكان عداؤهم وحربهم واخراجهم عملا دينيا محضا (70) .

اضافة الى العامل الاقتصادي والديني هناك عامل سياسى وهو أن جاسم كان قد قبل الحكم العثماني منذ عام 1871 وبذلك انهى معاهدة 1868 التى عقدها والده مع بريطانيا وقد نتج عن وصول العثمانيين الى قطر اول احتكاك مباشر بين العثمانيين وبريطانيا رغم ان الشيخ محمد بن ثاني كان على ولائه للبريطانيين لفترة معينة الا ان تولى ابنه جاسم مقاليد السلطة فى قطر وحصوله على منصب القامقاية عام 1876 جعله فى ان يضرب مصالح التجار الهنود بين فترة واخرى لتنفيذ سياسة العداء تجاه بريطانيا فقد كان الهنود هدفا سهلا فى متناول يده طوال فترة المواجهة ، وكان يتهرب فى كثير من الاوقات من العقوبات البريطانية بالاستعانة واللجوء الى العثمانيين او قوته الذاتية ، فى حين كان البانيان يستعينون بالحكومة البريطانية وقد افتخروا فيما بعد بالخطبة التى القاها مندوب عنهم فى الشارقة امام اللورد «كيرزون» نائب الملك فى الهند اثناء جولته بالخليج التى يقدمونها للحكومة البريطانية وبأن وجودهم فى الخليج ارتبط مع بداية ظهور السفن البريطانية فى مياه الخليج، وما أعطى لهم القادة البريطانيون من امتيازات اقتصادية ظلوا يتمتعون بها اينما كانوا باعتبارهم من رعايا التاج البريطانى وبعدها تعهد اللورد «كيرزون» نيابة عن حكومة الهند البريطانية بمزيد من الاستقرار للبانيان ما دامت البوارج البريطانية تستطيع ان تحفظ الطريق آمنا الى أجزاء امبراطوريتها (71) من القوى المحلية والاجنبية فى الخليج العربى .

وكان الشيخ جاسم قد طلب من السلطات العثمانية عام 75 - 1876 ان يمارسوا سيادتهم على هؤلاء الاجانب للحد من تدخل السلطات البريطانية فى الشؤون الداخلية لقطر ولم تكن الحكومة البريطانية تستطيع ان تعترض على تلك التصرفات لان الوالى جاسم لم يكن يرتبط معها بأية علاقة خاصة او منصوص عليها فى معاهدات ، وكل ما فعلته الحكومة البريطانية هو انها قدمت احتجاجا لدى الباب العالى على المعاملة التى لاقاها التجار من رعاياها ، ولكن العثمانيون لم يتدخلوا كثيرا فى شؤون الشيخ جاسم الداخلية فى تلك الفترة فى حين استمرت التعديات من قبل القبائل وسكان قطر على الرعايا البريطانيين

(70) د. عبد العزيز المنصور - نفس المرجع ص 93 .

(71) د. عبد العزيز المنصور - نفس المرجع ص 93 .

بل وامتدت أيضا للبحر ، ففي شهر نوفمبر عام 1878 استولى جاسم بمساعدة القبائل القطرية على منطقة الزبارة مما شكل خطرا على البحرين ، اما بريطانيا فانها بعثت بعدة رسائل الى الباب العالي تطالب باتخاذ الاجراءات اللازمة للحد من اعمال سكان قطر طالما ان الباب العالي يمارس سيادته على تلك المواقع ولكن شيئا لم يحدث (72) .

وكان أول حادثة مضايقة تعرض لها التجار البريطانيون من الهنود «البانيان» عندما فرض الشيخ محمد بن ثاني عام 1875 ضرائب جديدة ، فقد تسلمت الحكومة البريطانية التماسا من رعاياها من الهنود في الدوحة يشكون فيه من ابتزاز الشيخ اموالهم ويعربون عن الرغبة في مغادرة البلدة ، ولكن ثبت العكس وان ما كانوا يشكون منه هؤلاء التجار لم يكن سوى الضرائب المعتادة التي كانت تجبى منهم لحمايتهم (73) . فقد جاء في التقرير الذي قدمه احد العاملين في المعتمدية البريطانية في يونيو عام 1875 بان الشيخ كان قد فرض الضرائب على شعبه أولا ثم على الرعايا البريطانيين من التجار الهنود مقابل تأمين لحمايتهم من البدو وغيرهم ، وقد قال الكولونيل «روس» المقيم البريطاني بأن الشيخ محمد بن ثاني كان جادا في صداقته مع بريطانيا وبالتالي فانه من حقه ان لا يعفى التجار البريطانيين من الهنود من نفس الضرائب والمكوس المحلية والتي كان قد فرضها على شعبه ، وفي شهر سبتمبر من عام 1875 ، جاءت تعليمات الى المقيم البريطاني في الخليج من حكومة الهند بأن يبلغ التجار البريطانيين من الهنود بانهم احرار في ان يغادروا قطر او ان يظلوا فيه واذا ما فضلوا البقاء فيه واستمروا في الاقامة بها فيجب عليهم ان يخضعوا للقوانين والضرائب المحلية (74) .

وفي عام 1876 كان القبطان جو ثري قائد سفينة «مائي فريير» قد لقي بعض المتاعب اثناء زيارته للدوحة من قبل المسؤولين العثمانيين عن الموقع ، فقد تجمعوا وراه اثناء خروجه من الميناء الى سفينته يصيحون به ان الدوحة ميناء عثماني وانه ليس من حقه النزول الى هذا الميناء دون اذن من السلطات المختصة وان عليه ان يغادره قبل غروب الشمس ، وقد حاول جو ثري ان يمكث في الدوحة أربع وعشرين ساعة أخرى رغم التهديدات العثمانية (75) .

وكانت عدة حوادث جرت في عام 1874 منها عندما قام رعايا من قطر من قبائل بنى هاجر في صيف تلك السنة بالاعتداء على قارب لتاجر من البحرين يدعى عبد الكريم بالقرب من خور شقيق وتضرر منه بعض الرعايا من التجار الهنود ، ولكن المقيم البريطاني في الخليج «روس» استطاع ان يحصل على

(72) د. فتوح الخترش ، د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 16 .

(73) ج.ج. لورير - المرجع السابق ج 3 ص 1227 .

(74) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 95 .

(75) ج.ج. لورير - المرجع السابق - ج 3 ص 1227 .

تعويض لتلك الخسارة عن طريق ارسال مساعدة «فريزر» للتاجرين وهما «تشيلا» و «راما» (76) ولكن الشيخ جاسم الذي كان قد أصبح مؤخرا قائما عثمانيا ، قد دعا التاجرين السابقين والذين حصلوا على التعويضات من قبل «فريزر» ودبر نفيهم الى عاصمة اقليم الاحساء البعيدة في «الهفوف» وزعم ان نفيهم الى هناك أمر ضروري ولايد منه مما اعتبرته بريطانيا محاكمة التاجرين عدوانا سافرا كبيرا على اثنين من الرعايا البريطانيين الهنود من «البانيان» ومن ثم طولب وزير الخارجية بحكومة الهند بان يحيط وزارة الخارجية البريطانية في لندن علما بالامر من اجل مطالبة الباب العالي بتفسير الامر والتحرك من اجل تقديم التعويض المناسب للتاجرين (77) .

اما العقيد «روس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج فقد اعتبر تصرف الشيخ جاسم بانه تحد لبريطانيا وعمل ثأرى من جانبه في مقابل الغرامة التي اكره على دفعها من جراء الضريبة التي كان انتزعها من نفس هذين التاجرين (78)

ولكن الحوادث توالى وخاصة فيما بين عامي 1878 - 1879 في حين كان العثمانيون يتجاهلون او غير راغبين في ذلك بل ورفضوا التعاون مع بريطانيا في سبيل ذلك ، كما كانت بريطانيا عاجزة عن مواجهة هذه الاعمال على السواحل القطرية باستثناء البحر وخاصة عندما تكون البحرين هي الهدف ، وراذت حكومة الهند ان يكون هناك تحديد للمدى الذي يمكن معه ان يصل فيه النفوذ العثماني ، وكانت تصر على ان تنفذ الدولة العثمانية التزاماتها باقامة النظام حتى ذلك الحد ، وكانت موافقة في ان تدخل قطر في اطار منطقة النفوذ العثماني على ان الهدف من وراء ذلك كان ان يعقبه هذا التحديد تكوين قوة بحرية لمقاومة النشاط البحري القوي الذي كان يمارسه ابناء قطر ، وكانت وزارة الخارجية ترى انه يمكن دفع العثمانيين الى الامتناع ولكن على بريطانيا نفسها ان تقرر الحدود وان تمارس السلطة البوليسية خارجها والا تتدخل في الداخل الا في الاحوال الخاصة وفي أضيق الحدود اذا دعت الضرورة لذلك (79) .

في حين كان رأى نائب المقيم البريطاني في الخليج بأن الاقتراح الاول غير عملي لان العثمانيين لن يوافقوا عليه وحتى اذا وافقوا فانهم سوف يعجزون عن ممارسة السلطة على الساحل على المستوى المطلوب ، أما اذا أخذ باقتراح وزارة الخارجية فسوف يكون في مقدور سكان قطر أن يتخذوا لانفسهم ممرافئ لممارسة اعمالهم البحرية ضد النفوذ البريطاني على السواحل التابعة للسلطات العثمانية التي ستمنع مطاردتهم ولذلك فقد قدم اقتراح آخر بأن توجه رسالة

(76) د. محمد مرسى - مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ص 730 .

(77) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 95 .

(78) جي . اى . سالدانا - الشؤون القطرية ص 58 .

(79) د. فوج الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 79 .

الى الباب العالى يخطر فيها بأن بريطانيا سوف تعترف بالسيادة العثمانية شمالى منطقة العديد ، ولكن بقدر ما تتم به ممارسة هذه السيادة بالفعل ، وان الاعمال البحرية التى يشنونها تدل على انعدام هذه السيادة ولذلك يصبح من المتعين مطاردتهم والقضاء عليهم بصرف النظر عن الموانئ التى يستخدمونها ، وسوف يتم الاتصال مباشرة بالولاة المحليين ولن يسمح بأى تدخل عثمانى فى شؤون البحرين او القبائل البحرية فى الامارات العربية شرقى العديد ، كما تقدم اللورد «كرانبروك» وزير الهند بتلك الاقتراحات والتى قدمها نائب المقيم فى الخليج العربى ، ولكن وزارة الخارجية رفضتها بعد استشارة مستشاريها القانونيين ، وايضا بعد مراجعة التفاصيل والاتصالات التى جرت مع الباب العالى منذ ذلك التاريخ .

وكانت بريطانيا متضايقة جدا من تصرفات رعايا قطر ضد الاعمال التى كانوا يقومون بها سواء ضد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود ، او ضد جيرانهم فى البحرين والامارات والتى كانتا من ضمن النفوذ البريطانى ، وحاولت فرض نفوذها على قطر ولكنها كانت تخشى من التواجد العثمانى وبذلك لم تكن تستطيع ان تفعل شيئا سوى تقديم الاحتجاج لدى الباب العالى وتقديم الانذار الى شيوخ قطر .

الاعتداء على أحد التجار البانايان :

لقد وقع اعتداء على أحد التجار البانايان من الهنود فى يناير من عام 1879 ، ويدعى «فورسو» عندما ضرب واسيئت معاملته (81) من قبل الحاكم العثمانى محمد أغا ، وذلك لان التاجر الهندى قام بتهريب التمور من الدوحة الى الخارج بدون علم السلطات المحلية علما بأن التمور كانت تستورد من الخارج وخاصة من «البصرة» ، ولا تصدر الى الخارج ، اضافة الى ذلك قد يكون الهدف من وراء ذلك ارغام التجار البريطانيين على مغادرة أراضي قطر بعدما لوحظ تدخلهم فى جميع المجالات والشؤون الاقتصادية القطرية والخاصة بالوطنيين .

وقد تدخلت الحكومة البريطانية نتيجة لتلك الحادثة وطلبت التعويض للمتاجر الهندى ، ونظرا لتأثير هذه الحوادث تأثيرا سيئا على سمعة بريطانيا فى الخليج العربى ، قام العقيد «روس» المعتمد البريطانى بارسال نسخ عن اوراق القضية الى الوكيل السياسى فى بغداد مع استفسار بشأن الموضوع ، وأشار الى انه لم يوقع اى قصاص بالنسبة لحادث سابق من نفس القبيل حين اسيئت معاملة التجار البانايان فى الدوحة عام 1875 ، كما أشار الى حكومة الهند بأن حوادث من هذا النوع سوف تسمى لهيبة الحكومة البريطانية فى الخليج

(80) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 89 .

(81) د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 730 .

(82) د. محمد مرسى - نفس المرجع ص 730 .

العربي وحوله ، ولذا فانه طلب بضرورة تنفيذ اجراء ما لاجلاء البريطانيين من التجار الهنود من الدوحة ، ولكن حكومة الهند كانت ترى غير ذلك بانه من الافضل ابعاد الحاكم العثماني محمد آغا اذا ما ثبت ضده تهمة معاملة الهندي ، وقد وجه خطاب بهذا الفحوى الى المقيم البريطاني في العراق لكي يمارس نوعا من الضغط لاجبار الحاكم العام العثماني بسحب محمد آغا من قطر ، كما اعتبرت سحب جميع الرعايا البريطانيين من قطر لن يؤدي الا الى فقدان النفوذ البريطاني (83) في حين انها تريد أن تعزز هذا النفوذ ، وفي النهاية استطاعت بريطانيا ابعاد المسؤول العثماني في الدوحة محمد آغا على اعتبار انه المسؤول المباشر عن مشاكل الرعايا البريطانيين التي وقعت في مارس عام 1878 (84) .

ازدياد حالة التوتر بين بريطانيا والوالي جاسم :

لقد ازدادت حالة التوتر بين الجانبين الى درجة أصدر المقيم السياسي البريطاني في الخليج في عام 1879 اذارا لشيوخ قطر بالألا يرتبطوا بأية أعمال مع بنى هاجر والذين كانوا يحدثون أضرارا كبيرة ضد المصالح البريطانية على طول الساحل الغربي من الخليج ، وكان الكابتن «وودروف» وكيل المقيمة في البحرين قد سلم اذارا موجه للشيخ جاسم عن الحادثة التي ارتكبها بنو هاجر عندما استولوا على سفينتين «للمهاند» من رعايا البحرين ، كما ثار التساؤل حول ما مدى استطاعة بريطانيا التدخل في شؤون قطر عام 1881 بمناسبة تهديد ناصر بن مبارك بغزو البحرين بمساعدة الشيخ جاسم في الدوحة ، وبسبب مشروعات الشيخ جاسم ايضا ، والذي كان ينوى القيام بعمل بحري ضد بنى ياس في أبو ظبي وكانت حكومة الهند البريطانية ترى ان الاتفاقية التي عقدت عام 1868 مع والد الشيخ جاسم والتي تعهدا بمقتضاها بالألا يثير الاضطراب في البحر انما هي اتفاقية ذات طابع شخصي الى حد كبير ، ولذلك لا يمكن اعتبارها ملزمة للشيخ جاسم ، ولذا تم رفع تلك المسألة الى الحكومة البريطانية (85) .

وفي اوائل عام 1882 وبالرغم ان الشيخ جاسم كان قد اصبح قائمقاما الا ان الحكومة البريطانية طالبت من الجهات الرسمية بتشجيع الشيخ جاسم على اقامة علاقات وثيقة ومباشرة مع المسؤولين في حكومة الهند ، وبأن يرجع اليهم في الوقت الذي يرغب فيه وخاصة في الامور التي تتعلق بالامن في البحار ، أما فيما يتعلق بما يجب ان يحدث اذا ما قام شيخ قطر بعمل عدائي في البحر دون اشارة بذلك للمقيم البريطاني او اهمال لتحذير صادر منه فان الحكومة البريطانية طلبت بتقديم نصائح او تعليمات دقيقة ، وعلى حكومة الهند ان تقر وفق ما تقتضيه الضرورة ، كما ابلغ الباب العالي في يوليو عام 1881 بانه ما

(83) جي . اي - سالدانا - المرجع السابق ص 62 .

(84) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 95 .

(85) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور المرجع السابق ص 91 .

دام العثمانيون يرفضون الموافقة على سياسة مشتركة في البحر ، فان الحكومة البريطانية مضطرة لان تتكفل وحدها بحرية مطلقة ودون اشارة لتعليمات السلطان العثماني بالفصل في كل المنازعات الاقليمية في هذه المياه ، كما اعطت تعليماتها لقادة السفن لمنع اضطراب السلم في البحار وان يتجنبوا بقدر الامكان اثاره مشاكل لاداعي لها مع السلطات العثمانية في المكان الذي قد توجد به هذه السلطات وان يتجنبوا ايضا بقدر الامكان الاقتراب من حدود الاراضي التابعة للدولة العثمانية على ان تسرى هذه التعليمات ايضا على الساحل شمالي العديد والتابع لقطر (86) .

وفي تلك الفترة كان الخطر على النفوذ البريطاني في البحرين قد ازداد من قبل سكان قطر ، كما طالب العثمانيون بالسيادة على البحرين ولكنهم لم يفرضوها عمليا أبدا . وكان العثمانيون ينوون في الاستفادة من الوالي جاسم لحثه على الهجوم على البحرين ، ولكن الحكومة البريطانية حذرت الشيخ جاسم في 7 مايو عام 1881 واخطرته بأنه سيمنع بالقوة وان الدوحة سينتم مهاجمتها بواسطة بريطانيا ، في حين اعترفت الحكومة البريطانية في لندن على هذا التصرف في 26 أغسطس عام 1881 ، وفي شهر يوليو من نفس العام كانت قد جرت مراجعة للاوامر الصادر للاسطول البريطاني وأزيل خطر التدخل ضد الاعمال البحرية التي تجرى في المياه الساحلية العثمانية من قبل رعايا قطر ، كما طلبت حكومة الهند في رسالتها المؤرخة في 30 أكتوبر عام 1881 بأن تصلها التعليمات فيما يتعلق بمستقبل العلاقات مع الولاة العثمانيين في مدينة الدوحة ، وقد تسلم وزير الهند مشروعا بالرد على اللورد «جرانفيل» وزير الخارجية في 4 يناير 1882 ، اشار فيه الى ان السيادة العثمانية لا تعدو ان تكون شكلية في الخليج العربي وانه نزل على طلب المقيم وهذا النزول على رغبة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل التي تؤثر على السلام في البحر والتي ينبغي ان يقابل بالتشجيع ، وانه لا يتعارض من حيث المبدأ بالاعتراف على السيادة الداخلية للعثمانيين ، وقد حاولت بريطانيا تجديدا لاتفاقية التي كانت قد وقعتها مع والد جاسم عام 1868 ، ولكنها لم تنجح ثم رأت حكومة الهند انه من غير المرغوب فيه الدخول في علاقات رسمية مع الوالي العثماني الشيخ جاسم لان هذا من شأنه ان يشير الصدام مع العثمانيين ولذلك صدرت التعليمات للمقيم بأن يحصل على مجرد تعهدات شفوية من الشيخ جاسم ، في حين كان جاسم يواصل تهديده لرعايا البريطانيين في قطر (87) .

طرد الرعايا البريطانيين من التجار الهنود «البانيان» :

وعلى الرغم من دخول الشيخ جاسم في معاهدة مع بريطانيا وان لم تكن مكتوبة اي تعهد شفوي منه بأنه يلتزم بأحكام الاتفاقية القديمة كما تم التزم

(86) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 91 .

(87) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور المرجع السابق ص 91 .

جاسم بالسلام مع جيرانه ، الا ان ذلك لم يمنعه من اتخاذ اجراءات مشددة تجاه الرعايا البريطانيين من «البانان» (89) .

ففى أواخر عام 1881 ، كان الولى العثمانى جاسم قد ضاق ذرعا بنشاط هؤلاء التجار الهنود من «البانان» والذين كانوا يتمتعون بحمايته لهم والتي كلفته كثيرا ، ولكنهم كانوا يرفضون دفع أية التزامات والضرائب المفروضة عليهم ، كما زاحموا بإمكانياتهم المادية الضخمة تجار اللؤلؤ المواطنين فى قطر ، وكثير من هؤلاء التجار الهنود كانوا يقومون بعمل البنوك الربوية ، اذ يقرضون تجار اللؤلؤ المال بالربا لتمويل عمليات الغوص ، ويطالبون بفوائد عالية لتسديد تلك الديون ، وهو نشاط اصبح وقفا عليهم لرفض المسلمين هذا اللون من الكسب الغير شرعى والحرام ، مما اضطر معه الولى الشيخ جاسم ابلاغ رغبته الملحة فى يناير عام 1882 الى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بنقل وترحيل الهنود «البانان» من قطر الى البحرين (90) .

اما بريطانيا فقد دافعت عن طبقة التجار الهنود «البانان» وتصرفاتهم والقت اللوم على الشيخ جاسم والاعمال التى قام بها فى اكتوبر عام 1881 وعام 1880 عندما تقدم الرعايا البريطانيون من الهنود فى الدوحة بشكوى ضد اساءة معاملتهم (91) ، وعلى اثر هذا التصعيد من قبل جاسم ، ارسل الكولونيل «روس» مذكرة الى الحكومة الهند فى 12 نوفمبر من عام 1881 ، حول هذا الموضوع ، والتي جاء فيها ما يلى :

«ونظرا لاهمية الوثائق البريطانية ، فاننى سوف انقل هذه المذكرات والرسائل المتبادلة فيما بين الجهات الرسمية حول الموضوع ، كما هى دون ضياغتها خوفا من أن ذلك قد تفقد معانيها وهى لا تتجاوز سبع مذكرات أو رسائل .»

«تمت معاينة الواقع بصورة كاملة بعد تحقيق جرى فى المكان قام به «كابتن بشام» والمعتمد فى الشاطئ العربى الذين كلفتهما بزيارة «البدع» لم تقع مخالفة من طرف «البانان» التجار الهندوسيين من طائفة اجتماعية معينة تمتنع عن اكل اللحم وليس هنالك مبرر لمعاملة «جاسم» لهم والذريعة بالمصاريف فى حمايتهم غير مخلصه وجاسم بلا شك يرغب فى الخلاص من التجار الهنود جميعا ، الا اننى اشك بانه ايضا الى بعض المدى متأثر بشعور آخر غير مجرد الجشع انه لا يشعر باطمئنان الى حقيقة وضعه الآن بالنسبة للحكومة البريطانية وهو بلا شك يرغب فى التدخل الى استنتاجات معينة عن ملاحظته الاجراءات

(88) يوسف عبد الرحمن الخليفى - المرجع السابق ص 29 .

(89) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 96 .

(90) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 95 .

(91) جي. اى . سالدانا - المرجع السابق ص 116 .

التي قد تطبقها السلطات البريطانية حيال تصرفاته . فاذا رأى اننا امتنعنا عن اجراء مباشر فانه يعتبر نفسه في مجال من الحصانة عن طريق الهيبة البريطانية وعدم التمييز ولربما تمادى اكثر ضد رعايانا وقد لا يعتبر مصالحنا ورغباتنا في كثير من النواحي الاخرى ، انها لمشكلة محيرة فيما اذا كان يجب علينا اعتبار هذا الشيخ ما يزال مستقلا او مجرد حاكم عثماني او في منزلة متوسطة بين هذا وذاك علما بأن الرجل نفسه حساس تماما حيال الموضوع ثم يتابع المذكرة قولها :

«يبدو أنه ضروري ان تلاحظ سلوك جاسم بن محمد الجريء ، ففي حالة متشابهة سابقة حدثت اثناء حياة والد جاسم حيث فضل الاخير تقديم تعويض والتجأ الى مرجعه العثماني لاستعملنا القوة ضده انني أخشى ان يرفض جاسم اعطاء ترضية كافية لاساءة تصرفه الحالي وانه يفضل مواجهة النتيجة، وقد يبدو الالتجاء الى السلطات العثمانية للتعويض وكأنما هو اسهل طريق ، ولكن لهذا مساوئه هو ان تعطي حكما على اساس الخبرات السابقة لا ينتج عنه نتيجة مرضية كما وان الحكومة لا ترغب ، كما هي عليه الامور الآن في تقديم اعتراف حول وضع جاسم بن محمد وقضاة البدع ، ان العودة للحكومة العثمانية دون نجاح سيزعج ويشجع جاسم في نفس الوقت واذا تبني ذلك المسلك فانه من المرغوب فيه انذار الحكومة العثمانية بانها ان قصرت في معاقبة جاسم بن محمد وجعله يعتذر لسلوكه العدائي فان الحكومة البريطانية سيكون عليها أن تأخذ زمام الامر بيدها» (91 مكرر) .

أما الشيخ جاسم فكان موقفه غير ايجابي تجاه السياسة البريطانية بل وقف ضدها وأنه رد في يناير عام 1882 على الانذار الموجه من قبل المقيم السياسي البريطاني في الخليج حول الامتناع عن معاملة التجار الهنود من الرعايا البريطانيين والمقيمين في قطر معاملة سيئة بأنه لا يرغب أساسا في وجود هؤلاء التجار «البانيان» في بلاده وأنه يفضل ان يذهبوا الى البحرين وذلك لتدخلهم في تجارة الأولو مما كان له أثر سئ على الوضع الاقتصادي لرعاياه ولهذا المورد الاقتصادي الوحيد لبلاده . ولكن وزير المستعمرات البريطاني طالب في رسالته المؤرخة في 24 مارس 1882 ، بعد عدة شكاوى من التجار الهنود «البانيان» بضرورة الاتصال مع الشيخ جاسم ، ولهذا ارسل المقيم البريطاني الى قطر أحد موظفيه ومنشئ المقيمة «ميرزا ابو القاسم» والذي يتمتع بخبرة واسعة في الساحل العربي وقد سبق له ان قام بعدة مهام وواجبات توكيلية ، وكان على «الميرزا» ان يمكث في قطر عدة ايام ليسمع ويحقق حول اية شكاوى يقدمها الوالي جاسم ضد «البانيان» ولإزالة الاسباب التي ادت الى سخطه وان يحاول اقناع جاسم بسحب اعتراضه على اقامة الهنود في العاصمة القطرية لاغراض تجارية وان يحصل على وعد بمعاملتهم معاملة حسنة في

المستقبل ، ولذا فقد بعث المقيم البريطاني الى الوالى العثمانى الشيخ جاسم فى 26 مايو عام 1882 برسالة جاء فيها ما يلى (92) :

«ارسل الآن ميرزا ابو القاسم الى مدينتكم للتحقيق فى الاتهامات الموجهة ضد الهنود وسماع جميع الاطراف ، وعليك ان تعرف اننى دائما على استعداد لسماع الشكاوى وان احقق فيها فاذا اعترف الرعايا البريطانيون اية جرائم تستحق العقاب فانهم سيعاقبون ، فاذا كانوا يسلكون سلوكا صحيحا فانه سيكون منافيا للعلاقات الودية المتواجدة حتى الآن بين الحكومة البريطانية والادكم وبينكم انتم ، فيما اذا اخرجتم هؤلاء الرعايا البريطانيين او اذيتهم او سببتم لهم الازياء ، اننى آمل من شعوركم الودى الذى عبرتم عنه مرارا انكم ستمنحون «البانين» معاملة عادلة ولطيفة فاذا اتخذتم لسوء الحظ منهاجا آخر فان ذلك سيتنافى مع العلاقات الودية ، وانكم بكل تأكيد ستكونون مسؤولين مباشرة وشخصيا عن جميع الخسائر التى تلحق بالرعايا البريطانيين ، اننى واثق انكم ستعيرون هذه الرسالة عنايتكم الفائقة اذ انه محرر بموجب اوامر من الحكومة» .

ولكن جهود ميرزا لم تنجح فى اقناع الشيخ جاسم بل كانت عديمة الجدوى وفشلت المفاوضات برغم ابداء الشيخ جاسم شعورا وديا تجاه المقيم السياسى والحكومة البريطانية ، لانه كان مصرا على نقل التجار «البانين» من العاصمة القطرية لعدة اسباب منها (93) .

أولا : انهم كانوا يتدخلون بعمليات التجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ التى يمارسها معظم سكان قطر ويرتزقون من وراءها ، ومنافسة التجار الهنود «البانين» فى عمليات البيع والشراء وفرض اسعار معينة من قبلهم والتعامل بالربا والفوائد ، مما كانت لها آثار سيئة على الوضع الاقتصادى القطرى .

ثانيا : وكان وجود هذه الطبقة من البانين والذين يتمتعون بطقوس دينية معينة تعتبر فى نظر الاسلام كفرا وخارجه عن الاسلام وعن المجتمع القطرى ، مما يجعل وجودهم فى قطر خطر على حياتهم مما دفع الشيخ جاسم ايجاد حرس خاص لحمايتهم مما سبب له خسائر كبيرة ، فى حين كان هؤلاء «البانين» يرفضون دفع أية تكاليف او نفقات من أجل حمايتهم أو دفع الضرائب المقررة

ثالثا : كانوا يسيئون فى تصرفاتهم وسلوكهم بصفة عامة تجاه المجتمع القطرى وتجاه الشيخ جاسم بصفة خاصة ، ولكن ميرزا رفض الاتهامات الموجهة ضدهم ووصفها بأنها مجرد كذف وتشهير ، وهى اعذار لتجنب ضرورة القول بان «البانين» لم يكن وجودهم فى قطر مرغوبا فيه لمجرد انهم كانوا تجارا ، فى حين قال الشيخ جاسم بانه كان قد اصدر قرار فى الايام الاولى من يوليو

(92) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 87-88 .

(93) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 88 .

بتكليف ابنه خليفة للبت في جميع الدعاوى والشكاوى التي تحال اليه وان تطاع أوامرهم ، وعندما قام خليفة بفرض ضرائب مالية على البانيان فانهم رفضوا دفعها مما اضطر معه بان يقفل متاجرهم وحواليتهم بالقوة بموجب أوامر من والده (94) ومما شجع الشيخ جاسم في المضي قدما في معاملته تجاه الرعايا البريطانيين من التجار الهنود هو الحصانة التي رافقت اجراءات مماثلة في عام 1881 .

ولقد ازداد هذا الموقف سوءا عندما وصل الى الدوحة وكيل الشيخ جاسم والمقيم في مدينة بومباي الهندية ، ومعه أخبار ثورة عرابي في مصر ضد الامتيازات الاجنبية والنفوذ البريطاني والفرنسي ، وقد ذكر له وكيله بان اخراج الشيخ جاسم للرعايا الاجانب من قطر هو حق من حقوقه (95) ، حين قال : «قبل المصريون اربعة سفراء لحكومات اجنبية منهم سفيرا فرنسا وبريطانيا وقد تجمع الآن 80,000 رجل يودون محاربة الحكومات الاجنبية وكانت الاسباب انهم لا يريدون رعايا تلك الحكومات ان يكونوا في بلدهم وانت يا جاسم اذا لم تر من الضروري ان يبقى «البانيان» في بلدك فلا اكراه عليك» (96) .

ومن هذا يتضح لنا مدى التطور الفكري والثقافي في الحياة الاجتماعية في قطر والخليج العربي في ذلك الوقت ، نظرا للدور الذي لعبته مدينة بومباي في تاريخ المنطقة الحديث ، لانها كانت تمثل صورة للواقع الغربي الحديث ، بكل تطوراتها ومدنيته وإبعاده الجديدة ، مما كان له أثر كبير على تجار الخليج العربي ومنهم تجار قطر ، حيث كانوا يجتمعون هناك كل عام لاغراض تجارية وخاصة تجارة اللؤلؤ ثم يتبادلون احاديثهم حول قضايا المنطقة وقضايا العرب بصفة عامة ، ثم الدور المهم الذي كان لفتح قناة السويس ومرور السفن التجارية بمصر وساحل الشام واشتراك تجار اللؤلؤ في المجالات والصحف العربية سببا في التعرف مرة أخرى ولو بصورة بطيئة على ما يجري في انحاء الوطن العربي ، وذلك ما نجد من قضية احداث التجار الهنود «البانيان» في قطر وكيف كان دور وكيل الشيخ جاسم في بومباي في نقل أخبار الثورة العراقية في مصر ومحاولة طرد الاجانب وسحب الامتيازات (97) .

وعندما وصلت السفينة البريطانية «وودلارك» في 20 يوليو الى الدوحة كان التجار الهنود «البانيان» محاصرين في بيوتهم من قبل الحرس الخاص من أفراد قبائل بني هاجر من القيام بأية اتصال مع سكان المدينة ، وبعد عدة اتصالات ومحادثات اجراها المبعوث ميرزا أبو القاسم المبعوث من قبل المقيم البريطاني مع الشيخ جاسم وبعد الالاحاح الشديد وافق جاسم على فك الحصار

(94) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 89 .

(95) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 730 .

(96) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 79 .

(97) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 731 .

عن الرعايا البريطانيين والسماح لهم بمغادرة قطر ، كما سمح لهم بنقل بضائعهم على ظهر السفن الوطنية فى الوقت الذى كانت السفينة البريطانية راسية بعيدا عن الميناء ، وفى 22 يوليو غادر ميرزا ابو القاسم على ظهر نفس السفينة البريطانية بعد فشل تلك المحادثات علما بأن معاملة جاسم كانت جافة وهدده باستعمال العنف مع الرعايا البريطانيين ، وقد كتب ميرزا الى المقيم السياسى فى البحرين متهما جاسم بأن تصرفاته غير لائقة ، وانتقد قول جاسم بأن رحيل الرعايا البريطانيين بأنه عمل اختياري تم من طرفهم ، بأنها زائفة وخادعة والحقيقة ان جاسم تصور ان اتصاله مع العثمانيين آمنة من العقاب من الحكومة البريطانية (98) .

الضغوط البريطانية على الشيخ جاسم :

وعلى اثر هذا التصعيد حول مشكلة التجار من الرعايا البريطانيين من «البانيان» بين الوالى جاسم والحكومة البريطانية قامت الحكومة العثمانية بارسال وفد من القضاة للتحقيق والنظر فى هذا الامر نيابة عن الحكومة العثمانية ، ولكى يقوم بدور الفصل فى المشاكل والمنازعات والقيام بواجبات القضاة ، وفى هذه الفترة كان المقيم البريطانى الكولونيل «روس» يقضى اجازته فى لندن وعندما وصلته تلك الاخبار ، قطع اجازته وعاد الى بوشهر لىباشر عمله تجاه هذه المشكلة. وفى 22 اغسطس قدم تقريرا الى حكومة الهند حول ابعاد مشكلة الرعايا البريطانيين من «البانيان» والحلول الممكنة لهذه المشكلة من وجهة النظر البريطانية ، وقد المح فى تقريره عن تاريخ العلاقات البريطانية مع قطر وعن شؤون «البانيان» وحتى فترة الزيارة التى قام بها ميرزا الى الدوحة ، وقد جاء فى تقريره ما يلى (99) :

«كنت كبير الامل بأن ترتيبات مؤقتة على الاقل سوف تنفذ لكن الموقف الذى اتخذه الشيخ جاسم قد اثار استغرابى فلقد كنت على علم بان اعتراضه ضد «البانيان» ناشئ عن مصالح شخصية فهو تاجر بالؤلؤ ويرغب بنوع من الاحتكار المحلى وكانت عمليات «البانيان» تتدخل فيه ، ولذا كان من المتوقع بأنه سوف لا يرضخ فورا ولكن اخراج الهندوس المفاجئ والعنيف فى وجه الانذار المنقول اليه كان لا يقل كثيرا عن تحد للحكومة التى هم رعاياها ، ويظهر بأنه كان الى حد ما متأثرا ومشجعا من قبل مستشارى السوء الذين ابلغوه ان الاوربيين قد اخرجوا من مصر وان اتصاله مع الحكومة العثمانية سيجنبه من النتائج غير السارة ، ومع هذا فأننى أفهم انه اثير ضد السلطة البريطانية بسبب رفض السماح له باحتلال «العديد» وغير ذلك من أمور» (99) ونجد أن المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى يحاول ان يجد المبررات التى من خلالها يمكنه توجيه التهم الى الوالى الشيخ جاسم ، وبغض

(98) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور المرجع السابق ص 89 .

(99) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 91 .

النظر عن تصرفات الرعايا البريطانيين من «البانيان» وذلك باعتباره يحتكر تجارة اللؤلؤ محليا وكذلك انه لا يرغب في بقاء الاجانب في بلاده اسوة بمحاولة طرد الاوربيين من مصر ، وانه يعتمد في تصرفاته على مساندة الحكومة العثمانية وانه تابع للباب العالي .

كما طالب المقيم البريطاني من الشيخ جاسم بتعويض قدره خمسون الف روبية وذلك نتيجة للخسارة التي لحقت بالتجار الهنود من جراء التدخل المفاجيء في تجارتهم واخراجهم من قطر ، واعتبر اخذ هذا المبلغ ضروريا باعتباره يمثل الادعاء البريطاني ضد جاسم ثم يقول : «في معاملتي مع الشيخ جاسم مارست كل صبر واستخدمت كل محاولة نحو المصالحة ولكن الاستمرار على هذه المحاولات سيكون بلا نفع ومجحفا ، فهو مصمم بكل قوة على ابقاء التجار الهنود خارج البدع ولم تفدياة مناقشة او اقتناع في ثنيه عن ذلك ، وقد ابلغ بوضوح ان مثل هذا السلوك سيعتبر غير ودي وانه سيعتبر مسؤولا مباشرة عن التعدي على حقوق البريطانيين ويمكنني ان اشير هنا الى ان حق التجار في الإقامة في البدع ليس حقا يمكن التخلي عنه ، انه شيء له أهميته الكبرى فيما يتعلق بالخليج ، لقد اعتبر جاسم شيخا عربيا مستقلا ضمن منطقة النفوذ البريطاني ولست بحاجة ان ابين بالنقاش كم سيضار نفوذنا العادل اذ سمح كجاسم ان يفعل ما يريد فمن الجائز ان يتخذ غيره من الشيوخ نفس «التكتيك» مما سيضر رعايانا التجار في الموالي الاخرى ومرة اخرى اذا كانت البدع معتمدة كاقليم تركي فان لتجارنا الحق بموجب المعاهدة بالاقامة هناك» (100) .

وهذا يدلنا على مدى التخوف البريطاني من تصرفات جاسم وخاصة اذا ما اقدم عليها الشيوخ الآخرون في معاملتهم تجاه الرعايا البريطانيين من الهنود، اضافة الى ان هذه التصرفات تشكل تحديا للسلطة والنفوذ البريطاني في الخليج العربي ، ولذا وجد المقيم السياسي البريطاني في الخليج وكذلك حكومة الهند في سياسة الشيخ جاسم تحديا لنفوذهم في المنطقة كما خشوا ان تمتد سياسة اخراج التجار الهنود من قطر الى بقية الامارات الاخرى (101) ، ولذا فان المقيم البريطاني طالب باستخدام القوة ضد الوالي جاسم دون الرجوع الى السلطة العثمانية ومحاصرة الميناء بالاسطول البريطاني وحدد شهر اكتوبر لتنفيذ طلباته وهي التعويض عن الخسائر والسماح بعودة التجار الهنود الى قطر وتقديم الاعتذار عن تلك التصرفات .

رفض الوالي جاسم للضغوط البريطانية :

وقد رفض الوالي جاسم الضغوط والتهديدات البريطانية ولم يستجب لمطالب المقيم الكولونيل «روس» في حين بدأت الجهات البريطانية مثل وزارة الخارجية

(100) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 91 .

(101) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 730 .

وحكومة الهند ووزارة المستعمرات تتدارس الوضع حول مشكلة الرعايا البريطانيين في قطر ، وخاصة بعدما رفض جاسم تلك التهديدات والانذار المعطى له ، ولم يبق سوى التصديق على مقترحات المقيم السياسى بالعمل العسكرى ، وجاء فى التعليمات الصادرة بأنه كان عليهم استعمال القوة فيجب بذل كل ما فى وسعهم لتحاسى التصادم الفعلى مع القوات العثمانية المتواجدة فى قطر ثم حولت للموافقة من قبل وزير الخارجية ، ونظرا للظروف التى كانت تمر العلاقات البريطانية مع الدولة العثمانية حول شؤون مصر جعلت الوقت غير مناسب لاتخاذ اية اجراءات ضد قطر يعتبرها السلطان تعديا على امتيازاته وان موافقة الخارجية جاءت متتردة بسبب الضرورة ، وفى 10 اكتوبر طلب من نائب الملك فى الهند بأن لا يتخذ اى اجراء حتى يتلقى معلومات اضافية وطلب منه ان يوضح الى أى مدى يمكن تأجيل عمليات الاسطول البريطانى ، ونظرا لظروف الدولة وخاصة العلاقات البريطانية - العثمانية كان الشيخ جاسم اخذ يخفف من موقفه وكتب رسالة حول ذلك الى المقيم البريطانى ولكن موقفه الاخير لم يكن ايجابى ، فقد قال حول ذلك :

«أننى اعتبر كتب الشيخ جاسم غير مخلصه وغير صحيحة فى نقاط جوهرية ، انه من الواضح أنه لو كان مدفوعا فقط بالرغبة لتفادى عواقب اى ضرر وقع على التجار الهنود من طرف العرب فانه قد يعمل بشكل مغاير جدا . كما وان تأكيدات فى بعض الوجوه كانت تناقض بعضها البعض ، وتناقض الحقيقة بما يبرهن بوضوح عدم الاخلاص ، ونلاحظ انه بينما كان يتحجج بأنه كان يخشى ان يصاب «البانان» بسوء فانه يتهمم ايضا بطريقة جافة اتهامات يدل التحقيق الدقيق بأنها لا تستند الى اساس ، وليس فى الكتب الاخيرة من جاسم اية علاقة تدل على الاستعداد لتقديم ترضية جوهرية مقابل سلوكه وانا متأكد ان ذلك لا يمكن الحصول عليه منه الا والقوة مهياة ، ولذلك فأننى رغبت فى أن يقوم الوكيل المحلى فى البحرين بأخبار جاسم بأننى تلقيت كتبه العديدة وان وجهات نظر حكومة الهند بما يتعلق بالامور المشار اليها سوف تبلغ اليه فى حينه» (102) . وفى نفس الوقت كان المقيم قدم بياناً معدلاً الى حكومته بشأن ادعاءات التجار «البانان» والتي خفضها من 40,759 روبية الى 27,113 روبية ويشمل هذا على 10,000 روبية تعويض عن فقدان كسب كان متوقعا و5,400 روبية عن الفائدة على رأس المال خلال فترة توقف الاعمال التجارية لمدة أربعة اشهر ونصف و6,645 روبية على مبالغ الديون المعلنة من اشخاص متخلفين .

تغير السياسة البريطانية من التهديد الى التفاهم بالطرق السلمية :

وبرغم تحذير المقيم الواضح من الرعايا البريطانيين من الهنود ، الا ان الحكومة البريطانية لم تشأ ان تتورط فى قطر او ان تقف ضد الشيخ جاسم

وانما طالبت المقيم بان يحل هذه المشكلة بالتفاهم وبالطرق السلمية مع الوالى جاسم ، وقد جاء فى المذكرة التى بعث بها نائب الملك فى الهند الى المقيم البريطانى فى الخليج قوله :

«أمرت ان اضيف بان فخامته راغب فى عدم توريط الحكومة البريطانية فى دعم كامل لكافة الادعاءات التى يقدمها «البانيان» انه قبيح جدا ان يكون باستطاعة طبقة من الناس تقديم طلبات غير معتدلة وكسب امتياز بصفتهم رعايا بريطانيين ، وهم بالطبع يستحقون الحماية وتعويضا معقولا عندما يمارس ضدهم ضغط او سوء معاملة ، ولكن حتى فى المناطق البريطانية لا تقوم المحاكم العدلية بالزام ادعاءات مثل هؤلاء الناس بصورة كاملة او لشيء متوقع ، وعندما يختارون من أجل الكسب الواسع ان يتجشموا المخاطر التى تلازم بحكم الضرورة الاعمال التجارية فى بلاد غير متمدنة فليس من المرغوب فيه ان يمنح لهم دعم الحكومة البريطانية بلا تحفظ او بدون دراسة ادعاءاتهم دراسة مستفيضة فى خلافهم مع الحكام الاجانب ، ان الحاكم العام فى مجلسه لا يشك فى انكم تدركون عدل هذا الرأى وانكم سوف تتمكنون من تجنب اى مظهر من مظاهر التمييز فى معاملة جاسم بن ثانى او فى التدخل بحقوقه ، وعلى ان اشير فى الحتام الى ان الوضع الحالى قد يتيح لكم فرصة توطيد تفاهم مع الشيخ» (103) .

ومما سبق يتبين ان الحكومة البريطانية وحكومة الهند لم توافق على اقتراح روس باستخدام القوة وبضرورة دفع الشيخ جاسم تعويض مالى كغرامة مغالى فيها قيمتها 40 الف روبية وخفضها الى 8 آلاف روبية فقط (104) ، وعلى ضوء هذه التعليمات بحسن المعاملة مع الوالى العثمانى فى قطر ، ارسل المقيم روس كتابا الى الشيخ جاسم جاء فيه بأنه :

«فى وضع هذه المطالب بوسعى أن أؤكد لكم ان الحكومة البريطانية انما هى مدفوعة بنيتها فى تأييد حقوق رعاياها العادلة وهى فى نفس الوقت راغبة بأن العلاقات الودية السائدة بين اسلافكم والحكومة سوف تستمر ولكن على ايضا ان أؤكد لكم بان مقررات الحكومة التى هى معتدلة وعادلة انما هى حازمة وان اى تجنب او رفض لهذه المطالب سيؤدى الى عواقب مؤسفة . ولقد كانت غايتى الدائمة ومحاولتى ان اقرب صلات الصداقة بيننا بفضل ما أحمله من احترام لوالدكم وكذلك للصداقة الشخصية الموطدة بيننا عندما زرت معسكركم فى الزبارة ، تلك الصداقة التى كنت راغبة فى تحسينها الا انكم تتذكرون انه منذ عدة شهور مضت كنت أخبرتكم أن سوء معاملة وطردهم الرعايا البريطانيين الهنود من بلدكم يعتبر عملا منافيا للعلاقات الودية وذلك بأن التجار البريطانيين

(103) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 95 .

(104) د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731 .

فى بلاد الحكومات الصديقة كافة فى جميع انحاء العالم يسمح لهم بالذهاب والايباء والمتاجرة وينالون الحماية اللازمة ولقد أرسلت وكيلاً ليوضح كل هذا شخصياً لكم وقد استغرقت جداً أن أعلم بأنكم لم تلتفتوا لاندأرى وعام تم وكيل بدون لباقة واذا كان «البانيان» يتدخلون بمعاملاتكم التجارية فيجب أن لا تتوقعوا من الحكومة البريطانية أن تعتبر هذا تعذر لطردهم أو رفض ادخالهم، اذ ان الحكومة تعتبركم شيخاً للبدع وحاكماً لها وليس تاجراً، وسوف لا تعترض على أية نفقات معقولة لحماية «البانيان» ولكن يجب أن تكون مقرونة بموافقتى وليست عرضة لزيادة بدون موافقتى» (105).

وكان الوكيل البريطانى المحلى أغا محمد عبد الرحيم، قد حمل هذه الرسالة من المقيم البريطانى فى الخليج العربى الى الشيخ جاسم وهو معروف لديه ويحمل تعليمات لتوضيح تفصيلات المطالب المالية التى خفضت لمبلغ 8440 ولا تتضمن سوى الادعاءات عن الخسائر المالية المباشرة والفعلية فقط، والتى تكبدها التجار «البانيان» من الهنود، وبعد عدة محادثات بين الطرفين أسفرت عن موافقة الشيخ جاسم بتقديم اعتذار كما ابدى رغبته فى عودة التجار الهنود وان كان ذلك بشروط غير مرغوب فيها، ولكنه رفض دفع تعويض ما لم يعد التجار الهنود ويثبتوا ادعاءهم، اما بخصوص تهديدات المقيم البريطانى فان هناك رأين للشيخ جاسم، فالاول يقول بانه قال: «اذا استعمل الضغط والقوة ضدنى ساضطر اركب مع عشرة آلاف رجل وان اذهب الى البحرين واقتل جميع «البانيان»، واقتلك وأقتل اى واحد اريده فى البحرين، وعلق الوكيل قائلاً: لقد حلمت بانك اصبحت عرابى باشا الثانى، فاجاب الشيخ جاسم «اننى عرابيين اثنيين» (106) وفض الاجتماع.

اما رأى الثانى فيقول انه اثناء المناقشة قال الشيخ جاسم للوكيل البريطانى أغا محمد انه اذا كان هناك ضغط واستخدام قوة من جانب البريطانيين فسوف يجمع رجاله ويقاتل، قال اغا محمد عبد الرحيم «هل تحلم انك عرابى باشا الثانى» قال جاسم «نعم أنا عرابى الثانى»، وترك المجلس وذهب (107)، وقد يكون الحديثان صحيحان وخاصة الثانى، نظرا لانهما أخذاً من المصادر والوثائق البريطانية ونقلنا عن المراسلات الرسمية التى جرت بين الجهات الرسمية البريطانية.

وعلى أية حال يمكن القول ان الشيخ جاسم رفض عودة «البانيان» الى الدوحة وتسوية حقوقهم حسب الاصول بعد تلك المناقشة والذى فشل أغا محمد فى مهمته، ومن ثم توجه الى المقيم البريطانى فى الخليج وابلقه ما جرى فى تلك

(105) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 97.

(106) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 98.

(107) د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731.

المحادثات ثم ارسل الكولونيل «روس» المقيم البريطاني كتابا الى جاسم مصوغا بلغة استرضائية ولكنه يصر على دفع التعويض المطلوب فورا وعلى ضمان معاملة ودية ولطيفة لتجار الهنود في المستقبل .

المفاوضات البريطانية مع الوالي العثماني الشيخ جاسم :

وعندما يثس المقيم البريطاني في الخليج العربي ، قرر ان يذهب بنفسه لانهاء هذه المشكلة مع الشيخ جاسم وعرض عليه أن يقدم اعتذارا للحكومة البريطانية وان يدفع التعويض للتجار الهنود البريطانيين يسمح لهم بالعودة للاستقرار في الدوحة (108) .

وعندما وصل الى الدوحة في أول نوفمبر 1882 ، مع قطع الاسطول البريطاني ، فاذا به يفاجأ بطلب من الوالي جاسم لمقابلته على الشاطئ ويقول المقيم البريطاني الكولونيل «روس» ان من عادة الشيخ جاسم أنه اذا لم يعجبه الحديث فانه يمتطي ناقته ويذهب ، ومع ذلك فانه قرر النزول الى الشاطئ لمقابلة الشيخ علما بأن جميع الشيوخ والامراء في الخليج العربي كانوا يأتون الى المقيم البريطاني ويقابلونه على ظهر السفن البريطانية الا الشيخ جاسم فانه كان يرفض الذهاب الى السفن البريطانية ويفضل ان يجتمع معهم على أرضه وفي منزله ويقول حول هذا «لقد كان من عادة شيوخ المدن ان يزوروا المقيم وهو على ظهر السفينة ولكنني كنت متأكدا ان طبيعة الشيخ جاسم المشحونة بالشك سوف لا تسمح بمجيئه الى ظهر السفينة» (109) .

ومن المعروف ان الشيخ جاسم قد اشتهر بشخصية فذة وروح صلبة في الاصرار على تحقيق اهدافه والحفاظ على استقلاله امام الصراعات الدولية والمحلية اضافة الى تلقى علومه على ايدي رجال الدين وتفقه حتى وصل الى مرتبة القضاء والحكم بين الناس بالعدل (110) ، ولهذا يمكننا ان نعتبر تحليل المقيم البريطاني خاطئا بأن الشيخ يشك في نوايا البريطانيين وعلى العكس من ذلك انه كان معترا بنفسه ويرفض الخضوع للبريطانيين ولا يخاف من تهديداتهم ، وهذا ما نجد في سلوكه وفي تصرفاته تجاه البريطانيين ، وقد يكون لوجود الحاميات العسكرية العثمانية في قطر ، دون كبير في تصرفاته وثقته بهم اذا ما ارادت بريطانيا انزال قواتها لاحتلال البدع ، كما انه لم يكن تابعا لبريطانيا او من ضمن الشيوخ الموقعين على معاهدات الحماية والاتفاقيات العسكرية ، بل كان تابعا للدولة العثمانية ، اضافة الى ذلك من يمكنه الاطمئنان لبريطانيا او اى استعمار في نواياهم الخفية .

(108) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 96 .

(109) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 98 .

(110) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 91 .

وبعد نزول الكولونيل «روس» المقيم البريطاني ويرافقه كل من الكابتن «نيشام» ومستتر أ. ر حكم خان بهادر» ، الى الشاطئ لمقابلة الشيخ جاسم جرت محادثات بين الجانبين البريطانيين والقطري ، ويصف لنا المقيم البريطاني عما دار في المحادثات وطبيعتها بقوله :

«فتوجهنا الى منزل جاسم فاستقبلنا بآداب وود ظاهرين وبعد بعض المحادثة حول مواضيع عامة فضضنا الاجتماع الى غرفة علوية ودخلنا في موضوع الشكاوى ضد الشيخ . وسألني ان كان لدى الصبر لسماع كل ما يريد قوله فاخبرته ان هذا هو رغبتى وقصدي ، فقال انه بعد سماع شرحه سيفقد ما أقرره انا ، ولم يكن فى بيانه ما من شأنه ان يلقي الضوء على سلوكه أكثر من هذا، وكرر تأكيدات بانّه لم يطرّد «البانيان» طردا عاجلا ولم يكن باية وسيلة مسؤولا عن خسائرهم ، وبعد سماع ما كان لديه ليقول ، اخبرته اننى لا أرى سببا لتغيير رأيي بالنسبة الى لومه واملت بانّه سوف يسوى الامر بطريقة ودية ويدفع التعويض المعتدل المطلوب وبعد ان وجدت بانّه غنيّد جدا حول هذه النقطة قلت اننى آسف جدا ولكن حيث انه لا يوجد شيء آخر نقوله فاننا نستأذن بالذهاب ثم طلب منى الشيخ جاسم الانتظار حتى تتم لصلاة ويسمع الى ما سيقوله وزيره محمد بن عبد الوهاب وكان هذا الشخص مستشارا سيثا لجاسم وهو المسؤول جزئيا عن عدم الرضا الذى حل فيما بعد ، وكان قد اقترح شروطا منخفضة جدا ، ذهبت انا مع الكابتن نيشام الى ظهر السفينة تاركين المساعد المحل والمنشئ مع جاسم ، وفى المساء ذلك اليوم قدم محمد عبد الوهاب وبعد بعض المناقشة عرض دفع 2,000 روبية كعربون فى صباح اليوم التالى وطلب ضمانة كافية باننى ساقبل بهذه الترتيبات، وقد افهمته بوضوح انه ما لم يحضر الدراهم الى ظهر السفينة فى الوقت المحدد فاننى سأعود الى المطالبة بدفع كامل المبلغ نقدا» (III) .

وبعد ذلك حصل المقيم البريطاني على مبلغ 8 آلاف روبية (II2) من الشيخ جاسم حسب الموعد الذى حدده وزيره محمد بن عبد الوهاب الفيحاني وكان قد عمل مستشارا لمحمد بن ثانى فى شؤون اللؤلؤ وكاتباً لديوانه واقام فى بلد «الغارية» وهى كانت من بين اقوى قرى قطر فى ذلك الوقت (II3) .

الاحتجاج العثماني على التصرفات البريطانية فى قطر :

وبمجرد ان عرفت الدولة العثمانية عن تحصيل المبالغ المسالية من الوال جاسم قائمقام قطر من جانب الاسطول البريطانى فى البدع تقدمت باحتجاج رسمى الى السفير البريطانى فى استنبول ورفعت مذكرة اخرى الى الحكومة

(111) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 91 .

(112) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 730 .

(113) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 94 .

البريطانية نفسها جاء فيها ان المقيم البريطاني في اقليم فارس الايراني قد زار قطر ومعه بارجتان واكره الوالي العثماني هناك على دفع ثمانية آلاف روبية تحت طائلة التهديد بقصف بلده بمدافع البحر اذا هو رفض الدفع (II4) ، وكانت التعليمات الصادرة للسفير البريطاني في استانبول بأن يحاول في البداية ان يتهرب ويراوغ من مناقشة هذا الموضوع ، واذا تعذر ذلك فعليه ان يذكر بوضوح ان الحكومة البريطانية لا تعترف للباب العالي بأى سيادة على قطر (II5)

كما كتب اللورد «جرانفيل» مذكرة في 7 مايو 1883 الى «موسوروس باشا» جاء فيها بان الحكومة البريطانية لم تعترف بالحقوق العثمانية في قطر . مما ادى ذلك الى تقديم الاحتجاج من قبل السفير العثماني في لندن ورد عليه اللورد «جرانفيل» في 22 سبتمبر 1883 بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الموافقة على آراء الباب العالي في هذا الموضوع وهى غير مستعدة ان تتنازل عن الحقوق التى مارسها خلال فترات تخللت سنوات طويلة من الاتصال المباشر مع الشيوخ العرب على الساحل القطرى كلما دعت الضرورة لصيانة السلام البحرى او لتحصيل تعويضات عن الحوادث التى تقع ضد الرعايا البريطانيين أو على الاشخاص المشمولين بالحماية البريطانية (II6) ، وهذا يدل على اصرار بريطانيا على ممارسة فرض نفوذها بالقوة فى مياه وسواحل الخليج العربى وعدم الاعتراف بالحقوق العربية او حقوق الدولة العثمانية فى قطر أو الاحساء .

وكان الشيخ جاسم قد احتج وشكا من التصرفات البريطانية ونقل ما حدث الى السلطات العثمانية ، وخاصة متصرف الاحساء ، ووالى البصرة والطريقة التى عومل بها على يد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وهدد بالاستقالة من منصبه كقائمقام قطر اذا لم يرجع المبلغ الذى دفعه كتعويض للتجار الهنود ، كما كتب الوالى جاسم مذكرة حول هذا الموضوع الى شيخ البحرين والذى قام بتحويل خطابه الى المقيم البريطانى والذى طلب من شيخ البحرين بان يخبر الشيخ جاسم بانه ما دام قد كف عن التدخل فى شؤون الرعايا البريطانيين فالسلطات ترغب رغبة كاملة فى ان تكون على وفاق معه فى حين كانت حكومة الهند ترى بان السلطات العثمانية فى الاحساء وبغداد لا توافقه على اجراءات الشيخ جاسم فى طرد «البانان» (II7) ولذلك فاجاءت بالاحتجاج العثماني وموقف الباب العالي من التصرفات البريطانية ضد الوالى فى قطر .

كما ان الشيخ جاسم ظل يضر على التمسك بالقول والفعل بأن قطر تابعة للحكومة العثمانية وان على الحكومة البريطانية بالتالى ان تتعامل فى شؤون قطر

(114) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 95 .

(115) د. محمد مرسي - المرجع السابق ص 731 .

(116) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 97 .

(117) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 98 .

مع حكاه الدولة العثمانية وليس معه ، فهو لا يعدو ان يكون مجرد تاجر يرى ان يظل على أحسن احوال الصداقة مع البريطانيين فى شؤونه الخاصة فقط (II8)، ويقول المقيم البريطانى عن جاسم بانه لم يتوقف ابدا عن استجلاب كراهية البريطانيين وبغض رعاياهم فى قطر وربما كان فى الواقع العامل الحقيقى وراء الكثير من اعمال التعديات على التجار «البانان» من الهنود البريطانيين فى قطر (II9) ، ولم تتطور هذه المسألة الى حد كبير نظرا لوجود المشاكل والقضايا الدولية وخاصة العلاقة بين بريطانيا والباب العالى فى تلك الفترة .

عودة الرعايا البريطانيين من التجار «البانان» وظهور بعض المشاكل :

وبعد اتفاقية 1882 رجع خمسة من التجار الهنود «البانان» من رعايا البريطانيين الذين كانوا قد طردوا من قبل الى الدوحة ولكن عودتهم واقامتهم ظلت غير مرغوب فيها بسبب تصرفاتهم غير اللائقة ، وفى عام 1886 كان الشيخ جاسم قد انتقل من الدوحة الى «العديد» وبعدها مباشرة هاجم رجال من قبائل بنى هاجر بعض التجار من الهنود «البانان» وجرحوا منهم اثنين جراحا غير خطيرة مما ارسل المقيم البريطانى مساعدة خان بهادر عبد الرحمن حكيم، لبحث الحادثة ، ورفع تقرير جاء فيها بان الهدف من وراء ذلك هو ارغام التجار الهنود على مغادرة الدوحة والخلاص من تصرفاتهم ، وكما ذكر المقيم البريطانى بان الشيخ جاسم أنكر بشدة اشتراكه فى هذه الحادثة وابدى اعتذاره لوقوعها (I20) .

وفى العام التالى اى عام 1887 سارت بعض الاضطرابات فى الدوحة وفى البداية قام اقارب الشيخ جاسم بحماية التجار «البانان» من الهنود ولكن فى اول اغسطس هاجم بعض الرجال تاجرين هنديين واصابوهما ببعض الجراح، مما ادى ذلك الى غضب المقيم البريطانى وطلب بترحيل التجار البانان من الرعايا البريطانيين من الدوحة على ظهر السفينة «اوزبرى» التى نقلتهم الى البحرين ، واعتبر المقيم الشيخ جاسم هو المسؤول عن هذه الحادثة وطلب من حكومته ممارسة ضغطها على الشيخ جاسم لحمله على دفع التعويض عن الجراح والحسائر التى اصيب بها التجار الهنود وان يضاف الى ذلك غرامه تفرض على الشيخ جاسم (I2I) .

ولكى يرغم جاسم على دفع التعويضات اللازمة ، طلب المقيم البريطانى من شيخ البحرين مصادرة اموال جاسم واستثماراته فى البحرين وفرض الحضر عليها وخاصة على البهارات والآلئ الخاصة بالشيخ جاسم والبالغة قيمتها

(118) د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731 .

(119) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 96 .

(120) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 98 .

(121) د. محمد جابر الانصارى - تراث قطر ص 9 .

الاجمالية عشرين الف روبية ثم ارسل إلى المقيم البريطاني مذكرة إلى حكومة الهند في 23 اغسطس ، اكد فيها بالقاء المسؤولية على عاتق الشيخ جاسم وفي صدد علاقة شيخ البحرين بأموال جاسم فانه اشار بقوله : «واذا أقرت الحكومة (الهندية) اقتراحى بالزام الشيخ جاسم بالتعويض فان امواله الموضوعة تحت اليد قد تلغى الحاجة إلى اللجوء للقوات البحرية ، اما لو رفضتم توصيتى فيمكن أن نرد أموال جاسم تلك إلى وكيله» (122) .

ونتيجة لحجز بريطانيا أموال الشيخ جاسم في البحرين فإن الأخير اضطر لدفع مبلغ 6,390 روبية تعويضا عن الخسارة للتجار «البانان» وكان قائد القوات العثمانية في الاحساء قد وصل إلى الدوحة لدى سماعه تلك الاخبار ومعه فرقة من لحرس لمساعدة الوالى جاسم ثم عقد عدة مفاوضات وجلسات معه حول تلك الاحداث ، في حين كان قد تقدم الشيخ جاسم بشكوى إلى الباب العالي ضد التصرفات البريطانية تجاهه ، كما تقدم إلى وإلى البصرة ، وبغداد شاكيا لهما انه قد جرد من أمواله جميعا في البحرين ، وهنا قام متصرف الاحساء بتقديم خطاب إلى شيخ البحرين يطلب فيها إعادة جميع الاموال إلى الشيخ جاسم والتي تم مصادرتها كما تم توجيه احتجاج للسفير البريطاني في استانبول حول تصرفات المقيم السياسى في الخليج العربى تجاه جاسم (123) .

ويمكن القول بأن الوالى جاسم استطاع ان يحافظ على قطر من التدخل البريطانى حيث اتخذت من مشكلة التجار الهنود ذريعه لكى تتدخل في الشؤون القطرية ، والوقوف في وجه اطماعها بكل قوة رغم ان الدولة العثمانية كانت تمر في هذه الفترة بظروف صعبة ، ولم تكن في استطاعتها مواجهة بريطانيا في مياه الخليج العربى ، حيث كانت قطر تشكل حاجزا بين مناطق نفوذ بريطانيا في مياه الخليج العربى وجزره بما فيها البحرين والامارات

-
- (122) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 94 .
 (123) د. محمد مرسى - المرجع السابق ص 731 .
 (124) د. فتوح الخترش - د. عبد العزيز المنصور - نشوء قطر وتطورها ص 55 .
 (125) جي. اى. سالدانا - المرجع السابق ص 121 .
 (126) ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1232 .
 (127) جي. اى. سالدانا - المرجع السابق ص 120 .
 (128) د. عبد العزيز المنصور - المرجع السابق ص 96 .
 (129) جي. اى. سالدانا - المرجع السابق ص 121 .
 (130) جي. اى. سالدانا - المرجع السابق ص 122 .
 (131) ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1234 .
 (132) جي. اى. سالدانا - المرجع السابق ص 130 .
 (133) جي. اى. سالدانا - نفس المرجع ص 130 .
 (134) ج.ج. لوريمر - المرجع السابق ج 3 ص 1234 .

العربية وعمان وامتداد النفوذ العثماني من العراق الى الكويت ونجد والاحساء في قطر في شرق الجزيرة العربية .

ولذا كان موقف الشيخ جاسم دقيقا وحساسا في قطر ولكنه استطاع ان يوفر الامن والاستقرار للمجتمع القطري وامكنه ان يوفر لهم مزايا عملهم المجهد في صيد اللؤلؤ ، والحفاظ عليها من التجار الهنود والاطماع البريطانية من وراءهم ، ولم تستطع بريطانيا ان تجد لها موطأ قدم في قطر اثناء فترة حكم الوالي الشيخ جاسم ، كما لا ننسى الدعم العثماني ولو لم يكن حسب ما هو المطلوب نظرا لظروف الدولة العثمانية التي كانت تمر في تلك الفترة ، ولكن مجرد وجود الحاميات العسكرية العثمانية في قطر اضافة الى الدعم المعنوي من السلطان عبد الحميد للشيخ جاسم كان له ابعد الاثر في تضافر كل تلك العوامل معا في جعل الحياة الاجتماعية في قطر في تلك الفترة اكثر مستقرة وهادئة .

د . محمد حسن العيدروس

جامعة الامارات العربية المتحدة
كلية الآداب - قسم التاريخ

المراجع والمصادر :

- (1) أحمد علي المنصور - سليمان محمد الستاوى - أحمد علي الطوحي - المجتمع القطري - وزارة المعارف - الدوحة 1968 .
- (2) جي. بي. كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية - منشورات دار الحياة - بيروت 1971 .
- (3) ج.ج. لوريمر - دليل الخليج - القسم الجغرافي والتاريخي - طبعة جديدة معدلة - الدوحة .
- (4) جي. أى. سالدانا - الشؤون القطرية - لجنة كتابة تاريخ قطر - الدوحة 1976 .
- (5) جمال زكريا قاسم - (دكتور) - الخليج العربي - دراسة لتاريخ الامارات العربية 1914-1945 الطبعة الأولى - القاهرة 1973 .
- (6) جبهة سلطان سيف العيسى (دكتور) المجتمع القطري - القاهرة 1982 .
- (7) خالد العزبي (دكتور) - الخليج العربي في ماضيه وحاضره - بغداد 1972 .
- (8) لجنة تدوين تاريخ قطر - البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة - 1976 .
- (9) محمد أحمد عبد الرزاق غنيم - التخصر في المجتمع القطري - الاسكندرية 1983 .
- (10) محمد جابر الانصارى - (دكتور) - تراث قطر وثقافتها المعاصرة - وزارة الاعلام القطرية - الدوحة 1980 .
- (11) محمد عبد الرحيم قافود - الادب الحديث - القاهرة 1979 .
- (12) محمد علي الدؤاد (دكتور) الخليج العربي والعلاقات الدولية . معهد البحوث والدراسات - القاهرة .
- (13) فتوح الخترش (دكتور) عبد العزيز المنصور (دكتور) مصادر تاريخ قطر - الطبعة الثانية - ذات السلاسل - الكويت 1984 .
- (14) فتوح الخترش (دكتور) - د. عبد العزيز المنصور (دكتور) - نشوء قطر تطورها - ذات السلاسل - الكويت 1977 .
- (15) فالخ حنظل - المفصل في تاريخ الامارات - جزئين - لجنة التراث والتاريخ أبوظبي 1983 .
- (16) عبد العزيز المنصور (دكتور) - التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين 1868-1916 - ذات السلاسل - الكويت 1980 .
- (17) وزارة المعارف - نهضة قطر - الدوحة 1962 .
- (18) يوسف محمد عيّدان - المؤسسات السياسية في دولة قطر - وزارة الاعلام - الدوحة 1979 .
- (19) يوسف عبد الرحمن الخليفي - التحفة البهية في الاداب والاعادات القطرية - الدوحة 1980 .

المصادر الاجنبية :

Qatar Government Publication — Qatar — London 1968.

(1)

الدلالات الاجتماعية لأحكام المحاكم الشرعية في مصر في العهد العثماني : دراسة في المنهج

على فهمي (*)

I - أتى حين من الدهر كانت الشريعة الغراء - نظريا - هي القانون الاساسي المطبق في مصر ، وذلك منذ الفتح العربي الاسلامي لمصر وحتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، بيد أنه من الوارد اثاره تساؤل رئيسي عن مضمون التطبيق الحقيقي والفعل لآحكام الشريعة الاسلامية خلال تلك الفترة الطويلة ، فنحن نفرق - عن عمد - بين المقولات من جهة والواقع التطبيقي من جهة أخرى ، وبخاصة في ظل حضارتنا وثقافتنا التي يبدو من خلالها البون شاسعا بين الشعارات والتطبيق . فالقانون ليس نصا جامدا فحسب ، بل هو نص يحكم واقعا اجتماعيا محددا ، ومن ثم فان من المهم ومن الوارد دراسة الواقع والتطبيق في العمل ، أو ما نسميه بالقانون الحي .

2 - ومن عجب أن التأريخات وملاحظات الكتاب والرحالة ، توقفنا على أمور مجتمعية كانت تحدث بل وتسود فيها منافاة ظاهرة وصريحة لنصوص ولاحكام الشريعة ، وذلك على مدى ربوع العالم الاسلامي ، مما يؤكد وجود الفجوة بين صريح النص القانوني أو الشرعي من جهة ، والقانون الحي من جهة أخرى ، مما يغري بالقول بأن انفصالا ما كان قائما في معظم فترات الحكم الاسلامي بين المؤسسات القانونية للسلطة في المجتمع الاسلامي وبين الشعوب التي تحكمها باسم الشرع . فالخمارات تسود العواصم الاسلامية كالقاهرة وبغداد وتفرض على أربابها الضرائب ، وبيوت الدعارة المرخص بها كذلك ، فاذا حدث غزو خارجي أو طرأ وباء ، صدر الامر باغلاق دور المنكرات هذه خوفا من غضب الله ، وسرعان ما تعود الامور الى مجرياتها بزوال خطر الغزو أو الوباء (I) .

3 - يضاف الى ذلك افتراض أن الجيوب السكانية المنعزلة في البوادي وفي الاقاليم البعيدة ، كان لها قواعدها القانونية العرفية وقضاؤها العرفي الذي

(*) مستشار قانوني واجتماعي ، أحد مؤسسي المركز القومي للبحوث الاجتماعية بالقاهرة (1956) ، مستشار المركز القومي للبحوث الاجتماعية ببغداد (سابقا) ، مستشار تحرير مجلة فكر (القاهرة - باريس) ، عضو مجلس أمناء الجمعية العربية لعلم الاجتماع (تونس) ، الباحث الرئيسي لبرنامج بحوث التاريخ الاجتماعي المصري (القاهرة) .

(1) انظر الأمثلة العديدة : ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، دار الشعب ، القاهرة ، 1960 .

لم يكن مستمدا - كله - من أحكام الشريعة الغراء ، وهو وضع ما تزال آثاره ظاهرة حتى الآن ، على الرغم من سيطرة الحكم المركزي وثورة الاتصال والمواصلات (2) .

4 - ومع ذلك تبقى أحكام التطبيق الرسمي للقواعد القانونية الرسمية ، مصدرا لاغنى عنه للدراسة التاريخية للمجتمعات المعنية ، مع كافة الاحترازاات التي أثرناها آنفا . وفي المجتمع المصري بخاصة - كمجتمع قديم ومستمر في آن واحد - فإن الظواهر الاجتماعية التاريخية من المفيد الاستعانة بأكثر من مصدر عند التصدى لها بالدراسة العلمية ، وبخاصة في ظل حقيقة مؤسفة تتعلق بضياغ وغيبة الوثائق في بعض الأحيان ، وعدم تبويبها ويسر تناولها أمام الباحثين (3) . ولعل من حسن الحظ أن وثائق المحكمة الشرعية بالقاهرة ظلت محفوظة بحالة مناسبة حتى الآن ، مع صعوبات كثيرة في الوصول إليها والتعامل معها ، وإن كانت هذه الوثائق في وضع أفضل - بكثير - من غيرها من الوثائق التاريخية الهامة من حيث الحفظ ويسر الاطلاع عليها (4) .

5 - ومنذ الغزو العثماني لمصر (1517)، بدأت الدولة العثمانية محاولاتها - بالتدريج - نحو عثمانة القضاء المصري الذي كان يغلب المذهب الشافعي ، بعكس القضاء العثماني الذي كان يغلب المذهب الحنفي ، وسارت محاولات القضاء المصري في مراحل متدرجة خشية التغييرات الحادة المفاجئة ، اذ اكتفى - في البداية - باقرار قضاة المذاهب الاربعة في وظائفهم مع تعيين قاض عثماني في المدرسة الصالحية بالقاهرة سمي بقاضي العرب الذي كانت له اليد الطولى في الواقع ، ثم عمده الحكم العثماني الى تعيين رقيب على القضاة هو «المحضر» تسانده قوة عسكرية من الانكشارية وأصبح (يقف بين يديه المدعى والمدعى عليه ، ليسمع منهما بواسطة ترجمان لانه كان لا يعرف اللسان العربي) ، وأصبح هذا المحضر - بالفعل - يمثل سلطة قضائية عليا (5) .

6 - وظل الاتجاه نحو عثمانة القضاء المصري بفرض ضرائب جديدة على دور الشهود ، ومجالس القضاء ، وتوريد هذه الرسوم الى بيت مال المسلمين، وكذلك تدخل القادة العسكريين مثل اسكندر بك في الاحكام القضائية بل ونفى وعزل القضاة ، والتقليل من نواب القضاة ، وتقييد الوكلاء ، واحداث

(2) علي فهمي ؛ القانون والقضاء العرفي في مصر ، مجلد العدالة ، سلسلة مسوح المجتمع المصري ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، 1985 .

(3) انظر : مشروع خطة برنامج بحوث التاريخ الاجتماعي المصري ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، يناير 1985 .

(4) معظم هذه الوثائق القضائية محفوظة في مصلحة الشهر العقاري والتوثيق التابعة لوزارة العدل بالقاهرة .

(5) لنظر في التفاصيل : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ؛ القضاء في مصر العثمانية (1517-1798) مستخرج من كتاب « بحوث في التاريخ الحديث » ، جامعة عين شمس ، 1976 ، ص 172 .

منصب «قسام التركات» وهو قاض عثمانى كان مسؤولا عن جميع التركات الاهلية ، وأخيرا تمت عثمنة القضاء المصرى باحداث وظيفة «قاضى العسكر» العثمانى ، الذى كانت له الولاية القضائية الاولى ، وبذلك أصبح القضاء المصرى تابعا - على نحو مباشر لقضاء الاستانة (6) .

7 - وعلى الرغم من أن الحكم العثمانى لم يتم بتحويل القضاء الى نظام المقاطعات شأن كافة المؤسسات المصرية منذ أواخر القرن السادس عشر ، إلا أن مفهوم الانابة القضائية الذى تعرفه الممارسات الاسلامية لعب دورا هاما فى هذا الاتجاه ، فصاحب الولاية القضائية الاصيل هو الخليفة يفوضها لمن يشاء مطلقة أو مقيدة ، وعادة كان السلطان يفوضها لشيخ الاسلام فى الاستانة الذى يفوضها - بدوره - الى قاض عثمانى هو «قاضى عسكر مصر» الذى كان يفوضها للنواب فى النواحي والاحياء ، وبالتالي فان عوامل الفساد العامة فى الجهاز الادارى منذ أواخر القرن السادس عشر قد انتقلت الى القضاء (7) .

8 - ومما يزيد الصورة تعقدا ، تشابك الولايات القضائية وشبه القضائية ، والتى عرفت الممارسات القضائية الاسلامية ، والتى توزعت بين القاضى والوالى والمحاسب وغير ذلك من الموظفين (8)

9 - ويمكن القول - بصفة عامة - ان القضاء فى مصر العثمانية كان له ولاية الفصل فى المنازعات حين تثور منازعة بين فردين حول حق خاص ، أما عدا ذلك مثل جرائم التسعير والتموين والشغب فكانت تخرج عن ولاية القضاء ، وتدخل فى ولاية غيرهم على نحو غير محدد فى الغالب ، اذ كان لوالى الشرطة ولاية واسعة فى التعازير ، كما كان لوالى الحسبة ولاية واسعة فى جرائم الاسواق ، وعلى الرغم من أن ولاية الحسبة - بحسب الاصل - هى من قبيل الوظائف القضائية اعمالا لمبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (8) ، فانها تحولت فى العهد العثمانى الى محض وظيفة ادارية يتولاها الجند ، بل انتهى بها الامر الى أن تصبح من نظام مقاطعات الالتزام (مقاطعة احتساب النفس بمصر المحروسة) ، وكانت ذات اختصاص جنائى واضح (9) .

10 - وواضح من هذا الاستعراض الوجيز ، بأن ولاية القضاء فى مصر العثمانية لم تكن محددة - على نحو دقيق - وكانت متداخلة مع غيرها من

(6) المرجع السابق ؛ ص 173 و ص 176 .

(7) محمد نور فرحات ؛ القضاء المصرى قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، مجلة الحق ، اتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، السنة 15 ، العدد الأول والثاني ، 1984 ، ص 84 ، ص 85 .

(8) علي فهمي ؛ الحسبة فى الإسلام - دراسة مقارنة بالأنظمة المشابهة فى القانون الوضعي ؛ دراسة مقدمة إلى المؤتمر الثانى للقانون والعلوم السياسية ومهرجان الإمام ابن تيمية ، دمشق ، أبريل / نيسان 1961 .

(9) محمد نور فرحات ؛ مرجع سابق الإشارة إليه ، ص 85 ، ص 86 . وأيضا : عبد الرحمن الجبرتي ؛ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، بيروت ، المجلد الأول ، ص 162 وما بعدها .

الولايات ذات الصفة القضائية التي كان يمارسها غير القضاة ، ولعل هذا أن يشكل بعض المحدودية لقيمة أحكام القضاة في مصر إبان العهد العثماني للاستدلال بها في فهم الظواهر الاجتماعية .

II - ومع ذلك تبقى أحكام المحكمة الشرعية في مصر العثمانية ، مصدراً لاغنى عنه، في دراسة وفهم التاريخ الاجتماعي المصري خلال تلك الفترة ، بيد أنه لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر وحيد لكل ما سبقناه آنفاً ، فضلاً عن أن القضاء الشرعي - في ذلك - لم يكن يعرف ما يسمى حالياً بالحيثيات أو بتسبيب الأحكام ، مما يعاون على فهم الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وراء الحكم القضائي ، بالإضافة إلى أن الكثير من منطوق الأحكام الشرعية في المواد الجنائية بخاصة ، كان يكتفى بإثبات الأذنب ، دون تحديد للعقوبة ، والتي كان يلجأ في ذلك إلى غيره من الموظفين مثل وإلى الشرطة ، على ما سيجيء تفصيلاً (10) .

I2 - وواضح من استقراء التنظيم القضائي في مصر العثمانية ، أن محكمة الباب العالي التي كان يرأسها «قاضى العسكر» في العاصمة تجيء على رأس هذا التنظيم ، تليها محاكم مصر المحروسة ، ثم محاكم الاقاليم ، وأخيراً بعض المحاكم ذات الاختصاص النوعي مثل محكمة القسمة العسكرية ومحكمة القسمة العربية ، وكانت محكمة القسمة العسكرية تختص بقسمة تركات الجند وكل ما يترتب على الوفاة من آثار قانونية مثل تعيين الأوصياء على القصر ومحاسنتهم، أما محكمة القسمة العربية فكانت ولايتها تنحصر نوعياً في قسمة تركات المصريين بدائرة مصر المحروسة أى القاهرة وبولاى ومصر القديمة فقط ، أما خارج هذه الدائرة المكانية فكانت اختصاصاتها تناط بمحاكم الاقاليم بحضور مندوب محكمة القسمة العربية من القاهرة أو أمين بيت المال في الاقليم ذى العلاقة (II) .

I3 - ولا مشاحة في أنه لا يمكن تناول العهد العثماني في مصر بالدراسة كفترة واحدة متجانسة ، إذ لا يمكن اغفال التطورات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية وحتى الخارجية ذات الانعكاسات على الداخل ، خلال هذه الفترة الطويلة نسبياً ، واثراً ذلك على المؤسسة القضائية ، إذ أن هذه المؤسسة - كغيرها من المؤسسات - لا تحكم في فراغ ، بل هى تقوم على حكم علاقات اجتماعية اقتصادية معينة تتطور - بالضرورة - بفعل عوامل كثيرة متشابكة .

(10) محمد نور فرحات ؛ نظام التجرم والعقاب في ظل الاختصاص الجنائي للمحاكم الشرعية في مصر منذ مطلع العصر الحديث ، دراسة مقدمة إلى المؤتمر الخامس عشر لاتحاد المحامين العرب ، سوسة/تونس ، نوفمبر/تشرين ثاني 1984 .

(11) انظر في التفاصيل : محمد نور فرحات ؛ القضاء المصري قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، سابق الإشارة إليه ، ص 93 ، ص 114 .

I4 - ولعل هذا قد حدث في المجتمع المصري - بشكل واضح - منذ القرن الثامن عشر تحديداً ، اذ توقفت المصادر التاريخية على بدايات التراكم الرأسمالي التجارى ، ومدى الارتباط الوثيق بين طبقة التجار المصريين وغيرهم في الاقطار المحيطة ، ونشاط بعض الجاليات غير المصرية في ميدان التجارة في مصر وعلى الاخص الجالية المغربية ، وهذه كلها أمور لها - بالضرورة - انعكاساتها في الوثائق القضائية (I2) .

I5 - وعلى سبيل المثال ، قام «عبد الرحيم» بحصر I23 وكالة تجارية ومهنية كانت قائمة في دائرة القاهرة في العهد العثماني ، وذلك من واقع وثائق المحكمة الشرعية ، وقد تبين له أنه لا تكاد تخلو أى من هذه الوكالات من التجار المغاربة ، بل ان بعض هذه الوكالات مثل وكالة الماوردي بخط الفحامين بالقاهرة ، كانت تمثل منظمة تجارية مغربية كبرى ، والامر نفسه انتهى اليه فيما يتعلق بالاسواق (I3) .

I6 - ولقد أحدثت هذه التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والتي يمكن ان يطلق عليها «بدايات التراكم الرأسمالي التجارى» بعض النتائج على صعيد المؤسسة القضائية وأحكامها ، اذ تعقدت النزاعات التي ترفع الى القضاء ، نتيجة نمو الطبقة الوسطى التجارية في مصر ، مما أدى الى تزايد ظاهرة الفساد في القضاء وبخاصة اذا لاحظنا شبهة شراء الوظائف القضائية والتعيش من الرسوم المقررة ، فضلا عن اتساع الفجوة بين القواعد القانونية البسيطة التي كانت تصلح لحكم علاقات اجتماعية اقتصادية بسيطة هذا من جهة وبين واقع العلاقات الجديدة المتشابكة والمعقدة من جهة أخرى ، وبخاصة في ظل عدم التجديد وعدم الاجتهاد وشيوع مظاهر الانحطاط الثقافي ، لدرجة أن شاع في المجتمع المصري الاقتراض بالربا باللجوء الى حيل قانونية صورية (I4) .

I7 - أما في مجال الولاية القضائية في المسائل الجزائية (الجنائية) ، فإن تداخلا واضحا بين ولاية القاضى وولايات غيره ، حتى على المستوى النظرى (الفقهى) ، يقرر «ابن تيممة» مثلا فيما يتعلق بالاختصاص الجنائي للقاضى ولغيره من الولاة ما يلي : (عموم الولايات وخصوصا وما يستفيد منه المتولى بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف ، وليس لذلك حد فى الشرع ، فقد يدخل

(12) يراجع في التفاصيل الكثيرة : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ؛ المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798) - دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية ، من منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائري ، تونس ، 1982 .

(13) المرجع السابق مباشرة ، ص 63 ، ص 65 .

(14) محمد نور فرحات ؛ القضاء المصري قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، سابق الإشارة إليه ، ص 132 ، ص 133 .

في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر ، وبالعكس ، وكذلك الحسبة وولاية المال وإذا كان كذلك فولاية الحرب في عرف هذا الزمان (عصر ابن تيمية) في هذه البلاد الشامية والمصرية تختص بإقامة الحدود التي فيها اتلاف ، مثل قطع يد السارق وعقوبة المحارب ونحو ذلك ، وقد يدخل فيها من العقوبات ما ليس فيه اتلاف كجلد السارق ، ويدخل فيها الحكم في المخاصمات والمضاربات ودعاوى التهم التي ليس فيها كتاب وشهود (.....) (15) .

18 - وهذا التضارب الذي يجد سنده في أصول الفقه فضلا عن الممارسات الاسلامية الطويلة، كان له آثاره في تضخم ما يسمى بالتجريم والعقاب سياسة، وهو باب كبير أدى الى كثير من المظالم والبشاعات ، وكان فيه خروج واضح وحاد على مبادئ الشرعية القانونية ، وهي أمور لها انعكاساتها - بالسالب - على الحركة الاجتماعية وعلى السلام الاجتماعي وعلى الاستقرار .

19 - ويبدو أن ولاية القاضى الجنائى فى مصر العثمانية كانت تنعقد فى حالة استعداء أحد الخصوم للقضاء وهذا هو ظاهر الفقه الحنفى الذى كان هو المذهب الرسمى المعتقد فى تلك الفترة ، ولم يكن للقضاء الشرعى اختصاص - خارج هذا النطاق - الا ما تطلب سماع بينة وشهود سواء فى ذلك التعازير والحدود ، عدا الحدود التي يتعلق بها حق الله تعالى وحده ، فكان اختصاص القاضى الشرعى متعلقا بما يحيله اليه الوالى للتحقيق فيه أو الفصل فيه (16) .

20 - وعلى عكس الرأى السائد لدى معظم الباحثين الغربيين فى تاريخ القانون الجنائى فى المجتمعات الاسلامية من أن القاضى الجنائى الشرعى هو قاض للوقائع فقط بحيث لا تتعدى سلطته التأكد من اذئاب المتهم مستخدما طرق الاثبات الشرعية ، تاركا أمر تحديد العقوبة وتنفيذها لولى الامر ، على العكس من هذا الرأى ، فقد انتهت «فرحات» من قراءة متأنية لسجلات المحاكم الشرعية المصرية ، الى أنه فى مسائل الحدود فان سلطة القاضى الشرعى كانت شاملة لتحقيق الاذئاب وتقرير العقوبة والنطق بها والامر بتنفيذها (17)

21 - وواضح من استعراض بعض سجلات المحكمة الشرعية بمصر المحروسة ، أن المحكمة كان يقتصر دورها فى جرائم التعزير على تحقيق الاذئاب أو علمه ، فاذا ثبت الاذئاب ، فان المحكمة تقرر مبدأ التعزير وتحيل

(15) نقلا عن : محمد نور فرحات ؛ نظام التجريم والعقاب فى ظل الاختصاص الجنائى للمحاكم الشرعية فى مصر منذ مطلع العصر الحديث ، سابق الإشارة إليه .

(16) محمد نور فرحات ؛ المرجع السابق مباشرة .

(17) يراجع فى التفاصيل الكثيرة الموثقة : محمد نور فرحات ؛ المرجع السابق مباشرة .

الامر الى ولاية التنفيذ لتحديد نوع ومقدار العقوبة التعزيرية ثم ايقاع العقوبة ، وواضح أيضا من بعض نصوص «قانون نامة مصر» (1525) أن والى الشرطة (السوباشى) هو الذى كان يختص بذلك (18) .

22 - وفى ظل الحملة الفرنسية على مصر ، وبعد احداث «ديوان القاهرة» (1798) ، والتوسع فى اختصاصات هذا الديوان فى عهد «مينو» انعقدت لهذا الديوان ولاية قضائية استثنائية ، وهو أمر لم يعرفه القضاء المصرى ابان العهد العثمانى على نحو صريح (19) .

بعض الاستنتاجات الاولى

23 - يمكن الخروج بعدد محدود من الاستنتاجات الاولى التى قد تصلح فروضا علمية يمكن اختبارها بمزيد من البحوث المتعمقة ، وبخاصة فى موضوع المنهج ، ذلك أن أحكام المحاكم الشرعية المصرية فى العهد العثمانى ، لا يمكن اعتبارها جامعة مانعة للفصل فى المنازعات القانونية لتضارب ولاختلاف الجهات والجهزة التى كانت تقوم - فى الواقع - باختصاصات وبمهام قضائية ، فضلا عما تكشف عنه التأريخات المعتمدة من تفاصيل للقهر الذى كان يقع على الفقهاء بخاصة حتى من أفراد الجند البسطاء ، بالإضافة الى أن التوسع فى نظام الامتيازات الاجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للكثيرين من الرعايا الاجانب ، وقد انسحب هذا على مصر كولاية عثمانية ، مما يدعو الباحثين الى عدم الاكتفاء بسجلات المحاكم الشرعية فى دراسات وبحوث التاريخ الاجتماعى المصرى ، ومحاولة الافادة من المصادر المتاحة الاخرى ، وقد يكون من الوارد - هنا - محاولة الافادة من سجلات القنصليات الاجنبية التى كانت موجودة فى مصر آنذاك .

24 - هذا من الناحية المنهجية ، أما من الناحية الموضوعية ، فيمكن الخروج بدعم لافتراضات الانفتاح المصرى على الخارج وبخاصة (التجارى) وذلك قبل الحملة الفرنسية بستين عددا ، وعلى الاخص خلال القرن الثامن عشر ، كما يمكن الوصول الى صور تقريبية عن نشوء وتراكم وأنشطة أنواع من الرأسمالية التجارية عرفتها مصر منذ القرن الثامن عشر أيضا ، كما يمكن تلمس الكثير من أوجه الفساد فى المؤسسة القضائية المتمثلة فى المحاكم الشرعية المصرية ابان العهد العثمانى ، والذى كان جزءا من فساد أعم شمل كافة المؤسسات والجهزة الاخرى .

25 - وبصفة عامة ، فان هذه الورقة بمثابة ورقة أولية ، نرجو أن تفتح أو تشارك - مع غيرها من الدراسات التى سبقتها - باب بحوث متعمقة موثقة (20)

(18) المرجع السابق مباشرة .
(19) شفيق شحاتة ؛ تاريخ حركة التجديد فى النظم القانونية فى مصر منذ مطلق القرن التاسع عشر ، من منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، 1961 ، ص 7 .
(20) نشير - هنا - إلى البرنامج البحثى الذى يقوم به المركز القومى للبحوث الاجتماعية بالقاهرة حول التاريخ الاجتماعى المصرى ، ونشارك فيه بدور الباحث الرئيسى .

بيان بأهم المصادر :

- 1 - ابن ايباس (الحنفى المصرى) ؛ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، دار الشعب ، القاهرة ، 1960 .
- 2 - شفيق شحاته ؛ تاريخ حركة التجديد فى النظم القانونية فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر ، من منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، 1961 .
- 3 - عبد الرحمن الجبرتي ؛ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، بيروت ، المجلد الاول ، غير مبين تاريخ النشر .
- 4 - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ؛ القضاء فى مصر العثمانية (1517 - 1798) ؛ مستخرج من كتاب «بحوث فى التاريخ الحديث» ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1976 .
- 5 - _____ ؛ المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى (1517 - 1798) ، دراسة فى تأثير الجالية الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية ، من منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية الجزائرى ، تونس ، 1982 .
- 6 - علي فهمي ؛ الحسبة فى الاسلام - دراسة مقارنة بالانظمة المشابهة فى القانونية الوضعى ، دراسة مقدسة الى المؤتمر الثانى للقانون والعلوم السياسية ومهرجان الامام ابن تيمية ، دمشق ، (ابريل / نيسان 1961) .
- 7 - علي فهمي ؛ القانون والقضاء العرفى فى مصر ، مجلد العدالة ، سلسلة مسح المجتمع المصرى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية - القاهرة ، 1986 .
- 8 - محمد نور فرحات ؛ القضاء المصرى قبل انشاء المحاكم الاهلية ، مجلة الحق ، اتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، السنة 15 ، العدد الاول والثانى ، 1984 .
- 9 - محمد نور فرحات ؛ نظام التجريم والعقاب فى ظل الاختصاص الجنائى للمحاكم الشرعية فى مصر منذ مطلع العصر الحديث ، دراسة مقدمة الى المؤتمر الخامس عشر لاتحاد المحامين العرب ، سوسة / تونس (نوفمبر / تشرين ثانى 1984) .
- 10 - مشروع برنامج بحوث التاريخ الاجتماعى المصرى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية - القاهرة ، 1986 .

السيرة الشعبية مصدرا لدراسة التاريخ الاجتماعي قراءة في سيرة الظاهر بيبرس

د. قاسم عبده قاسم

مر التاريخ - باعتباره ممارسة ثقافية ذات وظيفة اجتماعية - بتطورات هائلة منذ بدأ وليدا في حجر الاسطورة ، حتى صار علما أكاديميا له مناهجه وفلسفته وفروعه المختلفة ؛ بل وتاريخه أيضا . وعلى الرغم من هذه التطورات الكبيرة في ميدان الدراسة التاريخية ؛ فإن التاريخ من حيث هدفه ، ومن حيث وظيفته الاجتماعية / الثقافية ، ظل كما هو .

بيد أن أهم التطورات التي لحقت بالتاريخ جاءت مواكبة لتطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية جعلت جماهير الناس العاديين أصحاب الحق الاول في تسيير شؤون حياتهم وصارت الشعوب مصدر السلطات في الديمقراطيات الحديثة . لقد تخلى التاريخ عن مكانه التقليدي في قصور الباطرة والملوك والحكام والامراء ، وفي ساحات الحروب ، لينزل الى خضم الحياة العامة باحثا عن الحقيقة في الشوارع والطرق والاسواق بين جموع الفلاحين وجماهير العمال ، وجماعات المثقفين والفنانين والشعراء ؛ لقد بدأ التاريخ يدرس أحوال صناع التاريخ الحقيقيين ، وكانت النتيجة أن ظهرت للتاريخ فروع عديدة تبحث في شتى نواحي النشاط الانساني ، ومنها التاريخ الاجتماعي .

والتاريخ الاجتماعي ، فرع حديث من فروع الدراسات التاريخية ، ولا يزال يحبو في عالمنا العربي على نحو خاص ؛ فقد ظلت السياسة والحكم والحرب محور الاهتمام الاساسي عند المؤرخين العرب . حقيقة أن عددا لا بأس به من الدراسات في ميدان التاريخ الاجتماعي قد تم على يد من الاساتذة والباحثين الافاضل ، ولكنها لم تكن سوى محاولات فردية ومتفرقة حتى الآن .

ويهتم التاريخ الاجتماعي بدراسة أحوال المجتمع عبر التاريخ ؛ سواء من حيث دراسة التركيب الاجتماعي ، والبناء الطبقي ، وتاريخ الطبقات ، والعادات والتقاليد ، والحرف والصنائع والاسواق ، والبنيان السكاني ، وعوامل الزيادة والنقصان ، كما يدرس أوضاع الاقليات وعلاقاتها الاجتماعية / السياسية . فضلا عن ذلك يدرس التاريخ الاجتماعي ، القيم والمثل والاخلاقيات التي تحرك المجتمع في عصر ما من عصوره التاريخية . بيد أن التاريخ الاجتماعي يهتم أيضا بالجوانب السياسية والاقتصادية والفكرية في حياة المجتمع ، وذلك من حيث تأثرها على حركة المجتمع ، ولكن مصادر المؤرخ الذي يعمل في مجال التاريخ الاجتماعي تختلف ، بالضرورة ، عن مصادر من يهتم بدراسة التاريخ السياسي أو الاقتصادي أو العسكري . ففي مجال السياسة أو الاقتصاد أو الحرب يمكن الاعتماد على المصادر التاريخية التقليدية

مثل الوثائق بكافة أنواعها وشهادات المؤرخين المعاصرين . ولكن يختلف تماما عند دراسة المجتمع في فترة ما من تاريخه . ذلك أن المؤرخ الذى يدرس التاريخ الاجتماعى إنما يدرس فى حقيقة الامر علاقات الناس بعضهم ببعض فى اطار ظروف تاريخية معينة . وعادة ما تكون هذه العلاقات التى تشكل حركة المجتمع محكومة بعوامل عديدة متشابكة متداخلة منها ما هو سياسى ، ومنها ما هو اقتصادى ، ومنها ما هو فكرى ، أو نفسى أو عاطفى . ولا شك فى أن لكل مجتمع نظاما من القيم والمثل والاخلاقيات والمواقف الوجدانية تحكم حركته العامة ، وهذه كلها أمور لا يمكن للمؤرخ أن يقتفى أثرها فى المصادر التاريخية التقليدية .

ومن ناحية أخرى ، فإن من المسلم به أن أية ظاهرة تاريخية نتاج للتفاعل بين الانسان وبيئته فى اطار الزمان . والظاهرة التاريخية الاجتماعية مصاحبة لافعال جزئية عديدة للأفراد الذين تتكون منهم طبقة اجتماعية ما ، أو مجتمع بأسره . ولا يمكن فهم أية ظاهرة تاريخية اجتماعية دون التعرف على الايديولوجية التى تحرك المجتمع أو الطبقة فى اطارها . وإذا اخذنا بالراى القائل بأن الايديولوجية هى النظرة الكونية الشاملة ؛ أى مجمل الافكار التى تحرك مجتمعا ما أو تكون أساسا لوجوده وحركته ، لكان حتما علينا أن نبحث عن مصادر اضافية لدراسة التاريخ الاجتماعى . ذلك أن الايديولوجية لا تشمل الافكار العامة والنظريات فقط ولكنها تشمل أيضا كل انساق القيم والمعتقدات .

كذلك ينبغى أن نلاحظ أن الظاهرة التاريخية ، سواء كانت اجتماعية أو غير ذلك ، لا تصلنا كاملة عبر شهادات المؤرخين والوثائق والتسجيلات التاريخية . فالمؤرخون وكتاب الوثائق يسجلون لنا جوانب جزئية من الظاهرة التاريخية يعتقدون أنها الجوانب الهامة أو الأكثر أهمية ، ويغضون النظر عن الجوانب الأخرى باعتبارها غير هامة . هذا الجانب المهمل من الظاهرة التاريخية - أو السكوت عنه - هو الذى ينبغى أن يشد انتباه المؤرخين العاملين فى مجال التاريخ الاجتماعى .

فالآثار والنتائج الناجمة عن أية ظاهرة تاريخية تتخذ شكل تيار اجتماعى/ ثقافى غير مباشر ، ولكنه مستمر بين الاجيال بشكل تلقائى . وسرعان ما يجد هذا التيار الاجتماعى/الثقافى لنفسه التعبير فى فنون وآداب المجتمع التى درج الباحثون على تسميتها بالفنون والآداب الشعبية . وبعض هذه الفنون ينتسب الى فنون الشكل مثل التصوير والزخرفة والرسم وصناعة الحلى والسجاد ... وما الى ذلك ، وبعضها الآخر ينتسب الى فنون القول . والفنون الشعبية القولية ، أو الادب الشعبى غالبا ما يتخذ لنفسه قالب المأثورات الشفاهية مثل السير ، وال نوادر ، والامثال ، والقصص التاريخية الشعرية ، فضلا عن الزجل والبلاليق .

وما زال الجدل يدور حتى اليوم حول مدى صدارة هذه المآثورات الشفاهية بأن تكون مصدرا للمؤرخ بسبب المشكلات المنهجية التي تثيرها . ويرى البعض أن اكتشاف النص الاصلى القديم الذى تفرعت عنه مثل هذه المآثورات ضرورى لكى نثبت مقدار الحقيقة التاريخية فيها بحيث يمكن تقييم أهميتها أو تقدير قيمتها (I) . بيد أن أصحاب هذا الرأى يبحثون فى مدى صدارة مثل هذه المآثورات بأن تكون مصدرا للمؤرخ « باعتبارها تقريراً صادقا عن الاحداث » ، وهو أمر لا يمكن لمن يدرس التاريخ الاجتماعى أن يعول عليه فى دراسة مثل هذه المآثورات الشفاهية ومنها السيرة الشعبية بطبيعة الحال .

والسيرة الشعبية تدور عادة حول بطل تاريخى حقيقى ، وأحداث تاريخية حقيقية . ولكن السيرة - مثل غيرها من المآثورات الشفاهية - مجهولة المصدر دائما . ويتم تناقلها على السنة الرواة الذين يضيفون اليها ويقولون فى أحداثها ، وبناء شخصياتها بحيث تلبى حاجة السامعين الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم ، فإن من يدرس هذه السيرة ينبغى أن يدرسها فى ضوء فهمه لعلاقتها بالبيئة الاجتماعية . ولا يمكن أن نقيم السيرة على نحو صحيح دون معرفة الوظيفة الاجتماعية الثقافية التى تقوم بها .

وإذا كانت السيرة الشعبية تدور حول بطل تاريخى حقيقى وتتناول أحداثا تاريخية حقيقية فإن هذا لا يعنى أننا سوف نقرأ فيها تاريخا بالمعنى التقليدى ، أو أننا سنجد فيها صياغة للاحداث التاريخية ، ولكننا سوف نقرأ فيها « صورة وحدانية وعاطفية مليئة بالدلالات الاجتماعية للعصر - أو العصور - التى تحدث عنها » ، فالسيرة ، مثل غيرها من فنون الادب الشعبى ، لا تهتم برصد الاحداث والوقائع التاريخية ، وإنما ترصد لنا رأى الناس فى هذه الاحداث والشخصيات أيضا . وهذا النمط ينتج عن التفاعل بين الفن والتاريخ ؛ فالفنان الشعبى حين يختار التاريخ مجالا لعمله ، لا يهتم سوى بالاستجابات العقلية والعاطفية لجمهوره من الناس . ولذا فإنه يضيف من خياله تفصيلات ووقائع ، ويعدل من الشخصيات والاحداث التاريخية ليلبى حاجة / اجتماعية ثقافية ، ونفسية للعامة أصحاب المصلحة فى الرواية ، بحيث يضمن استجابتهم العاطفية للسيرة التى يرويها لهم . كما أن الراوى يجعل روايته حبل المفاهيم والمضامين الاجتماعية ، والمصطلحات التى تجعل لغة الرواية قريبة الى وجدان السامعين وعقولهم .

ومن ناحية أخرى ، كانت طبيعة النشر الثقافى فى زمن تداول مثل هذه السيرة الشعبية وراء عمليات الحذف والاضافة والتعديل المستمر فى مضمون السيرة حتى توافق هوى السامعين وتحوز رضاهم . فلم تكن الطباعة قد عرفت ، ولذا لم تكن السيرة تنطبع فى آلاف النسخ لتوزع على القراء مثلما

(1) يان فانسينا ، المآثورات الشفاهية ، (ترجمة وتقديم د. أحمد مرسى ، دار الثقافة - القاهرة 1981م) ، ص 86 - ص 88 .

يحدث الآن ، وانما كانت السيرة - مثل غيرها من فنون الادب والعلوم - محلا للتداول الشفوي على ألسنة الرواة . وكانت السيرة تلقى على الناس في مجالس سمرهم في حلقات يومية ، لما كانت وظيفتها الاجتماعية / الثقافية شبيهة بوظيفة سلسلات الاذاعة المسموعة والمرئية في زماننا . هذه الوظيفة الاجتماعية / الثقافية للسيرة الشعبية هي التي جعلت الرواة على مر الاجيال يحاولون صياغة النص بالشكل الذي يجذب السامعين اليه ؛ وهو ما يعنى أن الراوى كان يعيد انتاج السيرة فيضيف الى النص ويحذف منه ، ويحمله القيم والمضامين الاخلاقية ، والمثل والمواقف الاجتماعية التي تستحوذ على اهتمام السامعين . وبطبيعة الحال ، لا يمكن لجاهل العامة من بسطاء الناس أن يستمعوا ، أو يستمتعوا ، بشيء لا يمثلهم ولا يحمل بين طياته ما يعبر عن أمانيتهم وأحلامهم وتطلعاتهم .

والسيرة الشعبية ، عموما تحمل ما يمكن أن نسميه التفسير النفسى والشعبى للحوادث التاريخية في حقيقته تعويض نفسى يلجأ اليه الفنان الشعبى لكى يتجاوز الواقع بحدوده الزمانية والمكانية صوب اللامحدود زمانا ومكانا ليطرح للناس ما تحتاجه عقولهم وعواطفهم من تعويض . وهكذا يختار الفن الشعبى حادثا تاريخيا ، أو بطلا من أبطال التاريخ ، ويعيد صياغته بشكل تعويضى . ولا يلبث الحدث التاريخى الحقيقى أن يتوارى خلف تراكمات الخيال التى تصنع متنفسا حقيقيا للمشاعر الشعبية الحقيقية من ناحية ، ولتبيده مشاعر الاحباط والحيرة في أوقات الازمات من ناحية أخرى .

وعلى الرغم من أن البشرية قطعت شوطا كبيرا صوب العقلانية سعيا وراء التخلص من السلوك العاطفى والانفعالى ، فإن الاسطورة والخيال ما تزال تحكم تصرفات قطاعات كبيرة من البشر . وعلى الرغم من أن التاريخ قطع رحلة طويلة في رحاب الزمان لكى يتخلص من شوائب التحيز والاسطورة ، فإن المأثورات الشفاهية للشعوب - ومنها السيرة الشعبية بطبيعة الحال - احتفظت بقيمتها باعتبارها موروثة شعبيا يغفله الخيال ويدور حول موروث واقعى هو الحوادث التاريخية المجردة . ولذا ، يمكن القول بأن من يقرأ السيرة الشعبية باعتبارها تاريخا سيجدها حافلة بالخيال ، ومن يقرأها باعتبارها خيالا سيجدها حافلة بالمضامين التاريخية ذات القيمة الكبيرة فى مجال التاريخ الاجتماعى خاصة . واذا كان التاريخ يحمل لنا الواقع - أو جزءا من هذا الواقع - فإن السيرة الشعبية تحمل لنا جانبا غير ملموس ، أو غير مادى ، من هذا الواقع نفسه ؛ أعنى الجانب الذى ينبىء عن الانفعالات النفسية ويشى بالامانى العاطفية والقيم المجتمعية ازاء حدث ما ، أو شخصية ما ، أفرزها التاريخ على أرض الواقع .

ولأن التاريخ تصنعه الشعوب ويسرقه الحكام ؛ فإن الشعوب تعيد صياغة هذا التاريخ من خلال مأثوراتها الشفاهية ومنها السيرة الشعبية . وهنا نجد

الخيال الشعبى يختار الأبطال من عامة الناس ، أو من شخصيات تاريخية ، يعيده تصويرها بالشكل الذى يعبر عن رأى الناس فى الحوادث والأشخاص من ناحية ، وبحيث يعبر عن رؤيتهم للتاريخ وعن دورهم الذى أغفله التاريخ الرسمى من ناحية أخرى . ومن المعروف أن عامة الناس يميلون إلى معرفة تاريخهم ، ويزداد إقبالهم عليه كلما ارتدى صوب الرواية والقصة والسيرة . ولأن المجتمع الإنسانى يحتاج إلى معرفة تاريخه لكي يظل على اتصال دائم بالماضى ، ولكى يفهم الحاضر ويستشرف آفاق المستقبل ، فإنه يختار أقرب الطرق وأيسر الوسائل لتحقيق هذه المعرفة التاريخية ؛ أعنى النقل الشفوى . إذ تنسرب المعرفة التاريخية - بخطوطها العامة العريضة - بين جماهير الناس وعامتهم من خلال التناقل الشفوى التلقائى بين الأجيال . ذلك أن المعرفة التاريخية للمجتمع ليست رهينة بقراءة كتب المؤرخين ، أو الانتظام فى فصول الدراسة ، وإنما تتأتى بانتقال الأخبار التاريخية شفاهاً من جيل إلى جيل يليه ممزوجة بكثير من القصص والخيال . ومن حوادث التاريخ التى يتداولها العامة يختارون حدثاً تاريخياً ، أو بطلاً ، يكون محورياً لموضوع سيرة شعبية يتداولها الرواة والناس .

ولا يمكن للسيرة الشعبية ، التى تخاطب الوجدان الشعبى فى مجتمع ما ، أن تستخدم لغة لا يفهمها هذا المجتمع . كما أن المصطلحات التى تستخدمها السيرة ينبغى أن تكون مفهومة لدى جماهير الناس أصحاب المصلحة فى هذه السيرة . ومن ناحية أخرى فإن الصور الاجتماعية ، والوسط الذى يتحرك فيه أبطال السيرة الشعبية ، والقيم والعادات والتقاليد التى تحكم سلوك أبطال السيرة يجب أن تكون مألوفة لدى جماهير السامعين . فالحرف والصنائع ، وأنواع الطعام ، والنقود والأوزان والمكاييل ، وطرز الملابس وأنواع الحلوى ، والألقاب والترتب التى يحملها الحكام وموظفو الدولة - كلها يجب أن تكون معروفة للسامعين حتى لا تتوه دلالاتها . ومن ثم ، يلجأ الراوى إلى إدخال كل هذه الأمور فى سياق حكايته ، إلى جانب الأشعار والأمثال والنوادر المتداولة لكي يخلق السياق المناسب اجتماعياً لروايته . وهذا هو ما ينبغى لمن يدرس التاريخ الاجتماعى أن يبحث عنه .

★ ★ ★

والمثال الجيد على ما ذهبنا إليه يتمثل فى سيرة الظاهر بيبرس . وهى سيرة تدور حول شخصية تاريخية حقيقية اتسمت بصفات البطولة الفذة وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحى النجمى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت قائمة طوال فترة تزيد على قرنين ونصف من الزمان . وقد كان نصيب الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى من كتابات المؤرخين الرسميين كبيراً ، فقد كان بيبرس شخصية ملء القلب والعين على مسرح تاريخ المنطقة ، فكتب سيرته القاضى

محبي الدين بن عبد الظاهر (620 - 692 هـ. / 1223 - 1292 م.) وأسماها «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهرة» ، كما أن عز الدين بن شداد كتب له سيرة أخرى أسماها « تاريخ الملك الظاهر » . وكتب شافع بن علي مختصرا للسيرة التي كتبها ابن عبد الظاهر جعل عنوانها « حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية » (2) كما أن المصادر التاريخية الأخرى أفردت صفحات طويلة للحديث عن بيبرس وعصره .

بإزاء هذه السير التاريخية الرسمية صاغ الخيال الشعبي سيرة للسلطان الظاهر بيبرس بعنوان « سيرة الظاهر بيبرس : تاريخ الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة » . والنص الذي وصلنا لهذه السيرة عبارة عن تدوين لرواية شفوية حافلة بالشعر المرتجل والكلمات العامية ، وتقع في خمسين جزءا تضمها خمسة مجلدات متوسط عدد صفحات كل منها ستمائة صفحة (3) . وهناك مختصر في مجلد واحد للسيرة (4) غير أن قيمته في هذه الدراسة ليست كبيرة لخلوه تماما من الأشعار والحكايات الفرعية التي تحمل كثيرا من الدلالات والمضامين التاريخية الاجتماعية .

وتحمل السيرة اشارات في بدايتها ، وفي ثناياها ، الى عدد من المؤلفين تنسب اليهم تأليفها ، فقد ورد بها ما نصه « تأليف السادات الكرام المشهورين بالعلم وعلو المقام نبراس الافهام الديناري ، وواقفه على ذلك الدواداري ، وهما بذلك أعظم داري . ثم ناظر الجيش وكاتم السر والصاحب . فكل من هؤلاء له بحر فيها ، وما يخصها من معانيها ومبانيها ، وما أرضوه وما شاهدوه وما نقلوه عن السادة من اخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم ، وما عاينوه من كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء ... » (5) .

والواقع أن لدينا اثنين من مؤرخي عصر سلاطين المماليك ، يمكن أن يطلق على كل منهما لقب الدويداري : الاول هو الامير ركن الدين بيبرس الدوادر الناصري المنصوري (ت 725 هـ. / 1325 م.) (6) وهو رجل مشارك في صنع التاريخ العسكري والسياسي في الفترة الاولى من عصر سلاطين المماليك ، وله كتابان هاما أحدهما « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » (7) وهو تاريخ

(1) محي الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر) ص 5 - ص 7 .

(3) طبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، بشارع المشهد الحسيني (بدون تاريخ) .

(4) طبعة المكتبة الثقافية - بيروت (بدون تاريخ) .

(5) سيرة الظاهر بيبرس ، المجلد الأول ، ص 2 . وستكون اشارتنا جميعا الى طبعة القاهرة من هذه الدراسة .

(6) لمزيد من المعلومات عنه انظر : قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ (دار المعارف 1982 م) ، ص 111 - 128 .

(7) لا يوجد منه الا الجزء التاسع مخطوطا تحت رقم 24028 بجماعة القاهرة . وقد حققته الدكتور زبيدة عطا في أطروحتها لدرجة الدكتوراه ولكنه لم ينشر .

عام للإسلام ينتهى بسنة 724 هجرية . أما كتابه الثانى فهو « التحفة الملوكية فى الدولة التركية » (8) وهو كتاب خاص بدولة سلاطين المماليك فى مصر والشام بشجرة الدر ، باعتبارها أول سلاطين المماليك ، وينتهى عند سنة 711 هجرية . والمؤرخ الثانى هو « أبو بكر بن عبد الله بن ايبك الدودارى » صاحب كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » ، وقد أورد أخبار السلطان الظاهر بيبرس فى الجزء الثامن من هذا الكتاب والمسمى « الدرّة الزكية فى أخبار الدولة التركية » (تحقيق ونشر أولرخ هارمان - القاهرة 1391 هـ . / 1971 م) .

ولسنا نعتقد أن الراوى - فى الشكل الاخير الذى وصلتنا به السيرة - قد التزم حقا بالاعتماد على مثل هذين المؤرخين . ذلك أن السيرة فى شكلها الاخير صارت تتكون من عدة طبقات تحمل كل منها ملامح فترة تاريخية معينة مثل الطبقات الجيولوجية ، فقد توارى الاصل التاريخى الحقيقى للسيرة خلف تراكمات الخيال بحيث صارت مثل البصلة التى تتألف من عدة طبقات حول الاصل ، والتى تشير الى مراحل تاريخية مختلفة منذ عصر سلاطين المماليك حتى العصر العثمانى المتأخر . وفى تصورنا أن النص الاصلى لسيرة الظاهر بيبرس قد اعتمد على نص تاريخى ما فى بداية الامر . ولما كانت وسيلة النشر الثقافى آنذاك هى الحفظ والرواية الشفوية ، فقد كانت كافة كتب العلوم والادب تخضع لذلك التداول الشفوى فى غالب الاحوال . اذ لم يكن ممكنا توفير العدد المناسب من النسخ نظرا لارتفاع تكاليف النسخ اليدوى وصعوبته . بيد أن هذا التداول الشفوى فى مجال الدراسة والعلم كان يخضع لمقاييس صارمة بحيث تضمن عدم التزييف أو التشويه فى النص الاصلى . أما اذا انتقلت رواية النص الى جمهور العامة فإن النص الاصلى سرعان ما يتوارى خلف تراكمات الخيال التى يضيفها الراوى لضمان استجابة السامعين . وهذا فى تصورنا ما حدث بالنسبة لسيرة الظاهر بيبرس .

فعلى الرغم من الاشارات الكثيرة الى المصدر (9) ، وعلى الرغم من أن الراوى يحاول أحيانا الايحاء بأنه يتحدث عن أمور وقعت بالفعل فيستخدم بعض التواريخ فى غير موضعها (10) ، فاننا لا ينبغي أن ننظر الى هذا الامر من منطلق البحث التاريخى الصارم ، فلا عبرة هنا بالتواريخ والاشارات الى المصدر لان الراوى يقصد بها احداث التأثير لدى السامعين .

ومن ناحية أخرى ، فإن السيرة تستخدم أسماء حقيقية لاشخاص تاريخيين حقيقيين فى كثير من الاحيان ، ولكنها تعيد صياغتهم بحيث يلقون القبول

(8) مخطوط مصور بجامعة القاهرة تحت رقم 24029 .

(9) السيرة : ج 1 ، ص 3 ، ص 8 ، ص 12 ، ص 68 ، ص 156 ، ص 169 ، ص 174 ، ص 175 ، ص 248 ، ص 253 ، ص 313 ، ص 330 ، ص 341 .

(10) نفسه ، ج 1 ، ص 545 ، حيث يتحدث عن بناء الظاهر بيبرس لقنطرة فيما بين سنتي 603 و 604 هجرية . ومن المعلوم أن دولة سلاطين المماليك نفسها قامت فى منتصف القرن السابع الهجرى وبدأ حكم الظاهر بيبرس سنة 658 هجرية .

الشعبي بغض النظر عن الحقائق التاريخية . بل ان التعديل يمتد الى الحوادث التاريخية نفسها فتعيد السيرة نسيجها بحيث تخدم السياق العام للسيرة من ناحية ، وتوظفها في خدمة هدف السيرة وبطلها من ناحية الاخرى . اذ تحدثنا السيرة عن صلاح الدين الايوبي وعن السلطان العادل والكمال ، كما تحدثنا عن شجر الدر ، وعن الدين ايبك وقلاوون وعن المغول وهلاون . وتحدثنا عن الصالح نجم الدين أيوب ... وغيرهم . ولكنها تعيد صياغتهم بالشكل الذي يكشف عن رؤية الناس لهم ، أو النموذج الذي يجد رأى الناس فيه . فالسيرة تجعل حكم صلاح الدين لمصر خطأ غير مقصود من الخليفة العباسي . تقول السيرة : « ... وان السبب في مجيء هؤلاء الاكراد الايوبية سبب عجيب وحال غريب ... (فقد نزل بأرضهم سيل وثلوج) ... فقتل مزارعها وأخربت الارض ، وقد أعياهم الامر وأيقنوا الجميع بشرب كأس الممالك ، فذهبوا الى كبيرهم ، وكان يقال له صلاح الدين الكردي ... » فأمرهم بالسير الى أمير المؤمنين لعله يعطيهم أرضاً خصبة يقيمون بها . وكانوا سبعين ألفاً ، وقابلهم أحد الصوفية الزهاد في الطريق فطلب منهم ترك السيوف والدروع والحديد ، وتقلدوا سيوفاً خشبية وتروسا من خشب الجميز ، وبها هزموا المغول وانقذوا الخليفة العباسي من أسرهم ، فمنح صلاح الدين حكم مصر مكافأة له ، على الرغم من أنه كان قد أعطى حكم مصر لشجر الدر التي تجعلها ابنة الخليفة العباسي (II) .

وفى هذا الجزء التمهيدى من السيرة نجد الاشخاص والاحداث تصاغ بشكل تعويضي ، اذ ينتقم الحيال الشعبي من المغول بأن يجعلهم يلقون الهزيمة تلو الهزيمة من المسلمين وصياغة الشخصيات التاريخية والاحداث لخدمة الغرض الفنى للسيرة متكرر فى جميع أجزائها ومع جميع شخصياتها ، بما فى ذلك الظاهر بيبرس نفسه . والدلالات الاجتماعية لهذه الصياغات تساعد المؤرخ على اكتشاف حقيقة المشاعر الشعبية تجاه شخصية ما ، أو حدث ما فى التاريخ . فالصالح نجم الدين أيوب هو الوحيد الذى جعلته السيرة محبوباً لدى المصريين ، واختارت له دور من يرعى بيبرس حتى يتولى العرض وكان النموذج الذى ارتضته السيرة له «الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب» وكان « ... قد زهد فى الدنيا ، ورغب فى الآخرة ، وقرأ القرآن ، وعرف ما فيه من البيان وعرف الحلال من الحرام ، فعبد الملك العلام ، وصار من عباد الله الصالحين ، وهو من صغر سنه على الفلاح واليقين ، ولا يجالس أهل البدولة ولا يحضرهم فى حكومة ، فسموه الاكراد الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب ... » ولما تولى السلطنة اشترط على نفسه أن لا يأكل من السلطنة ، ولا يأخذ شيئاً من أموال المملكة ، ولا يأكل الا من كسب يديه (I2) .

(11) السيرة ، ج 1 ، ص 9 / ص 11 ، ص 13 - 17 .

(12) السيرة ، ج 1 ، ص 29 .

ويكشف هذا النص عن موقف الناس من الحكام في ذلك الزمان ، ورؤيتهم لاموال الدولة التي تجبئها من الناس على شكل ضرائب ، ولعل من الامور اللافتة للنظر في هذا المقام أن المؤرخين المعاصرين نقلوا لنا في كتبهم أن الناس كانوا يطلقون على الضرائب في عصر سلاطين المماليك « المظالم والمغارم والكسف » ، تعبيرا عن رأيهم فيها .

ولكن الدلالات الاجتماعية للشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس تحتاج الى دراسة مستقلة ، ومن ثم فإن هذه الدراسة تهتم بكيفية استخدام السيرة مصدرا للتاريخ الاجتماعي .

بداية ، لا يمكن لمؤرخ ان يزعم انه يفهم مجتمعا ما ، دون التعرف على وجدان وعواطف وأفكار ومواقف واتجاهات هذا المجتمع في فترة تاريخية ما . وهذه كلها أمور يمكن رصدها من خلال دراسة النتاج الفني للمجتمع في تلك الفترة التاريخية . ومن المسلم به في مناهج البحث التاريخي ، أن أفضل المصادر التاريخية هي التي لم تكتب بقصد أن تكون تاريخا . والفنون الشعبية عامة ، والسيرة من بينها ، فنون تلقائية تعبر عن مواقف واتجاهات ، كما تعبر عن الحالة النفسية والوجدانية للناس في عصر من العصور . وسيرة الظاهر بيبرس تحمل لنا من الاشعار والنوادر والامثال والمواقف الفكرية ما يمكننا من رصد الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية التي لا نجد لها صدى في المصادر التاريخية التقليدية .

فالسيرة تحتفى احتفاء بالغا بالصوفية ، بحيث تجعل للبطل علاقة وثيقة بكبار الصوفية . فعلاقته وطيدة بهم وكراماتهم متكررة في ثنايا السيرة ، بالشكل الذي يكشف لنا عن أن الجو الثقافي السائد كان أريجه الخرافات والشعوذة في تلك الفترة التي دونت فيها السيرة ، وهو أمر تؤكده المصادر التاريخية الأخرى .

كذلك تكشف سيرة الظاهر بيبرس عن موقف أهل المدن من الفلاحين (13) وعلاقة الحكام بالمحكومين ، وكيف أن الضرائب كانت تجبى منهم بالضرب والإهانة . كما تكشف عن بعض حرف التسلية في الشوارع مثل المصارعة التي كان من يلعبون بها يرتدون الجلود وكان الناس يراهنون عليهم (14) وتتحدث أيضا عن بعض طوائف اللصوص والمفسدين وبنات الهوى الذين عرفهم المجتمع المصري في الفترة المملوكية والعثمانية من تاريخه ، فالنص

(13) السيرة ، ج 1 ، ص 84 . يقول المماليك لأحد الناس « ... لأنك فلاح قليل الإنصاح » ، ولكنه أيد من يصيح بهم « ... لأي شيء تفعلوا به هذه الفعال » ، أما تعلموا أننا كلنا عبيد الملك المتعال ولا فرق بين الملك والجندي ، والمغربي والكردي ، والبربري والهندي ، وكلنا خلقه ربي » ومن الواضح أن الراوي يحاول استرضاء جمهور السامعين .

(14) السيرة ، ج 1 ، ص 111 ، ص 114 ، ص 206 .

يحدثنا عن أولئك « ... السراحين الذين يسرحون في كار السرقة والمناسر والزغل والتعريض والبلطاجية وأصاب المشارط ، ولعابين القمار وبياعين الحمر وبياعين الحشيش ، وأرباب الزور ودلالين الربى ... » وتبين أن لكل حرفة من هذه رئيسا . أما بنات الهوى فمنهن من يغوين الرجال ويستدرجنهم حيث يتم قتلهم في بيوتهم ، ومنهن من تذهب إلى بيوت الرجال ، ومنهن من تتمسحق في الرجال في الزحام لسرقة ما من جيوبهم (15) .

وتحدثنا سيرة الظاهر بيبرس عن الحرف والصناعات وأسماء الاسواق في الفترة التاريخية التي كانت السيرة أثناءها محلا للتداول . اذ تقول السيرة ان الذين يعرفون البيوت من أرباب الحرف في مصر أربعة : البقال والفران ومسحر رمضان ، والمنادى أيام النيل (16) ونعرف أن الفران كان يسرق من خبز الناس ، كما تحدثنا السيرة عن « دلالين الاسواق الذين يبيعون هدموم الناس بالدلالة » (17) كما نعرف أن هناك من أرباب الحرف الزياتين ، وخضارية يابس ، وخضارية أخضر ، وجزارين خشن وضآن ، وعلاف ، ومزين ، وقهوجي ، وفكهاني ، وسقا ، وزبال . كما نتعرف من خلال السيرة على العطارين والدخانية والنقلية والحلونية والقطاريرية . وكان لكل طائفة رئيس ، مثل شيخ الطباخين ، ولهم مكان يجتمعون فيه مثل قهوة الطباخين (18) .

أما الحرف الصناعية الأخرى فان السيرة تشير إليها أيضا ، ولا سيما البنائين والحجارين الذين يستخدمهم الظاهر بيبرس كثيرا في بنياته ومشروعاته الخيرية (19) كما تكشف صفحات سيرة الظاهر بيبرس عن علاقة أهل الحرف وأصحاب الدكاكين بالحكام ، فعلى كل منهم أن يعلق قنديلا أمام دكانه ، وأن يهتم بتسوية الطريق أمام دكانه . فالوالى يحاسب أحد أصحاب الدكاكين لعدم تمهيد الطريق أمام دكانه « ... وكذلك تحت الدكان على ووسط الطريق وأطى . فقال يا سيدي أما وسط الطريق فهو من مرور الحمير والجمال وعدم رصد الماء ... » والتزم صاحب الدكان بتسوية الأرض (20) . وتكشف السيرة أيضا عن بعض وسائل الغش فالجزارون يغشون اللحم الضأن بلحم الماعز والبقرى بلحم الجمال ، كما أن تجار السمن يغشونه بالقرع

(15) نفسه ، ج 1 ، ص 403 / 407 .

(16) السيرة ، ج 1 ، ص 230 . وتكشف عن أن النساء كن يذهبن للفران بالمعجن لخبزه .

(17) نفسه ، ص 232 .

(18) نفسه : ج 1 ، ص 377 - 378 . والجدير بالذكر أنه كان للطباخين في عصر سلاطين المماليك مكان يعرف باسم مصطبة الطباخين (ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ج 4 ، ص 13) .

(19) نفسه ، ج 1 ، ص 534 .

(20) نفسه ، ج 1 ، ص 390 .

العسلى (21) على أن أهم ما تكشف عنه السيرة فى علاقة أهل الحرف والصناعات بالحكام ما يرد على لسان أحد أشخاصها « اعلم أن أهل مصر لا يخافون الا من الحاكم الشاطر ، وأما اذا كان بطال فاتهم يستهزئون به » (22).

ولكن أكثر ما يلفت الانتباه فى صفحات سيرة الظاهر بيبرس هو ذلك الموقف العدوانى والمعادى للقضاة ، فالرواى يسخر منهم سخرية عنيفة ، ويجعلهم فى صورة مهينة . والسيرة تجعل القاضى شخصية ضعيفة مهزوزة دساس يخاف دائما من عثمان الذى يجد شخصية : ابن البلد ، بل ان السيرة تجعله نصرانيا يتخفى وراء الاسلام (23) كما تعطينا السيرة فكرة واضحة عن فساد العربان واخلالهم بالامن ومحاربة الممالك لهم (24) . وتكشف عن بعض المفاهيم الاجتماعية المتعلقة بالاقليات الدينية فى كثير من صفحاتها .

وسيرة الظاهر بيبرس حافلة بالاشارات التى لا تحصى عن العادات والتقاليد والمفاهيم والمواقف الاجتماعية انسانية فى المجتمع المصرى طوال تلك الحقبة من تاريخه . وفى تقديرى أنه لا غنى للباحث فى ميدان التاريخ الاجتماعى عن الاستعانة بالتراث الشعبى عامة ، والسيرة الشعبية جزء من هذا التراث بطبيعة الحال . اذ أن الفن الذى ينتجه الشعب فى حقبة تاريخية بعينها مصدر هام من مصادر المعرفة التاريخية ، لا سيما فى مجال التاريخ الاجتماعى . والتطور الذى ألم بعلم التاريخ ، بحيث بدأ يدرس صناعات التاريخ الحقيقين ، هو الذى يجعل للفنون الشعبية قيمة كبيرة للمؤرخ باعتباره احد مصادره . فالفن يمكن روح العصر ويساعد المؤرخ على إعادة تركيب صورة الماضى . اذ أن الفن يساعد المؤرخ على فهم انسان العصر الذى يدرسه ؛ بأماله وهمومه ، برفعته وضعته ، بنجاحاته واخفاقاته ، بقيمه ومثله واخلاقياته ... وهذه كلها لا نجد لها أثرا نهتدى به فى المصادر التاريخية التقليدية .

د. قاسم عبده قاسم

(21) نفسه ، ج 1 ، ص 291 .

(22) السيرة ، ج 1 ، ص 394 .

(23) نفسه ، ج 1 ، ص 274 - 343 . ومن المهم أن نشير الى ان موقف الشك من المسألة كان موقفا عاما للناس فى عصر سلاطين الممالك ، انظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف 1977) ، ص 171 - ص 179 .

(24) نفسه ، ج 1 ص 281 - ص 307 .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

نظرة حول بعض الحرفيين والمهنيين الاندلسيين والاتراك بالايالة التونسية اثناء القرن التاسع عشر من خلال خزانة الوثائق التونسية

د. عبد الحكيم الففسي

لا شك أن قدوم الأتراك العثمانيين الى تونس بداية من سنة 1574 والجالية الأندلسية الأخيرة التي عرفت بالمورسكيين بداية من سنة 1600 أثرت تأثيرا بليغا في المجتمع التونسي ، وقد برز ذلك في العمارة ، والفلاحة والصناعة ، والعادات ، والتقاليد . فضلا عن ذلك فإن المجتمع التونسي مازال يحتفظ بالعديد من اسماء العائلات التي تذكرنا بأصلها الأندلسي أو التركي . ومن المعلوم انه خلال شهر أوت 1830 ابرمت معاهدة بين تونس وفرنسا تنص على الغاء القرصنة وبيع العبيد وتمكين التجار الفرنسيين من امتيازات بالبلاد مما ادى الى خنق الصناعات التونسية واستحواذ التجار الأجانب على السوق التونسية . وهذا يعني ان المهن والحرف التي سوف نتعرض اليها كانت تعيش ازمة حادة .

غير ان هذه الأزمة سوف لن نتعرض اليها وانما سوف نقوم بعرض بعض الملامح المتعلقة برجال المهن والحرف من الأصل الأندلسي او التركي وذلك بالاعتماد أولا على ما ورد في الوثائق ، وفي بعض الأحيان ما جاء في التراث (1) او المصادر التاريخية كالمؤنس ، والحلل السندسية ، والكتاب الباشي ، واتحاف اهل الزمان ، وفي بعض الأحيان بالاعتماد على التراكيب والأشكال لأسماء العائلات ، أو على التحقيقات الميدانية ، أو على كل ما هو متعارف لدى العديد من الناس .

ان الغاية من هذا المقال ليست - طبعا - الاستيعاب والشمول ، وانما سنقتصر على عرض بعض النتائج الأولية التي يمكن لها أن تساعدنا على فهم بعض الجوانب التي مازالت غامضة - حسب علمنا - من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للايالة التونسية خلال هذه الفترة ، خصوصا

(1) مقالنا : «بعض شواهد قبور أندلسية» في المؤتمر العاشر للآثار . الجزائر (تحت الطبع)

واننا لم نطلع الا على عدد ضئيل من الرصيد المحفوظ في ارسيف الدولة التونسية (2) .

والملاحظ انه تمت دراسة العديد من هذه الجوانب خلال القرون الممتدة بين قدوم الأتراك العثمانيين وانتصاب الحماية الفرنسية بتونس سنة 1881. غير أن الأمور المتعلقة برجال المهن والحرف حسب علمنا - لم يقع التعرض اليها بإطناب او عولجت من زوايا مختلفة واعتمادا على مصادر اخرى (3) . ونحن نعتقد ان هذه الجوانب في حاجة الى دراسة شاملة تستوعب كل النصوص والمصادر والتحقيق الميداني وذلك في مختلف مناطق البلاد . وبحثنا هذا يهدف اذن الى عرض بعض الععطيات الجديدة التي استمدت من وثائق أرسيف الدولة التونسية . وقد أردنا القيام بدراسة تعتمد اساسا على الاحصائيات والنسب الماثوية ، الا أننا لم نستطع ، نظرا لطبيعة المصادر ، وكذلك لعدم تمكننا من الاطلاع على الوثائق التي لها صلة مباشرة بالموضوع . وریشما يتم ذلك فإننا سنقوم بدراسة بعض الحرف والمهن .

البنساقون :

يظهر من الوثائق التي اطلعنا عليها ان الأندلسيين اختصوا بعملية البناء والعمارة . وكادت ان تكون هذه الحرفة حكرا عليهم . ودراسة الدفتر عدد 2225 الخاص بخزينة قصر المحمدية تبين بوضوح هذا الرأي

(2) تصفحنا الدفاتر التالية 97. 1253. 1869. 2126. 2166. 2212. 2213. 2214. 2215. (1) (2) (3). 2140. 2213. 2216. 2217. 2218. 2219. 2220. 2221. 2222. 2223. 2224. 2226. 2227. 2228. 2229. 2231. 2233. 2235. 2236. 2237. 2238. 2239. 2240. 2241. 2242. 2243. 2244. 2245. 2246. 2248. 2249. 2249 مكرر. 2281. 2282. 2283. 2284. 2285. 2290. 2292. 2294. 2303. 2304. 2306. 2307. 2308. 2310. 2313. 2314. 2315. 2316. 2399. 1401. 2407. 2492. 2493. 2494. 2495. 2496. 2497. 2498. 2499. 2500. 2501. 2502. 2502. 2701. 2713. 3138. 3146. 3965. والملفات 932 رزمة 174 .
(3) 1017. 1018. 1019. رزمة 183 .

(3) Chater, K. « Le fait andalou dans la Tunisie du XIX^e siècle ». In *Actes du symposium International du C.I.E.M.*, Tunis, Institut Supérieur de Documentation, 1984, T 1, 165—170.

Ben Achour, M. A., Islam et contrôle social à Tunis, aux XVIII^e et XIX^e siècles » In, *La ville arabe dans l'Islam, Tunis*, C.E.R.E.S., Paris, C.N.R.S. 1982, 237—149.

زييس ، القفصي ، بوغانمي ، ابالسا : بحوث عن الأندلسيين في تونس ، تونس المعهد القومي للآثار والفنون . مركز الدراسات الإسبانية الأندلسية 1983 . 280 + 180 ص.

فقد كان على البلاנקو في سنة 1265 / 1848 أمنيا على هذه الحاضرة (4) . ويبدو انه عوض في السنة الموالية من طرف علي النيقرو الذي بقي بها الى سنة 1269 / 1852 حسب نفس الوثائق (5) . ويعمل بنفس الحاضرة ابنه حميدة كبناء مختص (6) وسليمان النيقرو (7) . فضلا عن ذلك فقد كان الأسطى حميدة النيقرو ناظرا على بناء سبالة باب سعدون بالحاضرة سنة 1218 / 1803 (8) ، بينما كان مراد بولقباشي بن حمودة عرف ساقسلي الحنفي ، وكيلا على السبابل في نفس الفترة (9) . وقد كانت حاضرة قصر المحمدية تضم الى جانب البلاנקو والنيقرو الأمينين الأندلسيين احمد ومحمود توسة (10) .

وبناء على ما تقدم فإن عائلة النيقرو تعد من أشهر العائلات الأندلسية التي برزت في هذا الميدان ، فمن المعلوم ان احد أفرادها قام بتزيميم جامع القصبة (11) ، وان سليمان النيقرو ترك لنا مخطوطا بعنوان «بلوغ المنى في قواعد الردم والبناء» الذي يحتوي حسب ما جاء في وثيقة خطية تسلمتها من استاذي الجليل سليمان مصطفى زيبس ، على المواضيع التالية : الأساس بناء الجدران المشتركة . بناء الحمامات ، بناء المساجد ، بناء الميضات ، بناء الكوش والمعاصر والأبراج والأسوار والقناطر والجسور والأقواس والأدماس والقباب والآبار والإسطبلات والقنوات والخنادق .

وبالرغم من المحاولات العديدة والتحقيقات التي قمت بها فإني لم أتمكن من العثور على هذا المخطوط . والملاحظ في هذا الشأن ان استاذي لم يتذكر مصدر هذه الوثيقة التي تعد حسب اعتقاده فريدة من نوعها في هذه الفترة . وبجانب هؤلاء فإن شورية وبولين كانا يعملان في حاضرة سراية باردو كمختصين ، في حين كان محمد بالي ناظرا عليها

(4) أ.د.ت. دفتر 2225 (1) ص 200

Note sur l'archéologie : source de l'histoire morisco-andalouse », in *Actes du II Symposium International du C.I.E.M.* t.1, P 309.

(5) أ.د.ت. دفتر 2225 (3) ص 394

(6) أ.د.ت. دفتر 2225 (2) ص 136 152 153 184

(7) أ.د.ت. دفتر 2225 (3) ص 326

(8) أ.د.ت. دفتر 2308 ص 61

(9) أ.د.ت. دفتر 2308 ص 1 .

(10) أ.د.ت. دفتر 2225 (3) ص 394.

(12) ومحمد الغرناطي مشاكا بحضيرة المحمدية (13) ومحمد تيوا بناء بيتزرت (14). وقد أفادت الوثائق ، انه من بين تجار مواد البناء لاحظنا وجود محمد قريط ومحمد بن محمد الأندلسيين (15).

ثانيا العـدول :

لاشك ان هذه الفئة لعبت دورا اجتماعيا كبيرا وكانت متواجدة بكثافة في معظم انحاء الإيالة التونسية . وقد مكنتنا المخطوطات التي اطلعنا عليها بقسم المخطوطات بدار الكتب الوطنية التونسية من ان نقف على بعض جوانب هذه الفئة (16). وتعكس المقارنة بين مختلف المخطوطات ان العائلات الأندلسية التي اشتغلت بهذه المهنة عديدة وهي : واردة ليتو ، ماضور ، المنكبي ، الكشك الأندلسي ، بن حميدة الأندلسي ، بن محمد الأندلسي ، القرطبي ، زفزوف ، برتقيز ، عبد الواحد ، الدالي ، ابراهيم هويصة ، المالحى ، زيتون ، الكوندي ، كرباكة ، جهين ، الشنقيطي الهنديلي ، الريكلي ، مكيلين ، حاميلو ، الشواشي ، اللونقو ، الوزير (17). واما العائلات التركية فهي : بن الخوجة ، التريكي ، الأرثووط ، برناز ، القلمرتي ، بيرم ، بوغازلي ، الكشك ، غليونجي ، بن فرحات التركي ، درغوث ، قلايجيني ، بن محمد التريكي .

ويجب أن نلاحظ أن هذه القائمة غير كاملة لأن العديد من العائلات لم نتمكن من معرفة اصولها بصورة دقيقة . وعلى كل فإن القائمة تبين ان عدد العائلات الأندلسية يرتفع الى 26 بينما ينخفض الى 13 بالنسبة للعائلات التركية . ويتبين كذلك من الجدول المصاحب ان عدد العائلات الأندلسية يختلف بالبلاد التونسية . وسنة انتصاب الحماية الفرنسية بتونس بلغ التسعة بينما تقلص الى ثمانية بالنسبة للعائلات التركية . ويتبين كذلك من نفس الجدول ان القرى التي عرفت استيطان مكثفا للأندلسيين لم تعرف عددا موازيا من العدول . من ذلك ان قربالية بها ثلاثة على سبعة ، في حين ان نيانو وبلي اللذين يعتبران من انشاء الجالية التونسية لا يضمّان

(12) أ.د.ت. دفتر 2399 ص 1 و 15.

(13) أ.د.ت. 2225 (2) ص 477 .

(14) أ.د.ت. دفتر 2494 ص 19 و 25

(15) أ.د.ت. دفتر 2248 ص 20 .

(16) أ.د.ت. مخطوط عدد 3396 ج 1 و 2 و 3 .

(17) أ.د.ت. دفتر 2494 ص 3 و 19 و 63 .

أي أندلسي (18) بينما القيروان التي لم تكن قد استقر بها الأندلسيون وجدنا بها عددا أندلسيا .

ويتبين بوضوح أن الصورة التي رسمها الباحثون حول الجالية الأندلسية عند قدومهم قد تغيرت وعرفت تطورات عميقة لا يمكن دراستها إلا من خلال بحوث جبهوية .

جداول لعدد المدون بالجمهورية التونسية (1)

الملاحظات	الصفحة	عدد الأتراك	عدد الأندلسيين	الجملة	المدينة
(1) القاضي محمد بن محمود ماضور	7		3	12	سليمان (1)
	9			12	منزل بوزلفة
	9			2	تكلسة
	9			6	بني خلاد
(2) محمد بن الحاج الأندلسي	11		(2)3	7	قرنبايا
محمد بن محمد الأندلسي				4	ليانو . بلي
بشير بن الطاهر الأندلسي	11 و 19			9	الهوارية
(3) صادق بن أحمد القسطلي . محمد بن حسن القسطلي	13		(3)2	25	نسابل
	15			3	المعمورة
	15			10	بني خيار
	»			3	الصمعة
	»			7	قربة وترزكة
	17			22	منزل تميم
(4) محمد بن حسن التركي . محمد الصادق بن علي قارة	19	(4)2		10	قليبية
	»			33	زاوية المعاوين
(5) القاضي صادق كشوش	29			13 (5)	زغوان
	»			4	سبنجة
	33			1	جبل الأنصارين
	35			41	أولاد عيار
	37			9	كسرى
	»			24	أولاد عون
	42			31	الكاف
	44			19	الدشرة
	»			24	بوغانم
	»			16	خماسة
	50			25	تبرسق ودقة
	52			8	الكريب
	»			14	دريد
(6) حسن بن علي التركي وكذلك بهما يهودي حيم يو. الربيعي	54	(6)1		51	موسة
	58			16	مساكن
	»			5	الوردانين

(17) مكرر أ.د.ت. . دفتر رقم 3565 .

(18) Epalza, Petit, *Etudes sur les moriscos-andalous en Tunisie*, Madrid, Tunis, 1973

60		20	أكودة
62		11	الكأحليين
64		15	القصيبة والقلمة
66		23	حمام سوسة
68		30	هرقلة وجمال
72		6	أولاد سعيد
74		40	المنستير
76		17	مكنين
78		12	قصر هلال
»		2	بو حجر
80		6	صيادة
»		4	لمطة
»		3	قصيبة المديوني
84		28	جمال والسواحي
88	(1)1	18	المهدية
90	»	13	قصور الساف
»	»	5	مثاليث
98	(2)1	84	القيروان
100	»	10	سبيبة
102	»	17	جلاص
104	»	12	تالة
106	»	40	أولاد بوسالم
110	»	59	باجة
116	»	24	مجاز الباب
(3) محمد بن أحمد الأندلسي	(3)1	31	ماطر
(4) أحمد التركي	(4)1	28	بنزرت ومنزل عبد
»	»	1	الرحمان
»	»	10	منزل جليل
(5) محمد بن عبد الرحمان	(5)1	8	المالية
الإمام (6) علي كريسو	(6)1	14	غار الملح
(7) عبد القادر بليشوك	(7)1	4	رأس الجبل
(8) محمد بن الخوجة .	»	3	رفراف
أحمد بن الخوجة . محمد	»	3	الماتلين
كشك .	»	9	عوسجة
»	»	2	طبرية
»	»	2	قلمة الأندلس

ثالثا : الشواشمة

من الصناعات المرتبطة بالوجود الأندلسي بالإيالة التونسية صناعة الشاشية التي لعبت دورا أساسيا في اقتصاد البلاد خلال قرون طويلة . وينبغي ان نلاحظ ان الصورة التي تركها الباحثون حول هذا الموضوع تنحصر في بعض الجوانب : كاستعمال الكلمات الإسبانية في هذه

الصناعة (19) أو المنافسة الأوروبية التي تعرضت إليها (20) أو المظاهر المعاصرة لها (21) أو المشاكل المتعلقة ببعض مراحل الصناعة في بداية هذا القرن (22) .

غير أن الوثائق التي تمكنتنا من الاطلاع عليها امدتنا بمعلومات جديدة كانت وراء دراسة جانب آخر للموضوع اذ هي تشير الى بعض الحرفيين القائمين عليها . ويتضح من هذه القائمة ان العنصر الأندلسي يسيطر تماما على هذه الصناعة باستثناء محمد الماطري ومصطفى الماطري ، فإن البقية متكونة من العنصر الأندلسي .

حوانت الشواشية بسوق الشواشية بتونس سنة 1140 / 1727 (دفتري 2249 مكرر ص 76 . 97) .

حانوت القسطلي
حانوت الحاج أحمد ويشكة
حانوت الحاج محمد القسطلي
حانوت السيد القسطلي
حانوت محمد الاخوة
حانوت محمد النشار
حانوت محمود لورقة
حانوت لورقة
حانوت محمد الماطري
حانوت احمد المرطللي
حانوت الحاج احمد بالمة
حانوت الحاج عثمان كرضبة
حانوت مصطفى الماطري
حانوت غريب

(19) Teyssier, P. « Le vocabulaire d'origine espagnole dans l'industrie de la chéchia », in *Etudes*, p. 308.

(20) Valensi, « L'Islam et le capitalisme, production et commerce de la chechia- en Tunisie et en France aux XVIII et XIX^e siècles » in *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, 17, 1969, 376—4000.

(21) Ferchiou, «, *Technique et société : la fabrication de la chéchia tunisienne*, Paris, Paris, 1971.

(22) مقالنا : « وثائق جديدة حول اقامة «باطان» جديد لغسل الشاشية » . في مجلة الفنون والتقاليد الشعبية . (تونس) 1984 ، 5 - 9 .

حانوت محمد البنزرتي
 حانوت علي الاخوة .
 حانوت يوسف الاخوة
 حانوت كوينة
 حانوت الحاج محمد الاخوة.
 حانوت محمد قلالو
 حانوت محمد الشكيتو
 حانوت أحمد شكلابو

وتضيف وثيقة أخرى بتاريخ 1170 / 1756 عددا آخر من الحوانيت في تصرف الأندلسيين الآتية أسماؤهم : الريكاخون ، الكاشو ، الدرافل كرباكة ، قادالو ، الإبريني ، ويشكة . اما العنصر الأندلسي فبحوزته حانوت واحد تحت تصرف عمر ساقسلي (23) . ويجب الملاحظة ان في هذه السنة كان الوكيل على اسواق الشواشية مصطفى بن الحاج حسين بأكير الذي هو غير اندلسي .

وبالإضافة الى ما اشرنا اليه فإن الأندلسيين يتعاطون صناعة الشاشية في الجيش ومنهم القورصو والقرمطو (24) ، ويظهر كذلك من خلال وثيقة أخرى ان محمد الأندلسي القاطن بمجاز الباب التي تعد من المناطق التي هجر اليها الأندلسيون كان من بين الممولين للباي بالشواشي (25) ولكننا لم نتعرف على الطريقة التي كانت تمارس بها العملية خاصة اذا علمنا وان هذه القرية لا تلعب دورا في صناعة الشاشية .

ويمكن القول اذن بناء على ما تقدم بأن هذه الصناعة مازالت بأيدي الأندلسيين ، الا أنه يجب التأكيد ان ذلك بارز في مستوى المرحلة الأخيرة من الإنتاج لأن مرحلة غسل الصوف وغزله تتم في العادة خارج سوق الشواشية بالحاضرة اي بالبطان وزغوان . الا أننا لا نعلم اهمية الأندلسيين في هذين المرحلتين غير أن الجدول التالي يجعلنا نفكر بأن كل مراحل الصناعة يسيطر عليها الأندلسيون وهذا الجدول يبين ان في سنتي 1188 / 1774 و 1268 / 1851 كان امين الشواشية اندلسيا .

(23) أ.د.ت. دفتر 97 ص 203 و 205 .

(24) أ.د.ت. ملف 932 رزمة 174 وثيقة 27 .

(25) أ.د.ت. دفتر 2126 ص 122 .

محمد فرنسيس	أمين السراجين
عمر الشباب	أمين الشعارة
الحاج عمر ابن دلايين	أمين البرادعية
حسونة حميد	أمين الحلقاوين
عثمان بن قمر	أمين حصر الحلقة
قاسم الصمعي	أمين الحبال
الحاج محمد القرجاني	أمين القلامين
الحاج علي المليتي	أمين نجارة الجبوز
محمد بن عبد القادر	أمين الفخاخريّة
الخطاب	أمين حدادة باب سوقة
الحاج خميس السينغ	أمين حدادة باب المنارة
علي التركي	أمين الصفاحية
الحاج حسن بوناب (26)	أمين سوق الباب الجديد
قز دغلي	أمين التوارزية
احمد الحجار	أمين الفخار المطلي
محمد الباقي	أمين الفخار الشواط
محمد الباقي	أمين القلايين
محمد خوجة	أمين الترسخابة
محمد العروسي	أمين الشواشية
بكار الفياش (27)	أمين السراجين
محمد عينية (28)	أمين الحجارة
الريكاخون	أمين الشواشية
البلاكو (29)	أمين البناية

يعكس هذا الجدول أن عدد الأتراك العثمانيين يبلغ الثلاثة بينما انخفض الى الإثنين بالنسبة للأندلسيين من مجموع 24 .
رابعا العسكريون :

كان الحكم العثماني في البداية يعتمد اساسا على العنصر التركي العثماني الذي اسندت اليه المناصب المدنية وخاصة العسكرية . الا أنه

(26) المكتبة الوطنية التونسية مخطوط 21808 ، ص 7 . 47 . 112 . 140 .

(27) أ.د.ت. : دفتر رقم 2126 ، ص 139 .

(28) أ.د.ت. : دفتر رقم 2502 ، ص 120 .

(29) أ.د.ت. : دفتر رقم 507 : ص 143 .

بداية من حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية شرع الباي ابتداء من سنة 1705 تقريبا يقلد هذه المناصب للعنصر الأهلي (30) والكرغلي . ونتيجة لذلك فإن المناصب العسكرية لم تبق حكرا على المذكورين إلا أنها بقيت بأيديهم وتؤكد الوثائق هذه الحقيقة كما ان العنصر الأندلسي شغل مناصب ثانوية . فقد كان كريستو يعمل مختصا بترسخانة حلق الوادي واحمد كريستو مكلفا بصنع اسرة المدافع واما البقية (الوردي ، شلبطون ، الكانتي ماركو ، بيراوانة ، شكلايو ، الفورصو ، القرمطو ، استريكو ، بلانكو) فكانت غير مختصة . وبالمقارنة مع الأتراك العثمانيين فإن البون شاسع ومن ذلك ان محمد لاز التركي كلف بمرسى سوسة ، والحاج عبد الرحمان التركي بخزنة السلاح والمدافع ، والحاج احمد التريكي بأبراج بنزرت ، وقادري ابراهيم بأبراج الوطن القبلي ، ومحمد الأرنبوط بخزنة السلاح بالقشلة الأحمدية .

ومن جهة أخرى فإن محمد قايجي شغل منصب معين الوزارات ومحمد اسطنبولي امين الصنایعية بترسخانة حلق الوادي ، ومحمد بن حسرة اسطنبولي امينا على اسلحة العساكر ، واحمد حسن التركي معين الوزير الأول (31) . وتبين مجموعة أخرى من الوثائق ان علي الزمرلي (32) كان من بين الضباط الذين سافروا الى اسطنبول سنة 1270 / 1853 مع أمير الأمراء الرشيد (33) .

ومن جهة أخرى يبرز لنا الدفتر عد 3138 المتعلق بإحصاء عسكر آلاي الثالث أن مجموع الأندلسيين العاملين به يبلغ الثلاثة (الملازم علي الترجمان (ص 67) محمد شاتلو (ص 60) السنجق دار صالح شلاقوا (ص 359) بينما يرتفع مجموع الأتراك الى الثمانية (القايم مقام محمد المورالي (ص 1) حسين مميش التركي (ص 5) حسن قبرصلي (19) وزنباشي حسن بيرم (ص 57) بين باشي محمد بن عصمان (ص 129) الملازم مصطفى المورالي (ص 179) يوزباشي حسن التركي (222) واليوزباشي محمد بن محمود التركي (ص 346) .

Cherif MH, Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn Bin Ali (1705-1740), (30) Tunis Faculté des Sciences Humaines et Sociales, 1984, tI, 378p.

(30) راجع ايضا : رشاد الإمام ، سياسة حمودة باشا في تونس ، 1782 - 1814 . تونس ، الجامعة التونسية ، 1980 ، ص 201 .

(31) أ.د.ت. : ملف 932 رزمة 174 الوثائق 29.27.26.25.16.10.9.6.2 .

(32) أ.د.ت. : ملفات : 1019.1018.101 . رزمة 183 . ص 52 .

(33) أ.د.ت. : احمد ابن أبي الضياف ، اتحاف ج 8.1166. ص 149 .

ويتضح كذلك من دراسة عدد التلامذة المتخرجين من مدرسة باردو او مكتب الحرب سنة 1278 / 1861 ان العنصر الأندلسي غائب بينما تخرج الصادق بن خليل التركي ضابطا (34) عندما كان الصاغ قولاغاسي محمد خوجة التركي مكلفا بالمقبوض والمصروف بهذا المكتب (35) .

خامسا : ریاس البحر

الى جانب هذه المهن والحرف تتضمن الوثائق بعض الإرشادات حول ریاس البحر فالقائمة التي لدينا تبين ان العنصر التركي العثماني يشكل الأغلبية الساحقة . والعائلات التي احصيناها هي : كشك ، مدرلي ، المورالي قارة ، الأرثووط ، بيرق دار ، الزمري ، لازغلي ، قارة دنقرلي ، خوجة ، روديسلي ، اسطنبولي ، لاز ، قبرصلي (36) ويوجد رياس اندلسي واحد وهو مسعود ريان (37) . كما يتبين كذلك من هذه القائمة ان لعائلي الأرثووط واسطنبولي عدة افراد في هذه المهنة .

سادسا : مهن وحرف أخرى

لا يندرج نشاط الأندلسيين والأتراك العثمانيين في هذه المهن والحرف فقط ، بل يتعداه الى امانة دار السكة وتولاها محمد القسطلبي (38) و امانة الصياغة تحت تصرف احد افراد هذه العائلة (39) . اما بالنسبة للعنصر التركي العثماني فقد كان محمد الأرثووط وكيل القمرق بسوسة (40) بينما كانت وكالة أملاك الباي بزغوان احدى القرى الأندلسية الهامة يتقلدها احمد بن دالي الحنفي (41) وكان حسن التركي آغة بيت المال (42) . ومن جهة اخرى فقد كان اليهودي زاكي البلنسي يتعاطى الترازة (43) واما شكلابو فكان يشتغل بصناعة الحرير (44) .

-
- (34) أ.د.ت. : دفتر 2407 ص 139 .
 (35) أ.د.ت. : دفتر 2401 ص 41 و دفتر 2407 ص 7 .
 (36) أ.د.ت. : دفتر 2140 ص 33 34 40 .
 (37) أ.د.ت. : دفتر 2166 ص 17 .
 (38) م انسي دالر السكة تونس كلية الآداب 1978 ص 60 .
 (39) تملك هذه العائلة كوثة لاسفنج خارج باب منارة . أ.د.ت. : دفتر 2306 ص 23 .
 (40) أ.د.ت. : دفتر 2126 ص 228 .
 (41) أ.د.ت. : دفتر 2502 ص 17 .
 (42) أ.د.ت. : دفتر 2306 ص 48 .
 (43) أ.د.ت. : دفتر 2294 ص 13 .
 (44) أ.د.ت. : ملف 932 رزمة 174 وثيقة 27 .

-ويتبين لنا من هذه الأمثلة الدقيقة ان الأتراك العثمانيين مازالوا مرتبطين بالمهن القريبة من السلطة ، بينما بقي الأندلسيون متمسكين بالحرف التي اتقنوها كالبناء والشاشية . ومن المفيد ان نلاحظ ان عائلة القسطلبي تعد من أكبر العائلات الأندلسية حيث لعبت دورا اساسيا في دار السكة قرابة القرنين ولم نجد نفس هذه الظاهرة عند عائلات اندلسية اخرى (45) .

بقي علينا الآن ان نبدي بعض الملاحظات لها مساس كبير بموضوعنا . فقد لاحظنا أن اماكن الشغل في فترة لم نتمكن من تحديدها بالضبط حيث تبنت اسماء لاتينية ونذكر على سبيل المثال فبريكة الملف وفبريكة الدبابة ، وينطبق ذلك ايضا على العاملين بها كالماكينجي مثلا (46) ، وفي نفس هذا الإطار نلاحظ ان العديد من الحرفيين يحملون اسماء تركية كالسباولجي أو الطابعجي أو الشرباجي (47) كما توجد اسماء تعتمد التركية والعربية كمعلم الموزكة والمكلف بالخزائن والترسنة والأبراج والبطرية والكرسته (48) .

وفي الأخير يجب ان نشير الى وجود اشياء تتعلق بالأندلسيين مثل عبارة النجار الأندلسي الذي يظهر انه ارقى من نجار الجبوز (49) فعلي الشومي ليس من اصل أندلسي ، الا أن الوثيقة تذكر انه نجار اندلسي (50) .

وقد استرعى انتباهنا وجود الزنابل الأندلسية كوحدة قياس ويمكن ان يكون الزننيل الأندلسي مغايرا للزننيل المتعارف عليه كما هو الشأن بالنسبة للذراع الأندلسي (52) .

الخاتمة

نقف من المعلومات التي توفرت لدينا من خلال هذا العرض السريع ان الأندلسيين اشتغلوا خاصة في البناء والشاشية ، كما وصل العديد

(45) رشاد الإمام «الأندلسيون في البلاد التونسية في منتصف القرن التاسع عشر من خلال خزانة الوثائق التونسية» في المجلة التاريخية المغربية ، 23 - 24 (1981) 293 - 318 .

(46) أ.د.ت. : دفتر 2246 ص 3 .

(47) أ.د.ت. : دفتر 2407 ص 147 ودفتر 2308 ص 4 .

(48) أ.د.ت. : دفتر 2213 ص 42 ودفتر 2216 ص 123 .

(49) أ.د.ت. : دفتر 2225 ص 365 ودفتر 2239 ص 57 .

(50) أ.د.ت. : دفتر 2225 (4) ص 210 .

(51) أ.د.ت. : دفتر 2216 ص 29 .

Legendre, M. *survivance des mesures traditionnelles en tunisie*, Paris, P(48) (52) 1958, P 18 I.B.L.A.N°143 N°68

منهم الى درجة الأمين في حين كانت المهن او الحرف المتعلقة بالبحر او الجيش او الوظائف المرتبطة مباشرة بالسلطة من نصيب الأتراك العثمانيين غير انه لا يمكننا - اعتمادا على هذه الأمثلة القليلة - اعتبار النتائج التي توصلنا اليها نهائية نظرا الى ان الوثائق المستعملة قليلة ، وثانيا الى ان العديد من المهن والحرف المرتبطة بالفلاحة والتجارة والوظيفة لم نتعرض اليها بطبيعة الوثائق . ولا بد ان نشير كذلك الى ان هذه الوثائق مكنتنا من التعرف على بعض العائلات الأندلسية او التركية غير المعروفة - حسب علمنا طبعا - كعائلي واردة ليتو وقلايجيني ، وزوال بعض الأسر الأخرى التي لعبت دورا أساسيا اثناء القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر (53) .

واعتقادنا انه بالإمكان دراسة التنظيم الداخلي لكل مهنة او حرفة (شروط الانتداب والارتقاء والدرجات ووسائل مراقبة الإنتاج والتصرف وقضايا كل حرفة) ، وهي التي تطلب المزيد من الفحص بالاعتماد على الوثائق المتعلقة بدار السكة ودار البار ودار الملف ودار الجلد والرابطة فقط بالحاضرة بل كذلك بجميع انحاء البلاد . ومن الممكن كذلك القيام - انطلاقا من هذا النوع - من الدراسات بوضع خريطة عمرانية يظهر فيها الحرفيون والمهنيون وترجمت عن مشاكل الاندماج والانفلاق لكل فئة من الفئات .

د. عبد الحكيم القفصي

المعهد القومي للفنون والآثار - تونس

(53) ابن غانم الأندلسي .

Latham, J.D. « Muçtafa de Cardenas » in *Les Africains*, VII, Paris, de jeune afrique, 201-229.

Epalza, M, Nouveaux documents sur les andalous en Tunisie, au début du XVIIIè siècle Revue d'histoire Maghrébine, 17, 1980, 79-108.

Daguerre Kargo Poulo

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الفرمان السلطاني بتعيين ناظم باشا واليا على بغداد : دراسة وتحليل في ضوء وثيقة بريطانية

د. سامي عبد الحافظ القيسي
كلية الآداب
جامعة البصرة / قسم التاريخ

المقدمة :

تشكل الوثيقة في الدراسات الحديثة مصدرا أصيلا لا يستغنى عنها الباحث ، لما تسلطه تلك الوثائق من معلومات قلما تتوفر في المصادر المطبوعة الأخرى . وهذا الامر يرجع في اعتقادي الى المركز الذي يتمتع به مؤلف الوثيقة ، سواء كان اداريا أو سياسيا ، مما يفسح له مجال الاطلاع على بعض الحشيات والتفاصيل ، يعجز عنها غيره .

لذا فان هدف هذا البحث ما هو الا تسليط لبعض الاضواء التي رافقت تعيين ناظم باشا واليا على بغداد عام 1910 ، اعتمادا على الترجمة الانكليزية للنص التركي لوثيقة تتوفر مع غيرها من الوثائق في مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة ، حيث توجد في خزانة المركز مجموعات وثائقية مختلفة ، منها على سبيل المثال وثائق وزارة الهند التي احتوت على تقارير للمقيم البريطاني في العراق والتي اعتاد ان يرفعها الى حكومته يضمنها آراءه عن كثير من الامور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في العراق .

ففي تقرير رفعه لوريمر في 6 حزيران 1910 ، أوضح فيه أن أهم مسألة يمكن أن يسقط عليها الضوء وصول حسين ناظم باشا كحاكم عام لولاية بغداد وقائدا للفيلق السادس (I) :

لماذا ناظم باشا ؟؟

في رأي بعض الكتاب المعاصرين ان ناظم باشا الذي حكم ولاية بغداد عام 1910 قد استطاع بما كان يملكه من صلاحيات واسعة وبما كان يتمتع به من مؤهلات شخصية ان يسيطر على بغداد ويعيد الامن النسبي الى ربوعها بعد أن حرمت منه ردحا من الزمن (2) .

(1) India Office Library and Records, Report written by J. G. Lorimer, Political Resident and Consul-Général, Baghdad, 6th June 1910, L/P. S/10/188, p. 252.

(2) انظر على سبيل المثال : عباس الغزاوي ، العراق بين الاحتلالين ، ج 1 ، (بغداد ، 1956) ، خيرى العمري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ، 1969) ، علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ، ج 3 ، (بغداد 1972) .

وهكذا فإن فرمان السلطاني القاضي بتعيين ناظم باشا يعد وثيقة تاريخية مهمة جديرة بالدراسة والتعليق حيث أكدت على مكانته وضخامة مسؤولياته وعلى مجموعة الموظفين الذين رافقوه للعمل في بغداد والمؤهلات التي كانوا يتمتعون بها .

وقد ورد ذلك في صدر فرمان حيث ذكر ما يلي :

« الى ناظم باشا قائد فرقة من الدرجة الاولى وعضو مجلس الدولة العسكري ، قلدناك حاكمية ولاية بغداد وقيادة الفيلق السادس . ولما كانت رغبتنا لا تقتصر على تحسين ولاية بغداد وتنمية ثروتها فقط ، وانما لاعادة وتحسين تنظيمات الفيلق السادس ، نرى ان ندمج الوظائفيتين ونعهد بها اليك » .

وضمن هذه المقدمة جاء التأكيد على مكانة ناظم باشا :

« ولما كنت يا ناظم باشا معروفا باخلاصك ومعرفتك الواسعة بالشؤون العسكرية والمدنية وأحد أهر قاداتنا العسكريين ، أصدرنا إرادتنا الامبراطورية بتعيينك حاكما وقائدا عاما في الدولة المذكورة ، ونعطيك في الوقت نفسه ، صلاحية الاحتفاظ بعضويتك في مجلس الدولة العسكري » (3) .

لقد كانت البنود والفقرات التي نص عليها فرمان بمثابة منهاج عام للاصلاح وبشكل خاص الجانب العسكري منه ، حيث نص فرمان على ما يلي :

« عند وصولك الى بغداد ستدرس حالة الضباط في فيالق الجيش بشكل عام ، وستعزل من تجده غير مؤهل وتحل محلهم آخرون . وستبلى كل الاجراءات اللازمة بذلك بدون تأخير من قبلنا ، ومن قبل كل الاقسام ذات العلاقة في الدولة » (4) .

كذلك أعطى فرمان السلطاني لناظم باشا صلاحية تنظيم القيادة العسكرية وخوله صلاحية الاحتفاظ بالوحدات العسكرية الاربعة الموجودة في ولاية الموصل ضمن تشكيلات الفيلق السادس . وتم اعلامه أيضا بأن التعليمات قد أرسلت الى وزير الحربية لشراء أربع زوارق مدرعة سترسل الى البصرة لتتمركز في شط العرب لغرض نقل الجنود كما سيضاف اليها ثلاث سفن أخرى للغرض نفسه (5) .

أما فيما يتعلق بالمعدات العسكرية الأخرى ، كالأسلحة والاعتدة وبقيّة التجهيزات ، فهناك مؤشرات مشجعة في فرمان يجعلها تحت تصرف ناظم باشا من خلال الإشارة الى وزير الحرب للنشاور بصدد ارسال تلك التجهيزات .

India Office, Lorimer's report, 6.6. 1910, L/P/10/188, 253 (3)

India Office, *Ibid*, p. 253. (4)

(5) عباس المزاري ، المصدر السابق نفسه ، ص 192 .

أما بصدد الجوانب المالية فإن الفرمان أفرد تخصيصات مهمة لولاية بغداد بهدف تحسين وتطوير أساليب النقل والاتصال بين الولايات العراقية. إذ يبدو واضحا ان ميزانية الولاية لم تكن كافية لتلبية احتياجاتها . حيث كان المدور من العملة قليل . وعليه فإن الاوامر قد أعطيت الى وزير المالية لمعالجة العجز المالي في ميزانية بغداد بتأمين المساعدات المالية من المؤسسات المصرفية . كما خوله صلاحية تقرير كافة التفاصيل المتعلقة بالموضوع .

وهكذا فإنه أرسل في 18 ماي 1910 تلغرافا الى ناظم باشا يعلمه بأنه أي وزير المالية أرسل مبلغا يعادل حوالي (30) ألف ليرة الى بغداد .

الا ان هذه التخصيصات لم تكن كافية ، كما يبدو ، للتغلب على المشاكل المالية . كما لم ترد أية مقترحات أخرى في كيفية معالجة الوضع المالي .

من جهة أخرى أعلم الفرمان ناظم باشا عن اهتمام وتصميم السلطة العثمانية بتحسين الاحوال المدنية في ولاية بغداد من خلال التعليمات التي أرسلت الى وزير النافعة التركي بضرورة تخصيص مبلغ من المال يعادل حوالي (40) ألف ليرة سنويا لتحسين وفتح طرق جديدة في ولاية بغداد (6).

وقد اختتم الفرمان تأكيد ثقة السلطة العثمانية بكفاءة وحماسة ناظم باشا الذي توقعت الحكومة منه بذل جهد استثنائي في تنفيذ واجباته بكفاءة عالية .

وجاء في ملحق للفرمان قائمة باسماء بعض كبار الضباط الذين رافقوا ناظم باشا الى بغداد ومنهم حسن رضا بك رئيس اركان الجيش ومحمد حكمت قائد البحرية .

وكان الاول منهما حسبما ذكر المقيم البريطاني ، يتقن الالمانية والفرنسية ويتمتع بنشاط ملحوظ وقابليات متعددة . أما الثاني فإن يتكلم الانكليزية بطلاقة وامتاز باعتداله وانزوائه ويظهر أنه : « سيتبوؤ مركزا مرموقا في قسم البحرية في استنبول » (7) .

تحليل وتعليق على بعض نصوص الفرمان :

وصل ناظم باشا الى دير الزور في 23 نيسان 1910 في طريقه الى العراق ، ومنها الى عانة ثم دخل بغداد في الخامس من ماي 1910 .

وكان قبل وصوله بغداد قد أصدر أمرا الى المجلس البلدي عارض فيه اجراء ترتيبات أو مراسيم باهظة التكاليف لسكناء أو سكنى الموظفين الذين

(6) من أعماله المشهورة في بغداد جلبه ماكنه لرش الماء في الأسواق دلالة لاهتمامه بنظافة بغداد ، شق سارح النهر وغطاه بالقيير . كما أقام سدة حول الجهة الشرقية من بغداد لحمايتها من الفرق ، كذلك أمر بقتل الكلاب السائبة . لمزيد من التفاصيل انظر الوردي ، المصدر السابق نفسه ، ص 180 .

رافقوه . وفي الفلوجه رفض اجراءات مشابهة كان قد قرر القيام بها بعض شخصيات بغداد ممن هم أعضاء في المجلس البلدي مثل عيسى أفندي وجميل زادة .

لقد قرىء الفرمان بتعيين ناظم باشا واليا على بغداد في السراى يوم II ماى 1910 ، أى بعد ستة أيام من وصوله بغداد بحضور عدد كبير من الموظفين ومن سكان مدينة بغداد .

كانت الجوانب العسكرية التي اضطلع ناظم باشا بتنفيذها أكثر اهتماما لديه من الجوانب الادارية . وهذا يبدو طبيعيا جدا اذا أخذنا بنظر الاعتبار خلفياته العسكرية التي أهلته ليحتفظ بمنصبه عضوا في مجلس الدولة العسكرى اضافة لوظيفته الجديدة في حاكمية ولاية بغداد .

وكان المقيم البريطانى قد عكس اهتمامات الوالى الجديد العسكرية في تقريره الذى رفعه الى السفير البريطانى في الاستانة ، والذي اعتمدناه في تدوين بعض الملاحظات على نصوص الفرمان . فقد ذكر بانه لاحظ نشاطا عسكريا أخذ يطفو على السطح تصحبه سرعة محمومة . وكان أول نتائج هذا التوجه طرد راغب بك الرئيس السابق للقسم الثانى في هيئة الاركان العامة لتدنى قدراته ومؤهلاته .

وعلى الرغم من التسليم بأن الجوانب العسكرية قد احتلت المكانة الاولى في اجراءات ناظم باشا الا ان النشاطات اللاحقة أظهرت اهتمامات ادارية وعمرانية طغت أحيانا حتى على الجانب العسكرى . وعليه فقد أصدر مثلا الاوامر بفصل بعض كبار موظفى الخدمة المدنية من وظائفهم كالمكتوبجى أو سكرتير الولاية ، المستنطق الاول ، مدير الشرطة ورئيس المجلس البلدى . ولم تتوفر المعلومات التى يمكن من خلالها تفسير مثل هذه الاجراءات .

وضمن هذا التوجه الادارى ، فقد أصدر ناظم باشا أيضا ، أمرا لجميع المتصرفين والقائمقامين وكل مسؤولى الاقسام الادارية في ولاية بغداد بارسال التقارير اليومية عن أوضاع دوائرهم والاعمال التى تقع ضمن مسؤوليتهم . وعلى رأى المقيم البريطانى ان مثل هذه الاجراءات لا يكتب لها النجاح المستمر ويصعب تطبيقها بشكل دائم .

كذلك استدعى ناظم باشا عددا من رؤساء الوحدات الادارية الى بغداد ، ومن بين هؤلاء والى البصرة الذى جاء الى بغداد يوم II مايس وبقي فيها حوالى 20 يوما اذ غادرها يوم 30 مايس 1910 . وقد شاع في بغداد في حينها انهما افترقا على غير اتفاق .

ويمكن السبب في ذلك ، على أغلب الظن ، الى الاختلاف في سياستهما الادارية . اذ لم يكن ناظم باشا سعيدا مع سياسة سليمان نظيف في التعامل

مع العشائر والتي اتسمت بالتهور والتسرع ، بينما سعى هو أى ناظم باشا الى سياسة التفاهم والتراضى . وقد عبر عن هذه السياسة باطلاقه لسراح عدد من زعماء العشائر الموقوفين فى السجن فى سراى بغداد ، بعد ان تعهدوا بالامتنال لاوامر الولى . هذا فضلا عن استدعائه لعدد آخر من الزعماء من جميع مناطق العراق للغرض نفسه وحملهم رسائل النصح الاعتيادية بضرورة المحافظة على الامن والنظام فى مناطقهم .

وذهب ناظم باشا خطوة أبعد حينما حاول أن يستخلص - ولكن دون جدوى - فتاوى من رجال الدين بتحريم الغزو والمعارك ، فتكون سلاحا بيد الحكومة ضد المخالفين (8) .

وعلى رأى المقيم البريطانى ان مثل هذه الاجراءات قد تم اقتراح ما يماثلها فى الهند لوضع حد للاعتداءات ضد الاوروبيين ولا سيما فى المناطق الشمالية الغربية للهند ، الا انها لم توضع موضع التنفيذ . وأكد بأنه من خلال سير الامور العامة فى بغداد ومن الشعور السائد بين الموظفين وأصحاب المصالح من البريطانيين ، بأن تلك الاجراءات ليست بذات جدوى .

وهنا لا بد من الاشارة بأن ناظم باشا لم يكن الاول من لجأ الى ذلك الاسلوب فى السيطرة على العشائر ، فقد سبقه الى ذلك حسن باشا عام 1704م وداود باشا عام 1817م وغيرهما ، الا انهم فشلوا .

وهناك مسألة أخرى جديرة بالتعليق وهى علاقة ناظم باشا بادارة وليم ويلكوكس لمشاريع الرى والتي لم تتسم بالاجابية . اذ حصل أن قام فى يوم 24 مايس 1910 أحد أصحاب الاراضى البارزين فى ولاية بغداد وممن له مصالح فى نجاح أعمال الرى المدعو مناحيم دانيال بنقل خبر الى المقيم البريطانى مفاده أن ناظم باشا أوجد لجنة برئاسة وعضوية دفتر دار الولاية وتقييب بغداد ومناحيم دانيال نفسه . وعقدت هذه اللجنة أول اجتماع لهما فى 22 مايس . ويبدو من مجريات تفاصيل الاجتماع ان سلطات الولاية كانت تسعى الى تجميد وليم ويلكوكس ولوضع أعمال الرى تحت اشرافها . وتسأل دانيال من المقيم البريطانى فيما اذا كان بإمكانه التدخل لمنع وقوع مثل هذا الامر .

فكان رأى المقيم البريطانى أنه لا يستطيع التدخل وليس من صلاحيته منع ذلك . ولكن اذا طلب منه ابداء النصح والارشاد فانه سيفعل ذلك بكل رحابة صدر . وهنا يورد المقيم البريطانى اضافة مفادها انه تقابل مرة ثانية مع دانيال هذا يوم الثالث من حزيران 1910 . وعلم منه بعدم حصول أى اجتماع آخر للجنة المشار اليها .

(8) الوردى ، المصدر السابق نفسه ، ص 177 .

وفى أغلب الظن أن ناظم باشا قد صرف النظر عن الموضوع لاسباب منها أنه قد واجه مسائل أكثر إلحاحا من وليم ويلكوكس وأعماله . أو أنه استلم تعليمات من حكومته بالتوقف عن مضايقة ويلكوكس ومشاريعه الاوراثية .

وهنا لا بد من القول لو أن ناظم باشا قد نجح في هذه المسألة باجنته أو باتفاقه مع ويلكوكس لكان قد حل مشكلة الارض والعشائر في حدود ولاية بغداد على أقل تقدير .

الخاتمة :

لا شك ان دراسة الوثيقة كشفت جانبا ولو مختصرا عن الواقع الرسمي لفترة ناظم باشا التي استمرت حوالى السنة فى بغداد . وهى وان اتسمت بشيء من الايجابية الا ان قصر فترة حكمه واضطراب أحوال السلطة المركزية وتآزم الوضع الدولى جعل من الصعوبة بمكان تقييم مثل هذه الفترة ضمن السياق التاريخى العام .

وعلى العموم فالى جانب ما ذكر عن ايجابياته فان فترته لا تخلو من سلبيات تمثلت بتلك الاوامر الصارمة برفضه الالتماسات والعرائض المدونة بغير اللغة التركية ، وتأكيداته بعدم استلام أى طلب يكتب باللغة العربية .

كما أن علاقته الحزبية مع جمعية الاتحاد والترقى لم تكن على وئام ، لكونه إئتلافيا ، وقد انعكس هذا الامر حتى على علاقاته مع مشاهير بغداد كالشاعر الزهاوى الذى ناصبه العداء لكونه اتحاديا .

د. سامي عبد الحافظ القيسي

كلية الآداب جامعة البصرة

قسم التاريخ

العلماء وطرق الصوفية والتنظيم الحرفي معطيات من تاريخ السلطة والمجتمع في ولاية سورية

د. وجيه كوثراني
الجامعة اللبنانية - بيروت

- المؤسسة الدينية بين الدولة والمجتمع :

ان الموقف الفقهي الذي يعتبر السلطنة العثمانية احدى السلطنات التي جاءت امتدادا طبيعية لسلطنة السلاجقة (I) ، والذي يجد جذوره الفقهية التبريرية في ما كان قد ارساء الماوردي وابن خلدون من نظريات حول « السلطنة » ، يجد تطبيقه العملي وترجمته الفعلية في الموقع والوظيفة اللذين احتلها العلماء في الدولة العثمانية .

ولما كانت لغة القرآن والشريعة وعلوم الدين هي اللغة العربية (2) ، فان العلماء الاتراك كانوا يدرسون بالعربية على يد علماء دمشق وحلب والقاهرة ويصنفون مؤلفاتهم بها (3) ؛ فكان ان احتل العلماء العرب لهذا السبب موقعا متميزا .

وفي هذا السياق شكل العلماء - عربا وتركيا - ما يمكن ان نسميه « المؤسسة الدينية » في جهاز السلطنة العثمانية ، ذلك ان السلطنة قامت ،

(1) يذكر عبد الكريم غرايبة حول امكانية امارة بني عثمان في استخلاف سلاجقة الروم ما يلي : « وكان ابن خلدون هو اول كاتب عربي اشار الى امارة بني عثمان وادرك امكانياتها وشعر انها اقوى الامارات التي خلفت سلاجقة الروم واقربها الى العدو البيزنطي واكثر تعرضا للخطر . كانت امارة متحفزة للدفاع والهجوم ، امارة غزاة كونت لنفسها بسرعة سجلا حافلا من روايات البطولة فاجتذبت اليها اعدادا من المتحمسين لنصرة الدين أو الراغبين بالنهب واصبحت امارة عثمان المتنافس الوحيد للحساس الديني في الإسلام فجاءها كل راغب بالجهاد » . عبد الكريم غرايبة ، العرب والاتراك . ص 272 .

(2) يروى ان السلطان سليمان بعد ان فتح مصر والشام اراد ان يجعل من اللغة العربية اللغة الرسمية للسلطنة بدلا من التركية فعاجلته المنية قبل اتمام هذا العمل . هذه الرواية - وبغض النظر عن مدى صحتها التاريخية - تعكس عبر وضعها وتناقضها طبيعة العلاقة بين العرب والاتراك في اطار السلطنة ، اذ يعلق محمد كرد علي على الرواية بصيغة التمني فيقول : « لو وفق السلطان سليم الى انفاذ هذه الأمنية لخلصت الدولة العثمانية في القرون التالية من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جبهة العرب عناصر كثيرة مهمة ولزاد انتشار اللغة العربية فاصبحت الاساتذة موطنها لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة » . راجع : محمد كرد علي خطط الشام ، ج 1 ، بيروت 1969 ص 221 .

(3) راجع نبذات من ترجمات هؤلاء العلماء في : طاشكيري زاده : علماء الدولة العثمانية ، قارن ايضا : احمد المرسي الصفصافي : الدولة العثمانية والولايات العربية ، في بحوث المؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية ، في المجلة التاريخية المغربية . تونس ، عدد 29 - 30 ، 1982 ، ص 323 .

وتسبب ما يمكن أن يضيفه ممثلو الشريعة على « شرعيتها » ، « بتنظيم العلماء على شكل سلسلة من المراتب بدرجات معينة معلومة ووظائف رسمية مع مرتبات تجرى عليهم بانتظام . وكان رؤساء هذه المراتب الدينية، وهم شيوخ الاسلام وكبار شيوخ القضاة والافتاء ، يستشارون في شؤون الدولة العليا ، وكان القضاة في الاقاليم السبيل الاكبر الذي كان يجرى عن طريقه الاتصال والترابط بين الحكومة المركزية والرأي العام لمساعي المدن الكبرى ، وأولت الحكومة رعايتها وحمايتها المدارس الاسلامية في المدن العربية ، وقامت هي من قبلها تأسيس مدارس جديدة في استانبول لتخريج رجال الدين وملء المراكز العليا في الادارات والمصالح الدينية (4) .

هذه « المؤسسة الدينية » التي اعتبرها المؤرخون جزءا من جهاز السلطنة العثمانية (5) ، شكلت في الواقع نافذة « المؤسسة الحاكمة » على المجتمع عبر وظيفتها القانونية والتعليمية في الولايات والمقاطعات (6) . بيد ان هذه النافذة لم تكن لتستوعب كل العلماء الذين يتخرجون من المدارس الدينية الكبيرة المنتشرة في مدن العالم الاسلامي والتي تفتح ابوابها لكل طالب علم... لذلك تبقى حركة التعليم الديني وبالرغم من تدابير الدولة لادخالها في اطار المؤسسة مستقلة نسبيا عن الوصاية الرسمية ويبقى المجال مفتوحا لاستقلال قسم من العلماء عن المؤسسة الحاكمة (7) ، وتكتسب هذه الاشارة معنى أكيدا ومطلقا بالنسبة للمسلمين الشيعة حيث استقلت مراكز التعليم الديني عندهم استقلالاً كاملاً عن المؤسسة العثمانية الحاكمة وحيث شكل « المرجع المجتهد » مصدرا للحكم الفقهي والفتوى (8) .

ومهما يكن من أمر ، فان العرب المسلمين وجدوا في الولايات العربية في العهد العثماني مجالا لهم في قطاع الوظائف الدينية (9) ، فهذا القطاع شكل

(4) ألبرت حوراني : الاسس العثمانية للشرق الاوسط الحديث ، جامعة اسكس ، 1969 ، ص 11 - 12 .

(5) بيري أندرسون ، دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بدیع عمر نظمي ، بيروت 1983 ص 14 . والنص العربي المترجم هو جزء من كتاب :

— *Lineages of the Absolutist State*, London, 1977.

(6) المرجع نفسه ، ص 18 .

(7) كما ستلاحظ ذلك بالنسبة للعديد من الاصلاحيين ، وكما ستلاحظ ذلك أيضا في موقف بعض علماء دمشق من ائمة المساجد حيال الوالي .

(8) يقول السيد محسن الأمين : « أن مرجع القضاء والفتوى الحقيقي في جميع ادوار جبل عامل هم العلماء المجتهدون العدول سواء في ذلك زمن قضائه الشيعة والمفتين الرسميين في العهد الإقطاعي وفي زمن امتياز لبنان القديم وفي عهد قضاة الاثراك الأحناف وفي عهد الاحتلال الفرنسي فجميع المفتين المعيّنين من قبل الحكام ليس لهم من القضاء والفتوى إلا الاسم اذا لم يكونوا مجتهدين عدولا لان الشيعة الامامية الجعفرية تعتقد .. ان منصب الفتوى والقضاء مختصان بالفقهاء المجتهدين الثقات العدول القادرين على استنباط الاحكام الشرعية من الادلة الاربعة الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل » . محسن الأمين : خطط جبل عامل ، بيروت طبعة 1983 ، ص 137 - 138 .

(9) ألبرت حوراني ، الاسس العثمانية ، ص 11 - 12 .

عبر مراتب الافتاء والقضاء وأمانة المساجد وغيرها من الوظائف الدينية ، احد مجالات التعبير عن السلطة المحلية في الولايات العربية ، اذ كان المفتون والقضاة في اغلبهم وفي اكثر الاحيان من السكان المحليين (IO) .

ولعل هذا ما سمح بقيام تنظيم للمدينة الاسلامية يوازن ما بين « المؤسسة العسكرية » للحكم العثماني (الولى والحاميات العسكرية) والمجتمع الديني وذلك عبر التنظيم الديني الذي يأتي في مقدمته المفتي ونقيب الاشراف والقاضي الذي هو « الحاكم الشرعي » للمدينة (II). لقد قام «الحاكم الشرعي» وقبل استحداث التنظيمات العثمانية ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر بمهام سلطوية عديدة ومتنوعة . فثمة قراءة منهجية لسجلات محكمة طرابلس الشرعية في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، تتيح لصاحبها ان يستنتج « ان المهمات المتعددة الملقاة على عاتق الحاكم الشرعي كانت واسعة جدا ، وقد قام بمهام قاضي الاحوال الشخصية ، والقضايا المستعجلة ، ومحكمة التجارة والاستئناف والجزاء والجنايات ، بالاضافة الى ان محكمته كانت ديوانا للمظالم ، اى المحكمة التى تنظر فى الدعاوى على الحكام . ولعب ايضا وظيفة قاضي العسكر . وواقع الامر ان وظيفة الحاكم الشرعي كانت اوسع من ذلك ، فهو الذى يوجه الوظائف (الدينية) وهو الذى يثبت مشايخ الحرف فى مشيختهم ويفض منازعاتهم . كما يشرف على الاوقاف ويعين المتولين عليها . ويظهر لنا ان الحاكم الشرعي كان صلة الوصل بين والى والاھالى فيما يختص بشؤونهم وانفاذ أوامر حكام السياسة » (I2) .

صحيح ان هذه المهمات السلطوية تتمحور حول القاضي ، بيد ان هذا التمحور يشكل نقطة التوازن بين والى بصفته استمرارا لنظام السبائية العثماني (الاقطاع العسكرى) (I3) ، وبين شبكة من الحلقات المتداخلة فى التنظيم الديني الذى يحتضن نشاطات وفعاليات المجتمع فى المدينة من علماء (رجال دين) واشراف وحرفيين وتجار .

(10) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون دمشق 1967 ، ص 82 ، ويمكن بناء على تعداد الحصني لبيوتات دمشق ان نذكر من العائلات التي خرج منها قضاة ومفتون في دمشق : البكري (ص 819 - 820) العلوى ، الجابي ، المنيني (ص 823) بنو الاسطواني (وظائف ص 837) المحاسني (839) الفزي (ص 843) بنو الزكي (ص 868) .

راجع : محمد اديب آل تقي الدين الحصني ، منتخبات التواريخ لدمشق بيروت 1979 ، وسنكتفي حين الرجوع الى الكتاب بالاشارة : الحصني ، منتخبات ...
(11) ان ما يسوغ هذا الاستنتاج عطفًا على ملاحظتنا هو ان البيوتات الدمشقية الشهيرة هي التي احتلت هذه المناصب في مدينة دمشق . قارن : الحصني ، منتخبات ، ولا سيما باب ذكر من اشتهر من بيوتات دمشق » ص 804 - 915 .

(12) خالد زيادة ، الصور التقليدية للمجتمع المدني في سجلات محكمة طرابلس الشرعية في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، الجامعة اللبنانية ، طرابلس ، 1983 ، ص 85 - 86 .

(13) جبوبون : المجتمع الإسلامي والغرب ، ص 72 ، ص 203 -

فشبكة العلماء ومريديهم تتكون من مجموعة واسعة من الافراد ابتداء من خطباء المساجد وأئمتها الى المؤذنين والقوام والخدمة والقراء والوعاظ الى المؤدبين والتربديرية « اي خدمة الاضرحة والمزارات والمقابر ... » (14) ، وهؤلاء وان كانوا يعينون من قبل القاضي ، ويتقاضون مداخيلهم من خلال الاوقاف التي هي تحت سلطته ، الا انهم لم يشكلوا « جهازا حكوميا » ملحقا بالادارة المركزية ، فقد كانوا يمارسون الى جانب وظائفهم التي يختارون لها « اعمالا وحرفا مختلفة » ، وسبب ذلك ان المداخل المخصصة لم تكن كافية وان الاسلام نفسه لا يدعو الى قيام مثل هذا الجهاز المستقل عن المجتمع (15) ، بل على العكس فان مفهوم العلم والعلماء في الاسلام يستتبع انفتاحا كلياً على الجماعة والامة وبالتالي على المجتمع ، حيث ينتظم العالم - الفقيه في الجماعة كجزء عضوي فيها وحيث يقدم العلم للآخر كواجب من واجبات المسلم (16).

وتتشكل فئة الاشراف في التنظيم الاهلي الديني من العائلات ذات الانساب الشريفة ، التي تعود في نسبها الى أهل البيت ، وهذه العائلات انتظمت منذ القديم في اطر من علاقات القربى عملاً بالحديث الشريف « اعرفوا انسابكم تصلوا ارحامكم فانه لا قرب بالترميم اذا قطعت وان كانت قريبة ولا بعد بها اذا وصلت وان كانت بعيدة » (17) ، وكان ان ثبتت هذه الاطر في « الدولة السلطانية » على أساس مبدأ « الولاية » فيحدثنا الماوردي في الاحكام السلطانية والولايات الدينية من « ولاية النقباء على ذوى الانساب » فيقول : « وهذه النقباء موضوعة على صيانة ذوى الانساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف ليكون عليهم احبى وامرهم امضى ... وولاية هذه النقباء تصح من احدى ثلاث جهات : اما من جهة الخليفة المستولى على كل الامور واما ممن فوض الخليفة اليه تدبير الامر كوزير التفويض وأمير الاقليم واما من نقيب عام الولاية ... فاذا اراد المولى ان يولى على الطالبين نقيباً أو على العباسيين نقيباً يخبر منهم اجلهم بيتاً واكثرهم فضلاً واجزلهم

(14) خالد زيادة ، الصورة التقليدية للمجتمع المدني ، ص 98 .

(15) المرجع نفسه ، ص 98 - 101 - 103 .

(16) تتأكد هذه الفرضية اكثر ما تتأكد في وضعية الفقيه عند المسلمين الشيعة . يذكر محسن الامين وهو مرجع مجتهد عند الشيعة ان الفرنسيين عزموا على احداث منصب رئيس علماء الشيعة في لبنان وقرروا (تعيينه) لهذا المنصب فكان ان رفض هذا العرض ، وكان يقول : « أنا موظف عند الله » محسن الأمين : سيرته ، بقلمه واقلام آخرين ، النجف ، العراق ، بدون تاريخ ، ص 94 - 95 . ويذكر ايضا عن الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي الجبلي (معاصر للسلطان سليمان) انه « مع ما كان عليه من الفقر والقناعة الذي كان يضطر معه الى حراسة الكرم في الليل واخذ السراج معه للبطانة ويأتي صباحاً الى الدرس والى بناء داره وبناء مسجده بيده والى المتاجرة بالشريط والذهب مع الجمالة ليبيع لم يعقه ذلك كله عن الذهاب الى اسلامبول وطلب تدريس احدى المدارس ليعيش من اوقافها ويبحث علمه على الناس » . محسن الامين : خطط جبل عامل ، ص 80 . قارن عن هذه المسألة في جانبها النظري (الفقهى) : Mohammad-Reza Djalili, *L'Islam et l'Etat, Religion et révolution*, Paris 1981, P. 19-22.

(17) ورد في : الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص 96 .

رأيا فيولى عليهم لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة فيسرعوا الى طاعته برياسته وتستقيم أمورهم بسياسته » (18) .

واما حقوق الولاية (السلطة) التى يتمتع بها النقيب فيعددها الماوردي باثنى عشر حقا اذا كانت « خاصة » وتشمل مجالات حفظ النسب ومتابعة الولادات والوفيات والاهتمام بآداب النسب وأخلاق الافراد ومكانتهم الاجتماعية (19) . وهى فى هذه الحدود تقتصر على « مجرد النقابة من غير تجاوز لها الى حكم واقامة حد » (20) والا فان حقوق النقابة تصبح عامة وهنا يكون العلم معتبرا فى شروطها ، لانها تتداخل مع مهمات القاضى .. واذا كان الماوردى قد فند صلاحيات « النقابة العامة » باضافة « خمسة أشياء على حقوق النظر » أهمها الحكم فى النزاع بين الافراد واقامة الحدود ، فانه من جهة أخرى حاول ان يوضح اشكالات الازدواج بين مهمات القاضى وبين نقيب الاشراف وحالات الاعتماد فى كل حالة كما استقرت فى عصره (21) . والمرجح ان الحالة التى اعتمدت فى الدولة العثمانية هى حالة « النقابة الخاصة » المعينة من قبل نقيب الاشراف المقيم فى عاصمة السلطنة ، فى كل مدينة أو حيال كل نسب شريف . يقول الحصني فى وصف وضعيه « نقابة الاشراف » كما استقرت فى العهد العثماني ما يلي : « نصبت النقباء وتقررت وظائف النقابة منذ القديم والحديث فى ممالك الاسلام بقصد البحث عن حقائق الانساب وتمييز السادة الاشراف من آل البيت ابناء الامام علي وفاطمة رضى الله عنهما صيانة لذلك النسب الطاهر عن حصول الاختلاط المفضي الى تعلق بعض الاحكام الشرعية بغير أهلها مما لا يخفى من اندفاع الكثير فى حصول المجد ورفع الجاه بدعوى الشرف الحسنى أو الحسينى خصوصا فى زماننا هذا . فالنقباء هم الذين ينبغى لهم التدقيق عن هذه الدعوى وفى نسب كل من يمكن الاشتباه فى نسبه من عامة الناس لئلا تضيع الحقوق الواجبة الرعاية لآل بيت النبوة وتسقط التكاليف الواجبة على من سواهم . ونقابة الاشراف وظيفة عالية لها شأنها فى نظر العالم الاسلامى ولها تأثير عظيم فى اصلاح احوال البيوتات النبوية وتدبر أمورها مما أوجب الامر الى محبة هذه الذرية الشريفة وتوقيرها وطاعة الناس لها لنفوذ كلمتها فيهم وكانوا يأترون بأوامرهم ويدعنون لرغباتهم الى غير ذلك مما يعود بعظيم الفائدة على هذا المجتمع وهى قديمة العهد فى زمن الدول العربية. وفى أيام الدولة العثمانية التركية، بدأ بتوظيف نقباء الاشراف السلطان بايزيد سنة 900 هـ (1494 - 1495 م) وغين لها سيد علي نطاع عاشق شلبى » (22) .

(18) المصدر نفسه ، ص 96 .

(19) ورد فى : الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص 97 .

(20) المصدر نفسه ، ص 96 .

(21) الحصني ، منتخبات ، ص 806 - 807 .

(22) الحصني ، منتخبات ، ص 807 - 808 .

هذا الوصف لاحد أفراد عائلة الحصني التي شكلت احدى عائلات الاشراف الدمشقية والتي تسلم افراد منها منصب نقابة الاشراف والافتاء في دمشق ، يسمح بالاستنتاج ان وظيفة النقيب انحصرت في حقوق « النقابة الخاصة » التي يعدها الماوردي . وانها من زاوية « امتيازها » الديني (23) في المجتمع الاسلامي ، تملك موقعا مبهدا أو موصلا الى « حصول المجد ورفعة الجاه » في المجتمع على حد تعبير الحصني (24) .

واذا استعرضنا اسماء البيوتات الدمشقية ذات النسب « الشريف » والتي يعدها الحصني خلال الفترة العثمانية وحتى عصره (مطلع القرن العشرين) لاحظنا ان مناصب النقابة والافتاء قد توزعت على العديد منها ، فاسرة بني العجلان كان قد ولي ثمانية منهم نقابة دمشق وثلاثة قلدوا منصب الفتوى (25) وآل حمزة كان اكثر رجالها نقباء وعلماء ، فضلا عن خدمة المحافظة التبريدارية التي استمرت في ذريتهم (26) وعائلة الايجي وعائلة الحصني التي تسلم بعض رجالها منصب الافتاء والنقابة في فترات عديدة ... (27) .

- التنظيم الحرفي وطرق الصوفية :

واللافت للنظر في طبيعة السلطة الاهلية التي كانت للاشراف « هو في ارتكازها محليا الى هياكل اجتماعية واقتصادية تؤطر المجموعات السكنية في المدينة . ولقد سمحت علاقة الاشراف باصحاب الحرف ، وبنشطات السوق « نظرا لوجودهم بين الحرفيين » (28)، ونظرا لاحتلال بعض افراد هذه العائلات منصب « مشيخة » بعض الطوائف الحرفية ، أو ممارستها للتجارة المحلية في

(23) يذكر السيد رشيد رضا في سيرته ان بيته « كان يحظى من الدولة بمخصصات معينة بهذه الصفة الدينية . يقول في وصف ذلك : « واهل بيتنا ممتازون فيهم بأنهم اهل العلم والإرشاد والرياسة ، ويلقبون بالمشايخ للتميز ، وجدي الثالث هو الذي بنى لهم المسجد المعروف الآن بجانب بيتنا القديم ، فاحيا جدنا الدين ببناء المسجد واقامة الشعائر فيه من امامة وخطابة وتدريس وكان عالما صالحا مشهورا بالكرامات وقد انعم عليه السلطان العثماني ببراءة سلطانية حبس عليه فيها سبعة قراريط من 24 قيراطا من اموال الدولة الاميرية وبراءات أخرى بالامامة والخطابة في المسجد ، وقد تسلسلت هذه البراءات من السلاطين في ذريته حتى آلت الي فكأنت آخر برائة وجهت علي او الي من السلطان محمد وحيد الدين قبل الحرب العامة » كما ورد في : شكيب ارسلان ، السيد رشيد رضا واخاء الأربعين سنة ، دمشق 1937 ، ص 24 .

(24) تعود بنا هذه التعابير الى مصطلح ابن خلدون حيث يستخدمها في سياق حديثه عن السكسب « والمعاش » « والصنائع » ، من جهة ومن جهة أخرى كوجه من وجوه اللعبة السياسية والتشكل الاجتماعي واولية توزيع الفائض الإقتصادي راجع :

— A. Cheddadi, « Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn khaldun, op. cit, P. 536.

(25) الحصني منتخبات ، ص 809 .

(26) المصدر نفسه ، ص 810 .

(27) الحصني منتخبات ، ص 813 - 817 - 819 .

(28) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ص 82 ، ايضا الياس قدسي ، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية ، في :

— International congress of orientlists, 6TH actes, Leiden 1883, p. 12.

أسواق المدينة (29)، (سمحت) بإيجاد نوع من الهياكل التنظيمية والقواعد الاجتماعية السياسية التي كانت في أساس ممارسة السلطة المحلية (30)، والتي قامت بدورها على علاقات الحماية والمناصرة والتساعد في اطار طوائف الحرف أو شبكة علاقات القرابة في الحلي (31).

صحيح ان « شيخ مشايخ الحرف » « وشيوخ الحرف » كانوا يعينون من قبل القاضي ، لكن ثمة ارادة ذاتية محلية كان يعبر عنها التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي المحلي عبر اختيار شيخهم المناسب . فمن دراسة « لطوائف الحرف والصناعات في حماه في القرن السادس عشر » اعتمادا على سجلات المحكمة الشرعية ، نستنتج « ان شيخ سوق حماه وهو شيخ مشايخ الحرف كلها ... أو شيخ التي كان يعين باجماع التجار في سوق التجار ... ويشترط فيه : ان يكون صاحب دين و اخلاق اهلا للمشيخة لانقا بها ، ان يختاره ويرضى به كامل التجار ، وان يوافق القاضي والسلطان على تعيينه » (32) .

وكانت مهمة هذا الشيخ تشمل « الاشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها » ويقوم بصلة الوصل ما بين الوالي والقاضي من جهة وهذه الطوائف من جهة أخرى ولا يتم اى تغيير فيها الا بعلمه ورأيه . « وكان مشايخ الحرف كلهم ينتخبون بحضوره ويزكون بتزكيتة » (33) .

اما سلطة شيخ الطائفة فكانت تشمل ادارة شؤون ابناء الطائفة والاهتمام بمشاكلهم والاشراف على تنفيذ اتفاقاتهم والطلب من القاضي تسجيل هذه الاتفاقات وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخرى الى القاضي بنفسه . وكان الوالي يتصل بالطائفة عن طريقه (34) .

هذه المهمات « الوسطية » كانت لا تخلو من سلطة يمارسها الشيخ اعتمادا على العلاقات التنظيمية والاخوية الصارمة التي تربطه بابناء الطائفة . وهى علاقات تتداخل في عدة مستويات (تقنية ودينية وعائلية..). فعلى المستوى التقني والتنظيمي يخضع التعليم الحرفي لترتيبات دقيقة بدءا من

(29) برز من عائلة الحجاز الدمشقية تجار الخردة في جهة جامع السنانة ، ومن عائلة الحصني تجار المطارة ومال القاتورة ، قارن : الحصني ، منتخبات ، ص 815 819 .

(30) راجع : ليندا شلشر (L. Schilcher) بعض مظاهر الأعيان في اواخر القرن الثامن عشر واولائل القرن التاسع عشر في دمشق، في ابحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ج 1 جامعة دمشق 1978 ص 329 .

(31) فيليب خوري ، « طبيعة السلطة السياسية » ، وتوزعها في دمشق» في ابحاث المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ج 1 ، ص 478 .

(32) عبد الودود محمد يوسف ، طوائف الحرف والصناعات او طوائف الاصناف في حماه في القرن السادس عشر ، مقتطف من مجلة الحوليات الأثرية ، مجلد 19 (بلا تاريخ) ص 85 .

(33) المصدر نفسه ، ص 85 .

المبتدئين الى الصانع والى المعلم . وعلى قاعدة هذه الترتيبات ، لشيخ الحرفة « الحق ان يشهد بالكار المبتدئين الماهرين فيصيرون صناعا أو معلمين » (35). وحفلة الشد التي هي حفلة « ترفيع » المبتدئ الى صانع او الصانع الى معلم تلخص عبر سلطات المشرفين عليها وهم شيخ الحرفة والنقيب والشاويش» (36) وعبر المشاركين فيها وهم أهل الحى والاقارب وأهل الحرفة ، « مشهد » سلطة أهلية تلمح فيه رموز حركات دقيقة لها دلالاتها فى التوزيع الوظائفى للسلطة فى المجتمع الحرفى (37) ، وفى الالتزام بعهود ومواثيق دينية لها فعل الضوابط لاصول الحرفة واتقانها وعدم الغش فيها وسلوك مخافة الله فى المعاملة . فالطابع الدينى الذى يرتسم فى حفلة الشد والذى يبدو فى التشديد على قراءة « الفاتحة » والادعية والانشيد النبوية التى تتخلل الحفلة واسباغ جو من الورد والتقوى على « المشدود » والحاضرين ، كلها أمور تشدد على « العهد » و « الميثاق » و « الأخوة » أمام الله وأمام الجماعة (38) .

والعهد الذى يقطعه « المشدود » على نفسه أمام معلمه ، وبينما النقيب يقرأ الفاتحة فوق رأسيهما فى مشهد تعبدى مؤثر (39) ، يتضمن وفقا للاعراف السائدة فى المجموعة الحرفية دستوراً .. هو نوع من المبايعات للمشدود فى ان

- (35) الياس قدسي ، نبذة تاريخية فى الحرف الدمشقية ، ص 13 .
 (36) النقيب هنا هو مندوب شيخ المشايخ فى طوائف الحرف ، ينوب عنه فى حضور حفلات الشد والاجتماعات ، ويتلو الأدعية .
 و اما الشاويش « فهو رسول شيخ الحرفة » ، يستحسنه اهل الكار . ليس له سلطة قضائية . بل ينفذ اوامر الشيخ ويبلغ الدعوات والاحكام ويقوم بدور اساسي فى حفلات الشد .
 راجع : الياس قدسي ، نبذة تاريخية فى الحرف الدمشقية ، ص 14 - 15 .
 (37) من امثلة ذلك ربط المحزم فى وسط المشدود (الحرفى المرفع) وعقد طرفيه ثلاث عقد أو أكثر ... ويشير القدسي فى دلالات هذه العقد ومعاني حلها فيقول . ان الشيخ له وحده القدرة ان يحل الأول لأنه رئيس الحرفة كي يعلم المشدود ما له عليه من واجبات الخضوع واما الثانية فيحلها المعلم ليفتخر أنه اخرج تلميذا ماهرا ، ويحل الشاويش الثالثة لأنه أحد السلطات الثلاث التي على المشدود ان يخضع لها فى كاره . هذا فضلا عن دلالة هذا العقد « على عقد العهد والميثاق بالاخاء » . الياس قدسي ، نبذة تاريخية فى الحرف الدمشقية ، ص 24 .
 (38) بعض الاناشيد النبوية التي يتلوها النقيب فى الحفلة ينتهي بالبيتين التاليين :

« وجاء بالعهد آيات مكرمة فحافظ العهد فى خير وفى نعم وخائن العهد لم تريح تجارته وهو بالخسر كم يلقى من النقم » .

ونصيحة شيخ الحرفة التي يوجهها الى « المشدود » اي الحرفى المرفع ، كانت تشدد على الاستقامة فى العمل وحفظ الكار كجزء من حفظ الدين ، وهي بمدلولاتها الاجتماعية والسياسية تحمل وازعا سلطويا ذاتيا . فكان شيخ الحرفة يتوجه الى المشدود بالعبارات التالية :

« يا بني ان جميع الحرف هي كارات امانة على الأموال والأعراض والأرواح . والأمانة هي الدين فإذا نفق كارك احفظ دينك ، كن صادقا واميا وأعلم ان كارك مثل عرضك حافظ عليه بمقدرتك ، واذا استلمت اموال الناس فلا تفرط بها واياك أن تخون أهل الحرفة والخائن قبيله الديان ... » .
 المصدر نفسه ، ص 25 .

- (39) كان المشدود يعاهد معلمه بعد ان يطلب منه هذا الأخير العهد فيقول : « اعاهدك بعهد الله ورسوله اني لا أخون الكار ولا أغش الصنعة فى شئ » الياس القدسي ، نبذة تاريخية للحرف الدمشقية . ص 25 - 26 .

يلتزم بقواعد منها : الاتقان ، عدم الغش ، التسعيرة العادلة ، التضامن مع رفاق المهنة . ولعل هذا الامر هو ما يلفت انتباه لويس ماسنيون فيقول ان تعبير « الدستور » استخدم للدلالة على « المشروطة » التي اعلنت عام 1908 اثر الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي ويضيف انه عندما كان الناس يهتفون « دستور » فانما كانوا يستحضرون معنى الميثاق القائم على قسم ايمانى « (40) .

ومهما يكن من أمر أصول هذا التنظيم الحرفي الذى استمر فى المدينة الاسلامية حتى مطلع القرن العشرين (41) ، فان ما يهمنا من التشديد عليه فى الجانب الاجتماعى السياسى هو ما يقدمه هذا التنظيم من معطيات فى الفكر والممارسة فى مجال السلطة الاهلية . ففى هذا المجال تبرز طرق الصوفية والحركات الباطنية فى الاسلام كصيغ تنظيمية وفكرية تتماثل مع الكثير من التقاليد الحرفية ، فسرية المهنة وأخوية العلاقة بين رفاق المهنة تذكر ان بتنظيم حركات العامة الموالى فى المدن والحركات الباطنية السرية واخلقيات الفتوة (42) . واعطاء مجالس الترفيع (الشد) طابعا رمزيا من خلال الحركات والرموز والاشارات وحلقات الذكر ، لا يذكر فحسب بطرق الصوفية وانما يستدعيها ويستحضرها فى الانتماء والممارسة الطقسية (43) . فتتقاطع الحرف معها من حيث تراتبية مراحل المعرفة عند المريد ، وتتوزعها من حيث تعدديتها الاجتماعية واشكال التعبير فيها .

ومن هذه الطرق التى عرفتها بلاد الشام : الطريقة الرشيدية والرفاعية والقادرية والشاذلية والدندراوية والبديوية والمولوية والنقشيدية

(40) قارن :

— L. Massignon, « Les corps de métiers et la cité Islamique », *Opera Minora*, ti, P. 377.

(41) راجع الفرضيات المختلفة التي يعرضها لويس ماسنيون في موضوع أصول التنظيم في :

— L. Massignon, « La futuwwa, ou pacte d'honneur artisanal entre travailleurs musulmans au Moyen-age », *Opera Minora II*, P. 396-417.

(42) راجع عن علاقة التنظيم الحرفي بتلك الحركات فى التاريخ الإسلامى آراء لويس ماسنيون المرجع السابق ، ص 399 - 402 . أيضا :

— Louis Gardet, *la cité musulmane*, p. 258-259.

— L. Massignon, la « Futuwwa », p. 402-405.

(43)

والبكتاشية (44) . وقد كان لهذه الطرق زوايا وتكايا (45) يديرها ويشرف عليها شيخ الطريقة. ومن خلال تعداد محمد كرد علي لهذه الزوايا والتكايا في كل من دمشق وحلب والقدس وبعض المدن الصغيرة الأخرى في بلاد الشام نستنتج ان بعض معالم هذه الزوايا والتكايا استمر حتى مطلع القرن العشرين ، وان توزعها الجغرافي في الاسواق والحارات (46) انما يعكس الصورة الاجتماعية للعلاقات السياسية القائمة داخل المجموعات الاجتماعية والمتمحورة حول تلك المراكز التي تتقاطع فيها طرق الصوفية وطوائف الحرف ومواقف سكان الحارة وأهل السوق (47) . يقول جب وبون في الدور السياسي الذي يلعبه هذا التقاطع بين الطائفة الحرفية والطريقة الصوفية في التعبير عن الموقع الاجتماعي للسكان ما يلي : « وكانت الطائفة تخدم عدة اغراض ، فقد كانت توفر الوسيلة التي تمكن أقل المواطنين شأنًا من التعبير عن غرائزه الاجتماعية والاطمئنان الى مكانته في النظام الاجتماعي ، وكانت الحال الذي يمارس فيه حق المواطنة : فهو وان لم يكن يستدعي الا نادرا لكي يلعب أي دور في الحياة السياسية الخارجية ، الا انه من الناحية المقابلة كان في مأمن من ان يتدخل حكامه السياسيون في شؤونه الا بشكل طفيف ، اذ كانوا بوجه عام يحترمون استقلال الطوائف وطرائقها التقليدية . ومما كان ينمي الوظيفة الاجتماعية للطوائف ليس كلها بل معظمها وبخاصة طوائف الحرف ، ما لها من ارتباطات مع إحدى الطرق الدينية الكبرى » (48) .

ولعل هذا الارتباط بين الموقع المحلي الخاص المتمثل بالعائلة والمحلة والحرفة وبين الامتداد الديني لطريقة من الطرق التي تنتشر في انحاء العالم

(44) احمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، دمشق 1976 ، ص 120 - 126 والكتاب في الاساس مخطوطة لأحد ابناء الحرفيين ، وضعت في مطلع القرن العشرين ومحفوفة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق ، حققها وعلق عليها علي جميل نميسة . راجع عن تمديدية الطرق أيضا : - أسامة عانوتي ، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر ، بيروت 1971 ص 179 - 180 .

— Henri Laoust, *Les schismes dans l'islam*, Paris 1977, P, 285-7

(45) وكان يقال لها خوانق ، والكلمة من اصل فارسي مفردا «خونكاه» وتعني دار الصوفية ، ويشير محمد كرد علي انه لا فرق بينها وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للأعمال الصالحة والعبادة . محمد كرد علي خطط الشام ، ج 6 ، ص 134 .

(46) من مراكز الزوايا في دمشق : سفح قاسيون ، سوق الخيل العتيق ، الشاغور ، الصاغة العتيقة ، محلة المويبة ، الوراقية ، الصالحية ، السليمانية ، القنوت (وفيها الزاوية الشاذلية) الميدان (وفيه زاوية الطريقة الرفاعية) .

محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج 6 ، ص 138 - 140 . وراجع عن أصول هذه الزوايا : Nicola Ziadeh, *Urban life in Syria under the early Mamluks Beirut* 1953, pp. 81-90.

(47) ينقل الرحالة الإيراني حاجي بيرزاده (1887 - 1888) صورة عن مشاهداته للصوفية في المدن العربية يبدى إعجابه ببعض الصوفية الذين « يجلسون مع كل طبقة من طبقات الفقراء : راجع : حاجي بيرزاده ، سفرنامه ، ترجمة طوني الحاج ، أطروحة ، جامعة القديس يوسف 1983 ، ص 20 وص 211 .

(48) جب وبون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ج 2 ، ص 115 .

الاسلامي (49) هو ما يسوغ الكلام عن انتماءات وسيطة توصل الى الانتماء الاشمل المتمثل « بالامة » على مستوى الجماعة ، و « بدار الاسلام » على مستوى المناطق (50) . واما العلاقة بالدولة فهي عبارة عن « رعويه » لسلطان تتمثل سلطته بسلم من صلاحيات « الولاية » التي تتركز محليا حول جباية الضرائب وضبط الامن دون ان تتدخل في الانتماءات الوسيطة لكسرها أو الغائها (51) . ولقد لعب مشايخ طرق الصوفية دورا مهما في تحديد السلوك الاجتماعي والسياسي للتابعين في الحارة أو الطائفة . يقول احد ابناء الحرفيين في وصف علاقة الدمشقيين بمشايخ الطرق : « ولما لم يكن من الوسائط بالنسبة اليهم ما يأخذ بأيديهم الى جادة الحق والصراط المستقيمين ، الا ملازمة طبقة العلماء وبعض الزهاد ممن اشتهروا بفضلهم وزهدهم ونسبهم اخذوا يلتفون حولهم منذ زمن بعيد ، يرجعون اليهم بكل ما يحتاجونه من أمور الدنيا والآخرة . سألت أحدهم الى من أنت ترجع في استيضاح أمور دينك ودنياك قال لك : الى شيخى فلان ، وفلا كانت بالنسبة لوضعهم البعيد عن كل ثقافة ودراسة بل وتعليم بدائي ، خير وسيلة لتنظيم شؤونهم والمحافظة على أوامر دينهم ، وكانت هذه الجماعات تلتف حول شيخها عقب صلاة العشاء أو المغرب أو أيام الجمعة عقب صلاة الجماعة ليصفخوا الى ما يلقيه عليهم من النصائح والارشادات التي تزكيهم وتنظم حياتهم » (52) .

هذا واذا كانت شهادة العلاف هذه تعكس استمرارية حالة سلطة مشايخ الطرق حتى مطلع القرن العشرين في دمشق ، « كخير وسيلة لتنظيم شؤون

(49) راجع عن هذا الانتشار : بيترأجران ، الاسس الاجتماعية للثقافة في دمشق (1780 - 1850) حيث يشير المؤلف الى علاقة طريقة النقشبندية بوحدة الثقافة والتجارة الحرفية ، بين مراكز في الهند وسوريا وتركيا ومصر .

(50) راجع : 248,255,258 : 205, 208, 209 — Louis Gardet, *la cité musulmane* .

(51) راجع : فولف هيتروث (Hutteroth) الادارة المالية للمناطق المتاخمة للصحراء في سورية الكبرى في اواخر القرن السادس عشر في : المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (ج 1 ، ص 137 . ويقول جب وبون : « الحق ان ما نعرفه عن العلاقات الداخلية بين الحكومة والشعب ضئيل جدا ، وعلى اساس نتائج الدراسات السابقة في احوال مختلف قطاعات السكان (بما فيهم العلماء على هذا الأساس وحده يمكن القيام بحقيقة بدراسة كافية لهذه المسألة الدقيقة الصعبة . ومن النادر ان نتطرق الشك في ان الحكومة من حيث مظهرها الإداري ، لم تكن مجرد اجراءات شكلية تفرضها على الشعب ارادة الفاتح ولكنها بناء على عضوي يرتبط ارتباطا وثيقا بكيان المجتمع وطبيعة الحكومتين وافكارهم ، وانه قد يوجد تفاعل مستمر بين الحاكمين والمحكومين ، ومن الضروري تطهير البحث من عناصر الخلط التي أورثها خطأ استعمال مصطلحات اوروبية مثل الإمبرياد والاتوقراطية ، وان نخضع كل أجهزة الحكومة وتقاليدها لبحث جديد » . جب وبون ، المجتمع الإسلامي والغرب ج 1 ص 18 .

(52) أحمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، ص 124 ، وتجدر الاشارة هنا الى ان واجب تقليد المرجع المجتهد عند المسلمين الشيعة لعب هو ايضا دورا حاسما في تحديد السلوك السياسي والاجتماعي لجماعة المقلدين وموقفهم من الحكام والسلاطين : راجع عبد الله الفياض ، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920 بغداد 1963 ، ص 80 - 81 . أيضا : عبد الحليم الرهيمي ، الحركة الإسلامية في العراق خلال الربع الاول من القرن العشرين ، الجذور التاريخية والواقع التاريخي الجامعة اللبنانية 1984 ص 72 - 79 .

الناس « فانها ومن جهة أخرى تعكس تحولا ما في مجرى الثقافة السائدة نحو اعتماد معيار « آخر » في تعيين علاقة ما يمكن أن نسميه « رأيا عاما » بالمؤسسات السلطوية التي بدأت بالتشكل في أجهزة دولة حديثة . وهو معيار يرى في أقتنية « التعليم » و « الصحافة » و « الاحزاب » بديلا للوضع الذي يصفه العلاف في مطالع القرن العشرين - أى في الفترة التي بدأت هذه الاجهزة بالتكون والعمل - « بالبعيد عن كل ثقافة ودراسة بل وتعليم بدائي » . والواقع ان ثمة نوعا من ثقافة ودراسة وتعليم « صدر من الزوايا والتكايا والمساجد فى المدن الاسلامية كان قد أمن للاتجاهات السياسية على مستوى الطريقة والمذهب والنهج وأسلوب النظر الكلامى ، القوى الاجتماعية الفاعلة والمتحركة فى المجتمع (53) .

ومن هنا يمكن ان نقول ان فكرة « الدولة » التي تحكمت فى صياغة النص التاريخي الحديث والتي انبثقت عن فكرة « الدولة الاقليمية » أو « القومية » الآتية من الغرب الحديث والحاملة معها مؤسسات ثقافية مغايرة (54) ، قد ساهمت الى حد كبير فى طمس طبيعة السلطة والثقافة ودورهما فى المدن الاسلامية فى العهد العثماني . وهذا الطمس يطال فى جانبه الاساسى اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي الذي هو جزء من تنظيم سلطوي « أهلي أمنته ثقافة كانت تنتج على قواعد من الثوابت التاريخية التي تجد جذورها فى الاسلام الفقهى والصوفى والكلامى ومؤسساته من مسجد وتكية وزاوية ورباط ... (55) ، وفى الممارسة الاقتصادية الحرفية التي لم تخضع كحال الرأسمالية الاوربية لفلسفة المنافسة الحرة بل خضت لضوابط ذاتية ايدولوجية وعقائدية جعلت من معيار « الحلال » مرجعا لشرعية الكسب (56) .

د. وجيه كوثراني

(53) يقول بيتر غران فى ذلك : « وكانت الزاوية فى دمشق نقطة تجمع الناس ، يستطيعون منها مجابهة التحديات والمشاكل التي تواجه المدينة « بيتر غران ، الأسس الاجتماعية للثقافة للثقافة فى دمشق ، ص 217 . ويمكن ان نستشهد بالمرادي فى ترجمه لبعض مشايخ النقشبندية الذين تواصلوا مع التراث الصوفي الهندي ، وعملوا فى مساجد دمشق واقام بعضهم حلقات تعليم فى تكية محلة القماحين حيث بثوا فكرهم فى اتباعهم ومريديهم من تجار وحرفيين ، راجع : محمد خليل المرادي النقشبندي ، سلك الدرر فى اعيان القرن الثالث عشر ، القاهرة 1873 - 1883 ، ج 2 ص 2 ، وج 3 ، ص 260 - 263 ، وج 4 ، ص 129 - 130 . (54) راجع عن هذه الفكرة فى دراسة انتروبولوجية :

— P. Clastres, *la société contre l'Etat*, P. 161-186.

(55) راجع عن هذه المؤسسات فى بلاد الشام ، محمد كرد علي ، خطط الشام ج 6 ص 130 - 155 .

(56) راجع عن هذه الوجهة فى النظر :

— L. Massignon, « *Les corps des métiers et la cité islamique* » Opera Minora, P. 377-378.

ونذكر ان المثل الحرفي الذي يستعيده لويس ماسينيون والدال على الضابط الايدولوجي للعمل الذي لا يتوخى تراكما فى الريح هو « لقمة كسب حلال كردن » راجع لويس ماسينيون مقدمة « قاموس الصناعات الشامية » محمد سعيد القاسمي ، باريس 1960 - ص 9 . راجع : وجهة نظر خاصة فى طبيعة الممارسة الاقتصادية فى الإسلام فى :

— M. Rodinson, *Islam et capitalisme*, Paris 1966, pp. 19-44.

« الهجرة والتغير الاجتماعي في لبنان في آخر الحكم العثماني » (1850 – 1914)

د. بطرس لبكي

مقدمة :

كان موضوع هجرة اللبنانيين المعاصرة وراء وضع العديد من المؤلفات في لبنان نفسه وفي بلدان المهجر ، بشكل خاص . استطعنا احصاء مئات العناوين لكتابات مختلفة الاحجام وضعت اما في العربية أو الفرنسية أو الانكليزية أو الاسبانية أو البرتغالية . وتختلف مواضيع هذه الكتابات : منها دراسات عامة ومنها دراسات أحادية عن الجماعات التي هاجرت ومنها دراسات قطاعية.

تتناول هذه الكتابات نواحي تاريخية وديمقراطية وسياسية ودينية وثقافية واجتماعية ونفسية واقتصادية عن الجماعات المهاجرة أو عن المنحدرين منها في بلدان المهجر .

لكن الكتابات عن علاقات تفاعل الهجرة اللبنانية مع مجتمعها الاساسي نادرة ، خاصة تلك التي وضعت من خلال نظرة دينامية ومتعددة الجوانب . وتريد أن تضع ضمن هذا الاطار هذه المساهمة في دراسة الهجرة اللبنانية المعاصرة .

ترتبط مميزات الهجرة اللبنانية بأشكال دمج لبنان والشرق وبعض المناطق الاخرى من العالم ، (أمريكا اللاتينية ، الولايات المتحدة الاميركية ، افريقيا الغربية ...) ، بالاقتصاد العالمي ووتأثيره ودورته وبنائجه المحلية والاقليمية . من هذا المنطلق كان اختيارنا المميز لهذه الفترة لدراسة موجات الهجرة : الفترة الممتدة من 1850 الى 1914 التي تقابل « الثورتين الصناعيتين الاولتين » والتي تتعلق بشكل خاص بلبنان الاوسط .

1 - الاسباب الداخلية للهجرة :

تبدأ هذه الموجة الاولى للهجرة مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في عهد تميز على صعيد العلاقات مع الخارج بتغلغل متزايد للسلع ورؤوس الاموال والتقنيات الاوروبية بالاضافة الى المفاهيم الثقافية . وتميز هذا العهد على الصعيد الداخلي بتحولات اجتماعية مهمة : انهيار تدريجي لنظام

الاقطاع وتغيير فى مراكز القوى بين الفئات الاجتماعية وتزايد ديمغرافى غير متساو ونزوح داخلى .

أصابت التحولات لبنان الاوسط ، بشكل خاص ، حيث يمكن تحسس نتائج الهجرة . وقد ساهمت هذه التحولات الخارجية والداخلية فى انطلاقة ظاهرة الهجرة وتزايدها وتم ذلك من خلال الاوليات التالية :

أ - تزايد ديمغرافى كبير :

ساهم انتشار التقنيات الطبية الاوروبية ، (التلقيح وغيره) ، وارتفاع المستوى الصحى الناتج عنها ، فى تخفيض وفيات السكان (خاصة فى لبنان الاوسط) . هذا التزايد السكانى غير المتوازن فى الزمان والمكان زاد الضغط على الارض فى منطقة كثيفة السكان وجبلية : المتصرفية أو مقاطعة جبل لبنان التى تقابل « لبنان الاوسط » (1) .

جدول رقم 1 : تقديرات السكان المقيمين فى جبل لبنان بين عام 1860 وعام 1914

السنة	التقديرات	السنة	التقديرات
1867	380 000	1900	400 000
1887	395 000	1905	382.000
1895	399 000	1913	468 714

جدول رقم 2 : تطور عدد السكان فى مدينة بيروت بين عام 1860 وعام 1914

السنة	التقديرات	السنة	التقديرات
1860	46 000	1875	80 000
1863	60 000	1895	120 000
1865	80 000	1908	136 000
1870	70 000	1914	130 000

المصدر : يوسف كراباج وفيليب فارغ ، الوضع الديمغرافى فى لبنان . تحليل المعطيات - منشورات مركز الأبحاث فى معهد العلوم الاجتماعية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1974 .

ب - حرم انهيار الحرف المحلية وعدم التصنيع الذى ينتج عنه ، السكان من موارد لا يمكن أن تعوضها زيادة زراعات التوت ومصانع غزل الحرير المعد للتصدير . وقد أدى ذلك الى تفاقم مشكلة العمالة .

يمكن توضيح هذا التطور بانخفاض عدد أنوال الحياكة ، (عرف هذا النشاط انتشارا واسعا فى تلك الفترة) ، كما يبين لنا ذلك الجدول رقم 3 الذى يصف تطور عدد أنوال الحياكة خلال الفترة المذكورة .

(1) راجع سليمان البستاني ، « أمثلة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » ، بيروت ، دار الطليعة ، 1987 ، ص 169 ، الطبعة الثانية ، مهد لها الدكتور خالد زيادة وعلق عليها .

جدول رقم 3 : تطور عدد أنوال الحياكة بين عام 1829 وعام 1912/1911 .

عدد الأنوال عام 1912/1911	عدد الأنوال عام 1860	عدد الأنوال عام 1829	المركز
25	400	—	دير القمر
30	50	—	الذوق
—	20	—	زحلة
20	20	—	صيدا
40	—	—	طرابلس
70	—	—	بيروت
185	490	900	المجموع

المصدر : غاستون دي كوسو ، صناعة الحرير في سوريا ولبنان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية 1913 ، ص 180-181-182 و 206 .
وليم بولك : نظرة حول جنوبي لبنان 1788-1940 - جامعة هارفارد ، مطابع كامبريدج - مارس 1963 ، ص 166 .

ج - التخصص في إنتاج واحد معد للتصدير ، خيوط الحرير أو الشرائق
التي حدثت من إنتاج المواد القوتية وزادت في حدة أزمة العالم الريفي وارتباطه بالنسبة للخارج .

جدول رقم 4 : إنتاج الحرير الخام (بالكيلوغرام)

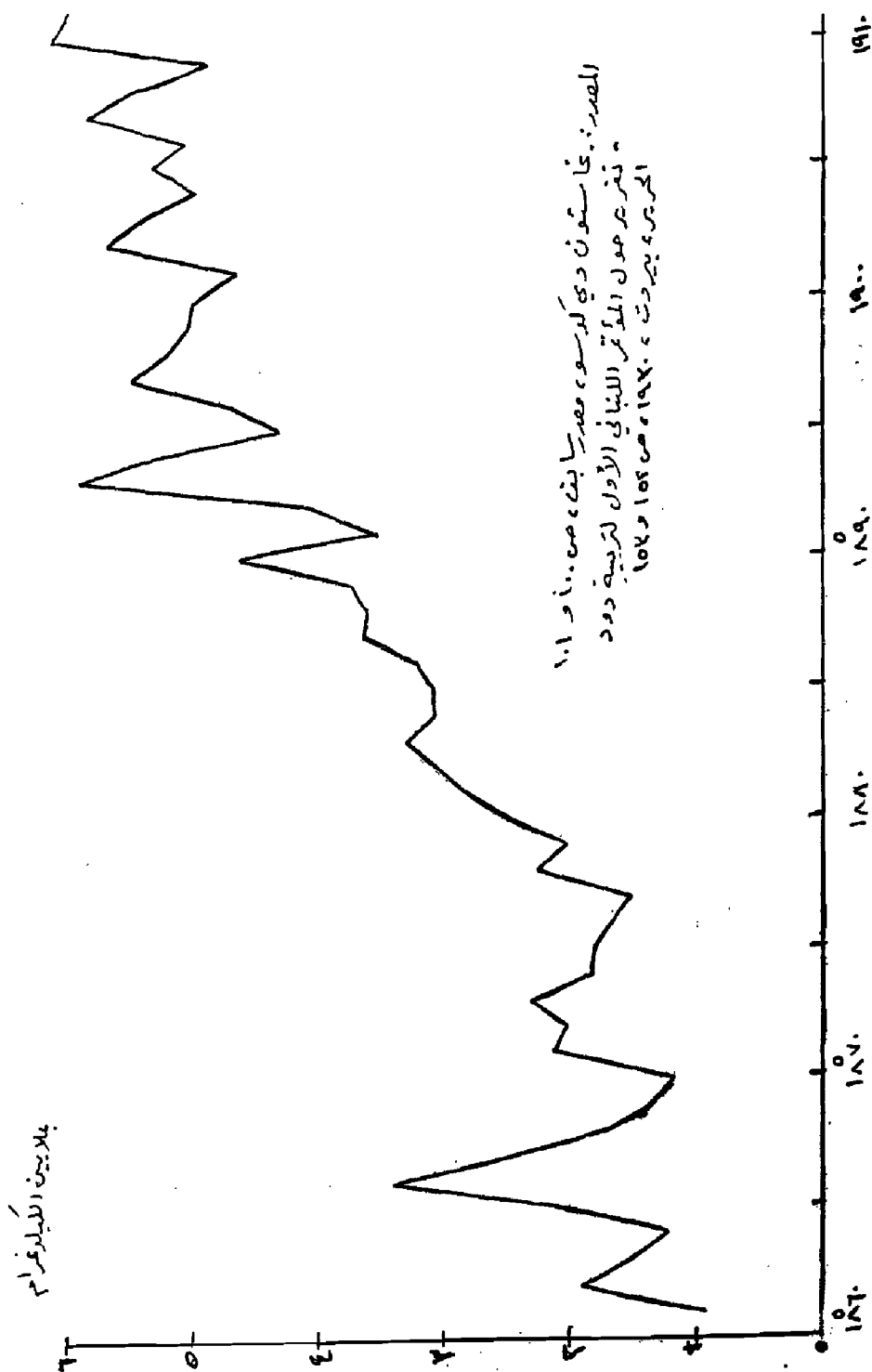
السنة	الوزن	السنة	الوزن	السنة	الوزن (2)
1873	150 000	1893	520 000	1901	410 000
1874	170 700	1894	466 000	1902	424 000
1875	135 700	1895	376 000	1903	494 000
1876	117 500	1896	420 000	1904	435 000
1877	140 000	1897	490 000	1905	480 000
1878	165 000	1898	465 000	1906	452 000
1879	171 000	1899	456 000	1907	517 000
1880	193 000	1900	450 000	1908	474 000
1881	266 000	1901	(1) 425 000	1909	472 009
1882	235 000	1902	(1) 540 000	1910	527 000
1783	290 000	1903	(1) 510 000		
1884	230 000	1904	(1) 460 000		
1885	265 000	1905	(1) 490 000		
1886	223 000	1906	(1) 470 000		
1887	340 000	1907	(1) 535 000		
1888	231 000	1908	(1) 490 000		
1889	324 000	1909	(1) 445 000		
1890	390 000	1910	(1) 540 000		
1891	290 000	1911	(1) 525 000		
1892	350 000	1912	(1) 400 000		
		1913	(1) 490 000		
		1914	(1) 430 000		
		1915	(1) 350 000		

(2) المصادر القنصلية

(1) المصادر النقاية

المصدر : دومينيك شفالیه ، ليون وسوريا عام 1919 ، أسس التدخل ، مقالة منشورة في المجلة التاريخية عدد رقم 314 تشرين الأول - كانون الأول ، عام 1860 ، باريس ، ص 282-286 وغاستون دي كوسو ، المرجع السابق ، ص 142 .

رسم بياني رقم واحد : انتاج الشرائق بين عام ١٨٦١ و عام ١٩١٤



يبين الرسم البياني رقم واحد والجدول رقم 4 زيادة انتاج الشرائق وخبوط الحرير . هذه الارقام موضوعة لتبيان الانتاج في سوريا ولبنان معا ، يقدر الانتاج اللبناني فيها بنسبة 90% أما الانتاج السوري فيقدر بنسبة 10% تقريبا . وقد تأثرت هذه الزيادة بانخفاض اسعار الحرير ابتداء من عام 1890 ، (راجع الرسم البياني رقم 2) .

يتضح هذا التخصص من خلال تطور زراعة التوت على حساب الزراعات الاخرى ، خاصة الزراعات التوتية ، وكانت هذه الزراعة تحتل عام 1913 نسبة 40% من مجموع الاراضي المزروعة في جبل لبنان ، وكانت مداخيل نصف السكان تقريبا تأتي من هذه الزراعة (المزارعون ، والحياكون ، والعمال ، والوسطاء ، والتجار ، والناقلون ، وأصحاب البنوك ...) .

بالنسبة لاقتصاد المتصرفية كانت هذه الزراعة تمثل نسبة 73% من مجموع المداخيل الواردة من انتاج السلع و 36,30% من المداخيل الاجمالية كما يظهر في الجدول المبني أدناه .

جدول 5 : المصادر المحلية لمداخيل سكان متصرفية جبل لبنان عشية الحرب العالمية الأولى (1914-1918)

نوع الدخل	القيمة (بالقروش)
مداخيل إنتاج الشرائق	60 000 000
مداخيل غزل الحرير ومشتقاته	20 000 000
مداخيل زراعية أخرى	20 000 000
مداخيل أخرى من الحرف والمناوفاورة والصناعة	10 000 000
سياحة وأصطياف	20 000 000
تحويلات المغتربين المالية الصافية	90 000 000
المجموع :	220 000 000

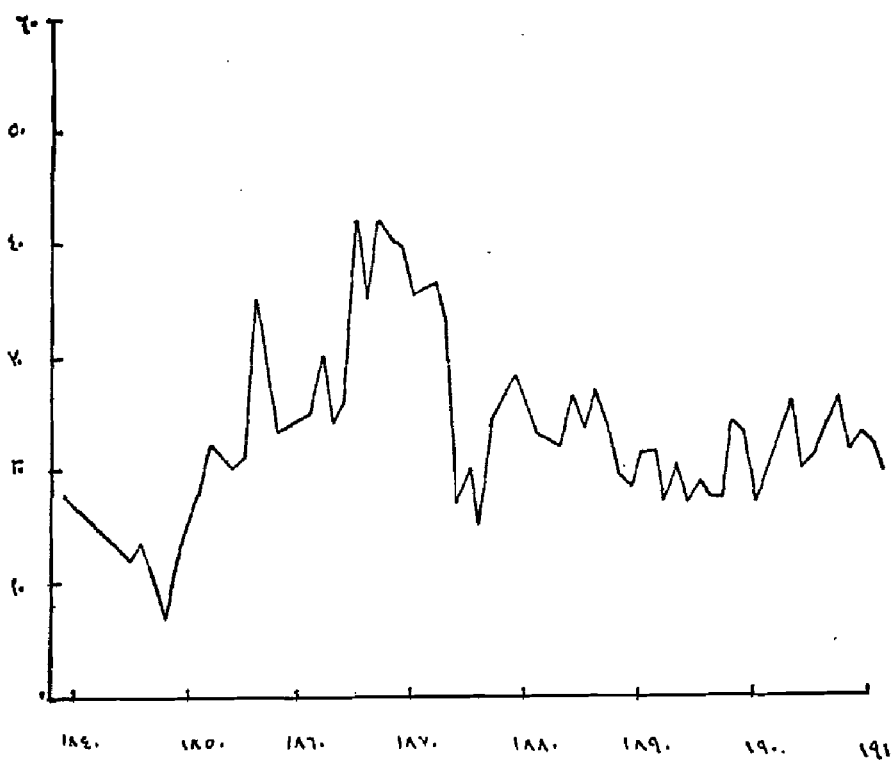
المصدر : إسماعيل حقي وآخرون ، لبنان مباحث علمية واجتماعية ، ص 472-473 ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت 1970 ، الطبعة الثانية .

وتترجم هذا التخصص على مستوى التجارة الخارجية بالطريقة نفسها : بلغت قيمة صادرات الشرائق والحرير تباعا أربعين مليون غرش وخمسة وعشرين مليون غرش من مجموع الصادرات الاجمالية البالغة قيمتها 105000000 غرش . كان هذا القطاع يؤمن 62% من صادرات المتصرفية .

وينعكس هذا الوضع بارتهان تجارة المتصرفية ، (الريفية بشكل أساسي)، الى الخارج ويظهر هذا الارتهان في ميزانها التجاري عشية اندلاع الحرب العالمية الاولى (راجع الجدول رقم 6) .

يبين تحليل هذا الجدول أن البندين الرئيسيين للموارد هما تربية دود الحرير وتحويلات المهاجرين بينما يقابلهما في التوظيفات بنود المنتجات الغذائية والصناعية . قاد هذا التطور جبل لبنان الى أن يصبح «مزرعة حرير» لمدينة ليون ولم يعد يسد حاجاته الأساسية الا عن طريق الواردات الضخمة . أصبح الارتهان الغذائي راسخا في الاحداث منذ تلك الفترة كذلك الارتهان

رسم بياني رقم اثنين : سعة الشرائق للمربي (بالغروش)



المصدر : دي كوسو ، مصدر سابق ص ١١٠ - ١١١
دومينيكا شفالیه ، مصدر سابق ، ص ٢٣٠

الغذائية والصناعية ، قاد هذا التطور جبل لبنان الى ان يصبح «مزرعة حرير» لمدينة ليون ولم يمد يسه حاجاته الاساسية الا عن طريق الوادات الضخمة ، أصبح الارتهان الغذائي راسخا في الاحداث منذ تلك الفترة كذلك الارتهان للمنتجات الصناعية . أما على الصعيد المالي فقد أصبح الاقتصاد معانا عن طريق تحويلات المهاجرين المالية .

تمول هذه التحويلات ثلث الواردات و 40 % من المداخيل النقدية .

د - تدهور في بنود التبادل التجاري ، نتج عن هذه العوامل الثلاث مضافة الى الوضع الجديد للتقسيم الدولي للعمل الذي ساد من خلال المبادلات الخارجية. تجرى التجارة بين السلطنة العثمانية وأوروبا التي كانت تتصنع ضمن اطار تبادل غير متساو .

استطعنا تقدير هذا التدهور بالنسبة للمصرفية فاستخدمنا معطيات التجارة الخارجية المستقاة من الجدول رقم 6 وافترضنا ان هذه المعطيات تعكس البنية حسب الانتاج في التجارة الخارجية لهذه المقاطعة بالنسبة لتطور أسعار هذه المنتجات وضعنا سلسلة لمؤشرات الاسعار ينطلق أساسها من بداية الفترة (1840 - 1860) وضعنا هذا للواردات والصادرات على حد سواء . وحصلنا على الاسعار الافرازية من السيد جوزيف عقيقي الذي أخذها بدوره من الارشيف المحفوظ في رهبانية المرسلين اللبنانيين في جونية (2) . جدول رقم 6 : المدفوعات الخارجية لمصرفية جبل لبنان عشية الحرب العالمية الأولى (1914-1918) (بالقروش)

التوظيفات (الواردات)		الموارد (الصادرات)	
القيمة	النوع	القيمة	النوع
20 000 000	حنطة	40 000 000	شرانق
45 000 000	شعير وحبوب أخرى	25 000 000	حرير
	أحصنة وبغال وحمير		أجراس ومعادن وأحجار
2 500 000	وأبقار	5 500 000	مصنوعة
3 500 000	حيوانات للذبح	1 500 000	صابون
5 000 000	جلد	2 700 000	جلد
	زبدة وسكر وقهوة ومنتجات		أقمشة ومطرزات ونسيج
8 000 000	أخرى	1 000 000	الشعر وغيره
900 000	مغزولات قطنية	2 100 000	تبغ وسجائر
400 000	صوف وشعر	300 000	بطاطا
65 000 000	منتجات صناعية أوروبية	5 200 000	مشروبات كحولية
		12 500 000	زيتون وزيت الزيتون
		3 500 000	منتجات الأشجار المثمرة
		4 000 000	عنب وعنب مجفف
		1 500 000	مداخيل الاصطياف
		90 000 000	تحويلات أموال المهاجرين
			الصافية
1503 000 000		1963 000 000	المجموع

(2) بالنسبة لتفاصيل الحسابات تراجع جوزيف عقيقي في : « دراسة بعض وجوه تكون التخلف الاقتصادي والاجتماعي في منطقة كسروان بين عام 1840 و 1914 ، حسب وثائق دير الكريم » ، رسالة لنيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع الإنمائي ، أيلول ، 1983 ، معهد العلوم الاجتماعية الفرع الثاني ، الجامعة اللبنانية ، ص 76-87 .

ارتفع مؤشر اسعار الصادرات خلال الفترة الممتدة بين (1850 و 1914) من 100 الى 157،59 بينما ارتفع مؤشر اسعار الواردات خلال الفترة نفسها من 100 الى 287،91 وانخفضت بنود المبادلات الصافية خلال الفترة على الشكل - التالي :

$$100 \times 157,59 = \frac{56,50}{278,91}$$

يقيس هذا التدهور انخفاض قوة الصادرات الشرائية للسلع المستوردة في منطقة تساوى فيها الواردات 70 % تقريبا من المداخيل . هذا الانخفاض هو وجه لانخفاض مداخل السكان الفعلية مما يضطرهم الى الهجرة .

هـ - أدى تطور التعليم الى تخريج مئات من المتعلمين لاقوا صعوبة كلية في التكيف مع البنى الاجتماعية والسياسية القائمة . لقد ارتفع فعلا عدد المدارس في البلاد من 50 مدرسة عام 1860 الى 142 مدرسة عام 1915 أى أن العدد قد تضاعف ثلاث مرات تقريبا خلال نصف قرن . وبلغ عدد التلامذة من الجنسين 120 ألف تلميذ وتلميذة عشية الحرب العالمية الاولى أى ما يوازي ربع السكان . يجب أن نضيف الى هذا فتح جامعتين خلال الفترة : « الكلية السورية الانجيلية » ، التي أصبحت فيما بعد الجامعة الاميركية في بيروت ، وجامعة القديس يوسف . وكانت المدارس التقنية نادرة الوجود . ومن المؤكد أن هذا « الانفجار المدرسي » قد ساهم في تغذية موجات الهجرة خاصة باتجاه مصر والولايات المتحدة الاميركية (3) .

و - هناك مجموعة من العوامل غير الاقتصادية كانت من أسباب انطلاق ظاهرة الهجرة وتسريعها نذكر منها :

- الصراعات الطائفية والاجتماعية والسياسية التي هزت لبنان في منتصف القرن التاسع عشر .

- الرغبة في التهرب من الخدمة العسكرية التي أصبحت الزامية للجميع (خارج جبل لبنان) .

- الخطوات التي اتخذها الدائنون الذين يمولون سفر المهاجرين وتلك التي اتخذها ايضا سماسرة شركات الملاحة .

- نداء المهاجرين الى ذويهم وأصدقائهم ومراسلاتهم اليهم .

- التحويلات المالية الى الاقارب في الوطن .

(3) راجع توفيق توما ، الفلاحون والمؤسسات الإقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى عام 1914 ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1971 ، ص 351-353 ، وسليمان البستاني ، المرجع المذكور ، ص 170 .

- بذخ الاهل المقيمين النسبي وبذخ المهاجرين العائدين الى الوطن .
 - وأخيرا خيبات الامل والتخوفات الشخصية .
- لعبت هذه العوامل جميعها دورا أكيدا في التسبب بالهجرة وتسريعها (4).

2 - أسباب الهجرة في بلدان المهجر :

أ - عرفت مصر ، التي اندمجت في الاقتصاد العالمي بتحولها الى « مزرعة قطن لمنطقة لانكاشير » ، وبفتح قناة السويس ، نموا اقتصاديا ولبيرالية سياسية نسبية جذبت العديد من اللبنانيين (عمال وتجار ومثقفين ورجال أعمال ...) . ان تخصص مصر بالزراعة الاحادية المدعومة باستثمارات ضخمة في البنى التحتية والرى قد أدى الى التوسع السريع في المساحات المزروعة . تزايدت هذه المساحات خلال تلك الفترة على الشكل التالى :

(بالفدان ، يساوى الفدان الواحد 4500 م²) :

1840	1863	1893	1914
3756000	4052000	5410000	6410000

رافق هذه الزيادة فى المساحات المزروعة توسع قوي فى انتاج القطن الذى تطور على الشكل التالى : (بالقنطار ، القنطار يساوى 45 كيلوغراما) :

1484	1852	1905	1914
120000	670000	2250000	7300000

بلغ معدل هذه الزيادة 6000 % فى ظرف ثلثي قرن. هذا المعدل للزيادة هو من أقوى المعدلات التى عرفتها بعض المجموعات المهمة فى الاقتصاد المصرى خلال تلك الفترة . لقد كان معدل زيادة الاقتصاد المصرى بين عام 1880 و 1914 7 و 10 % سنويا (5) .

ب - كان لنمو الولايات المتحدة الامريكية الاقتصادى تأثيرا ماثلا خاصة بعد انتهاء الحرب الانفصالية فيها (هجرة العمال ، وبائعى الكشة ، والمثقفين). وخلال الفترة الممتدة من عام 1870 حتى عام 1913 عرفت الولايات المتحدة الامريكية ، فعلا ، أقوى معدل للزيادة السنوية فى الناتج المحلى القائم بين

(4) راجع ، ايلي صفا ، الهجرة اللبنانية ، منشورات كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف ، بيروت ، 1960 ص 168-185 .

(5) راجع ز.ي. هيرشلف ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي في الشرق الأوسط ، بريل ، طبعة ليدن ، 1964 ص 83-107 و 121 ، وحسن رياض ، مصر الناصرية ، منشورات مينيوي ، باريس 1964 ، ص 163 .

مجموع الدول الصناعية (4,3 % في السنة) (6) . وقد تترجم هذا النمو بموجات هجرة إليها متزايدة .

ج - ان النمو الاقتصادي للعديد من دول أمريكا اللاتينية التي اندمجت في الاقتصاد العالمي ، كمصدر للمواد الأولية ، قد أحدث أيضا موجة هجرة خاصة الى البرازيل والارجنتين والمكسيك . في هذه البلدان التي كانت تتوسع بسرعة ، جذب « الجوع الى اليد العاملة » موجات المهاجرين من القارات القديمة . تم امتصاص هذه الموجات في حاجات استثمار البلدان وفقا لمتطلبات السوق العالمية (7) .

د - أدى توسع فرنسا في افريقيا الغربية قبيل انتهاء هذه الفترة الى هجرة التجار وبائعي الكشة وأشكال مختلفة من الوسطاء ، امتصت تجارة المقايضة ، التي كانت في أوجها ، هؤلاء الوسطاء بفعل الاستثمار الاستعماري للقارة . توجهت الهجرة بشكل رئيسي نحو السنغال وغينيا (8) . يجب الاضافة الى هذه الهجرات ، ذات الشأن ، بعض الهجرات الاقل شأنًا منها مثل الهجرة الى حوران وكيليكيا وفلسطين والولايات العثمانية الاخرى .

3 - وقائع الهجرة :

أ - الوقائع المحلية معبرة ، ويمكن تلخيصها على الصعيد الاجمالي كما يلي :

جدول رقم 7 : معدلات الهجرة اللبنانية حتى عام 1914

الفترة	معدلات الهجرة السنوية	العدد التراكمي للمهاجرين
1900-1860	3 000	120 000
1914-1900	15 000	210 000

المصدر : بعثة ايرفد ، حاجات تنمية لبنان وأماكناتها ، المجلد الأول ، ص 49 ، بيروت 1960-1961 ، وزارة التصميم العام .

(6) راجع فرنسوا كارون ، النمو الاقتصادي ، في تاريخ العالم الاقتصادي والاجتماعي ، مجلد 4 (1840-1904) ، أرمان كولان ، باريس 1978 ، ص 73 .

(7) راجع شلسوفورتادو ، تكوين الاقتصاد البرازيلي ، جمعية الناشرين الوطنيين ، سان باولو ، 1972 ، ص 123-128 ، الطبعة الحادية عشرة ، وألدو فيرار ، الاقتصاد الأرجنتيني ، مؤسسة الثقافة الاقتصادية ، مكسيكو بونيس آيريس ، 1973 ، الطبعة الثامنة ص 91-149 وخاصة الصفحتين 106 و 107 .

(8) راجع سمير أمين ، عالم التجارة السنغالية ، منشورات مينوي ، باريس 1969 ، ص 12-18-19-21 ، وسير أمين ، أفريقيا الغربية المعاصرة ، منشورات مينوي ، باريس

نملك عن معدلات الهجرة السنوية معطيات أكثر تفصيلاً يعود تاريخها إلى بداية القرن العشرين نثبتها تباعاً في الجداول التالية :

جدول رقم 8 : عدد المغادرين البلاد عام 1909 .

جنسية البواخر / مرافئ المغادرة	طرابلس	بيروت	المجموع
إيطالية	1807	4002	5809
فرنسية	3759	4280	8039
المجموع	5566	8282	13848

المصدر : أرست وكيكي ، تقرير حول شروط التجارة الأنكليزية وأفاقها في سوريا ، 1911 ، منشورة في نشرة اللجنة الاقتصادية التابعة لمكتب التجارة في البرلمان ، المجلد 87 (1911) .

جدول رقم 9 : عدد المغادرين البلاد في عامي 1911 و 1912 .

المغادرون	1911	1912
الهجرة بواسطة مرفأ طرابلس وبيروت من ولايتي بيروت وبر الشام ومن متصرفية جبل لبنان أيضاً	14 000	24 000

المصدر : تقرير القنصل الألماني في بيروت في عام 1912/1911 ذكره أرتير روبين ، مصدر سابق ، ص 20 .

نلاحظ ان حركة الهجرة الاجمالية قد تسارعت بين عام 1909 و 1911 و 1912 . أما بالنسبة للهجرة من مرفأ بيروت فقد انخفضت في عام 1912/1913 وعادت الى الارتفاع عام 1913/1914 لكنها تراجعت نسبياً في عام 1914/1915 مع بداية الحرب .

جدول رقم 10 : حركة مرفأ بيروت عشية الحرب العالمية الأولى

السنة	الواصلون	المغادرون	الرصيد
1329 هجرية (1912/1913)	18131	18904	873
1330 هجرية (1913/1914)	9387	16739	7352
1331 هجرية (1914/1915)	350	6109	5669
المجموع	27868	41752	13884

المصدر : دارة مرفأ بيروت كما أوردها أرتير روبين ، في كتابه « سوريا ، مجال اقتصادي » الذي ترجمه جورج شبيب من الألمانية إلى الفرنسية ، بيروت ، 1917 ، ص 19 .

1971 ، ص 23-72 ، وجان سورية كانالي ، أفريقيا السوداء في عهد الاستعمار من 1900 إلى 1945 ، المنشورات الاجتماعية ، باريس ، 1964 ، ص 58-78 ، وميشال أسمر ، هجرة سكان بلدة بيت شباب إلى غينيا ، رسالة لئيل شهادة الجدارة في علم الاجتماع الإنمائي ، الجامعة اللبنانية ، بيروت .

قدر ارتير روبين في عام 1917 ان العدد السنوي الوسيطى للمغادرين من لبنان وسوريا وفلسطين كان يتراوح بين 15000 و 20000 مهاجر وان نسبة تتراوح بين 33 % و 50 % من هؤلاء المهاجرين تعود الى البلاد بعد ان تحقق ادخارا معيناً . ان عدد المهاجرين المسجلين في سجلات متصرفية جبل لبنان كان مقدراً في عام 1915 كما يلي :

جدول رقم 11 : المهاجرون المسجلون في سجلات متصرفية جبل لبنان عام 1915

القضاء	عدد المهاجرين المسجلين	القضاء	عدد المهاجرين المسجلين
البترون	26124	الشوف	16961
الكوره	7204	جزين	8061
كسروان	14895	دير القمر	5327
الطن	19853	زحلة	2332
المجموع		100757	

المصدر : ارتير روبين ، مصدر سابق ، ص 20 .

نلاحظ تسارع الهجرة ابتداء من عام 1900 بسبب ازمة تربية دود الحرير و « تأثير » المهاجرين الاوائل على محيطهم الاجتماعى الذى انطلقوا منه (العائلة ، القرية ، المنطقة الخ ...) .

يذكر ارتير روبين تقديراً لعدد المهاجرين السوريين في أمريكا الشمالية والجنوبية عام 1912 بحدود 500000 نسمة منهم 250000 نسمة من متصرفية جبل لبنان .

لكن هذه الارقام عن عدد المهاجرين مشكوك بصحتها . ورد في تقدير محلي ان عدد المهاجرين من متصرفية جبل لبنان قبل عام 1914 بلغ 150000 شخص (9) . وأشار تقدير آخر الى رقم مئة ألف مهاجر مسجل في سجلات جبل لبنان عام 1915 (راجع الجدول رقم I) . يعتبر كل من التقديرين ان عدد سكان جبل لبنان كان في ذلك العهد بحدود 400 ألف نسمة . ويشير

(9) راجع ، إسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 452 .

تقدير آخر الى وجود خمسمائة ألف مهاجر في أمريكا من أصل لبناني وسوري وفلسطيني منهم 250000 مهاجر من أصل لبناني (10) . ان تاريخ الهجرة الديمغرافي لا يزال ناقصا ويحتاج الى من يقوم بوضعه .

وبالنسبة لقضاء البترون كان عدد المهاجرين عام (1921) 6682 مهاجرا وعدد السكان المقيمين 10733 وعدد السكان الذين ماتوا في الحرب (1918/1914) 8661 شخصا ، مما يعني ان نسبة المهاجرين كانت تساوي 25.53 % من مجموع السكان الفعليين في المنطقة (11) (راجع الجدول رقم 12) .

اما بالنسبة لقضائي المتن وبعيدا فقد قدر تقرير صدر عام 1906 عن مطرانية قبرص المارونية ، (التي تقابل تقريبا قضائي بعيدا والمتن) ، ان عدد السكان المقيمين يساوي 29238 نسمة ، (راجع الجدول رقم 13) ، وان عدد المهاجرين من الابرشية يساوي 5856 نسمة . ان نسبة المهاجرين تساوي 15 % من مجمل السكان الاجمالي (12) .

جدول رقم 12 : المهاجرون من بلاد البترون والمقيمون فيها عند نهاية الحرب العالمية الأولى

البلدة	عدد السكان	عدد المهاجرين
كفر عيدا	317	125
سلعانا	78	35
البترون	3550	1000
تحوم	140	120
راشانا	44	2
غوما	111	61
مراح شديد	69	46
مراح الزيات	29	15
سار جيل	127	120
كفيفان	226	83
أجدبرا	110	70
عبرين	320	350
بجدرافل	220	240
بزيينا	20	2
كفرحي	150	130
بقسيا	214	223
جيلا	55	10
حلتا	210	140
صورات	180	130

(10) راجع أرتير رويين ، مصدر سابق ، ص 20 .

(11) استخرجت هذه المعطيات من سجل الزيارة الرعائية التي قام بها المطران بطرس فغالي إلى بلاد البترون والتي انتهت في 1921/10/30 . وقد أرسل إلينا هذه المعطيات الدكتور جان نخول الذي جمعها من أرشيف دير مار يوحنا مارون في بلدة كفرحي ، البترون .

(12) دليل إبرشية قبرص المارونية في لبنان والجزيرة ، أنطلياس - قرنة شهران ، 1890 .

تابع جدول رقم 12 :

عدد المهاجرين	عدد السكان	البلدة
18	150	الفتاحات - عرطرز - حربونه
40	80	كفر حتنا
46	255	سور
65	171	زان
210	175	شبطين
62	79	دريا
149	112	أده
129	212	جران
114	167	نيحا
112	485	الكفور العربي
650	300	حردين
47	151	دير بلا
37	62	حارة بيت كساب
5	27	البتان
150	150	حارة بيت شلالا
؟	؟	كنورين
81	55	دوما (موارنة)
462	463	يشلي
120	286	أصيا
44	44	مراح الحاج
18	54	العلالي
6-48	181	محمرش
69	52	راشا
84	149	حدتون
44	62	رام
5	57	مار ماما
50	80	الدوق
59	36	مزارح
22	19	ظهر أبي ياغي
326	143	تولا
600	207	عبدلي
35	52	جربتا
74	48	صغار
6683	10733	المجموع

المصدر : سجل زيارة المطران بطرس فغالي الرعائية لمنطقة البترون التي انتهت في 30 تشرين الأول عام 1921 (أرشف دير مار يوحنا مارون في كفر حي) .

جدول رقم 13 - المهاجرون من قضاء المشي (الشمال والجنوبي) والمقيمون فيه عام 1906

البلدة	عدد السكان	عدد المهاجرين
عاريا	500	30
شويت	165	11
دير الكحلونية	150	9
الدكوانة	500	—
برج حمود	450	20
البوشرية	250	2
صارة شلهوب	400	10
الزلقا	150	20
عمارية	20	—
انطلياس	340	5
يقتايا - جل الديب	—	50
بصاليم	60	12
المطيلب	60	5
بيت الشمار	400	60
ديك المحدي	360	75
مزرعة يشوع	900	300
زكريت	400	110
الفريكة	250	30
قرنة الحمراء	850	150
بيت الككو	200	80
عين علق	260	26
الفتنطرة	100	15
قرنة شهوان	805	230
عين عار	510	55
وادي شاهين	150	43
مار بطرس	120	—
البياسة	490	8
عين الخروبة	310	20
حملايا	600	60
بكفيا	4000	1525
ساقية المسك	630	168
بحر صاف	275	30
برمافا	480	105
جورة البلوط	350	40
نابيه	26	15
الغماية	130	11
المسقي	90	20
المزكة	100	60
قرظافسة	144	40
زندوقة	87	4
القصيبة	130	—
الكنيسة	360	65
بصفريين	140	100
الدليية	300	10
العربانية	600	120

تابع جدول رقم 13 :

البلدة	عدد السكان	عدد المهاجرين
صالما	1800	130
دير الحرف	300	25
الشبانية	1510	145
بمريم	400	10
بتيات	36	—
حمانا	2200	420
كفرسلوان	162	12
ترشيش	200	30
جوار الحوز	400	35
القمشور	300	20
الدوار	360	10
الشوير	3000	20
عين التفاحة	100	—
شويا - الزغرين	200	10
بيت شباب	5100	1200
الشاوية	250	40
المجموع	29238	5856

المصدر : تقرير عن زيارة رعائية لمطرائية قبرص المارونية عام 1906 ، منشور في دليل الأبرشية في لبنان والجزيرة ، انطلياس ، قرنة شهوان ، 1980 ، ص 111 الى 137 .

وأشارت أيضا دراسة عن بلدة بشمزين في قضاء الكورة الى ان نمط الهجرة فيها حتى عام 1914 كان كما يلي :

جدول رقم 11 : الهجرة من بلدة بشمزين في الكورة بين عام 1880 وعام 1914 .

الفترة	84/1880	89/85	94/90	99/95	04/1900	09/1905	14/1910
عدد المهاجرين خلال الفترة	1	6	13	38	67	67	65

المصدر : عفيف طنوس ، الهجرة عامل للتغير الاجتماعي في القرى العربية ، منشورة في مجلة علم الاجتماع الريفي ، المجلد السابع ، 1942 ، ص 62 .

نلاحظ تسارع حركة الهجرة ابتداء من عام 1900 .

ب - الهجرة الى مصر : هذه الهجرة المعروفة جيدا على الصعيد الاجتماعية - الثقافية والاقتصادية والسياسية غير معروفة تماما على الصعيد الديمغرافي .

ان تقدير عدد اللبنانيين في مصر (المعروفة آنذاك بانها مقاطعة عثمانية نظريا) غير متوفر الا لسنوات 1940 ، حيث قدر في تلك الفترة بستين ألف نسمة . يبدو ان غياب التقديرات عن الهجرة قبل عام 1914 ناتج عن وضع مصر القانوني ، (عثمانية نظريا) ، الذي كان يعتبر هذه الهجرة نزوحا داخليا ، تشير مصادر القنصلية الفرنسية الى وجود تجار لبنانيين في الاسكندرية عام 1893 من عائلات خلط وجرجور وحمصى وسرسق ودبانه (13) .

ج - يمكن تبيان الهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية من خلال الجدول رقم 15 (الذي يبين عدد السوريين المهاجرين اليها الذين هم بغالبيتهم من اللبنانيين) :

جدول رقم 15 : التدفق السنوي للمهاجرين السوريين الى الولايات المتحدة الأمريكية (1899 - 1919)

السنة	عدد المهاجرين السنوي
1899	3708
1900	2920
1901	4064
1902	4982
1903	5551
1904	3653
1905	4822
1906	5824
1907	5880
1908	5520
1909	3668
1910	6317
1911	5444
1912	5525
1913	9210
1914	9023
1915	1767
1916	676
1917	976
1918	210
1919	231
المجموع	89971

المصدر : التقرير السنوي لمفوض الهجرة العام ، 1919 ، ص 168 ذكره فيليب حتى في كتابه « السوريون في أمريكا » ، جورج 5 . داران وشركاه ، نيويورك ، 1924 ، ص 62 - 65 .

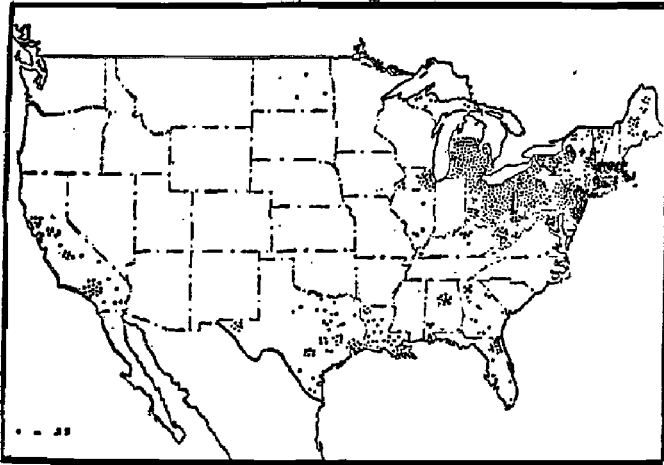
- (13) راجع غريبال منسي ، من اجل تجديد اقتصادي لبناني بمساهمة لبنان ما وراء البحار - منشورات الجمعية اللبنانية للاقتصاد السياسي ، بيروت 1950 ، ص 6 .
- الأرشيف الوطني (باريس) - وزارة التجارة - سلسلة - F 12 - كارتون ، 7414 - الملحقان 2 و 4 من تقرير القنصل الفرنسي في الإسكندرية (1893) .

يؤمن السوريون (الذين هم بغالبيتهم الساحقة من اللبنانيين) تدافقا سنويا للمهاجرين يسير بازدياد مع بعض التقلبات ويبلغ ذروته عشية الحرب العالمية الاولى .

أشارت المصادر القنصلية الفرنسية في بيروت الى تسارع هذه الهجرة ابتداء من السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر (14) ، ونسبت سببها الى تدنى الاجور في الريف عام 1893 .

وتشير هذه المصادر في عام 1905 الى ان ثلث سكان جبل لبنان قد سافر الى أمريكا وتذكر المصادر نفسها ايضا الجهود التي تبذلها السلطات العثمانية لكبح جماح هذه الهجرة . يتجمع هؤلاء المهاجرون في الولايات الواقعة شمالي شرقي الولايات المتحدة الامريكية كما يظهر في الخريطة رقم I .

خريطة رقم واحد : التوزيع الجغرافي للمهاجرين اللبنانيين السوريين في نهاية الحرب العالمية الأولى (1914 / 1918) في الولايات المتحدة الأمريكية .

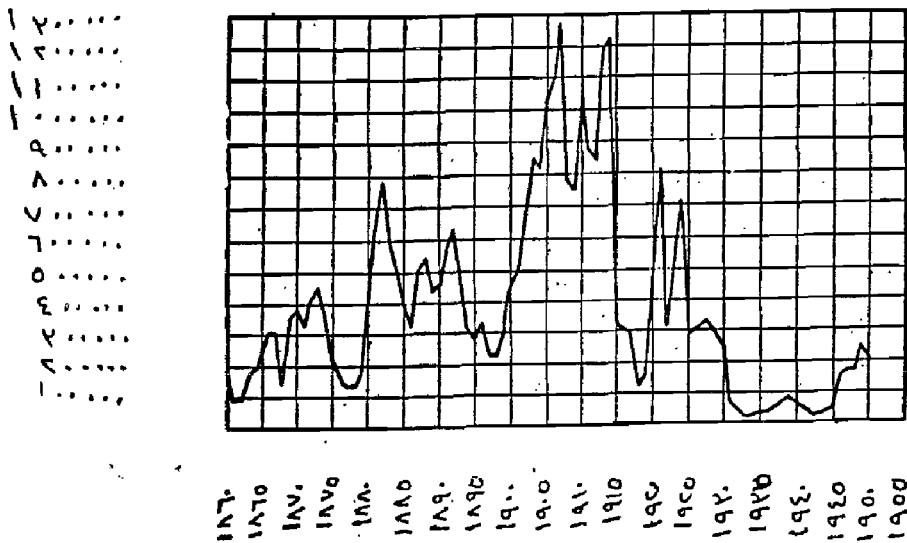


المصدر : فيليب حتى . مرجع سابق ، ص 64 .

(14) الأرشيف الوطني - مصدر سابق، مجموعة F. 12 - كارتون، 7192 - القنصلية الفرنسية العامة في بيروت : وضع التجارة والصناعة ، رسالة مؤرخة في 5 / 6 / 1983 و حركة التجارة والملاحة في بيروت عام 1905 .

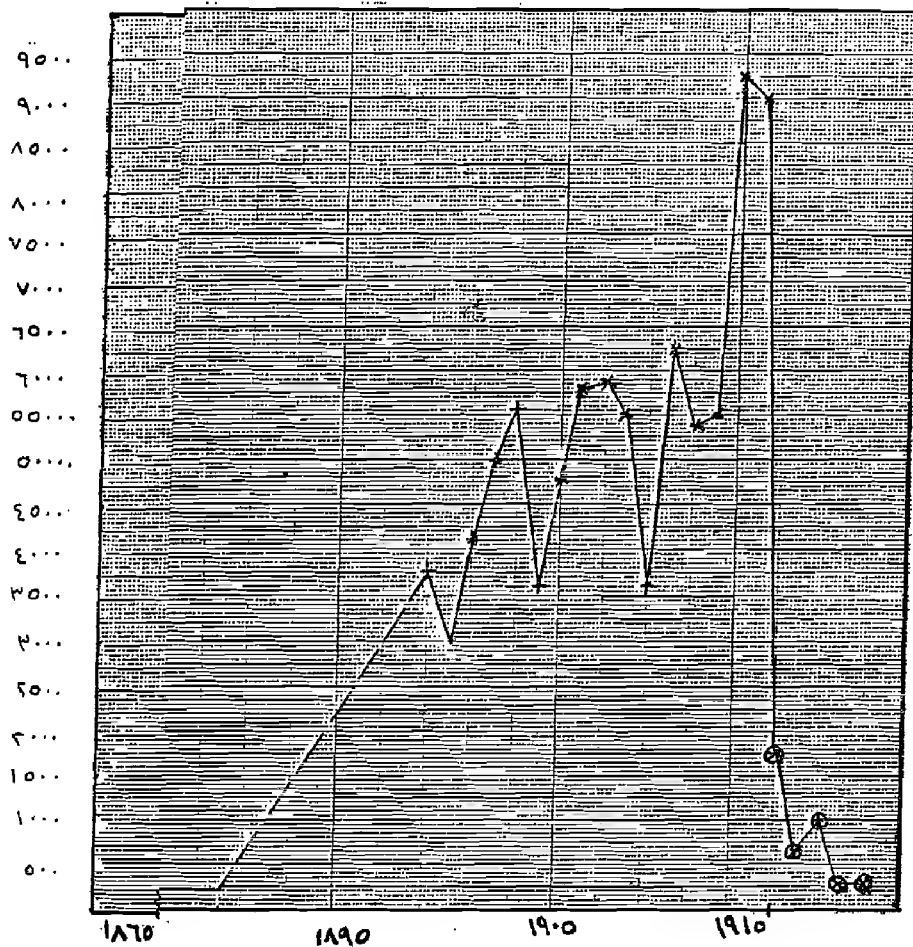
من جهة أخرى ، فإذا قارنا التواتر السنوي لكامل الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية ، المبين في الرسم البياني رقم 3 مع تواتر الهجرة اللبنانية اليها ، المبين في الرسم البياني رقم 4 ، نلاحظ وجود توازي بينهما . يحملنا هذا الافتراض بأن « عوامل الجذب » للهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية كانت أقوى من العوامل المحلية التي كانت تدفع بهذه الهجرة من لبنان . هذا بالرغم من الدور الاكيد الذي لعبته ليبرالية التشريع العثماني بعد عام 1908 .

رسم بياني رقم ٣ - الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية (١٨٦٠ - ١٩٥٠)



المصدر : الإحصاءات السنوية ، 1921 ، ص 883 ، و 1940 ، ص 99 ، ص 95 .

رسم بياني رقم ٤ - الهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٢٠

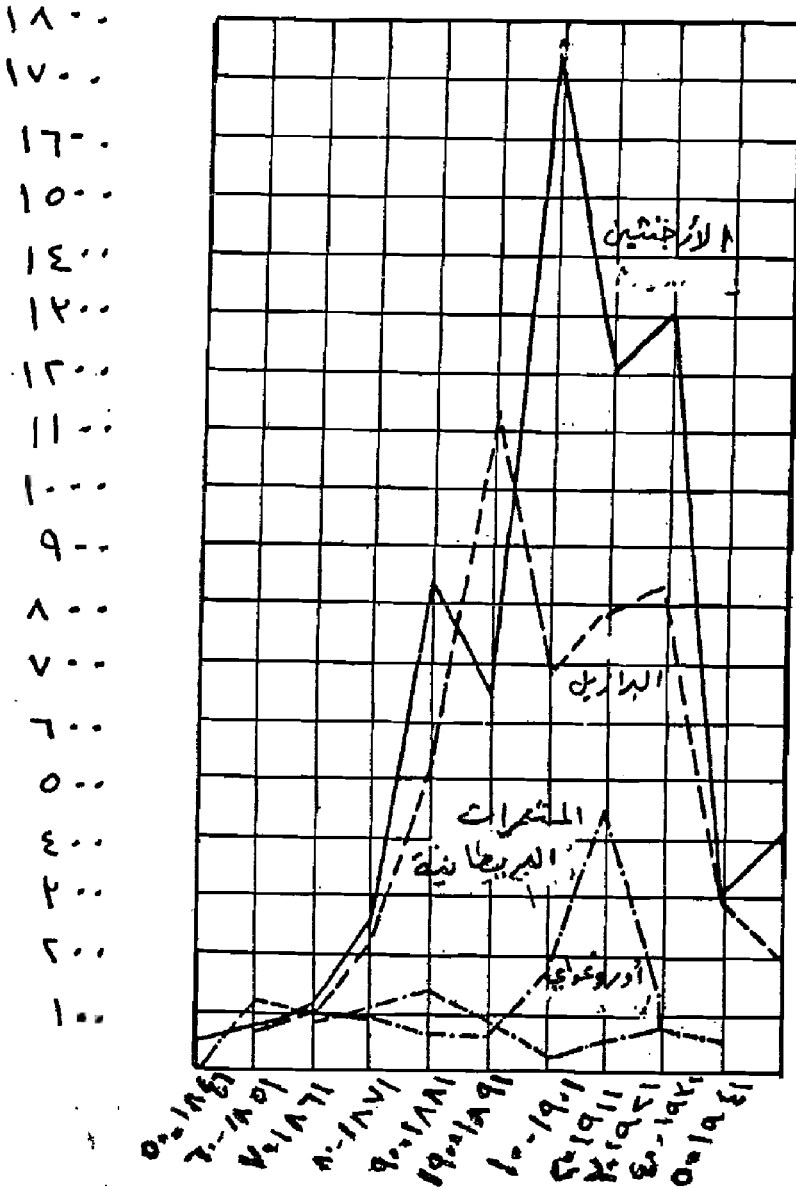


المصدر : ايلي صفا ، مصدر سابق ، ص ١٨٨ الى ١٩٠ .

د - الهجرة الى أمريكا اللاتينية :

يمكن التعبير عن كامل الهجرة الى بعض بلدان أمريكا اللاتينية بالرسم البياني رقم 5 .

رسم بياني رقم 5 - الهجرة نحو الأرجنتين والبرازيل والاوراغواي والمستعمرات البريطانية في أمريكا اللاتينية (1845 - 1950) .



استقبلت الارجننتين وحدها 3,300,000 مهاجر (صافي الهجرة) بين عام 1857 و عام 1914 وهذا يعني متوسطا مقداره 58000 شخص في السنة (15) ، ويمكن وصف الهجرة اللبنانية الى الارجننتين في الجدول رقم 16 ، المبين أدناه .
جدول رقم 16 : التواتر السنوي للهجرة اللبنانية الى الأرجنتين 1887 - 1913 .

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
1887	19	1900	1583
1888	31	1901	2195
1889	2020	1902	1671
1890	210	1903	1450
1891	21	1904	3662
1892	30	1905	7055
1893	122	1906	7177
1894	122	1907	7436
1895	380	1908	9101
1896	7197	1909	11765
1897	1194	1910	15474
1898	1715	1911	13605
1899	3196	1912	19092
		1913	19542
		المجموع :	130936

المصدر : نيل حروفش ، الحضور اللبناني في العالم ، المجلد رقم 1 ، 1974 ، جونه ، ص 49 .

خلال هذه الفترة ، أي بين عام 1887 و 1913 ، ترك 38424 لبنانيا الارجننتين ويكون بالتالي صافي الهجرة اليها ، خلال الفترة نفسها 92513 لبنانيا .

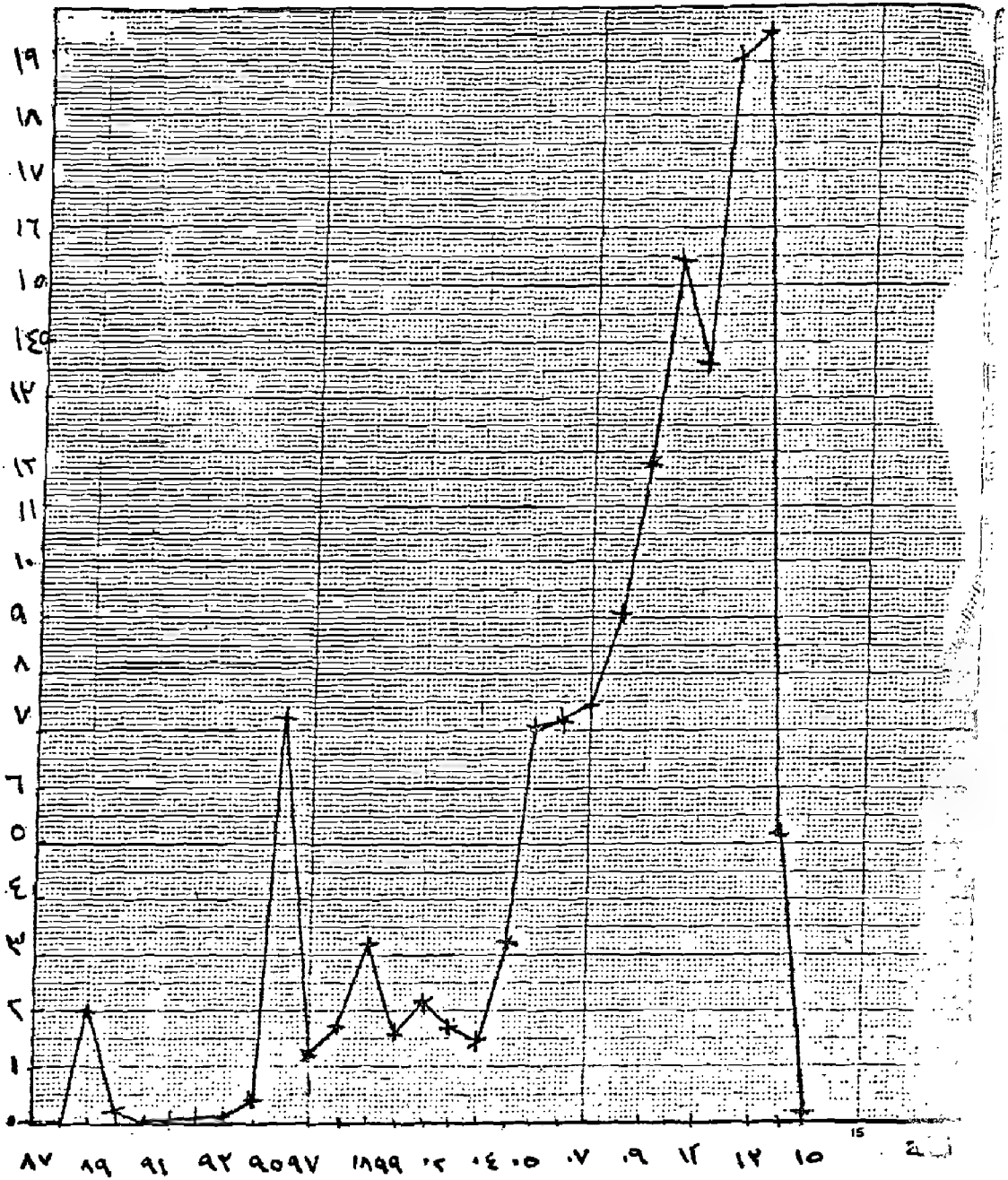
عرفت البرازيل أيضا هجرة مماثلة يمكن تلخيصها في الجدول رقم 17 الذي يصف الهجرة اللبنانية الى البرازيل (16) . (يقدر المؤلف أن 85% من المهاجرين ، المحسوبين سوريين وأتراك في الجدول ، هم لبنانيون) .

تعطى هذه الارقام متوسطا قدره 1500 شخص في السنة لكن تسارع الهجرة ينطلق ابتداء من عام 1900 .

(15) راجع ألو فيرير ، مصدر سابق ، ص 106 .

(16) راجع غبريال منسي ، خطة لبناء الاقتصاد اللبناني واصلاح الدولة ، منشورات الجمعية اللبنانية للاقتصاد السياسي ، بيروت 1848 ، ص 384 و 385 .

رسم بياني رقم ٦ - التدفق السنوي للمهاجرين اللبنانيين الداخليين الى الأرجنتين



المصدر: نبيل مرفوض، مصدر سابق، ص ٤٩

جدول رقم 17 : الهجرة اللبنانية الى البرازيل .

السنوات	سوريون	أتراك	المجموع	اللبنانيون
1884 - 1893	93	3	96	82
1894 - 1903	602	6522	7124	6055
1904 - 1993	3826	42177	46003	39102

ان مقارنة معطيات الهجرة اللبنانية الى الأرجنتين ، (جدول رقم 16 ورسم بياني رقم 6) ، والبرازيل ، (جدول رقم 17) ، مع كامل الهجرة الى هذين البلدين ، كما هو مبين في (الرسم البياني رقم 5) ، تظهر ان الارتباط بين التواتر السنوي للظاهرتين ضئيل جدا . يحملنا هذا الى الافتراض بأن تواتر الهجرة اللبنانية الى البلدين تأثر بوضع بلد الاطلاق ، وربما بوضع الجاليات اللبنانية في بلاد المهجر أكثر مما تأثر بالوضع العام السائد في بلاد المهجر . وهذا الوضع هو تماما عكس الوضع الذي كان سائدا بالنسبة للهجرة اللبنانية الى الولايات المتحدة الامريكية .

هـ - الهجرة الى افريقيا :

يصف مؤلفان مؤهلان هذه الهجرة بالعبارات التالية :

ان المهاجرين الى افريقيا الغربية المعروفين بـ « اللبنانيين - السوريين » هم بغالبيتهم من اللبنانيين . لم يكن عددهم الا أربعة أو خمسة عام 1892 وثلاثين عام 1897 . وبلغ عددهم عام 1900 : 400 مهاجر وأصبح 4000 خلال الحرب العالمية الاولى . هؤلاء المهاجرون الذين كانوا يمثلون عام 1908 : 57،15 % من مجموع السكان الاجانب في افريقيا الغربية الفرنسية أصبحوا عام 1909 أى خلال عام واحد فقط ، يمثلون 64،78 % من مجموع السكان الاجانب . يستقر هؤلاء بشكل قوى في السنغال : كان عددهم مئة عام 1900 فأصبح خمسمائة في عام 1914 (17) .

ان الفرز الاول للمعلومات الصادرة عن ارشيف حكومة افريقيا الغربية الفرنسية (المتوفرة بشكل ميكرو فيلم في الارشيف الوطنى فى باريس) ،

(17) ايلي صفا ، الهجرة اللبنانية ، مصدر سابق ، ص 191 .

- وسير أمين ، مصدر سابق ، ص 12 ، 18 ، 19 ، 21 .

بالإضافة الى استثمار الدراسات اللاحقة تسمح لنا بإبراز المعطيات التالية الخاصة بالهجرة اللبنانية - السورية الى افريقيا الغربية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر (الجدول رقم 18) وبداية القرن العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى (جدول رقم 19) .

جدول رقم 18 : السكان اللبنانيون - السوريون في افريقيا الغربية الفرنسية في القرن التاسع عشر .

البلد - السنة	1889	1890	1892	1897	1898	1899	1900
غينيا	—	(1)1	—	—	(1)4	(1)5	—
السنغال	—	—	(2)1	(2)18	(2)150	—	(2)163
السودان	(3)1	—	—	(4)1	—	(4)8	(2)99
النيجر	—	—	—	—	—	(3)4	(2)14
فولتا العليا	—	—	—	—	—	—	—
المجموع	1	1	1	19	154	17	276

المصدر : (1) 200 ميكرو فيلم 1100 - 21638 (الأرشيف الوطني - باريس ، ميكرو فيلم عن أرشيف افريقيا الغربية الفرنسية)

(2) جان غبزيال دابورد ، الهجرة اللبنانية السورية في افريقيا الغربية الفرنسية بواتيه ، المطبعة العصرية ، رينو و شركاهم ، 1938 ، ص 17 - 40 - 41 .

(3) 200 ميكرو فيلم 1101 - 21638 .

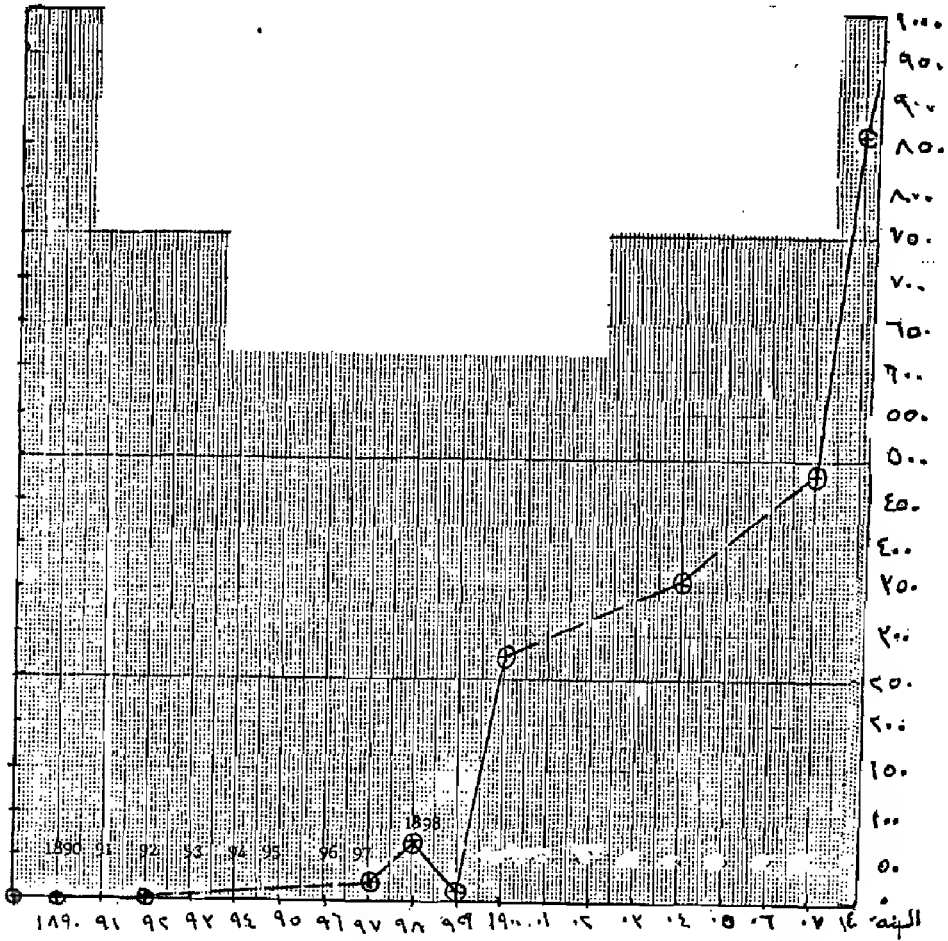
(4) روفيسك فقط 200 ميكرو فيلم 1099 - 21630 . مستند رقم 183 (هذه المراجع عن الأرشيف وضعتها بتصرفنا السيد ميشال أسمر) .

جدول رقم 19 - السكان اللبنانيون السوريون في افريقيا الغربية الفرنسية من عام 1904 حتى عام 1913

البلد - السنة	1904	1907	1908	1909	1910	1913
السنغال	101	—	281	384	—	1016
غينيا	260	477	554	697	—	—
السودان	—	—	16	—	—	—
شاطيء العاج	—	—	3	—	—	—
داهومي	—	8	10	8	—	—
النيجر	—	—	1	1	—	—
السنغال العالي	—	—	2	—	—	—
موريتانيا	—	—	—	—	—	—
المجموع	361	385	867	1090	—	1016

المصدر : جان غبزيال دابورد ، مصدر سابق ، ص 17 و 19 .

رسم بياني رقم 7 - الإتجاه العام لتطور الهجرة اللبنانية - السورية الى افريقيا الغربية الفرنسية (1899 - 1913) .



المصدر : الجدولان رقم 18 و 19 .

أحصى مصدر الارشيف نفسه ، الذي يذكر نتائج تعداد سكاني جرى عام 1918 في افريقيا الغربية الفرنسية ، وجود 790 مهاجرا فيها (منهم 424 مهاجرا في غينيا فقط) (18) .

بالنسبة لبقية بلدان افريقيا فقد أشير الى وجود مهاجرين لبنانيين في نيجيريا وغانا منذ عام 1884 . وأشير في العام نفسه الى وجود تاجرين لبنانيين من عائلة دهان في مدينة موغادور في المغرب (19) .

و - الهجرة الى استراليا :

يعود تاريخ هذه الهجرة الى عام 1876 (20) وصل عدد المهاجرين الى 1500 مهاجر في بداية القرن العشرين : أحصى عدد 1498 مهاجرا عام 1901 و 1527 مهاجرا عام 1911 (21) .

4 - نتائج هذه الهجرة على الاقتصاد والمجتمع :

ساهمت هذه الهجرة بشكل ظاهر في احداث التحولات الاقتصادية - الاجتماعية التي تمت خلال تلك الفترة وذلك على صعد مختلفة .

أ - على الصعيد الديمغرافي :

طالت الهجرة على هذا الصعيد الفئات العاملة من هرم اعمار السكان . وكانت النتائج نقصا في اليد العاملة الزراعية ثم اليد العاملة الصناعية (مصانع غزل الحرير) في نهاية الفترة : من هنا تنبثق المضاعف التي عانت منها مصانع غزل الحرير .

سجل أحد المراقبين المؤهلين عام 1911 ان الهجرة الى أمريكا تسببت بأحداث نقص في اليد العاملة في مصانع غزل الحرير ، تراوحت نسبة هذا النقص بين 15 و 20 % ولولا الازمة الاقتصادية التي اجتاحت أمريكا ذلك الحين وكبحت بعض الشيء جماح الهجرة اليها ، لكانت حالة تربية دود الحرير وصناعاته في لبنان أشد سوءا لأن التحويلات المالية التي كان يرسلها المهاجرون الى ذويهم العائشين في البلاد ، تضاعفت وخففت جاذبية الهجرة ، لو استمر هذا الوضع لمدة أطول لأنقذت مصانع الحرير (22) .

(18) راجع 200 ميكروفيلم 1100 - 2638 .

(19) راجع النهار تاريخ 1984/9/19 و الارشيف الوطني ، - باريس - وزارة التجارة تقرير القنصلية في موغادور - 1884 .

(20) راجع ايلي صفا ، مصدر سابق ص 107 .

(21) راجع شارل برايس ، الهجرة الى أستراليا من البلاد العربية ، نشرة السكان في منظمة الاكوا عدد 21 ، كانون الأول 1981 ، بيروت ، ص 64 .

(22) غاستون دي كوسو ، مصدر سابق ، ص 160 ، 161 .

بالنسبة للتزايد الديمغرافي كانت نتائج الهجرة سلبية بالنسبة للولادات الجديدة التي انخفضت بسبب النسبة الكبيرة للمهاجرين الذكور الشباب (23).

ب - على الصعيد المالي :

انعكست هذه الهجرة في وقت مبكر بتدفق مالي دخل الى البلاد . قدر هذا التدفق بثلاثين مليون فرنك فرنسي أي 132 مليون غرش تركي بالنسبة للبنان وسوريا وفلسطين و بـ 90 مليون غرش تركي بالنسبة لمتصرفية جبل لبنان وحدها . من اصل الثلاثين مليون فرنك هذه كان يصل منها بواسطة بيروت 15 مليون ويصل 12 مليون بواسطة طرابلس ومليونين بواسطة حمص (24) . هناك تقدير آخر يعطى رقما لهذه التحويلات الى لبنان وسوريا وفلسطين قدره 25 مليون فرنك فرنسي سنويا (25) . ويعطى تقدير ثالث رقما لهذه التحويلات الى متصرفية جبل لبنان يتراوح بين 90 ومئة مليون غرش تركي في السنة (26) .

تحملنا كل هذه المعطيات الى تقدير قيمة هذه التحويلات قبل عام 1914 بـ 25 مليون فرنك فرنسي سنويا أي ما يساوي 110 ملايين غرش تركي لكامل لبنان . استخدمت هذه التحويلات في خمسة مجالات رئيسية : شراء الاراضي وبناء المساكن وزيادة الاستهلاك ورفع مستوى المعيشة والاستثمارات المنتجة بشكل سريع .

جدول رقم 20 : تقدير تحويلات المهاجرين المالية عتبة الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) .

المنطقة	المصدر	لبنان ، سوريا ، فلسطين	متصرفية جبل لبنان
روبين	30 مليون فرنك فرنسي 132 مليون غرش تركي	90 مليون غرش تركي	
نيقولا	25 مليون فرنك فرنسي	—	
حقي	—	بين 90 و 100 مليون غرش تركي	

المصدر : الحواشي من رقم 24 الى رقم 62 .

(23) راجع ، اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 452 .

(24) راجع ، ارتير روبين ، مصدر سابق ، ص 22 - 23 و 29 - 30 .

(25) مكسيم نيقولا ، المسائل المالية في سوريا ، ليون ، أ.راي ، 1921 ، ص 29 .

(26) راجع اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 453 و 470 .

ج - على الصعيد العقاري :

لدى مقادرة الاراضى اللبنانية كان المهاجرون (خاصة الفقراء منهم) يبيعون جزءا من اراضيهم أو جميعها ، لتأمين المال اللازم لتغطية نفقات السفر والايام الاولى من الإقامة وغالبا ما كانت الاوقاف هي التى تشتري هذه الاراضى .

عرفت الممتلكات الخاصة بالاوقاف توسعا سريعا خلال هذه الفترة وأصبحت فى بداية القرن العشرين تغطى مساحة ما يقارب من ثلث الاراضى الزراعية فى متصرفية جبل لبنان . زادت هذه الظاهرة الضغط على الاراضى من جراء الوضع القانونى لهذا النوع من الممتلكات التى كانت الهجرة تساهم فى زيادتها (27) . وقد أدى ذلك الى تجميع ملكية الاراضى فى يد الاوقاف . من جهة أخرى نلاحظ حركة شراء للاراضى تمويلها تحويلات المهاجرين المالية .

هذا الشراء بالاضافة الى ندرة الاراضى المعروضة للبيع (بسبب كثافة السكان وتوسع ممتلكات الاوقاف) رفعت اسعار الاراضى والدخل من العقارات . نلمس هذا الوضع بشكل خاص فى متصرفية جبل لبنان حيث كانت الافضلية لشراء الاراضى نظرا لانخفاض الضرائب العقارية وتأثير السكان فى الادارة وغياب الخدمة العسكرية . كل هذه العوامل دفعت المهاجرين من أراضى المتصرفية الى شراء الاراضى فيها وفضليتها على الولايات المجاورة

وعلى سبيل المثال كان سعر غرسة الزيتون بعشرين فرنك فى طرابلس ويتراوح سعرها بين 40 و 60 فرنك فى جبل لبنان . وكذلك كان سعر فدان الارض المغروسة بالتوت يقدر بألف فرنك فى طرابلس وبأربعة آلاف فرنك فرنسى فى جبل لبنان .

وهكذا كانت قيمة الاراضى الماثلة تساوى فى المتصرفية مرتين أو ثلاث قيمة الاراضى فى الولايات المجاورة وكان العديد من المهاجرين يجدون صعوبة فى شراء اراضى بهذه الاسعار . وكانت اسعار الاراضى فى مدينة بيروت أكثر أربع مرات من سعر الاراضى فى دمشق وحلب وعشرة مرات أكثر من سعر الاراضى فى طرابلس (28) .

د - على صعيد البناء :

انعكست الهجرة باستثمار التحويلات المالية لبناء مساكن فخمة فى القرى التى انطلق منها المهاجرون . وأصبحت المساكن المشهورة من القرميد الاحمر

(27) راجع ، بول نجيم ، المسألة اللبنانية ، مطبعة بيبان ، جونية ، 1961 ، الطبعة الثانية ، ص 414 و 425 .

(28) راجع ، أرتير روبين ، مصدر سابق ، ص 23 و 42 ، وبول نجيم ، مصدر سابق ، ص 524 ، و اسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 453 .

علامة وجاهة جديدة اكتسبت من جراء الهجرة الى ما وراء البحار (29). قادت هذه الاستثمارات الى استيراد مواد البناء من الطوب والقرميد والرخام والكلس السائل والكلس والجص والترابة والزجاج (30). وقادت أيضا الى نشاط متزايد لمهن البناء ولكل نشاطات الانتاج المحلي لمواد البناء: الاحجار المقصوبة، الكلس، الكلس المائي والرخام والقرميد والطوب (31).

هـ - على صعيد زيادة الاستهلاك وارتفاع مستوى المعيشة :

ان تأثير الهجرة واضح لان تحويلات المهاجرين المالية كانت تمثل عيشية الحرب العالمية الاولى (1914 - 1918) نسبة 41% تقريبا من دخل سكان جبل لبنان. وانعكس ذلك بزيادة واردات السلع الاستهلاكية التي نلاحظها في بنية التجارة الخارجية لمصرفية جبل لبنان ومدينة بيروت واجمل الاراضي اللبنانية (32).

وانعكس أيضا هذا الارتفاع لمستوى الدخل في تحسين مستوى التعليم لانه سهل عملية ارتياد المدارس التي كانت جميعها من المؤسسات الخاصة. وساعد مستوى الحياة هذا في ازدهار حياة فكرية وثقافية ناشطة جدا (مدارس وجامعات ومطابع وصحافة وجمعيات أدبية وعلمية) (33).

وحدث الشيء نفسه على الصعيد الصحي حيث نشاهد انشاء مؤسسات جديدة للطب العصري وقد سهل ذلك الاعداد المحلي للطباء والصيدلة وتطور الخدمات الصحية العامة والمستشفيات والقيام بحملات تلقيح (34).

و - على صعيد الاستثمارات في الانتاج والتجارة .

كان تأثير الهجرة على هذا الصعيد محدودا جدا. لقد استثمر جزء من التحويلات المالية في التجارة الصغيرة وفي الحرف وفي الصناعة الصغيرة، وروجت هذه المؤسسات المنتجات التي تعرف عليها مالكوها خلال الهجرة. وقد ادخلت هذه المؤسسات أساليب عمل جديدة وابتاع بعض المهاجرين بعض مصانع غزل الحرير التي كانت تمر بأزمة.

وسجل على الصعيد الزراعي بعض التقدم رغم الصعوبة التي كان يلاقيها

(29) اسماعيل حقي، مصدر سابق، ص 453.

(30) راجع بطرس لبكي مدخل الى تاريخ لبنان الاقتصادي، الحرير والتجارة الخارجية في أواخر العهد العثماني (1840 - 1914) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1984، ص 328 و 336.

(31) راجع اسماعيل حقي، مصدر سابق، ص 445 - 446 - 447 - 468.

(32) راجع، بطرس لبكي، مصدر سابق، ص 381 الى 383 و 428 الى 439.

(33) راجع، اسماعيل حقي، مصدر سابق، ص 569 الى 600 و 234 الى 241.

(34) راجع، المصدر السابق، ص 664 الى 667.

المهاجرون العائدون في امتلاك الاراضي الزراعية : زادت مساحة الاراضي المزروعة وأدخل العائدون بعض التقنيات الزراعية الجديدة (35) .

ز - على الصعيد الفكري والثقافي :

ساهمت الهجرة في تنمية النشاطات والحركات الفكرية التي يمكن ادراكها من خلال المؤشرات التالية :

- تنمية الصحافة بواسطة المهاجرين ولاجلهم في بلدان المهجر وفي البلد الأم .

- تغلغل الايديولوجيات الرائجة في الغرب ونشرها بواسطة المهاجرين (الليبرالية ، القومية والاشتراكية) .

خلاصة :

ان الهجرة اللبنانية في هذه الفترة التي اطلقتها التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عرفها لبنان ودول المهجر قد تركت بصمات عميقة في السكان والمجتمع واقتصاد البلاد . وقد عدل الانتداب الفرنسي والحرب العالمية الاولى وازمة عام 1929 تعديلا عميقا معطيات هذه الهجرة على ضوء الاطر الجديدة التي حلت في مختلف البلدان .

د. بطرس لبكي

الجامعة اللبنانية - بيروت

(35) راجع ، بول نجيم ، مصدر سابق ، ص 510 ، واسماعيل حقي ، مصدر سابق ، ص 451 و 451 ، وارثير روبين ، مصدر سابق ، ص 133 .

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الشوام وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الاسكندرية فى العصر العثمانى

(923 - 1213 هـ / 1517 - 1798 م)

دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية

د. صلاح أحمد هريدى

عاشت مصر والشام طوال عهد سلطنة المماليك تحت سلطة دولة واحدة ، الامر الذى سهل انتقال الاهالى من اقليم الى آخر ، وكما كان الطريق البرى ، عبر سوريا الجنوبية هو رباط الصلة عبر سيناء الى مصر ، كانت الثغور والموانئ معابر للاتصال البحرى بين الاقليميين ، الامر الذى أوجد مجموعات من الشوام تقيم فى الثغور المصرية ويهمنها منها تلك المجموعة التى عاشت فى الاسكندرية والتى هو موضوع هذا البحث .

وجاء فتح السلطان سليم للشام لى يدعم من هذه الروابط الموجودة بين الاقليميين ومع غيرهم من الاقاليم العربية والاسلامية الاخرى ، ويوسع نطاق المظلة التى امتدت عبر اقاليم السلطنة العثمانية ، ومن خلال الحكم العثمانى كذلك توطدت الصلات البحرية بين موانئ اقاليم الدولة وبعضها ، وساعد ذلك على وجود مجموعات من اهالى أحد الاقاليم فى ميناء اقليم آخر كما هو حالة الشوام الذين أقاموا فى مدينة الاسكندرية فى العصر العثمانى . وكان الامر كذلك بالنسبة لآبناء شمالي افريقية من المغاربة والذين زاد توطنهم فى مدينة الاسكندرية نتيجة لعبورهم مصر فى طريق الحج أو مجيئهم اليها للتجارة .

وبالنسبة للشوام الذين أقاموا فى مدينة الاسكندرية تواجه الباحث بعض الصعوبات الاساسية للتمكن من محاولة إعادة بناء الاطار العام وعلى اسس ثابتة . والصعوبات ترجع أولا الى عدم وجود احصاءات عن أعداد الشوام ، بل أيضا عدم وجود سجلات للإقامة ما داموا جميعا رعايا لدولة واحدة ومن حقهم التنقل بين اقاليمها المختلفة دون احتياجهم الى وثائق لذلك ، وأيضا خضوعهم لنفس القوانين المطبقة فى ولايات الدولة سواء أكانت القوانين الاسلامية أو النظم الموضوعة لأصحاب الملل والديانات من غير المسلمين .

حقيقة ان الوحدات الادارية داخل الدولة العثمانية كانت منفصلة عن بعضها وأن الشام قد تحول الى ولاية قائمة بذاتها في الوقت الذي أصبحت فيه القاهرة مقر ولاية أخرى ، وخضعت منه الاسكندرية لسلطة القبودان باشا ، وأن الدولة كانت تنقل الولاة من أحد الاقاليم لتولى منصب الولاية في اقليم آخر ولكن هذه التقسيمات الادارية لم تكن تحد من نشاط الرعية ولا من حرية تنقلهم من اقليم الى آخر .

ويمكننا ان نذكر هنا ان احد حكام دمشق من أسرة آل العظم ، وهو سليمان باشا العظم قد حكم مصر لفترة من الزمن (I) وكان ذلك في عام 1738 م (2) . وحدث ذلك أيضا مع رجب باشا حاكم بلاد الشام الذي أتى بعدها واليا على مصر (3) وتقلد بعض الشوام وظائف القضاء في مصر (4) ، وساهم بعض علماء دمشق في الحياة الفكرية فيها (5) علاوة على وجود بعض العلماء من الشام في مصر (6) وكل ذلك داخل اطار الدولة العثمانية هو في مناخ التضامن والتآخي الاسلامي .

ورغم صعوبة البحث وقلة المصادر والبيانات المحددة فان المادة الموجودة في سجلات الشرعية بالاسكندرية تعتبر مصدرا رئيسيا وأصيلا يخدم هذا الموضوع رغم قصورها عن تغطية جميع أوجه الانشطة الاقتصادية والاجتماعية للشوام وبعضهم أو بين الشوام وأبناء مدينة الاسكندرية وسكوتها على ما تم بالفعل من تعاملات لم يلتجئ فيها الاطراف الى التقاضى (*) .

هكذا كان من حق الشوام ، وفي مدينة الاسكندرية ، في العهد العثماني ، القيام بممارسة جميع أوجه الانشطة التجارية والاقتصادية والاجتماعية على قدم المساواة مع أبناء هذه المدينة ، وفي ظل النظام العام العثماني الذي كان يحكم الجميع .

ولقد قسمت البحث الى نقطتين : الاولى عن الحياة الاقتصادية والثانية عن الحياة الاجتماعية . ولقد اشتملت الحياة الاقتصادية التي شارك فيها الشوام

-
- (1) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، ص 163 .
 - (2) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربي من الفتح العثماني حتى القرن الثامن عشر ، ص 166 .
 - (3) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المصدر السابق ، ص 165 .
 - (4) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج 1 ، ص 47-48 .
 - (5) عبد الرحمن الجبرتي ، المرجع السابق ، ص 69 ، ج 1 .
 - (6) نفسه ، ج 1 ، ص 69 ، 75 ، 90 ، 159 .
 - (*) رغم صعوبة هذا البحث قد شجعتني أستاذي الفاضلين الدكتور جلال يحيى و الدكتور عمر عبد العزيز عمر على ضرورة الاستمرار فيه واستغلال الوثائق الموجودة في أرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية ، والقيام باستنطاقها وبشكل يعطي عناصر أولى أساسية تساعد على بناء موضوع متكامل .

في مدينة الاسكندرية جميع أوجه الانشطة المعروفة في ذلك الوقت سواء في التجارة او الصناعة او الحرف ، او قطاع الاموال .

أولا الحياة الاقتصادية :

وتعطينا وثائق المحكمة الشرعية سجلا واضحا لتعامل الشوام في التجارة وأنواع السلع وطرق التعامل في هذا الميدان .

فلقد تعامل الشوام في مدينة الاسكندرية في تجارة القمح (7) والدقيق (8) وفي المواد الغذائية مثل البطارخ والجبن (9) والعسل (10) والتمر (II) والزبيب (I2) والزبد والمسل (I3) والعجوة (I4) والفلفل الاسود (I5) والبن (I6) . وعملوا كذلك في تجارة اللحوم (I7) وتجارة الاغنام (I8) وتجارة الجمال (I9) والحمير (20) وكذلك الاكديش (2I) . وتاجروا في الجلود (22) والاقمشة والمنسوجات (23) وفي الحرير (24) وفي المنسوجات الحريرية (25)

(7) سجلات المحكمة الشرعية ، سجل رقم 8 ، مادة 895 ، ص 333 بتاريخ 19 جمادى الأولى عام 973هـ/نوفمبر عام 1565م . سيكتفى الباحث بذكر رقم السجل فقط دون الإشارة إلى سجلات المحكمة الشرعية .

(8) سجل رقم 6 ، مادة 173 ، ص 69 بتاريخ آخر ربيع الأول عام 1004هـ/نوفمبر 1595م .

(9) سجل رقم 56 ، مادة 987 ، ص 321 بتاريخ 15 صفر عام 1010هـ/أغسطس عام 1601م .

(10) سجل رقم 18 ، مادة 1076 ، ص 353 ، بتاريخ 15 صفر الخير عام 991هـ/يناير عام 1583م .

(11) سجل رقم 59 ، مادة 216 ، ص بدون رقم ، بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 983هـ/يوليو عام 1575م .

(12) سجل رقم 11 ، مادة 514 ، ص 142 ، بتاريخ 28 رمضان عام 978هـ/يناير عام 1571م .

(13) سجل رقم 46 ، مادة 20 ، ص 8 بتاريخ أواخر ربيع الثاني عام 1050هـ/يوليو عام 1640م .

(14) سجل رقم 25 ، مادة 189 ، ص 63 بتاريخ 11 رجب عام 996هـ/مايو عام 1567م .

(15) سجل رقم 24 ، مادة 94 ، ص 26 بتاريخ 14 محرم عام 983هـ/أبريل عام 1575م .

(16) سجل رقم 56 ، مادة 680 ، ص 232 بتاريخ 26 رجب عام 985هـ/أكتوبر عام 1577م .

(17) سجل رقم 23 ، مادة 631 ، ص 179 بتاريخ 25 شعبان عام 994هـ/يوليو عام 1585م .

(18) سجل رقم 12 ، مادة 194 ، ص 73 بتاريخ 5 محرم عام 986هـ/مارس عام 1578م .

(19) سجلات أرقام 6 ، مادة 11 ، ص 6 بتاريخ 12 ربيع الأول عام 971هـ/أكتوبر عام 1563م . 11 ، مادة 985 ، ص 243 بتاريخ 29 ذي القعدة عام 987هـ/مارس عام 1570م ، نفسه مادة 1022 ، ص 251 ، بتاريخ 3 ذي الحجة المبارك الحرام عام 978هـ/1570م .

(20) سجل رقم 12 ، مادة 848 ، ص 291 بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 976هـ/يونيو عام 1587م .

(21) سجل رقم 18 ، مادة 1107 ، ص 362 بتاريخ 13 صفر عام 991هـ/يناير عام 1583م .

(22) سجل رقم 26 ، مادة 1049 ، ص 356 ، بتاريخ 15 ربيع الثاني عام 918هـ/فبراير عام 1589م ، سجل رقم 27 ، مادة 580 ، ص 273 بتاريخ 14 ربيع الثاني عام 999هـ/يناير عام 1591م .

(23) سجل رقم 16 ، مادة 43 ، ص 15 بتاريخ 6 صفر عام 1003هـ/أكتوبر عام 1594م .

(24) سجل رقم 21 ، مادة 569 ، ص 96 بتاريخ 28 جمادى الثاني عام 1009هـ/ديسمبر عام 1600م .

(25) سجل رقم 18 ، مادة 1076 ، ص 353 ، بتاريخ 15 صفر عام 991هـ/يناير عام 1583م .

وعملوا في تجارة الخردوات (26) وكانوا يتاجرون كذلك في أدوات مصنوعات القيشاني (الصيني والادوات الفخارية) (27) وعملوا في تجارة الورق (28) وكذلك في تجارة الخشب (29) والحطب (30) وتعاملوا بالبيع والشراء في المراكب (31) وتاجروا في الزئبق والزنجفر والجنزبيل والصمغ العربي وفي التوابل (32) وتاجروا في الجير (33) والقنسرين (34) وفي القشور (35) وامتد نشاط تعاملهم التجاري الى الجوارى (36) وهو ميدان مباح وحلال في ذلك الوقت .

أما طرق التعامل في ميدان التجارة فكانت متعددة ولاشك في أن بعض التجار كان يعمل لحسابه الخاص ، وسواء على مستوى صغير أو في حجم تجارة كبير وهنا نجد أن أرشيفات المحكمة يسجل لنا ميادين تعاقدته وخلافاته مع الغير الذين يتعامل معهم . وكان هناك كذلك من يقوم بتكوين شركات للتجارة ، وبخاصة في التجارة مع الخارج . وهناك وثائق عن تكوين الشركات لتجارة الاقمشة والمنسوجات (37) وتجارة الحرير (38) وتجارة الجلود (39) ولقد استأجر البعض وعلى سبيل المشاركة بين أحد الشوام وأحد الاهالي مخيزا في وقف سنان باشا : ولقد فسخ عقد الشركة بين الاثنين بعد ذلك (40) وكذلك كانوا يقومون بأعمال الوكالة لدى التجار الاوربيين المتخصصين في تجارة الحرير ، وكان اليهود الشوام الذين يعملون في هذا القطاع يعتقدون صفقاتهم بكتابة عقود خاصة بالبيع والشراء ، ويذكرون أن

-
- (26) سجل رقم 25 ، مادة 380 ، ص 26 بتاريخ 18 جمادي الأولى عام 996هـ/29 مارس عام 1587م .
- (27) سجل رقم 16 ، مادة 1012 ، ص 374 بتاريخ 2 جمادي الأولى عام 995هـ/أبريل عام 1586م .
- (28) سجل رقم 24 ، مادة بدون رقم ، ص 153 بتاريخ 14 ربيع الثاني عام 972هـ/أكتوبر 1565م .
- (29) سجل رقم 25 ، مادة بدون رقم ، ص 319 بتاريخ 4 محرم عام 997هـ/نوفمبر عام 1589م .
- (30) سجل رقم 58 ، مادة 243 ، ص 136 بتاريخ 9 شوال عام 1102هـ/يونيو عام 1691م .
- (31) كل رقم 95 ، مادة 72 ، ص 48 بتاريخ 18 رجب عام 11864هـ/ 166 م .
- (32) سجل رقم 21 ، مادة 450 ص 12 بتاريخ 6 شوال عام 992هـ/سبتمبر عام 1585م .
- (33) سجل رقم 56 ، مادة 209 ، ص بدون رقم بتاريخ 13 رمضان عام 985هـ/نوفمبر عام 1577م .
- (34) سجل رقم 11 ، مادة 593 ، ص 159 بتاريخ 8 شوال عام 978هـ/فبراير عام 1570م .
- (35) سجل رقم 6 ، مادة 200 ، ص 181 ، بتاريخ 16 رمضان عام 970هـ/أبريل عام 1563م .
- (36) سجل رقم 5 ، مادة 176 ، ص 65 بتاريخ 3 محرم عام 967هـ/أكتوبر عام 1590م .
- (37) سجل رقم 16 ، مادة 43 ، ص 15 بتاريخ 6 صفر عام 1033هـ/أكتوبر عام 1594م .
- (38) سجل رقم 65 ، مادة 331 ، ص 172 بتاريخ 20 شعبان عام 1130هـ/يونيو عام 1717م .
- (39) سجل رقم 29 ، مادة 876 ، ص 299 بتاريخ 10 ذي القعدة عام 1002هـ/أغسطس عام 1594م .
- (40) سجل رقم 83 ، مادة 649 ، ص 263 بتاريخ 12 جب عام 1006هـ/فبراير عام 1598م .

البائع قد استلم حقه كاملا ، وأن المشتري قد استلم بضاعته بمواصفاتها (41) .

وكان الشوام يشتملون بشكل عام على المسلمين ، وكان بينهم بعض الذميين وبعض اليهود ، وعملوا كذلك معهم ومع غيرهم في تجارة الخردوات وغيرها من السلع (42) .

وكما كان التعامل بالشراء ودفع الثمن فورا ، كان هناك التعامل بالاجل سواء بتقسيط كل المبلغ أو دفع جزء وتقسيط الباقي وبعد فترة معينة (43) .

وكان الشوام يتاجرون مع الاوربيين في الفلفل الاسود ، وبخاصة مع البنادقة ، وكانوا يتاجرون بكميات كبيرة . وشهد هذا الميدان تحرير عقود بيع كان بعضها ينص على تسديد جزء من المبلغ ، ثم تقسيط الباقي . وكان يشهد على العقد بعض تجار المدينة (44) . وكانوا يتاجرون مع الاوربيين كذلك في الورق ، ويقايضون عليه بالفلفل الاسود (45) .

ويصدرون البن الى استانبول (46) وتتم عمليات البيع والشراء في بعض الاحيان مع بعض التجار المغاربة (47) ويصدرون البغال الى استانبول (48) ويتاجرون في أقمشة حماه (49) .

ويشهد قطاع التجارة للشوام في مدينة الاسكندرية الكثير من المنازعات في هذا الميدان تعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة وطريقة التقاضي والاحكام التي تصدر أو الطرق التي كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية ، وأرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية مليء بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب هذا العصر العثماني .

وكان البيع بالاجل ، وعدم قدرة المدين على الوفاء بالتزاماته يتطور في بعض الاحيان الى اعطاء بعض ممتلكاته ، حصانه مثلا ، للوفاء بجزء من الدين ،

(41) سجل رقم 65 ، مادة 231 ، ص 172 ، بتاريخ 20 شعبان عام 1130هـ/يونيو عام 1717م .

(42) سجل رقم 25 ، مادة 380 ، ص 26 بتاريخ 18 جمادي الأولى عام 996هـ/29 مارس عام 1587م .

(43) سجلات أرقام 18 ، مادة 17 ، ص 6 بتاريخ 7 جمادي الأولى عام 990هـ/مايو عام 1582م .

سجل رقم 6 ، مادة 173 ، ص 69 بتاريخ آخر ربيع الثاني عام 1004هـ/نوفمبر عام 1595م .

سجل رقم 26 ، مادة 695 ، ص 219 بتاريخ 29 ذي الحجة عام 997هـ/أكتوبر عام 1588م .

(44) سجل رقم 24 ، مادة 96 ، ص 26 بتاريخ 14 محرم عام 983هـ/أبريل عام 1575م .

(45) سجل رقم 24 ، مادة بدون رقم ، ص 253 بتاريخ 4 ربيع الثاني عام 972هـ/أكتوبر عام 1565م .

(46) سجل رقم 45 مادة 329 ، ص 145 بتاريخ 24 محرم عام 1035هـ/أكتوبر 1625م .

(47) سجل رقم 13 ، مادة 106 ، ص 44 بتاريخ 14 ذي الحجة عام 981هـ/مارس 1563م .

(48) سجل رقم 45 ، مادة 329 ، ص 145 بتاريخ 24 محرم عام 1035هـ/أكتوبر عام 1625م .

(49) سجل رقم 16 ، مادة 43 ، ص 25 بتاريخ 6 صفر عام 1003هـ/أكتوبر عام 1594م .

ولكن الحصان لم يكف للوفاء بكل الثمن ، وينتهى الامر باعلان افلاس التاجر (50) وكان البعض يعطى بعض منقولاته رهنا للوفاء بدينه ، مثل وضع أحد المشتريين مركبه كرهن لدى البائع (51) ورغم ذلك فان البائع لم يسلمه البضاعة كاملة بل خصم نسبة من وزن القمح كتالف وفاقد ، زيادة في الضغط على المشتري (52) وفي نفس الوقت نجد حالات كثيرة لا يصير البائع على أخذ رهن ، ويسلم السلع ، ويتفق مع المشتري على الدفع بعد فترة معينة ، وفي ثقة كاملة (53) .

وكانت هناك خلافات تنشأ في قطاع الشراء بالاجل حول المبلغ المتبقى ، كما هي حالة أحد العاملين في صناعة الكحك . والذي اشترى كمية من الدقيق ودفع جزء من ثمنها ، فلقد طالب البائع المشتري بتسديد مبلغ يفوق المتبقى عليه ، وأصر البائع على طلب المبلغ الذي يطلبه ، وانتهى الامر بالقبض على المشتري وسجنه (54) وهناك حالات أخرى تمكن فيها المشتري وفي نفس القطاع ، وهو أحد الخبازين بتسديد ما عليه في الميعاد المحدد (55) .

وكان المشتري بالاجل ينكر في بعض الحالات قيمة المبلغ المتبقى عليه وتوسط البعض بين الطرفين ، وعلى أساس أن يتنازل البائع عن جزء من المبلغ المطلوب (56) فيحصل على بعض حقه بدلا من أن يفقد الكل ، وبعد فترة التقاضي . وهناك حالات كثيرة يتذرع فيها المشتري ويصر على أن المبلغ المتبقى عليه يقل كثيرا عما طلبه البائع (57) وهناك حالات للوفا بالاجل ، تشتمل على تباطؤ في دفع الاقساط ، وكان بعضها ينتهي بدفع ما تم الاتفاق عليه (59) أو يستمر المشتري وهو أحد الحلوانية في عدم السداد ، متذعرا بعدم توافر المال لديه ، وينتهي الامر بالحكم عليه بالسجن (59) وفي هذا النوع من الخلافات نجد أن بعض المشتريين يتذرع بارتباكه المالي ، ويطلب من المحكمة اعطائه فرصة للتسديد مثل أحد الشوام الذي اشترى كمية من الزبيب من بعض تجار السوس المغاربة وعجز عن التسديد في الوقت المحدد له . ولقد

(50) سجل رقم 18 ، مادة 17 ، ص 6 بتاريخ 7 جمادي الأولى عام 990هـ/مايو عام 1582م .

(51) سجل رقم 18 مادة 1060 ، ص 349 ، بتاريخ 1 صفر الخير عام 991هـ/يناير عام 1583م .

(52) نفسه .

(53) سجل رقم 24 ، مادة 208 ، ص 61 بتاريخ 7 جمادي الأولى عام 983هـ/أغسطس عام 1575م .

(54) سجل رقم 28 ، مادة 36 ، ص 104 بتاريخ أوائل شهر ذي الحجة عام 1002هـ/أغسطس عام 1594م .

(55) نفسه .

(56) سجل رقم 26 ، مادة 695 ، ص 219 ، بتاريخ 29 ذي الحجة عام 997هـ/أكتوبر عام 1588م .

(57) سجل رقم 26 ، مادة 695 ، ص 219 بتاريخ 29 ذي الحجة عام 997هـ/أكتوبر عام 1588م .

(58) سجل رقم 28 ، مادة 1076 ، ص 353 بتاريخ 15 صفر الخير عام 991هـ/يناير عام 1583م .

(59) سجل رقم 59 ، مادة 216 ، ص بدون رقم بتاريخ 19 ربيع الثاني عام 983هـ/يوليو عام 1575م .

قبل البائع اعطاه فرصة للتسديد ، وأقرت المحكمة هذا الاتفاق (60) . وكان الدفع بالاجل يتفاوت في الاوقات التى يتم فيها السداد : ففي تجارة العجوة كانت الاقساط تدفع أسباعيا ، كما استشهد بذلك المشتري ، ولكن البائع لم يعترف بهذه الفترات بعد وقوع الخلاف بينه وبين المشتري (61) .

• وكان التعامل بالاجل أمرا شائعا فى ذلك الوقت فى معظم السلع وكانت هناك ظروف طارئة تحدث مثل وفاة البائع قبل حلول ميعاد التسديد ، وفى هذه الحالة يقوم الوصى على الورثة بالمطالبة من المشتريين بالدفع . وهذا لدينا مثال فى تجارة المسلى والزبد حين باع أحد اليهود كمية منه بالاجل وقد سوى الامر بدفع المشتري نصف المبلغ وتعهد بالنصف الآخر بعد فترة محددة (62) وهناك ظروف أخرى طارئة مثل فقدان كمية من البن المصدر من الاسكندرية الى استانبول ولحساب تجار آخرين . فيتطلب هذا النزاع تقديم المستندات الدالة على ذلك ، وقائمة الوزن التى قام القبانى بتحريرها ، والرجوع الى الشهود (63) .

وهناك حالات أخرى علم اعتراف المشتري بالمبلغ المتبقى عليه بعد شرائه لعدد من الحرفان (64) كما أن هناك حالة أخرى لم يتم الاستدلال عليها مع ذلك فهناك صفقات تم دفع ثمنها بالكامل من المتحدث على بيت المال الحشرى ولم يستلم المشتري السلع (65) وعمليات بيع وشراء أخرى تتم بين بعض الشوام وبعض التجار المغاربة بصفة أمانة (66) .

وهناك حالات غريبة مثل ترك بعض الاشراف لعدد من الجمال عند أحد التجار الشوام ، لكى يوصلها له من غزة الى القاهرة ، ولكنه تصرف فيها بالبيع واعترف بأنه باعها وحصل على ثمنها وعلى أساس خوفه من أن تنفق الجمال . ولقد انتهى هذا النزاع بأن تعهد بأن يدفع ثمن الجمال ، جزء منه فى الحال ، والباقي حسبما يختار فى أى وقت (67) .

وكان ميدان التعامل بالاجل يشتمل كذلك على انكار المشتري فى بعض الحالات أنه قد بقى عليه أى مبلغ ، ويصر على أنه دفع المبلغ بالكامل ويقسم

(60) سجل رقم 11 ، مادة 514 ، ص 142 بتاريخ 28 رمضان عام 978هـ/يناير عام 1571م .

(61) سجل رقم 25 ، مادة 189 ، ص 63 بتاريخ 11 رجب عام 996هـ/مايو عام 1567م .

(62) سجل رقم 46 ، مادة 20 ، ص 8 بتاريخ أواخر ربيع الثاني عام 1050هـ/يوليو عام 1640م .

(63) سجل رقم 45 ، مادة 329 ، ص 145 ، بتاريخ 24 محرم 1035هـ/أكتوبر عام 1625 .

(64) سجل رقم 12 ، مادة 194 ، ص 73 بتاريخ 5 محرم عام 986هـ/مارس عام 1578م .

(65) سجل رقم 12 ، مادة 371 ، ص 134 بتاريخ 7 صفر عام 986هـ/مارس 1577م .

(66) سجل رقم 13 ، مادة 106 ، ص 44 بتاريخ 14 ذي الحجة عام 981هـ/مارس عام 1574م .

(67) سجل رقم 11 ، مادة 1022 ، ص 251 ، بتاريخ 7 ذي الحجة عام 978هـ/أبريل عام 1570م .

على ذلك يمين الله (68) . وقد ينكر المشتري أنه قد تعهد بدفع ثمن الاكديش المرسل الى استانبول من مدينة الاسكندرية بعد عودته اليها ، ولكن الشهود يؤكدون اتمام البيع ، وأن الاتفاق على أساس الدفع بعد عشرين يوما وينتهي الامر بالزام المشتري بالدفع رغما عن انكاره (69) .

وهناك بعض الطرائف مثل قيام أحد القهوجيه بتكوين شركة لتجارة الجلود (70) وقد يضطر المشتري بعد انكاره الى أن يرضخ امام شهادة الشهود فيعترف بالبيع ويتعهد بالدفع (71) وفي بعض الخلافات كان البائع نفسه هو الذي يطالب المشتري بدفع مبلغ أكثر من المطلوب (72) ويلاحظ كذلك أن بعض النساء كن يشتركن في تجارة المنسوجات الحريرية مع اليهود الشوام ومع التجار الاوربيين (73) .

وكذلك نلاحظ أن أهل الذمة كانوا يقومون في بعض الحالات وفي تجارة الخردوات على اضافة نسبة الى الثمن على أساس أن البيع قد تم بالتقسيط (74) وهناك كذلك حالة مشتري الخشب الذي دفع مبلغا مقدما وعلى أساس دفع الباقي بعد المعاينة . وقد وجد بعض العيوب بالخشب وطالب البائع برده المقدم ، فاعتدى عليه البائع بالسب بالفاظ نابية . وانتقل الامر الى القضاء (75) وكان بعض أفراد أوجاق مستحفظان يتاجرون في الحطب وخاصة مع أهل الذمة الذين يعملون كبجارة في المراكب (76) . ومن الطرائف أمر شراء أحد الشوام أحد المراكب من نوع القايق من أحد المغاربة . وكان هذا المركب يستخدم لنقل الناس من شاطئ الى آخر ، وذكر للمشتري بأن به عيبا ، وتم دفع الثمن . وعند استلامه عارضه سردار ادكو في نقل الملكية لان عليه رسوما متأخرة من مدة كبيرة ، وأكد أحد الشهود بأنه ليس القايق المطلوب (77) والسلطة تطالب بحقها في الضرائب ، والشهود يرغبون في اعادة المشكلة الى صاحب المركب الاصيل .

ومن الطرائف كذلك أن قابودان مدينة الاسكندرية اشترى احد الجوارى وبنيتها (78) ويتعرض العقد لمواصفاتها الجسدية وغيرها من المواصفات .

-
- (68) سجل رقم 12 ، مادة 848 ، ص 291 ، بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 986هـ/يونيو عام 1587م .
- (69) سجل رقم 18 ، مادة 1107 ، ص 362 بتاريخ 13 صفر عام 991هـ/يناير 1583م .
- (70) سجل رقم 29 ، مادة 786 ، ص 299 بتاريخ 10 ذي القعدة عام 1002هـ/أغسطس عام 1594م .
- (71) سجل رقم 32 ، مادة 397 ، ص 151 ، بتاريخ 19 ذي القعدة الحرام 1008هـ/مايو 1600م .
- (72) سجل رقم 21 ، مادة 569 ، ص 196 بتاريخ 28 جمادي الثاني عام 1009هـ/ديسمبر عام 1600م .
- (73) سجل رقم 18 ، مادة 1943 ، ص 433 بتاريخ 21 ربيع الأول عام 991هـ/فبراير عام 1587م .
- (74) سجل رقم 25 ، مادة 380 ، ص 26 بتاريخ 18 جمادي الأولى عام 996هـ/مارس عام 1587م .
- (75) سجل رقم 25 ، مادة بدون رقم ، ص 319 بتاريخ 4 محرم عام 997هـ/نوفمبر عام 1589م .
- (76) سجل رقم 58 ، مادة 43 ، ص 136 بتاريخ 9 شوال عام 1102هـ/يونيو 1691م .
- (77) سجل رقم 95 ، مادة 82 ، ص 48 بتاريخ 18 رجب عام 1187هـ/سبتمبر عام 1773م .
- (78) سجل رقم 5 ، مادة 176 ، ص 65 ، بتاريخ 3 محرم عام 967هـ/أكتوبر عام 1559م .

ويعرض عقد آخر شراء احدى الجوارى ، ويتضح للمشتري بعد ذلك أنها كانت حاملا . وتطور الامر الى قيام المشتري بشكوى البائع . وقام نزاع بين الطرفين ادى الى تدخل بعض الوجهاء ، وأقر البائع امامهم بأنه لم يجامعها بالمرة وقبل المشتري هذا الوضع (79) .

وأخيرا ان علينا نذكر أن سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية تشتمل على نوع جديد من النشاط المالى ، والخلافات التى كانت تحدث فيه ، وهو ميدان الاقتراض ، ثم ما قد يترتب عليها من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون ، ولقد شارك الشوام فى الاسكندرية فى النشاط فى هذا الميدان ، فكانوا يقترضون من بعضهم ، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض أبناء مدينة الاسكندرية من غير موطنهم الاصلى ، وشارك فى هذه العملية كذلك عدد من الاشراف (80) .

وكذلك عدد من المغاربة (81) ، وأيضا عربان هواره (82) ، وحتى بعض أفراد الاوجاقات العثمانية الموجودين فى مدينة الاسكندرية (83) .

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهى الى خلافات وبسداد المقترض ما قام باقتراضه ، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لا تحتفظ الا بالامور التى حدث فيها خلاف وفى أشكال متعددة .

وكان صاحب المال يطالب فى بعض الحالات المقترض بضرورة وجود ضامن له ، ويجعل هذا الضامن ملزما بتسديد القروض على أقساط ، تختلف فى مددها ، وقد تكون يوميا (84) . وفى بعض الحالات كان البعض يقترض ثم يقوم بتسديد جزء من الدين ويتوقف عن سداد الباقي . ولقد اعترف بذلك وعجز عن الدفع فصدر عليه الحكم بالسجن (85) .

وقد يكون القرض أو الدين عبارة عن تأخير ايجار لاحدى الوكالات ، مثل وكالة وقف قايتباى بالمدينة وعند المطالبة بهذا الايجار المتأخر ، ادعى المستأجر بأنه قد دفع عليه من متأخرات (86) .

(79) سجل رقم 64 ، مادة 587 ، ص 79 بتاريخ 10 ربيع الثاني عام 1129هـ/مارس عام 1716م .
(80) سجلات أرقام 11 ، مادة 1208 ، ص 252 بتاريخ 4 ذي الحجة عام 978هـ/أبريل عام 1571م .
22 مادة بدون رقم ص 113 ، بدون تاريخ ؛ 26 ، مادة 593 ، ص 187 ، 25 مادة بدون رقم وبدون تاريخ .

(81) سجل رقم 11 ، مادة 903 ، ص 226-227 بتاريخ 19 ذي القعدة عام 978هـ/1571م .

(82) سجل رقم 21 ، مادة 158 ، ص 46 بتاريخ 12 شوال عام 993هـ/سبتمبر عام 1585م .

(83) سجل رقم 58 ، مادة 243 ، ص 136 بتاريخ 9 شوال عام 1102هـ/يونيو عام 1691م .

(84) سجل رقم 64 ، مادة 578 ، ص 79 ، بتاريخ 10 ربيع الثاني عام 1129هـ/مارس عام 1716م .

(85) سجل رقم 8 ، مادة 568 ، ص 192 بتاريخ 17 جمادى الثاني عام 973هـ/ديسمبر عام 1565م .

(86) سجل رقم 11 ، مادة 35 ، ص 12 بتاريخ أول رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .

وكثيرا ما كان أفراد الحرف يقترضون من بعضهم البعض ، أو يقترضون ممن يتعاملون معهم . مثل اقتراض أحد العاملين بتجارة الجمال من أحد القصابيين . وفي مثل هذه الحالة نجده يسدد جزءا من الدين ، دون ان يوفى كل ما عليه ، فينشأ نزاع بين الطرفين ، وتوسط فيه البعض ، وانتهى الامر بتسديد باقى الدين (87) وهناك حالات كان القرض أو الدين فيها يمثل قيمة فى حصة رأسمال شركة سابقة ، تم تصفيتها ولقد طالب أحد الشركاء بقيمة حصته . وفي هذه الحالة وأنكر شريكه الآخر حقوقه - فالتجأ الى الاستشهاد ببعض الشهود ، وأصر شريكه على الإنكار . ولقد انتهى الامر بالقبض على الشريك وايداعه السجن (88) . والوثائق مليئة بعمليات الماطلة فى دفع المقترضين لديونهم ، وفي الاستشهاد بالشهود لحسم الامر (89) . واشتمل هذا القطاع كذلك على أنواع مختلفة ومتنوعة من الخلافات : فقد اقترض أحد المغاربة من أحد الشوام ، وعند مطالبته برد الدين ادعى انه كان ضامنا ولم يكن مقترضا ، واستشهد ببعض الشهود . ولكن أقوال الشهود تضاربت ، فشهد الشاهد الاول بقيمة القرض ، بينما ذكر الشاهد الثانى أن القرض يقل عن ذلك بكثير . ولقد انتهى الموضوع بضرورة دفع قيمة القرض كاملة (90) .

وحتى القضاة كانوا يقترضون فى بعض الاحيان من بعضهم ويشترط أن يتم تسديد كل هذه القروض على أقساط (91) ولدينا احدى الوثائق تصف المقترض ومواصفاته الجسمانية ، حرصا على حفظ الحقوق .

وفى بعض الحالات كان المقترض يفرض ضرورة وضع رهن لديه مثل الملابس والاقمشة ، وأن يكون من حقه بيعها اذا تأخر المقترض عن ميعاد التسديد . وكان ذلك يتم بالفعل فى بعض الحالات (92) .

وقد يتم التعاقد على القرض فى خارج الاسكندرية ، كما هى حالة افتداء احد الاسرى فى مالطة نفسه وتعهد بتسديد المبلغ عند وصوله الى الاسكندرية ولقد نفذ وعده وأوفى بعهده (93) . وقد يتم الاقتراض خارج البلاد ويتم اثبات الحق مرة ثانية فى الاسكندرية (94) لحرص الاوربيين على اثبات حقوقهم . ولدينا ديون هى عبارة عن وفاء بحقوق الزوجة ، مثل كسوتها ، وذلك بالاضافة

(87) نفسه ، مادة 985 ، ص 43 بتاريخ 29 ذي الحجة عام 978هـ/مارس عام 1570م .

(88) سجل رقم 11 مادة 1208 ، مادة 252 ، ص 252 بتاريخ 4 ذي الحجة عام 978هـ/أبريل عام 1571 م .

(89) سجل رقم 32 ، مادة 412 ، ص بدون رقم وبدون تاريخ .

(90) نفسه ، مادة 903 ، ص 226 ، بتاريخ 19 ذي القعدة عام 978هـ/1571م .

(91) سجل رقم 14 ، مادة 87 ، ص 26 بتاريخ 5 جمادى الثانية عام 987هـ/سبتمبر عام 1579م .

(92) سجل رقم 38 ، مادة 871 ، ص 225 بتاريخ 2 جمادى الثانية عام 1029هـ/مايو عام 1619م .

(93) سجل رقم 35 ، مادة 680 ، ص 273 ، بتاريخ 20 رجب عام 1015هـ/نوفمبر عام 1606م .

(94) سجل رقم 18 ، مادة 570 ، ص 193 ، بتاريخ 19 رمضان عام 990هـ/سبتمبر 1583م .

الى تسديد هذه الزوجة قرضا خاصا به تجاه الغير . وفي بعض هذه الحالات انكر الزوج هذا الدين حين طالبتة زوجته به . وانتهى الامر بالاتفاق على تسديد القرض ، (95) . أما ما طلبته به من حقوقها للكسوة فلم ينص عليه الحكم .

أما بالنسبة للامانات والرهونات ، فقد أودع أحد الشوام مبلغا بصفة أمانة لدى أحد المغاربة بالمدينة ، وحدث أن استغل هذا المبلغ مع مبلغ خاص في التجارة ، وانتهى ذلك بالخسارة ، وطالبه برد مبلغه وأكد الشهود على أنه تم الاتفاق بين الاثنين على ذلك ولا يكون له الحق في المطالبة برد المبلغ (96) .

* * *

ولقد اشترك الشوام في مدينة الاسكندرية في قطاع الحرف والصناعات ، واشترك بعضهم في صناعة النسيج وبرعوا فيه . وعلينا ان نذكر انها كانت صناعات صغيرة ، وتعتمد على ورش صغيرة . وكانوا يستلمون الغزل الخام، ثم يقومون بصناعته حسب المطلوب . وكانت هناك كذلك صناعة الستائر (97) ولقد عمل السوريون في حرفة الخبازين (88) وحرفة القصابين (99) . وعملوا في صناعة الحلوى (100) ، وكأصحاب مقاهي (101) . وكان بعضهم يعملون بالاجر لدى الغير ، وكانوا يحصلون على أجورهم في بعض الاحيان ، في شكل عيني مثل الملابس وغيرها (102) . وقد يتفق العامل مع صاحب العمل على عملية معينة وأجرة محددة (103) وعملوا في حرفة الدخانية وعملوا في حرفة تبيض النحاس (104) وعملوا في حرفة القلطة (105) واشتغلوا بالحياكة ،

(95) سجل رقم 59 ، مادة 12 ، ص 4 بتاريخ أوائل جمادي الأولى عام 1108هـ/نوفمبر عام 1696م .

(96) سجل رقم 51 ، مادة 84 ، ص 117 بتاريخ 11 جمادي الأولى عام 1074هـ/ديسمبر 1673م .

(97) سجل رقم 11 ، مادة 35 ، ص 12 بتاريخ أول رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .

(98) سجل رقم 5 ، مادة 339 ، ص 121 ، بتاريخ 4 شعبان عام 987هـ/سبتمبر عام 1579م .

سجل رقم 21 ، مادة 728 ، ص 298 ، بتاريخ 12 محرم عام 985هـ/مارس 1577م .

(99) سجل رقم 11 مادة 985 ، ص 243 بتاريخ 29 ذي القعدة عام 978هـ/مارس عام 1570م . ويذكر كلوت بك أن الجزارين قليلي العدد في القطر المصري تبعا لإستنفاد اللحوم بسبب عدم إقبال الشعب عليها (لمحة عامة إلى مصر ، ج 4 ، ص 48) .

(100) سجل رقم 2 ، مادة 1147 ، ص 216 ، بتاريخ 3 صفر عام 965هـ/نوفمبر عام 1557م .

(101) سجل رقم 5 ، مادة 468 ، ص 196 ، بتاريخ 10 رمضان عام 963هـ/يوليو عام 1555م .

(102) سجل رقم 25 ، مادة 63 ، ص 20 بتاريخ 13 جمادي الآخر عام 996هـ/أبريل عام 1587م .

(103) سجل رقم 58 ، مادة 288 ، ص 160 ، بتاريخ 19 ذي الحجة الحرام ، 1102هـ/أغسطس 1691م .

(104) سجل رقم 12 ، مادة 29 ، ص 12 بدون تاريخ .

(105) سجل رقم 8 مادة 379 ، ص 130 ، بتاريخ 23 جمادي الأولى عام 973هـ/نوفمبر عام 1565م .

التي كانوا يتعلمونها عند بعض المغاربة (IO6) وعملوا في حرفة الرفا (IO7) كما عملوا في كثير من الحرف الاخرى، مثل حرفة البيطار (IO8) والحمامية (IO9) والقفاصين (IIO) والقواسين (III) والحدادين (II2) .

ولقد دخل الشوام في التنظيمات الطائفية ، أى طوائف الحرف التي كانت موجودة في الاسكندرية في ذلك الوقت . وهكذا ساهموا في كل الانشطة الاقتصادية التي كانت موجودة في الاسكندرية في العهد العثماني . ولقد اشتغل بعضهم في وظائف الحكومة مثل قلم الجوالى المختص بتحصيل الجزية من أهل الذمة (II3) ولاشك في أنهم عملوا في وظائف أخرى حكومية في هذه المدينة .

وأرشيف المحكمة الشرعية بالاسكندرية مليء بالاحداث والطرائف التي حدثت في قطاع الصناعات والحرف ، والتي شارك فيها الشوام في العهد العثماني وهناك أمثلة كثيرة تسوق بعضها مثل تأخر أحد الصناع عن تسليم الكمية المطلوبة من الستائر منه ، وكان قد استلم المواد الخام ، واتضح بعد ذلك ان الكمية قد سرقت مع بعض الخامات الاخرى (II4) . وقام أحد من يعمل بتبييض النحاس باستلام الاواني النحاسية ثم قام بتسليمها لاحدى السيدات ولقد طالبه صاحب الاواني بدفع ثمنها . وان كان الحرفى لم يوافق على المبلغ (II5) وفي هذا القطاع نجد الكثير من الخلافات حول اتمام العمل دون دفع الاجر المتفق عليه مثل اتمام العمل في قلفطة احدى المراكب (II6) او اهمال تعليم الحرفة ورفض رد المبلغ الذى دفعه من يرغب في تعليمها ، وانكار الاستلام ، واقسم على ذلك (II7) ومن الطريف أن أحد

(106) سجل رقم 18 ، مادة بدون رقم ، ص 276 ، بتاريخ 18 ذي القعدة 990هـ/نوفمبر عام 1583 م .

(107) وهي حرفة لاصلاح الملابس الممزقة أو بهما عيوب .

(108) سجل رقم 5 ، مادة 176 ، ص 65 بتاريخ 3 محرم عام 967هـ/أكتوبر عام 1559 م .

(109) سجل رقم 3 ، مادة 766 ، ص 262 بتاريخ 12 صفر الخير عام 984هـ/مايو 1575 م .

(110) سجل رقم 91 ، مادة 132 ، ص 87 ، بتاريخ 10 جمادي الأولى عام 1183هـ/أغسطس عام 1765 م .

(111) سجل رقم 1 ، مادة 499 ، ص 104 بتاريخ 20 ذي القعدة عام 957هـ/نوفمبر عام 1550 م .

(112) سجل رقم 1 ، مادة 1820 ، ص 437 بتاريخ 28 جمادي الثانية عام 958هـ/يونيو عام 1551 م .

(113) سجل رقم 24 ، مادة 372 ، ص 125 بتاريخ 13 ذي القعدة الحرام عام 979هـ/مارس عام 1552 م .

(114) سجل رقم 11 ، مادة 35 ، ص 12 ، بتاريخ أول رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570 م .

(115) سجل رقم 12 ، مادة 29 ، ص 12 بدون تاريخ .

(116) سجل رقم 8 ، مادة 379 ، ص 130 بتاريخ 23 جمادي الأولى عام 973هـ/نوفمبر عام 1565 م .

(117) سجل رقم 18 ، مادة بدون رقم ، ص 276 بتاريخ 18 ذي القعدة عام 990هـ/نوفمبر عام 1583 م .

أهالى دمياط قدم حرام صوف لرفيه ، وعند استلامه وجد أن الرفا كان قد اعاره لشخص آخر . فطالبه بدفع ثمنه ، فقدر الثمن على غير أساس ، واضطرت المحكمة للاستعانة بأحد المختصين والذي قدر السعر المعقول (II8) .

وهكذا نجد أن الشوم قد شاركوا في جميع ميادين النشاط الاقتصادي مع غيرهم من سكان مدينة الاسكندرية سواء في التجارة أو الاموال أو الحرف والصناعات وعلى قدم المساواة مع غيرهم من رعايا الدولة العثمانية .

ثانيا الحياة الاجتماعية :

أما حياتهم الاجتماعية ، فقد تمثلت في أنماط عديدة ، مثل الزواج والطلاق ، وتعاملهم مع بعضهم البعض أو تعاملهم مع الاهالى ومع بعض الافراد الآخرين سواء أكان ذلك من العرب أو الاوربيين .

وبالنسبة للزواج ، فقد تزوج أحد الشوم من بنات احدى اهالى الصعيد ، المقيمين بالمدينة . واتفق على مقدم الزواج ومؤخره ، وكسوة الزوجة وغير ذلك من الشروط الاخرى (II9) وتزوج أيضا أحد الشوم الدروز من بنات الاهالى (I20) ويلاحظ هنا أن المؤخر يسدد على أقساط سنوية ، وهذه ليست بدعة جديدة ، فكانت موجودة طوال هذه الفترة . وكان ذلك واضحا من الاطلاع على سجلات المحكمة الشرعية . وتزوج بعض الصرافين المغاربة من المطلقات الشوم بعد اتمام العدة الشرعية (I2I) كما تزوجت احدى المطلقات من أهل النمة أحد المسلمين بعد اتمام عدتها من مطلقها وقبل الزوج ذلك (I22) ولو حظ هنا أن العقد خاليا من شروط الزواج مثل المقدم والمؤخر والكسوة وخلافه . وإذا كان فقد تزوج احدى من احدى الارامل بعد انقضاء عدتها الشرعية (I23) كما تزوج بعض الاهالى من احدى نساء الشوم (I24)

(116) سجل رقم 11 ، مادة 834 ، ص 209 بتاريخ 10 من ذي القعدة الحرام 978هـ/مارس عام 1570م .

(119) سجل رقم 22 ، مادة 1147 ، ص 347 ، بتاريخ 3 صفر الخير 956هـ/مارس عام 1549م . اتفق على صداق 151 نصف فضة سلمانية يدفع نصفها في الحال ويقسط المؤخر على أقساط سنوية بمعدل خمسة أنصاف سنويا وكسوتها السنوية خمسة عشر نصف (أنظر أيضا سجلات أرقام 24 ، مادة 289 ، ص 93 ، وسجل رقم 42 ، مادة 252 ، ص 79 ، سجل رقم 86 مكرر ، مادة 610 ، ص 209 .

(120) سجل رقم 6 ، مادة 121 ، ص 48 بتاريخ 25 ربيع الأول عام 976هـ/أكتوبر 1563م وأنظر سجلات أرقام 11 ، مادة 964 ، ص 164 ، نفسه ، مادة 1117 ، ص 274 .

(121) سجل رقم 26 ، مادة 121 ، ص 48 بتاريخ 5 ربيع الأول 971هـ/أكتوبر 1573م . لوحظ هنا كثرة الشهود الموقعين على العقد . ويذكر الدكتور جلال يحيى في محادثة معه بأن نظام القضاء المستخدم في المغرب والأندلس قبل ذلك والذي يقوم على أساس (الجماعة) بدلا من نظام القاضي المستخدم في البلاد الشرقية .

(122) سجل رقم 26 ، مادة 297 ، ص 99 بتاريخ 9 رمضان عام 997هـ/يوليو 1585م .

(123) سجل رقم 35 ، مادة 101 ، ص بدون رقم بتاريخ 25 محرم 1010هـ/يوليو 1601م .

وأنظر سجل رقم 42 ، مادة 385 ، ص 113 بتاريخ 27 شوال عام 1026هـ/أكتوبر عام 1627م .

(124) سجل رقم 6 ، مادة 121 ، ص 48 ، بتاريخ 5 ربيع الأول عام 971هـ/أكتوبر عام 1563م .

ويذكر هنا مواصفات الزوجة . ويتفق على دفع مقدم الصداق ويقسط المؤخر الى الوفاء . ومن الطريف بأنها تشترط عليه اذا تركها مدة ثلاث شهور دون متعة او نفقة تصبح طالقا دون ان يطلق اللفظ (I25) وشمل الزواج ايضا من احدى العتقاء ، وكان من ضمن شروط عقد زواجها أن يدفع المؤخر عند الطلاق او موت احدهما (I26) ولوحظ في بعض حالات الزواج أن سن الزوجة كان صغير جدا، وصل في احدى الحالات الى عشر سنوات (I27) وهنا نجد ان تقدير السن كان جزافيا ، وخاصة خلال هذه الفترة حيث لا توجد سجلات لقيد المواليد او الوفاء ، فكان يقدر السن بالتقريب . وشهدت حالات اتمام الزواج بين أهل الذمة امام القاضي الشرعي ، وكانت شروط عقد القران هي نفس شروط عقد زواج المسلم (I28) .

أما في حالات الطلاق ، فقد كانت تتم في بعض الحالات بأن تطلب الزوجة نفسها الطلاق ، وتتنازل عن مؤخر صداقها (I29) وتم طلاق احدى الزوجات وهي ما زالت بكرا ، بعد دفع مؤخر صداقها المذكور ، ويشترط بعدم عودته اليها مرة أخرى الا بعقد قران جديد (30) وتطلق الزوجة نتيجة لسفر زوجها وتركها دون متعة شرعية وعدم انفاقه عليها ، وتستشهد بالبعض الذين يؤكدون ذلك (I31) ويلاحظ بأنه قد تم الاتفاق بين الاثنين على ذلك . وسجلات المحكمة الشرعية مليئة بمثل هذه القضايا ، فنجد في بعض الحالات بأن الزوج يترك زوجته أربع سنوات غائبا عن البلاد ، دون ان يترك لها ما تنفقه على نفسها وتخشى على نفسها من الفتنة والضياح وتستشهد بفقهاء الشجر وبعض الاشراف في المدينة ، ونتيجة لذلك يحكم القاضي بطلاقها من زوجها الغائب (I32) وهناك حالة أخرى بأن تتنازل الزوجة عن مؤخر صداقها وبالرغم من ذلك فانه يحكم لها بنفقة شهرية معلومة (I33) ولوحظ تطليق بعض عربان هواره لاحدى الشاميات (I34) بالاضافة الى ذلك فهناك حالات مثل الطلقة الثالثة ، ويعنى ذلك بأنه لا يجوز عودتها الى عصمة زوجها السابق الا قبل الزواج بآخر (I35)

-
- (125) سجل رقم 51 ، مادة 1442 ، ص 616 بتاريخ 2 شعبان عام 1077هـ/يناير عام 1667م .
 (126) سجل رقم 12 ، مادة 174 ، ص 66 بتاريخ 1 محرم عام 986هـ/مارس عام 1578م .
 (127) سجل رقم 42 ، مادة 784 ، ص 240 بتاريخ 18 صفر عام 1016هـ/1607م .
 (128) سجل رقم 42 ، مادة 112 ، ص 35 بتاريخ 17 ذي القعدة عام 1015هـ/مارس عام 1607م .
 (129) سجل رقم 1 ، مادة 499 ، ص 104 ، بتاريخ 2 ذي القعدة عام 957هـ/نوفمبر عام 1550م .
 وأنظر سجل رقم 26 ، مادة 301 ، بتاريخ 14 ربيع الأول عام 1004هـ/نوفمبر عام 1595م .
 (130) سجل رقم 9 ، مادة 650 ، ص 209 ، بتاريخ 7 رمضان عام 993هـ/أغسطس عام 1585م .
 (131) سجل رقم 11 ، مادة 461 ، ص 132 بتاريخ 22 رمضان عام 978هـ/يناير عام 1571م .
 (132) سجل رقم 72 ، مادة 294 ، ص 237-239 بتاريخ ختام ذي الحجة عام 1145هـ/مايو عام 1733م .
 (133) سجل رقم 91 ، مادة 319 ، ص 228 ، بتاريخ 8 رجب عام 1184هـ/أكتوبر عام 1770م .
 (134) سجل رقم 12 ، مادة 46 ، ص 20 بتاريخ 28 ذي القعدة عام 985هـ/يناير عام 1578م .
 (135) سجل رقم 18 ، مادة 314 ، ص 106 بتاريخ 24 رجب عام 990هـ/يوليو عام 1580م .

وقد تعود المطلقة أحيانا الى زوجها مرة أخرى ، ففي هذه الحالة يدفع لها زوجها مقدم صداق جديد ، ويقرر لها كسوة وغير ذلك من الشروط الاخرى (I36) وأحيانا تعود على نفس مقدم الصداق السابق ، ولا يذكر قيمته (I37) ويذكر في بعض الحالات مقدم الصداق الجديد والمؤخر وطريقة تسديده (I38) .

يأتى بعد ذلك نوعا آخر من الحياة الاجتماعية وهو الميراث ، مثل وراثته حصة في منزل عن أخيه لوالدته ، ولكن اتضح بعد ذلك بأنه لم يكن الوارث الوحيد فهناك والدته وجده وشقيقته ، ولذلك وزع الثلث للام والنلثان للجد وللزوجة وبيت المال ايضا (I39) قد يكون حصة الميراث فى أشياء أخرى غير الحصص العقارية (I40) قد تكون فى بعض الحيوانات ، ويستشهد الورثة بمقدم السقائيين وغيره (I41) أو أن يكون الميراث فى شكل أموال نقدية مودعة كأمانة بطرف أحد الاهالى ، ومن الطريف أن الوالد كان ما زال على قيد الحياة (I42) وأحيانا يموت الوالد ويترك ميراثا ، وتعيين الام وصية على أولادها القصر (I43) وقد يموت بعضهم تاركا ميراثا له فى كلا من الاسكندرية والشام ، ويكون الورثة موجودين هناك ففي هذه الحالة يستدعيهم الوصى من هناك ويسلمهم نصيبهم المالى والعينى فى الميراث ويقرر الجميع بأنهم قد استلموا نصيبهم كاملا (I44) . ويتنازل أحدهم عن نصيبه فى الميراث لآخيه وأخوته البنات (I45) كما يوهب البعض قبل وفاته ميراثه لبعض الناس الذين كانوا يقومون بخدمته أثناء مرضه وكتب حجة بذلك وشهد عليها بعض الشهود (I46) كما يهب آخر حصته فى القايق لشخص ما (I47) .

أما قضايا قذف العرض فسجلات المحكمة الشرعية مليئة بمثل هذه القضايا، فقد اتهم الحدادين احد السكندريين بأنه قد تقوه بعبارات ضد زوجته ، وعند

(136) سجل رقم 22 ، مادة 766 ، ص 262 بتاريخ 12 صفر عام 974هـ/أبريل عام 1586م .

(137) سجل رقم 11 ، مادة 658 ، ص 172 ، بتاريخ 15 شوال عام 978هـ/فبراير عام 1571م .

(138) سجل رقم 20 ، مادة 223 ، ص 78 بتاريخ 16 جمادى الثانية 973هـ/1565م .

(139) سجل رقم 9 ، مادة 105 ، ص 40 بتاريخ 7 محرم عام 973هـ/يوليو عام 1565م .

(140) سجل رقم 20 مادة 420 ، ص 164 بتاريخ 21 ربيع الأول عام 995هـ/نوفمبر عام 1567م .

(141) سجل رقم 21 ، مادة 178 ، ص 53 ، بتاريخ 16 شوال عام 993هـ/سبتمبر عام 1585م .

(142) سجل رقم 22 ، مادة 187 ، ص 35 ، بتاريخ 16 شوال عام 993هـ/سبتمبر عام 1585م .

(143) سجل رقم 58 ، مادة 288 ، ص 160 بتاريخ 19 ذي الحجة عام 1102هـ/أغسطس عام 1690م .

(144) سجل رقم 86 ، مادة 169 ، ص 134-135 بتاريخ 10 شوال عام 1177هـ/أبريل عام 1764م .

(145) سجل رقم 91 ، مادة 226 ، ص 149 ، بتاريخ ختام عام 1183هـ/مارس عام 1770م .

(146) سجل رقم 95 ، مادة 80 ، ص 52 بتاريخ 8 رجب عام 1187هـ/سبتمبر عام 1773م .

(147) سجل رقم 81 ، مادة 152 ، ص 112 بتاريخ أواخر صفر الخير 1167هـ/نوفمبر 1753م .

مواجهته بذلك انكر ، وأما شهادة الشهود الذين اكدوا حدوث ذلك اعتراف ، وتعهد بعدم فعل ذلك مرة أخرى (I48) واكتفى القاضي بتعهده .

ومن الطرائف احدى القضايا الخاصة باحتساء بعض النساء الخمر في احدى خمارات المدينة ، وعند مواجهتها بذلك عللت بقولها بأن بعض النساء قد غرت بها ، وادخلتها هذه الخمارة التي يمتلكها احد الادميين ووجدت بعضهن يحتسين الخمر ، وقدمن لها ، واحتست كمية كبيرة حتى فقدت وعيها تماما (I49) ومن الملاحظ أنه لم يصدر حكما ضدها . أما الدعارة فقد مارسها احدى الشاميات ومعها احدى الساقطات الاخريات في احد الحدائق العامة بالمدينة ، وتم ضبطهن بمعرفة صوباشي المدينة أثناء مروره ليلا . وعند مواجهة الجميع من الرجال والنساء ادعى احد الرجال بأن البستانجي هو الذي احضر لهم هؤلاء النساء لممارسة الدعارة معهن نظير دفع مبلغ معين ، وانتهى الامر بتطبيق احكام الشرع الشريف ضد الجميع (I50) ومن الملاحظ لم يصدر اى حكم ضد البستانجي باعتباره أنه مارس مهنة القواد .

وشهدت الحياة الاجتماعية نمطا آخر من انماط الحياة الاخرى ، مثل النزاع بين بعضهم البعض ، وبينهم بعض اهالى مدينة الإسكندرية ، لذلك نجد بعض القضايا بقيام احد الشوام بسد طاقة تفصل بينه وبين جاراته وترتاب على ذلك أنها قامت بالاعتداء على وجهه (بالقباب) مما احدث عاهة به ، وطالب بالتعويض المناسب ، وعند مواجهتها انكرت واتهمته بالاعتداء عليها بالضرب ، وكسر أحد اسنانها (I51) ولم يتمكن القاضي باصدار اى حكم ضد احدهما . كما اعتدى احد القهوجية من الشوام بالضرب على احد زبائن القهوة الذى امتنع عن دفع ثمن المشروب الذى شربه ، وانكر - القهوجى - حدوث ذلك (I52) وانتهب صوباشي المدينة فرصة انشغال احد المسيحيين فى مشاجرة واعتدى عليه بالضرب نتيجة لنزاع قديم فيما بينهم (I53) واعتدى احدثهم بالضرب لاحد التونسيين وهو فى حالة سكر ، بل الادهش من ذلك اراد ان يفعل معه الفاحشة، واستغاث بالبعض الذين حضروا بناء على استغاثته، وطالب بالتعويض المناسب ، وانكر ولكن أكد الشهود ذلك (I54) ويتهم احدثهم بعض المغاربة بأن يحضر اليه بعض الصبيان ويفعل معهم الفاحشة ، وبمواجهته بذلك ينكر ، ولكن الشهود يؤكدون عكس ذلك ، مما جعله يطالب بالتعويض المناسب ، وينتهى

- (148) سجل رقم 1 مادة 1820 ، ص 434 بتاريخ 20 جمادي الثانية عام 958هـ/يونيو عام 1551م .
 (149) سجل رقم 3 ، مادة 607 ، ص 217 بتاريخ 16 شوال عام 964هـ/يوليو عام 1557م .
 (150) سجل رقم 53 ، مادة 262 ، ص 155 بتاريخ 17 ذي الحجة عام 1083هـ/مارس عام 1623م .
 (151) سجل رقم 11 ، مادة 29 ، ص 11 بتاريخ مستهل رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .
 (152) سجل رقم 44 ، مادة 194 ، ص 96 ، بتاريخ 10 جمادي الثاني عام 1064هـ/مارس عام 1644م .
 (153) سجل رقم 29 ، مادة بدون رقم ، ص 138 ، بتاريخ 30 رجب عام 1001هـ/أبريل عام 1592م .
 (154) سجل رقم 22 ، مادة 191 ، ص 53 بتاريخ 15 جمادي الأول عام 993هـ/مايو عام 1585م .

الامر بالحكم على الشامي حكما تأديبيا (I55) وان كان لم يذكر نوع هذا التأديب . بالاضافة الى ذلك شهد الاعتداء أيضا بالالفاظ كما حدث مع بعض القهوجية (I56) واعتدى احدهم على زوجة احدهم باللفظ أثناء غياب زوجها ، مما تسبب في اجهاضها ، وانكر ولكنها استشهدت بشهادة أربعة نساء اللاتي أكدن حدوث الواقعة (I57) ولم تظهر الوثيقة نوع العقوبة التي صدرت ضده . وشهد النزاع نوعا آخر مثل استيلاء أحد القهوجية على شاية خاصة باحدى النساء ، وطالبته بردها (I58) كما استولى احدهم على جارية تخص احد الافراد ، وعندما طالبه بردها ، اشترط عليه احضار دليل في خلال ايام ، واذا لم يحضره فلا يكون له الحق فيها (I59) ولم يعرف هل تم احضار الدليل أم لا . وهناك العديد من القضايا المتنوعة في مثل هذه الامور .

كما شهدت الحياة الاجتماعية مظهرا آخر من مظاهرها ، مثل اعتناق العبيد، واعتناق احد اليهود الاسلام ، والتبرع لوجه الله تعالى ، لذلك نجد قيام احد القهوجية باعتناق عبد له ، لوجه الله تعالى . وابتغاء رحمته وانه اصبح حرا من احرار المسلمين وعليه حقوقهم وله واجباتهم (I60) وقد يقوم احد الافراد باتخاذ الاجراءات لاعتناق جارية له ، ويحدث أنه أثناء ذلك وافته المنية ، ولكن يؤكد الشهود ذلك ، وتصبح هذه الجارية حرة من احرار المسلمين (I61) أما بخصوص اعتناق احد اليهود الشوام الاسلام ، فيذكر انه قد حضر طائعا مختارا دون اكره او اجبار ، وتلفظ بالشهادتين امام الجميع (I62) أما التبرع لوجه الله تعالى فكان يتخذ صوراً عديدة ، مثل التبرع للصرف على وقف معين بالمدينة ويحدد المبلغ الذي قام بهذا العمل هو مستأجر لقهوة في نفس الوقف وتعهد بصيانتها وترميمها على نفقته الخاصة . كما تبرع البعض بمبلغ للصرف على روح المتوفى للصرف على الوقف (I64) ويشترى البعض منزلا من احدى السيدات ، ثم يوقفه بعد ذلك للصرف على قاعدة مذهبية شريفيين ، وعلى معتقده مقلده الامام المنييف الامام ملك بن انس رضى الله تعالى عنه (I65) .

د. صلاح أحمد هريدي

جامعة الاسكندرية

- (155) سجل رقم 23 ، مادة 616 ، ص 175 بتاريخ 15 شعبان عام 994هـ/يوليو 1586م .
 (156) سجل رقم 23 مادة بدون رقم ، ص 155 بتاريخ 8 شعبان عام 994هـ/يوليو عام 1586م .
 (157) سجل رقم 27 ، مادة بدون رقم ص 195 ، بتاريخ 6 محرم عام 995هـ/أكتوبر عام 1589م .
 (158) سجل رقم 11 ، مادة 49 ، ص 20 بتاريخ 14 رجب عام 978هـ/نوفمبر عام 1570م .
 (159) سجل رقم 21 ، مادة 943 ، ص 337 بتاريخ 17 محرم 955هـ/ديسمبر عام 1587م .
 (160) سجل رقم 41 ، مادة 771 ، ص 416 ، بتاريخ 14 جمادي الأول عام 1047هـ/سبتمبر عام 1627م .
 (161) سجل 25 ، مادة 765 ، ص 244 بتاريخ 17 ذو القعدة 996هـ/سبتمبر عام 1581م .
 (162) سجل رقم 21 ، مادة 364 ، ص 315 بتاريخ 26 شعبان عام 986هـ/1578م .
 (163) سجل رقم 31 ، مادة 72 ، ص 30 ، بتاريخ 7 رجب عام 1021هـ/أغسطس عام 1612م .
 (164) سجل رقم 81 ، مادة 152 ، ص 112 بتاريخ أواخر صفر عام 1167هـ/1753م .

ملحق رقم (I)

وثيقة زواج احد الشوام من بنات الاهالى •

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية •

تاريخ الوثيقة ؟ : يوم الجمعة المبارك ثالث صفر الخير سنة خمسة وستون وتسعمائة • سجل رقم 2 مادة II47 ، ص 347 •

لدى مولانا أفندى

تزوج احمد بن الشيخ عبد العال الرامح الشامى الحلوى بمخطوبته خضرة المرأة ابنة عبد النبي بن بشارة الصعيدى المستشار على العتاب واليه وصدّاق جملة من الفضة السلمانية معاملة تاريخه مائة نصف واحد وخمسون نصف واحد وخمسون الحال لها فرق خمسون نصف ستقبضه والباقي بعده كله مقسطا لها على نحو مدة عشرين قسط كل سنة خمسة انصاف زوجها بذلك الحاكم الشرعى المشار اليه بادخاله فى ذلك ورضاها بعد الوضوح الشرعى تزويجا شرعيا وقبله الزوج لنفسه القبول الشرعى وقرر الزوج لزوجته فى نظير كسوتها على كل سنة خمسة عشر نسف ورضيت بذلك وشهد فى تاريخه •

ملحق رقم (2)

وثيقة عن احتساء احد النساء الخمر •

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية •

تاريخ الوثيقة : يوم الاربعاء المبارك سادس عشر شوال سنة أربعة وستون وتسعمائة • سجل رقم 3 مادة 607 ، ص 217 •

ولدى سيدنا الشيخ الدين الشافعى اعز الله احكامه الحمد لله وحده يوم الاربعاء المبارك سادس عشر شوال عام اربعة وستون وتسعمائة •

فى ليلة تاريخه احضرت عايشة المرأة بنت محمد الشامى المعروفة بوالدها المعتدلة القامة القمحية اللون بحضرة جمع من المسلمين بمجلس الشرع الشريف وان رايحتها خمرة فستلت عن ذلك فقالت بصريح لفظها على بن الشحم وقال لى ادخلى بيت مينه النصرانى الى ان ياتيك الامر وتعطيه فلوسا ودخلت فوجدت نساء النصارى وعندهن خمر يشربنه فقلن لى اشربى معنا فشربت الخمر معهن الليلة هذه فحدث على اعترافها بذلك الحد الشرعى •

شهود الحال

ملحق رقم (3)

وثيقة عن طلاق .

مصدر الوثيقة : سجلات المحكمة الشرعية بالاسكندرية .

رقم السجل : 6 مادة 301 ص 121 بتاريخ 13 ربيع الاول عام 1004 هـ

لدى الشيخ محي الدين المالكي

سألت الحرمة فاطمة ابنة احمد الشامي زوجها منصور بن ناصر الدين البيضاوى ان يطلقها من عصمته وعقد نكاحه طلاقه واحد بعد الدخول بها ولا صار عليه براه ذمتها لها من اربعمائة نصف صداقها عليه من الانصاف الجديدة معاملة تاريخه بالديار المصرية بتصادقها على ذلك وزكاواتها الشرعية من خير نيابة بها والى وقدرها معلومة لها شرعا اجاب سوالها لذلك وطلقها الطلاق المسولة على ذلك بانته منه بذلك بثبوت شرعية فلا نكاح لها الا بعقد جديد بشروطه الشرعية واقرا كل منهما الاقرار للشرعية وهى بحالتى صحة واختيار ان منصور فريق ومطلقة والجهة المذكورة فريق كل منهما فريق لا يستحق على الفريق الآخر حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا ولا رجا ولا طلبا ولا سبب ولا قمح ولا ذهب ولا صداقا ولا بقية سنة ولا كسوه ولا فضه ولا متعة ولا شى قل ولا جل ...

الشهود

ملحق رقم (4)

وثيقة عن اقتراض بعض الشام من احد عربان هواره .

مصدر الوثيقة سجلات المحكمة الشرعية .

سجل رقم 21 ، مادة 158 ص 046 بتاريخ 12 شوال عام 993 هـ

لدى الشيخ محيى الدين المالكي

ادعى على بن عمران بن محمد الهوارى على ابى القاسم بن نوح الحموى انه يستحق فى ذمته خمسة وثلاثين دينارا ذهبيا جديدا ودينار من اكسارفة عن اثنتان وستون والثابت المقر ابتاع ذلك نفسه ومن شريكه الحاج نافع وعبيد بن منصور الهوارى الحاضرين بالمجلس وطالبه بذلك فسيل المدعى عليه وقد اجاب بالاعتراف بذلك وانه دفع للمدعى الموكل سبعة دنائير والبائع الموكل

ثلاثة عشر دينار او قدمت الدينار الجديد وحوالة الحاج اكارنة فصدقا عليه
ماعدا مبلغ الاكارنة حوالة الحاج بندر وطالباه بباقي فاعترف وخرج على الرضا
فى تاريخه .

ملحق رقم 5

وثيقة عن اشتغال بعض الشوام فى حرفة الخبازين .

مصدر الوثيقة ؟ سجلات المحكمة الشرعية .

مادة رقم 599 ، ص 219 سجل رقم 032 الجمعة 15 صه رعام 1009 هـ

وفيه لديه

ادعى شميمس بن شمس الدين البرنبالى على على محمد بن محمد التمامى
بانه يستحق فى ذمته مبالغا جملته من الفضة الجديدة معاملة تاريخه بالديار
المصرية خمسة وثمانون نصفا على الحلول الشرعى على ما هو مبين فيه ما هو
بقيمته ثمن حطب ستون نصفا وما هو ثمن شافية عتاقة خمسة وعشرون
نصفا ويطلبه بذلك سيل اجاب بالاعتراف بذلك جميع ان الستين نصفا موجه
على الى سلخ ربيع الاول سنة تاريخه فلم يصدقه على ذلك فى الاجل المذكور
وخرج فى الرضى على ذلك واعتقل بسجن الشرع الشريف فرج الله عنه فى
تاريخه .

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : وثائق لم تنشر بعد :

سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بمدينة الاسكندرية .

ثانيا : المخطوطات :

مصطفى بن الحاج ابراهيم تابع الأمير حسن كتحدا عزبان الدمرداشى
تاريخ وقائع مصر . قمت بتحقيقها وهى معدة للنشر .

ثالثا : المراجع :

- عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والاخبار طبعة
بولاق .

- عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الشرق
العربى من الفتح العثمانى حتى القرن الثامن عشر ، 1971 - بيروت .

طبيعة الحياة الاجتماعية في المشرق والمغرب العربيين خلال الفترات العثمانية

تقرير نقدي لأعمال المؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية المختصة
بالولايات العربية ، والمنعقدة بتونس للفترة 15 - 21 آذار / مارس 1986

د. سيار الجميل

ليس من السهل ، دراسة هذا الموضوع الحيوى بشكله العام الذى يتصل اتصالا وثيقا بطبيعة الحياة العربية فى تاريخها الطويل .. الا من خلال مقدمة تنظيرية له واتخاذ نماذج معينة للدراسة والفحص والمقارنة ، واجراء تفاسير مختلفة ، كما ويتعين ابراز مسارات متعددة فى اتخاذ الامثلة والنماذج كقياس الحالات والانشطة الاجتماعية التى عاشها المجتمع العربى فى ظل الوجود العثماني فى تاريخه الحديث .. والذى تعتبر صفحاته أقرب فى حياتها التاريخية الى حاضره الاجتماعى اليوم : الحاضر الذى تكون تاريخيا على مدى قرون متوالية من الزمن .. كان فيه متواصلا ، وحيا وله استمراريته . وهنا تقترب الكينونة الاجتماعية بالذاتية العربية مضافا اليها كلا من الثقافة والبيئة العربيتين .

ليست هذه المحاضرة النظرية بمستكملة لكافة الامور التى تتعلق بموضوع الكينونة الاجتماعية لكيان العرب الحديث خلال الفترات العثمانية ، وانما هى دراسة مقدمة هدفها فتح الآفاق الاكاديمية امام الباحثين والمؤرخين العرب ، لا لقاء المزيد من الاضواء ، والوقوف على المزيد من الحقائق التى تهم مستقبل المنظومة الاجتماعية العربية التى تشترك فى هويتها القومية ، وأحادية لغتها العربية ، وعناصر حياتها التاريخية المتفاعلة ، وتواصل ثقافتها الخاصة بها على طرفى جناحيها بين كل من المشرق والمغرب العربيين . ان هذه الدراسة ليست جازمة ، ولكنها مقدمة تمهيدية نقدية لفحص المسألة المفروضة علينا من قبل حاضرننا : **طبيعة الحياة الاجتماعية بين كل من المشرق والمغرب العربيين خلال الفترات العثمانية .. ومحاولة للإجابة عنها من خلال بعض المواضيع الحساسة التى لا بد من فتح المجال لعملية مزاجية وإستقصاء نقدي** مقارن بين الجناحين المذكورين من المجتمع العربى الكبير . ولا ريب بأن تلك المواضيع تعتبر قضايا مركزية ، واشكاليات تاريخية .. آن الاوان لكى تشار حولها المزيد من الآراء والتعليلات والاسئلة . هذا من جانب ، اما الجانب الآخر ، فإن الموضوع يتسع فى مجاله وحجمه لعدد كبير من الدراسات العلمية التى تتصل باقتصاديات المجتمع العربى ، وادارات اقاليمه العديدة .. ولا يمكننا ان ننسى بأن الفترات العثمانية كانت طويلة ، فقد شغل الوجود العثماني مساحة التاريخ الحديث فى حياة المجتمع العربى ، وعلى امتداد اربعة قرون من التاريخ .

I / أهمية التاريخ الاجتماعي :

ان أبرز ما نحتاجه اليوم في حياتنا العربية المعاصرة .. هو فهم واضح للتاريخ الاجتماعي الذي يميز العرب خلال الاحقاب الحديثة التي مر خلالها المجتمع العربي في تكوينه التاريخي المعروف ، وتبلور مواصفاته الحديثة من خلالها . ويتوضح من ذلك : تطور العلاقات الاجتماعية التي حكمت طبيعة المجتمع العربي ابان الوجود العثماني في المنطقة العربية على مدى أربعة قرون . أي منذ بداية القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الاولى . والتاريخ الاجتماعي : هو العلم الذي يبحث في طبيعة المضامين الاجتماعية .. والعلاقات الاجتماعية في بيئة جغرافية معينة ، اضافة الى دراسة الحركات الاجتماعية لجماعة أو أكثر في مجتمع معين . ويفترض في دراسته ايضا ، الايفال غير المشروط في معرفة ثقافة المجتمع او ثقافته المتميزة أو المشتركة ، والنماذج المستحدثة والقديمة والطائرة عليه بتأثير التطور السياسي في حركته . وطبيعة الاوضاع الاقتصادية التي مرت عليه ، واثرت في تراكيبه الاجتماعية وانماط عيشه ، وتنظيماته النقابية ، وفئاته السكانية .. كما وانه يتوقف عند مظاهره المتعددة في احوال الريف والمدن .. والهجرة والنزوح ، والبدوة والحضارة . ويوغل بصورة اكبر ، ليتعرف على الوضعية الثقافية السائدة ، والاستفادة من روح علم سوسيولوجية المعرفة والفكر والادب .

لقد ظهرت خلال العقدين الاخيرين ، العديد من الدراسات والتأليفات والمقالات التي عالجت جوانب حية وضرورية في التاريخ الاجتماعي الحديث ، وقد انصب أغلبها في الحلقة التاريخية التي عاشها العرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . سواء تلك التي كتبت باقلام عربية شحيحة أم تلك التي كتبها العديد من المؤرخين الغربيين والمستشرقين بلغات أوربية شتى . ان العرب - اليوم - بحاجة كبيرة الى دراسات وابحاث تغطي جوانب مجهولة وغامضة في حياة تطور مجتمعهم العربي ، والعلاقات المتنوعة التي كانت تحكمه اقتصاديا وثقافيا واداريا وجغرافيا على امتداد القرون المتأخرة في ظل السيادة العثمانية .. اضافة الى ادوار المدينة العربية مشرقا ومغربا كمراكز اجتماعية كبرى في البيئة العربية . كما ان هناك حاجة ماسة في بحث الديموغرافيا العربية ، والتوزيع السكاني ، وانماط العيش ، واحوال السوق .. ناهيك عن البحث في طبيعة الحركات الاجتماعية ، والثورات والانتفاضات المسلحة التي حملت في جوفها نوازع سياسية ، أو ما رسمته على وجهها من مسميات واهداف دينية أو صوفية . كما يجب دراسة الظروف والاضعاع الطبيعية من امراض وكوارث هزت المجتمع العربي .

2 / حول الحياة الاجتماعية للولايات العربية في العهد العثماني :

تحت هذا الموضوع التاريخي الحى ، انعقد المؤتمر العالمى الثانى فى منطقة الحمامات بتونس للفترة 15 - 21 / مارس = آذار / 1986 .. والذي نظمته

«مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني» بتونس ، وأشرف على المؤتمر المؤرخ الدكتور عبد الجليل التميمي . وكان انعقاد هذا المؤتمر خير نموذج علمي أكاديمي للفهم العلمي الجديد - الذي قدمنا عنه - في الدراسات التاريخية . أما الشعار الكامل للموضوع فقد كان : «الحياة الاجتماعية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني» . لقد حضر أعمال المؤتمر العالمي المذكور حوالي مائة مؤرخ ومستشرق وباحث .. أغلبهم من أساتذة الجامعات في كل من : فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الأمريكية والمانيا وإيطاليا وتركيا ، والبلاد العربية منها : مصر وتونس والعراق والجزائر ولبنان وسوريا والأردن والمغرب والسعودية ...

وتنوعت الدراسات والأبحاث التي قدمت الى هذا المؤتمر ، بحيث يمكن ان نقسمها الى ثلاثة أقسام أساسية ، هي :

I - الأبحاث التي تتعلق بحالات عامة ، وقضايا مركزية في التاريخ الامبراطوري العثماني ، ووثائقه .

2 - دراسات في الأحوال الاجتماعية للولايات العربية ، واقتصادياتها ، وقضايا متنوعة تختص بالاثنوغرافية ، والهجرات والديموغرافيا السكانية ...

3 - مقالات وأوراق مركزة حول الحياة الاجتماعية في أمهات المدن العربية وما تميزت به من العلاقات كمراكز مدنية حية ، لها اوضاعها الاجتماعية والثقافية ، وحالاتها الاقتصادية والعمرانية ، أمثال : بيروت ، الموصل ، دمشق ، القدس ، بغداد ، القاهرة ، حلب ، قسنطينة ، جدة ، مكة ، تونس ، صفاقس ... الخ .

ومن الملاحظ ، ان مقالات وأوراق القسم الثالث قد طغت في مواضيعها وحجومها على أعمال المؤتمر ، وندرت الأبحاث والدراسات الموسعة ، والتحليلات المقارنة ، كالتى وجدنا بعضا منها في القسمين الاولين ، وامتازت بالمتانة والرصانة العلمية . كما لاحظنا أيضا ، ان اغلب الموضوعات عالجت الحياة الاجتماعية خلال القرن التاسع عشر .. وندرت تلك الأبحاث الثمينة في حياة العرب الاجتماعية خلال القرون : السادس عشر والسابع عشر الثامن عشر . اضافة الى ان الأبحاث التي تتعلق بقضايا مركزية في مرحلة انهيار التاريخ الامبراطوري ، وعهد السقوط .. جاءت على يد بعض المؤرخين الاجانب من الامريكان والأتراك . اما ابرز الولايات العربية التي درست ونوقشت بعض موضوعاتها فهي : الشام ، الحجاز ، حلب ، الموصل ، تونس ، الجزائر ، بغداد وسنجق الحسا .

بدون شك ، ان مجموعة الأبحاث والدراسات والمقالات التي قدمت الى المؤتمر المذكور ، ونوقشت فيه .. كانت متنوعة ، ومنها ما كان جديدا للغاية بحيث استقطب حوله العديد من المناقشين والناقدا والمهتمين ، وذلك بسبب المعلومات الوثائقية التي اكتشفت حديثا على يد مؤرخين عرب وأجانب . ولكن

— مع الاسف — منها ما كان تقليدي سردي يعتمد على مواد تاريخية معروفة ، ومعلومات مترجمة تتمتع بسرعة تحت طائلة المؤرخ . اما الملاحظة التي يمكن استخلاصها من نتائج المؤتمر ، هي تلك التي تقع في دائرة التفسير التاريخي لدى المؤرخين العرب بشكل خاص . اذ ان اغلب المؤرخين العرب الذين شاركوا بدراساتهم وابحاثهم ومقالاتهم .. انما اقترنت اعمالهم بالمدينة او الاقليم او الولاية العربية التي انحدروا منها .. فالابحاث التي تتعلق بمصر العثمانية كانت من نصيب المؤرخين المصريين ، وهكذا ، بالنسبة لايحاث مختصة بولاية الشام ، أو ولاية بغداد ، أو ولاية الحجاز .. وكل من اياها تونس والجزائر . وهذا ، شيء معروف .. فقد غدا أمر الكتابة التاريخية العربية عند العرب المحدثين في كتابة تاريخهم سواء وسيطة أم حديثة : تكريس للنزعة الوطنية والاقليمية والمحلية .. في تثبيت أهمية اقليم أو قطر عربي على حساب غيره من الاقاليم والاقطار العربية . كما ونلاحظ ، مع الاسف .. وخصوصا عند المؤرخين الشباب المحدثين من لبنان : تكريس للنزعة الطائفية المحلية في لبنان ، والبحث عن جذورها على حساب احادية لبنان وعروبته . اما الملاحظة النقدية الاخرى عن اعمال المؤتمر المذكور اعلاه ، فهي غياب ابحاث ودراسات عن ولاية اليمن التي تشكل بؤرة توتر بالنسبة لتاريخ الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر حتى فجر التاريخ المعاصر .. اضافة الى غياب مؤرخين من ليبيا والسودان ، وبذلك غابت عن اشغال المؤتمر دراسات في تاريخ كل من هذين القطرين العربيين ايضا . اما المغرب والجزائر ، فقد مثل كل منهما مؤرخ واحد تحدث عن موضوع هام . ويمكننا ان نقول بعد استماعنا لجميع محاضرات المؤتمر ، ومناقشة العديد منها .. انها دراسات رغم تنوعها ، الا انها شغلت حيزا اختصاصيا ضيقا في التاريخ الاجتماعي للعرب . فقد غابت دراسة أهم عناصره في الحياة الاجتماعية العربية خلال العهد العثماني ، ألا وهي العلاقات الاجتماعية في المجتمع العربي ، وربط ذلك بأهم الحركات الاجتماعية واسبابها ونتائجها . ولم يخرج من الباحثين الا القليل في ابراز استنتاجات تاريخية هامة .. تلك الاستنتاجات التي تعتبر أهم احتياجات المجتمع العربي المعاصر الذي تغيب اليوم أواصره الاجتماعية التي عرفها على امتداد قرون طويلة من خلال العلاقات السياسية غير المتكافئة أو الشائكة في العقود الاخيرة من القرن العشرين . كما غابت ايضا دراسة ظاهرة العلاقات الاجتماعية التي عرفها كل من المشرق والمغرب العربيين خلال الفترات التاريخية العثمانية على درجة كبيرة من الاتساق عبر مسارب مختلفة كان أهمها : طلب العلم والحج والتجارة والهجرة والنزوح والتوطن .

ويمكننا أن نطلع من خلال الجدول التالي على عدد الدراسات والاوراق التي اختصت في مواضيعها التاريخ الاجتماعي — الاقليمي والمحلي ، والتي قدمت الى المؤتمر المذكور (علما بأن بعضها ذكر في منهاج اشغال المؤتمر ولكن لم يلق في المؤتمر نظرا لغياب صاحبه .. وبالتالي غياب الدراسة والورقة ..) :

البلد والأقليم	العدد	العربية	التربية	الفريسية
تونس (= الايالة + المجتمع + المدينة)	13	10	1	1
بلاد الشام (= المجتمع + الملح + المايية)	11	5	1	5
لبنان وبيروت (= الاثنوغرافية والهجرة)	10	9	—	1
مصر والقاهرة (= الزراعة والعمرة)	11	10	—	1
بغداد (= الولاية + المجتمع + المدينة)	6	5	1	—
المنزب (= العملاقيات المسارجية)	6	5	—	1
الموصل (= الولاية + مجتمع المدينة)	3	2	—	1
حلب (= الولاية + مجتمع المدينة)	3	1	1	1
الجزائر (= الايالة + مجتمع قسنطينة)	3	2	—	1
فلسطين (= القدس : كتابات ومذكرات)	2	2	—	—
السعودية (= سنجق الحسا)	1	1	—	—
السودان (= غابية)	1	1	—	—
الجزائر (= مكة + المدينة + جدة)	4	3	—	1
البحرين وقطر (لم يلقيا)	2	2	—	—
طرابلس الغرب (= ليبيا غابية)	1	1	—	—
المجموع :	76	59	4	13

أما البحوث التاريخية العامة التي دارت محاور مواضيعها حول قضايا مركزية ، تختص شؤونها بتحديث العالم العربي وعلاقة ذلك بالعثمانيين ، اضافة الى التوثيق العثماني ، وما اختص منها بحياة الامبراطورية في ايامها الاخيرة .. فيمكنني ان اقسّمها الى قسمين على النسق العددي التالي :

العدد	عربية	تركية	غربية
2 - الامبراطورية العثمانية : 5 بحوث	3	2	—
I - العالم العربي : 9 بحوث	—	4	5
المجموع : 14	3	6	5

3 / جوانب نقدية أخرى :

I - يتوضح لنا ان كلا من تونس وبلاد الشام ولبنان ومصر ، قد استقطبت اغلب الدراسات والاوراق العلمية ، سواء تلك التي ألفت بالعربية أم بالانكليزية أم بالفرنسية .

2 - ان عناوين تلك الدراسات ومضامينها واهتمامات اصحابها من الذين قدموا أوراقهم ، ودافعوا عنها في مناقشاتهم ٥٠ قد تضمنت عند المؤرخين العرب أبرز المواصفات التالية :

I. النزعة الاقليمية في الكتابة والاهتمام التي تعتبر فرزا للنزعة الوطنية للبلد الذي ينتهي اليه المؤرخ .

2. التزام المصدر العربي أو الوثيقة العربية والكتابات المحلية والمراجع الاجنبية ، على حساب الوثيقة التركية والمصادر العثمانية التي تكاد تغييب عن أبحاث المؤرخين العرب .

3. السردية والانشائية وتركيب النصوص والاقتباسات في الكتابة .. واتباع قراءة المحاضرة المكتوبة بصورة تقليدية دون هضم كاف للمعلومات ، وتوسع علمي منضبط ، ومعرفة موسوعية بعثمانيات الشرق الادنى ، وربط ذلك بكل من حياة المجتمع العربي في مشرقه ومغرب العثمانيين .. وبهذا جاءت الابحاث تقليدية في صيغها المقدمة ودفاعاتها في اثناء المناقشات .

4. بروز بعض المؤرخين العرب من الشباب الذين بزوا في محاضراتهم ابناء الجيل الذي سبقهم من المؤرخين .. وذلك من خلال دراسات جادة واثنية.

اما الجوانب التي تخص من حضر المؤتمر من المستشرقين والمؤرخين الغربيين فان ابرز المواصفات التي ميزتهم ، فهي :

1. عزلة أغلب هؤلاء عن مناقشات الدراسات والاوراق التي قدمها المؤرخون العرب .. وكان كل من الاثنين منعزلا عن الآخر ، رغم القاعة الكبرى التي جمعت شملهم .

2. الاهتمام بحياة العرب الاجتماعية المعنية اثناء الفترة التاريخية المخصوصة ، وذلك من خلال اطار البحث في تاريخ الامبراطورية العثمانية .. أي ربط الموضوع أساسا بالتاريخ العثماني .

3. التوسع في عرض ودراسة وثائق تاريخية جديدة لم يكشف عنها سابقا ، وكان أبرزهم : د. كارل باربير ، د. ثريا فاروقى ، د. كارل ماكس كوربيتز ، د. انكين كارلى ، د. بيتر كلارك ، ود. هيوود .

4. اما المؤرخون الاتراك ، فقد عاجلوا في أغلب بحوثهم نواحي جديدة ، وأطلعوا المؤتمر على وثائق تركية ، وآراء جديدة بخصوص تنظيم تلك الوثائق .. وكان أبرزهم : د. خليل ساحلى أوغلو ، د. عثمان أوكيار ، والسفير اسماعيل سوسيال .

3 - الجانب المهم الآخر ، هو ما قدمه العديد من المؤرخين العرب من انتقادات وشكاوى للمؤتمر بخصوص ما يلاقه المؤرخ العربى في حصوله على الوثائق العثمانية - التركية من متاعب ومصاعب من تركيا .. فى حين يستطيع غيره ان يجدها بين يديه .. اضافة الى سوء تنظيمها ، واحتفاظ تركيا الحديثة بالآلاف المؤلفة من الوثائق التاريخية الهامة التى تخص جوانب التاريخ العربى الحديث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية .. الخ .

4 / قضايا مركزية : معلومات حية :

1 - الارشيف العثماني : يعتبر الارشيف الوثائقي العثماني من أهم مصادر التاريخ العثماني فى معلوماته الرسمية - الحية ، باعتباره موردا نفيسا وأميناً فى كتابة تواريخ متنوعة ومختلفة لست وعشرين كيانا سياسيا .. كنول منبثقة ومستقلة - فيما بعد - . تلك الدول التى انبثقت فى أطرها السياسية المعاصرة وكياناتها الجديدة عن الامبراطورية العثمانية بعد سقوط الاخيرة ضمن مداخلات ونتائج الحرب العالمية الاولى . ويحتوى الارشيف العثماني على آلاف مؤلفة من الوثائق الرسمية المتنوعة عن تاريخ العرب الحديث الذى كان يرتبط باستمرارية التاريخ العثماني ارتباطا مباشرا أم غير مباشر: سياسيا واداريا واقتصاديا .. أن الارشيف العثماني المركزى يحتوى فى جملته على ركام هائل ، وعدد لا يقدر من الوثائق التاريخية والنثى يتراوح عددها بين (100) و (150) مليون وثيقة .. لم تصنف تصنيفا علميا ومكتبيا ومنهجيا حتى يومنا هذا .. ولم يفهرس منها الا ما هو ضئيل وقليل - مع الاسف - . كان الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا قد أسس فى سنة 1846 ادارة رسمية

تحت عنوان «كنوز وثائق الدولة» بغرض صيانة الارشيف العثماني الرسمي . وقد اهتمت هذه الادارة بعد سنوات .. وفي ثلاثينيات هذا القرن فرزت وصنفت بعض الوثائق ، ولكن العملية لم تتعد نسبة 10 % أو 12 % من مجاميع الوثائق العثمانية بسبب عوامل متباينة .

ان الارشيف العثماني الذي يتعب طلاب البحوث والمؤرخين والدارسين في استخدامهم لما يحتاجونه من وثائق ومعلومات ومصورات .. وخصوصا العرب منهم .. تغيب حقائق تاريخية ، والعرب هم أول الذين يحتاجونها ، اذ باكتشافهم تلك الوثائق ودراساتهم لها علميا وتقنيا .. ستتغير العديد من المفاهيم والآراء ... اضافة الى الافكار والتفسيرات التي عرفها العرب منذ استقلالهم عن العثمانيين وسيطرة لامبراطورية العثمانية عليهم ، حتى يومنا هذا . يقول السفير اسماعيل سوسيال رئيس مجلس مديري مؤسسة الدراسات حول العلاقات التركية - العربية وذلك في محاضراته التي ألقاها في المؤتمر : « ... وبانتهاء عملية الفرز والتصنيف في غضون عشر سنوات ، يقع تصحيح التأويلات المشوهة للماضي العثماني . وعندئذ يمكن كتابة تاريخ تركيا ، وكذلك تاريخ العرب والبلقان من جيرانها ، أو الاوربيين عموما في ضوء المعلومات الجديدة التي ستنبعث من الارشيف العثماني » .

2 - قضية التحديث الحضاري : طرح المؤرخ الامريكي المعروف ل. كارل براون ، تقريرا هاما عن بحث جماعي خاص بموضوع حيوى ، تحت عنوان : «التطور والتجديد في افريقيا وآسيا العثمانية وفي بعض الدول المتبقية عن الامبراطورية العثمانية» . وتعتبر قضية التحديث من مركزيات القضايا الحية التي يثيرها الكثير من الكتاب والمؤرخين والمهتمين ، والساسة ورجال الاقتصاد والاستراتيجية منذ مطلع القرن العشرين حتى يومنا هذا .. وعلى كل من جانبي الشرق والغرب . وشملت المنطقة التي تحدث عنها المؤرخ براون : مصر وتركيا وتونس والعراق وبلاد الشام .. اما الفترة ، فهي التي يوطرها القرن التاسع عشر . وقام هيكل البحث في منهجه وموضوعه على مقارنة النماذج التاريخية والجغرافية في التحديث الحضاري .. أى مقارنة التحديث بين المنطقة المعنية - العثمانية وتجربة كل من اليابان وروسيا .. اضافة الى تجربة الصين من طرف آخر . كان سؤاله - دائما - يتعلق من تحديات يفرضها البحث المعنى في اشكالية التحديث عند عدة دول لا تزال قائمة حاليا ، وليست دولة واحدة كالحالة الواحدة التي كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية - المركزية قبل الحرب العالمية الاولى .. رغم ان هناك كيانات كانت تتمتع بحكم شبه مركزى كمصر وتونس اللتين تمتعتا باستقلالية عملية ان لم تكن شرعية وقانونية . يضاف الى ذلك جبل لبنان الذى منح حكما شبه ذاتي بعد سنة 1860 من قبل الدول الاوربية .

وتكمن استنتاجات براون في النواحي التالية :

I. مدى تأثير الامبراطورية العثمانية والثقافة العثمانية بشكل عام على الدول العربية المنبثقة عنها في قضية التحديث .

2. ان تركيا الحديثة هي الدولة الوحيدة الورثة للامبراطورية العثمانية .

3. ان الحكم العثماني الذي دام أربعة قرون في المنطقة العربية لم يترك اثرا يذكر على المستوى الحضاري والسياسي .

ونختلف مع المؤرخ براون في استنتاجه الثالث ، اذ ان المنطقة العربية لم تزل حتى يومنا هذا تعيش حالات عديدة موروثة وقديمة تتصل في حياتها مع تلك الامبراطورية .. وفي جوانب عديدة من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية .. اضافة الى ما خلفته تلك العهود الطويلة من آثار ومخلفات حين كانت القدرات العربية ضائعة ولم ترق الى مستوى القيادة والفعل والحركة في السياسة أو الحضارة عدا الحالات التي عاشتها كل من مصر وتونس . وعندما سئل براون عن تجربة اليابان وروسيا والصين كدول كانت متخلفة ، واستطاعت ان تنطلق اليوم في تحديثات المجتمع والحياة . أجاب براون بأسلوب صريح : بأن التراث السلبي والثقافة القديمة هما من العوائق الخطيرة في سبيل تقدم المنطقة المعنية . ونحن نختلف مع هذا الرأي من خلال نموذجين اثنين في قضية التحديث :

I. ان تركيا لم تنجح حتى هذا اليوم في مسألة التحديث ، رغم السياسة التغريبية (= العلمانية) التي اتبعتها منذ سقوط الامبراطورية حتى اليوم . وربما انها حاولت اذابة شخصيتها فاخفقت في علمانيتها .

2. ان اليابان المستحدثة ، استلهمت التجربة الاوربية التكنولوجية ووسائل المعرفة والتخطيط والخبرات ، دون ان تذيب شخصيتها الثقافية في زحمة اطار التغريب .

3. ن التراث العربي يتميز بهويته الحضارية .. وهو بحاجة الى تجديدات عديدة على أيدي أصحابه . ولا يمكن مطالبة العرب ان يغتربوا عن ثقافتهم الاحادية التي تحتاج بدورها للمزيد من التحديث والعصرنة .

4. غابت عن ذهن المؤرخ الاستلابية التي تعرض لها العرب خلال الفترات الاستعمارية الكريهة . ودورها في بعثرة الامكانيات والطاقات في تحقيق العرب لاهدافهم التاريخية في التاريخ المعاصر ، سواء كان ذلك في مشرق العرب أم في مغربهم الكبير . وفعل التجزؤ الذي كان نتيجة من نتائج السياسة التي اتبعتها كل من بريطانيا وفرنسا في المنطقة العربية .

3 - الاتحاد والترقي وحلم الوحدة في اطار العثمانية : ويعتبر هذا الموضوع من المواضيع الخطيرة والحساسة في تاريخ كل من العرب والأتراك المعاصر .. فهو يحتوي على أكثر من قضية تاريخية ساهمت في سقوط السيادة الامبراطورية بعد عمر طويل .. ولكن السؤال الذي يفرضه هذا البحث هو :

الحلم الذى راود زعماء جمعية الاتحاد والترقى فى اطار العثمانية ٩٩٠٠ لقد اثاره د. عثمان اوكيار كمؤرخ تركى معاصر ، يحاول ابراز الاهداف الاصلية التى تبنتها جمعية (الاتحاد والترقى) المتزعمة لانقلاب عام 1908 ضد حكم السلطان عبد الحميد الثانى المطلق . ولعل من أهم الجوانب التى أظهرها هذا البحث هى (نوايا) الحركة السرية للجمعية التى اعتنقت مبدأ وحدة المواطنين العثمانيين فى اطار السيادة الامبراطورية مهما كان دينهم أو عرقهم ، وذلك لسببين اثنين :

1. الحفاظ على وحدة التراب العثمانى منعا للتفكك والانقسام .
2. تأسيس نظام دستورى تكفله الحريات السياسية ، والذى من خلاله يقضى على حدوث صراعات بين مختلف اقطار الامبراطورية .

لقد وصف ذلك كله بالحلم الذى لم يتحقق ، ملقيا بتبعات ذلك حول الاشكالية الكبرى التى ظهرت فى علاقات الاتراك بالعرب فى فترة انهيار الدولة وتفككها . ويرى اوكيار ، بأن جمعية الاتحاد والترقى كانت صادقة فى أملها للحصول على القومية العربية من خلال الدستور والحرية السياسية .. ويدل على ذلك بمثال صلق الاتحاديين فى مشاركتهم الحية بالدفاع عن ليبيا ضد الغزو الايطالى سنة 1911 . ولكن لم تصبح المقاومة ممكنة فى ظروف انفجار حرب البلقان فى أكتوبر سنة 1912 .

ونختلف مع المؤرخ د. اوكيار فى قضايا جوهرية بخصوص السياسة الاتحادية التى مارسها الاتحاديون تجاه العرب .. والتى تكاد تكون معروفة فى أمثلتها التاريخية الحية فى بداية تاريخنا المعاصر .. ورغم التعمية أو التغطية تحت واجهة الدستور والحرية السياسية .. فان سياسة التريك ، ومن قبلها عدم مناصرة ومعاودة أولئك الرجال من المثقفين والمستنيرين العرب الذين ايدوها فى بداية الامر .. ان سياسة الجمعية ورجالها من الاتراك تجاه العرب هى التى فصمت تلك العلاقة التاريخية القوية بين الاتراك كحكام وسلطة وسيادة فى اطار العثمانية .. عن العرب كمحكومين لا يعرفون ان يتعاملوا الا بلغتهم وخطاباتهم وتكتلاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية .. وفى ظل فقدان الهوية العربية .. فى عصر ساخن بالاحداث السياسية وحركات الانفصال والثورة القومية والانتفاضات الاقليمية .. فماذا نسمى ثورة البلقان ؟ وما هى طبيعة صراع الاقليات كالارمن والاكرد والدروز ... الخ ؟ وما هى الخفايا التى كان يطويها زعماء جمعية الاتحاد والترقى ؟ كان الحلم الذى مورست سياستهم من أجل تحقيقه هو الذى عرف فيما بعد بـ « التريك » . فكيف اذن يسكت العرب ابان فترة فوران النزوع القومى ؟ وبين انفجار كل من البلقان والعرب ضد الاتراك حوالى اربع سنوات فقط : 1912 للبلقان ، و 1916 للعرب .. فى حين كان الاتحاديون قد تسلموا السلطة فى سنة 1908 اثر انقلابهم العثمانى الشهير .

5 / المجتمع العربي الحديث : الصيرورة والتكوين :

5 / 1 المجتمع العربي والدولة :

انتلف المجتمع العربي مع الدولة المسيطرة ذات السيادة المطلقة عليه (= الامبراطورية العثمانية) ، وذلك من خلال القاسم المشترك بين الطرفين (= الاسلام) . ورغم أن الايدولوجية التي مثلتها الدولة كانت سنية - حنفية تتبع المذهب الحنفي ، إلا أنها كانت معترفة ببقية المذاهب السنية : الشافعية ، والمالكية والحنبلية .. وهى المذاهب التى كان يتوزعها المجتمع العربى بنسبة كبيرة مقابل المذاهب الاسلامية الاخرى اضافة الى الاقليات الدينية ، والاثنيات العرقية التى لم تكن عربية . ورغم ذلك الائتلاف المعروف بين العرب كمجتمع وتكوين وبين الدولة كسلطة وحكومة ، إلا أن المنطقة لم تكن تخلو من يؤر توتر معروفة على مدى امتداد التاريخ الحديث ، ومنها اليمن وجبل لبنان .

كان الحاجز - من طرف آخر - بين المجتمع العربى والدولة كبيرا ، من خلال نظرة كل من الاثنين الى بعضهما الآخر . فالدولة تنظر الى ابناء الولايات العربية كـ (عرب) قوم من رعايا الدولة يدخاون فى عداد (الملة العثمانية) .. سواء كانوا فى ولاياتهم المشرقية أم المغربية . إذن ، كان العرب شعب لا هوية له إلا الهوية العثمانية ، باعتباره يدخل فى نطاق حكم الدولة الامبراطورى - السياسى تحت غطاء الايدولوجية - العثمانية . وهذا الغطاء ، هو الذى يعتمد عليه العرب فى نظرهم للدولة العثمانية ، أى نظرة المجتمع العربى الى سلطة الدولة .. وهكذا ، ومن خلال فقدان الهوية العربية تحت ظل ذلك الغطاء .. لم يستطع احد من الاقطاب فى أمهات المدن العربية وحواضر المجتمع العربى وفى كافة الولايات العربية ، أن يصل الى مستوى القيادة السياسية فى العاصمة الام ، أو حتى منصب أعلى فى الصدارة العظمى - مثلاً - لانه عربى فى وجهة النظر العثمانية .. والعربى هو أحق من غيره بالخلافة : وهو المنصب المقتد فى كيان دولة السلطنة العثمانية . اضافة الى كل ذلك ، فإن العرب - أيضا - لم يصلوا حتى مستوى القيادات الادارية بظل المركز العالى للسلطة العثمانية فى عواصم الاقاليم والادارات سواء بمناطق عربية أم غير عربية .. ناهيك عن مستوى القيادة العسكرية ، إلا فى أحوال نادرة جدا خلال القرن الثامن عشر بعد انحسار قوة السلطة المركزية فى العاصمة اسطنبول . لقد احتفظت الدولة العثمانية بسيادة أسرة عربية عريقة واحدة فى اقليمها ذاته ، وذلك نظرا للمكانة الدينية التى تتمتع بها تلك الاسرة ، وارومتها المقدسة ، ووظيفتها الخاصة كسادنة للبيت الحرام ، وهى أسرة الاشراف بمكة .. اذ كان السلاطين ينظرون اليها نظرة محترمة من خلال نسبها السلالى المتصل بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن المجتمع العربى جميعه بواقع فى الاطار العثمانى تحت سيادة الدولة العثمانية التى كانت تحكمه بأسلوب الادارات الاقليمية ، وليس فى اطار

التقسيم الجغرافي أو الديموغرافي أو الكتلوى أو الطائفي - المذهبي .. كان هناك المغرب الاقصى وعمان وبعض المشيخات العربية المندفعة خارج اطار السيادة العثمانية ، نظرا لما كانت تتمتع به من سلطات عربية قحة ومنبثقة في اطار التكوين الاجتماعى الداخلى ، وقد مثل نظام (السلطنة) كل من بلاد المغرب الاقصى وعمان .. لقد عرفت البلاد العربية الاخرى ، أو بالاحرى مناطق المجتمع العربى نظام سلطة الادارات التابعة للسلطة المركزية العليا - العثمانية . فلم يحاول العثمانيون ان يبقوا على الاطار الجغرافى الموحد بتوفر العنصنة الاساسية لذلك وأهمها : تاريخ المنطقة الجغرافية والقوى السكانية العربية التى تحركت عليها منذ مئات السنين ، اضافة الى اللغة العربية كأحد أهم العناصر الفاعلة فى صيرورة المجتمع العربى الكبير . ولم تتبع السلطة العثمانية العليا تجاه المجتمع العربى حكمه من خلال التقسيم الكتلوى ، أى انها لم تخلق كتل عربية عملاقة تجمع العرب من خلالها ، كان تكون هناك ثلاث أو أربع كتل عربية كبيرة . ومن الواضح ، أن السبب فى ذلك يعود الى خوف الدولة من انفصال احدى الكتل ، ويكون ذلك حتما سببا تاريخيا فى القضاء على السلطة العثمانية العليا بتواجد أو ولادة نظام عربى فى كيان جديد له سياسته المنفصلة أو المعزولة عن سدة الباب العالى . ثانيا : الخوف من بروز التحسس بمكانة العرب فى الاسلام ، والمطالبة بتحقيق مبدأ الخلافة الاسلامية مرة أخرى على يد العرب باعتبارهم أصحاب الشرعية التاريخية فيها . ومع كل هذا وذاك ، كانت هناك علاقات أسر عربية عليا فى المجتمع مع سلطة النظام العثمانى ، وخصوصا فى بعض المدن الكبرى فى المشرق العربى فى ارتباطاتها بالعاصمة اسطنبول .

5 / 2 أمهات المدن العربية : مقارنات بين رجال وأفكار جديدة :

سوف اختار فى هذا الحقل نماذج من بحوث ودراسات قدمها مؤرخون عرب فى المؤتمر العالمى الثانى للدراسات العثمانية .. وتختص تلك البحوث والدراسات عن مدن عربية شهيرة وعريقة ، وكان لها ادوار مختلفة على مختلف الاصعدة خلال الفترات العثمانية ، ومنها : بيروت والموصل والقدس وقسنطينة والقاهرة وحلب ودمشق وبغداد ... الخ .

I - بيروت : تلك المدينة الاستراتيجية التى عنى بها بحث د. عبد الرحيم أبو حسين ، ومكانتها التاريخية فى كتاب «مجمع المسرات» للدكتور شاكر الحورى .. وأحوالها الاجتماعية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . انه احد المصادر الهامة والتى غمر ذكرها نسبيا وهو ملخص سيرة ذاتية عن حياة وثقافة صاحبه وذكرياته الشخصية فى قسمه الاول . اما القسم الثانى من البحث ، فيركز على دور الزعامات القبلية والزعامات الاقطاعية فى فترة ما قبل المتصرفية .. والعلاقات بين الدروز والموارنة . انه النظام القديم الذى كان سائدا قبل تلك الفترة : نظام المقاطعات والمقاطعية الذى تغير بتبديل

النظام الى نظام جديد هو نظام المتصرفية ، وهو القسم الثالث من البحث .. وهنا يتوقف المرء على معلومات جديدة في انطباعات الرجل عن الاحوال التي سادت بيروت ومتصرفية لبنان بدءا بتنصيب داود باشا أول متصرف على لبنان بعد الحرب الاهلية سنة 1860 انتهاء الى المتصرف السابع يوسف فرنكو باشا . اما القسم الرابع والاخير ، فالبحث يحتوى على مادة خصبة في تاريخ جبل لبنان الاجتماعى .. انه يتتبع الحالات الاندماجية Assimilation للقيادات القبلية الاسرية والاقطاعية فى الطبقة البرجوازية المتصاعدة فى المجتمع المحلى البيروتى ، بعد ان كانت تلك القيادات قد فقدت بعض قوتها السياسية الكبرى ، ومكانتها الاجتماعية فى عهد المتصرفية ونتيجة لسياسة المتصرفين المطلقة فى الادارة والاستخدام وادماج العائلات والاسر القبلية والاقطاعية . لقد قدم لنا البحث المعنى مادة تاريخية جديدة ، اضافة الى تحليل أكاديمى منصف لتاريخ لبنان المتنوع والغنى بالاحداث والرجال .. كما وقدم البحث فى نتائجه ، أفكار جديدة عن بيروت القرن التاسع عشر ، وخصوصا فى نصفه الثانى من خلال مرآة «مجمع المسرات» لصاحبه شاكر الخورى . ولكن كنا نود لو ألقى البحث ونوقش فى اللغة العربية بدل الانكليزية .. لا سيما ونحن نعلم ان هناك عددا كبيرا من المؤرخين العرب الذين حضروا المؤتمر لا يعرفون اللغة الانكليزية - مع الاسف - .

2 - وقسنطينة : تلك المدينة الجزائرية التى تقدم فى دراسة عن مجتمعها د . أبو القاسم سعد الله ، تحت عنوان «مجتمع قسنطينة من خلال كتاب (منشور الهداية) لعبد الكريم الفكون - القرن 11 هـ = 17 م .» . ورغم أهمية الباحث كمؤرخ جزائرى شهير ، وأهمية الموضوع الذى تقدم به عن مجتمع مدينة عربية عريقة ، من خلال كتابات رجل مغمور الذكر والمعلومات .. الا ان البعض من الآراء التى جاء بها الباحث كانت موضع نقد . اذ نختلف مع الباحث فى هذه الاحكام التالية التى قدم فيها لنا بحثه، ومنها: «هذه دراسة لحياة وآثار شخصية نابضة من شخصيات العالم الاسلامى فى عصور الانحطاط ، وهو عبد الكريم الفكون ، الملقب بشيخ الاسلام . فقد عاش خلال القرن الحادى عشر (17 م .) فى الوقت الذى اشتدت فيه القطيعة بين العالم الاسلامى الجامد والعالم الاوربى المتحرك ، وازدهر فيه التصوف المزعوم والدروشة والامية والتخلف العقلى فى المجتمعات الاسلامية ، وكثر فيه ادعياء العلم من الفئة التى كانت تسمى نفسها حامية الشريعة ... وهى فئة الفقهاء أو المتفقيهن ، واستولى على مقائيد السلطة حكام جهلة وطغاة وغرباء عن حاجات وأحاسيس المجتمعات الاسلامية التى يحكمونها وعشش اثناء الفكر الخرافى حتى كاد المجتمع كله يصبح زاوية صوفية تشيع فيها الحضرة والرقص العصبى والايمان بالغيبيات والروحانيات » . قد نتفق مع بعض هذه الآراء التى تصف الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية خلال الفترات العثمانية ، ولكننا نختلف مع الباحث فى الامور الثلاثة التى أطلق احكامه عليها : « عصور

الانحطاط «التخلف العقلي» ، «الايان بالغيبيات والروحانيات» . ولا تعليق لي على ذلك !

لقد وضع د. سعد الله في دراسته أهمية ذلك الرجل المصلح عبد الكريم الفكون الذي ناضل وحده طويلا ضد الجمود والتخلف والدروشة ، وطالب بأن يقارن الباحثون بينه وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي ظهر بعد الفكون بحوالى قرن من الزمن . وتوضحت من ثنايا البحث ، طبيعة الحالة الاجتماعية التى كانت تعيشها مدينة قسنطينة خلال القرن السابع عشر ، وذلك من خلال الآراء التى طرحها الفكون ، وخصوصا الوضع الثقافى ، اضافة الى وصفه لحالة أهل قسنطينة فى القصيدة التى ذكرها فى آخر كتابه «مجدد السنان» .. اضافة الى قضية اجتماعية أخرى ، هى البدء باستخدام شرب الدخان وشبويعها بين الناس ، واحداثها لازمة حادة فى كل من المشرق والمغرب .. اضافة الى قضايا هامة أخرى عاصرها الفكون . ناهيك عن دراسته وعلومه .. وتأليفه التى منها : «منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية» ، و «مجدد السنان فى نحر اخوان الدخان» ... الخ .

3 - اما القدس الشريف ، فقد قدم عنه د. امحمد بن عبود فى بحثه الموسوم : «البعد الروحي فى رواية ابن عثمان المكناسى للقدس الشريف - ق 120 هـ / 18 م -» . وكان ابن عثمان المكناسى وروايته موضع تشكيل هذا البحث فى دراسة جزء من رحلته الى مكة والمدينة التى وضعها سنة 1199 هـ / 1784 - 1785 م بعنوان : «أحراز الملة والرقيب ..» وهو «مخطوط تحتفظ به الحزانة الحسنية بالرباط رقم 12307» . لقد ذكر صاحب البحث بأن وصف المكناسى فى روايته الاولى عن القسطنطينية تختلف جذريا عن روايته الثانية للقدس الشريف ، بحيث تعتبر الرواية الاولى أساسا عبارة عن وصف دقيق للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بينما يطفى البعد الروحي على الرواية الثانية . لقد كان المكناسى سفير السلطان المغربى سيدي محمد بن عبد الله ، وقد عكس فى كتاباته مشاهداته الصادقة والامينة بفرض توصيل المعلومات كاملة عن المشرق العربى الى بلاط السلاطين المغاربة الاشراف . حلل الباحث ميول المؤلف المكناسى الروحية ونصه الذى كتبه فى وصف القدس . ثم قارن الباحث كلا من روايتي المؤلف معجبا ايما اعجاب بالمدينتين . اما القسم الثانى من البحث ، فقد عالج فيه كل من البعد الاسلامى والبعد الخرافى . اما البعد الاول فتبرزه الرواية على ثلاثة مستويات هى :

1. المصطلحات التى استخدمها المؤلف فى كتاباته .

2. الطريقة التى استغلها المؤلف عند زيارته للاماكن المختلفة فى القدس وفلسطين مثل المسجد الاقصى .

3. تقديس المؤلف للاماكن الدينية التى زارها .

اما البعد الثاني (= الجرافي) ، فقد ضم العديد من القصص الجرافية منها قصص رفضها ، ومنها لم يشك في صحتها .. انه يعطينا صورة عن الحالة التي كانت القدس تعيشها في أواخر القرن الثامن عشر .

ان الملاحظ من دراسة المكناسي لمعلوماته التي قدمها لنا ، انه مزج متنوع للعناصر التاريخية والدينية والجرافية في اطار رواية واحدة ، وتكون المكانة الاساسية فيها للمسجد الاقصى . انها من أهم المصادر التاريخية بالنسبة للتاريخ العربي الحديث خلال الفترات العثمانية .. كما وانها تهم جميع أولئك الذين يهتمون بالتاريخ المحلي والانساني للقدس الشريف . وكنا نأمل ان يقدم لنا الباحث نسخة أخرى من بحثه باللغة العربية الى جانب الانكليزية .

4 - اما **الموصل في طبيعة حياتها الاجتماعية** التي عاشتها خلال العهد الجليلي 1726 - 1834 م . ، فقد قدم د. سيار الجميل عنها دراسته التي كان من بين مصادرهما التاريخية الاساسية تواريخ المؤرخ ياسين أفندي الخطيب العمري الذي عاش بالموصل وكان معاصرا للعهد الجليلي في فترات طويلة منه ، وكتب العديد من الكتب التاريخية . اما المعلومات الجديدة التي ظهرت في هذا البحث الحالة الاستثنائية الشاذة التي اكتشف فيها الباحث كتاب المؤرخ العمري الموسوم : « الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون » في ابرازتين مختلفتين سبقت الاولى الثانية في كتابتها ، والمعلومات المجهولة التي وجدت في الابرازة الثانية . واستطاع د. الجميل ان يحقق هذا الكتاب الحولى الكبير في اسكتلندا عام 1983 في جمعه للمخطوطات كافة ، وظهره في ابرازة واحدة جامعة .

من الامور الاخرى التي يتوقف عندها البحث في المؤتمر ، المكانة التاريخية لولاية الموصل التي تعتبر أول ولاية عربية تدخل نطاق الامبراطورية العثمانية ، وانها آخر ولاية تخرج عن ذلك النطاق . كما ووضح البحث الحالة التي عاشها المجتمع العربي في القرن الثامن عشر في ظل انحسار السلطة المركزية العثمانية عنه ، بظهور الحكومات المحلية ، وتبلور المؤسسات الاقليمية - العربية .. انه الموضوع الذي يعالجه الباحث بالتفصيل في فصول متنوعة يحتويها كتابه الموسوم : (بقايا وجذور) . ومن هنا ينفرد البحث بتناول موضوع الحكم الجليلي للموصل ، وعلاقته مع ولايات المشرق العربي . ثم الاوضاع الفكرية والثقافية التي تميزت بها الموصل في ظله والتي وضح من خلالها : بوادر كل من النزعتين العربيتين المحدثتين : النزعة الدينية - الاصلاحية والنزعة الثقافية - السياسية العربية . كما اوضح البحث التراكيب الاجتماعية التي تميزت بها مدينة الموصل ومقارنتها بغيرها .. اضافة الى توضيح دور النقابات الشغيلة وتطورها في العهد الجليلي ، وتقديم الحرف والصناعات المحلية التي اشتهرت بها الموصل كمدينة تجارية - شرقية - من الطراز الاول . انها تتصل بكافة اتجاهات العالم في شرقه وغربه من خلال المسالك التجارية البرية والنهرية ، الافقية والعمودية .. وذلك منذ التاريخ القديم حتى فتح قناة

السويس سنة 1869 . فكان لها علاقاتها القوية مع طرفين أساسيين : استانبول كمركز للامبراطورية العثمانية . اما الطرف الآخر فكان الولايات العربية المهمة في المنطقة العربية والتي تحيط بها من جميع الاطراف . وقد خرج الباحث باستنتاجات تاريخية عديدة بما يفيد وطبيعة الحياة الاجتماعية للعرب خلال الفترات العثمانية .

5 - بلدة حيفا ، التي اختارها د. محمد عدنان البخيت كنموذج تاريخي في دراسته عن سجلات المحاكم الشرعية ببلاد الشام . كانت المعلومات التاريخية بهذا الخصوص جديدة ومثيرة للمزيد من التساؤلات والدراسات ، فقد اعلنا د. البخيت عن أماكن وجود تلك السجلات الشرعية : القدس ، حماه ، حلب ، دمشق ، نابلس ، طرابلس ، الشام ، الخليل ، يافا ، حيفا ، السلط ، اربد ، الكرك ، طبريا ، الناصرة ، معان ، العقبة ، الطفيلة ، حنين ، بيت لحم ، اريحا . انها سجلات تختص بالاوقاف والبلديات والاديرة وقيود الامن العام وعلى الاخص قوات البادية . اى انها من اثنى المواد الوثائقية عن الحياة الاجتماعية العربية لكل من بلديات الاردن وفلسطين خلال العهد العثماني . ونجحت الدراسة المنهجية في ابراز نموذج حيفا كقضاء تابع للواء عكا كعمالة تابعة بدورها الى ولاية بيروت . كان قضاء حيفا متألفا من مديرتين : قيسارية وشفا عمرو ووضحت السجلات ان حيفا احتوت على 63 قرية سكانية أغلب قاطنيها من العرب المسلمين الذين يشاركونهم العيش النصارى واليهود . والمدينة تتألف من محلات التي تشكلها حارات عديدة .. كما ان هناك معلومات عن الاسواق والازقة وفواصل الطرق ، اضافة الى اسماء الجوامع والكنائس وكنيس لليهود . اما الجالية الاوربية ، فكان ابرز عناصرها التجمع الالماني ، اضافة الى وجود انكليز واسبان وفرنسيين وامريكان .. ونفهم ايضا بأن مدينة حيفا كانت مركز استقطاب جاذب للهجرة بسبب موقعها الجغرافي والاستراتيجي على البحر المتوسط والمسالك البرية المرتبطة بها نحو عمق الداخل ، فقد استحوذت على هجرة هنود ، وانها استقبلت يهود كل من ازمير التركية والمغرب البعيد .

اما بخصوص التشكيلة الادارية كجزء من مقومات وعناصر الحياة الاجتماعية، فانها تتألف من : القائمقام ونائب القاضي والباشكاتب والمحضر .. كما تشير الوثائق المستخدمة الى مجلس بلدى . اما المجلس الادارى فيتكون فى عضويته من ستة اعضاء يعينون من العناصر المحلية . اما المحلات والحارات فتربط بالسلطة من خلال المخاتير سواء كانوا من المسلمين أم المسيحيين أم اليهود .. اما الريف الذى تكونه (62) قرية ، فالسجلات الوثائقية قد اطلعتنا من خلال بحث د. البخيت على العناصر السكانية العربية المستقرة أم غير المستقرة ، يمثل الاولى النصارى والدروز ، ويتمثل الثانية العديد من العشائر العربية المتنقلة .

ان هذه السجلات توضح تفاصيل الحياة اليومية والاقتصادية والمعيشية وخصوصا الاسعار فى السوق والاوزان والعملات والمواد المستخدمة والأثاث ... الخ .

اننا توقفنا أمام بحث جديد ورصين يختتمه صاحبه بطرح سؤاله المهم قائلا : « بعد هذا التوجه لاستخدام المادة الوثائقية الشرعية .. كيف ندرس النص الشرعى كوثيقة تاريخية كما وكيفا ؟ » .

6 - اما القاهرة ، فسوف أقتصر على ذكر محاضرتين اثنتين : الاولى تختص بالظاهرة العمرانية ، ألقاها البروفيسور روبرت مونتران ، والتي تعالج مشكلة التزود بالمياه فى المدن باعتبارها احدى المتطلبات الضرورية لسكان المدن . اما الثانية ، فتختص بالحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة خلال الفترة 1517 - 1798 م . قدمها د. عبد الرحيم عبد الرحمن .

كان من الاجدى بالنسبة للاستاذ مونتران ان يقدم لنا قضية علمية مركزية تستحوذ الازهان فى طبيعة الحياة الاجتماعية لمصر العثمانية مقارنة بغيرها من الاقاليم العربية ، بدل انكبابه على مسألة محلية ، يستطيع ان يتناولها ويبحث فيها اى مختص فى الآثار العمرانية الاسلامية ، لا سيما ونحن نعرف فى الرجل مونتران رئيسا للجنة العالمية للدراسات العثمانية . ومنع هذا وذاك ، فقد أطلعنا بحثه على تساؤلات هامة منها : لماذا انشأ العثمانيون سبل المياه وعنوا بها دون المباني الاخرى ؟ وهل وقع ذلك نتيجة اغراض سياسية أم شخصية ؟ وهل يؤخذ ذلك تحت طائلة اعتبار توزيع سكان القاهرة ؟ لقد عقد الباحث مقارنة ميدانية بين سبل القاهرة واسطنبول للمياه ، من أجل التعرف بدقة على مختلف مظاهر الحياة اليومية والاجتماعية والمدنية لكل من العاصمتين التاريخيتين . وهكذا ، تبقى محاضرة مونتران هى غير ما كان متأملا عند العديد من المؤرخين ان يسمعوا منه .

اما الورقة الاخرى المتعلقة بمصر العثمانية التى قدمها د. عبد الرحيم ، فكانت دراسة لاجتماعيات محليات القاهرة على مدى يقرب من ثلاثة قرون فى تاريخها الحديث . ومن الملاحظ ، ان القاهرة غدت سوقا دولية فى تشكيلاتها الاقتصادية ، وذلك لاستقطابها كبار التجار وصغارهم برا أو بحرا عن طريق العديد من الموانئ المصرية على البحر المتوسط . وكان الباحث قد درس مجتمع القاهرة خلال العصر العثمانى من خلال وثائق المحاكم الشرعية .. يضم المجتمع فئات متعددة منها : الفئة الحاكمة المتكونة من الباشا والاوجاقات العثمانية وقاضى القضاة والماليك ، وهى فئة متميزة بمختلف تشكيلاتها عن الفئات الاخرى . وهناك فئة التجار التى يقف على رأسها (شاه بندر التجار) .. اما طوائف الحرف المختلفة التى يقف على تشكيلاتها مشايخ الحرف ، فهناك العلماء الذين يعتبرون بمثابة الزعماء للمجتمع القاهرى . وهناك فئة اليهود الذين لعبوا دورهم فى الحياة المصرية ، وكانوا سببا فى حدوث ازيمات مالية

سواء في الصيرفة ، أم المضاربات أم غش العملة . وهناك فئة العربان والاجانب . ان نقدنا لهذه الورقة ينصب عند ناحيتين : الاولى استخدام الفئة بدل الطبقة الاجتماعية كمصطلح معروف في الدراسات السوسيولوجية . الثانية قدرة استعمال المراجع الاجنبية المهمة .

5 / 3 نمط الهجرة والحركة السكانية : نموذج بيروت ونموذج صفاقس :

لقد اخترت كل من هذين النموذجين ، لكي نتوصل من خلال المقارنة التاريخية الى طبيعة الموضوع بين المشرق والمغرب العربيين ، اضافة الى ان النموذج الثاني يتحدث عن مدينة عربية من خلال الوافدين اليها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويعتني بأصولهم وتوزيعهم داخل المدينة وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية .. كان قدمه للمؤتمر د. علي الزواري . اما النموذج الاول فيعتني بالحركة السكانية والهجرة الى بيروت في القرن التاسع عشر ، وقدمه للمؤتمر د. مسعود ضاهر .

واختلفت دراسة كل من الباحثين لموضوع الهجرة والحركة السكانية باختلاف المنهج التاريخي الذي اتبعه كل منهما في ابرازه للموضوع والبحث في علله ، والخروج بالاستنتاجات منه. كانت كل من المدينتين ذات استراتيجيات اقتصادية وتجارية استقطبتا قوى سكانية متنوعة حسب نظرية القطب الدافع والقطب الجاذب كآطار منهجي في الدراسات السكانية .. وان كانت العاصمة تونس قد حالت دون ان تستقطب صفاقس مركزها السياسي اضافة الى تمتعها بالاستراتيجية - الاقتصادية ، فان بيروت غدت فيما بعد مركزا كوسموبوليتيا في المشرق العربي ، لكن ليس كما ذكر د. ضاهر « منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الآن » . بل خلال العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . وتكاد تكون العلل والاسباب مشتركة في نشوء الحركة السكانية باتجاه كل من المدينتين كعناصر دفع اساسية ولكن تتوضح الاختلافات في تلك الاسباب والمسببات على النحو التالي :

1. طبيعة العوامل البيئية والجغرافية والمناخية ، كالجفاف واليبوسة والامراض والابوثة ... وغيرها كانت اكبر فاعلية في الدفع نحو الهجرة الى صفاقس التي تعتبر ذات جاذبية اقتصادية تربط الساحل بالجنوب .

2. ان الصدمات الطائفية التي عصفت بجبل لبنان واطرافه من اللوحق كطرابلس وحاصبيا ورشيا وجبل عامل وبلبك وغيرها .. كانت من أهم الاسباب في الهجرة نحو بيروت التي اعتبرت ملجأ من اتون الصراعات الطائفية ، فازدادت فيها مختلف الجاليات والطوائف كالارمن والأتراك والاكرد والكلدان والسريان ..

3. يعتبر المركز الجغرافي لبيروت حلقة وصل سياسية واستراتيجية بين عاصمة السلطنة العثمانية وبين مصر وايلات المغرب العربي .. ولا يمكن في

هذا الصدد ان نتغافل عن الازمات الحادة سياسية كانت أم عسكرية تلك التي وقعت بين السلطان محمود الثاني وبين محمد علي في مصر .

4. ان المهاجرين الى بيروت كانوا متنوعين في انتماءاتهم القومية كالذين ذكرناهم في حين كان المهاجرون نحو صفاقس يتميزون بانتماءاتهم الجغرافية كالطرابلسيين والقراقنة والعبيد .. اضافة الى المهاجرين الذين اندمجوا في مجتمع المدينة وكانوا قد قدموا من لواحقها واطرافها الاقليمية .

5. استقطبت بيروت مجموعات كبيرة من العائلات العربية المتنوعة وخصوصا من المشرق العربي ، ومثل هذا لم نره في صفاقس ، بل كان بالنسبة الى تونس المدينة التي استقطبت عائلات عديدة من مناطق مختلفة من المغرب العربي بحكم العامل الثقافي أساسا ووجود جامع الزيتونة في قلب تونس . ونختلف مع د. مسعود ضاهر الذي يذكر أن هناك عائلات سعودية قد سكنت بيروت .. ربما يكونوا من الحجاز أو نجد .. أو أماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية ، اذ لا يمكن تسميتهم بعائلات سعودية !!

6. ان مستقبل بيروت بفعل الهجرة السكانية والتفاعل الثقافي هو غير مستقبل صفاقس التي بقيت مدينة تجارية محلية لها مواصفاتها الزراعية . في حين ازدهرت تجارة بيروت ، وازدهرت الى جانبها الانشطة الثقافية المتعددة ، وغدت مركزا حيويا في علاقته بمصر خاصة .. وبداية الهجرة المعاكسة من بيروت وبلاد الشام نحو مصر لتتعمق من خلال ذلك الصلات الحقيقية بين مصر وبلاد الشام .

7. إن كلا من المدينتين قد استقطبنا الى جانب العرب ، جاليات اجنبية عديدة خلال القرن التاسع عشر ، وكان لتلك الجاليات تأثير بالغ في ثقافة وعادات وتقاليد المجتمع العريض لكل من المشرق والمغرب العربيين .. اثر انفتاح كل من المدينتين : بيروت وصفاقس على الخارج بتأثير من الجاليات الاجنبية .. سكن بيروت عدد من الافرنسيين والانكليز والروس واليونان .. في حين سكنت جاليات طليانية ومالطية مدينة صفاقس ، اضافة الى كبار الافرنسيين .. ويؤكد صاحب البحث عن صفاقس بهجرة اليهود والنصارى اليها ، والعبيد البيض والسود .

8. لقد كان هناك اندماج شبه كامل في المجتمع العربي البيروتي من الناحية الاجتماعية والثقافية .. في حين كانت العلاقات بين الوافدين وأهل صفاقس ليست بمتوفرة ابدا ، ولكن تحكمها بعض الحواجز النفسية وخصوصا في عمليات التصاهر ، والاختلاط ، وكان العبيد البيض هم أول الذين اندمجوا في مجتمع المدينة .

9. لقد اثرت الهجرة في بدء حياة التجارة الكبرى مع أوروبا لكل من المدينتين بيروت وصفاقس ، وساعدهما في ذلك موقعهما الجغرافي الساحلي ، فاختلفتا عن مدن الداخل في علاقة الهجرة السكانية بالتجارة وازدهار الحالة الاقتصادية.

5 / 4 اقتصاديات وديموغرافية :

قدم العديد من الباحثين والمؤرخين بحوثا في اقتصاديات وديموغرافية المجتمع العربي خلال العهد العثماني ، واستقطبت بعض تلك البحوث معلومات جديدة ، وآراء علمية .. وانصب اغلبها على ولاية الشام وايلة تونس وايلة الجزائر . ومن بين تلك البحوث ، ما قدمه د. كارل باربير عن «**المدخول والمصروف في دمشق في القرن الثامن عشر**» ، وهو بحث تركّز على دراسة الثروة في الطبقات الاجتماعية التي كانت تحتويها دمشق .. مقسما صاحبه اياها الى ثلاث طبقات : طبقة الحكام وطبقة العلماء ، وطبقة العمال وصاحبى الحرف . ووضح الباحث الكيفية الاقتصادية التي تميز بها المجتمع في استقصائه للمال والثروات باعتبارها من ضروريات الحياة في نهجه وأسلوبه في الحياة .. وتعتبر هذه الحالة من جذور المواصفات التي تميز بها مجتمع الدماشقة خلال القرن الثامن عشر . ورغم ان البحث كان محاولة فحص تحليلية لهذه المسألة الهامة ، الا انها كانت بمثابة باب فتحه د. باربير لاستجلاء حالة اجتماعية واوضاع اقتصادية لمجليات دمشق .. اضافة الى كونها مقدمة تاريخية فتحت المجال لاستقصاء دور المنافع لدى طبقات المجتمع . واعتمد البحث على ثلاثة انواع من المصادر الهامة : كتب التراجم ، وكتب التاريخ ، والوثائق العثمانية . وكان من أهم مصادره : كتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» ، وكتاب «مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد» لمؤلفهما المؤرخ الشهير محمد خليل المرادى الذى أبرز أوضاع طبقة الحكام وطبقة العلماء على درجة من التوسع والإيضاح .. فى حين كان كتاب حوادث دمشق اليومية لمؤلفه أحمد البديرى الحلاق ، من أهم المصادر عن الطبقة الثالثة . ويعتبر زميلى د. باربير من أبرز المختصين بتاريخ دمشق العثمانية والذى سألته اثناء مناقشة البحث عن فقدان البحث لطبقة أخرى فى المجتمع هى طبقة الفقراء اذا كان التجار يعتبرهم فى نطاق طبقة العمال وأصحاب الحرف ؟؟ وأين يكون موقع أولئك الذين لا يجدون القوت اليومي ؟؟ ورغم ذلك ، فان المؤرخ باربير يمتلك معاومات تاريخية ممتازة بخصوص أعمال الحج ومهامه خلال الفترات العثمانية واستطاع من خلالها أن يناقش د. ثريا فاروقى فى ورقتها التى تقدمت بها عن الحج واعتمادها على وثائق تاريخية عثمانية قديمة بخصوصه ، وكانت ورقتها مثرية جدا ، ودقيقة فى معلوماتها وارقامها .. ان سلاطين آل عثمان على امتداد عمر امبراطوريتهم الطويل الذى تجاوز ستة قرون ، لم نجد ان أحدهم قد حج بيت الله الحرام ، بل كانوا يرسلون بحريمهم وكرمياتهم وزوجاتهم .. عدا السلطان عثمان الثانى 1618 - 1622 م الذى عزم على الحج ، فمنعه رجال دولته ، ثم قتل بطريقة غامضة وعمره 18 سنة .

اما د. كارل ماكس كورتيتر ، فقد قدم بحثه عن المال والمعاملات المصرفية فى ايلة الجزائر سنة 1800 ، منطلقا فيه من دراسة شخصية غريبة ظهرت على الساحة عصر ذلك ، واثرت فى مجرى تاريخ العلاقات السياسية بين الولايات

المتحدة الامريكية وبين ايالة الجزائر العثمانية خلال عهد الدايات .. تلك هي شخصية البحارة الايرلندي - الامريكي جيمس كانتارت (James Cathcart) الذي يعتبر أبرز المماليك من المسيحيين البيض يقبض عليه القراصنة الجزائريون .. ويعيش حبس الجزائر لفترة طويلة ليرقى بنفسه من عامل بسيط الى أبرز رئيس مسيحي للداي الجزائري نفسه .. يجمع أموالا باهظة بجهوده الشخصية ، ويرتقى من خلالها الى مستوى الدبلوماسية .. وتستطيع الحكومة الامريكية في آخر المطاف ان تجد حلا لمشكلة الاستيلاء على سفنها باعتمادها على اسطول بحري مسلح تكون قاعدته البحرية جزيرة متركا Minorca بقصد حماية تجارتها للفترة 1825 - 1848 م .

لقد درس الباحث الحالة الاقتصادية للمجتمع الجزائري من خلال دراسته واعتنائه بمعلوماته عن القنصل الامريكي في الجزائر واعتمادا على السجلات البحرية كوثائق أمريكية توضح ماداتها التاريخية تطور حركية المالية وديناميكية المعاملات المصرفية كما يتبع ذلك التأثير الكبير في التجارة الجزائرية لكل من عائلة البكري وعائلة بوشناق اللتين كونتا شركة يهودية لانتماء هاتين العائلتين الى الدين اليهودي . وانطلاقا ايضا من معلومات الباحث عن هذه الشركة التجارية الكبرى التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ الجزائر الحديث ، اكتشف وثائق ضافية عن شبكة المعاملات التجارية والمصرفية تضم جل العواصم الاوربية ومعظم المراكز التجارية في منطقة البحر المتوسط .

وتقدم د. خليفه الشاطر ببحثه الموسوم «اقتصاد العالم واقتصاد البازار من خلال دراسة لتونس في عهد ما قبل الاستعمار» . انطلق الباحث في تحليله للاقتصاد التونسي خلال العهد الحسيني معتمدا في ذلك على مفهومين أساسيين في دراسة التاريخ الاقتصادي : 1. مفهوم اقتصاد العالم وهو مصطلح استخدمه (بروديل = Braudel) 2. مفهوم اقتصاد البازار ، كمصطلح استخدمه (غارتز) ولاول مرة في تعريفه ببعض الاوضاع التاريخية واستيعابها وتفسيرها من خلال أدوات ووسائل علمية . ونجح الباحث في محاولته التطبيقية في كل من المفهومين اللذين استعملهما على الاقتصاد التونسي . ان مفهوم البازار هو الذي يستوعب أوضاع المدن التونسية للفروق التي بينها وبين القرى والارياف . نظرا للاسواق الكبيرة التي تندفع من خلالها المنتوجات الصناعية وبواسطة النشاطات التجارية .. ويمتاز اقتصاد البازار بتنظيمه الخاص ووسائله التقنية . فالتنظيم يقابل القانون العرفي المنظم للصناعة . اما الوسائل التقنية فهي التي تقابل النشاط الحرفي المسيطر .. اما طرق عمله فهي التي تقابل الوضعية الصناعية للتجار الذين يبيعون منتوجاتهم . ان اقتصاد البازار كنمط انتاج وبيع وتوزيع له تعريفه الموضوعي الخاص الذي يختلف في جملته عن اقتصاد العالم . ان اقتصاد العالم له ميزاته ، التي من أهمها المجال المسيطر .. فسؤال الباحث هو : هل كانت البلاد التونسية خاضعة لمجال (اقتصاد - عالم) تسيطر عليه لندن التي اصبحت المحور منذ

أواخر القرن الثامن عشر حسب نظرية بروديل ؟؟ وتجيب الدراسة عن ذلك من خلال إبراز طبيعة العلاقات التجارية التونسية في القرن التاسع عشر ، فتتوضح مكانة تونس الاقتصادية في انتمائها الى مجال اقتصادي تهيمن عليه القوى الاقتصادية الاوربية .. في حين ان تونس تنتمي كذلك الى مجال عثماني سياسي واقتصادي .

واقدم د. بيتر سلاكليت ورقته المعنونة بـ «حيازة الارض في سوريا الكبرى في القرن التاسع عشر : بعض الملاحظات الاولى» ، ورغم المعلومات المشوشة التي قدمها هذا الباحث وخرج بنتائج واحكام خاطئة !! فان السبب في ذلك كما جاء على لسانه قائلا : « في الحقيقة ، نظرا لدرجة التغير المحلي ، لا يمكننا فهم هذه الظاهرة الا بالاعتماد على دراسات محلية معمقة . ونواجه مشكلة في هذا الاطار بحيث نلاحظ انه باستثناء الارشيف العثماني وارشيف المحاكم الشرعية الذي لم أتمكن من الاستفادة منه ، فان وثائق القنصليات الاوربية محدودة العدد والكثافة بعد سنة 1870 » . ان موضوعا هاما كهذا لا يمكن بحثه ودراسته الا من خلال الاطلاع على الوثائق المحلية والعثمانية .. اما اذا لم يتمكن الباحث من الاطلاع عليها فينوجب عليه الا يغامر في مؤتمر دولي بورقة يطلق عليها « بعض الملاحظات الاولى » . انه لو تقدم بورقة بحث عن العراق الحديث الذي يعتبر مجال تخصصه ، لكان ذلك أفضل له من ذلك الخلط في المعلومات، والخطاء في الفحص والتحليل التاريخي وتوزيعه للاحكام !

أما في الديموغرافية ، فان البحث الذي تقدم به د. خليل ساحلي أوغلسو والموسوم : « نسبة سكان المدن الى سكان الريف في القطر السوري » ، فيعتبر من البحوث الممتازة والمتعبة والمتميزة بدقة المعلومات . وهو بحث وحيد قدم الى المؤتمر في الديموغرافية التاريخية . وتكمن أهمية بحث د. ساحلي ، انه حصيلة استقصاء لقراءة (20) دفترا من دفاتر الطابو للبلاد السورية المتكونة من : دمشق وحلب وحماه وحمص وطرابلس والقدس . كما قدم البحث مجموعة من الجداول التي تثبت المعلومات بالارقام . وكنا نأمل لو تغير عنوان البحث ليشمل منطقة شمال العراق والموصل باعتبار ان البحث يحتوي على معلومات ديموغرافية وارقام تخصها .

5 / 5 عنصر الثقافة : التدخل الاوربي ، العثمانية والاصلاحية الاجتماعية :

حول هذا الموضوع الحيوي ، قدمت ورقتان في أعمال المؤتمر .. كانت الاولى من قبل د. ليل فواز بعنوان : «ثقافتان : بيروت في عهد التدخل الاوربي» ، وقد أوضحت من خلالها طبيعة العناصر الثقافية ومؤثراتها في منطقة البحر المتوسط .. وكيف كان وجه التلاقى بين كل من الثقافة التقليدية في مجتمع هذه المنطقة التي كانت بيروت نموذجها في البحث ، وبين الثقافة الجديدة الوافدة . ونختلف مع د. فواز في وصفها العناصر الثقافية العربية بأنها أدت الى الخلافات والنزاعات في تلك المنطقة عبر القرون . ان هذا الحكم قاصر لانه

لم يسعف بأي دليل أو برهان !! وتستطرد في موضوعها مؤكدة ، بازدياد الصراعات حدة اثر مناداة النخبة المتأثرة بالافكار الغربية لكل من الولايات المتحدة وأوروبا بنماذجها التي يتوجب تطبيقها في الحياة اليومية ، اضافة الى أسلوب التفكير .. في حين استمر ارتباط معظم السكان بالتقاليد الشرقية وبالثقافة المحلية .. وظهر كل ذلك في بيروت التي غدت أكثر مدينة نموا وحركة في شرق البحر المتوسط . ونختلف مرة أخرى مع د. فواز في ذكرها (الولايات المتحدة) التي لم تدخل باثارها الثقافية المنطقة الا خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية بشكل سافر وفصا . اما تأثيرات الثقافة الغربية لما قبل الحرب الاولى وبعدها على المنطقة ، فقد استحوذته أوروبا اما ان كان قصد الباحثة نموذج بيروت . فهي محقة اذ استتبع تأسيس الجامعة الامريكية فيها تأثير كبير على بيروت بشكل خاص .. وعلى أولئك الذين تخرجوا فيها خلال السنوات الاولى من حياتها . لقد تعرضت الباحثة ايضا ، للتطور الحضارى في اثره على طبقة الحياة الاجتماعية وذلك على مستويين : تركيب الطبقة الوسطى المتحركة المتصاعدة اجتماعيا باتجاه التعليم والثقافة الغربية .. وخصوصا أبناء هذه الطبقة . وعلى المستوى الثاني ، اعتماد الهجرة والنزوح أساسا في النمو الحضري السريع ، وليس على أساس التطور الطبيعي البطيء . وهكذا أدى استفحال أمر تدخل الثقافة الغربية الى خلق فراغ بين مناطق التسرب كبيروت التي احتوت على نخبة متأثرة بالغرب ، وبين مناطق قروية إشتدت روابطها التقليدية رسوخا .. وقاد ذلك الى المواجهة السياسية . وتدافع الباحثة عن اشكالية التسرب الاوربي بحيث تخرج بنتائج ، تقول احداها ان التسرب في الشرق الاوسط له اثره العميق في استقرار المنطقة .. كما وأوضحت ان المتأثرين بالغرب واجهوا مشكلة التفريق بين الثقافة الغربية والشخصية الغربية في وجودهم السياسى .. وقاد ذلك التقسيم بين باقى السكان الى عواقب سياسية .. كانت بيروت هي ساحته الاولى .

وقدم د. قيصر فرح ورقة بحث أخرى تقع في مجال العناصر الثقافية تحت عنوان «آراء تقيمية في التآلف العثماني والإصلاح الاجتماعي» أكد فيه على دور المهاجرين السوريين في كل من الاسكندرية والقاهرة في الانشطة الثقافية ، وخصوصا أولئك الذين دعموا الروابط العربية العثمانية بواسطة الاصلاحية من أجل ايقاظ البيئة على روح تقدمية . وكان دورهم خطيرا في تحقيقه رغم انهم لم يكتب لهم النجاح .. لكنهم بقوا من رواد الفكرة الاصلاحية حتى زوال الامبراطورية العثمانية .

ركز البحث على نشاط بعض منهم .. أولئك الذين اخلصوا للفكرة العثمانية باعتبارها عاملا فعلا وباعثا على النهضة من خلال التحالف القسوى بين العثمانيين والعرب ، وكان من بينهم رفيق العظم وحقي العظم وفرح انطون واديب اسحق وشبلى شميل .. رغم ان انشطتهم في التعبير والكتابة والافكار كانت ثورية على مظاهر التفكير التقليدى السائد عصر ذاك . استطاع الباحث

ان يسرد البعض من آرائهم في الاستبداد ، اضافة الى مبادئ الحرية والمساواة والعدالة ، والحكم الذاتى واللامركزية .. ومناداتهم بقيام السلطنة العثمانية على أساس شورى وليس على أساس الحكم المطلق . كان فرح انطون ينادى من خلال جريدته باصلاح المجتمع العثماني على أساس العدالة وباسلوب التحالف القوى بين اعضاء الامة. اما حقي العظم فقد كتب تأليف عديدة ضد سياسة السلطان عبد الحميد الثانى .. كما ساهم مع زملائه أمثال : محمد رشيد رضا وعبد الحميد الزهراوى بتأسيس جمعية الشورى العثمانية الدستورية السرية للنضال ضد سياسة الدولة المخيبة لآمال الاحرار .. ونادى بتنفيذ اللامركزية وتآلف العرب والأتراك من أجل بناء قوة جديدة تستطيع الدولة الاعتماد عليهما .. ولم يوفقا فى اقناع رجال جمعية الاتحاد والترقى بقبول النظام الجديد ، فآخذا يناهضان سياسة الجمعية ، ويكشفان خفاياها وعللها . وقد رفضا مظاهر التفرنج وخصال الغربيين وتقليد أساليبهم ، ولكنهما دعا الى المساواة المطلقة واحلال روح الديمقراطية الصحيحة . اما اديب اسحق ، فهو شخصية أخرى نادت بالجامعة العثمانية بالرغم من مساوئ الادارة العثمانية ، اذ رأى فيها الرعوية الشاملة لمختلف العناصر والطوائف مؤكدا انها القوة الوحيدة الجامعة لمختلف العناصر التى تستطيع الصمود امام الاستعمار الغربى.

من سلبيات الموضوع التى أراها - من وجهة نظرى - ان الباحث عندما تحدث عن أفكار رفيق العظم فى التآلف ، ذكر ذلك بقوله : « العرب والعثمانيين » فى حين عليه ان يذكر بدل ذلك « العرب والأتراك » فى أمة « عثمانية » . ثانيا : اعتمد الباحث على أفكار المهاجرين السوريين الى مصر فقط ، فى حين قلل من أهمية أفكار غيرهم من أصحاب الائتلاف العثماني والاصلاحية الاجتماعية كولى الدين يكن وغيره .

6 / تصويبات علمية :

١. ذكر د. التونجى فى مقالته للمؤتمر «التفاعل الاجتماعى فى ولاية حلب بين العرب والعثمانيين» ، بأن مدينة حلب هى اول مدينة عربية عبرها العثمانيون فى زحفهم نحو الوطن العربى . والصحيح ان الموصل وشمال العراق من أول المناطق العربية التى سبقت حلب فى السقوط بالمجال العثماني . ذكر أيضا بأن السلطان سليم هو الذى فتح بغداد ، والصحيح ان السلطان سليمان القانوني هو الفاتح العثماني الاول لبغداد .

2. أطلق البعض من الباحثين اثناء لقاء البحوث والمناقشات لقب أو تسمية «الخليفة» أو «الخلفاء» على السلاطين العثمانيين . وهذا خطأ فادح لم يزل يتبعه ويستعمله العدد الكبير من المستشرقين والمؤرخين العرب وحتى المتخصصين منهم فى التاريخ الحديث . ان الامبراطورية العثمانية هى دولة سلطنة ، ولم تكن فى يوم من الايام دولة خلافة اسلامية ، كما هو شائع ومتواتر خطأ . لقد انتهت الخلافة الاسلامية بانتهاء آخر خليفة عباسى فى الظل عندما

كان يعيش في ظل المماليك الذين قضى عليه وعليهم السلطان سليم الاول سنة 1517 أثناء سيطرته على القاهرة .

3. انبرى الاستاذ منظم المؤتمر د. عبد الجليل التميمي أثناء ادارته لجلسات مناقشات ابحاث المؤتمر ودراساته .. انبرى بتدخله النقدي اللاذع حول نقطة هامة لم تزل تثير اشكاليات عديدة عند المؤرخين العرب والاجانب . وفي معرض تدخله على اجابة د. فرانسوا ارنولى في بحثه عن «الطبقة العسكرية في عهد المراديين وفي بداية العهد الحسيني» ، وعندما وصف الاخير الوجود العثماني في تونس بـ «الاحتلال» . اجابه د. التميمي قائلا : «خطأ فاحش هو استعمال مصطلح «احتلال» في اطلاقه على الوجود العثماني بتونس . هذا المصطلح الذي يستعمله - مع الاسف - الباحث الفرنسي وغيره من الباحثين . اننى أطرح امكانية الاتفاق على اعادة النظر بالمصطلحات حول طاولة مستديرة . ان الوجود العثماني في المنطقة وفر مناخا من التفاعل الثقافي والحضاري » .

4. قال د. رفعت علي أبو الحاج في ورقته عن «الموصل في القرن السادس عشر : ضرائب ، تجارة ، منتوجات ومجتمع حسب قانوننا مه لر العثماني» : « يشمل المقال دراسة أولية لما ورد في لوائح الضرائب العثمانية للواء الموصل ، ويهدف الى تحليل هذه الوثائق لما فيها من معلومات عن المجتمع والاقتصاد الموصل » . هذا ما كتبه في مقدمته لبحثه ، في حين اننا لم نسلم منه كلمة (الموصل) حتى مرة واحدة . ان الخطأ هو كيفية التعامل مع قانوننا مه لر العثماني واستخدامه لما يخدم اغراض البحث المعلن به : كما ولم يستعن بالمصادر التركية في حل اشكالية الحالة الادارية للموصل .

كلمة أخيرة : لقد كان للجهود المتميزة التي بذلها الاستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي ، في تنظيمه للمؤتمر العالمي الثاني للدراسات العثمانية عن الولايات العربية .. كان لها الفضل الكبير في انجاح اعمال المؤتمر والنتائج التي خرج عنها ، بما يفيد والحياة الاكاديمية التاريخية العربية الحديثة .. اضافة الى تعزيز اهداف مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني .. وهو المركز الذي تأسس حديثا ويحتاج للمزيد من الاسناد والدعم المادي والعلمي من أجل خدمة حياتنا العربية المعاصرة من كافة الوجوه . وخلق صلة علمية بين المؤرخين العرب والاجانب .. اضافة الى تطوير البحوث التاريخية العربية عن حياة العالم العربي خلال الفترات العثمانية الطويلة .

لقد كان المؤتمر ناجحا بدرجة كبيرة ، من خلال مساهمات العديد من المؤرخين العرب والاجانب .. توقفت في تقريرى هذا على نماذج متميزة من أعمال البعض منهم . وكنا نتمنى لو شاركنا هذا المؤتمر العديد من المؤرخين العرب والاجانب الذين كتبوا في تاريخ الولايات العربية والفترات العثمانية أمثال : المؤرخ التركي خليل أونالجيك ، والمؤرخ الأمريكي ستانفورد شو ،

والمؤرخ الامريكى روبرت أولسن ، والمؤرخ الاردنى عبد الكريم غرايبه ،
والمؤرخ المغربى عبد الهادى التازى .

لقد تقرر فى نهايته ، الى ان يعقد المؤتمر العالمى الثالث للدراسات العثمانية
عن الولايات العربية فى تونس ، وذلك بعد مضى سنتين على انتهاء المؤتمر
الثانى .. كما وتقرر ان يكون موضوع المؤتمر القادم عن الحياة الثقافية للولايات
العربية خلال العهد العثمانى ... بعد ان ناقش كل من المؤتمرين السابقين كلا
من الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية .. كما وتقرر ان يصدر مركز الدراسات
والبحوث عن الولايات العربية فى العهد العثمانى ، مجلة حولية أكاديمية
تعنى بالدراسات والبحوث التى يعنىها المركز واعضاؤه .. وصودق على تسمية
مؤسسها د. التميمى لها بـ (المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية) ،
وتصدر باللغات : العربية والانجليزية والافرنسية .

ونأمل أن تتوج جهود هذا المركز بكل النجاح والسمو والتوفيق ، وكل
العاملين فيه والمشاركين والمعضدين له بالخير والارتقاء .

د. سيار الجميل

دائرة علم التاريخ - جامعة وهران - الجزائر

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com